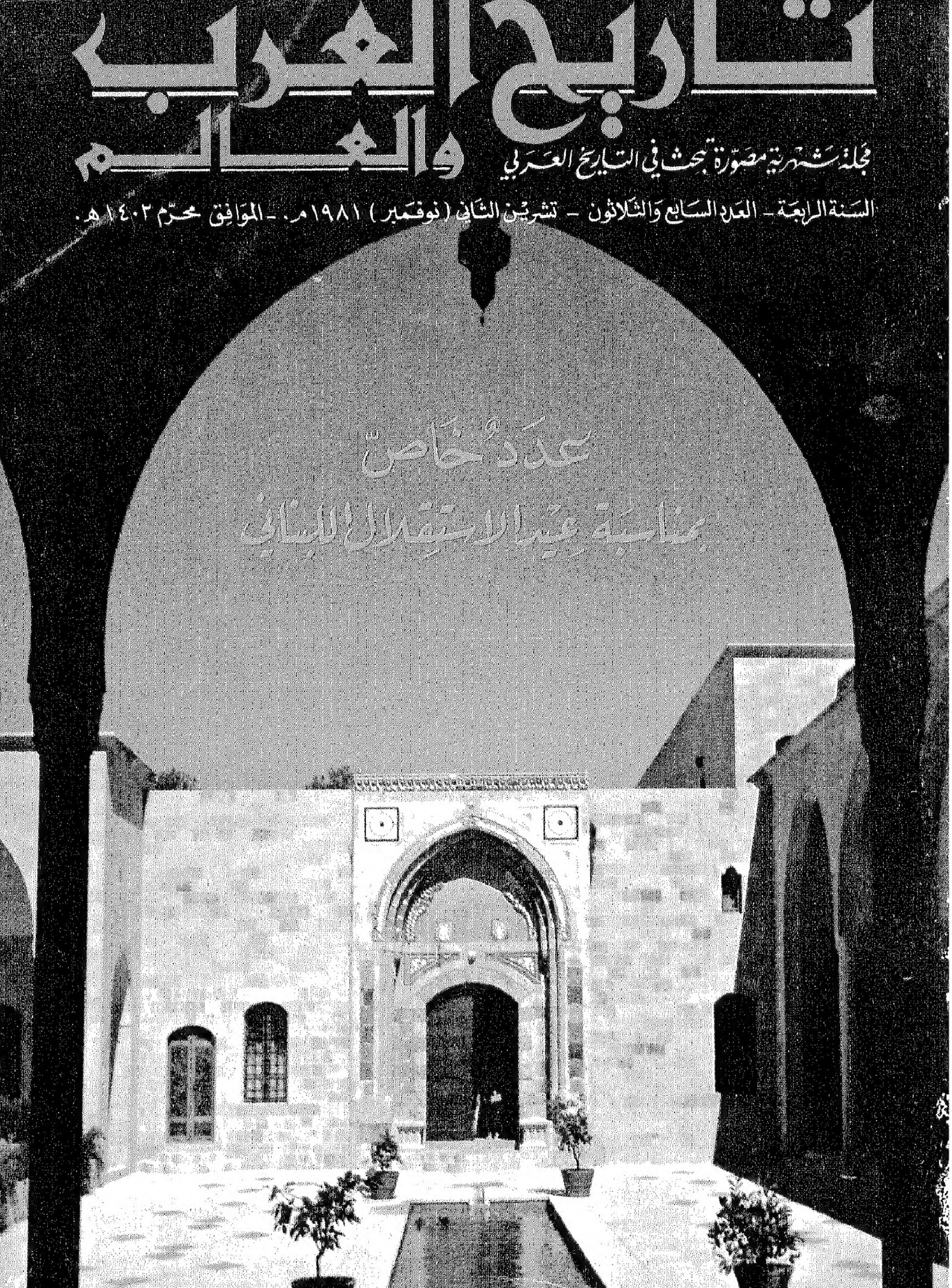


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الرابعة - العدد السابع والثلاثون - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١م. - الموافق محرّم ١٤٠٢هـ.
عددٌ خاصّ
بمناسبة عيد الاستقلال اللبناني

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تصدر مرة كل شهر

العدد ٣٧ - تشرين الثاني ١٩٨١

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

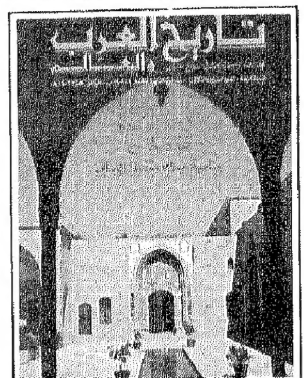
Vol. 4 No. 37 Nov. 1981

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

عدد خاص
بمناسبة ذكرى الاستقلال اللبناني



الغلاف الأول:
قصر بيت الدين

تصوير المجلس الوطني
لانماء السياحة في لبنان.

٢٢ تشرين الثاني ذكرى وعبرة

يصادف في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨١ الذكرى التاسعة والثلاثين للاستقلال اللبناني، نستعيدها هذه السنة وكلنا أمل أن تكون بداية النهاية لأزمة دامية استمرّت اكثر من سبع سنوات.

في هذه المناسبة التاريخية «لجأت» تاريخ العرب والعالم الى المؤرخين والأخصائيين تستطلعهم آراءهم وتسجّل لمحات من التاريخ في مناسبة لا تذكر الا بالصمود والانتصار. من هنا تطلعنا الدراسات المنشورة في **هذا العدد الخاص** على مراحل غنية من تاريخنا وتتوقف عند المحطات الحساسة فيها، شارحة ومُحلّلة، ودائماً متنبئة بمستقبل أفضل يتجاوز الماضي وأخطاءه، مستبشرة بالصحيح منه فقط، وأفضله برهنة اللبناني عن حبّه لوطنه وتمسّكه به وافتخاره بالانتماء اليه، خلال المحن العديدة التي عاشها، فهو اذاً لخليق ان يهزم المصاعب التي تقف بينه وبين وطن مستقل وآمن.

فلئن كان هذا العهد عهد صراع صامت وعلني، فهو أيضاً تجربة قاسية امتحن فيها اللبناني، فرداً ومجتمعاً، عاطفته وقوته وأحلامه... ولن يُنهى هذا العهد إلاّ وقد استعاد وعيه مرسياً الوفاق المنشود، ممتنّاً لكل من اسهم في صياغة السلام بين جنباته من مواطنين واشقاء عرب.

ان «تاريخ العرب والعالم» يسعدها وهي تدخل عامها الرابع ان يكون عددها الأول فيه عدداً خاصاً عن لبنان، وعن مناسبة الاستقلال بالذات، آملة ان نحتفل السنة المقبلة به عيداً جديداً، لمرحلة جديدة تؤكد لبنان وطناً مستقلاً وسيداً على أرضه كلها، ضامّاً ابناءه جميعاً في حنان الأم وحزم الأب، ليعملوا صفاً واحداً على بناء الوطن المتطور والرائد دوماً في كل الحقول.

تاريخ العرب والعالم ■



الانسان اللبناني والانماء

د. محمد عطاالله
رئيس مجلس الإنماء والإعمار

يزورنا في المجلس مرة على الأقل في الشهر طبيب من علماء الأمراض العقلية. وهو لايقوم بهذه الزيارة تنفيذاً لعقد بيننا وبينه للقيام بجولة تفحص على أفراد المجلس. كما أنه لايتفحص المجلس بمجمله رغم إمارات الجنون الظاهرة في الإقدام على إنشاء مجلس الإنماء والإعمار في هذا الزمن، ولاسيما في إقبال حفنة من الفتيات والفتيان على عملهم الإعماري بجنون واضح. بل انه يجيئنا كصديق حنون، يفيض حدباً على البلد، ويملأ قلبه الذعر على أبنائنا وأبنائه. يأتي دائماً يحمل ورقة كبيرة مطوية، وهو يقبل مقطب الجبين، عابس الوجه، مكفهر الطلة، أو يطل طلق المحيا، باسم الثغر، يكاد أن يفيض بشراً. وهكذا نقرأ ورقته في خطوط وجهه قبل أن ينشرها أمام أعيننا وهي ورقة مسطرة تسطيراً حسابياً، قد رسم عليها خطاً بيانياً، يسجل في اتجاهه الأفقي مرور الزمن بالأشهر، ويسجل في اتجاهه العامودي عدد المقبولين في مستشفى الأمراض العقلية. فإذا أشار الخط البياني إلى إرتفاع عدد المقبولين في شهر، كان الطبيب مستبشراً، متفائلاً، هاشاً، باشاً، مقبلاً وإذا أشار الخط إلى نقصان في عدد المقبولين، كان مستاءاً متشائماً، مدبراً عن كل عمل. فهو يربط بين عدد المقبولين في مستشفى الأمراض العقلية وبين أحوال البلد، فإذا أقبل الناس على دخوله،

كان اتجاه الأحوال نحو الإنفـراج والتحسن، وإذا انصرف الناس عنه، كان تطور الأحداث نحو التأزم والتشدد. وأبادر إلى التسجيل، من باب الفطنة، أن تفسير هذا الربط بين المتغيرين في ذهن الطبيب قد يكون عـائداً إلى ارتفـاع مدخول المستشفى في حال الإقبال وانخفاضه في حال الإحجام. ولكن المقلق أنه تفسير واحد بين عدة تفاسير يمكن أن تخطر في البال.

عندما يدخل اللبناني إلى المستشفى يصبح في رعاية فريق من الأطباء، يتمتع افراده بالكفاءة العلميـة والقـدرة البشـريـة ويستعملـون من الوسائل والوسائط والآلات مايخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئتهم، ويصبح بين أيديهم حفنة من التـراب ممزوجـة بكميات هـزيلة من المعـادن الرخيصة المختلفة، وصوراً مهزوزة شعاعية وغير شعاعية ومخططات أقرب في فهم المريض إلى خـربشة الـدجاج. وبعـد التشخيص الدقيق، والتخـديـر الـذي يشـل الإرادة الغـريـزيـة وكـل الأحـاسيس المـاديـة، إذا اقتضى الأمر، يخرج المريض معافى الجسد، على طريق اكتمـال الصحة والعـافية ويعلن عن رضـاه وامتنانه بطلب متزايد عـلى الخدمـات الطبية، يساعده في ذلك ارتفاع مضطـرد في الدخـل، ومعرفة متزايدة عن سن استشارية الطبيب مما يدفع أسعار الطبابة والإستشفاء إلى الارتفاع دون هوادة. وهو يسلك في هذا المسار مسلك كل النـاس في كل الأقطـار، ثم يلجـأ مثلهم إلى الشكوى من التكاليف الباهظة التي ترتبها عليه متابعة صحته وصحة من يعتمدون عليه متابعة يرضى عنها أولو العلم والحكمة. ولكي يثبت أن العقل الصحيح في الجسم الصحيح، يلجأ، كما يلجأ العقلاء في كل مكان، إلى المطالبة بالتخفيف من أعباء الطب عن كاهله، وينتظر ذلـك من الدولة. لذلك نرى إنفاق الدولة في لبنـان على الخدمات الطبية يزداد ازدياداً يفوق كل المرافق الأخرى، ويبقى، مع ذلك، مقصراً عما وصل إليه في بعض البلدان المتقدمة وغير المتقدمة، سواء بصورة نسبيـة أو بصورة مطلقـة. فقد ارتفعت اعتمادات وزارة الصحة خلال سنوات قليلة إلى مايجاوز المايـة مليون ليـرة. ونقول الاعتمـادات ولانعني بالطبع الخدمـات التي تصل المواطنين بواسطتها، فليس شأننا اليوم أن نتحدث عن كفاءة القطاع العام في أداء الخدمات للمواطنين. وفي البرنامج السنوي الـذي أعدّه المجلس للاثني عشـر شهراً المقبلة، مشـروع إنشـاء ثلاثـة مستشفيات كبـرى تسـع ألفاً وخمسمـاية سـريـر. وتشـير النتائـج الأوليـة للدراسات التي يقـوم بها المجلس أن الكلفـة الاجمالية لإنشاء المستشفيات الثلاثة وتجهيزها وإدارتها خلال عشر سنـوات يتجاوز الأربعـة آلاف مليون ليرة، تكـون خلالهـا المستشفيات عاملة مدة ست سنوات، لأن السنوات الأربع الأولى ستنقضي في الإنشاء والإعداد للتشغيل، هذا إذا لم نضف الكلفة الناشئة عن البرامج الإعدادية اللازمة لتدريب العاملين في المهارات الطبية وتخريجهم بـاعداد تكفـل بقاء العـدد اللازم منهم لإدارة المستشفيات، بعد أن تجتذب الآخـرين الأسواق العطشى لكفـاءاتهم في كل الأنحاء.

وكي لا أسترسل في حديث تغريني سهولته علي، سأسارع إلى ترك اللبناني في المستشفى، لأنه فيه بين أيد أمينة، وفي كل حال كالعجينة اللينة، يتقاذفه الأطباء والممـرضون والمحللـون والمصورون كما يشاؤون، ويفرضون عليه أصول مهنهم، فيتقبلها طائعاً، صاغراً، شاكراً. اللبناني في المستشفى إنسان مثل كل الناس، تقريباً.

ولكن ماذا عن اللبناني قبـل الدخـول إلى المستشفى وبعد الخروج منه.

ماذا عن اللبناني في مسرح الحياة.

لن نكابر ونقـول بأن اللبنـاني يختلف عن الناس في حاجاته، فهو إنسان سوي، يحتاج إلى الغـذاء الشهـي، والكسـاء الأنيق، والسكـن الكريم، كما يحتاج إلى العيش عيشة إجتماعية محترمة في ظل التعاطف الزوجي، ويسعى لتوفير الحاجات الأساسية الآنفة لأبنائه بالإضافة إلى العلم والتطبيب والترفيه.

ولكن لا مفـر لنا من المبـاهـاة إذا قسنـا اللبناني بإنجازاته.

فهو متفوق في كل مجالات السعي الانساني.

ألم يقل رجل الأعمال في إحدى البلاد التي تعتمـد في تنميتها عـلى السـاعـد الأجنبي أنه يفضل عمال الجنسيـات الأخرى على العامـل

اللبناني؟ فكل عامل يقصده يؤدي ساعات العمل المتفق عليها أو أقل بقليل، ويستحق أجره المرتفع نسبياً أو أقل بقليل، إلاّ العامل اللبناني فهو واحد من اثنين: إما أن يعطي ساعات العمل المتفق عليها، ويعمل ضعفها لمندوب عمل آخر، فيمرض، ولا يستطيع الاستمرار، فيترك العمل ويعود إلى بلده. وإما أن تساعده بنيته على استنباط كل الطاقات الكامنة فيه، ويحالفه النجاح، فيشارك رب العمل أو ينتزع الملك منه.

ولقد استطاع اللبناني أن يستنبط الخيرات الكثيرة من أراضيه، التي لم يشتهر عنها اتساع الرقعة ولا الخصوبة الفائقة أو الارتواء الكافي من الموارد المائية المهدورة، بأساليب ووسائط ما زالت بعد التقدم الملحوظ في استعمال المكننة الزراعية بدائية، أو تكاد، إذا قيست بالوسائط التي يعرفها العالم المتقدم.

كما استطاع أن يقيم المصانع، وينتج مصنوعات مقبولة في الأسواق العربية، وغيرها من الأسواق، رغم حرمانه من المقومات الأساسية التقليدية للإنتاج الصناعي بالمعنى المألوف، فالطبيعة لم تمنحه المواد الطبيعية، كما لم تمنحه مصادر الطاقة الرخيصة، سوقه ضيق لا يساعد على تحقيق الفوائد من الإنتاج الكبير الذي يخفض الكلفة، ويساعد على المنافسة في الأسواق الخارجية.

واستطاع أن يستثمر موارده السياحية إلى حد ما، فكان المنتجع الصيفي الأول في المنطقة. ثم استطاع أن يجتذب الناس إلى شطآنه وثلوجه وإلى آثاره، ولا سيما إلى حسن ضيافته.

واستطاع اللبناني، بانفتاحه، أن يجعل بلده مورداً من موارد العلم الأساسية لمنطقة كبيرة من الشرق ولمعظم البلاد العربية.

كما تمكن من أن يكيف أذواق المستهلكين في كثير من الأسواق المجاورة، وأصبح الحكم فيما تشتريه هذه الأسواق من البضائع من أي مصدر أتت، وكأنه المختبر الدقيق لهذا السوق الشاسع الذي تتنامى قدراته الشرائية مع ازدياد عدد السكان المستمر، والارتفاع الخرافي في المداخل بسبب الثروات الطبيعية المكتشفة والتي لا ينقطع اكتشافها.

واستطاع على الخصوص، أن يمد الدنيا كلها، بدءا بمن حوله، بالقدرات البشرية على اختلاف كفاءاتها. فكان هذا البند بين مصدراته أنفسها. وفيما أصبح العالم النامي يشخص بين أهم العراقيل لتقدمه «هجرة الأدمغة»، كان لبنان يستمر في تصدير هذا البند الذي يعود عليه بالمردود الكبير بواسطة مباشرة أو غير مباشرة، ويعتبر التفسير الواحد الأهم للفائض المزمن في ميزان المدفوعات اللبناني رغم العجز المزمن في الميزان التجاري.

وأصبح اللبناني، حديثاً، العنصر الأبرز في القطاع المصرفي، ولا سيما التجاري، في كل المنطقة العربية التي تزخر بالموارد النقدية. وحقق ذلك بالامتياز الفردي، وبنجاحه في إقامة المؤسسات القادرة على تصريف الشؤون النقدية في جو تشريعي ملائم.

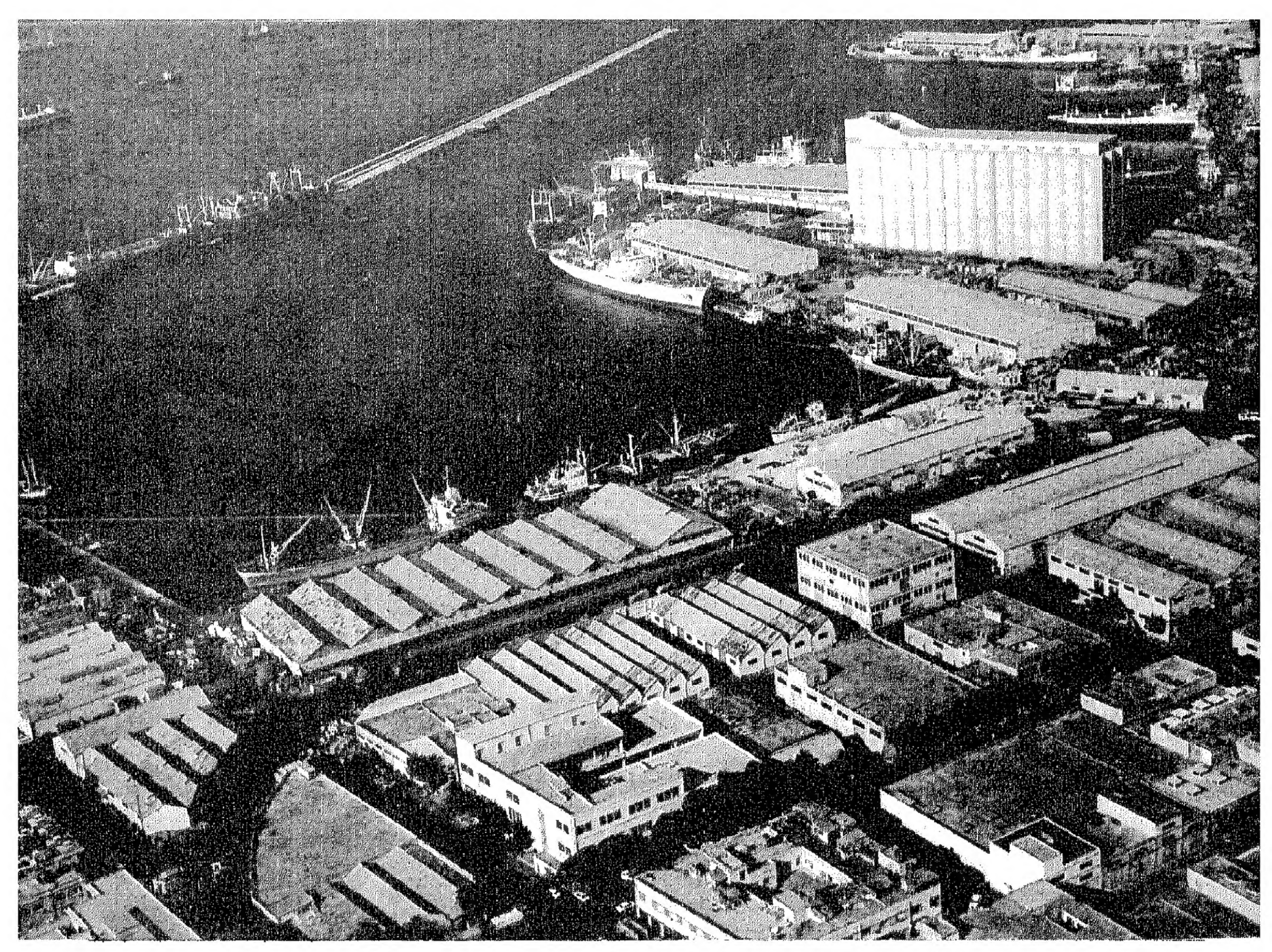
و نتج عن ذلك كله أن أصبح لبنان مركزاً لنسبة عالية من تجارة المنطقة، ومفصلاً رئيسياً للنقليات في هذه البقعة من العالم، وبينها وبين المناطق الأخرى، كما تهيأت له كل الأسباب ليصبح الباب الضيق الفاعل لأهم عملية بشرية مخططة في التاريخ، أعني عملية انتقال التكنولوجيا من البلدان المتقدمة إلى البلدان النامية.

وعنى تفوق اللبناني وإنجازاته حياة مهنية وعملية ناجحة لنسبة كبيرة من الناس، ودخلاً فردياً وسطياً لا تبرره الموارد الطبيعية الشحيحة المتاحة في البلد، كما عنى تألقاً خاصاً بلبنان في منطقته وفي العالم.

نجح اللبناني نجاحاً باهراً في تدبير أموره الخاصة.

ولكن اللبنانيين فشلوا فشلاً ذريعاً في إدارة شؤونهم المشتركة.

كان رئيس لبنان الأول في عهد الاستقلال يقول ان الحكم في لبنان عملية تتولاها نقابات عديدة أضعفها الدولة اللبنانية. وبعد ما يزيد على الثلاثين عاماً من الاستقلال، استطاع لبنان أن يحقق سبقاً من نوع فريد، فالدولة اللبنانية تُستعمل نموذجاً مدرسياً للدولة الضعيفة في كتب العلوم السياسية وشؤون الحكم في كثير من الجامعات ومعاهد التدريس العالي في العالم. وفي إحدى الدراسات الصادرة برعاية مركز



المرفأ والمطار أسهما في جعل لبنان مفصلاً رئيسياً للنقليات في منطقته.

الدراسات الدولية في جامعة هارفارد، يعالج الكاتب أمر الدولة القوية والدولة الضعيفة، فيقول:

«الدولة في العلاقات الدولية كرة بلياردو، أجزاؤها الداخلية لا تتأثر بالمؤثرات الخارجية. وهي مجموعة المؤسسات التي تتخذ القرارات لمجابهة الخصم الداخلي والخصم الخارجي. ولكن السمة الأساسية التي تحدد قدرة الدولة على تجاوز المقاومة الداخلية هي قوتها بالنسبة إلى مجتمعها. ويمكن تصور قوة الدولة بالنسبة إلى مجتمعها في سياق تدرج من الدولة الضعيفة إلى الدولة القوية، فأضعف نوع من الدول هو الدولة المحكومة كلياً بالقوى الضاغطة. فمؤسسات الحكومة المركزية تخدم مصالح خاصة بدلاً من أن تخدم الأهداف الوطنية لعامة المواطنين. ويمكن أن يعتبر لبنان قبل حرب ١٩٧٥ مثالاً لهذه الدولة الأضعف: فالوظائف والمراكز العامة مقسمة بين المسلمين والمسيحيين، والإتفاق قليل أو غير موجود حول مايمكن أن يشكل الصالح العام، أو المصلحة المشتركة للبلاد. وهذا مايؤدي إلى انحلال الدولة الكامل».

ولا يقتصر فشل اللبناني كمجتمع على إقامة الدولة المركزية التي تتمتع بالقوة الكافية للقيام بوظائفها الحيوية، بل انه فشل في إقامة الحكم البلدي، واستطاع أن يحول الخصومات الطبيعية على مستوى القرى والبلدة الصغيرة والمدينة الكبيرة إلى قوة تهدم القدرة التنفيذية الجماعية، بدلاً من أن يجعل منها طاقة للتنافس في سبيل الصالح العام.

وليتنا نستطيع أن نحتسب فشل اللبنانيين في بناء الحكم بنداً واحداً، وتقصيراً في ميدان بين

كل الميادين، إذن لأغرينا النفس بالرضى عن اللائحة الطويلة من الإنجازات في معظم الميادين الأخرى.

ولكن الدولة القادرة إن لم تبد بوضوح السبب الأساسي لكل الإنجازات الفردية، فهي الشرط البادي الوضوح للإستمرار في الإنجاز، بل للمحافظة على تلك الإنجازات. هي رابطة العقد لكل ما يحققه الفرد من أعمال، إذا انقطعت تناثرت الأعمال الفردية الكبيرة، وفقدت بريقها، وقلت قيمتها حتى في نظر أصحابها. وعبثاً يشيد اللبناني الامبراطوريات على أرض وطنه في كل مهنة وكل نشاط، انها، بلا الدولة الحافظة، تتبدد مع عصف كل ريح.

ولقد انساق اللبناني بسذاجة كبيرة، خلال معظم العقود الثلاثة الماضية، إلى أفكار خاطئة، فقد هبت معظم الرياح بعد الحرب العالمية الثانية في صالح نمو لبناني إستثنائي. فمعظم التطورات السياسية والعسكرية والاجتماعية في المنطقة كانت تساعد اللبناني على الافادة القصوى من مواهبه الخارقة في التكيّف واقتناص الفرص. فانصرف إلى زيادة المكاسب المالية وتجميع الثروة في تلك الظروف المؤاتية، وسهى عن ممارسة واجباته السياسية. وصادف هذا الإهمال العام للشأن السياسي فترة المراهقة في حياة الدولة الفتية، أي الفترة التي تحتاج فيها إلى التغذية الصحيحة والعناية الفائقة، لتستكمل بناء مؤسساتها وتبدأ في أداء وظائفها. وأدّى إهمال بناء الدولة إلى قلّة الشعور بأثرها، ومن ذلك إلى الظن بأن البحبوحة التي يحققها اللبناني إنجاز للفرد اللبناني بسبب غياب الدولة أو بالرغم عنها.

وهذا خطأ فاحش، كاد أن يكون قاتلاً.

فالواقع ان معظم النجاح الساطع الذي حققه اللبناني كان بسبب حضور الدولة بالإضافة إلى العناصر المؤاتية الأخرى، وإن معظم الفشل والنكسات التي مني بها اللبنانيون إلى أن كانت الكارثة الأخيرة، كان بسبب غياب الدولة.

فلقد كانت الدولة اللبنانية حاضرة بوظائفها منذ انتهاء الانتداب وبزوغ الاستقلال. وكانت هذه الوظائف التقليدية كافية لرعاية الجهد الفردي وحمايته. فقد خرجت الدولة من الانتداب بسلطة الهيبة والقبول من الناس الذين اعتادوا عليه. وكانت تؤدي بكفاءة نسبية دورها في الوظائف التقليدية المطلوبة منها أي: الأمن والعدالة والنظام. واستمر اللبنانيون في تلقي هذه الخدمات الأساسية دون أن يحسوا بها كثيراً، لأنهم كانوا لا يدفعون ثمنها بالكامل، أو لأنهم كانوا لاهين عن مراقبتها بملاحقة شؤون حياتهم وجني الرزق الذي تأتي به الرياح المؤاتية. ولأنهم لهوا عنها، أي لهوا عن الشأن العام، تدهورت مؤسسات الدولة وقلت كفاءتها نسبياً في تأمين الأمن والعدالة والنظام، رغم تكاثر عدد رجال الأمن والقضاة والمؤسسات التي تنتظم الأفراد، وظهر هذا التكاثر كأنه ورم بدل أن يكون نمواً طبيعياً.

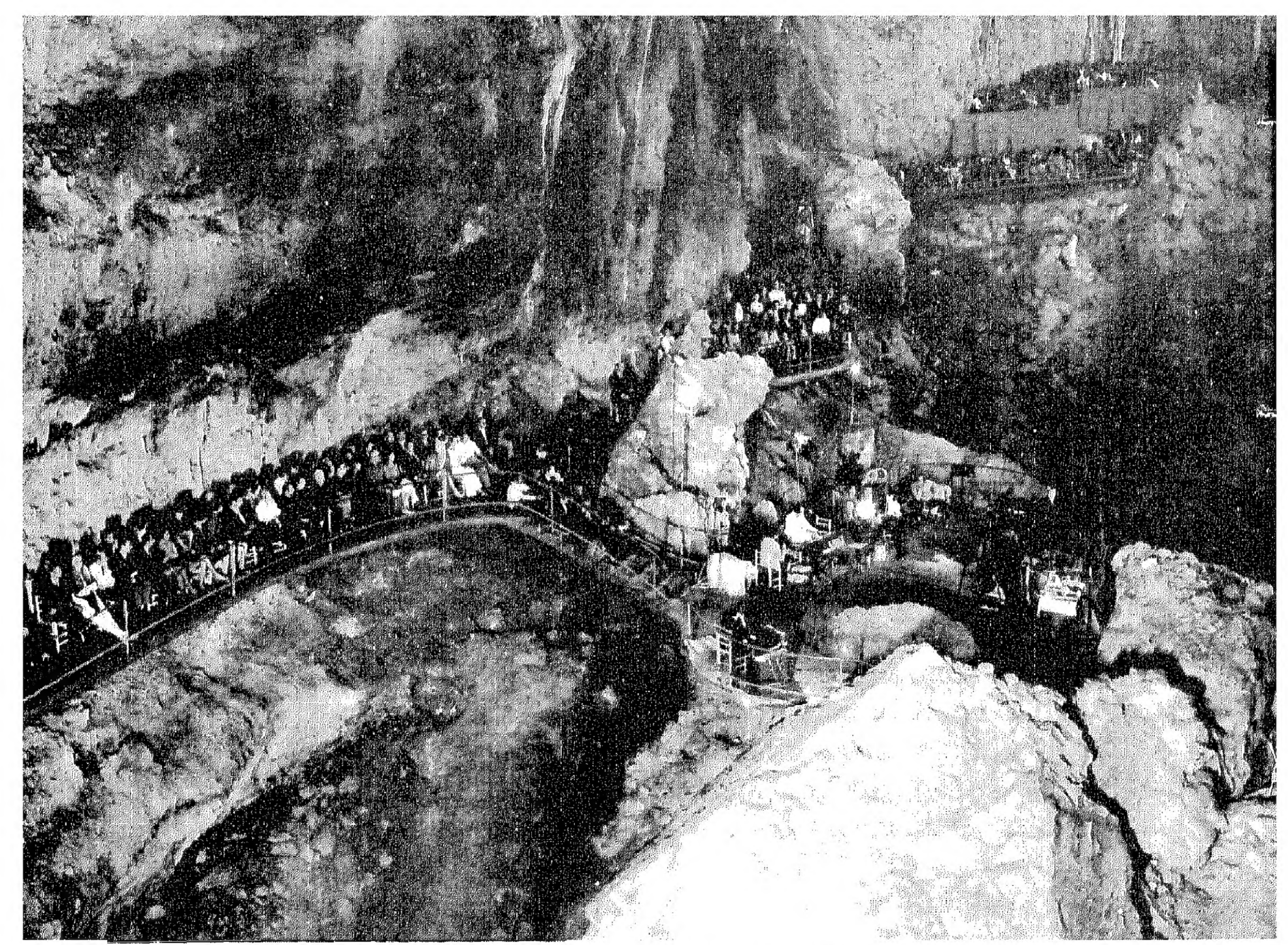
وقصور الدولة عن النمو الطبيعي في أداء وظائفها التقليدية، منعها من إعداد نفسها للقيام بالوظائف الحديثة للدولة، وجعل ممارستها لهذه الوظائف الجديدة مبعثرة، خجلة إعتذارية. فالأمن لم يعد الأمن المتعارف عليه فحسب، بل الأمن الاجتماعي أيضاً، والعدالة أصبحت إقتصادية فوق أنها قضائية، والنظام أصبح يشمل العناية بشؤون الشباب والمرأة.

وبدل أن يهتم اللبنانيون في إغاثة دولتهم والعناية بها ومدها بالدم الجديد، وتمكينها من تجاوز التقصير في وظائفها التقليدية، وتأمين الوسائل لتسنمها الوظائف الجديدة، راعهم هزالها وضعفها فأهملوها، بل زادوا في إضعافها بالتجرّؤ عليها، حتى جاءت ساعة الحاجة الكبرى إليها، فافتقدوها ولم يجدوها.

هل يعني فشل اللبناني في بناء الدولة عجزاً مخلوقاً فيه يكاد يكون جزءاً من طبيعته؟.

نذكر هذا السؤال لنصرفه نهائياً، فقد أثبت اللبناني أينما حل أنه مواطن مجتمعي، بل بنّاء قادر على المشاركة في إقامة الدولة في مجتمعات لم يبعد عهده فيها.

أو انه رزح طويلاً تحت حكم الأجنبي فتساوى الحكم وأداته في وعيه الباطن مع الطغيان أم ان اللبنانيين في الأصل مجموعة لاجئين توارثوا عضوياً النفور من السلطة في بلدان المنشأ، فأصبحوا غير قادرين على قبول



امسية موسيقية في مغارة جعيتا: استغلال جيد للموارد السياحية.

نظام الحكم ديمقراطياً كان أم غير ديمقراطي؟ ولكن ماذا نقول في هذه الحال عن الشعوب التي تكوّن الولايات المتحدة الأميركية، وربما كانت أقوى الدول، أو الشعوب التي تكوّن أوستراليا وهي بين أقوى الدول؟.

أو أن اللبناني المسيحي والمسلم، المطعّم واحده بالإسلام بقدر ما هو مطعّم الآخر بالمسيحية، انسابت في وعيه وباطنه آثار الحضارات والديانات والمذاهب المختلفة على مر العصور، حتى أصبح أجزاء متناثرة لم يفلح فالح بعد في نظمها ضمن فسيفساء متكاملة؟.

أسئلة كثيرة أتركها بين أيديكم.

وانتقل إلى هاجس وفكرة. ففي أوائل السبعينات كدت أعتقد أن حل مشكلة اللبناني مع الدولة يكمن في تكبيده ثمنها، أي بالإصلاح الضريبي الذي يحصّل للدولة حصتها المشروعة من دخل الفرد كما يتم ذلك في معظم الدول التي تتخلف عنا أو تسبقنا في طريق التقدم. وكنت أظن أن اتضاع الحد الذي تصل إليه حصة الدولة في دخل الفرد، أي حصة الشريك في الربع أو في الثلث يؤدي إلى تنبيه اللبناني إلى حقه في اختيار الشريك وفق الشروط التي تؤمن حسن الأداء والكفاءة في تقدم الخدمات، أي الممارسة الجدية لحق المواطن الديمقراطي في الاختيار والرقابة، والثواب والعقاب، وهي الممارسة التي تضمن اللياقة الدائمة في الدولة.

ولكنكم ترون إلى أية حلقة مفرغة يوصل هذا الهاجس.

أما الفكرة فتتعلق بالرفض الطبيعي لدى اللبناني للطغيان. فالدولة القوية التي فشل اللبناني في بنائها ليست الدولة الطاغية، كما ان الدولة الضعيفة لا تعني بالضرورة الدولة المتسامحة، وقد يكون العكس هو الصحيح. فالدولة القادرة هي التي تقوم بوظائفها الكاملة

في الأمن والعدالة والنظام وتقديم الخدمات الاجتماعية وتأمين العدالة الاقتصادية، وتنظيم المواطنين بجنسيهم وأعمارهم المختلفة في مؤسسات فاعلة. وهي بحكم قدرتها على مجتمعها أقدر على خلق الجو المتسامح الحر الذي تتفتح فيه الطاقات وتنضج وتزدهر، كما تتفتح فيه المبادرة الفردية وتنتج، باطمئنان على اليوم والغد.

وفي رأينا أن هذه الدولة هي التي تلائم طبع اللبناني النافر من الطغيان.

وهذه الدولة هي أداة الانماء في إطار الاقتصاد اللبناني.

فهي التي تستطيع أن تنقل لبنان من نمط النمو الذي عاشه، والذي يعتمد على اقتناص الفرص مع هدر كبير للموارد، إلى نمط الانماء الارادي الذي يستهدف التعظيم الأقصى للمردود على كل عناصر الإنتاج المتاحة، بما فيها الفرص، وتأمين حمايته الداخلية المستمرة، لأنها في عملية التعبئة للموارد الوطنية، البشرية وغيرها، تستطيع أن تجابه الضغط الفئوي وتوجه سلوك الأفراد والمؤسسات في طريق الإنماء، وتساعد على خلق المؤسسات الجديدة الملائمة، كما تستطيع، إذا أرادت، تسريع التغيير في التركيب الأساسي للمجتمع.

وهو الدور الذي يطلبه اللبنانيون كلهم من الدولة، من اتحادات العمال، إلى جمعيات أرباب العمل والمالكين، إلى التنظيمات التي تمثل المستهلك والمستأجر وأهل الطلاب.

ماذا يعني التعظيم الأقصى للمردود على كل عناصر الإنتاج المتاحة؟.

سنفسر هذا النمط للإنماء تحت عناوين ثلاثة: الموارد البشرية، الموارد الطبيعية، رأس المال.

ونبدأ بالموارد البشرية، لأنها كانت الموارد الأثمن في نمو لبنان، وهي مرشحة لأن تبقى كذلك في عملية الإنماء. وعلى الرغم من أن الحس الوطني متنبه إلى أهمية الموارد ودورها، فإن الافادة منها عشوائية مع ماينتج عن ذلك من هدر، ومعظم الطاقات البشرية مازالت في الإمكان لا الفعل رغم الانجازات التي حققتها لنفسها وللبلد. ويبدو الهدر بأجلى مظاهره في مجالين: الشباب والمرأة. فالتعليم بشكل عام، كاد أن يصبح موبوءاً بأمراض التعليم في البلدان المتخلفة التي تتجه إلى إنتاج أعداد كبيرة من حملة الشهادات التي لا تمثل خبرات أكيدة ولا كفاءات مطلوبة. والهدر هنا يتمثل في تجميد خامات إنسانية ممتازة وتقديدها في القالب. يسمى هذا في الاقتصاد «الرأسمال الغارق»، أي الرأسمال الذي وظف في آلة معينة أو بناء محدد ثم تثبت قلة جدوى الآلة أو عدم منفعة البناء، فتبقى الآلة والبناء شاهداً على التفريط بالموارد الخام الممتازة. ويزيد من خطورة التلاشي في الإهتمام بهذا الأمر أن المرتبة التي وصل إليها لبنان في التقدم العلمي بالإضافة إلى وضعه الجغرافي والثقافي، تجعله قادراً على لعب دور يحتاج إلى بطل، في هذه الفترة التي يتعاظم فيها الاهتمام بنقل التكنولوجيا، وينتظم في مؤسسات دولية وإقليمية وثنائية، تدعمها صناديق مالية ضخمة. ولعل أبرز مايمثل الهدر في الموارد البشرية الثمينة هو حاجة لبنان الماسة إلى التخصصات الفنية الرفيعة، وعدم قدرته على استيعاب أصحابها عند تخريجهم، أو استيعابهم بطريقة غير لائقة. إن معالجة هذا الأمر لا تتم بالإعتماد على شغف المواطنين بتعليم أولادهم واستعدادهم لأقسى التضحيات من أجل ذلك، بل أن هذا الميل لديهم هو الذي يستدعي توجيهاً قبل التخصص وبعده، لأن الاستسلام إلى قواعد العرض والطلب والاعتماد على حاسة السوق لدى اللبنانيين، لا يكفيان في الوصول بالموارد البشرية الشابة إلى أقصى طاقاتها على المردود.

وإذا أفردنا المرأة بمكان خاص بين الموارد البشرية، فلأن إسهامها في الحياة اللبنانية لا يعكس بعد نسبتها العددية بين السكان، ولأن وضع المرأة في البيت وفي العمل يجتاز مرحلة إنتقالية خطرة دون توجيه واع، وحتى تصب الطاقة النسائية الكامنة كل مواردها في حياتنا، يجب أن تهيأ لها سبل الاختيار الواعي بين الجلوس على عرش البيت بقدرة وتهيئة تتناسبان مع متطلبات البيت الحديث بما تنطوي عليه من إدارة المكان وإدارة العائلة، أو اقتحام ميدان العمل مزودة بالعدّة نفسها التي تتاح للرجل.

بطـرحنا لمشكلـة هذين القطـاعين، نطـرح مشكلة معظم اللبنانيين في هذا الوطن المتميّز حتى الآن بشباب سكانه. ولا تقتصر المعالجـة على برامج التعليم وأساليبـه ومؤسساتـه، بل تتعداها إلى المؤسسات التي تنتظم الشباب في ميادين الرياضة والثقافة والتدريب. يجب أن يكـون هدف عمليـة إنماء المـوارد البشـريـة الوصول بها إلى أقصى طاقاتها، بجهـد يعبىء مؤسسات القطاع الخاص كلها ويدعمها دعماً وافياً، وينشىء مؤسسات القطاع العام القادرة على أداء هذا الدور.

أما الموارد الطبيعية التي يردد اللبناني أنه محـروم منها، فـإنها لا تبـرر قيام صنـاعـات استخراجية أو ثقيلة، ولكنها لا تمنع من قيام صناعات كثيـرة يتكثف فيها العمـل البشري الدقيق، والذوق العارف لحاجات الأسواق ليس في بلدان المنطقة بحسب بل في سوقي أوروبا وأميركا الشمالية. ولعل أهم باب عريض مفتوح أمام الصناعة اللبنانية هو المشاريع المشتركة مع صنـاعيي هذه الأسواق الراغبين في استثمار ميزات الإنتاج اللبنـاني الآنفة لسـد حاجـات أسواقهم إلى عدد متزايد من السلع التي أصبح إنتاجها غير إقتصادي في مصانعهم، أو السلع النبيلة التي تطورها التكنولوجيا المتقدمة وتحاول مراكز إنتاجها أن تؤم البلاد التي يتوفر فيها أصحاب الكفاءات التقنية العالية. يكمن مستقبل الصناعة اللبنانية في استثمار هذين الحقلـين، ويساعد على اقتحام الأول العجز المتزايـد في الميـزان التجاري اللبنـاني مع بلـدان أوروبا وأميركا، كما يساعد على اقتحام الآخر قـدرة اللبنانيين على اكتساب الكفاءات الملائمة. وفي كلا الحقلين تظهر أهمية التعاون بين القطاعين العام والخاص في وضـع البرامـج المؤدية إلى استغلال الفرص وتجنب الأخطاء التي وقعت فيها بلدان أخرى حاولت ما يجب أن تحاولـه الآن.

وإذا كـانت شكـوى اللبنـاني من شـح المـوارد الطبيعية صحيحـة بـالنسبـة للمعـادن ومصادر الطاقـة المعدنيـة، فقد أعطى مـوارد لا حدود لها في ميادين أخرى قد تكون أكثـر عطاء من الموارد التي حرم منها.

فالتربة اللبنانية متنوعة الأجناس، متنـوعة الارتفاعات، متنوعة المناخ.

والميـاه اللبنانيـة متوفّـرة بكميـات تسمـح بالإستثمار الزراعي المكثف.

والرساميل الميسرة في إطار النظام المصرفي المتطور.

والإنسان اللبناني قادر على التكيّف واكتساب المهارات المطلوبة بالسرعة اللازمة المطلوبة التي تتـوفر أسبـابها، وتجعلنـا قادرين عـلى جعل الإنتاج الزراعي أقرب إلى الإنتاج الصنـاعي بتكثيف التقنية ورأس المال والخبرة على الأرض اللبنـانية. وإذا كـان ارتفاع أسعـار الأراضي الـزراعية ارتفـاعاً كبيـراً قد أدّى إلى ضعف المردود من الاستثمار التقليـدي، فإن الـوجه الايجـابـي لهـذا التطـور يجـب أن يكـون بالإنصراف إلى إقامة الـزراعة الصنـاعية أي الإنتاج الزراعي بـالأساليب الصنـاعية. وإذا كانت الزراعة قد انقطعت منذ زمن عن إنتاج الحبوب وغيرها من المحاصيل المشابهة لتنتج الفاكهة والزهور وغيرها من المنتجـات الغنية، فقد يكون الوقت قد حان للتوقف عن المضي في هذا الإنتاج نفسه والإنصراف إلى إنتاج البذور، والاغراس، واعداد الفنيين الزراعيين القادرين على تعميم اكتشافـات الزراعـة الحديثـة على الأسواق في مختلف بلدان العالم النامي وربما المتقدم أيضاً.

وهذه الثورة الزراعية تحتاج إلى معرفة أعمق بالتربة اللبنانية وميزات المناخ، وتوقيف الهدر غير المقبول في الموارد المائية وتطويـع السوق المالي لسد حاجات التثمير الزراعي، وإكسـاب العامل اللبناني الكفاءات المطلـوبة بـالسرعـة اللازمة. ويتم ذلك بالتعاون بين الدولة القادرة والفرد الناهض. إن تعبئة هذه الموارد قد تكون أكثر جدوى من اكتشاف النفط نفسه.

أما الموارد السياحية فهي التي فشل لبنان حتى الآن في استثمارها بالكفاءة التي تتناسب مع وعودها ومستواها، لأسباب تعود إليه كما تعود إلى التطورات السيـاسية والعسكـرية في المنطقة منذ أوائل الستينات. لذلك خسر موجات السياحة العـالمية التي فـاضت على كثـير من البلدان المشابهة مثل اليونان والنمسا وإيطاليا



سهل البقاع: اخصب واوسع منطقة زراعية. ماذا ينقص لتستغل الثروة الزراعية بشكل افضل؟

وإسبانيا وتونس وكادت تلامس شواطئه، فلم يعد العدة لها ولم يساعده الحظ. بل أمعن في تشويه موارده على الشواطىء وفي الجبل وفي الآثار والبيئة، ولم يسلم إلّا المناخ. ولعل أبرز مثال على النمط الانمائي الهادف إلى الوصول إلى التعظيم الأقصى للمردود على عوامل الإنتاج يتمثل في هذا السياق. فقد فاقت قدرة الأجهزة التسويقية للسياحة اللبنانية قدرة التسهيلات السياحية نفسها فأفلتت من أيدينا موجة سياحة الدرجة الثانية لعدم توفر الفنادق والمؤسسات المناسبة رغم الطلب المتعاظم على خدماتها. ولن نمنع فوات الفرص الجديدة إلّا بالتحضير المنسّق لاقتناصها: أي بحملة تهدف إلى محو التشويه الحاصل، وإقامة المؤسسة المناسبة وتحضير الجهاز البشري اللائق بصورة مستمرة، ووضع البلد على الخارطة السياحية في السوق.

أما رأس المال الذي استطاع لبنان أن يجتذبه بكفاءة إلى مصارفه، كما بدأ يطوّر مؤسساته المالية للتعاطي القادر مع حاجات الرأس مال التي تزداد تعقيداً، فإنه لم يستطع بعد أن يسحب الفائدة القصوى من دوره المعترف به في المنطقة والذي يزيد الاعتراف به دولياً رغم صعوبة السنوات الست الماضية. إن الإستثمار الأمثل لهذا الدور الممتاز يجب أن يؤدي إلى تمويل النشاطات الإنتاجية الوطنية بشكل ميسر كما تستطيع ذلك المصارف السويسرية مثلاً بالنسبة إلى القطاعات الإنتاجية في بلدها. وهذا شأن لايتم إلّا بحفز القطاع العام وعونه وتأمين أسباب النجاح له. ولعل المدخل إلى الإستعمال الأمثل للرأس مال الوطني هي زيادة كفاءة النظام المصرفي على تعبئة المدخرات الوطنية وتوجيهها نحو التثميرات في الإسكان وغيره.



فنادق الدرجة الأولى على شاطىء بيروت استثمار سياحي جيد لولا انه يكاد يفقدنا التسويق لسياحة الدرجة الثانية.

ويمكن في ضوء هذا التصور للموارد الوطنية المتاحة وإمكانات تطويرها تطويراً يوافق النمط الإنمائي المنشود، تصوّر الأهداف الوطنية التي يجب أن توضع هذه الموارد في خدمتها، حتى يتم ترشيد العمل الفردي والعام وتعبئته بصورة مستمرة للقيام بالإستعمال الأمثل للموارد في تحقيق الأهداف.

وهذه العملية لاتعني تدبيج كتاب يحوي الخطة وإصدار مراسيم تحدد طرق تنفيذها.

بل تعني سعياً دائماً للتعرّف على الموارد تعرفاً عالماً دقيقاً، كما تعني إقامة الأجهزة العامة والخاصة أو تقويتها، وتدعيم التركيب البنيوي، المادي والتنظيمي في البلاد. وتعني خصوصاً إلتزاماً لاحدود له من القيادات الشعبية والحكومية بالعملية، ليتأمن شد الناس إلى أهداف الإنماء، وتعبئة كل طاقات الوطن من أجل تحقيقها.

وإذا كانت هذه العملية ضرورية في بلد مثل لبنان لا يستطيع قبول التقصير في استغلال كل الموارد المتاحة له لرفع مستوى الفرد والمجتمع واللحاق بالركب الحضاري المتقدم، فقد أصبحت أيضاً شرطاً من شروط البقاء في عالم يسوده الضغط السكاني والنزاعات الوطنية.

وقد بدأنا في المجلس منذ إنشائه ورغم انهماكه في تصوّر مشروع الاعمار وتنفيذه، بتحضير تصوّر لعملية الإنماء سيّما وأن الإنفاق الكبير الذي تتطلبه عملية الاعمار نفسها اقتضى تصورها في نطاق الأهداف الإنمائية الطويلة الأجل.

ويقوم العمل في إعداد تصوّر عملية الإنماء على النهج التالي:

إعداد أوراق عمل تتضمن وصفاً واقعياً لحالة المورد أو القطاع في الوقت الحاضر، وشرحاً وافياً لتطوره خلال ربع القرن الماضي،



عاملة تحضر زجاجات في محترف للارتيزانا: المرأة العاملة موضوع لم ينل الاهتمام الكافي بعد.

وتحليلاً لموضع القطاع الخاص فيه أو تحليلاً لفعل القطاع العام، دون الدخول في أبحاث جديدة بل الإشارة إلى الأبحاث التي يجب أن تبدأ لتغطيته بصورة مستمرة. والمقصود من هذه الأوراق تجميع المعرفة الوطنية بالموارد والقطاعات، لتقييمها، وتلافي النقص فيها ووضعها في اتجاه السير الذي يؤمن تجددها وتحديث معلوماتها بشكل منهجي مستمر، لذلك أسندت مسؤولية إعدادها، في الغالب، إلى الخبراء والعلماء والمتعاطين اللبنانيين.

وتتناول هذه اللائحة الحية التي تضاف إليها الموضوعات أو تحذف في ضوء الممارسة وتقدم المعرفة، المواضيع التالي: الموارد البشرية، الموارد الطبيعية، مؤسسات القطاع الخاص، مؤسسات القطاع العام، القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي يحتاج حلّها إلى جهد موصول، وتنظيم الأراضي اللبنانية.

وقد وضع بعض هذه الأوراق عن العمالة والثقافة والتعليم والإسكان والمياه والري والزراعة والصناعة والسياحة والصحة والبيئة والخدمات الاجتماعية والنقل والمواصلات والطاقة، وعن الاصلاح الضريبي والاصلاح الاداري، وعن التوازن بين القرية والمدينة وعن دور القطاعين العام والخاص. ومن الطبيعي ألاّ تكون كل هذه الأوراق في مستوى واحد من التشدد العلمي أو الإحاطة، وألاّ تكون كلها ما نتوخاه منها. ذلك أن الغرض من هذه الأوراق هو إطلاق الجهد على هذا المستوى الشامل في إتجاهين:

الأول: إرساء الاهتمام بزيادة المعرفة وتحديثها على أساس مؤسسي، فلا تكون المعرفة مرهونة بالجهد الفردي البطولي، بل تصبح معرفة شؤون الحياة الوطنية نتيجة العمل التراكمي الذي تقدر عليه المؤسسات.

والثاني: إقامة حوار دائم حول الأهداف الوطنية في الإنماء الاقتصادي والاجتماعي يستند إلى المعرفة الدقيقة الكاملة المنشودة حول الموارد المتاحة ليحدد، بشكل مستمر، الغايات الوطنية التي تستعمل من أجلها.

والعمليتان متكاملتان وحركيتان، فلا يتم التفاهم على الأهداف إلاّ بمعرفة الحقائق. ومعرفة الحقيقة تزداد كل يوم بالجهد الأول، وتغذي الحوار الدائم حول استخدام الموارد بالشكل الذي يؤمن استعمالها الأمثل.

وفي خطة مجلس الانماء والإعمار أن يكون استثمار أوراق العمل بالشكل التالي:

بعد أن يتم وضع الورقة من قبل الخبير أو الاختصاصي أو مجموعة الخبراء أو الاختصاصيين، يجري درسها من قبل أجهزة المجلس ويؤمن تبويبها بشكل ملائم، وقد تستكمل بمعلومات متوفرة أو بآراء إضافية من مصادر أخرى. ثم يجري بحثها من قبل أجهزة المجلس لتصبح جاهزة للخروج إلى الحلقات التالية: الوزارات المعنية، الإدارات، هيئات

العمال وأرباب العمل، الجمعيات التطوعية، الأحزاب والجمعيات، الجامعات ومراكز البحث العلمي وغيرها، ومن ثم تعود إلى المجلس وقد اغتنت بالآراء وربما المعلومات، لتبقى، وهي تتجدد، أساس الخطط والبرامج والسياسات التي يقترحها مجلس الإنماء والإعمار على مجلس الوزراء.

ورغم حداثة التجربة، وعدم تمكننا من وضع ما توفر من أوراق العمل في الآلة التي وصفناها، فقد أدّت إلى اعتمادها منذ ما يزيد على السنة من قبل إحدى الجامعات لبناء نموذج منطقي رياضي يقوم على ضبط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والمالية والنقدية الأساسية في لبنان، بشكل يعكس الترابط بين كافة المتغيرات والتأثير المتبادل بينها. وهذا النموذج يساعد في الحث على زيادة المعرفة بحاجته الدائمة إلى المعلومات الجديدة الصحيحة، كما يسهم في نشر العلم بمشاكل المجتمع اللبناني. وفي حال الوصول إلى تشذيبه وتدقيق العلم بالعلاقات والمتغيرات، ربما أصبح أداة مفيدة في إرشاد اتخاذ القرار في مؤسسات القطاعين الخاص والعام وفي مصدر السلطة التنفيذية.

ويمكن للبنانيين في إطار هذا الحوار الدائم حول شؤون حياتهم أن يختاروا النظام الأنسب لمواردهم التي يعرفونها وغاياتهم التي ينشدونها، ويمكنهم أن يعدلوه، كما يمكنهم أن يغيّروه.

وفي هذا السياق يحددون دور الدولة ودور الفرد في عملية الإنتاج وعملية التوزيع بشقيها أي توزيع الدخل، ومستوى الخدمات التي ينتظرها الفرد من الدولة. وقد ثبت في هذا المجال عقم التحجر الفكري، أو الاعتقاد بأن وصفة معينة يمكن أن توصف لكل المجتمعات. وليس من خطر كبير على اللبناني أن يقع في منزلق التحجر، ولكن الخوف ألّا يقبل صرامة الحوار الذي يتطلبه شأن يومه وغده في ضوء المعلومات الصحيحة عن الموارد والغايات الوطنية.

وهنا يبدو دور الدولة القادرة، أي الدولة القوية بالرأي الوطني النابع من المعرفة والحوار الديمقراطي. وهي، مسلحة بهذا الرأي، وبالدعم المشارك من معظم الناس، تصبح قادرة على مجابهة المصالح الخاصة التي تنمو على حساب المصلحة العامة، بل على أن تحدث التغيير الملائم في السلوك الخاص لتعيده عن انحرافه وتضعه على الخط الوطني وتكمل التعبئة اللازمة لكل الموارد الوطنية. وقد تصبح الوسيلة لإجراء التغيير في التركيب الاجتماعي نفسه.

ويجدر القول أن الحماسة الوطنية شرط ضروري لعملية الإنماء التي تقودها الدولة كما ظهر حتى الآن، ولا حاجة إلى شرح أسباب ذلك وإثباته. ولكننا نبادر إلى القول أن هذا الشرط الضروري غير كاف لنجاح العملية، فكم من مجتمعات لم تنقصها الوطنية العارمة، ولكنها بقيت عاجزة عن إقامة دولتها القادرة وإطلاق عملية إنمائها، ذلك أن الوطنية غريزة يشترك فيها كل الناس، ولكن عملية الإنماء بالدولة القادرة بناء اجتماعياً وعقلانياً لم يفلح فيه كل الناس، أو كان فلاحهم على درجات متمادية البعد.

وعندما يسير اللبناني في هذا الطريق سيجد أن الموارد المتاحة له في عملية الإنماء لا تقتصر على موارده الخاصة، بل تتعداها إلى المساعدات الخارجية على أنواعها من دولية وإقليمية وعربية. وقد أصبحت المساعدات الخارجية كلها قائمة على قاعدة مؤسسية، تديرها وتوزعها مؤسسات متفرغة. ولا تقتصر هذه المساعدات على الدعم المالي، بل تتعداه في كثير من الأحيان إلى التعاون التقني. وضمن إطار النمط الإنمائي الذي وصفناه، يتحتم على لبنان ألّا يفرط بأي قسط من هذه المساعدات يعود إليه حقاً، كما يجب أن يفيد من كارثته ليزيد حصته المعلومة لدى مؤسسات الدعم. ولكن لا بد له أيضاً من احترام بعض القواعد في تعبئة الموارد من المساعدات. ومن هذه القواعد، أنه تجاوز منذ زمن مرحلة الفقر فلا يجدر به ان يلحّ في طلب المساعدات المخصصة للبلاد الفقيرة أو الأكثر تخلفاً وأنه يحتاج، في محنته الحالية إلى دم جديد كثير، دفعة واحدة ومرة واحدة، يشبه الدم الذي أمدّت به الولايات المتحدة الأميركية أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. وانه مهيأ بسبب ميزاته المعروفة، للإفادة الكبيرة من

المساعدات التي تقدمها مؤسسات دولية متقدمة حديثة، مثل هيئة نقل التكنولوجيا، واللجنة الدولية للطاقة الذرية، ومنظمة الدول المنتجة للنفط وغيرها. وإذا كان لبنان لايستحق مساعدات الشفقة، ويجب ألّا يريدها، فإنه لايريد أيضاً المساعدات المبررة بالإعتبارات الأمنية فقط. ويمكن تمييزها عادة بحجمها الكبير غير الاعتيادي على أساس ثنائي. فإن مثل هذه المساعدات تستهدف أمن معطيها فقط، وقد يكون ثمنها دم آخذها، مثلما تعلمنا تجارب الأمم في التاريخ الجاري. ولعل أهم قاعدة يجب أن نحترمها في المساعدات الخارجية هي أن تكون دوماً في دعم مشروع وطني قائم، وناجح، وقابل للإستمرار بالجهد الوطني وحده بعد انتهاء المساعدة. كما يجب ألّا يسهو عن البال أن المساعدات الثنائية تقتطع من دخل المكلف في البلد المساعد لتدعم دخل المكلّف عندنا، فهي موضع رقابتنا ورقابتهم.

ويقود مجلس الإنماء والإعمار عملية إعمار كبيرة لا تستهدف الإنماء بالمعنى الذي تحدثنا عنه، بل تقتصر على القيام بالمهام الاستثنائية التي يستوجبها مدى الدمار والخراب اللذين حلّا بالبلد. وينقسم مشروع الإعمار، أي لائحة الأعمال الاستثنائية الضرورية إلى قسمين: قسم يتعهده القطاع العام وقسم يرتقب أن يقوم به القطاع الخاص.

ويستهدف القسم الملقى على عاتق القطاع العام تلبية الحاجات الانسانية وتخفيف وقع الدمار على الانسان مثل ترميم البيوت المهدمة وبناء البيوت ذات الكلفة المنخفضة، وتأمين المدرسة والمستشفى ومياه الشفة والري، وتنفيذ الأعمال الضرورية لإعادة المياه إلى الدورة الاقتصادية مثل إعادة تأهيل المرفأ والمطار والطرقات والاتصالات، وإعمار وسط مدينة بيروت، ومساعدة القطاع الخاص على استعادة مبادرته التي اشتهر بها، عن طريق التسليف الميسر، أي بفائدة قليلة ولآجال طويلة. وتقدر كلفة هذا المشروع الآن بحوالي خمسة عشر مليار ليرة أو ما يزيد.

أما القسم المرتقب من القطاع الخاص فيشتمل التثميرات المعتادة في القطاعات الإنتاجية كالصناعة والسياحة والزراعة والبناء وغيرها، مع التثميرات الاستثنائية التي يقتضيها استبدال الطاقة الإنتاجية المدمّرة أو التعويض عن الوقت المضاع في سني الحرب.

وقد كان أمرنا اليومي في شهر العسل أي ما بين أواسط ١٩٧٧ وأوائل ١٩٧٨ أن تقوم ورشة الإعمار في كل مكان وكل ميدان. ولكن تطوّر الأحوال، اضطرنا إلى التدرج من تلك الصيحة إلى: عدم انتظار آخر طلقة حتى يبدأ الإعمار، ومن ثم إلى: القيام بما يمكن القيام به في ظل الظروف السائدة.

وفي يوم، ستتم عملية الإعمار بلا ريب.

وسيكون ذلك إنجازاً كبيراً.

ولكنه يبقى إنجازاً سريع العطب، شأنه شأن كل ما أعيد إعماره من مبادرة فردية وطرقات فسيحة ومرفأ ومطار ومساكن ومدارس ومستشفيات، قابلاً للإنهيار عند أول هزة، إذا لم توفّر له عملية الإنماء، التي شرحنا خطوطها العريضة، الربط الحميم بين الناس وأشيائها. أي ان لم يحمه البناء الوطني.

* * *

سيزورنا في مكاتب المجلس الصديق الطبيب العالم بالأمراض العقلية، على عادته في أواخر الشهر. فإذا أتى باسماً، مستبشراً لأن خطه البياني يشير إلى ازدياد عدد المقبولين في مستشفى الأمراض العقلية، اطمأننا إلى أحوال مستشفاه على الأقل، إن لم نشأ أن نطمئن، كما يريدنا أن نفعل، إلى أحوال البلد.

أما إذا جاءنا عابساً، مقطباً فلن يزيدنا قلقاً على أحوال البلد. ولكن قد نبدأ بالقلق على أنفسنا. فأغلب ظني أنه بعد هذه المراقبة الطويلة لنا، أخذ يميل إلى تشخيصنا بين المقبولين في مستشفاه، إن عاجلاً أو آجلاً.



الصور من المجلس الوطني لانماء السياحة



الاعلام في لبنان
نظرة مستقبلية

رضوان مولوي
مدير عام وزارة الاعلام

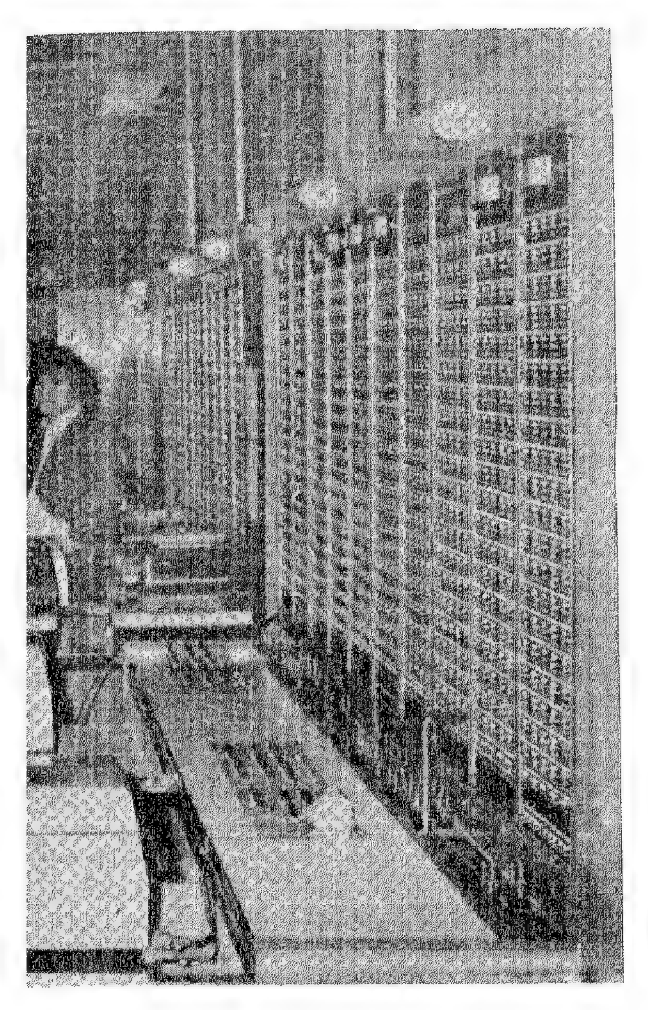
لا بد لنا أولاً من الوقوف على كنه الاعلام وحقيقته وفعاليته، إذ يخطىء من يظن أن الاعلام هو مجرد أجهزة ووسائل نلجأ إليها للعلم والخبر والترفيه والتسلية، فالاعلام في عصرنا الحاضر هو ظاهرة فنية خطيرة أمدتها الحضارة الحديثة بطائفة من الامكانات العظيمة ضاعفت من قيمتها وجعلت منها قوة كبيرة لا تستغني عنها الشعوب ولا الحكومات.

والاعلام أداة الاتصال بين الدولة والشعب بحيث يتأتى عن ذلك تأثير في الناس. والاعلام أيضاً فن الاتصال بالجماهير بواسطة مجموعة من الوسائل تقوم بنشر الأخبار والمعلومات بحيث تؤثر في الناس تأثيراً واعياً يهدف الى التنوير والتعريف بالحقائق. وللأعلام وظيفة ومهمة أساسية في المجتمع الحديث بعد أن تعددت المخترعات الحديثة وتنوعت أساليب الادارة والحكم وتعقدت سبل الحياة، مما جعل الاعلام موضوعاً رئيسياً في ادراك الحركات الفكرية ومتابعة الأحداث ومواكبة التطورات الاقتصادية والاجتماعية والانمائية في العالم. والواقع أن مشاركة المواطن في الديمقراطيات الحديثة لا تكون مشاركة حقيقية وفعّالة ما لم يكن مزوداً بالمعلومات السياسية والاقتصادية وأوجه النشاط المختلفة في سائر ميادين الحياة في الداخل والخارج.

وطبيعي أنه كلما ازداد المجتمع تعقيداً بفضل التقدم العلمي، كلما أصبح الاعلام أكثر أهمية وأشد ضرورة، ولا يرجى للمجتمع أي نصيب من الخير ما لم تتوافق عناصره وتتكيف جماهيره مع منظماته الأهلية والحكومية. وليس الاعلام إلا احدى الوسائل المهمة التي يتم بها هذا التفاهم والانسجام عن طريق المشاركة في الخبرة والمعرفة والادراك والاتجاه والعاطفة بحيث يتم التفاعل والتأثير المطلوبان في المجتمع.

والواقع أن الاعلام مرتبط بعلاقة الفرد بالمجتمع وبأساليب الحكم المختلفة، وهو الوسيلة الوحيدة المجدية في الدول الديمقراطية التي يؤثر بها الحاكم في المحكوم ويؤثر بها المحكوم في الحاكم. كما أنه الوسيلة الوحيدة الى المشاركة الفعّالة والمفيدة التي يجب أن تقوم بين من بأيديهم مصائر الأمور وبين الفرد الذي تجري من أجله الأمور، فضلاً عن كونه الوسيلة المثلى لتبادل الأفكار والمنافع بين من يعطي ومن يأخذ حاكماً كان أو محكوماً.

وحرية الاعلام هي الشرط الأساسي لاحداث التفاعل في المجتمعات الديمقراطية. ولبنان الذي آمن بالديمقراطية نظاماً ونهجاً للحكم، كرس دستوره الحريات العامة كحرية الرأي والفكر والاجتماع والتعليم والصحافة. والواقع أن لبنان والحرية توأمان لا ينفصمان، وحرية الصحافة أو الحرية الاعلامية هي الرئة التي يتنفس بها لبنان والنافذة التي يطل منها على الرأي العام محلياً وعربياً وعالمياً. غير أن الحرية الاعلامية لا تكفي وحدها لقيام اعلام صحيح وقوي فاعل، ففي المجتمعات المتخلفة والنامية لا بد من وجود رأي عام لديه المقدرة على التحرك والوعي، ذلك أن الغاية من العملية الاتصالية أو الرسالة الاعلامية لا يمكن أن تتحقق في بلد ما، إذا كانت تغلب على سكانه الجهالة، فالاعلام يحتاج الى أناس مستقبليين يفهمون ما يوجه اليهم ويدركون معنى ما يخاطبون به. والجهالة ليست بالضرورة الجهل الذي هو نقيض العلم والمعرفة، بل أيضاً الجهل بواقع الأمور وحقيقة ما يجري ويحاك ضد مصلحة الوطن والمواطنين. ويقودنا هذا الكلام الى وجوب تفهم ماهية الاعلام الذي



جانب من قسم التلكس المدشّن حديثاً

جانب من قسم التلكس المدشّن حديثاً

يحتاجه لبنان في تصديه للأوضاع الراهنة، ذلك أن هنالك أنواعاً مختلفة من الاعلام منها الفطري والعاطفي والعقلاني، واذا كان الاعلام العاطفي ما يزال يطغى على الاعلام العربي عامة، فحري بنا في لبنان، أن نلجأ الى الاعلام العقلاني الذي هو بلا ريب أرقى أنواع الاعلام اطلاقاً لأن «الموضوعية» فيه تعلو على «الذاتية» وتغلب فيه المصلحة العامة على كل مصلحة أخرى كما أن الحقائق والأرقام والاحصاءات تحل فيه محل الصيغ والأساليب المنمقة والبلاغات الموجهة لخدمة أهداف وأغراض معينة.

من هنا فان الهدف الأساسي للاعلام يكمن في توفير المعلومات الصحيحة للمواطنين وربط

هذه المعلومات بالهدف الاجتماعي الذي نسعى الى تحقيقه، ولعله يتجسد في لبنان في الوقت الحاضر بموضوع «الوفاق»، ذلك أن تدفق الأخبار والمعلومات في مختلف الحقول والميادين، وخاصة السياسية منها بالنسبة لظرفنا الحاضر، من شأنه توفير الجو الصالح للتطور الوطني، بواسطة تأمين المعرفة الصحيحة والمتخصصة أحياناً والتي تشكل بدورها أسس المناقشة واتخاذ القرارات، وهكذا فان توفير المعلومات من شأنه ولا ريب أن يساعد على ادراك الحقائق والاحاطة بالأمور والانتقال من ثم من مرحلة تلقي العلم والخبر الى مرحلة التفاعل مع الأحداث والاسهام في معالجتها وبذلك يتطور المجتمع ويأخذ بأسباب التقدم والنمو.

إن الوضع الحالي للاعلام في لبنان، على الصعيدين الخاص والعام، انما يعكس حقيقة الأوضاع القائمة في البلاد. ولقد طالما اعتبر كثير من أصحاب الرأي والزعماء والمراقبون السياسيون أن الاعلام في لبنان يتحمل قسماً كبيراً من مسؤولية الأحداث في البلاد، بل لقد ذهب البعض الى اتهام الاعلام بأنه أسهم في إشعال الفتيل واذكاء نار الفتنة. ولسنا هنا نناقش هذه الآراء، ولكن لابد من التأكيد هنا بأن الاعلام باعتباره وظيفة اجتماعية رئيسية يلعب دوراً مهماً وخطيراً سواء على صعيد نقل الخبر وتنوير الرأي العام أم على صعيد التوجيه والارشاد. وإذا كانت المجتمعات الديمقراطية المتقدمة قد تجاوزت موضوع التوجيه والارشاد فما ذلك إلا لأن الرأي العام لديها هو رأي عام متحرك بعد أن بلغت شعوبها شأواً بعيداً من التقدم والتطور، أما بالنسبة للبلدان التي ما زالت في طور النمو، ولبنان في عدادها فلا شك أن التعليم والتوجيه في هذه البلدان، كما يقول استاذ الاعلام المعروف جاك ليوتيه، هما الغرضان الأساسيان للاعلام وذلك لأسباب سياسية واقتصادية. من هنا فان على وسائل الاعلام في البلدان النامية، وخاصة الاعلام الرسمي، أن يقوم بالدور الأساسي في ميدان التوجيه وكذلك في مجالات التعليم والتثقيف وتنوير المواطنين بالحقائق والمعلومات، ذلك أنه إذا ترك الحبل على غاربه ليستغله ذوو المآرب الخاصة لأمور الدعاية والمصالح الخاصة فانه ينجم عن ذلك اساءة الى ثقة الناس البسطاء الذين يصدقون ما يقال لهم. لذلك بات واجباً أن تقوم الدولة النامية بالتوجيه في حقل الأنباء، وبالطبع فان الفارق كبير بين التوجيه الذي يستهدف مصلحة الوطن والمواطنين والدعاية التي تخدم أغراضاً خاصة وتنقلب في معظم الأحيان الى عكس ما قصد من ورائها. وهذا هو السبب الذي يؤدي في كثير من الأحيان الى الوقوع في الخطأ حين يقرن البعض بين الاعلام الرسمي والدعاية، والذي قد يتأتى أحياناً عن اساءة استعمال الاعلام الرسمي، والبعد به عن أغراضه الحقيقية في خدمة المواطنين.

قلنا أن الاعلام، على حد قول الكثيرين، يتحمل قسماً كبيراً من مسؤولية الأحداث في لبنان، والواقع أنه مهما تعددت التفسيرات حول مسببات الحرب وما جرّته من ذيول وأهوال، فالثابت أن اللبنانيين، كشعب، ما زالوا يفتقدون الى العديد من صفات المواطنة الصالحة. فالانقسامات الحادة، والأحقاد المتفجرة، والممارسات غير الانسانية التي عانينا منها جميعاً، كشفت بوضوح أن الولاء الوطني الموحد يكاد يكون معدوماً لدى الكثيرين من اللبنانيين وأن السلوك المدني المفترض في مجتمع متحضر ليس متأصلاً في نفوسنا بعد.

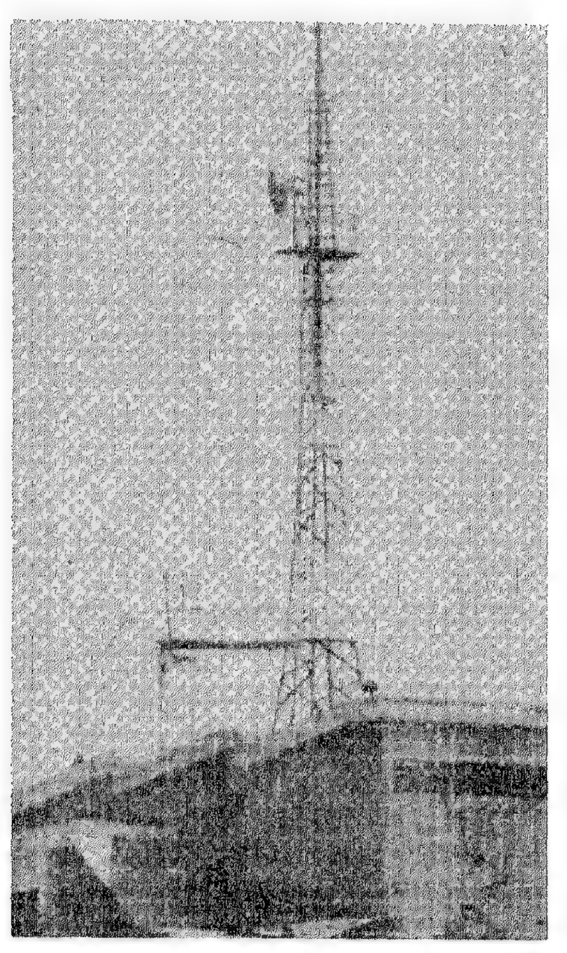
أن الولاءات الشخصية والعائلية والاقليمية والطائفية التي تسود المجتمع اللبناني قد حالت حتى الآن دون قيام ولاء وطني شامل. ولئن كان من غير الواقعي وغير المطلوب أن تزول الولاءات كلياً، فانه من الضروري والملّح أيضاً أن نخلق في نفوس اللبنانيين ولاء وطنياً موحداً يتجاوز الولاءات الأخرى ويكون ضماناً لاستمرار الوطن وتطوره.

إزاء هذا الوضع، يواجه لبنان، دولة ومواطنين، تحدياً أساسياً قد يتوقف عليه مصيره كوطن. ولا شك أنه لابد لنا لمواجهة هذا التحدي أن نبدأ في بناء المدماك الأول لقيام دولتنا الحديثة عنيت به التنشئة الوطنية. لقد ركز رئيس الجمهورية في الكثير من خطبه، كما أولت البيانات الوزارية المختلفة منذ مطلع هذا العهد، اهتماماً خاصاً لقضية التنشئة الوطنية

وضرورة بناء المواطن اللبناني الجديد، وطبيعي أن ذلك يتطلب تضافر جهود الدولة والمواطنين من أجل قيام توجيه وطني ومدني والشروع في مناهج تربوية وطنية صحيحة، ولا شك أن وسائل الاعلام المختلفة تلعب دوراً رئيسياً في هذا الميدان.

وعلى صعيد آخر، فان موضوع الوفاق يحتل بدوره مكاناً بارزاً من اهتمامات الدولة بل لعله هاجسها الأول. ولا شك أن جميع اللبنانيين على اختلاف أهوائهم ومشاربهم وانتمائهم يتوقون الى احلال الوفاق وانهاء هذا الوضع المؤلم الذي ما نزال نتخبط فيه. يخيل الي ولعلكم توافقونني الرأي أن الحقائق الراهنة بالنسبة للوفاق ليست معروفة أو لنقل أنها غير واضحة أمام الجميع، كما أن النظرة الى الوفاق ليست واحدة هنا وهناك، هذا فضلاً عن تضارب الآراء وعدم وضوح الرؤية المستقبلية والشك حول المصير وما الى ذلك. من هنا تبدو لنا أهمية الاعلام الصحيح في توفير المعلومات وطرح الحقائق أمام المواطنين في اطار الموضوعية والايجابية فضلاً عن دوره في الارشاد والتوجيه.

والواقع أن دور الاعلام في لبنان يختلف عنه في معظم الدول الشقيقة والمجاورة، بل وفي معظم بلدان العالم الثالث، ذلك أن لدينا في لبنان اعلامان، خاص وعام، فالاعلام العام أو الرسمي هو النافذة التي تطل منها الدولة على المواطنين وهو يخضع للسلطة ويعمل وفقاً للأنظمة التي تحددها القوانين. وهو بالرغم من الانتقادات الموجهة اليه والمحقة في أحيان كثيرة يتمتع بصلاحيات معينة وحرية تمكنه من التحرك في اطار محدود، وطبيعي أنه كلما أحسن استخدامه بعيداً عن الضغوط والنفوذ كلما كان تأثيره أشد وفاعليته أكبر وخاصة اذا استطاع العمل في أجواء الحرية المسؤولة. في حين أن الاعلام في معظم الدول النامية يخضع لارادة السلطة أو الحاكم أو الحزب أي انه يعمل في سبيل أهداف معينة ولخدمة أغراض خاصة. أما الاعلام اللبناني الخاص فهو نسيج وحده في هذا الجزء من العالم، وهو يتمتع بنفوذ كبير وسلطة عظيمة. وقوام هذا الاعلام الخاص الصحافة التي تتمتع بحرية


محطة تليفزيون الحازمية

هي مصدر قوتها وحجر الأساس في كيانها ومكانتها. غير أن الحرية الصحفية لا تعني حتماً وجود صحافة حرة ليس في لبنان فحسب بل في كثير من بلدان العالم الحر، وهذا ما أشار اليه نقيب الصحافة اللبنانية الراحل الأستاذ رياض طه في محاضرة له عن حرية الصحافة في لبنان حين قال: «ان الحرية لا تقتصر على الاستقلال عن السلطة المحلية وانما تشمل كذلك الاستقلال عن القوى الخارجية والمؤثرات المادية والأدبية. وها نحن نرى أن بعض الصحافة عندنا كما عند غيرنا، قد أصبح أسيراً للضغوط والنفوذ، وأضحت الاحتكارات المالية من الداخل والخارج تترك بصماتها بوضوح على صفحات جرائدنا بلا رقيب أو حسيب». ولكنني أسارع الى القول انه من أجل صحافة حرة ينبغي تحرير الصحافة من العجز المادي الذي تعاني منه بعد

مراكز الهاتف
الآلي عمت لبنان



أن أصبحت صناعة بحاجة الى الدعم والحماية، واني لاتفق هنا مع الرأي القائل بتدخل الدولة في تنظيم الصحافة شرط أن لا يؤدي ذلك الى كبت حريتها بل في سبيل تعزيزها وتحصينها من المغريات، وأسمح لنفسي باستعارة تعبير النقيب الراحل، حين قال، اذا كان ثمة صحف مرتهنة فعلى الحكم الوطني أن يتولى فك الرهن.

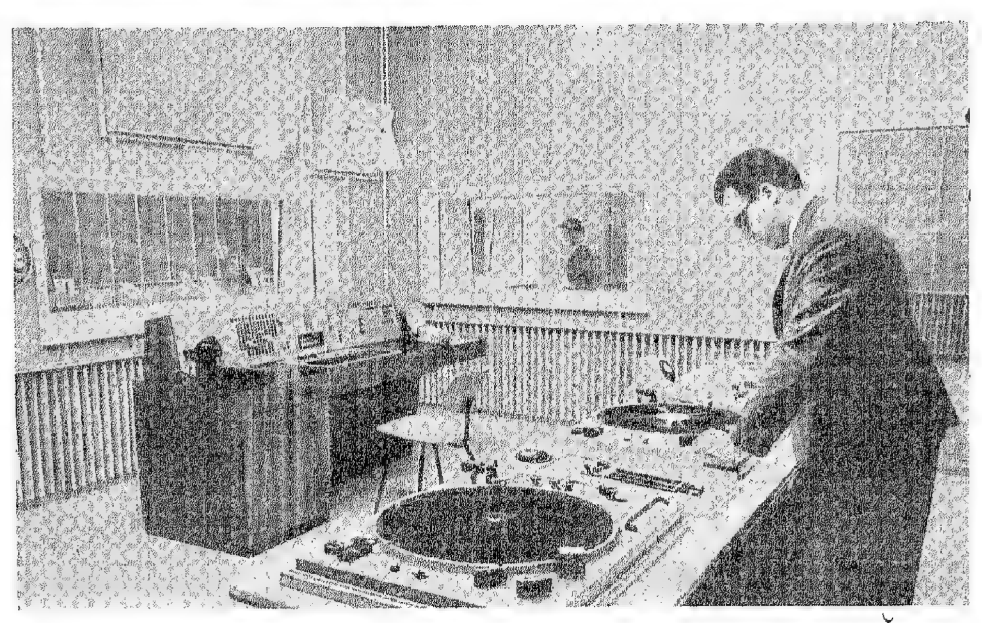
أمام هذا الواقع، ماذا يستطيع رجل الاعلام، الخاص والعام، أن يفعل في سبيل الوفاق. طبيعي القول أن الوفاق لايمكن أن يفرض فرضاً بل هو يبنى على قناعات مشتركة بين جميع الفرقاء المعنيين. من هنا يستطيع الاعلام أن يلعب دوراً أساسياً في عملية الاقناع ولكنه يحتاج أولاً الى معطيات أساسية وحقائق راهنة في اطار سياسة مرسومة يبني عليها خطته الاعلامية. ان دور الاعلام هنا هو أن يعكس هذه المعطيات عبر الأجهزة والوسائل المتوفرة لديه، بحيث يستخدم كل وسيلة اعلامية في إطار عملها الصحيح ليغطي التأثير اللازم ويصل الى النتيجة المتوخاة. من هنا كانت أهمية معرفة الرأي العام الذي يتوجه اليه صاحب الرسالة الاعلامية، وهي هنا رسالة الوفاق. فالحديث عن الوفاق يكون الى الخاصة كما يكون الى العامة، الى الصغار كما الى الكبار، ورغم أن الرسالة الاعلامية واحدة، إلا أن التوجه يختلف من جمهور الى آخر ويختلف معه الأسلوب والوسيلة، ولكن يبقى الهدف الاعلامي واحداً في كل الحالات ألا وهو ايجاد تأثير واع في النفس ينجم عنه تغيير في الاتجاه.

والرأي العام في المجتمع الديمقراطي يتألف من مجموعة الأفكار أو المعتقدات التي يكونها الأفراد والجماعات في مسألة معينة وخلال فترة

معينـة وتحت تأثـير معـين، ومن شـأن هـذا الاجماع حول مسـألة معينـة أن يخلق روحاً معنوية عالية. اما اذا انقسم الرأي العام الى عـدة آراء أقلية، دون أن يكـون هنالـك رأي للأغلبية، كمـا هو الحـال في لبنان ولـلأسف، عنـدئذ تضعف الـروح المعنويـة لدى الشعب فتتقاذفه الأهواء وتعصف فيه التيارات وتتهدده الأخطار. لذلـك كان لابـد من اذكاء الـروح المعنـويـة في الشعب، ويتم ذلـك بـالاتفـاق على الأهداف والعزم على تحقيقها والثقة بالحكم والوحدة داخل الجماعة والشعور بالمشاركة في الوطن. وطبيعي ان تكوين رأي عام كهذا يتحلى بروح معنوية عالية يحتاج الى وسائل اعـلام قوية واعلاميين يتمتعـون بالاخـلاص والكفاءة والخبرة من أجل ترسيخ هذه الأفكار والآراء وتجسيد المشاركة والمسؤولية لدى المواطنـين. ومعنى ذلك أن يعمل الاعلام ليس على توفير المعلومات فحسب، بل يجهد كـذلك من أجـل توحيد الأفكار والآراء بحيث تصبح الأقليـات المتنازعة أغلبية موحدة حول فكرة معينة تؤمن بها وتتفانى في سبيلها.

اذاً فأهمية الاعلام بالنسبة لموضوع الوفاق لا تكمن فقط بمجرد اعطاء معلومات ومعـارف للناس عن الفائدة منه، بل المقصود هنا عملية تغيير الاتجاهات وتحريك الجماعـات للعمل في اتجاه معين لتحقيق الأهداف المرجوة. وليست المسـألة استغـلالاً للجماهـير واللعب بالنـاس كالدمى، كما هي حال الاعلام العاطفي الذي طالما لجأنا اليـه في اعلامنـا طوال السنـوات الماضية حين ركزنا على الوحدة الوطنية والمصير المشترك والتعايش الأخوي وترديـدنا لكلمـات تدغدغ العاطفة ولكنها لا تنفذ الى الأعماق، لأنها رغم صحة مضامينها لم تكن لتطرح المشكلات حول هذه القضايا الأساسية وتنبـري من ثم لمعالجتها. فالمطلوب اذن من الاعلام هو عكس ذلك تماماً، اذ لابد من المشـاركة الايجـابية وتفاعل الجماهير مع المشكلات تفاعلاً مثمـراً. ولذلك فان الخطوة الأولى في هذا السبيل هي رسم سيـاسـة الـوفاق عـلى أساس المعطيـات والحقائق الموضوعية ليتمكن رجال الاعلام في ضـوء تلك السيـاسـة، من وضـع مخططـاتهم الاعلامية واللجوء الى وسائل الاعلام المختلفة لنقل الرسالة الاعلامية المطلوبة، فيتمكن الاعلام عندئذ من خلق اتفاق عام بين فئات المجتمع، وتقريب وجهات النظـر نحو القضـايا المهمـة، والمشاركة بالتالي من أجل بناء مجتمع تتفاعل فيه الآراء لاحداث التغيير المنتظر. ولا شك أن جهود الاعلاميين في الشرح والتفسير وتبسيط المعلومات وتقديمها للجماهير بطـريقة مفهـومة وجذابة ومقنعة، تجعل البعيد قريبـاً والقريب مألوفاً، بحيث تسري الأفكار الجديدة وتتبلور الحقائق أمام الناس فتؤتى الحملة الاعـلامية أُكلها ثماراً طيبة يانعة، فالاعلامي لا يستطيع اجتراح المعجزات، انه هنا ليس سوى فرد أو أفراد ضمن فريق عمل. ان رجل الاعلام، لأي وسيلـة انتمى، انمـا يقـوم في اطـار الحملـة الاعلامية الوفاقيـة بتنفيذ أو بتجسيـد أفكار الآخـرين من أصحـاب الأختصـاص، شريطـة اقتناعه بها، فغير المقتنع لا يمكن له أن يقنع الآخرين، وهو يستخدم في هذا السبيل فنون الاعلام المتوفرة لديه فضلاً عن طاقاته وقدراته الشخصية. وهذا يقصد في نجاح حملة اعلامية صغيرة كانت أم كبيرة، فكيف اذا كان على صعيد الوطن كله انه يتطلّب فريق عمل يضم بالاضافـة الى رجال الاعـلام رجال السيـاسة وأصحاب الرأي والقادة والمفكرين بحيث تصب أفكارهم جميعاً في قناة واحدة من أجل خلق تفاعل ايجـابي في المجتمع يؤدي الى النتـائج المرجوة، وطبيعي أن لا يحدث هذا بين عشية وضحاها، فالطريق طويل والمهمة شاقة.

انطـلاقاً من ذلـك يجب أن تنصب جميع الجهود لترجمة سياسة الوفاق، عملاً بناء وتحركاً دائباً وسعياً حثيثـاً، في اطار خطـة مدروسـة يشترك في تنفيذها جميع الفرقاء، بحيث يعلو صوت الوفاق على كل ما عداه، فنصبح ونمسي ونحن لا نقرأ أو نسمع أو نشاهد إلّا كلّ ما هو دعوة للوفـاق. وطبيعي أن يشمل ذلـك جذور القضية اللبنانية من أجل خلق شعور حقيقي لدى المواطنين بأنهم يواجهون تحدياً أساسياً يتوقف عليه مصيـرهم ومصير وطنهم، ويـولد لديهم بالتالي ايماناً عميقاً بوجوب الولاء لوطن واحد موحد يتجاوز ولاءاتهم العائلية والاقليمية



محطة الاذاعة في عمشيت قوتها ١٠٠ كيلوات وهي من اقوى المحطات في العالم

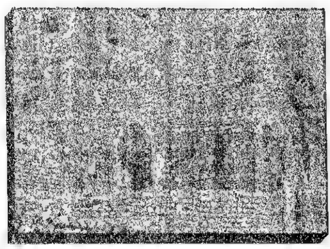
والطائفية والعقائدية، ويكسبهم صفات سلوكية تعكس وجه المجتمع اللبناني الايجابي للعالم. ان التزاماً كهذا يجب أن يستهدف بناء المواطن اللبناني بدءاً بالمراحل الأولى أي بالتنشئة الوطنية الصحيحة في المدرسة والمنزل يواكبها مخطط اعلامي موجه، فتجتمع بذلك مهمة التربية الوطنية ومهمة التوجيه الوطني الصحيح، وهما مهمتان تكمل واحدتهما الأخرى، وتسيران في خط واحد، التعليم للتنوير والاعلام للارشاد والتوجيه فتتجسد بذلك العلوم والمعارف والمهارات والقيم والأخلاق والمثل والمفاهيم العليا ويتأتى عن ذلك وبطريقة تلقائية تكريس حب الوطن والتفاني في سبيله من خلال تفهم الحقائق والأسس التي يقوم عليها هذا الوطن.

هذه هي المرتكزات التي يمكن اعتمادها أساساً ومنطلقاً لحملة أعلامية وفاقية تشمل الوطن بأكمله، ويمكننا أن نطل منها أيضاً على أخوتنا وأبنائنا في دنيا الاغتراب، ولا أخالني أتيت بالجديد فقد اعتمد الكثير من دول العالم خططاً مماثلة لمواجهة الأخطار التي تهدد الوطن وخاصة في الأزمات والحروب، ونذكر على سبيل المثال المانية النازية وبريطانيا وفرنسا أبان الحرب العالمية الثانية.

نعم أنه اعلام موجه، ولكننا نريده وسيلة لتحقيق غاية، والغاية هي حمل الشعب على اعتناق آراء أو ما أطلق عليه بالمسلمات والتي تستهدف في الأساس مصلحته ومصلحة الوطن العليا. واستعير هنا قولاً لجوبلز «الاعلام الموجه لايصيب المرمى الا اذا كان يعرف ما يريد، وكان له هدف واضح ومحدد، وبعدئذ يمكن استخدام جميع الوسائل والأساليب الاعلامية التي تصب جميعاً في قناة واحدة فتحقق الهدف المنشود».

في عرضنا السريع للواقع الاعلامي في لبنان، وفي توجهنا لتسخير الاعلام في سبيل الوفاق الذي هو في طليعة القضايا اللبنانية الأساسية، إنما اعطينا صورة سريعة عما يمكن أن يقوم به الاعلام من أجل لبنان المستقبل. يبقى أن نشير الى ان الاعلام، اياً كان، انما يعالج سلوك الناس، وحاجات الافراد والمجتمع، وبالتالي فان نجاحه يعتمد على سرعة ونوعية التغيير المنشود الذي يجب أن تشارك فيه المؤسسات المختلفة ذات التأثير في البلاد. ولذلك فان التنسيق بين الاعلام وبين مؤسسات التغيير الأخرى في البلاد، كالمدارس والجامعات والنوادي ومراكز العمل، يجب أن يتم في اطار خطة متكاملة وواضحة تشمل كل نواحي المجتمع باشراف الدولة بمختلف أجهزتها ووسائلها، وبذلك فقط يحقق الاعلام النجاح المطلوب في خدمة الأهداف المرجوة.





الاستقلال اللبناني والميثاق

د. باسم الجسر



كان مجرى الحرب العالمية الثانية قد بدأ يتغير، في عام ١٩٤٢. فبعد معركة العلمين وستالينغراد كان نجم المانيا قد أخذ في الأفول وكفة النصر العسكري ترجح لصالح الحلفاء. اما خطر الحرب على الشرق الاوسط فكان قد زال تماماً.

إزاء هذا التحول في مجرى الحرب، لم يعد «لفرنسا الحرة» من سبب لتأخير عودة الحياة الدستورية إلى سوريا ولبنان. لاسيما وان حكومة الجزائر (ديغول) كانت قد وعدت لبنان وسوريا، مرتين، على لسان الجنرال كاترو، بالاستقلال التام.

وهكذا في ٢٤ كانون الثاني ١٩٤٣، اذاعت «لجنة الجزائر الوطنية»، قراراً يقضي بإعادة الحياة الدستورية إلى لبنان وكلفت الجنرال كاترو باتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ هذا القرار.

طلب الجنرال كاترو من الحكومة اللبنانية التي كان يرئسها الفرد نقاش بلقب رئيس الجمهورية ويشاركه الحكم فيها سامي الصلح، بلقب رئيس الوزراء، أن تقدم استقالتها، فرفض الرئيسان نقاش والصلح تقديم استقالتيهما متذرعين بالوعود التي كانت فرنسا قد اعترفت بموجبها باستقلال لبنان، ووعدا بأنهما سيقدمان هذه الاستقالة لمجلس النواب الذي سوف ينتخب. إلا ان الجنرال كاترو لم يأخذ اعتراضهما بعين الاعتبار، بل اصدر قراراً باقالتهما وبتعيين حكومة برئاسة الدكتور ايوب ثابت، الذي أعطي ايضاً لقب رئيس الدولة.

وصدر قرار آخر بإعادة العمل بالدستور الذي كان قد اوقف العمل به منذ عام ١٩٣٩، شرط ان يبدأ العمل به، بعد انتخاب مجلس للنواب ورئيس للجمهورية.

بعد صدور هذين القرارين دخلت البلاد في حمى الاستعداد للانتخابات النيابية، لاسيما وان مصير لبنان الوطني والسياسي وعلاقته بفرنسا كانا مرهونين بنتائجها.

ولعل اهم ما حفلت به تلك الفترة هو الصراع الخفي السائر بين اركان البعثة البريطانية في بيروت التي كان يرئسها الجنرال ادوار سبيرس ومساعده فيها الكولونيل فيرلونغ ويقوم بدور بارز فيها المستشار الشرقي، مارون عرب، وبين اركان المندوبية الفرنسية التي كانت تضم اجهزة الانتداب التي كانت لاتزال مسيطرة رسمياً وفعلياً على قطاعات عامة وخاصة هامة.

انقسم السياسيون إلى فريقين: فريق استقلالي، عربي الولاء بريطاني الهوى، وفريق استقلالي، ضئيل الانفتاح على العرب وفرنسي الهوى. كان الشيخ بشارة الخوري يتزعم الفريق الاول واميل اده، الفريق الثاني. وبالرغم من ان جميع مرشحي الفريق الاول لم يكونوا اعداء لفرنسا او من دعاة العروبة ولا جميع مرشحي الفريق الثاني، اعداء لبريطانيا او للعرب، إلا ان ظروف المعركة الانتخابية جعلت كل فريق يعتمد على إحدى الدولتين المتنافستين ليحقق غايته في الفوز.

وحقيقة الامر أن الاستقلال كان مطلباً سياسياً عاماً اجماعياً في لبنان منذ عام ١٩٤١، لاسيما بعد اندحار فرنسا عسكرياً امام المانيا. ولكن دخول الجيوش البريطانية مع قوات فرنسية ديغولية إلى لبنان وسوريا عام ١٩٤٢، حوّل هذه الامنية إلى تيار سياسي اشترك فيه سياسيون مسلمون ومسيحيون ممن سبق لهم الاشتراك في الحكم ابان عهد الانتداب او عارضوا الانتداب والدولة اللبنانية.

يشهد على ذلك الاجتماع الذي عقد في بكركي في يوم الميلاد ١٩٤١ حين أمّت وفود شعبية، على رأسها مسلمون ومسيحيون، مقر البطريرك الماروني في بكركي لتهنئة البطريرك بعيد الميلاد، فتحول الاجتماع إلى مؤتمر صدر عنه، بيان يطالب بالاستقلال التام.

جاءت الانتخابات النيابية في ٢٢ آب ١٩٤٣ ففازت فيها اللوائح التي كانت تساندها السياسة البريطانية ويتفق اعضاؤها مع الشيخ بشارة الخوري والنهج الاستقلالي المنفتح على العرب والملتقي مع السياسة البريطانية: (باستثناء جبل لبنان حيث فازت لائحة اميل اده بـ ١١ نائباً لقاء ٦ نواب في لائحة الشيخ بشارة الخوري). وهكذا تكرس النهج الوطني والسياسي الذي يقضي ببلوغ الاستقلال محرراً من اي ارتباط مع فرنسا.

بشارة الخوري رئيساً

واكتمل الفوز بانتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية، رغم كل المناورات التي قامت بها المندوبية الفرنسية للحؤول دون هذا الانتخاب.

وكلف الشيخ بشارة الخوري، رياض الصلح، بتأليف الحكومة. وكان لهذا التكليف معان

الدكتور باسم الجسر:
دكتور في الحقوق من جامعة باريس (السوربون)، محام في الاستئناف في بيروت، استاذ القانون الدستوري وقانون الاعلام في كليتي الاعلام وادارة الاعمال في الجامعة اللبنانية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٤).



اميل اده

وابعاد لم تخف على احد. فرياض الصلح امضى القسم الاكبر من حياته مناضلاً قومياً عربياً. ولم يكن قد انتقل إلى ميدان النضال الوطني اللبناني إلا في السنوات الاخيرة، متبنّياً الفكرة التي كان ابن عمه كاظم الصلح قد بلورها مع عدد من المثقفين الشباب، والتي سوف تبرز في صيغة «الميثاق الوطني». وخلاصتها أنه لابد من التقاء الصف الوطني العربي في لبنان مع الوطنيين المسيحيين لبلوغ الاستقلال وللابقاء على وجه لبنان العربي. وكان رياض الصلح معروفاً بخصومته للانتداب الذي نفاه اكثر من مرة وحال دون دخوله المجلس عام ١٩٣٧.

وبعد أن ألف رياض الصلح وزارته من ستة وزراء اختارهم مع الشيخ بشارة الخوري وألقى بيانه الوزاري الأول وسط جو من الحماس الشعبي والعنفوان الوطني، كان لابدّ من تعديل الدستور إذ الوعود التي تضمنها البيان تدعو إلى ذلك عملياً، رفضت فرنسا وأنكرت على لبنان حق تعديل الدستور بمفرده، وكان رد الحكومة سريعاً إذ اجتمعت وأحالت المشروع إلى المجلس النيابي الذي، وبدوره، وافق على التعديل رغم محاولات ومناورات فرنسية ضد ذلك. لكن فرنسا كانت ردة فعلها شرسة إذ اعتقلت بعد ثلاثة ايام رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعض الوزراء.. والكل يعرف ما جرى من احتجاج عربي وعالمي فضلاً عن المظاهرات اللبنانية وأعمال الشغب والعصيان المدني، وكان ان اطلق سراح المعتقلين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣.

اللقاءات والاتفاقات

تلك هي، باختصار اهم الاحداث التي رافقت ولادة الاستقلال اللبناني والتي كان عام ١٩٤٣، مسرحاً لها. ويجدر التساؤل: كيف أن هذا العام شهد توتّراً اسلامياً ــ مسيحياً حول نسبة التمثيل الطائفي، يدل على الريبة واللاثقة في النوايا، ثم شهد صراعاً انتخابياً سياسياً وحزبياً بل وعقائدياً...، انتهى بهذا الاجماع الشعبي والوطني العارم الذي كان من نتائجه بلوغ لبنان الاستقلال التام بل ولادة شعور وطني موحد؟.

صحيح أن العمل الاحمق الذي اقترفته السلطات الفرنسية، في محاولتها تأخير الاستقلال، كان له اثره في توحيد كلمة اللبنانيين وردة فعلهم..

وصحيح أن السياسة البريطانية هي التي ساعدت السياسيين الذين وافقوا على مخططاتها، في الوصول إلى المجلس والحكم ومن ثم على الصمود في وجه المحاولات الفرنسية للمحافظة على مركز ممتاز لها.

ولكن هذا كله لم يكن ليكفي لو لم يتوصل اللبنانيون عبر زعمائهم واحزابهم، إلى نوع من الاتفاق الاساسي حول صيغة تشمل نظام الحكم وواقع لبنان الوطني وعلاقاته مع جيرانه والعالم.

مما لا ريب فيه أن الانتفاضة الشعبية التي تلت اعتقال الحكومة الشرعية، كانت عفوية وصادقة وأن اكثرية الشعب كانت تريد الاستقلال والسيادة. ولكن هل كان الشعب، بأجمعه يؤيد هذه الصيغة الوطنية التي تم

.الاتفاق عليها بين الزعماء السياسيين اي «بالميثاق الوطني».

المجلس النيابي والمؤتمر الوطني والتظاهرات الشعبية الصاخبة، والاضراب العام في البلاد ثم الاستقبال الشعبي المنقطع النظير للزعماء العائدين من المعتقل، كلها تدل على أن الاستقلال كان شعبياً اجماعياً، لكن هل كانت هذه التظاهرات تؤيد إبقاء النظام السياسي الذي يرسمه دستور ١٩٢٦؟ هل كانت مطلعة على اتفاق بشارة الخوري ورياض الصلح على «الميثاق»؟.

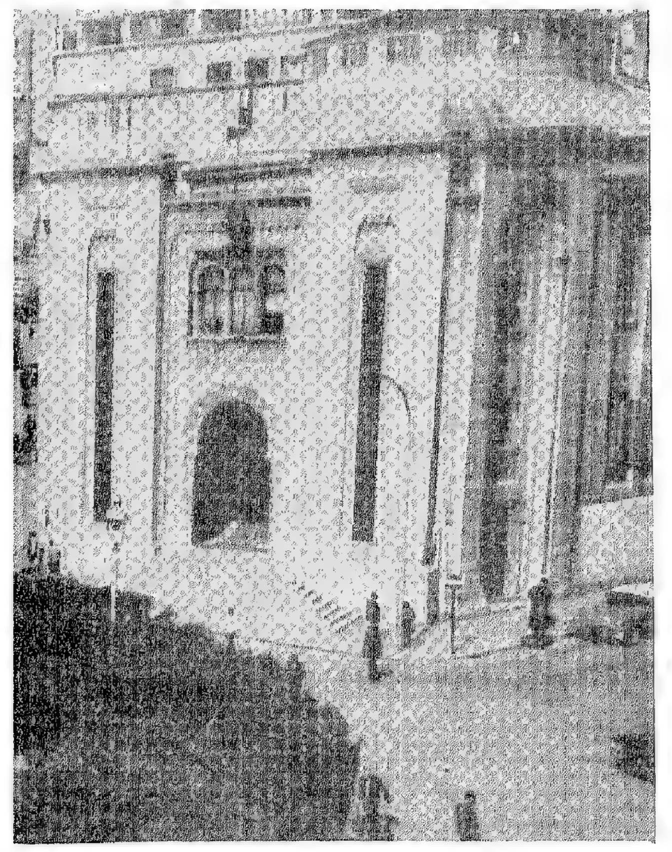
في الواقع، لم يكن الشعب مطلعاً على «الميثاق الوطني»، بل كان مؤيداً للاستقلال وثائراً لكرامته التي تعرضت للعدوان. إلا أنه من المؤكد أن عدداً كبيراً من السياسيين والعاملين في الحقل العام، كانوا مطلعين، او على الاقل مؤيدين، للخطوط السياسية الكبرى والمبادىء الوطنية التي توصل الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح إلى الاتفاق عليها في صيغة ١٩٤٣. فما هي هذه الخطوط الكبرى والمبادىء وكيف ومتى واين تم إبرازها والاتفاق عليها.

■ إن فكرة إيجاد ميثاق وطني بين اللبنانيين يساعدهم على تجاوز التناقض الوطني والطائفي الذي قام بعد إعلان دولة لبنان الكبير (١٩٢٠)، بدأت تظهر منذ السنوات الاولى التي تلت قيام الميثاق الجديد. ولكنها لم تبدأ تبلورها إلا في الثلاثينات، ولم تبنْ معالمها إلا بعد ١٩٣٦.

ذلك أن قسمة اللبنانيين إلى فريقين وطنيين ــ سياسيين ــ طائفيين، احدهما «كياني ــ لبناني» ــ مسيحي ــ مؤيد للانتداب والثاني «كياني ــ عربي» ــ مسلم ــ رافض للانتداب، لم يكن امراً طبيعياً او منطقياً بالنسبة لشعب واحد يعيش في ظل دولة موحدة ويشترك ممثلوه في مجلس نيابي واحد وحكومة وادارة واحدة..

من هنا كان عدد الوطنيين من سياسيين ومثقفين من الذين يرفضون هذا التناقض، يزداد يوماً بعد يوم، وتبرز محاولات دائمة، حزبية او انتخابية او نقابية او فكرية، هدفها تجاوز الانقسام الطائفي والتضاد الوطني.

من ابرز تلك المحاولات التي جرت بين عام

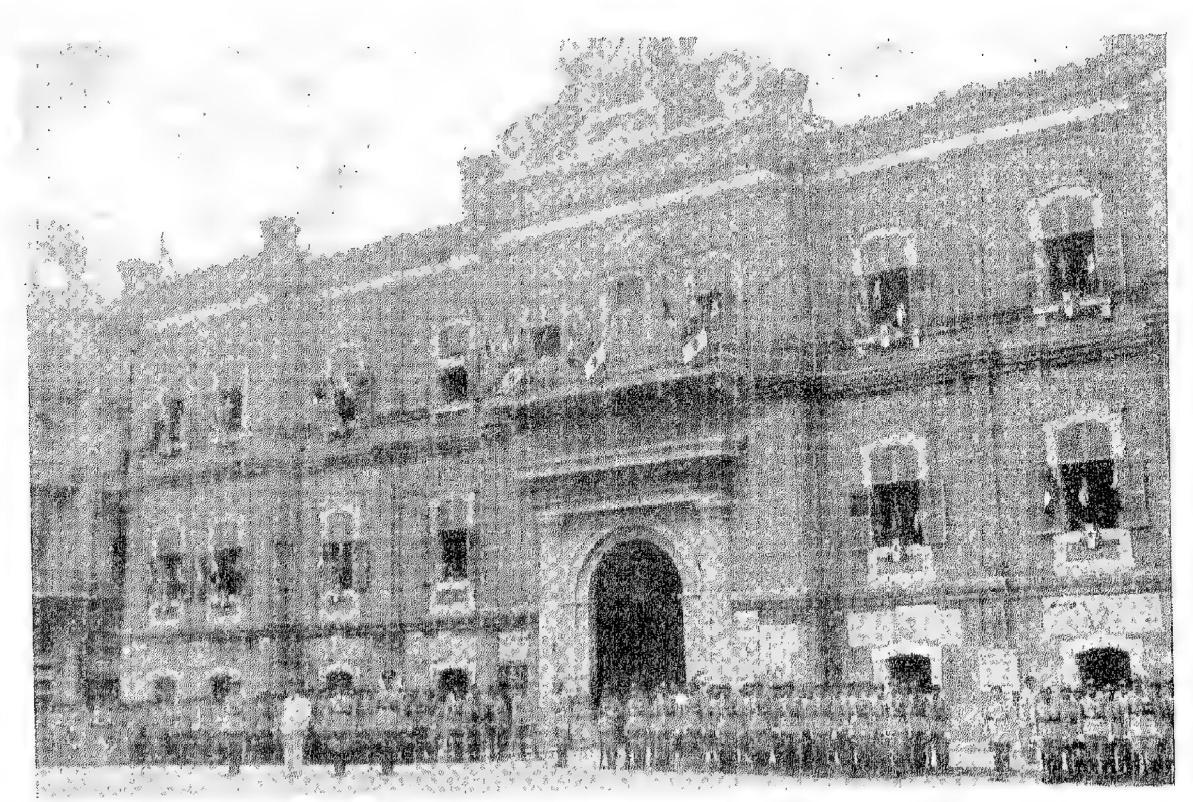


بناء البرلمان القديم

١٩٢٠ وعام ١٩٢٦ نشوء احزاب عقائدية: (الحزب القومي، الشيوعي) وحزب الاستقلال الديمقراطي ومنها محاولة انتخاب مسلم ــ هو الشيخ محمد الجسر ــ رئيساً للجمهورية اللبنانية (١٩٣٢) ومنها ثورة البطريرك عريضة على الانتداب الفرنسي وتزعمه لحركة مقاومة الاحتكارات الاجنبية، ومنها بروز صحافة وطنية مستقلة عن الطائفية (الاحرار، المعرض).

إلا أن الاسباب الحقيقية التي ساعدت على تعجيل بروز الصيغة الوطنية المؤلفة من التناقضات، كانت تتعلق بمصير الكيان اللبناني بعد أن اقتنعت فرنسا باستبدال الانتداب بمعاهدة صداقة تعقد بينها وبين كل من سوريا ولبنان.

فالمسلمون في لبنان ادركوا أن اتفاق الحركة الوطنية في سوريا مع فرنسا على بلوغ الاستقلال سوف يتركهم وجهاً لوجه مع المسيحيين والفرنسيين في لبنان. ولذلك فإن بلوغ



السراي القديم في ساحة البرج

الاستقلال كان يتطلب الاتفاق مع المسيحيين.

كذلك المسيحيون، بدورهم، ادركوا أن انتهاء الانتداب في سوريا ولبنان سوف يتركهم وجهاً لوجه مع المسلمين، ولذلك فإن تدعيم الكيان اللبناني لابد له من اعتراف المسلمين اللبنانيين والحركة الوطنية السورية به.

ثم ان الاخطاء التي ارتكبتها السلطات الفرنسية المنتدبة كتعليقها للدستور اللبناني وكتسلّط موظفيها وكمنحها للامتيازات الاقتصادية الاحتكارية، كل ذلك ادى إلى نمو الحركات الوطنية المناهضة للانتداب وبالتالي إلى قيام عدة محاولات سياسية وفكرية وعقائدية للتقريب بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين «اللبنانيين» و«العروبيين» من جهة ثانية.

وكانت ابرز المحاولات الفكرية تلك التي قام بها كاظم الصلح، إثر انعقاد مؤتمر الساحل في دار آل سلام في بيروت عام ١٩٣٦. ولخصها اصدقاؤه في كتيب بعنوان «بين الانفصال والاتصال». فلاول مرة ارتفع صوت من صف المسلمين العروبيين في لبنان يقول بأن الاعتراف بكيان لبناني مستقل، شرط ارتباطه بالعروبة، هو خير من رفض الكيان وابعاد المسيحيين عن العروبة.

ثمة محاولة فكرية ثانية قام بها يوسف السودا وشاركه فيها عدد من الشباب المثقف من بينهم تقي الدين الصلح ونصري المعلوف والدكتور ادريس إذ اصدروا بعد اجتماعات استغرقت عدة اشهر بياناً سمي «بالميثاق الوطني» يتضمن الخطوط الكبرى لصيغة وطنية جديدة تدور حول مبدأين اساسيين هما: استقلال لبنان والاعتراف بكيانه من جهة وتعاونه مع محيطه العربي من جهة اخرى.

واكبر دليل على أن هذه الصيغة الوطنية كانت «في الاجواء» منذ عام ١٩٣٨، أن المؤتمر الوطني الذي اعد في بكركي يوم عيد الميلاد ١٩٤٢ واشترك فيه عدد كبير من السياسيين والزعماء من مختلف الطوائف، قد انتهى باصدار بيان يؤكد فيه على تلك المبادىء التي سبق لميثاق يوسف السودا ورفاقه ولبيان كاظم الصلح أن اشارا إليها..

الصيغة وترجمتها

لا شك أن بشارة الخوري ورياض الصلح كانا مطلعين ومتقبلين لاسس هذه الصيغة عند وصولها إلى الحكم. ولكن كيف تم لقاؤهما وكان اتفاقهما على ترجمة هذه الصيغة إلى مواقف وافعال وسياسة وحكم.

لم يكن رياض الصلح شديد الحماس لانتخاب بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية. ولعل السبب يعود إلى الصداقة الشخصية التي كانت تربطه باميل اده. ولكن زعماء الكتلة الوطنية في سوريا والدبلوماسية البريطانية وفوز اللوائح الانتخابية المدعومة منهما، مالبثت أن اقنعته بتأييده.

يقول الجنرال كاترو في كتابه «في معركة المتوسط» أن انتخاب الشيخ بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية، كان ثمرة اتفاقية مع الوطنيين السوريين والعرب، لا نتيجة «لاتفاقية مع الزعماء المسلمين في لبنان».

ويقول كاظم الصلح في حديث اجرته معه جريدة «النهار» في «العدد الخاص الصادر في نهاية عام ١٩٧٤»، أن الاجتماع الاول بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح عقد في مكاتب جريدة «النداء» التي كان يديرها وذلك عشية انتخاب الشيخ بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية، وفي هذا الاجتماع تم الاتفاق على الخطوط الكبرى لما سمي، في ما بعد، بالميثاق الوطني.

اما المؤرخ يوسف ابراهيم يزبك، فإنه روى قصة لقاء الرجلين في مقال نشرته مجلة «الاسبوع العربي» عام ١٩٥٩ ووافق عليه الشيخ بشارة الخوري قبل نشره. ولا ريب في أن ما جاء في مقال المؤرخ يزبك يعبر اكثر من اي مرجع آخر عن الروح التي سادت الجو الذي سبق ولادة الاستقلال، يقول يوسف يزبك: عقد اجتماع اول بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح في عاليه، خلال صيف ١٩٤٣. بدأه الشيخ بشارة الخوري بقوله:

«انت يا رياض، تجاهد منذ ثلاثين سنة في سبيل القضية العربية، ولكنك لم تتنكر لوطنك الصغير لبنان، فلقد آمنت بوجوده وكنت فخوراً بالانتماء إليه، وبالدور الذي قام به في خدمة القضية العربية ايام العثمانيين، ولقد صرّحت مراراً بأن لبنان قادر أن يصبح وطناً عربياً مستقلاً، له طابعه الخاص، يتمتع المسيحيون فيه بالحرية والاطمئنان والكرامة. واعرف انك قادر، مع رفاق جهادك أن تكتبوا صفحة جديدة من حياتنا الوطنية تمحو الصفحة التي اراد الاجنبي أن يفرضها علينا. فما رأيك في اتفاق بيننا على مبادىء اساسية واضحة ترضي الجميع وتطبق على كل اللبنانيين، وتتفق مع النهضة العربية التي نصبو إليها جميعاً» فأجاب رياض الصلح قائلاً:

— «أن نضالي من اجل القضية العربية كان نضالاً من اجل لبنان ايضاً. وانت تعرف أن بعض رفاق جهادي قد انتقدوني من اجل بعض المواقف واتهموني بأن سياستي هي لبنانية واقليمية. ولقد اجبتهم آنذاك بأن من يعمل لحرية لبنان يعمل لحرية العرب كما أن من يناضل من اجل القضية العربية يناضل من اجل لبنان. كنت انت اول من صفق للخطاب الذي القيته وجاء فيه قولي: «افضل أن اكون مواطناً مستقلاً من كفرذبيان على أن اكون مواطناً في امبراطورية عربية يحكمها الاستعمار».

«هذا موقفي الذي لم يتغير وانا سعيد بأن اسمع زعيماً مسيحياً، واعياً لمسؤولياته ومحترماً، كالشيخ بشارة الخوري يوافق على قولي بأن لبنان هو وطن عربي له وضعه الخاص. فهذه يدي امدها واعطني يدك لنتفق».

وهنا طرح الشيخ بشارة الخوري السؤال التالي:

«هل تعتقد يا رياض، أن اتفاقنا يمكن أن يحظى بتأييد المسلمين في لبنان فيعتبروا لبنان وطناً نهائياً لهم لا مرحلة انتقالية؟ هل تعتقد بأنهم لن يتطلعوا من جديد نحو دمشق ليروا فيها محط آمالهم وآمانيهم»؟.

وقاطعه رياض الصلح قائلاً:

— «إذا كان اتفاقنا واضحاً وصريحاً وشريفاً وبدون غبن لاحق بأحد، وضامناً لكرامة المسلمين والمسيحيين معاً ومحترماً لمشاعر الفريقين وموزعاً الحقوق بين الجميع بالمساواة،



الرئيس بشارة الخوري

اي إذا كان النظام الذي نسعى إليه يضمن العدل للمسلمين فإنني لا اتعهد بتأييد المسلمين في لبنان له فحسب، بل باقناع كل الحكام العرب ولا سيما السوريين، بالاعتراف باستقلال لبنان وبحدوده الراهنة، اعترافاً ابدياً. وهكذا نطوي صفحة الماضي المرير، ونضع حداً لمعزوفة «الام الحنون» والانضمام إلى سوريا وندشن عهداً جديداً من الوطنية».

ويقول يوسف يزبك: ان مضمون هذا الحوار لم يبق سراً، بل اطلع عليه كل رفاق الرجلين، ولا سيما رجال الحركة الوطنية في سوريا (شكري القوتلي، سعد الله الجابري، وجميل مردم) كذلك زعماء المسلمين في لبنان (عمر بيهم، عبد الحميد كرامي وابو علي سلام).

ثمة اجتماع آخر عقد بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح ـ بعد انتخاب الاول لرئاسة الجمهورية وتأليف الثاني للحكومة. يروي يوسف يزبك تفاصيله فيقول: خلال هذا الاجتماع الثاني تم الاتفاق على المبادىء الاساسية لما سمي بالميثاق الوطني واهمها:

١ ـ «ان لبنان جمهورية مستقلة ـ سيدة، لا ترتبط بأي معاهدة او اتفاق مع اي دولة اجنبية.

٢ ـ لبنان ذو وجه عربي لغته هي اللغة العربية، وهو جزء لا يتجزأ من العالم العربي. ولكن له وضعه الخاص. كما ان عروبته لا تلزمه بقطع علاقاته الثقافية والحضارية مع الغرب.

٣ ـ يجب توزيع الوظائف العامة بالعدل والتساوي بين الطوائف».

ويعلق يوسف يزبك على ذلك بقوله: إن هذه المبادىء تفترض، ضمناً، أن يتخلّ المسيحيون عن مطلب الحماية من الغرب وبنوع خاص من فرنسا وعلى أن يتخلّ المسلمون عن مطلب الانضمام إلى كيان سياسي عربي.

ويختتم يزبك مقاله بقوله: لقد عرضت هذه الوقائع قبل نشرها على الشيخ بشارة الخوري، فقرأها ووافق عليها واضاف عليها ما يلي:

ـ «اريد أن اضيف عليها ان الغاية من هذا الاتفاق كانت:

ـ بلوغ الاستقلال التام والناجز للبنان، عن الشرق والغرب.

ـ لا حماية ولا وصاية ولا امتيازاً ولا مركزاً ممتازاً لمصلحة اي دولة.

ـ التعاون إلى اقصى حدود التعاون مع الدول العربية.

ـ الصداقة مع كل الدول التي تعترف باستقلالنا وتحترمه».

واضاف الشيخ بشارة:

ـ «إن الميثاق الوطني لم يكن مجرد مصالحة بين طائفتين فحسب، بل انه صهر عقيدتين في واحدة. عقيدة اولى كانت تدعو إلى دمج لبنان في كيان وطني اكبر، وثانية كانت تؤمن بضرورة إبقاء هذا الكيان محمياً من الغرب. جاء الميثاق ليلغي هذين الاتجاهين بالتفهم والتفاهم، وليحل محلهما عقيدة واحدة، وطنية لبنانية».

وختم الشيخ بشارة الخوري حديثه قائلاً:

ـ «حتى إذا افترضنا أن الميثاق الوطني كان تسوية بين طائفتين او بين بيئتين، او بين الطوائف اللبنانية، فكيف يمكن تجاوزه قبل أن نجد صيغة جديدة للتعايش والوئام تحل محله»؟.

تقييم احداث عام ١٩٣٧

إن من يستعرض الاحداث التي تعاقبت على «جبل لبنان» ثم على لبنان الكبير او يتبصر في التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي تتابعت منذ منتصف القرن التاسع عشر مستكشفاً القوى النافذة التي باعدت أو قربت بين ابناء هذه البقعة من الارض قبل أن تصبح وطناً موحداً ودولة مستقلة، يجد نفسه مضطراً إلى التوغل بعيداً في التاريخ، ليصل إلى القرن السابع (ظهور الاسلام والفتح العربي) او إلى القرن السادس (ظهور المارونية وتدرجها إلى جبل لبنان).

ولدى استعراض هذه الاحداث والتطورات ومجرى تنابذها يتوصل الانسان إلى خلاصة اولى وهي أنها احداث وتطورات، كان من شأنها تبرير ولادة الميثاق الوطني وتبرير نقضه في آن واحد.

فالذين «قدّسوا» الميثاق واعتبروه نهائياً يجدون في تاريخ لبنان اكثر من مبرر لموقفهم. كذلك الذين انتقدوا الميثاق او انكروه.

إن تقييم الميثاق الوطني وما حدث عام ١٩٤٣، يمكن أن ينظر إليه من زوايا مختلفة.

١ ــ النظرة التاريخية

يقول اصحاب هذه النظرة ان الميثاق الوطني هو «تجسيد لآمال ومعاناة اللبنانيين خلال قرون. فلقد ناضل اللبنانيون ضد العثمانيين في عهد الامارة المعنية والامارة الشهابية، ثم ناضل موارنة الجبل منذ مطلع القرن التاسع عشر وطوال عهد المتصرفية للحصول على مزيد من الحكم الذاتي والاستقلال كما ناضلوا لايجاد كيان وطني وسياسي، فكانت ولادة لبنان الكبير عام ١٩٢٠. ولم يكف السياسيون اللبنانيون اثناء عهد الانتداب عن المطالبة بالاستقلال التام. ولذلك فإن بلوغ الاستقلال عام ١٩٤٣ جاء تتويجاً لهذا النضال الطويل من اجل إنشاء وطن واستقلاله.

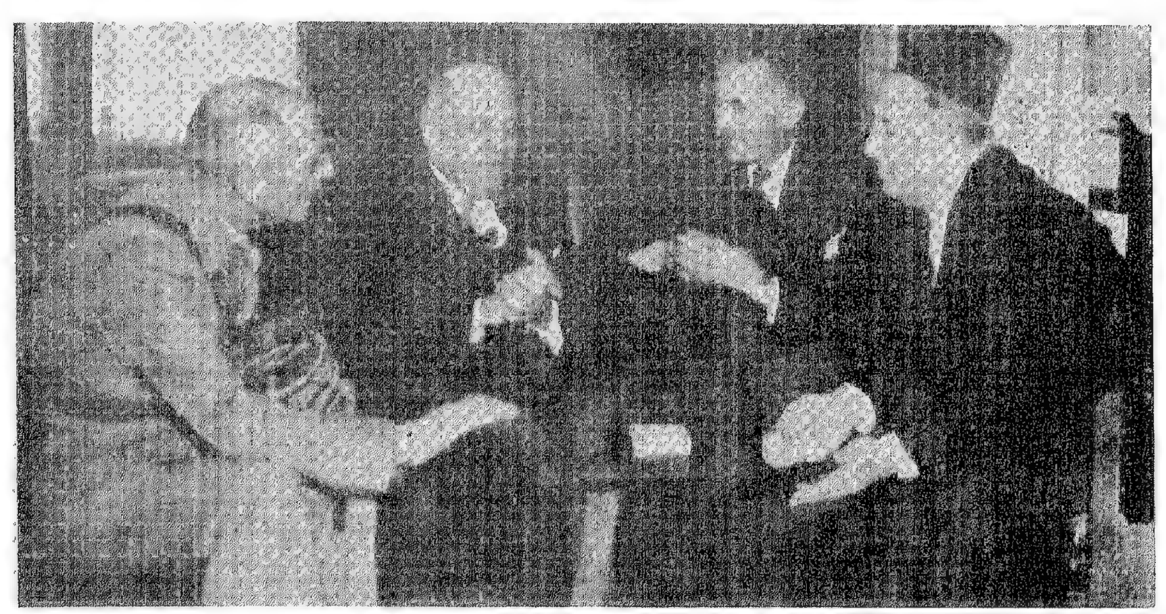
والجدير بالذكر أن «القوميين العرب» ايضاً يشاطرون «القوميين اللبنانيين» هذه النظرة التاريخية لاحداث ١٩٤٣ ولكن من منطلق مختلف. إذ يعتبرون الميثاق الوطني تتويجاً لنضالهم طوال ربع قرن ضد الانتداب الفرنسي. ولعل كمال جنبلاط اصاب في قوله: ان «الميثاق الوطني هو محور التأليف بين الفكرة العربية والفكرة اللبنانية».



الرئيس رياض الصلح

٢ ــ النظرة الاقتصادية ــ الاجتماعية

اصحاب هذه النظرة من العقائديين، يقولون بأن الميثاق هو النتيجة الطبيعية لتطور البنيات الاجتماعية ولارادة العيش المشترك، فالطائفية السياسية لم تكن موجودة في لبنان قبل القرن التاسع عشر، ولو كانت موجودة لما استطاع الموارنة الانتشار من شمالي لبنان إلى جنوبه، ولما تقبل سكان المناطق الدرزية والشيعية الهجرة المسيحية. اما إرادة الاستقلال عن الاجنبي والتحرر السياسي فقد عبّرت عنها عامية أنطلياس (١٨٤٠) وثورة طانيوس شاهين في كسروان (١٨٥٨). وما إعدام الشهداء اللبنانيين في ٦ ايار ١٩١٧ وانتفاضة الشعب في تشرين ١٩٤٣، إلا دلائل على وجود الارادة الشعبية الداعية لحقها في الاستقلال.



بعد الرجوع من راشيا: الجنرال كاترو والمسيو ايف شاتينيو يهنئان الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح

القائلون بهذه النظرية يرون أن انتشار الوعي بين الفلاحين اللبنانيين في القرن التاسع عشر وتجارة الحرير مع فرنسا هما ما اديا إلى خلق طبقة وسطى كان من مصلحتها إزالة حكم الاقطاع. كما أن نضال الطبقات البورجوازية دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية ضد الفرنسيين هو ما ولد الضمير الوطني ووحد المسلمين والمسيحيين في جبهة نضال واحدة. كذلك وعي رجال الاعمال وأصحاب المهن الحرة لما يوفره المجال الحيوي العربي من إمكانيات كانت ما حملهم على الاتفاق مع الحركة الوطنية العربية ضد الانتداب الفرنسي.

٣ ــ النظرة السياسية

اصحاب هذه النظرة يقولون ان الميثاق الوطني وما حدث عام ١٩٤٣، لم يكن إلا «تسوية» او «صيغة سياسية» للتوصل إلى الاستقلال، وهو لا يخرج عن كونه «صيغة التعاون» بين سياسيين ينتمون إلى ايديولوجيتين مختلفتين.

يدعم اصحاب هذا التفسير السياسي مقولتهم هذه بحجج عديدة منها أن الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح لم يجتمعا ويتفقا إلا في صيف ١٩٤٣، وأن التباين العقائدي بين المسيحيين والمسلمين وبين «القوميين العرب» و«القوميين اللبنانيين» كان لا يزال قائماً بل ومحتدماً إلى حد ما حتى اواسط عام ١٩٤٣.

يقول هؤلاء انه لو لم ينتخب الشيخ بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية ويأت رياض الصلح إلى رئاسة الوزراء لتغيرت سيرورة الاستقلال فتأخر سنتين او ثلاثاً. ويؤكد هؤلاء أن الاتفاق بحد ذاته، كان اقرب إلى التسوية منه إلى إيجاد قواعد واضحة. فالميثاق في نظر اصحاب النظرة السياسية كان مجموعة حلول وسطية بين العروبة واللبنانيين، بين الوحدة والحماية، بين الشرق والغرب، بين اماني المسلمين واماني المسيحيين.

إن من يستعرض الاحداث التي عاشها لبنان عام ١٩٤٣ لا يستطيع إلا الاعتراف بأن السياسيين كانوا مضطرين إلى الاتفاق على تسوية وطنية وسياسية لبلوغ الاستقلال الذي كانت الظروف الاقليمية والدولية مؤاتية له. كما كان من الطبيعي أن تكون التسوية مستوحاة من محاولات تأليفية وطنية جرت قبل ذلك واشترك في صياغتها مسلمون ومسيحيون عربيون ولبنانيون.

٤ ــ النظرة الطائفية

اصحاب هذه النظرة سواء كانوا ينتمون إلى اليسار الماركسي او إلى اليمين المسيحي، يقولون



الجنرال ادوارد سبيرس وحوله الرؤساء بشارة الخوري وصبري حمادة ورياض الصلح

ان الميثاق كان «اتفاقاً طائفياً» او «اتفاقاً يكرس الطائفية». فالشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح اتفقا على إبقاء دستور ١٩٢٦ ولا سيما المادة ٩٥ منه التي تكرس النظام الطائفي. كما أنهما الّفا اول حكومة استقلالية على اساس توزيع المقاعد الوزارية بين الطوائف الست الكبرى. وان كل العهود التي تعاقبت بعد الاستقلال سارت على هذا المنوال.

بعض المعلقين على هذه النظرة الطائفية يقولون ان الغاية الاساسية للميثاق كانت تقضي بتجاوز الطائفية يوماً (يستشهدون ببيان رياض الصلح الوزاري الذي ادان فيه الطائفية وتمنى إلغاءها) ولكن رجال السياسة والاقطاع والبورجوازية الذين حكموا، باسم الميثاق، قد طيّفوه باضافة التوازن الطائفي إلى محتواه، وذلك من اجل المحافظة على امتيازاتهم السياسية ومصالحهم الاقتصادية..

النظرة الشخصانية

هنالك اخيراً اصحاب النظرة الشخصانية، اي هؤلاء الذين يقولون بأن ميثاق ١٩٤٣ ليس إلا اتفاقاً شفوياً شخصياً، تم بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح او «كلمة شرف» اتفقا عليها، بعد وصولهما إلى الحكم، واتفاقهما على بلوغ الاستقلال التام.

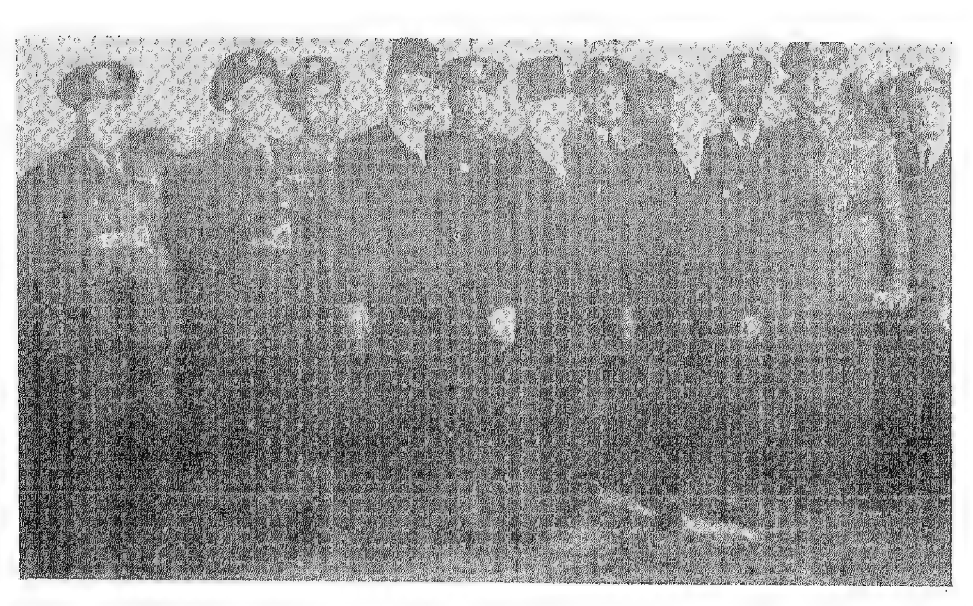
يستند اصحاب هذه النظرة إلى ظروف لقاء الرجلين والاحاديث التي تبودلت بينهما، وإلى فشل الصيغة بعد تركهما الحكم. واستناداً إلى تلك اللقاءات والاحاديث يمكن القول بأن سوريا كانت الطرف الثالث في ميثاق ١٩٤٣، باعتبار أن الشيخ بشارة الخوري اتفق مع الزعماء الاستقلاليين السوريين على الصيغة الوطنية للاستقلال اللبناني، وأن رياض الصلح والزعماء المسلمين ما كانوا لينضموا إلى هذه الصيغة لولا قبول الحركة الوطنية السورية بها.

إستناداً إلى هذه النظرة الشخصانية للامور يمكن القول ايضاً بأن بشارة الخوري ورياض الصلح لم يبتكرا ميثاق ١٩٤٣ بل تبنيا صيغة كان قد اشترك في بلورتها وإخراجها سياسيون ومفكرون آخرون قبلهم ابرزهم: ميشال زكور، يوسف السودا، عزيز الهاشم، كاظم الصلح.

خلاصة

حتى اواخر عام ١٩٤٣، لم تكن عبارة «الميثاق الوطني» قد لفظت. ولم ترد في الادب الرسمي او السياسي إلا في عام ١٩٤٥ عندما اخذ الشيخ بشارة الخوري يرددها في خطبه اثناء الجولة التي قام بها في المناطق اللبنانية.

إلا أن ما اتفق عليه الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح في صيف ١٩٤٣ لبلوغ



الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح ومجيد ارسلان وحولهم بعض الضباط بينهم فؤاد شهاب واميل البستاني

الاستقلال التام الناجز والتعاون مع الدول العربية وضع موضع التنفيذ ابتداء من عام ١٩٤٣ عندما عدل الدستور ودخل لبنان في جامعة الدول العربية ورفض عقد معاهدة مع فرنسا.

وفي عهد الشيخ بشارة الخوري، طبق هذا الاتفاق بدقة. فرفضت الدولة اللبنانية دخول الاحلاف العسكرية الغربية وحارب لبنان مع الدول العربية في فلسطين ورفض مشاريع الهلال الخصيب وسوريا الكبرى.

والحقيقة ان ما حصل عام ١٩٤٣ لم يكن عملاً بطولياً قام به رجلان ولا لعبة انكليزية، غايتها إخراج فرنسا من الشرق كما لم يكن تتويجاً لنضال اللبنانيين التاريخي من اجل الاستقلال والتحرر، ولا كان نتيجة طبيعية لتطور البنيات الاجتماعية والاقتصادية بل كان خلاصة كل هذه العوامل مشتركة او على الاصح لعبت كل هذه العوامل والعناصر في تكوينه او صيرورته.

فبشارة الخوري ورياض الصلح كانا مؤهلين اكثر من غيرهما شخصياً ونفسانياً وسياسياً للقيام بهذا الدور. والسياسة البريطانية لم تكن تعكس أراء الجنرال سبيرس الخاصة بمقدار ما كانت تتلاءم مع مصالح الحلفاء قبيل انتهاء الحرب، ومنها أن تبلغ الدول العربية استقلالها وأن توحّد كلمتها في جبهة موالية للغرب.

كذلك لا يمكن اهمال التطور الاجتماعي والاقتصادي في لبنان خلال السنوات العشرين التي سبقت الاستقلال، والذي افرز اجيالاً جديدة، ليس للاعتبارات الطائفية التأثير الاول على تفكيرها. ولا ريب ايضاً في أن الاستقلال كان امنية اقوى من أن تقاوم او ترفض.

غير أن شكلية ما حدث عام ١٩٤٣، بدأت بعد الاستقلال. فما أن نعم اللبنانيون بهذا الاستقلال حتى وقع اخطر حدث عرفته هذه المنطقة منذ ٣ آلاف سنة ألا وهو قيام دولة اسرائيل، عنصرية توسعية، يساندها الغرب على حدود لبنان. وتلى ذلك ظهور النفط العربي كأهم مصدر للطاقة في العالم للنصف الثاني من القرن العشرين، الأمر الذي حول الشرق الأوسط إلى ميدان للحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية.

إن اسرائيل والنفط والصراع الاميركي ــ السوفياتي، جعلت الاستقلال اللبناني والميثاق الوطني أشبه بريشتين في مهب المصالح الدولية.

وكان أن تحول الاستقلال والميثاق من قاعدتين لبناء مستقبل الشعب اللبناني، إلى وسيلتين لتفكيك وحدة لبنان شعباً وكياناً.

ولسوء الحظ، ساعد السياسيون اللبنانيون تلك القوى الخارجية في بلوغ غاياتها وما الحرب اللبنانية الحالية إلا شاهد ودليل على ذلك.



من الميثاق الى الوفاق

د. داود الصايغ





إن الحرب المتعددة الأهداف والوسائل، والمتصلة بالكثير من الأطراف والمصالح الأقليمية والدولية، جعلت من لبنان محطة للصراع. في هذا الصراع الذي كان لبنان ساحته واللبنانيون ضحاياه، تم تدمير الكثير إلى درجة أن العديد من اللبنانيين وغيرهم، صاروا يتحدثون عن لبنان القديم ولبنان الجديد، في غمرة المرارة التي أحسوا بها، وبحثاً عن المسؤولية الضائعة في ما وصل إليه لبنان من كارثة. وقد فات هؤلاء أن هذا الطرح خدم في بعض المراحل بعض المصالح الخارجية، التي أرادت تصوير لبنان وكأنه انتهى، تمهيداً ليس لبناء الجديد، وإنما لدحض الفكرة التي يقوم عليها لبنان من جهة، وللنظر في ما يمكن النظر فيه من مطامع ومصالح فيما لو انتهى لبنان فعلاً.

ولبنان لم ينته ولم يمت. في مجال صموده كوطن يمكن القول أنه استطاع ألا يموت، وهذا في الأساس. بعد ذلك، حين أمعن البعض النظر في مواقفهم وفي خطواتهم، وحين بدأوا يشهرون إصرارهم على العيش الواحد، وأخذ تعبير الوفاق يحتل مكانه كسبيل للخلاص، بدا للجميع أن لا لبنان القديم مات ولا لبنان الجديد قام، وان الأوطان في النهاية، تجتاز المحن وتعبر عن

قدرتها في التجدد والتطور انطلاقاً من مقوماتها الأساسية.

ولبنان له مقومات أساسية يؤمن بها جميع اللبنانيين، ويعبر عنها يوماً بعد يوم جميع الذين لهم دور أو رأي في الأزمة من أية فئة كانوا. حتى الآن لم يقبل أحد بغير بقاء لبنان موحداً، وبقاء شعبه واحداً ومؤسساته واحدة، ونظامه ديموقراطياً برلمانياً. وهذه الأقوال لها ترجمات عرفها في البدء بناة الاستقلال وبناة الوطن الواحد، فجعلوا الميثاق الوطني دستوراً ثانياً تكمن قوته ــ بعكس ما ظن البعض ــ ليس في الجمود والتحجر، بل في التقدم والتطور والتجاوب مع مقتضيات الحياة نفسها. وهذه التجربة، أو هذه الصيغة كما تسمى أحياناً، أثبتت خلال أكثر من ثلاثين سنة قابلية للنجاح بحيث أن الاستمرار بها وتطويرها ليس فقط هو المطلب بل إنه الأمر الوحيد الممكن إذا كان الهدف الابقاء على لبنان صيغة وكياناً ونظاماً.

فالوفاق السياسي الذي هو في رأس المواضيع المطروحة، ليس في النهاية سوى إعادة تأكيد للميثاق الوطني، وتثبيت الايمان في ما تم التوافق عليه في البدء من رغبة واحدة مشتركة في العيش. فإذا كان قد حصل تباين بين المبدأ والتطبيق، بين الأصول والممارسة، فتلك مسؤولية يتحملها الذين تولوا التطبيق، كما في كل مكان وزمان تحصل فيه مثل هذه التجاوزات، فلا يدمر الهيكل نفسه، بحثاً عن مسؤولية قد تكون في النهاية مسؤولية الجميع، ودعوة إليهم لتصحيح المسار. فالدساتير والقوانين والمواثيق تنجح وتفعل فعلها بقدر ما تحاط الممارسات حولها بظروف النجاح، وتفشل بقدر ما تستخدم في غير اتجاهاتها الصحيحة.

وفي لبنان، اليوم قبل الأمس، إذا كانت الحاجة تبدو ماسة إلى وفاق ما بين اللبنانيين، فإنها أكثر إلحاحاً لتوفير ما يكفي من ظروف وشروط لمنع تكرار التجاوزات، ومنع أسباب الفشل، وهذا حق مشروع من حقوق اللبنانيين الذين عانوا من حرب قاسية وظالمة لا يجوز بعدها أن تتكون نفس الظروف التي سببتها.

لبنان هو بالطبع بلد صغير جعله القدر في محطة قابلة لتلقي مختلف أنواع الانعكاسات والتيارات في منطقة الشرق الأوسط. وكان نظامه وطبيعة تكوين شعبه عنصران مساعدان لهذه الانعكاسات. غير أن ما برز من تميزات وخصائص كان يفرض أن تتحول إلى إيجابيات في النظام اللبناني، وإلى مندفعات قوة لا إلى سلبيات تفسح في المجال أمام ما حصل من تفسخات ومن مخاطر هددت بالقضاء على لبنان.

ولبنان ذو تجربة إنسانية فريدة، جعلته إلى حد ما مختبراً بشرياً فذاً لم تعرف أية دولة أخرى في العالم كياناً مشابهاً له. وهو كيان مناقض لاسرائيل ومتعارض مع كيانها العنصري الديني الذي تقوم عليه. هذا من جملة ما واجهه لبنان من أقدار، لأنه لم يتسن لتجربته المتميزة أن تعيش سوى خمس سنوات، بين ١٩٤٣ و١٩٤٨، بدون الجوار الاسرائيلي الذي أصبح فيما بعد جواراً خطراً ليس فقط على الحدود وفيما يتعلق بالمطامع، بل على الأسس نفسها التي يقوم عليها لبنان، وفي محاولة ضرب مبدأ العيش الواحد بين أبناء الطوائف المختلفة. ومن هنا فإن المسؤولين الاسرائيليين هم أول الذين استعجلوا الحديث في البدء عن زوال لبنان القديم.

على أنه مهما قيل في أسباب الحرب وأطرافها، ومهما قيل في الأهداف والممارسات، ومعظمها أسباب وأهداف غير لبنانية، إلا أن الحقيقة أن حرب الغير هي محنة للبنان. لو كان الجسم أقوى لما داخله المرض. لو كان الوطن مسيجاً لما استبيح، لأن الأوطان تسيج مثل البيوت، وتحمى بالعين اليقظة، ولأن الحفاظ على لبنان هو سهر دائم، وبالأخص إذا أراد اللبنانيون الحفاظ على نظامه الديموقراطي البرلماني، وعلى خصائصه التي جعلت تجربته السياسية والفكرية والانسانية والاقتصادية تجربة متميزة.

فالمحنة هي محنة التجربة، أي بصراحة محنة الميثاق ولكنها امتحان له، اي امتحان للقدرة على العيش والبقاء. فمنذ عام ١٩٤٣ وحتى اليوم، مر الميثاق بعدد من الامتحانات أدت كلها، رغم كل شيء إلى تأكيد التمسك به، بشكل أو بآخر، كان الوفاق تعبيره الأخير على نحو ما نسمع يومياً من تأكيدات شاملة

حول ضرورة الوصول إليه.

الوفاق تعبير اندرج على آلسنة المسؤولين ودخل في حياتنا اليومية كهدف يسعى اللبنانيون إلى بلوغه. ما هو الوفاق، ما ترجمته، ما دوره مع الدستور؟

الميثاق الوطني قيل أنه دستور غير مكتوب، وهذا صحيح. كان إلى جانب الدستور المكتوب، والدستور راعاه حتى وإن اقتضى ذلك العمل بغير النصوص أحياناً خدمة للميثاق. من هنا كان تلازمهما، وكانت تلك الصيغة اللينة للدستور نفسه، وللحياة الدستورية بصورة عامة، التي جعلت الأولوية لمقتضيات الحياة على نحو ما تفرضه مصلحة العيش، ومنطق القبول وأصول التعامل. وكان لكل ذلك ترجمات عملية شهدناها ونشهدها في المجال السياسي، على مختلف أصعدة السلطة، في الادارة، في سائر المؤسسات، وفي مختلف أوجه الحياة العامة في لبنان.

الوفاق السياسي، أي الحل الداخلي للأزمة اللبنانية هو مثل الميثاق من حيث تأكيده لارادة العيش الواحد، ويختلف عنه في أنه إذا ما تحقق، فقد تكون له مقتضيات تصل إلى بعض التعديلات. أي أن اجراءات معينة قد تكون من بين ما يتم الاتفاق عليه. فالوفاق إذن، وان انطلق من الميثاق كمبدأ وكفكرة، إلا أنه يشتمل على كل ما من شأنه أن يؤدي إليه، وما يمكن أن تكون عليه النهاية.

ومن هنا فإنه ليس في الوقت الحاضر من طروحات متعلقة مباشرة بالدستور، وما يطلق بين الحين والآخر من مطالبات باصلاحات دستورية إنما ينظر إليها من وجهة شمولية تتعلق بمجمل الأزمة اللبنانية. فالوفاق، كما تم الاتفاق على تسميته، خرج من دائرة الشعارات والخطب والتصريحات، وتجسد في «مسلمات الوفاق» الأربعة عشر، التي أقرها مجلس الوزراء في الخامس من آذار ١٩٨٠، وأعلنها رئيس الجمهورية.

المسلمات هذه تعالج الأزمة اللبنانية، وتؤكد على «وحدة لبنان أرضاً وشعباً ومؤسسات، وعلى استقلاله وسيادته»، على «التمسك بالنظام الديموقراطي البرلماني الحر مع الأخذ بواجب تعزيزه وتطويره ليبقى متجاوباً مع تطلعات الشعب». وتؤكد على عروبة لبنان وعلى ضرورة إرساء علاقات لبنان مع الدول العربية على أساس الأخوة والتعاون، وعلى دعم القضية الفلسطينية وتأكيد رفض الدولة لمشاريع التوطين ولمقررات كامب دايفيد، وعلى ضرورة تنفيذ قرارات مجلس الأمن، ورفض كل أشكال التعامل مع اسرائيل.

هذه المسلمات هي إطار الوفاق ومنطلقه. وهي في مضمونها وروحها وبنودها تدور حول مواضيع قديمة ومستحدثة وطارئة يفترض أن تلقى الاتفاق. فالميثاق، إن انتقل إلى اليوم، فلعله وجد هذه الصيغة المتطورة، أي الصيغة المتكيفة مع المقتضيات والقضايا والمشاكل. ولكن الأساس هو ذاته، والقديم والجديد متمازجان في مسيرة الوطن، وفي اجتياز الامتحان الذي سببته محنة قاسية.



مسلمات الوفاق

١ ــ **التأكيد على وحدة لبنان** أرضاً وشعباً ومؤسسات وعلى استقلاله وسيادته، وهذا يوجب تعزيز السلطة وإلغاء كل ما يتعارض معها وكل ما يتنافى مع الشرعية أو النظام أو القانون وفرض بسط سيادة الدولة على كل الأراضي اللبنانية وعلى جميع المقيمين عليها وتوفير الأمن، ويستلزم الاسراع في وضع خطة أمنية شاملة تتناول كل المناطق اللبنانية بالتنسيق بين قوى الأمن الداخلي والجيش اللبناني وقوات الردع العربية.

٢ ــ **التمسك بالنظام الديموقراطي البرلماني الحر** مع الأخذ بواجب تعزيزه وتطويره ليبقى متجاوباً مع تطلعات الشعب في الاستقرار والطمأنينة والتقدم والعدالة ومع متطلبات

العصر والمحافظة على طابع لبنان القائم على احترام الحريات الأساسية في إطار النظام والقانون وعلى الانفتاح الثقافي والحضاري على العالم.

٣ ــ **التمسك بالنظام الاقتصادي الحر** مع التأكيد على دور الدولة في التنظيم والمراقبة وعلى ضرورة اعتماد التخطيط الانمائي الشامل لاعمار لبنان وتطوير قدراته الانتاجية وتمتين بنيته الاقتصادية والاجتماعية.

٥ ــ **لبنان بلد عربي** وعضو فاعل في الأسرة العربية ويلتزم بالعمل وفقاً لميثاق جامعة الدول العربية على تعزيز دورها في المحافظة على التضامن العربي وفي تنسيق الطاقات العربية ضد العدو الصهيوني في الصراع العربي ــ الاسرائيلي وفي تأمين رص الصف في النضال من أجل قضايا العرب القومية.

٦ ــ **الاسراع في إرساء علاقات لبنان مع الدول العربية** الشقيقة على أساس الأخوة والتعاون والاحترام المتبادل لاستقلال كل دولة وسيادتها وأنظمتها وقوانينها والحرص على عدم تدخل أي دولة في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

٧ ــ **دعم القضية الفلسطينية** وتأكيد رفض الدولة لمشاريع التوطين ولمقررات كمب دايفيد باعتبار أنها لا تشكل إطاراً صالحاً لإحلال سلام عادل ودائم في المنطقة ولا تؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في إقامة دولته على ترابه الوطني في فلسطين وتؤدي بالتالي إلى توطين الفلسطينيين في البلدان المستضيفة لهم.

٨ ــ **الإصرار على تامين تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بجنوب لبنان** تنفيذاً كاملاً وصحيحاً بكل الوسائل المكنة بهدف إنهاء الاحتلال الاسرائيلي للشريط الحدودي واستعادة الدولة لسيادتها على كامل أرض الجنوب دونما استثناء حتى الحدود المعترف بها دولياً والتمسك باتفاق الهدنة والعمل على تعليق أحكامه ودعم صمود الجنوب بكل الوسائل والامكانات.

٩ ــ **رفض كل أشكال التعامل والتعاون مع العدو الاسرائيلي.**

١٠ ــ **العلاقات مع سوريا علاقات خاصة** قائمة على أساس الاحترام المتبادل لاستقلال كل من البلدين وسيادته ونظامه انطلاقاً من الروابط التاريخية والمصالح المشتركة والنضال المشترك وأواصر القربى بين الشعبين الشقيقين.

إن هذه العلاقات تفرض قيام تعاون وثيق وتنسيق متكامل بين البلدين وبالتالي تنظيم العمل المشترك بينهما.

١١ ــ **ضرورة تنفيذ الاتفاقات المعقودة مع منظمة التحرير الفلسطينية** تنفيذاً سليماً وكلياً في إطار سيادة لبنان وسلامته مع مراعاة مقررات مجلس الأمن الدولي.

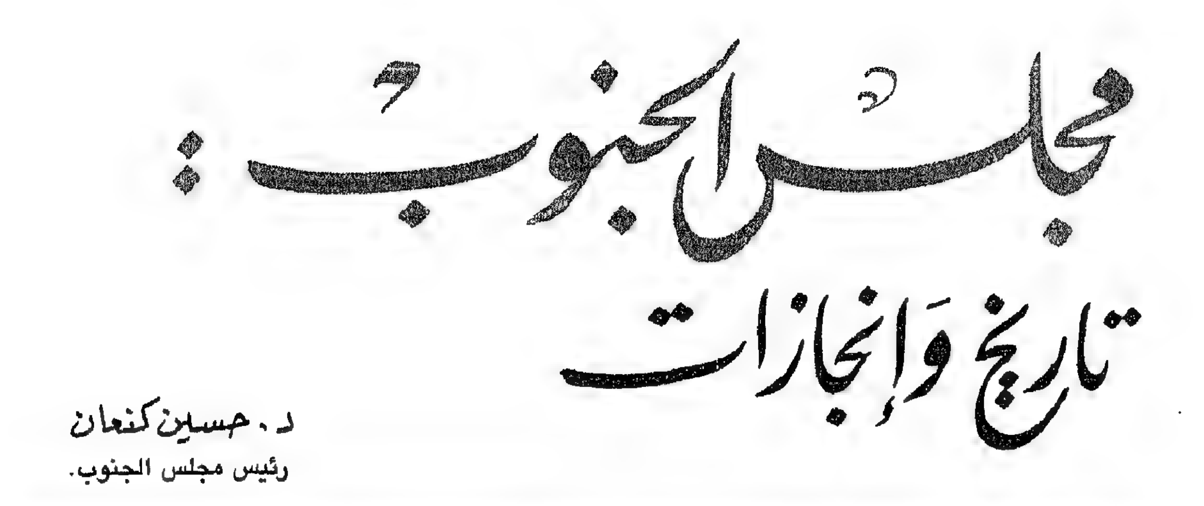
ويؤكد لبنان تعاونه مع المنظمة في سبيل استعادة الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية المشروعة ولاسيما حقه في إقامة دولته على أرضه.

١٢ ــ **ينفتح لبنان على أعضاء المجموعة الدولية** ويتعامل معهم على أساس مصادقة من يصادقه ويتعاون معهم ضمن إطار منظمة الأمم المتحدة مع حرصه على الابتعاد عن سياسة المحاور.

١٣ ــ **تنمية العلاقات مع اللبنانيين المغتربين** وتوثيق الاتصال بهم وتعزيز دور الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم في خدمة لبنان وقضاياه.

١٤ ــ **اعتبار كل هذه المبادىء متماسكة متكاملة لا يجوز تجزئتها.**





د. حسين كنعان
رئيس مجلس الجنوب.

كيف انشىء المجلس؟ ولماذا؟

أثر تزايد الهجمات الاسرائيلية خاصة على الأراضي الجنوبية من لبنان واتخاذها طابع سياسة الأرض المحروقة بهدف افراغ منطقة الجنوب من سكانها، رأت الدولة ايجاد مؤسسة خاصة تتخطى باسلوبها الروتيني الاداري المعقد لمعالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن هذا الوضع الخطير. ولذلك خصص مجلس النواب بموجب القانون ٩/ ٧٠ تاريخ ٢ حزيران ١٩٧٠ مبلغ ٣٠ مليون ليرة لبنانية لتلبية حاجات منطقة الجنوب واجاز للحكومة انشاء مجلس خاص للقيام بهذه المهمة. وتطبيقاً له صدر مرسوم رقم ١٤٦٤٩ تاريخ ١٢ حزيران ١٩٧٠ انشىء بموجبه «مجلس الجنوب» للقيام بجميع الاعمال التي تؤول إلى تلبية حاجات منطقة الجنوب وتوفير اسباب السلامة والطمأنينة لها بهدف ابقاء السكان الجنوبيين في منازلهم والحؤول دون هجرتهم إلى خارج المنطقة. وقد أعطي المجلس الصلاحيات للقيام بمهمته وارتبط مباشرة برئيس مجلس الوزراء وتألف من مجلس ادارة غير متفرغ ومكون من تسعة أعضاء ومن مدير عام وجهاز تنفيذي مؤقت. ولكن ولاسباب عديدة لا حاجة لذكرها، ونتيجة ازدياد الضغط على المجلس من جراء تكدس التعويض عن الاضرار وعجزه عن تلبية الحاجات الملحة للمواطنين بعد ان اصبحت الاعتداءات الاسرائيلية شبه يومية، رأت الدولة اعادة تنظيم المجلس على اسس جديدة واضحة فأصدرت المرسوم رقم ٤٠١٤ تاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٨١ الذي أوجد مجلس ادارة للتخطيط والتقرير والمراقبة يتألف من ٣ أعضاء متفرغين كما أوجد مديرية عامة. وقد تم بموجب المرسوم رقم ٤٠١٥ تاريخ ٩/ ٤/ ١٩٨١ تعيين مجلس الادارة الجديد الذي تألف من ثلاثة اعضاء (رئيس ونائب رئيس،وعضو).

◁



● وكانت الخطوة الأولى لمجلس الادارة الجديد وضع واكمال الأمور القانونية والتنظيمية للمجلس: النظام المالي للمجلس، النظام الداخلي لمجلس الادارة، وما زال نظام موظفي المجلس قيد الدرس من قبل الجهات المختصة.

● ورغم ان الغاية الاساسية من انشاء مجلس الجنوب كانت لمعالجة الازمات الحادة التي عصفت وتعصف بهذه المنطقة من لبنان فان نطاق عمل المجلس قد امتد في كثير من الاحيان إلى خارج هذه المنطقة حيث اتخذت الاعتداءات الاسرائيلية شكل الكوارث الاجتماعية مثل منطقة الأوزاعي ومنطقة الفاكهاني. اما نطاق التعويضات فقد اقتصر مؤخراً على الاضرار الجسدية أو المادية اللاحقة بالشخص اللبناني أو بمسكنه بفعل الاعتداءات الاسرائيلية.

الاعمال التي قام بها المجلس

بلغ مجموع الأموال المحولة لمجلس الجنوب حتى تاريخ ٣١/١٢/١٩٨٠ ما مقداره (٢٠٠,٣٠٥,٥٨٨) ليرة لبنانية. انفق منها حتى نفس التاريخ ما مجموعه (١٧١,٢١٨,٨٥١) ليرة لبنانية. وقد شمل هذا الانفاق كافة أوجه النشاطات الاجتماعية والانمائية والادارية. فتحقيق الاهداف التي من أجلها انشىء المجلس يوجب تعويض المتضررين في أرواحهم وفي سكنهم. كما يوجب القيام بمشاريع انمائية جماعية تساعدهم على البقاء في أرضهم والتغلب على مشاكلهم الاقتصادية.

الناحية الاجتماعية الانسانية

صرفت هذه المبالغ في هذه الناحية كمساعدة اجتماعية لتغطية جزء من الضرر اللاحق بالمواطنين وقد بلغت نسبة مجموع هذه النفقات إلى النفقات العامة ما مقداره (٥٨,٦٧٪) وشملت كافة النواحي الاجتماعية ومنها:

١ ـ تعويضات الورثة القتلى أو لمساعدة الجرحى حيث قضى نظام المجلس بدفع تعويض لذوي القتلى بفعل الاعتداء الاسرائيلي يتراوح بين ٥ و١٠ آلاف ليرة وفقاً لعدد أفراد عائلة القتيل ومدى مساهمته في اعالة عائلته. أما تعويض الجرحى فيدفع نسبة إلى تكاليف المعالجة. وقد بلغ مجموع هذه التعويضات نسبة (٤,٣٣٪) من مجموع النفقات العامة. وبناء لاقتراح مجلس الادارة الجديد والحاحه فقد وافقت الحكومة على رفع قيمة هذه التعويضات.

٢ ـ تعويض الاضرار الزراعية: سمح لمجلس الجنوب في البداية بدفع تعويض عن المزروعات التي تتلف بفعل الأعمال الاسرائيلية باعتبارها مصدر الرزق الاساسي لسكان القرى الحدودية وقد بلغت نسبة هذه التعويضات مقدار (١٠,٤٦٪) من المجموع العام ومن المؤسف ان المجلس قد توقف عن دفع مثل هذه المساعدات. ورغم مطالبة الادارة الجديدة بالعودة إلى دفعها فلم توافق الدولة على هذا.

٣ ـ تعويضات الابنية السكنية: لقد استأثرت هذه التعويضات بالاهتمام الأول للمجلس حيث اعتبر ان كل بيت يهدم يجب اعادة تعميره فوراً حتى لا يهجره صاحبه ويتخلى بالتالي عن الارض. ولقد أبدى المواطن الجنوبي خاصة في الفترة الأخيرة عناداً مثالياً في اعادة التعمير والصمود رغم عجز المجلس في ان يكون المستوى المطلوب من حيث السرعة والدقة في تلبية الطلبات ومن حيث مقدار المبلغ الذي لم يكن يتجاوز مقداره الاقصى ١٠ آلاف ليرة. وقد بلغت نسبة التعويضات المدفوعة في هذا المجال مقدار (٣٦,٦٩٪) من المجموع العام. وقد وافقت الحكومة على اقتراح مجلس الادارة الجديد القاضي برفع مقدار التعويض عن الابنية بحيث أصبح يتراوح بين ٢٥ و٤٠ ألف ليرة وفقاً لمساحة المسكن.

٤ ـ بالاضافة إلى ما ذكرت شملت المساعدات الاجتماعية نشاطات اخرى مثل نفقات ايواء وتعليم وتدريب ايتام (٢,٧١٪) وثمن مواد غذائية ولوازم للمهجرين مع مساعدات طبية (٠,٥٥٪) ومساعدات لجمعيات تدريب مهني (٠,٣٥٪) ومساعدات لاماكن العبادة والاوقاف (٠,٥٨٪) ومختلف (١,٠٣٪). ومن البديهي ان عجز المجلس ومن ورائه الدولة عن وضع خطة وقواعد محددة ودقيقة لاوجه صرف هذه الأموال كان السبب الأول في توجيه هذه النفقات إلى اتجاهات غير منتجة وفي اثارة التساؤل حول فعالية المجلس.

الناحية الانمائية:

قام المجلس ببعض الاعمال الملحة من الناحية الانمائية والتي أدت إلى مساعدة الجنوبي في البقاء فوق أرضه ولكنها بقيت رغم ذلك دون المستوى المطلوب. ولا شك ان الظروف التي كانت سائدة في الجنوب قد ساهمت بدرجة أولى في عدم فعالية هذه الأعمال وحدّت من قدرات المجلس على التحرك وقد بلغت نسبة هذه النفقات ما مقداره (٣٤,٢٨٪) من مجموع النفقات وتوزعت على النواحي التالية:

١ ـ الصحة: أنشأ المجلس عدداً من المستوصفات الثابتة والمتحركة في سيرات انتهت إما بتدميرها وإما بالاستيلاء عليها من قبل المسلحين، كما قام المجلس بتأمين عدد كبير من الاطباء لمستشفيات الجنوب ولا يزال يدفع تعويضاتهم حتى اليوم، كما قام المجلس بانشاء وتجهيز مستشفى في النبطية يتسع لحوالي ٦٠ سريراً وقد شارف على الانجاز من حيث البناء. وقد بلغت نسبة هذه النفقات ما مقداره (١١,١٢٪) من مجموع النفقات العامة.

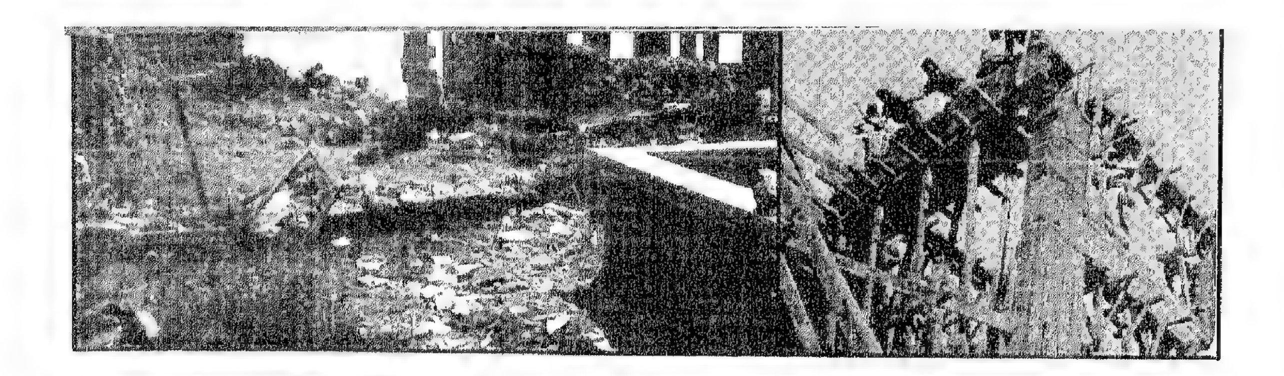
٢ ـ المياه: قام المجلس بحفر عدد من الآبار الارتوازية، وباصلاح شبكات توزيع المياه أو تصليح مضخات. المياه بتأمين المياه خاصة للقرى المحرومة وقد بلغت نسبة هذه النفقات (٢,٩٠٪).

٣ ـ المدارس: لقد ساعدت قدرة المجلس على التحرك بسرعة في تامين عدد كبير من المدرسين للمدارس النائية في الجنوب ولسد النقص الحاصل في البعض الآخر فيها. كما قام بترميم عدد من المدارس المصابة من جراء الاعتداءات أو بناء عدد من المدارس في القرى التي لم تكن تحوي أية مدرسة. ولذلك فقد ارتفعت نسبة النفقات في هذه الناحية إلى (١٠,٢٨٪).

٤ ـ أما في المجالات الاخرى فكان تدخل المجلس ضئيلاً فاقتصر هذا الدور في الكهرباء على دفع نفقات تصليح الشبكات أو اكمالها وكانت النسبة (٠,٣٤٪) وفي مجال الزراعة بلغت نسبة النفقات (٠,٦٤٪) وللملاجىء الجماعية التي اقيمت في النبطية وصور نسبة (٢٪).

الناحية الادارية:

كان يقوم المجلس بهذه الاعمال تخطيطاً واشرافاً وتنفيذاً بواسطة جهاز تنفيذي صغير الحجم محدود الامكانات. وقد تعاطى في البداية مع مهمات المجلس بكفاءة ولكن تضاعف عدد المعاملات وبقي الجهاز على حاله. وقد بلغت



نفقات الجهاز الاداري نسبة (٧,٠٥٪) من مجموع النفقات العامة.

الصعوبات التي تعترض المجلس:

ككل مؤسسة عامة أو خاصة هناك صعوبات تعترض طريق المجلس وتحول دون انطلاقه كما ترغب ادارته الجديدة. وأول هذه الصعوبات هو قلة عدد الجهاز التنفيذي. فان مهمات المجلس وهي تشمل كافة النشاطات وتقتضي السرعة في التنفيذ سيتعذر اداؤها بامانة واخلاص وكفاءة بالعدد الحالي رغم ما يبذله من جهد وعمل قلما يوجد في اية مؤسسة اخرى.

ولذلك اقترحت الادارة الجديدة هيكلية جديدة ونظاماً جديداً للموظفين ولكنهما لا يزالان قيد الدرس في الدوائر المختصة. وثاني هذه الصعوبات عدم وجود تنسيق بين المجلس وباقي ادارات الدولة والمؤسسات الاخرى كمجلس الانماء والاعمار وذلك فيما يتعلق بتأمين حاجات منطقة الجنوب إذ ان كلاً من هذه الوزارات والمجالس يعمل وفق خطة يضعها هو وينفذها مستقبلاً مما ادى إلى وجود ثغرات هامة في هذه الخطوة وفقدان التناسق فيما بينها وقد بدأت الادارة الجديدة بمعالجة هذه الصعوبة عن طريق عقد الاجتماعات مع هذه المؤسسات للاطلاع على مشاريعها والتنسيق معها.

ما هي برامج العمل المستقبلية للمجلس؟

انطلاقاً من كل ذلك تتحرك الادارة الجديدة ضمن اطار عام يقوم على اتجاهين:

الأول يقوم على انجاز الأعمال والمشاريع التي بدأتها الادارة السابقة ومنها اكمال بناء وتجهيز مستشفى النبطية واكمال وتجهيز ثلاثة ملاجىء في صور. كما يقوم على اعادة النظر في كافة الطلبات المكدسة في المجلس ودراستها والبت فيها خلال فترة زمنية محددة ومعقولة. ثم القيام بمسح اقتصادي وانمائي اجتماعي لمنطقة الجنوب وتحديد احتياجاتها ومقارنة هذه الاحتياجات بالخطط الموضوعة من قبل الاجهزة الاخرى (الوزارات، مجلس الانماء والاعمار...) ليتم على ضوء ذلك وضع خطة متكاملة يتم تنفيذها وفقاً للمعطيات المناسبة.

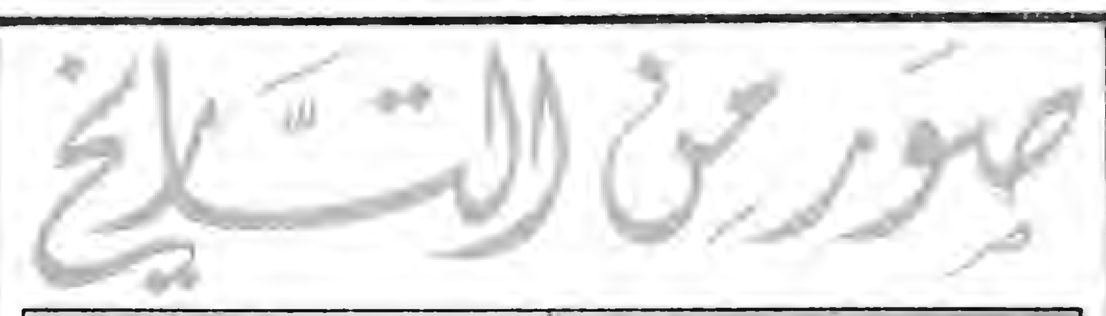
أما الاتجاه الثاني فيقوم على التنفيذ الفوري لأي مشروع انمائي في أية قرية جنوبية بعد التأكد من وجود حاجة ملحة جماعية لانشاء هذا المشروع ومن عدم لحظه على أية خطة اخرى.

لا بدّ من الاشارة هنا إلى وجود ميزة خاصة لعمل مجلس الجنوب. فنظراً لتعامله مع حاجات انسانية فردية (التعويضات) فان نتائج أعماله لا تتخذ أي طابع أو شكل مادي ومرئي من قبل الجميع ليحكموا على مدى تحرك المجلس ونشاطه. كما تبقى هذه الاعمال عرضة للأقاويل مهما بلغت من الدقة والنزاهة.

من كل ما تقدم، يتبين للمواطن اللبناني، وخاصة الجنوبي، ان مجلس الجنوب يعمل بظروف صعبة وامكانيات بشرية ومادية ضئيلة.

لذلك فالمطلوب من كل لبناني مخلص ومن الجنوبي بالذات ان يعي صعوبة الاوضاع ويتفهم المشاكل التي تعترض اعمال المجلس، ويعلم ان مجلس الجنوب هو احدى الادارات التي تهتم بحاجة محافظة الجنوب وليس هو الادارة الوحيدة المسؤولة عن تلك الحاجات.

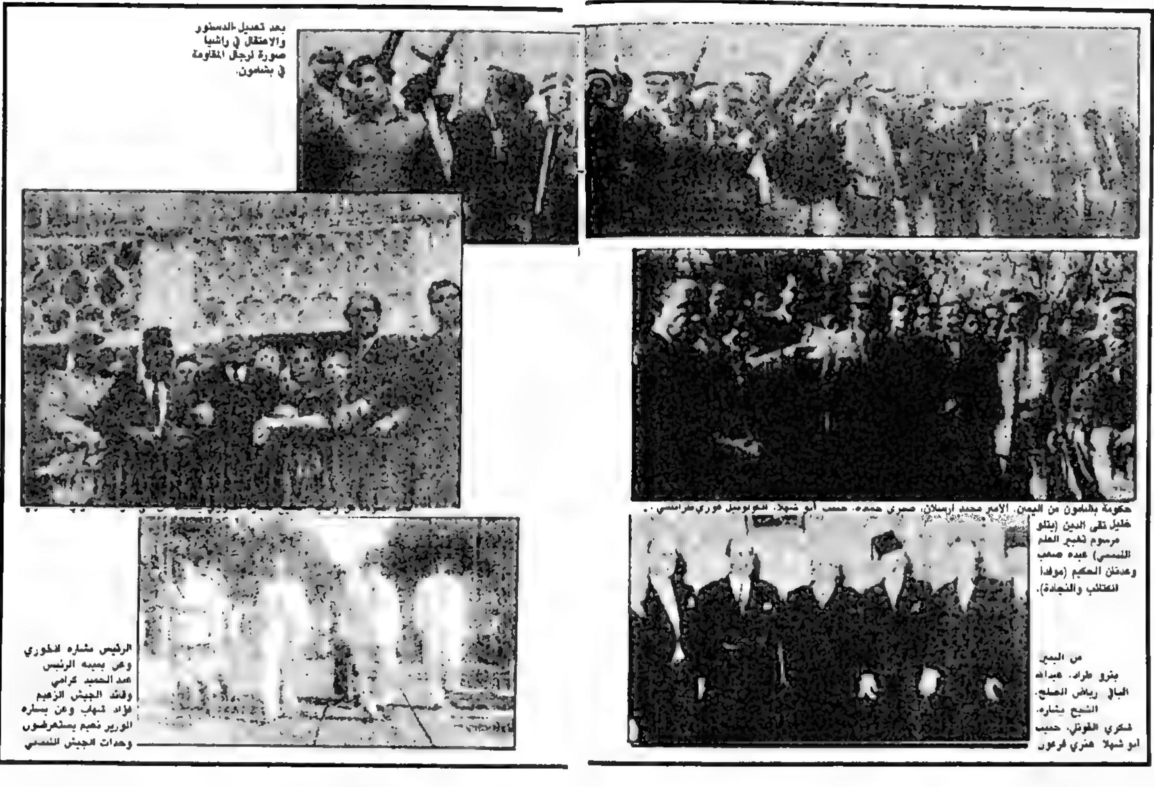






العلم اللبناني الجديد فوق السراي الصغير والكبير يرفرف للمرة الأولى.





بعد تعديل الدستور والاعتقال في راشيا صورة لرجال المقاومة في بشامون.

حكومة بشامون من اليمين: الأمير مجيد ارسلان، صبري حمادة، حبيب أبو شهلا، الكولونيل نوري طرابلسي، خليل تقي الدين (يتلو مرسوم تغيير العلم اللبناني) عبده صعب وعدنان الحكيم (موفدا الكتائب والنجادة).

من اليمين: بترو طراد، عبدالله اليافي، رياض الصلح، الشيخ بشاره، شكري القوتلي، حبيب أبو شهلا، هنري فرعون.

الرئيس بشاره الخوري وعن يمينه الرئيس عبد الحميد كرامي وقائد الجيش الزعيم فؤاد شهاب وعن يساره الوزير نعيم يستعرضون وحدات الجيش اللبناني



في مسيرته من الإنتداب إلى الإستقلال

العميد الركن د. ياسين سويد



كانت الفترة التي مرت بها القوات العسكرية اللبنانية ابان الانتداب الفرنسي بمثابة اختبار للسياسة العسكرية التي انتهجتها الدولة المنتدبة في سوريا ولبنان منذ دخولها اليهما في اعقاب الحرب العالمية الاولى وحتى خروجها منهما بعد استقلال البلدين، فأطماع فرنسا في المشرق موغلة في القدم، وسوريا هي البوابة الشرقية لاوروبا نحو اسيا والشرق الاقصى، وللمشرق العربي اهمية استراتيجية لا يستهان بها، فهو عقدة الطرق الموصلة بين الشرق والغرب. وعندما اعلنت الدول الكبرى المتحالفة الحرب ضد السلطنة الهرمة لكي تتقاسم ولاياتها، استجابت هذه الولايات، في معظمها، لنداءات فرنسا وبريطانيا في «الثورة على الطغيان التركي والتحرر من الظلم العثماني» وكانت ولايات بلاد الشام اكثرها استعدادا للثورة ضد الاتراك، لان بذور القومية العربية كانت قد انتشرت في رحابها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدأت تعطي ثمارها، قبيل الحرب العالمية الاولى، خاصة مع مؤتمر باريس، وفي اثناء الحرب مع انتفاضة شريف مكة التي كانت نقطة تحول بالغة الاهمية في تاريخ هذه المنطقة.

لذا استغل الحلفاء نزوع العرب الى التحرر والانعتاق والوحدة، فمدوا اليهم يد المساعدة ليثوروا على الاتراك، واغدقت بريطانيا الوعود على العرب فيما كانت تبرم الاتفاقات السرية لاقتسام اراضيهم، اما فرنسا التي رفضت دوما ان تظل ساحة بلاد الشام حكرا على البريطانيين فقد استغلت مأساة الارمن في تركيا وتململ السوريين(*) وخاصة المهاجرين منهم، فاعلنت مساعدتها للشعب العربي في سوريا من اجل القيام بالانتفاضة ضد الاتراك.

واسرعت فرنسا باعلان قبولها متطوعين من بلاد الشام للقتال الى جانب الحلفاء «لتحرير» بلاد العرب من نير الاتراك، وكان هدفها استخدام العديد من الارمن والسوريين المهاجرين والذين يرغبون في القتال الى جانب الحلفاء، فافتتحت مكاتب لها في باريس وبوردو ومرسيليا وبورسعيد وقبرص لاستقبال هؤلاء المتطوعين، واسست اول فرقة ارمنية ــ سورية مشتركة هي «جوقة الشرق» Légion d'orient في عام ١٩١٦ بعد ان تم تجميع المتطوعين الارمن في قبرص، والسوريين في بورسعيد. وفي عام ١٩١٨ كانت هذه الجوقة تضم نحوا من اربعة الاف وخمسماية متطوع منتظمين في سرايا وكتائب بلغت حوالي ٢٣ سرية انشئت تباعا. وقد استخدم السوريون للقتال في فلسطين وسوريا، واستخدم الارمن للقتال في كيليكيا، وشاركت هذه القوات بحماس في القتال ضد الاتراك، على امل الحرية والحكم الوطني، لكنها كانت تمهد، دون علم منها، للنفوذ الاستعماري الفرنسي المباشر على هذه المناطق.

ولاسباب سياسية بالدرجة الاولى، تتعلق بتعزيز المواقع الفرنسية في المشرق، حلت فرنسا جوقة الشرق واستبدلتها بجوقتين، واحدة ارمنية Légion arménienne واخرى سورية Légion Syrienne، ثم ما لبثت ان حلت الجوقة الارمنية بعد ان تقرر مصير ارمينيا بين السوفيات والاتراك، واستمرت الجوقة السورية تعمل منفردة في صفوف القوات الفرنسية العاملة في المشرق، وانخرط من تبقى من الجوقة الارمنية في صفوف هذه القوات، وقد كان القصد من هذا السلوك واضحا، فمنذ عام ١٩١٩ بدأت تتضح ابعاد المأساة الارمنية، وأن فرنسا لن تساعد الأرمن في العودة الى ديارهم، بل ستستخدم الكثير منهم في حروبها ضد «العصابات» الوطنية السورية، لذا انتهت مسرحية الجوقة الارمنية ومعها قضية تحرير ارمينيا، وأبقي على الجوقة السورية لأن المسألة السورية كانت تدخل في اشد مراحلها خطورة ضد الانتداب الفرنسي في خلال سنوات ١٩٢٠ ــ ١٩٢٧.

وبالرغم من ان الجوقة الارمنية قاتلت ببسالة في اسكندرون ومرسين وعينتاب (وكانت مؤلفة من اربع كتائب)، فان المهام التي كانت موكلة اليها في تلك المناطق قد انتهت بانتهاء الحرب العالمية الاولى ودخول المسألة الارمنية في

(*) كان يفهم بالسوريين في ذلك الحين «السوريون واللبنانيون معا».



كوكبة من الفرسان على رأسها النقيب جوزيف سمعان سنة ١٩٣٢

متاهات عصبة الامم، لذا، خير متطوعو الارمن بين العودة الى امريكا الجنوبية بدلا من العودة الى وطنهم الام، وبين البقاء في سوريا ولبنان، فعاد قسم منهم الى ارمينيا السوفياتية، واستقر القسم الاخر في سوريا ولبنان، اما الجوقة السورية فكانت تشتمل على متطوعين من سورية ولبنان، وفي مطلع العام ١٩١٩ كانت هذه الجوقة تضم فوجا من كتيبتين اضيفت اليه كتيبة من الاشوريين والكلدانيين (مسيحيي مابين النهرين) وكان عديدها نحو خمسماية رجل.

وفي العام ١٩٢٠، رأت فرنسا ان تضم، تحت عنوان واحد، جميع التشكيلات العسكرية المنشأة في المشرق في خلال الحرب والتي نتجت عن احتلال البلاد وفرضتها الظروف، فأنشأت القوات المساعدة للمشرق (troupes auxilliaires du levant) التي تطورت بسرعة حتى اصبحت عام ١٩٢١ مؤلفة من خمسة الاف رجل (منهم ١٣٠ ضابطا و٣٢٠ رتيبا و٤٠٠ عريف وجندي فرنسي)، موزعين كما يلي:

— فوجا مشاة كل منهما من ٣ كتائب(*).
— وسرية راكبة (على البغال).
— وسرية هجّانة.
— ومكتب عديد.
— وفوج خيالة من ٥ سرايا.
— وسرية هندسة مختلطة.
— وسرية مستودع Dépot.
— ومدرسة حربية.

وقد اعيد تنظيم هذه القوات عام ١٩٢٣ فجمعت في ثلاثة افواج مختلطة تمركزت في كل من دمشق وحلب واللاذقية.

وفي عام ١٩٢٥ انشئت فصائل العمال المستقلة في مختلف مصالح قوات المشرق، وذلك للتخفيف من اعباء العسكريين الفرنسيين.

وفي العام نفسه، الغيت اركان الافواج واصبحت الكتائب تشكل قطعا مستقلة، كما انشىء، في القوات المساعدة، جهاز سمي «مفتشية القوات المساعدة» ومهمته التنسيق بين هذه الكتائب في مجالات التجنيد والتنظيم والتعليم.

الا انه، في مطلع العام ١٩٢٧، ادخل تعديلان هامان جدا على تنظيم القوات المحلية في سوريا وتعهدها:

(*) فوج Régiment كتيبة Bataillon
سرية Compagnie.

فمن حيث التنظيم: وفي اثناء الثورة السورية الكبرى ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٧ انشئت تشكيلة عسكرية جديدة سميت «بالقوات الاضافية Troupes supplétives» وكانت مؤلفة من وحدات من الخيالة والمشاة عرفت باسم (الحرس السيار Gardes mobiles) و(القناصة اللبنانية Chasseurs Libanais)، ثم أدمجت هذه القوات بالقوات المساعدة، وكان عديدها في مطلع العام ١٩٢٧ نحو ٢٥٠٠ خيال و٩٠٠ مشاة... كما انشئت عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ وحدات تقنية (قفل نقل وتموين Train des équipages سكك حديد، وحدات مصفحات AM) كما اسرع في تدريب الضباط والرتباء الوطنيين بقصد تخفيف الاعباء عن الضباط والرتباء الفرنسيين، فخفض عديد الملاك الفرنسي، في هذه القوات البالغة ١١٥٠٠ رجل الى ١٢٠ ضابطا و٣٠٠ رتيب فقط.

ومن حيث التعهد: فحتى اول عام ١٩٢٧ كان تعهد القوات المساعدة على عاتق الحكومة الفرنسية، الا انه، منذ هذا التاريخ، اخذت الدول الخاضعة للانتداب (دولتا سوريا ولبنان) هذه القوات على عاتقها وذلك باسهام سنوي بلغ ٩٥ مليون فرنك فرنسي، يقتطع من الرصيد المشترك لمجموع هذه الدول، وقد خفض هذا المبلغ الى ٩٠ مليون فرنك عام ١٩٣٤ ثم الى ٨٥ مليون فرنك عام ١٩٣٦[١].

وفي عام ١٩٣٠ صدر القرار رقم ٣٠٤٥ الذي انشئت بموجبه «القوات الخاصة للمشرق» Troupes spéciales du levant وهي التسمية التي ضمت كل التشكيلات المحلية السورية واللبنانية، وكانت المبادىء العامة لهذا القرار، الذي يلغي ويستبدل تعليمات عام ١٩٢٠ الصادرة عن وزارة الحربية الفرنسية، مشابهة تماما للمبادىء العامة التي تنظم الجيوش الفرنسية (ملكية الرتبة، الترقية، الشطب من الملاك، التقاعد، الخ...).

ومنذ ذلك التاريخ، تعرضت القوات الخاصة لعدة تعديلات في تنظيمها الداخلي (تعزيز قدرتها النارية، وسائل الاتصال، انشاء بطاريات مدفعية وعناصر آلية، تشكيل فصائل دراجات، الخ...).

وفي اول كانون الثاني عام ١٩٣٦ كانت القوات الخاصة للمشرق مؤلفة من:

— ١٠ كتائب مشاة.
— ٢٣ سرية خيالة او خفيفة.
— ٤ سرايا (بطاريات) مدفعية (جبلية أو محمولة او مقطورة).
— ٣ سرايا صحراوية خفيفة (هجانة ومصفحات AM).
— ٣ سرايا هندسة (لغامين وتلغرافيين وسكك حديد).
— سريتي نقل (سيارات وحيوانات).
— فصيلتي مصفحات.
— ست فصائل مستقلة في مختلف المصالح.
— موسيقى.
— مدرسة حربية.

وقد بلغ عديد هذه القوات عام ١٩٣٠ نحو ٩٥٠٠ جندي ثم ارتفع في منتصف الثلاثينات الى ١٤ الف جندي، اما الملاك الفرنسي فيها فبلغ عام ١٩٣٠ = ١٤١ ضابطا و٢٤٩٥ رتيبا من مختلف الرتب، وبلغ عدد هؤلاء عام ١٩٣٦ مئة ضابط و٢٧٨ من مختلف الرتب، بينما ارتفع عدد الضباط السوريين واللبنانيين من ٥٠ ضابطا عام ١٩٢٧ الى ٢٠١ عام ١٩٣٦[٢].

كانت حاجة فرنسا الى قوات محلية في سوريا، منذ بدء احتلالها لهذه البلاد، امرا حساسا وحيويا، فهي تهدف، من جراء تشكيل هذه القوات الى توفير اعداد مقاتلة تسد بها بعض الثغرات على طول الجبهة التركية في اثناء الحرب. ثم استخدمت هذه القوات فيما بعد، لاخماد الحركات التحررية والانتفاضات الثورية في سوريا، اضافة الى قوات المستعمرات الاخرى كالمدغشقريين والسنغاليين والجزائريين والمغاربة والتونسيين. وفي حين كان الجيش الفرنسي للمشرق (AFL) يشكل، مع سلاح الطيران، في المشرق، قوة لا يستهان بها، (بلغ نحو ٥٠ الفا عام ١٩٢١)، كانت القوات المحلية لا تزال في طور النشوء والتطور، ثم اصبحت، بعد الحرب، «عونا اساسيا للقوات المسلحة في عملياتها المتواصلة التي اضطرت للقيام بها في السنوات الاولى»[٣]، وبينما كان عديد جيش المشرق يتناقص بعد انتهاء الحرب حتى اصبح عام

١٩٢٥ نحو ١٥ الفا فقط، كان عديد القوات المحلية يتزايد تبعا للحاجة ولمقتضيات الامن، فبلغ عام ١٩٢٤، نحو سبعة آلاف، اي نصف عديد جيش المشرق في الفترة نفسها.

وظل عدد هذه القوات يزداد باطراد طيلة فترة الانتداب حتى اصبحت القوات اللبنانية، في اواخر هذه الفترة، تتألف من التشكيلات التالية(*):

— **ثلاث كتائب (أو افواج) قناصة، هي:** كتيبتا القناصة الاولى والثانية وقد انشئتا عام ١٩٣٠ وكتيبة القناصة الثالثة وقد انشئت عام ١٩٤٢.

— **سريتا (أو كتيبتا) خيالة:** انشئت سرية القناصة الخيالة اللبنانية الاولى 1er. Escadron de chasseurs à cheval Libanais عام ١٩٣٧ وهو تاريخ انفصال العناصر اللبنانية عن العناصر السورية في القوات الخاصة للمشرق، وانشئت سرية القناصة الخيالة اللبنانية الثانية عام ١٩٤٠، وقد الغيت السرية الثانية عام ١٩٤٥ وانشئت بدلا منها «سرية الشواطىء».

— **سرية (او كتيبة) دبابات:** انشئت السرية الخاصة بالدبابات عام ١٩٤٣ من تشكيل فرنسي لبناني مختلط كان قد انشىء عام ١٩٤٠، وقد ضمت هذه السرية ٩ دبابات رينو يعود صنعها الى الحرب العالمية الاولى.

— **كتيبة (او فوج) مدفعية:** انشئت السرية (البطارية) اللبنانية للمدفعية الجبلية عام ١٩٣٩، وكانت مؤلفة من ٤ مدافع عيار ٦٥ ملم جبلي منقول على البغال، ثم اصبحت عام ١٩٤٢ كتيبة سميت «كتيبة المدفعية الخامسة، او فوج المدفعية الخامس».

— **سرية هندسة واشارة:** انشئت عام ١٩٢٦ وكانت الهندسة والاشارة مختلطتين.

— **سرية نقل بري:** انشئت الفصيلة اللبنانية للنقل البري عام ١٩٣٧ ثم اصبحت سرية في آذار عام ١٩٤٥.

— **المدرسة الحربية:** انشئت في دمشق بتاريخ ١٢ ايار ١٩٢١ وصارت تخرج ضباطا لبنانيين وسوريين قياديين ومترجمين، ثم نقلت الى حمص عام ١٩٣٢، وبقيت فيها، مشتركة بين البلدين، حتى عام ١٩٤٥، حيث تم فصل المدرسة الحربية السورية عن المدرسة الحربية اللبنانية التي نقلت الى بعبدا ثم الى الفياضية.

— **مصالح الجيش:** انشئت رحبات Parcs مختلفة للمدفعية والمدرعات والهندسة والاشارة والنقل البري، كما انشئت مصالح ادارية مختلفة.

الا ان هذه القوات اللبنانية ظلت خاضعة لاشراف صارم ودقيق من قبل الضباط والرتباء الفرنسيين، ذلك امر بديهي نظرا للمهام التي كانت توكل الى هذه القوات في ظروف صعبة وحرجة للغاية حيث حبل الامن مضطرب واجواء الثورة منتشرة في كل مكان فكان لا بد ان تكون القيادات كلها في ايدي ضباط الدولة المنتدبة ورتبائها.

وكانت هذه القوات تخضع للتدريب والتنظيم نفسه الذي كان مطبقا لدى القوات الفرنسية، حتى انها — اي القوات المحلية لبنانية كانت ام سورية — كانت تعتبر جزءا عضويا متميزا من قوات جيش المشرق، كما كانت عناصرها تتميز بالنشاط والانضباط، فساعدت في فرض الامن والاستقرار في البلاد.

وكانت السلطات المنتدبة تطور باستمرار المستوى التقني لهذه القوات نظرا لارتباطها الوثيق بالتقدم التقني للعلم العسكري وللآلة العسكرية الفرنسية نفسها. فالقيادة ظلت بيد الضباط الفرنسيين الذين كان بيدهم زمام كل

(*) لقد اعتمدنا التسميات الجديدة للقطع والوحدات، وهي التي طبقت في الجيش اللبناني اعتبارا من حزيران عام ١٩٦٨ وذلك وفقا لمصطلحات القاموس العسكري الموحد الصادر عن جامعة الدول العربية، وهذه التسميات هي:
للمشاة: كتيبة بدلا من فوج (Bataillon)
للخيالة والمدرعات: سرية بدلا من كتيبة (Compagnie).
للمدفعية: سرية بدلا من بطارية (Batterie).
وقد حرصنا على وضع التسمية القديمة بين هلالين.



فوج القناصة الأول بقيادة المقدم جميل لحود سنة ١٩٤٤

الامور، حتى انه عند تساوي الرتب بين الضباط الفرنسيين والضباط الوطنيين، كانت الامرة للفرنسي، وذلك لسبب بسيط هو ان المهمات التي كانت توكل الى هذه القوات هي بمعظمها مهمات حفظ الامن واخماد القلاقل والاضطرابات في مختلف المناطق السورية واللبنانية، فكان من المهم ان يكون على رأس اية قوة تقوم بمثل هذه المهمات ضابط فرنسي يمتع بتصلبه وتسلطه، نزوع القوات الوطنية، نزعة لا تكون لمصلحة المحتل.

وظهر واضحا في اواخر الثلاثينات ان السلطات المنتدبة بدأت تعدّ القوات الخاصة لكي تكون العمود الفقري للجيشين اللبناني والسوري وفقا لما نصت عليه معاهدة الانتداب، لكن تلك السلطات رفضت تسليم القوات الوطنية الى السلطات اللبنانية عام ١٩٤٥، الا بعد ان ضمنت الحصول على معاهدات ثقافية واقتصادية وضمانات استراتيجية لمصالحها في هذا البلد(٤) وفي كل حال، لم يكن الضباط اللبنانيون اقل وعيا وطنيا وسياسيا من النخبة المفكرة في الشعب اللبناني الذي ثار مطالبا باستقلاله عام ١٩٤٣، والوثيقة المنشورة مع هذا البحث هي اكبر شاهد على هذا الوعي الوطني والنضج السياسي، اذ رفض الضباط اللبنانيون العاملون في الجيش الفرنسي للمشرق الخضوع لاية حكومة غير وطنية تتولى السلطة في لبنان(٥).

وفي اول اب عام ١٩٤٥، شكلت لجنة فرنسية لبنانية مهمتها تأمين انتقال الجيش اللبناني من سلطات الانتداب الفرنسي الى السلطات اللبنانية المستقلة، وقد تألفت هذه اللجنة على الوجه التالي:

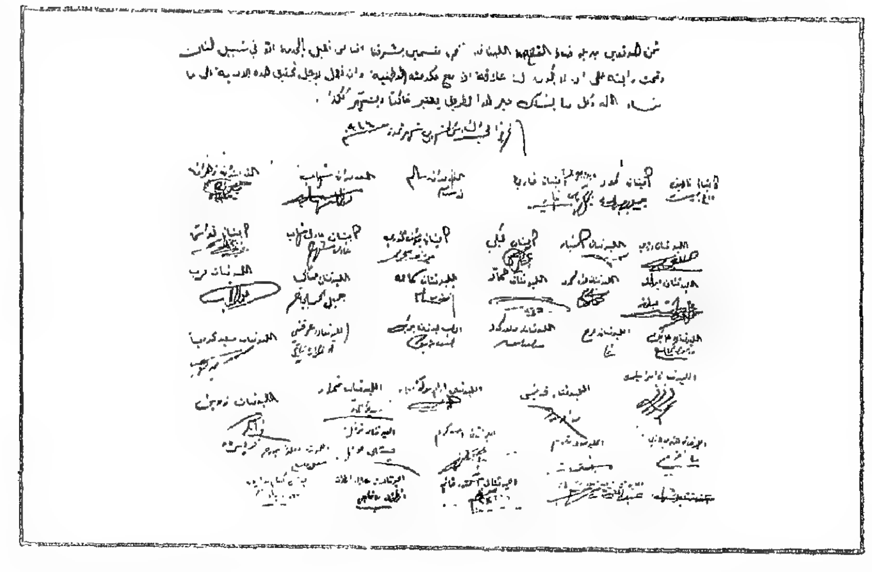
ـ عن الجانب اللبناني:

ـ القاضي يوسف شربل رئيسا.

ـ الزعيم فؤاد شهاب، الزعيم سليمان نوفل، الزعيم نور الدين الرفاعي، اعضاء.

ـ النقيب داود حماد ـ امين سر.

كما تم تأليف لجان استلام فرعية لمختلف الاسلحة.



الوثيقة التي وقّعها الضباط اللبنانيون عام ١٩٤١ والتي يقسمون فيها الاّ يحملوا الاّ في ظل العلَم اللبناني

ـــ عن الجانب الفرنسي:

ـــ المسيو بيونش رئيسا.

ـــ الزعيم مارسيو، الزعيم فرملين، الزعيم بول، اعضاء.

ـــ الملازم شربوينيه امين سر.

وتنفيذا للقرار رقم ١٥ تاريخ ١٩٤٥/٧/٢٥ الصادر عن هيئة الاركان الانكليزية ــ الفرنسية المشتركة، وبموجب الترتيبات المقترحة من قبل لجان التسليم والاستلام، اعلن انتقال الجيش اللبناني الى تبعة الدولة اللبنانية الساعة (صفر) من تاريخ اول اب ١٩٤٥، وكان عديد هذا الجيش ٢٦٧٢ رتيبا وجنديا ما عدا الضباط، وقد تضمن القطع والوحدات التالية:

ـــ ٣ كتائب (افواج) قناصة (مشاة).

ـــ سرية (كتيبة) خيالة.

ـــ سرية (كتيبة) مدرعات (دبابات ومصفحات).

ـ كتيبة (فوج) مدفعية ميدان مع مدفعية الشواطىء.

ـــ سرية نقل بري.

ـــ سرية نقل بري.

ـــ سرية هندسة واشارة.

ـــ سرية المقر العام.

ـــ سرية المقر العام.

الوثيقة رقم ٧٩

مذكرة فرنسية بشأن تسليم قوى الجيش والمصالح الفرنسية في سوريا ولبنان

AIDE - MEMOIRE

Le premier geste des Autorités de la France Libre lorsqu'elles arrivèrent au Levant en 1941, fut de proclamer l'indépendance de la Syrie et du Liban. C'est par suite de ce geste que cette indépendance est maintenant acquise. La France se félicite que l'initiative prise par elle ait heureusement abouti. Elle souhaite que les Gouvernements Syrien et Libanais exercent leur pleine autorité sans entrave ni obstacle d'aucune sorte.

C'est dans cet esprit et sans qu'aucune réserve soit apportée à l'indépendance de la Syrie et du Liban que le Gouvernement français désire assurer, en ce qui le concerne, la défense des intérêts essentiels que la France conserve en Syrie et au Liban. Ces intérêts sont de trois ordres: culturel, économique et stratégique.

Les positions culturelles intéressant la Syrie et la France seraient définies et garanties par une convention universitaire.

Les positions économiques respectives seraient définies et garanties par les accords divers que prévoit en pareille matière la procédure internationale habituelle (convention d'établissement, convention consulaire, accord commercial, etc...)

Quant aux positions stratégiques, elles consisteraient en bases permettant de garantir les voies de communication de la France et de ses possessions d'outre mer.

Une fois l'entente réalisée sur ces trois points, le Gouvernement Français serait d'accord pour effectuer le transfert des Troupes Spéciales aux Etats, sous la réserve du maintien de ces troupes, sous le Haut Commandement français, aussi longtemps que les circonstances ne permettent pas le plein exercice d'un commandement national.

٢٩٨

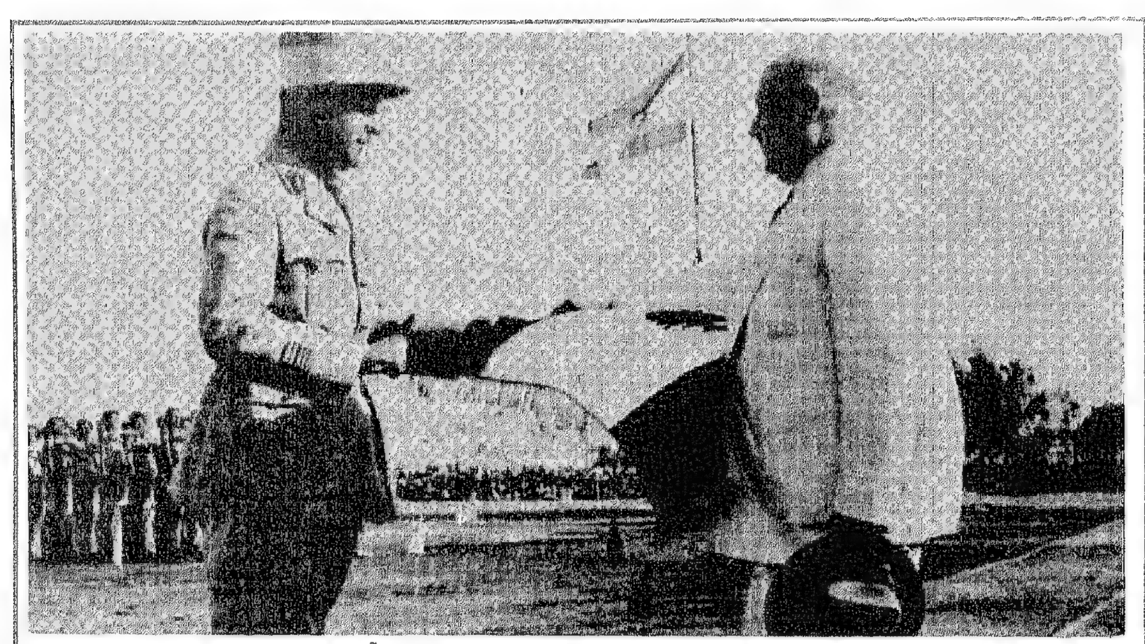
ـــ سرية اطفاء.

ـــ المدرسة الحربية.

ـــ المصالح المتوفرة.

وقد سلمت قيادة هذا الجيش الى الزعيم فؤاد شهاب(*) الذي احتفظ بهذه القيادة حتى عام ١٩٥٨، عام تسلمه قيادة البلاد كرئيس للجمهورية اللبنانية.

(*) رقي الى رتبة زعيم (وهي رتبة عميد حاليا) فور تسلمه قيادة الجيش عام ١٩٤٥ وذلك بقرار من الحكومة اللبنانية المستقلة، ثم رقي الى رتبة لواء في ١٩٤٩/٨/١.



الرئيس بشارة الخوري يتسلم علم الجيش من قائده الزعيم فؤاد شهاب في (آب ١٩٤٥)

كانت قيادة فؤاد شهاب للجيش اللبناني الحديث النشأة قيادة تاريخية وناجحة، فقد استطاع هذا القائد لأول جيش، في اول دولة لبنانية مستقلة في التاريخ، اعداد جيش عصري متطور ومتقدم تقنيا وعلميا، وبالاضافة الى ما اكتسبه هذاالجيش، في سنوات قليلة من الاستقلال، من مستوى رفيع في التدريب والتنظيم والانضباط، فقد قام على اسس وطنية متينة وصلبة نجح فؤاد شهاب ايما نجاح في بناء الجيش عليها، لذا، ظل هذا الجيش موحدا ومتماسكا طيلة مدة قيادته له، رغم الملمات الصعبة التي مر بها الوطن، وأصعبها احداث عام ١٩٥٨، تلك الاحداث التي وقف فيها الجيش موقفا حياديا ووطنيا بين الاطراف المتنازعة، واستطاع قائده، بحنكته ودرايته وحسن قيادته، ان يجنبه مزالق التشرذم ومخاطر الانقسام، فكان ان استحق، بجدارة، لقب «الاب الروحي» للجيش، كما استحق بجدارة ايضا منصب رئاسة البلاد.

تسلم فؤاد شهاب قيادة الجيش في مطلع العهد الاستقلالي، فبدأ، فور تسلمه هذه القيادة، في تطوير الجيش بمختلف اسلحته، وظل حريصا على تطوير هذا الجيش والعناية به سواء في خلال قيادته له حتى عام ١٩٥٨ او في خلال توليه سدة الرئاسة حتى عام ١٩٦٤، بل وطيلة مدة ولاية الرئاسة الثانية للنهج الشهابي (أي رئاسة الرئيس شارل حلو حتى عام ١٩٧٠)، وقد نما الجيش، بفضل هذه العناية، وازداد حتى بلغ عديده، في عام ١٩٧٠، نحو خمسة عشر الفا (بلغ هذا الجيش بتاريخ ١٩٧٠/١١/٧:

١٢٠٥٩ فردا و٢٧٥٩ رتيبا و٧٠٦ ضباط فيكون مجموعه ١٤٨١٤ عسكريا، باستثناء تلامذة التدريب العسكري الذين كانوا يتجاوزون الالفين كل عام)، وقد وزع على مختلف الاسلحة والمؤسسات العسكرية الحديثة والعصرية، فارتفع عدد الكتائب في سلاح المشاة من ثلاث الى تسع، والغي سلاح الخيالة (عام ١٩٥٣) لكي يستبدل بسلاح عصري وحديث هو (الفوج الآلي) الذي مالبث ان استبدل فيما بعد (١٩٥٥) بفوج الكشاف المكون من مصفحات وسيارات جيب وبعض الآليات الصغيرة، وانشئت الكتائب المدرعة الاولى (عام ١٩٤٦) والثانية (عام ١٩٦٤) وكذلك كتائب الاستطلاع المستقلة، والسرية المستقلة المضادة للدروع، وتطور سلاح المدفعية تطورا ملحوظا فانشئت كتيبة المدفعية المضادة للطائرات (١٩٥٤) ثم اعيد تنظيم هذا السلاح عام ١٩٥٧ فاصبح



لوحة الجلاء التذكارية على صخور نهر الكلب



فرسان الجيش في عرض عسكري على ساحة البرج سنة ١٩٤٦

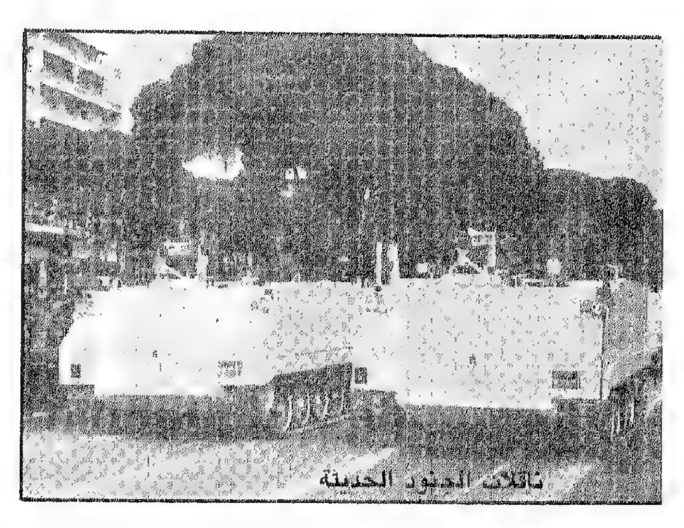
يتضمن كتيبتي مدفعية: الاولى وتضم مدافع عيار ١٥٥ملم والثانية وتضم مدافع عيار ١٠٥ملم، ثم انشئت الكتيبة الثالثة للمدفعية عام ١٩٦٤، والكتيبة الرابعة للمدفعية عام ١٩٧٢، وفي عام ١٩٥٠ انشىء لفيف الهندسة والمخابرات (اي الاشارة)، ثم فصلت الهندسة عن الاشارة، فانشئت كتيبة الهندسة عام ١٩٥٦ وكذلك كتيبة الاشارة في العام نفسه.

وكبرت سرية النقل البري التي انشئت عام ١٩٤٥ فاصبحت كتيبة عام ١٩٥٤، ثم انشىء سلاح النقل البري عام ١٩٧١، وكان قد سبق ذلك انشاء سلاح للطيران عام ١٩٤٦ وسلاح للبحرية عام ١٩٥٥.

والى جانب هذه الاسلحة في الجيش، انشئت مديريات عسكرية عديدة اهمها الصحة العسكرية والقوامة، والعتاد، والشؤون الاجتماعية، والافراد، والاعلام (التوجيه حاليا)، والشؤون القانونية، والتعبئة، والتأليل، والدفاع المدني، والشؤون الجغرافية، كما انشىء مركز للتعليم العسكري العالي، ومعهد للتعليم، ومدرسة للرتباء، ومدرسة للرياضة والرمي، الى جانب المدرسة الحربية التي عززت مناهجها بمواد عديدة من الثقافة العامة، وخاصة الرياضية والعلمية منها، واصبحت سنوات الدراسة فيها ثلاثا بدلا من اثنتين (١٩٤٩)، وقد ابقي القانون الجديد (الصادر عام ١٩٧٩) على معظم المديريات والمؤسسات التي سبق تعدادها وان يكن قد عدل بعض الشيء في ارتباطاتها.

وقد كان للقائد فؤاد شهاب الفضل في ايفاد اول بعثة من ضباط الجيش المتخرجين من المدرسة الحربية الى اوروبا للتخصص، وقد بدئ بايفاد هذه البعثات عام ١٩٤٩ ولا تزال تقليدا متبعا حتى اليوم، مما اكسب الضابط اللبناني ثقافة عسكرية ندر ان يوجد لها مثيل في جيوش العالم، فالضابط اللبناني الذي يتقن، عادة، لغتين على الاقل (العربية والفرنسية او الانكليزية) واحيانا ثلاث لغات او اربع (العربية والفرنسية والانكليزية وحديثا الايطالية) يستطيع ان يأخذ العلوم العسكرية من مصادرها دون اية واسطة، كما يستطيع ان يمزج بين مختلف الثقافات العسكرية ليستخلص منها ثقافة تناسب جيشه ووضعه وبيئته.

ولقد خاض هذا الجيش معارك عديدة ضد العدو الاسرائيلي بدءا بمعركة المالكية عام ١٩٤٨ وانتهاء بمعركة العرقوب الاولى عام ١٩٧٠ ثم معركة العرقوب الثانية عام ١٩٧٢



ناقلات الجنود الحديثة

ومعركة ١٦ و١٧ ايلول عام ١٩٧٢ وقد اكدت هذه المعارك تماسك الجيش وتضامنه ووحدته في وجه العدو المشترك.

وفاجأتنا، جميعا، المؤامرة الكبرى، وظل الجيش، رغم كل خيوط هذه المؤامرة وخطوطها، وطيلة عام واكثر (١٩٧٥ ــ آذار ١٩٧٦) صامدا متحدا، الا انه كان لابد، في النهاية، من ان يلاقي المصير نفسه الذي سبقه اليه الوطن، فانهار كما انهارت باقي مؤسسات هذا الوطن.

ولكن سرعان ما بدأت جراح الجيش تلتئم، وسرعان ما بدأ شمل رفاق السلاح يجتمع، ورغم مواطن الضعف التي لابد وان تعتري اي جسم منهك بالداء، وهو في مرحلة الشفاء، فاننا لا نزال نتطلع، بشغف وشوق، الى يوم يحطّم فيه الوطن قيود الطائفية البغيضة، ويصبح لنا فيه جيش متحرر من هذه القيود، من القمة الى القاعدة فيكون، بحق، المؤسسة النموذجية والمثلى، لباقي مؤسسات هذا الوطن.



الصور من كتاب «جيش لبنان ومناقبيته العسكرية» للعميد الاول الركن عزيز الأحدب

حواشي البحث

(١) كانت نفقات جيش المشرق تراوح بين ١٦٠ و٢٢٥ مليون فرنك في السنة حسب الظروف، وبلغت الاعانة السنوية المقدمة للقوات الخاصة ١٥ مليون فرنك فرنسي من عام ١٩٣٧ (Longriqq, Syria and Lebanon under french mandate, P.266)
وهكذا نرى ان الدولة المنتدبة لم تكن تتحمل سوى جزء يسير من نفقات القوات المحلية، مع ان هذه الاخيرة كانت تستخدم لمصلحتها.

(٢) Longriqq, Ibid, P.269

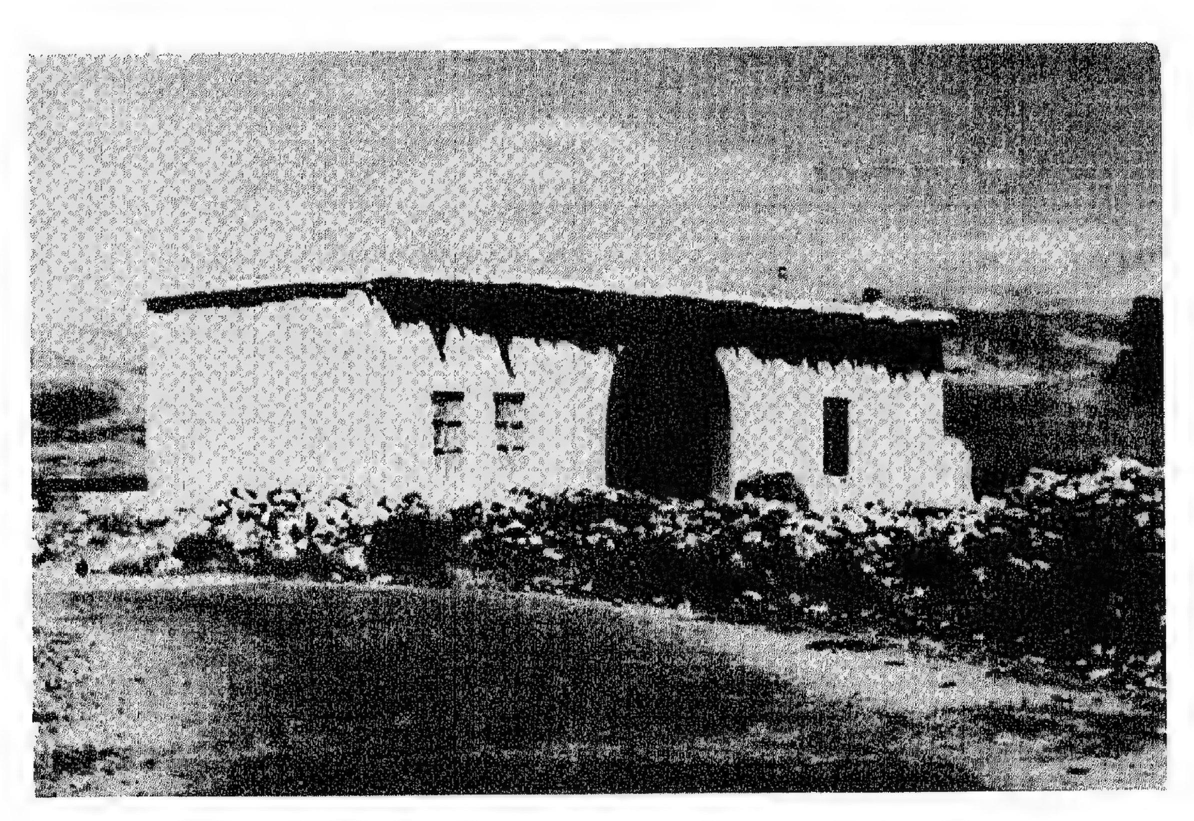
(٣) Ibid, P.137

(٤) في مذكرة فرنسية بشأن تسليم قوى الجيش والمصالح في سوريا ولبنان، جاء ما تعريبه: «ان اول عمل قامت به السلطات الفرنسية الحرة عندما وصلت الى المشرق هو اعلانها استقلال سوريا ولبنان، وبسبب هذا التصرف احرز البلدان استقلالهما الان، واذ تهنىء فرنسا نفسها لان المبادرة التي اتخذتها انتهت بصورة جيدة، فانها تتمنى ان تمارس الحكومتان السورية واللبنانية سلطاتهما الكاملة دون اي عائق او حائل من اي نوع. وبهذه الروح، وبدون تحفظ تجاه استقلال سوريا ولبنان، فان الحكومة الفرنسية ترغب في ان تؤكد، لمن يهمهم الامر، دفاعها عن مصالح فرنسا الاساسية في كل من البلدين. هذه المصالح التي تنتظم في ثلاث: ثقافية واقتصادية واستراتيجية، فالاوضاع الثقافية التي تهم كلا من سوريا وفرنسا سوف تحدد وتضمن بمعاهدة جامعية، والاوضاع الاقتصادية سوف تحدد وتضمن باتفاقات مختلفة وفقا للاصول الدولية المتعارف عليها (معاهدات مؤسسات، معاهدة قنصلية، اتفاق تجاري الخ...). اما الاوضاع الاستراتيجية فتتضمن اسسا تسمح بضمان طرق المواصلات لفرنسا ولممتلكاتها عبر البحار. «وعندما يتم الاتفاق على هذه الامور الثلاثة، فان الحكومة الفرنسية سوف توافق على نقل القوات الخاصة الى الدول صاحبة العلاقة، مع تحفظ بان تبقى هذه القوات بامرة القيادة العليا الفرنسية، طالما ان الظروف لا تسمح بان تمارس هذه الدول قيادة وطنية تامة عليها».
(زيادة، بيار، التاريخ الدبلوماسي لاستقلال لبنان، وثيقة رقم ٧٩ باللغة الفرنسية، ص ٢٩٨).

(٥) انظر صورة الوثيقة التي وقعها الضباط اللبنانيون في بلدة الذوق بجبل لبنان في تموز عام ١٩٤١.

المراجع

ــ وثائق عن الجيش الفرنسي للمشرق (بحوزة المؤلف).
ــ زيادة، بيار، التاريخ الدبلوماسي لاستقلال لبنان.
ــ محفوظات قيادة الجيش، قسم التراث العسكري.
ــ هونتزيجر، الكتاب الذهبي لجيوش الشرق، تعريب ادوار بستاني.
— Longriqq, Syria and Lebanon under french mandate.



المدارس والجامعات في لبنان

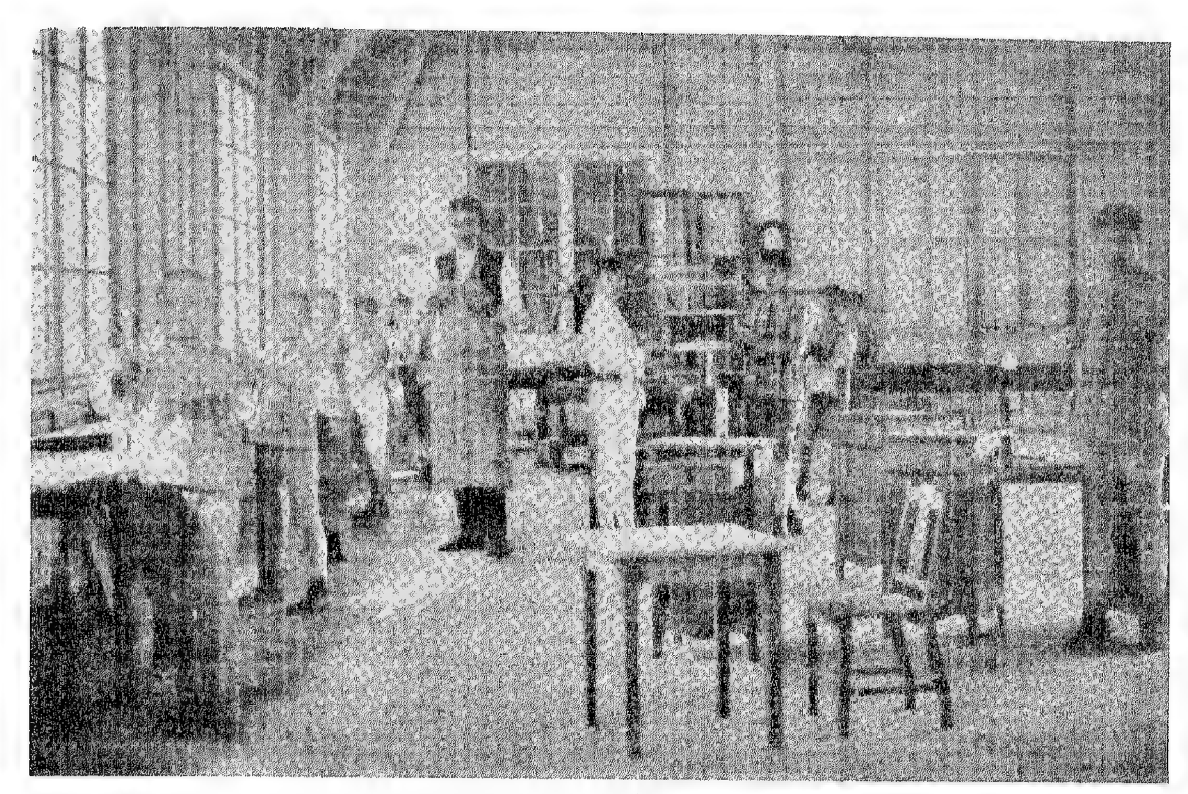
(نبذة وتاريخ)

د. أسامة عانوتي

أجمع الباحثون، أو كادوا، على أن أولى[1] مدارس لبنان، وبالدلالة الحديثة: مدرسة عينطورة التي أنشئت[2] سنة ١٧٣٤. ومما تمتاز به هذه المدرسة أيضاً انها كانت تزود الطلاب الوافدين إليها من القرى المجاورة بما يحتاجون[3] إليه. ومما أعانها على مثل هذا البر، أن مؤسسها وقف لها وقفاً.

على أن الزيادة، وإن عقد لواؤها لمدرسة عينطورة، فإن عراقة المدارس[4] في لبنان لا يماري فيها ممارٍ. ولو رجعنا القهقرى، بضعة قرون، فعدنا إلى العصور الوسطى، لألفينا في طرابلس مدارس لها صيغة دينية، كمدارسها في القرنين الثاني عشر[5] والثالث الميلاديين — في عهد المماليك — «وكلها ملتحقة بالجوامع[6]، لها الأوقاف الواسعة»، إلى مدارس[7] الشيعة كمدرسة جزين التي أسسها، بعد سنة ١٣٧٠م، الشهيد الأول محمد بن مكي، (١٣٣٤ — ١٣٨٤م) لمشاق السفر إلى النجف عقب غزوة المغول (التتار)، ومدارس جبل[8] عامل في «ميس الجبل»، أنشأها علي عبد العالي الميسي (ت ١٥٢٦م) إلى مدرسة شقراء التي

أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب الجامعة اللبنانية



صف لتعليم مهنة النجارة في مدرسة عينطورة عام ١٩١٧

أقامها موسى الحسيني الأمين (ت ١٧٨٠م) في أواخر القرن الثامن عشر.

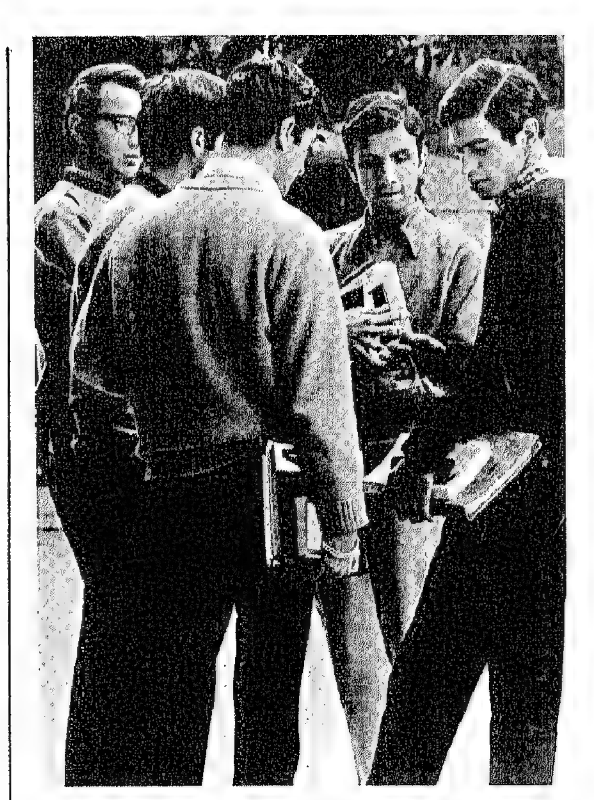
لقد تقدم مدرسة عينطورة وتأخر عنها مدارس كثيرة في لبنان، من ذلك مدرسة سيدة حوقة(١٦٢٤)، ومدرسة مارت مورة في إهدن (في أواخر القرن السابع عشر)، ومدرسة زغرتة (١٧٣٥).

وتوالى ـ في القرن الثامن عشر ـ إنشاء المدارس: في وادي شحرور (١٧٥١)، ودرعون[٩] (١٧٥٧)، وجبيل (١٧٦٢)، وزحلة (١٧٦٩)، ودير القمر (١٧٨٢)، وبزمّار (١٧٩٧). ولكن أبرز هذه المدارس وأحقها بالتنويه: مدرسة «عين ورقة»[١٠].

ومهما يكن من أمر، فإن الرهبنات والإرساليات قد نهدت إلى إنشاء المدارس ـ ومنها ما كان دينياً صرفاً ـ ولم يكن الباعث على هذا الإقبال على إقامة المدارس تنافساً خالصاً، بل كان وراء ذلك الأوامر والتعاليم الدينية بذلك[١١]. وقد كانت الكنيسة تبذل للمعلمين أجورهم ما لم يكونوا رهباناً. وكذلك كان أولياء الطلبة يتحملون قسطاً معيناً من هذه الرواتب[١٢].

وليس في حوزتنا وصف لمنهج التعليم في هذه المدارس، إلّا ذكر المواد التي كانت تدرس للمبتدئين: تمارين القراءة والكتابة، والألحان البيعية، والحساب البيعي، والصرف والنحو. أما دروس المرحلة العليا (دروس «العلوم العالية» بحسب تعبيرهم) فهي الفصاحة، والنظم، والفلسفة، والمساحة، وعلم الفلك والرياضيات، واللاهوت الإعتقادي الأذى، ولاسيما ماكان منه لازماً لقبول الأسرار وتوزيعها[١٣].

على أنه يجدر بنا أن ننوه بالسنة ١٧٥٢ في تاريخ التعليم في لبنان، ففي هذا العام أُطلق التعليم من قيود المذهب والطبقة، إذ وهبت «الست أمّون» ابنة الأمير نجم شهاب، زوجة الأمير ملحم، ووالدة الأمير يوسف، بناءً في دير القمر (سنة ١٧٥٠) ليكون مدرسة لأبناء القرية جميعاً، دونما تخصيص أو تمييز. وبالفعل أقيمت المدرسة المذكورة (سنة ١٧٥٢)



طلاب في حديقة الجامعة الاميركية

بعدما قبل هذه الهبة مجمع مديري الرهبنة في جلسته في دير سيدة اللويزة يوم الجمعة ٢٦/٦/١٧٥٠ ودوّن في سجل الرهبنة المحفوظ في دير سيدة اللويزة، بهذا الشأن: «في سنة ١٧٥٢ ابتنت الرهبانية الحلبية اللبنانية أنطوش في بلدة دير القمر، بلدة الأمير، دار الحكم، وأقامت فيه مدرسة لتعليم الأولاد. وهذه المدرسة تحوي ــ ما عدا أولاد الطائفة المارونية ــ أولاد الأمراء والستات وأهل القرية، بمساعدة العمار المذكور».

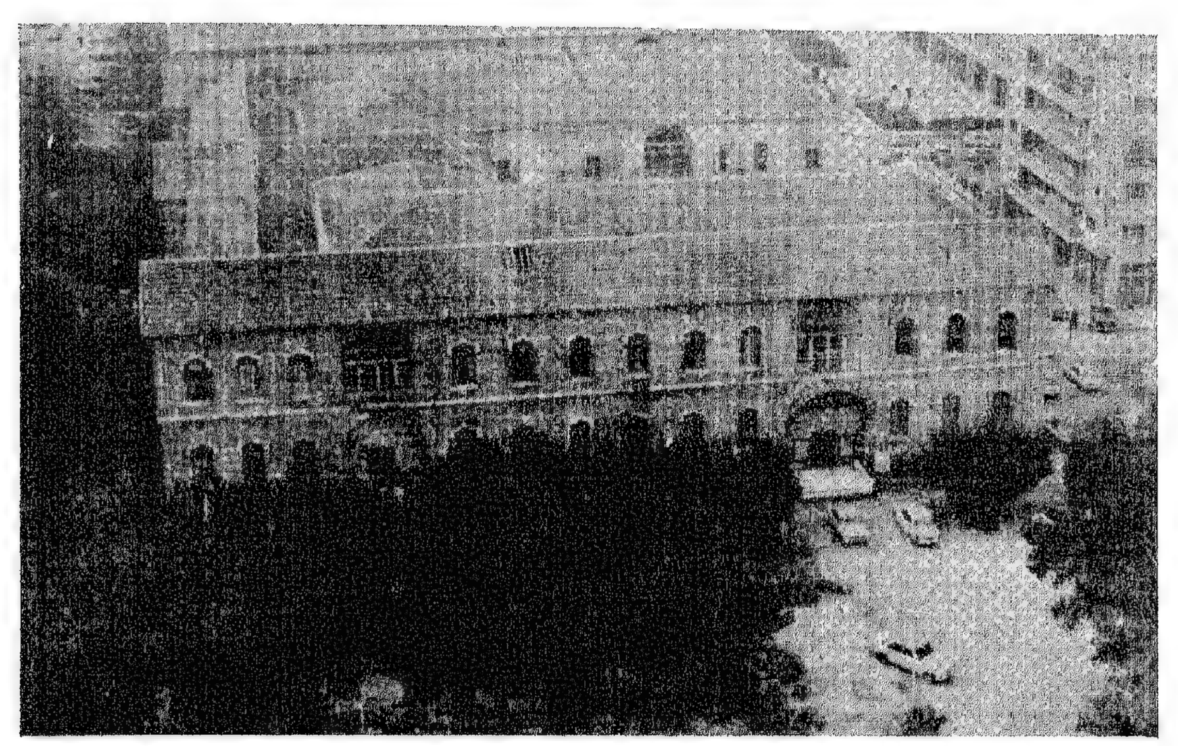
أما نص الهبة[١٤] فهو التالي: «وجه تحريره، وموجب تسطيره، هو: أننا وهبنا وهبة لا ترد أصلاً، إلى أعزازنا الرهبان الجليين اللبنانيين، الأقبية الأربعة والدكاكين الذين فوقهم جميعهم الذين هم لنا بجانب كنيسة التلة عن يد عزيزنا القس متى الحكيم الحلبي، ويكونوا لهم ملكاً ووقفاً صحيحاً شرعياً ويصرفهم حيث شاؤوا. وما أحد له علقة معهم، ولا نحن، بنوع من الأنواع أصلاً. تحريراً في سنة ألف ومئة وثلاث وستين» (١٧٥٠ م.).

ومهما يكن من أمر فإن من النتائج التي يصل إليها الباحث: ان المدارس عريقة في لبنان، وان الصبغة الدينية لزمت بعضها، حيناً من الدهر، وإن وفود الإرساليات ونشطة الرهبانيات في لبنان أعقبا تنافساً على إنشاء المدارس.

ومن المناسب أن نختم هذه العجالة بما أورده «ساطع[١٥] الحصري»: «... لما كانت الإحصاءات التي نشرتها وزارة المعارف العثمانية، قبيل الحرب العالمية الأولى، مرتبة حسب المتصرفيات والولايات فإنه يتعذر على الباحث أن يستخرج منها ما كان يخص أراضي الجمهورية اللبنانية الحالية. ومع هذا من الممكن الاعتماد على المعلومات التالية عن عدد المدارس وأنواعها في عهد الدولة العثمانية». وهي ١٢٥ مدرسة إبتدائية، مدرستان ثانويتان (سلطانية في بيروت، وإعدادية في طرابلس)، ومدرسة للصنائع، وأخرى للمعلمين، وثالثة للحقوق في بيروت. ولما اشتركت تركية بالحرب الأولى، نقلت مدرسة الطب من دمشق إلى بيروت، وأسست كلية للبنات في عينطورة، وداراً للمعلمات[١٦].

لمحة من تاريخ التعليم الجامعي في لبنان

أما نشأة الجامعات في لبنان فترتبط بتأسيس المدارس فيه وتطورها. ويبدو أن الإرساليات التبشيرية والرهبنات نهدت إلى هذا العبء التربوي، ولاسيما ابّان عصر[١٧] النهضة الحديثة، لأن الدعوة إلى التعليم والحض عليه كانا جزءاً أصيلاً من التعاليم[١٨] والأوامر الصادرة إلى رؤساء الأديار والأبرشيات بإقامة المدارس في المدن، والقرى، والأديار، ورعايتها لتظل قائمة، يتعلم فيها أيضاً أبناء القرى المجاورة. ويحسبنا تبياناً لما نذهب إليه، الإشارة إلى مدرسة «عين ورقة» ــ وهي أساساً دير «مار أنطونيوس»، الذي أنشأه القس جرجس خير الله اسطفان سنة ١٦٦٠، ثم نقله، بعد عشرين سنة إلى موضع المدرسة الحالي[١٩]، وحوله البطريرك يوسف أسطفان سنة ١٧٨٩ إلى مدرسة «عمومية للطائفة»[٢٠].



الجامعة اللبنانية ـ كلية الحقوق

ومن الطبيعي أن يشتد التنافس على إنشاء المدارس بين الإرساليات. ولعل خير ما جنينا من ذلك، من بعد، جامعتان: الجامعة الأميركية في بيروت التي تأسست في ٣ك١ سنة ١٨٦٦، بإسم «الكلية السورية الإنجيلية»، وتغير إسمها إلى الجامعة الأميركية في بيروت في ١٨/١١/١٩٢٠، وجامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين (١٨٧٥).

أما نواة الأولى فكانت «الكلية السورية الإنجيلية في بيروت». وأما نواة الثانية فمدرسة «غزير» للآباء اليسوعيين (سنة ١٨٤٦[٢١]). وهنا تستوقفنا مصادفة محمودة، لعلها قصدت عمداً بدافع التنافس الموصوف: أن ينشىء المبشرون الأميركيون (بهمة Cornelius V.A. Van Dyck المتوفي سنة ١٨٩٥) والمبشرون الفرنسيون (اليسوعيون) مدرستين في سنة واحدة (١٨٤٦): الأولى في «عبيه»[٢٢] والثانية في «غزير».

وجدير بالإشارة إلى أن الجامعة الأميركية في بيروت مرتبطة ـ منذ أولية إنشائها ـ بجامعة ولاية نيويورك، إرتباطاً أكاديمياً، وإن «جامعة القديس يوسف» مرتبطة بجامعة «ليون» الفرنسية إرتباطاً أكاديمياً أيضاً.

ومدرسة «غزير» هذه نقلت إلى بيروت، سنة ١٨٧٥، ومنحها البابا (بل منح، تحديداً، كلية الفلسفة واللاهوت فيها)، لقب الجامعة، أو تسمية «الجامعة» في السنة نفسها، وعرفت، من بعد، بإسمها المعهود اليوم: «جامعة القديس يوسف».

الجامعة اللبنانية:

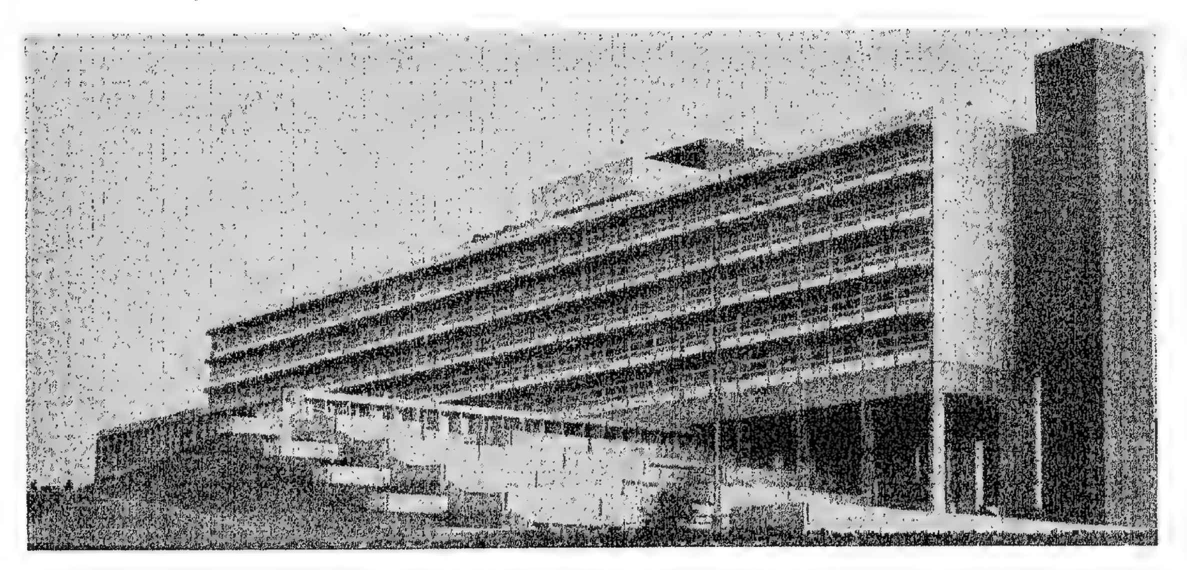
استأثرت الجامعتان الأميركية والفرنسية بالتعليم الجامعي في لبنان حتى تأسيس الجامعة اللبنانية في ٦ شباط[٢٣] ١٩٥٣ (وقد تقدم ذلك وتأخر عنه جهود مستقلة سنعرض لها، من بعد).

بيد أن نواة الجامعة اللبنانية غرست في ٢٠/١٠/١٩٥١ «بدار المعلمين[٢٤] العليا» التي أنشئت بالمرسوم ٦٢٦٧ في ٢٠/١٠/١٩٥١. ولم تؤسس كلية ثانية حتى سنة ١٩٥٩[٢٥]، فإذ ذاك أسست «كلية الآداب»، التي عرفت، فيما بعد، بإسم «كلية الآداب والعلوم والإنسانية» ثم

تـوالى إنشاء الكليـات المختلفة: كلّيـة العلـوم (١٦/١٢/١٩٥٩)، فكليـة الحقـوق والعلـوم السياسية والإدارية (١٦/١٢/١٩٥٩)، فمعهد العلوم الاجتماعيـة (١٦/١٢/١٩٥٩). وبذلـك أنشئت أربع كليات، أو ــ إن آثرنا الدقة: ثلاث كليات ومعهد ــ في سنـة واحدة، بـل في يوم واحد.

ثم أقيم «معهد الفنون الجميلة» (بالمرسومين: ٣١٠٧ تاريخ ١٠/١١/١٩٦٥، و٤١٩٣ تاريخ ٢٩/٣/١٩٦٦)، فكليـة الإعـلام والتـوثيـق (الصحافة)، سنة ١٩٦٧، فكلية إدارة الأعمال (التجـارة) سنـة ١٩٦٧. ثم معهـد العلـوم التطبيقية والإقتصادية سنة ١٩٦٨، وأخيـراً: كليـة الهندسـة (١٩٨٠). والعزم معقـود على إنشاء كلية الطب.

وقد خطت الجامعة اللبنانية خطوات واسعة في استقلاليتها وتكوين شخصيتها، لّما مُنحت



الجامعة اللبنانية ــ البناء الحديث لكلية العلوم

استقـلالهـا العلمي والإداري وتـم تنظيمهـا بقوانين ومراسيم مختلفة، لعل أشهرها ما يعرف بقانون التفرغ، وهو قانون رقمه ٦/٧٠، صدر في ٢٣/٢/١٩٧٠.

وجدير بالإيراد أن للجامعة، اليوم، فروعـاً لأكثر كلياتها في الجنوب والشمال والبقاع، وان من كليـاتهـا (الحقـوق) مـا شـرع في منـح «الدكتوراه»، فيما طفقت «كلية الآداب والعلوم الإنسانية» تستقبل، منذ العام الدراسي ٨٠ ــ ٨١، طلبات الراغبين في التحصيل والإعداد لنيل «الدكتوراه» في بعض أقسامها.

جامعات أخرى:

أنشأت بعض المعاهد في لبنان ــ قبيل إنشاء الجامعة اللبنانية وبعدها ــ فـروعاً لتـدريس بعض الاختصاصات الجامعية كالآداب والحقوق والهنـدسـة («الأكـاديمي اللبنـانيـة ــ الكسي بطرس)، والحقوق (معهد الحكمة)، فيما نهدت بعض المؤسسات إلى إقامة جامعـات مستقلة: كجامعة بيروت العربية، التي باشرت التدريس سنة ١٩٦٠[٣٦].

وجـامعة بيـروت العربيـة مرتبطـة منهجياً («أكاديمياً») بجامعة الأسكندرية في مصر[٣٧]، ولكنها مستقلة تماماً علمياً، وإدارياً، ومالياً.

وكـذلك قـامت «جـامعـة الـروح القـدس» (الكسليك)، وتمنح ــ في ما تمنح من شهادات ــ درجة «الدكتوراه» في الفلسفة.

هذه لمحة جد خاطفـة عن التعليم المدرسي والجامعي في لبنان، قصارى ما نؤمله من ورائها تعريف تاريخي.

(١) حقي: «لبنـان ــ مباحث علميـة»: ٤٦٦، وحتي: «تاريخ سورية»: ٢/٣٢٠، ويتحدث (Delaroque) في رحلتـه: «Voyage de Syrie et du Mont-)

Liban» 1/24, 223, 324) عن نشاط اليسوعيين في لبنان، ومقرهم في عينطورة، الذي زاره بعد سنة ١٦٨٩. وانظر العينطوريين (أنطونيوس أبي خطار): «مختصر تاريخ جبل لبنان»: ١٢ وما بعدها.

(٢) تجد في مقالة: «مدرسة عين طورا — نبذة تاريخية في أصلها لأحد أفاضل الآباء اللعازريين» في مجلة «المشرق» (بيروت) سنة ١٩٠٠، ١٥ حزيران، ص ٥٤٨: إن هذه المدرسة فتحت أبوابها للطلاب، أول ما فتحت، بعدما تكامل بناؤها، في أوائل تشرين الأول ١٨٣٤. وجاء في «كتاب الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل» للمطران الدبس (ص ٤٦٧) تفصيل عن وقفها. أما النص الأهلي لكل الوقفية فتجده في «سلسلة بطاركة الطائفة المارونية» للدويهي: ٤٩.

(٣) الجامع المفصل»: ٤٦٩، والدويهي: ٤٩، و«المجتمع اللبناني»: ٥٤٩، والعينطوريين: ١١٣ — ١١٤.

(٤) انظر: البستاني (فؤاد أفرام): «تاريخ التعليم في لبنان» — محاضرات الندوة اللبنانية سنة ١٩٥٠، النشرة ٩ — ١٢، السنة ٤، ص ١٦٠ — ١٧١، وكذلك: «الحياة العقلية في لبنان قبل مئة سنة»، مجلة «المشرق» سنة ١٩٢٩، المجلد ٢٧، نيسان، ص ٢٧٦ — ٢٨١.

(٥) البستاني: «تاريخ التعليم»: ١٦٩.

(٦) إن المدارس الإسلامية إن لم تكن الجامع نفسه، فقد كانت ملتصقة به، دينية الصبغة والطابع أساساً. أما المدارس الإسلامية بمعناها الشائع، فقد عهدت منذ القرن الهجري الرابع/ العاشر للميلاد. والمقصود هنا موضع للتدريس غير المسجد والكتّاب، و«دار العلم» و«دار الحكمة». (انظر «التربية والتعليم في الإسلام» لمحمد أسعد طلس: ٥٣ — ١٢١، ٧٩ — ٨٠، ٥٤، ١٢٢ — ١٢٤)، ومن الباحثين من يرى أن المدارس هذه عرفت في القرن الهجري الثاني/ القرن الثامن للميلاد (انظر:
Boustany (Said): «Ibn AL Rumi...: 110, 111.

(٧) راجع «خطط جبل عامل» للسيد محسن الأمين: ١٥٠ — ١٥٧، و«الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل» لمحمد كاظم مكي: ٢٩ — ٣٩.

(٨) يصف السيد محسن الأمين في «خطط جبل عامل» (ص ١٥٦ — ١٥٧) «كيفية التدريس» في مدارس جبل عامل، وصفاً مفصلاً، طريفاً. فحواه: الإبتداء والإنتهاء بالبسملة والحمدلة، والصلاة على النبي وآله، والدعاء لواقف المدرسة والسلف الصالح، وما إلى ذلك. وقد يفتتح الدرس بتلاوة من القرآن الكريم، ثم يشرع المعلم في القراءة مصححاً، أو معلقاً، أو مخالفاً، معيداً الشرح والتفسير لمن استغلق عليهم الفهم، متيحاً المناقشة للطلاب: «... وعند العصر يجتمعون ويتذاكرون الدرس الذي قرأوه ذلك اليوم ليرسخ في أذهانهم. فإذا كان اليوم الثاني ابتدأ بقراءة العبارة تلميذ آخر وغير الذي قرأها في اليوم الأول، وإذا انتهى الدرس أعاده على الطلبة كما فعل رفيقه في اليوم الأول وهكذا حتى ينتهي الدور فيعود إلى الذي قرأه أولاً وهكذا». وفي ليلة الجمعة يمتحنون في دروسهم الماضية. أما النحو فكان يكلفهم حفظ الشواهد الشعرية غيباً، وإعرابها، وفهم معناها، إلى جانب حفظ «الألفية» بالتدريج كلما قرأ درساً حفظ ما فيه وأعربه من يقرأ عبارة الكتاب منهم».

(٩) «مختصر تاريخ جبل لبنان» لأنطونيوس أبي خطار العينطوريين: ٩٢. ومن أهم ما جاء في وقفية هذه المدرسة: «أن يستقيم بها التعليم مجاناً، ولا يطلق عليها إسم دير أبداً».

(١٠) «الجامع المفصل»: ٥١٦ — ٥١٧، ٥٧٢ — ٥٧٣، و«سلسلة بطاركة الطائفة المارونية» للدويهي: ٥٣ — ٥٧. وتلفي في كتاب «بصائر في تاريخ العلامة يوسف اسطفان»: ١/ ٢١٤ — ٢٢٣، معلومات مسهبة عن نشأة هذه المدرسة وتاريخها. أما الوثائق والصكوك المتعلقة بها فالتمسها لدى اسطفان (خير الله): «زبدة البيان أو خلاصة تاريخ أم مدارس سورية ولبنان عين ورقة».

إن أصل مدرسة «عين ورقة»، هذه «دير مار أنطونيوس» الذي بناه القس جرجس خير الله اسطفان سنة ١٦٦٠، ثم نقله بعد عشرين سنة، إلى مكانه الحالي، قد حوّله البطريرك يوسف اسطفان (سنة ١٧٨٩) إلى مدرسة أكليركية عامة، وصفت، فيما بعد، بأنها «أم المدارس الوطنية دون خلاف».

وقد ورد في «الجامع المفصل» (ص ٥١٦) إن دير عين ورقة بني سنة ١٦٩٠. ولعله يقصد أن الدير هذا الذي أنشىء سنة ١٦٦٠، قد نقل بعد عشرين سنة، إلى المكان القائم فيه حالياً، وإن كنيسة القديس أنطونيوس قد تم بناؤها سنة ١٦٩٠ (الغوسطا: ١/ ٢٢٥ واسطفان: ١٨، ٢٣، ٢٦).

بيد أن مصادر أخرى لا تنعتها بالاكليركية، بل تصفها بأنها «مدرسة عمومية للطائفة» (الدويهي، مثلاً: ٥٤). بل ان اسطفان نفسه الذي وصفها، في موضع (ص ١٨) بالاكليركية العامة ليورد في موضع آخر (٣٢ — ٣٤) بأنها استحالت مدرسة عامة للطائفة المارونية (يدرس فيها الطلبة الاكليركيون العلوم الإلهية والبشرية، وتكون أشبه بمدارس رومية الخيرية). ولكنه قد

ورد في صكوكها التي تصف برامجها انه كان يدرس فيها النحو السرياني والعربي، والفصاحة، وعلم المنطق والفلسفة، واللاهوت النظري والعملي، والمجادلات الدينية، وشرح الكتب المقدسة، وحوادث علم الذمة والوعظ الروحي، الخ... (اسطفان: ٣٥). ويقول البستاني («تاريخ التعليم»: ١٧٠): إن الدراسة كانت تشمل: العربية والسريانية، واللاتينية، والإيطالية، والعلوم التي تلقن في المدارس الأوروبية الكبرى، بما في ذلك اللاهوت والفلسفة، إلى جانب التعليم الإبتدائي والثانوي.

(١١) انظر ص ٥٢٦ من «المجمع اللبناني» المنعقد بدير سيدة اللويزة سنة ١٧٣٦. وانظر أيضاً: «الجامع المفصل»: ٥٠٢ ـ ٥١٧.

(١٢) «المجمع اللبناني»: ٥٢٩ ـ ٥٣٠ ويورد ساطع الحصري («حولية الثقافة العربية»: ٣١٤/١) بأن التعليم في تلك العهود قد اضطلعت بأعبائه المدارس الطائفية والأجنبية.

(١٣) المصدر نفسه: ٥٣٥ ـ ٥٣٦، ٥٤٦.

(١٤) يلاحظ أن لغة الهبة يقرب من العامية.

(١٥) «حولية الثقافة العربية»: ٣١٤/١.

(١٦) المصدر نفسه: ٣١٤/١.

(١٧) يكاد ينعقد الرأي على أن هذا العصر ينحصر في الحقبة ما بين حملة «بونابرت» على مصر سنة ١٧٩٨، وأوائل سنوات القرن العشرين.

(١٨) انظر ـ على سبيل المثال ـ ما ورد في «المجمع اللبناني» المنعقد في «دير سيدة اللويزة» سنة ١٧٣٦ (ص ٥٢٦). وتحسن مراجعة كتاب «الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصل» للدبس: ص ٥٠٢ ـ ٥١٧.

(١٩) إسطفان: ٢٣.

(٢٠) انظر الدويهي: ٥٤، وإسطفان: ٣٢ ـ ٣٤، ولو انه نعتها ـ في موضع آخر (ص ١٨) ـ بالمدرسة «الاكليركية العامة».

(٢١) تورد المراجع التي تؤرخ لهذه المرحلة ـ واتفق لي الوقوف عليها ـ السنة ١٨٤٧، تاريخاً لإنشائها. ولكن «دليل فرع الآداب العربية» (معهد الآداب الشرقية سابقاً) لجامعة القديس يوسف في بيروت (ص ٣، من طبعته لسنة ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠) يورد أن مدرسة غزير أقيمت سنة ١٨٤٦. ومهما يكن من أمر، فالفرق بين التاريخين ـ وهو سنة واحدة، لا ينفي ما نذهب إليه من إحتدام التنافس المحمود بين الإرساليات، كما سيلي.

(٢٢) وشاركه في تأسيسها المعلم بطرس البستاني (ت ١٨٨٣)

(٢٣) بموجب المرسوم الإشتراعي ٢٥ تاريخ ١٩٥٣/٢/٦.

(٢٤) عرفت ـ في ١٩٥٣/٢/٦ ـ باسم «معهد المعلمين العالي». ويطلق عليها، منذ ١٩٦٧/١٢/٢٦: «كلية التربية».

(٢٥) بالمرسوم ٢٨٨٣ في ١٩٥٩/١٢/١٦.

(٢٦) كان ذلك في كليتي الآداب والتجارة فحسب. ثم توالى تأسيس الكليات فيها: الهندسة المعمارية (١٩٧٥)، والهندسة المدنية (١٩٧٧)، وكلية العلوم (١٩٧٦).

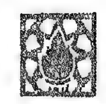
(٢٧) ص (٤) من محاضرة رئيسها الدكتور محسن خليل «جامعة بيروت العربية ـ تأصيل وتعريف» (ألقيت في «معهد غوته» في بيروت في ١٩٨١/١/١٥ ـ وطبعتها جامعة بيروت العربي في كراس مستقل).

■

أبعاد التاريخ اللبناني الحديث

د. نقولا زيادة

(١)



في القرن العاشر الميلادي وصف المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» ديار الشام بقوله:

«ووضع هذا الاقليم ظريف هو أربعة صفوف: فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل، رمال منعقدة ممتزجة، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل. والصف الثاني الجبلي: مشجر ذو قرى وعيون ومزارع. يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وانطاكية. والصف الثالث الأغوار، ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل. يقع فيه من البلدان وبلة وتبوك وصفر وأريحا وبيسان وطبرية وبانياس، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة، معتدلة مع البادية، ذات قرى وعيون

وأشجار، يقع فيه من البلدان مآب وعمان وإذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب».

وهذا الوصف ينطبق بشكل خاص على الجزء الأوسط من ديار الشام هذه، أي لبنان، فالمسافر، إذ يصعد من صور أو صيدا أو بيروت أو جونية أو البترون أو طرابلس، يجتاز أولاً جيوباً سهلية ضيقة على الغالب، ثم يبدأ تسلق الجبال، وهذه هي السلسلة الغربية أو سلسلة جبال لبنان التي تمتد من مرتفعات عكار في الشمال متجهة عبر جبة بشري وجبال البترون وجبيل وكسروان وصنين والكنيسة والباروك الى جبل عامل في الجنوب. والفروق التي يشاهدها المسافر في تصعيده عبر هذه السلسلة بين أن تكون نقطة إنطلاقه صور مثلاً أو غيرها هي فروق في ارتفاع المناطق المصاقبة للسهول الساحلية الضيقة، فالمصعد من طرابلس ينتهي الى جبال الأرز وقرنة السوداء أو ظهر القضيب (أعلى قمة في لبنان) (نحو ٣٢٠٠ متر)٠ والمصعد من بيروت يصل الى ظهر البيدر (نحو ١٥٥٠ متراً) بينما لا يقابل المصعد من صيدا أو صور مثل هذه الارتفاعات.

والانحدار الى الشرق من هذه المرتفعات والجبال يؤدي بالمسافر الى البقاع وهو سهل متسع نسبياً يمتد من الحدود اللبنانية السورية شمالاً الى منابع نهر الأردن جنوباً، وهو أقل اتساعاً في نصفه الجنوبي منه في أجزائه الشمالية، ويتروح ارتفاعه بين ٨٠٠ متر و١١٠٠ متر فوق سطح البحر.

وتحمي سهل البقاع من الشرق سلسلة الجبال الشرقية المعروفة بلبنان الداخلي أو أنتيلبنان، وهذه تتجه أيضاً من الشمال الى الجنوب، وتبلغ أقصى أرتفاعها في جبل الشيخ (٢٨٩٠م.)، وتكوّن، على وجه العموم الحدود بين لبنان وسورية.

هذه الأقسام الطبيعية للبنان ــ الجيوب السهلية الساحلية وجبال لبنان والبقاع والسلسلة الشرقية ــ لها امتدادات الى الشمال والجنوب فالجيوب السهلية الساحلية تمتد بعد العريضة شمالاً الى سهول بانياس وجبلة واللاذقية في سوريا، وتمتد جنوباً الى سهول عكا وحيفا ويافا وغزة في فلسطين، وسلسلة جبال لبنان لها امتداد طبيعي جنوباً في جبال الجليل في فلسطين، كما أنها تتصل بجبال اللاذقية شمالاً. ومثل ذلك يقال عن البقاع الذي هو جزء من منخفض جيولوجي يمتد من سهل القاع حول حلب الى وادي العربة جنوبي البحر الميت عبر البقاع وغور الأردن. والجبال الشرقية لها امتداد الى جبال عجلون وما اليها جنوباً في الأردن.

ثمة أمور حرية بالذكر تتعلق بلبنان، منها أن البلد صغير فمجموع مساحته يزيد قليلاً عن عشرة الآف كيلومتر مربع. وطول شاطئه حول ٢٥٠ ك. م. ومنها أن التركيب الجيولوجي لجبال لبنان مكن لها من الاحتفاظ بمياه الأمطار المتساقطة عليها ومياه الثلوج الذائبة عن سفوحها فوق الطبقات الصلصالية (الدلغانية) على ارتفاعات عالية، وهذا ما أدى الى وجود الينابيع على ارتفاع قد يصل الى ١٩٠٠ متر (نبع مغارة قاديشا).

اذا أضفنا الى ذلك أن المرتفعات الغربية تنال الحصة الكبرى من أمطار الشتاء التي تحملها الرياح الغربية الى المنطقة، أدركنا السبب في أن السفوح اللبنانية كانت تكسوها الغابات والأحراج والأشجار المثمرة وغير المثمرة قبل أن تعمل يد الانسان تقطيعاً وتخريباً دون تنظيم أو تخطيط.

ومنها أن ارتفاع السلسلة الغربية حدد سبل الاتصال بين الساحل والداخل، وبخاصة لأن أجزاء كثيرة من المرتفعات تكسوها الثلوج في فصل الشتاء. ففي المرتفعات الغربية منخفضان هما سهل البقيعة الذي يصل طرابلس بحمص وطريق جديدة مرجعيون الذي يصل صيدا بالداخل الى دمشق. وهذان الممران كانا الطريقين الطبيعيين الصالحين أكثر أيام السنة. أما الانتقال من بيروت الى دمشق فلم يكن متيسراً في الشتاء. وظل الأمر كذلك حتى بنيت السكة الحديدية التي ربطت العاصمتين في أواخر القرن الماضي.

ومنها أن التنوع في الارتفاع سبب اختلافاً في المناخ ترتب عليه أن أصبحت المناطق اللبنانية صالحة لانتاج الحبوب والخضار



قروي لبناني

والثمار في أوقات مختلفة من السنة.

وقبل أن ننتقل الى تأثير جغرافية لبنان على تاريخه، نود أن نشير الى التسمية نفسها من الناحية التاريخية الحديثة، وهنا ننقل رأي زميلنا الدكتور كمال الصليبي حول هذه المسألة حيث يقول:

«لم تستعمل عبارة لبنان استعمالاً رسمياً، محدد المضمون، الا بعد انشاء المتصرفية اللبنانية، فالمعنيون، حين حكموا مناطق لبنان الجنوبية ثم وسعوا حكمهم في غضون القرن السابع عشر حتى شمل معظم المناطق الشمالية، عرفوا بـ«أمراء الدروز» لا بـ«أمراء لبنان». وكذلك عرف خلفاؤهم الشهابيون، ١٦٩٧ و١٨٤١، مع أن هؤلاء لم يكونوا من الدروز، وانما من السنة الذين تنصروا فيما بعد.

«أما عبارة جبل لبنان» — فكانت تطلق أصلاً على المناطق التي يسكنها الموارنة في أقصى الشمال، وهي جبة بشري وبلاد البترون وجبيل.

وكانت منطقة كسروان، التي يسكنها الموارنة أيضاً، تعتبر جزءاً من جبل لبنان حيناً، ومنفصلة عنه حيناً آخر. وكانت عبارة «جبل لبنان» يقابلها ماسمي بـ«جبل الدروز» أو«جبل الشوف» وهي المنطقة الواقعة الى الجنوب من كسروان، عبر طريق بيروت — دمشق. ولم يكن لهذه المنطقة الدرزية في بادىء الأمر، أية علاقة بمناطق الموارنة في الشمال، ولم تشملها عبارة «جبل لبنان» على الأقل في الاستعمال الشائع قبل القرن السابع. وما جاءت أواخر القرن الثامن عشر حتى أصبح استعمال هذه العبارة يشمل الأمارة بكاملها. وذلك بعد أن استقر عدد كبير من الموارنة في المناطق الدرزية في الجنوب فلعل الموارنة الذين نزحوا الى هذه المناطق، في القرنين السابع عشر والثامن عشر اصطحبوا اسم موطنهم الأصلي، فشمل الشمال والجنوب معاً.

لم تكن أراضي المعنيين والشهابيين، ولندعها تسهيلاً بالامارة اللبنانية، وحدة واضحة الحدود. كان جزؤها الأساسي يتألف من المقاطعات المارونية والدرزية التي اقتطعت للأمراء، ثم شكلت فيما بعد متصرفية جبل لبنان. لكن كثيراً ماكان الأمراء المعنيون والشهابيون يبسطون نفوذهم على المناطق المتاخمة، إما بالتزام الجباية للباب العالي أو بفرض سيطرتهم العسكرية عليها. وطالما حكم المعنيون مدينتي بيروت وصيدا، واختاروا أحداهما عاصمة لهم، مع أنهما لم تكونا تماماً جزءاً من الامارة اللبنانية. ودخلت مدينة طرابلس أيضاً ضمن أملاك المعنيين مدة من الزمن، كما حكم الشهابيون بيروت أكثر من مرة خلال القرن الثامن عشر. ومع أن البقاع لم يكن، رسمياً، جزءاً من الامارة اللبنانية فقد كاد الأمراء اللبنانيون يسيطرون باستمرار على القسم الأوسط منه وكثيراً ماكانوا يبسطون سلطانهم على سهل عكار في الشمال الشرقي من مدينة طرابلس. ولم يحكم المعنيون والشهابيون منطقة البقاع الشمالي، إلّا أن الشيعة في منطقة بعلبك كانوا على علاقة وثيقة بشؤون الامارة اللبنانية، بحيث لا يفصل تاريخ هذه المنطقة عن تاريخ جبل لبنان. وكانت منطقة وادي التيم في البقاع الجنوبي، عند سفح جبل الشيخ، موطن الأسرة الشهابية، فلما جاء الشهابيون إلى الحكم أصبحت لهذه المنطقة، بطبيعة الحال،

صلة وثيقة بالمناطق اللبنانية.

«بامكاننا، اذن، أن نحدد لبنان تاريخياً، في اثناء العهد العثماني، بالمنطقة التي تبتدىء بقمم جبال لبنان الشرقية وتمتد حتى البحر، والتي تأثرت مباشرة بالحكم المعني والشهابي وهي منطقة لا تختلف بحدودها عن لبنان الحديث وقد نشأت فيها سلطة سياسية نمت وتطورت، دون توقف من مطلع القرن السابع عشر الى اليوم، فاتخذ لبنان من ذلك طابعاً خاصاً، وشخصية مميزة، ووحدة رعتها وحافظت عليها الأسر والحكومات التي تعاقبت على تدبير شؤون البلاد».

(٢)

موقع لبنان، في وسط الديار الشامية، وارتباطه طبيعياً بما ترتبط به تلك المناطق عامة، جعل تاريخه مرتبطاً بتاريخ المنطقة الكبرى، فبقدر ما تكون ديار الشام حلقة وصل بين البحر المتوسط غرباً ووادي الرافدين والخليج العربي شرقاً، يكون لبنان واسطة العقد في هذه الحلقة، وبقدر ما يتعرض أي من أجزاء ديار الشام لحروب أو هجمات أو احتلال من الشمال أو الشرق أو الجنوب (والاحتلال من الغرب كان دوماً قليلاً) كان لبنان يناله من ذلك حصة كبرى اذ لم يكن باستطاعة المهاجم أن يطمئن الى طريق توصله جنوباً أو شمالاً الا اذا استوثق من نوع من السيطرة على لبنان ليحفظ خط مواصلاته مع قاعدته الأصلية. هذا واضح من تتبع سير الفاتحين من طحوتميس الثالث المصري الى الأزمنة الحديثة.

ففي الحرب وفي السلم يمثل لبنان هذه «الوصلة» في الطرق والستراتيجية، كما يمثل الانفتاح على الشرق والغرب والشمال والجنوب حضارة وتجارة وفناً وثقافة.

على أن لبنان، الذي تشغل الجبال أكثر من نصف مساحته وهي جبال وعرة صعبة المرتقى، كان يستطيع دوماً أن يزعج الجيوش الفاتحة فتعصى بعض أجزائه عليها.

ومن هنا نرى أن الفاتحين كان يهمهم أن يطمئنوا الى مدن الساحل أولاً والى بعض مناطق البقاع ثانياً، وكانوا على استعداد، في أكثر الأحيان، للوصول الى تفاهم مع حكام المناطق الجبلية الوعرة، ونوع التفاهم ودرجته كانا يتوقفان على حاجة الفاتح من الجهة الواحدة وقوة الحكام المحليين أو ضعفهم من الجهة الثانية. وجل ما كان يطمع فيه الفاتح المحتل هو أن يدفع هؤلاء الحكام المحليون الضرائب المترتبة على المنطقة، وأقله أن يؤمنوا ظهر الحاكم وجيوشه. وفي هذه الحالة قد يدفع الفاتح أو الحاكم بدوره بعض المال للحكام المحليين، اتقاء لشرهم ومنعاً لأذاهم.

وهذه الوعورة في الجبال والصعوبة في ارتقائها يرجع اليهما رغبة الكثيرين ممن أوذوا واضطهدوا في الجهات المجاورة للبنان في أن ينتقلوا الى لبنان — الى هذه المناطق بالذات — ليتقوا شر الأذى والاضطهاد، وخاصة الاضطهاد الديني. وهذا يفسر لنا أمرين أولهما كثرة الفئات والطوائف الدينية المختلفة في هذه البقعة الصغيرة المسماة لبنان، والثاني قيام هذه القرى في الاصقاع اللبنانية على قمم الجبال وفي جوانب الأودية البعيدة عن الطرق المألوفة والسبل المطروقة، فالقرية في جميع أجزاء هذه المنطقة، المتعرضة دوماً للهجوم، كان عليها أن تعني بأمر الدفاع عناية مستمرة، وسكان القرى اللبنانية كانوا أكثر شعوراً بقيمة الموقع الدفاعي من سكان السهول والأودية.

ولبنان الجبلي الوعر الصعب لم تنشأ فيه ملكيات اقطاعية كبيرة على نحو ما عرفت في السهول الواسعة في البلاد المتاخمة للبنان، ذلك أن الأرض الصعبة القاسية الانتاج لا تغري بالوراثة الاقطاعية، ولا تتيح المجال للتملك الواسع المدى المتنقل جيلاً بعد جيل. ومن هنا ظلت الملكية الفردية الصغيرة الصنعة الرئيسية لامتلاك الأرضين. ومن هنا أيضاً كانت هذه العناية الفائقة في استصلاح الأرض و«نقبها» من الحجارة واستغلالها شبراً شبراً عن طريق «الجلال» التي تزين السفوح اللبنانية في كل مكان. على أن منطقتي الشوف وكسروان يمكن استثناؤهما من ذلك، اذ قامت فيهما اقطاعيات في أيام المماليك واستمرت أيام بني عثمان.

(٣)

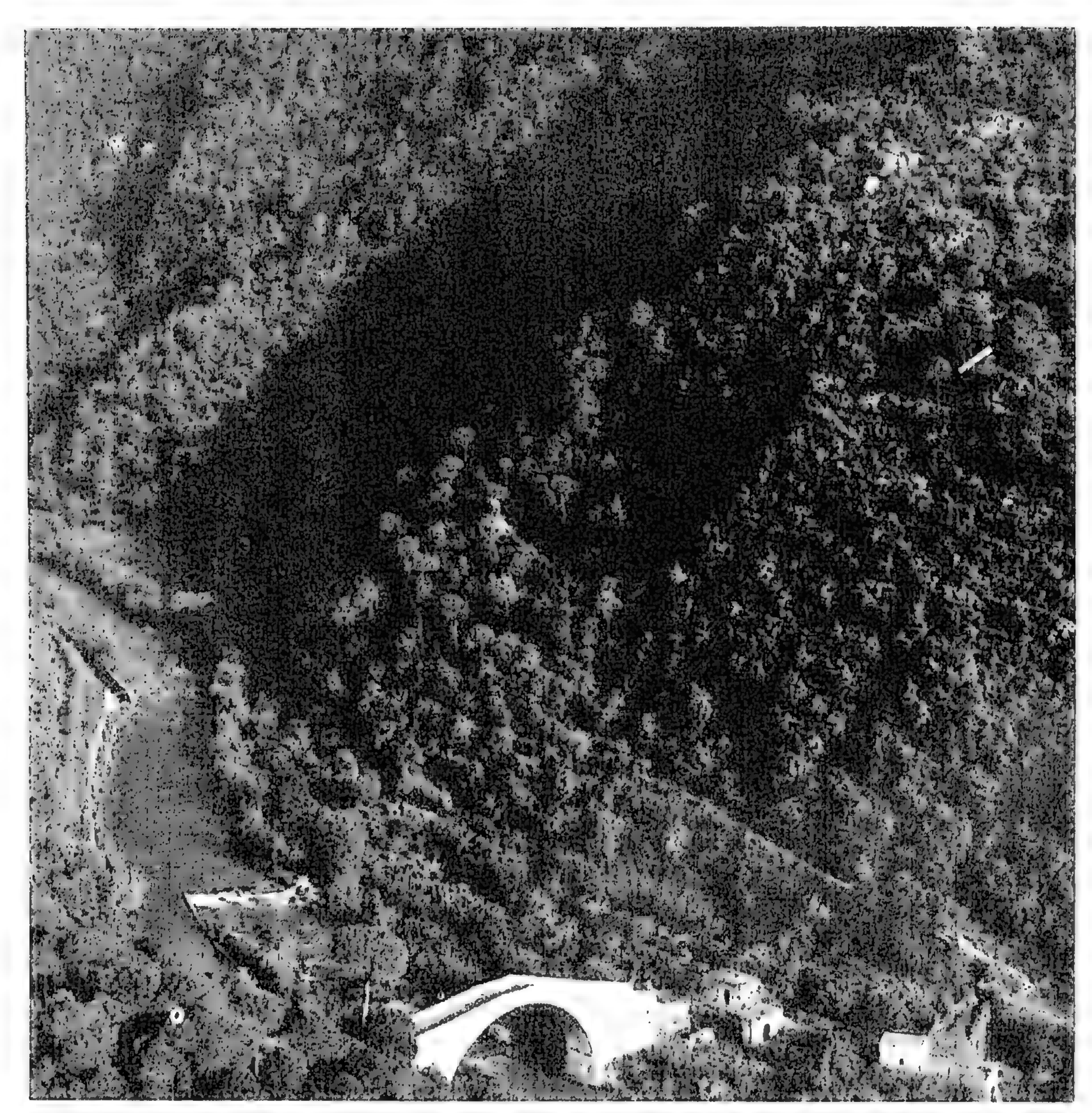
ولا يقل تنوع الشعب اللبناني عن تنوع لبنان الجغرافي، وثمة مستويان يمكن أن ينظر منهما الى تنوع السكان في لبنان ــ الواحد عامودي والآخر أفقي. الأول أي العامودي هو الزمني، فالواقع هو أن هذه المنطقة المعروفة «بديار الشام» والتي يكوّن لبنان واسطة العقد فيها، عرفت عناصر بشرية مختلفة هبطتها منذ أقدم العصور التاريخية وما قبل ذلك، ولعل أقدم عنصرين اشتركا في تكوين الشعب اللبناني هما الألبي وعنصر البحر المتوسط اللذان استوطنا المنطقة قبل نحو عشرة آلاف سنة أو يزيد ولكن العنصر الأساسي الذي سيطر على سكان لبنان منذ الألف الرابع ق. م. هو العنصر السامي، فالموجة الكنعانية ــ الفينيقية ــ الآرامية ــ هي التي أعطت ديار الشام الأصل في السكان. وقد طرأت على البلاد موجات سامية أخرى فيما بعد، وكل منها تركت في لبنان أثرها وان كنا نود أن نفصل هذه الناحية لأن المجال لايتسع لها فلا بد من الاشارة الى أن قبائل عربية إستقرت في لبنان حتى قبل الفتوح العربية، غير تلك التي جاءته بعدها.

على أن الزمن يسر لعناصر أُخرى أن تهبط البلاد وتستقر في أنحاء لبنان المختلفة. فهناك التركمان والغز والفرس الذين نقلوا أو أنتقلوا من المشرق، وثمة اليونان والرومان والصليبيون الذين جاءوا من الغرب، والى ذلك الحثيون والأكراد الذين قصدوا لبنان من الشمال.

وكان من الطبيعي أن يتأقلم الجميع أو الغالبية على الأقل بسبب الاختلاط والامتزاج والتزاوج، لكن المستوى الأفقي كان يعمل ضد ذلك الى درجة كبيرة. والمستوى الأفقي له ناحيتان: الواحدة، وهي التي أشرنا اليها من قبل، هذا التوزع الطبيعي لسطح البلاد الذي كان، بطبيعة الحال، يفصل الجماعة الواحدة عن الأخرى، اما بسبب اعتراض الجبال أو حيلولة الأودية. والثاني هو التنوع الطائفي الذي عرفه لبنان، ولسنا نزعم أن المناطق اللبنانية المختلفة تتكون من عناصر بشرية متميزة واحدها عن غيرها، ولكن التوزع الطائفي للبنان مكن لجهات مختلفة منه أن تظل لها صفات خاصة تميزها عن غيرها الى درجة ما، وان كان هذا الواقع أقل مما يظن الكثيرون. الاّ أن تطور وسائل النقل الحديثة يسر الانتقال والاتصال والامتزاج الاجتماعي بحيث أن هذه الصفات التي كانت تميز الجماعة عن الجماعة الأُخرى أخذ في الزوال. وقبل أن نتحدث عن التوزيع الطائفي للسكان في لبنان نود أن نشير الى أمر آخر، وهو أن تنوع السطح والمناخ في لبنان أعطى أجزاءه المختلفة أنواعاً من الأعمال الاقتصادية زراعية أو صناعية هي التي كيفت الجماعات، ولذلك فهذه الصفات التي أشرنا اليها كانت نتيجة التوزع الطائفي والعمل الاقتصادي والتنوع الجغرافي.

على أن التوزيع الطائفي الموجود اليوم لم يكن دوماً على هذه الحالة. ولنأخذ على ذلك مثلاً منطقة كسروان التي كانت مسيحية قبلاً لكن في أيام الفتح العثماني كان أكثر سكانها، إن لم يكن جميعهم من الشيعة، ولم يرجع المسيحيون اليها إلاّ في أوائل القرن السابع عشر. وانتشار الموارنة في أواسط لبنان وجنوبه يرجع الى وقت متأخر وله أسباب اقتصادية زراعية، فالحاجة إلى العمال الزراعيين الماهرين في الجنوب وضيق الأماكن في الشمال حمل بعض السكان على النزوح من الشمال الى الوسط والجنوب.

وقد أصاب الدكتور كمال الصليبي كبد الحقيقة في تلخيصه لوضع السكان الطائفي في لبنان اذ قال: وكان منذ عهد الامارة، أن عاش الموارنة، والدروز والسنة، والشيعة، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، معاً في لبنان وقامت بينهم روابط سياسية، ثم انضمت اليهم في حينه طوائف أُخرى، منها طائفة انجيلية صغيرة (أي طائفة البروتستانت) تحول معظم أبنائها اليها، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من طائفة الروم الأرثوذكس بتأثير الأرساليات الأميركية والبريطانية. وكانت الانشقاقات التي حصلت في الكنيسة الأرمنية بكليكيا، في العقد الرابع مت القرن الثامن عشر (١٧٣٧ ــ ١٧٤٠)، قد أدت الى نزوح فئة



النهر يصل الجبل بالشاطىء

كبيرة من الأرمن الكاثوليك الموالين لرومية الى ربوع لبنان ونتج عن الاضطهاد الذي ألحقه الأتراك بالأرمن، في نهاية القرن التاسع عشر، لجوء عدد كبير من هؤلاء الى لبنان، أكثرهم من أتباع الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية التي أصبحت، بعدد أبنائها، تحتل المرتبة السابعة في البلاد، بعد الموارنة والسنة والشيعة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والدروز. وكان، الى جانب ذلك، قد استوطن لبنان على مرور الزمن قلة من اليهود واليعاقبة واللاتين والنساطرة والسريان الكاثوليك وسواهم، ممن يشكلون اليوم ما يعرف بـ «الأقليات».

وفي العهد الشهابي عاشت الطوائف اللبنانية المتعددة جنباً إلى جنب بسلام، تشدها روابط الولاء المشترك الى الأمير الحاكم وكانت كل طائفة تدبر أمورها الداخلية بنفسها، مفاخرة بهويتها المستقلة، حريصة على حقوقها الخاصة. لكن العادات والتقاليد القديمة ضمنت بين مختلف الطوائف علاقات حسنة، وهيأت لها الأسباب لتسوية خلافاتها بالود.

«ومن هذا يتضح أن الشعب اللبناني لم يكن في الماضي أمة واعية لكيانها، موحدة في أهدافها، وانما كان مجموعة من الطوائف جمع بينها حلف هو أقرب ما يكون الى «العقد الاجتماعي». وتاريخ لبنان، منذ القرن الثامن عشر، هو، في المقام الأول، تاريخ تطور هذا «العقد الاجتماعي» وأثره في نمو البلاد».

(٤)

في لبنان أعلى قمم في ديار الشام، وهي الى جهة البحر أقرب منها الى الداخل وهذا جعل للبنان مكاناً خاصاً في حساب الذين أرادوا السيطرة على الأجزاء الوسطى من البلاد الشامية. ذلك بأن السيطرة على دمشق وحمص وحماة لم تكن تكفي الا اذا كانت السيطرة على لبنان تامة أيضاً. فالاشراف الذي تتمتع به السلسلتان المتوازيتان في لبنان بالنسبة الى الداخل والجنوب والشمال هام جداً للدفاع، خاصة وان هاتين السلسلتين قريبتان من البحر، ومع أن لبنان قلما هوجم من البحر، فإن البحر يظل مصدر خطر على سكان الأجزاء الداخلية من ديار الشام الوسطى ما لم يستول الحكام على السلسلتين. والاستيلاء لم يكن دوماً ممكناً عسكرياً، لذلك كان الاتفاق بين بناة الامبراطوريات وبين الحكام المحليين مهماً جداً وقد اتضح هذا لبناة الأمبراطوريات قديمهم وحديثهم. فأباطرة مصر وحكام أشور والأكاسرة والقياصرة أدركوا ذلك وعملوا جهدهم على أن تكون الموانىء اللبنانية (والفلسطينية والسورية المجاورة) تحت سلطانهم وأن يكون حكام الجبال حلفاءهم. وهذا ما فعله خلفاء الأسكندر ــ سواء في ذلك البطالمة في مصر أو السلوقيون في سورية. ونحن نجد أن التاريخ العربي، في مظاهر الصراع والمنافسة بين النيل ووادي الرافدين، يمثل محاولة السيطرة على ديار الشام بأكملها، لكنه يعنى بلبنان عناية خاصة.

وليس من قبيل المصادفة أن يعنى الفاتحون بتدوين ذكرى انتصارهم عند مصب نهر الكلب ــ في وسط لبنان ــ من دون غيره من الأماكن الكثيرة التي كان يمكن أن تدون فيها مثل هذه الذكرى. وليس من قبيل المصادفة أن تنشأ الأسطورة التي تقول بأنه كان يقوم هناك (عند مصب نهر الكلب) تمثال لكلب ضخم ينذر أهل المنطقة اذا هاجمهم عدو من البحر.

والذي نريد أن نقوله هو أن موقع لبنان فرض على بناة الأمبراطوريات أن يعنوا به ويهتموا بالسيطرة عليه، بقطع النظر عن الواسطة، ولذلك أصبح لبنان ملتقى لأنواع من الثقافات والحضارات، والتجارات. فحملت اليه ومنه الأساطير والآداب والفنون والأديان والمصنوعات. وكانت النتيجة الأولى لهذا كله أن أصبح لبنان نموذجاً للانفتاح على الخارج، حتى أيام كانت أجزاؤه نفسها منغلقة فيما بينها.

(٥)

في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد كان المماليك، حكام مصر وديار الشام، قد ضعفت دولتهم وكانت الدولة العثمانية في آسية الصغرى في أغنى عصورها. لكن الدولة العثمانية كانت تتجه نحو أوروبة وحتى فتح القسطنطينية سنة ١٥٤٣ لم يغير من خطة الدولة. وان كان ثمة خطر على هذه الدولة من الشرق فقد كان من المغول (حول ١٤٠٠) ومن الدولة الصفوية في ايران. ولكن المصادفة التاريخية هي التي أدت الى اتجاه سليم الأول جنوباً ومقابلته للمماليك في مرج دابق (١٥١٦) والانتصار عليهم ثم اتمام الحملة بحيث احتل القاهرة (١٥١٧) وقضى على دولة المماليك. وهنا يبدو أثر المواقع الجغرافية في سير التاريخ. فأما وقد استولى السلطان سليم على حلب، فكان لا بد له من اتمام الحملة، فحلب وحدها لا تكفي.

أما الثقافات المتنوعة في لبنان فتؤكد انفتاحه على حقول الفكر والأدب والعلم والمعرفة، اسيء تفسيره ونظر إليه على أنه دعامات لقوم خارجين عن المنطقة، واعتبر تصرف اللبنانيين أو بعض اللبنانيين كأنه عداء للثقافة التقليدية التي تفضلها أكثرية العاملين في حقول المعرفة في المنطقة.

ولذلك فإن هذا التنوع الثقافي نوصب العداء بدل أن يستغل في سبيل الخير للبنان والجيران.



القطاع السياحي في لبنان

بين متطلبات التطور والحرب المؤلمة



د. رياض العالي

السياحة في المفهوم الحديث ـ صناعة ـ وهي بذلك انتقلت من مجرد مجموعة من الخدمات الى اسلوب تقني ذي كفاءة انتاجية يسهم اسهاما واضحا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم.

وفي لبنان يلعب القطاع السياحي دوراً خاصا ومميزا ويسهم مساهمة فعالة في تدعيم ميزان المدفوعات اللبناني. وقد سجل هذا القطاع توسعا مستمرا، خاصة في الخمسينات والستينات وحتى منتصف السبعينات تاريخ



بيروت وصخور الروشة كما تبدو من البحر.

بدء الاحداث التي ما زلنا نعيش ويلاتها حتى اليوم.

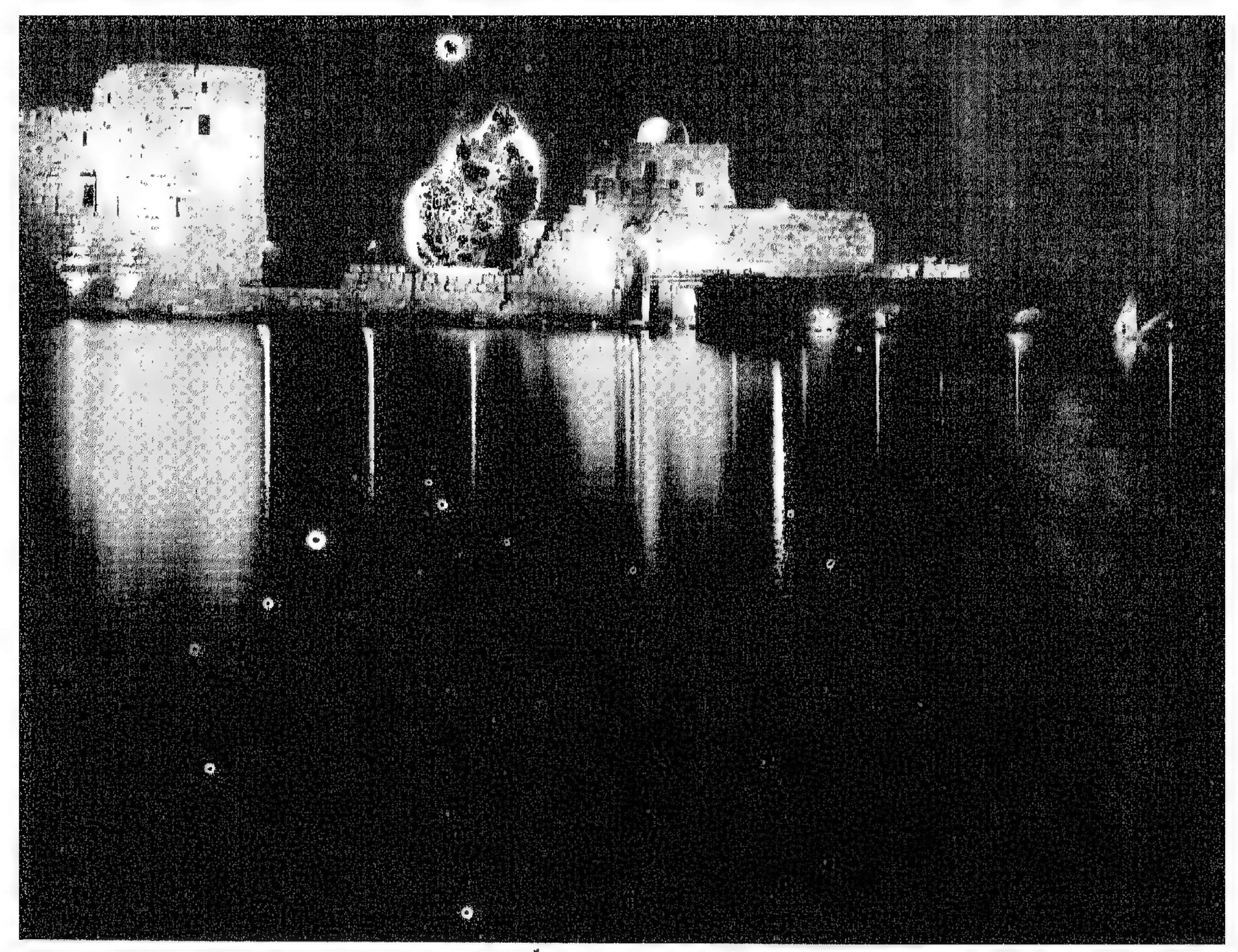
واذا كانت مناخات لبنان وثروته الطبيعية والاثرية وقدراته البشرية بالاضافة الى موقعه الجغرافي الاستراتيجي جعلت منه نقطة التقاء لمختلف التيارات البشرية والثقافية والحضارية واعدته للقيام بدور الجسر الذي يربط بين المناطق والقارات، واذا كانت حركة السياحة قد نمت في لبنان على وجه تدريجي مع تطور وسائل النقل وسبل العيش، والاتصال والتفاهم بين الناس، الا ان طبيعة اللبناني وانفتاحه وحبه للضيافة وتجهيزاته السياحية المتكاملة كانت ولا تزال تلعب دورا هاما في تنمية لبنان من الوجهة السياحية.

واللبناني في ذلك لا يشذ في هذا الشأن عن التقاليد العربية في الضيافة حيث كانت القبائل تشعل النار عا روءس التلال حتى تجتذب كل من يحتاج الى [illegible] فتقدم الضيافة لكل عابر سبيل.

وقبل ان نتطرق [illegible] الوضع السياحي في لبنان، وم [illegible] الفترات الاليمة، لا بد من الاعتراف اولا [illegible] كل شيء ان هذا التطور كان اقرب الى النمو العفوي والمتقطع منه الى التنمية الشاملة والمنسجمة... فلكلمة تنمية معناها الشمولي، وللتنمية السياحية شروط واهداف، سنحاول ايجازها في ختام هذه المناقشة السريعة للوضع السياحي في لبنان وتطوره.

تطور التنمية السياحية

لا مجال هنا للتوسع كثيرا في التذكير بما كان للبنان من موقع هام في الحضارات القديمة،



صيدا: قصر البحر في منظر ليلّي شاعري.

ويكفي ان نشير الى ان الاطلالة السياحية للبنان بدأت بالظهور عام ١٩١٤ عندما بدأ بعض اثرياء العرب والحكام الاتراك، بالاصطياف في جبال لبنان، وقد تركوا منذ العشرينات من هذا القرن اثارا تدل عليهم، منها ان اللبنانيين في العديد من المناطق اصبحوا يتكيفون مع اذواق الضيوف ــ في العادات والطعام ــ وحتى في تسمية المطاعم والفنادق والمقاهي كفندق سعد زغلول وفنادق العاصمة ومؤسساتها (النيل ــ القاهرة ــ فلسطين ــ الشام ــ الحجاز ــ حتى أعطي احد الفنادق اسم اوروبا).

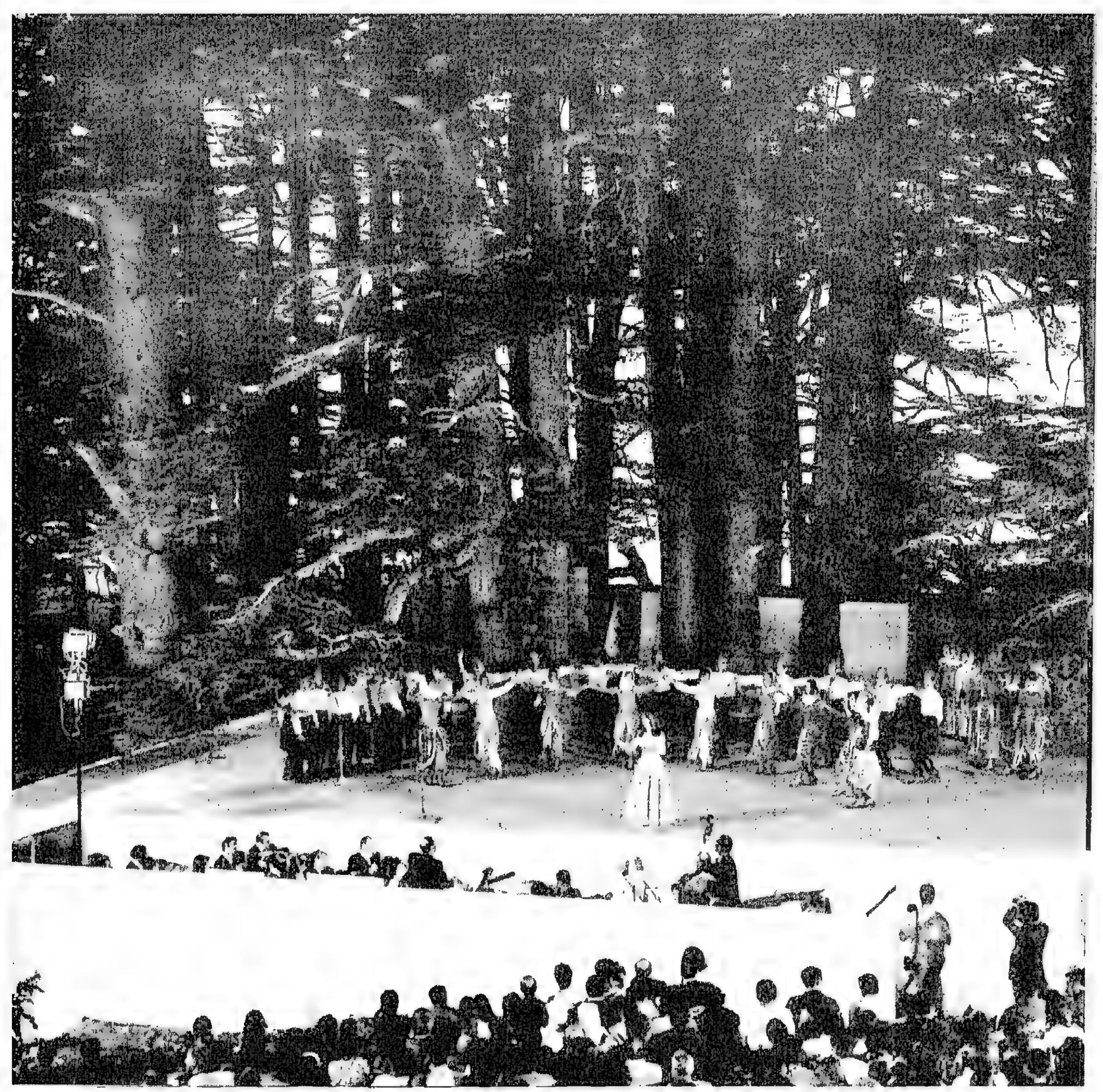
وبعد فترة الحرب العالمية الثانية التي توقفت خلالها سائر النشاطات ومنها السياحية، عادت الحركة بالانطلاق بشكل تصاعدي استمر خلال الخمسينات والستينات وحتى منتصف السبعينات، وكاد لبنان يصبح مركز الثقل السياحي في منطقة الشرق الاوسط.

وسنكتفي فيما يلي بتناول بعض المؤشرات الاحصائية وهي ثلاثة:

الواردات السياحية ــ حركة السفر وحركة الايواء.

اولا: الواردات السياحية

في مراجعة سريعة لارقام الواردات السياحية خلال السنوات الماضية نستطيع ان نكتشف من خلالها مدى التطور السريع والمنتج للسياحة اللبنانية، فبينما بلغت هذه الواردات ٢٠٣,٦ مليون ليرة عام ١٩٦٤ وصلت عام ١٩٧٤ الى ٩٦٧ مليون ليرة لبنانية، هذا مع العلم ان ازمات محلية واقليمية عصفت بالوضع العام وانعكست باشكال متعددة على الوضع السياحي في لبنان (حرب عام ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ بين الدول العربية واسرائيل).

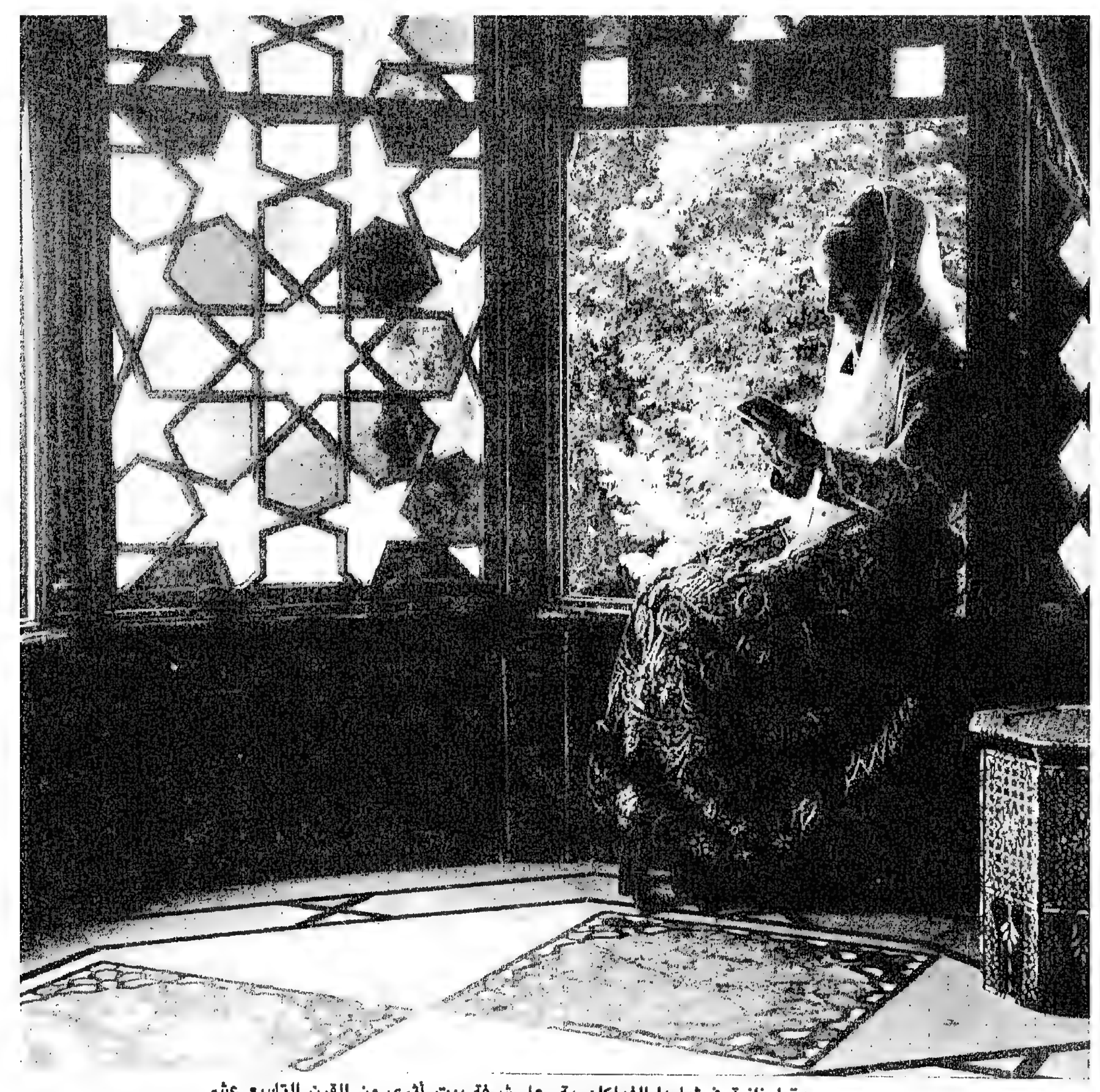


صورة من مهرجان الارز لسنة ١٩٦٩: ملتقى للسياح على ارتفاع ١٥٠٠م.

ومن خلال مقارنة مساهمة الواردات السياحية في تكوين الناتج المحلي القائم نتعرف على الاهمية التي تلعبها الحركة السياحية في مجمل الوضع الاقتصادي اللبناني. فبينما بلغت هذه المساهمة ٣١٢ مليون ليرة لبنانية عام ١٩٦٤ من اصل ٣٢٠٠ مليون ليرة لبنانية (رقم الناتج المحلي) اي ما نسبته ٩,٧٪ وصلت في العام ١٩٧٤ الى ١٥٧٦ مليون ليرة من اصل ٨١٤٠ مليون ليرة اي ما نسبته ١٩,٤٪.

ثانيا ــ حركة السفر الى لبنان:

من البديهي القول ان حركة السفر الى لبنان كانت خاضعة باستمرار للاوضاع السياسية الداخلية والاقليمية. فكلما كانت هذه الاوضاع تميل نحو الاستقرار كان عدد الداخلين الى لبنان يتطور ويتزايد، فيما كان هذا العدد ينخفض كلما لاحت في الافق اللبناني والعربي ملامح تدهور الاوضاع السياسية والمواجهة مع اسرائيل.



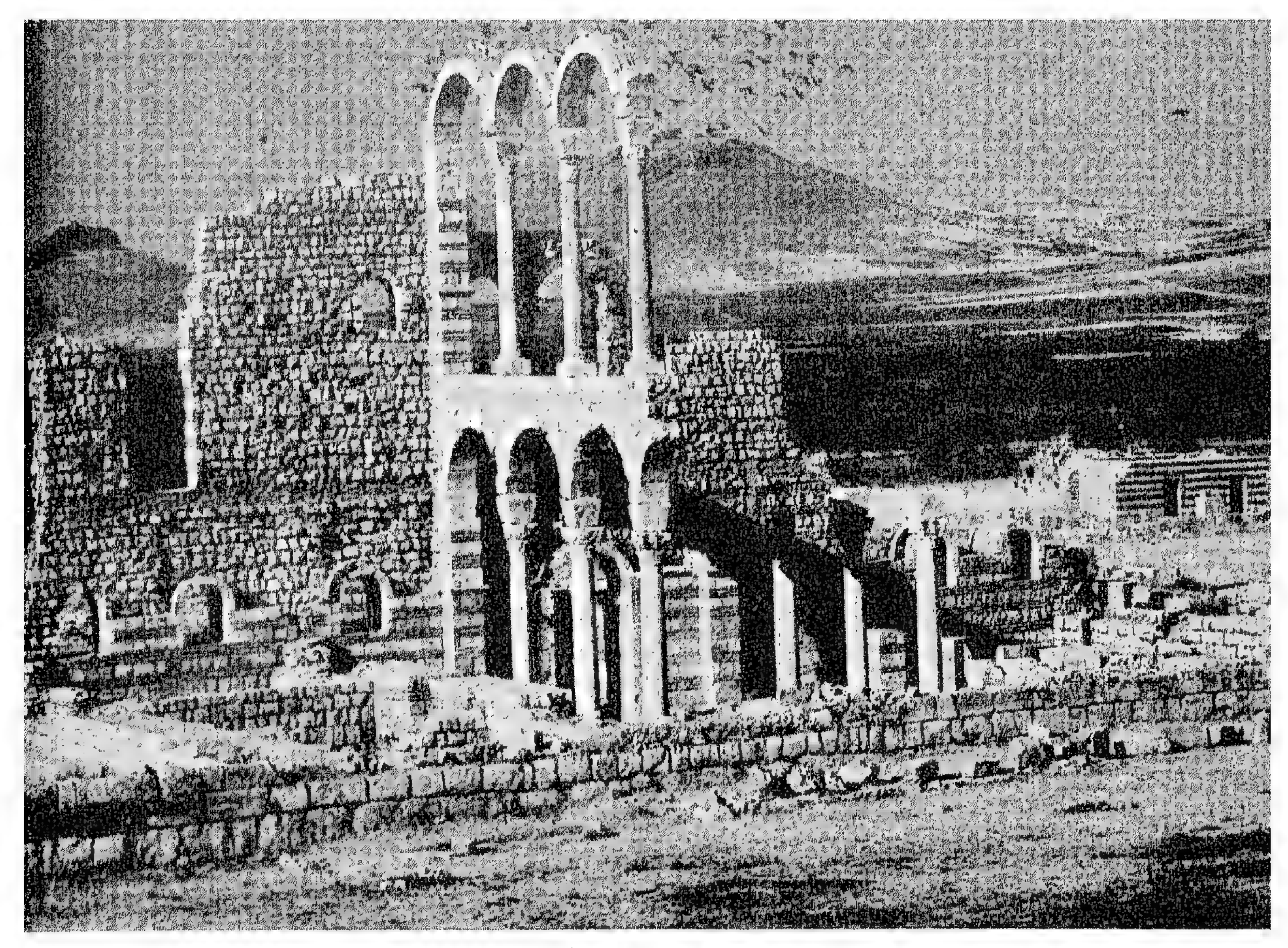
سيدة لبنانية في ثيابها الفولكلورية، على شرفة بيت أثري من القرن التاسع عشر.

ثالثا ــ حركة الايواء:

ومع تطور حركة السفر الى لبنان تشجع اصحاب الرأسمال اللبناني على توظيف اموالهم في بناء الفنادق والمطاعم والملاهي والدخول في المشاريع السياحية التي كانت تتزايد بشكل تصاعدي وتتطور من حيث النوعية الى مستوى فني وتقني عالمي.

كذلك، لا بد هنا من الاشارة الى دور لبنان في مجالي التدريب والتأهيل السياحيين عبر عدة مؤسسات لعل الاهم منها ــ المدرسة الفندقية، مدرسة الادلاء والمعهد السياحي العالمي. فقد لعبت هذه المؤسسات دورا هاما في رفع مستوى الخدمات السياحية في لبنان وكانت مصدّر كفاءات في الحقل السياحي الى مختلف الدول العربية، حيث ساهم لبنان من خلال الاشخاص الذين ذهبوا الى الخارج في تنمية الفنادق والمؤسسات السياحية التي يعملون فيها.

ولعل القفزة الاهم في القطاع السياحي



عنجر: القصر الأموي.

اللبناني هي تلك التي تجلت في اعمال المجلس الوطني لانماء السياحة، حيث لعبت هذه المؤسسة بما تملكه من سرعة في الحركة ومرونة في اخذ المبادرة دورا كبيرا في ابراز الحضور اللبناني في كل مناسبة عربية كانت ام اجنبية. هذه المرونة التي تساعد على سرعة التحرك كان دائما يغتنمها معالي رئيس المجلس الشيخ حبيب كيروز لابراز وجه لبنان السياحي وتأمين الحضور اللبناني في معظم المناسبات السياحية الاقليمية والدولية.

السياحة والحرب

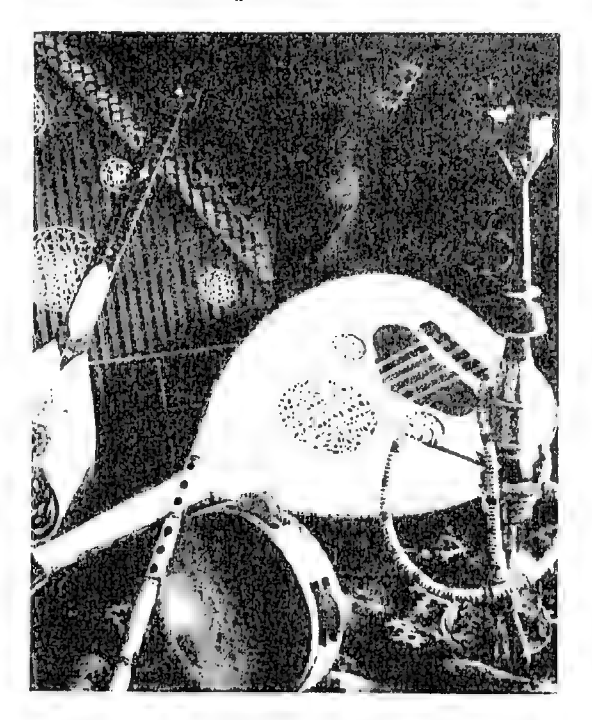
والحقيقة التي نتوقف عندها في اي حديث عن السياحة في لبنان هي الحرب اللبنانية. والسياحة في ذلك شأنها شأن سائر القطاعات الانتاجية في لبنان، التي اصابتها الحرب في الصميم، فأكلت من قلبها والقت بثقلها حائلة دون اية خطة للانماء السياحي من ان تخطو خطوتها نحو التنفيذ.

هذه هي الحرب التي هدمت العشرات من الفنادق والمؤسسات السياحية الفخمة، ودفعت باليد العاملة في الحقل السياحي للهجرة الى دول الاغتراب والدول العربية حيث وجدت فرصا مغرية للعمل بعدما ضاقت هذه الفرص داخل لبنان.

فقد خسر القطاع الفندقي في بيروت ما يقارب الـ ٤٠٪ من فنادق الدرجة الاولى والثانية، كما دمرت النزل والفنادق الصغرى، الكائنة في وسط العاصمة ومع ذلك بقي تجهيزنا السياحي في طليعة التجهيزات بالمقارنة مع بلدان الشرق الأوسط.

ونشير هنا ايضا الى ما اصاب المواقع الاثرية، حيث اصاب الاهمال بعضها والدمار البعض الاخر، خاصة تلك الواقعة في جنوب لبنان، اضافة الى ذلك تلك التجاوزات والتعديات العديدة على هذه الثروات الطبيعية والاثرية.

بشري: متحف جبران خليل جبران، حيث تعرض بعض لوحاته.



آلات موسيقية شرقية من مصنوعات لبنان الحرفية.

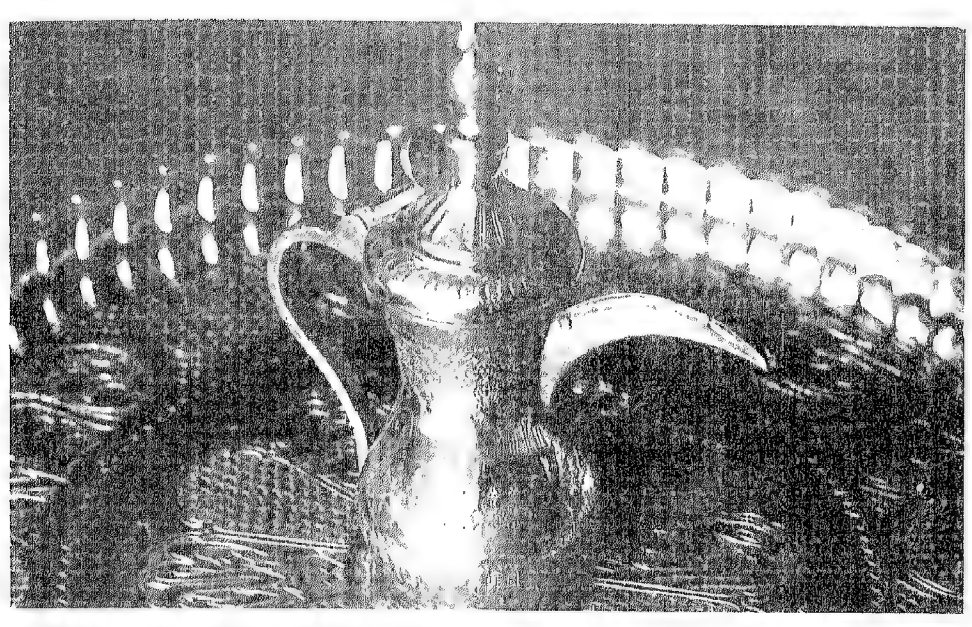
الاهداف المرجوة

ان اية نظرة للاهداف المرجوة والمقترحات المطلوبة لتطوير الانماء السياحي في لبنان باتت محكومة بما تركته الحرب من اثار مدمرة على القطاع السياحي ومجمل الوضع الاقتصادي والسياسي في البلاد...

الا اننا سنحاول وبكثير من العجلة ان نضع تصوراً لمهمات نعتبرها للمدى القريب بعد الحرب الاليمة وهي مهمات يقوم المجلس الوطني لانماء السياحة في لبنان ببعضها حاليا وحرص على اعتمادها في سنيّ الحرب الصعبة عبر اعمال مكاتبه السياحية في الخارج:

ــ اعادة تأهيل ما تضرر او ما تهدم في البنية التحتية (طرقات ــ كهرباء ــ ماء).

ــ المثابرة على القيام بحملات اعلامية والاتصال بوكلاء السفر ومنظمي الرحلات



من المصنوعات الحرفية اللبنانية ــ النحاس المشغول والمطرّق.

ورجال الاعلام العربي والعالمي، اضافة الى تزويد هؤلاء بالمواد الدعائية والاخبارية بشكل دوري.

ــ استمرار الاشتراك في المؤتمرات والمعارض الاقليمية والدولية بقصد تأمين فعالية الحضور اللبناني في المناسبات الهامة.

ــ العمل على تشجيع السياحة الداخلية وسياحة الشباب والطبقات ذات الدخل المحدود من خلال توفير المؤسسات السياحية ذات الاسعار المعقولة.

ــ عودة الاشراف المباشر، وبكل حزم، على المواقع الاثرية في لبنان وحمايتها من الاهمال والعبث.

ــ وقف انشاء الابنية المخالفة التي تشوه الشواطىء اللبنانية والرقابة على المسابح التجارية والشروع في انشاء مسابح شعبية.

اننا ونحن نضع هذه المهمات القريبة، نعي تماما ان المطلوب هو اكثر من ذلك بكثير... المطلوب وضع سياسة انماء سياحي تشمل كافة المجالات المتداخلة في القطاع السياحي. كذلك نعي ان المهمة الاساسية المرجوة هي ان يتأكد اللبناني ان الحرب المستمرة على ارضه منذ عام ١٩٧٥ وحتى اليوم، لم تصب فقط تلك النهضة العمرانية التي كانت تتصاعد، ولا تلك الابنية الفخمة... انها قبل كل شيء اصابت رصيدا عالميا له في حبه وتسامحه وتعايشه... وهذه مميزات ما زلنا نؤمن انها اهم العوامل التي ساعدت في تطور القطاع السياحي في لبنان قبل الحرب.

يبقى ان نختتم هذا «الرأي» بالتأكيد على امرين:

اولا: ان لبنان رغم ما يعانيه لا يزال في وضع يسمح له وبكل جدارة ان يكون مركزا يستقبل الاشقاء العرب ورجال الاعمال من مختلف انحاء العالم. وهذا يعود بالدرجة الاولى الى ما يتوفر لديه من تجهيزات وتسهيلات في الاتصالات السلكية واللاسلكية واستمرار مطار بيروت الدولي في العمل دون توقف، اضافة الى ان العربي الذي قام بتجربة السياحة الى الغرب وجد ان تجربته هذه غير ناضجة، في حين انه كان في لبنان يتذوق الطابع الغربي ضمن تقاليده وعاداته.

ثانيا: ان لبنان لم ينقطع اعلاميا عن العالم عبر صحفه ومؤسساته ورجال الاغتراب.

باختصار...

لبنان باقٍ وهو يعد نفسه فور تأمين الاستقرار السياسي في المنطقة ليكون حاضرا، فاعلا ومتألقا في مسيرة البناء جنبا الى جنب مع مسيرة التطوير.



الصور من المجلس الوطني لانماء السياحة في لبنان.



ذكريات وانطباعات عن معركة الاستقلال اللبناني عام ١٩٤٣

بقلم : جان سرور

يحتفل لبنان في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني من كل عام بذكرى استقلاله الذي ظفر به عام ١٩٤٣ وتعمه البهجة والسرور وتقام الحفلات والزينات في كافة أرجائه. أما أنا فكلّما رجعت بالفكر الى معركة الاستقلال التي جرت بين ٨ و٢٢ من تلك السنة المباركة، تغمرني موجة عارمة من الحماس والاعتزاز وكأني أعيشها وأخوض غمارها في وقتي الحاضر وأرتاح لما أسفرت عنه من حرية واستقلال للوطن الغالي لبنان.

والحقيقة أن ماطلعت علينا به تلك المعركة ليس الحرية التي نلناها بقوة الارادة فحسب بل ما أتت به معركة الاستقلال من جديد كان بمثابة حلم طالما راود أفكار الشباب الطالع، الشباب الحرّ الذي كان قد تجند لمقاومة كل سيطرة أجنبية على بلده الغالي وعمل السنين الطوال في بث الروح الوطنية في نفوس مواطنيه، هذا الشباب ما كان يتوقع أن يرى الجماهير على اختلاف أوساطها تهبّ بمثل هذه السرعة لتدافع عن كرامة لبنان وتنتصر لمن اعتقلوا من رجالاته.

الى أن جرت الانتخابات النيابية في تلك السنة وحملت الى المجلس التمثيلي نواباً من نوع جديد نواباً كانت لهم تطلعات تختلف عن تطلعات سواهم ممن كان يأتي بالقسم الأكبر منهم رجال الانتداب ليتعاونوا معهم على حكم البلد واستغلال خيراته وقدراته دونما رادع أو حكم ضمير.

البادرة الأولى

وكانت البادرة الأولى التي قام بها النواب الجدد انتخاب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية ثم تكليف الزعيم رياض الصلح بتأليف حكومة جديدة ما أن تسلمت الحكم حتى أعلنت عن خطتها في بيان جريء عامر بالمخططات العمرانية، وفي مقدمتها تعديل الدستور اللبناني بما يحرره من تسلط الانتداب وتحكمه بشؤون الدولة الفتية والحؤول دون تمكنها من ممارسة حقها الشرعي في الحكم وتحمل مسؤولياته.

وكان لهذا البيان وقعه الطيب لدى المتعطش للحرية وحمل عدد من الشباب الحرّ على احياء حفلة عشاء كبرى تكريماً للحكومة الجديدة في فندق النورماندي الذي كان في مقدمة فنادق لبنان في ذلك الحين شهرة واتساعاً، وحضرها

عدد وافر من رجالات البلاد الذين رأوا في البيان ظاهرة تحوّل أريد بها نقل لبنان من حالة الاستعمار الذي أعطي صفة الانتداب الى حالة الحرية التي يستحقها البلد المتقدم.

هذه الحفلة أثارت غضب المفوضية العليا وحسبت لها الف حساب وأخذت باعتماد أساليب الضغط والتهديد فيما لو أصرت الحكومة على تنفيذ مخططها، لكن التهديد لم يجد نفعاً مع حكومة يرأسها رجل جريء كرياض الصلح الذي لم يتوان عن وضع صيغة تعديل الدستور وأحالها على المجلس لأخذ موافقته عليها، وهنا لجأت المفوضية الى فرض نفوذها بالأساليب المعهودة على النواب وحاولت منعهم من حضور الجلسة التي خصصت للتعديل لكنها لم توفق اذ كان من الصعب على النواب الوقوف بوجه التيار الذي أثارته حكومة الاستقلال.

وما زلت أذكر ذلك المساء الذي عقد فيه المجلس جلسته التاريخية لاقرار التعديل وذلك في الطابق العلوي من السراي القديم المطل على ساحة الشهداء مكان سينما ريفولي اليوم، حيث كانت الأنظار متجهة الى مكان الاجتماع، وكنا عدداً من الشباب المتحمس ندور ونجول في أروقة السراي نسترق السمع الى ما يجري في داخل القاعة حيث طالت الجلسة وكثر الجدال والصياح بوجه من يحاول تأجيل التصويت على المشروع ارضاء لأصحاب الأمر.

وما أن تمت الموافقة التي تلتها عاصفة من التصفيق الحاد طرنا الى الخارج لنزف البشرى الى من كانوا يترقبون النتائج باهتمام كلي.

كانت الفرحة باقرار التعديل كبيرة لدى الكثير من الناس، لكن كانت تشوبها توقعات وهواجس جمّة لأن النقمة كانت قد بلغت ذروتها لدى المتسلطين وبتنا نتوقع حصول أمور لا ندري ما سوف تكون.

اعتقال الرئيسين والوزراء

وأفاقت العاصمة بيروت صباح الحادي عشر من شهر تشرين الثاني على خبر اهتزت له أعصاب الناس وهبّوا جميعاً كباراً وصغاراً يستجلون حقيقته فإذا هو صحيح لا ريب فيه، فقد قام جنود من الجيش الافرنسي ليلاً باعتقال الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح والوزراء سليم تقلا وعادل عسيران وكميل شمعون وعبد الحميد كرامي، واستاقتهم وهم بثياب النوم الى مكان مجهول عرف فيما بعد فإذا هو قلعة راشيا القديمة. واني أقف عند هذا الحد من ذكر الحادثة التاريخية التي يعرفها الناس وسجّلها تاريخ لبنان الحديث وتعلمها التلامذة في مدارسهم وذلك لأروي بعض الذكريات الخاصة التي علقت في ذهني والتطورات والظواهر التي عاينتها بنفسي فأقول:

كان العمل الذي أقدم عليه جماعة الانتداب في غاية البشاعة وقد ساقهم اليه نقمتهم ورعونتهم. أما ردّة الفعل لدى الشعب اللبناني فكانت عفوية وسريعة تشبه المعجزة، أقول هذا لأني كنت واحداً من الشباب الذين كانوا يعملون منذ أن وعت أنفسهم حب الوطن بالجهر والعلن على اذكاء روح الحرية في نفوس الناس ودفعهم لمقاومة الاستعمار بشتى طرقه وأساليبه، فما كنّا نواجه بسوى الصدود وعدم الاكتراث فإذا بالعمل الشاذ الذي أقدم عليه المستعمر يهزهم في الأعماق ويجرح كرامتهم فهبّوا لمقاومته بحماس واندفاع كليّ فوقفوا تلك الوقفة الفذة وكأنهم كانوا يستعدون لها منذ زمن بعيد.

كيف بدأ التحرك

ولأعد الى صباح اليوم الأول للحادث حيث ما زالت صورته ماثلة أمام عيني، عندما وصلت الى ساحة الشهداء كان أول من شاهدته تقي الدين الصلح يأتي مسرعاً ويليه محمد شقير وميشال تادرس واميليو يافت وحسين سجعان وغيرهم وغيرهم من الرفاق والأعوان يدخلون مكتب اميل البستاني الكائن في بناية سرسق فيكتمل الجمع ويأخذون بالتداول وابداء الآراء فيما يجب أن يفعلوا ويجرون الاتصالات بواسطة الهاتف بأوساط الشباب ويتوزعون المهام.

ولم تلبث العاصمة أن أقفلت وتبعتها المدن اللبنانية الأخرى وهبّت الجماهير لزيارة بيوت

المعتقلين لأعلان استنكارهم لما جرى والتعبير عن تضامنها، ومشت التظاهرات في الشوارع منها لطلاب المدارس ومنها للشباب والرجال ومنها للنساء المجدّرات وكثيرا ما كانت التظاهرة تلتقي بتظاهرة أخرى مما جعل البلد وكأنه بركان يثور. كل هذا كان يجري والجند في كل مكان يحاول منع المظاهرات فلا يجد الى ذلك سبيلاً. والجدير بالذكر أن الشعب كان يجابه العسكر الذي تصاحبه الدبابات ويقابل العنف غير مبال بالتضحيات الجسام وهو أعزل من أي سلاح لأن القضية كانت قد ذهبت بالمخاوف ووضعتها الى جانب.

اتفاق الكتائب والنجاد

ومن فوائد العمل المثير الذي أقدمت عليه المفوضية العليا كان الاتفاق الذي تمّ بين منظمتي الكتائب والنجاد، وتضامنهما معاً على خوض معركة الحرية حتى النصر. وأهمية هذا الاتفاق تكمن في أن كل منظمة كانت تسير منذ نشأتها في اتجاه معاكس للأخرى. والتباعد بينهما كان لا يدل على أنه سوف يُقضي في وقت من الأوقات الى التقارب والعمل معاً على مقاومة الخصم العنيد حتى وقعت الحادثة التي استنكرها كل منهما وشعرا أن مصلحة لبنان وكرامته تفرضان عليهما الوقوف صفاً واحداً في الدفاع عن البلد العزيز لبنان.

غداء المجدّرة

وبعد يوم اتفقت مع الصديق حبيب صالح على حضور اجتماع يعقد في دار السيد صائب سلام في المصيطبة وبعد أن أجتزنا عدة طرق تبين لنا أن الدار التي نقصدها مطوقة من الجنود السنغاليين فقررنا الرجوع من حيث أتينا. لكن الطرق التي أجتزناها وكانت حرّة اذ بها تصبح مقفلة يسدّها الجنود بوجه كا عابر سبيل وأخذنا نحاول ايجاد ممرّ واحد نعبر منه عائدين من حيث أتينا، فما كنا نسير مسافة على طريق ما حتى نجدها مقفلة فأعيانا الأمر وتعبنا وشعرنا بالجوع والعطش، وأخيراً تنبهت الى أننا أمام بيت السيدة زاهية أيوب وهي السيدة المعروفة بحماسها وبشدة وطنيتها فطرقنا بابها ودخلنا، فرحبت بنا ترحيباً حاراً ثمّ أخذت في السؤال عن الوضع الجاري في البلد فقلت لها نحن على استعداد لاطلاعك على كل ما لدينا من أخبار ولكن بعد أن تطعمينا ما يسدّ جوعنا فهتفت بصوت عال أهلاً بكما وسهلاً انما أعذراني أن لم أقم بواجبي نحوكما لتعذر الحصول على حاجات البيت بسبب الاضراب الجاري في البلد انما لدّي بعض الحواضر مع طبخة مجدّرة لا ما تزال ساخنة، فاندفعنا بسرعة نحو المائدة وأكلنا حتى شبعنا وكانت أطيب مجدّرة أكلتها في حياتي، طعمها ما يزال تحت أضراسي حتى اليوم.

نداء الى أخواني اللبنانيين

هذا ما خطر لي أن أذكره عن معركة الاستقلال اللبناني ولم آتِ فيه على تفاصيل الأحداث التي حصلت أثناء المعركة وفيها الكثير من الشؤون السياسية والبطولات والتضحيات، كما لم آتِ على وصف المناورات التي دارت حتى اطلاق سراح الذين اعتقلوا وعودة الحكم كما أراده أربابه واستقل لبنان استقلالاً صحيحاً لا تشوبه شائبة، وانما اختصرت على ما وقفت عليه شخصياً من وقائع ولمسته من ظواهر كانت جديدة عليّ ومجيدة عندما هبّ لبنان بكل فئاته ووقف تلك الوقفة العارمة دفاعاً عن حريته وكرامته.

واني أناشد أخواني اللبنانيين ونحن على ما نحن عليه من واقع أليم من جراء الحرب القائمة على أرض لبنان وما أصابنا من ويلات تكاد تقضي على الاستقلال أن يتذكروا ما قام به آباؤهم وأخوانهم في معركة الحرية عام ١٩٤٣ ويعمدوا الى التآلف والتضامن لإنقاذ لبنان من المحنة التي يتخبط فيها منذ ست سنين.

وأختم كلمتي راجياً أن يعود علينا عيد الاستقلال وقد عاد الصفاء الى شعب لبنان وغابت عنه مكائد أعدائه الى غير رجعة.



العلماء اللبنانيون في العالم وإسهامهم في صنع الحضارة

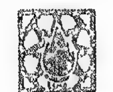
فؤاد حمدان

إن للبنان في أربعة أقطار العالم مركزاً مرموقاً وتراثاً حضارياً هاماً. فهو، بحكم موقعه الجغرافي يرتسم في ثنايا التاريخ شاهداً على احداثه ومسجلاً لوقائعه فقد تناهى إلى سمعه وبصره وعلمه صراع الامم والشعوب قديماً وما زال يراقب عن كثب مايجري في هذا العالم حديثاً. ولطالما شهد الممالك تولد وتنمو ثم تتقهقر وتزول وهو باق ومتميز لابجوه الصافي ومياهه العذبة واشجاره المثمرة وشمسه الدافئة فحسب، بل كذلك بأهله الذين جابوا معظم ارجاء المعمور على زوارق شراعية يدفعهم حبهم للمغامرة حتى اكتشفوا اكثر بقاع الدنيا رغم المصاعب والمخاطر التي اعترضت سبيلهم فنقلوا إلى اهلها الحرف ونشروا المعرفة وتناقلوا الأخبار.

ولقد كان قوام تراث لبنان عبر العصور: مزايا انسانية محضة وموارد ذكاء فذ، وظهرت هذه المزايا في قدرة اللبنانيين على التعايش مع الشعوب الاخرى وبناء اطيب العلاقات معها على اسس من الحرية والعدالة وحسن المعاملة. وما الانتشار اللبناني في العالم القديم والحديث إلا دليل واضح على ذلك من خلال المساهمات الضخمة التي قام بها اللبنانيون المغتربون في البقاع التي عاشوا ويعيشون فيها إن على صعيد العلم والمعرفة او على صعيد الاقتصاد والسياسة.

اضف إلى ذلك أن الذكاء اللبناني تجلّ ممتازاً في نخبة من ابنائه النابغين ممن ساهموا في إرساء دعائم العلوم في العالم وفي طليعتهم العلاّمة المخترع حسن كامل الصبّاح، والدكتور مايكل دبغي رائد زرع القلوب في العالم، وعالمة الاجناس البشرية لورا نادر، والدكتور ايلي بغدادي، عالم الطبيعيات في الولايات المتحدة الاميركية وجورج طنوس العالم الكيمائي والبروفسور منصور نصر الله في جامعة نيويورك، والعالم الذرّي نجل الشاعر ايليا ابو ماضي البروفسور ابو ماضي والدكتور يوسف ابو الخدود العالم الالكتروني في اميركا.

حسن كامل الصباح:



ولد النابغة الصباح في بلدة النبطية، في ٢٢ آب من العام ١٨٩٤. وكان ذكياً سريع الخاطر مولعاً بالحساب والشعر والفلك. ولما أدخله والده إلى مدرسة النبطية الابتدائية، العام ١٩٠١، ظهر ميله للرياضيات بكل وضوح، إذ درس الجبر


حسن كامل الصباح

والهندسة بدون معاونة احد وهو لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره. ومنذ ذاك الحين تجلّت فيه إمارات العبقرية والنبوغ. وقد اعجب به اساتذته في المدرسة الابتدائية إعجاباً شديداً لاحتكاره المرتبة الاولى بين اقرانه في جميع الفصول الدراسية في تلك المدرسة. ثم انتقل إلى المدرسة السلطانية الاعدادية وبقي فيها اربع سنوات انهى فيها دروسه الثانوية بنجاح. وفي العام ١٩١٤ دخل الجامعة الاميركية حيث استطاع دراسة واتقان اللغة الانكليزية في مدة لا تزيد عن ستة اشهر مما سهّل عليه معرفة الرياضيات والعلوم معرفة اكثر جلاء ووضوحاً لعدم وجود دراسات عالية لهذه المواضيع آنذاك في اللغة العربية والتركية.

وفي العام الدراسي ١٩١٥ ــ ١٩١٦ دخل الصباح قسم الهندسة في الجامعة الاميركية، وكان يوجه اهتماماً خاصاً للهندسة الكهربائية. وفي آب من عام ١٩٢١ غادر لبنان إلى الولايات المتحدة وهناك التحق بمعهد ماساشوستس الفني الذي كان يعد من اعظم معاهد الهندسة في العالم حيث تجري فيه احدث الابحاث الذرية. ثم التحق بجامعة البنوي في العام ١٩٢٢ وبقي فيها حتى مطلع شهر آب عام ١٩٢٣. وفي عام ١٩٢٣ بدأ عمله في مختبرات شركة جنرال الكتريك في سكتلندى وقد اعتبرته الشركة مهندساً كهربائياً على الرغم من انه لم يتخرّج بعد. وإثر انقطاع قصير عاد إلى الشركة نفسها عام ١٩٢٤ برتبة مهندس ممتاز حيث بدأ نجمه يتألق وبلغت شهرته الذروة، وقد بقي في الشركة حتى تاريخ وفاته في ٣١ آذار من عام ١٩٣٥ على اثر حادث اصطدام مفتعل وقع له على طريق سكتلندى ــ مالون.

اختراعاته:

وضع الصباح ٧٦ اختراعاً منذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٣٥ وجميعها مسجلة في السجلات الدولية والعالمية وقد منحته شركة جنرال الكتريك لقب «فتى العلم» وهو ارفع لقب منح لعالم ومخترع، فيما لقّبه رفاقه في الشركة بـ«اديسون الشرق» وقد نقل جثمانه إلى بيروت عام ١٩٣٥، ثم نقل إلى مسقط رأسه في النبطية في جنوب لبنان.

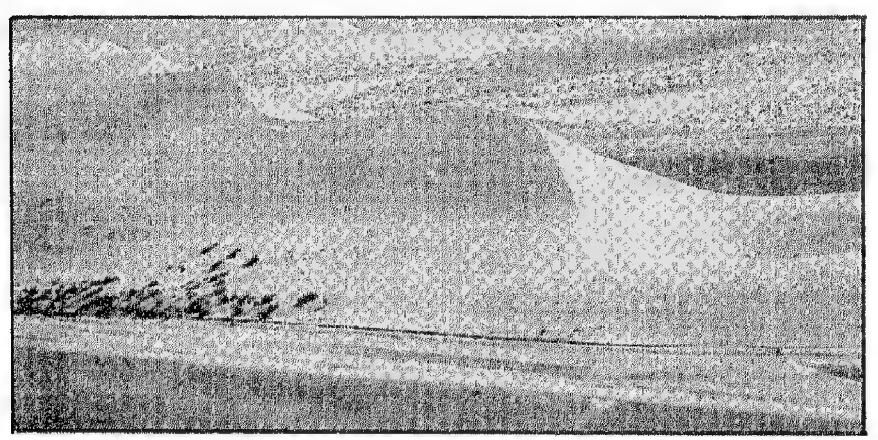
وفيما يلي جدول بالاختراعات المسجلة باسمه في السجلات الدولية بالارقام والتواريخ كما هي واردة في مسجلات نيويورك:

الرقم المتسلسل	اسم الاختراع	رقم التسجيل	تاريخ التسجيل
١	جهاز ضبط الضغط	١٦١٨١٠٩	١٥ شباط ١٩٢٧
٢	جهاز لنقل التيار المتبدل	١٦٦٩١٤٧	٨ ايار ٢٩١٨
٣	حوافظ لحماية المقومات	١٦٧٧٦٨٩	١٨ آب ١٩٢٨
٤	طريقة لضبط القوة	١٦٨٩٥٠٢	٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨
٥	جهاز التلفزة الالكتروني	١٦٩٤٩٨٤	١١ تشرين الثاني ١٩٢٨
٦	نقل الصور والمناظر	١٦٩٦٤١٣	٢٨ كانون الاول ١٩٢٨
٧	نقل الصور والمناظر	١٧٨٨٢٠٧	١٦ تموز ١٩٣٠
٨	جهاز التلفزة الكهرضوئي	١٧٠٦٨٥	١٩ آذار ١٩٢٩
٩	منع حدوث الهزات الكهربائية	١٧١٧٣١٢	٢٦ كانون أول ١٩٢٩

١٠	جهاز التيار الثابت	١٧٢٢١٩٤	٧ كانون الثاني ١٩٣٠
١١	جهاز التلفزة الشمسي	١٧٤٧٩٨٨	١٨ شباط ١٩٣٠
١٢	منع حدوث انفجار كهربائي	١٧٥٢٢٠٤	٢٥ آذار ١٩٣٠
١٣	محول للسلاسل الكهربائية	١٧٥٢٢٠٥	٢٥ آذار ١٩٣٠
١٤	جهاز قياس الضغط البخاري	١٧٥٤١٨٠	٨ نيسان ١٩٣٠
١٥	جهاز نقل القوى الكهربائية	١٨٣٩١٢٢	٢٢ كانون اول ١٩٣١
١٦	منسق المجموعة الموجية الكاملة	١٨٣٩١٦٦	٢٩ كانون اول ١٩٣١
١٧	استخدام التيار الشيراطروني	١٨٤٤٦٣٣	٧ شباط ١٩٣٢
١٨	طريقة سير التيار اوتوماتيكياً	١٨٤٤٦٨٧	٢١ شباط ١٩٣٢
١٩	طريقة تفريغ الشحنة	١٨٥٥١٥٤	١٩ نيسان ١٩٣٢
٢٠	جهاز تحويل القوى الكهربائية	١٨٧٠٠٢٠	٢ آب ١٩٣٢
٢١	جهاز تحويل القوى الكهربائية	١٩٠٢٤٦٨	٢١ آذار ١٩٣٣
٢٢	دارة التحويل والنقل الكهربائي	١٨٩١١١٤	١٣ كانون اول ١٩٣٢
٢٣	جهاز تحويل القوى	١٩٠٧٥٨٩	٩ ايار ١٩٣٣
٢٤	جهاز تحويل الصمامات الكهربائية	١٩١٨٨٧٠	١٨ تموز ١٩٣٣
٢٥	جهاز تحويل الصمامات الكهربائية	١٩٢٩٥٦٥	١٠ تشرين اول ١٩٣٣
٢٦	جهاز تحويل الصمامات الكهربائية	١٩٤٨٣٦٠	٢٠ شباط ١٩٣٤
٢٧	جهاز تحويل الصمامات الكهربائية	١٩٥٧٢٢٩	١١ ايار ١٩٣٤
٢٨	جهاز تحويل الصمامات الكهربائية	١٩٦١٠٨٠	١٩ ايار ١٩٣٤
اط	طريقة منع عدم التوازن	١٩٢٣٧٣٩	٢٢ آب ١٩٣٣
٣٠	جهاز تفريغ الشحنة	١٩٢٧٨٠٧	١٩ ايلول ١٩٣٣
٣١	جهاز تفريغ الشحنة	١٩٣٠٠١٧	١٣ تشرين الثاني ١٩٣٣
٣١	جهاز تفريغ الشحنة	١٩٣٨٠٠١	٢٢ كانون اول ١٩٣٣
٣٢	طريقة تسخين الانابيب	١٩٤٧٢٣١	٣ شباط ١٩٣٤
٣٣	مجرى لانتقال الكهرباء	١٩٧٦٤٦٣	٩ تشرين اول ١٩٣٤
٣٤	انظمة التحويل مع جهاز التهيج	١٩٨٤٠٦٤	١ كانون ثاني ١٩٣٤
٣٥	مصحح الطريقة المركبة	١٩٨٤٦٤٤	١٦ كانون ثاني ١٩٣٥
٣٦	اطلاق شحنة خطوط الاتصال	١٩٨٤٦٧٢	٢٢ كانون ثاني ١٩٣٥
٣٧	طريقة توزيع المساحات	١٩٨٤٧١١	٢٦ كانون ثاني ١٩٣٥
٣٨	المجرى الثابت للرادارات	١٩٩٠٤٦٠	٣ شباط ١٩٣٥
٣٩	مانع القوس الخلقي	١٩٩٠٤٦٧	٥ شباط ١٩٣٥
٤٠	ضابط انبوب الحرارة	١٩٩٠٤٧١	١١ شباط ١٩٣٥
٤١	ادارة محول الطاقة	١٩٩٠٤٧٩	١١ شباط ١٩٣٥
٤٢	السير الابتدائي الذاتي للتيار	١٩٩١٧٠٣	١٦ شباط ١٩٣٥
٤٣	ادارة التحويل لتصحيح الطاقة	١٩٩٤٠٠٧	٢١ شباط ١٩٣٥
٤٤	ادارة الطاقة لتحويل التيار	١٩٩٤١٢٨	٢٤ شباط ١٩٣٥
٤٥	محرك تعديل تحويل التيار	١٩٩٤٣٢٠	٢٧ شباط ١٩٣٥
٤٦	محرك التأثير	١٩٩٦٧١٢	١١ آذار ١٩٣٥
٤٧	طريقة اخراج المقاييس	١٩٩٦٨٠٨	١٥ آذار ١٩٣٥
٤٨	طريقة تخفيض الفولتاج	١٩٩٦٩٦٥	١٨ آذار ١٩٣٥
٥٠	طريقة منع عمل الصمامات	١٩٩٦٩٩٧	٢٠ آذار ١٩٣٥
٥١	جهاز التلفزة اللاقط	١٩٩٧٠٢٦	٢٣ آذار ١٩٣٥
٥٢	الدوائر الهرمونية المتعددة	١٩٩٧١١١	٢٤ آذار ١٩٣٥
٥٣	جهاز التقويم المتوازن	١٩٩٧١٢٠	٢٥ آذار ١٩٣٥
٥٤	انبوب تسجيل الحوادث	١٩٩٧١٢٨	٢٦ آذار ١٩٣٥
٥٦	الدارة المتعددة الدوران	١٩٩٨٨٠٦	١٧ نيسان ١٩٣٥
٥٧	طريقة اطلاق الوهج	١٩٩٨٩٤٣	٢٣ نيسان ١٩٣٥
٥٨	ضوابط منع الانفجار	١٩٩٩١٢٩	٢٨ نيسان ١٩٣٥

٥٩	انبوب الضبط الوهاج	١٩٩٩٢٠١	١ ايار ١٩٣٥
٦٠	محرك لمنع تحويل التيار	١٩٩٩٢٦٠	٥ ايار ١٩٣٥
٦١	ضوابط خطوط النقل الكهربائي	١٩٩٩٣٠٤	٧ ايار ١٩٣٥
٦٢	مبدلات معدل ورود الامواج	١٩٩٩٤١١	١١ ايار ١٩٣٥
٦٣	محولات التيار المستقيم	٢٠٠٠٧٩٨	٢٦ ايار ١٩٣٥
٦٤	التركيز القوي للشعاع الالكتروني	٢١١١٢٠٠	٤ حزيران ١٩٣٥
٦٥	جهاز القوس الكهربائي	٢١١١٧١٤	١١ حزيران ١٩٣٥
٦٦	طريقة ضبط مراقبة الحرارة	٢٢١٢٦٠٧	١٩ حزيران ١٩٣٥

٦٧ قياس نقاط القوس/ ٦٨ تصوير الصدمات في الدارة/ ٦٩ قوس التيار المتحول/ ٧٠ نظام التقويم/ ٧١ طريقة التوزيع/ ٧٢ طريقة الحذف الكهربائي/ ٧٣ طريقة الصمام الكهربائي المتحول/ ٧٤ طريقة الصمام وآلة التهيج/ ٧٥ آلة البخار الكهربائي/ ٧٦ المكثفات ذات التواقت الساكن/.



صحراء وشمس
و... نور دائم ومنتشر

واهم اختراعاته الحادي عشر، وهو عبارة عن جهاز للتلفزة يحول اشعة الشمس لتيار وقوة كهربائية سجل هذا الاختراع في دائرة التسجيل بواشنطن تحت رقم ١٧٤٩٨٨ في ١٨ شباط ١٩٣٠، وسجل ايضاً في إحدى عشرة دولة اخرى في بلجيكا ٣٥٤٣٥٥، كندا ٣٠٢١٢٧، انكلترا ٢٧٢٢٦٩٨، فرنسا ٧١٨٣٢٥، ايطاليا ٣٦٣٢٢٧، اليابان ٧٤٣٠٥، اسبانيا ١١١١٣٠، النمسا ٢٦ ــ ٢٣٣٠، الهند ٢٦ ــ ١٢٣٣٦، نيوزيلندا ٥٦٤٩٦، اتحاد جنوبي افريقيا ٢٦ ــ ٤٨٠.

يعد هذا الاختراع من أهم اختراعات الصباح، لأنه فتح أمام العلماء والمخترعين أبواباً مغلقة. فهذه الاشعة الشمسية التي تتلقاها تلك المساحات العظيمة من الارض والتي تذهب هدراً في الصحاري الشاسعة، يمكن استخدامها في سبيل سعادة الانسان وخيره. فقد فكر الصباح في استخدام هذا النور الذي تجود به الشمس على الارض، فعمد إلى الدرس والتحليل الرياضي، فاقتنع رياضياً بإمكانية استخدام النور وتحويله إلى طاقة كهربائية لأن النور والحرارة ما هما إلا مظهران من مظاهر الطاقة التي ترسلها الشمس عبر الفضاء إلى الارض، ومن ثم ابتدأ بالتجارب العلمية التطبيقية وبعد ستة اشهر قضاها في التجارب والاختبارات استطاع في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٠ أن يتوصل إلى وضع جهاز عظيم للتلفزة يحتوي على بطارية كهربائية ثانوية تتألف من سبع صفائح معدنية تشكل فيما بينها ثلاثة خزانات للكهرباء، ووضع في تلك الصفائح مواد كيميائية مشعة، وهذه البطارية متى تعرّضت أقطابها الظاهرة لأشعة الشمس، فإن الالكترونيات والنوتونات التي تحملها الأشعة تؤثر على المواد الكيميئية المشعة فتولد في البطارية شحنة كهربائية قوية تتحول بالتالي إلى تيار كهربائي قوي جداً يتخزن في خزانات البطارية.

وهكذا فإن نور الشمس (اي الالكترونات

والنوتونات) يتحول بعملية مستمرة إلى تيار كهربائي ثم إلى قوة ميكانيكية محركة تقوم مقام البنزين والفحم في إدارة الآلات الميكانيكية، وقد اتفقت الشركة على تسجيل هذا الاختراع فربح مليون دولار، وكان يستعد الصبّاح لتطبيق اختراعه هذا في البادية «الصحراء» فيأخذ القوة الكهربائية من نور الشمس المحترقة ويضعها في خزانات ويوزعها على المدن والقرى والمزارع. ليبرزها بمصابيح وهاجة وينشىء فيها معامل لتوليد القوة الكهربائية وقد استعمل هذه البطارية في تسيير إحدى سيارات الشركة فنجحت نجاحاً باهراً. وصمم على استخدام اختراعه في تسيير إحدى الطائرات. وكتب الصباح إلى الملك فيصل الاول يفاوضه لإنشاء مصانع لتوليد القوة الكهربائية وتوزيعها على كل الاقطار العربية، ترتكز على أساس هذا الاختراع. وقد كتب هو بنفسه يشرح كيفية عمل هذا الجهاز

٢ ــ لورا نادر

عالمة الأجناس البشرية.



تحاول لورا نادر وشقيقها رالف المتحدّران من عائلة لبنانية هاجرت إلى الولايات المتحدة في اوائل العشرينات، تحسين نظام القانون الاميركي، كل منهما في نطاق اختصاصه وإمكاناته.

ففي الوقت الذي يعمل فيه رالف المحامي اللامع في واشنطن من اجل تحسين طرق تطبيق القوانين، تسعى شقيقته، وهي استاذة علم الاجناس البشرية في جامعة كاليفورنيا على بعد ٢٧٠٠ ميل غرب واشنطن، إلى تفهم آفاق اختصاصها بطريقة افضل.

وهي لاتقل شهرة عن اخيها في مجال اختصاصها. فهي واحدة من النساء الخمس عشرة اللواتي يعملن في جامعة كاليفورنيا، إحدى اكبر جامعات العالم. ويقول البروفسور جيمس جيبس عالم الاجناس البشرية المشهور في جامعة ستانفورد:

«إذا كان عليك أن تسمي اشهر ١٥ او ٢٠ عالماً اميركياً في حقل الاجناس البشرية في عصرنا الحاضر فإن لورا ستكون واحدة منهم».

هاجرت عائلة نادر إلى الولايات المتحدة في اوائل العشرينات من قرية ارصون في لبنان. واستقر الوالد مع زوجته روز، وهي من مواليد زحلة في مدينة ونستد في ولاية كوناكتيكت، حيث اسس مطعماً رائجاً، وعملت زوجته كمعلمة في إحدى مدارس المدينة.

والتحقت لورا بمدرسة ويلز في ولاية نيويورك، حيث درست الادب الاسباني. وقد اختارت موضوع اطروحتها أحد أبطال الثورة المكسيسيكية كما وصفته الروايات التي ظهرت بين ١٩١١ و١٩١٧.

وتقول لورا: «عندما انتهيت من كتابة اطروحتي رفض المسؤولون في كلية الآداب منحي الشهادة، وقالوا أن الاطروحة جيدة إلا أنها لاتعالج موضوعاً ادبياً. كما رفضت كلية علم النفس منحي اية شهادة لعدم تخصصي في اي حقل من حقول علم النفس. وقد حل رئيس الجامعة المشكلة في النهاية ومنحني اول شهادة تقدمها الكلية في حقل دراسات اميركا اللاتينية».

وكان هذا بالنسبة إلى لورا اول تجربة في حقل «القرارات المتضاربة» كما تصف بذلك مهمة القانون.

ومن ثم انتقلت إلى كلية رادكليف حيث نالت درجة الدكتوراه في علم الاجناس. وفي ١٩٦٠ التحقت بجامعة كاليفورنيا حيث تخصصت في دراسة القانون بين المجتمعات غير الصناعية كقبائل زابوتك الهندية في مكسيكو.

وقد زارت السيدة نادر لبنان عام ١٩٦٦ حيث قامت بدراسة تطبيق القانون بين سكان بعض القرى الجنوبية.

وعائلة نادر عريقة بتراثها اللبناني ويتحلى جميع أفرادها بحب النظام والثقافة.

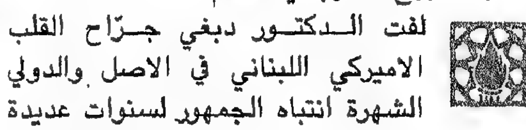
وتذكر لورا عندما كانت طفلة أن والدها كان يركّز دائماً اهتمامه على الامور الهامة. وتقول في هذا الصدد: «كنا نجلس معاً لانتحدث عن الطقس كنا نتجادل في أمور اجتماعية ونسعى إلى إيجاد الحلول لمشاكلها».

وتضيف لورا قائلة: «لقد تعلّمنا من والدينا أن نستقصي اكبر قسط من المعرفة وأن نعمل

بقدر الإمكان. وقد تحقق ذلك على ما اعتقد في البيت إذ أن مكتبة البيت كما قال قاضي المحكمة العليا اوليفر هولمز هي ركيزة التربيـة في كل مكان».

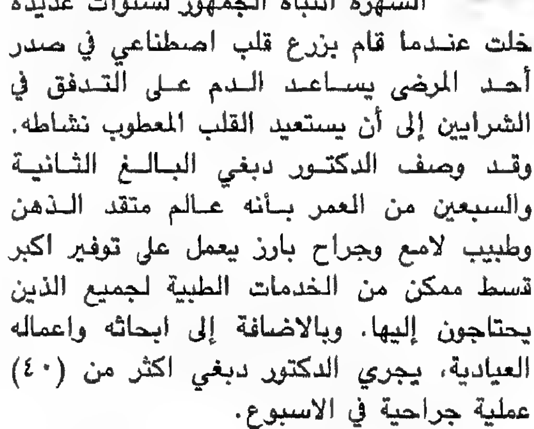
وتقـول أن التـزام شقيقهـا بـالاصـلاح الاجتماعي «ينبع من فلسفة عائلتها. فقد تعلمنا أن نؤمن بأننا نأخذ من المجتمع وعلينا أن نرد إليه العطاء».

وتستخدم لورا اسم عائلتها في الحقل العلمي وفي القطاعات العامة، اما في المنزل فهي زوجة الطبيب نورمان ميلرون وهو عالم نووي في مختبر لورانس للاشعاع، وهي والدة لثلاثة اولاد.



الدكتور مايكل دبغي

رائد زرع القلوب في العالم.

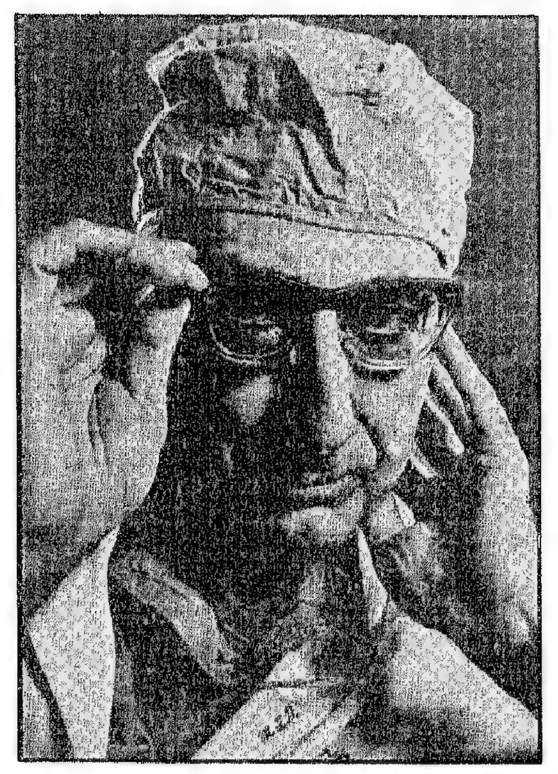


لفت الـدكتـور دبغي جـرّاح القلب الاميركي اللبناني في الاصل والدولي الشهرة انتباه الجمهور لسنوات عديدة خلت عنـدما قام بزرع قلب اصطناعي في صدر أحـد المرضى يسـاعـد الـدم عـلى التـدفق في الشرايين إلى أن يستعيد القلب المعطوب نشاطه. وقـد وصف الدكتـور دبغي البـالـغ الثـانيـة والسبعين من العمر بـأنه عـالم متقد الـذهن وطبيب لامع وجراح بارز يعمل على توفير اكبر قسط ممكن من الخدمات الطبية لجميع الذين يحتاجون إليها. وبالاضافة إلى ابحاثه واعماله العيادية، يجري الدكتور دبغي اكثر من (٤٠) عملية جراحية في الاسبوع.

والـدكتور دبغي هـو نـائب رئيس الشؤون الطبية ورئيس دائرة قسم الجراحة في جامعة بايلور في هيوستن تكساس، وكبير الجراحين في قسم الابحاث الطبية الذي يشتمل على الجامعة وعدة مستشفيات ومختبرات.

ولد الدكتور دبغي في ليك اتشارلز في ولاية لويزيانا في السابع من شهر ايلول عام ١٩٠٨. وتخـرّج من جامعـة تولـين في نيواورليـانز في لويزيانا بشهادة بكالوريوس علوم عام ١٩٣٠ وشهادة الطب عام ١٩٣٢ وشهادة ماجستير في العلوم عام ١٩٣٥.

وقد تأثر كثيراً بوالديه اللذين هاجـرا من



مايكل دبغي

لبنان لعقود خلت، وكذلك بدراساته في اوروبا، وبنوع خاص في جامعة ستراسبورغ في فرنسا عام ١٩٣٥ وجامعة هيدلبـرغ في المانيـا عام ١٩٣٦.

وكان والده شاكر دبغي قد هاجر في مستهل هـذا القرن من لبنـان إلى الولايـات المتحـدة واستقر في ليك تشارلز في لويزيانا حيث قـام بتـربية اولاده الخمسـة. وقـد اشتهـر منهم الجرّاحان مايكل وارنست والكاتبة المتخصصة بالشؤون الطبية سلمى.

وقـد كتب الدكتـور دبغي مئـات المقـالات الطبية، نشـرت في مجـلات روسية وفـرنسية واسبانية، وكان واحداً من عدة اطباء اميركيين سـاعدوا في وضـع مشاريـع علمية اميـركيـة بالاشتراك مع الاتحاد السوفياتي. كما اجرى اكثـر من ١١ الف عملية جـراحية واختـرع عشرات الاجهزة الخاصة بالعمليات الجراحية ودرّس الطب لآلاف الطلاب واكتشف وسـائل وتقنيات جديدة لاعادة شرايين القلب إلى حالتها الطبيعية وانقذ الآف الارواح من موت محتم.

وينتسب الدكتور دبغي إلى عـدد كبير من الجمعيات الطبية. وهو حائز مجموعـة ضخمة من الاوسمة والمداليات والجوائز.

٤ ــ الخاتمة

ــ اهمية العلماء اللبنانيين في العالم

قد يبدو الحـديث عن العلوم والعلمـاء في لبنان، مستهجناً في هذه الايام، في حقبة بات فيها العالم على عتبة اكتشاف الكواكب وغزوها، بعد أن هبط آرم سترونغ رائد الفضاء الاميركي على سطح القمر يوم ٢١ تموز ١٩٦٩. ولكن ليس في ذلك مايدعو إلى الاستهجان قط. لأن قضية العلوم والعلماء في لبنان ليست حـديثاً عـارضاً وإنمـا هي حقيقة ثـابتـة من خـلال الشخصيات التي مر ذكرها معنا، كونها ليست محصورة في نطاق دائرة لبنان وحدها وليست بالتالي ملكه وحده دون سواه، وإنما هي منتشرة في جميع انحاء المعمور وملك للناس جميعاً. من هنا فإنها تشكل قوة فاعلة ومنارة مشعـة في مسار الركب الحضاري الانساني.

ونحن إذا تصفحنـا تـاريـخ الحضـارات البشرية يتبين لنا أن كل انتصار وكل اكتشاف وكل اختراع وكل فتح، إنما كان فعلاً من أفعال الانســان لما هـو انسان، اي الفـرد البشري الباحث في ثنايا ذاته عن اسرار الوجود المتطلع ابداً نحو آفاق جديدة من الرؤيـا والاختراع والابداع.

وإذا كان اللبنانيون الاوائل، قد ساهموا في صنع الحضارة الانسانية فمهّدوا السبيل امام اليونان، رواد النظر العقلي في العالم القديم. فإن هذه النخبة المختارة من ابناء لبنان، من امثال المخترع حسن كامل الصباح والدكتور مايكل دبغي رائـد زرع القلوب في العـالم، وعـالمـة الاجناس البشرية لورا نـادر شقيقة المحـامي الاميركي اللبناني الاصل رالف نادر، والدكتور جورج حاتم الطبيب الخاص للرئيس الصيني الراحل ماوتسي تونغ. والبروفسور هنري شاوول نعمـة طبيب هتلر الخاص. والدكتـور سيمون جعيتاني جراح القلب المشهور في البرازيل، إلى جانب الآلاف من اللبنانيين البارعين في جميع الحقول ممن قد ساهموا في مـواصلة الـركب الذي ابتدأه الاولون من هذا الشعب الابيّ، قد حملوا راية العلم خفّاقة عالية في العـالم كله وقدموا للبشرية جمعاء خدمات جلّ في جميع الميادين فكانوا بذلك خير خلف لخير سلف.

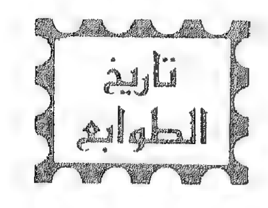




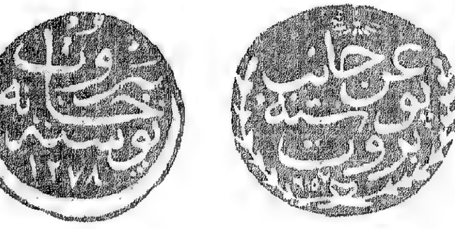
لا، ليس ينفع التائه في الأدغال أن تصف له الأدغال التي يتيه فيها، وينفعه أن تشقّ له طريقاً وتعطيه سراجاً ينير له الطريق.

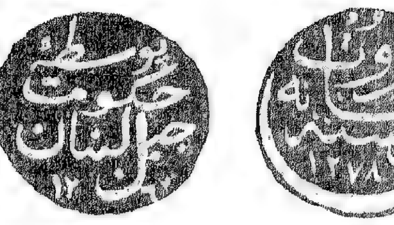
والناس من حياتهم في أدغال كثيفة، مظلمة، رهيبة. ولا قيمة على الاطلاق لما ندعوه أدباً إلّا على قدر مايشق طريقاً وينير سراجاً. والأديب الذي لايسير في الطريق الذي يشقه، وعلى ضوء السراج الذي ينيره لايصلح أن يكون دليلاً للناس، لأنه ليس دليلاً صالحاً لنفسه. إنه لتائه بين تائهين. وإن أدبه لدغل من الأدغال التي يتيه فيها التائهون.

ميخائيل نعيمة

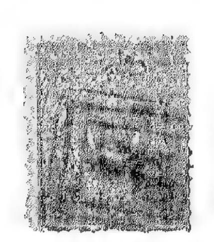


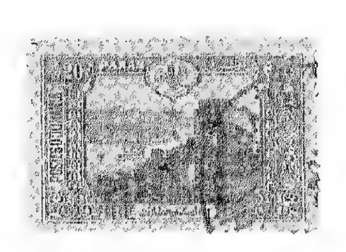






طوابع البريد في لبنان عبر التاريخ





بدأ تخليص البريد في لبنان في عهد السلطنة العثمانية، بأختام نحاسية صغيرة تمسك بالأصبعين، وذلك حتى عام ١٨٦٣ عندما صدرت الطوابع البريدية التركية بفرمان مؤرخ في أول كانون الثاني/يناير من العام ذاته. وكانت تعطل هذه الطوابع بأختام مختلفة بدأت بختم مربّع يحمل إسم مدينة بيروت فقط، ثم بعدة أختام مستديرة ومختلفة، تحمل إسم المصدر والتاريخ.

وانتشرت هذه الطوابع التركية في لبنان وجميع الأراضي المشمولة بحماية الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨.

وإلى جانب الطوابع التركية المذكورة آنفاً، كانت لعدة بلدان أوروبية، إمتيازات خاصة أعطيت لها بموجب معاهدة لوزان، التي سمحت بإنشاء مكاتب بريدية في جميع الأمبراطورية العثمانية، لتأمين بريدها الدبلوماسي وللعامة أيضاً.

وكان لكل من فرنسا وروسيا والنمسا ومصر وبريطانيا وألمانيا مكتب للبريد في لبنان.

فالبريد الفرنسي عمل من سنة ١٨٤٠ إلى ١٩١٤ ــ (نموذج ١).

والبريد الروسي عمل من سنة ١٨٥٧ إلى ١٩١٤ ــ (نموذج ٢).

والبريد النمساوي عمل من سنة ١٨٦٧ إلى ١٩١٤ ــ (نموذج ٣).

والبريد المصري عمل من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٧٩ ــ (نموذج ٤).

والبريد البريطاني عمل من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩١٤ ــ (نموذج ٥).

والبريد الألماني عمل من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ ــ (نموذج ٦).

ومع دخول جيوش الحلفاء إلى لبنان وسوريا بقيادة الجنرال غورو المفوض السامي للدولة الفرنسية، دخل معها الطابع الفرنسي الذي جرى توشيحه عدة مرات.

ففي سنة ١٩١٩، أوصت السلطة العسكرية أن يطبع في فرنسا على طوابع الشرق الفرنسية التي تحمل كلمة «Levant»، توشيحاً خاصاً: «T.E.O.» أي أراضي الأعداء المحتلة، (Terri-toires Ennemis Occupees). وبما أن

وصولها تأخر، فإن الكولونيل نييجر وشّح محلياً في مطبعة جدعون، على طوابع فرنسية، في ١٧تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٩، إصداراً مؤقتاً أستعمل في بيروت فقط نحو ١٢ يوماً. وعند وصول الطوابع الموصى عليها في فرنسا، وضعت في الإستعمال في لبنان وسوريا في أول كانون الاول/ ديسمبر سنة ١٩١٩، وهي بالعملة المصرية والتوشيح بالأسود.

تفصيل المجموعة الأولى اتي استعملت في لبنان فقط، وصنّفت في الكتالوجات العالمية لسوريا، هي من فئة مليم واحدة موشحة عى طابع سنتيم واحد، و٢م/ ٢س و٣م/ ٣س، و٤م/ ١٥س و٥م/٥س وقرش واحد/ ١٠ س و٢ق/٢٥س و٥ق/٤٠س و٩ق/٥٠س و١٠ق/ فرنك واحد.

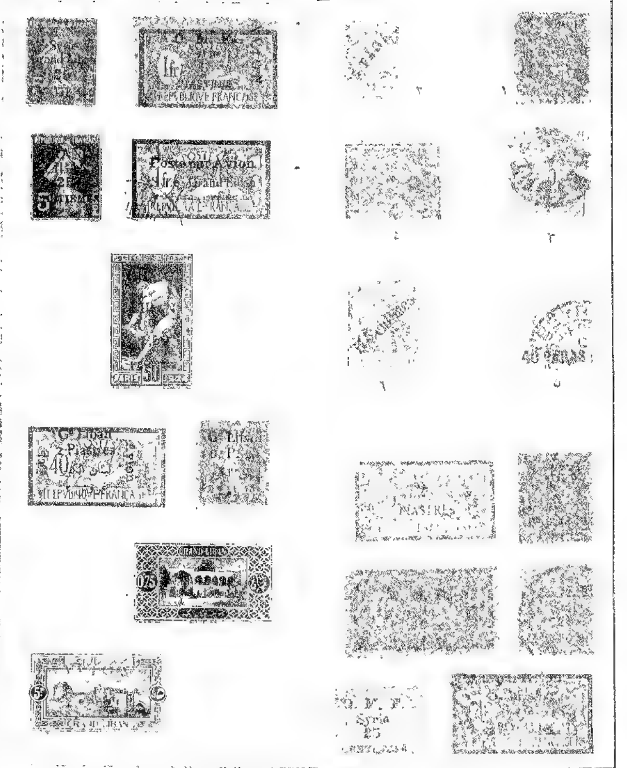
وفي أول كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩، صدرت المجموعة الثانية، موشحة على طوابع فرنسية «Levant» كما ذكرنا، مؤلفة من فئة ١م/ ١س و٢م/ ٢س و٣م/ ٣س و٤م/ ١٥س و٥م/ ٥س وقرش واحد/ ٢٥س و٢ق/ ٥٠س و٤ق/ فرنك واحد و٨ق/ ٢ف و٢٠ق/ ٥ف.

ثم تلتها مجموعات، كلها موشحة على طوابع فرنسية كالآتي: إصدارات سنة ١٩٢٠ تحمل التوشيح (O.M.F. Syrie) والفئة بالأسفل، أي إحتلال عسكري فرنسي (Occupation Militaire Française)، منها مجموعات للبريد العادي وللأجور المستحقة.

أما لبريد الجوي، فحملت التوشيح (Poste Par Avion) داخل مربع.

وفي سنة ١٩٢١، صدرت مجموعات موشحة على طوابع فرنسية أيضاً ومجموعة واحدة على طوابع الملكة السورية، تحمل التوشيح ذاته، وتوشيح آخر بثلاثة أسطر، للبريد العادي وللأجور المستحقة، والتوشيح المربع للبريد الجوي، ومجموعة أُخرى للبريد الجوي، تحمل توشيحاً عمودياً بكلمة (Avion) فقط.

وفي سنة ١٩٢٢، صدرت مجموعة موشحة على طوابع فرنسية تحمل التوشيح ذاته للبريد العادي، ومجموعة للبريد الجوي تحمل التوشيح الإضافي (Poste par Avion).



وفي سنة ١٩٢٣، صدرت مجموعة موشحة عى طوابع فرنسية للبريد العادي والجوي والتذكاري وللأجور المستحقة، تحمل التوشيح (Syrie-Grand Liban) والفئة بالأسفل.

وكانت جميع هذه المجموعات تستعمل في لبنان وسوريا على السواء، ولكنها صنّفت في الكتالوجات العالمية لسوريا.

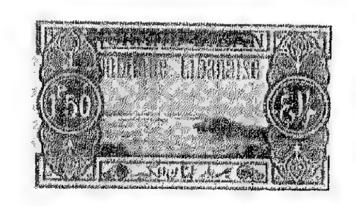
وفي أول كانون لثاني/ يناير سنة ١٩٢٤ صدرت أول مجموعة خاصة للبنان، موشحة عى طوابع فرنسية، مؤلفة من ١٤طابعاً للبريد العادي وثلاثة طوابع لذكرى باستور، وأربعة طوابع للألعاب الأولمبية في باريس، وأربعة طوابع للبريد الجوي، وخمسة طوابع للأجور المستحقة.

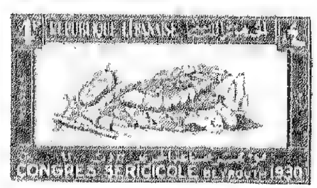
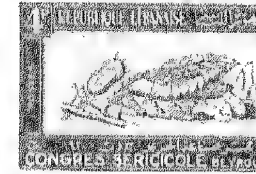
وفي أول تموز/ يوليو ١٩٢٤، صدرت آخر مجموعة موشحة على طوابع فرنسية ولكن باللغتين الفرنسية، والعربية بالأسفل، مؤلّفة من ١٧ طابعاً للبريد العادي وستة طوابع لذكرى باستور، وأربعة طوابع للألعاب الأولمبية، وطابع واحد لذكرى رونسار، وأربعة طوابع للبريد الجوي، وخمسة طوبع للأجور المستحقة.

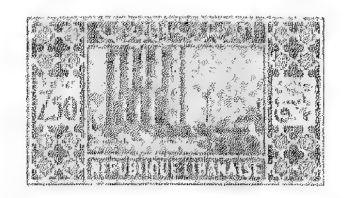
أما المجموعة الأولى التي تحمل صوراً لمرافق لبنان الأثرية والسياحية، فهي التي صدرت سنة ١٩٢٥، مؤلفة من ١٣ طابعاً للبريد العادي، وأربعة طوابع للبريد الجوي، وهي من طوابع البريد العادي ولكن موشحة بكلمة «طيارة» و«Avion» باللون الاخضر، ومجموعة للأجور المستحقة مؤلفة من خمسة طوابع تحمل صوراً مختلفة من لبنان.

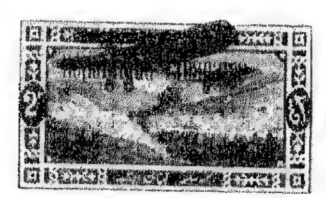
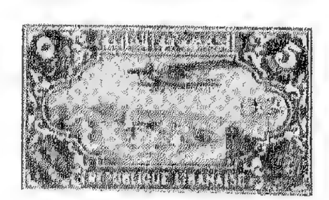
ولما أعلنت فرنسا لبنان جمهورية تحت إنتدابها بتاريخ ٢٣ أيار/ مايو سنة ١٩٢٦، بادرت إلى توشيح المجموعة المصورة إصدار ١٩٢٥، فأصدرت في أول تموز/ يوليو ١٩٢٧، مجموعة من ١٤ طابعاً موشحاً «Republique Libanaise» للبريد العادي، ومجموعة من أربعة طوابع للبريد الجوي، وأخرى من خمسة طوابع للأجور المستحقة.

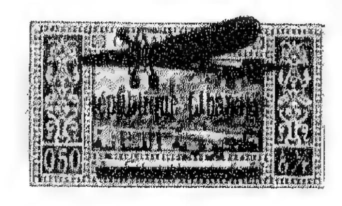
ويظهر أن هناك من اعترض على التوشيح الفرنسي فقط، فأصدرت السلطات سنة ١٩٢٨، مجموعات أخرى للبريد العادي والجوي والأجور المستحقة موشحة «Republique







«Libanaise» في أعلى الطابع، و«الجمهورية اللبنانية» في الأسفل. وتكررت مثل هذه المجموعات حتى سنة ١٩٣٠.

وفي ١١ شباط/ فبراير ١٩٣٠، صدرت أول مجموعة تذكارية لمناسبة مؤتمر الحرير، مؤلفة من ستة طوابع. تلتها في أيار/ مايو من السنة ذاتها، مجموعة مصورة من ٢٣ طابعاً للبريد العادي وعشرة طوابع للبريد الجوي وسبعة طوابع للأجور المستحقة، تحمل صوراً عديدة لمرافق لبنان الأثرية والتاريخية والسياحية.

ثم جرت الحال على هذا المنوال إلى أن حصل لبنان على استقلاله، فأصبح يصدر المجموعات المناسبة العادية والتذكارية، أسوة بباقي البلاد العربية والأجنبية.

ويجدر الإشارة هنا، أنه في سنة ١٩٣٦، تقررت معاهدة بين لبنان وفرنسا، وكانت على وشك أن توقّع، وكانت السلطات الفرنسية قد جهزت مجموعة طوابع لهذه المناسبة، مؤلفة من خمسة طوابع مخرمة بكميات وفيرة، وكمية محدودة من المجموعة نفسها ولكن من دون تخريم، مع خمسة بطاقات أيضاً، لتوزع كالعادة على كبار رجالات الدولة. وبما أن المعاهدة لم تتم، فقد أتلفت هذه الطوابع بأمر المختصين، وذلك بعد أن وُزّع سلفاً، ١٢٤ مجموعة من دون تخريم، و٢٤ مجموعة من البطاقات. ثم تسرّبت كمية من المجموعات المخرمة عن طريق تجار طوابع فرنسيين. أما تفصيل فئات هذه المجموعة، فهي نصف قرش وقرش واحد و٤ و١٠ قروش للبريد العادي، و١٠ قروش للبريد الجوي، أثمانها اليوم مرتفعة جداً خصوصاً المجموعة غير المخرّمة والبطاقات. ■

BANQUE BEYROUTH
POUR LE COMMERCE S.A.L.
Capital : 20,000,000 L. L. Fully Paid
R.C. Beirut : 10954
List of Banks : 55



بنك بيروت للتجارة ش.م.ل
رأسماله ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ل.ل. مدفوع بكامله
السجل التجاري : بيروت ١٠٩٥٤
لائحة المصارف رقم ٥٥

الميزانية الموقوفة في ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٨١

الموجودات	نقد في الصندوق والمصارف	٥٤٦,١٩٠,٩٠٣
	سلفيات وخصم	١٦٠,٥٥٣,١٨٩
	توظيفات	٢٣,٦٢٥,٠٠٠
	موجودات اخرى	٢,٨٨٠,٩٦٨
	المجموع	٧٣٣,٢٥٠,٠٦٠
المطلوبات	ودائع	٦٣٦,٦٣٤,٥٤٥
	بنوك ومراسلين	٥٥,٠٧١,٨٢٠
	رأس المال	٢٠,٠٠٠,٠٠٠
	مطلوبات اخرى	٢١,٥٤٣,٦٩٥
	المجموع	٧٣٣,٢٥٠,٠٦٠

المركز الرئيسي: بناية البنك العربي شارع رياض الصلح
تلفون ٦/ ٢٩٢٠٦٤ تلكس: ٢١٤٥٧

الحمرا (مركز رئيسي موقت): تلفون: ٦/ ٨٠٤٥٢٥ و٣/ ٨٠١٠٧١
تلكس ٢٢٩٣٢

المزرعة: تلفون: ٣٠٦٢٨٧/ ٣١٨٩٤٣

طرابلس: تلفون: ١/ ٦٢٩٧٧٠
تلكس: ٢٣٧٤٢

صيدا: تلفون: ٧٢٢٦٦١
تلكس: ٢٣٦٦٠

انطلياس: تلفون: ٤١١٢٦٧/ ٤١٥٤٩٠

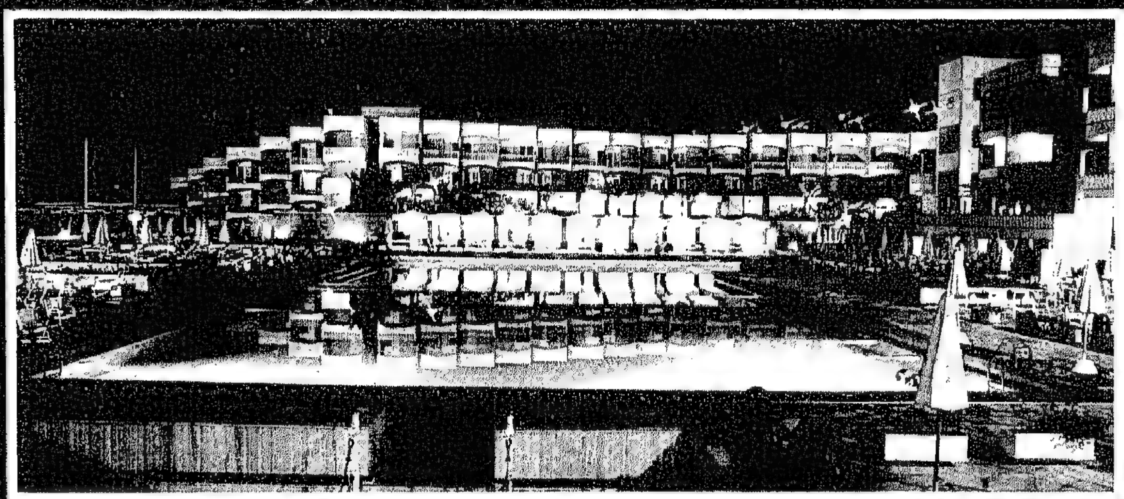
جونيه: تلفون: ٩٣٠٦١٨/ ٩٣٠٦٢٠
تلكس: ٢١٩٣٦

مراسلون في جميع انحاء العالم

رئيس مجلس الادارة ـ المدير العام ـ رفعت صدقي النمر
المدير العام اكرم استانبولي
مدير المركز الرئيسي تميم السهلي
مدير الفروع ابراهيم توفيق محمود

IN SUMMER OR WINTER, IN DAYTIME OR AT NIGHT, FOR BUSINESS AND PLEASURE...

Summerland, more than an international hotel...



...a world where services never end.

Summerland: a new concept of luxury and recreation accompanies the advances and aspirations of our modern times. Such aspirations are now embodied in Summerland as an integrated city which provides all what you need of relaxation and pleasure. It is also an ideal center for the businessmen. At Summerland, life is always shiny, warm, day and night, in all seasons. The pleasures of the night crown those of the day to form en endless time of luxury in the city where the sun never sets:

THE HOTEL: 151 super luxury rooms and suites overlooking the gardens, terraces and the sea. 3 **RESTAURANTS** with an exquisite French, Oriental and International cuisine. 3 **BARS**, a super selection of world-famous cocktails and exotic drinks.

THE SPORTS CLUB with two pools, training centers for diving and water skiing, 2 tennis courts.

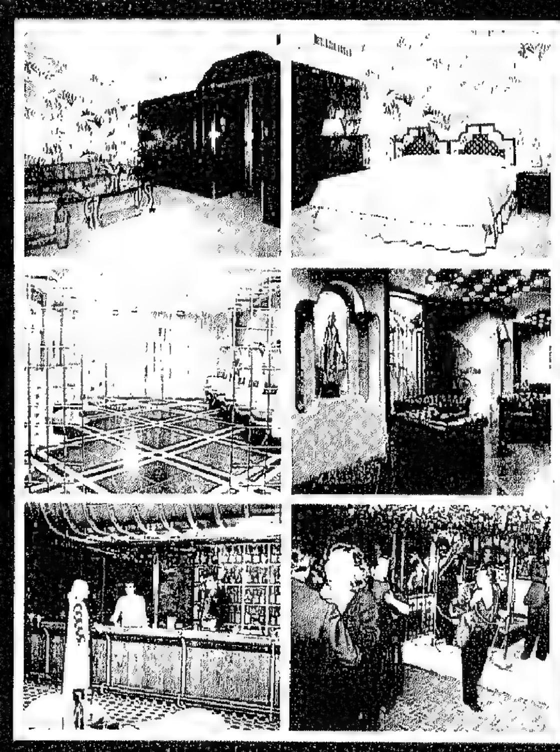
THE SHOPPING CENTER: 21 selected boutiques for your shopping pleasure and needs: a beauty parlor for ladies and gents. **THE NIGHT CLUB:** Layalina the most charming super night-club with a very special Lebanese House eighteen century decoration, featuring famous international bands and the finest food.

THE DISCO CLUB: Le Mecano a double floor discotheque with an atomic age decor.

THE HEALTH CLUB: A modern and professional body care — Sauna, Massage — under skilled experts for maximum relaxation and glowing health.

THE NURSERY: Skilled attendants care for your little ones.

COMMUNICATIONS: 24 hour international telephone and telex center, plus **BUSINESS SERVICES** including an up-to-date, fully equipped conference room accommodating up to 500 guests; special function rooms; multilingual secretaries; and translation facilities.



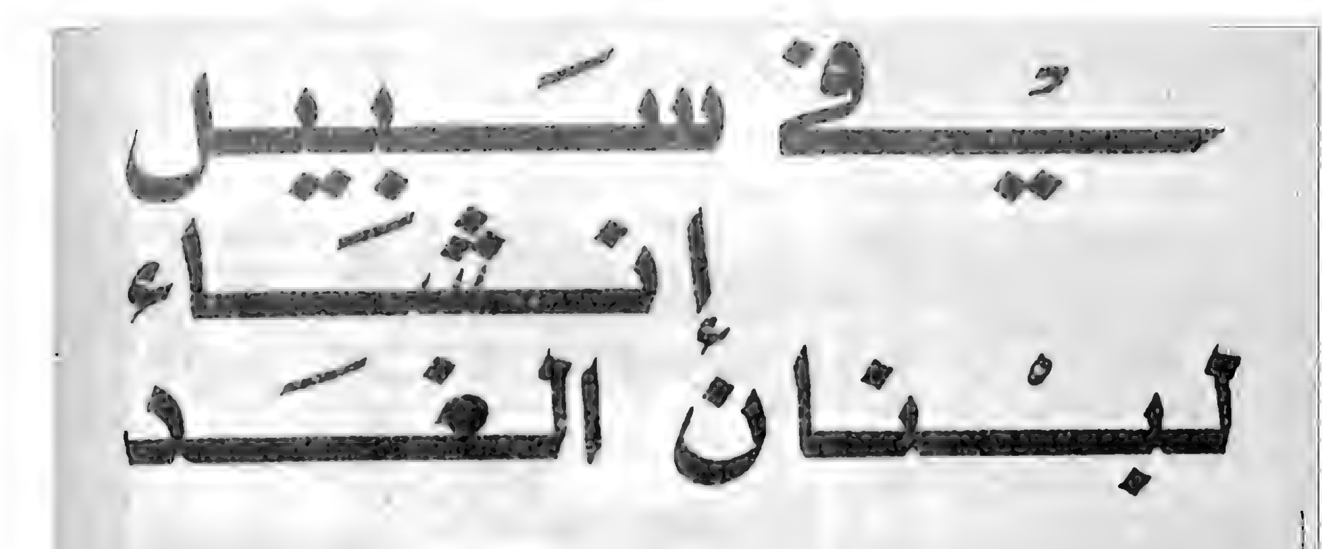
THE WORLD FAMOUS LEBANESE HOSPITALITY ON YOUR NEXT STOP TO OR FROM THE ARAB WORLD.

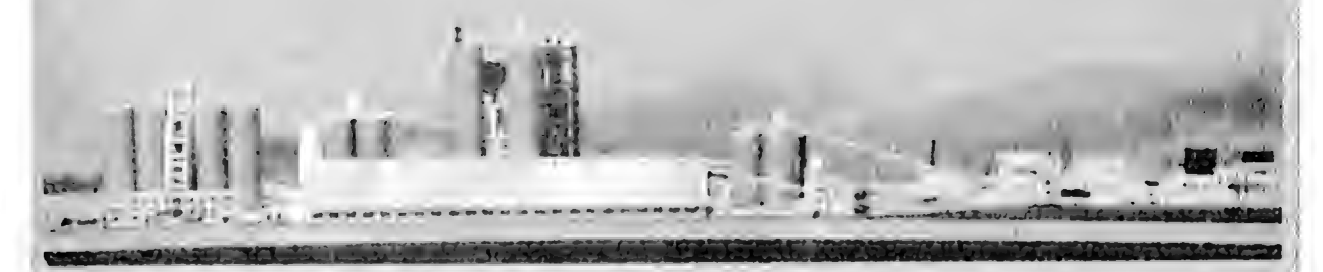
For reservations call your travel agency or SUMMERLAND Hotel.



Telex: SELAND 20621 LE — 22622 LE
Cable: SUMMERLAND
Tel.: 317170 – 304830 – 315465
P.O.Box 11-7791 BEIRUT — LEBANON

WHERE THE SUN NEVER SETS.


في سبيل
إنشاء
لبنان الغد




شركة ترابة
سبلين



البنك اللبناني الفرنسي ش.م.ل.

الميزانية لغاية ٣١ كانون الاول ١٩٨٠

الموجودات	ل.ل.
الصندوق والمصارف وسندات الخزينة	
لاجل اقل من ٣ اشهر	٩٠٢ ٠٦٧ ٥٥٧ ,٨٧
محفظة السندات التجارية	٣٥ ٨٨٧ ٠٨٣ ,٧٨
تسليفات وحسابات مدينة	١ ٠٦٥ ٨٨٠ ٧٣١ ,٥٨
محفظة السندات المالية	١٣٦ ٢٥٨ ٥٠٣ ,٤٧
عقارات واثاث	١٧ ٥٢٨ ٢٣٣ ,٤٤
الحسابات النظامية وحسابات التسوية	٢٧ ٠٣٥ ٤٨٩ ,٤٥
المجموع	٢ ١٨٤ ٦٥٧ ٥٩٩ ,٥٩

المطلوبات	ل.ل.
حسابات الادخار	١ ٣٧٥ ٤٩١ ٤٥١ ,٠٨
حسابات الشيكات	١٢١ ٢٦١ ٨٤٣ ,٣٢
الحسابات الجارية	٤٧ ١٤٦ ١٧٦ ,٥٢
الودائع الخاضعة لعلم	
مسبق او ذات اجل محدد	٢٠ ٤١٥ ٨٩٩ ,٢٠
ودائع اخرى	٢١٩ ٢٠٣ ٧٨٥ ,٣٠
مجموع الودائع	١ ٧٨٣ ٥١٩ ١٥٥ ,٤٢
المصارف والعملاء	٢٤٥ ٣١٣ ٠٣٩ ,٤٨
دائنون مختلفون	٦١ ٧٤٢ ١٧٥ ,١٩
الحسابات النظامية	
وحسابات التسوية	٢٦ ١٦٦ ٢٦٣ ,٦٢
الارباح المدورة	١١٣ ٨٦١ ,٨٨
الأموال الاحتياطية	٥٢ ٨٠٣ ١٠٤ ,٠٠
الراسمـــال	١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ,٠٠
المجموع	٢ ١٨٤ ٦٥٧ ٥٩٩ ,٥٩

خارج الميزانية	ل.ل.
سندات تجارية محسومة متداولة ومظهرة من قبلنا	-
قيم برسم القبض	٦٩ ١١٢ ٠٧٣ ,٣٨
تعهدات بقبولات	-
تعهدات بكفالات وتكفلات	٢٦٠ ٦٥٦ ٧٤١ ,٩٧
اعتمادات مثبتة مفتوحة	٢٥٢ ٤٤٢ ٤٥٦ ,٦٨
اسهم ضمانة اعضاء مجلس الادارة	٢٢٥ ٠٠٠ ,٠٠

مجلس الادارة

معالي السيد فريد روفايل	رئيس مجلس ادارة ومدير عام
السيد جيل دوبرير	نائب رئيس
السيد برنار بو	عضـــو
السيد فكتور قصير	عضـــو
السيد انطوان جانكور غالينياني	عضـــو
السيد برنار اغلوف	عضـــو
شركة ع . ع . قصار	عضـــو
السيد حبيب لطيف	عضـــو
معالي الاستاذ سليمان الزين	عضـــو

مفوض المراقبة : السيد علي عواضة

المركز الرئيسي : شارع رياض الصلح (شارع الفريد نقاش موقتاً)

شركة مساهمة لبنانية

راسمالها ١٥,٠٠٠,٠٠٠ ليرة لبنانية مدفوع بكامله

السجل التجاري بيروت ١٩٦١٨

لائحة المصارف رقم ١٠

الفروع في لبنان

بيروت

فرع رياض الصلح	الدورة موقتاً
فرع جفينور	شارع كليمنصو
فرع الاشرفية	مستديرة الاشرفية
فرع الدورة	مستديرة الدورة
فرع سن الفيل	مستديرة حرج تابت
فرع العكاوي	طلعة العكاوي
فرع المزرعة	فردان مستديرة الاونيسكو
فرع حارة حريك	قيد الافتتاح

طرابلس

فرع التل	شارع عبد الحميد كرامي
فرع التبانة	باب التبانة شارع سوريا
البترون	طريق بيروت
جونيـــه	شارع قصر العدل
صيـــدا	شارع رياض الصلح
صـــور	شارع بيروت
زحلـــة	حي البربارة
بر الياس	قيد الافتتاح

FILIALE EN FRANCE



SIEGE SOCIAL: 33, RUE DE MONCEAU, 75008 PARIS

AGENCE A NICE: 5, Promenade des Anglais

AGENCE A MONTE CARLO (PRINCIPAUTE DE MONACO): 39, Avenue de la Princesse Grace

société anonyme française - capital 40.000.000 francs français entièrement versé



هذه الأرقام تعطيكم الجواب
MEA
368 000

صناعة الفخار التقليدية
في الخليج العربي

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها :

- خدمة القارئ العربي في كل مكان
- المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
- تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس .

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس
الهاتف : 263.819
الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها .

تاريخ العرب والعالم

العدد ٣٨ • كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨١ م.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٥ ل.ل	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الاردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً او حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

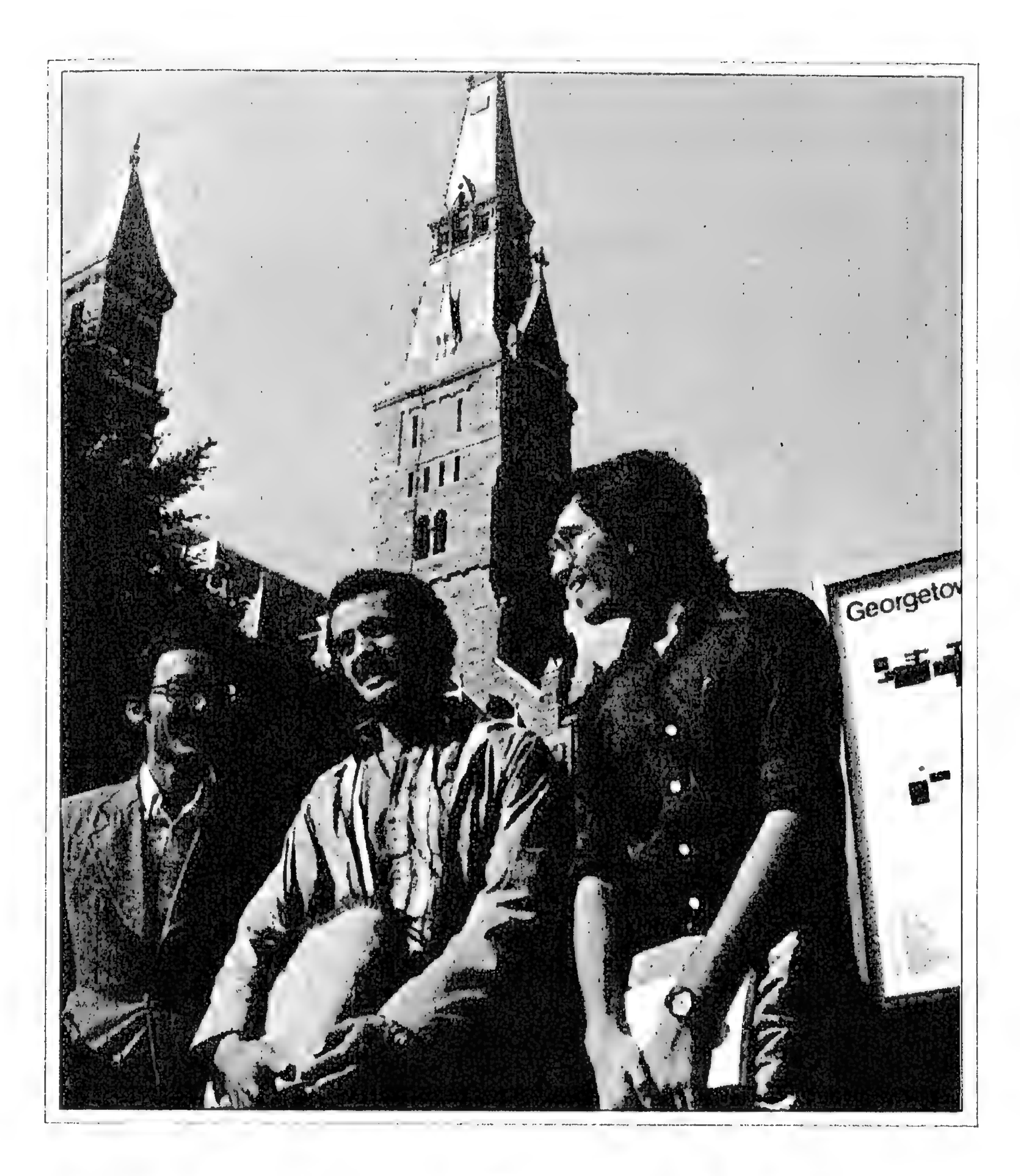
Vol. 4. No. 38. Dec. 1981

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

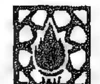




نظرة أولية على هجرة الأدمغة العربية

د. سلمان رشيد سلمان / جامعة بغداد

لقد نوقشت قضية هجرة الأدمغة في العديد من الندوات ونشر العديد من الدراسات التي تناقش هذه القضية المهمة. ولقد تميزت بعض هذه الدراسات باحصائيات مفصلة حول الهجرة (١ ــ ٤). إلا أن معظم هذه الدراسات قد تناول مشكلة الهجرة من جانب واحد دون النظر إليها بشكل شامل. أما بالنسبة للوطن العربي فرغم تسرب الكثير من كوادره العلمية عن طريق الهجرة غير أنه لم تصدر احصائيات شاملة ومفصلة تمكن الباحث من القيام بدراسات معمقة للوصول إلى استنتاجات تفيد متخذي القرار في الوطن العربي.



يمكن أن تعتبر هجرة الأدمغة أحد المؤشرات المهمة لوجود خلل في بنية الدول النامية. وفي العلاقات القائمة ما بينها وبين الدول المتقدمة. ومن هنا من الضروري أن ينظر إلى هذه المشكلة وإلى حلها على ضوء المحاولات الجارية لايجاد واحلال نظام اقتصادي عالمي جديد. لقد بينت الكثير من الدراسات الحديثة بأن التفاوت الكبير والمتزايد ما بين الدول النامية والمتقدمة لا يمكن فصله عن الوضع الاقتصادي الدولي، حيث تخصصت الدول النامية بانتاج وتصدير المواد الأولية بأسعار زهيدة، وقيام الدول المتقدمة بتصنيع هذه المواد وحصولها على فوائد اقتصادية كبيرة في عمليتي التجارة والتصنيع معاً. ولقد نتج عن ذلك انقسام العالم إلى دول غنية وأخرى فقيرة.

فالدول الصناعية والتي يبلغ سكانها ٦٨٢ مليون نسمة أي ما يعادل ١٧,٢ في المائة من مجموع سكان العالم، تنتج ما يعادل ٦٢,٣ في المائة من مجموع الناتج القومي الاجمالي العالمي خلال عام ١٩٧٥. وتوفر دخلاً سنوياً لكل واحد من مواطنيها يبلغ ٥٥٢١ دولار في حين يبلغ عدد سكان الدول النامية ٢٠٦٩ مليون نسمة وتنتج ٢٦,٢ في المائة من مجموع الناتج القومي الاجمالي، وتوفر لمواطنيها دخلاً سنوياً يبلغ ٤٧٨ دولار[٥] لقد أسفر هذا الوضع في استحواذ الدول المتقدمة على ٩٥ في المائة من التكنولوجيا[٦]. وينتج العالم المتقدّم ٩٤,٨ في المائة من الانتاج العلمي العالمي[٧]. أما فيما يتعلق ببراءات الاختراع فقد ساهمت جميع الدول النامية بمقدار ١ في المائة من مجموع البراءات العالمية المسجلة[٨]. وقد أسفر هذا الوضع في تبعية الدول النامية للدول المتقدمة في أمر مهم بالنسبة لتحقيق تنمية سريعة إلا وهو موضوع التكنولوجيا وأصبحت الدول النامية تدفع مبالغ طائلة للتكنولوجيا الغربية مما يزيد في فقرها لأن عليها أن تدفع سعر هذه التكنولوجيا بالعملة النادرة. لقد كانت الكلفة المباشرة لنقل التكنولوجيا إلى الدول النامية في نهاية الستينات ١٥٠٠ مليون دولار[٩]. وقدرت الكلفة عام ١٩٧٨ ما بين ١٠ ــ ٢٠ بليون دولار ويقدر بأنها ستبلغ عام ٢٠٠٠ في حدود ١٥٠ ــ ٢٥٠ بليون دولار[١٠] وهذا المبلغ لن تستطيع الدول النامية دفعه مستقبلاً.

لقد وضحت مجموعة من المفكرين الوضع الحالي للعالم بالكلمات التالية «لقد تبين لنا خلال السنوات الأخيرة، أن الطريق الذي سرنا فيه يبدو، بالرغم من المنجزات الضخمة التي تحققت في بعض المجالات، مفضياً إلى الكوارث واليأس[١١]».

وستحاول في هذه الدراسة أن ننظر لموضوع هجرة الأدمغة من خلال هذه النظرة الشمولية مركزة بصورة أساسية على نقاط الخلل في الدول النامية والتي قادت إلى هجرة الأدمغة، وهذه الدراسة هي محاولة أولية في هذا المجال.

بعض الاحصائيات المهمة:

١ ــ بلغت الهجرة الكلية من الدول النامية إلى الدول المتقدمة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧ في حدود ١٨٦٤ مليون شخص، منهم حوالي ١٨١ ألفاً من ذوي الكفاءات. أي نسبة ٩,٧ في المائة، موزعين كما يلي بالنسبة للاختصاصات، ٤٥,٣ في المائة مهندسين، ١٧,٤ في المائة علوم طبيعية و٣٤,٣ في المائة من ذوي المهن الطبية

و٣ في المائة علوم انسانية واجتماعية[١٢].

٢ ــ بالنسبة لهجرة ذوي الكفاءات منذ عام ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ فقد بلغ مجموعهم ٢٣٠ ألفاً منهم حوالي ١٢٠ ألفاً هاجروا إلى أميركا وكندا موزعون بالشكل التالي[١٣].

٥ ــ بالنسبة للدول العربية فإن الاحصائيات التي نشرت قد اعتمدت على مصادر مختلفة. لذلك فإن الأرقام المذكورة لا يمكن أن تكون دقيقة إلا أنها يمكن أن تستعمل كمؤشرات لغرض هذه الدراسة. وفي

جدول ١ عدد المهاجرين ونسبتهم إلى كل من امريكا وكندا للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢

المنطقة	عدد المهاجرين	نسبة المهاجرين (مئوية)
آسيا (عدا المنطقة العربية)	٨٤٠٨١	٧٠,٦٩
المنطقة العربية	١٠٤٠٤	٨,٧٥
أفريقيا	٦٨٩٢	٥,٧٩
امريكا اللاتينية	١٧٥٧٣	١٤,٧٧
المجموع	١١٨٩٥٠	١٠٠

أما توزع الاختصاصات بالنسبة للدول العربية لهذه الفترة فقد كانت ٤٦,٦٧ في المائة مهندسين و١٥,٢ في المائة علوم طبيعية و٣٤,٣٥ في المائة علوم طبية و٣,٧ في المائة علوم انسانية.

٣ ــ خلال المدة ١٩٦٢ ــ ١٩٧٢ بلغت مساهمة الدول النامية من أطباء في كل من الولايات المتحدة وكندا والولايات المتحدة بحدود ٥٨ في المائة للأطباء و٤٢ في المائة من العلماء والمهندسين، وساهمت الدول النامية بـ ٥١ في المائة من الأطباء في الولايات المتحدة للعام ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ و٤٠ في المائة بالنسبة لبريطانيا[١٤].

٤ ــ إن أعداد المهاجرين تبلغ نسبة كبيرة من رصيد الدول النامية من المهندسين والعلماء والأطباء، فعلى سبيل المثال، قدر عدد المهاجرين من المهندسين من الهند للعام ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ بحوالي ٢٥ في المائة من مجموع الخريجين في العلوم و٣٠ في المائة من الأطباء[١٥]. أما بالنسبة للفليبين فإن هجرة الأطباء لعام ١٩٧٥ ــ ١٩٦٧ بلغت ٢١ في المائة من الخريجين أما نسبة المهندسين والعلماء فكانت ١١ في المائة[١٦].

أما بالنسبة لسيرلانكا فقد ازدادت نسبة المهاجرين من الأطباء من ٩ في المائة من خريجي كل سنة في بداية الستينات لتبلغ ١٦ في المائة في أواسط السبعينات[١٧].

هذا المجال فإن نسبة هجرة الكفاءات العربية إلى مجموع الكفاءات في الدول النامية، إلى الولايات المتحدة قد ارتفعت من ٤,٥ في المائة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧[١٨] لتبلغ ٩ في المائة للفترة ٦١ ــ ١٩٧٢[١٩].

لقد بينت الدراسة الثانية والتي شملت الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٩ نسبة الهجرة مقسمة لبعض الدول العربية[٢٠].

جدول ٢
هجرة الأدمغة إلى الولايات المتحدة
للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٩

اسم البلد	مجموع المهاجرين	النسبة المئوية
مصر	٩٣١٥	٢٤,٦٦
لبنان	٨١٩١	٢١,٦٨
الأردن	٩٥٤٨	٢٥,٤
العراق	٤١٩٢	١١,١٥
سورية	٢٤٧٣	٦,٥٨
المغرب	٢٤٠٦	٦,٤
تونس	٤٩٧	١,٣٣
الجزائر	٩٨١	٢,٦
المجموع	٣٧٦٠٣	١٠٠

أما نسبة المهاجرين السنوية من عدد المتخرجين في البلاد العربية إلى كل من الولايات المتحدة وكندا للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦ فيبينها

الجدول التالي مقسمة حسب الاختصاصات:

جدول ٣
نسبة المهاجرين السنوية إلى المتخرجين
للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦

البلد	مهندسون	طبيعة	أطباء	علماء اجتماع
سورية	٥٦,٥	١١,٧	٩,٣	٠,٨
لبنان	٣٥,٥	١٠,٥	٢٤,٩	٠,٥
العراق	٩,٢		٤,٩	٠,١

ويتبين من الجدول كذلك أن معظم المهاجرين هم من المهندسين ثم الأطباء ثم علماء الطبيعة.

٦ ــ إن الدول النامية قد خسرت كثيراً من جراء هجرة الأدمغة فقد قدر رأس المال الداخل إلى الولايات المتحدة للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ من جرّاء الهجرة بـ ٣٠ مليون دولار. وكان الدخل في حالة تزايد فقد بلغ لسنة ١٩٧٠ حوالي ٣,٧ بليون دولار و٧,٦ بليون دولار لعام ١٩٧١ وحوالي ٧,٤ بليون دولار لعام ١٩٧٢. في حين قدر ربح كندا للفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ بحوالي ١٠ بليون دولار ولبريطانيا للفترة ١٩٦٤ ــ ١٩٧٢ بحوالي ٣,٥ بليون دولار[٢١].

ولقد بلغت القيمة الاستثمارية المقدرة للأدمغة المهاجرة من الدول النامية إلى الدول المتقدمة الثلاث آنفة الذكر بحوالي ٥٠ بليون دولار[٢٢]. هذا عدا الضرائب التي تستحصلها هذه الدول الثلاث من المهاجرين والتي بلغت في الولايات المتحدة الأميركية لعام ١٩٧٢ بحدود ٩٥٠ مليون دولار. في حين بلغت المساعدات التي قدمتها الدول الثلاثة إلى الدول النامية للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ حوالي ٤٦ بليون دولار[٢٣].

٧ ــ إن الخسائر الناتجة عن الهجرة بالنسبة لبعض الدول النامية كانت كبيرة، فعلى سبيل المثال بلغت بالنسبة لكولومبيا عام ١٩٦٧ حوالي ٤,٤ في المائة من الدخل القومي[٢٤].

٨ ــ قدرت خسارة الوطن العربي من جراء الهجرة بمئة مليون دولار[٢٥]. وهذا الرقم مشكوك فيه إذ أنه لو أخذت الدراسات التي ذكر بعضها وقورنت خسارة الدول العربية لبلغت ٤٠٠ مليون دولار سنوياً.

٩ ــ إن معظم المهاجرين من الدول العربية هم من حملة الدكتوراه والماجستير فعلى سبيل المثال وجد بأن ٧٠ في المائة من المهاجرين من مصر هم من حملة الدكتوراه و١٧ في المائة من حملة الماجستير[٢٦].

١٠ ــ لقد بينت احدى الدراسات[٢٧] بأن الكثير من المهاجرين يرجعون إلى أوطانهم بعد فترة من الزمن. وأن أكبر نسبة للعائدين هي في افريقيا تأتي بعدها آسيا، عدا الدول العربية، ثم اميركا اللاتينية أما أوطأ نسبة للعائدين فهي للمنطقة العربية أما بالنسبة لمصر فالدراسة تبين بأن معظم المهاجرين لا يرجعون إليها.

أسباب الهجرة:

إن هجرة الأدمغة عملية معقدة، ولا يجوز أن ينظر إليها بشكل بسيط وبمعزل عن الكثير من الظروف التي تؤثر في زيادتها أو نقصانها إلا أن من المهم أن نرى بأنه في ظل الأوضاع التي تعيشها الدول النامية إلا وهو ارتباطها الوثيق بالسوق الرأسمالية، فإن عملية الهجرة تكون عملية متوازنة بين قوى جذب من قبل الدول المتقدمة لما تتميز به من فوائد بالنسبة للمهاجر مادياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً وبين قوى الدفع الموجودة في الدول النامية. ولن تحاول هذه الدراسة الخوض في عناصر الجذب بقدر ما ستحاول أن تدرس عناصر الدفع ومسبباتها الحقيقية الآن ومستقبلاً، خاصة بالنسبة للوطن العربي. ومن هنا فإن هذه الدراسة ستركز على الدول النامية دون أن يعني ذلك غياب التأثير الكبير للدول المتقدمة على الهجرة. والهدف من كل ذلك هو محاولة تحليل أسباب الهجرة بالنسبة للدول النامية للوصول إلى استنتاجات مفيدة في هذا المجال.

سنذكر فيما يلي وبايجاز الأسباب العامة للهجرة من الدول النامية إلى المتقدمة. علماً بأن



شبابنا في الخارج... هل يعودون دائما؟

كل دولة نامية تختلف عن الأخرى في مسببات الهجرة. إلا أن من الممكن دراسة العوامل بصورة عامة والتي يمكن أن نقسمها إلى:

١ ـ سياسية واقتصادية
٢ ـ علمية وتعليمية وثقافية
٣ ـ اجتماعية

١ ـ سياسية واقتصادية:

يمكن أن تكون هذه الأسباب ذاتية أو موضوعية. وسنحاول أن ندرج أهم النقاط تحت هذا الباب.

١ ـ ١ ـ إن معظم الدول النامية قد نالت استقلالها حديثاً، إذ كانت مستعمرات للدول المتقدمة التي عملت على ربطها سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وتشويه بنيتها الاقتصادية بشكل لا تزال تعاني منه جميع الدول النامية ومن هنا فإن الكثير من الدول النامية ترتبط بالدول المتقدمة التي استعمرتها سابقاً بوثائق اقتصادية وسياسية قوية، ومن هنا فإن معظم كوادر الكامرون تهاجر إلى فرنسا، في حين تهاجر كوادر ترتينداد والفليبين إلى الولايات المتحدة[٢٨]، ويبين الجدول ١ بأن معظم كوادر أميركا اللاتينية (٩٣,٢) في المائة تهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية.

لقد ذكرت احدى الدراسات التي أجريت عن هجرة الأدمغة من الفليبين بأن هجرة الكفاءات لها علاقة بالمساعدات الأجنبية إذ أن أكثر المهاجرين هم من العلماء الذين تدربوا ضمن برامج المعونات في أميركا. إن استعمار الفليبين قد تركها معتمدة ثقافياً واجتماعياً على الولايات المتحدة بحيث أن ذلك قد قولب مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية والتعليمية بحيث جعل من مسألة الهجرة قضية مقبولة من قبل المؤسسة الحاكمة[٢٩].

١ ـ ٢ ـ لقد ذكرت احدى الدراسات بأن أحد أهم الأسباب للهجرة من كولومبيا كانت عملية التناقض بين الأهداف المعلنة للمجموعة السياسية الحاكمة وبين الأجيال الجديدة من التقنيين والاداريين، وأن هذا الخلاف ناتج عن اختلاف في الاستراتيجية السياسية لكلا الطرفين. ولقد عملت المؤسسة

الحاكمة على تشجيع الهجرة للتخلص والتقليل من هذه المعارضة[٣٠]. ولقد دللت بعض الاحصائيات[٣١] على أن الأوضاع السياسية غير المستقرة في الدول النامية قد دفعت باعداد كبيرة للهجرة ولقد قدر عدد المهاجرين من لبنان نتيجة الحرب الأهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) بحدود مليون وثلاثمائة وخمسون ألف نسمة[٣٢].

١ ـ ٣ ـ تلعب العوامل الاقتصادية دوراً كبيراً في الهجرة، وفي هذا المجال فإن الدول التي استعمرت الدول النامية قد شوهت البنية الاقتصادية للدول النامية وجعلتها سوقاً مفتوحة لتصدير الأيدي العاملة والفنيين إلى الدول المتقدمة في حين جعلت من الدول النامية سوقاً مفتوحة لبضائعها المصنعة. ولنا في تجربة الجزائر خير مثال، فإن ظروف التبعية لفرنسا قد جعلت اقتصاد الجزائر يعجز عن تحقيق تنمية اقتصادية، وأدى ذلك إلى انتشار البطالة. ففي القطاع الزراعي مثلاً كانت جميع الأراضي الخصبة تحت تصرف الفرنسي وبعض كبار الملاك الجزائريين. فكانت أقلية من الأوروبيين تجني ٧٨ في المائة من دخل الجزائر من الزراعة و ٥ في المائة من كبار الملاك الجزائريين يجنون ١٣ في المائة أما الأغلبية التي تشكل ٩٥ في المائة من سكان المناطق الزراعية فلا تزيد حصتها عن ٩ في المائة[٣٣] ولقد أدى هذا الوضع إلى هجرة الكثير من الجزائريين حتى أن عدد المهاجرين بلغ عام ١٩٥١ بحدود ٤٠٠ ألف مهاجر في حين يقدر عددهم الآن بأكثر من ٧٠٠ ألف مهاجر.

١ ـ ٤ ـ إن كثيراً من الدول النامية وبسبب وضعها الاقتصادي لا تحقق نسبة نمو اقتصادي تعادل نسبة نمو السكان. وهذا الوضع يولد بطالة كبيرة في القطاعات الاقتصادية والعلمية فعلى سبيل المثال فإن البطالة في القطاعات الاقتصادية والعلمية عام ١٩٦٩ بلغت ٨,٨ في المائة في كولومبيا و ٢٠ في المائة لترينداد وهناك علاقة طردية بين هجرة الكفاءات والبطالة[٣٤]. لقد ذكرت بعض الدراسات بأن تحقيق نسبة نمو عالٍ للدخل القومي سيقلل من هجرة الكفاءات في حين ذكرت دراسات أخرى[٣٥] بأن كثيراً من الدول التي تحقق نمواً كبيراً في الدخل القومي تتزايد فيها الهجرة ولا تقل. وسنناقش هذا الموضوع فيما بعد.

١ ـ ٥ ـ إن دخل الكفاءات منخفض جداً في كثير من الدول النامية في حين أن الدخل جيد بالنسبة لهذه الكوادر في الدول المتقدمة ولقد دفع ذلك ببعض الكفاءات للهجرة[٣٦].

١ ـ ٦ ـ تميزت الدول النامية بوراثتها لأجهزة ادارية متخلفة وجامدة ولا تمتلك أية قدرة على فهم الدور الذي يمكن أن تلعبه الكفاءات العلمية في عملية التنمية القومية. ولقد تسبب وجود هذه الأجهزة في إعاقة عمل العلميين[٣٧] مما أجبر بعض هذه الكوادر للهجرة إلى الخارج. ولو أخذنا كولومبيا كمثال على تأثير الأجهزة الادارية على الكفاءات لرأينا بأن ٤١ في المائة من الكفاءات وجدت عملاً بعد شهر من رجوعها و٥٣ في المائة في حدود ثلاثة أشهر و٦ في المائة لمدد تزيد عن ذلك[٣٨].

٢ ـ أسباب علمية وتعليمية وثقافية:

٢ ـ ١ ـ إن الكثير من الدول النامية قد ارتبط بعلاقات ثقافية وطيدة مع الدول المتقدمة. وأهم هذه العلاقات ارتباط البنية الثقافية والتعليمية للدول النامية باحدى الدول المتقدمة. وتلعب اللغة دوراً مهماً في تشجيع الهجرة فالدول النامية التي تتكلم كوادرها الفرنسية تهاجر كفاءاتها إلى فرنسا. وكوادر الدول النامية التي كانت تابعة لانكلترا تهاجر إلى هذه الدولة[٣٩].

٢ ـ ٢ ـ بالنظر للتبعية التي عانت منها الكثير من الدول النامية فقد استمرت هذه الدول بالاعتماد على مؤسساتها التعليمية التي نشأت في عهد الاحتلال لتلبي حاجة الدولة المتقدمة. ومن هنا فإن أكثر المناهج التدريسية في الثانويات والكليات هي امتداد للنظام التعليمي الذي أوجد في أيام الاحتلال ولا علاقة له بالاحتياجات الاجتماعية والتنموية للدولة[٤٠].

٢ ـ ٣ ـ إن الكثير من الدول النامية لا تمتلك أجهزة تخطيطية أو في أفضل الأحوال لا تمتلك أجهزة مركزية لذلك فإن المخطط التربوي يعمل بمعزل عن المخطط الاقتصادي.

ولو أخذنا لبنان على سبيل المثال لرأينا بأن الوظائف التي استحدثت في لبنان للفترة ١٩٦٤ ــ ١٩٨٠ قدرت بـ ١٦٠ ألفاً في حين أن عدد الذين تقدّموا لهذه الوظائف قُدّر بـ ٤٥٠ ألفاً وهذا يعني بأن ١١ ألف لبناني سيهاجر سنوياً[٤١].

٢ ــ ٤ ــ بالنسبة لهجرة الكفاءات المتخصصة فإن أحد الأسباب المهمة للهجرة تتلخص في عزلة العالم المتخصص في الدول النامية عن مجرى العلم في الدول المتقدمة، وعدم وجود أجهزة علمية تمكن الباحث من القيام بعمله، غياب النسبة الصحيحة ما بين التقنيين والباحثين، عدم وجود فرص للتدريب أثناء العمل أو بعد التخرج، عدم وجود تسهيلات للبحث العلمي، غياب الأجهزة الخدمية العلمية الجيدة، وجود إدارات متخلفة وروتين قاسي مما يعيق تحرك العالم للحصول على الأجهزة والكتب والمواد التي يحتاجها لعمله في وقت مناسب، عدم وجود مكتبات جيدة وخدمات مكتبية كفؤة، إنشغال العالم بالكثير من المحاضرات أو الواجبات التي تشغله عن البحث العلمي. إن كل هذه العوامل تنشط حركة هجرة الكفاءات[٤٢].

لقد ذكرت احدى الدراسات[٤٣] بأن الهجرة تزداد في الدول النامية التي تمتلك أجهزة بحث متقدمة وسنأتي إلى مناقشة هذه النقطة فيما بعد.

٢ ــ ٥ ــ إن معظم الدول النامية تشكو من غياب خطة متكاملة للعلم والتكنولوجيا. ولا شك في أن هنالك أهمية كبيرة بالنسبة لتخطيط العلم والتكنولوجيا في الدول النامية[٤٤] إذ أن الكثير من الدول النامية تملك موارد طبيعية وبالتالي فمن الممكن أن تتميز خططها القومية لاعطاء أولويات لقطاعات معينة في الاقتصاد القومي. وفي هذا المجال فإن التخطيط العلمي يلعب دوراً كبيراً في دفع الكوادر العلمية للمساهمة بنشاط في تحقيق الأولويات الاقتصادية التي تنسجم مع استغلال الموارد والامكانات الموجودة في الدول النامية بشكل صحيح.

٣ ــ العوامل الاجتماعية:

تلعب العوامل الاجتماعية دوراً كبيراً في تقليل أو زيادة الهجرة إلى الخارج. فالتقاليد الاجتماعية في كثير من الدول النامية تجعل الحاصل على الاختصاص العالي في مركز اجتماعي متقدم كما أن المجتمع ينظر نظرة متميزة إلى الأطباء والمهندسين في حين أن الكوادر الوسطية لاتحتل مواقع اجتماعية متميزة وهذا يقود أولاً إلى اندفاع أكثر الكوادر المتعلمة نحو محاولة الوصول إلى أعلى السلم الاجتماعي وبذلك يزداد عدد المتخصصين في العلوم الطبية والهندسية وبالتالي يزداد الطلب على الوظائف ويقل العرض فتكون النتيجة الحتمية الهجرة. وثانياً فإن هذا الوضع سيقود إلى قلة الكوادر الوسطية التي هي عماد أي تقدم تكنولوجي في الدول النامية.

أما الناحية الأخرى المهمة في التركيب الاجتماعي فهي أن المجتمعات التي تتميز بترابط اجتماعي كبير داخل العائلة ثم داخل المجتمع يتميز أفرادها بالشعور بالانتماء إلى المجتمع بشكل كبير وفي هذه الحالة فإن الكفاءات التي تهاجر كثيراً ماتشعر بعد مدة من الزمن بنوع من الغربة والحنين إلى الترابط الاجتماعي في الوطن الأول وبذلك فإن هذا العامل سيعمل لارجاع المهاجر إلى وطنه بعد أن يقضي مدة من السنين[٤٥].

نظرة عامة على الوضع في الدول النامية:

وسنحاول هنا أن نأخذ دولتين، واحدة من اميركا اللاتينية والأخرى من آسيا وهاتان الدولتان هما البرازيل والهند والسبب في ذلك هو تقدم هاتين الدولتين زمنياً في التنمية الاقتصادية عن الوطن العربي وسنعود بعد ذلك إلى الوطن العربي لنرى الأوضاع السائدة فيه وكيف أثرت وستؤثر على هجرة الكفاءات.

البرازيل:

تعتبر البرازيل أول دولة من حيث هجرة الكفاءات في اميركا اللاتينية حيث أن هجرة كفاءاتها إلى كندا للفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ بلغت

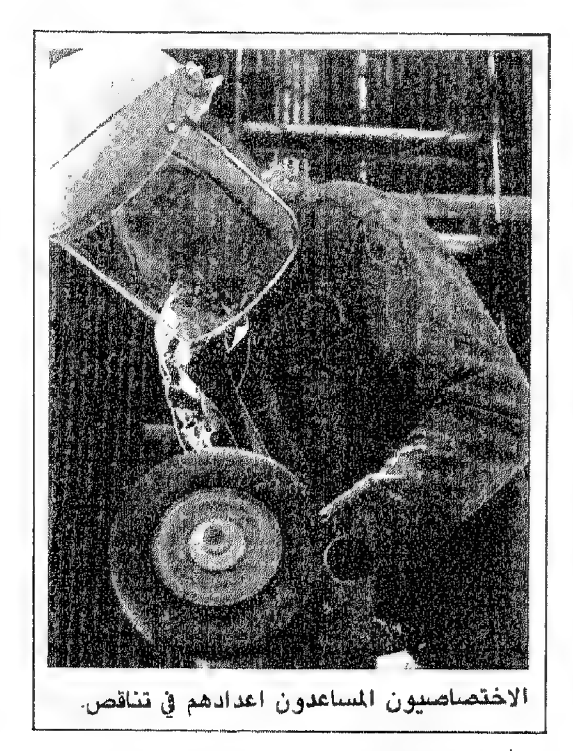
٣٨،٦ في المائة من مجموع الهجرة من أميركا اللاتينية[٤٨]. ولقد أثيرت ضجة كبيرة في العالم حول نجاح التجربة البرازيلية في التنمية وحول دور العلم والتكنولوجيا في انجاح هذه التجربة. ولقد تميزت هذه التجربة بما يلي[٤٩]:

١ ـ إعطاء التصنيع أولوية مطلقة: ـ لأن التصنيع قادر على انتشال الدولة من مهاوي التخلف ولقد اقتصر التصنيع في هذه الدولة باتباع سلعة وسيطة تصدر للخارج حيث يتم استخدامها في انتاج السلع الاستهلاكية كتنقية المعادن أو تركيزها وغزل القطن وكذلك تشجيع الصناعات التجميعية والتي تقوم على استيراد مواد نصف مصنعة أو اجزاء وتركيبها محلياً لتتحول إلى سلعة استهلاكية. وفي مقدمة ذلك الثلاجات وأجهزة صناعة الراديو والسيارات التي اشتهرت بها البرازيل وكذلك مصانع لصناعة الحديد والصلب.

٢ ـ الاعتماد في التصنيع على رأس المال الأجنبي والعمل على تشجيع القطاع الخاص واشراك الشركات المتعددة الجنسية في عمليات التصنيع وخاصة في الصناعات التي تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة.

٣ ـ الاعتماد على استيراد التكنولوجيا. خاصة التكنولوجيا المتقدمة التي تعتمد على الكثافة في رأس المال لأن هدف التنمية البرازيلية تحقيق نمو متسارع للدخل القومي عن طريق زيادة الصادرات إلى السوق الرأسمالية ومن هنا فإن من الضروري أن تكون هذه الصادرات ذات نوعية تضاهي البضائع الأجنبية.

٤ ـ عدم الاهتمام بتوزيع الدخل القومي بصورة عادلة لأن ذلك لم يكن ليخدم التنمية التي كانت تقوم على استيراد تكنولوجيا معقدة باهظة التكاليف والتي تحتاج بدورها إلى موارد مالية ضخمة ولم يكن بالامكان توفير الاستثمارات إلا عن طريق تشجيع قيام رأسمالية محلية مرتبطة رأساً بالسوق الأجنبية. لقد حقق الموديل البرازيلي معدل نمو قدره ٩ في المائة خلال السنوات العشر الماضية وزاد متوسط دخل الفرد بمعدل مقداره ٥،٦ في المائة رغم تزايد السكان بمعدل ٣،٢ في المائة. إلا أن


الاختصاصيون المساعدون اعدادهم في تناقص.

هذه الأرقام لا تعبر عن واقع الحال بشكل دقيق والذي تميز بما يلي:

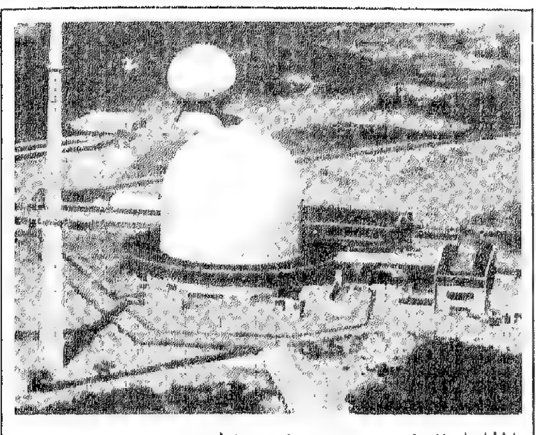
١ ـ التبعية المتزايدة للسوق الرأسمالي.. بما أن التنمية قد قامت أصلاً على الاعتماد على رأس المال الأجنبي فإن كل البنية الاقتصادية والسياسية والثقافية قد وضعت من أجل تشجيع رأس المال الأجنبي على النمو بحجة الاسهام في تحقيق معدلات عالية للنمو وهذا قاد بالتالي إلى أن تتحول التبعية المالية إلى تبعية اقتصادية وبالتالي فقد سيطرت الشركات المتعددة الجنسية على الاستثمار وعلى البنوك الكبرى. وأسفر الاعتماد الكامل على التكنولوجيا المعقدة ذات الرأسمال الكثيف في زيادة التبعية التكنولوجية للبرازيل للشركات المتعددة الجنسية.

٢ ـ بما أن الهدف الأساسي الذي كانت تسعى إليه الشركات المتعددة الجنسية تحقيق الربح السريع فقد أهملت كل شيء عدا ذلك ومن هنا فإن الصناعات قد تركزت في عدة مدن وأعطيت الأفضلية للصناعات الاستهلاكية ذات المردود الكبير. ولذلك اعتمدت هذه الشركات في جلب التكنولوجيا المتطورة التي لا تحتاج إلا إلى عدد قليل من العمال. وأسفر هذا الوضع في

قيام مراكز حضارية متقدمة أفرادها يرتبطون رأساً بالنمط الاستهلاكي السائد في الدول الرأسمالية وتتركز حول هذه المراكز التجمعات الكبيرة للعاطلين وشبه العاطلين في حين يعيش الريف بعيداً عن هذا الوضع ولا ينتمي إليه وبالتالي سميت هذه الحالة بالاقتصاد المزدوج لأن الاعتماد على الشركات المتعددة الجنسية لن يحقق التنمية المستقلة لأن هذه التنمية تتحدد خارجياً بما تمنحه الدول الأجنبية المختلفة للدول النامية. إن هدف الاستثمارات الأجنبية هو تحقيق الربح ومن هنا رأينا بأن حجم الاستثمارات الجديدة الوافدة على دول العالم الثالث من الخارج عام ١٩٧٣ بلغت ٨ بلايين دولار في حين بلغ حجم الأرباح المحولة ١٤ بليون دولار. لقد أدت التنمية البرازيلية واستيراد التكنولوجيا المعقدة في القضاء على الصناعات الصغيرة والحرفية دون أن تتمكن القطاعات الاقتصادية الجديدة من امتصاص الأيدي العاملة التي كانت تدير الصناعات الصغيرة والسبب في ذلك هو أن التكنولوجيا المستوردة لاتحتاج إلا إلى العدد القليل من العمال. لقد أسفر هذا الوضع في امتصاص الصناعة ١٧ في المائة من مجموع القوى العاملة في حين بقي الريف متخلفاً وازدادت البطالة بشكل كبير. لقد وجد القطاع الصناعي في البرازيل نفسه متوجهاً ومرتبطاً بالخارج لأنه متكامل تماماً مع السوق الرأسمالي وبالتالي فهو غريب عن القطاع التقليدي الذي يضم أكثرية السكان بل هو يرى في هذا القطاع مصدراً لليد العاملة الرخيصة التي تزيد عائداته. لقد تركت التنمية البرازيلية ٥ في المائة من السكان يحصلون على ٢٨,٨ في المائة من الدخل القومي في حين يحصل ٥٠ في المائة من السكان على ١٠,٥ في المائة من الدخل القومي. لقد أسفر هذا الوضع في تباطؤ نمو الدخل القومي علاوة على التضخم الذي بدأ يصدر إلى البرازيل والذي بلغ في حدود ٥٠ في المائة في حين أنه لم يتجاوز ٢٠ في المائة في أسوأ الأحوال في الدول الرأسمالية الكبرى. كما قاد هذا الوضع إلى استقطاب طبقي كبير في المجتمع مما أدى بدوره إلى تفاقم الصراع السياسي والاجتماعي وأدى ذلك بدوره إلى أن ترصد البرازيل مبالغ طائلة لنمو جيشها من أجل الحد من عمليات نمو المعارضة.

التجربة الهندية:

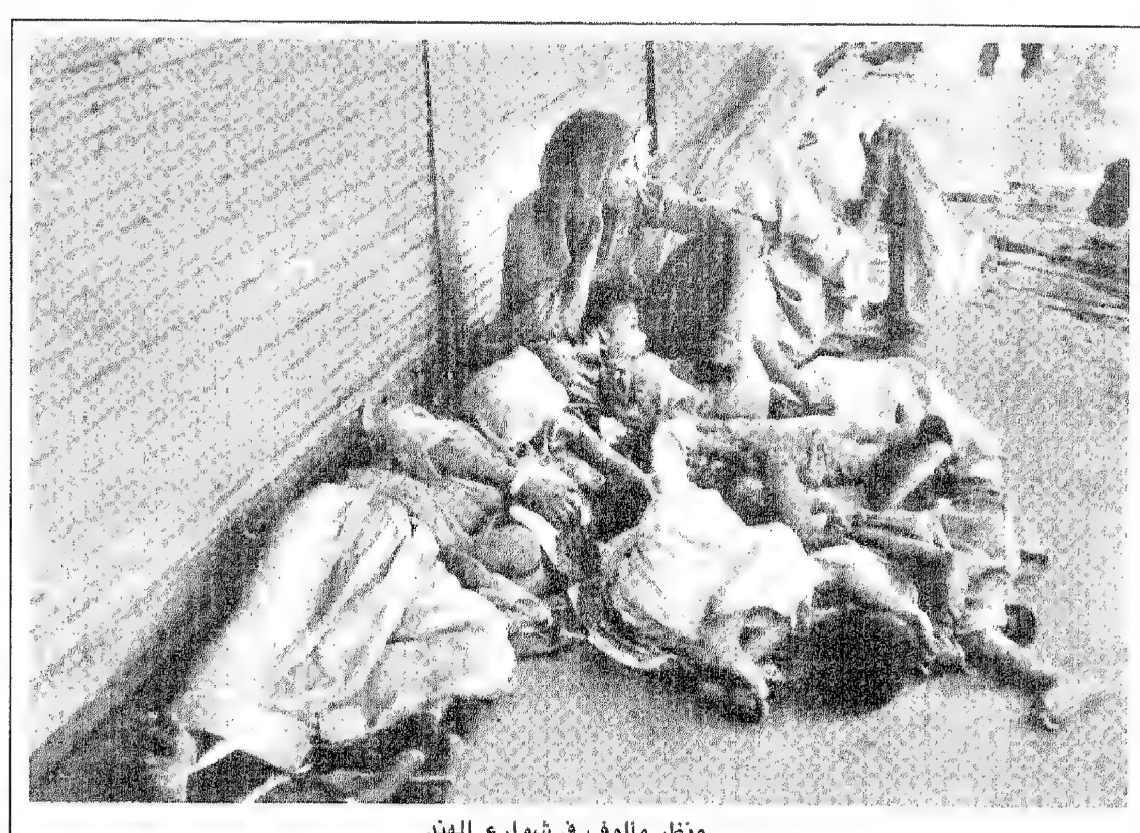
إن التجربة الهندية لاتختلف في سماتها العامة كثيراً عن التجربة البرازيلية فقد اعتمدت الهند على عدة خطط قومية للتنمية الخمسية مبتدئة من عام ١٩٥١ وبذلك فقد قامت بزيادة عدد المعاهد والكليات لتخرج الاعداد الكافية



المفاعل الهندي يديره هنود وكنديون.

من العلميين والتقنيين الذين ستحتاجهم الخطط الخمسية الثلاث ١٩٥١ ــ ١٩٥٦، ١٩٥٦ ــ ١٩٦١، ١٩٦١ ــ ١٩٦٧ وقامت الهند بعملية تحديث كبيرة لقطاعها الصناعي بواسطة اتفاقيات عقدتها مع الشركات الأجنبية المتعددة الجنسية بحيث بلغ عدد هذه الاتفاقيات ٤ آلاف اتفاقية ما بين ١٩٤٨ ــ ١٩٧٢(٥٣) وتم بموجب هذه الاتفاقيات جلب تكنولوجيا متطورة تعتمد على رأس المال الكثيف ولقد أسفرت ٢٠ سنة من الاعتماد على رأس المال الأجنبي والتكنولوجيا المتطورة في عملية تزايد الاستقطاب في المجتمع بحيث أن ١٠ في المائة من السكان يحصلون على ٢٥ في المائة من الدخل في حين أن حصة ٦٠ في المائة من السكان لا تزيد عن ٣٧ في المائة في الدخل. وفي الهند أيضاً شجعت الصناعات الاستهلاكية وأسفر هذا الوضع في زيادة البطالة كنتيجة لاستيراد التكنولوجيا ذات الرأسمال العالي كما تم خلق الاقتصاد المزدوج.

لقد ذكرت كثير من الدراسات بأن العلم في الهند في انتعاش ويبدو لأول وهلة وعند قراءة



منظر مألوف في شوارع الهند.

الأرقام بأن هذا القول صحيح فقد تم زيادة عدد الكوادر العلمية من ١٨٣ ألفاً عام ١٩٥٠ إلى ٢ مليون عام ١٩٧٥(٥٤) وارتفع عدد الجامعات من ٢٧ عام ١٩٥٠ إلى ١٠٠ عام ١٩٧٥ ويتم بناء ٤٠ مختبر ومركز بحوث تابعة لمجلس البحث العلمي والصناعي وبنت المؤسسة العسكرية ٣٧ مختبر وزاد عدد العلماء إلى أكثر من ١٠٠ ألف غير أن العلماء لم يجدوا لهم مكاناً في ظل التنمية الهندية فمعظم الصناعات الكبرى تم استيرادها من الخارج وهي قائمة على تكنولوجيا متقدمة وتجري عملية تطوير هذه التكنولوجيا من قِبل مختبرات الشركات المتعددة الجنسية الموجودة خارج الهند كذلك لم تنشىء مختبرات للبحث والتطوير في هذه المصانع وإذا ما أنشئت فإن العلماء الهنود العاملين فيها كانوا يعملون على تطوير التكنولوجيا الأجنبية لا الهندية وكانت براءات الاختراع لا تسجل باسمهم أو باسم الهند إنما باسم الشركات المتعددة الجنسية التي توظفهم. لذلك فقد كانت هجرة الكفاءات إلى خارج الهند كمؤشر لهذا الوضع الشاذ في حين أن الهجرة الداخلية كانت أخطر فإن الكثير من العلماء الهنود والذين كانوا يعملون في الجامعات ومراكز الأبحاث كانوا يرون أنفسهم بعيدين عن عملية التنمية الصناعية لأن بحوثهم لم تكن مفيدة للصناعة وحتى لوكانت مفيدة فإن الصناعة الهندية لم تكن لتعير هؤلاء العلماء أهمية لأنها عندما تحتاج إلى أي شيء فإنها تتقدم إلى الخبراء الأجانب من خارج الهند. لقد دفع هذا الوضع العلماء الهنود للقيام بأبحاث لا تمت إلى عملية التنمية الهندية وهكذا وجدنا الصناعة الهندية ترتبط بالسوق الرأسمالي في حين ارتبط العلم في الهند بحركة العلم في الدول الرأسمالية.

لقد كان هذا الوضع مشابهاً للوضع الذي عاشته المؤسسة العلمية في اميركا اللاتينية لأن معظم الصناعات الكبرى في اميركا اللاتينية كانت تقع ضمن دائرة الشركات المتعددة الجنسية ومن هنا رأينا بأن الدور الذي لعبه العلم في الدول المتقدمة غير ذلك الذي لعبه في الدول النامية ففي حين يلعب العلم دوراً

استثمارياً في الدول المتقدمة فإنه يلعب دوراً استهلاكياً في الدول النامية(٥٥). وتذكر دراسة أخرى في أن القطاع الخاص في الدول المتقدمة يساهم بـ ٧٠ في المائة في البحث والتطور في الصناعة في حين أن القطاع الخاص في اميركا اللاتينية يساهم فقط بحدود ٢ في المائة(٥٦).

إن من الواضح بأن هنالك انفصالاً ما بين القطاع الانتاجي الصناعي المتقدم والقطاع العلمي وهذا بدوره قد قاد إما إلى هجرة الكفاءات أو إلى أن تأخذ هذه الكفاءات دورها في اسناد حركة المعارضة المتنامية للأنظمة السياسية السائدة في معظم دول اميركا اللاتينية.

إن معظم الدول العربية قد استقلت حديثاً وجميعها كانت محتلة من قبل دول متقدمة. وقد أدى ذلك إلى أن ترتبط الدول العربية بالسوق الرأسمالية العالمية، وهذا بدوره قد أدى إلى تشويه بنية الاقتصاد العربية وجعله أحادي الجانب وتابعاً للسوق العالمية فقد غدت البلاد العربية تشتغل بالزراعة والري والصيد والمناجم وتنتج سلعاً ومواد أولية معدة للتصدير إلى الغرب(٥٧). كما أن المنطقة العربية تتميز بتفاوت في توزيع القوى المنتجة إذ أن حوالي ٧٠ في المائة من الأراضي الزراعية تتواجد في خمسة أقطار هي السودان والمغرب والجزائر وسورية والعراق أما الموارد الطبيعية فهي موزعة أيضاً بصورة متفاوتة ولو أخذنا البترول كمثل لرأينا بأنه يمثل ٨٠ في المائة من الناتج المحلي الاجمالي للكويت والامارات ولا يمثل أية نسبة للأردن. إن الاقطار النفطية وعدد سكانها ٤٠ مليون يمثلون ٢٨ في المائة من مجموع العرب، تسيطر على ٧٠ في المائة من الناتج القومي الاجمالي. أما بالنسبة للقوى المنتجة البشرية فقد ارتفع عدد السكان العرب من ١٠٤ مليون عام ١٩٦٣ حتى بلغ ١٤٢,٨ مليون عام ١٩٧٥ وسيبلغ أكثر من ١٨٤ مليون عام ١٩٨٥. يشكل الريفيون ٦٥ في المائة من مجموع السكان. وإن ثلاثة أقطار عربية وهي مصر والمغرب والعراق تضم ٥١ في المائة من مجموع السكان في حين يوجد ٨,٨ في المائة من جملة السكان في عشرة أقطار عربية. ان هناك تدنياً واضحاً في نسبة العاملين بالصناعة إذ أن الزراعة والصيد والتعدين قد ساهمت عام ١٩٧٢ بنسبة ٤٥ في المائة من الناتج المحلي في حين احتلت الخدمات المكانة الأولى في توليد الدخل المحلي الاجمالي عام ١٩٧٥ إذ بلغت ٥٠ في المائة وتليها الزراعة ثم الصناعة(٥٨). ان العالم العربي يقدم ٠,٤ في المائة من الانتاج الصناعي العالمي ولا يقدم إلا ٦ في المائة من مجمل الانتاج الصناعي للدول النامية. أما الصادرات الصناعية العربية فلم تتجاوز ٠,٠٣ في المائة من إجمالي الصادرات العالمية و ٥,٤ في المائة من إجمالي الصادرات الصناعية في البلدان المتخلفة ويتصف هيكل الصناعة العربية بمساهمة عالية للصناعات الاستهلاكية إذ تبلغ ٦١ في المائة.

ان هذه الأرقام لتبين أن معظم الدول العربية تعتمد على توفير الأنماط الاستهلاكية ونتيجة عمليات التصنيع التي تمت في تجمعات محددة حول المدن الرئيسية نشأ قطاعان الأول يمثل سوق السلع التقليدية حيث يتمثل الطلب في مشترى أصحاب دخل منخفض ويتمثل العرض بالنسبة لهم في منتجات الزراعة والحرف وهناك من جانب آخر سوق السلع الحديثة حيث ينبع الطلب من أصحاب الدخل المرتفع وحيث يشكل العرض من منتجات الصناعة الحديثة أو من الواردات المصنوعة وتبدو السوقان منعزلتين تقريباً(٥٩).

إن هذه الصورة لتوضح أن معظم الأقطار تقوم بالتنمية بصورة منفردة وهذا يعزز ارتباطها وتبعيتها للسوق الرأسمالية العالمية. في حين ان هناك امكانية كاملة لكي تتحرك المنطقة العربية كوحدة واحدة وهذا يعزز من تكاملها الاقتصادي ويقلل ارتباطها بالسوق العالمية وان على الأمة العربية أن تتخذ قرارها بأسرع وقت وبدون ذلك فإن أنماط التنمية في المنطقة العربية ستكون متطابقة مع أنماط التنمية في أميركا اللاتينية ونحن نرى الكثير من هذه المؤشرات والتي ذكرناها عن البرازيل والهند تبدو واضحة في الكثير من الدول العربية.

إن الكثير من الدول العربية تقوم الآن بعمليات تصنيع كبيرة وفي هذا المجال فإن هذه

الدول تقوم باستيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة في كثير من الأحيان. وكما تدلل الدراسات في هذا المجال فإن معظم الشركات الأجنبية العاملة في الدول العربية في منطقة الأكوا تقوم بتقديم التكنولوجيا المطلوبة وادارة المشاريع الصناعية عدا لبنان وسورية والعراق والأردن[٦٠]. كما يتزايد اعتماد الدول العربية على التكنولوجيا الغربية. أن نمط الاستهلاك في كثير من الدول العربية يشابه نمط الاستهلاك الغربي وهنالك تزايد في استيراد المكائن ومعدات النقل لكل المنطقة العربية حتى أنه بلغ لمنطقة الأكوا عام ١٩٧٥ في حدود ٨ بلايين دولار[٦١].

إن التكنولوجيا المستوردة تأتي بصورة متكاملة (Turnkey Projects) لذلك فلا تجري أية محاولات لتطوير التكنولوجيا إلا في قطاع الزراعة ومعظم المشاريع الصناعية المقامة تفتقر إلى وحدات للبحث والتطوير لذلك لا يوجد طلب على مراكز البحث والجامعات حتى أنه يجري في كثير من الأحيان الاعتماد على الشركات الأجنبية لحل مسائل هندسية يمكن حلها بسهولة من قبل الكوادر الوطنية داخل الدول العربية[٦٢].

أما بالنسبة للوضع التعليمي والعلمي في الأقطار العربية فإن هذه الأقطار قد توارثت الأجهزة التعليمية من أيام الاحتلال ولم تجر إلا محاولات قليلة في بعض الدول العربية لتغيير المناهج التعليمية بشكل يخدم عملية التنمية في القطر. كما أن هنالك غياباً شبه كامل للتعليم التكنولوجي في المراحل التعليمية الأولية وإذا ما أخذنا نسب التلاميذ حسب الاختصاص في الدول العربية لرأينا أغلبية الاختصاصات انسانية بشكل واضح[٦٣].

نسبة توزع الطلبة على الاختصاصات عام ١٩٧٣

العلوم الاجتماعية والانسانية	٪٦٤
العلوم الطبيعية	٧,٥
العلوم الهندسية	١٠
العلوم الطبية	١٠,٥
الزراعية	٨

ويعكس هذا الوضع تخلف الدول العربية في تحقيق الهدف الذي وضعته الخطة العالمية للعمل من أجل تطبيق العلم والتكنولوجيا وهو أن يكون هنالك ٢٠٠ عالم/ مهندس يعملون بالبحث والتطوير لكل مليون نسمة من السكان نهاية ١٩٨٠[٦٤]. فبلغت في العراق والكويت ومصر ولبنان وتونس أكثر من ١٠٠ في حين بلغت في ليبيا ٢٤ وأقل من ٢٠ في الجزائر[٦٥].

أما نسبة التقنيين لكل عالم ومهندس فقد بلغت في الدول العربية ٠,٥ إلى ١ في حين أن النسبة في افريقيا هي ١,٣ إلى واحد وفي اميركا اللاتينية ٢,٤ إلى ١ وفي الدول المتقدمة ١,٨ إلى واحد[٦٦].

وهذه نسبة منخفضة جداً إذا ما علمنا بأن التقنيين هم أساس أية تنمية تكنولوجية وعلمية. لقد سجلت احصائيات الدول العربية وجود نسبة كبيرة من العلماء والمهندسين في البحرين و٨٠ في المائة في الكويت و٧٨,٥ في المائة في ليبيا و٩٠ في المائة في قطر. أما نسبة الأجانب من التقنيين فهم ٣٥ في المائة في البحرين و٨٠ في المائة في الكويت و٧٦ في المائة في قطر.

أما نسبة العلماء العاملين في البحث والتطوير من مجموع العلماء في الدول العربية فيبينها الجدول التالي[٦٥].

العلماء والمهندسون والتقنيون العاملون في البحث والتطوير كنسبة من المجموع

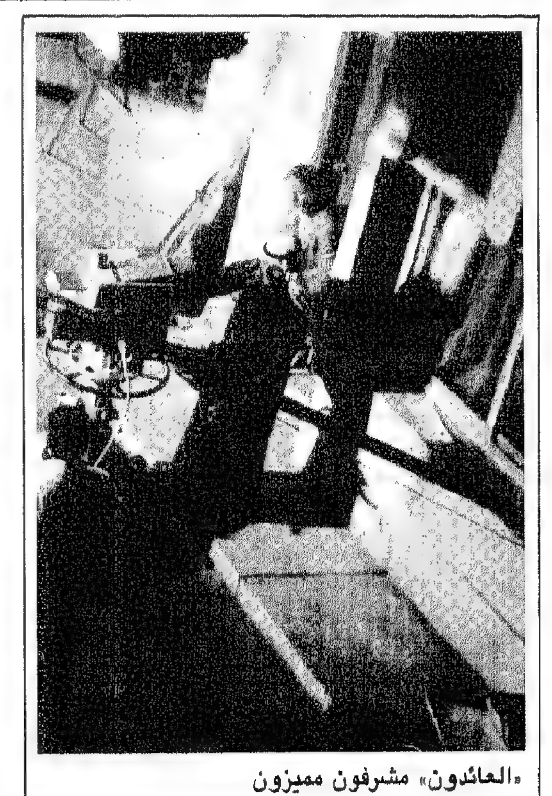
القطر	نسبة العلماء والمهندسين	نسبة التقنيين
مصر	٪٢	—
العراق	٣,٦	١,٥
الأردن	٣,٥	٣,٤
الكويت	١,٥	٠,٥
ليبيا	٠,٦	١,٤
السودان	١,٨	٨,٠
اليمن	٤,٥	٧,٣

إن هذه النسبة منخفضة أيضاً حيث تبلغ في الدول المتقدمة ١٠ ـــ ١٥ في المائة. إن نسبة

العلماء والتقنيين العاملين في البحث والتطوير في القطاع الانتاجي تبلغ في حدود ٤٣,٤ في المائة من العلماء و٤٧ في المائة من التقنيين عدا السودان حيث تبلغ النسبة ٠,٤ في المائة ولبنان حيث تبلغ النسبة ١٣,٣ في المائة. إلا أن معظم الأبحاث التي تجريها هذه المجموعة من العلماء هي التي لاتستفيد منها الصناعة (Non Integrated R & D) أما نسبة العلماء المهندسين العاملين في البحث والتطوير في قطاع التعليم فهي ٣٣,٤ في المائة وفي الخدمات العامة تبلغ النسبة في حدود ٢٠ في المائة. لقد حددت الأمم المتحدة هدفاً للدول النامية بالنسبة للانفاق على البحث والتطوير بحيث تبلغ ٠,٥ في المائة وإذا ما أضيفت إليها الخدمات العلمية فإن النسبة يجب أن تصل إلى ١ في المائة. ومن الملاحظ أن دولة واحدة وهي مصر قد اقتربت من هذا الهدف.

أما الدول الأخرى فإن الجدول التالي يبين الانفاق فيها[٦٧]:

الانفاق في حقل الأبحاث والانماء في بعض بلدان غربي آسيا ١٩٧٣			
البلد	النسبة المئوية من الدخل القومي	المتوسط السنوي للانفاق للفرد (دولار)	المتوسط السنوي للانفاق للفرد من السكان (دولار)
العراق	٠,٢٥	١٦٨٤٠	٢,٣
الأردن	٠,٣١	١٥٣٩٠	١,١
الكويت	٠,٠١	١٧١٠٠	٠,٨
لبنان	٠,٤٠	٢٢٤٠٠	٢,٤
اليمن	٠,٢٥	٣٥٢٧٠	٠,٣


«العائدون» مشرفون مميزون

إن الانفاق في حقل الأبحاث والانماء للفرد من السكان في الدول المتقدمة يبلغ مابين ٣٠ ــ ١٠٠ دولار.

الاستنتاجات:

١ ــ إن نسبة هجرة الكفاءات العربية إلى أميركا وكندا إلى نسبة الهجرة العالمية للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ بلغت ٩ في المائة، وهذه النسبة تفوق حوالي المرتين مجموع الهجرة الافريقية الكلية إلى الدول المتقدمة.

٢ ــ إن معظم الهجرة تتركز في الاختصاصات العلمية التي تحتاج إليها المنطقة في التنمية وهي تبلغ ٩٦,٣ في المائة للاختصاصات الطبيعية والطبية والهندسية.

٣ ــ إن نسبة كبيرة من خريجي الكليات هم من الاختصاصات الانسانية وتبلغ ٦٠ في المائة في حين ان النسبة معكوسة في الدول المتقدمة.

٤ ــ إن المؤشرات للنسبة العلمية سواء بعدد العلماء أو بنسبة العلماء إلى التقنيين أو

نسبة الانفاق على البحث هي منخفضة جداً حتى بالمقارنة مع الدول النامية.

ولقد انعكس هذا الوضع في قلة البحوث التي تنتج في المنطقة العربية وعدم تسجيل براءات اختراع بالنسبة للكوادر الوطنية إلا ما ندر وهذا يعكس نفسه في الاعتماد الكامل على الخبراء الأجانب.

٥ ـــ إن استيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة كما هو الحال بالنسبة للكثير من الدول العربية لن يترك المجال للكفاءات العربية في المشاركة في تطويع وتطوير التكنولوجيا.

٦ ـــ إن الاقتصاد العربي هو اقتصاد أحادي الجانب يعتمد بالدرجة الأولى والرئيسية على تصدير المواد الأولية أو الاستخراجية وان نسبة مساهمة الصناعة العربية كما رأينا إلى مجموع الانتاج العالمي وإلى مجموع انتاج الدول النامية قليل جداً بالرغم من وجود الامكانات العربية الكبيرة والتي لو استغلت بشكل صحيح لتغيرت الصورة بدرجة ملموسة. علاوة على أن التنمية في الدول العربية تتم في كثير من الأحيان بالارتباط بالسوق العالمي لا الارتباط بالسوق العربية.

٧ ـــ إن معدلات التنمية الكبيرة التي تذكرها بعض الدول العربية لاتعبر عن واقع الأمر إذ أن التنمية التي تخلق طبقة صغيرة مرفهة على حساب مجموع السكان وتخلق اقتصاداً مزدوجاً لا يمكن أن تعتبر تنمية صحيحة ومن هنا رأينا بأن دولاً كالبرازيل قد سجلت معدلات تنمية كبيرة غير أن واقعها كان يعبر عن صورة غير صحيحة.

٨ ـــ إن معظم الانفاق على الأبحاث والتطوير قد انتج أبحاثاً غير أن هذه الأبحاث لم تساهم في تطوير العمليات الانتاجية.

٩ ـــ لقد رأينا بأن الهجرة تعتمد على عوامل دفع وجذب ففي الوقت الذي تزيد فيه العوامل الاقتصادية والسياسية قوة دفع الكفاءة للهجرة فإن التلازم الاجتماعي القوي في المجتمعات العربية يدفع المهاجر كما ذكرنا للرجوع. إلا أن التنمية الحالية قد بدأت تغير من العادات الاجتماعية وبدأت الهجرة وعملية التصنيع تعملان بسرعة لتفكك العائلة والروابط الاجتماعية(٦٨). وهذا يعني بأن أحد عوامل الجذب الرئيسية للعودة للوطن قد أصبح ضعيفاً ومن هنا تأتي المؤشرات المذكورة في دراسات الأمم المتحدة لتؤكد بأن كمية العائدين إلى الدول العربية هي أقل من افريقيا وأميركا اللاتينية.

١٠ ـــ إن معظم الدول العربية تفتقر إلى أجهزة للتخطيط للعلم والتكنولوجيا مما يؤدي إلى زيادة بعثرة جهود الكفاءات العلمية وعدم وضعها في الأماكن المناسبة وضياع التعاون ما بين القطاعات الانتاجية والخدمية في الدولة. بل ان معظم الدول العربية لم تجر فيها عملية احصاء الكوادر العلمية والتقنية.

١١ ـــ إن معظم الدول العربية تقوم بزيادة عدد خريجيها وبصورة غير مدروسة وغير متوازنة مع نمو القطاعات الأخرى، بحيث أن معظم الاختصاصات هي انسانية واجتماعية وهذا سيؤدي إلى نقص في بعض الاختصاصات وزيادة في الاختصاصات الأخرى.

١٢ ـــ إن استمرار الحالة التي ذكرت في هذا البحث ستؤدي بلا شك إلى زيادة هجرة الكفاءات العربية إلى خارج المنطقة العربية علاوة على أن هذا الوضع سيؤدي إلى تزايد الهجرة الداخلية والتي تعني غياب مساهمة الكفاءات العربية في عملية ترشيد التنمية وتوطين التكنولوجيا.

١٣ ـــ إن أكثر الدراسات التي جرت في الدول العربية قد فسرت أسباب الهجرة بالعوامل المادية الاقتصادية ومن هنا فإن معظم القوانين التي شجعت الكفاءات للعودة قد ركزت بصورة رئيسية على البحوث المادية. ورغم أهمية العوامل الاقتصادية إلا أنها لاتستطيع أن تفسر هجرة الكثير من الكفاءات. والتي تجري في بعض الدول العربية والنامية رغم أن الدخل المادي للمهاجر في البلد النامي يعادل الدخل في الدولة المتقدمة. ●

الهوامش

(١) Mrs Foretta Makasiar Sicat, UNCTAD. TD/B/C. 6/AC. 4/5, Reverse Transfer of Technology 27 Feb. 1978.

(٢) S.M. Naseem, UNCTAD, TD/B/C. 6/AC. 4/3.

(٣) Marga Institute, TD/B/C. 6/AC 4.4.

(٤) UNCTAD TD/B.C.6/AC 4/6.

(٥) د. فائق عبدالرسول، النظام الاقتصادي الدولي الجديد، منشورات النفط والتنمية ١٩٧٩.

(٦) د. جعفر عبدالغني، حول نقل التكنولوجيا، ندوة نقل التكنولوجيا، بغداد ١٩٧٦.

(٧) سلمان رشيد، آفاق عربية، آذار ١٩٧٩.

(٨) E/ECWA/50 March 1977.

(٩) UNCTAD, TD/B/AC, 11/10/Rev 1.

(١٠) UNCTAD/TT/9, 1978.

(١١) د. اسماعيل صبري عبدالله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

(١٢) Science Today, March 1969, Indian.

(١٣) UNCTAD, TD/B/C.6/7 13 October 1975.

(١٤) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/8. Feb, 1978.

(١٥) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/6. Dec 1977.

(١٦) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec 1977.

(١٧) UNCTAD, TD/B/C/.6/AC. 4/4 Dec 1977.

(١٨) UNCTAD, TD/B/C/.6/7 13 Oct 1975.

(١٩) نفس المصدر السابق.

(٢٠) د. الياس زين، هجرة الأدمغة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢.

(٢١) UNCTAD, TD/B/C.6/7 October 1975.

(٢٢) E/4820 June 1970.

(٢٣) نفس المصدر السابق.

(٢٤) نفس المصدر السابق.

(٢٥) مدحت أيوب، يونيه ١٩٧٥، ليبيا.

(٢٦) نفس المصدر السابق.

(٢٧) UNITAR, Research report No. 22 By William Glaser, The Brain Drain, Pergamon Press, 1978.

(٢٨) E/4820 June 1970.

(٢٩) TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec., 1977.

(٣٠) E/4820 June 1970.

(٣١) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٢) التحضر في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٢٩٧، الجزء الأول ١٩٧٨.

(٣٣) وداد يونس يحيى، ص ٩٨، النفط والتنمية، آذار ١٩٧٩.

(٣٤) E/4820 June 1970.

(٣٥) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٦) نفس المصدر السابق.

(٣٧) سلمان رشيد، الطليعة، سبتمبر ١٩٧٣، القاهرة.

(٣٨) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٩) نفس المصدر.

(٤٠) E/4820 June 1970.

(٤١) نفس المصدر السابق.

(٤٢) نفس المصدر السابق.

(٤٣) UNITAR, Page 36, The Brain Drain.

(٤٤) سلمان رشيد سلمان ومثنى أكرم، خطة العلم والتكنولوجيا، بحث مقدم إلى الندوة القطرية حول دور العلم والتكنولوجيا في التنمية القومية، بغداد ٢٧ ــ ٢٩ حزيران ١٩٧٨.

(٤٥) UNITAR, Brain Drain Page 37.

(٤٦) World Plan of Action, United Nations, New York. 1971.

(٤٧) E.F. Schumacher, Small is Beautiful, ARACUS, 1 1973.

(٤٨) سلمان رشيد ومثنى أكرم، خطة العلم والتكنولوجيا.

(٤٩) د. اسماعيل صبري، ص ١٦٨.

(٥٠) نفس المصدر، ص ٨٠.

(٥١) TD/B/C.6/7 Oct. 1975.

(٥٢) TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec. 1977.

(٥٣) Amulyn. H.N.Reddy. Sience Today Journal page 14, Jan. 1974, India.

(٥٤) TD/B/C.6/AC. 4/6 Dec 1977.

(٥٥) Charles Cooper, Science, Technology and Development, Frank Cass, London 1973.

(٥٦) Amilcar Herrera, Science, Technology and Development, Frank Cass, London 1973.

(٥٧) د. فؤاد حرب، أزمة التنمية الاقتصادية العربية، ص ١٢ النفط والتنمية، ١٩٧٩.

(٥٨) نفس المصدر، ص ١٥.

(٥٩) نفس المصدر، ص ٢٠.

(٦٠) R. Van Der. Graaf, Technology Transfer and change in the Arab World, edited by A.B. Zahlan, Pergamon Press, Oxford, 1978.

(٦١) نفس المصدر.

(٦٢) نفس المصدر.

(٦٣) Statistics on Scientific and Technological Manpowers and Expenditure for Research and Experimental Development in Arab countries, SC/76-Castarab/1, Unesco 1976.

(٦٤) نفس المصدر.

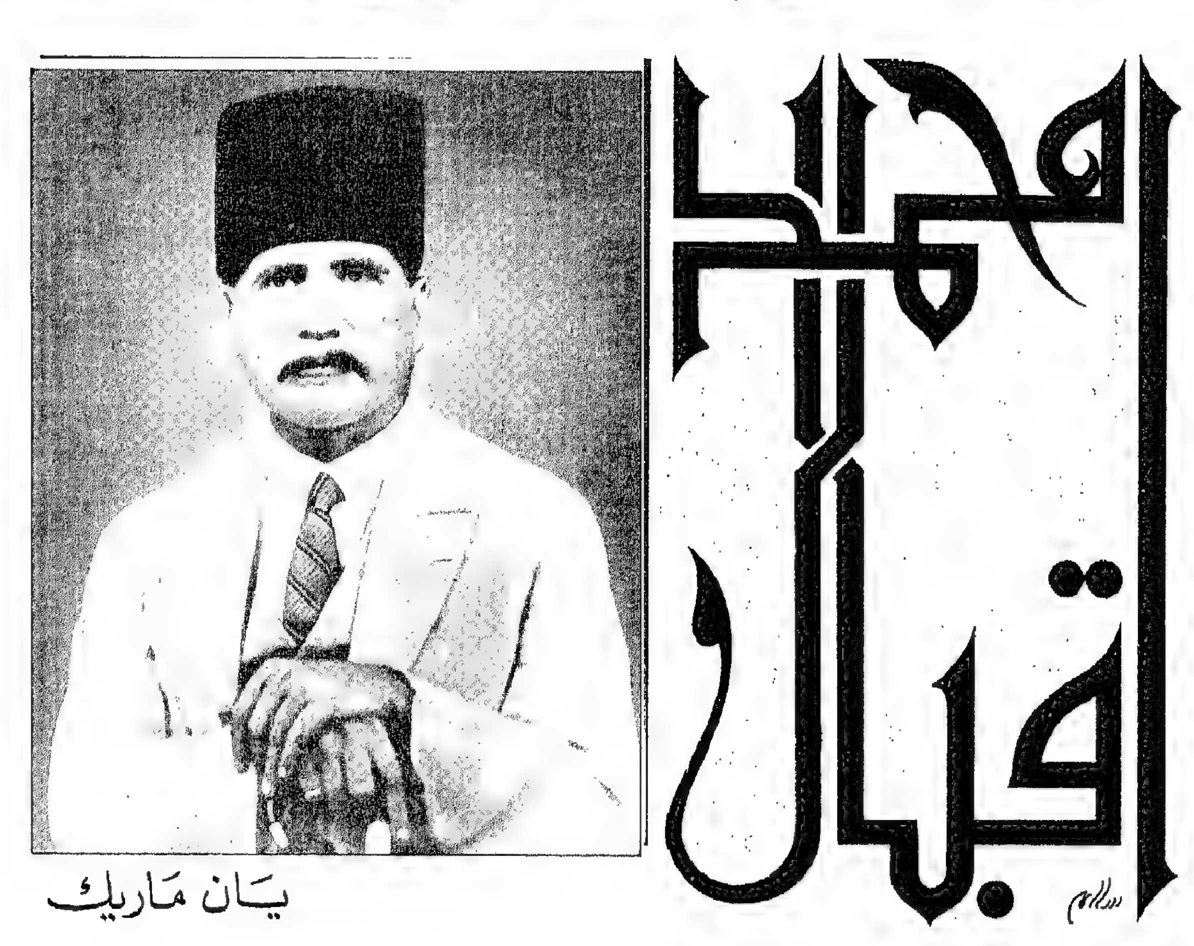
(٦٥) نفس المصدر.

(٦٦) نفس المصدر.

(٦٧) E/ECWA/50 March 1977.

(٦٨) التحضر في الوطن العربي.

الفكر الاجتماعي عند محمد اقبال



يان ماريك

احتفلت المحافل العلمية خلال عام ١٩٧٧ بمرور مائة عام على مولد الدكتور السير محمد اقبال (١٨٧٧ ــ ١٩٣٧)، الشاعر الفيلسوف المسلم الشهير، المولود في شبه القارة الهندية، والذي يعد بدون شك واحداً من أعظم الشخصيات الأدبية في هذا القرن. وقد اعتبر اقبال وهو على قيد الحياة أعظم شعراء الهند المسلمين وذلك لجمال شعره وعذوبته ولأهمية رسالته، وكذلك أيضاً لتاثير أفكاره على مجريات الأمور.

ونكرس هذه المقالة لدراسة نسق فكره الاجتماعي، حقيقة لم يقدم اقبال نسقاً محكماً لفلسفة اجتماعية ولم يخصص أياً من كتبه ليقدم مفهوماً لفلسفة التاريخ، ولكن يمكن النظر الى اقبال كشاعر سياسي بالمعنى العريض قضيته هي الانسان ككائن اجتماعي.



يمكن ارجاع الفكر الاجتماعي عند محمد اقبال الى ثلاثة آفاق مختلفة: الأفكار الفلسفية الهندية كما جاءت في «الفيدانتا» (Vedanta) وقد غلفتها التعاليم الاسلامية التي جاءت في القرآن وفي التصوف الفارسي ــ العربي. وقد انصهرت هذه جميعاً بالفلسفة الأوروبية خاصة عند برجسون ونيتشه.

ومن الناحية الشكلية يمكن القول: ان اقبال قد استخدم ثلاث لغات مختلفة لنقل هذه المجالات الثلاثة من الفكر، فكتب قصائد المناسبات القصيرة في اللغة الأردية وهي لغة شمال الهند واللغة الرسمية للباكستان، وكتب آراءه الفلسفية في لغة فارسية عذبة، أما نثره الرفيع فقد وضعه في اللغة الانجليزية. وما كتبه اقبال في اللغة الأردية جعله في رأي معظم النقاد أعظم شاعر في هذا القرن. وبواسطة اللغة الأردية كان يخاطب الجمهور الهندي البسيط، ويعبر عن أفكاره الأساسية التي كان يكتبها باللغة الفارسية، في ايجاز وبطريقة مؤثرة. وكانت لغة اقبال الفارسية تختلف عن لغة التخاطب المعاصرة في ايران، فقد كان يستخدم اللغة الفارسية القديمة التي قدمت الى الهند منذ عدة قرون مضت. أما اللغة الانجليزية فقد كانت بالنسبة اليه الوسيط الذي يمكنه الاتصال بالعالم الخارجي وبأوروبا على وجه الخصوص. وكان اقبال يتميز بمعرفة العديد من اللغات معرفة ممتازة، فبالاضافة الى لغته البنجابية البسيطة كان يتقن ما لا يقل عن خمس لغات أخر.

وقد بدأ اقبال الكتابة باللغة الأردية، وبواسطتها صنع جمهوراً له من أهالي الأقاليم الوسطى والأقاليم الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية التي كانت خاضعة للاحتلال الانجليزي في ذلك الوقت. ولكن سرعان ما أحس اقبال بالحاجة الشديدة الى نقل رسالته ومعتقداته وايمانه بقدرات الانسان غير المحدودة الى الجماهير الأخرى خاصة الى مسلمي الشرق، ولهذا اختار اقبال اللغة الفارسية كلغة غنية من حيث المفردات وقادرة على نقل الظلال الرقيقة لفكر وأحاسيس الانسان، ووضع بها شعره. وفي الحقيقة ففكرة امكانات الانسان غير المحدودة، ومدخله العالمي الانساني في البحث عن الانسان الكامل الذي يجمع قدرات الانسان الابداعية في نسق واحد متآلف، كل ذلك يبين أن شعره لايمكن أن يكون قاصراً على بلد واحد أو دين واحد.

لقد عرف اقبال طريقه الى الشعر في وقت كانت تنتشر فيه حركة عليكرة بين المسلمين في شبه القارة الهندية، وكانت تحمل لواءها الطبقة المتوسطة من المسلمين من أجل نهضة حضارية اسلامية. وكان هدف مؤسس هذه الحركة السير سيد أحمد خان تحرير المسلمين الخاضعين للاستعمار الانجليزي في الهند من أحاسيس العدمية واليأس واللامبالاة التي سقطوا فيها بعد انهيار الامبراطورية المغولية، وبعد فشل حركة التمرد.

وفي بواكير هذا القرن رحل اقبال الى انجلترا في الوقت الذي كان فيه حكم الملكة فيكتوريا الطويل يقترب من نهايته. وأتيحت له فرصة التعرف على المدرسة الهيجيلية الحديثة الانجليزية، ولكنه كان متأثراً بمقولات نيتشة عن السبرمان وبتعاليمه عن التطور الانساني قبل معرفته لهيجل. ومهما يكن من أمر فقد كان لشعر التصوف الايراني وتعاليم مذهب وحدة الوجود الأثر الأكبر عليه. عندما رجع اقبال الى الهند كانت معظم البلدان الاسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، وكان لهذه الحقيقة أثر كبير عليه، جعلته يغير مضامين شعره تغييراً كاملاً. وبدأ ينادي بفكرة الدولة الاسلامية التي توحد المسلمين، فمواجهة الاستعمار الامبريالي أضحت ضرورة ملحة، فهجر الغنائيات الوصفية وكرس نفسه تماماً للحركة الاسلامية. وسعى اقبال الى بعث الحياة في تعاليم الاسلام الأساسية من الوجهة الفلسفية مؤكداً على أن القوة الحيوية للإسلام قد أفسدت بتأثير الفكر الفلسفي اليوناني، وخاصة فكرة أفلاطون الذي غير من فلسفة الاسلام في النظرة الى الحياة وحولها الى مصالحة سلبية واستسلام للقدر.

وكان وضع المسلمين الاجتماعي في الهند يتطلب منهم النضال لاكتساب حقوقهم ولهذا سعى اقبال الى تخليص الفكر الديني الاسلامي



محمد اقبال في لندن سنة ١٩٣١ في طريقه الى قصر باكنجهام

من شوائب الفلسفة اليونانية. ولكن هذه المحاولة أدت أيضاً بالضرورة الى رفض التراث الصوفي الفارسي كله، لأن الصوفية الايرانية قد تأثرت بفلسفة أفلاطون قدر تأثرها بفلسفة الفيدانتا الهندية، وكلاهما لا يتماشى مع فاعلية التعاليم الاسلامية في تشكيل الحياة كما وردت في القرآن وكتابات المسلمين الثقاة. وهذه التعاليم القرآنية التي تؤمن بضرورة التفاعل مع الحياة والتي تضع الانسان في مرتبة عليا في هذا العالم وتؤمن بقدراته غير المحدودة كانت بمثابة مبادىء ضرورية عند الطبقة التي كان اقبال جزءاً منها. فقد كان على المسلمين أن يبرهنوا على أنه في مقدورهم الاعتماد على أنفسهم، فبهذه الطريقة وحدها يكون في مقدورهم الاستمرار في الحياة.

وجاءت دعوة اقبال للمشاركة في فترة بدأ فيها الشعب الهندي النضال من أجل التحرر من نير الاستعمار. وأخذت دعوة التحرر من الاستعمار شكل الدعوة الدينية، ولم يكن اقبال منفرداً في هذا النهج عندما التزم بالدين في تفكيره فجميع الساسة والقادة الروحيين وضعوا خططهم في مواجهة الاستعمار في صورة تتلاءم مع التقاليد والمسلمات الدينية لبلدانهم. فالالتزام بالتعاليم الدينية التقليدية يقف كرمز لعظمة ومجد الحضارة القديمة التي سبقت السيطرة الاستعمارية، ويفيد كرمز للعزة القومية والتميز.

وأصطباغ فكر حركة التحرر القومي بالدين، تفرضه طبيعة قيادتها، التي تنتمي الى فئات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة التي تميل بشدة الى النزاعات الدينية المثالية. فيؤكد مفكروها أن النزعات المادية التي أصبحت تسيطر على الحياة في الغرب، عليها أن تفسح مكانها للقيم الروحية التي تتجلى في أكمل صورها في الدين.

وأياً كان الأمر فإن الدين الذي يبشر بالتقشف والانقياد السلبي للوضع القائم لا يتلاءم مع دعاوى دعاة التجديد الذين ينادون بتغيير الوضع القائم والنضال من أجل اصلاحه. كان اقبال واحداً من هؤلاء فطوال حياته كان يؤكد على الحاجة الى المشاركة الابداعية، وكان يرحب بكل دفعة وبكل تغير، وجعل يبصر الناس بمخاطر الاستسلام والاسترخاء والقناعة. وكان التغيير يتمثل بالنسبة اليه في «الموجة» (وهذه الاستعارة تتردد كثيراً في أشعاره)، فالموجة تتواجد لفترة من الزمان قبل أن ترحل ولكنها اذا توقفت عن الحركة تلاشى وجودها.

وأبعاد فلسفة اقبال الاجتماعية تتلخص في البحث عن الانسان. وهدفه الأساسي في فلسفته هو أن يطلق قدرات الانسان غير المحدودة وأن يوجه الى عالم أرحب مليء بالحياة، وسعى في أشعاره كي يوضح طريق الوصول الى هذا المستوى الرفيع من الانسانية. وكان اقبال يؤمن بأن الانسانية في مقدورها أن تخلق مجتمعاً مثالياً يتكون في مجموعة من ذوات أو شخصيات متطورة. وفي الطريق الى تطور الشخصية ميز اقبال بين ثلاث مراتب من التطور: اولاها طاعة القانون، وثانيتها ضبط النفس (وهو أعلى مراتب النضج بالنسبة

للشخصية)، وثالثتها التمسك بالقيم الدينية المقدسة.

وأطلق اقبال على أعلى مراتب الكمال بالنسبة للذات (الايجو) لفظ «النائب» أو نيابة الله على الأرض. والوصول الى هذه الحالة يعني بالنسبة له تحقيق هدف الانسانية الأعظم. ويصف اقبال حالة «النيابة» (نائب) أو تكامل الذات أو نيابة الله على الأرض، قائلاً أنها الحالة التي تمتزج فيها أعلى مراتب المعرفة والادراك بأعظم وأقوى الدوافع البشرية.

ويعتبر اقبال الفرد المثالي غير منعزل عن بقية أفراد المجتمع ولكنه مكمل له. وفي كتابه أسرار خودي (أسرار الذات) يقول:

«الفرد يتواجد فقط كجزء من مجتمع، أما وحده (بمفرده) لا يساوي شيئاً».

كان اقبال يؤمن بأن الانسان في مقدوره أن يحقق ذاته ويطور قدراته بواسطة الآخرين فقط ومن خلالهم، ويرى أيضاً أن تتوفر في المجتمع شروط معينة هي أن تكون له قاعدة روحية مستوحاة من مبدأ التوحيد في الاسلام، وأن يكون له قائد تلتف الجماهير حوله (النبي محمد)، وأن يكون له كتاب مقدس (قرآن)، وكعبة يحج اليها (مكة)، وأن يكون له تقاليد وأعراف تحفظ له الاستقرار. وأخيراً فالمجتمع المثالي يجب أن يتخذ العلم منهجاً له فمن خلاله وبواسطة يستطيع السيطرة على قوى الطبيعة.

ويرى اقبال أن المجتمع المثالي المحكوم بمبادىء القرآن يوفر الظروف المناسبة كي يحقق الفرد المثالي ذاته ويطورها. فيتسم هذا المجتمع في المحل الأول بالحرية، فلا يوجد به أي شكل من أشكال العبودية أو الاستغلال في الشؤون الاقتصادية أو السياسية. ولا توجد به قيود تحد من قدرات الفرد الابداعية وتعوقة عن التطور. فالقدرات الانسانية لا تنمو أو تتحقق الا في ظروف وأوضاع تتميز بالحرية وهذه هي الفكرة الملحة في الجزء المسمى «بندكي نامه» (أي «كتاب العبودية») من مؤلف اقبال «زبور عجم».

ولم يقدم اقبال تصوراً لشكل الحكومة في هذا المجتمع المثالي، ولكنه على العكس من ذلك في كتابه «**تجديد الفكر الديني**» أوضح أن «الدولة... هي مسعى لتحويل هذه المبادىء المثالية الى حقائق ملموسة في محاولة لتحقيقها من خلال نظام انساني محدد، وبهذا المفهوم وحده تكون الدولة في الاسلام دينية، وليست بالمفهوم القائل انها محكومة بممثل الله على الأرض..». («تجديد ١٥٥»).

ولأسباب مماثلة أخرى تبنى اقبال الشكل الجمهوري للحكم. وفي كتابه «تجديد الفكر الديني» يقول: «الشكل الجمهوري للحكم لا يتوافق تماماً فحسب مع روح الاسلام، وانما قد أصبح بمثابة ضرورة للقوى الجديدة التي قد استخلصت حريتها في البلدان الاسلامية».(«تجديد» ١٥٧).

كان اقبال يؤمن بأن المبادىء الاساسية للمجتمع النموذجي تتمثل في طهارة ونقاء التعاليم الاسلامية التي تتجسد فيها فكرة الاخاء والمساواة لكل البشر والتي ترفض كل أشكال الظلم الاجتماعي. وكتب في كتابه «**جاويد نامه**» يقول:

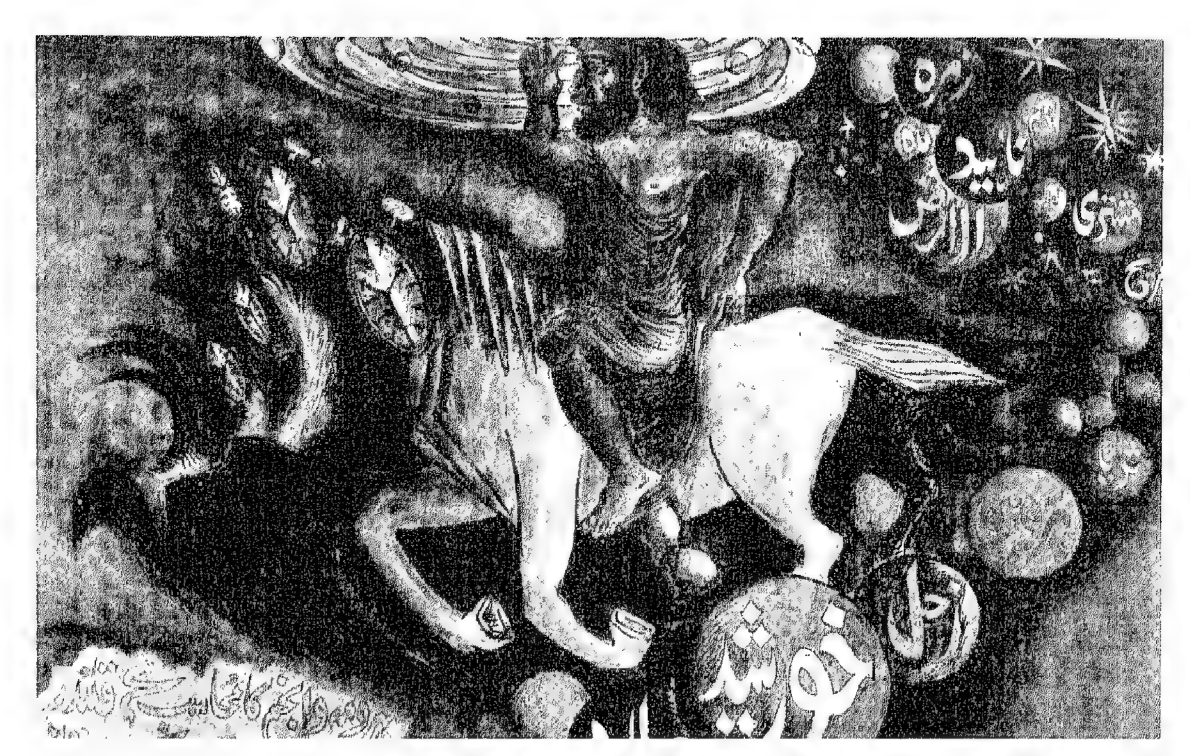
«ما هو القرآن؟ هو حكم بالموت على الانسان المتكبر، واغاثة للعبد المعدم الجائع». («جاويد» ١٤٦٣/٤) ورفض اقبال فكرة التعصب للقومية لأنها تشوه الاحساس بالاخاء، وتزرع بذور الحرب، وميز بين القومية والوطنية التي قد تخدم أهدافاً نبيلة. وكتب اقبال في أحد خطاباته: «ان الوطنية فضيلة طبيعية حسنة، ولها مكانة بين القيم الخلقية للإنسان، على أن ما يهم الانسان حقيقة بالدرجة الأولى هو ايمانه وحضارته وتقاليده التاريخية. فهذه هي الأشياء التي تستحق في رأيي أن يحيا وأن يموت من أجلها الانسان وليس من أجل قطعة من الأرض تتحد بها روح الانسان الى حين».

كان اقبال دائماً يتخذ موقفاً متشدداً ضد التمييز العنصري وقد عبر عن رأيه القاطع في هذه القضية بهذه الكلمات..

«كل من يدعو الى التفرقة بين البشر بسبب اللون أو الجنس سوف يهلك».

أو كما كتب في كتابه «**رسالة الشرق**».

لا تقولوا أفغانيين أو أتراك أو أبناء التتار
فنحن أبناء حديقة واحدة وأرومة واحدة
نحن جميعاً أبناء ربيع واحد



لوحة لكتاب اقبال «جاويد نامه» للفنان صادقين

وقد أوضح اقبال في كتاباته النثرية موقفه من التمييز العنصري، ففي مقالة من مقالاته يكتب:

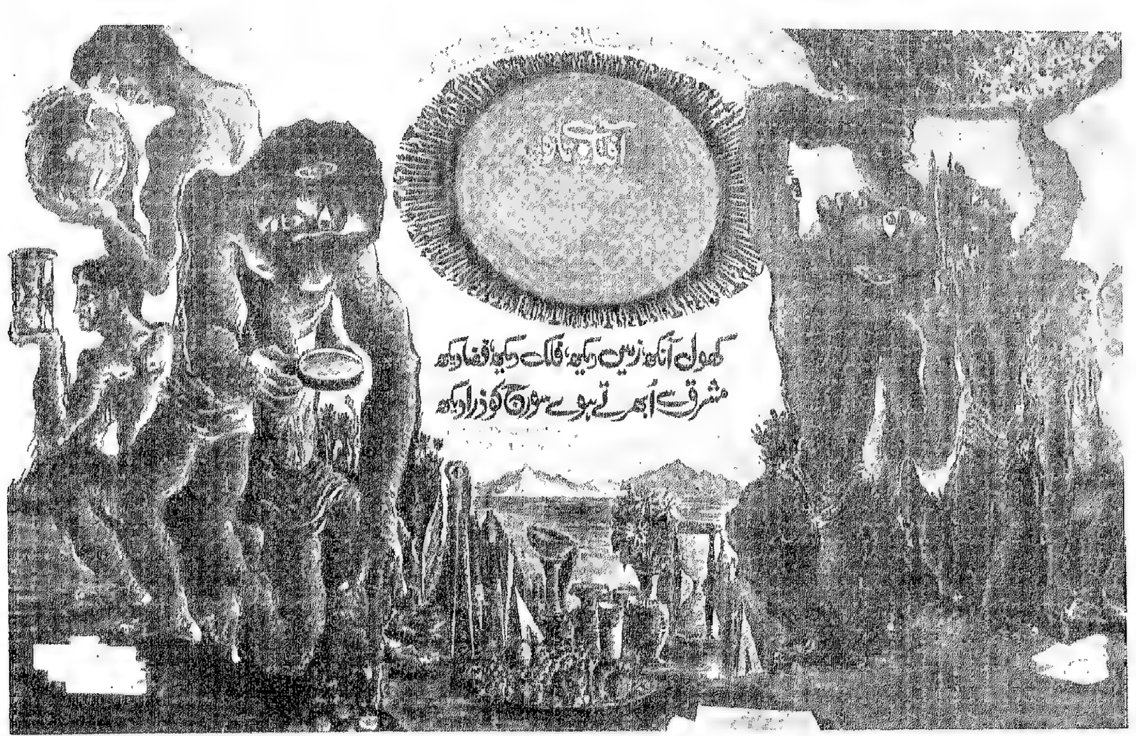
«يعارض الدين الاسلامي بشدة فكرة التفوق العنصري ويعتبرها أكبر عقبة في طريق التعاون العالمي والوحدة بين الشعوب. ان الدين الاسلامي والتمييز العنصري متناقضان تماماً. وفكرة التفوق العنصري هي أكبر عدو للجنس البشري وعلى كل من يقف في صف الجنس البشري أن يقف بحزم ضد مروجي هذه الفكرة».

وتزايد كره اقبال للتمييز العنصري وازدياد احتقاره للقوى الأوروبية الغربية التي تسانده، عندما قامت ايطاليا الفاشية بغزو أثيوبيا في عام ١٩٣٦. وفي كتابه الموضوع بالفارسية تحت اسم «بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» **«ماينبغي أن نعمل يا أمم الشرق»**، عبر اقبال عن سخطه العميق على تصرفات الحكام الايطاليين. وفي صفحات عديدة من هذا الكتاب عبر عن ايمانه بأنه من الضروري وضع نهاية للإمبريالية ــ هذا النظام الذي سمح بارتكاب مثل هذه الجرائم دون عقاب. وأدان بشدة أيضاً مسلك الدولة الأوروبية الأخر في التباطوء في وقف العدوان على أثيوبيا والاكتفاء بادانته في عصبة الأمم وفرض بعض العقوبات على ايطاليا. وطبقاً لرأيه فإن الدول الأوروبية في عصبة الأمم فضلت أن تساير ايطاليا، وتتيح لها فرصة غزو أثيوبيا كي تشاركها في الغنائم فيما بعد.

وبقدر كاف من الفطنة السياسية لإدراك مغزى هذه الأحداث المحزنة، أخذ اقبال يثير المسلمين في الهند للاتعاظ من مأساة أثيوبيا، فقد تبين له أنه لا يرجى خير من عصبة الأمم أو من الدول الممثلة فيها الذين شبههم بأنهم «ناهبو القبور».

وكان اقبال يرى أن النظام الاستعماري الذي أتاح للدول المتقدمة أن تقمع الدول الأقل تطوراً يمثل انتهاكاً صارخاً للعدالة، فادانة النزعات الاستعمارية التوسعية يتردد في شعره في هذه الفترة من عام ١٩٣٤، وكتب اقبال قائلاً:

دولة ترعى في مراعي دولة أخرى
ودولة تزرع الحب الذي يحصده غيرها.
وتعلمنا الفلسفة أن الخبز يسرق من يد الضعيف



رسوم لاشعار اقبال الاردية

وممن تكرى روحه بعيداً عن جسده،
قانون المدينة الحديثة،
الذي يخفي نفسه خلف ستار التجارة.
(«ماذا ينبغي أن نعمل» ٣٨)

لقد كان سخط اقبال على عملية غزو الحبشة شديداً لدرجة أنه كان يردد هذا الموضوع من وقت لآخر. وفي كتابه المسمى (ضرب كليم) «**شريعة موسى**» عدة قصائد كرسها اقبال لهذا الغرض. ففي قصيدته المسماة «أثيوبيا» يدين اقبال الدول الغربية في سعيها لفتح أسواق جديدة وتكالبها على تقسيم الدول الى مستعمرات لها ويقول أن هذه الفعال لابد أن تشعل نيران حرب عالمية ثانية. وفي هذه القصيدة يشبه اقبال أثيوبيا «بجثمان» مصاب بالسموم تريد دول الغرب أن تتقاسمه، كما تفعل الغربان (جمع غراب) بالغنيمة:

وعندما علم اقبال بأن عصبة الأمم قد صوتت ضد ايطاليا كتب قصيدة بعنوان «**موسوليني**» تعطي انطباعاً لأول وهلة بأن اقبال مؤيد لعملية غزو الحبشة. ولكن القراءة المتأنية لهذه القصيدة توضح بجلاء ادانة اقبال أيضاً للامبريالية الأوروبية ــ التي مهدت طريق الاستعمار في وقت سابق على موسوليني ــ بقدر ادانته لديكتاتور ايطاليا الفاشي نفسه. «فالدوتشي» في رأي اقبال قد سار في طريق سبق تمهيده بواسطة الانجليز والفرنسيين والبلجيكيين والبرتغاليين في القرون الماضية. وقد رأى اقبال أن موسوليني يتسم بعدم الرياء عندما لم يضف على نظامه سمات الديموقراطية لخداع بقية الدول. وكان اقبال يعتقد أن الديموقراطية البرلمانية والفاشية لهما هدف واحد هو استعباد الشعوب البسيطة الطيبة في قارتي افريقيا وآسيا وامتصاص دمائهم.

«ما هي الجرائم الموسولينية التي لم يعرفها العالم من قبل؟
لماذا الاصرار على اغراق أوروبا الطيبة في مثل هذا الغضب الأحمق؟
لقد سلبتم خيام البدو الرحل وهي كل ثرواتهم لقد سلبتم التاج والعرش،
وكنتم المطاردين والقتلة بطريقة متمدنة.
وما كنتم تدافعون عنه أمس أدافع أنا عنه اليوم».
(ضرب كليم ١٥١)

ومع ازدياد شدة التوتر العالمي، بدأ اقبال

يتحقق من أخطار نشوب حرب عالمية جديدة. وقد أدان اقبال اعتداءات الدول الامبريالية وانشغالها بعمليات التسليح لاغراق العالم في بحر من الدماء.

«ليتخل عن هذه الحروب الصليبية
هو الذي تهدد قبضته الملطخة بالدم كل الأرض.
فأوروبا المغطاة من الرأس الى القدم بالدروع،
تحرس في يقظة تسلطها البراق الكاذب».
(ضرب كليم)

كان اقبال هلعاً من فكرة اندلاع حرب عالمية ثانية، ففي قصيدة هجاء للحرب العالمية الأولى كتب اقبال في عام ١٩٢٤ محذراً من منظر قتل الناس بالجملة واطلاق القنابل عليهم. وقد أدرك جيداً أن الوقوف ضد التوسع الأوروبي الامبريالي يمثل ضرورة حيوية، فالاستسلام والاذعان لا يتفقان مع روح فلسفته، بل هو على نقيض ذلك يؤمن بالنضال المسلح في مواجهة الشيطان، وكانت دعوته للفعل باسم «الجهاد». وكان يرى أنه يجب ألّا تتاح الفرصة لأية دولة أوروبية لتملك القوة التي تتيح لها التوسع العسكري:

«اذا كانت حرب الشرق غير مقدسة،
فهل حرب السلاح الغربي هي المقدسة؟
واذا كانت الحقيقة هي هدفكم، فهل هذا هو الطريق السليم..
ان تباركوا أخطاء أوروبا.. وتضعوا الاسلام تحت المجهر؟»

(المرجع السابق ٦٣)

وفي نقده للحضارة الأوروبية أعلن اقبال في مرات كثيرة عن رفضه لنظام الديموقراطية البرلمانية. كان يؤمن أن النظم الجمهورية في بعض الدول لا تتعدى أن تكون حكومات شعبية بالاسم فقط وفي مجموعته الأولى بانك درا (صلصلة الجرس) يكتب:

«ان مارد الاستغلال يرقص في حلة النظام الجمهوري،
وعليك أن تتخيل أنه حسناء الحرية.
المؤسسات، الاصلاحات، الامتيازات والحقوق،
هي المخدرات الحلوة في الطب الغربي».
(بانك درا ٢٩٦)



موسوليني

وبالمثل رفض اقبال أفكار القوميين الهنود وفكرة «المؤتمر القومي لكل الهند». وقد عظمت معارضته بعد اعلان الدستور الجديد عام ١٩٣٥.

وقد ظهر عامل جديد في الحياة السياسية في الهند تحت الاحتلال البريطاني في العشرينات والثلاثينات وهو بزوغ طبقة عمال الصناعة وأصبحت أفكارهم ومعتقداتهم عاملاً سياسياً جديداً يؤثر في طبيعة النضال من أجل التحرر. فقد أثرت الأفكار الاشتراكية بدرجات متفاوتة على الشباب والجماعات اليسارية في الحركة القومية للهند وفتحت أمامهم آفاقاً جديدة. فانجازات الدولة السوفيتية الفتية بدأت تعرف في الهند، وتأسس الحزب الشيوعي في الهند عام ١٩٣٣ بعد توحيد المجموعات الشيوعية السابق تكوينها في الأقاليم المختلفة. ولكن الحزب الشيوعي في الهند اعتبر بعد عام واحد غير قانوني، وكان عليه أن يمارس نشاطه في الخفاء.

وكان اقبال دائماً يفكر من أجل الرجل الفقير كما يفكر في الأمم الفقيرة. وبدأت المشكلة الاجتماعية تلح عليه بشدة، كانعكاس لتأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى في القارة الآسيوية. وكان اقبال أول شاعر يتحدث عن معاناة الطبقة العاملة في الشعر الأردي، وقد بدأ

يستخدم في وعي مصطلح الرأسماليين (**سرماية دار**) للتفرقة بينهم وبين العمال (**ناردا**). ولكن الاشتراكية كمذهب اجتماعي في تحليلها المنهجي ظلت بعيدة عن دائرة ادراكه.

حقيقة انه طوال حياته كان يؤكد على عناصر العدالة الاجتماعية والأخوة بين البشر ولكنه بحث عنها في العصر الأول النقي من ظهور الاسلام.

كان اقبال يحلم بوحدة تضم الدول الاسلامية في ظل شكل ما من الاتحاد يربط بينها عن طريق الايمان المشترك ووحدة العقيدة. وطبقاً لكلمات كيرنان (V. G. Kiernan) الذي ترجم أعماله و«ان اعتقاده في الأخوة النابعة من الدين يرجع الى أنه كواحد من الطبقة المتوسطة كان قريباً بدرجة كافية من طبقة ملاك الأرض والنبلاء التي تعلو طبقته، وكذلك من طبقة العمال والفلاحين التي تقل عن طبقته، ولهذا كان في مقدوره أن يتأمل الحياة من وجهة نظر كل منهم.

كانت فكرته المثالية عن المساواة والوحدة بين البشر ومبدأ توزيع الموارد وفقاً للاحتياجات هي التي جذبته نحو الاشتراكية. ولكنه «من جهة إخرى كان بغير وسعه قبول النظرة المادية للعالم، التي لا مناص من أن ترتكز عليها الاشتراكية الحقيقية. ولا نستطيع في الوقت الحاضر أن نوضح الى أي مدى قد تعمق اقبال في دراسة المنهج الاشتراكي، على الرغم من أن من يكرس مثل هذا الجهد لدراسة الفلسفة الأوروبية واتجاهاتها يفترض فيه أنه قرأ على الأقل كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وربما بعض المؤلفات النظرية الأخرى.

يعترف اقبال بأنه لا يعرف الشكل الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الأفضل الذي يتمناه. وببساطة يدعو الى مجتمع يكون الأساس فيه العدالة الاجتماعية، وليس من الضروري أن يكون اسلامياً كلية. ولم يتساءل اقبال عما اذا كان في مقدرة الاسلام أن يكون قوة موحدة لمجتمع دولي أو أن منهجاً آخر قد يحقق ذلك بنجاح أكبر. وقال اقبال ذات مرة:

«اذا كنت حاكماً لدولة اسلامية فقبل كل شيء ومنذ البداية سوف أخلق منها دولة اشتراكية».

(نقلاً عن سميث (W. C. Smith):
«الاسلام الحديث في الهند» ٢٧ ص ١٣٢)

والافصاح عن هذه الدعوة ظل بمنأى عن الثورة الاجتماعية وعن سيطرة الطبقة العاملة. ولم يكن اقبال راضياً على الحالة الاجتماعية القائمة، وكان يتطلع الى التغيير، وبالرغم من دعواته المتكررة للثورة، فلم يكن يعرف كيف يمكن أن تنطلق الثورة، فهنا أيضاً نصادف ذلك التناقض المعروف بين الفكر والفعل عند اقبال. كان اقبال يفكر في الثورة كقوة سرية مبهمة تبزغ فجأة بسبب عوامل مجهولة، وبضربة تغير العالم الى حالة أفضل. وتحدث عنها كثيراً بطريقة رمزية. ولم ير اقبال أصلاً أن الثورة نتيجة ضرورية للتطور الاجتماعي ولم يوضح أصلاً أية طبقة اجتماعية سوف تفجرها، ولكنه توقع فقط قيامها في وقت قريب:

أوروبا هي الموت لروح الانسان، وآسيا هي
الموت لارادة الانسان: وكلاهما لا يشعر بالحياة.
في قلوب الناس يشع تيار الثورة
وربما كان عالمنا القديم أيضاً
يقترب من حتفه

(«ضرب كليم» ١٣٩)

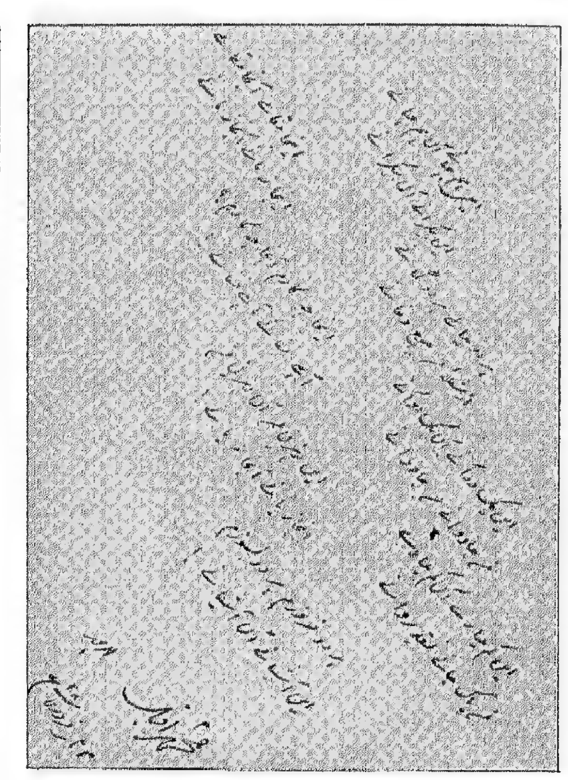
كثيراً ما نظر اقبال الى النظام الجائر للمجتمع البشري كنظام لا يمكن تأييده أو الدفاع عنه، ودعا الى تغييره. ولكن من سيغيره: قوة ثورية غير معروفة الهوية:

السيد يحول الدم في عروق العمال الى ياقوت
صاحب الأرض الظالم يدمر ما بذره الفلاح
الثورة! الثورة! الثورة!

(«زبور عجم» ١٣٤)

وكان اقبال بكل تأكيد واحداً من أوائل الشعراء في آسيا الذين احتفوا بانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وعندما استقرت الأمور للسوفييت في روسيا وتدعمت، كان رد فعل اقبال قصيدة باسم «**رأس المال والعمل**» وفي هذه القصيدة دعا اقبال الطبقة العاملة في الشرق وفي الغرب لاتباع المثال السوفيتي والتحرر من أغلال الرأسمالية:

الى العامل الكادح أذهب، واليه أتوجه برسالتي:



قصيدة بخط يد الشاعر من «زبور عجم».

الكلمات ليست كلماتي وحدي، انها رسالة تملأ أركان العالم الأربع.
آه، ان رجل رأس المال الخبيث قد التهم لحمك وجلدك.
لقد ضاع عرقك، منذ زمن، بين قرون الغزال المتوحشة.
لكن تعال الآن. لأن السبل تتغير في أنحاء الأرض،
ففي الشرق والغرب أيامك تشرق
ومن رحم هذا الكون العجوز تشرق
شمس جديدة حمراء من أجل النجوم المطفأة
وأنت أيتها السماء، الى متى سوف تنوحين؟
(«ضرب كليم» ٢٩٧ ــ ٢٩٨)

وتشبيه ثورة أكتوبر بالشمس الجديدة، ظهر أيضاً في أشعار اقبال الموضوعة في اللغة الفارسية. ففي مقدمة منظومته المثنوية «**كلشن راز جديد**» (حديقة السر الجديدة) عاد الى هذا الرمز ثانية:

رأيت ثورة من نمط آخر:
بزوغ شمس جديدة
(«كلشن زار جديد» ١٥/١٦)

وبدأت السمات الجديدة التي ظهرت بها حركة التحرير القومية للهند في العشرينات نتيجة اشتراك الطبقة العاملة، بدأت تنعكس في شعره في ذات العقد، خاصة في ديوان «**بيام مشرق**» (رسالة المشرق). وقد اهتم اقبال اهتماماً كبيراً بوضع الطبقة العاملة ودافع عن حقوقها. وقادته فلسفته الى رفض التفاوت بين الطبقات، وأدان بشدة ذلك التناقض الشديد المتمثل في عوز العمال واسراف السادة.

في قصيدته «**أغنية العامل**» أشار الى صانع القيمة ــ أي العامل ــ الذي يستغل بدون وجه حق بواسطة السيد الذي يتكاسل فحسب:

في غضبي وخرقي البالية أكدح كعبد مدفوع الثمن.
ولهذا يستطيع سيدي الكسول أن يزين نفسه بالحرير
ومن عرقي يبتاع المتسلط ياقوتاً لخواتمه
ومن دموع طفلي يزين الأمير بيته باللآلي.
(«رسالة المشرق» ٢٥٧)

كان اقبال يعتقد بأن العمل الخلاق فقط هو الذي يمكن أن يكون أساساً لحياة سعيدة، وأن طفيلية الرأسماليين تمثل عبئاً على أكتاف الانسانية، وقد عبر اقبال عن اعتقاده في شكل قاطع في قصيدته المسماة «**حوار بين الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت وأحد العمال**»:

الرأسمالي يجلس ثقيلاً على أكتاف الأرض،
آكلاً نائماً ليس عنده ما يفعل ولا يعرف الحزن.
ثروة العامل تخلقها فقط يد العامل
ألا تدرك أن هذا الرأسمالي الكسول هو في الحقيقة لص؟
(«رسالة المشرق» ٢٤٤ ــ ٢٤٥)

وقد اعتنق اقبال هذه الفكرة، من شرحه الشاعري لفكر هذا الفيلسوف الفرنسي الوضعي أوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧)، الذي نادى بأن الانسان في أعماقه يسعى الى المشاركة والتوافق بين كل أعضاء المجتمع الانساني.

قد أوضح اقبال أسس اعتقاد كونت في أن المجتمع الانساني يجب أن يخضع الطبيعة وقوانينها التي تحدد مكانة كل فرد وعمله بحيث تنحصر الحرية الفردية في مجال محدود. فالعامل


اوغست كونت		ماركس

في هذه القصيدة ينتقد ذلك المبدأ القائل بثبات نظام المجتمع، وينتقد الفيلسوف الذي لايرى غير هدف واحد للحكمة، وهو ستر الاستغلال الرأسمالي.

ينتمي اقبال الى طبقة البرجوازية المسلمة الصغيرة، ولم يكن في مقدوره أن يرى العامل ومشاكله من جهة نظر الطبقة العاملة. لقد تحقق اقبال، حقيقة، من بؤس واستغلال العمال من جهة، ومن رفاهية رجال الأعمال من جهة اخرى، وكانت هذه اللامساواة تثير معارضته بشدة. وكان يشير اليها مراراً ولكنه لم يقدم أي برنامج لحلها أو لرفع الظلم عن البؤساء وفي قصيدته «**نصيب الرأسمالي والعامل**» أشار الى هذا التناقض الشديد بين نصيب العامل والرجل المستغل:

أنا أظفر بطرق الحديد وبضوضائه الخشنة،
وأنت تظفر بالاستماع الى الأرغن في المعبد.
أنا أمتلك هذا الجسد ومعدته،
بينما أنت تمتلك كل شيء يمتد من الأرض حتى السموات.

(«رسالة المشرق» ٢٥٥ ــ ٢٥٦)

وعلى الرغم من ادانة اقبال للاشتراكية كنظام اجتماعي مادي وغير مؤمن، فقد كان اقبال يكن احتراما عظيما لمؤسس الاشتراكية العلمية كارل ماركس. وكان يشير اليه كمبشر بنظام جديد مؤسس على المساواة بين كل البشر، وقد نظر اليه كنبي ورأى كتابه «رأس المال» ككتاب مقدس يحتوي على مبادىء نظام جديد عادل للمجتمع.

(«رسالة الخلود» ٦٩)

وفي موضع آخر يتوسل اقبال الى روح ماركس أن تجهر مستنكرة نظام الاستغلال في أوروبا الغربية، ويدع ماركس يهاجم الاقتصاديين الأوروبيين الذين يخفون عمداً البنية المستغلة للنظام الرأسمالي ويسخرون العلم فقط لتلبية احتياجات الطبقة الحاكمة:

أيها الاقتصاديون الحكماء ماذا يوجد في كتبكم المقدسة؟
ملهاة ذات منحنيات محكمة، من نوع دعوة البرامكة.
في مزارات الغرب الوثنية،
وعلى منابرها وفي مراكز التعليم بها،
الشراهة، وجرائمها الفتاكة مقنعة،
خلف ملهاة احتفالكم الخبيثة.

(«ضرب كليم» ١٣٩)

وعلى الرغم من أن اقبال في سنوات حياته الأخيرة قد كرس اهتماماً منتظماً للاشتراكية الا أن اهتمامه ظل مركزاً في اعتقاده الديني الثابت أن الأساس الاقتصادي للاشتراكية يتفق مع تعاليم القرآن.

كذلك كان اقبال يعتقد أن الاسلام والاشتراكية لهما نفس الهدف، وهو ضمان العيش لكل الناس، ولم تتغير أفكاره في هذا الصدد. وعلى أي حال فقد اختلط على اقبال الفارق بين النظام الاشتراكي وبين أفعال الاحسان في الدين كما أوصى به الاسلام، الذي ــ أي فعل الخير ــ ليس من شأنه القضاء على جذور الحيف وعدم المساواة. وفي قصيدة «اشتراكية» يورد اقبال بمعنى جديد جزءاً من آية «الزكاة» الشهيرة: «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» (سورة البقرة ٢/ ١٩):

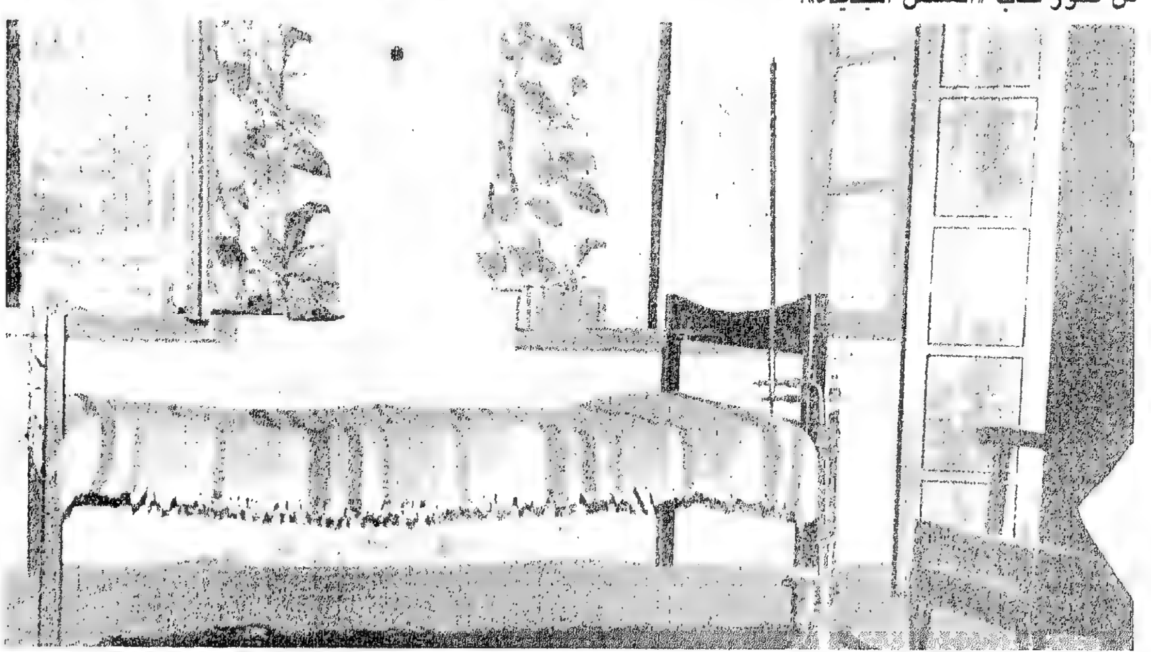
من سلوك الأمم يتضح
أن تقدم روسيا السريع ليس بلا ربح.
وربما أظهر التقدم في هذه اللحظة، الحقيقة المخبأة في هذه الكلمات «قل العفو»

(ضرب كليم ١٣٨)

طالب اقبال باشتراكية اسلامية للمسلمين. وقد وصف الألحاد بأنه الشرخ الأساسي في النظام الاشتراكي في روسيا، على الرغم من أنه سلم بأن الاتحاد السوفييتي قد أكمل الى حد ما وعن غير قصد عملاً من أعمال الله. وكان يعتقد أن الالحاد السوفياتي لم يجىء الا نتيجة فشل الكنيسة الأرثوذكسية القديمة وفسادها. وفي

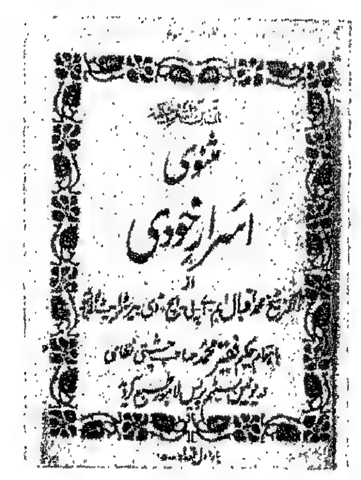


من صور كتاب «الشمس الجديدة».



غرفة نوم اقبال ــ هنا قضى اقبال اعوامه الأخيرة، على سرير المرض وفي التأمل.

قصيدة روسيا البولشفية يقول:
المراسيم الالهية، الخفيفة، تتحرك
من يدري أية أفكار تضرب بعمق في عقل
الكون!
هؤلاء المكلفون بالهدم، الذين اعتقدوا متأخراً
أن الخلاص
أن يحموا القساوسة؟
على روسيا الكافرة تهبط هذه اللعنة:
لتهوى وحوش الكنيسة وكل الآلهة المزيفة؟
(«ضرب كليم» ١٤٣)



غلاف كتاب اقبال: «اسرار خودي»

ولاقتناعه أن النظام الاشتراكي الذي حقق المساواة والعدالة لكل الناس لا يمكن أن يكون غير مؤمن، فإن اقبال في رسالته الى الأمة الروسية «رسالة الخلود» يسأل شعب الاتحاد السوفيتي أن يكف عن انكار الله وأن يبدأ حياة دينية. ولأول مرة يستخدم هنا تعبير «لا» و«الا» الذي يتكرر بشكل أكثر في أعماله اللاحقة. فـ «لا» العربية هي أداة نفي في شهادة المسلم بايمانه «لا اله». وتعني السقوط النهائي لكل الهرطقة والسلطان الدنيوي أما «الا» فهي تكون الجزء الايجابي في الشهادة «الا الله» وتعني لدى اقبال الحاجة الى الاعتقاد في اله واحد والايمان به كحاكم أعظم وتقديسه. واعتقد اقبال أن الشعب السوفياتي قد حقق بالفعل الجزء الأول من الشهادة باسقاطه النهائي لحكامه، ورأى اقبال أنه قد حان الوقت بالنسبة للسوفيات أن يعرفوا الله كسلطان أعلى لهم:

لقد انتهيتم الآن من السادة
انتقلوا من «لا» واتجهوا صوب «الا»

(«جاويد نامه» أو «رسالة الخلود» ١٤٣٧)

وفي رسالته الى الأمة الروسية يشرح اقبال أفكار الاشتراكية الاسلامية، وهي نظرية اجتماعية فلسفية كانت ولا تزال رابحة بين قسم من المثقفين المسلمين، وتركز النظرية على الجوانب الاشتراكية في التعاليم القرآنية موضحة أن المساواة بين كل الناس لا تتطلب ثورة أو اعادة تنظيم اقتصادي في المجتمع الانساني وأن التمسك الدائم بتعاليم القرآن كاف للوصول الى الهدف. وقد أقام بعض المثقفين اعتقادهم أساساً على آيات القرآن التي تدين السادة الأغنياء وتدافع عن العبيد وتحض على فعل الخير وتقديم الزكاة. ويستشهد كثيراً في هذا الخصوص بالآية القرآنية «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ــ البقرة ٢/٢١٩ ــ والآية الأخرى التي تقول:

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون..»
ــ آل عمران ٣/٩٢ ــ

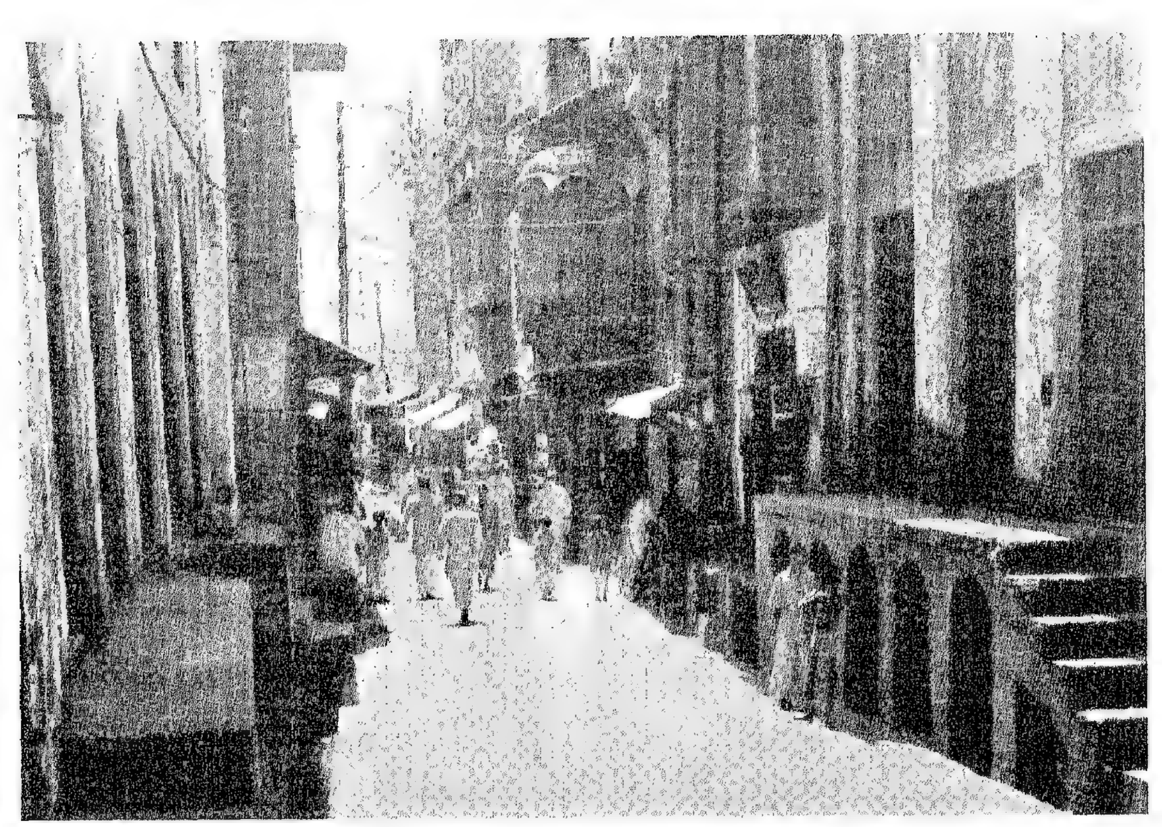
فالاشتراكية الاسلامية تعلي من شأن فعل الخير معتمدة على الارادة الطيبة للأفراد الأغنياء بدلاً من مبدأ عدالة التوزيع. وقد حاول اقبال أن يثبت أن مبدأ الاشتراكية الذي تحقق بالفعل في الاتحاد السوفيتي هو مبدأ وثيق الصلة بالمبادىء القرآنية، وبالتالي فليس ثمة صعوبات أمام قبول الشعب السوفيتي الاعتقاد في الله والاسترشاد بالقرآن وقوانينه:

ان الله أمر المسلمين، أن ضعوا أرواحكم
على أكفكم.
أعطوا كل ما تملكون فوق احتياجاتكم
لقد خلقتم قانوناً جديدا ونظاما،
تأملوه قليلا،
في ضوء القرآن.

(«رسالة الخلود» ١٤٨٩)

لكن من الواضح أن اقبال لم يأخذ هذا النقاش مأخذ الجد، ولم يقصد بالتأكيد دعوة الشعب السوفيتي الى اعتناق الاسلام. أنها كانت بالأحرى طريقة لاثبات أن المبادىء الاشتراكية مثل تلك التي يتضمنها القرآن يمكن أن تطبق في العصر الحديث.

ان نقد كل أشكال الانتهاك والاستغلال التي يمارسها الانسان ضد الانسان ونقد النظم الرأسمالية، والتعاطف مع العمال، كل هذا يرد في كتابات اقبال مقترناً بعقيدة ثابتة بضرورة اقامة علاقة حب بين الشعوب. ان العقيدة الدينية القوية جعلت اقبال غير قادر على الابتعاد عن فكر طبقته وعلى وضع شعره في خدمة الحركة الثورية للعمال والفلاحين كما فعل بعض المسلمين من معاصريه (على سبيل المثال «شاعر الثورة» ــ جوش مليها بادي) لم يكن



بازار الحكمة ــ هنا قرأ أشعاره الجديدة على صديقيه شهباز دين، وحكيم أمين الدين.

اقبال أبداً قائداً للجماهير. كان شاعراً مثقفا وفيلسوفا، مرتبطا عاطفيا بالنظام الاقطاعي القديم الذي أراد على أساسه أن يبني مستقبلاً اشتراكيا مثاليا، لقد أحس بقوة بالقمع الواقع على الطبقة العاملة، لكنه ظل بعيدا عنها. وكثيراً ما كان ينتقد الظلم الاجتماعي، ويدين النظام الرأسمالي الذي يتفشى فيه هذا الظلم. ولكنه في الواقع العملي قد سعى لتأمين النمو المطرد للعمل الرأسمالي. وفي بداية الثلاثينات دعا اقبال الى اقامة وطن مستقل للمسلمين الهنود (وهو ما أصبح فيما بعد مطلب تأسيس دولة باكستان) والى تحديد مجالات النفوذ تحديداً عمليا ييسر للبرجوازية المسلمة أن تمارس نشاطها الرأسمالي دون عوائق.

حاولت في السابق أن أبين عدم الاتساق الأساسي الذي يميز حياة اقبال وفلسفته. وعدم الاتساق هذا لا يلازم شخصية اقبال فحسب، وانما يسم الفترة التي عاش فيها، فهو كشاعر ومفكر وقف على الخط الفاصل بين حقيقتين ــ المجتمع الاقطاعي القديم والرأسمالي الحديث ــ وقد انفصل جزئياً عن الاثنين، لكنه فيما يختص بالأفكار التصق بالأولى، بينما من الوجهة العملية التصق أكثر بالثانية. لقد كانت الاشتراكية في عصره ايديولوجية الحقبة الجديدة القادمة في التاريخ الانساني، أيديولوجية طبقة اجتماعية لم يعرفها اقبال ولم يثق بها. كان اقبال ممثلاً نموذجياً للبرجوازية الهندية وفوق كل شيء لمثقفي الطبقة المتوسطة المسلمة. وقد عبر في شعره عن آمال هذه الطبقة ومطالبها وقدم لها المثل التي تخدم حاجاتها الموضوعية. وقد نجح الى حد ما في الاسراع بحركة انتقال المسلمين الهنود من النظام الاقطاعي الى مجتمع برجوازي، وأسهم بذلك بشكل غير مباشر في تمهيد الأرض للتقدم في المستقبل نحو نظام اجتماعي أفضل وأكثر عدلاً..

●

غزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي

الحلقة الأولى



حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فتاقت نفوسهم الى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى حافته، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس»(٣).

وبسبب موقف الخليفة عمر من اصطناع الأسطول، انصرف الاهتمام الى تحصين المدن الساحلية وترميم حصونها القديمة التي تركها العدو، وسميت «أخائذ»(٤)، كما أنشأوا «مناظر» كانت تتخذ للمواقيد والحفظة والمرابطة وحمايتها من غارات الروم المفاجئة. وكان معاوية قد كتب الى الخليفة يصف له حال الساحل، فكتب اليه في مرمّة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، واقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها. ولم يأذن له في غزو البحر(٥).

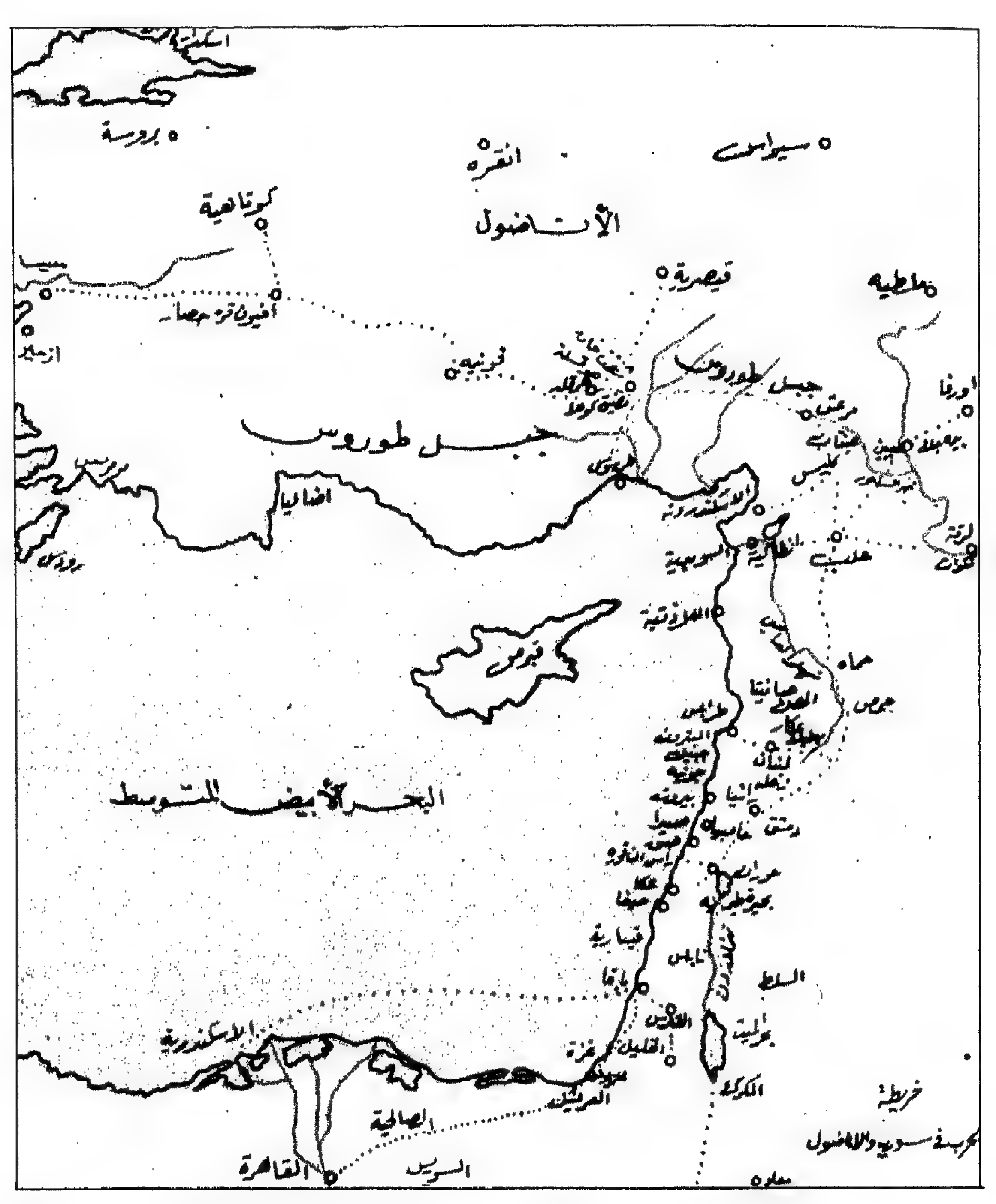
وحدث في أواخر أيام الخليفة عمر وأوائل أيام الخليفة عثمان أن غمرت موجة بيزنطية الساحل الشامي، وعمل البيزنطيون على تثبيت أقدامهم في مدن الساحل والتشبّث بها، بفضل أسطولها البحري، وألحقوا هذه الموجة بحملة بحرية، استطاعوا أن يستعيدوا فيها مدينة الاسكندرية سنة ٢٥هـ/٦٤٥م. ووجد معاوية أن من الضروري اصطناع أسطول بحري للوقوف في وجه الخطر البيزنطي، والدفاع عن سواحل مصر والشام، وحماية المياه العربية، بله ضرب الأراضي البيزنطية نفسها لتأديبها ولمنع الغارات العدوانية التي تقوم بها.

واذا كان معاوية قد فشل في الحصول على موافقة الخليفة عمر على ركوب المسلمين البحر، فإنه نجح في اقناع الخليفة عثمان بعد لأي، رغم أن عثمان كان محتزراً في قراره بالموافقة، اذ قال لمعاوية: «لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»(٦).

بناء معاوية للأسطول:

وهكذا شرع معاوية ببناء أسطول اسلامي في مواني الشام ومصر، معتمداً على العناصر التي كانت لها دراية وخبرة في هذه الصناعة من سكان الساحل الشامي، وفي مصر من القبط، بالاضافة الى عناصر فارسية استقدمها الى السواحل. وبذلك تكون الأسطول الاسلامي. فكانت أسلحة رجاله لاتختلف عن أسلحة الجند في البر، اذ كانوا يتمنطقون بالخناجر والسيوف، ويحملون القسي والحراب والنبال، كما كانت المراكب تشحن بالحجارة لرميها على الأعداء، الى جانب الحبال التي ينتهي طرفها بكلاليب لقذفها على السفن المعادية والالتصاق بها لجذبها ومنعها من التحرك أو المناورة.

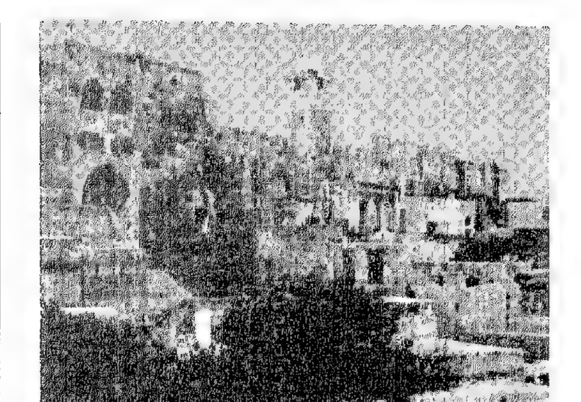
واذا كان عثمان قد وافق على انشاء الأسطول نزولاً عن الحاح واصرار معاوية، فإنه قد استمر في وضع القيود أمامه، ومن هذه القيود أنه اشترط عليه في حملته على جزيرة قبرس أن يأخذ معه زوجته، وعلى من معه من القادة المسلمين أن يصطحبوا زوجاتهم كذلك(٧). وكانت غزوة قبرس هي باكورة أعمال العرب الحربية في البحر الأبيض المتوسط «اذ لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها»(٨). ولقد كتب معاوية الى أهل السواحل فأمرهم بإصلاح المراكب التي غنمها المسلمون من الروم عند الفتح، وتقريب تلك المراكب الى ساحل حصن عكا بفلسطين، وكان معاوية أمر بترميمها وترميم مدينة صور(٩). وخرج من ميناء عكا في حملته الأولى على الجزيرة في سنة ٢٨هـ/٦٤٩م(١٠). على رأس أسطول ضخم، ومعه من الصحابة: «أبوذر الغفاري» و «عبادة بن الصامت» وزوجته «أم حرام بنت ملحان»، و «المقداد بن الأسود»، و «شداد بن أوس»، و «أبو الدرداء الأنصاري»، وكان هذا الأخير ممن رابط في بيروت. وانتهت هذه الحملة بعقد صلح بين أهل الجزيرة والمسلمين، على أن يؤدوا سبعة آلاف دينار سنوياً للمسلمين، ويؤدوا للبيزنطيين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على أن لايغزوهم، ولا يتحمل المسلمون الدفاع عنهم أمام عدوّ يهاجمهم، ولكن على القبارسة أن يبادروا الى اخطار المسلمين في حال مسير عدوهم اليهم من الروم، ويتولى المسلمون وضع بطريق منهم ليحكمهم(١١). ولكن أهل الجزيرة أخلوا بشروط هذا الصلح، فهاجمها المسلمون



في سنة ٣٣هـ/٦٥٤م. وفتحوها عنوة، ونقل اليها معاوية جماعة من أهل بعلبك وبنى بها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية الى أن توفي، وولي بعده ابنه يزيد فأعاد البعلبكيين وغيرهم من أهل الديوان وأمر بهدم المدينة(١٢).

وكان حظ جزيرة أرواد الشامية، الواقعة تجاه أنطرطوس، مثل حظ جزيرة قبرس، اذ تعرضت لحملتين كانت أولاهما بعد الحملة الأولى على قبرس سنة ٢٩هـ. انتهت بعقد معاهدة مع أهلها. أما الحملة الثانية فكانت في السنة التالية، وتم فيها فتح الجزيرة بالقوة واحراق عاصمتها وقلعتها(١٣).

وفي سنة ٣٣هـ/٦٥٤م. هاجم المسلمون جزيرة رودس، واستولوا عليها بالقوة. كما



جزيرة أرواد

أغاروا على جزيرة اقريطش (كريت) وأنزلوا الخسائر بالأسطول البيزنطي[١٤]. على أن المسلمين توجوا نشاطهم البحري بالانتصار الرائع في الموقعة التي اشتهرت باسم «ذات الصواري»، والتي ما تزال حتى الآن تعتبر من أهم المعارك البحرية الفاصلة في التاريخ، وبعدها أصبح بحر الروم يعرف ببحر الشام عند الساحل الشرقي. وقد برز في هذه الموقعة من أمراء البحر الشاميين «بسر بن أرطاة» أو «ابن أبي أرطاة» الذي يرجح أنه خرج بأسطوله من ميناء طرابلس، وانضم الى أسطول مصر بقيادة «عبد الله بن أبي السرح» وكان غزاة البحر يتألفون من العرب اليمانيين والقيسيين، ومن القبط، والفرس، وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين، وكان معاوية في أول الأمر يغزي اليمنيين في البحر، ويغزي القيسيين في البر، فقال شاعر اليمن يقرّع بني قومه وعشيرته:

ألا أيها القوم الذين تجمعوا
بعكّا أناس أنتم أم أباعر؟
أنترك قيس آمنين بدارهم
ونركب ظهر البحر والبحر زاخر؟

فلما بلغت هذه معاوية بعث الى اليمن فاعتذر اليهم، وقال: ما أغزيتكم البحر الا لأني أتيمن بكم، وأن في قيس نكداً وأخلاقاً لا يحتملها الثغر، وأنا عارف بطاعتكم، ونصحكم. فأما اذ قد ظننتم غير ذلك فأنا أجمع فيه بينكم وبين قيس فتكونون جميعاً فيه، وأجعل الغزو فيه عقباً بينكم (أي نوبة ومبادلة)، فرضوا فعل ذلك فيما بعد[١٥].

الغزاة في عهد معاوية:

لما قتل الخليفة عثمان واختلف الناس، لم تكن للمسلمين غازية ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية سنة ٤٠ هـ. وسموها سنة الجماعة[١٦]. وما أن بويع معاوية بالخلافة في الكوفة ورجع الى الشام في سنة ٤١هـ. حتى بلغه أن ملك الروم زحف في جموع كثيرة، فخاف أن يشغله عما يحتاج الى تدبيره واحكامه، فوجه اليه فصالحه على مائة ألف دينار مع «حبيب بن مسلمة الفهري» والي الجرجومة. فكان بذلك أول من صالح الروم في سنة ٤١ أو أول سنة ٤٢هـ[١٧]. ولما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة، تصيف بها وتشتو ثم تقفل وتدخل معقبتها[١٨]. فكان المسلمون يخرجون للغزو في البر والبحر كل سنة. وقد فصل «قدامة بن جعفر» مواعيد الغزوات الصيفية والشتوية والربيعية على النحو التالي:

«ان أجهدها ممن يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً، وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً، وكأن داوبهم ترتبع ربيعاً ثانياً، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً، وهي بقية حزيران، وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر. ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً. فأما الشواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في أواخر سباط (شباط)، فيقيم الغزاة الى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون»[١٩].

● ولقد كان معاوية أول من غزا في البحر، واستعمل على البحر «عبد الله بن قيس الجاسي» حليف بني فزارة، وكان الخليفة عمر أول من استعمله على السواحل، حيث يذكر «الطبري» أن عمر لما قدم الشام قسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها، وسمى ذلك في كل كورة، واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، وكان ذلك في سنة ١٧هـ[٢٠]. ويفهم من هذه الرواية أن «عبد الله بن قيس» كان أميراً على مدن الساحل وثغوره أيام عمر، ثم أصبح غازياً في عهد معاوية، وقيل أنه غزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب. وقد ورد ذكره في حوادث سنة ٣٥هـ. صائفة، وفي سنة ٥٥هـ. خرج في غزوة شاتية، وفي سنة ٥٧هـ. شتا بأرض الروم وأصيب وحده في هذه الغزوة. وذكر الطبري أنه كان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى اذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى الى المرقى من أرض الروم وعليه سؤال يعترون بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت أمرأة من السؤال الى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى. قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد. فثاروا اليه فهجموا عليه فقاتلوا وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاّح حتى أتى أصحابه فجاؤا حتى أرقوا، والخليفة منهم «سفيان بن عوف الأزدي» فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل، فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت:

الغمرات ثم ينجلينا

فترك ما كان يقول ولزم: الغمرات ثم ينجلينا. وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي.

وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك ولم يقبض قبض التجار.. فعرفت أنه عبد الله بن قيس[٢١].

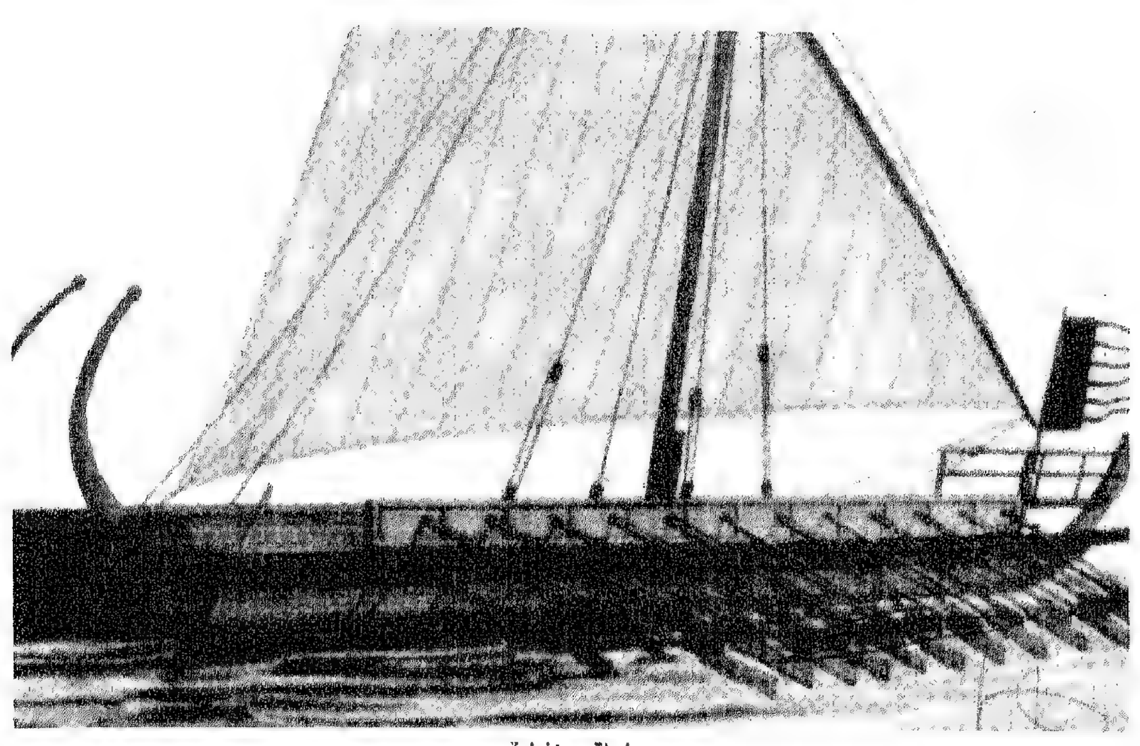
● وذكر «المنجي» أن «بسر بن أرطاة» كان أول من غزا الروم في خلافة معاوية سنة ٤٢هـ. فهزمهم هزيمة منكرة وقتل عدة من البطارقة[٢٢]. وعاد فغزاهم في البحر سنتين متواليتين، حيث شتا بأرضهم في سنة ٤٣هـ. حتى بلغ القسطنطينية، ثم في سنة ٤٤هـ.

● وخرج «عقبة بن عامر بن عبس الجهني» الصحابي المشهور لغزو رودس في سنة ٤٧هـ. وقام الروم، في مقابل ذلك، بغزوة وصلوا فيها الى السواحل في سنة ٤٩هـ.

ويلاحظ أن «البلاذري» لم يورد تفصيلاً لغزوة الروم هذه، كما لم يشر اليها غيره من المؤرخين المسلمين، وقد أشار اليها المؤرخ اليوناني «توافانس» المتوفي سنة ٨١٨م. فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح (٤٩هـ). دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة. وانضم اليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف».

ويبدو أن هذه الغزوة البيزنطية لم تلبث أن تراجعت دون أن تحدث أثراً هاماً، ولكنها نبهت معاوية الى ضرورة الاهتمام بتحصين المدن الساحلية، فأمر بعدها بجمع الصناع والنجارين، فجمعوا، ورتبهم في السواحل. وسير قواده لقتال الروم، فشتا بأرضهم «مالك بن هبيرة السكوني»، وغزاهم في البحر «يزيد بن شجرة الرهاوي» وشتا بأهل الشام. كما غزاهم «يزيد بن معاوية» حتى بلغ القسطنطينية، ومعه: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وجماعة من جند مدينة بعلبك وأنطاكية وغيرها.

● ويذكر «البلاذري» وغيره أن معاوية كان وجه جيشاً الى بلاد الروم ليغزو الصائفة، فأصابهم جدري فمات أكثر المسلمين، وكان ابنه «يزيد» مضطجعاً بدير مران مع زوجته أم كلثوم، فبلغه خبرهم، فقال في ذلك شعراً ولم يبال بما لاقاه المسلمون، فبلغ شعره أباه، فقال: أجل، والله ليلحقن بهم فليصيبنه ما أصابهم، فخرج حتى لحق بهم، وغزا حتى بلغ



سفينة بيزنطية

القسطنطينية وهزم الروم، وضرب بابها بعمود حديد كان في يده فهشمه حتى انخرق[٢٣]. وكانت هذه الغزوات كلها في سنة ٤٩هـ/٦٦٩م. مما يؤكد أن غزوة «المردة» الى «لبنان» التي ذكرها «توافانس» لم تكن في تلك الخطورة التي بالغ في وصفها.

وتتابعت الغزوات الاسلامية على السواحل البيزنطية، فكان يتناوب على الغزو في البحر عدد من القادة والأمراء والغزاة، برز منهم في ساحل بحر الشام على عهد معاوية:

- «**بسر بن أرطاة**»: وقد غزا في البحر أيضاً سنتي ٤٨ و٥٢هـ. وهو صحابي.
- «**مالك بن هبيرة السكوني**»: غزا في البحر سنة ٤٨هـ. وهو صحابي.
- «**يزيد بن شجرة الرهاوي**»: وهو من الصحابة، غزا سنة ٤٩ و٥٦هـ. وقيل: ٥٥هـ.
- «**فضالة بن عبيد الأنصاري**»: وهو صحابي شهد أحد وما بعدها، وشهد فتح مصر، وسكن دمشق وولي قضاءها لمعاوية وأمره على غزو الروم في البحر سنة ٥٠هـ وقيل: شتا بأرض الروم في البحر سنة ٥١هـ.
- «**أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري**»: توفي غازياً في البحر سنة ٥١هـ. قيل أن بنيه قالوا له: قد غزوت على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر، فنحن نغزو عنك، فأبى، فغزا في البحر، فمات في السفينة، فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها الّا بعد سبعة أيام، ولم يتغير!
- «**عياض بن الحارث**»: وكان على البحر في سنة ٥٦هـ. وقتل وهو يغزو في سنة ٥٨هـ.
- «**جنادة بن أمية الأزدي الدوسي**»: كان على غزو البحر أيام معاوية كلها. وقد أغزاه معاوية سنة ٥٢هـ. الى جزيرة رودس، وكانت غيضة في البحر، فسار اليها في الشتاء بعد اغلاق البحر، ومعه «حي بن هاني السريع المعافري»، ففاجأ البيزنطيين وتمكن من فتح الجزيرة في سنة ٥٣ (وقيل: ٥٤هـ)، وأرسل اليه معاوية فأنزل فيها قوماً من المسلمين، فزرعوها، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، وأقاموا على الشاطىء حارساً ممن يريدهم في البحر، فكانوا أشد شيء على الروم يعترضون سفنهم في البحر حتى أخافوهم، وأمدهم معاوية بالعطايا والارزاق. فأقاموا في

الجزيرة سبع سنين، ومعهم مجاهد بن جبر يقرىء الناس القرآن[٢٤].

وقد تولى «جنادة» الغزو في البحر من زمن الخليفة عثمان الى أيام يزيد بن معاوية، الا ماكان من أيام الفتنة. وهو من صغار الصحابة، اختلف في سنة وفاته.

● وقد قام البيزنطيين بتسيير أسطول كبير من السفن في سنة ٥٧ أو ٥٨هـ. فتصدى لهم الأسطول الاسلامي بقيادة «**يزيد بن شجرة الرهاوي**»، ولكن البيزنطيين تمكنوا من قتل «يزيد» وأصحابه، وهزموا الأسطول الاسلامي، وانكشف الساحل الشامي لهم فنازلوا مدينتي: صور وصيدا[٢٥] واستطاعوا اقتحامها والقضاء على كل مقاومة فيهما، ثم تسلقوا جبال لبنان واستولوا عليها، وجاؤا بالجراجمة فبثوهم فيما بين جبل الجليل في شمالي فلسطين، الى الجبل الأسود في شمال الشام، وشكلوا بذلك حاجزاً يفصل بين القوات العربية في البلاد الداخلية، وقواتهم في الساحل، حتى اضطر معاوية لرفع حصاره عن القسطنطينية وعقد هدنة مع الأمبرطور «قسطنطين اللحياني الرابع» مدتها ثلاثون عاماً، التزم فيها معاوية بأن يدفع في كل سنة عشرة آلاف قطعة ذهبية، ومائة عبد، و٥٠ فرساً ــ حسب رواية المؤرخ اليوناني «شدرانس» ــ[٢٦].

● غير أن «**سعيد بن يزيد بن شجرة الرهاوي**» أراد الانتقام لأبيه فقام بغزوة في سنة ٥٨هـ. ومعه أحد الغزاة ويدعى «أكدر» الى جزيرة رودس.

● وفي سنة ٥٩هـ/ ٦٧٩م. ــ وهي المعروفة بسنة الجوع ــ قام «**جنادة بن أبي أمية**» بغزوة شاتية الى جزيرة اقريطش «كريت» بعد اغلاق البحر استجابة لأمر معاوية الذي أراد أن تكون الغزوة مفاجئة للروم في وقت لايتوقعون الغزو فيه، وكان جواب «جنادة» «اللهم ان الطاعة عليّ وعلى هذا البحر»، فقيل: انه لم يصب من المسلمين أحد بأذى في تلك الغزوة التي لم تقتصر على اقريطش فقط، بل وصلت الى رودس أيضاً[٢٧]. وكان مع «جنادة» في هذه الغزوة: «علقمة بن جنادة الحجري» و«علقمة بن الأختم»، وتولى أهل مصر ارسال الطعام الى أهل رودس.

غير أن البيزنطيين استردوا الجزيرة بعد خروج «جنادة» منها، مما دعاه الى العودة اليها ومنازلتها وهدم مدينتها في سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م. وقد عرفنا من التابعين الذين نزلوا رودس في هذه الغزوة: «عبد الله بن عوف القاري» و«عبد الله بن محيريز».

واستفحل خطر الروم وعبثهم في سواحل الشام حتى أنهم انتزعوا مدينة حماة من المسلمين، مغتنمين فرصة وفاة معاوية الذي كانت آخر وصاياه «أن شدوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم»، ونقضوا الهدنة التي كانت موقعة في عهده. وعندما قصد ابنه يزيد لاستردادها اعترضه أهل الجبال وردوه عنها في سنة ٦٠هـ. وازاء هذا الخطر رأى يزيد أن يدعم القوات الاسلامية المرابطة في بيروت وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية لتقوى على الصمود أمام البيزنطيين ومن والاهم، فكتب الى المسلمين في جزيرة رودس يخبرهم بوفاة أبيه، ويطلب منهم مغادرة الجزيرة وهدم الحصن الذي كانوا يرابطون فيه، والعودة بسفنهم الى ساحل الشام، فغادروها كما أمرهم، فلم تعمر بعد ذلك وخربت، وأمن الروم ركوب البحر. ويبدو أن قراره شمل جند قبرس فقفلوا أيضاً في السنة نفسها[٢٨].

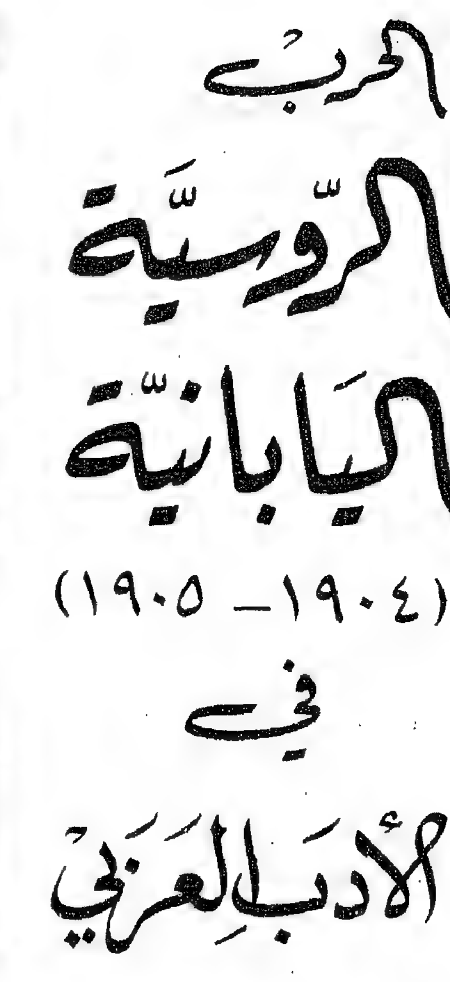
وعن عودة المسلمين من رودس يروي المؤرخون حكاية طريفة، هي أن «رشيد بن كيسان الفهمي» قال:

«كنا برودس ــ وأميرنا «جنادة بن أبي أمية الأزدي» ــ فكتب الينا معاوية بن أبي سفيان: انه الشتاء ثم الشتاء، فتأهبوا له. فقال «تبيع» ابن امرأة «كعب الأحبار»: تقفلون الى كذا وكذا. فقال الناس: وكيف نقفل وهذا كتاب معاوية: انه الشتاء ثم الشتاء. فأتاه بعض أهل خاصته من الجيش فقال: مايسميك الناس الا الكذاب لما تذكر لهم من القفل الذي لايرجونه. فقال «تبيع» فانهم يأتيهم اذنهم في يوم كذا وكذا، من شهر كذا وكذا، وآية ذلك أن تأتي ريح فتقلع هذه التينة التي في مسجدهم هذا. فانتشر قوله فيهم، فأصبحوا ذلك اليوم في مسجدهم ينتظرون ذلك، وكان يوماً لاريح فيه، فانتظروا

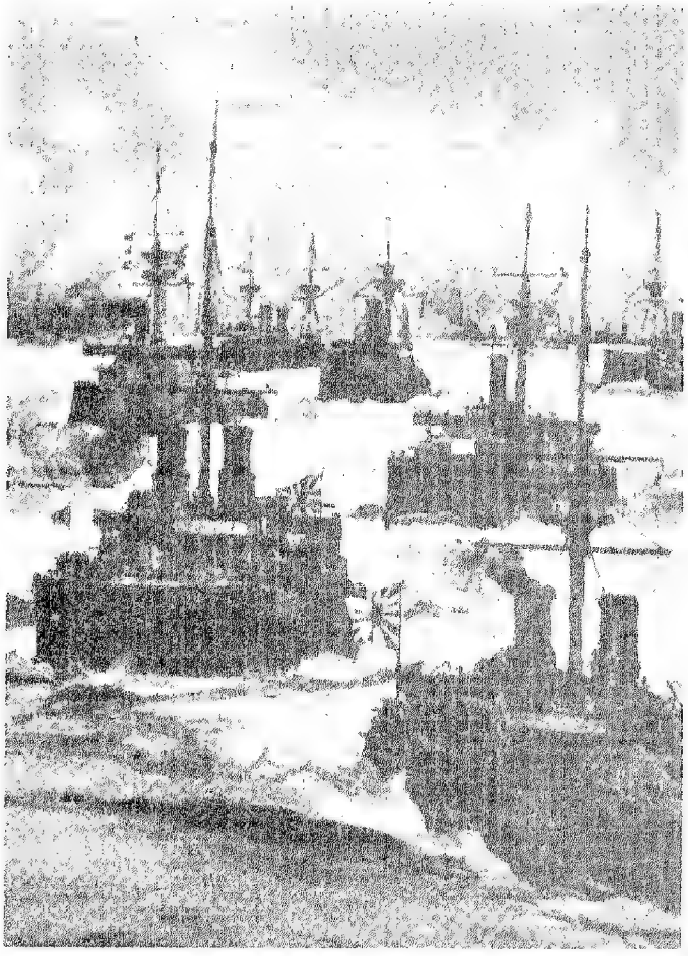
حتى احتاجوا الى المقيل والغداء، وملوا فانصرفوا الى مساكنهم أو الى مراكبهم، حتى اذا انتصف النهار، وقد بقي في المسجد بقايا من الناس، فأقبلت ريح عصار فأحاطت بالتينة فاقتلعها، وتصايح الناس في منازلهم: خرت التينة، خرت التينة. فأقبلوا من كل مكان حتى اجتمعوا على الساحل، فرأوا شيئاً لائحاً يتجول في الماء، حتى تبين لهم أنه قارب، فأتاهم بموت معاوية وبيعة يزيد ابنه واذنهم بالقفل، فشكروا تبيعاً وأثنوا عليه خيراً، ثم قالوا: وأخرى بقيت، قد دخل الشتاء، ونحن نخاف أن تنكسر مراكبنا. فقال «تبيع»: لا ينكسر لكم عود يضركم، ولا ينقطع لكم حبل يضركم حتى تردوا الى بلادكم، فساروا فسلمهم الله عز وجل[29].

المصادر والحواشي

(١) الطبري — تاريخ الرسل والملوك ٤/٢٥٨ — طبعة دار المعارف بمصر، ويقصد بالقرية: جزيرة أرواد.
(٢) الطبري ٤/٢٥٨ و٢٥٩.
(٣) مقدمة ابن خلدون — ص ٢٢٠ — ٢٢٢ — طبعة بيروت ١٩٠٠.
(٤) فتوح مصر والمغرب، ابن عبد الحكم، ص ١٣٠، طبعة نيويورك ١٩٣٢.
(٥) فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ج١/١٥٢، طبعة القاهرة ١٩٥٦.
(٦) المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، المقريزي، ج٣/٣٠٨، طبعة مصر.
(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ١/١٨١.
(٨) البلاذري، المصدر نفسه.
(٩) البلاذري ١/١٤١.
(١٠) وفي تاريخ أبي زرعة الدمشقي أن الغزوة كانت سنة ٢٥هـ. (أنظر التاريخ ١/١٨٤ — طبعة المجمع العلمي بدمشق).
(١١) البلاذري ١/١٨١، الطبري ٤/٢٦٢ وهو ينقل هذه الحادثة عن محدثين من ساحل الشام، منهم: سليمان بن أبي كريمة الصيداوي والوليد بن مسلم، والليث بن تميم الفارسي الأطرابلسي، وجميعهم حدثوا بصيدا وبيروت وطرابلس. وذكر الطبري أنهم «من مشيخة ساحل دمشق». وأنظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (مخطوط التيمورية)، ج ١٩٦/٣٦، التهذيب ٣٠٧/٧، شرح كتاب السير الكبير — الشيباني — ٢١٦٦/٥، طبعة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ١٩٧٢، وفي: تاريخ اليعقوبي٢/١٦٦ كان الفتح سنة ٢٧هـ.
(١٢) البلاذري ١/١٨٢.
(١٣) المنيحي، كتاب العنوان ٢/٣٤٦ طبعة بلجيكا، د. العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٩٦.
(١٥) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ج ٢٠/٢٠٩، ترجمة مسكين الدارمي، أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق د. احسان عباس، ق ٤ ج ١/٩٩، طبعة بيروت، ١٩٧٩، مختار الأغاني، ابن منظور، ج ٤/٥٤ و٥٥، طبعة معهد المخطوطات بالقاهرة ١٩٦٥.
(١٦) تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١/١٨٨.
(١٧) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٠٥، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبعة بيروت، تاريخ اليعقوبي، ٢/٢١٧، طبعة دار صادر ببيروت.
(١٨) تاريخ أبي زرعة ١/١٨٨.
(١٩) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، (ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ٢٥٩، نشره: دي غويه، طبعة بريل ١٨٨٩.
(٢٠) الطبري ٤/٦٤، ٦٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/٥٦٢، طبعة صادر ببيروت، ابن عساكر تاريخ دمشق ٦/٣٠٢ وانظر أيضاً: الطبري ٥/٢٣١ و٢٩٩ و٣٠٨ وابن الأثير ٣/٤٥٧ و٥٠١ و٥١٤ واليعقوبي ٢/٢٤٠، وابن خياط ٢٢٥.
(٢١) الطبري ٤/٢٦٠ و٢٦١ (حوادث سنة ٢٨هـ). وانظر عنه في تاريخ خليفة، ص ٢٣٠ (حوادث سنة ٦٠هـ).
(٢٢) المنبجي، العنوان ٢/٣٤٩، نهاية الأرب، النويري، ج ٢٠/٢٦٥، طبعة مصر ١٩٧٥.
(٢٣) انساب الأشراف، طبعة القدس ١٩٣٨، ق ٢ ج ٤/٣، الأغاني، ج ١٧/٢١٠، تاريخ اليعقوبي ٢/٢٢٩ و٢٤٠، جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الاندلسي، ص ٢٨٣، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧.
(٢٤) البلاذري ق ١/٢٧٩، المنبجي، ٢/٣٥٢، الطبري ٥/٢٨٨ و٢٩٣، ابن الأثير ٣/٤٩٣ و٤٩٧، ابن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، نشره كلمان هوار، ج ٦/٤، طبعة باريس ١٩١٩.
(٢٥) المنجبي ٢/٣٥٢.
(٢٦) تاريخ سورية، يوسف الدبس، مجلد ٥، ج ٣/١٠٤، الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل، ص ٣٥، طبعة بيروت ١٩٠٥.
(٢٧) البلاذري ١/٢٧٩، اليعقوبي ٢/٢٤٠، الطبري ٥/٣١٥، ابن خياط ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ابن عساكر المخطوط، ج ٨/٥٠، ابن الأثير ٣/٥٢١.
(٢٨) البلاذري ١/١٨٢، تهذيب ابن عساكر ٣/٤١٢.
(٢٩) ابن عساكر ١٠/٤٣١ و٤٣٢ نشره محمد أحمد دهمان، المعرفة والتاريخ، البسوي، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ج ٣/٣٢٣ و٣٢٤، طبعة بغداد ١٩٧٦، سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٤/٤١٤، طبعة بيروت ١٩٨١.



الحرب الروسيّة اليابانيّة (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) في الأدب العربي



معركة تسوشيما (٢٧ ايار ١٩٠٥) ويبدو الأسطول الياباني يتقدم.

نجدة صفوة

كانت الحرب الروسية ـ اليابانية التي دارت رحاها في ١٩٠٤ و ١٩٠٥ أهم الأحداث الدولية في مطلع القرن العشرين، ولذلك لم تقتصر آثارها على الدولتين المتحاربتين وحدهما ـ حيث كانت ثورة ١٩٠٥ في روسيا إحدى نتائجها المباشرة ـ وإنما ترددت أصداؤها في العالم أجمع، وفي بلاد الشرق بصورة خاصة.

وقد شغلت هذه الحرب الرأي العام في البلاد العربية، واهتمت بها الصحافة العربية اهتماماً كبيراً، فكانت تتناقل أخبارها، وتصف معاركها، وتعلق على أحداثها، وتتكهن بنتائجها. كما اهتم بها الكتاب والشعراء، فتردد صداها في الادب العربي سنوات طويلة بعدها.

كانت هذه الحرب تجري في منطقة نائية من العالم، ولم تكن للبلاد العربية مصلحة مباشرة فيها، وكانت أسباب المواصلات ووسائل الاعلام محدودة وبطيئة. فما سبب هذا الاهتمام الكبير بها؟ ولماذا كان لها ذلك الصدى الواضح في الأدب العربي والصحافة العربية؟ ومن أبرز الكتّاب والشعراء الذين تردد ذلك الصدى في أدبهم؟

قبل الاجابة عن هذه الاسئلة، قد يكون من المستحسن أن نعرض بايجاز أسباب الحرب

(*) نجدة فتحي صفوة دبلوماسي سابق، عمل في وزارة الخارجية العراقية، وهو يهتم الآن بالأبحاث التاريخية. نشر عدداً من المقالات في مجلة «آفاق عربية» وكتابا بعنوان «العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب»، (بيروت، ١٩٦٩).

الروسية ـ اليابانية، وتطور أحداثها.

نشبت الحرب الروسية ـ اليابانية بسبب تضارب المصالح الاستعمارية للدول الكبرى في الشرق الاقصى، وبصورة خاصة المصالح الروسية واليابانية في منشوريا وكوريا. ومن أسبابها أيضاً السياسة الخارجية المتهورة التي اتبعها القيصر نيقولاي الثاني في الشرق الاقصى. وقد انجرفت روسيا إلى المنافسات الاستعمارية منذ قيامها بمشروع سكة حديد عبر سيبيريا. وكانت المنطقة المتنازع عليها هي منشوريا.

كانت روسيا قد حصلت ـ بموجب معاهدتين عقدتهما مع الصين ـ على امتياز بمد سكة حديد عبر منشوريا (التابعة للصين)، كما انها ـ بموجب إتفاقية تالية ـ استأجرت ميناء «بورت آرثر» لاقامة قاعدة عسكرية بحرية فيها، كما استأجرت الميناء التجاري «دالني». ولما قامت في الصين ثورة «ايختيوان» ـ المعروفة بثورة «البوكسر» ـ تعاون عدد من الدول الكبرى، من ضمنها روسيا، على قمعها. فلما أخمدت الثورة، أخذت روسيا تماطل في سحب قواتها المرابطة في منشوريا، متذرعة بحجج شتى، منها حماية الخط الحديد فيها. وبهذه الوسيلة، اتخذت من منشوريا منطقة نفوذ لها، بالرغم من انها كانت قد تعهدت بسحب قواتها منها بمعاهدة وقعت في ١٩٠٢.

ان تغلغل روسيا في منشوريا، وترسيخ أقدامها فيها، وحيازتها على قاعدة «بورت آرثر»، أثار مخاوف اليابان، كما انه أقلق بريطانيا على مصالحها الاستعمارية في الشرق الاقصى، فكان جوابهما على ذلك الحلف البريطاني ـ الياباني الذي عقد في ١٩٠٢.

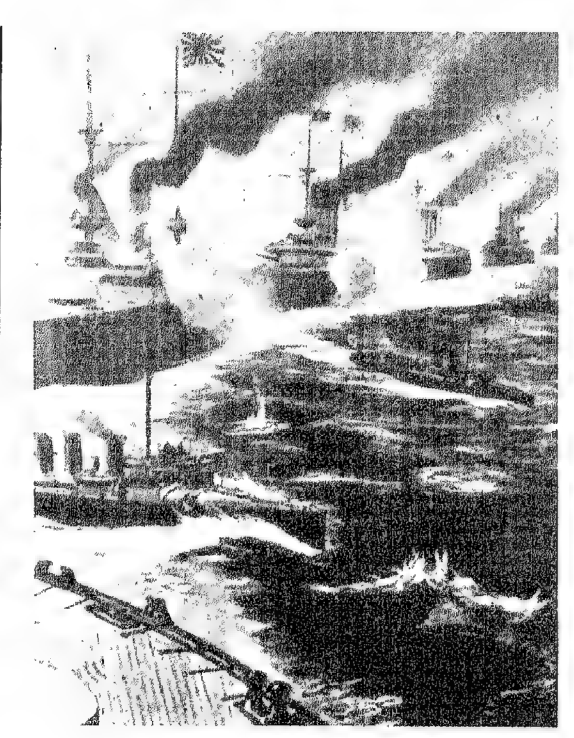
وربما سكتت اليابان عن بقاء منشوريا منطقة نفوذ روسية لو ان روسيا اكتفت بذلك، ولكن روسيا كانت تحاول ان تمد هذا النفوذ ايضاً إلى كوريا التي كانت اليابان تعتبرها منطقة نفوذ تابعة لها بصورة قاطعة، ولم تكن مستعدة للتساهل في أمرها مطلقاً. وقد أقر القيصر نيقولاي الثاني، الذي تسلم زمام السياسة الخارجية بيده، تسلل القوات الروسية إلى شمالي كوريا، واستغلال موارد الاخشاب والمعادن في الجانب الكوري من نهر «يالو». وكانت تحسن اليه هذه السياسة بطانة توجهها مطامع رأسمالي يدعى «بيزوبرازيف»، وهو مضارب يمتلك شركة لاستخراج الاخشاب في الشرق الاقصى.

وفي ١٩٠٣، بلغ التوتر بين روسيا واليابان ذروته، ومع ذلك كان هنالك مجال لحل الخلاف بالطرق السلمية، لو قبلت روسيا عرضاً يابانياً للاعتراف المتبادل بحقوق كل من الدولتين في منشوريا وكوريا. واستمرت المفاوضات سنة كاملة.وكانت الحكومة القيصرية تستهين بقوة اليابان، كما ان وزير داخليتها «بليفه» كان يعتقد بأن «حرباً قصيرة» تخرج منها البلاد منتصرة، سيكون من شأنها توحيد صفوف الشعب، وإذكاء حماسته الوطنية، وتجديد ولائه للحكومة، مما سيصد الحركات الثورية التي أخذت تقوى وتتسع في البلاد.

ولما بلغت المفاوضات مرحلة تعذر فيها التفاهم، وأدركت اليابان انها ستجبر في النهاية على دخول الحرب، قررت ان تعاجل الروس بها، قبل ان يأخذوا لها عدتهم، فقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا (في شباط ١٩٠٤)، ثم شنت على القاعدة الروسية في «بورت آرثر» هجوماً مفاجئاً يشبهه بعض المؤرخين بهجومهم على «بيرل هاربر» في الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن الخسائر التي ألحقتها القوات اليابانية بالاسطول الروسي كبيرة، ولكن الأثر المعنوي للهجوم الياباني المفاجيء كان عظيماً، برغم الشجاعة التي أبداها القادة الروس. وكانت المشكلة الكبرى التي واجهتها روسيا هي صمود جيشها وتموينه من مسافة ٥،٥٠٠ ميل (بين موسكو وفلاديفوستوك) على سكة حديد ضيقة وغير كاملة.

وعانت قوات الجنرال الروسي «كروباتكين» خسائر جسيمة في البر، كما مُنيَ الاسطول الياباني بخسائر كبيرة ألحقتها به الألغام، غير ان محاولات الاميرالية الروس في توجيه قواتهم البحرية المتفوقة على القوات اليابانية، كان يحبطها مقتلهم في المعارك واحداً بعد آخر. وعمدت روسيا إلى تعزيز اسطولها في


الهجوم على «بورت ارثر»

الشرق الاقصى، بأن أوعزت إلى قطعاتها البحرية في بحر البلطيق بالالتحاق بها، فلما علم بذلك اليابانيون، قرروا احتلال قاعدة «بورت آرثر» قبل وصول تلك القطعات، فحاصرتها القوات اليابانية من البر، وعزلتها عن القوات الروسية، حتى تمكنت من احتلالها في أول كانون الثاني ١٩٠٥، بعدما أظهرت القوات الروسية الموجودة فيها، بقيادة الجنرال «ستوسل» شجاعة فائقة في الدفاع عنها. وكان لسقوط «بورت آرثر» دوي هائل ليس في روسيا وحدها، وإنما في العالم أجمع.

ووصل الاسطول الروسي من بحر البلطيق، بعد ان قطع المسافة الطويلة حول إفريقيا دون ان تكون لديه الامكانات الكافية للتزود بالوقود، أو تنظيف قواعد السفن قبل خوض المعارك. وقد استغرقت رحلتها سبعة أشهر، وكانت عند وصولها في حالة لا تسمح بالحرب، ولا بالهرب. فتصدت لها قوات الأميرال «طوغو» في مضيق «تسوشيما» (في ٢٧ ــ ٢٨ مايس)، فأبادتها بعد معركة ضارية. وفي هذه الاثناء هزمت قوات الجنرال «كروباتكين» أمام القوات اليابانية في معركة برية دامت أسبوعين.

ولما أصبح من الواضح ان روسيا خسرت الحرب، تدخلت الدول الكبرى، ووافق الطرفان على اقتراح أميركي بالمفاوضة على شروط الصلح في مدينة «بورتسموث» ــ ولاية نيوهامبشر في الولايات المتحدة ــ واستغرقت المفاوضات ثلاثة أسابيع وقعت بعدها معاهدة الصلح في بورتسموث في ٢٣ آب ١٩٠٥.

ان اليابان، وان انتصرت في المعارك، فانها خرجت من الحرب مرهقة ماليا، وتكبدت خسائر جسيمة في الارواح[1]. ولذلك تمكنت روسيا من الحصول على شروط صلح مقبولة نسبياً لدولة خسرت الحرب، ولكن بعد ان تزعزع النظام القيصري من أساسه، فقد أظهر اندحار روسيا في هذه الحرب سوء التنظيم العسكري، وفساد النظام السياسي في روسيا القيصرية[2] وزاد في حالة جماهير الشعب سوءا، وفي سخطها شدة. وهكذا أدت «الحرب القصيرة المظفرة» التي اقترحها «بليفه» حلا لمشاكل روسيا الداخلية إلى عكس النتائج المطلوبة تماما: فهي لم تكن قصيرة (دامت سنة ونصف تقريبا)، ولا مظفرة. ولم يكن من شأنها توحيد صفوف الشعب، بل زيادة نقمته على الحكومة بسبب إرسالها أبناءه إلى منشوريا البعيدة، لكي يقتلوا هناك لاسباب لا يفهمها. وظهرت خلال الحرب حركات المقاومة ضد الحكومة في بعض أقاليم الامبراطورية، وخاصة في بولونيا، اعتراضا على التجنيد، أعقبتها انتفاضات الفلاحين التي أخذت تتكرر في فترات متقاربة، وإضرابات العمال التي اتسع نطاقها، حتى انتهت أخيراً بثورة ١٩٠٥ التي مهدت السبيل بدورها لثورة اكتوبر سنة ١٩١٧، وانهيار النظام القيصري.

كان لانتصار اليابان، وهي الدولة الشرقية النامية ــ على دولة اوربية كبرى وقع عظيم على الرأي العام العالمي، ورنّة خاصة في بلاد الشرق، بما فيها البلاد العربية التي اتجهت أنظار شعوبها إلى اليابان بشعور مزدوج من العجب والاعجاب. فقد وجدت هذه الشعوب انها تستطيع ــ بل يجب ــ ان تتخذ اليابان قدوة لها في نهضاتها وفي كفاحها ضد التغلغل الاوربي والسيطرة الاجنبية، وان الشعوب الشرقية المضطهدة، المغلوبة على أمرها، إذا

وجدت صفوفها، وأصلحت أمورها، وتسلحت بالعلم، فليس ثمّ ما يحول دون ان تقوى وتزدهر، فتحيي حضاراتها القديمة وأمجادها الغابرة.

نالت هذه الحرب عناية خاصة من أدباء العراق ومصر والشام الذين عاصروها، وبعثت فيهم أحداثها ونتائجها كثيراً من الخواطر والعواطف الشعرية، وأوحت إليهم بقصائد ومقالات كثيرة لم تنل ما تستحقه من عناية الباحثين الذين أرّخوا للأدب العربي في تلك الفترة(٣).

وكانت عواطف اولئك الكتاب والشعراء نحو الأمتين المتحاربتين، وتأييدهم إحداهما على الأخرى، تخضع لاعتبارات سياسية وعاطفية ودينية. وكانت أقوى هذه الاعتبارات هي «النعرة الشرقية» التي جعلت معظم الأحرار في البلاد العربية يقفون إلى جانب اليابان لانها دولة شرقية، ويعدون انتصارها انتصارا للشرق، ودليلا على يقظة شعوبه. وقد ظهر هذا الاتجاه في قصائد عدد من الشعراء المصريين، أبرزهم حافظ إبراهيم.

ان الشعور بالرابطة الشرقية كان قويا في نفس حافظ إبراهيم، فظهر أثر ذلك واضحا في شعره، وان لم يضعف من شعوره القومي والاسلامي. وقد شهد النصف الاخير من القرن التاسع عشر عوامل واتجاهات سياسية، كان من شأنها ان تبعث مثل هذا الاتجاه، ومن أهمها السياسة الاستعمارية التي سارت عليها الدول الاوروبية الكبرى وروح التسلط التي سادتها. وكان حافظ إبراهيم يظهر في كل مناسبة اعتزازه بالرابطة بين البلاد الشرقية من أقصاها إلى أقصاها، وكان شعره يجري بذكر الصين واليابان وغيرهما من بلاد الشرق، مستجيبا لاحداثها، ناعيا عليها تأخرها، متمنيا ان يرى الشرق وقد نفض عنه رداء التأخر، مهيبا به ان يعمل على استرداد عظمته ومجده(٤):

يا ليتني لم أعاجل بالموت قبل الأوان
حتى أرى الشرق يسمو رغم اعتداء الزمان



ويسترد جلالاً له ورفعة شان

ولذلك كان طبيعيا ان تستجيب نفس حافظ إستجابة صادقة لاحداث اليابان، وان يخص حربها مع روسيا ــ الدولة الاوربية والامبراطورية التوسعية ــ بأكثر من قصيدة وهو في أوج شهرته ومكانته الأدبية.

ومما قاله حافظ في ذلك قصيدة، عنوانها «الحرب»، يصف فيها الحرب الروسية ــ اليابانية وأهوالها، ومطلعها:

أساحة للحرب أم محشر ومورد الموت أم الكوثر؟

وقد نشرت هذه القصيدة في «المقتطف» في ١٩٠٤، بينما كانت الحرب لا تزال على أشدها، ونتيجتها مجهولة، وان كان يستدل من بعض أبياتها ان حافظا كان أميل إلى الظن بأن روسيا هي التي ستخرج منتصرة في النهاية، وفيها يقول:

أمسى «كروباتكين» في غمرة وبات «أويامـا» له ينظر
وظلت الروس على جمرة والمجد يدعوهم: ألا فاصبروا

ومن غرائب الصدف ان يصدر عدد «المقتطف» الذي نشرت فيه هذه القصيدة قبل سقوط «بورت آرثر» بيوم واحد(٥):

ان حافظ إبراهيم وان كان يشجب فكرة الحرب، فانه رأى في وقوف اليابان في وجه روسيا، ودفاعها عن حقوقها وكرامتها الوطنية بشجاعة، مفخرة للشرق، وإعلاء لمكانة الأمم الشرقية في العالم، فيقول:

تسوؤنا الحرب وان أصبحت
تدعو رجال الشرق ان يفخروا
أتى على الشرق حين إذا
ما ذكر الأحياء لا يذكر
حتى أعاد الصفر أيامه
فانتصف الأسود والأحمر

والاشارة إلى «الصفر» واضحة تدل على الجنس الياباني الأصفر الذي انتصف للشعوب المضطهدة، مهما كان لونها، وسواء أكانت من شعوب إفريقيا أم هنود أميركا.

على ان أشهر قصائد حافظ إبراهيم في الحرب الروسية ـ اليابانية هي قصيدته «فتاة اليابان»، ومطلعها:

لا تلم كفي إذا السيف نبا
صح مني العزم والدهر أبى

ويشيد حافظ في هذه القصيدة بوطنية المرأة اليابانية خلال الحرب، ويقول فيها مادحا امبراطور اليابان «الميكادو» ووطنيته على لسان فتاة يابانية:

هكذا الميكاد قد علمنا
أن نرى الاوطان أما وأبا
ملك يكفيه منه أنه
أنهض الشرق، فهز المغربا

وقد نالت هذه القصيدة شهرة واسعة في البلاد العربية، وأصبحت من محفوظات طلاب المدارس، لما تبعثه في نفوس الناشئة من روح وطنية عالية، بالاضافة إلى قيمتها الأدبية، وما يتجلى فيها من أسلوب حافظ السلس، وديباجته الناصعة.

وفي شعر حافظ إشارات متفرقة أخرى إلى اليابان ونهضتها كمثال يجب ان تحذو الأمم الشرقية حذوه في الاتحاد ومحاربة الجهل، منها قوله يخاطب أمته في قصيدة عنوانها «الانقسام آفة الشعب»:

فانفضوا النوم وجدّوا للعلى
فالعلى وقف على من لم ينم
وانظروا اليابان في الشرق وقد
ركزت اعلامها فوق الأمم
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا
في دجى عميائه، حتى انهزم

ومما يدل على قوة النعرة الشرقية التي أملت هذا الموقف على شعراء مصر في وقوفهم إلى جانب اليابان، هو ان اليابان في فترة حربها مع روسيا كانت حليفة لبريطانيا، وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية غير المباشرة لبريطانيا، وتقوية لموقفها الدولي. وكان حافظ وزملاؤه ـ كمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب ـ من محاربي النفوذ البريطاني في مصر. ولكن ذلك لم يمنعهم من إظهار عواطفهم الشرقية، وإبداء عطفهم على اليابان، بل وتحمسهم لها، برغم الصداقة التي تربطها بمحتلي بلادهم. فقد تغلبت تلك العواطف على شعورهم الاقليمي، لانهم وجدوا ان نهضة أمم الشرق وتقويتها كفيلتان بتخليصها من الاستعمار الأجنبي.

أما الاعتبار الثاني في تحديد مواقف الأدباء العرب من الجانبين المتحاربين، فهو موقفهم من «الدولة العثمانية» وعلاقتهم بها وشعورهم نحوها. فقد كان العراق وسوريا ولبنان في أيام تلك الحرب جزءا من الدولة العثمانية. أما مصر، فكانت تربطها بها رابطة إسمية واهية. وكان النضال الوطني في مصر متجها إلى مقاومة الاحتلال البريطاني، ولذلك كان شعراؤها يعطفون على الدولة العثمانية بدافع الشعور الديني، وبوصفها عاصمة الخلافة الاسلامية. وكانت اليابان تحارب روسيا، وهي عدوة تركيا التاريخية، ولذلك كان للشعور الاسلامي أثره في موقف الشعراء المصريين وعطفهم على اليابان.

أما في العراق والشام، فان النضال الوطني كان يتمثل في استقلال هذه البلاد عن السلطة العثمانية، ومع ذلك فان الشعراء ـ حتى الناقمين منهم على تلك السلطة ـ لم يؤيدوا روسيا عدوة تركيا ـ وإنما غلب عليهم شعورهم الشرقي، فانحازوا إلى اليابان أيضا، كما فعل الرصافي في قصيدته «معركة تسوشيما» التي أغرق فيها الأسطول الياباني، بقيادة طوغو الأسطول الروسي القادم من بحر البلطيق،



معروف الرصافي

إذ قال:

سعروها في البحر حربا ضروسا
تأكل المال نارها والنفوسا
يوم طوغو دهى بأسطوله الـ
روس قتالا، وكان يوما عبوسا
فحداها بوارجا تملأ البحر وقـ
ـارا طورا وطورا بوسا
فكسوهم من الهوان لبوسا
وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناء المعالي
هكذا أحسنوا لها التأسيسا

ونلمس مثل هذا الاتجاه في شاعر آخر من خصوم الدولة العثمانية، وهو فؤاد الخطيب، اللبناني الأصل، الذي التحق فيما بعد بالملك حسين في ثورته على الدولة العثمانية، ومدحه بقصائد كثيرة، وترأس تحرير جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في مكة، ناطقة بلسانه خلال الثورة، وبعدها. ففي الجزء الأول من ديوانه قصيدة، عنوانها «العجوز اليابانية» يعارض فيها قصيدة صديقه حافظ «فتاة اليابان»، ويشيد أيضا بوطنية الأم اليابانية. وفيها يروي حادثة وقعت لأرملة يابانية عجوز، دفعت بابنها إلى الجيش أيام الحرب الروسية اليابانية، ولكن السلطات رفضته لانه كان معيلها الوحيد، فما كان منها إلا ان قتلت نفسها لكي يسوغ تجنيده. وفيها يقول على لسان العجوز اليابانية:

لا تقولوا بلغ السيل الزبى
نحن مزقنا العدى أيدي سبا
بعثتنا غيرة شرقية
كاد منها الغرب ان يلتهبا
مادت الدنيا لها من دهشة
واضطرابا رقصت، لا طربا
أدبتنا الحرب فيما قد مضى
بخطوب حار فيها الخطبا

وفيها يقول أيضا:

نحن سيف قاطع لكنه
مغمد يحسبه الأعمى نبا
ان نكن صفرا فماذا ضرنا
هل يعيب الاصفرار الذهبا(٦)؟

وللشاعر اللبناني أمين ناصر الدين في الحرب الروسية ـ اليابانية قصيدة، عنوانها «الياباني ومعشوقته»، تشيد بشجاعة اليابانيين ووطنيتهم وانتصارهم الباهر، ومنها قوله على لسان المحارب الياباني في اسقاط «بورت آرثر»:

هجمنا على ميناء آرثور هجمة
ترد ابن عام وهو بالخوف أشيب
ببيض يلوح النصر أيان جردت
وسمر لها بين القلوب تقلب
وكنا إذا انهل الرصاص كأننا
من الغيد بالتفاح نرمي فنطرب
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها
مهدمة قد حل منها المركب
وقائعنا في البر كانت عجيبة
ولكنها في لجة البحر اعجب

وهنا يصف معركة «تسوشيما» وانتصار «طوغو» ويشير إلى ما ساد الشرق من سرور بانتصار اليابان، وما أصاب الغرب من خيبة وأسى:

ورجعت الأقطار صوت انتصارنا
ففي الشرق هزاج وفي الغرب ندب(٧)

ومن الطريف، ان من أبرز السوريين الذين اهتموا بموضوع هذه الحرب، هو السياسي السوري المعروف المرحوم فارس الخوري، الذي كان في طليعة زعماء الحركة القومية العربية منذ فجر شبابه. فقد كان إلى جانب نشاطه السياسي ونضاله الوطني، يعنى بالأدب وينظم الشعر، ولذلك انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق منذ تأسيسه. وقد أوحت إليه أحداث الحرب الروسية ـ اليابانية بأربع قصائد طويلة



فارس الخوري

نشرت في صحف دمشق، ثم جمعت في كتاب نشر في مصر في ١٩٠٦ بعنوان «وقائع الحرب».

تصف القصيدة الأولى إعلان الحرب، والمعركة البرية الأولى بين الروس واليابان، وغيرها من الوقائع حتى «موكدن»، ومنها قوله في غرق الأميرال «مكاروف» وأثره في معنويات الروس:

على مكروف قد بكت البواكي
وأطلقت المدامع والشعورا
بمصرعه عزوم الروس خارت
وحق لها بذلك ان تخورا
رجاء القوم معقود عليه
ليدفع عنهم الخطب العسيرا
فكان بهديه قمرا مضيئا
وكان بكره أسدا مزيرا

أما القصيدة الثانية، فهي في وصف معركة «موكدن» وفيها يقول:

ودارت للمنون رحى طحون
لها الاجساد قد صارت طحينا
وطبّق كل ناحية دخان
كثيف، أسود، يعمي العيونا
فليس بمبصر أحد أخاه
ولا هو سامع منه الانينا

وتتناول القصيدة الثالثة وصف وقائع اسطول البلطيق الذي أغرق في مضيق «تسوشيما»، ثم عقد الصلح، منها وصفه الأميرال الياباني طوغو:

حول تمرس بالصعاب محنك
بطل شديد في الحروب مجرب
بمضيق سوشيما تخير مجثما
حتى إذا أزف القضا يتوثب
كالليث يأتيه القضاء برزقه
وهو المقيم بأرضه يترقب

أما القصيدة الرابعة، فهي في مولد ولي عهد روسيا الذي ابتهل له القيصر «نيقولا الثاني» ابتهالا عظيما، وان لم يقدّر له اعتلاء العرش، بسبب انهيار النظام القيصري. وكان «نيقولا الثاني» متزوجا من أميرة ألمانية ولدت له ثلاث بنات متتاليات، حتى أصابه اليأس والألم، وحسب انه لن يرزق وريثا ذكرا لعرشه، فلما وضعت مولودها الرابع، كان ذكرا ــ وقد جاءت ولادته خلال الحرب الروسية اليابانية ــ فابتهل القيصر لذلك ابتهالا، وامر باقامة معالم الزينة واطلاق المدافع ابتهاجا بولادة ولي العهد، غير عابىء بأهوال الحرب التي تجتازها البلاد، ولا بدموع الشعب على أبنائهم الذين تحصدهم الحرب. وقال فارس الخوري مخاطبا المولود الجديد:

يا أيها الطفل الموسد هل ترى
كيف استفز أباك هذا المولد
لما ظهرت انجاب أفق داكن
بحياته، وأبيض يوم أسود
قد جئته والحرب فاغرة فما
تجتاح مضرب جنده وتبدد
أجمدت عبرته على قتلى الوغى
ولفاقديهم عبرة لا تجمد
بـرّدت حسرته فانبرت صعقاتها
باذاعة البشرى تعج وترقد
هل ذكّرته ان في منشوريا
نار المدافع للكتائب تحصد

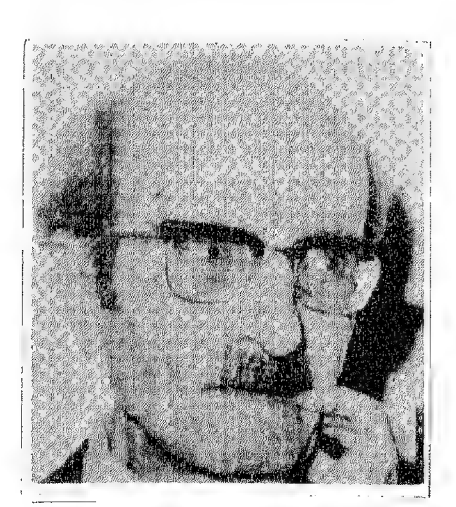
ان هذه القصيدة الأخيرة هي أبعد أخواتها مغزى، وأحفلها بالمعاني الانسانية، وهي تدل على مدى تحسس فارس الخوري لأهوال الحرب ومآسيها، وتحمل معنى اللوم للقيصر على مبالغته في اظهار السرور والابتهاج في مناسبة شخصية، في وقت يعاني فيه شعبه من نكبات الحرب التي يتساقط فيها مئات القتلى من ابنائه يوميا.

ولا شك ان اهتمام شاعر وطني، وسياسي قومي كفارس الخوري بأحداث هذه الحرب، يدل على الصدى القومي الذي أحدثته في البلاد العربية، كما انه يدل على ان تلك الحرب وعبرها، والوطنية التي أظهرها اليابانيون الشرقيون فيها، قد زودت العرب بحقائق وتجارب وأمثلة في الوطنية، وجدوا انهم يستطيعون الافادة منها في نضالهم لتحرير بلادهم، وفي الثورة التي كانوا يستعدون لها.

«ولو أردنا تعداد القصائد والمقالات التي أثارتها هذه الحرب أو ذكرياتها»، كما يقول أنيس المقدسي، «لضاقت بنا الصفحات الكثيرة. وليس غرضنا من الاشارة إليها وضرب الأمثلة عليها، إلا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الأيام، أو تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار، وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت أوجها في حرب ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق، فظهر ذلك في أدبهم المنظوم والمنثور، وكان من الأسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني، فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية»[٨].

وهنالك اتجاه آخر في موقف بعض الأدباء العرب من الحرب الروسية ــ اليابانية ظهر بصورة خاصة بين أدباء لبنان والمهجر، واتسم بالعطف على روسيا، والتحمس لها في نزاعها مع اليابان، والخيبة والأسف لاندحارها.

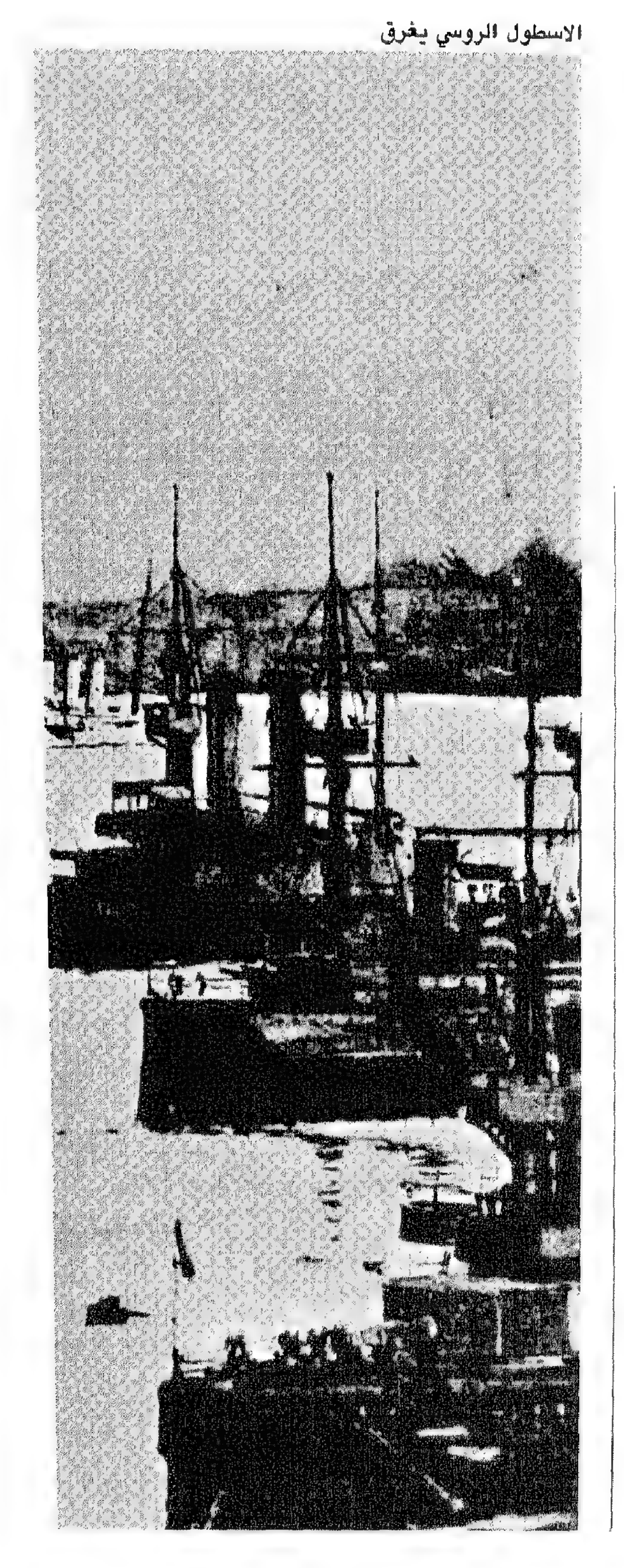
ومن المعروف ان «بلاد الشام» في العهد العثماني كانت تحت النفوذ الفرنسي من الناحية الثقافية، وأن فرنسا لم تخف ادعاءها بما كانت تسميه حقوقها في سوريا، فكانت تمد الارساليات الدينية بالمال، وتعمل على اعطاء الناشئة نوعا من التعليم هو جيد في حد ذاته، ولكنه يستهدف صب أفكار النشء في قالب فرنسي، وتوجيه أذهانهم وولائهم الفكري نحو فرنسا. ولكن روسيا كانت ترمي إلى الغاية نفسها، وتنافس فرنسا في ذلك منافسة شديدة[٩]. وربما كان لبنان وفلسطين في ذلك العهد أوثق البلاد العربية صلة بروسيا بسبب انتماء نسبة كبيرة من المسيحيين فيهما إلى الكنيسة الارثوذكسية. وكانت روسيا القيصرية



ميخائيل نعيمة

تعد نفسها حامية للارثوذكس ــ بصفتها أكبر دولة ارثوذكسية ــ وقد أظهرت حمايتها هذه بوسائل عديدة منها الارساليات الدينية، والمدارس التابعة لها، ومنها تشجيع التجارة. وكانت تهتم بوجه خاص بالقدس، وبالأراضي المقدسة في فلسطين، وقد أسست لهذه الغاية «جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية» برعاية القيصر، وكان رئيسها العامل الغراندوق «سرجيوس» عم القيصر، ففتحت هذه الجمعية كثيرا من المدارس في فلسطين ثم في سوريا ولبنان[١٠]، كما أسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات في «الناصرة» وفي «بيت جالا» لسد حاجة مدارسها منهم، لان التدريس فيها كان باللغة العربية، مما لا يمكن معه استقدام المعلمين لها من روسيا. وقد بزت روسيا منافساتها، بأن مدارسها كانت مجانية، وبأنها كانت تنسق برامجها على أحدث الأساليب التربوية[١١]. وكان من الطبيعي ان تبعث المدارس الروسية في نفوس طلابها شعورا خاصا نحو روسيا، قوامه المحبة والاعجاب. ويصف ميخائيل نعيمة الذي تعلم في احدى مدارس الارساليات الروسية في لبنان وفلسطين هذا الشعور في مذكراته قائلا: «لقد أخذتنا نشوة من الاعتزاز بمدرستنا الجديدة، إذ كنا نشعر ان من ورائها دولة عظيمة تهابها الدول. وها هي صورة القيصر نقولا الثاني وصورة القيصرة ألكسندرا في اطارين مذهبين تزينان صدر البهو الكبير»[١٢].

الاسطول الروسي يغرق



وكان الروم الارثوذكس يحبون الروس حبا يقرب من العبادة[١٣]، وينظرون إلى روسيا كحامية لهم، وكضمان تجاه الدولة العثمانية التي يؤلفون فيها أقلية دينية لا تتمتع بحقوق كاملة[١٤]. ويصف ميخائيل نعيمة مشاعرهم نحو روسيا أو «بلاد المسكوب»، كما كانوا يسمونها، فيقول: «... وكل ما عرفناه ان (المسكوب) قوم أشداء وكرماء، يحكمهم قيصر، تهتز لكلمته جميع ملوك الأرض، وانهم يقطنون بلادا شاسعة وباردة في الشمال، وانهم (روم) مثلنا. ولذلك يعطفون علينا، ويحرصون على الدفاع عنا وعن (ديننا) الذي هو الدين الصحيح...»[١٥].

ولما نشبت الحرب الروسية ــ اليابانية، كان ميخائيل نعيمة قد انتقل إلى مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة، وهو يتحدث عن موقف طلابها من روسيا خلال تلك الحرب، ومدى اهتمامهم بأخبارها قائلا: «نشبت الحرب الروسية ــ اليابانية ابان دراستي في الناصرة. واني لأذكر بأي لهفة كنا نتسقط أخبارها على قلة الوسائل في ذلك الزمان لنقل الأخبار. فالراديو كان لا يزال في ضمير الغيب. والصحيفة الوحيدة التي كانت تأتينا بعد أسبوع أو أكثر من صدورها في بيروت البعيدة. والصحف بالروسية كانت تصلنا بعد شهرين من تاريخ صدورها. وعندما بلغنا خبر الفاجعة التي حلت بالأميرال (مكاروف) ودراعته (بتروفا فلوفسك) في ميناء فلاديفوستوك، كان له وقع الصاعقة في نفوسنا. وكان في الناصرة شيخ أمي، طاعن في السن، يتعشق روسيا وذكرها حتى الجنون. وكان في كل يوم يأتي إلى المدرسة ليقف من التلاميذ على آخر أنباء الحرب...»[١٦].

ولم يكن نظام عبد الحميد الصارم، والرقابة المشددة على الصحف العربية، ليسمحا للكتّاب العرب وشعرائهم بالتعبير عن مشاعرهم في صحافة بلادهم. وقد أدت الرقابة المستمرة، وسياسة الارهاب والتجسس إلى لجوء كثير من المفكرين والكتّاب إلى الهجرة.

ولذلك كانت صحف المهجر في بعض الحالات أكثر تعبيرا عن المشاعر والاتجاهات السائدة في

البلاد العربية.

وكانت قد تكونت في أميركا الشمالية والجنوبية في ذلك الوقت جالية عربية كبيرة، يؤلف السوريون واللبنانيون أغلبيتها الساحقة، وكان بينهم عدد من الشعراء والكتاب والصحفيين الذين وجدوا في تلك البلاد مجالا للتعبير عن مشاعرهم ومشاعر ابناء وطنهم بحرية.

أما فيما يتعلق بصدى الحرب الروسية ــ اليابانية، فأننا لا نجد في انتاج أدباء المهجر وشعرائه انعكاسات عرضية، كلتي في شعر حافظ إبراهيم ومعروف الرصافي مثلا، بل تيارا معينا سيطر على اتجاه عدد منهم. وأبرزهم في هذا الاتجاه الشاعر «أسعد رستم»(١٧).

وفي ديوان رستم ثماني قصائد عن الحرب الروسية ــ اليابانية(١٨)، تدل جميعا على اهتمام خاص بروسيا وأحداثها، وهو اهتمام غريب، لا يمكن تفسيره بسهولة. فأسعد رستم لم يكن ارثوذكسيا ــ بل ان والده كان شيخ الكنيسة الانجيلية في بعلبك ــ كما انه لم يدرس في مدارس الارساليات الروسية، ولا تربطه بروسيا صلة خاصة ولم يسافر إليها قط(١٩). ومع ذلك، فهو يظهر عطفا شديدا على روسيا، وانتصارا قويا لها، ويشيد برعاياتها لسوريا، فيقول مثلا:

«يسوؤنا حزن روسيا وتفرحنا
أفراحها، فهي فخر العالم البشري
وهي التي شملت أنظارها الوطن الـ
سوري، فليشملنها الله بالنظر

وكذلك يعرب أسعد رستم، في غير موضع، عن أمله بأن تخرج روسيا من حربها مع اليابان ظافرة، وأن تقهر اليابان التي يصفها بصورة تنم عن الاحتقار بالدولة الصفراء، فيقول، مخاطبا الجنرال كروباتكين الروسي:

ألا أرح الدنيا من الدولة الصفرا
وضع بيراع النصر موضعها صفرا
وحكّم سيوفا في رقاب رجالها
وغادر أراضيهم لهم بلقعا قفرا
وعد يا كروباتكين من الشرق ظافرا
ومن أمم اليابان خذ ما تشا أسرى

وفي قصائد رستم أيضا عطف خاص على القيصر نيقولاي الثاني، وتغن بمحامده، فهو يصوره بصورة الملك الذي يحنو على الشعب، ويتمتع بمحبته، ويشير اشارة صريحة إلى انه لم يكن راغبا في إقحام روسيا في هذه الحرب. وإذا تذكرنا ان وزير الداخلية «بليفه» اقترح «حربا قصيرة مظفرة» بقصد توحيد صفوف الشعب الروسي وصد موجة الثورة ضد النظام القيصري، أمكننا استقصاء الاساس الذي يستند إليه رستم في ذلك، فهو يقول:

واليوم جيش الروس في منشوريا
والخصم أمسى واقفا بازائه
والعسكر الروسي عد محبة الاوطا
ن دينا فانبرى لوفائه
والكل فارق أهله وصحابه
ليكون يوم الحرب من شهدائه
والقيصر المحبوب تدمع عينه
فالحرب لم تك قط من آرائه
يبكي على فقد السلام موجها
في حربه لوما إلى وزرائه

وفي قصيدته المعنونة «إلى جلالة قيصر روسيا» يهنىء الشاعر نيقولاي بمولوده، ولكنه

الاسطول الياباني قبل هجومه .

لا ينسى الاشارة إلى قتلى الحرب أيضا ــ وان كانت الاشارة بلهجة أخف من لهجة فارس الخوري ــ فيقول، ان الله منّ عليه بمولود ذكر ليعرف قدر الذكور، ويشعر بشعور الآباء الذين تحصد الحرب أبناءهم، فيقول:

ما بين طعن القنا والصارم الذكر
عليكم أنعم الرحمن بالذكر
قد استجاب الدعاء والحرب دائرة
وفي استجابته معنى لمفتكر
أراد ان تعرفوا قدر الذكور وكم
يجود آباؤهم بالدمع والسهر

وفي قصيدة أخرى عنوانها «بورت آرثر أثناء حرب الروس واليابان»، يصف حصار حصن «بورت آرثر»، واستبسال القوات الروسية بقيادة الجنرال «ستوسل» في الدفاع عنها ومطلعها:

في بورت آرثر تخفق الرايات
وتشن فيها للردى غارات

وفيها يقول:

وهناك في احدى الحصون «ستوسل»
كالليث منه ترعد الزفرات
سألوه تسليما لهم فأجابهم
أنى، وفي أجسادنا نسمات

ولم يكتم أسعد رستم خيبته الكبرى لاندحار روسيا وهزائمها، ويقول بأسلوب من فكاهة مريرة، لعل الله ضجر من كثرة سمعه دعاءه للروس بالنصر، فأراد معاقبته بدحرهم.

وشربنا أسرارنا وسألنا الـ
له نصرا للروس في الهيجاء
إنما كلما طلبنا لروسيـ
ـا انتصارا تقهقرت للوراء
قد دعونا للروس بالفوز حتى
ضجر الله من سماع الدعاء
وانتقاما منا أبى الله ان ينـ
ـصرهم في الوغى على الأعداء

وثمة شاعر مهجري آخر في أميركا الشمالية، أشار إليه كراتشكوفسكي، وهو سليمان داود سلامة اللبناني، وقد نشر في جريدة «الهدى» التي كانت تصدر في نيويورك قصائد عديدة عن الحرب الروسية ــ اليابانية، ثم جمعها في ديوانه الذي نشر في ١٩٠٥، وبينها قصائد تنم عناوينها عن مضامينها: «روسيا واليابان» و«الحرب الروسية ــ اليابانية» و«بورت آرثر» الخ(٢٠)...

أما شعراء المهجر في أميركا الجنوبية، فكان أكثرهم اهتماما بهذه الحرب «قيصر إبراهيم المعلوف»(٢١). وفي ديوانه قصائد عناوينها «مؤتمر لاهاي» و«بورت آرثر» وما أشبه

ولم يقتصر صدى الحرب الروسية في الأدب العربي على الشعر وحده، ولكن ذلك الصدى في الشعر كان أقوى منه في النثر. وربما كان سبب ذلك ان الاشكال الفنية التي تصلح لتصوير مثل ذلك الحدث تصويرا فنيا، كالقصة والرواية والمسرحية لم تكن قد تبلورت في الأدب العربي في تلك الفترة، فلم تظهر سوى محاولات محدودة في عددها، تافهة في قيمتها الأدبية، أهمها رواية وضعها «يعقوب صروف»، صاحب المقتطف، عنوانها «فتاة مصر» نشرت في المقتطف، ثم أعيد طبعها أربع مرات، آخرها في ١٩٢٣.

والرواية عن فتى انكليزي وأخته أوفدا إلى اليابان قبيل حربها مع روسيا، مراسلين لجريدة انكليزية يصدرها أبوهما. ويتوقف الفتى وأخته في مصر. وفي طريقهما إلى اليابان، يتعقبهما

جاسوس ياباني تلقي الشرطة اليابانية القبض عليه فيما بعد. وعند عودتهما تغرق سفينتهما قرب احدى الجزر، ولكنهما ينجوان بأعجوبة، ويعودان إلى مصر ثانية. وتجري معظم حوادث هذه الرواية في مصر، وبعضها في إنكلترا واليابان ــ خلال الحرب ــ وأقل من ذلك في روسيا(٢٢).

ومما كتب بوحي من تلك الحرب أيضا مسرحية وضعها وهبي تادرس بعنوان «بطرس والكسي». وقد نشرت هذه المسرحية في القاهرة في ١٩٠٥، ومثلت على بعض المسارح المدرسية، ولكنها لم تكن مستوفية الشروط الفنية، بل كانت من قبيل المسرحيات التي يكتبها المدرسون، بأسلوب خطابي، ليمثلها طلابهم في الحفلات المدرسية.

وهناك رواية أخرى نشرت في المهجر بعنوان «بورت آرثر» من تأليف أسعد منصور صدرت عن دار «مرآة الغرب» في ١٩٠٦، والشخصية الرئيسية في هذه الرواية ضابط روسي اسمه «إيفان» وهو كولونيل في القوة البحرية. يقابل «إيفان» خطيبته في موسكو، ثم يرسل إلى «بورت آرثر». وتتناول الرواية بعد ذلك عرضا مفصلا لاحداث «بورت آرثر»، وتنتهي بوصف مختصر لعودة بطل الرواية إلى موسكو بطريق «اوديسا».

وفي الرواية مشاعر وطنية تشابه بعض المشاعر الساذجة التي تظهر في شعر المهجر. ويتضمن الكتاب تصويرا لعدد من الشخصيات العسكرية الروسية واليابانية.

أما في ميدان الصحافة، فقد كان اهتمام الصحف العربية بأحداث هذه الحرب طبيعيا، لانها كانت أهم أحداث الساعة في العالم. وكانت الصحف اليومية والمجلات الدورية الصادرة ابان الحرب طافحة بأخبارها. وفي أعداد «الهلال» و «المقتطف» الصادرة في تلك الفترة مقالات كثيرة عن روسيا واليابان، والحرب الدائرة بينهما، تتضمن تحليلا لاسبابها، ووصفا لمعاركها، وتنبؤات عن مستقبلها. ولكن هذه المقالات، بالرغم من مستواها الجيد في بعض الحالات، لا تعد نثرا فنيا، ولا أدبا سياسيا، ولا تخرج عن حيز الكتابات السياسية التي تفقد قيمتها بزوال المناسبة التي كتبت فيها. أما اتجاه تلك المقالات، ونظرتها إلى الحرب، فكان متشابها، إذ انها كانت متفقة جميعا، في بداية الحرب، على ان النصر سيكون لروسيا. فكتبت «الهلال» مثلا في عددها الصادر في شهر مارس ١٩٠٤، تقول: «.. والحرب الحاضرة: إما ان يفوز بها الروس قريبا فتمهد لهم السيطرة على الصين، أو ان يفوز بها اليابانيون، فيكون ذلك التمهيد لهم. ولكن العارفين لا يقدّرون الفوز إلا مؤقتا، ولا بد أخيرا من فوز الروس»(٢٣).

كما ان تلك الصحف كانت تنظر إلى الحرب الروسية ــ اليابانية على انها صراع بين الشرق والغرب، وترى في اليابان رمزا للشرق، وفي انتصارها انتصارا للشرق على الغرب. كما انها كانت تأمل في ان يؤدي انتصار اليابان ــ في حالة تحققه ــ إلى ان «يستريح أهالي الشرق الاقصى من غطرسة الغربيين نوعا، ويحسن الأوربيون معاملتهم ومجاملتهم بما لم يسبق لهم مثله إلى هذا التاريخ(٢٤).

ونشرت «المقتطف» خلال الشهور الأولى من الحرب مقالا افتتاحيا، في ثماني صفحات بعنوان «الحرب بين الروس واليابان» جاء فيه: «ان للحرب الحاضرة أكبر شأن في مصالح البشر، وعليها سيكون مدار المناظرة القديمة بين الشرق والغرب. فان فازت روسيا، وسحقت دولة اليابان، بقي الفوز للغرب على الشرق قرونا كثيرة. وان فازت اليابان، ولم تعارضها في إنهاض بلاد الصين، فلا يستبعد ان يعود الفوز للشرق في بلاد المشرق في القريب العاجل»(٢٥).

والخلاصة ان الحرب الروسية ــ اليابانية كان لها صدى كبير في الأدب العربي الحديث الذي أنتج خلالها. وقد استمر هذا الصدى يتردد حوالي عشرين سنة بعد ان وضعت اوزارها. ويعود السبب إلى ان تلك الحرب كانت أهم الأحداث الدولية في ذلك الوقت، ولم يكن العالم قد شهد حربا في نطاقها الواسع منذ مدة طويلة. كما انها كانت أول حرب تقف فيها دولة شرقية في وجه احدى الدول الاوروبية الكبرى، ثم تخرج منها منتصرة، مما أثار مشاعر الاعتزاز والفخر بين الشعوب الشرقية. وقد حركت نهضة اليابان عواطف الوطنيين في البلاد العربية، وعرتهم منها هزة وطنية، فأخذوا

يدعون إلى اتخاذ اليابان قدوة في نهضة بلادهم وأمتهم. وكانت مشاعر أكثرية الأدباء تميل إلى اليابان بدافع النعرة الشرقية، وان ظهر بينهم من أبدى العطف على روسيا، وتمنى انتصارها، بسبب الرابطة الدينية.

ان الأدب الذي كتب بوحي من هذه الحرب ــ وخاصة في مجال الشعر ــ قد أغنى الأدب العربي، واضاف إلى الشعر العربي المعاصر لونا انقطع عنه الشعراء العرب منذ مدة طويلة، وهو وصف المعارك والحروب، ولم تظهر العناية بهذا اللون مرة أخرى إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى.

الهوامش

(١) قدرت خسائر اليابان بـ (...،١٧٥) قتيل. أما خسائر الروس فكانت حوالي (...،...،٣٠) جندي.

(٢) تضيف المصادر السوفيتية إلى أسباب انحدار روسية «خيانة عدد من الجنرالات القيصريين وجهلهم في المسائل الحربية»: آ. بريسوف، وآخرون «تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية ــ موجز»، موسكو، دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية، الطبعة العربية. ص ١٩١.

(٣) ان أول باحث أشار إلى هذا الأثر فيما نعلم، هو الاستاذ أنيس المقدسي في دراسة له عن «العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث»، نشرت للمرة الأولى في المقتطف (المجلد ٩٣ و ٩٤) في ١٩٣٩، ثم أعيد طبعها ضمن كتابه «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» بيروت، ١٩٥٢، ص ٢٧ ــ ٣٠. كذلك أشار إليه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في بحثه المعنون «أصداء ثورة ١٩٠٥ في الأدب العربي» والذي نشر باللغة الروسية في مجلة «الاستشراق السوفيتي»، ج ٣، ١٩٤٥، ص ٥ ــ ١٤.

(٤) روفائيل مسيحة «حافظ إبراهيم ــ الشاعر السياسي»، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧، ص ٣٢ ــ ٣٣.

(٥) نشرت القصيدة في العدد الصادر في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤، ج ١٢، م ٢٩، ص ١٠٦٨، وسقطت «بورت آرثر» في الثاني منه.

(٦) ديوان الخطيب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٧٣.

(٧) صدى الخاطر، ١٩١٣، ص ٣٤.

(٨) أنيس الخوري المقدسي، «الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث»، بيروت، منشورات الجامعة الاميركية، ١٩٥٢، ص ٣٠.

(٩) جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، الطبعة الانكليزية، لندن ١٩٣٨، ص ١٥٣.

(١٠) أسعد خليل داغر، «المدارس الروسية في سورية»، المقتطف: المجلد ٢٦، ج ١٠، القاهرة، اكتوبر ١٩٠١، ص ٩٠٢.

(١١) ساطع الحصري، «محاضرات في نشوء الفكرة القومية»، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٧١.

(١٢) ميخائيل نعيمة، «سبعون»، بيروت، ١٩٥٩، ج ١، ص ٧٦.

(١٣) أسعد خليل داغر، المرجع السابق، ص ٩٠٢.

(١٤) ساطع الحصري، المرجع السابق، ص ١٦١.

(١٥) ميخائيل نعيمة، «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٧) من شعراء المهجر، ومن ضهور الشوير في لبنان. ولد في بعلبك في ١٨٧٥، وهاجر إلى الولايات المتحدة في ١٨٩٢، ونشر في الصحف العربية التي كانت تصدر فيها قصائد جمعها في ديوان عنوانه «ديوان رستم»، طبع في بيروت، المطبعة الادبية ١٩٠٨. ويغلب على شعره الطابع الهزلي الخفيف، وهو ضعيف التركيب وفيه الكثير من التعابير العامية.

(١٨) وفي ديوان رستم قصيدة تاسعة تتعلق بروسيا ايضا، ولكنها ليست عن الحرب الروسية ــ اليابانية، بل عن حادثة قديمة هي معركة برثوب بين روسيا وتركيا في ١٧١٠، وعنوان القصيدة «بطرس الأكبر وزوجته كاترينا والقائد التركي»، ص ٢٦٦.

(١٩) ترجمة أسعد رستم بقلمه، في مقدمة ديوانه، ص ٥ ــ ٧.

(٢٠) أشار إلى هذا الديوان كراتشكوفسكي. المرجع السابق، ص ٩.

(٢١) من شعراء المهجر في البرازيل. ولد في زحلة في ١٩٠٣، وعاد في أخريات أيامه إلى لبنان. وقد جمع شعره في ديوان «تذكار المهاجر»، طبع في سان باولو، مطبعة المناظر، في ١٩٠٤، وقصيدته «عليا وعصام» نالت شهرة خاصة في العراق، وأخرجت في فيلم سينمائي.

(٢٢) نقد تحليلي لهذه الرواية ظهر في «المقتطف»، المجلد ٣١، الجزء السابع، يوليو (تموز)، ١٩٠٦، ص ٥٤٥.

(٢٣) الهلال، السنة ١٢، ج ١١، مارت ١٩٠٤، ص ٣٤٩.

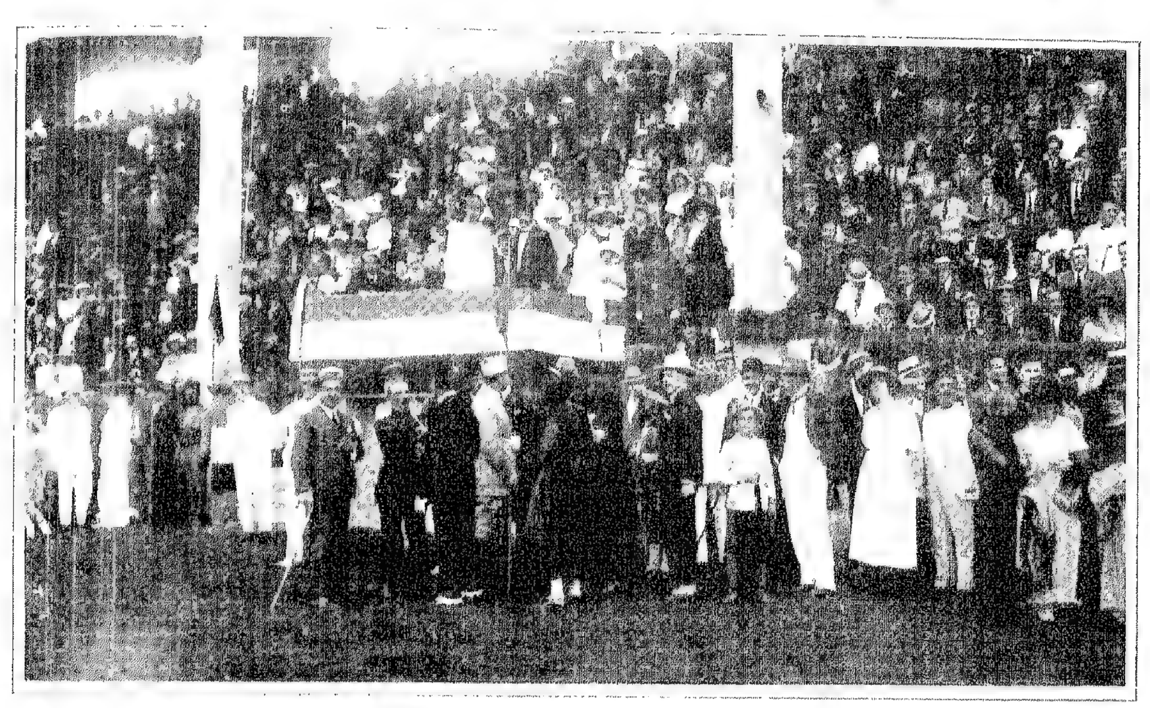
(٢٤) من مقال بتوقيع (م. ع. ج.) «الحرب الحاضرة ونتائجها»، المقتطف، مجلد ٣٠، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥.

(٢٥) «المقتطف»، المجلد ٢٩، ج ٣، مارت ١٩٠٤، ص ١٩٣.

تحليل الاتجاهات السياسية في لبنان

١٩٢٠ - ١٩٥٢

د. حسان حلاق



منصّة الاحتفال بولادة دولة لبنان الكبير (١٩٢٠)

تعتبر الاتجاهات السياسية في لبنان من أعقد الدراسات التاريخية المعاصرة وأصعبها نظراً لتعدد الاتجاهات وتناقضها وتشابكها وتبدلها باستمرار ونظراً لأن هذه الاتجاهات ليست هي في الحقيقة تيارات سياسية فحسب، بل هي تيارات طائفية ودينية ومنفعية، بل هي في حقيقتها ليست اتجاهات وتيارات لبنانية بقدر ما هي اتجاهات عربية أو صهيونية أو دولية: أوروبية أو أميركية أو سوفياتية.

هذه التيارات السياسية المتصارعة، كانت تتخذ حيناً طابعاً سياسياً بحتاً وطوراً تتخذ طابعاً طائفياً، وذلك تبعاً للظروف والحالات التي تمر بها وتبعاً للعوامل الكامنة في تحريكها، بل كانت هذه التيارات تتخذ أحياناً طابع الصراع الدولي ـــ تبعاً لصراع الأحزاب اليمينية واليسارية، أو صراع الفئات السياسية التي كان بعضها يدين بالولاء لهذه الدولة أو تلك. وعلى هذا يمكن عملياً أن نقسم الاتجاهات السياسية في لبنان في الفترة،

د. حسان حلاق، مدرس التاريخ في كلية الاداب ـــ جامعة بيروت العربية، له عدة مؤلفات في التاريخ المعاصر منها: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية / الاتجاهات السياسية الطائفية في لبنان / وتعريب النقود والدواوين في العصر الأموي...

من ١٩٤٣ إلى ١٩٥٢ إلى عدة أقسام وهي:
١ ــ إتجاهات سياسية وطائفية لبنانية.
٢ ــ إتجاهات سياسية عربية.
٣ ــ إتجاهات سياسية صهيونية.
٤ ــ إتجاهات سياسية دولية.

ومن خلال هذا التفريع للاتجاهات السياسية في لبنان يتبين لنا بأن التيارات السياسية من المنطلقات غير اللبنانية هي الغالبة والمسيطرة على الفكر السياسي اللبناني، هذا مع العلم أن التيارات اللبنانية ليست بالضرورة أن تمثل تياراً سياسياً إصلاحياً وطنياً، بل قد تمثل تياراً منفعياً استغلالياً.

إن الاتجاهات السياسية في لبنان، في الفترة موضوع الدراسة، تعتبّر من أهم الفترات في تاريخ لبنان المعاصر، لأنها الفترة التي وضعت فيها المحاولات الأولى لأسس دولة الاستقلال، وهي الاسس الطائفية التي لا يزال يعاني منها لبنان إلى عهدنا الحاضر، وهي الاسس التي انطلقت منها كافة المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة وإن ساسة عام ١٩٤٣ ظنوا أنهم قادرون على فصل لبنان ١٩٤٣ عن لبنان الانتداب ولبنان الامتيازات. فمنذ أن أعلن الجنرال «غورو» (gouraud) في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ دولة لبنان الكبير. ولبنان يئن من الصراعات السياسية أو الطائفية، ومنذ ذاك التاريخ ازداد انقسام اللبنانيين على انفسهم، فرغم أن دولة لبنان الكبير وحدت لبنان جغرافياً غير أنها لم تستطع أن توحد اتجاهات اللبنانيين السياسية، بل على العكس فمنذ اعلان غورو لبنان الكبير رفض الوحدويون ــ أكثرهم من المسلمين ــ الصيغة الجديدة، ونزعوا أكثر نحو المطالبة بتحقيق الوحدة السورية بين المناطق الساحلية في لبنان وبين سوريا الداخلية. كما ضاعف ذاك الاعلان من اتجاه المسيحيين وبالتحديد الموارنة نحو الانفصال التام عن سوريا والقبول بدولة لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي، فيما رأى القنصل البريطاني «ساتو» (Satow) بأن بعض المسلمين ايدوا صيغة لبنان الجديد، ولكنهم طالبوا باقامة العدل والمساواة، غير أن العناصر المسيحية تخوفت من هذه التحركات والمطالب الاسلامية.

ومن الاهمية بمكان القول أن الفرنسيين استغلوا هذه الانقسامات بين اللبنانيين وغذوها كي يتمكنوا من إحكام قبضتهم على البلاد وبصورة أسهل. وكان الوحدويون يعبرون عن



الجنرال غورو

رفضهم للصيغة الجديدة برفضهم قبول المناصب الحكومية باستثناء قلة منهم لئلا يفسر قبولهم بها اعترافاً بواقع ١٩٢٠، الأمر الذي أدى إلى أن يتولى المسيحيون غالبية المناصب الكبرى، والهامة في الدولة، وكان ذلك سبباً هاماً ورئيسياً في أن الادارة اللبنانية أصبحت «مسيحية الطابع». هذا ولا يمكن أن ننكر في أن المسلمين يتحملون الكثير فيما وصلت إليه الادارة اللبنانية من غياب إسلامي فيها، وكان هذا الحرمان والابتعاد عن مناصب الدولة نتيجة إيمانهم وتشبثهم بالوحدة السورية. ولما حاول المسلمون في أواخر الثلاثينات القبول بدولة لبنان الكبير والدخول إلى مناصب الدولة كانت الادارات والوظائف تغص بسواهم ممن سبق لهم أن باركوا وأيدوا إعلان غورو.

ومن المهم القول أن الدستور اللبناني الذي نشر في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٦ في عهد المندوب السامي هنري دي جوفنيل (H. de Jouvenel) خرج دستوراً طائفياً. فقد أوصى في مواده بتوزيع وظائف الدولة وتشكيل الحكومات على أسس طائفية، مما أدى إلى حدة الانقسامات بين اللبنانيين وقد نصت المادة (٩٥) على التوزيع الطائفي صراحة بقولها: «بصورة مؤقتة وعملاً بصك الانتداب والتماساً للعدل والوفاق، تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة، وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الاضرار بمصلحة الدولة» والغريب في الأمر أن هذه «الصورة المؤقتة» منذ عام ١٩٢٦ لا تزال مستمرة بنصها الحرفي إلى وقتنا الحاضر، الأمر الذي أدى إلى تكوين الطائفية السياسية التي لعبت دوراً بارزاً في تكوين الاتجاهات الحزبية والقيادية والفكرية. والجدير بالذكر أن دستور عام ١٩٢٦ ظل معمولاً به في عهود الاستقلال باستثناء تعديلات طفيفة واهية طرأت عليه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ لا تزيد عن تغيير ألوان العلم اللبناني، وإلغاء الفرنسية من إدارات الدولة والابقاء على اللغة العربية فحسب كلغة رسمية في الدولة، وحذف عبارة «عملاً بصك الانتداب» من بنود الدستور.

والحقيقة أن فرنسا ساهمت بدورها في تعميق الطائفية السياسية وبتكريس الانقسامات بين اللبنانيين، ومما ساهم في ذلك شعور المسلمين بالغبن لا سيما بعد اعترافهم بواقع لبنان الكبير، فبالاضافة إلى انتفاء أي احتمال لوصولهم لمنصب رئاسة الجمهورية منذ عام ١٩٢٦، فانهم أبعدوا أيضاً عن منصب رئاسة الوزارة ولم يتولوا هذا المنصب ولأول مرة إلا في عهد الرئيس إميل أده (١٩٣٦ — ١٩٤١) الذي اختار مسلماً موالياً للفرنسيين هو خير الدين الأحدب. وعلى حد قول الوزير البريطاني «سبيرز» (Spears) بأن الفرنسيين سيطروا على البلاد وحكموها بتقريب الموارنة إليهم واعطائهم امتيازات امتازوا بها عن سواهم من الطوائف.

وفي عام ١٩٤٣ وعندما تمكن اللبنانيون من نيل استقلالهم بعد أحداث تشرين الثاني (نوفمبر) استمرت الاتجاهات السياسية — الطائفية تفعل فعلها في «المجتمعات اللبنانية» ولم تحاول دولة الاستقلال صهر هذه «المجتمعات» في مجتمع لبناني واحد بل رأت أن خير وسيلة للابقاء على المصالح الذاتية هي في الابقاء على روح الاسلوب الفرنسي باستغلال الفكر الطائفي والديني وأحياناً السياسي واستخدامه كوسيلة يهدد به اللبنانيون بعضهم الآخر به كسلاح سريع الأثر.

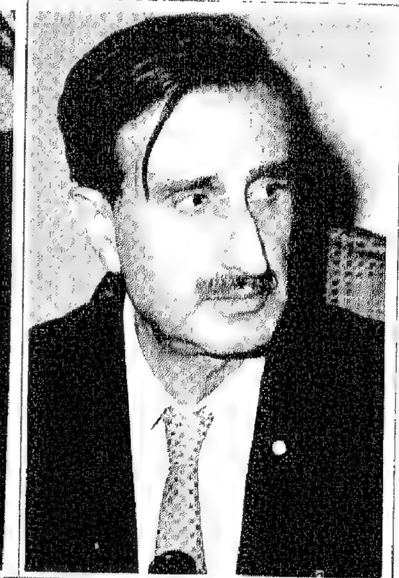
ويلاحظ بأن النظام السياسي الطائفي حكم لبنان على أساس أنه بلد عشائري ذلك «أن خمس لبنان يحكم البلد بواسطة رئاسة الجمهورية — والموارنة خمس اللبنانيين — وخمس لبنان الآخر — السُنة — يحكم البلد بواسطة رئيس الحكومة والشيعي والدرزي والأرثوذكسي والكاثوليكي والأرمني والأشوري والكلداني وما إلى ذلك يحكمون لبنان، هذا بخمسه وهذا بسدسه وهذا بعشره و... كأننا في نظام العشائر والبطون والافخاذ» وذلك على حد قول كمال جنبلاط في عام ١٩٥٨.

حقيقة أن الميثاق الوطني الذي أوجده بشارة الخوري ورياض الصلح كان لتهدئة الاوضاع السياسية في لبنان ولتأمين استقرارها، غير أنه منذ ولادته عام ١٩٤٣ ولد ميثاقاً طائفياً بأساليب سياسية، وكان بمثابة أداة تهدئة مؤقتة بين اتجاهين:

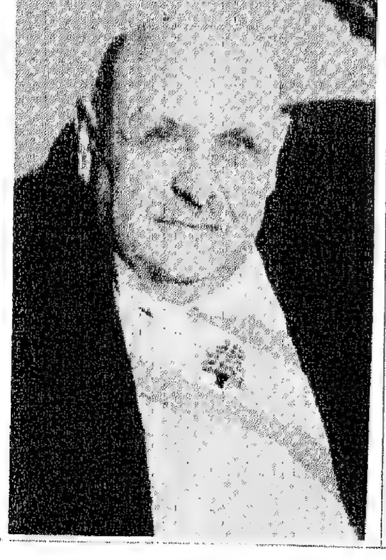
أولهما، الاتجاه الاسلامي الوحدوي الذي كان يؤمن بتحقيق الوحدة السورية.

وثانيهما، الاتجاه المسيحي اللاوحدوي الذي يؤمن باستقلال لبنان بحماية أجنبية.

غير أنه تبين من خلال ممارسات السياسيين في الفترة من ١٩٤٣ إلى ١٩٥٢ ان ما من أحد منهم إلا واستمر يعمل أو يصرح من أجل الوحدة العربية أو من أجل الحماية الاجنبية، مرة علانية ومرة أخرى في الخفاء. وراح رياض الصلح مثلاً يعمل من أجل التوازن العربي — اللبناني كقوله: «ماذا يمنع أن يكرس العلم اللبناني عربياً بألوانه، وأن تحتل الارزة صدر هذه الألوان» على حد قول صحيفة «الأيام» الدمشقية، مما أثار احتجاجاً لدى الأوساط



كمال جنبلاط



بشارة الخوري



رياض الصلح

اللاوحدوية. وكانت بعض الأوساط السورية لا تزال تطالب حتى هذه الفترة بإلحاق المناطق الساحلية اللبنانية بسوريا مما أثار العديد من التساؤلات حول حقيقة الموقف السوري.

والحقيقة التي لا ينبغي تجاهلها هي أن الميثاق الوطني ـ خلافاً للفكرة السائدة في لبنان والخارج ـ ليس اتفاقاً نهائياً على توزيع الرئاسات الثلاث بين الموارنة والسنة والشيعة، بل هو في الحقيقة اتفاق على أن يبتعد المسلمون عن اتجاهاتهم الوحدوية مقابل أن يبتعد المسيحيون عن طلب الحمايات الأجنبية وقد أكد هذه الحقيقة الرئيس بشارة الخوري نفسه حينما أشار في مذكراته «وما الميثاق الوطني سوى اتفاق العنصرين اللذين يتألف منهما الوطن اللبناني على انصهار نزعاتهما في عقيدة واحدة: استقلال لبنان التام الناجز دون الالتجاء إلى حماية من الغرب ولا إلى وحدة أو اتحاد مع الشرق». ومما يؤكد ذلك أيضاً بأن الرئاسة الثانية ـ رئاسة المجلس النيابي ـ لم تكن باستمرار للطائفة الشيعية، بل تولاها نائب أرثوذكسي عام ١٩٤٦ وبدعم وتأييد من رئيس الجمهورية نفسه الذي نصح الرئيس صبري حماده «بأن من مصلحته الاحتجاب عن الرئاسة مدة فيما لو فاز منافسه بها. وهكذا كان وفاز حبيب أبو شهلا بأكثرية ضئيلة..»

وهكذا استمرت الزعامات اللبنانية في استغلال «المجتمعات اللبنانية» المتناحرة أساساً، وكان كل زعيم أو نائب يمثل طائفته ومجتمعه الضيق رغم أن الدستور اللبناني يعتبر أن كل نائب يمثل كل لبنان وليس ناخبيه فحسب، مما أدى إلى زيادة التناحر والانقسامات والتهافت على كسب المغانم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي كان يؤدي إلى انهيار أسس لبنان قبل تركيزها. ولم تحاول تلك الزعامات الوقوف بجرأة في وجه التيارات الطائفية، بل كانت تشجعها حرصاً منها على مصالحها السياسية الخاصة. حتى أن رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه ووزرائه كثيراً ما كانوا يحرصون على أخذ آراء القوى الطائفية، السياسية والدينية على السواء استرضاء وتخوفاً من تهجم أو معارضة أو نقد.

ونظراً لتردي الأوضاع السياسية والادارية في الدولة برزت قوى معارضة ادعت أن هدفها «الاصلاح» في الادارات والشؤون العامة سرعان ما ينتهي هذا الهدف حينما تتولى زمام الحكم. غير أنه مما لا شك فيه أن تشابك الصلاحيات بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء كان من شأنه تعقيد الكثير من الامور

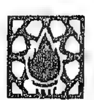

صبري حمادة


سامي الصلح

السياسية مما دعا العديد من الصحف اللبنانية ورؤساء الوزراء السابقين للمطالبة بتعديل الدستور اللبناني لتحديد الصلاحيات والمسؤوليات غير أن شيئاً من هذا لم يحدث، وعندما قرر النواب تعديل الدستور إنما قرروا تعديله عام ١٩٤٨ لتجديد الولاية لرئيس الجمهورية ست سنوات أخرى قبل انتهاء ولايته بسنة واحدة على أن تمتد الولاية الجديدة بين ١٩٤٩ ــ ١٩٥٥. ولم يعترض سوى قلة من النواب نجحوا في انتخابات ١٩٤٧ دون تدخل الدولة لمصلحتهم، بخلاف الذين سارعوا إلى تعديل الدستور وهم الذين نجحوا عبر تدخل أجهزة الدولة لمصلحتهم.

والجدير بالذكر أن الولاية الجديدة للرئيس بشارة الخوري لم تكن أفضل من الولاية الأولى بل ترديت خلالها الاوضاع العامة في البلاد، وزادت سلبيات الطائفية وعمت البطالة وتفشت الفضائح الادارية، وتفاقمت الصراعات الحزبية والعشائرية، وعادت الانقسامات حول نظرة اللبنانيين إلى كيان لبنان. وانقسم أركان الحكم أنفسهم على غرار ما وقع من خلافات حادة بين الرئيس بشارة الخوري، ورئيس وزرائه الرئيس سامي الصلح عام ١٩٥٢، مما دعا الصلح إلى إلقاء كلمة في المجلس النيابي عرفت باسم البيان ــ الفضيحة حيث أوضح بقوله «أردنا تطبيق القانون فحاربونا، حاربونا لاننا أردنا أن نطبق القانون القاضي بمنع المقامرة والقمار هو أحد مواردهم السرية. حاربونا لاننا شرعنا في مكافحة التهريب إلى إسرائيل لأن هذه المكافحة تقطع عليهم الرزق الحرام» ثم طالب الصلح باقالة رئيس الجمهورية في معرض تساؤله عن كيفية الاصلاح بقوله «كيف تريدون أن يتحقق إصلاح ونجاح إذا لم تستأصل شأفة العلة القاتلة ونقتلع جذورها؟»

ونظراً لتردي الاوضاع كان لا بد من استقالة رئيس الجمهورية في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ الذي دافع عن نفسه وسجل مشاعره حيال ما جرى في لبنان خلال حكمه بقوله: «معارضة ضارية ظالمة لا تعرف التحليل والتحريما .يشجعها الاجنبي، وموالاة متواكلة نائمة على الثقة، وفي كثير من أفرادها نهم ومطامع وأحقاد». ●



أنا في الحقيقة طاحونة، لست عملاقاً. ها أنا أقف في مكاني، خارج القرية، وحدي على هضبة رملية، لا أزور أحداً ولا أساعد أحداً، ولا أدع أحداً يساعدني... جميع الرياح الأثنين والثلاثين تصادقني. لا أطلب من الكون أجمعه غير ما يكفيني حتى تدور أجنحتي. ومطلبي الوحيد أن تدور أجنحتي...

(لسنج: خطابات ذات محتوى)



الغناء يحيي القلب(*)

حدّث من يفهم الغناء، قال:

بلغني أن جميلة قعدت يوماً على كرسي وقالت لآذنتها: لا تحجبي عنا أحداً اليوم، واقعدي بالباب، فكل من يمر بالباب فاعرضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غصت الدار بالناس؛ فقالت جميلة: اصعدوا الى العلالي(1)؛ فصعدت جماعة حتى امتلأت السطوح.

فجاءتها بعض جواريها فقالت لها: يا سيدتي؛ إن تمادى أمرك على ما أرى لم يبق في دارك حائط إلا سقط، فاظهري ما تريدين؟ قالت: اجلسي!

فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الماء الناس، فدعت لهم بالسويق(2)، فشرب من أراد، ثم قالت: أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يبق في سفل الدار ولا علوها أحد إلا شرب، وقام على رؤوسهم الجواري بالمناديل والمراوح الكبار، وأمرت جواريها فقمن على كراسي صغار فيما بين كل عشرة جارية تروح.

ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئاً أفزعني وأرعبني، ولست أعرف ما سبب ذلك، وقد خفت أن يكون قرب أجلي، وليس ينفعني إلا صالح عملي، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أن يلحقني منه شيء عند ربي!

فقال قوم منهم: وفقك الله وثبت عزمك! وقال آخرون: لا حرج عليك في الغناء. وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة: قد تكلمت الجماعة، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولم أعترض عليهم في قولهم، ولا شركتهم في رأيهم فاستمعوا الآن لقولي، وانصتوا ولا تشغبوا(3) إلى وقت انقضاء كلامي، فمن قبل قولي فالله موفقه، ومن خالفني فلا بأس عليه إذ كنت في طاعة ربي.

فسكت القوم جميعاً، وتكلم الشيخ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم قال يا معشر أهل الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فشلتم، ووثب عليكم عدوكم، وظفر بكم، ولا تفلحوا بعدها أبداً... إلى أن قال: إن الغناء من أكبر اللذات، وأسر للنفوس من جميع الشهوات، يحيي القلب، ويزيد في العقل، ويسر النفس، ويفسح في الرأي، ويتيسر به العسير، وتفتتح به الجيوش، ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه، ويبرىء المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره، ويزيد أهل الثروة غنى وأهل الفقر قناعة ورضاً باستماعه، فيعزفون(4) عن طلب الأموال. من تمسك به كان عالماً، ومن فارقه كان جاهلاً؛ لأنه لا منزلة أرفع، ولا شيء أحسن منه، فكيف يستصوب تركه، ولا يستعان به على النشاط في عبادة ربنا عز وجل؛ وكلام كثير غير هذا.

فما رد عليه أحد، ولا أنكر ذلك منهم بشر، وكل عاد بالخطأ على نفسه، وأقرّ بالحق له!

ثم قال لجميلة: أوعيت ما قلت؟ ووقع من نفسك ما ذكرت؟ قالت: أجل! وأنا استغفر الله. قال لها: فاختمي مجلسنا وفرقي جماعتنا بصوت فقط، فغنت:

أفي رسم دار دمعك المترقرق ... سفاهاً! وما استنطاق ما ليس ينطق

بحيث التقى جمع وأقصى محسر(5) ... مغانيه قد كادت عن العهد تخلق

مقام لنا بعد العشاء ومنزل ... به لم يكدره علينا معوق

فأحسن شيء كان أول ليلنا ... وآخره حزن إذا نتفرق

فقال الشيخ: حسن والله! أمثل هذا يترك! لا والله ولا كرامة لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناس معه، وقال: الحمد لله الذي لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته، وسلام عليك ورحمة الله يا جميلة.

◇

(*) الأغاني: 8 ــ 224.

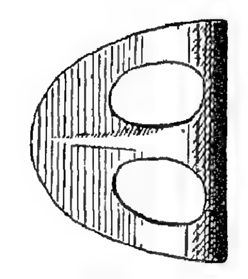
(1) العلالي: جمع علية، وهي الغرفة.

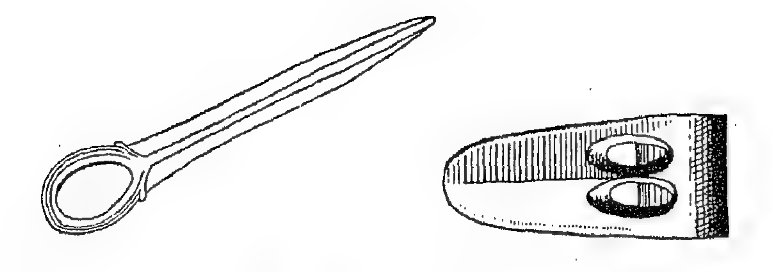
(2) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير.

(3) شغبت على القوم: هيجت الشر عليهم.

(4) عزفت نفسي عن الشيء: تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه.

(5) جمع: علم للمزدلفة. ووادي محسر: موضع بين منى والمزدلفة.

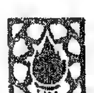




فلسطين

في الألف الثاني قبل الميلاد

د. ديمتري برامكي



نشأت في مستهل الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل نشأت حضارة رائعة، فقامت المدن المسورة وازدهرت الصناعة والتجارة والهندسة وترعرع الفن. دامت هذه الحالة لمدة سبعة قرون أو أكثر بقليل ثم انهارت تحت وطأة هجوم قبائل همجية من العموريين أو الأموريين الذين دمروا المدن، ودبت الفوضى في البلاد إذ لم يكن بوسع مصر أن تصد تلك الهجمات نظراً لرزوحها تحت وطأة الاقطاعية التي انتشرت في المملكة المصرية في أوائل القرن الثالث والعشرين. بقيت هذه الفوضى منتشرة حتى أوائل الألف الثاني عندما قضى الفرعون انتف على الفوضى في مصر وحل محلها الاستقرار فانعكست هذه الحالة في فلسطين إذ أمّت البلاد قبائل ماهرة في صناعة المعادن من جهة وقوي شمل السلطة المصرية وأعادت هيبتها إلى المنطقة من جهة أخرى. فقامت المدن الجديدة على أنقاض المدن التي دمرها العموريون ونشأت حضارة جديدة أرقى بكثير من الحضارة السابقة. إنما موجة العموريين اصبغت البلاد بصبغة عربية محضة ولا أقول سامية لأنه حسب اعتقادي أن عبارة سامي وسامية وساميين غير صحيحة ومبنية على خرافة غير حقيقية. وبما أن مهد الأقوام التي سماها شلوزر سامية في سنة ١٧٨١ هي الجزيرة العربية ولذلك من الأصح أن نسمي هذه الأقوام بالأقوام العربية ونسمي لهجاتهم بلهجات عربية.

د. ديمتري برامكي: مولود (١٩٠٩) في الأردن، حامل شهادة دكتوراه بالآثار من جامعة لندن (١٩٥٣)، امين متحف الآثار بالوكالة في فلسطين ١٩٤٦–١٩٤٩ وأمين متاحف الجامعة الأميركية في بيروت منذ ١٩٥١. استاذ الآثار (١٩٥٨)، في الجامعة نفسها.







والعموريون عندما شنوا حملاتهم على فلسطين والبلاد المجاورة لم يكن لهم حضارة تذكر إنما كانوا يعتنون بموتاهم أكثر مما كانوا يعتنون بحياتهم على الأرض وخلدوا قبوراً كثيرة نرى فيها عناية خاصة بالموتى.

والقسط الأوفر في ازدهار مدنيّة الألف الثاني في فلسطين يعود إلى أقوام لا نعرف هويتهم بالضبط سماهم العلامة الدكتور شيفر بحملة الأطواق (Porteurs de torques) لأنهم كانوا يتزينون بالأطواق المعدنية من فضية ونحاسية يحملونها حول أعناقهم. فتعلم العموريون صناعة المعادن منهم وأخذوا يصنعون أواني خزفية بشكل الأواني المعدنية. زعمت المرحومة كثلين كنيون أن حملة الأطواق هم الكنعانيون ولكني لا أشاطرها هذا الرأي لأن حملة الأطواق جاؤوا من الشمال وتمكن الدكتور شيفر الآنف الذكر من تتبع تجوالهم من جبال القفقاس إلى فلسطين والبلاد المجاورة. والكنعانيون أقوام من أصل عربي ولكن يبدو أن الكنعانيين هم نسل العموريين الذين جاؤوا من الجزيرة العربية عن طريق شرقي الأردن من جهة وحملة الأطواق من جهة أخرى.

ونلاحظ أن منذ مستهل الألف الثاني قبل الميلاد أن التجارة ازدهرت وأقيمت علاقات تجارية وثقافية بين فلسطين وبين البلاد المجاورة خصوصاً مصر. كما نلاحظ أن صناعة الخزف وصناعة المعادن وطرق الدفن والهندسة طرأ عليها نظام جديد دام نحو سبعة قرون. بانتشار التجارة أخذت فلسطين تتأثر بالحضارات التي انتشرت في مصر والعراق وآسيا الصغرى وحتى جزيرة كريت ومما ساعد بنشوء الحضارة الجديدة كانت الحملات التي شنها فراعنة الأسرة الثانية عشر مثل سنو سرت الأول والثاني التي وضعت حداً للفوضى التي كانت شائعة في البلاد. فالحفريات التي أقيمت في بيسان ومجدو وأريحا وتل العجول وتل بيت مرسم وتل القاضي وبلاطه تعكس لنا صورة واضحة لأقوام كادحين في أعمالهم دأبهم السعي وراء حرفهم ومهنهم وعبادة آلهتهم وتحصين مدنهم وصد هجمات جيرانهم. صنفت المرحومة كثلين كنيون الألف الثاني قبل الميلاد والذي يدعى بالعصر البرونزي المتوسط والعصر البرونزي المتأخر صنفت هذا العصر إلى عدة أقسام: فهنالك العصر البرونزي المتوسط الأول والعصر البرونزي المتوسط الثاني وقسمت الأخير إلى خمس مراحل ولكنني لا أشاطرها هذا التقسيم بمجمله، أوافق معها بتقسيم العصر البرونزي إلى القسمين ولكني لا أرى مبرراً إلى تقسيم الثاني إلى خمس مراحل وأفضل تقسيمه إلى ثلاث مراحل فقط. فحسب رأيي أن القسم الأول يمتد من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٨٥٠ ق.م. ومراحل القسم الثاني يمكن تحديدها على ثلاث مراحل من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٧٨٠ ومن سنة ١٧٨٠ إلى سنة ١٧٣٠ ومن سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٥٨٠ عندما طُرد الهيكسوس من مصر.

وفي العصر البرونزي المتوسط برمته كانت فلسطين وفينيقيا وسوريا ممر القوافل بين مصر من جهة والعراق وآسيا الصغرى من جهة أخرى. فرجال القبائل الرحل الذين كانوا في هذه البلاد انضموا إلى الجيوش المصرية في القسم الأول من العصر وفي القسم الثاني انضموا كمرتزقة إلى جيوش الهيكسوس وعادوا إلى بلادهم أثرياء من غنائم الحروب التي

شاركوا فيها، يظهر هذا جلياً مما تركه هؤلاء الأشخاص من ذخيرة في قبورهم.

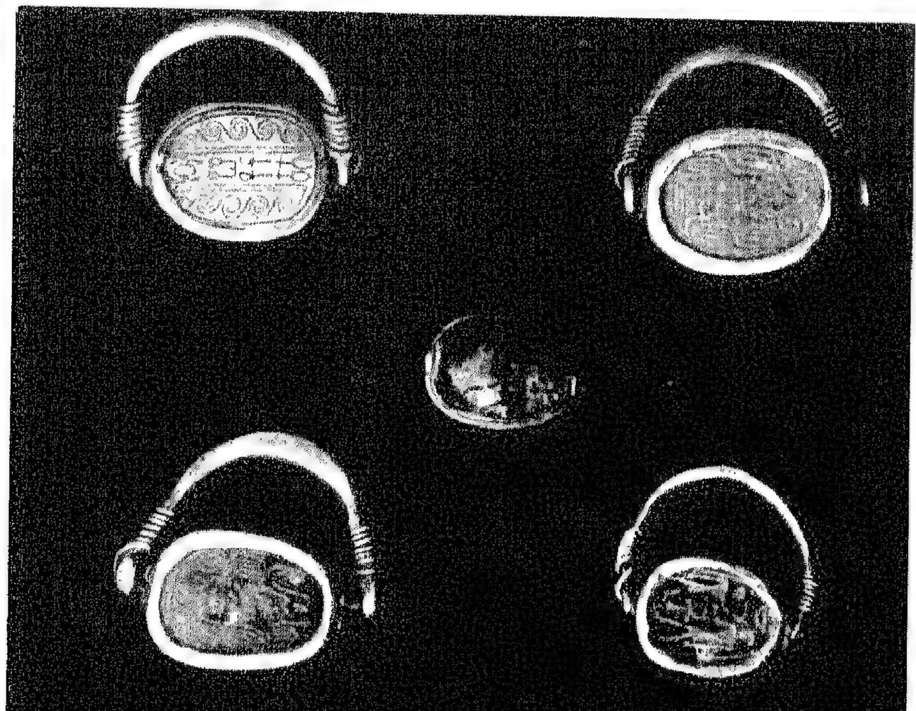
أما فيما يختص بالهندسة فإن أسوار المدن كانت مبنية من حجارة ضخمة وكانت الأسوار مائلة من الخارج. وجدت نماذج من هذه الأسوار في مدينة شكيم القديمة وتل فارة وتل بيت مرسم وأريحا. إنما الأسوار في أريحا كانت مبنية من اللبن والقسم الأعلى من الأسوار كان مبنياً باللبن. وكانت الأسوار تحصن بأبراج من الخارج وفيها مدخل محصن تحصيناً قوياً مزود بثلاث دعامات من كل جانب يقسم المدخل إلى قسمين، وبين كل زوج من الدعامات أقيم باب من الخشب أي كان للمدخل ثلاثة أبواب الواحد تلو الآخر. وجدت مداخل من هذا الشكل في مجدو وتل بيت مرسم وتل فارة وبلاطة. وكانت الأسوار سميكة بحيث يمكن بناء بيت فوقها. أما فيما يختص ببناء المعابد فالحجارة كانت مربعة عند الزوايا ومدقوقة دقاً ناعماً. وجدت بقايا أبنية على هذا النمط في تل بيت مرسم حيث عثر على بيت لأحد النبلاء يرقى إلى القرن السابع عشر، يحتوي هذا البيت على باحة أمامية على جانبيها بناءان يحتوي واحد منهما على أربع غرف والآخر على غرفتين كما وجدت أبنية مماثلة في أريحا ومجدو وبلاطة وتل العجول. فالبيت في بلاطة يحتوي على باحة داخلية تحيط بها الدواوين والغرف على جوانبها الأربع. والمعابد كانت تحتوي على غرفة صغيرة بداخلها مذبح أقيم أمام الحائط الخلفي. أمام المعبد فكانت باحته واسعة.

وكان أهل هذا العصر يدفنون موتاهم بمغائر اصطناعية منحوتة بالصخر. وكانوا يضعون في القبر جميع ممتلكات الميت. وكانوا يدفنون عدة جثث في قبر واحد كما وجدنا في تل فارة وتل الدوير وأريحا، وفي أريحا عثرت المرحومة كثلين كنيون على مدافن عائلية فيها عدد كبير من الأواني الخزفية وأدوات نحاسية ومناضد من الخشب والحصر وأسِرَّة حتى ولحم جاف.

قبر في أريحا من الألف الثاني ق.م



خزف من
الألف الثاني

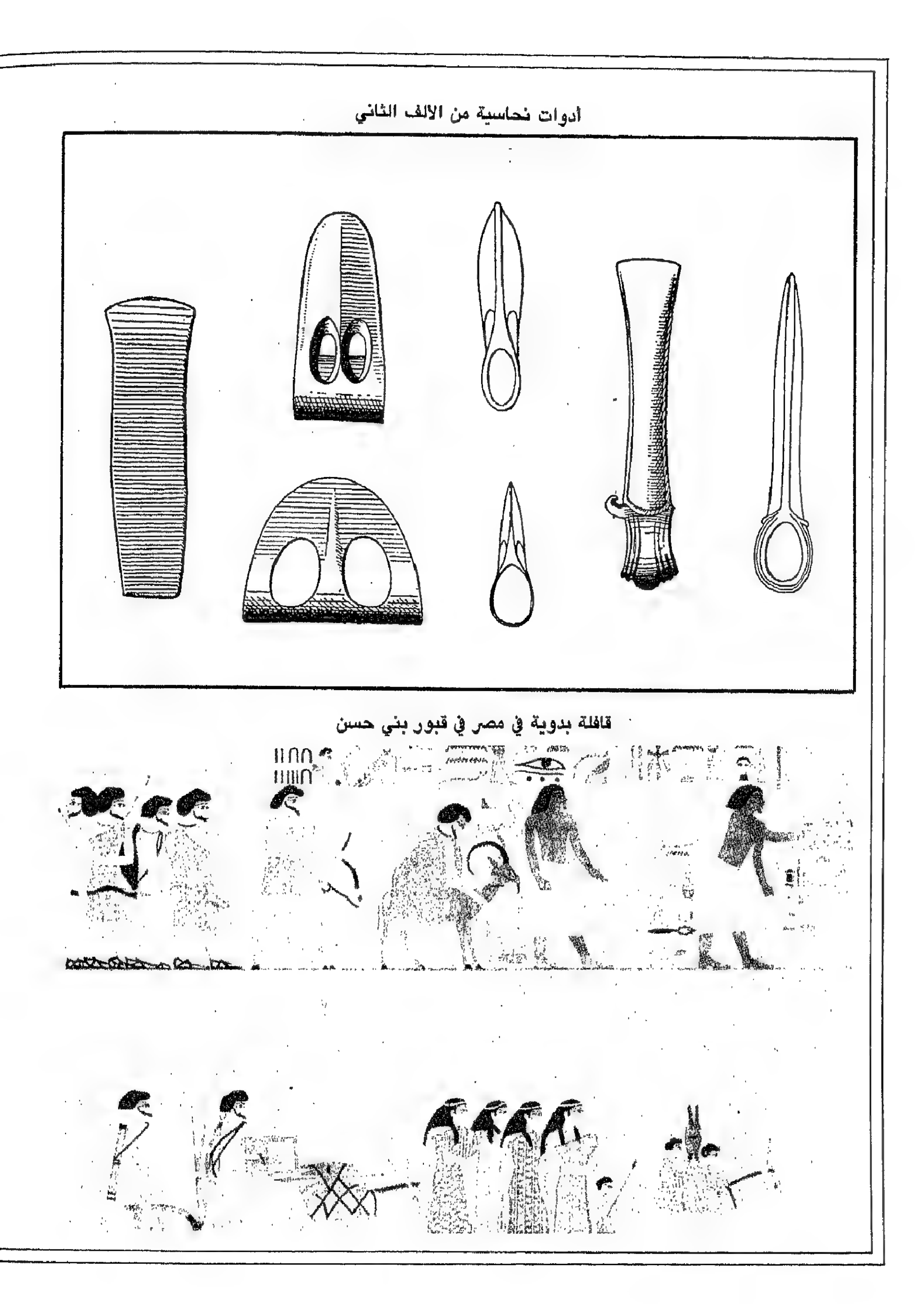


إن الخزف الذي صنع في العصر البرونزي المتوسط من أجمل ما صنع من خزف في فلسطين حتى العصر الهلنستي. وتنوعت أشكال الخزف في هذا العصر وكانوا يفضلون الشكل الاجاصي.

ففي المرحلة الأولى من هذا العصر أي ما بين ١٩٢٥ إلى ١٨٥٠ ق.م. كانوا يطلون أوانيهم باللون الأحمر القاني ويصقلونها صقلاً لماعاً ومن أوانيهم الطاسات والأباريق والصبابات والمغاطس كلها مصنوعة بالشكل الاجاصي.

وفي القسم الثاني من العصر أي ما بين ١٨٥٠ و١٦٠٠ ق.م. ففي الفترة الأولى أي ما بين ١٨٥٠ و١٧٨٠ لم يطرأ أي تبديل على شكل الأواني إنما استعاضوا عن الطلاء باللون الأحمر بطلاء بلون عاجي وكثير من الأواني كانت تدهن بطوق من الأحمر أو البني. وفي الفترة الثانية أي ما بين ١٧٨٠ و١٧٣٠ تلاشى الطلاء والصقل وأخذوا يعالجون الأواني من الخارج بشريطة مبلولة وطرأ تبديل على شكل بعض الأواني فأخذت تظهر الطاسات المجأجأة والأواني المزودة بقعر يشبه البوق وبدون أعناق. كما ظهرت لأول مرة الأسرجة المكموشة. وفي هذا العصر ظهر ابريق جديد شكله اجاصي ومطلي بطلاء أسود أو رمادي قاتم ومزخرف بأشكال هندسية بثقوب دبابيس. يعرف هذا بخزف تل اليهودية حيث عثر عليه لأول مرة. وفي الفترة الأخيرة التي تمتد من سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٦٠٠ أي عصر الهيكسوس ظهرت أشكال جديدة مثل الأباريق الاسطوانية الشكل وتلاشى الشكل الاجاصي شيئاً فشيئاً ولكن الجأجأة زادت بشكل ملحوظ. وهنالك أشكال كانت تصنع في جميع الفترات من جرار وصبابات وأباريق ومغاطس.

عدا هذه الأواني كان أهل هذا العصر يصنعون الأواني من البرونز والفضة والذهب ويقال ان الجأجأة في بعض أشكال الأواني الخزفية منقولة عن الأواني المصنوعة من المعادن.



أدوات نحاسية من الألف الثاني

قافلة بدوية في مصر في قبور بني حسن

وخطت صناعة المعادن خطوات بارزة إلى الامام وصنع أهل هذا العصر عدداً من الأدوات والأسلحة من هذه المادة بما فيها الخناجر ورؤوس الفؤوس والبلطات ورؤوس الرماح. والخناجر تشبه أوراق الغار. كانت تمسمر بأيد من الخشب أو العاج بمسامير برونزية صغيرة تمر بثقوب في أسفل الخنجر. أما الفؤوس فكانت مثقوبة بوسطها لبرشمة اليد. أما البلطات التي كانت تستعمل بالحروب فكانت بشكل نصف دائرة مثقوبة بثقبين ومزودة بأنبوب في طرفها لوضع اليد أو المسكة وإن رؤوس الرماح كانت مزودة بأنبوب تدخل اليد فيها.

وأدوات الزينة تتكون من دبابيس مروسة برأس يشبه البطيخ كما وأنهم كانوا يزينون أنفسهم بأشكال حلزونية من الفضة والبرونز، وجد عدد كبير من الأشكال الحلزونية في تل العجول كما استعملت أيضاً الجعلان يرصعون بها الخواتم إن كانت من الذهب أو الفضة واستعملوا أيضاً العقود والأساور والخرز المصنوع من الذهب والفضة والكورنالين والحجر اللازوردي والفيروز. وكثر استعمال الجعلان في زمن الهيكسوس أي الفترة الثالثة من العصر البرونزي الثاني وكان أهل هذا العصر يتلهون بالألعاب ذات المهارة يستخدمون لذلك الألواح الحجرية مثل لعبة الضاما العصرية.

وبرع أهل هذا العصر بالتجارة ولنا برهان على ذلك من لوحة في قبر وجد في بني حسن في مصر يظهر عليها صورة اعراب يحملون كمية من الأثميد لبيعها في مصر كما يحملون على حميرهم منافخ لصناعة المعادن.

العصر البرونزي المتأخر

بعد أن طرد المصريون الهيكسوس من مصر ونظموا الادارة في البلاد أخذوا يشنون الحملات على فلسطين وفينيقيا وسوريا. شن الفرعون تحوتمس الأول حملة استطلاعية وبعد فترة وجيزة شن الفرعون تحوتمس الثالث ست عشرة حملة وتمكن من السيطرة على فلسطين وفينيقيا وسوريا سيطرة تامة.

يمتد هذا العصر من أوائل القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر. يقسم هذا العصر إلى مرحلتين. في المرحلة الأولى التي تشمل القرنين السادس عشر والخامس عشر كانت فلسطين تابعة للحكم المصري والمرحلة الثانية وتشمل القرنين الرابع عشر والثالث عشر، حين دبت الفوضى في البلاد في زمن الفرعون أخناتون والهجمات التي شُنت على فلسطين من قبائل همجية تدعى حبيرو ربما كان الاسرائيليون قسماً منهم. ففي المرحلة الأولى كان تأثير المصريين كبيراً ولكن في المرحلة الثانية تعرضت فلسطين إلى تأثيرات عديدة زيادة على التأثير المصري كالتأثير الايجي والكريتي والحثي والعراقي نظراً لازدهار التجارة مع هذه البلدان.

فرض فراعنة مصر ضريبة باهظة على فلسطين فأفقر هذا البلد والدليل على هذا تدمير بعض المدن تدميراً كاملاً وصغر حجم ما تبقى من المدن الأخرى. أما الدليل الساطع على الفقر فهو ضآلة محتويات القبور التي ترقى إلى هذا العهد والانحطاط الذي أصاب الحرف والفنون. وليس هنالك من فرق بين هندسة هذا العهد والعهد السابع إلا أن الانجاز أصبح ركيكاً. عثر على معبدين يرقيان إلى الالف الثاني قبل الميلاد أحدهما وجد في مجدو والآخر في تل الدوير. والأول يحتوي على أيوان كبير في مؤخرته نتوء في الحائط لوضع تمثال الاله أو رمز ديني له. عند المدخل كانت غرفتان صغيرتان ربما أعدتا لخدم المعبد. ومعبد تل الدوير بني على ثلاثة مراحل. ففي المرحلة الأولى كان يحتوي على ايوان طوله عشرة أمتار وعرضه خمسة أمتار. كان يرتكز سقفه على صواديد من الخشب قائمة على أساسات من الحجارة. وفي طرف المعبد أقيم مذبح صغير قرب أحد طرفيه غرفة صغيرة للكاهن: وأمام المعبد أقيم رواق. يرجع تاريخ هذا المعبد إلى سنة ١٤٨٠ ق.م. وهجر في أواخر

القرن الخامس عشر ولكن أعيد بناؤه بعد فترة وجيزة من الزمن في أوائل القرن الرابع عشر على نطاق أوسع. كان هذا المعبد مربعاً وكان سقفه يرتكز على أربعة صواديد من الخشب قائمة على أساسات من الحجارة. وفي طرفه الجنوبي أقيم مذبح وعلى جوانبه الثلاثة الباقية بنيت مقاعد مزدوجة. خلف المعبد أقيمت غرفة صغيرة يصلها بالمعبد باب على جانب المذبح. أعيد بناء هذا المعبد في أواسط القرن الرابع عشر حين أزيل الحائط بين المعبد والغرفة خلفه وبنيت غرفة جديدة إلى الطرف الغربي من الغرفة ذاتها. وجد في هذا المعبد تمثال صغير من البرونز للاله الفينيقي رشف.

ومن الأبنية التي ترقى إلى هذا العصر عثر في مجدو على بيت ربما كان قصر الملك أو الحاكم. يحتوي هذا البناء على ايوان كبير يؤدي إلى عدد من الغرف في أطرافه الشمالي والشرقي والغربي، وبابه كان في طرفه الجنوبي. يبلغ طول البيت خمسين متراً وعرضه ٢٥. وجد في هذا البناء دخيرة من الحلي الذهبية كالقلائد بشكل قرون وخواتم عدا الخرز من الحجر اللازوردي والزجاج ومجوهرات أخرى.

ووجد في بيسان معبد يرقى إلى القرن الرابع عشر يحتوي على عدد من الغرف ودواوين ووجد نصب في أحد الدواوين.

إن بوابة المدينة في مجدو بنيت فوق البوابة التي ترقى إلى العهد السابق ولا تختلف عنها إلا بركاكة البناء.

بالاجمال كان العصر البرونزي المتأخر عصر انحطاط ويظهر هذا جلياً في صناعة الخزف. إن جميع الأواني التي كانت تصنع في المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط ما زالت تصنع في هذا العصر ولكنها فقدت جمال صنعها فالصقل تلاشى تماماً. حاول أهل هذا العصر أن يستعيضوا عن جمال أشكال الأواني بدهانها. رغم ذلك ظهرت أشكال جديدة، منها الأواني التي كانت تدهن بلونين على كتفها بصور الحيوانات والطيور ضمن إطار مربع وتصقل صقلاً لماعاً ولكن هذا النوع من الخزف لم يدم



تمثال برونزي للإله رشف

أكثر من خمسين سنة وهو نادر جداً. من الأشكال التي ظهرت لأول مرة الجرار الصغيرة والمدهونة بلونين ولكن بدون صقل. والطاسات الصغيرة والمزودة بقاعدة عالية نقلاً عن الطاسات المصرية المصنوعة من الألبسطر. ظهرت في هذا العصر أيضاً صبابات تختلف عن صبابات العصر السابق مدهونة على الكتف بأشكال أشعة الشمس.

ولكن إن كانت صناعة الخزف المحلية عديمة الذوق فقد استورد أهل البلاد الخزف القبرصي والخزف الميسيني الجميل الصنع والزخرفة من طاسات وأباريق وأواني عدسية الشكل وأواني اسطوانية وطاسات وهلم جرا، والخزف القبرصي يكون عادة مطلياً بطلاء أسود ومدهوناً في بعض

الأحيان بحزوز بيضاء. أما الخـزف الميسيني فإما أن يكون مدهوناً باللون البرتقالي أو اللون البني ومصقـولاً صقلاً لـماعاً. ولا حـاجة إلى وصف هذه الأواني برمتها ونكتفي بذكر واحدة منها فقط هي الطاسة القبرصية النصف كروية والمدهونة باللون البني على شكل سلالم فوق أرضية بيضاء ومزودة بيد تشبه عظمة الترقوة المعروفة عند العامة باليدست.

وكما كانت الحالة بالخزف كذلك في صناعة المعادن. إن رؤوس البلطات التي ألفناهـا في العصر البرونزي المتوسط تلاشت تمامـاً وحل محلها رؤوس بلطات مستطيلة. كـذلك ظهرت خناجر جديدة بدلاً من أن تكون مزودة بأنبوب لادخـال اليد فيهـا كانت تـزود في مؤخـرتها بسيلان لادخاله بـاليد. كـذلك رؤوس الرماح زودت بسيلان (Tang) لادخاله في اليد. وظهرت لأول مرة رؤوس النبل البرونزية إذ قبل ذلك كانوا يستعملون رؤوس نبل من الظران. وفي كثير من الأحيان زودت هذه بشـوكات. كـذلك تلاشت الدبابيس المعروفة بـ (Toggle pins) وحـل محلها دبـابيس مزودة بـرأس حلزوني الشكـل وندرت الحـلى المصنوعـة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وحـل محلها حـلي مصنوعة من معجون زجاجي مصبـوغة بلون الفيروز استوردها أهل فلسطين من مصر. كانوا يتحلون بعقود وقلائد من هذا النوع من الخرز كما وأنهم استوردوا من مصر أواني صغيرة للعطور والمساحيق المصنوعة من ذات المادة كما استوردوا كميات كبيرة من العاج المحفور من فينيقيـا. وكثر استعمـال الجعـلان المصريـة خصـوصاً المحفـورة باسم تحـوتمس الثـالث ورعمسيس الثاني كما استـوردوا من العراق الأختام الاسطوانية.

وكثـرت في هـذا العصر تمـاثيـل الآلهـة البرونزية. وجدت تماثيل للاله الفينيقي رشف في كل من تل أبي حوام وتل الدوير ومجدو. صنعت هذه عن طريق الشمع المفقود كما وأنه صنعت كميات كبيرة لآلهة الخصاب نقـلاً عن الآلهة المصرية حاثور كما وأنه شاعت صناعة تماثيل أخرى تمثل الحيوانات والطيور ربما كان لها مغزى ميثولوجي أو كـانت ألعاب يتلهى بهـا الصغار.

وازداد استعمـال الكتابـة فكانت تستعمـل الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية وظهرت بوادر الكتابة الهجائية في سيناء ومنها انتقلت إلى فلسطين إذ وجد في تل الدوير جرة مكتوب عليها كتابة بالأحرف الأبجدية.

ونظراً لنمو التجارة مع مصر فلطالمـا نجد أواني صغيرة مصنوعة من الالبسطر في بعض المواقع الفلسطينية مثل مجدو وبيسان وحاصور وتل الدوير.

إن النحت لم يـرق بأعـين الفلسـطينيـين القدماء. وجد في تل بيت مرسم نصب محفور عليه آلهة بأسلوب بدائي. ولكن استورد أهل البلاد الانصاب مثل نصب الفرعون ستي الأول كما وجد في بيسـان نصب من حجر البـزلط محفور عليه أسد وكلب الآلهة نرجال استورد من العراق. ووجدت بعض الانصاب في مجدو ولكنها من صنع مصري.

أما طرق الدفن في هذا العصر فلا تختلف عن طرق العصر السابق. فالموتى كانوا يقبرون بمغاور عائليـة اصطنـاعية كمـا وأنهم كانـوا يضعون في القبر جميع ممتلكات الميت.

استورد أهل هذا العصر بعض العاجيات من فينيقيا وجد بعضها في مجدو.

فحضارة العصر البرونزي المتوسط والمتأخر من صميم اسهـام الكنعـانيـين والعمـوريـين المنحدرين من أصل عربي والفضل في الحضارة التي نشأت في فلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد يعـود للعرب فقـط ولا دخل فيـه للاسـرائيليـين الذين بقـوا في حـالة البـداوة لا يملكون مدناً تذكر حتى زمن الملك داوود في العصر الحديدي الذي نشـأ في أواخر الألف الثـاني وأوائـل الألف الأول قبـل المـيلاد والحضارة التي نشأت في ذلك الحـين لم تكن رائعـة ولم تضاهِ حضـارة الألف الثاني رغم الانحطاط الذي انتاب البلاد في العصر البرونزي المتأخر. ●

إدريس الأول

ت: ٧٧هـ/ ٦٩٦م

د. سُهيل زكّار



هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ، فالبعض يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق ما عداه من الناس في وقته، وبذلك تسنى له أن يتربع على مقعد للزعامة، وأن يحدث تغييرات كبيرة، وانجازات خطيرة، تأثر بها معاصروه ومن أتى بعدهم بدرجات مما تسبب له بالشهرة والخلود، والبعض الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع التاريخ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي صنع أحداث التاريخ، إنما إذا راعينا متذكرين أن لكل واقعة من الوقائع العديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ، وأن البطل الفرد وحده لا شيء، بدون جماهير تستجيب لقضيته، التي تعتبرها قضيتها، وتتعاون معه وتحت قيادته لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد.

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي، ولها أسباب قريبة، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجاز، يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الانجاز، وقد يكون الانجاز كبيراً، له فاعلية الاستمرار، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل، وقيام الفراغ والحاجة، يقودان نحو الاستغلال الأعظم لانجاز «البطل» وهكذا يبدأ الناس في اغناء دور البطل بتفسيرات وشروح كبيرة، ثم باضفاء مواد جديدة عليه، حتى يتم تحويله من واقعة تاريخية إلى واقعة شبه اسطورية.

ويمكن لنا أن نرى هذا الحال في شخصية المولى ادريس الأول في المغرب الأقصى، ففي دولة مغرب اليوم ــ كما في الماضي ــ يلاحظ الانسان أن السواد الأعظم من ملايين سكان المغرب من أصل عربي أو بربري سواء ينسبون أنفسهم إليه، كما أنهم يعتقدون أن كيان دولتهم ظهر لأول مرة على يديه.. والمولى ادريس هو واحد من أبناء عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبناء الحسن بن علي من حزب الشيعة، لم يكن لهم نشاط يذكر في العصر الأموي، بل شغلوا أدوارهم التاريخية في العصر العباسي، ففي أيام أبي جعفر المنصور ثار اثنان من أبناء عبدالله وهما محمد النفس الزكية ثم أخوه ابراهيم، وقد استطاعت جيوش المنصور القضاء على ثورتيهما وقتلهما مع اعداد كبيرة من الشيعة، وكان النفس الزكية قبل اعلان ثورته، قد أرسل دعاته واخوانه إلى أمصار العالم الاسلامي للدعوة له، وللاعداد لثورة على العباسيين، ومن أخوانه الذين بعثهم إلى شمال افريقية كان عيسى، وقد نشط في تونس، وسليمان وقد نشط في المغرب الأوسط، ثم تحول

استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق

إلى منطقة الصحراء.

وفي أيام الخليفة الهادي حفيد المنصور، ثار حسني جديد في الحجاز، هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان ذلك سنة ١٦٩ هـ، وسار إلى مكة لأخذها في موسم الحج، فتصدت له القوات العباسية، وواقعته يقع على بعد ثلاثة أميال من مكة، وبطشت به وبأنصاره بلا رحمة، ثم لاحقت من نجا من المعركة لاستئصاله.

وكان ادريس بن عبدالله ممن شارك بموقعته فخ، وكتبت له الحياة، ففر مع مولى له اسمه راشد نحو مصر، ومنها إلى المغرب الأقصى، حيث حل فيه سنة سبعين ومائة للهجرة، وقصد مدينة طنجة، التي كانت قاعدة المغرب الأقصى، وأهم مدنه.

وفي سنة اثنين وسبعين ومائة، توجه ادريس نحو داخل المغرب، فنزل مدينة وليلي، في منطقة جبل زرهون الحصينة، والكثير الثراء الزراعي، خاصة شجر الزيتون، ومدينة وليلي تقع الآن خرائبها على مسافة حوالي العشرين كيلو متراً من مدينة مكناس، في وسط المغرب، وهي مدينة أسست في عهد الحكم الروماني للمغرب، وآثارها ذات مكانة لا بأس بها.

كانت وليلي تحكم من قبل قبائل أوروبة البربرية، وقد اتصل المولى ادريس بزعيم أوروبة، وكانت هذه القبائل على درجة كبيرة من القوة وكثرة الرجال، كما يبدو أنها كانت متأثرة بشكل كبير بحب آل البيت، وبسرعة عجيبة تمكن ادريس من أن يجمع حوله جيشاً من رجالات القبائل، وأن ينال البيعة بالامامة، وهكذا شرع في تأسيس مملكة تحكم مناطق المغرب الأقصى مع مناطق من المتوسط، ولقد توفرت له النجاحات بسرعة مدهشة، حيث لم يكن في المغرب سلطة للعباسيين، كما أن الامارة الأموية في الأندلس كانت مشغولة بقضاياها الداخلية، خاصة حركة المولدين وثورتهم الكبرى بزعامة ابن حفصون.

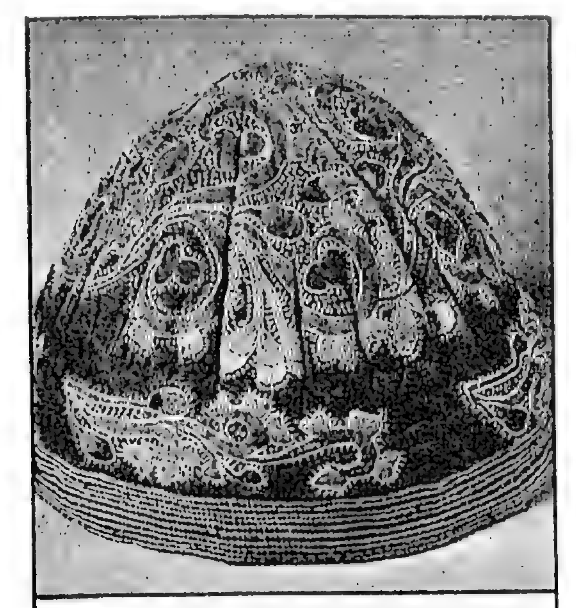
وطارت شهرة المولى ادريس في شمال افريقية، فقصده عدد من أهل القيروان وسواهم، وربما من أهل الأندلس، واستطاع ادريس أن يستفيد من جهود هؤلاء في تكوين نواة ادارية لملكته الناشئة، وأخاف نجاح ادريس دولة الأغالبة في تونس، ولم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً عسكرياً ضده، لهذا رفعت الأمر إلى بغداد، التي كان خليفتها آنذاك الرشيد.

وكان الرشيد أسير مشاغله الخاصة التي تبدت في ثورات في خراسان، مع نشاط عسكري للامبراطورية البيزنطية على الحدود الاسلامية، لهذا لم يكن بمقدور الرشيد إرسال جيش كبير إلى المغرب، ثم أن الاغالبة أنفسهم ما كانوا ليحبذوا قدوم مثل هذا الجيش.

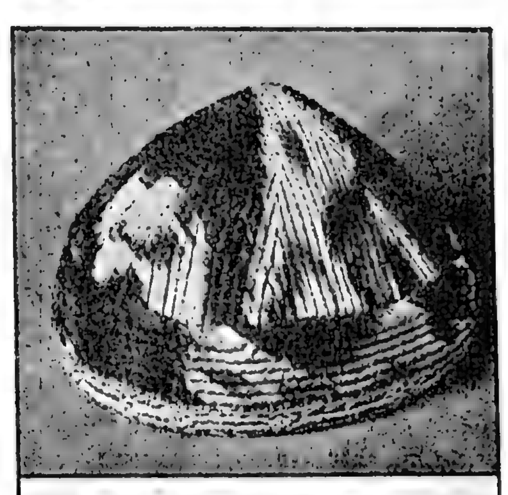
لذلك قرّر أي الرشيد أن يبعث أحد رجالاته إلى المغرب الأقصى ليتصل بادريس، ويدبر أمر اغتياله، ووقع الاختيار على رجل اسمه سليمان بن جرير، فقدم إلى وليلي، واستطاع أن يلتحق بخدمة المولى ادريس، وينال ثقته، وبعد جهود متواصلة أن يدس له السم ويقتله، وقد فر سليمان بعدما قضى فعلته هذه، واستطاع أن يصل حياً إلى العراق حيث أخبر الخليفة بنجاحه، وكان مقتل ادريس سنة سبع وسبعين ومائة، أي بعد خمس سنوات من وصوله إلى وليلي، ويعتقد المؤرخون المغاربة أنه لم يدفن داخل مدينة وليلي، بل أن ذلك كان على مقربة منها، وفي المغرب الآن على مسافة ميلين تقريباً من وليلي تقوم قرية صغيرة على ذروة جبلية مرتفعة، وتعرف هذه القرية باسم مولاي ادريس، وهي تحوي ضريحاً فخماً للغاية بني حوله مسجد كبير، وهذا الضريح يعتقد بأنه يحوي رفات المولى ادريس، وهو محج لأهل المغرب، كما أنه مقر لنشاطات دينية موسمية كبيرة.

إلى المولى ادريس ينسب التفكير، أو الشروع، في تأسيس مدينة فاس، التي شيدت في عهد ادريس الثاني، إذ يقال بأن جارية بربرية اسمها كنزة، من جواري المولى ادريس، أنجبت بعد وفاته غلاماً ذكراً سمي ادريساً على اسم أبيه، ومن صلب ادريس هذا، يؤمن ملايين من أهل المغرب، وحتى من زنوج افريقية بأنهم انحدروا، فهل هذا حصل فعلاً أم أن هؤلاء الملايين وأجدادهم أرادوا ذلك، فكونوه حدثاً تاريخياً...؟!

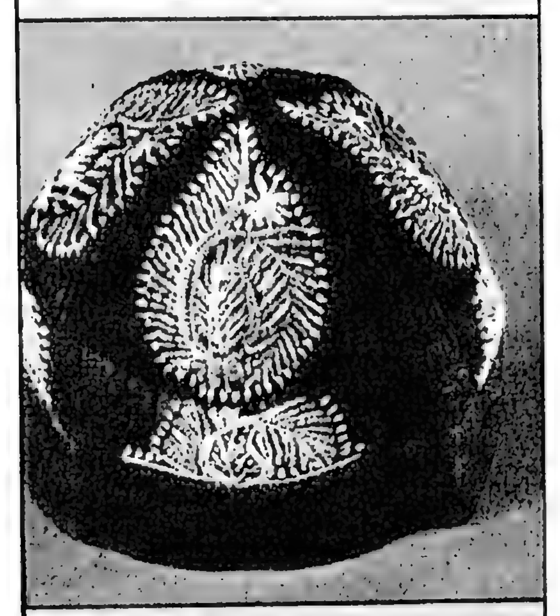
قلانس



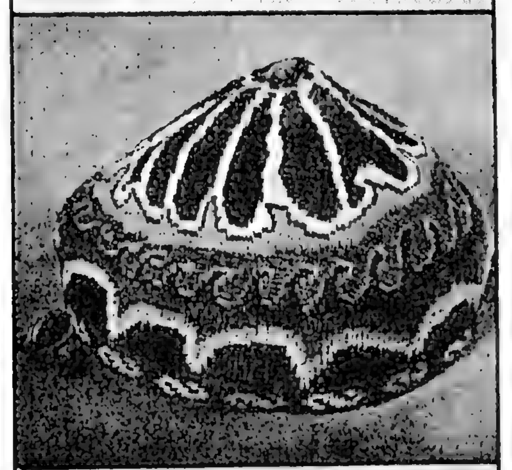
قلنسوة من نوع البراري، من بخاري بتركستان، وتصنع من الحرير والتافتاه وتبطن بالبفنه، ويطرز «الطبق» و «الشريط الدائري» أولاً ثم يحاكان بواسطة خيط قطني.



لبدة براري للرجال، من بخاري. وتطرز بواسطة خيوط حريرية وقطنية، وألوانها: الأحمر والأصفر والبنفسجي والأبيض والأخضر وتتشكل هذه الألوان في وحدة.



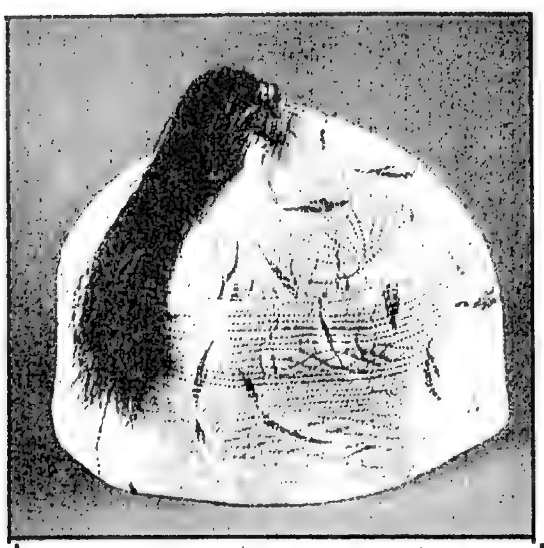
لبدة لمفرق الرأس، فرغانة، تركستان. وتتكون من ستة أجزاء، وتصنع من الساتان وتبطن بنسيج قطني وتطرز بالحرير والقطن.



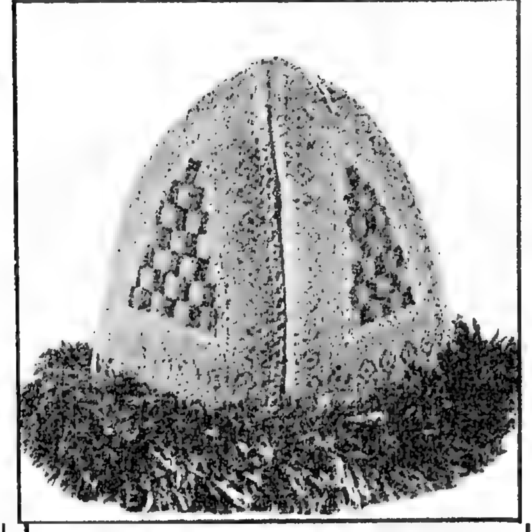
قلنسوة للرجال، من بخاري، وهي من القطن وتتكون من عشرة أجزاء، وتعتبر الوردة الوسطى الدائرية رمزاً للشمس، وتنسب إلى قبائل القرغيز بجبال الأفغان.

الصور عن: سيفريد فستبال هلبوس وجيزلا زولتكان - برلين ١٩٧٦.

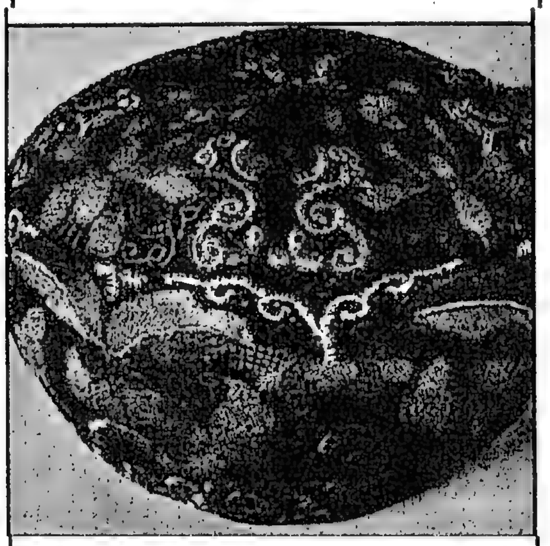
من وسط آسيا وفارس بمتحف علم الشعوب ببرلين



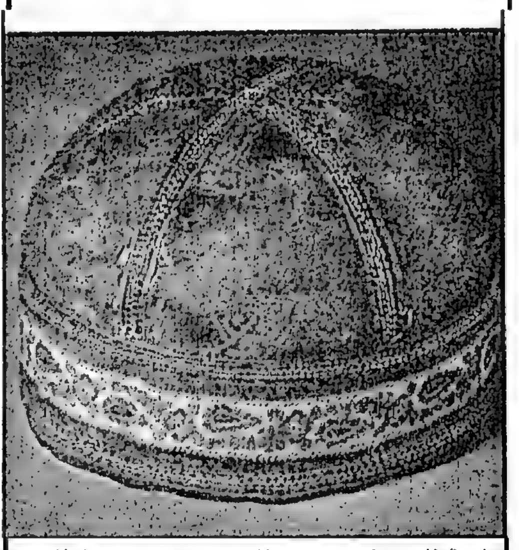
لبدة لأعلى الرأس من تركستان، وتصنع من نسيج قطني، لونها الخارجي برتقالي تتخلله شرائط زرقاء بيضاء والأهداب (الهداديب) من الحرير الأزرق.



لبدة درويش موطنها جركند، من الصوف الأحمر ومبطنة بلباد خشن، ومطرزة بخيوط بنية وبيضاء وزرقاء.

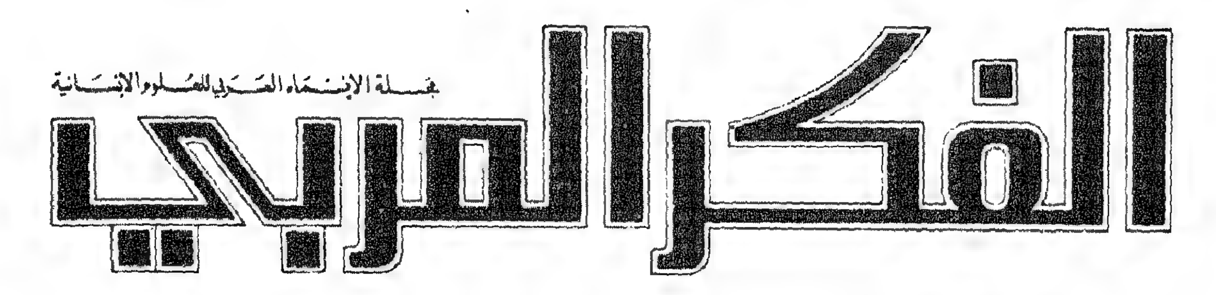


قلنسوة كبيرة من كوتشا، شمال سنكيانج، وتتكون من سبعة أجزاء، وتصنع من القطيفة الحريرية، وتستورد القطيفة من الهند وتطرز بخيوط ذهبية وفضية.



لبدة للصبيان، تبريز، فارس، وتتكون من ثمانية أجزاء، وتصنع من الديباج (البروكاة) ويستورد على الأغلب من تركيا، ويلاحظ أن اجزاء هذه اللبدة تلصق ولا تخاط.

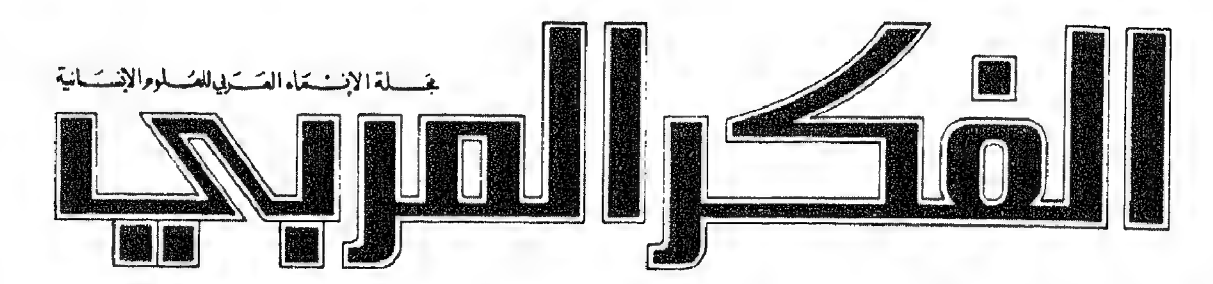
مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية



أيلول (سبتمبر) تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨١ — العدد الثاني والعشرون — السنة الثالثة

الفكر السياسي العربي والفكر السياسي المعاصر I

• دراسات سياسية



تشرين الأول (اكتوبر) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١ العدد الثالث والعشرون السنة الثالثة

الفكر السياسي العربي والفكر السياسي المعاصر II

. آفاق الفكر السياسي

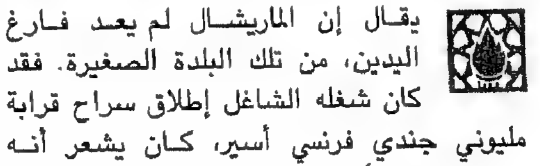
. نصوص ومراجعات سياسية

المـاريشـــال بيتان

مُنقذ أم خائن؟

د. رياض العالي

اللقـاء التـاريـخي بهتـلر في مونـتوار!



يقـال إن الماريشـال لم يعـد فـارغ اليدين، من تلك البلدة الصغيرة. فقد كان شغله الشاغل إطلاق سراح قرابة مليوني جندي فرنسي أسير، كـان يشعر أنـه مسؤول عن أسر معظمهم. ذلك أن الخـطاب الذي ألقاه الماريشال بيتان في السابع عشر من حزيران، قبل الأتفاق على الهدنـة بين ألمـانيا وفرنسا، أوحى إلى الكثيرين من قادة الجيش الفرنسي، أن ثمة هدنة عقدت بين البلدين، وأن على الجيش إلقاء السلاح. وهكذا، حين انطلق الجيش الألماني إلى مختلف اتجاهات فرنسـا، وجد تجمعات الجيش الفرنسي تنتظر قدومه دون

هموم بيتان

هل كان لقاء «مونتوار» بين هتلر وبيتان، (٢٤ تشرين الأول ١٩٤٠) نصراً لبيتان؟ أم انه كان فرصة ذهبية، لم تقتنصها فرنسا، لتنهض من بين الأنقاض، حسب بعض المؤرخين؟



Le Petit Parisien

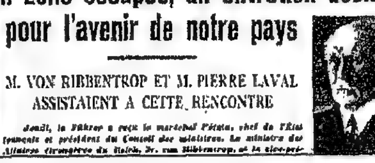
ÉDITION DE PARIS

SAMEDI 26 OCTOBRE 1940

24 octobre 1940

Une date dans l'histoire de la France et de l'Europe

QUATRE MOIS APRÈS L'ARMISTICE



LE MARÉCHAL PÉTAIN ET LE FÜHRER DU REICH ont eu, en zone occupée, un entretien décisif pour l'avenir de notre pays

M. VON RIBBENTROP ET M. PIERRE LAVAL ASSISTAIENT A CETTE RENCONTRE

مقاومة، فاذا هو يعتقلها جميعاً، ويعتبرها أسرى حرب.

في هذا الوقت كانت جموع الفرنسيين تهرب من المدن، وخاصة من باريس، ولكنها فوجئت بأن باريس قد أعلنت «مدينة مفتوحة» فعاد إليها معظم من هجرها.

على كل حال، لقد نص البند العشرين من إتفاقية الهدنة، على تحرير الأسرى الفرنسيين، بعد عقد الصلح بين ألمانيا وفرنسا. غير أن الماريشال بيتان كان يسعى يومياً، منذ تسلمه السلطات، إلى تحسين أوضاع الأسرى، وإلى الأفراج عنهم تدريجياً، إن أمكن. ولم تكن تصل من معسكرات اعتقالهم أية أنباء، ما عدا القليل، بواسطة الصليب الأحمر في جنيف.

كان الاقتصاد الفرنسي بحاجة شديدة إلى جهود المليوني أسير. وكان الماريشال يحاول استعادة الفلاحين والتقنيين الذين كان يعتمد عليهم ليقوم «بثورته الوطنية»، ثورة إعادة بناء فرنسا.

من جهة ثانية كان الألمان قد جزّأوا فرنسا عملياً، ورسموا بين الأجزاء حدوداً وحواجز لم يكن يسمح للفرنسي باجتيازها إلا بعد تفتيش دقيق، ومعاملات طويلة. حتى الوزراءالفرنسيون كانوا يخضعون للتفتيش والمراقبة.

وكان الألمان، خلافاً للهدنة، يضاعفون من المراقبة وتقسيم فرنسا، بالاضافة إلى جعل أقسام منها محرمة، وضم الألزاس واللورين نهائياً إلى ألمانيا. كما أن قطاع فرنسا الشمالي ـ الشرقي قد هجره أهله تماماً، فتسلمته ألمانيا لتستغله كما تشاء.

كل هذه الهموم كانت ترهق الماريشال بيتان. وكان يصارح من حوله بأنه عازم على التخفيف منها بأية وسيلة.

قام الوفد الفرنسي في لجنة الهدنة في ويسبادن بنشاط حثيث، يضاف إليه جهود لافال نفسه، وكان ذلك بوحي من رئيس الدولة الذي يطمح إلى إزالة تقسيم فرنسا، فحكومة فيشي لا يقع ضمن نطاق سلطتها إلا الاراضي الفقيرة، وإلى إعادة القوى العاملة الأسيرة حتى ذلك الوقت.

ولكن المفاوضات باءت بالفشل، على الأقل بالقياس إلى الماريشال، ذلك أن رئيس الوفد الألماني إلى مفاوضات الهدنة قدم عرضاً مكتوباً يطلب فيه هتلر ثمانية مطارات مغربية، ومحطتي رصد في إفريقيا الشمالية، وخط تونس ـ الرباط الحديدي، والموانىء على جانبي البحر الأبيض المتوسط.

كانت هذه المطالب مربكة. السابع عشر من تموز أجاب بيتان على مطالب هتلر بقوله: «وحدها المفاوضات يمكن أن تحل مثل هذه القضايا... وأعتقد أن بلادي تستطيع أن تسمع صوتها لما فيه الخير. لي كبير الأمل، بعد أزمان من النفور بين بلدينا، أن يجدا الطريق إلى التفاهم».

كانت ألمانيا تريد تجنيد شمال إفريقيا ضد إنكلترا، وكانت هذه نقطة يمكن لبيتان ولافال أن يساوما عليها. وحين قامت قوات فيشي بالدفاع عن المرسى الكبير ضد الغارات البريطانية، أثبتت فيشي أنها تحترم تماماً

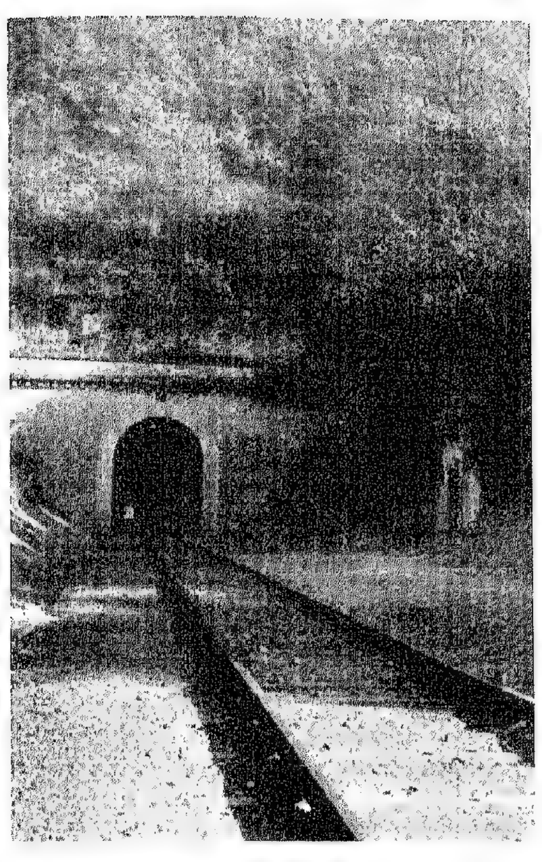
الهدنة. وكان حياد الأسطول الفرنسي والأمبراطورية الفرنسية لصالح المحور. مما يفرض على الألمان أن «يدفعوا الثمن» حسب قول لافال.

ولكن الفوهرر غضب لرفض الحكومة الفرنسية مطلب القواعد في إفريقيا الشمالية. لذلك لم يطلق سراح إلا قلة من الأسرى الفرنسيين، ممن كان تسريحهم نافعاً للمصالح الألمانية، كالمزارعين وعمال البريد. أُجلّي وزير المال الفرنسي عن باريس، ورفعت تكاليف جيوش الأحتلال إلى أربعمائة مليون فرنك في اليوم. الأشارة الوحيدة إلى بقاء الألمان غير أبدي، هي المفاوضات بين بيير لافال وبين أوتوابتز الذي رقّعه رينبتروت إلى رتبة سفير في فرنسا، مركزه باريس، وشغله الشاغل الحفاظ على فرنسا ضعيفة داخلياً، وإبعادها عن القوى المعادية للرايخ. كان آبنتز يبحث عن إقامة صلات طبيعية مع الفرنسي الوحيد الذي يحمل إجازة مرور عبر الحدود الفاصلة.

انتشى لافال برغبة آبنتز، فقدم أموراً عملية دليل تعاون في المجال الحربي (مائتا طيار يستطيعون تأمين الدفاع عن البلاد ضد غارات الطيران البريطاني) والمجال الأقتصادي (بيع منتجات المستعمرات مقابل المصنوعات الألمانية).

ماشى الماريشال هذه المساومات، وأرغم على طرد سفراء بلجيكا وهولاندا واللوكسمبورغ إرضاء للألمان. ثم في السادس من أيلول، استبدل الجنرال ويغان رئيس وفد فيشي في ويسبادن، بالجنرال هنتزيجر الذي وقع إتفاقية الهدنة في حزيران عام ١٩٤٠ في ريتوند. ومنح ويغان سلطات مطلقة في الشمال الأفريقي. كانت فيشي بحاجة إلى رجل قوي ليحول بين الأمبراطورية وبين الطموحات الدوغولية التي سيطرت في تشاد، وكونغو، وكامرون. وكان على ويغان كذلك أن يقاوم تطلعات المحور إلى المغرب.

كان بيتان يعول على الشمال الأفريقي لتطوير موقف هتلر من فرنسا: ٢٣ أيلول رد الجنرال بواسون محاولة الدوغوليين، يدعمهم البريطانيون، الانزال في دكار. فقد قصف

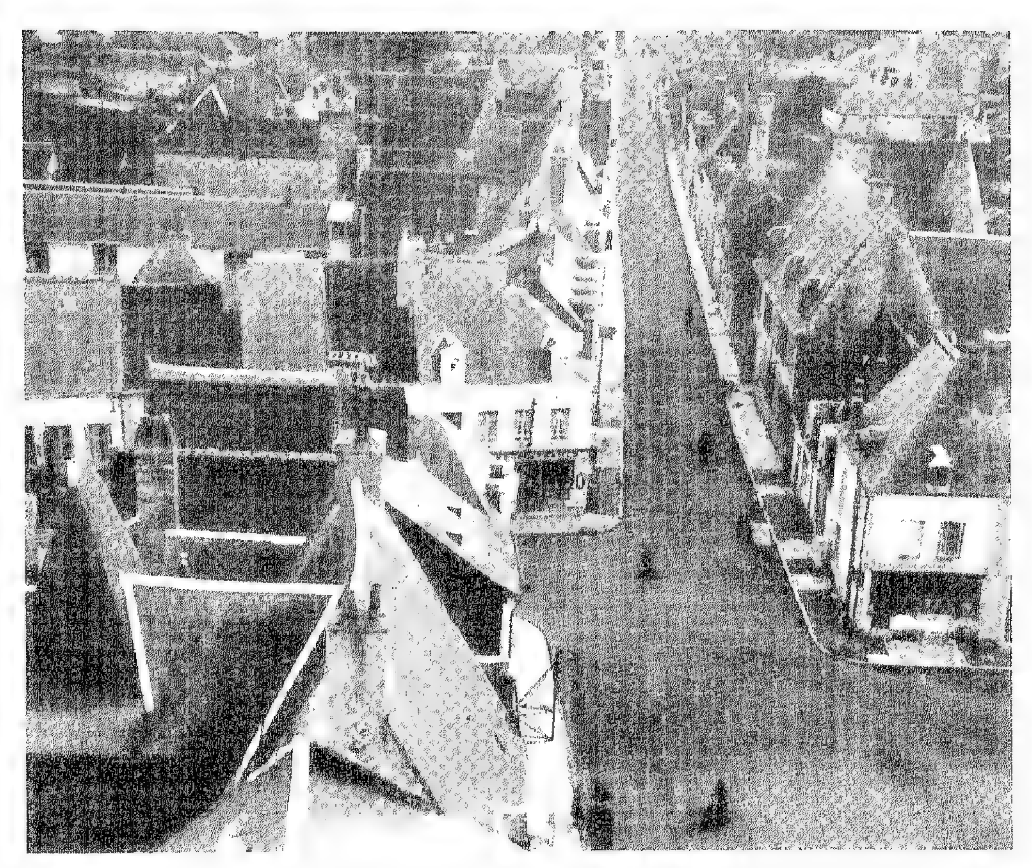


النفق الآمن قرب مونتوار.

الطرادان مونتكالم وجورج ليغ، تدعمهما المدمرة ريشيليو الفصائل البريطانية. وقد أمر تشرشل نفسه، يومذاك، بالأنسحاب خوفاً من أن تنعكس الآية.

لقد برهنت هذه المعركة لهتلر أن حكومة فيشي ملتزمة الحياد. مما أتاح لطموحات جديدة لبيتان ولافال وهنتزيجر، إذ راح كل منهم يحاول بطريقته، أن يحصل من ألمانيا على شروط صلح مناسبة، وتخفيف قسوة بنود الهدنة. في أيلول، أعطى الماريشال أمره إلى الكولونيل فونك، الطيار المشهور في حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨، بالاتصال بصديقه غورينغ، ليسبر غوره حول مفاوضات قمة. بينما ذهب سكابيني، وزير الأسرى، إلى برلين ليناقش مشكلة تحرير الأسرى. وكان سكابيني من مشوهي الحرب العالمية الأولى، وكان أعمى!

كذلك قام لافال من جهته، بمحاولة مع آبتيز، ليهيء له لقاء مع رينتروب. وفي الفترة ذاتها



كل الفرنسيين في مونتوار كانوا ممنوعين من التجول خلال الأعداد للقاء هتلر ــ بيتان، وأثناءه.

(١١ تشرين الأول) ألقى بيتان خطاباً قال فيه: «ستعرف فرنسا كيف تسيطر على انكسارها» إذا «سيطرت ألمانيا على انتصارها، ورفضت صلحاً قسرياً».

خطط هتلر

إستحالة اجتياح إنكلترا بعد الخامس عشر من شهر آب، جعلت الفوهرر ينضج ستراتيجية بديلة هدفها الأساسي اجتياح روسيا، والثانوي احتلال شمال إفريقيا. فلئن نجحت ألمانيا، شكلت مع حليفتيها إيطاليا واليابان قوة كبيرة، فتحولت إنكلترا إلى قوة لا يؤبه لها، ولن تستطيع الولايات المتحدة نفسها أن تخف إلى إنقاذها.

ولكن القيادة في برلين(O.K. W) تخوفت من فتح جبهة ثانية في الشرق، وحاولت صرف مطامح هتلر إلى ضفتي المتوسط. فقد كان قادة الجيش راغبين في احتلال جبل طارق والتدخل ضد الأنكليز والديغوليين في إفريقيا. جرت بين الجنرالين ستولبناجل وهنتزيجر مفاوضات مشجعة حول هذه النقطة. وأكد مندوب فيشي عزم حكومته على محاربة المنشقين، وتوصل، بوافقة إيطالية ــ ألمانية، على إعادة تكوين الجيش الفرنسي في إفريقيا (١٢٠ ألف رجل، ١٤ فصيل مدفعي، وأربعة فصائل قناصة). وسمح للقوة البحرية باجتياز جبل طارق إلى المستعمرات. وصدرت اقتراحات عن قادة ألمان لاقناع هتلر بمساهمة فرنسا في المعركة ضد بريطانيا.

ولكن إيطاليا وإسبانيا كانتا على شأن كبير في هذه المسألة. لهذا سافر وزير خارجية إسبانيا، سرّانو سونر، إلى برلين في منتصف أيلول. كان هتلر يود من فرانكو أن يكون شريكاً كاملاً في الحلف الثلاثي، وأن يسمح للجيش الألماني باجتياز إسبانيا باتجاه جبل طارق. فطالب سونر بثمن باهظ: المغرب، ووهران، ومساعدة



محطة القطار في مونتوار: صمت وانتظار

إقتصادية ضخمة.

رفض هتلر، ولكنه تمسك بأمل إقناع فرانكو في لقاء مباشر، وُلد التفكير فيه خلال المحادثات. بينما كان فرانكو راغباً عن كل الحروب، بعد أن أمضت بلاده أربع سنوات في حرب أهلية مدمرة. وقد بلغ ذلك الموقف الماريشال بيتان، سراً.

الرابع من تشرين الثاني، لقي هتلر موسوليني في برينر. وجرى اقتسام الأمبراطورية، فكانت نيس، وكورسيكا، وتونس، ودجيبوتي من نصيب إيطاليا. ومراكش مع الدار البيضاء وأغادير، وإفريقيا الغربية من نصيب ألمانيا. وكان على الجيش الايطالي احتلال مصر، بينما يحتل الجيش الألماني جبل طارق. ومنحت فرنسا نيجيريا، لأن فرنسا فقدت الكثير. ولكن النظرية اصطدمت بعقبتين: إجتياز المنطقة الحرة، وشبه جزيرة إيبيريا. فاذا خرق هتلر الهدنة مع فرنسا، وحياد إسبانيا، خاطر بفتح جبهات ضده، والتحاق الأسطول الفرنسي في طولون، بالأسطول البريطاني، ودخول الولايات المتحدة الحرب. كان هتلر يجهل الأتفاق السري بين فرانكو وبيتان. لذلك اعتقد أن اجتماعه بالاثنين يكفي لأقناعهما بالاتفاق معه على العمليات ضد بريطانيا.

لعبة لافال

٢١ تشرين الأول. أمر هتلر آبتز أن يحضر لمؤتمر يعقد مع الفرنسيين، خلال رحلته إلى لقاء فرنكو في هنداي. في اليوم ذاته أبلغ بيتان إنكلترا بواسطة السفراء في مدريد أنه سيرد على كل المحاولات البريطانية ــ الديغولية، ومن جهة ثانية، لن يحاول استرداد الأراضي التي تحالفت مع فرنسا الحرة، شرط أن تتخلى إنكلترا عن الحصار الذي ضربته على الأمبراطورية.

كان الجو الدبلوماسي مشحوناً بالغموض، حين تلقى لافال دعوة آبتز بالحضور إلى باريس في ٢١ تشرين الأول. وقد استبعد بدوان من هذه المسألة.

٢٢ تشرين الأول، وصل لافال إلى باريس، مع مساعده برينون. ركب الأثنان سيارة ألمانية، خفرتها قافلة، واتجه الجميع نحو الجنوب. كان الغداء في «تور». وعندئذ أخبر آبتز لافال، أن من سيستقبله هو آدولف هتلر.

كان اللقاء في مدينة مونتوار الصغيرة، التي لا يزيد عدد سكانها عن /٢٧٠٠/ نسمة. وتقع في اللوار ــ إي ــ شير، على بعد ١٨٠كم من باريس. كانت المدينة منذ الصباح تحت الرقابة الشديدة. وكان النفق الذي يعبره القطار ملجأ أميناً يحمي من أي قصف جوي.

وصل قطار هتلر المصفح في الساعة (١٨). دخل لافال قاعة صغيرة في المحطة الساعة (١٩). أخذت له بعض الصور. قاده ريبنتروب إلى المقطورة. كان الجو مظلماً، وفجأة وجد لافال نفسه تجاه هتلر.

كان جو المحادثات ــ حسب المترجم شميدت ــ عاصفاً. ولكن لافال حاول كسر حدة موقف هتلر، بلباقته المعهودة، وتوكيده على رغبته في إقامة علاقات طبيعية بين فرنسا وألمانيا. كان هتلر يتكلم معظم الوقت، مازجاً في حديثه التهديد بالوعود. فاذا كانت فرنسا تنتظر نهاية الحرب للتعاون فانها ستذل، أما إذا ساهمت في انكسار انكلترا فانها لن تفقد من مستعمراتها، خصوصاً الأفريقية، إلا القليل.

لخص هتلر اللقاء بدعوة بيتان إلى لقائه عند عودته من هنداي، في الرابع والعشرين من تشرين الأول.

رحل لافال إلى تور ليهتف إلى الماريشال بيتان. وأبقى ريبنتروب دوبرينون للغداء معه في مونتوار. وترك قطار هتلر المحطة الساعة الرابعة



هتلر يطلب الاذن من بيتان لمراقصة «فرنسا» الرسم من جريدة «LARAZON» بونيس ايرس في ذاك التاريخ.

صباحاً باتجاه الحدود الأسبانية.

مضى نهار ٢٣ تشرين الأول، مليئاً بالقلق والتساؤل، ففيشي تحاول معرفة متطلبات هتلر، وحدود فرنسا، ودور لافال في هذه المسألة التي أعدت دون مساعدة المستشارين الدبلوماسيين الرسميين؟

حاول بودوان، الذي استبعد من الأحداث، أن يثني بيتان عن لقاء هتلر. دعمه في محاولة إقناعه الدكتور مينيترل، الذي كان يرى حظّ بيتان قليلاً، تجاه هتلر المتفوق عليه حيوية وشباباً ودهاء.

وافق بيتان على آراء مستشاريه، ولكنه قال إن لافال هو الوحيد المسموعة كلمته لدى الألمان، ولا بد من الذهاب إلى لقاء هتلر.

لخص لافال لبيتان ما جرى في لقائه مع هتلر، وأكد له أن اجتماعه بهتلر الفرصة الوحيدة لتحقيق ما يمكن تحقيقه بالقياس إلى مسألة الأسرى، ومسألة الحدود.

خيبة أمل

في ذلك الوقت الذي كانت فيه فيشي تعد للقاء بيتان — هتلر، وتترقب نتائج لقاء هتلر — فرانكو، كان هتلر يمنى بخيبة أمل كبرى في لقاء فرانكو. فقد استغل فرانكو ظروفاً قاسية على المحور، ليطالب بأمور لم يكن هتلر ليقبلها مهما كانت الظروف. فقد فشلت الجيوش الأيطالية في احتلال مصر، وأوقف زحفها عند سيدي براني. وفتح موسوليني جبهة ثانية في اليونان، كانت أشبه بالكارثة، فان الجيش في ألبانيا كبده خسائر طائلة.

لذلك قال فرانكو لهتلر إنه لا يستطيع ربط مصيره بالمحور دون أن يعطى: كاتالونيا، والمغرب، ووهران. وقال إنه لا يستطيع السماح للألمان بمهاجمة جبل طارق، خوفاً من هجمات بريطانية على طول الساحل الأسباني. ولذلك لا يمكنه الأنضمام إلى المحور.

عاد هتلر من اللقاء منزعجاً جداً. وأدرك أن لقاء بيتان لم يعد ذا شأن كبير إذ لا بد لنجاح خطط هتلر من الأتفاق مع فرنسا وإسبانيا سوية.

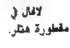
لقاء هتلر — بيتان

حيت ثلة من الحرس الألماني سيارة الماريشال بيتان عند نقطة الحدود الفاصلة (حسب شروط الهدنة). كانت تلك أول رحلة للماريشال إلى القطاع المحتل من فرنسا.

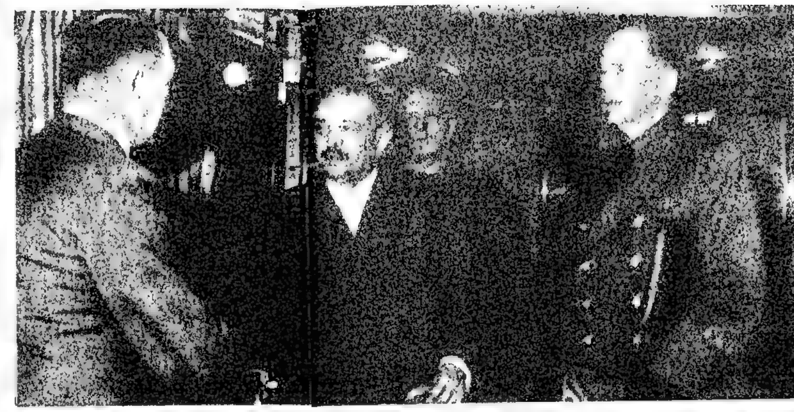
كان الغداء في تور بصحبة آبتز، تبعته قيلولة حتى الساعة (١٧)، ثم سارت القافلة من جديد، وكان لافال ودوبرينون بصحبة الماريشال.

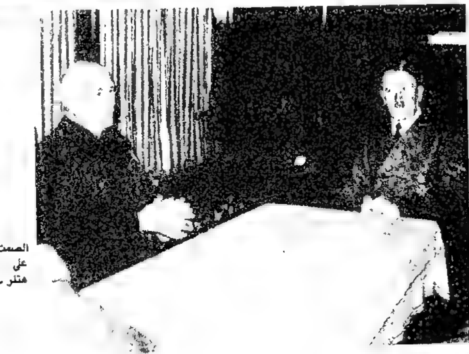
عند بلوغ المحطة، استقبل بيتان استقبالاً حافلاً، إذ كان حرس هتلر الخاص مصطفاً يؤدي التحية، وكان كايتل وريبنتروب في استقبال رجل فردان. على الرصيف كان هتلر نفسه ينتظر، سار هتلر لاستقباله وآلات التصوير تلتقط الصور، فيما تنيرأضواؤها ظلام الليل.

كان الاجتماع — حسب المترجم شميدت — حُبياً، يهيمن عليه هتلر أغلب الأحيان. ويمكن تلخيص الموقف الألماني بأن هتلر كان واثقاً من النصر، وتحطيم بريطانيا. وكان بيتان يستمع. فسأله هتلر عن موقف فرنسا، إذا قامت بريطانيا بهجوم ما. تحدث بيتان عن مصاعب بلاده، وعن حاجتها إلى استبعاد أي صراع. ثم



لافال في مقطورة هتلر.





الصمت يخيم على اجتماع هتلر ـ بيتان.

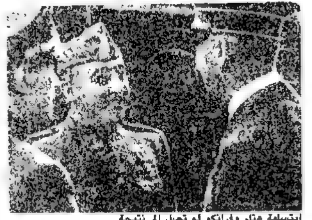
وجد الفرصة مواتية لطرح «الامور التالية: إذا كانت ألمانيا راغبة في صلح دائم فلا بد أن تظهر بعض التسامح لتخفف من قيود الهدنة، وشروط تحريرالأسرى.

كان هتلر ينتظر مثل هذه العروض. فلفت انتباه الماريشال إلى أن الجمهورية الثالثة وعدت في بداية الحرب بفرض عقوبت كبيرة على ألمانيا. وعرض عليه وثائق تثبت ذلك. وحين لاحظ الماريشال أنه لن يحظى بطائل من هتلر، وعد بدعوة الفرنسيين إلى التعاون.

ختم هتلر المحدثث المخيبة. فلا دخلت فرنسا الحرب ضد بريطانيا، ولا حصلت فرنسا، ولو على مسودة معاهدة صلح.

نتائج مقلقة

عاد بيتان من المحادثت تسيطر عليه روح التشاؤم. أما لافال الذي شهد المحادثات وملأ فراغها بتدخله كلما هيمن الفراغ على الموقف، فقد رأى أن «مونتوار» أدت إلى فكرة التعاون



ابتسامة هتلر وفرانكو لم تصل إلى نتيجة

التي يجب إقناع الفرنسيين بها.

أعد لافال وآبتز، مساء، بروتوكولاً مكتوباً، أشبه بتقرير عن اللقاء: وقد اتفقا على محاربة أية خلافات تنجم بين الطرفين. أما تحرير الأسرى، وإعادة ضم المقاطعات الفرنسية المحتلة إلى سلطة فيشي، فستكون موضوع «محادثات تالية» و«إتفاقات خاصة». وأكد الجانبان أن «انكسار بريطانيا لمصلحة فرنسا وألمانيا». وبالتالي فان الامبراطورية الفرنسية ستدافع عن نفسها ضد أي غزو بريطاني.

لم يؤد البروتوكول إلى نتيجة ما. مع ذلك استمرت المساومة لم يكن الفرنسيون يعرفون شيئاً عن ذلك. ولكن الرأي العالم ما لبث أن أدرك حقيقة خيارات فيشي.

٢٦ تشرين الاول اجتمع مجلس الوزراء، وقرر أن التعاون هو الخيار الوحيد. ٣٠ تشرين الأول أذاع بيتان خطابه عبر الاذاعة: «ستظل فرنسا سيدة... هذه السياسة هي سياستي..» وختم: «يجب أن تكون مخلصي التعاون».

لئن كان عدد الفرنسيين الذين استجابوا قليلاً ــ كما تفيد التقارير ــ فان الخطاب كانت له آثار خارج نطاق العلاقات الفرنسية الألمانية. فتشرشل سارع إلى الاتصال بأخصام فيشي في إفريقيا واعداً بالدعم المطلق. وفي روما خشي الدوتشي أن يكون الاتفق على حساب إيطاليا، ولكن هتلر طمأنه سلفاً، وأكد له أن مطالب إيطاليا مستجابة.

مهما يكن فان لقاء مونتوار ـ في رأي بعض المؤرخين ــ كان يمكن أن يغير وجه تاريخ الحرب العالمية الثانية. ●

المواقع الأثرية

في دولة الإمارات العربية المتحدة

إعداد قسم التوثيق والأبحاث



منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٧١ كانت البعثة الدانماركية تجري حفرياتها سنوياً في مواقع مختلفة من أبوظبي دون أن يكون هناك مسح شامل لمواقع الآثار. وايماناً من المسؤولين في دولة الامارات العربية المتحدة وعلى رأسهم سمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بضرورة كشف التراث الحضاري لهذا البلد، فقد قامت وزارة الاعلام والسياحة في دولة الامارات العربية المتحدة وعلى رأسها معالي الشيخ أحمد بن حامد بعقد اتفاقية ثقافية في مجال التعاون في الآثار مع وزارة الاعلام العراقية. وبموجب هذه الاتفاقية أوفدت مديرية الآثار العامة في بغداد في عام ١٩٧٢ بعثة للمسح لغرض اجراء مسح شامل لمواقع الآثار وتحديد أدوارها الزمنية وتثبيتها على الخرائط.

لقد تمكنت هذه البعثة من خلال تجوالها في الامارات والأراضي التابعة لها من كشف اثنين وسبعين موقعاً من ضمنها بعض الأبراج الحديثة. وأغلب المواقع المكتشفة تمثل مدافن أثرية مبنية من الأحجار تنتشر في أماكن مختلفة من الدولة، اضافة الى المستوطنات التي هي الآن عبارة عن أنقاض بشكل تلال متباينة الارتفاع والأشكال.

وهذه المدافن والمستوطنات ترجع الى فترات زمنية مختلفة أقدمها يرجع الى عصر جمدة نصر

في حدود نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تمثل ذلك العصر في مدافن جبل حفيت ومدافن أخرى. أما أحدثها فهي تلك المستوطنات التي ترجع الى العصور الاسلامية المتأخرة.

ومن الجدير ذكره أن موقعاً واحداً من العصور الحجرية كان قد كشف قرب مدينة العين، ومن المحتمل أن تكون هناك مواقع أخرى من نفس الفترة.

أما المواقع الأثرية المكتشفة إلى الآن والتي ثبّتت من قبل بعثة المسح العراقية على الخرائط فهي موزعة على الامارات بالشكل الآتي:

١ ــ أبوظبي	٩
٢ ــ دبي	٣
٣ ــ الشارقة	٢٣
٤ ــ رأس الخيمة	١٦
٥ ــ أم القيوين	٩
٦ ــ عجمان	٦
٧ ــ الفجيرة	٦

ولا يزال هناك العديد من المواقع الأثرية التي لم تكتشف إلى الآن. فعمليات المسح التي جرت لم تشمل جميع أراضي الدولة، فلا زالت هناك مناطق وجزر عديدة مثل جزيرة دلما وصير بني ياس تتطلب عمليات التحري والاستكشاف لغرض وضع أطلس شامل لمواقع الآثار وهذا ما يفكر به قسم الآثار في دائرة الآثار والسياحة كي يطلع العالم أجمع على تراثنا الحضاري.

المدافن الحجرية في جبل حفيت:

يعتبر جبل حفيت حداً جنوبياً لواحة البريمي حيث تقع مدينة العين ويبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم وتتفرع منه سلسلتان متوازيتان تنتهيان عند مدينة العين من جهة تحصر بينهما بعض المرتفعات الجبلية الصغيرة. أقيمت فوق سفوح هاتين السلسلتين والمرتفعات المحصورة بينهما أقدم مجموعة معروفة من المدافن في أبو ظبي إلى الآن. حيث يرجع أغلب هذه المدافن الى العصر الزمني المسمى بعصر جمدة نصر في حدود نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (٣٢٠٠ ــ ٣٠٠٠ سنة ق. م). وقد سمي هذا العصر بهذا الاسم نسبة الى موقع جمدة نصر في وسط العراق حيث كشفت آثاره لأول مرة. لا يمكننا في الوقت الحاضر من حصر عدد القبور المنتشرة في سلسلة جبال حفيت لكونها منتشرة في منطقة واسعة ممتدة من جنوب العين وحتى حصن مزيد وعلى سبيل التقدير لا الحصر يمكن القول بأنها تزيد على المئتين. وتنوي ادارة الآثار والسياحة اجراء مسح لتثبيت جميع هذه المدافن على الخرائط وذلك في المستقبل القريب.



أحد مدافن جبل حفيت قبل التنقيب.

لقد تولت البعثة الدانماركية أعمال التنقيب في مدافن جبل حفيت فاختارت ما يزيد عن الخمسة والعشرين مدفناً نقبت جميعاً خلال مواسم متعددة. لقد كان الهدف الرئيسي من اختيار هذا العدد الحصول على أكبر كمية ممكنة من المواد الأثرية لدراستها والتعرف على





مدفن آخر من مدافن جبل حفيت بعد التنقيب.

الاقوام التي صنعتها. ان أغلب المدافن التي اختيرت للتنقيب هي تلك التي سرقت حجارتها المنتشرة على سطحها العلوي وذلك لسهولة تنقيبها حيث أن مثل هذه المدافن لاتحتاج الا إلى مجهود بسيط للوصول الى قلب المدفن. لقد تبين بعد الحفر بان أغلب هذه المدافن قد سرقت في فترات زمنية بعيدة من طريق فتح حفرة وسطية تنزل الى اللحد الذي يتوسط المدفن وقد أثبتت الحفريات في عدة مدافن بأنها جميعاً متشابهة الى حد بعيد.

استعملت الحجارة المحلية غير المهندمة في بناء هذه المدافن وقد رتبت بشكل صفوف الواحدة فوق الاخرى حول فراغ دائري أو بيضوي بمثابة حجرة الدفن. لقد تم البناء على سطح الأرض مباشرة دون الحفر فيه وقد روعي في جعل فتحة لكل مدفن من جهة الجنوب بشكل ممر ضيق. ويتراوح قطر كل مدفن قبل التنقيب من ٧ ــ ١١م أما الارتفاع فيتراوح من ٢ ــ ٥ وأقصى قطر لغرفة الدفن من الداخل هو ٢م. ان أكبر هذه المدافن (رقم ٢٢) اذ يبلغ قطر حجرة الدفن فيه ٢,٨٥م وترتفع ٢,٦م وأصغرها رقم (١٩) قطر حجرته ١,٣٥ × ١,٧٥م أما معدل عرض المدخل المؤدي الى غرفة الدفن فهو (٥٠ سم) وغالباً مايسقف مثل



جبل حفيت المدفن رقم ٩ بعد السقف ــ المدخل مواجه للجنوب

مجموعة من الخرز أغلبها من العقيق عثر عليها في جبل حفيت.

هذا المدخل أو الممر بصورة كلية أو جزئية بحجارة مسطحة كبيرة.

أما المستكشفات الأثرية التي وجدت داخل هذه المدافن فقليلة بصفة عامة تمثل بعض السهام والخناجر والسيوف والاواني البرونزية وكميات من الاواني الفخارية المخروطية الشكل والخرز المصنوع من المواد المختلفة. ومن الجدير بالذكر ان مدافن عديدة وجدت خالية من الآثار بل ومن العظام أحياناً وهنا تكمن الصعوبة في تحديد تاريخ مثل هذه المدافن.

ان الاواني الفخارية التي اكتشفت في بعض هذه المدافن ذات قواعد مسطحة وابدان مخروطية ذات رقبة اسطوانية قصيرة وحافات مسطحة مائلة الى الخارج، فقد وجدت في المدفن رقم ٢٢ ثلاثة أواني من هذا النوع ويشير وجود هذه الاواني والآثار الأخرى الى أن الناس الذين دفنوا موتاهم في هذه المقابر كانوا يعتقدون بفكر الحياة بعد الموت وهذا ما اعتقد به فيما بعد السكان الأقدمون لهيلي وجزيرة أم النار وبديع بنت سعود. وفي بعض المدافن الأخرى عثر على مايقارب الأربعمئة خرزة وسهم برونزي ورقي الشكل اضافة الى الاواني الفخارية المذكورة أما المدفن رقم (٢٣) فقد عثر فيه على اناءين ودبوس من البرونز طوله

١١ ـ ١٢ سم ونصل خنجر مثلث الشكل قياسة ٢١,٥ × ٦,٣ سم ذو ضلع خفيف.

ان أغنى مدافن جبل حفيت هو المدفن رقم (٣٠) حيث سقط هذا المدفن فحافظ على الموجودات الأثرية التي يضمها اذ لم يتمكن اللصوص من سرقته. عثر في هذا المدفن على اناء مزخرف من حجر الستيتايت واناءين برونزيين أحدهما ذو مصب، عثر عليهما على مقربة الرأس وعثر كذلك على زر مسطح من الصدف الأملس قرب منطقة الحوض ولسان حزام من البرونز وسيف برونزي قصير طوله ٤٢,٥ سم. نقش هذا السيف في منطقة الاتصال مع المقبض بدوائر متداخلة وليس لهذا السيف مثيل في أي مكان من الشرق الأوسط. ان أقرب سيف يمكن مقارنته بسيف حفيت هو سيف من لورستان في غرب ايران يعود الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد ونظراً لوجود هذا التشابه بين هذين السيفين فيمكن اعطاء نفس هذا التاريخ لمدفن حفيت الذي عثر بداخله على هذا الأثر.

أما بالنسبة الى طريقة الدفن فتشير العظام التي لازالت في أماكنها الأصلية في بعض هذه المدافن ومنها المدفن رقم (٢٠) الى أن الجسم قد سجي على جانبه والرأس متجه الى الشرق. ومن الجدير ذكره بأن غرف الدفن هذه تتسع لأكثر من جثة واحدة حيث عثر في أحد هذه المدافن على بقايا لأربعة جماجم بشرية.

وينبغي الاشارة ان دائرة الآثار والسياحة في أبوظبي قامت باستئناف التنقيب في مدافن جبل حفيت حيث تمكنت في موسم ١٩٧٣/١٩٧٤ من كشف عشرة مدافن أخرى وبذلك يصبح مجموع المدافن المنقبة إلى الآن خمسة وثلاثين مدفناً.

تقع المدافن العشرة على السفوح الشرقية لحفيت قرب حصن مزيد على بعد ٢٥ كيلومتراً عن مدينة العين وقد كشف عن مدفن واحد بشكل مستطيل (٣,٧٠ × ٣,٢٠) وآخر بيضوي مقسم من الداخل الى ثلاثة أقسام، أما بقية المدافن فجميعها بأشكال دائرية غير منتظمة تتجه أغلب مداخلها نحو الجنوب.

أما المسكتشفات الأثرية التي عثر عليها داخل هذه المجموعة من المدافن فقليلة أهمها ختم منبسط من الرخام الشمعي شبيه بأختام ديلمون المعروفة. لقد نقش الوجه الداخلي لهذا الختم بشكل انسان واقف مرتدياً مغضنة قصيرة حاملاً بيديه المرفوعتين بموازاة كتفه عصاة يتدلى من طرفها ثقلان، ويقف عند الكتفين طيران متقابلان. وفي الجزء السفلي من الختم توجد في وسط كل منهما نقطة صغيرة وتتفرع من كل دائرة خطوط أشبه بالأشعة.

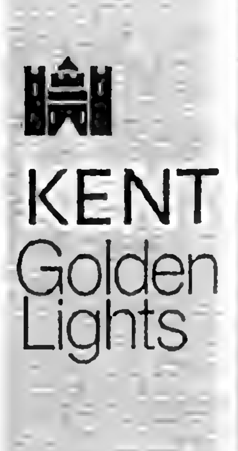
أما الوجه الخارجي فينقسم الى قسمين متساويين بواسطة ثلاثة خطوط محفورة وفي كل قسم توجد دائرتان متقابلتان في وسط كل منهما، والختم مثقوب بشكل أفقي.

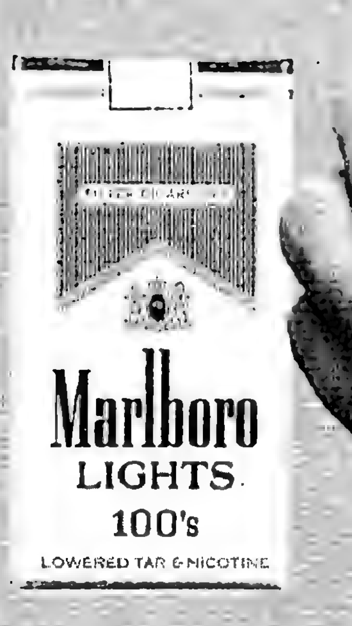
ومن المكتشفات الأخرى رأس صولجان معرق اضافة الى أدوات الزينة كخرز العقيق والكريستال والحجر الطباشيري الأخضر. وعثر كذلك على حلقة من العقيق وأساور برونزية. ومما يجدر ذكره أن المخلفات العظمية قليلة جداً ولم يعثر على هياكل عظمية كاملة بل عثر على عدد من الجماجم البشرية وعلى مجموعة قليلة من العظام المهشمة. ●



١٣ ملغ قطران ٩ ملغ قطران ١١ ملغ قطران







كنت غولدن لايتس

نيكوتين أقلّ. قطران أقلّ. نكهة حقيقيّة.

وحدها سيجارة كنت غولدن لايتس
تعطيك النكهة الحقيقية المشبعة للتبغ مع نسبة أقلّ
من النيكوتين والقطران.

محتوى القطران بناءً على تقرير لجنة التجارة الفدرالية (FTC) في الولايات المتحدة، أيار ١٩٨١.

مصنوعة ومستوردة من الولايات المتحدة وموزعة في لبنان من قبل إدارة حصر التبغ والتنباك اللبنانية



وَصْفُ الطّرفة في كتُبُ الكحل

مِن حنين بْن اسحق إلى ابْن النّفيس

د. مؤنس محمود غانم



نستعرض فيما يلي ما ذكره الأطباء العرب عن أحد أمراض العين وهو (الطرفة). ونحن نعلم أن العرب قد برعوا في جراحة العيون بشكل خاص، مما جعل الدكتور ماكس مايرهوف يقول (لقد بلغ طب العيون عند العرب حداً يدعو إلى الدهشة والإعجاب حقاً).

ويسير بحثنا هذا وفق تسلسل منطقي وزمني من الأقدم إلى الأحدث بدءاً من القرن التاسع: عصر حنين بن اسحق والرازي؛ مروراً بالقرن العاشر: عصر القمري وعلي بن عيسى؛ وإنتهاء بابن النفيس في القرن الثالث عشر.

ومن خلال هذه المسيرة التي تستغرق خمسة قرون سنرصد تطور وصف الطرفة مدللين إلى أن هذا المرض ما زال موجوداً بيننا وإن اختلف أسلوب وصفه اليوم.

ما هي الطرفة؟

الطرفة عبارة عن الدم الذي ينصبّ إلى ملتحمة العين بسبب تمزق في الأوردة بتأثير رض موّجه نحو العين، وقد تنجم الطرفة عن خراج كان موضعاً ثم انفجر بعد ذلك، وقد يكون السبب لاهذا ولاذاك وإنما اصابة في عناصر الدم بالذات.

أما علاج الطرفة فيختلف حسب حالة المريض، فإن تشاركت مع جرح الملتحمة نفع فيها كثيراً تقطير الملح والكمون، وكذلك ينفع في هذا السبيل ورق الخلاف. وإن كان النزف شديداً واحمرار العين طافح فلا بد من تقطير بياض البيض الرقيق ومن بعده تضميدها بالأشياء المانعة مثل اكليل الملك والزعفران وأصل السوسن ودم الأخوين.

وصف الطرفة عند العلماء العرب

١ ــ الطرفة عند حنين بن إسحق[1]:

نذكر ما قاله حنين في كتابه (المقالات العشر في العين) والذي حققه المستشرق د. ماكس مايرهوف وطبع في القاهرة سنة ١٩٢٨:

الطـرفـة دم ينصب في الملتحم من تمـزق الأوردة التي فيه، وأكثر ذلك إنما يكـون عن ضربة، ويقال له (هيبو سفا غما).

العلاج: أن تقطر في العين دم الحمام أو دم الورشان، وهو دم حار وليبن إمرأة وهو حار معه شيء من كندر مسحوق. أو قطّر فيها ماء الملح، وكمِّد العين بماء قد طبخ فيه صعتر وزوفا يابس، فإن كان في العين ورم فضمدها بضماد يتخذ من الزبيب المنزوع العجم مسحوقاً مع ماء العسل أو مع خلّ، فإن لم يتحلل فاخلط فيه فجلاً مدقوقاً، فإن لم يتحلل فاخلط فيه شيئاً من خرء الحمام.

٢ ـ الطرفة عند أبي بكر الرازي[٢]:

نذكر مـا قالـه الرازي في كتـابه الجـامع (الحاوي في الطب) عن نسخة فلوراي شريف ونسخة الأسكوريال برقم ٨٠٦ مدريد:

وأما الطرفة فهو دم ينصب إلى الملتحم ثم يخرق الأوراد التي فيه، وهو ضربان إما أن ينخرق الملتحم معه، وإما أن لا ينخرق جوهر الملتحمـة ولكن بعض أوردته وذلـك يكون من ضربة ونحوه. قال بولس في علاج الطوفة: قطّر في العين دم الحمام أو لبن إمرأة حين يحلب، مع شيء من كندر. أو إسحق شيئاً من الكندر ويصير في ماء وملح ويقطر في العين، أو قطّر في العين شيئاً من ملح اندراني وكمِّد العين بطبيخ الزوفا اليابس. فأما الورم والدم الحادث عن ضربة فيصلح أن يكمد بالخل والماء، ويفعل ذلك متصلاً دائماً مرات كثيرة، ويوضع على العين اسفنج قد غمس في الخل والماء ويعصر الفجل مع زبيب منزوع العجم. وإن كان الورم يُخاف أن يزيد فضمد بالأشياء المانعـة: اسلق ورق الكرنب وضمِّد به العين بعد أن لا ينفع الدم ونحوه، واطبخ صقراً في الماء وكمِّده مرات وبلّ فيه خرقة وضعها على العين. أو يكبّ العين على بخاره دائماً، ثم ضع عليه إسفنجة بخلّ وماء فـإن لم ينجح وبقي الـورم والحمرة بحـالهـا، فاسحق الخردل بالماء وضعه عليه.

٣ ـ الطرفة عند القمري[٣]

نذكرهـا من خلال مخطـوط لم يحقق بعد للقمري عنوانه (غنى ومنى):

سبب الطـرفـة دم ينصب إلى الملتحم من إنخراق أوردة من ضربة أو سقطة أو نحوها. ويكون في الندرة من مدة ويقيح. وعلاجها: أن يقطر في العين دم فرخ حار من أصل جناحه، أو يقطر فيها مـاء الكرفس الـرطب، أو بعض طيور الماء أو دم ورشان مفرداً أو مـع الطين الأرمني أو قيمـولياً مقـداراً يسيراً، ويضـرب بيضة مع دهن ورد ويوضع على العين ويمسك العين على بخـار ماء الـورد الممزوج بـالخل. وينفعه أيضاً دقيق بياض البيض ولبن الجواري إذا قطر فيها، ويقطر فيها شيء قليل من خرء الحمـام أو شـراب عفص ومـاء الـورد ولبن الجواري.

وقد جرب الشياف الدنيار جوني فوجد نافعاً، ويضمد العين بالزبيب المنقى والخل وورق عنب الثعلب والصبر والملح الأبيض.

والـذي يحدث عن المدة المتقيحة فيعـالج بالشياف الأبيض وشياف الآبار، أو يقطـر في العين لبن جارية وهو حار مع شيء من كندر مسحوق ويضمد العين بضماد متخذ من اكليل الملـك ودم الأخوين وأصـل السوسن وعـدس وزعفران بدهن الورد وصفرة البيض، ويوضع على العين صوف لين قد غمس في بياض البيض المضروب مع الشراب أو دهن الورد.

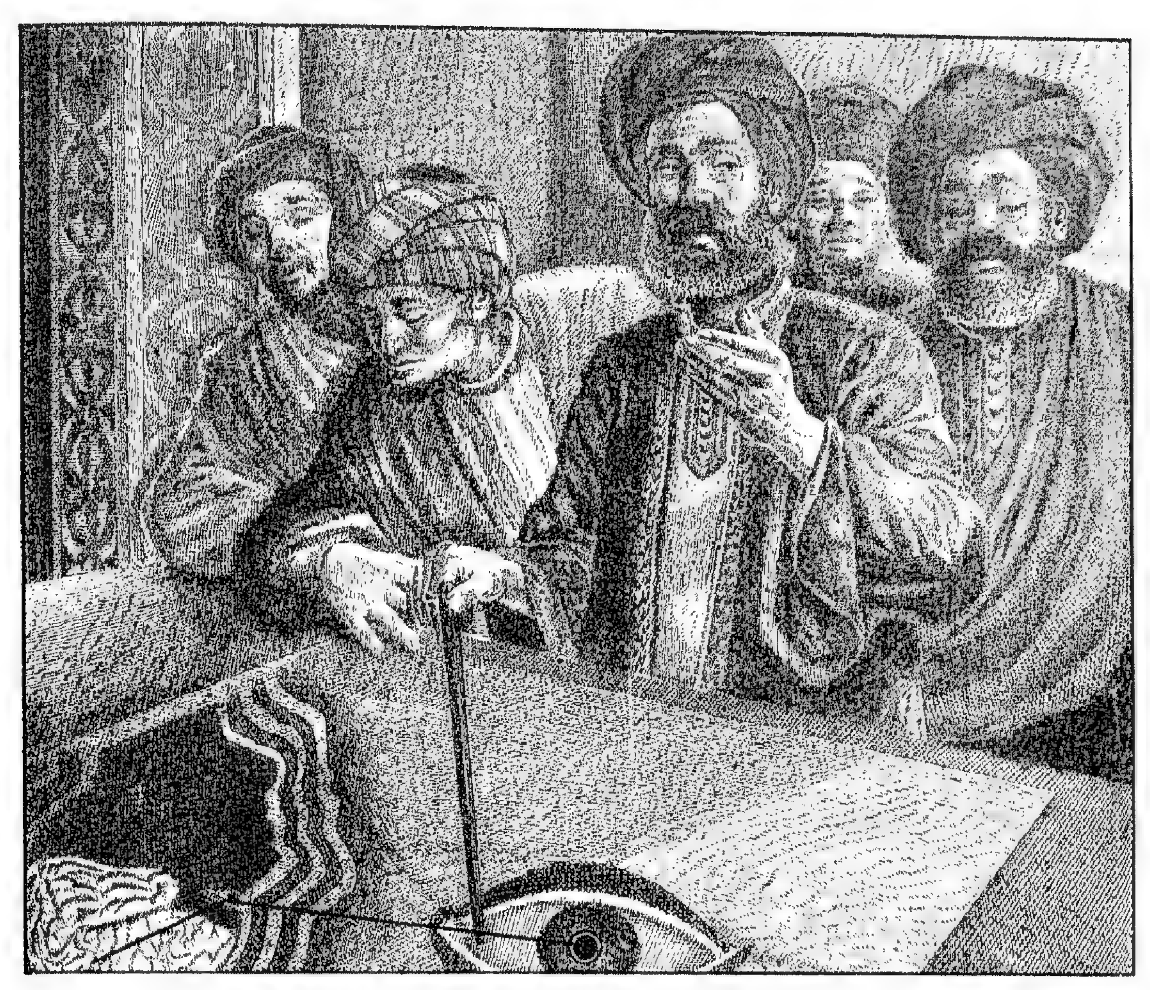
وإذا ورمت العـين من ضـربـة أو سقطـة فاقصد القيفال، وأمسكها على بخار الماء والخل. واضمدها بهـذا الضماد: قشر الفجـل وزبيب منزوع العجم يجمعان بالخل ويضمد بها.

صفة الشياف الدينار جوني:

إقليميـا الذهب واسفيـداج من كل واحـد عشـرة دراهم، كثيراء خمسـة دراهم، نحاس محرق درهمين، بسد ولولو ودم الأخوين من كل واحد أربعة دراهم، عروق درهم، زرنيخ أحمر وسكر طبرزو وقاقيا من كل واحد نصف درهم، أفيـون سبعة دراهم، لبـاب الحنطة درهمـين، زعفران درهمين، يدق وينخل ويتخذ شيافاً.

صفة شياف الآبار:

إقليميا مغسول وتـوتياء واسفيـداج وكحل وكندر من كل واحد درهمين، مرّ درهم، انزروت درهم ونصف، دم الأخوين درهم، أفيون درهم ونصف، يشيف.



تمثيل درس عن علاقة العين بالدماغ

ويشترط في أدوية العين أن يسحق حتى يصير مثل الهواء ولايتعاون بها. وبعد ذلك يستعمل على الصلابة مرة أخرى.

٣ ــ الطرفة عند علي بن عيسى(٤)

نذكر ما قاله علي بن عيسى في كتابه (تذكرة الكحالين) عن نسخة دار الكتب الظاهرية:

أما الطرفة فإنها دم ينصب إلى الحجاب الملتحم مع انخراق الأوراد التي فيه، وقد يعرض ذلك من ثلاثة أسباب أحدها من أحد الأسباب البادية التي تصيب العين فتخرق الملتحم، والآخر دم ينسكب إلى الملتحم من شدة ضربة تصيب العين من غير أن تخرق فيه عروق، والثالث يعرض بغتة من غير سبب بادٍ ويكون ذلك من دم حار منصب إلى الملتحم، وربما عرض أيضاً بعقب قذف شديد وقد يكون أيضاً من خراج.

العلاج:

إن كنت حذراً من حدوث ورم فيجب أن تبادر بفتح القيفال وتقطر في العين لبن جارية، فإن كانت الحمرة والورم والدم زائداً فقطر في العين بياض البيض الرقيق وضمدها بالأشياء المانعة، وإن لم يكن للورم أثر فيجب أن تقطر في العين في الإبتداء لبن جارية حاراً، أو دم فرخ تعصره من أصل الريش الصغار الذي تحت الجناح، أو مع الطين الأرمني. أو شيئاً من الرخام الذي يوجد في الطين الأخضر فإن تحلل وإلاّ فاسحق الكندر وادفه بلبن إمرأة، وقطره في العين فإن تحلل وإلاّ فقطر فيها ماء الفانخولة أو ماء الملح الأندراني، وكمِّد العين بماء قد طبخ فيه صعتر وزوفا يابس، فإن تحلل وإلاّ فقطر

فيها ماء الفجل، وضمِّد العين أيضاً بقشور الفجل والزبيب مع ذرق الحمام. فإن كانت الضربة قد خرقت الملتحم فامضغ ملحاً وكموناً وقطرهُ في العين. ومما ينفع أيضاً الطرفة زرنيخ أحمر يسحق ويطرح في الماء ويفترويطرحما صفا في العين، وقد تبخر العين أيضاً بكندر وأحشاء البقر فتبرأ الطرفة ومما ينفع أيضاً في الطرفة هذا الشياف. وصفته:

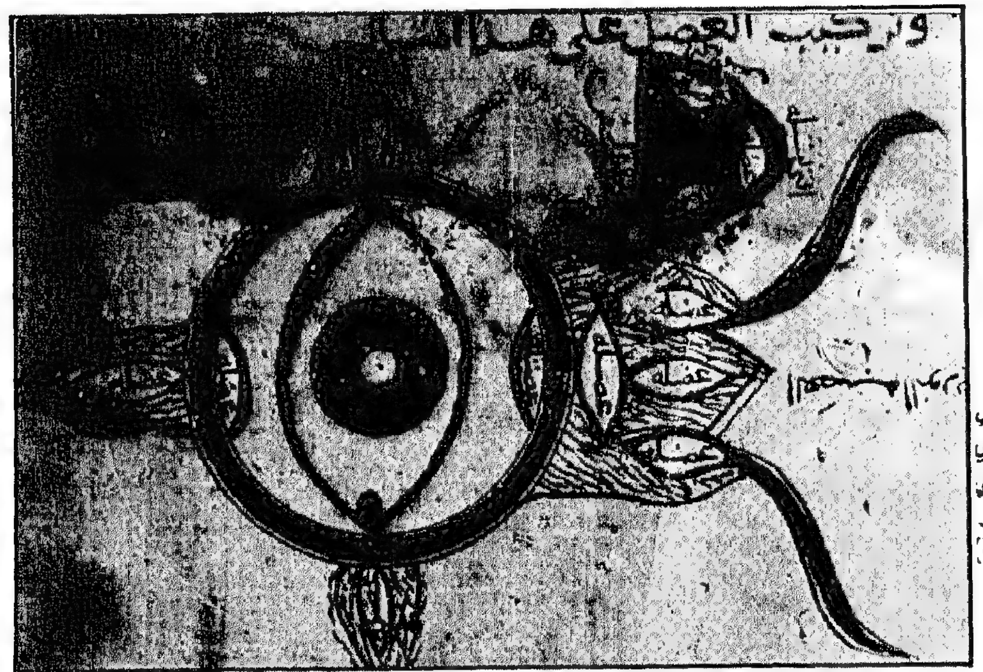
يؤخذ شاذنج مغسول ثلاثة دراهم، نحاس محرق درهمان، بسد لولو غير مثقوب من كل واحد درهم ونصف، صمغ عربي وكثيراء من كل واحد درهمان ونصف، فوفل مسحوق على حدة أربعة دوانيق ونصف، إسفيداج الرصاص درهم، زرنيخ أحمر ودم الأخوين وزعفران من كل واحد نصف درهم. تجمع هذه الأدوية مسحوقة وتجمع بدم الفراريج ويشيف وتداف وقت الحاجة بلبن جارية، ويستعمل جملة الأدوية أثني عشر دواء فإن كانت عن فتق خراج فعالجه بالشياف الأبيض وبشياف الآبار.

٤ ــ الطرفة عند ابن سينا(٥)

نذكر ما قاله ابن سينا عن الطرفة في كتابه الموسوعي (القانون في الطب) الذي نشرته مكتبة المثنى ببغداد:

الطرفة نقطة من دم طري أحمر أو عتيق مائت أكهب أسود قد سال عن بعض العروق المنفجرة في العين بضربة مثلاً أو لسبب آخر مفجر للعروق من إمتلاء أو ورم حتى يعتق فيه. ومن جملته الصحيّة الحركة العنيفة، وربما كان عن غليان الدم في العروق، وربما حدث عن الطرفة الضربية خرق لطيف في الحدقة والذي في الملتحمة من الخرق أسلم.

المعالجات: يقطر عليه دم الحمام أو الشفانين أو الفواخت والوراشين وخاصة من تحت الريش وإن كان في الإبتداء خلط به شيء من الرادعات مثل الطين المعروف بقيموليا والطين الأرمني. وأما في آخره فيخلط بالمحللات حتى الزرنيخ مع الطين المختوم. وقد يعالج بلبن إمرأة مع كندر والماء المالح وخصوصاً المعروف فيه ملح أندراني أو نوشادر، وخصوصاً إذا جعل فيه مع ذلك الكندر وقطر على العين منه، وأيضاً شياف دينار جون نافع منه جداً، ودواء متخذ من حجر الفلفل والأنزروت أجزاء سواء زرنيخ مثل الجميع، وقد يخلط بذلك ملح أندراني فيتخذ منه شياف وقد يضمد به من خارج بقلي محرق بالخمر أو بالخل، وكذلك ذرق الحمام بالخل أو الخمر أو زبيب منزوع العجم ضماداً وحده أو بخل أو بسائر ما قيل وخصوصاً إذا كان ورم. وكذلك الجبن الحديث



رسم تشريحي لاسحق العبادي من القرن الثاني عشر (دار الكتب ــ القاهرة)

والقليل الملح والجبن الحديث وقشر الفجل وأكليل الملك مع دم الأخوين وأصل السوسن وزعفران، أو عدس بدهن الورد وصفرة البيض والإكباب على الماء الحار الذي طبخ فيه زوفا وزعتر أو التكميد به، أو خل طبخ فيه رماد أو نقيع اللبان مع الصبر أو ماء عصفر بري أو نقيع الزعفران، أو ماء طبخ فيه بابونج وأكليل الملك أو عصارتهما أو سلاقة ورق الكرنب أو التضميد بورق الكرنب مطبوخاً مدقوقاً. وللقوي المزمن خردل مدقوق مخلوط بضعفه شحم التيس ضماداً، أو زرنيخ محلول بلبن أو رمان مطبوخ في شراب يضمد به أو تانخواه وزوفا بلبن البقر، فإن حدث مع الطرفة خرق في الملتحم مضغت الكمون والملح وقطرت الريق فيه، وورق الخلاف نافع منه جداً إذا ضمد به.

٥ ــ الطرفة عند ابن النفيس[٦]

نذكر ما قاله ابن النفيس عن الطرفة في مخطوطه، «مفتاح الشفاء» والذي حققه الدكتور نشأت الحمارنة:

الطرفة نقطة من دم طري أحمر أو عتيق باهت اللون أسود، وقد سال من بعض العروق المنفجرة في العين. الأسباب: قد يكون عن سبب بادٍ مثل الضربة أو سبب آخر كتفجر العروق من إمتلاء أو ورم حتى ينشق منه، ومن جملة الأسباب الصحية الحركة العنيفة، وربما كان من غليان الدم في عروق. وربما حدث عن الضربة خرق في الحدقة والذي يعرض في الملتحمة من الخرق فهو أسلم. الأعراض والعلامات: ماكان من سبب بادٍ فيعلم بالسير والبحث والمسايلة، وأما ماكان من إمتلاء أو ورم فيدل عليه تكدر العين وامتلاء عروقها وميلها إلى الجحوظ بما فيها من الورم.

المداواة:

يقطر عليه دم الحمام والشفانين والراشين والفواخت وخاصة من تحت الريش. فإن كان في الابتداء فيخلط معه الرادعات كالطين الأرمني وما شاكل ذلك، وإن كان في الإنتهاء فيخلط معه المحللات كالزرنيخ إن كان إندرانياً أو نوشادر وقد يضمد بذرق الحمام مع خل من خارج. ويضمد بإكليل الملك مع دم الأخوين وأصل السوسن وزعفران وعدس، والإكباب على ماقد طبخ فيه زوفا وسعد، أو قد طبخ فيه إكليل الملك وبابونج وعصارتها، والتضميد بورق الكرنب بعد طبخه ودقه. فإن عرض مع الطرفة خرقٍ في الملتحمة، فامضغ الملح مع الكمون وقطّر مايجلب منها مع الريق عليه؛ وورق الخلاف نافع جداً. هذا مع مراعاتك أمر الإستفراغ إن حدست. وإن تم إمتلاء فافعل على القانون المقدم ذكره فإنه يكون فيه الشفاء إن شاء الله.

الأعلام:

(١) حنين بن اسحق: ولد في الحيرة سنة ٨١٠م وهو من قبيلة عباد، اشتهر بنقل الكتب من اليونانية إلى العربية والسريانية ومن مؤلفاته: المدخل في الطب، وقد خلف ولدين هما إسحق وداود... اشتغل الأول بالترجمة، والثاني بالطب.

(٢) الرازي: ولد في الري سنة ٨٦٤م وتوفي سنة ٩٣٢، ودعي جالينوس العرب، له مؤلفات كثيرة جداً تقدر بحوالي ٢٥٠ ولكن ضاع أكثرها، ومن أهم مؤلفاته برء الساعة، والحاوي في الطب وكتاب فيمن لايحضره الطبيب. أصيب في أواخر أيامه بالساد ثم اختفى بصره ورفض إجراء الجراحة لانه على حدٍّ تعبير قد ملّ من كثرة ما شاهد من أمور الدنيا.

(٣) القمري: من أعلام القرن العاشر الميلادي. اشتهر بأمراض العيون وله مؤلفات عديدة ضاعت ولم يصل إلينا سوى هذا المخطوط.

(٤) علي بن عيس: يقال له عيسى الكحال، وقد اشتهر بصناعة الكحل في بغداد، ألّف كتابه الشهير تذكرة الكحالين الذي نقل إلى اللاتينية سنة ١٨٤٥؛ وله مؤلف مايزال مخطوطاً بعنوان منافع الحيوان ويعتبر عيسى الكحال من أشهر أعلام القرن العاشر الميلادي.

(٥) ابن سينا: ولد في أخشنة سنة ٩٨٠م وتوفي في همذان سنة ١٠٧٣. وهو من أعظم ما أنجبت البشرية من عبقريات لقب بالشيخ الرئيس وهو حساب وطبيب وفيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأئمة مفكريهم. دافع عن خلود النفس ووحدة الخالق، وله مؤلفات عديدة أشهرها القانون في الطب، الشفاء، الإشارات والتنبيهات في المنطق، وكتاب النجاة وهذه كلها مطبوعة.

(٦) ابن النفيس الدمشقي: (١٢١٠ ــ ١٢٨٨) وكان رئيس أطباء مصر وهو أول من وصف الدورة الدموية الصغرى فسبق بذلك وليم هارفي الإيطالي بثلاثة قرون، ومن كتبه شرح تشريح ابن سينا والمهذب في الكحل المجرب ومفتاح الشفاء.

تاريخ الطوابع

ميشال اسطفان



الفروق والاخطاء في طوابع البريد

بالمفهوم العام، ان الصح مقبول والخطأ مرفوض، ما عدا في هواية جمع الطوابع، ويا للعجب!؟

نعم، ان الطوابع البريدية المغلوط فيها، هي امر مهم جدا عند هواة جمع الطوابع، ولها قيمتها الخاصة، خلافا لغيرها من الاشياء الاخرى، التي اذا اعتورها، خطأ قلّت قيمتها وبيعت بابخس الاثمان.

ان قيمة الطابع المغلوط فيه، تساوي من ضعف القيمة الاساسية الى مئات الاضعاف احيانا، وتكون الاخطاء عادة في الطباعة الاساسية او في التوشيح او في التخريم او في العلامة المائية الى غير ذلك، ومهما كانت هذه







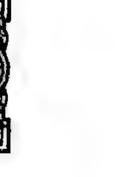






١ ٢ ٣









٤ ٥ ٦

الاخطاء فانه لا يمكن التفريق بينها من حيث قيمتها بطريقة منهجية، بل يُعتمد في ذلك على المظهر الخارجي، وما كان منها معدِّلا للمعنى المقصود او للشكل، وهذه وحدها هي التي تُعطي الافضلية في العرض والطلب اللذين عليهما يتوقف تحديد القيمة. لذلك فضّلنا شرح بعض تلك الاخطاء، لاكثر من بلد عربي واجنبي، مع بيان صورها وقيمها الحالية. مثال ذلك:

طوابع فلسطين: ان الطابع الموشح «فلسطين» بثلاث لغات (صورة ١)، جاءت فيه الـ «ط» «ظ»، فصارت الكلمة «فلسظين بدلا من فلسطين»، وقيمته اليوم ما بين ١٥٠ و ١٤٠٠ جنيه استرليني، وذلك بالنسبة للفئة المغلوط فيها، من المجموعة المذكورة المؤلفة من ١١ طابعا.

وثمة اخطاء اخرى مثل التاج الناقص في العلامة المائية، قيمته اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا بينما الصحيح، قيمته جنيهان فقط. ونقطة ظهرت عفوا بجانب الرقم ٤ على طابع من فئة الاربع مليمات، فاصبح يُقرأ «٤٠»، قيمته اليوم خمسة جنيهات بدلا من ١٥ بنسا، (صورة ٢). وخرم ناقص في التخريم في عدة فئات، قيمته ١٠ جنيهات استرليني لفئة القرش الواحد بينما الصحيح ١٥ بنسا فقط.

طوابع لبنان: حرفي «CE» ناقصة من كلمة «CENTIEMES» (ص ٣)، قيمته ٦ جنيهات استرلينية بدلا من ٢٠ بنسا. والتوشيح مقلوب على طابع باستور قيمته ٦ جنيهات بدلا من ٢٥ بنسا (صورة ٤). وتوشيح مكرر قيمته ٤ جنيهات بدلا من ١٥ بنسا (صورة ٥). والتوشيح مع الطيارة مقلوبين قيمته ١٠ جنيهات بدلا من ٢٠ بنسا للطابع الصحيح (صورة ٦).

طوابع الاردن: توشيح «بريد» باللغتين مكرر على طابع اعانة عرب فلسطين من فئة ١٠ مليم (صورة ٧)، قيمته اليوم ٢٥ جنيها. وطابع نهرو التذكاري من فئة ١٠ فلس ناقص كلمة «FILS» قيمته ١٤ جنيها بدلا من ٨ بنسات (صورة ٨). وطابعا الامير عبد الله من فئة ١٠ فلوس و ٣٥ فلسا، من دون الطبعة المذهبة، قيمة كل طابع منهما ٣٠٠ جنيه استرليني. وطابع الملك عبد الله من فئة ٥ مليمات موشح «مكافحة الجراد» مكرر، قيمته ٢٥٠ جنيها وفئة ٥٠ مل موشح فلسطين مرة صحيحا ومرة مقلوبا، قيمته ٦٠ جنيها بدلا من ٤٠ بنسا (صورة ٩).



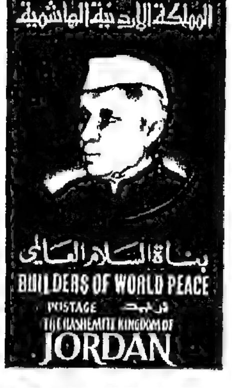

٧

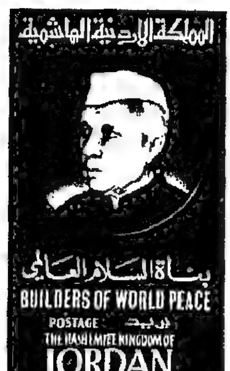
٩

١٠



١١





٨

١٢

١٣



١٤

طوابع مصر: طابع الملك فاروق طيارة من فئة ٥٠ مليما موشح «ملك مصر والسودان» بالمقلوب، قيمته ٩ جنيهات والصحيح ٩٥ بنسا، (صورة ١٠)، وفئة ٢ مليم موشح فلسطين بالمقلوب، قيمته ١٥ جنيها والصحيح ٨ بنسات، (صورة ١١).

طوابع العراق: طابع الملك فيصل الاول من فئة ٨ فلس، موشح بالمقلوب، قيمته ١٠٠ جنيه استرليني، والصحيح ٢٥ بنسا، (صورة ١٢)، وفئة ٣ فلس موشح بالمقلوب وآخر مكرر، قيمة كل منهما ٧٥ جنيها، والصحيح ١٠ بنسات.

وطابع اليوبيل الفضي لجمعية الهلال الاحمر ١٩٥٧، موشح مكرر، قيمته ١٠٠ جنيه، والصحيح ٦٥ بنسا.

طوابع سوريا: طابع «OMF» موشح على طابع فرنسي، التوشيح مكرر، قيمته ١١ جنيها، والصحيح ١٥ بنسا (صورة ١٣). وكثيرا غيره.
وهناك طابع كندا لذكرى الممر المائي بين كندا والولايات المتحدة، اسم البلد والذكرى، في أعلى الطابع واسفله، طباعة مقلوبة، قيمته ٥٥٠٠٠ فرنك فرنسي والصحيح فرنكان ونصف الفرنك فقط، (صورة ١٤). وطابع الولايات المتحدة



١٥

طيارة اصدار سنة ١٩١٨ من فئة ٢٤ سنتا، صورة الطائرة في الوسط، طباعة مقلوبة، قيمته اليوم تصنف مليون فرنك فرنسي، والصحيح ١١٠٠ فرنك فقط. (صورة ١٥)

هذا نموذج بسيط عن وضع الاخطاء وقيمها في العالم، وهناك غيرها بالمئات، يجمعها الهواة المتقدمون والذين يملكون المال الوفير، كل ينفقه على هواه وبحسب هوايته للبلد الذي يرغبه ويفتخر بما لديه، وخصوصا عندما يعرض مقتنياته في المعارض الدولية ويحظى بجائزة ما. ■

المنتسبون الجدد في نادي هواة جمع الطوابع

٥ ــ سعد محمد قاسم، حي المتنبي محلة ٦٠٣ زقاق ٢٩، رقم الدار ٨ مدينة المنصور، بغداد العراق، العمر ٢٦ سنة، موظف، هاوي مبتدىء، يجمع طوابع جديدة وبطاقات من لبنان والاردن وسوريا وتونس والجزائر والمغرب، وطوابع ذات مواضيع خاصة.

٦ ــ مؤيد الثنيان، شارع الظهران مقابل مفروشات المطلق، ص. ب. ٢٥٦٦ الدمَّام، السعودية. هاوي متقدم، يجمع طوابع جميع البلدان العربية ومعظم دول اوروبا الغربية وخاصة اللوحات.

٧ ــ داود محمد سالم، ص. ب. ١٣٥٨٤ شناص، سلطنة عُمان. العمر ٢٠ سنة، طالب، هاوي متقدم، يجمع طوابع جديدة ومختومة وغير مخرمة وبطاقات وفروق واخطاء وغلافات وطوابع ذات مواضيع خاصة واختام من كافة اقطار العالم وخاصة الاقطار العربية.

رسائل القراء

تسلمنا رسالة من السيد انطون فرح بخاتم بريد بيروت، ولم يذكر عنوانه حتى نتمكن من الاجابة على سؤاله.

□□□□□

طلب مراسلين

اننا نرغب الى اصدقائنا الهواة أو النوادي وجمعيات هواة جمع الطوابع في البلدان العربية، اعلامنا بكل ما يتصل بهم من معلومات عما تصدره المؤسسة البريدية عندهم، من طوابع وغلافات وبطاقات واوراق رسائل وغيرها.

ونكون شاكرين كل من يرفق هذه المعلومات، بالبريد المسجل، بنماذج عنها، بحالة سليمة وصالحة للمجموعات، ونحن نوافيه فورا بثمنها او ما يرغب من طوابع عربية في رجوع البريد.

ويبقى معلوما ان القصد من ذلك العمل على تعميم الفائدة على الهواة بامدادهم بهذه المعلومات في حينه، ولسنا نرمي الى اية فائدة مادية من هذه الارساليات الضئيلة، ذلك ان معظم المؤسسات البريدية في العالم العربي توافينا بنماذج عن اصداراتها الحديثة وبالمعلومات المتعلقة بها، لكننا قد نتلقى هذه المعلومات من اصدقائنا الهواة بصورة اسرع.



رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأخ فاضل خليل ابراهيم عرض لرسالته للماجستير خالد بن يزيد سيرته واهتماماته العلمية.

ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا الشباب مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

خالد بن يزيد

سيرته واهتماماته العلمية

رسالة ماجستير ــ كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق ١٩٨١
باشراف الدكتور جاسم خضر الدوري

يشكل التراث العلمي احدى الركائز الرئيسية التي قام عليها صرح الحضارة العربية الاسلامية، وقد تبلور هذا التراث عبر التفاعل الحي مع التراث العلمي الأجنبي بمختلف مصادره، تعريباً واستيعاباً واضافة، على امتداد حقب التاريخ الاسلامي.

والعصر الأموي هو احدى هذه الحقب التي شهدت بزوغ الرغبة الجدية في التطلع نحو علوم الأمم الأخرى، وذلك من خلال التفاعل الحضاري مع أهل الثقافات والمراكز العلمية في البلاد المفتوحة، وقد أخذ هذا التفاعل في بدايته صيغة الجدل الفكري، دخلت على أثره أفكار جديدة، دفعت المسلمين الى معرفة مالدى هؤلاء من فلسفات وعلوم عن طريق ترجمتها الى لغتهم.

وفي خضم هذه الظروف، برزت لدينا شخصية عربية، طالما أثير الجدل حولها، أخذت زمام المبادرة في الاشراف على تعريب هذه العلوم والدخول في ميدانها، ومن هنا يكمن دافع اختياري لهذا البحث، اذ هو محاولة لمناقشة الآراء المطروحة حول علاقة خالد بالكيمياء خاصة وبالعلم على وجه العموم، للوصول الى رأي محدد بهذا الشأن.

كما أن المكتبة العربية تفتقد الى دراسة تحليلية شاملة لشخصية خالد العلمية، تعتمد الاشارات التي وردت عنه في المصادر العربية وتحليل المؤلفات المنسوبة اليه، ومناقشة ماطرحه المستشرقون في المراجع والمقالات الأجنبية.

عاش خالد بن يزيد في فترة سياسية قلقة، شهدت تعاظم نفوذ عبد الله بن الزبير

وسيطرته على معظم أقاليم الدولة الأموية، ثم تنافس الأمويين على السلطة بعد وفاة معاوية بن يزيد (٦٤هـ). وكان خالد ينتظر دوره في تولي الخلافة ولكنه واجه منافسة قوية من قبل مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥هـ)، الذي ساهمت ظروف معينة بفوزه بالسلطة وبالتالي في انتقال الخلافة من آل سفيان الى آل مروان، وأصبح خالد على أثر ذلك، وبموجب اتفاقية الجابية، ولياً للعهد، ولكن مروان لم ينفذ هذا الاتفاق وعهد بالخلافة الى أبنيه عبد الملك وعبد العزيز. وظلت العلاقة السلبية بين خالد عن طموحه في الخلافة، واتجه نحو تحسين علاقاته مع الخليفة الجديد فاعتمده عبد الملك مستشاراً خاصاً له وأصبح من المقربين في بلاطه، فكان يأخذ برأيه في مختلف الميادين السياسية والعسكرية والادارية.

لقد كان خالد يتمتع بالذكاء والفطنة، وله استعداد ذاتي ورغبة في اكتساب المعرفة، يتضح ذلك في مجادلاته مع خصومه ومناقشاته مع أصحاب المذاهب والعقائد الأخرى وروايته ونظمه للشعر، فجاء تخليه عن الخلافة، فرصة لتنمية هذه الرغبة وللتعويض عما فقده في المجال السياسي، وذلك بتوجيه نحو العلم.

وقد قام لأجل ذلك برحلات علمية، استهدفت البحث عن الكتب والعلماء اطلع من خلالها على كتب علمية أجنبية في ميادين الكيمياء والطب والفلك، فأمر بعضاً من علماء مصر بترجمتها الى العربية.

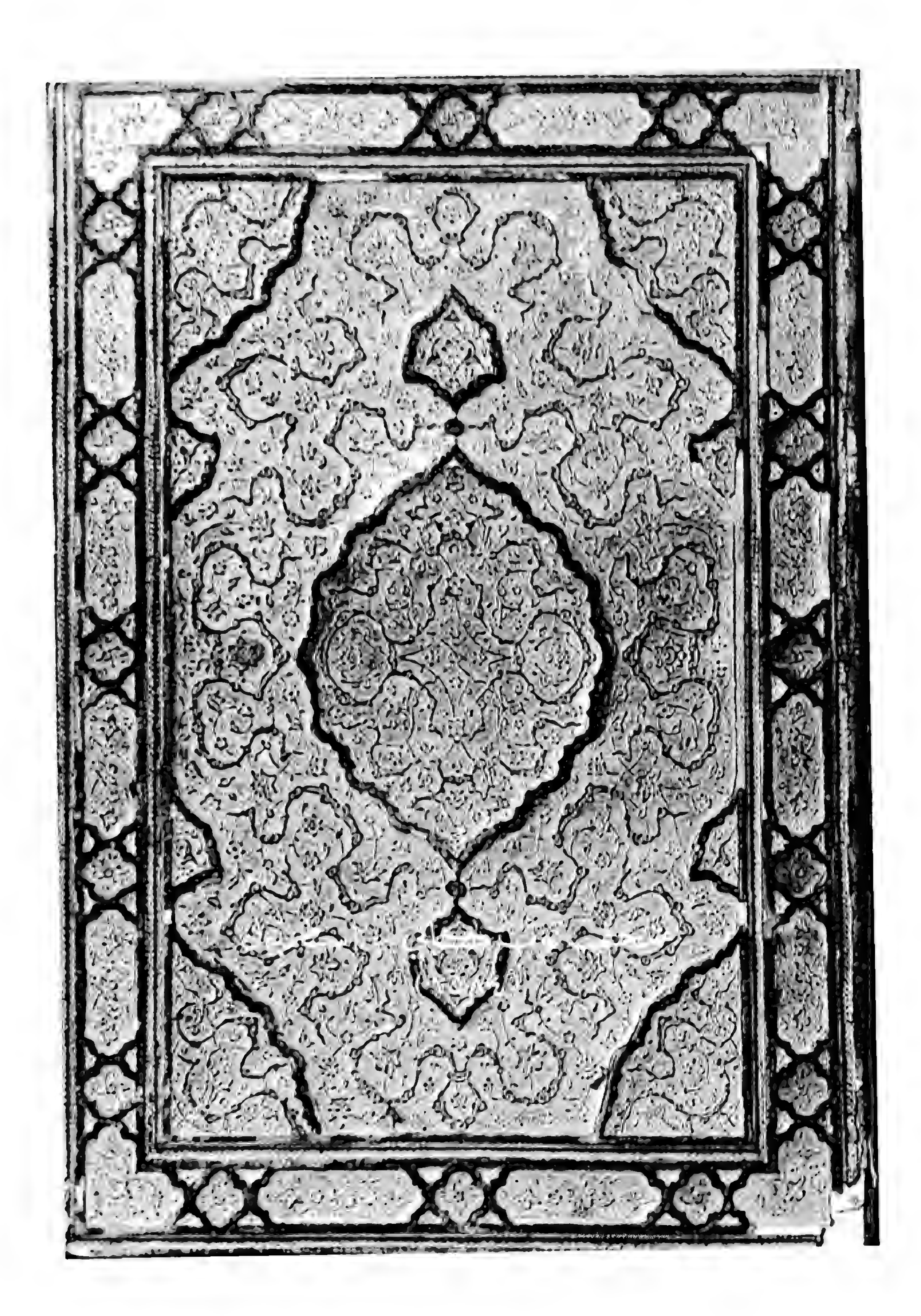
وكانت الكيمياء أبرز هذه العلوم التي جلبت اهتمام خالد، نظراً لما تهدف اليه من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب، فأصبحت لديه رغبة في معرفة ماهية هذا العلم وأهدافه ومضامينه وكيفية الوصول اليه، فاتصل ببعض أساتذتها، ومنهم مريانوس الذي تلقى على يده أسرار هذا العلم ورموزه ومفاهيمه، وقد صاغ ما تعلمه من الكيمياء شعراً ونثراً.

لقد تضمن البحث خمسة فصول، تناول الفصل الأول منها دراسة حركة التعريب وملامح التطور العلمي في العصر الأموي، أشير فيه الى المراكز الثقافية التي اتصل بها المسلمون في البلاد المفتوحة، وملامح التطور الفكري بعد الامتزاج الحضاري، ثم حركة التعريب في مجال الادارة والفلسفة والعلوم والتاريخ والدين.

أما الفصل الثاني، فقد خصص للبحث في حياة خالد السياسية من حيث الوضع السياسي في عصره والعلاقة بينه وبين آل مروان، اضافة الى شخصيته وحالته المالية والاجتماعية وعلاقته بالشعراء.

وفي الفصل الثالث، دراسة لاتجاه خالد نحو العلم ورحلاته العلمية، ثم دوره في تعريب العلوم كالكيمياء والطب والفلك ومساهمته فيها. وقد ثبتت في هذا المجال شخصية اصطفن القديم، الذي قام بتعريب كتب الكيمياء لخالد، كما ثبت أيضاً تعريب كتاب قراطيس الحكيم الموسوم (بـ كتاب في الشمس والقرم» في عصر خالد.

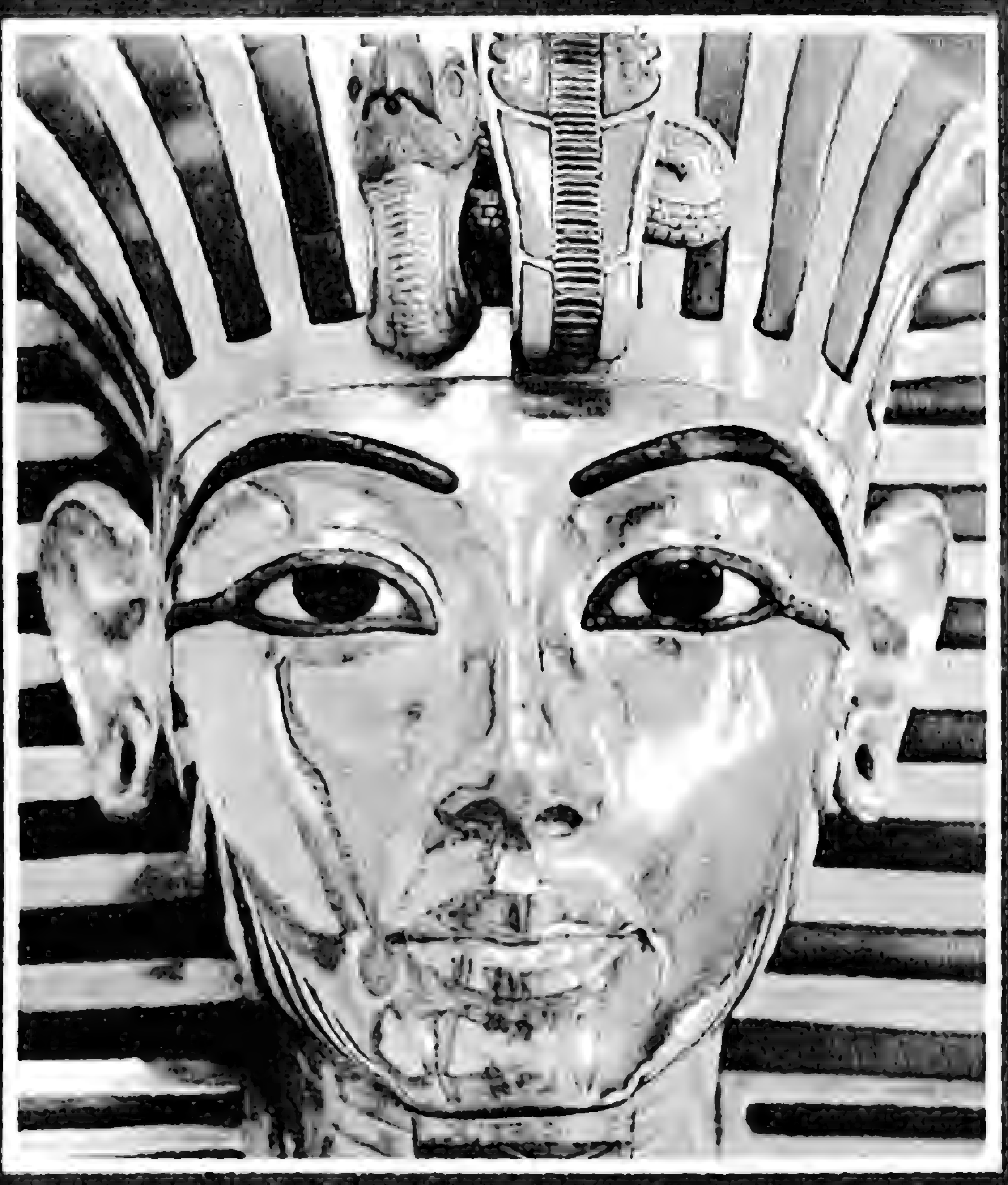
وتناول الفصل الرابع علاقة خالد بالكيمياء. شمل دراسة شخصية استاذي خالد، مريا نوس واصطفن القديم، ومناقشة اشتغال خالد بالكيمياء من خلال تحليل آراء المؤرخين العرب والمستشرقين، واعطاء بعض الملامح عن كيمياء خالد. وقد تبين في هذا الفصل ثبوت شخصية مريانوس واشتغال خالد بالكيمياء، اذ أيدته العديد من الاشارات الواردة في مصادر التاريخ والعلوم أما الفصل الخامس، فهو دراسة تحليلية لبعض المؤلفات العلمية المنسوبة الى خالد، سواء ما ذكره المؤرخون العرب أو تلك التي وصلتنا بشكل مخطوطات. وقد ظهر لدى تحليل بعض هذه المؤلفات أن فيها من الحقائق ما يمكن أن ننسبه الى خالد شعراً أو نثراً. وأن فيها من الأمور ما لا يمكن أن تعود الى عصر خالد، وهي على ما يبدو اضافات الحقت بالأشعار والنصوص الأصلية. وأخيراً فإن هذا البحث هو محاولة متواضعة تسهم في اعادة كتابة تاريخ تراثنا العلمي وشخصياته بما ينسجم وابراز الصورة المشرقة لهذا التراث.



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الرابعة • العدد التاسع والثلاثون • كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣م • الموافق ربيع الاول ١٤٠٣هـ



قناع توت عنخ امون الذهبي

تاريخ العرب والعالم

العدد ٣٩ ـ كانون الثاني ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. انيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 4. No. 39, JAN 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب، مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



د. عمر عبد السلام تدمري

غزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي

بعد وفاة معاوية وقفول الجُنْد المرابطين في جزيرتي رودس وقبرس سنة ٦٠ هـ ٦٨٠م. قام «يزيد بن عبد الملك» بوضع «ثابت بن معبد المحاربي الداراني» من أهل داريَّا أميراً على الساحل، مع أخيه «عطيّة بن معبد»، وهو تابعيٌّ نزل بيروت وروى عنه الامام الأوزاعي. وقد ولي الاخوان إمرة الساحل البحري مدّة أربعين سنة حتى أول القرن الثاني الهجري سنة ١٠٠ هـ ٧١٩م.

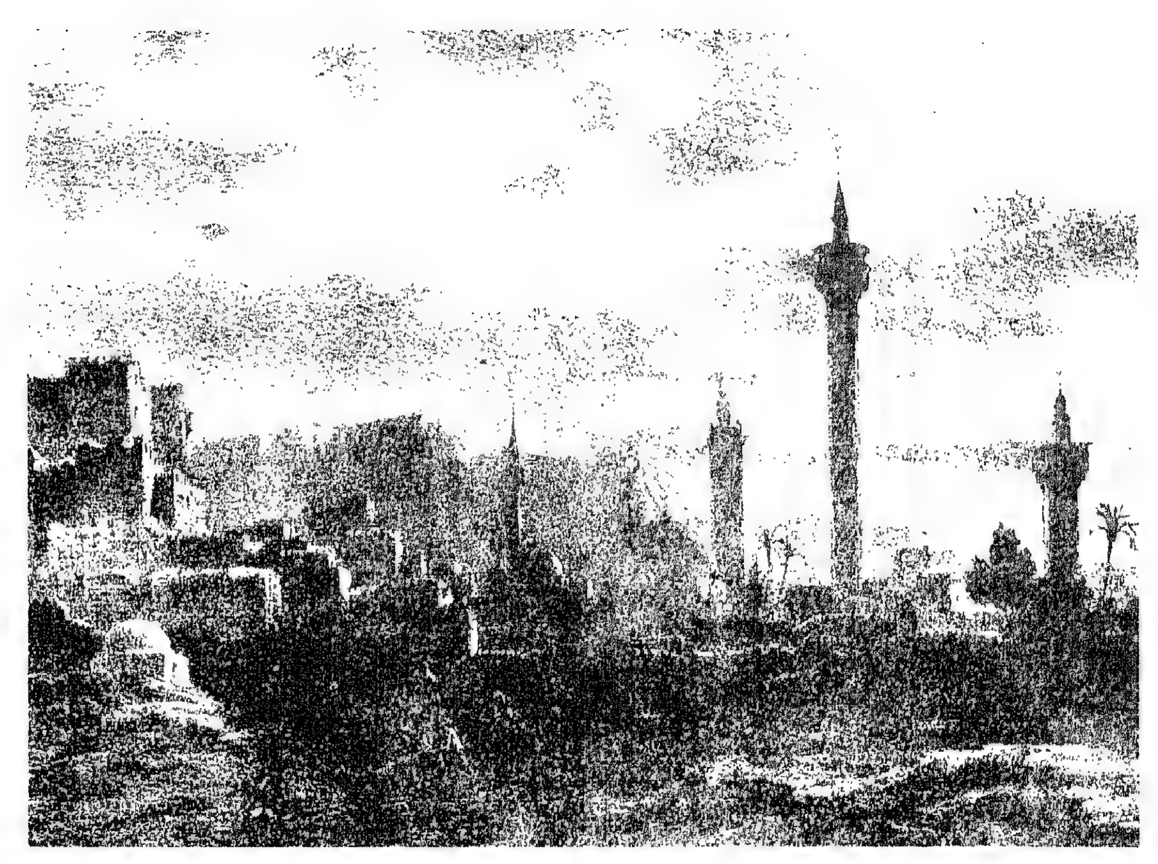
فقام ببناء حصن طرابلس الذي في الميناء من جديد وحصنه، وشملت عنايته حصون كل من: صور وعكا وقد جدّدهما بعد خرابهما، كما حصّن قيسارية وعسقلان اللتين خربهما البيزنطيون قبل ذلك. وكان استردّ قيسارية في سنة ٧١هـ/٦٩١م. وجدّد عمارة مدينة طرابلس وحصّنها وأسكنها المسلمين «فصارت آمنة عامرة مطمئنة»، ووضع لها نظاماً حربيّاً خاصاً، اذ كان يرسل اليها جنداً من دمشق فيرابطون فيها في فصل الصيف، أما في الشتاء فكان يوجّه اليها جنداً من بعلبك(٣).

في عهد الوليد بن عبد الملك:

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ ٩٦هـ/٧٠٥ـ ٧١٥م). أصبح «سُحَيم بن المهاجر الرومي» أميراً للبحر وقائداً للأسطول في طرابلس بعد أن كان عاملاً على المدينة في عهد عبد الملك. كما تولى غزو البحر من ساحل الشام في خلافة الوليد أميران من الموالي الفرس من أهل ساحل لبنان، هما: «أبوخراسان» و«سفيان الفارسي»(٤). وسير الوليد الأسطول الى جزيرة إقريطش ففتح بعض بلادها.

وفي أيام الوليد توفي «أبوصفوان عبد الله بن بُسرْ المازني» بين سنتي: ٨٧ـ٨٨هـ وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، وكان ركب من عكا لغزو قبرس في أيام معاوية(٥).

وحول سنة ٨٩هـ/٧٠٧م. تحرّك الجراجمة والروم على جبهتين في البر والبحر، حيث أتى إلى الجراجمة قوم من الروم من أهل الاسكندرونة وروسس، وقاموا بغارات على أطراف الدولة الأموية في الشمال، فتصدى لهم «مسلمة بن عبد الملك»(٦)، وفي البحر أتى الروم بأسطول ضخم إلى ساحل لبنان فأرسوا عند وجه الحجر حيث رابطت هناك بعض قطعه، وقامت القطع الأخرى بمهاجمة ثغر طرابلس وضربت عليه الحصار من ثلاث جهات، وجاء توقيت هذه الغزوة في الوقت الذي كان فيه أسطول طرابلس يغزو في البحر بعيداً عن الساحل، ولم يكن في المدينة من القوات الصالحة للدفاع عنها سوى نحو مائة وخمسين مقاتلاً، ولحسن الحظ فقد كان «سحيم بن المهاجر» أمير البحر موجوداً فيها لم يخرج مع الغزاة، وكان معروفاً بدهائه وذكائه، فلجأ الى خطة تمويه بارعة خدع بها البيزنطيين وجعلهم يفكون حصارهم البحري المضروب حو الثغر ويستدرجهم الى النزول الى البر بانتظار وصول النجدات العربية من الدمن القريبة، وقد بدأ خطته بأن نادي بأن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس في المسجد، فقام فيهم خطيباً وحثّهم على الصبر والجلاد والثبات أمام العدو، ثم أمر باجراء احصاء لعدد الرجال فبلغوا (١٥٠) مقاتلاً، سوى أهل السوق، والضعاف من الناس. ثم أمر بقياس الشرفات الواقعة بين الأبراج، ورتب عدداً معيناً من المقاتلين بين الشرفات والأبراج وجماعة يقومون عند باب الميناء الشرقي المطلّ على البرّ، وجماعة عند باب البحر في جهة الغرب. وأمر باحضار أنواع من الثياب بألوان مختلفة، وقام بتوزيع لون واحد منها على المقاتلين والأهالي وشحن بهم أحد الأبراج ووزعهم على شرفة السور التابع له وأمرهم أن يظهروا أنفسهم للعدو جميعاً فيتهيب كثرتهم، وبعد قليل أنزلهم وأبقى منهم عدداً قليلاً مرابطين في البرج، وألبس الناس والمقاتلين ثياباً ذات لون آخر فصعدوا البرج الثاني والسور التابع له وأظهروا أنفسهم للعدّو، ولبثوا فترة ثم نزلوا، وبقي في البرج عدد قليل من المقاتلين، وهكذا فعل في بقية الأبراج والشرفات والأسوار المطلة على البحر، ولقد اعتقد البيزنطيون فعلاً أن المدينة مملوءة بالمقاتلين والمدافعين، وأنهم اذا استمروا على حصارهم في البحر فلن يحققوا أهدافهم، ولذا نزلوا الى البر وعملوا على محاصرتها من الشرق. وفي هذه الأثناء وصلت النجدة من بيروت بقيادة واليها وأمير الساحل ـ كما يسميه ابن عساكر ـ «أبي العلاء عبد الرحمن بن سليم الكلبي»(٧)، كما وصلت النجدة من حمص بقيادة «الصقر بن صفوان»(٨) على رأس ستة آلاف من أهلها. وتمكنت طليعة الجند القادمة من بيروت بقيادة «سعيد بن عمرو بن الأسود الحرشي»(٩) أن تشق طريقها الى داخل المدينة بعد أن نجح الطرابلسيون في أسر قائد الحملة البيزنطية



طرابلس القديمة

ويدعى «دواميس».

ولما رأى البيزنطيون أنهم باتوا محاصرين بدورهم من جند حمص في الشمال، وجند بيروت في الجنوب، سقط في أيديهم، خاصة وأنهم فقدوا قائدهم، فلجأوا الى مراسلة المسلمين وجنحوا الى السلم ورفع الحصار، ودخلوا في مفاوضات مع والي بيروت وأمير الساحل «عبد الرحمن الكلبي»، فأخذ عليهم العهد أن يرفعوا الحصار والّا يعودوا في غزوة أو حملة عدوانية على ساحل الشام طوال ذلك العام، مقابل اطلاق سراح قائدهم «دواميس»(١٠). وهكذا نجت طرابلس من الحملة البيزنطية الضخمة بفضل دهاء «سحيم بن المهاجر»، ثم بقدوم النجدات من المدن الاسلامية براً وبحراً.

ولكن البيزنطيين نجحوا في السنة التالية (٩٠هـ/٧٠٩م). بإنزال الهزيمة بأسطول عربي بقيادة «خالد بن كيسان» ووقع القائد أسيراً بيدهم، فقام الأمبراطور «جستنيان» الثاني باطلاق سراحه وسلمه الى الوليد بن عبد الملك(١١). غير أن البيزنطيون تلقوا ضربة أخرى عندما قام «العباس بن الوليد» أمير البحر بحملة ففتح قبرس في سنة ٩٥هـ/٧١٤م(١٢).

في عهد سليمان بن عبد الملك:

استرد البيزنطيون نشاطهم في أول عهد الخليفة «سليمان بن عبد الملك» (٩٦ ــ ٩٩هـ/٧١٥ ــ ٧١٨م). فقام أسطولهم بالاغارة على مدينة اللاذقية ــ وكانت من جند حمص ــ فأحرقوها وذهبوا بما فيها، ولذا أصبحت تعرف في المصادر التاريخية بـ «اللاذقية المحترقة»(١٣). وأخذوا من ساحل حمص جملة أسرى من المسلمين، من بينهم أمرأة لها ذكر ومكانة، مما أثار الخليفة «سليمان» الذي قال: «ما هو إلّا هذا، نغزوهم ويغزوننا» وأقسم ليفتح

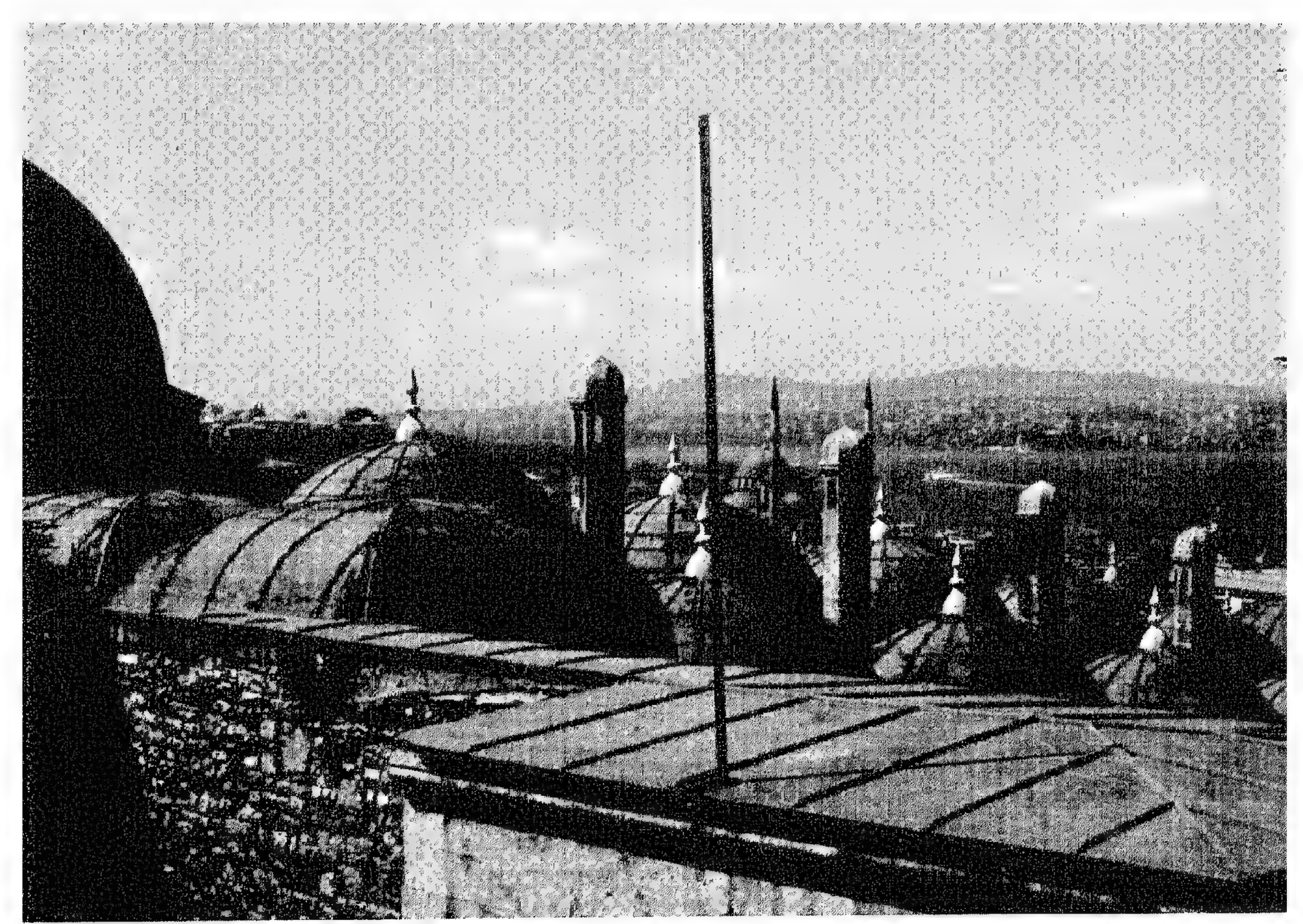
القسطنطينية أو يموت، فأغزى أهل الشام والجزيرة في البر في نحو من مائة وعشرين ألفاً، وأغزى أهل مصر والمغرب في ألف مركب عليهم «عمر بن هبيرة الفزاري»[١٤]، وعلى الكل «مسلمة بن عبد الملك»، الذي أمر كل فارس أن يحمل على فرسه مديين من الطعام حتى يأتي به القسطنطينية، ثم أمر بالطعام فأُلقي في ناحية حتى صار كالجبل، ومنع المسلمين أن يأكلوا منه شيئاً بل يكتفوا بما يصيبونه من غاراتهم من الزرع والقوت. وأقام مرابطاً عند أسوار القسطنطينية قاهراً لأهلها حتى نفد القوت عندهم، وهو يغيظهم بجبل الحنطة الذي في وسط معسكره، لا يمسسه أحد ولا ينقص منه شيء، حتى عرضوا عليه الفدية بعد أن أضرّهم الحصار، فأبى إلّا أن يفتحها عنوة[١٥]، وصادف أن مات الأمبرطور «جستنيان» الثاني أثناء الحصار، وتولى بعده «إليون الرومي المرعشي» الذي غدر بالمسلمين وخان العهد معهم بعد أن كان حليفهم، وأدخل الى المدينة قسماً كبيراً من الحنطة. وقد شارك في هذه الغزوة الكبرى إلى القسطنطينية اثنان من غزاة البحر من أهل طرابلس، هما: «الليث بن تميم الفارسي الطرابلسي» واخوه «ابو خراسان الفارسي الطرابلسي» حيث خرجا بمركبهما من ميناء طرابلس وانضما إلى الغزاة الذين تجمعوا تحت قيادة «عمر بن هبيرة».

ويحكي لنا «الليث بن تميم» بعض وقائع هذه الغزوة كشاهد عيان، حسب رواية «ابن عساكر» الذي ينفرد بهذا النص:

«قال الليث: كنت ممن غزا على اسمه وعطائه — يعني عمر بن هبيرة — اذ ولاه سليمان [بن عبد الملك] غازية البحر، فرافقت أخي أبا خراسان في مركب، فسار بنا عمر حتى مررنا بأهل مصر، فتبعونا، ومضينا حتى أتينا أطرابلس افريقية، وعلونا أرض الروم، حتى اذا حاذينا القسطنطينية سرنا في بحر الشام حتى دفعنا الى خليج القسطنطينية، فخرجنا الى الخليج على باب القسطنطينية لنُجز الى مسلمة ومن معه من المسلمين. وصف مسلمة من معه من المسلمين صفاً لم أر قط أطول منه، مع الكراديس الكثيرة. وجلس ليون طاغية الروم على برج على باب القسطنطينية وبروجها، يصف منهم رجاله فيما بين الحائط والبحر صفاً طويلاً بحذاء صف المسلمين، وأظهرنا السلاح في ألف مركب بين محرقات وقوارب فيها.. (؟) من كسوة مصر.. والميناء فيها المقاتلة».

قال الليث: «فما رأيت يوماً قط كان أعجب منه لما ظهر من عدونا في البر والبحر، وما أظهرنا من السلاح، وما أظهر طاغية الروم على حائط القسطنطينية وصفهم ذلك، والعدة، ونصبوا المجانيق والعرادات، فيكبر المسلمون في البر والبحر، ويظهر الروم قبلها، حتى فكر ابن هبيرة وجماعة من مقدمية السفن على الاقدام على باب المينا لما هابته على أنفسها، فلما رأت ذلك الروم، خرج الينا من باب مينائهم مركبان، وقال: محرقان، فمضى مركب منها الى أدنى من يليه من مراكب المسلمين فالقى عليه الكلاليب بالسلاسل فاجتره حتى أدخله بأهله القسطنطينية، فأسقط ذلك في أيدينا. وخرجوا الى مركب ليفعلوا ذلك به، فجعل ابن هبيرة يتحسر ويقول: «ألا رجل»؟! فقام اليه أبو خراسان فقال: هذا أنا رجل، ولكنك صيرتني في المركب معك لبعض من أودعني عنده، فقال له ابن هبيرة: فمر بما ترى ومر بما تحب. فأشار [أبو خراسان] الى مركب من الفرس يغزوهم بالشدة والبأس، فقال: ابعثني في قارب أنا وأخي، ومرهم بطاعتي، ففعل، فأمر أبوخراسان بنوتي المركب أن يوجهه الى ذلك المركب الذي ذهب بالمسلمين، فكعّ عنه النوتي، فأشار اليه أبو خرسان بالسيف فمضى به حتى الصق المركب بمركبهم ثم سار أبوخراسان حتى أوثقهما بسلسلة لئلا يفرّ أحدهما عن صاحبه.

قال: فاجتلدنا بأسيافنا مطالبين السفينتين، فرزقنا الله الظفر، فدخلنا سفينتهم ووضعنا السيف فيهم، فانتهينا الى قومس السفينة الذي فعل ما فعل، وقد ألقى بيضته وجثا على ركبتيه، شيخ أصلع، فضربه صاحب لنا ضربة لم تغن شيئاً، وتقدم اليه أبوخراسان فضربه ضربة شق فيها هامته، حتى نظرت الى السيف قد أجاز الى الذقن الى الحنجرة وما يليها، واستسلم من بقي منهم، فقدناها الى من يلينا



بحر مرمرة تطلّ عليه قصور القسطنطينية.

من المسلمين ورجعنا الى من كان منهم، فدخلوا الينا. ووقف أبوخرسان موقفاً حسناً يأمن به من مرّ بنا الى مسلمة ومن يليه حتى مرّوا عن آخرهم، لم يصب منهم الاّ ذلك المركب الأول، حتى انتهينا الى مسلمة ومن معه فأخذناهم في الخليج الى السفح الذي على باب القسطنطينية والبحر.

وقال: الخليج محيط بها إلّا مما يلي برّها، فعسكر عليه مسلمة. وكنا في سفننا مرسيين على ساحلها مما يلي العسكر، يخرج من سفننا عمر بن هبيرة وغيره الى مسلمة ومن أوردنا من أهل العسكر، ويأتينا أهل العسكر فيدخلون علينا في سفننا»(١٦).

ولقد بقي مسلمة مقيماً على حصار القسطنطينية مدة ثلاثين شهراً حتى هلك الكثير ممن معه من الجوع، وأكل الناس بعضهم، واضطر أن يرفع الحصار ويعود أدراجه دون أن يحقق اليمين الذي أقسمه الخليفة سليمان بفتح عاصمة الامبراطورية، إلّا أن الشق الثاني من القسم تحقق وهو وفاة الخليفة أثناء الحصار، وكان قبل ذلك قد ولى: «حظيّ» أو «حيّ بن أبي كثير الجذامي» من أهل حرَسْتا، على غزو البحر، وكان منزله بعكا وبها عقبه من أبنائه وأحفاده(١٧).

في عهد عمر بم عبد العزيز ومن بعده:

عاد البيزنطيون من جديد فأغاروا على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها،وذلك في خلافة «عمر بن عبد العزيز» سنة ١٠٠هـ/٧١٩م. فوجه عمر الغزاة في الصائفة

حصون اللاذقية وشحنها بالمقاتلة، وولى على بيروت «أبا عثمان أيوب خالد الجهني المراغي»، وعلى غازية البحر الشامي «المغيرة بن عمرو الازدي» من أهل حرستا. واستمر في امارة البحر حتى بعد وفاة يزيد بسنتين، إلى أن عزله «هشام بن عبد الملك» وولي مكانه «يزيد بن أبي مريم الثقفي المصيصي». وفي أيامه عاد البيزنطيون في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ــ ٧٤٣م) فقاموا بغزوة الى ثغر صور في سنة ١٠٧هـ/٧٢٦م. ووصلت سفنهم الى باب الميناء، وكان «يزيد بن أبي مريم» مقلولاً عند اللقاء، فخرج اليهم «خالد بن الحسفان الفارسي» فقاتلهم حتى أجبرهم على الهرب، وطاردهم بسفنه، فأرست احدى سفنهم على جزيرة قبالة صور فاستولى عليها وأسر من فيها. وقد ادعى «يزيد بن ابي مريم» في كتاب كتبه إلى «هشام بن عبد الملك» بأنه وجّه الى الروم ابنه «الشرف» فهزمهم، ولكن صاحب البريد بطبرية أكد للخليفة أن «خالداً الفارسي» هو الذي خرج للروم وليس «الشرف بن يزيد»، فكتب هشام إلى يزيد يقرّعه ويتهمه في ابنه «إنه ليس بالشرف، ولكنه الوضيع»، ثم عزله وولى عوضه «الأسود بن بلال المحاربي»[٢٠].

واجتمع جيش الشام، وعليه «ميمون بن مهران» ومعه «معاوية بن هشام بن عبد الملك» ليردّ على تلك الغزوة، فأبحر بالسفن من سواحل الشام وقطع البحر في سنة ١١١هـ. ولكننا لم نتبين وجهة تلك الغزوة.

وفي السنة المذكورة كان «شديد بن قيس هانىء اليزني» يلي بحر مصر والشام لآخر مرة[٢١].

واستمرت الغزوات البحرية المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين، من وإلى ساحل الشام، في عهد هشام، ووصل البيزنطيون في إحدى غزواتهم الى بيروت فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة لجماعة من تجار اقليم مرسية الاسباني، وتقدموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفاً ورهبة حتى خرج اليهم أمير البحر «الأسود بن بلال المحاربي» فصاح بهم، وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيين



رام عربي مسلح

من أهل حمص بقيادة: «الوليد بن هشام المعيطي» و«عمرو بن قيس الكندي»، ولم يزل الخليفة مهتماً بأمر اللاذقية حتى فتحها وأمر بإعادة بنائها قبل وفاته في سنة ١٠١هـ/٨٢٠م. ووجّه الى الامبراطور البيزنطي يطلب منه فداء الأسرى المسلمين فرفض[١٨]. وكان قد كتب الى الأسرى المسلمين بالقسطنطينية ما نصه:

«... أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ولستم بأسارى. معاذ الله! أنتم الحبساء في سبيل الله. واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلّا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه. وقد بعثت اليكم خمسة دنانير، خمسة دنانير. ولولا أني خشيت أن زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم. وقد بعثت اليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم، وأنثاكم، حركم ومملوككم، بما يسأل فأبشروا ثم بشروا»[١٩]. وأخرج الغزاة في عهده الى مرج دابق في نواحي حلب، يريدون منطقة الثغور.

وفي عهد «يزيد بن عبد الملك» جرى تقوية



سفينة بيزنطية مسلحة في العاصفة (عن مخطوطة الأنييد).

حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليها واستنقذ المركب والتجار[٢٢].

وصرف هشام عنايته الى تدعيم السواحل، وفي عهده انتقلت دار صناعة السفن من عكا الى صور، وحول ذلك يروي «البلاذري» إن رجلاً من عكا كان يملك أرحاء [جمع رحى] ومستغلات، فأراد هشام أن يشتريها منه، فأبى الرجل، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بها فندقاً ومستغلاً[٢٣]. وظلت صناعة المراكب في ميناء صور منذ ذلك الوقت حتى عهد المتوكل العباسي.

وبدا واضحاً أن أهل جزيرة قبرس كانوا يظهرون الغدر بين حين وآخر، فكانوا يقدّمون التسهيلات للأسطول البيزنطي ويمدّونه بالعتاد ويزودونه بالمعلومات عن تحركات السفن الاسلامية. فكان المسلمون يخرجون بين وقت وآخر للاقتصاص منهم على عدم طاعتهم والوفاء بعهودهم. ولذلك غزاهم «الأسود المحاربي» في سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م. ومعه «عياش بن عقبة» في أهل مصر. ثم قام في سنة ١٢١ أو ١٢٢هـ. بالغزو الى جزيرة اقريطش ومعه «حفص بن الوليد الحضرمي» على أهل مصر وكان مرابطاً بالشام، فهزم أهل الجزيرة ونزل بالمسلمين عليها، وأصاب منها أسرى[٢٤].

وقد استوجبت حدّة الصراع شحن المدن الساحلية وتكثيف المرابطين فيها، لتفاقم الخطر البيزنطي، فخرج في الصائفة «خالد بن عبد الله القسري» مع ابنيه: «يزيد» و«هشام»، وخرج ابنان آخران له للمرابطة في ساحل الشام مع عمّهما «اسماعيل بن عبد الله القسري» وكان «اسماعيل» و«المنذر بن أسد بن عبد الله» و«سعيد» و«محمد» ابنا خالد بالساحل لحدَث كان من الروم.

وعندما آلت الخلافة الى «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» (١٢٥ ــ ١٢٦هـ/٧٤٣ ــ ٧٤٤م) قام بزيارة تفقدية الى ساحل الشام ونزل بيروت فأعجبته فأنشد فيها:

اذا شئت تصابرت	ولا أصبر ان شيت
ولا والله لا يصبر	في البرية الحوت
ألا يا حبذا شخص	حمت لقياه بيروت

وأمر «الأسود بن بلال المحاربي» على جيش البحر في ساحل الشام كله، وأمره أن يسير لغزو

قبرس ويأمر أهلها بالجلاء عنها، ويخيرهم أن يسيروا الى الشام أو الى الروم. فنزل الأسود على الجزيرة في سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م. ومعه «عياش بن عقبة» على أهل مصر، فخيّر أهلها في الاقامة خارجها أو القتال، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين في الشام فنقلهم اليها، وأسكنهم الماحوز على ساحل لبنان فيما بين صور وصيدا[٢٥]. واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا اليها.

ولكن الخليفة «يزيد بن الوليد» (١٢٦هـ/٧٤٤م). ردّ النازحين عن الجزيرة اليها بعد أن أنكر الناس ذلك، ولم يوافق عليه الفقهاء، فاستحسن المسلمون ما فعله يزيد. وظلت قبضة المسلمين محكمة على الجزيرة، حتى جهّز اليها الامبرطور «قسطنطين الخامس» في سنة ١٢٨هـ/٧٦٤م. أسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية، وسيّره الى قبرس، فهاجم أسطولاً للمسلمين كان عندها وأنزل به الهزيمة، واحتل الجزيرة[٢٦]. وجاء احتلال قبرس في وقت كانت فيه الدولة الأموية قد شارفت على نهايتها. ولذا لم تظهر أية نتيجة فعّالة لجهود «حذيفة بن سعيد السلامي» الذي ولّاه «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية على غازية البحر في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م. بل إن «صالح بن علي» العباسي استخدم المراكب المرابطة في مواني بحر الشام لمطاردة «مروان بن محمد»، وقتله في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م. ليقضي بذلك على الخلافة الأموية، ولتطوى صفحة الأسطول الاسلامي مع الدولة الأموية، وتفتح صفحة جديدة عن دوره في العصر العباسي، وهذا له بحث آخر. **انتهى**

المصادر والحواشي

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق (المخطوط)، ج ١٢٨/٢٨، التهذيب ٣٧٤/٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ١٩٠/١، أنساب الأشراف ٣٠٠/٥، ابن عساكر ١٢٠/١٥ ـ ١٢٢ و٥٩٥/١٢، التهذيب ٦٥/٦ و٦٦، ابن الأثير ٣٠٤/٤، ابن العديم، بغية الطلب (المخطوط) ٢١٣/٧ و٢١٩ و٢٢٠، نهاية الأرب، النويري ١٠٨/٢١ و١٠٩.

(٣) تهذيب ابن عساكر ١٨٣/٦.

(٤) بغية الطلب ٢٢٠/٧، ابن عساكر ١٢٢/١٥ و٨٩/١٦.

(٥) ابن حيّان، مشاهير علماء الأمصار ٥٤، ابن الأثير ٥٣٤/٤، ابن عساكر ٣١٠/٧.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان ١٩٠/١ و١٩١، تاريخ اليعقوبي ٢٨٣/٢.

(٧) هكذا عرّفه ابن عساكر في تاريخ دمشق (المخطوط) ٥٩٤/٢٢، وانظر عنه: تاريخ خليفة بن خياط ــ ص ٣٢٨ و٣٣٠ و٣٣٥، تاريخ اليعقوبي ٣١٥/٢، الطبري ١٤١/٦ و٣٤٩ و٥٨٤ و٦٠٥، ابن الأثير ٤٧١/٤.

(٨) أنظر عنه: تهذيب ابن عساكر ٤٤٣/٦، الطبري ٢٦٦/٧.

(٩) أنظر عنه: تاريخ خليفة بن خياط ٣٢٨ و٤٣٧ وقد مات سنة ١٦٣هـ، اليعقوبي ٣١٧/٢، الطبري ٥٧٧/٦، ابن الأثير ٦٩/٥ و٧٠ و١٠٣ و١٠٧ ــ ١١٠ و١١٥ و١١٦، تهذيب ابن عساكر ١٦٤/٦، تاريخ الإسلام ــ الذهبي ٧٩/٥، طبعة القدسي.

(١٠) تاريخ دمشق ٥٩٥/٢٢ ــ ٥٩٨.

(١١) الطبري ٤٤٢/٦، ابن الأثير ٤/٨ـ٥٤، ابن عساكر ٢٣٧/١٢، النويري، نهاية الأرب ٣١٩/٢١.

(١٢) اليعقوبي ٢٩٢/٢.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٣.

(١٤) كان على بعلبك في عهد عبد الملك على الأرجح. أنظر عنه: الأغاني ١٧٠/١٢.

(١٥) الطبري ٥٣٠/٦ وما بعدها، سير أعلام النبلاء ٥٠١/٤، ٥٠٢.

(١٦) ابن عساكر ١٩٥/٣٦ ــ ١٩٨.

(١٧) ابن عساكر ٢٧٣/٧ و٥/١٢، التهذيب ٣٧٨/٤ و٢٧/٥.

(١٨) البلاذري، فتوح البلدان ١٥٧/١.

(١٩) الأغاني ٢٦٥/٩ و٢٦٦، مختار الأغاني، ابن منظور ٣٤/٥.

(٢٠) ابن عساكر ٧٦٧/٤٦.

(٢١) ابن ماكولا، الاكمال ٤٩/٥.

(٢٢) ابن عساكر ١٨/٦، التهذيب ٤٧/٣.

(٢٣) البلاذري ١٤٠/١.

(٢٤) ابن عساكر ١٨/٦ و١٩، التهذيب ٤٧/٣.

(٢٥) المنجبي، كتاب العنوان ٣٦١/٢ والماحوز: هو الموضع، وأهل الشام يسمّون المكان الذي بينهم وبين العدو وفيه أساميهم ومكاتبهم ماحوزاً.

(٢٦) د. أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب ٢٩٤/١، موسوعة تاريخ العالم ــ وليم لانجر ٤٨٤/٢.

(٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية ٤٦/١٠.

الآلة التي تزمّر بنفسها صنعة بني موسى بن شاكر

د. منى سنجقدار شعراني



عنوان طريف استرعى انتباهي وأثار فضولي بينما كنت أبحث في مكتبة الجامعة الأميركية عن المخطوطات العربية التي تتعلق بالعلوم عند العرب. ومما شدني أكثر لهذا العنوان هو اقترانه باسم «بني موسى بن شاكر» الاخوة الثلاثة الذين غاصوا بعيدا في بحر العلوم فانجرفوا في تياراته حتى اشتهروا في علم الفيزياء وعلم الفلك وعلم الرياضيات وأيضا الموسيقى.

الآلة التي تزمر بنفسها. ما هي تلك الآلة؟ كيف تزمر بنفسها؟ ما هي المقومات العلمية التي تبعها الأخوة الثلاثة لتركيب تلك الآلة؟ هل هي آلة موسيقية تعطي لحناً لنغمات موسيقية معروفة أم إنها مجرد آلة نفخ تزمر؟

جميع تلك الأسئلة جالت في خاطري وأخرى غيرها لم أستطع الاجابة عنها. فعكفت على دراسة المخطوطة دراسة علمية بحتة فكان كل مقطع منها ينقلني الى حقل جديد من حقول الفيزياء وكانت كل كلمة تفسر ما قبلها وتحدد بدقة النظرية العلمية المطروحة.

وقبل وصف تلك الآلة لابد لنا من التعريف بأبناء موسى بن شاكر والقاء بعض الأضواء على مخطوطتهم هذه.

من هم أبناء موسى بن شاكر:

ثلاثة أخوة: محمد وأحمد وحسن عاشوا في القرن الثالث للهجرة واشتهروا بعلومهم وكانوا من أركان النهضة العلمية في أوائل العصر العباسي وانهم يعتبرون من أهم علماء الفيزياء في ذلك العصر. وتذكر بعض المصادر بأن والدهم موسى بن شاكر كان متقدماً في علم الهندسة وانه كان فلكياً منجماً من المقربين الى الخليفة المأمون.

وللتعريف بهم لابد لنا من الأخذ بآراء المؤرخين والكتاب ممن عاصرهم أو أتى بعدهم واطلع عن كثب على أعمالهم واختراعاتهم.

قال أبو الفرج بن الجبري في تاريخ مختصر الدول(1): «مات موسى بن شاكر وخلف هؤلاء الأولاد الثلاثة صغاراً» فوصى بهم المأمون

د. منى سنجقدار شعراني: ليسانس فيزياء من كلية العلوم ــ الجامعة اللبنانية أستاذة في كلية التربية. دكتوراه من معهد الدراسات العليا في باريس. ساهمت باصدار كتاب «العلوم الفيزيائية ــ سنة أولى» الصادر عن الجامعة الاميركية ــ إدارة العلوم. اشتركت بعدة دورات تدريبية ومؤتمرات علمية في مختلف أنحاء العالم العربي.

اسحق بن ابـراهيم المصعبي وأثبـتهـم مـع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة فخرج بنو موسى بن شـاكر نهـاية في علومهم وكـان أكبرهم وأجلهم أبوجعفر محمد وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد.. وكان أحمد دونه في العلم إلّا صناعة الحيل فإنه فتح له فيها مالم يفتح لمثله أحد. وكان الحسن هو الثالث منفرداً بالهندسة وله طبع عجيب فيها لا يدانيه أحد. علم كل ما علم بطبعه ولم يقـرأ من كتب الهندسـة إلّا ست مقالات من كتاب أوقليدس في الأصول فقط وهي أقل من نصف الكتاب ولكن ذكره كان عجيباً وتخيله قوياً».

وقـال ابن النديم في الفهـرست[٢] «هـؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وانفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم فأحضروا النقلة في الاصقاع والأماكن بـالبذل السني فـأظهـروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم في العلوم الهنـدسية والحيـل والموسيقى والنجـوم وهـو الأقل».

وقد نقل جلال الدين بـن القفطي[٣] هـذا الكلام وزاد عليه قوله: «ان بني موسى كانوا جميعاً متقدمين في النوع الرياضي وحركة الأفلاك وحركات النجوم.. وكانوا أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ولهم في ذلك تآليف عجيبة تعرف بحيل بني موسى وهي شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس».

أعمالهم ومؤلفاتهم:

تحدثنا بعض المصـادر أن أول مابـرز به أبناء موسى هو ميدان الاشراف على ما يترجم من العلوم في بيت الحكمة وكان محـمـد أكبر الأخوة مشرفاً على مـا يترجم من كتب الجبـر والمقابلة وقام بأسفار عديدة الى آسيا الصغرى واليونان بحثاً عن كتب الميكانيك والرياضيـات إضافة الى الفلسفة.

وبعد المطالعات العلمية المستمرة التي قام بها أبناء موسى، عملوا في دار الرصد المأمونية بالشماسية ببغداد ثم أنشأوا مرصداً خاصـاً بهم في دارهم التى أقاموها عند «بـاب طاق» جانب الرصافة في بغداد[٤] وكان من أعمالهم العظيمة المساهمة في قياس محيط الأرض.

لقد كان حظ أبناء موسى سعيداً كذلك زمن الخليفـة المتوكـل (٢٣٢ ــ ٢٤٧هـ) باجـزال العطاء عليهم وقد بنى لهم داراً بسامراء على مقربة من قصره وأمدهم بفريق من المترجمين[٥] وعندما ذهب الطبيب ابن ربن الطبري[٦] الى مرصد القصر قال وقد أخذ منه العجب كـل مأخذ: «في مـرصد سـامراء رأيت آلة بنـاها الأخوان محمد وأحمد أبناء موسى وهي ذات شكـل دائري تحمـل صـور النجـوم ورمـوز الحيوانات في وسطها وتديرها قوة مائية. وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورتـه في الخط الأفقي من الآلة»

مؤلفاتهم:

لقد وردت قائمة تآليف بني موسى في كتاب الفهرست لابن النديم وفي تاريخ الحكماء لابن القفطي. وقد رتبناها كالتالي بالنسبة للحقـول والميادين التي عملوا بها.

١ ــ في حقل الرياضيات:

كتاب الشكل الهندسي الذي بين جـالينوس أمره (لمحمد).

كتاب المخروطات (أبولونيوس).

كتاب الشكل المـدور المستطيـل وقد ألفـه الحسن.

كتاب مساحة الأكر وقسمة الزوايا بثـلاثة أقسام متساوية ووضع مقدار ما بين مقدارين ليتـولى على قسمـة واحدة ومعـرفة الأشكـال الكروية.

٢ ــ في حقل علم الفلك:

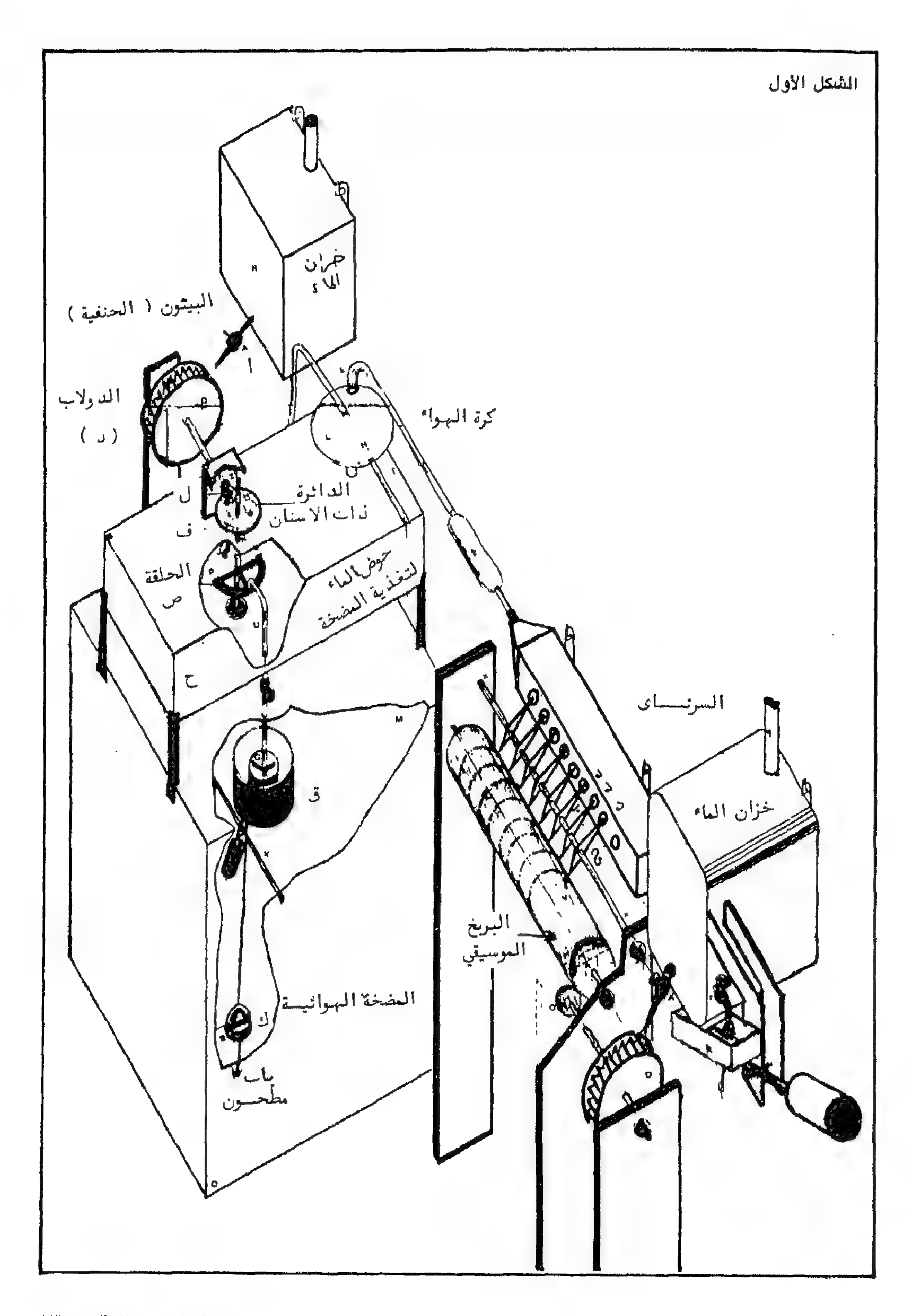
ان لمحمد بن موسى كتاب حركة الفلك الأولى وكذلك كتاب في أولية العالم.

ويعرف لأحمد كتاب بين فيه بطريق تعليمي هندسي أنه ليس خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة.

٣ ــ في حقل الفيزياء:

ــ كتاب بني موسى في القرسطون.

ــ كتاب الحيل وقد ذكره ابن خلكان قال: «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر، يشتمل على


الشكل الأول
خزان الماء
البيثون (الحنفية)
الدولاب
(د)
كرة الهواء
الدائرة ذات الاسنان
الحلقة
ص
حوض الماء لتغذية المضخة
السرنـــاي
خزان الماء
ق
البريخ الموسيقي
المضخة الهوائيـة
باب مطحـون

كل غريبة ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد».
ــ كتاب في الآلات الحربية.
٤ ــ في حقل الموسيقى:
ــ تذكر بعض المصادر بأن لأبناء موسى موسوعة في علم الموسيقى. وكذلك مخطوطة الآلة التي تزمر بنفسها والتي نحن بصدد دراستها.
٥ ــ في حقل الفلسفة:
لقد ذكر ابن النديم في الفهرست
ــ كتاب في أول العلل.
ــ كتاب على مائية الكلام.
ــ كتاب المسألة التي القاها أحمد بن موسى بن شاكر على سند ابن علي.
وهكذا يتضح من مؤلفاتهم بأن أبناء موسى بن شاكر كانوا من عباقرة القرن الثالث الهجري وأن دراساتهم هذه مهدت الطريق أمام الاكتشافات العلمية التي ظهرت في القرون الوسطى.

التعريف بالمخطوطة:

أما التعريف بالمخطوط فقد ورد على لسان الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة المشرق[٧] فقد ذكر بأن وصف آلة الزمر موجود ضمن مجموع كبير كان ملك القس أنطوان بولاد وهو الذي كتب في صدره ما حرفه. «الذي ضمن هذا الظرف هو مجموع حاوي أقوالاً من فلاسفة العرب، وأخص هذه الأقوال في علم الهندسة وكان هذا المجموع مختلطاً ببعضه ومشدوداً من جاهل حيث صير الأول أخيراً وهكذا حتى كاد لا يعلم منه شيئاً على حقيقته وذلك لسبب عدم وجود قيد من ناسخه فلذلك فرطته وقد رتبته كما تراه بدون شد عسى أفوز بنسخة وأكمل ما نقص من آلة الزمر وأسأل الله التوفيق والأجر والثواب لمن يتمم ذلك لأنه كتاب صغير حجماً وغزير علماً ويغالي به ثمناً».

والجدير بالذكر أن المخطوطة كتبت بلغة عربية قديمة تخللتها بعض العبارات الفارسية أما بالنسبة لآلة الزمر بالذات فقد وصفت وصفاً دقيقاً منظماً ولكن لم يوجد أثر لأي رسم أو شكل يبين أجزاء الآلة رغم أن عبارة (كما صورنا) وردت غالباً في السطور ومعنى ذلك أن بني موسى بن شاكر وضعوا الرسوم والتصاميم اللازمة للآلة ولكنها جميعاً فقدت ولم يبقَ لدينا سوى الوصف.

لابد من الاشارة هنا بأن الناسخ ركز اهتمامه على آلة الزمر مما قادنا حتماً الى التفكير بكبار المستشرقين والمؤرخين والبحث في دراساتهم عن ترجمة لتلك المخطوطة.

فعلاً لقد حازت هذه المخطوطة على اهتمام (Wiedman)[٨] المستشرق الألماني فترجمها الى اللغة الألمانية وأظهر بعض مقاطع الآلة برسم مبسط جداً ولكنه لم يخصص لدراستها الا بضعة أسطر لم تف بأهميتها ولم تبرز الحقائق العلمية التي تكمن بين سطورها.

كذلك لقد ترجم (Henry George Farmer)[٨] المخطوط الى الانكليزية وشرح فوائدها العلمية بصورة مختصرة ولكنه لم يظهر الاكتشافات الحديثة في علم الموسيقى الميكانيكية التي حققها الأخوة الثلاثة، الأمر الذي دفعنا الى الدراسة العلمية البحتة واستطعنا استخراج المقومات العلمية التي تختبىء بين سطورها، تلك الحقائق التي لو عرفت في عهدها لغيرت مجرى تاريخ العلوم بل والاكتشافات العلمية في حقل الميكانيك بحيث أحرزت تقدماً لا يقل عن ثمانية قرون.

وصف آلة الزمر:

لقد استهل بنو موسى بن شاكر وصف الآلة بقولهم:
بسم الله الرحمن الرحيم
«نريد أن نبين كيف تعمل آلة تزمر بنفسها دائماً في أي لحن أردنا وأن يكون ذلك أحيانا بايقاع ثقيل وأحياناً بايقاع خفيف وأن ننقل من لحن الى لحن متى أردنا ذلك ولأن الزمر الدائم لا يكون الا بريح دائمة فانا نبدأ فنبين كيف تعمل آلة يحدث عنها ريح دائمة».

ثم تابعوا الوصف بدقة متناهية حيث عللوا وجود كل جزء من أجزائها وفسروا بوضوح كيفية صنعه وتركيبه والعمل به، كما أعطوا القياسات اللازمة نسبة للمقاييس التي كانت تستعمل في عصرهم كالذراع (٥٠ سم) والشبر (٢٢ سم).

ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقد خصصوا في نهاية الوصف صفحتين كاملتين سردوا فيهما النصائح والارشادات التي يجب اتباعها لحسن سير عمل الآلة، كما أوضحوا الخطوط الوقائية التي يجب اتباعها اذا ماتعطل العمل في تلك الآلة الضخمة.

هذا وبعد جهد كبير استطعنا اظهار خريطة عامة لشكل الآلة (راجع الرسم رقم (١) .

أجزاء الآلة:

تقسم الآلة الى خمسة أقسام أساسية يحتوي كل منها على أجزائه الخاصة.

١ ــ المضخة الهوائية.

تتألف المضخة الهوائية من اناء كبير من الشبه[٩] طوله ذراعان في عرض ذراعين وارتفاع ذراعين ونصف. وقد قسم هذا الاناء بسطح داخلي الى قسمين متساويين يحتوي كل منهما على الأجزاء التالية:

(أ) وعاء صغير يثبت على طرف رافعة ويتصل بسلسلة بفتحة (Soupape) توجد في أسفل القسم مخصصة لتفريغ الماء.

(ب) أنبوب يثبت في السطح الأعلى من القسم وينتهي الى كرة هواء. وهذا الأنبوب يسمح بخروج الهواء من القسم المذكور أثناء امتلائه بالماء.

(ج) أنبوب آخر صغير يساعد على تفريغ الماء وذلك بفعل الضغط الجوي..

هذا وان هذين القسمين يكونان دائماً متعاقبين في العمل حتى أن الهواء يكون دائم الخروج من أحد الأنبوبين.

٢ ــ حوض الماء المخصص لتغذية المضخة الهوائية.

انه حوض كبير طوله ذراعان في عرض ذراع وربع وسمك نصف ذراع له أربع قوائم ثبتت فوق المضخة الرئيسية.

يحتوي هذا الحوض على محور ثبتت عليه حلقة (نصف دائرة) مهمتها فتح واقفال وبطريقة متعاقبة انبوبي مجرى الماء الى المضخة. ولقد ثبت أيضاً على نفس المحور دائرة ذات دندانجات (اسنان) يديرها لولب يتصل محوره بدولاب ذي ٦ نردات (جيوب) يدور بفعل الماء عليه.

ويلاحظ بأن هذا الحوض هو محكم الاغلاق ويجب أن يكون دائماً وأبداً مملوءاً بالماء لكي يحافظ على الضغط المطلوب.

٣ ــ كرة ضغط الهواء.

ان الهواء الذي يخرج من الانبوبين المخصصين له من سطح المضخة يتجمع في كرة لها عنق ويحتفظ بضغط معين ثم يخرج من أنبوب آخر ليصل مباشرة الى المزمار.

٤ ــ الزمر أو المزمار:

انه عبارة عن سرناي أو ناي ذي تسعة ثقوب في فوهته الحبة المصوتة (Sifflet) وأن العادة جرت بأن تسد ثمانية ثقوب منها بالأصابع وتفتح بالأصابع ويترك الثقب التاسع أبداً مفتوحاً وهو الذي في طرف الناي أو السرناي وأن النغمة تظهر من هذا الثقب التاسع اذا ماكانت الثمانية ثقوب التي فوقه مسدودة وكذلك كل ثقب من جميع هذه التسعة اذا ماكان مفتوحاً وما فوقه مما يلي الفم مسدوداً فإن النغمة تخرج منه وهي له ولو كانت جميع الثقوب التي بعده مفتوحة.

وبما أن آلة الزمر تعمل بنفسها لذلك عمد بنو موسى الى طريقة خاصة لفتح واغلاق ثقوب السرناي دون مساعدة أصابع الانسان.

وفي هذا المجال قال بنو موسى في مخطوطتهم: «فنعمل على كل ثقب من ثقب السرناي للثمانية باب مطحوناً[١٠] سعته بقدر سعة الثقب ولا نجعل للثقب التاسع باباً لأنه اذا سدت هذه الثمانية أدى الثقب التاسع نغمته ولا يحتاج الى أن يسد فيما بعد ونلزق فراخ الابواب أعني ذكورتها على أطراف مساطر وليكن لكل واحدة من المساطر محور تدور المسطرة على ما صورنا ولكن نعمل لأواسط المساطر عند المجاوز علامة ج ونجعل طرف كل مسطرة الملتزق عليها الذكر من الباب أثقل من الطرف الذي عليه د بقدر ما ينطبق الباب انطباقاً محكماً من قبل نفسه ويزل طرف د اذا غمز عليه ارتفع طبق الباب مع طرف المسطرة الذي عليه ب الملزق عليه فإذا انفتح الثقب أدى النغمة التي بهذا الثقب

وإذا أطلق طرف د من المسطرة ولم يغمز انطبق الباب ولم يخرج من هذا الثقب صوت البتة وعلى هذا المثال تنفتح وتنطبق الثمانية ثقب».

بخصوص هذا الوصف (راجع الشكل رقم ١).

٥ ــ بربخ تأليف النغم.

أما بربخ تأليف النغم والمعروف حالياً (Roue Musicale) فهو عبارة عن أنبوب ضخم قطره شبر أو اكثر وطوله بقدر المسافة التي بين الثقوب الثمانية الموجودة في السرناي. يدور هذا البربخ على محور ثبت في وسطه. ثم نرسم على ظهره ثماني دوائر. مسامتة[١١] للثمانية مساطر التي ذكرنا أن أطرافها تسد وتفتح الثمانية ثقوب التي في السرناي. وننصب على كل دائرة من هذه الدوائر التي على ظهر البربخ شظايا[١٢] دقاقاً تكون حروفها قسياً ومصممة من دائرة واحدة. ونجعل في كل دائرة عدداً معيناً من هذه الشظايا وهذا العدد يتلاءم مع عدد المرار التي تستعمل بها نفس النغمة. أما طول الشظية فتكون مناسبة للمدة التي تستعمل بها النغمة.

هذا فإنه اذا مادار البربخ تلقى الشظايا أطراف المساطر. فإذا غمز الطرف الواحد منها لا يزال الثقب الذي يقع عليه الطرف الآخر مفتوحاً والنغمة تخرج من السرناي حتى تجوز تلك الشظية طرف المسطرة ثم ينطبق ذلك الثقب وتبتدىء شظية أخرى تغمز طرف مسطرة أخرى فتخرج النغمة التي تتلوها.

وهكذا لاتزال النغمة الواحدة تخرج من الثقب المفتوح والسبعة الباقية ساكتة لأن أبوابها مطبقة وذلك لأن سطح البربخ لا يماس أطراف المساطر وانما تماسها القسي أعني الشظايا المركبة على الدوائر التي على سطح البربخ.

كيفية ادارة البربخ:

(Systéme D'engrenage)

أما دوران البربخ فيكون بواسطة دوائر ذات أسنان تثبت على محور البربخ. وهذه الدوائر مثبتة من جهة أخرى على محور دولاب يدور بثقل الماء عليه (راجع الشكل رقم ١).

كيف تعمل تلك الآلة:

بعد أن تمكنا من وصف الآلة والتعرف على أقسامها لابد لنا من توضيح طريقة استعمالها وبالتالي مقارنتها مع بقية الآلات الموسيقية القديمة علنا نستطيع تحديد اسم خاص بها.

فاذا ما نظرنا الى الشكل رقم (١) وتابعنا الشرح التالي خطوة خطوة نستطيع أن نفهم بسهولة كيف تعمل تلك الآلة وكيف تعطينا من نفسها نغماً معيناً.

من الحنفية الكبيرة آ التي تتصل مباشرة بخزان الماء الكبير (الموجود في أعلى الرسم شمالاً) يصب الماء على الدولاب الكبير (د) ذات البيوت فيدور هذا الدولاب بفعل ثقل الماء عليه. بدورانه هذا يدور اللولب (ل) المركز على محوره. اما الدائرة (ف) ذات الأسنان فتدور بفعل دوران اللولب ومن ثم المحور العمودي المركز داخل حوض الماء (ح). وكذلك تدور الحلقة (صَ) فتفتح الباب المطحون المركز على أنبوب مجرى الماء ويبدأ الماء بالتجمع في احد قسمي المضخة الهوائية.

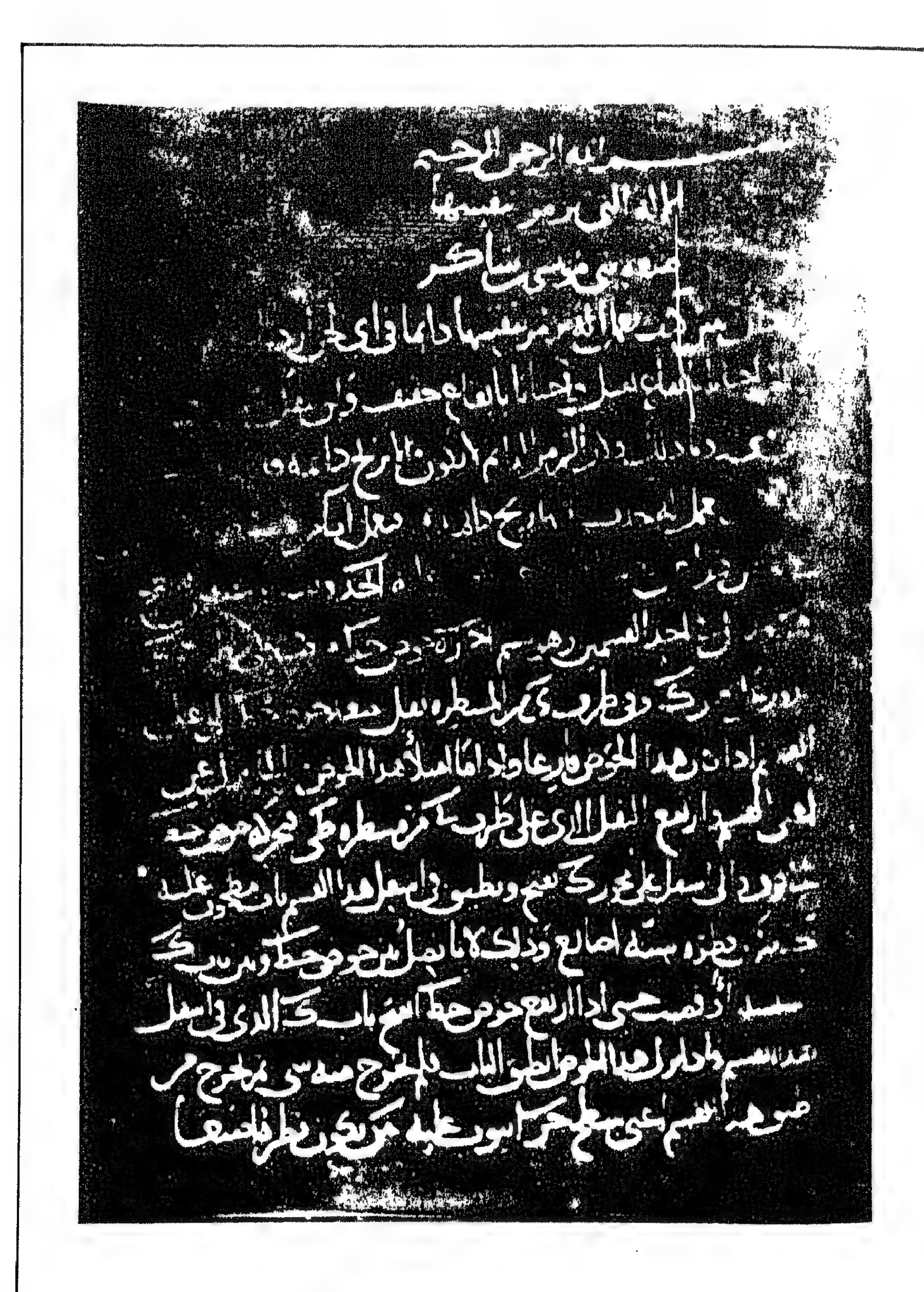
أما أنبوب مجرى الماء فإنه يتصل مباشرة بوعاء صغير فيمتلىء هذا الأخير أولاً ثم يفيض الماء الى وعاء أكبر مثبت على طرف الرافعة (ق) عند امتلائه بثقل وينزل مما يساعد على اغلاق الباب (كَ) الموجود في أسفل الحوض الكبير.

وهكذا يتجمع الماء طارداً الهواء من الأنبوب المخصص له الى الكرة الضاغطة.

فإذا ما امتلأ هذا القسم انتهت نصف دورة الحلقة وبدأ النصف الثاني فيطبق الباب المطحون من قبل نفسه ليفتح الباب الآخر المقابل له ويجري الماء الى القسم الثاني ليفعل فعل القسم الأول ولكون هذين القسمين متعاقبين.

أما كيفية تفريغ احد قسمي الحوض الكبير أي المضخة الهوائية فإنه يتم كما يلي:

في أسفل الوعاء (ق) ثقب صغير ينساب منه الماء فيفرغه وعند ذلك يخف الوزن فتتحرك الرافعة الى أعلى من جهته فتشد السلسلة المعلقة به لتفتح باب (ك) حينئذ يبدأ تفريغ الماء.


بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة من المخطوطة

ولكي تعمل الآلة بانتظام يجب أن يفرغ هذا القسم من الماء خلال المدة اللازمة لنصف دورة من دورات الحلقة (ص).

أما الهواء الذي يجتمع في الكرة فليس له مخرج سوى الأنبوب المخصص له والمتصل بالسرناي والحبة المصوّتة فتسمع بذلك النغمة الصادرة من الثقب المفتوح.

فإذا مادار البربخ الموسيقي كما شرحنا ذلك من قبل فإن الشظايا المركبة على ظهره تفتح وتقفل وفقاً للنغم المعدّ لها ثقوب السرناي فيسمع بذلك لحن مطرب.

ما اسم تلك الآلة:

يتضح مما تقدم بأن هذه الآلة تعزف من نفسها لحناً موسيقياً كاملا وفقا لنغمات موسيقية معروفة. ولكن ماهي تلك الآلة؟ وما هي مكانتها بين الآلات الموسيقية القديمة؟

للاجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة الى تاريخ الآلات الموسيقية في العصور القديمة ودراستها دراسة شاملة ليتسنى لنا مقارنتها مع آلة الزمر لبني موسى. ولكن هذه الدراسة طويلة جداً وان صفحات تلك المجلة لاتسمح لنا بالتوسع أكثر من ذلك لذلك فإننا نقتصر على اعطاء النتائج التي توصلنا اليها.

ان هذه الآلة تشبه الى حد بعيد الأرغن المائي (Orgue Hydraulique) المعروف قديماً عند اليونان وقد أثبتت الأبحاث بأن مخترع هذا الارغن المائي هو كستيبيوس (Ctésibios) العالم اليوناني الذائع الصيت الذي اخترع المضخة المائية المعروفة باسمه.

وبعد كستيبيوس ظهر هيرون الاسكندري (Héron d'Alexandrie) الذي اشتهر في علم الميكانيك فترك لنا بين مؤلفاته وصفا دقيقا لأرغن مائي.

أما فيتروفيس الروماني (Vitruve) المهندس المشهور فقد ترك لنا أيضاً وصفاً واضحا لأرغن مائي في كتابه المعروف (Architectura)[١٣].

وبعد مقارنة آلة الزمر لبني موسى مع الارغن المائي لاحظنا بأن أوصاف الآلة وأجزائها تنطبق جملة وتفصيلاً مع أوصاف الارغن المائي (Orgue Hydraulique) لذلك فاننا نستطيع أولاً أن نسمي هذه الآلة (Orgue Hydraulique)، لابد لنا من الاشارة هنا بأن تعريف الأرغن المائي يتعلق بوظيفة الماء في داخله التي تتلخص كالتالي:

ان الماء يجب أن يعمل بقوة ضغطه ضمن المضخة الهوائية لطرد الهواء الى الخارج. هذا مايجري فعلاً في آلة الزمر.

الاكتشافات الحديثة التي حققها بنو موسى في حقل الفيزياء الميكانيكية في تلك المخطوطة:

١ ــ البربخ الموسيقي: (Roue Musicale)

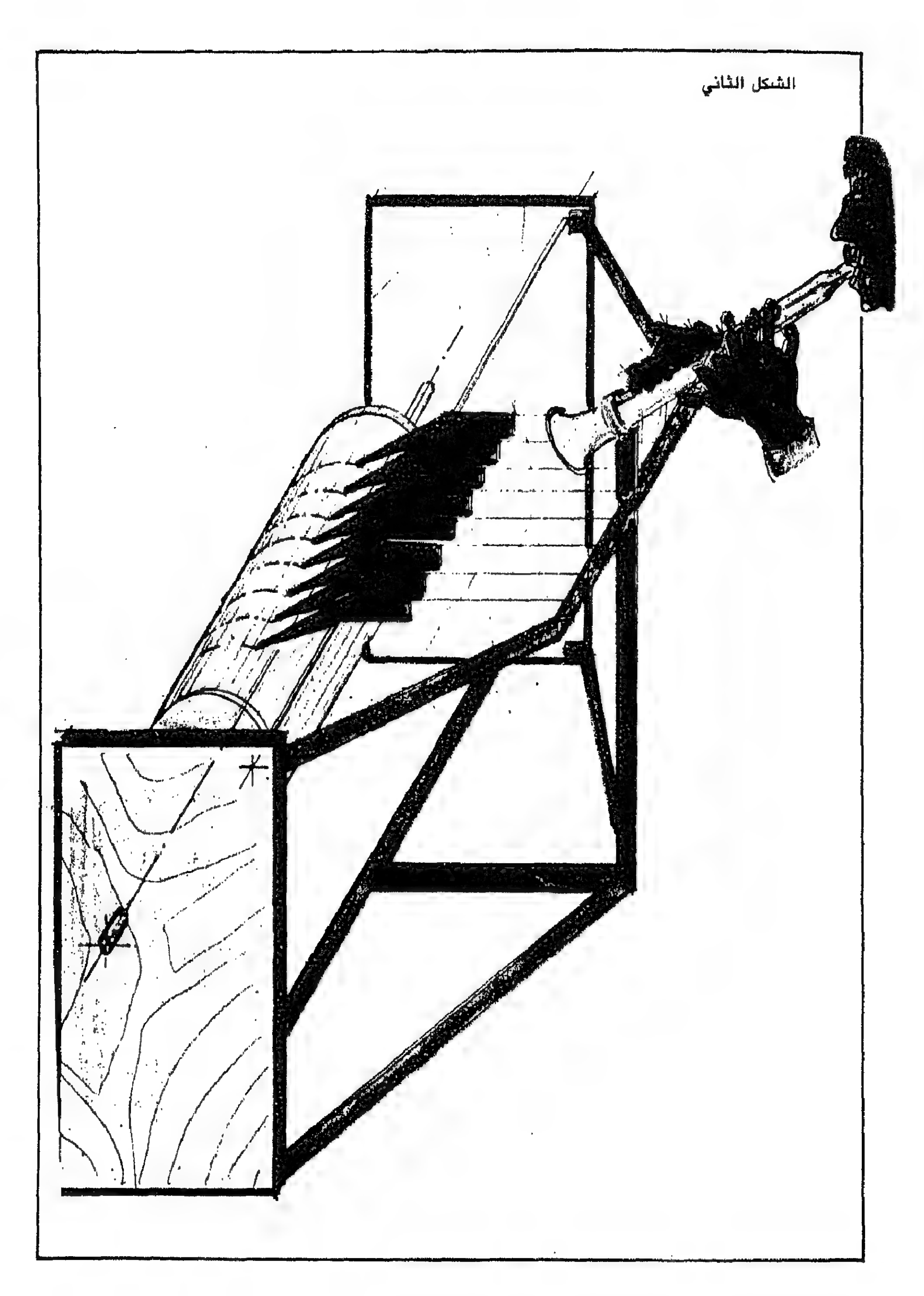
لقد استعمل بنو موسى بن شاكر في آلة الزمر البربخ الموسيقي المعد لتقطيع الألحان والأنغام الأمر الذي يسمح لنا بأن نعتبرهم أول من خطا هذه الخطوة في حقل الفيزياء الميكانيكية لأن هذا البربخ هو الركن الأساسي في الارغن الميكانيكي (Orgue Mécanique) الحديث العهد على حد قول المراجع الأجنبية. أن الموسوعة الكبيرة (La grande encyclopédie Larousse Tome III) تفيد ماقوله بأن البربخ الموسيقي أي (Roue Musicale) لم يكن له وجود قبل أواخر القرن الخامس عشر وأن (Salomon de Causs) أول من استعمله لاعطاء نغمات موسيقية معينة من الارغن المائي الذي صممه.

وبذلك تؤكد هذه الموسوعة بأن مخترع الارغن الميكانيكي هو (Salomon de causs) في أواخر القرن الخامس عشر.

أما المخطوطة التي نحن بصدد دراستها ومن الشكل العام للآلة يتضح لنا بأن العرب هم السباقون دائماً الى الاختراعات الحديثة وان بني موسى هم بحق مخترعو الارغن الميكانيكي وبهذا نستطيع أن نسمي آلتهم هذه «الأرغن المائي الميكانيكي» (Orgue Hydrauli-que mécanique).

وحيث أن الآلة تعمل بنفسها تلقائياً بواسطة دواليب الماء وبما أنها ليست بحاجة الى عازف خاص (Organiste) لذلك فإنها أوتوماتيكية وبهذا فإن آلة بني موسى تستحق فعلاً لقب الأرغن المائي الميكانيكي الأتوماتيكي. (Orgue

الشكل الثاني



.Hydraulique automatique)

والجدير بالذكر بأن الأرغن وبصورة عامة يحمل عدداً من المزامير (Tuyaux) يخصص كل واحد منها لنغمة معينة وفقاً للأنغام الموسيقية المعروفة أي دو ــ ري ــ مي ــ فا ــ صول ــ لا ــ سي ــ فيكون لدينا بذلك سلم موسيقي كامل.

أما بنو موسى فقد اقتصروا على السرناي ذي التسع ثقوب وحددوا نغمة كل ثقب. فيصبح لدينا بذلك السلم الموسيقي بنغماته السبع يضاف اليها نغمتان تكونان بمثابة الضعف (Octave).

٢ ــ الطريقة التي وضعها بنو موسى لتوزيع الشظايا على البريخ الموسيقي وفقاً للحن معين:

لم يقتصر بنو موسى على إستعمال البريخ الموسيقي بل أعطوا مباشرة طريقة علمية لتوزيع الشظايا على ظهر هذا البريخ. وهذه الطريقة تشبه الى حد بعيد الطريقة الحديثة المسماة بالتسجيل الخطي (Enregistrement Graphique) وهذه الطريقة تعمل بها في جميع الميادين وخاصة لدراسة حركات الأجسام الصلبة واهتزازاتها.

وقد فسر بنو موسى طريقتهم في المقطع التالي: «فإن نتخذ دائرة من خشب أو نحاس ونجعلها عظيمة وليكن مقدار قطرها ذراعين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ونصيرها في حلقة البكر العظام التي يستعين بالثيران بالدلاء العظام والخراطيم على ماجرت العادة غير أنا نصير القطر أعظم من ذلك بكثير ونلطخ على الموضع الذي يقوم مقام الموضع الذي يدور عليه الحبل في تلك البكر شمعاً مسوداً مثل الذي يفعله الروم ويلطخون به على الألواح في الكتاب لكي يؤثر فيه كل شيء يخط به عليه أثراً يبقى فيه. ثم يحتال بهذه البكرة العظيمة حتى يديرها الماء دوراناً مستويا معتدلاً ليس بالسريع جداً ولا بالبطيء ويكون دوران البكرة باستواء. ثم يركب فوق البكرة من غير أن تماسها سرناي وتركب فوق كل ثقب من السرناي بقدر أربع أصابع مسطرة مقتدرة الطول وتجعل المساطر الثمانية التي هي بحذاء الثقب الثمانية في السرناي بقدر



على محاور في سمت خط واحد مستقيم وتكون أطرافها من جهة واحدة تقع على سطح البكرة الذي عليه الشمع المسود من تلك الجهة وأطرافها الأخر المسامتة لثقب السرناي تعلق بها خيوط تشد كل خيط منها بأصبع الزامر التي على ذلك الثقب المسامت للمسطرة لكي اذا رفع الزامر اصبعاً من أصابعه عن ثقب من ثقب السرناي سقطت المسطرة التي ربطت تلك الأصبع على البكرة والبكرة دائمة الدوران باعتدال كما قلنا فترسم تلك المسطرة حصة تلك النغمة في ظهر البكرة على الشمع فإذا زمر الزامر من الدور من ذلك اللحن نظرنا الى رسوم مسطرة على ظهر البكرة على الشمع وعرفنا بذلك مدة كل نغمة وترتيب بعضها خلف بعض حتى

تعرف أيها يتلو صاحبها ثم نعمل البربخ الذي جعلناه لتقطيع النغم بحصة نغمة نغمة كما وصفنا على قدر ما يكون من الرسوم على الشمع وذلك ما أردنا أن نبين».

من هذا الوصف الدقيق لطريقة تقطيع النغم استطعنا استخراج الصورة رقم (٢) التي توضح عملية تسجيل النغم على الشمع فنعرف بذلك مدة كل نغمة ومركز ترتيبها بالنسبة للنغمات الأخرى.

وبهذه الصورة نكون قد اعترفنا بأن بني موسى هم واضعو نواة طريقة التسجيل الخطي (Enregistrement graphique).

٣ ــ الزامر الأتوماتيكي:

لم يكتف بنو موسى بوصف الآلة بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ودخلوا في حقل الدمى المتحركة (Les automates) فوصفوا الزامر الأتوماتيكي (Flutiste automatique) الذي يعتبر أول دمية متحركة ناطقة تعطي نغماً موسيقياً معيناء اذ أن علماء اليونان كتبوا الكثير في هذا المجال وتركوا لنا ارثاً ثميناً بالنسبة للدمى المتحركة بل والمسارح المتحركة ولكنها كانت جميعها صامتة.

ولم تظهر دمى متحركة وناطقة الا في مخطوطة فيلون البيزنطي وهذه الدمى هي طيور ترفرف بأجنحتها وتعطي زقزقة. ولكننا لا نستطيع اعتبار تلك الزقزقة بنغمة موسيقية لأنها صادرة من أنبوب هواء يدخل في جسم الطير وينتهي عند منقاره حيث ثبتت الحبة المصوتة.

أما الزامر الأتوماتيكي الذي وصفه بنو موسى فهو يرتكز على بناء الآلة الأساسية أي الأرغن ويستطيع بذلك أن يزمر لنا لحنا كاملاً. وفيما يلي وصف الزامر كما ورد في المخطوطة.

«واذا أردنا أن نتخذ ذلك في صورة انسان فإنا نصير هذه الآلة كلها مستورة في داخل بدن تمثال أو في موضع آخر ويظهر السرناي وهو مركب في فم التمثال ونجعل تلك المساطر التي على طرفها الأبواب وهي التي تسد وتفتح ثقب السرناي الثمانية هي أصابع التمثال ونعطف أطراف المساطر التي عليها (د) في داخل ساعدي التمثال حتى تنتهي الشظايا على بربخ (هـ) في داخل التمثال لكي لا يظهر من جميع الآلة الا السرناي فقط وأصابع التمثال المشكلة بالأصابع فإذا أطلقنا في الآلة الماء وصيّرنا مسكن الريح الى فم التمثال وخرج من الحبة وأدى الصوت في السرناي ثم تحركت الأصابع على السرناي كما وصفنا فقد زمر التمثال تلك الألحان التي ألفناها كما يزمرها الانسان الزامر ويخفف أيضاً ايقاع اللحن ويثقله وينتقل من لحن الى لحن كما وصفنا وذلك ما أردنا أن نبين».

من خلال هذا المقطع استطعنا استخراج الصورة رقم (٣) التي توضح وضع التمثال حاملاً الزمر وكيفية تثبيت المساطر التي تعمل مكان الأصابع بواسطة البربخ الموسيقي.

٤ ــ السلم الموسيقي الذي اتبعه بنو موسى في المخطوط:

ثم اختتم بنو موسى دراستهم هذه بتحديد النغمة الموسيقية الصادرة من كل ثقب من ثقوب السرناي فعمدوا بذلك الى مقارنة كل نغمة مع النغمة المقابلة لها والصادرة عن أوتار العود فقالوا بذلك:

«فنغمة الثقب الأول وهو مما يلي الفم هي مساوية للصوت الخارج من تحت خنصر الزير وضعف مطلق المثنى والثقب الثاني هو مساو لخنصر الزير وضعف وسطى المثلث.

والثقب الثالث من الناي هو مساو لبنصر الزير وضعف سبابة المثلث.

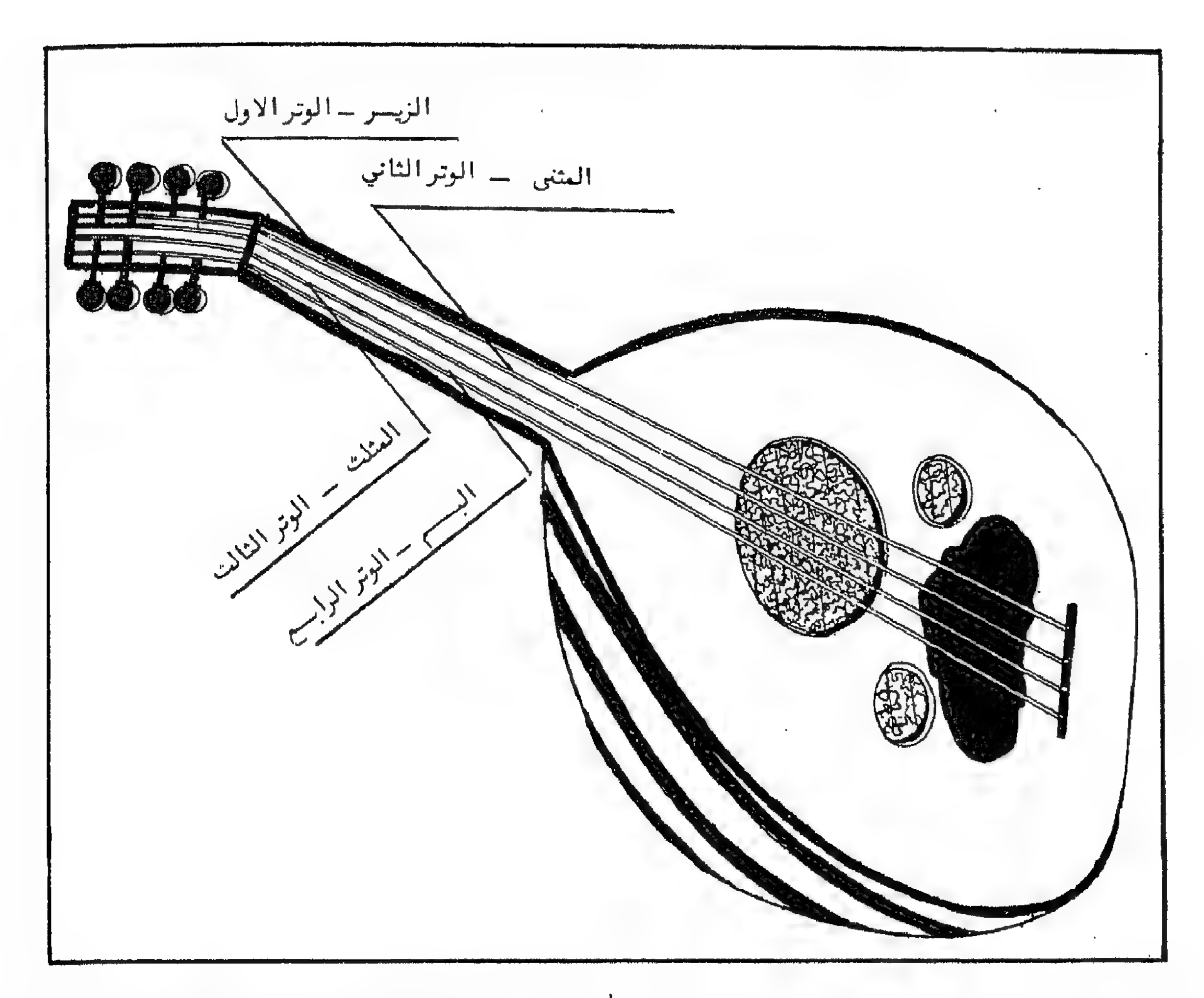
والثقب الرابع هو مساو لسبابة الزير وضعف مطلق المثلث.

والثقب الخامس هو مساو للزير وضعف وسطى البم. والثقب السادس هو مساو لبنصر المثنى وضعف سبابة البم ووجدته بالمحنة وهو وسطى المثلث.

والثقب السابع وهو مساو لسبابة المثنى وضعف مطلق البم. والثامن هو مساو لمطلق المثنى وهو أيضاً نصف نغمة الثقب الأول.

والثقب التاسع هو مثل وسطى المثلث ونصف نغمة الثقب الثاني التي هي مثل خنصر الزير كما بيّنا قبل»

لا بد لنا في هذا المجال من توضيح أسماء



أوتار العود لكي نستطيع استخراج السلم الموسيقي المتبع.

العود:

العود آلة موسيقية شرقية قديمة العهد لها تاريخ طويل بالنسبة لتطورها وبراعة العزف عليها. ولكن يكفي أن ننوه بتفوق العود وسيطرته على جميع الآلات الشرقية على العموم والعربية على الخصوص حتى انه تخطّى الأمم الشرقية على أنواعها وانتقل الى الأندلس بانتقال العرب اليها وتعداها الى اوروبا، وانتقل اسمه معه ولازمه في كل مراحل تطوره فكان ينطق به في جميع اللغات الأوروبية.

العود كما قيل فيه «سلطان الآلات ومجلب المسرات» وهو الآلة الذي يعتمد عليها في التلحين والغناء.

والعود القديم لايختلف كثيراً في الشكل عن العود الحالي ولكن كان عدد الأوتار يقتصر على أربعة تدعى من الأغلظ الى الحاد البم، المثلث، المثنى الزير.

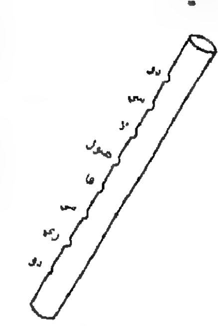
ولكل وتر نغمته الأساسية وتدعى مطلق الوتر ثم يعطينا ثلاث نغمات أخرى عندما يحبس جزء من طوله بالسبابة أو البنصر أو الخنصر. فعندما تقول مثلاً خنصر الزير فمعنى ذلك بأن الدوسة تكون بالخنصر على الوتر الذي يدعى الزير.

ان الشكل رقم (٤) يعطينا بوضوح أسماء الأوتار ومركزها على زند العود. أما بالنسبة للدوسات فهي موزعة بالجدول رقم (٥)

فإذا ما عادلنا النغمات الصادرة من ثقوب السرناي مع نغمات أوتار العود كما ورد في المخطوط واعتمدنا بأن مطلق وتر البم يعادل (لا) حديثاً فإننا نحصل على السلم الموسيقي التالي:

	الزير	المثنى	المثلث	البم
مطلق الوتر	دو	صول	ري	لا
السبابة	ري	لا	مي	سي
الوسطى			فا	دو
البنصر	مي	سي		
الخنصر	فا	دو	صول	ري

أما بالنسبة للسرناي فإن النغمات هي التالية:



فيكون بنو موسى بذلك اول من حدّد النغمات الصادرة في كل ثقب من ثقوب السرناي ثم أتى بعدهم الفارابي الذي أعطاها بصورة واضحة جداً مع تبيان المسافات بين كل نغمة ونغمة.

فبهذه الدراسة نكون قد كشفنا النقاب عن جزء صغير من اختراعات العلماء العرب علنا نستطيع في أبحاث مقبلة أن نظهر الحقائق العلمية التي تكمن في المخطوطات العربية المنتشرة في مكتبات العالم أجمع.

الهوامش

(١) تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الجبري ص ٢٦٤ ــ بيروت ١٨٨٠.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٩٣ ــ ٣٨٨.

(٣) تاريخ الحكماء لجلال الدين بن القفطي ص ٣١٥.

(٤) مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية ماجد عبد الله شمس.

(٥) ماجد عبد الله شمس.

(٦) هو علي بن سهم بن الطبري ولد في مرو عام (٨٠٨م) وهو طبيب سرياني أصلاً ولغة. أقام في طبرستان واعتنق الدين الاسلامي عندما طلب منه المتوكل ذلك ومن مؤلفاته «فردوس الحكمة والدين والدولة».

(٧) المشرق ١٩٠٦ العدد الأول.

(٨) هنري جورج فارمر The Organ of Ancient Wiedman Eilhard UEBER Musikantomaten bei den Araben. 1909 page 164-185.

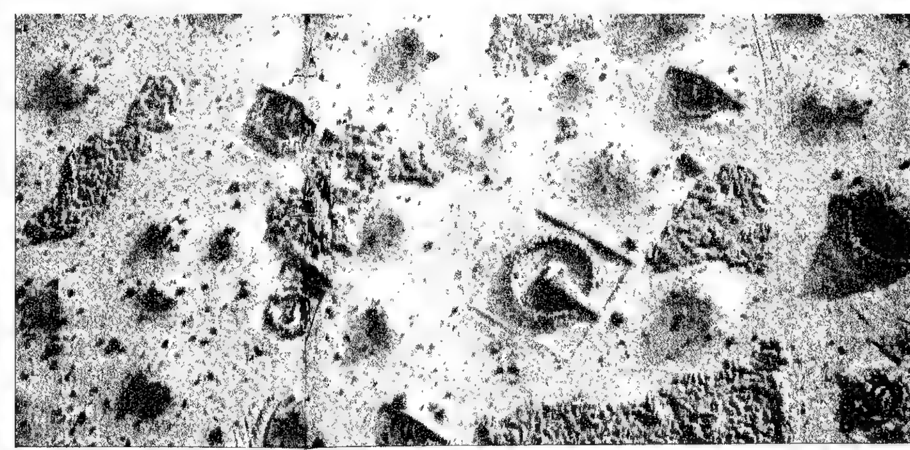
(٩) الشبه: النحاس الأصفر.

(١٠) باب مطحون: باب صغير يدور حول محور خاص يطبق من قبل نفسه.

(١١) مسامتة: مقابلة.

(١٢) شظية جمعها شظايا قطع صغيرة مختلفة الحجم من خشب أو معدن تثبت على البربخ وفقاً للحن المطلوب.

(١٣) Vitrius on Architectura edited from the harleian manuscrit 2767 and transtated into engish by frank granger.



جزء من أكبر مقبرة في العالم لعصور ماقبل التاريخ ولا تزال باقية، في عصر دولة ديلمون في جزر البحرين حوالي الالف الثانية ق م ويقدر عدد القبور فيها بـ ١٧٠،٠٠٠ قبر

[illegible]
أعمال البعثة الأثرية الدنماركية

الحَلقة الاولىَ

احـمَد عبـْيدلي

شكلت الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والحضارية على طول المنطقة وعرضها والتي ستكون منطقة بروز الاسلام وامتداده، وبالذات في جزيرة العرب والشام والعراق، الخلفية التاريخية لتي قدمت لظهور الاسلام وأوجدت الظروف لتشكل منطقة الوطن العربي، والتي ستأخذ الحضارة العربية الاسلامية كل زخمها وعمقها عبر أرجائها بالرغم من الدور البالغ الأهمية والشديد الاتساع والعمق والذي قام به الاسلام في تكوين الشخصية العربية، وبلورتها، إلا أن شروط تكون تلك الشخصية وضرورات بروزها كانت قد أخذت في النشوء والتراكم على مدى القرون الطويلة، وعبر التصورات الكثيرة التي مرت بالمنطقة قبل مجيء الاسلام.

ونركز في بحثنا هذا على شرق الجزيرة العربية والممتدة من عمان جنوباً وحتى الكويت شمالاً، ناظرين في تفاعلها فيما بين اجزائها، وعبر تفاعلها مع منطقة وادي الرافدين بحضاراتها السومرية، والأكدية والآشورية والبابلية، وحضارات بلاد اليمن، وذلك كما برزت من خلال أعمال البعثة الدنماركية التي قامت بالتنقيب في بلدان منطقة شرق الجزيرة العربية.

ويتميز البحث الأثري بميزة هامة، وهي أنه بالرغم من أخذه لما يقوله الأولون العرب والأجانب في مختلف كتاباتهم، إلا أن التركيز الأساسي يأخذ مجراه معتمداً على مايحصل عليه المنقبون خلال تنقيباتهم من إثباتات وما يعثرون عليه من لقى في محساتهم، ومواقع تنقيباتهم الأثرية، لتشكل الأدلة والمؤشرات لحركة سير التاريخ وتطوره. ويقيم المنقبون علاقة وثيقة ولكنها واضحة مع مسألة الخروج بنظريات حول رؤاهم التي يصوغونها إثر تنقيباتهم وهي تتمثل في ضرورة التمييز دوماً بين المسائل المادية التي يعثر عليها أي منقب والتي يجب أن تبقى منفصلة وبين النظريات، التي يخرج بها إعتماداً على ماتمنحه المجساب وتخرجه المجارف. وما نود الاشارة إليه هنا أن الحديث عن جوانب الترابط والانقطاع في تلك المنطقة إنما سيتم بالاعتماد على ماوجده المنقبون من أشياء مادية من آنية فخارية، أو رُقَم ونقوش، وبقايا للبضائع والمواد التي شكلت أشياء التجارة في تلك العصور، وعن المباني والقصور والمدافن وآكام القبور التي كانت مختفية أو مطمورة، أو بعيدة عن الاهتمام طيلة القرون السابقة.

البعثة الأثرية الدنماركية:

لقد بدأت البعثة الأثرية الدنمركية أعمالها في البحرين في عام ١٩٥٣ متكونة من شخصين هما بيتر غلهلم جلوب وجيوفري بيبي. والأول دنماركي وهو دكتور في الفلسفة ويعمل كأستاذ في جامعة آرهوس لعصور ماقبل التاريخ ومدير المتحف التابع للجامعة، والذي سيعمل كرئيس للبعثات في منطقة الخليج. أما الثاني فلقد عمل بين ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠ كموظف لدى شركة نفط العراق القائمة في البحرين، ثم عاد ليعمل كمدير لأعمال الميدان للبعثات الأثرية المتعاقبة. ويعمل حالياً كمدير للآثار الشرقية في متحف آرهوس لعصور ماقبل التاريخ. وقد قام جيوفري بيبي بتلخيص أعمال البعثة وتكثيفها في كتاب طبع حتى الآن أربع مرات بالانجليزية منها طبعتان في أميركا لوحدها، وذلك منذ خروج الكتاب إلى النور في عام ١٩٦٩ وحتى الآن ويحمل الكتاب إسم **البحث عن ديلمون**. ولقد اعتمدته كمرجع لهذا المقال.

وقد كانت القبور القائمة على هيئة آكام، هي التي استثارت بيبي وجلوب وجعلتهما يعملان من أجل اكتشاف سر «أكبر مقبرة لعصور ما قبل التاريخ في العالم». وقادهما ذلك الاهتمام إلى محاولة البحث عن ديلمون والتي كانت مكاناً ذا أهمية أسطورية ودينية لحضارات الرافدية

المتعاقبة ويقول بيبي، غير أن المشـروع أخذ يكبر بقوة دفعه الخاصة، وذلك حينما أخذت مشيخات سواحل الخليج الغنية بالنفط، واحدة بعد أخرى بالبحث عن عصور ما قبل التاريخ الخاصة بها. وبعد مرور ست سنوات من بداية أول بعثة للتنقيب، إنتشر ثلاثون عالماً متمكناً من علماء الآثار والبحاثين على امتداد خمس مناطق منفصلة، ولقد شكل اكتشاف مدينة بناة تلال المقابر في البحرين وتاريخها نحو ٢٠٠٠ ق.م.، حين بلغت ديلمون الأوج كقوة تجارية بحرية، واكتشاف وجود نفس السكان بعيداً إلى الشمال في الكويت، وإيغال الحضارة في الخليج العربي بعيداً في التاريـخ إلى ٣٠٠٠ وفيما بعد إلى ٤٠٠٠ ق.م.، وبـروز حضارة أخـرى لم يجر تصورها من قبل في ساحل عمان وفي أبو ظبي، وبروز نفس الحضارة على بعد مائة ميل إلى الداخل على سفوح جبال مسقط، شكل كل ذلك النقاط الأكثر إشراقاً في قصـة البعثة، وكـان مبعثاً على كثير من الرضى(٣).

غير عمليات البحث والتنقيب برزت العديد من العلاقات التي قامت لتشد مختلف أجزاء تلك المنـطقة إلى بعضـهـا البعض ومنذ أقـدم العصور. تلك الروابط التي قامت بين البحرين وسـواحل عمـان وداخليتهـا قبـل قيام دولة ديلمـون، والروابط التي قـامت بين سـواحـل الجـزيرة العـربية (السـعـودية حـالياً) وأقـدم الحضارات الرافدية وهي حضارة العبيد، وقيام دولة ديلمون وربطها بين البحـرين وسواحـل الجزيرة الشرقية والكويت (جزيرة فيلكا)، وهناك التـرابط العـام والمستمر بتـوالي القرون بـين البحرين والحضارات الرافـدية والعـلاقة بـين خرائب ثج واليمن. وسنستعرض فيما يلي بعضاً من تلك الجوانب:

أولاً: حضارة العُبيدْ:

يذهب بيبي في عام ١٩٦٨ إلى السعودية في أول زيارة لها تتِمّ تحت إشراف دائرة الآثار السعودية المقامة حديثاً وفي أحد الأيام يعود مع بعثته من مكان أطلق عليه اسم «جرها» بشكل مـؤقـت، ويـروي كيـف وجـد في الظهـران «الاكتشاف غير المتوقع» على النحو التالي:



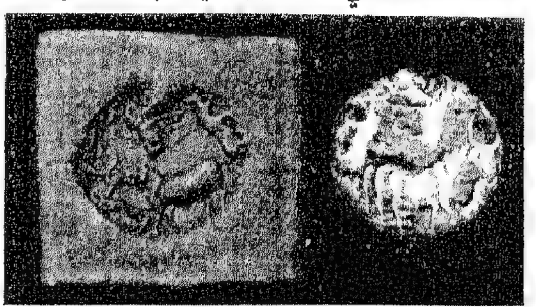
أحد المنقبين البحرانيين يعمل وسط طريق يشق بين آكام القبور

في ذلك الحين إنفجر الاكتشاف غير المتوقع، وهو اكتشاف كان علينا بأية حـال أن نكون مرنين جداً لمواجهته ــ بالرغم من أننا لم نكن نعرف ماذا كان عليه بالضبط. لقد كانت هناك مـلاحظة تنتـظرني من جريس وهي مـدرسـة واحدى أكثر جامعي الفخار حماسة. تساءلت الملاحظة فيمـا إذا كنت مهتماً بـرؤية مـوقع يحتوي على رؤوس سهام صوانية، أو فخاريات ملونة.

ويواصل بيبي قائلاً أن اللقيات كانت منثورة عـلى طاولة حينما وصـل لرؤيتها بعـد دقائق ويقول: أنها كانت مجموعة تبلغ العشرين من رؤوس السـهام اللاذعة ذات الشوكة ومجموعة من أدوات صوانية مثل السكاكين والقواشـط والمخارز. وكان هناك ما يقارب المائتين من كسر الفخـار، من آنية رقيقـة وصفـراء مخضـرة،

زخرفت بأنماط هندسية باللون البني الغامق. لقد وقفت غير قادر على النطق فلقد كان ذلك خارج كل أحلامنا، ولقد عرفت فجأة ماذا كانت عليه السوية السفلى بتاروت، بكسرها الصفراء غير المصنفة، وبقطعها الثلاث من الصوان المصنع، لقد كانت جريس تنظر إلي بقلق خوفاً من أن أهز كتفيّ وأقول «إنها إسلامية»، ولكنني قلت متمتماً، «ولكنها... ولكن تلك تعود للعبيد».

وبعدها يتحدث بيبي عارضاً أهمية ذلك الاكتشاف وخلفيته فيقول: أنه في وقت مضى من حوالي ٥٠٠٠ ق.م. قدمت أوائل عناصر الاستقرار الزراعي إلى مناطق المستنقعات البور، على طول وادي دجلة والفرات الأسفل، تلك المنطقة التي ستكون فيما بعد سومر،



ختم لأحد تجار ديلمون يحمل صورة غزال

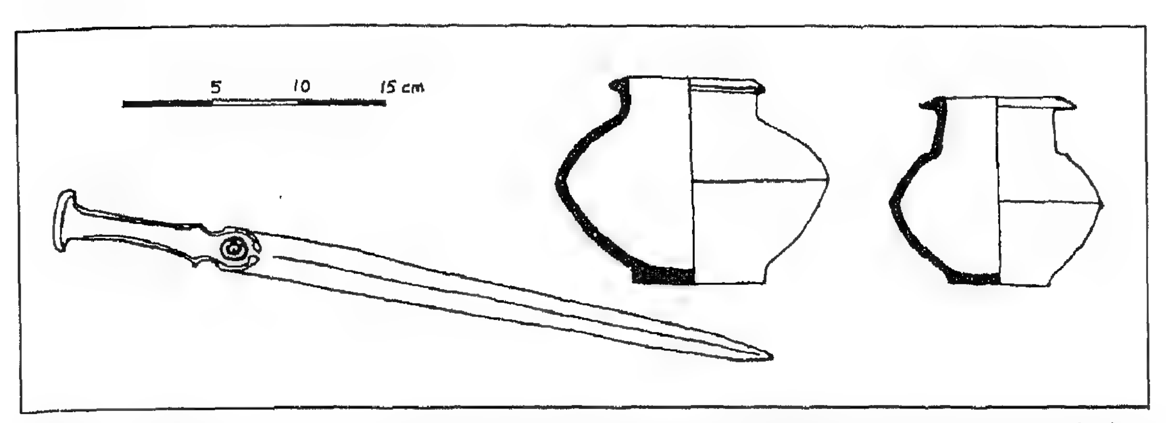
وستستمر لتكون فيما بعد بابل أيضاً. ولقد صنع أولئك القادمون الأول والعائدون للعصر الحجري فخاراً من طين أصفر مخضر مزخرف بأشكال هندسية بلون بني غامق ولم يعرف أحد من أين قدموا، فلربما قدموا من الجنوب أو من الشرق، وخلال ألف سنة تمكنوا من استئناس بلاد الرافدين السفلى، وانتشر فخارها إلى المناطق التي كانت مسكونة حينئذ من شمال العراق وحتى إلى سوريا. ولقد أطلق على حضارتهم إسم العُبيدْ.

ويصف بيبي الموقع نقلاً عن جريس بأنه كان موقعاً سطحياً، وهو عبارة عن تل واطىء وسط كثبان الرمال على مبعدة ميل واحد من هذا الامتداد من الساحل. فهنا وكما في الجنوب من حيث قدمنا على التو كان هنا امتداد كبير للسبخة بين الأرض والبحر، وقد استقام امتداد من تلال واطئة تحجز السبخة عن البحر. وفكرت أنه لابد إنها كانت عبارة عن سلسلة جزر لستة أو سبعة آلاف سنة خلت، وحينما كانت السبخة بحراً. وقالت جريس أنه لم تكن هناك أية آثار لمباني، ولكن كانت هناك قطع من الجص تظهر واجهة ناعمة على أحد الجوانب، ودمغة ربطات معصوبة من القصب على الجانب الآخر. وأرتني نصف دزينة من تلك القطع والذي كان برهاناً واضحاً على نمط البيوت العائدة لأولئك العرب من العصر الحجري، وقريبة إلى التجصيص الطيني الذي يظهر بدوره دمغات القصب على الجانب الحجري، والتي وجدت بمواقع العبيد الأخرى. واحتوت القطعة الكبرى على أشياء أخرى تحاكيها. لقد تغطى جانبها الناعم بطبقة من قشر حيوانات بحرية. وقالت جريس، نعم لقد وجدت ذلك على جانب الموقع الأسفل.

إلى هنا وينتهي حديث بيبي. وعند ذلك الحد تقريباً يشير المؤلف إلى التساؤل الطبيعي وهو مدى إمكانية بروز الاحتمال القائل بأن تكون تلك المنطقة من جزيرة العرب هي المنطقة التي إنطلقت منها الموجات البشرية الأولى التي حرثت التربة ومهدتها لقيام الحضارات الرافدية، ويضع في الواجهة التساؤل المشروع حول مدى الاتصال القائم بين سكان جزيرة العرب ومناطق العراق المختلفة في تلك الفترة السحيقة من الزمن. ولقد طرح العديد من التساؤلات والنظريات من قبل، حول طبيعة تلك الاتصالات والروابط، ولكن ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها إيراد أدلة مادية ملموسة، ولقيات عثر عليها منقبون في مناطق شرق جزيرة العرب. ولقد عثرت البعثة الدنماركية على موقعين من تلك المواقع بالسعودية، وأحدها بتاروت وهي جزيرة منفصلة عن البر الرئيسي.

ثانياً: حضارة ما قبل ديلمون:

تذهب البعثة الدنماركية بهدف أساسي وهو محاولة العثور على مدينة ديلمون، وهي المدينة أو الدولة التي احتلت موقعاً أسطورياً ودينياً وتجارياً هاماً في التراث الرافدي. وأثناء ذلك



سيف لورستان من مجموعة ركام الأحجار بمنحدرات جبل جفيت بالبريمي حوالي ١٣٠٠ق.م. مع إناءين نموذجيين واللذين ظهر أنهما أقدم بـ ١٥٠٠ سنة أو ما يقارب ذلك.

العمل وكنتيجة له تصل البعثة إلى الاستنتاج بوجود سياق لسبع مدن أو حضارات تتابعت بين بداية القرن الثالث ق. م. وحتى بداية القرن السادس عشر وهي الفترة التي قدم فيها البرتغاليون وذلك على النمط التالي وبالاعتماد على أنواع الفخار المكتشف: المدينة الأولى ــ المدينة بالفخار ذي الحواف المتسلسلة، المدينة الثانية ــ حضارة باربار وبها أختام وآكام قبور، المدينة الثالثة ــ الآنية الكاشية، المدينة الرابعة ــ «القصر الآشوري»، المدينة السادسة ــ الفترة الاسلامية، المدينة السابعة ــ البرتغاليون.

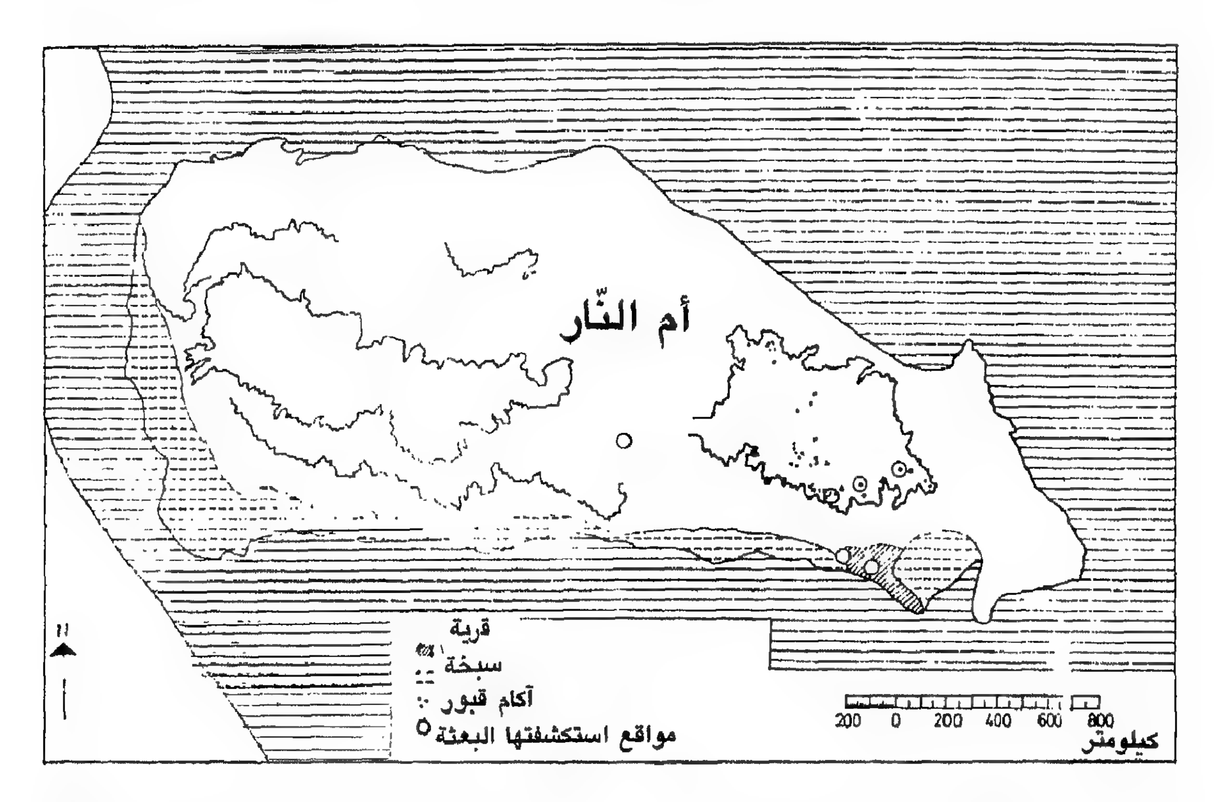
وحينما ذهبوا إلى أبو ظبي للتنقيب في جزيرة أم النار لوجود آكام قبور بها خرجوا بالاستنتاج في البداية بأن أهالي أم النار والذين عاشوا في الفترة بين ٣٠٠٠ ق.م. و٢٧٥٠ ق.م. تقريباً كانوا الجيران الغربيين لشعب الكولي وهم الذين كانوا الجيران الغربيين لشعب وادي السند، وأنه يمكن للجدال أن يمتد فيقال بأن أم النار تعاصرت والكولي، وأن حضارة الكولي تعاصرت وحضارة وادي السند أو سبقتها قليلاً. وحيث أن حضارة السند كانت معاصرة لحضارة باربار، وديلمون المبكرة، أو المدينة الثانية في البحرين. وعلى ذلك فلا بد لأم النار أن تكون قد عاصرت حضارة باربار أو سبقتها قليلاً. ويستمر بيبي في عرضه لنتائج البعثة الأثرية فيقول أنه بالمقابل كان من المؤكد أنها **ليست** حضارة باربار. فلم توجد آنية فخارية مثيلة لتلك التي وجدت بأم النار مثلاً في البحرين. وتبين بجلاء أن الاختلاف في نوع القبور، وممارسات الدفن كان جذرياً. وهكذا تستنتج البعثة أنه وعلى مبعدة مائتين وخمسين ميلاً جنوب ــ غربي البحرين،فان الحضارة التي تعاصرت وديلمون كانت مختلفة تماماً. ومهما كانت أم النار فانها لم تشكل جزءاً من ديلمون.

وحينما كان بيبي يجمع الآنية يودعها الصناديق تمهيداً لشحنها تزايد لديه الاحتمال إلحاحاً بأن البعثة قد صادفت بأم النار أولى تخوم «الحضارة المفقودة» الثانية في البحر الأدنى، وهي حضارة ماجان النحاسية.

كان ذلك هو الوضع السائد والاقتناع الأكثر قبولاً من أوساط البعثة حتى شارفت البعثة على إنهاء أعمالها والتوجه إلى الدانمارك. غير أن البعثة تكتشف اكتشافاً في نهاية أعمالها بالبحرين يشكل إضافة هامة إلى سياق المدن السبع، وبعد العودة إلى الدانمارك وبحثه بهدوء وعمق في متحف آرهوس ارتدى ذلك الاكتشاف بعداً جديداً. ففي عام ١٩٦٤ اختارت البعثة منطقة جديدة للحفر وهي عبارة عن امتداد من جدار المدينة القائم على مسافة عشرين متراً إلى الشرق من المنطقة التي عثرت فيها على جدار ديلمون الشمالي، مستهدفين توسيع معرفتهم ومعلوماتهم عن الفترات الأولى للاستيطان البشري والتطور الحضاري في ديلمون. ولقد حصلوا على جوانب هامة في هذا الاتجاه. ولكن ما يهمنا هنا هو ذلك الجانب الذي بدا خارج

نـطاق سياق السبـع مدن. يـروي بيبي أنهم داوموا على الحفر حتى وصلوا إلى ديلمون وهي أولى المدن المحصنة في البحرين وداوموا عـلى الحفر مرة أخرى فوجدوا جدران منازل تمتد تحت الجدار، وبين تلك الجدران وجدار المدينة تستلقي مرة أخرى الشريحة المحروقة، والتي سبق لهم أن صادفوها في مجساتهم السابقة، والتي تظهر أن المدينة غير المحصنة قد دمرت بالنار. ثم يصلون إلى الرمل في النهاية. ولكنهم عندما قاموا بتصفية السطح الصخري تماماً تمكنوا من أن يروا بأنه يتكـون من الفروش وهي عبارة عن نوع من الصخور من الكلس

واصلت البعثة الحفر، وبعد قدمين عثرت على شـرائح متبـادلة من الفروش والرمـل، وكلها تحتـوي على كميـات من كسر الفخـار، حتى وصلوا إلى طبقة من الطين المجدب وتحته رمل، لم يكن يحتوي على أية كسر من الفخار. ولقد شكل ذلك النهاية، ولكن بعد أن حصلت البعثة على ستة صناديق من كسر الطبقات، والتي كما يقول بيبي لا بد أنها كانت أبكر من أية كسر عثرت عليها البعثة حتى ذلك الحين في البحرين ويصفها على النحو التالي «فغالبيته (أي الفخار) كان اسمك ومن آنيـة بلون القش، وبأطراف فتحات وقواعد لنوع جديد ومختلف تماماً. ها



الأولي الذي يتكون على ما يبدو بسرعة كبيرة في مياه الخليج الضحلة المائجة، من كتل الأصداف والمرجان والأنواع الأخرى من الحطام، ويمكن أن يقص في ألواح رقيقة ويستخدم حالياً بكميات كبيرة كمادة بناء. وحينما قـاموا بتـنـظيف تلك الطبقة وجدوا أن هناك كسر فخار مطمورة فيها. فقاموا بكسر الفـروش على مسـافة أقـدام عدة مربعة، فوجدوا الرمل تحتها، وبوسطه كانت كسر الفخار لا تزال هناك.

قد عثرنا على حضارة جديدة ولم تكن متوقعة أبداً، وهي أقدم من الحضـارات التي أطلقنا عليها ديلمون المبكرة، قبل الأوان».

تعود البعثة إلى الدانمـارك، وتصل بعـدها الصناديق الحاوية لتلك الكسر. ويستعيد ببيي كيف أنه قد قام بعد الانتهاء من ترتيب الشحنة ووضعها على الرفوف بجذب الستة صناديق من الكسر الموجودة ضمن طبقات الفروش الواقعة ضمن البوابة الشمالية لمدينة البحرين، لفحص



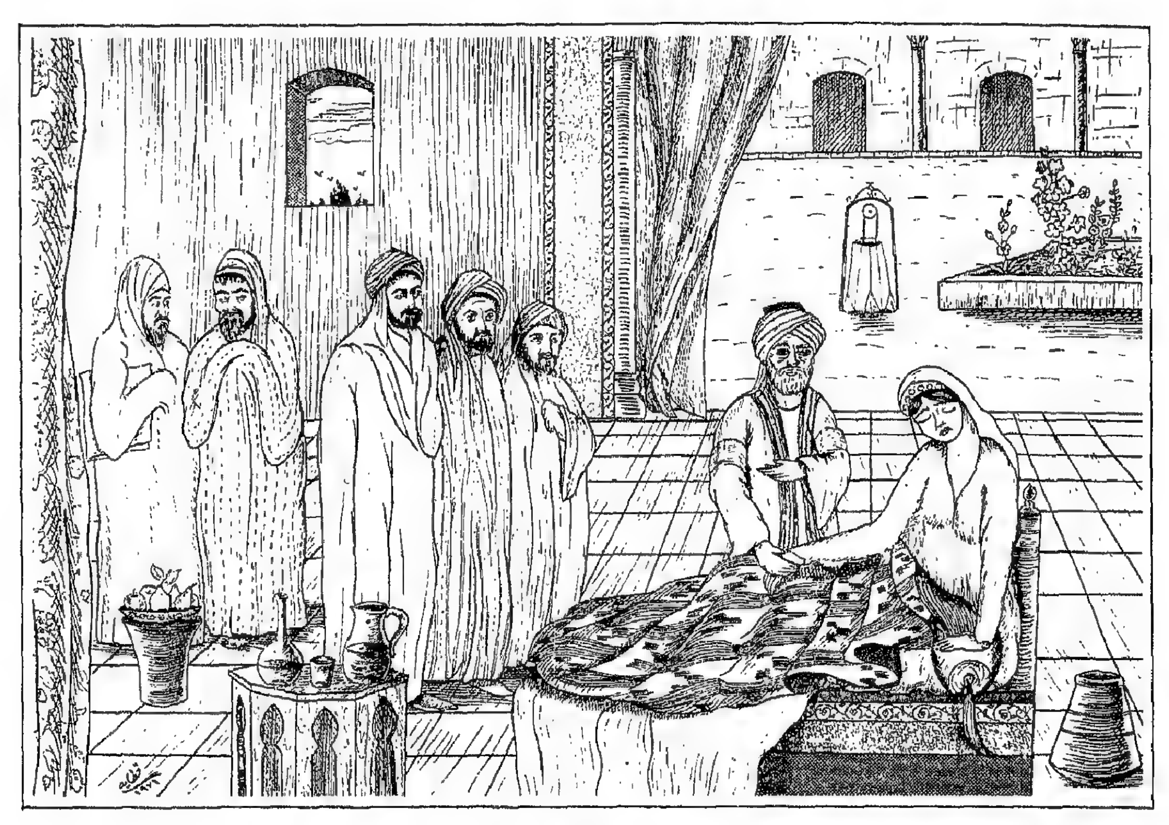
ثور الزيبو، وهو يدمغ عادة على الآنية السندية والكولية، ويرى هنا يزين رقبة زهرية من احد مدافن أم النار.

ذلك الفخار والذي يفوق كل الفخار قدماً بمزيد من الامعان، بينما يقوم فان ويورغن في الغرفة المجاورة في نفس الوقت بالعمل على فخارها العائد لآخر ثلاثة مواسم من العمل على موقع القرية بأم النار.

ولقد استغرقهم العمل أسبوعاً قبل أن يعرفوا أنهم إنما كانوا يبحثون في نفس الحضارة. فما أن بدأوا في النظر إلى الكسر معاً، وجنباً إلى جنب لم يعد هناك أي شك حول ذلك. فلقد تكونت الغالبية الساحقة من الآنية الفخارية من آنية كبيرة كروية أو على شاكلة البيضة، من مادة سميكة بلون برتقالي مصفر، أو بلون القش. لقد كانت حواف ثقيلة ومحكمة الصنع، وقد أنثنت بحدة للخارج، دون أي رقبة على الاطلاق. ولقد كانت القواعد غير عادية، حيث تشكلت على شكل قاعدة دائرية عميقة لصقت بسافل الاناء المستدير. ولقد زخرفت العديد من الآنية بحواف ألصقت بها، اوبحافة مستديرة منفردة أو مضاعفة تتلوى متعرجة على جزء الاناء الأعلى. لقد كانت تلك العلاقة هي أول علاقة من أي نوع تعثر عليها البعثة بين تنقيباتها في البحرين، وتلك القائمة بأبو ظبي. لقد كانوا حتى ذلك الوقت يرون تلكما المجموعتين من التنقيبات كما لو كانتا في أقصى طرفين متعاكسين في العالم بدلاً من أن تكونا على مبعدة مائتين وخمسين ميلاً كلا منها عن الأخرى، وقد فصلت بينما ألوف السنين، بدلاً من أن تكونا متعارضتين حقاً، كما كانوا يميلون للإعتقاد. والآن وقد برزت العلاقة، يذكر بيبي أنه تبقى عليهم أن يحاولوا تبيان مضامينها.

يذكر بيبي أن ذلك لايجب أن يعني تطابق الحضارة التام كما كانت عليه الحال في «حضارتي باربار» في البحرين والكويت حيث كان هناك تطابق تام في الآنية الفخارية والأختام والآنية الحجرية وفي الأسلحة. أما هنا فتوجد اختلافات بارزة. ففي كل الطبقات المبكرة في البحرين تواجدت الآنية ذات الحواف المتسلسلة جنباً إلى جنب مع الفخار الجديد، وحتى في أعمق الطبقات بين الكل، لا تزال تكون عشرة بالمائة من كل كسر. ولكن لم توجد حتى كسرة واحدة من الآنية ذات الحواف المتسلسلة والعائدة للمدينة الأولى التي سبقت مدينة ديلمون بالبحرين، بمستوطنة أم النار. وبرزت في كل الثلاث طبقات العائدة لمستوطنة أم النار كسر من الآنية المطلية التي عثرت عليها البعثة بوفرة في غرف المدافن هناك. ولكن بالرغم من أن مواد البحرين قد احتوت بالفعل على كسر ملونة متفرقة، إلا أنها لم تشبه تلك العائدة لأم النار على الاطلاق. لقد بدا كما لو أن الذين انتثرت كسرهم الفخارية قبل أن تبنى المدينة الأولى وعلى ساحل البحرين الشمالي ربما كانوا من خليط من الحضارات. ويقول بيبي أن الأوزان السندية التي اكتشفت في البحرين المبكرة كانت تشير إلى أن البعثات التجارية الأولى قد قدمت من الشرق، ويتساءل هل يمكن أن يكون مهاجرون من عمان قد قدموا، وهم يستعملون آنية أم النار الفخارية ويضعونها، وقد وجدوا سكاناً هناك من قبل يستعملون الآنية ذات الحواف المتسلسلة ويصنعونها، وبالتالي أسس الشعبان في ألفة أول محطة تجارية هناك على شاطىء البحرين.

وعند هذا الحد يتوقف تقرير البعثة الدنماركية. وهكذا يتضح أن العلاقات البشرية بين ساحل عمان والمسمى حالياً باتحاد الامارات والبحرين تقرب من الخمسة آلاف سنة، وهي تتوازى مع محاولات الاستيطان الأولى للبشر في كلتا المنطقتين. وأن تلك العلاقة قد تداخلت إلى حد المشاركة في النشاط الاقتصادي الذي كان سيقوم وسيتعاظم والمتمثل في التجارة.

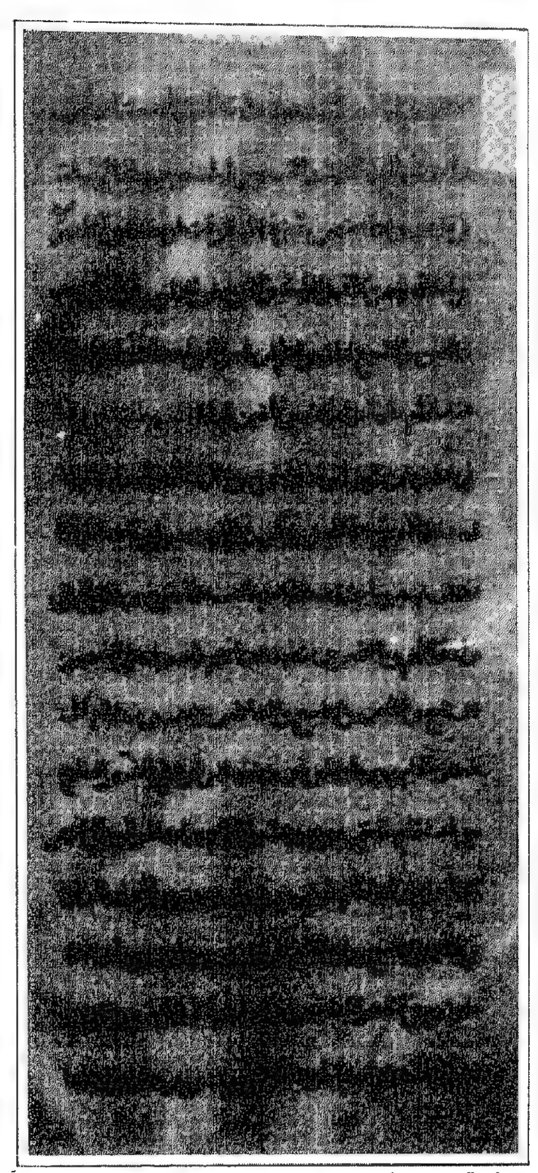


مساهمات الأطباء العرب في الأمراض النسائية والتوليد

د. محمود الحاج قاسم محمد

لقد كتب الكثيرون من الأطباء العرب والمسلمين في هذا الباب كتابات رائعة وكان علي ابن ربن الطبري أول من كتب في فسلجة الأعضاء الأنثوية وخلق الجنين وطبيعة الحبل والولادة. أما أول من نهج منهج الاختصاص في ذلك فكان ابن ماسويه في مؤلفه (لمَ أمتنع الأطباء من تطبيب الحوامل في بعض شهور حملهن). وخصص الرازي جزءا كبيرا في موسوعته حول امراض النساء والولادة وكذلك علي بن العباس والزهراوي وابن سينا، واضافة لهؤلاء نكاد لا نجد كتابا يبحث في طب الأطفال لأحد منهم الا والحديث عن الأمراض النسائية والعناية بالحامل والولادة يسبق ذلك، فعريب بن سعد في كتابه الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، وأحمد بن محمد الطبري في كتابه المعالجات البقراطية، وأحمد بن محمد البلدي في كتابه تدبير الحبالى والأطفال والصبيان، هؤلاء كلهم وآخرون غيرهم خير دليل لما نقول، حيث نجد لهم كلاما جميلا وافيا يدل على اطلاع وخبرة ليست بالقليلة في هذا الباب ولا يمكننا الاحاطة بكل ما جاء ذكره لديهم في هذه العجالة، لذا سوف نكتفي بذكر أبرز وأهم النقاط التي تعكس عمق معرفة الأطباء العرب لهذا الحقل.

د. محمود الحاج قاسم محمد: طبيب مختص بطب الأطفال، مستشفى الأطفال ــ الموصل ــ العراق.



صفحة من كتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومعالجة الأمراض العارضة لهم» لأحمد بن محمد بن يحيى البلدي (المخطوطة في الكلية الطبية الملكية ــ لندن ــ وقد نشر الكتاب من تحقيق د. محمود الحاج قاسم محمد ١٩٨٠).

١ ــ الناحية التشريحية:

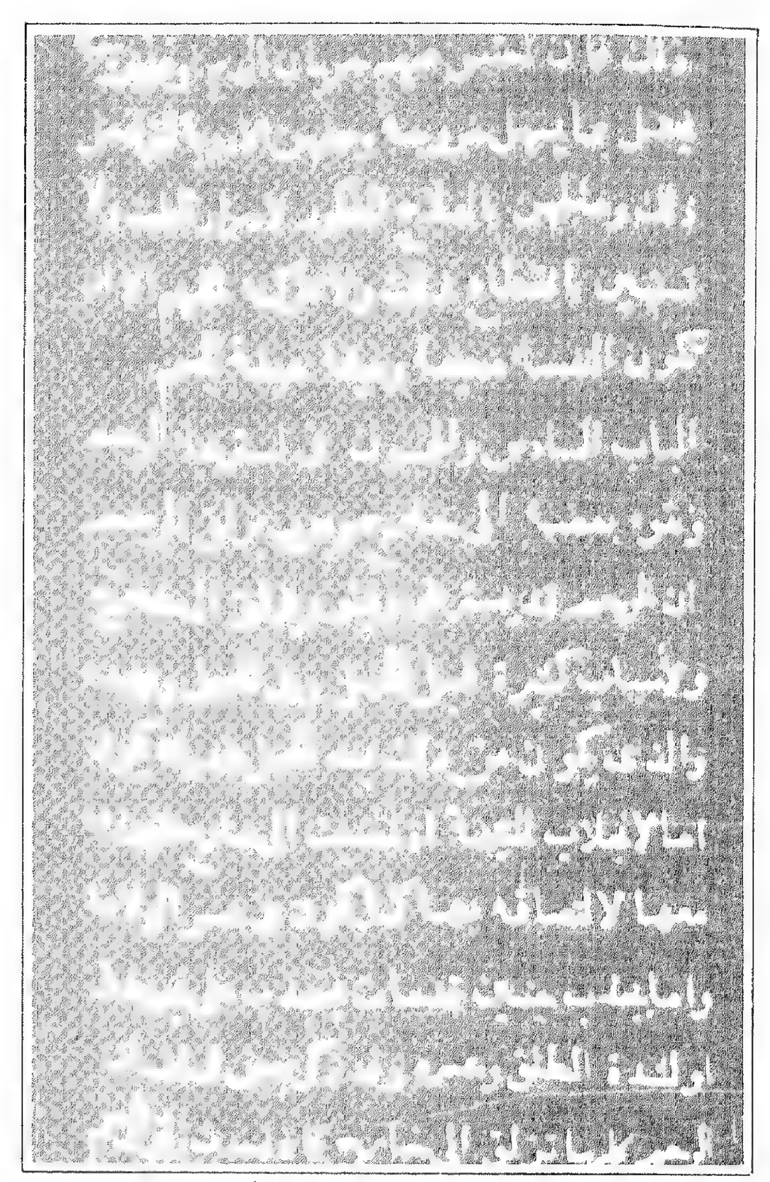
أعطى الأطباء العرب والمسلمون وصفاً «تشريحيا» يكاد يكون كاملاً للأعضاء التناسلية للمرأة، على سبيل المثال يقول علي بن العباس المجوسي في ذلك «الرحم فوق المعي المستقيم ومن فوقها المثانة، والرحم مربوطة بما يليها من الأعضاء برباطات سلسة ليمكّن فيها التمدد كل الجهات في وقت الحمل... وان بها تجويفين عظيمين، أحدهما في الجانب الأيمن والاخر في الجانب الأيسر، وهذان التجويفان ينتهيان الى عمق واحد عام لهما ويقال له رقبة الرحم. وفي كل واحد من التجويفين مواضع مقعرة يسيرة التقعر يقال لها النقر وهي أفواه العروق التي يعبر فيها دم الطمث الى الرحم. وتنتهي رقبة الرحم إلى الفرج، وهو الفضاء الذي بين عظمي العانة وهو موضوع على المقعدة وله من الخارج زوائد من الجلد يسمى البظر» ثم يذكر ألياف الرحم الداخلية في تكوينه فيقول «منها ذاهب بالطول وهذا الليف أقل ما فيه، وليف ذاهب ورابا وليف ذاهب بالعرض» وعن المبيضين يقول «الانثيان من النساء موضوعتان عن جنبي الرحم، وبيضتا الأنثى أصغر من بيضتي الذكروشكلهما مستدير ومفرطح وجوهرهما غددي وهما أصلب من بيضتي الذكر»(١).

٢ ــ طرق الفحص:

كان الأطباء العرب والمسلمون لا يفحصون النساء بأنفسهم بل يعطون تعليماتهم للقابلات ليقمن بذلك بتوجيه منهم، وكانت القوابل تصف ما يرينه فيعتمد الأطباء على هذا الوصف في التشخيص والعلاج. ومن أعجب وسائل الفحص التي ذكرها الرازي وضعه مرآة تحت المرأة ليرى كل شيء على هيئته(٢). واخترع الزهراوي منظاراً خاصاً لفحص المهبل(٣). وهو ايضاً كان أول من مارس الفحص المقعدي على الباكرات (P. R.)(٤).

٣ ــ مسألة الطمث (الحيض):

تكلم غالبية الأطباء العرب عن الطمث، أوقاته، مدته، السن الذي به يبتدىء وينتهي، وفائدته الفسلجية للمرأة. جاء في كتاب كامل الصناعة لعلي بن العباس «ان دور الطمث عند ثمان سنين، وأكثر من ذلك في اربع عشرة سنة واما انقطاعه فقد ينقطع في بعضهن في السنة السادسة والثلاثين وفي بعضهن في تمام الستين، وبعض النساء لا تطمث. واما مكوث الطمث



صفحة أخرى من الكتاب نفسه.

فأقله يومان وأكثره سبعة أيام، وما زاد على ذلك فليس طبيعياً. واما الزمان الذي يكون بين كل دورين فهو من عشرين يوماً وما فوق ذلك إلى شهرين. وما كان حدوثه بعد ذلك فهو خارج عن المجرى الطبيعي ويقال لذلك احتباس الطمث»[٥] وفرق ابن سينا بين الدم الذي يأتي نتيجة الطمث أو من اسباب إخرى فقال «ان كان النزف على سبيل دفع الطبيعة فعلامته ان لا يلحقه ضرر بل يؤدي إلى المنفعة. واما ما كان سببه الامتلاء فعلامته امتلاء الوجه والجسد ويكون معه وجع أو لا يكون وأما ما كان سببه ضعف الرحم وانفتاح العروق فيدل عليه خروج الدم صافيا، وأما الكائن لرقة الدم عن مادة مائية ورطوبة فيكون الدم مائيا غير حاد، وأما ما كان عن قروح فيكون معه مدة ووجع وأما الكائن عن الأكلة فيكون قليلا وأسود، وان كان عن البواسير فيكون له أدوار غير أدوار الحيض»[٦].

وعن احتباس الطمث يقول الزهراوي قولا موجزا وصحيحا «احتباس الحيض يكون على وجهين اما طبيعي واما عرضي، والطبيعي يكون على ثلاثة أوجه أحدهما لا تحيض لأنها لم تبلغ أربع عشرة سنة، والثاني لا تحيض وهي حامل أو مرضع، والثالث لا تحيض فهي عجوز. وأما السبب العرضي فهما اما بسبب المادة أو القوة أو الآلة»[٧].

٤ ـ أمراض الرحم:

تكلم الأطباء العرب والمسلمون عن أكثر أمراض الرحم كالرتق (Atrasid) في المهبل وعنق الرحم، وسيلان الرحم، الشقاق والثآليل والتوت والنفخ والبثور والناصور والسرطان والسيلان والاعوجاج والاختناق ونتوء وخروجه وغير ذلك من الأمراض. على سبيل المثال نورد بعضاً من أقوالهم في بعض الأمراض:

يقول الرازي عن البواسير «دم البواسير يخرج بوجع وانه يخرج من غير أدوار دم الطمث»[٨].

ويضيف الزهراوي «البواسير ما هي إلا انتفاخ أفواه العروق حتى يسيل منها الدم، فإذا قدمت صارت ثآليل، وان كانت في فم الرحم فعالجها وان كانت في عمق الرحم فليس لها علاج بالحديد»[٩].

ويقول مهذب الدين البغدادي عنها ايضاً «تنبت البواسير في الرحم اما في بطونه او في عنقه، وما كان في العنق فلا يمكن علاجه لأجل شدة عصبية هذا المكان وحسه فلا يحمل الأدوية الكاوية»[١٠].

وعن ناصور الرحم يقول ابن سينا «يعرض للرحم ناصور وربما جاوز الرحم وظهر فيما يجاورها من الأعضاء حتى تفسد عظمة العانة وعنق الرحم، وربما ادى إلى حلق شعر العانة وربما اتجه إلى المقعدة او إلى المثانة، وعلامته طول التعفن ولزوم الوجع وتقدم قروح لم تبرأ بالمعالجات، ويعرف مكانه بالمرود»[١١].

ووضع ابن سينا الفروق الأساسية بين انقلاب الرحم (Inversion) وبين سقوط الرحم (Prolaps) والتي لا زالت متبعة حتى الآن. واستعمل الزهراوي الكي لعلاج إلتهابات عنق الرحم.

وجاء وصف الرازي لسرطان الرحم وصفاً مجملاً ليس لدينا اليوم ما نضيفه على قوله إذ يقول «يكون ورماً جاسياً له بنك (قاعدة) متحجرة إلى الحمرة، ويكون ـــ أي السرطان ـــ في عنق الرحم. ويعرض منه وجع شديد بالأربتين وأسفل البطن والعانة والصلب. ويشق عليه (يحزقه) لمس اليد، فإن كان ذلك متعفناً قرحاً سال منه صديد... ولا يزال»[١٢].

وهناك من يقول بأن ابن سينا كان أول من اشار إلى الأورام الليفية في الرحم، او على الأقل كان اكثر من استوعب فهم طبيعتها وموقعها في الرحم وتأثيرها عليه فشبهها بالمسامير واطلق عليها اسم (مسامير الرحم).

ويقول ايضاً «الورم في الرحم ربما كان في الرحم كلّها، وربما كان في فمها وقد يكون في نواحيها. والعلامات الدالة على الورم على الإطلاق وجع في المفاصل وحرارة وتمدد وثقل في الصلب والفخذين والعانة وعسر البول واحتباس البراز»[١٣].

ويضيف علي ابن العباس «ربما كان السرطان مع تقرح او من غير تقرح، فمن كان من غير تقرح فيستدل عليه بالوجع الشديد أسفل البطن والعانة. واما اذا كان مع تقرح فتعرض نفس الأعراض السابقة وكثيراً



جرّاح أثناء إجراء عملية

ما يسيل منها رطوبة مائية»[١٤].

اما ابن سينا فيقول «السرطان ورم صلب غير مستوى الشكل متفرع كالدوالي يؤلمه اللمس رديء اللون ويزداد الألم»[١٥].

٥ ـــ علامات الحمل وقرب الولادة:

ان الأعراض التي ذكرها البلدي للحامل قبل الف سنة تقريباً ما زالت معظم النساء يعانين منها وهي عنده ١ ـــ انقطاع الطمث ٢ ـــ شهوة المطاعم الردية كشهوة الطين وغيره. ٣ ـــ التبزق والقياء. ٤ ـــ وجع فم المعدة. ٥ ـــ الغشي والخفقان[١٦].

اما استدلالاته على قرب الولادة فهي في غاية الصحة حيث يقول «فأما الأعراض الدالة على قرب الولادة الطبيعية وقوتها لا محالة كمال شهور الحمل وبلوغها في النهاية في المدة، فثقل يكون في المعدة والخواصر وانخفاض الرحم إلى أسفل حتى ان القابلة اذا رامت لمسته بأهون سعي وأيسره. ودليل على الولادة وقربها انجذاب الصفاق المغشي للأمعاء وانتفاخ الأربتين والعانة وكثرة النزف واتصاله إلا ان لهذين ما يمنعهما فاذا كان ذلك سالت رطوبة لزجة وأعقب ذلك سيل من الدم وتشقق عروق المشيمة»[١٧].

وكان الزهراوي اول من وصف الوجع المسمى بأسم والخر (Walcher Position) وهو استلقاء

المرأة على ظهرها وفخذاها على حافة الكرسي والرجلان متدليتان وهو الوضع الصحيح عند الولادة(١٨).

٦ ـ اسباب الإسقاط وعلامته:

يقول علي ابن العباس عن اسبابه «الإسقاط اما من قبل اسباب من الداخل مثل رطوبة لزجة في الرحم او من رداءة مزاج الرحم او لدور الطمث في وقت الحمل، واما من الخارج بمنزلة الوثبة والصوت الشديد والفزعة والغضب الشديد والفرح والعطاس والضرب على الظهر او دواء مسهل او من فصد»(١٩).

ويقول ابن سينا في ذلك «قد يكون الإسقاط عن اسبابه من قبل الجنين مثل موته، او لأسباب من قبل الرحم من سعة فمها وقلة انضمامها، وقد يكون من ريح في الرحم او من ورم او صلابة او سرطان، وقد يكون من قروح في الرحم».

وقال عن العلامات الدالة على الإسقاط يأخذ الثدي في الضمور بعد الإكتناز ودرور اللبن وكثرة الأوجاع في الرحم وثقل الرأس وحمى وتحس بوجع في قعر العين»(٢٠).

٧ ـ اسباب تعسر الولادة:

تكلم عن ذلك أغلب الأطباء العرب والمسلمون إلا ان البلدي ذكرها بالتفصيل وفي غاية الصحة والدقة العلمية نلخص أقواله بما يلي خشية الإطالة(٢١):

اولاً: اسباب من قبل المرأة الحامل:

١ ـ سمينة كثيرة اللحم جداً.

٢ ـ صغيرة الرحم.

٣ ـ الورم يكون في رحمها او عضو آخر.

٤ ـ لمرض آخرمن انواع الأمراض.

وهذه الأسباب ندخلها في تقسيمنا الحديث لعسر الولادة ضمن ما نسميه شذوذ طريق الطفل (او شذوذ ممر الولادة).

٥ ـ اذا كانت جبانة فزعة.

٦ ـ اذا كانت لم تعتد الولادة.

٧ ـ الولادة قبل الوقت.



طلاب يتلقون العلم على شيخهم.

ولا زال العلم الحديث يؤكد بأن العوامل العاطفية ولا سيما الخوف يمكن ان تؤثر تأثيراً سيئاً في مجرى الولادة.

٨ ـ الضعف الطبيعي (وهو ما نسميه اليوم بشذوذ القوة الدافعة او قوة الدفع الرحمي).

ثانياً: اسباب من المولود (وهو ما نسميه شذوذ حجم الجنين):

١ ـ اما لكبره وعظمه او لصغره وخفته (ثابت علمياً ان وزن المولود يؤثر في الولادة الأولى ولا يؤثر في الولادات التالية).

٢ ـ كبر رأسه.

٣ ـ لأن خلقته عجيبة (كالذي له رأسان).

٤ ـ لأنه ميت.

٥ ــ لضعفه وعدم قدرته على الخروج.

٦ ــ لأن عددهم كثير.

ثالثاً: شذوذ وضع الجنين عند الولادة:

١ ــ في خروج الطفل وولادته يكون منقلباً على رأسه فيكون خروج رأسه ويديه ممدودتين على فخذيه ولا يميل رأسه على فم الرحم.

٢ ــ ان تخرج رجلاه اولاً من غير ميل إلى أحد الجانبين وساير الأشكال المخالفة لهذين فخارجة عن الطبيعة.

اما كيفية التعامل مع الولادات غير الطبيعية فإن الزهراوي يعتبر افضل من كتب في ذلك حيث يقول في باب «تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة الحية اذا خرجوا على غير الشكل الطبيعي، ومنها اذا خرج على رجليه وذلك باستخدام استدارة الجنين او ولادته كما هو وكذلك خروج الجنين معترضاً مدلياً لاحدى يديه وذلك برد يديه وتسوية الجنين على الشكل الطبيعي. وكذلك في خروج التوأمين او الأجنة الكثيرة»[٢٢].

ومن مبتكرات علي بن العباس برهانه على ان الجنين لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفضل تقلصات عضلات الرحم[٢٣].

٨ ــ العمليات الجراحية في التوليد:

لم يمارس الأطباء العرب والمسلمون الجراحة في التوليد بشكله الحالي، وكل ما قاموا به كان عبارة عن عمليات السحب على الجنين باليد او بالأدوات الجراحية، وتدويره او تقطيعه في حالة كون الجنين ميتاً.

نذكر فيما يلي وصف علي ابن العباس في استخراج الجنين الميت حيث يقول «متى كانت قوة المرأة قوية ويمكنها ان تحمل نفسها... فينبغي ان تقدم على علاجها بأن تأمر القابلة ان تلقيها على ظهرها فوق سرير ويكون رأسها مائلاً أسفل وساقها مرتفع تمسكه بعض النساء... ثم تفتح بعض النساء فم الرحم ورقبته وتمسح اليد اليسرى بدهن بنفسج وتجمع الأربع اصابع وتمدها إلى فم الرحم... وينبغي ان تدخل السنارات التي يخرج بها الجنين وتغرزها في عينيه او في فيه او تحت اللحى والترقوة والمواضع القريبة من الأضلاع... ثم ان القابلة تمد السنارات مداً مستوياً ويكون مدها اياه مع ميل قليل إلى الجوانب... واذا كان الجنين يجيب إلى الخروج على ما ينبغي فانقل السنارات إلى المواضع التي هي أرفع وتجذبه جذباً معتدلاً حتى يخرج كله... وان كان رأس الجنين كبيراً وعرض له ضغط في الخروج فينبغي ان تدخل ما بين الأصابع مبضعاً وسكيناً يصلح للقطع وتشق بها القمة وتدخل الكلبتين القحف وترضه بهما ثم تخرج»[٢٤].

وكان الزهراوي اول من عمل على استخلاص الجنين المتعسر بواسطة الملقط الذي صنعه من الخشب (ملقط التوليد) قبل جمبرلن الإنكليزي بمئات السنين، كما انه صنع آلة لتوسيع باب الرحم [٢٥].

وسائل منع الحمل:

(أ) الأدوية: كان لدى الأطباء العرب اعتقاد بتأثير بعض العلاجات في منع الحمل، من ذلك، اوصى ابن ماسويه بتحميلة مهبلية من الفلفل تستعمل بعد الجماع مباشرة او جرعة من السذاب. اما لمنع الحبل الأبدي فأوصى باستعمال تحاميل مهبلية من روث الفيل[٢٦].

ومن ذلك ايضاً ما قاله علي بن العباس عن الأدوية المانعة للحبل «واما الأدوية المانعة من الحبل فإنها وان كانت مما يجب ان لا تذكر لئلا تستعملها من لا خير فيها من النساء، فانه قد يضطر الأمر في بعض الأوقات إلى ان يعطيها لمن كانت من النساء صغيرة الرحم او بها علة يخاف عليها متى حملت ان تهلك في وقت الولادة. واما غير هؤلاء من النساء فينبغي ان لا يصفها لهنّ»[٢٧].

(ب) وضع جسم غريب في الرحم: ان فكرة وضع جسم غريب في الرحم كوسيلة لإبطال الحمل ليست وليدة عهد جديد فلقد كان العرب الأولون يستعملونها قبل أكثر من الفي سنة بوضع حجارة في أرحام نوقهم، غايتهم في ذلك منع الحمل الذي كان يعيقهم اثناء ترحالهم[٢٨].

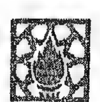
(ج) العزل كطريقة للوقاية من الحمل: العزل هو الحيلولة دون وصول مني الرجل إلى

رحم المرأة وقد كانت هذه الطريقة متعارفة عند العرب وفي الصدر الأول للإسلام «روي عن جابر بن عبد الله انه قال كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) فبلغ ذلك رسول الله (ص) فلم ينهنا، ولو كان شيئاً ينهى عنه لنهانا عنه القرآن» وهذا الحديث يؤكد شرعية هذه الممارسة. وقد تكلم في ذلك معظم الأطباء والفقهاء في العصور الإسلامية المتعاقبة.

فبعد ان يقول الرازي «قد يكون من المهم جداً في بعض الأحيان ألا يدخل المني الرحم مثل الحالات التي يكون الوضع بالنسبة لها خطراً على الأم» يصف وسائل لمنع الحمل أولها ان يتم القذف خارج المرأة. ويتكلم ابن سينا في القانون عن منع الحمل في امرأة صغيرة حيث يكون الوضع بالنسبة لها خطراً فيوصي من بين الوسائل بالفصل السريع بين الشخصين. كما ان اسماعيل الجورجاني في كتابه (ذخيرة خوارزم شاهي) الذي ظهر بعد قرن من قانون ابن سينا يشرح نفس الطريقة[٢٩].

الهوامش

(١) المجوسي ـ علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ١١٦، ج ٢ ص ٥٥٦.
(٢) حسين. د. محمد كامل: طب الرازي. دراسة تحليلية، ص ٤٠١.
(٣) خير الله. د. أمين أسعد: الطب العربي، ص ١٧٥.
(٤) السامرائي. د. كمال: مقال الأمراض النسائية في الطب العربي القديم. مجلة المهن الطبية العراقية ج ١ (١٩٦٤).
(٥) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ٢٥١.
(٦) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٨٦.
(٧) الزهراوي. أبو القاسم: التصريف لمن عجز عن التأليف ص ١ ص ٩٠.
(٨) الرازي: الحاوي ج ٩ ص ١٩.
(٩) التصريف: ج ٢ ص ١١٤.
(١٠) البغدادي. مهذب الدين: المختارات في الطب، ص ٤١ ـ ٤٣.
(١١) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٩١.
(١٢) الحاوي ج ٩ ص ٣٧ ـ ٣٨.
(١٣) المصدر نفسه ص ١٢ ـ ١٣.
(١٤) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة الطبية ج ١ ص ٣٨٧.
(١٥) القانون ج ٢ ص ٥٩٨.
(١٦) البلدي. أحمد بن محمد: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ص ٩٨.
(١٧) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(١٨) السامرائي. د. كمال: المقال.
(١٩) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة ج ١ ص ٣٩.
(٢٠) ابن سينا: القانون ج ٢ ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣.
(٢١) البلدي. أحمد ابن محمد: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ص ١٦٤ الحاشية.
(٢٢) الزهراوي: التصريف ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١٩.
(٢٣) م. م. شريف: ترجمة أحمد شلبي: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٨٢.
(٢٤) المجوسي. علي ابن العباس: كامل الصناعة ج ٢ ص ٤٨٩.
(٢٥) السامرائي. د. كمال: المقال.
(٢٦) الرازي: الحاوي ج ٩ ص ١٥١.
(٢٧) المجوسي: كامل الصناعة ج ٢ ص ٤٤٠.
(٢٨) J.A. Caraine and Bell 1968 Fertality and Cantraception in fema
(٢٩) العوضي. د. سعيد محمود: بحث الجوانب الطبية للعزل في الفقه الإسلامي. من أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي، الكويت ١٤٠١ ـ ١٩٨١.



على رأس الخطابات التي تبعث بصفة دورية إلى مديري فروع إحدى الشركات طبعت هذه العبارة:
ان تنظر.. هذا شيء.
وان ترى ما نظرت إليه.. هذا شيء آخر.
وان تفهم ما رأيته.. هذا شيء ثالث.
وان تتعلم مما فهمته.. هذا شيء يختلف تماماً.
ولكن ان تتصرف بناء على ما تعلمته.. فهذا هو الأمر الذي يهم حقاً..

(مالكولم ماك فير)


إجازات
العلماء
السودانيين
في عصر الفونج

ظاهرة «ان يكتبوا في ذيل الكتاب أو صدره أسماء الذين سمعوه على مصنفه أو على شيخ آخر[٥].

والاجازة أنواع[٦] تصدى علماء الحديث لمناقشتها وترجيح بعضها على البعض الآخر، وهي:

١ ــ إجازة معين لمعين. كأن يقول المجيز. أجزت لك كتاب البخاري أو أكثر. أو ما اشتمل عليه فهرستي[٧].

٢ ــ إجازة لمعين في غير معين: ومثالها ان يقول: أجزت لك أو لكم جميع مروياتي أو مسموعاتي. وهذا النوع وان فقد أحد أركان[٨] الاجازة إلا ان جمهوراً من العلماء والمحدثين جوزوا العمل به.

٣ ــ إجازة لغير معين في غير معين. وصورتها: أجزت للمسلمين، أو أجزت لكل من أدرك زماني هذا. وقد جوز العمل بها البعض، بينما اشترط البعض الآخر ان يقتصر على الموجودين عند الاجازة[٩].

٤ ــ إجازة للمجهول بالمجهول. كأجزت لفلان ان يروي عني كتاب السنن، وهو يروي مجموعة من كتب السنة ثم لا يعين[١٠].

٥ ــ المناولة: وهي اما ان تكون مقرونة بالاجازة، وتعد حينئذ أعلى مراتب الاجازة. وصورتها ان يناول الشيخ الطالب الأصل العلمي، ويبيح له روايته ان تمليكاً أو إعارة أو نسخاً. ويسمى هذا عرض المناولة. كما يسمى القراءة[١١]، وهي أقل من السماع عند أكثر العلماء.

وأما ان تكون غير مقرونة بالاجازة، كأن يناول الشيخ تلميذه كتاباً ويقول: هذا سماعي أو روايتي دون ان يشير له بالرواية عنه، أو دون أن يجيز له بذلك، وأكثر العلماء على عدم جواز الرواية بها.

٦ ــ إجازة بالمكاتبة أو المراسلة: وهي ان يكتب الشيخ إلى الطالب شيئاً من حديثه، ويسمح له ان يرويه. وتعد في درجة المناولة المقرونة بالاجازة.

ولئن كان ما سبق يعد أشهر أنواع الاجازات فهناك أنواع أخرى أقل منها أهمية، مثل الاجازة بعراضة الكتب[١٢] ومثل الاجازات الفخرية[١٣]. وهناك إجازات كانت تكتب شعراً، من ذلك إجازة التلماني المقرى صاحب «نفح الطيب» إلى الأديب أحمد بن شاهين الشامي وهناك حالات نادرة كان يشترك فيها أكثر من عالم في منح الاجازة لمودة قائمة أو صداقة راسخة تربط بينهما.

وهذا النوع من الاجازة المشتركة لم يقع عليها نظري، ولكن مما أورده مؤلف كتاب تاريخ الجامعات الاسلامية نقلاً عن (الحلل السندسية) نعلم ان عالمين اندلسين أجازا بخطهما من سألهما ذلك. وكان لهذين العالمين حلقة واحدة في المسجد الجامع بقرطبة.

على ان الاجازات خضعت لتغيرات كثيرة. فبعد ان كانت في بدئها موجزة العبارة. سهلة الأسلوب صارت في العصور المتأخرة تلجأ إلى العناية بالزخرفة اللفظية والاطالة والاسهاب[١٤] وبعد ان كانت قاصرة على ضبط الرواية وإقرار الحقائق صارت تمنح لمن أراد العمل بها في مجالات أوسع كأن يتصدى للفتيا والتدريس والقضاء[١٥].

كذلك حرص بعض الطلاب على الحصول عليها بوسائل مختلفة. حتى ان بعضهم كان يفاخر بكثرة عدد شيوخه الذين أجازوه، ولكن هذا لم يكن على إطلاقه. ورغم كثرة الاجازات وتعدد الشيوخ فإننا نطمئن إلى صحة أكثرها استناداً على أن أكثر الشيوخ كانوا يحرصون ــ في الغالب ــ على الدقة عند منح الاجازات.

على اننا عندما ننظر إلى الاجازات فيما مضى لا بد ان نعرف كل جوانبها، ليكون تقويمها على أساس موضوعي. لأن الحرص على الحصول عليها لم يكن وقفاً على الطلاب، ولو كان الأمر كذلك لكان لنا ان نطمئن اليها، لأنها حينئذ تكون صادرة من شيوخ لطلابهم وهم على علم بمستواهم. ولكن كان للملوك والأمراء اهتمام أيضاً بالحصول عليها[١٦]. كما كان البعض يترقبون تنقل العلماء بينهم فيطلبون منهم الاجازة بمؤلفاتهم. فيلبي هؤلاء فيمنحونهم. وقد مضى بنا من أنواعها ما يدل على مثل هذا التساهل.

ومما يستحق الملاحظة ان الاجازة لا يشترط

فيها قابلية الفهم. فقد تمنح لصبي لم يدرك ولأشخاص لم يولدوا بعد. وهي في هذا تختلف عن السماع والقراءة والعرض. وكلها يشترط فيها اللقاء بين الطالب والأستاذ. ومن أجل هذا رجح الرواية سماعاً أو قراءة أو عرضاً على الرواية اجازة. وإذا كان احد الراوين يروي سماعاً وقراءة، والآخر يرويه اجازة فتقدم رواية السامع على رواية المستجيز. اللهم الا ان يروي المستجيز أصلاً معروفاً. أو مصنفاً مشهوراً فحينئذ يسقط الترجيح. وهناك من يتم الرواية عن طريق الاجازة عندما تكون مقرونة بالسماع على السماع المجرد.

والاجازة وان عدت في مرتبة أقل من السماع لافتقارها لعنصر المباشرة التي هي الأساس في السماع. فانها أي الاجازة صارت بعد شيوع التدوين وثبوت الجرح والتعديل للرواة من الطرق المقبولة لنقل الحديث وتحمله[17]. وهي تعدو وثائق صحيحة تدل على ثقافة العلماء والطلاب. كما انها حفظت لنا أسماء بعض الكتب والرواة وبعض معلومات ما كان ممكناً الوقوف عليها لو لا ورودها في نصوص الاجازات.

بقي ان نعرف ان الاجازة كانت تصدر من الشيخ لا من المعهد أو المدرسة. إذ انها لم تكن شهادة بالمعنى الذي نعرفه. وانما كانت إقراراً من الشيخ بأن الطالب بلغ مرتبة تؤهله لتدريس المادة وروايتها. أي انها لم تجز له إلا تدريس المادة أو المواد التي أجيز فيها.

عرفنا نبذة عن الاجازات وأنواعها وتطورها لنفهم على ضوئها ما سنعرضه من اجازات علماء السودان في عصر الفونج. وقبل ذلك نرى من المناسب ان نذكر طرفاً عن الاجازات في الأزهر، لأن أكثر اجازات هؤلاء العلماء كانت تصدر منه.

كانت الدراسة بالأزهر تقوم على نظام الحلقات، وكان الطالب اذا أراد ان يجلس للتدريس وتيقن انه استوعب مادته إستأذن تأدباً، وعقد حلقة تضم طلاباً من أنصاره وخصومه. وهؤلاء كانوا يحرصون على مجابهته بسيل من الأسئلة الغامضة بغية تعجيزه فاذا وفق في الاجابة، وقارع الحجة بمثلها أو بأحسن منها، واقتنع الحاضرون بذلك سمحوا له بالاستمرار وهذا كان بمثابة إذن له بصلاحيته للتدريس، اما اذا تعثر أو تلعثم فانه عندئذ كان يفض حلقته ويعود طالباً يتلقى العلم في مجالس الشيوخ[18] ولهذا ما كان الطالب ليقدم على عقد حلقة الا بعد استيعاب كامل للمادة.

ولئن كان هذا ضرورياً لمن أراد مواصلة العلم فإن من أراد الرجوع إلى بلده كان عليه ان يحصل من شيوخه على إجازات تثبت كفاءته في الفتيا أو التدريس، وفيها كان الشيوخ يشيدون بعلم صاحبها واتصال سندهم، ويوصونه بالتقوى وتحرّي الدقة وعدم الإقدام على أمر دون ان يعلم حكم الله فيه.

على انه في الفترة التي نتحدث عنها كانت الدولة العثمانية قد ظهرت كقوة كبرى وفرضت إرادتها على بلاد الشرق. ومن بينها مصر بأزهرها وهو النبع الذي استقى منه السودانيون علمهم، وقد اصطبغت الثقافة الدينية التي كانت تنبعث من حلقات الأزهر بصبغة التقليد، نتيجة عزلة العالم الاسلامي، حتى انحصرت الدراسة في علوم اللغة والدين بعد ان توارت علوم الرياضة والفلك التي كانت ضمن مناهج الدراسة من قبل. وانصرف العلماء إلى العناية بالمحسنات اللفظية، والحواشي والتقارير والمختصرات، حتى اذا جئنا إلى مؤلفات علماء الأزهر وبعضهم كانوا أساتذة لطلبة السودان، فاننا نجدها لا تخرج عن اطار التقليد ولا نجد أثراً لأعمال الفكر، كما ان الاجازات بدورها شابها نوع من التساهل، ولكن هذا لا يمنع ان بعض الشيوخ ظلوا على حرصهم لعدم منح الاجازات الا بعد التيقن من كفاءة المستجيزين.

وجدير بالذكر ان ما انتهى الينا من الاجازات التي نالها السودانيون في فترة الفونج قليلة جداً بالقياس إلى شيوع الاجازات فيها، ونحن مضطرون إزاء هذا إلى التماس أدلة أخرى تعيننا على إلقاء مزيد من الضوء عليها، من هذه الأدلة نظم الدراسة في الأزهر، حيث كان طالب الأزهر يتمتع بحرية كاملة في اختيار أستاذه ومادته ومدة تعليمه، وفي الانتقال من حلقة إلى أخرى، غير مقيد بزمن، وعندما يلمس في نفسه القدرة على استيعاب المادة أو المواد ويريد

الـرجـوع إلى بلـده كـان يستجيـز شيخـه أو شيوخه.

ولدينا مثال في الشيخ احمد بن عيسى الذي قضى في صحبة أستاذه الشيخ احمد الدرديري أكثر من ثلاثين عاماً هي مدة نعتبرها كافية لأن يتقن فيها الطالب الكثير من مواد الدراسة.

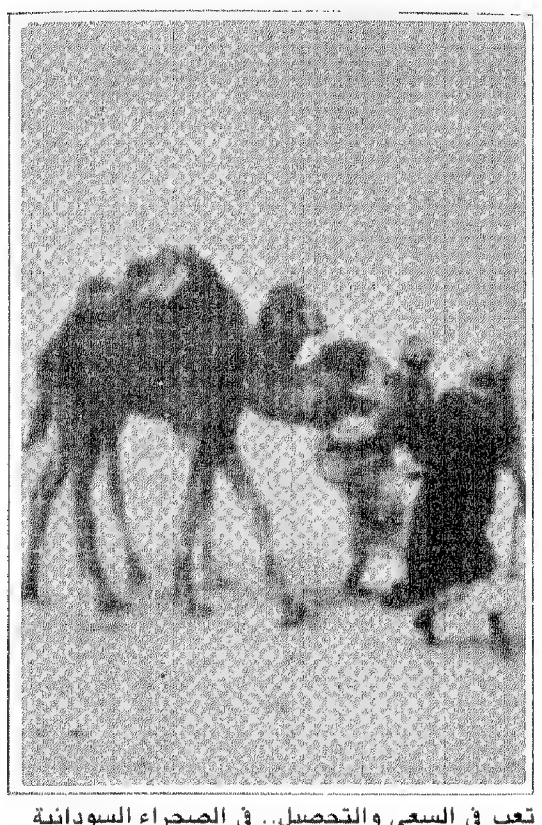
كـذلـك وافق رحيـل الـرعيـل الأول من السودانيين للأزهر وجود مشاهير علمائه ممن كان أثرهم واضحاً في نشر علوم اللغة والدين، وليس من شك في ان يكون هذا الأثر قد انعكس على تلاميذهم الذين ارتكزت النهضة الـدينية والعلمية عليهم في السودان.

الاجازات في عهد الفونج (١٥٠٥ ــ ١٨٢٠):

عرف السودان الاجازات العلمية في هـذا العصر، ومن الدلائل ما تؤكد ان الرعيل الأول الذين درسوا في الأزهر والحجاز نالوا اجازات تثبت كفاءتهم واهليتهم للفتيا والتدريس، وإليك تلك الأدلة.

أولاً ــ تقدم بنا ان الطالب ما كان يقدم على الاستجازة الا بعد ان يأنس في نفسه الأهلية وكان الأستاذ يحرص على ذلك لضمان صحة مروياته.

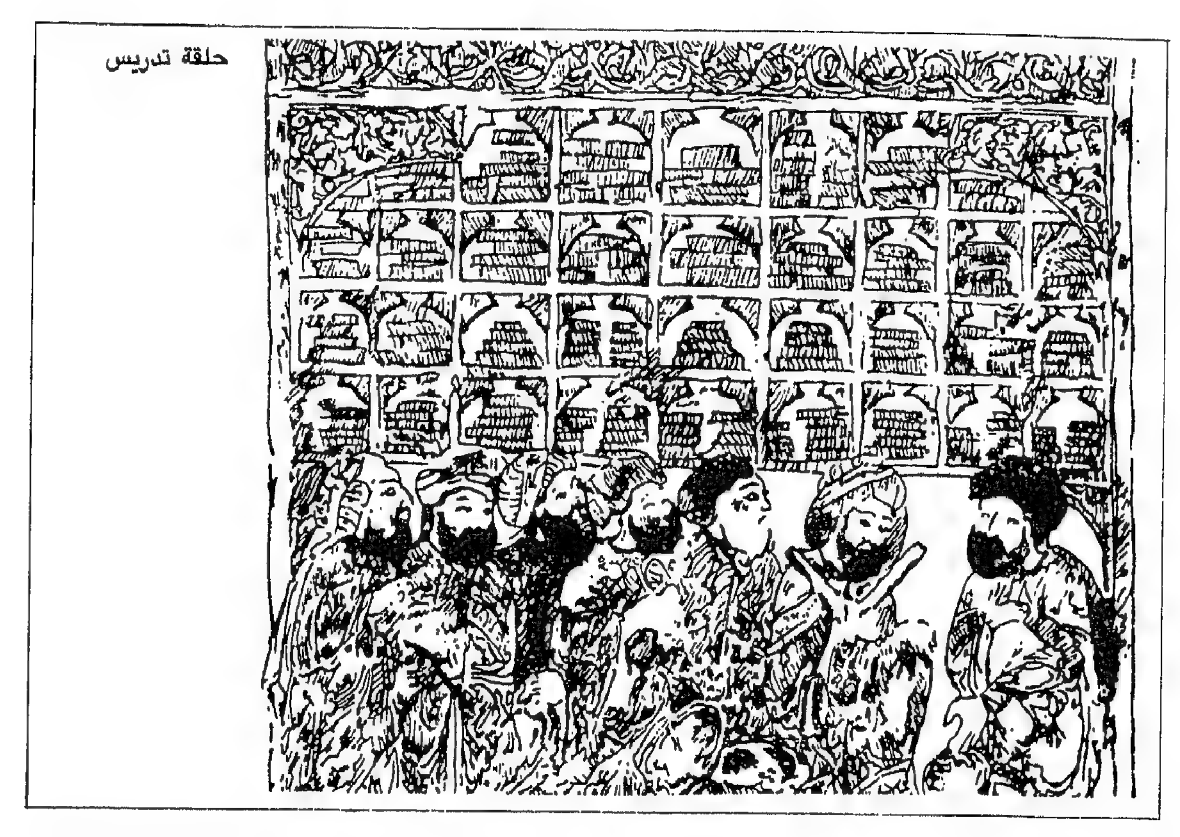
ثانياً ــ درس هؤلاء على النيوفري واللقانانيين وزكريا الأنصاري، وهم إذ ذلك مشاهير علماء الأزهر وكبار أعلامه. وليس ما يمنع ان يكون هؤلاء قـد منحوا تـلاميذهم من الســودانيين إجازات في العلوم التي درسوها عليهم جرياً على عادة علماء العصر، بدليل ان هؤلاء عندما عادوا للسودان قاموا بتدريس العلوم التي درسوهـا عـلى شيـوخهم كمـا ذكـر ود ضيف الله ان اسماعيل بن جابر دخل مصر واجتمع بالشيخ النيوفري فأجازه[١٩] كما أشاد النيوفري الذي كان أستاذاً لكثير من السودانيـين ببعضهم، فذكر عن عبد الرحمن بن حمدتو انـه يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معاني الشراح، وأشاد بزميليه محمد بن سرحان فقال عنه أنه يصلح للتـدريس لكـونـه يسـأل عن تحقيق صـورة المتن[٢٠] وليس ثمـة ما يمنـع ان يكون قـد منحهما إجازات تلبية لرغبتهما بعد ان وثق من علمهما وأهليتهما كل في مجال اهتمامه.



تعب في السعي والتحصيل.. في الصحراء السودانية

ثالثاً ــ نفهم مما ورد في طبقات ود ضيف الله ان إعادة طلب الاجازة بالمكاتبة أو المراسلة كانت معروفة، فالشيخ حسن عبد الـرحمن بن الشيخ صالح ود بانقاً كان في صحبة الشيخ احمد ود عيسى، عندما استجاز الشيخ احمد الدرديري، في قراءة كتب الحديث ومصطلحـه بالمكاتبة، كذلك حصل الشيخ محمد المجـذوب عـلى اجـازة بـالمكـاتبـة[٢١] من الشيـخ عـلي الصعيدي العدوي احد علماء الأزهر.

رابعـاً ــ يكثر في الطبقـات أسمـاء علماء أجيــزوا من الأزهـر، وأجيــزوا كـذلـك من السودانيين الذين درسوا في الأزهر أو تصدروا حلقات الدروس بعد ان عادوا لبلادهم، من ذلك ان الشيخ عبد الرحمن بن بلال كان مأذوناً[٢٢] لـه في الفتـوى والتـدريس، وعـلي بن ديـاب القريشابي كان علامة مأذوناً له في التدريس كشيخه أبي الحسن، وحضر حلقته خلق كثير[٢٣] وأجيز الشيخ عبد الرافع القنديل في التدريس، وكان رحالة شدت اليه الرحال من سائر الأقطار،


حلقة تدريس

درس خلائق لايحصى لهم عدد، ويقال ان الشيخ حمد النحلان شهد له بالتدريس في حال سفره، ويبدو انها كانت اجازة شفهية بدليل قوله (يا فقيه شكر الله تقرى أولاد الحلفاية انت حي أبوعيونا حمر هذا يقرى في مسجدك»(٢٤). وكان الشيخ يوسف الطريفي ممن جمعوا بين اجازة التدريس وإجازة السلوك، حيث إذن له أبوه بذلك، وهو بدوره مكث بعد أبيه في التدريس وتربية المريدين نحو خمس وستين سنة(٢٥) والشيخ أبوبكر ود توير اذن له شيخه الزين ود صغيرون في التدريس و«تفقه عليه مشايخ صالحون وأفتى دهراً طويلاً» والشيخ المسلمي ولد أبوونيسة جمع بين العلم والعمل، واذن له أستاذه الشيخ عبد الرحمن بن جابر في التدريس وإرشاد الخلق(٢٦) كما ان حميدان الجعلي كان مأذوناً له في التدريس فدرس في مسجد الحلفاية وقرأ عليه أئمة صالحون(٢٧).

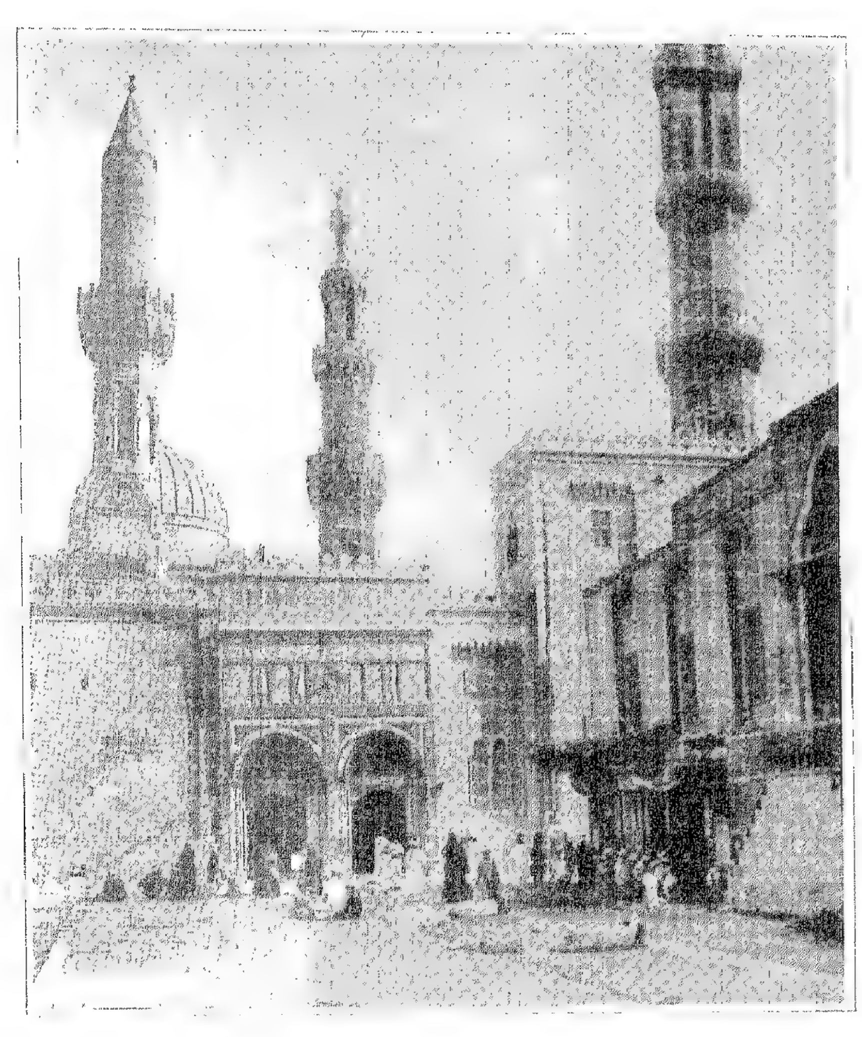
خامساً ــ ذكر ود ضيف الله أنه وجد بخط الشيخ عبد الله العركي إجازة منحها للشيخ محمد بن دفع الله في ذكر كلمة التوحيد. واجازة مطلقة تمكن حاملها ان يروي عن شيخه أسماء الله الحسنى والحزب السيفي وغيرها من الدعوات والأفكار المأثورة، كما أجازه في لباس الخرقة(٢٨) ويعرف هذا النوع من الاجازة بالوجادة، وهي ليست من طرق الرواية ولا نوعاً منها، وإنما ذكرها العلماء في طريق الرواية إلحاقاً بها، لبيان حكمها وبين جمهور المحدثين خلاف في جوازها وعدمها(٢٩).

سادساً ــ اشتهر أولاد جابر بتدريس الفقه وعلوم أخرى، وبلغت ختماتهم في «مختصر خليل» أربعين ختمة وتزيد. وهذا يؤكد انهم أجيزوا فيما ختموه.

سابعاً ــ يروي عن الشيخ المجذوب انه سافر للحجاز، والتقى هناك بالسيد احمد بن ادريس، ثم أقام بالمدينة، ودرس في الحرم النبوي لطلاب من أهل المدينة وغيرهم(٣٠).

ومن المحتمل ان الذين سبقوه سلكوا واستجازوا فأجيزوا من علماء مكة والمدينة الذين كانوا اذا التمسوا في في تلاميذهم الكفاءة في التدريس يعطونهم شهادات خاصة بصلاحيتهم للتدريس(٣١).

الجامع الأزهر



ثامناً ــ تلقى كثير من علماء قرية كترانج العلوم الدينية بالأزهر، وتفقهوا على شيوخه. وحصلوا منهم على إجازات كانت محفوظة عند أحد أفراد الأسرة في عهد الحكم التركي المصري، ثم فقدت أيام المهدية(٣٢).

يتضح مما سبق ان السودان عرف الاجازات العلمية التي كان الحرص على الحصول عليها شديداً، وهذا يساعدنا على اقرار ان علماء ذلك العصر الذين نشروا الثقافة الدينية في مساجد السودان كان لهم صلاحية للتدريس والفتيا.

وبين أيدينا اجازتان أورد نصهما ود ضيف الله في طبقاته، احداهما من عالم أزهري إلى تلميذه السوداني، وثانيتهما من عالم سوداني درس في الأزهر لتلميذه السوداني أيضاً.

ويبدو ان إجازات تلك الفترة لم تكن قاصرة على العلوم الدينية والعربية، فقد ذكر ود ضيف الله ان عبد الرحمن ولد طراف صحب الشيخ ادريس بن الأرباب وسلك عله الطريقة فأذن له في الطب ودل الناس عليه وكان حجازي بن أبي زيد طبيباً ماهراً «كأنه ابن سينا» وواضح ان المقصود بالطب هنا مداواة الناس من بعض الأمراض النفسية بالاستعانة بكتب الطب والحكمة والأعشاب، ويؤيد هذا ما ورد في ترجمة الفقيه سرحان ولد صباحي من أنه «كان طبيباً، للجان، صرعى ووسواسي مثل أبيه، كما ان عبد الرحمن ولد طراف المتقدم ذكره كان يطب الشيطان بألف ب ت ث مع انه لم يحفظ إلا ربع يس فقط.

ويؤيد انتشار هذا النوع من الطب في دارفور ما ذكره التونسي في رحلته إذ قال ان أكثر

مايعانونه الروحاني والسحر، ويسمون علم السحر علم الطب، ومن مهر فيه سمي طبابي، وهذا العلم يوجد عند الفلان (الفلاتة) أكثر من غيرهم.

الخلاصة: ان السودان عرف الاجازات العلمية بكافة أنواعها في عصر الفونج، وهي تلقي الضوء على ثقافة علمائها، وقد رأينا الاذن بالسماع، وهي اعلى مراتب الرواية، ورأينا اجازة المكاتبة والاجازة الشفهية والاجادة، وإجازة... المريدين في التصوف، وقد تميزت بأنها من اجازات السماع مما يؤكد ان الحاصلين عليها كانوا على درجة من العلم، وهذا يزيد من ثقتنا في علمهم الذي نشروه في البلاد.

■

الهوامش

(١) طرق نقل الحديث وتجمله ثمانية: السماع من لفظ الشيخ، والقراءة عليه، والاجازة، والمناولة، والمكاتبة، والاعلام، والوجادة، والعرضة بالكتب (تدريب الراوي: ٨).

(٢) محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الاسلامية: ٢٢١.

(٣) الخطيب البغدادي: تقييد العلم: ١٠١.

(٤) من ذلك اجازة بخط أبي بكر بن أحمد بن أبي خيثمة لأبي زكريا يحي بن مسلمة ليروي عنه ما أحب من كتب التاريخ (من تاليفه). ويذكر احمد شلبي نقلاً عن الشيخ أغا يزركي (من علماء النجف) ان أقدم شهادة معروفة هي الصادرة في سنة ٣٠٤هـ منحها محمد بن عبد الله الحميري إلى أبي عامر سعيد بن عمر عن كتاب قرب الأسناد تايخ التربية الاسلامية ٢٦٣ ــ ٢٦٤).

(٥) صلاح الدين المنجد: اجازات السماع في المخطوطات القديمة، مجلة معهد المخطوطات العربية: مج ١ عدد نوفمبر ١٩٥٥.

(٦) يراجع للتوسع: ابن الصلاح: المقدمة، السيوطي: تدريب الراوي، عياض: الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع. وعند أغايزركي تنقسم الاجازة طولاً وقصراً إلى ثلاث أقسام: كبيرة مبسوطة ومتوسطة مقتضرة ومختصرة.

(٧) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون: ٢٠٨.

(٨) أركان الاجازة كما نص عليها التهانوي في المصدر السالف الذكر: المجيز والمجاز ولفظ الاجازة.

(٩) التهانوي: نفس المصدر: ٢٠٨.

(١٠) ابن الصلاح: المقدمة: ٧٤.

(١١) ابن الصلاح: المقدمة: ٧٩.

(١٢) كان الطالب اذا حفظ كتاباً في علم من العلوم يعرضه على الشيخ فيقرئه أي موضع منه، فان قرأه دون تلعثم أو توقف دل ذلك على حفظه لجميع الكتاب (صبح الاعشى ١٤/٣٢٢).

(١٣) هي نادرة الحدوث، ولكنها مع ذلك كانت تمنح من المجيز بدافع المجاملة، ومن المستجيز للمباهاة والتفاخر ولم يكن لها أية صفة أو قيمة علمية.

(١٤) غنيمة: المرجع السابق، وانظر حسين أمين: المدرسة المستنصرية: ٩٤. دائرة المعارف الاسلامية (مادة الاجازة).

(١٥) يوضح القلقشندي الغرض من الاجازة للفتيا والتدريس فيقول: «اما الاجازة للفتيا فقد جرت العادة انه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس ان يأذن له شيخه في ان يفتي ويدرس وكتب له بذلك. وجرت العادة ان يكون مايكتب في الغالب في قطع عريض، أما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطر متوالية بين كل سطرين نحو اصبع عريض (صبح الأعشى ١٤/٣٢٢).

(١٦) أنظر مقدمة ابن الصلاح.

(١٧) دائرة المعارف الاسلامية (مادة الاجازة).

(١٨) أحمد شلبي: تاريخ التربية الاسلامية: ٢٦١.

(١٩) الطبقات: ٤٦.

(٢٠) الطبقات: ٢٥٦.

(٢١) الاجازة بالمكاتبة هي ان يكتب الشيخ إلى الطالب شيئاً من حديثه أو روايته، ويجيز له ان يرويه دون ان يكون قد التقى به. وقد ضعف البعض هذا النوع بينما رأى آخرون جوازها. وعندنا ان المجذوب كان عالماً مشهوراً مما يضفي على هذا الاجازة قيمة ،ويبدو ان الشيخ العدوي كان قد سمع عن علمه على الأقل كأحد مريدي الطريقة الشاذلية في السودان، إذ يفهم من نص الاجازة ان العدوى كان صوفياً شاذلياً والمجذوب كذلك.

(٢٢) الإذن والاجازة بمعنى واحد.

(٢٣) الطبقات: ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢٤) الطبقات: ٢٩٠.

(٢٥) الطبقات ٣٧٤.

(٢٦) الطبقات ٧٨، ٧٩.

(٢٧) الطبقات ١٥٣.

(٢٨) الطبقات ٦٥، ٦٦.

(٢٩) محمد المبارك عبد الله: الناقد الحديث: ٨٧، ٨٩. الرحمن الشامخ: التعليم في مكة والمدينة: ٦٥.

(٣٠) الوسيلة إلى المطلوب: ١١٤.

(٣١) محمد عبد الرحمن اشامخ: التعليم في مكة والمدينة: ٦٥.

(٣٢) محمد عبد المجيد السراج: إرشاد الساري: ١٦.

عوامل اقفار بلاد الشام في العصر العثماني

حسين سلمان سليمان

يطلق إسم بلاد الشام على الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم (سورية الطبيعية) وتقوم إلى الغرب من اسيا ممتدة شرقي البحر المتوسط، من جبال طوروس شمالا إلى صحراء سيناء جنوبا، ومن الجزيرة والفرات وبادية الشام شرقا إلى البحر المتوسط غربا. أي أن سوريا في بحثنا هذا، تضم في نطاقها، إلى جانب الجمهورية العربية السورية لبنان وفلسطين وشرقي الأردن وكيليكية.

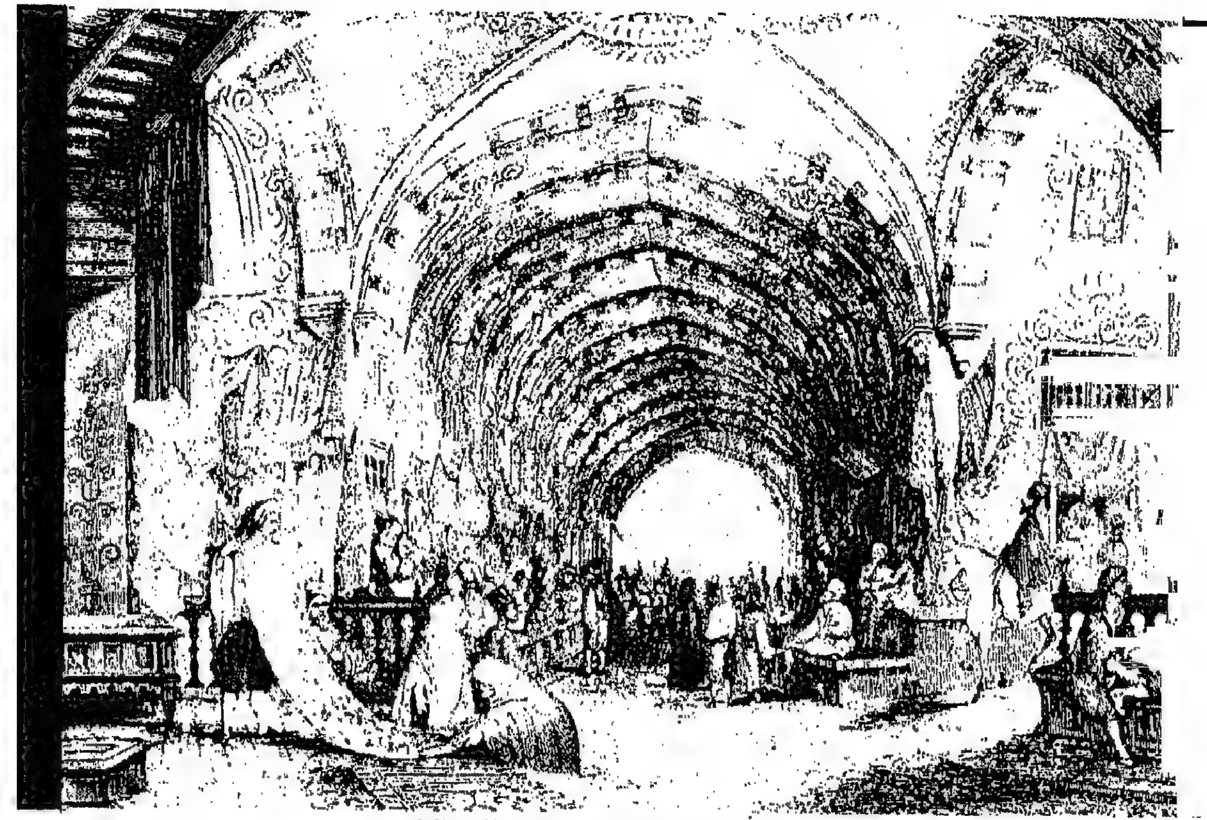


وقد اعتاد الكثير من مؤرخي العصور الحديثة أن يعزو، أسباب التدهور الاقتصادي والفقر الزراعي الذي أصاب البلاد العربية عامة وسورية خاصة، إلى السياسة الفاسدة التي انتهجتها الدولة العثمانية في هذه البلاد، من فوضى في الادارة وانعدام للمشاريع الاقتصادية البناءة. فالواقع أن الأتراك العثمانيين كانوا يرثون أثناء زحفهم وفتوحاتهم في غربي آسيا، القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لامبراطوريات هرمت، وأقاموا عليها كيانهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وهكذا لم يكن للدولة العثمانية آنذاك من مثل أعلى في التنظيم أياً كان نوعه، سوى المحافظة والابقاء على نظام قائم كانت تؤمن أنه كامل، لأنه منسجم مع الشريعة الاسلامية ومصالحها الخاصة. وأدى هذا الجمود إلى تضافر مجموعة من العوامل، أدت إلى اقفار بلاد الشام وجعل الجانب الأكبر من أراضيها غير مزروعة.

عيوب نظام جباية الميري والجزية:

من أجل انتظام جباية الميري جعلت السلطات العثمانية لسورية دفتراً خاصاً أو سجلاً، حددت فيه الميري الذي يجب أن تدفعه كل بلدة للخزينة السلطانية، وجعل هذا المبلغ ثابتاً لا يتغير ومنع أي كان من العبث به. لكن عيوب هذا النظام سهلت على الولاة التلاعب، وجعله مرهقاً للشعب، وبما أن الحكام لا يجرؤون على زيادة الميري، فقد استحدثوا ضرائب مباشرة تفعل فعل الضرائب وإن كانت لا تدعى ضرائب، وذلك لجمع الثروات التي تمكنهم من تعويض المبالغ التي دفعوها مقابل حصولهم على

حسين سلمان سليمان ماجستير في التاريخ الحديث من جامعة القاهرة يعد أطروحة دكتوراه دولة في جامعة عين شمس. له أعمال غير منشورة (علاقة لبنان بالقوى المحلية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (٧٥٣ ــ ١٧٩٠)؛ صدر له العديد من الدراسات والأبحاث في صحف ودوريات محلية).



سوق شعبي شرقي (رسم جوانين وفان كافر).

هذا المنصب.

ومن ذلك أنهم لا يتخلون لأحد من الفلاحين عن أي جزء من الأرض المقطعة لهم إلا بشروط باهظة، كالاشتراط على الفلاح بتأدية نصف الغلة، واحتكار البذور والحيوانات وبيعها له بأسعار تزيد عن قيمتها الحقيقية، وعند استلام الغلة يأخذون منه قسراً أكثر مما يستحق لهم من حصص متّهمينه بسرقة المواسم، وإذا جاءت السنة ماحلة لا يصطبرون بل يطالبونه بتأدية ما سلفوه اياه، ويصادرون مقابل ذلك جميع مقتنياته ليستوفوا دينهم منه.

وإلى جانب تلك التعديات التي تتعرض لها القرية بكاملها، لمجرد ذنب اقترفه بعض سكانها، أو فرض أنواع السخرة عليها مثل تقديم هدية للحاكم الجديد، وتقديم العلف إلى خيله وخيل فرسانه، ويجبرون السكان على ايواء الجند الذين يمرون بالقرية صدفة، أو يقصدونها لتبليغ أوامر الولاة.

ما اعتاد عليه أصحاب الاقطاعات في إطلاق الملتزم، رغبة منهم في زيادة مداخلهم، ففرض هؤلاء المغارم والعوائد وأوجدوا رسوماً على الأحمال والغلال، وانتشرت أساليب السلب والنهب مما سبب في افقار الفلاحين واندثار القرى والمزارع، بسبب عجز فلاحيها عن دفع الميري فهجروا الأرياف وانتقلوا إلى المدن مؤثرين العيش فقراء على أن يكونوا أغنياء وتعود عليهم ثرواتهم بالظلم والاهانة، وبما أن الميري ثابت لا يتغير فقد وجب على القرية وفاؤه بالتمام، فصار يتوجب على الفلاحين الآخرين دفعه كاملاً. فالعبء الذي كان خفيفاً في الأصل، صار على التوالي ثقيلاً، وإذا حصل محل على مدار سنتين، أقحلت قرى بكاملها واقفرت من سكانها فتنتقل ضرائبهم الى جيرانهم.

وفيما يختص بالجزية المفروضة على المسيحيين، فقد حددتها السلطات العثمانية بموجب احصاء أجرته الدولة عنهم في البدء، فصار يجب أن لا ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء، فإذا هاجر من القرية عدد من سكانها المسيحيين فعلى الباقين أن يقوموا بدفع الجزية المفروضة على

أحمد باشا الجزار في جلسة قضائية (عن لوحة انكليزية من القرن التاسع عشر: شارل رو).



الجميع، فيصبح سهم الفرد خمسة وثلاثين أو أربعين قرشاً، مما يؤدي إلى أثقال كاهل ذلك الفرد أو اجباره على تفادي ذلك بهجرة دياره.

مظالم الوالي العثماني وجنوده:

كان الولاة العثمانيون لا يدفعون إلى جنودهم كامل رواتبهم المستحقة لهم، بل كانوا يخصّون أنفسهم بجانب منها. وقد وصف لنا أحد التقارير الدبلوماسية الفرنسية الصادرة عن قنصلية فرنسا في صيدا مشهداً حياً لجنود أحمد باشا الجزار والي صيدا من (١٧٧٦ إلى ١٨٠٤).

«تتذمر القوات من تأخر دفع كامل رواتبها منذ عدة أشهر، فالباشا لا يدفع لقواته رواتبهم المستحقة، وكانوا بدون خبز وبدون دراهم وبدون علف...[١]».

ويعوض الباشا هذا النقص بالاكثار من الحملات والبعثات الحربية على البلاد التي يتمنع ملتزموها بسبب العجز عن دفع كامل الأموال المطلوبة منهم، ويتغاضى أثناء هذه الغزوات عما يرتكبه الجند من جرائم وآثام حيث يقومون بعد احتلال المدن والقرى بنهبها وإحراقها وقتل شيوخها ورجالها، والقبض على النساء والأطفال وبيعهم كالرقيق في أسواق المدن. وقد تركت لنا الوثائق الفرنسية وصفاً لحملة قام بها جند أحمد باشا الجزار في سنة ١٧٧٧ على مدينة بيروت وأخرى على اقليم الخروب في منطقة الشوف جنوب جبل لبنان

«... أخلى السكان المدينة عند اقتراب الدالاتية والحضارية وأصبحت مهجورة، لم يوفروا شيئاً نهبوا دير الكبوشيين، وكان فرح رجال الدين عظيماً كونهم استطاعوا النجاة بأنفسهم هرباً. وصل المغاربة وغيرهم من العصابات الذين لا يطيعون سوى الجزار، فوجدوا المدينة قد تركها سكانها، فهجموا على ثلاث قرى قريبة من بيروت جميع سكانها من النصارى، وتعرّض الجميع للموت حرقاً أو ذبحاً، واستعبدوا الرجال أو ذبحوهم، وبيعت النساء والأطفال بسعر قرشين للشخص الواحد[٢].



السلطان عثمان الأول المؤسس.

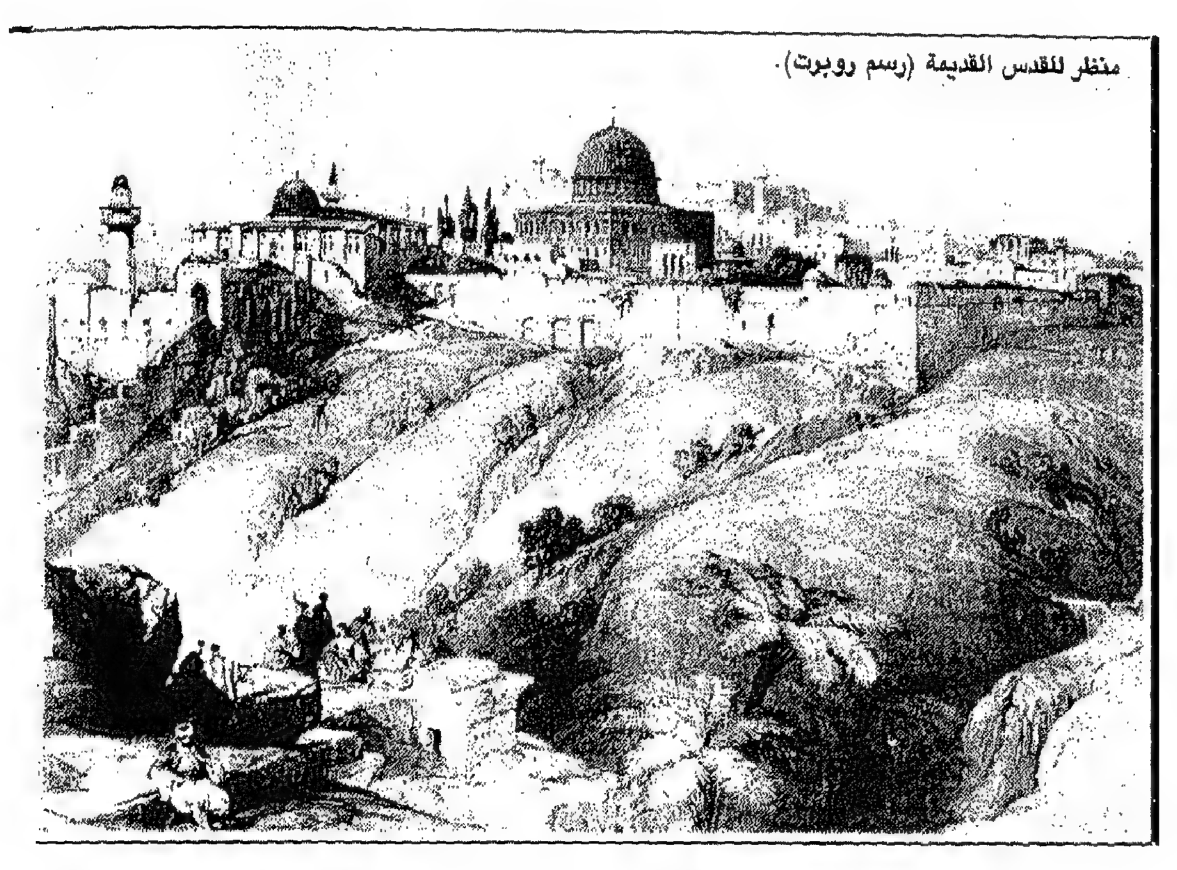
«ذبحوا جميع الرجال الذين صادفوهم ولم يتمكنوا من الهرب، ونهبوا وخربوا كل القرى التي مروا بها خلال هذين اليومين والأيام التي تلتها. عاد الجند إلى المدينة لكي يودعوا في مكان أمين الغنائم التي أتوا بها، وكانت خيولهم محملة بالأطفال الذين باعوهم، وجلبوا الفتيات الرضع من عمر ستة أشهر. ...لا نعرف ولا يمكننا أن نقدر الثروات التي تقاسمها الجند، لم يوفروا شيئاً ونهبوا حتى الكنائس. وشاهدنا المغاربة بوجوه أشبه بالدببة منهم إلى البشر، يختالون في المدينة وهم يحملون بأيديهم الأوعية المقدسة وأقمشة تلمع بالفضة والذهب... شاهدت اليوم خيولاً تحمل شجرة مقلوعة من جذورها وهددوا بالثورة وأعلنوا بصوت عال بأن نهب المدن يجب أن يكون دخلهم. وصرّح الباشا لمترجمي بأن لولا الذي حصل، لكان هؤلاء التعساء في حالة لا تطاق ...وفي النهاية من دائرة بقطر سبعة وعشرين ميلاً، كانت تضم منذ عدة أيام عدداً كبيراً من القرى، أصبحت اليوم قفراً واسعاً لا تشاهد فيه الاّ جثث منتشرة ولا تجد فيه مخلوقات حية، وقد عم فيها الخراب والدمار...»(٣)

وكانت مثل تلك الحملات خير تعويض للجنود عن رواتبهم المستحقة، حتى أن جنود الجزار أعلنوا له بعد هذه الحملات التي ذكرناها أنهم اكتفوا بالنهب الذي قاموا به، «وبأنهم تخلوا عن رواتبهم القديمة المستحقة لهم، وبأنهم لن يطالبوه بشيء إلى وقت طويل وهددوا بالتمرد عليه إذا لم يحصل نهب المدن بمثابة رواتب لهم»(٤).

لا شك بأن مثل هذه المظالم قد سببت في خراب الولايات وتدميرها، وقضت على كل رغبة لدى السكان في البقاء، وأشاعت المحل في البلاد وانتقل من استطاع من سكان الريف إلى عاصمة الولاية، حيث تغفل عنهم عين الوالي. فمن أصل ٤٠٠ قرية مسجلة في الميري بولاية حلب، لم يبق فيها سوى ٢٠٠ قرية.

كان الاتصال الأمين يقتصر على طول الساحل، من بيروت لغاية أقدام مرتفعات لبنان الشمالية، ومن صيدا لغاية دمشق وبعض

منظر للقدس القديمة (رسم روبرت).



أجزاء من سوريا، من صور إلى عكا وبعض الأراضي البعيدة عنها قليلاً مثل السامرية وباتولية. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية عن عكا بقولها.

«... لا يمكننا الذهاب من يافا إلى الرملة التي تبعد أكثر من أربع ساعات، دون أن ندفع الخفر وغالباً ما نحتاج إلى قوة عسكرية..»(٥).

ولم يكن السفر يتم إلا بمواعيد معينة وبمصاحبة القوافل، لأنه لايمكن لأحد السفر بمفرده خشية أن يتعرض للسلب والنهب من قطاع الطرق واللصوص. فمن يرغب الانتقال من مكان لآخر عليه أن ينتظر ذهاب مجموعة من المسافرين إلى المكان نفسه، أو يتحين ذهاب أحد أصحاب النفوذ الذي يجعل من نفسه حامياً للقافلة، وكان من الضروري التحسب لهذه الأخطار وعلى الأخص في المناطق المعرضة لاعتداءات البدو في فلسطين وأطراف البادية. وقد انعكس هذا الوضع على الأجواء اللبنانية الشعبية، ومنها هذه الأغنية القديمة.

أرقصي يا مليحة   أرقصي ولا تبالي
زرف المخشخش   بثقل الجمال
زوجك يا مليحة   راح على الشام وحده
زوجك يا مليحة   بوزيد الهلالي

وإلى جانب أخطار الطريق لم تعرف سوريا في ذلك الوقت الراكب والمركبات، وكان يخشى السكان اقتناءها خشية مصادرة الحكام لها، وكانت تنقل الأحمال الثقيلة على ظهر الحمير والبغال في المناطق الجبلية، لأنها تتمكن من تسلق الصخور والانحدار عليها، في حين كان يغلب استعمال الجمال في السهول. وإلى جانب ذلك كله كان يعمل الأهالي إلى مضاعفة وعورة المناطق الجبلية، للحيلولة دون وصول فرسان الحكام إليهم.

تعذر الملاحة البحرية:

ولم تكن الملاحة البحرية بأفضل من النقل البري، رغم أنها كانت العامل الرئيسي في نقل الانتاج الزراعي، الذي كان يقوم التجار الأوروبيون بتصديره إلى بلادهم. فعلى طول



حفلة عشاء تكريمية لسفير أوروبي في دارة الصدر الأعظم

الساحل السوري لم يكن هناك ميناء صالح لرسو السفن واستيعاب سفينة تزن أربعمئة طن، ولا توجد حصون وأبراج مجهزة بالحاميات والعتاد اللازم لرد غارات الأعداء. والقرصان المالطي الذي كان يجوب الموانىء السورية، بمراكب حسنة التسليح على متن بعضها عشرون مدفعاً، كانت تقطع الطريق على السفن والقوافل التي تنقل البضائع ما بين هذه الموانىء، فتأسر بعضها وتدمر البعض الآخر وتستولي على ما تحويه من بضائع. وأحياناً كانوا يغيرون على الموانىء نفسها، فأما يأسرون بعض المراكب الراسية فيها، أو ينزلون إلى البر وينهبون ما استطاعوا حمله من المؤن التي ينقلونها إلى مراكبهم، مما كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى توقف النقل البحري وشل النشاط التجاري. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بقولها:

«...الزوارق التي تنقل بالات خيوط القطن من يافا إلى عكا وإلى صيدا لتحمل على مراكبنا لم يعد بامكانها الابحار، وهذا سوف يؤدي إلى توقف تجارتنا والقوافل...»(٦).

وبالرغم من أن الخسائر التي كان يحدثها نزول القرصان إلى البر، كانت تصيب سكان البلاد والتجار الأوروبيون على السواء، فان الأهالي كانوا يحملون هؤلاء الأخيرين مسؤولية هذه الغارات، فيقتحمون أماكن تجمعهم ويلحقون بهم الاهانات وينهبون ممتلكاتهم. وفي بعض الأحيان يكون التحريض بايعاز من الباشا نفسه، لكن الأضرار التي كانت تلحق بهم إنما كانت في السواحل التي لا يوجد بها باشاوات لضبط العامة.

«...يحملوننا بصورة دائمة مسؤولية السرقات التي يقوم بها القرصان أمام أعيننا سواء في الموانىء أو الجوار...»(٧).

وقد نتج عن ذلك أن أخذ التجار الأوروبيون يحجمون عن الاقامة في المدن الساحلية بسبب هذه التعديات، إلى جانب الحد من كمية المبالغ المستثمرة في المبادلات التجارية، وبعد أن استفحلت هذه التعديات وكادت تهدد تجارة فرنسا، نشط المسؤولون في قنصليات


استقبال سفير أوروبي في قاعة السلطان ١٧٨٨.

فرنسا في المشرق، في الكتابة إلى حكوماتهم للسعي في ايجاد حل لنشاط القرصان.

«...يسبب لنا القراصنة المالطيون يومياً مضايقات جديدة، التمس من سيادتكم هذا الخطر خشية أن لا تكون الطائفة (أي الجالية الفرنسية) ضحيتهم...»(٨).

استتباب الأمن ووفرة القوات في مراكز الولايات:

تميز سكان المدن السورية بأنهم كانوا أقل بؤساً وفقراً من فلاحيها، وذلك نظراً لأن ما يملكه أرباب الحرف والتجار فيها، كان يتألف من أشياء يمكن نقلها واخفاؤها بسهولة، فيتمكنون بذلك من الهرب من جشع الحكام. وأدى ذلك إلى هجرة فلاحي البلدان الأخرى ممن لا تحتاج الأرض إلى خدماتهم إلى المدن، وهجرة فلاحي القرى السورية تاركين أراضيهم التي لا تحتاج إليهم، ومفضلين عليها الأمن والطمأنينة في المدن. وذلك لأن حكام الولايات كانوا يبذلون قصارى جهدهم إلى تأمين الأقوات في المدن الكثيرة السكان، وعلى الأخص تلك التي يقيمون فيها. وإذا حدثت مجاعة ينقلون إليها الحبوب من غيرها، ويجبرون أصحاب المتاجر على بيعها بالأسعار التي يعينونها تحت طائلة العقوبات.

احجام سكان بلاد الشام عن ممارسة التجارة:

كان يمارس التجارة في المدن السورية التجار الأفرنج، وكان يعرض عنها المسلمون لا بسبب الكسل أو مراعاة لعقائد دينية، وإنما للمصاعب التي كانت تضعها السلطات العثمانية في وجه رعاياها، وتفضيل الباب العالي للأجانب طمعاً في الربح. وقد تمكنت بعض الدول الأوروبية من عقد معاهدات مع السلطان، يتعهد بموجبها بفرض ضريبة مقدارها ٣٪ على البضائع التي كانت ترسلها إلى بلاد السلطنة، في حين كان يفرض على رعاياه ضرائب مقدارها ١٧٪ على البضائع التي كانت تنقل من مناطق الانتاج إلى مراكز الاستهلاك.

وبالاضافة إلى ذلك المكسب الذي حظي به الأوروبيون، فقد كان من حقهم أن يتخذوا وكلاء لهم من الوطنيين أصحاب الطقس اللاتيني، واشراكهم في امتيازاتهم بحيث لم تكن للحاكم وموظفيه أية سلطة عليهم. ولا يستطيع أحد أن يعزلهم، والقضايا التي كانت ترفع إليهم ينظر في أمرها في ديوان القنصل. وكان يعرف هؤلاء الوكلاء في بلاد الشام باسم «تراجمة أصحاب البراءة»، فقد كان السلطان يمنح البراءات للسفراء المقيمين في الأستانة، ويقوم هؤلاء بدورهم بأهدائها إلى الوكلاء الوطنيين.

ونظراً لأن أقصى ما يتمناه العربي هو أن يكون قنصلاً، فليس غريباً أن يبذل المال الوفير للحصول على هذا المنصب، الذي يحميه بصفة وكيل قنصل من ظلم السلطات العثمانية، فالبراءة تحميه من العقوبات. ولذا لم يكن غريباً أن يتهافت نصارى بلاد الشام الأثرياء، على بذل المبالغ الباهظة من أجل الحصول على تلك البراءة، واستفاد من ذلك السفراء فعمدوا إلى بيعها، وجنوا من جراء ذلك أرباحاً طائلة.

تلك هي مجموعة عوامل كان لها دور في سرعة تدهور الحياة الاقتصادية لبلاد الشام خلال أربعة قرون من الحكم العثماني، فأقفرت قرى بكاملها من السكان وشاع المحل في البلاد. ■

الصور من كتاب عادل اسماعيل.
Le Liban. Documents diplomatiques et consultaires.

الهوامش:

(١) AEB[1] 1073 Seyde le 17/2/1777 (*).
(٢) AEB[1] 1037 Seyde Le 24/4/1777.
(٣) AEB[1] 1037 Seyde Le 17/2/1777.
(٤) Ibid.
(٥) AEB[1] 979 Acre Le 16/7/1783.
(٦) AEB[1] 1021 Seyde Le 24/4/1719.
(٧) AEB[1] 1021 Seyde Le 4/3/1719.
(٨) AEB[1] 1019 Seyde Le 20/10/1713.

(*) ترمز الثلاث أحرف الأولى (AEB[1]) الى اختصار عبارة (Affaires étrangeres serie B[1]) ويدل الرقم الذي يليه على رقم المجلد ومن ثم المركز القنصلي الصادر عنه ويليه تاريخ التقرير في اليوم والشهر والسنة.

المصادر:

أولاً: وثائق:

Archives Nationale de Paris
réperatoire numerique de la sous serie B[1].

poste Consulaire	numeros de volumes	Année
Seyde	1019	
	1037	
	1021	
Acre	979	

ثانياً: وثائق منشورة:

ISMAIL, Adel. Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à L'histoire du Liban et des pays du proche-orient du (XVII siècle à nos jours, (1975-1981), 20 vols.

ثالثاً: مصادر أصلية

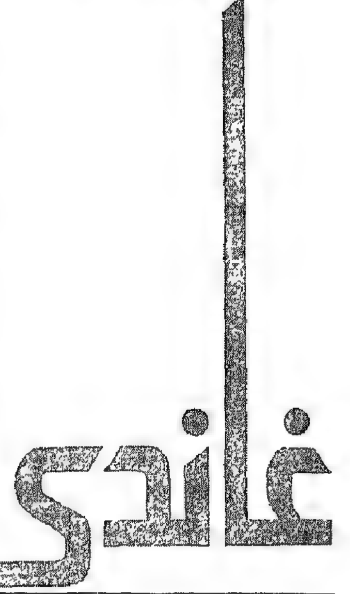
بريك، مخايل، تاريخ الشام (١٧٢٠ — ١٧٨٢) مخ. نشره الخوري قسطنطين الباشا عن النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة برلين من مخطوطاتها العربية رقم (٩٧٨٦). حريصا، سنة ١٩٣٠.

دنديني، ايرونيموس. رحلة إلى جبل لبنان، تر. عن الايطالية إلى الفرنسية المستشرق ريشار سيمون سنة ١٦٣٥، تر. إلى العربية الأب يوسف العمشيتي ونشر تباعاً في المجلة البطريكية م. ٦ ص ١٠٨.

غين، هنري . بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبون، بيروت، سنة ١٩٥٠، الطبعة الثانية، جزءان.

فولني، فرنسوا. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، صيدا، ١٩٤٨، جزءان.

المعلوف، عيسى اسكندر. دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف. بعبدا، (١٩٠٧ — ١٩٠٨).



اهتزت الأمبريالية البريطانية، غداة الحرب العالمية الثانية، في الشرق الأقصى، بالهجوم الياباني عام ١٩٤٢، وبتحرر خُمس شعوب العالم.

١٥ آب ١٩٤٧ تخلى نائب الملك في الهند اللورد لويس مونتباتن عن مهامه. فكان آخر سلسلة من نواب الملك، بدأت عام ١٨٥٨، بل قبل ذلك بكثير، فحين أعلنت الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند عام ١٨٧٧، فإنها في الحقيقة دشنت إدارة انكليزية استعمارية، وعينت نائباً للملك مكان الحاكم العام، وهو مركز من جملة الامتيازات التي أقامتها شركة الهند (البريطانية)(1) التي نشأت منذ القرن السابع عشر، تحت إشراف التاج البريطاني المباشر، فأنشأت بعد ذلك الهند البريطانية

مُحرِّر الهند

د. رياض العالي

امبراطورية الهند:

أهدى اللورد كورزون، وهو أحد نواب الملك في الهند، أحد كتبه «إلى كل الأشخاص من الجنسين الذين يعتقدون، أن الامبراطورية، بعد الله تعالى، أكبر قوة على وجه الأرض، تعمل للخير».

تلك هي المبادىء التي أتاحت لمائة ألف أبيض ولجيشهم الانكليزي في الهند، أن يوطدوا الأمن في شبه قارة كاملة، لضمان مصلحة بريطانيا العظمى وتطورها الاقتصادي.

حتى عام ١٨٥٨ كانت القوات الانكليزية في الهند، هي قوة شركة الهند، وكانت مؤلفة من ثلاثة جيوش: جيش مدراس، وجيش بومباي، وجيش البنغال. وقد ثار جيش البنغال (وقوامه ٣٠٠٠٠٠) عام ١٨٥٧ بحجة إعطاء الجنود رصاصاً فاسداً مدهوناً بشحم البقر. وقد أغرقت هذه الثورة البنغال بالدم. وأتاحت إعادة هيمنة الاستعمار البريطاني إلى عموم الهند، كما يقول بيير غيوم. عام ١٨٥٨ ضمت قوات الشركة إلى الجيش البريطاني.

أما المسؤول عن هذه المهمة الضخمة، والذي كان بمثابة ملك ووزير أول، وكان يحكم تلك البلاد الشاسعة، فهو نائب الملك، تسميه جلالتها، ويتبع مباشرة وزير الدولة لشؤون الهند. أما حكام المناطق الذين يعينهم نائب الملك، مع مجالس الشوري التي تعاونهم في الحكم، فيساعدون نائب الملك على القيام بمهماته. وكان معظمهم من البرجوازية اللندنية، ومن الجهاز المطلق السلطة (Indian Civil Service). ولكن المثل الفكتورية، التي كان يجسدها الموظف البريطاني «كالتقدم، والطاقة، والسلوك المستقيم»، بدت متهافتة في القرن العشرين. ولقد أشار جواهر لال نهرو إلى أخطاء هؤلاء الحكام الذين كانوا يزعمون أنهم حماة الهند، والحائزون على ثقة الجماهير، بينما لم يقدروا حقيقة التطور، ولا متطلبات العصر، ولا البورجوازية الجديدة العدائية.

أضف إلى ذلك أن (I. C. S) كانت تضم خمسة بالمائة من الهنود عام ١٩١٥، فصارت تضم خمسة وأربعين بالمائة عام ١٩٣٩. كما



غدا معظم الموظفين في المراكز الصغيرة، خاصة الجباة، من الهنود. وسخر البريطانيون التعليم لتخريج موظفين إذ لم يكن ممكناً الاتيان بإنكليز يتسلمون كل الوظائف الثانوية. ولهذا وضعوا مناهج خاصة زعموا أنها «تثقيفية وتحضيرية».

وكانت للبريطانيين امتيازات، سنها قانون الشركة البريطانية، لاتتاح للهندي، ثم سادت القوانين تدريجياً بين الهنود والبريطانيين في بعض الأمور فحسب. وحين تسلم الأحرار الحكم، عام ١٩٠٣، وجهوا سياستهم الاستعمارية وجهة مرنة ديمقراطية. وأعلن وزير الدولة لشؤون الهند، عام ١٩١٧ أن سياسة الحكومة البريطانية تنوي «أن تطور تدريجياً المؤسسات التمثيلية، بهدف تحقيق الحكم التمثيلي تدريجياً في الهند، التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية». وقد منح قرار ١٩١٩ الهنود حق مساهمة محدودة في إدارة الشؤون المحلية، وذلك بتعيين وزراء هنود، إلى جانب السلطة البريطانية في المقاطعات، وإنشاء نواة لبرلمان مركزي. وعام ١٩٣٥ أنشىء أول جهاز ثنائي لادارة الهند.

المهراجا والنابابات:[٢]

كان تحت الحكم البريطاني «هندان»: المقاطعات، و٥٦٥ إمارة مستقلة، يحكمها حكام وراثياً، فيسيطرون على ثلث الهند، أي حوالي مائة مليون نسمة.

وكانت السلالات التي تحكمها، من نسل فاتحين مسلمين، وقلما كانوا من أصل هندي: فمثلاً: نظام حاكم حيدر أباد يحكم مع نخبة مسلحة وجيش مرتزقة احد عشر مليون هندي.

وإبان ثورة الجنود الهنود، كان لبعض من العائلة المالكة دور فعال: امّا بتحريض الجماهير ضد البريطانيين، الذين كانوا يريدون سلخ ممتلكاتهم، وإما، على العكس، بدعم القوة الاستعمارية ضد الثائرين، هذا الدعم الذي كان

(١) يقول إدموندبورك «أن الشركة لعبت دور الدولة متنكرة بزي تاجر».
(٢) المهراجا لقب يطلق على الأمراء الهنود. والناباب على الأمراء المسلمين.




الانكليز القلقون من تحركات غاندي، لم يتورّعوا عن سجنه عشية اليوم الأول للحرب العالمية الأولى

حاسماً أحياناً. لذلك رأت حكومة الاستعمار أن دعم الامارات واعتبارها شرعية، يوطد الاستقرار. وقد قبل الأمراء سلطة العرش البريطاني، تاركين لنائب الملك الاشراف على الشؤون الخارجية والدفاع. وقد منحوا حرية واسعة مارسوها في إنشاء علاقات سياسية بينهم، ولكن الحكومة البريطانية احتفظت بحق التدخل في حالات الخلاف.

عرفت الامارات في هذه الفترة حالة هدوء، خاصة والامراء لم يكن عليهم حماية حدودهم. ولكن تشبث كل أمير بحكمه، عرقل قيام نظام تمثيلي موحد.

ولكن الادارة البريطانية خططت لوحدة اقتصادية وسياسية. وأصبحت اللغة الانكليزية اللغة العامة، خاصة لدى الطبقات المثقفة. وأقام البريطانيون شبكة مواصلات، أبرزها الخطوط الحديدية التي أتاحت قيام التبادل التجاري والاتصال بين مختلف المقاطعات، وقيام مدن جديدة. ولكن البريطانيين قلبوا الاقتصاد الهندي رأساً على عقب. فطلبُ انكلترا القطن على نحو واسع، مع تعجيل التصنيع، حوّل عدداً كبيراً من الحائكين الهنود إلى مزارعين. وحيث أمكنت زراعة القطن، حلت محل المزروعات المعيشية، مما خلق مصاعب جمة أمام الهند غداة تحررها.

سياسة فرق تسد:

في أي وضع وجد اللورد مونتباتن الهند، هذه الأرض الشاسعة الممزقة إلى عدة دويلات مستقلة، لم يبد عليها، حتى ذلك الحين انها معنية بأية وحدة سياسية؟ فمساحتها أكبر من مساحة أوروبا، دون روسيا (٣,٨٠٠,٠٠٠ كم٢). فسيفساء من الأجناس والأعراق والمذاهب، واللغات المختلفة (٢٢٥) لغة، لا يفهم بعضها لغة بعضها الآخر. يقطنها مئات الملايين، تحتضنهم بنيات مختلفة الجغرافية، تتراوح بين أعلى قمة في العالم وسهول واطئة مستنقعية، وتتخللها مناخات متناقضة جداً.

إنها أرض شاسعة، يقطنها بشر ينتمون إلى طبقات أربع، ويتوزعون على أكثر من ثلاثة آلاف ملة وشيعة. عدا الكتلة البشرية الهائلة من المعدمين. بكلمة واحدة، الهند هوية جغرافية، تطلق على مستودع بشري من القوى والامكانات المادية. ولكنها لا «تشكل أمة» حسب قول



غاندي مع نهرو وقد نمت علاقتهما الحميمة منذ ١٩٣٠ حين اختار غاندي نهرو لرئاسة المؤتمر

سوزان لاسيي، في كتابها غاندي واللاعنف.

والواقع أن سياسة الاستعمار البريطاني عمقت الفروق بين مختلف الطوائف، ووظفتها لاضعاف شعب الهند، لتسهل عليها السيطرة.

صحيح أن نظام الطوائف ألغي، رسمياً، عام ١٩٤٩، ولكن آثاره لم تزل، فاستغلاله، وتحريض الطوائف بعضها على بعض، خلال فترة طويلة من الزمن، لايمكن أن تمحى آثاره بقرار.

ولقد كان شغل غاندي الشاغل الدفاع عن المحرومين، خاصة، في بدء حياته السياسية، ومنذ كان محامياً في جنوب أفريقيا، حيث تقيم جالية هندية كبيرة، مهضومة الحقوق، مستغلة منبوذة، لا يتنازل البريطاني إلى التعايش معها، لانها طبقة دونية في نظره، ويحرض الافريقي عليها.

وحين وقف ضد التمييز الطائفي، اتهمه من يستغلون الدين بأنه يعرض الدين للخطر. وقد قيل كذلك إن غاندي راغب في استمالة المسلمين إليه (١٠٠ مليون يومذاك، من أصل أربعمائة مليون). ليكونوا عماله ضد البريطانيين الذين كانوا يسيطرون باستغلال التناقضات الهندوسية الاسلامية.

وقد استطاع الانكليز إثارة المذابح والحرائق والنهب والسلب، على نحو خطير جداً عام ١٩٤٧، خاصة إحراق المساجد المسلمة ونهبها. وكانت البنجاب مسرحاً فعلياً لحرب أهلية.

كان محمد علي جناح، منذ ١٩٠٦ قد أنشأ حلف المسلمين، بدعم الانكليز الخفي. عام ١٩٤٠ طالب بتقسيم الهند، من أجل خلق دولة باكستان. ١٢ آب ١٩٤٦ أعلن جناح عن «يوم العمل» أي أن الساعة دقت. وقامت في كالكوتا تظاهرات صاخبة، برهنت للانكليز والهنود أن المسلمين مستعدّون «لاحتلال الباكستان، وإن بالقوة». وامتد العنف إلى الريف وبلغ ذروته في منطقة نوكالي (٨٠ بالمائة مسلمون). وفي بيهار (أغلبية هندوسية) حيث قتل قرابة عشرة آلاف مسلم.

وقد بدت دعوة غاندي إلى اللاعنف، وإلى وحدة المسلمين والهندوس شبه مستحيلة، في مقابل دعوة جناح. وحاول غاندي تحقيق تلك الوحدة في قلب حزب المؤتمر الهندي، الذي سيكون وسيلته إلى الاستقلال.



محمد علي جناح مؤسس باكستان

بدء الثورة على الانكليزي ــ الأبيض:

سبق تدخل غاندي، حركة المؤتمر الهندي (أسس ١٨٨٥)،ورجال أمثال بال فاندادهار تيلاك، (١٨٥٦ ــ ١٩٢٠) وغوبال كريشنا غوكال (١٨٦٦ ــ ١٩١٥) ــ كان نهرو يعتبر تيلاك أبا الثورة الوطنية. وكان غاندي يعتبر غوكال «غورو» الثورة، أي قديسها ــ

وقد طور المؤتمر الحركة الوطنية، نحو الاستقلال. ورافق ذلك صعود الطبقة الوسطى من المثقفين التي اغتنت مع بدايات التصنيع. وكان الذي أنشأ حزب المؤتمر الأيكوسي «خيوم»، لذلك حظي المؤتمر بدعم بريطاني (إذ رأى نائب الملك أن حزب المؤتمر صمام أمان بالقياس إلى القوى الكبرى الصاعدة). والواقع أن المؤتمر كان الناطق الرسمي باسم البورجوازية الهندية، ولكنه اضطر إلى اتخاذ مواقف راديكالية عام ١٩٠٥.

وقد كان لنفور الشعب من اللورد كورزون الأثر الكبير في تحريض الحركة الوطنية الناشئة. فقد ظن أنه يدعم السلطة بغرض تقسيم البنغال إدارياً، مما أشعل الثورة سريعاً. فقامت محاولات اغتيال وتخريب، وألقيت قنابل على قطار نائب الرئيس. عام ١٩٠٦، في كلكوتا، فأعلن حزب المؤتمر عن (السواديشي) عن مقاطعته البضائع البريطانية. ثم أعلن عن مطالبته بالحكم الوطني (سفاراج). وقد لخص غاندي ذلك بقوله: «قانون الوطن الحقيقي هو القانون الذاتي، أو الحكم الذاتي».

مع ذلك، وقفت المعارضة الهندية، خلال الحرب العالمية الأولى، إلى جانب بريطانيا، وعام ١٩١٩ وافق المؤتمر على بعض الاصلاحات التي اقترحها البريطانيون. ولكن قانون رولات، من السنة ذاتها، قضى بقيود شديدة على كل تحرك وطني. فترك غاندي الحزب الوطني لانقساماته (بعضهم وافق على المشاركة في الحكم، وبعضهم طالب بطمأنينة البلاد)، ودعا إلى الاستقلال والنضال في سبيله، وإلى رحيل الانكليز.

حركة الجماهير اللاعنفية:

أعلن غاندي يوم الاضراب العام في ٦ نيسان ١٩١٩، تاريخ بدء نضاله ضد السلطات البريطانية. ودعا إلى أن يعلق الشعب كله، كل نشاط، وأن يصوم ويصلي خلال يوم كامل. وقد بدأ يطبق تعاليم كتابه الذي كتبه في افريقيا، وعنوانه: حكم الهند الذاتي. ويقوم على الأسس التالية: إشاعة الحقيقة واللاعنف، وإحلالهما محل العنف والكذب في جميع مظاهر الحياة. كان ذلك في نظر غاندي الدواء الشافي لكل الآلام التي تعاني منها الهند.

سكن غاندي افريقيا منذ ١٨٩٣ حتى ١٩١٤، بين جالية هندية عددها مائة ألف، كان اسمها على لسان البيض: «الدودة الآسيوية». وكان غاندي الناطق باسمها، المدافع عنها، المطالب بحقوقها. وقد أصدر جريدة «الرأي الهندي»، وألح فيها على ضرورة العمل وكسب العيش بالجهد، والتساوي في الأجر عن العمل الواحد. عام ١٩٠٦ في ٢٢ آب، نُشر في الترانسفال مشروع قرار للاحصاء، الهدف منه عملياً تمييز الهنود، عنصرياً، فتمرد غاندي على المشروع ودعا مواطنيه إلى رفض الخضوع إليه، مهما كلفهم ذلك. ودعا كذلك إلى تنفيذ



نهرو ولياقات علي خان يوقعان على تقسيم الهند إلى هند وباكستان.

مبدأ «عدم طاعة القوانين الجائرة». فسجن.

عام ١٩١٣ صدر قرار جديد أغلق بموجبه حدود الترانسفال في وجه الهنود. فقاد تظاهرة سلمية من الرجال والأطفال والنساء (عددهم خمسة آلاف)، لتتخطى الحدود المقفلة دون إذن. وأعلن العمال الهنود الاضراب العام تضامناً مع ذويهم، فقمع بعنف وصدر قانون الأحكام العرفية. ولكن غاندي قابل ذلك بالدعوة الى عدم التخريب والايذاء والذهاب الى حد «معانقة» الخصم. وقد كان أثر ذه البادرة عظيماً في الهند وبريطانيا. كان النجاح شاملاً، واضطرت بريطانيا الى منح الهنود حقوق المواطنين البريطانيين. وهكذا برهن غاندي عن فعالية مبدأ اللاعنف. عام ١٩١٤ عاد الى بومباي، وطنه الأصلي، ليشرع حركة المطالبة بالاستقلال.

فقير نصف عار يحقق الاستقلال:

كتب غاندي في كتابه «حكم الهند الذاتي»: «أريد أن أخدم المعتدلين والمتطرفين. فإذا اختلفت معهم في الموقف، عرضت موقفي عليهم، ودمت على خدمتي إياهم». كانت الجماهير تنقاد إلى كل موقف أو رأي يبديه، فقد غدا المهماتما «الروح الكبرى»، وراح يجوب الهند حافي القدمين، يرتدي ثياب فلاح فقير.

لم يرض غاندي يوم الاضراب (٦ نيسان ١٩١٩) لاندلاع الصدامات والعنف فيه من جانب البريطانيين والهنود، بينما دعا إلى إضراب غير عنيف. ففي البنجاب أعطى الجنرال داير أوامره باطلاق النار على التظاهرة. فقتل أربعمائة، وجرح أكثر من ألف. فعلق غاندي مؤقتاً «عدم الطاعة مدنياً» وتسلم رئاسة المؤتمر الهندي، وجعل أعضاءه يوافقون على خطته في عدم التعامل والتعاون مع الانكليز، ورفض كل الألقاب، ومقاطعة الأقمشة البريطانية والاستعاضة عنها بأثواب تحاك على المغزل من القطن. وقد أثر ذلك تأثيراً مباشراً على المصانع البريطانية. وفي الأول من آب ١٩٢١، في ذكرى وفاة تيلاك، أشعل غاندي أثواباً انكليزية.

عام ١٩٢٢ تخلى عن مواقع الكفاح خوف أن تتخطى حركة الجماهير حزب المؤتمر. فسجن عامين. وبين ١٩٢٤ ــ ١٩٢٩، عاد يجوب



ضحايا المظاهرات في نيودلهي عام ٤٧.

الهند على قدميه داعياً إلى مقاطعة البضائع البريطانية، ووحدة الهندوس والمسلمين، ومحو الفقر. بين ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ اندلعت أحداث عنيفة في كل مكان.

كانت مسيرة «الملح» التي بدأت في ١٢ آذار، وانتهت في ٦ نيسان ١٩٣٠، لرفض مونوبول بريطانيا على توزيع الملح. وأعلن غاندي «يجب ألا يتوقف عدم الطاعة المدنية ما دام ثمة مقاوم مدني حر على قيد الحياة».

وقد كان لهذه الحركة أثرها داخلياً وفي بريطانيا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي فقد انخفض استيراد القماش البريطاني إلى الثلث. وقام مفاوضون بين البريطانيين وغاندي، ولكن لم تتحقق أية فائدة للهنود حتى ذلك الحين. ولكن القرار الصادر عام ١٩٣٥ سمح للمؤتمر بالمساهمة في شؤون المناطق، وأن يمارس نشاطه في الانتخابات. وجرت انتخابات عام ١٩٣٧ تحت شعار «يحيا غاندي»، وحصل حزب المؤتمر على الأغلبية الساحقة.

حين اندلعت الحرب العالمية الثانية دعا غاندي صراحة إلى عدم المساهمة في المجهود الحربي. عام ١٩٤١ أرسل تشرشل ستافورد كريبس إلى دلهي: وقد عرض على الهند نظام الاستقلال تحت التاج البريطاني، وتشكيل جمعية تأسيسية هندية. وكان رد المهاتما الشهير، بطلب رحيل كل بريطاني عن الهند. ورد تشرشل بأنه «ليس: رئيس الوزارة ليصفّي الامبراطورية»، وأمر بسجن غاندي وكل قادة حزب المؤتمر. فاندلع العنف.

بانتهاء الحرب كانت بريطانيا جد ضعيفة، لا يسمح لها وضعها بتأخير استقلال الهند، وعندما حاز حزب العمال على الأغلبية في انتخابات ١٩٤٥، أمر الرئيس كليمانت أتلي، نائب الملك لورد ويفل بالتعجيل بمنح الهند حق حكم نفسها بنفسها.

٢٠ شباط ١٩٤٧ أعلن أتلي أن بريطانيا ستغادر الهند في مدة أقصاها حزيران ١٩٤٨، واستبدل لورد ويفل بلورد مونتباتن، لينظم رحيل الانكليز، خلال خمسة أشهر. ولكن مونتباتن لم يرحل قبل فصل باكستان عن الهند، على أن يبقيا ضمن الكومنولث البريطاني.

١٥ آب ١٩٤٧ أصبح راجندرا برازاد رئيساً للجمعية التأسيسية، وأعلن الاستقلال. فضجت الهند بهتافات «النصر للمهاتما غاندي».

بعد استقلال الهند بأقل من ستة أشهر «٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨» اغتيل المهاتما غاندي.

وبعد أقل من سنة أعلن تشرشل:

«إني أشهد بحزن فاجع انهيار الامبراطورية البريطانية، مع كل انتصاراتها وخدماتها التي قدمتها إلى الانسانية!».



جولة في مدن وقصور الفراعنة

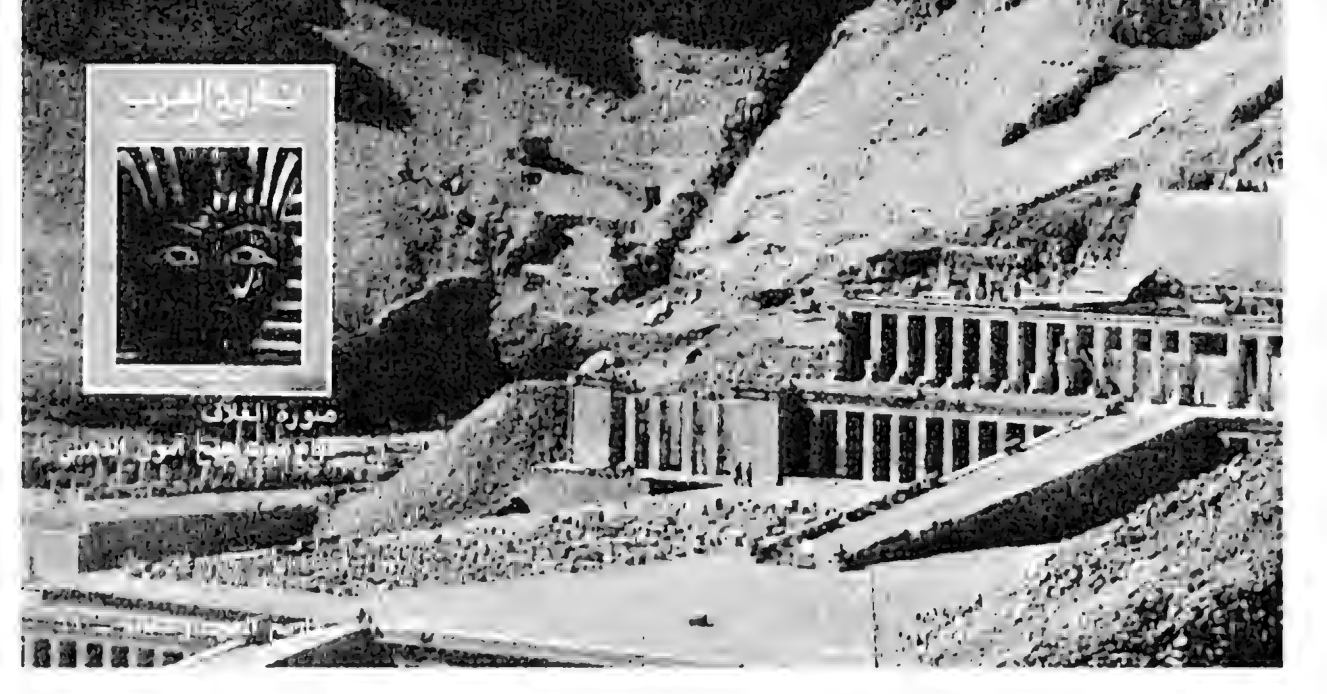
بيار مونتيه
اعداد: شذا عدرة

وصف تفصيلي لحياة المصريين القدماء وبيوتهم وآنيتهم المنزلية

استحالت المدن الفرعونية الآن الى تلال من الغبار تحتوي في داخلها على بقايا حجارية وحطام دقيق. وليس في وسع ذلك ان يدهشنا، ما دامت المدن والقصور قد شيدت بالقرميد النيء.

ولا يسعنا التحدث، من موقع المعرفة الوثيقة، إلا على مدينتين، لانهما لم تعمرا بالسكان طويلاً. فقد شيدتا بقرار من السلطة الملكية، واخليتا فجأة ايضا بعد عمران قصير الاجل.

اقدمهما هي حوتيب ـ سنوسريت التي اقامها في الفيوم سنوسريت الثاني، وعاشت المدينة اقل من قرن. الاخرى هي اخيتاتون، التي كانت مقر امنحوتب الرابع (اخناتون) بعد إعراضه عن امون. وقد استقر فيها خلفاؤه الى اليوم الذي عاد فيه توت عنخ آمون البلاط الى طيبه.



صورة الغلاف

وبناء سنوسريت التي احاط بها سور طوله اربعمائة متر وعرضه ثلاثمائة وخمسون، روعي فيه ان يأوي كثيراً من السكان في مكان ضيق. فالهيكل في الخارج، ويقسمه سور سميك الى جزئين، واحد للأغنياء والآخر للفقراء. وحي الفقراء تخترقه جادة عرضها تسعة امتار تقطعها بزاوية قائمة شوارع عديدة اقل عرضاً.

والبيوت تدير ظهورها، واحدها للآخر، بحيث تطل الواجهة على الشارع. اما ضيق الغرف والممرات فمدهش.

الحي الراقي تجتازه شوارع فسيحة تؤدي الى الهيكل والى بيوت كبار الموظفين. وحجم البيوت الفخمة يزيد خمسين مرة على حجم البيوت الشعبية. وتحتل المنازل والشوارع المساحة كاملة.

لقد احب المصريون الجنائن على الدوام. إحدى السيدات اللواتي عشن زمن سنوسريت تقول لنا على مسلة لها، مبلغ محبتها للأشجار. ورعمسيس الثالث زرع الشجر في كل مكان. اما في هذه المدينة فلم يترك شيء للرفاهية او النزهة.

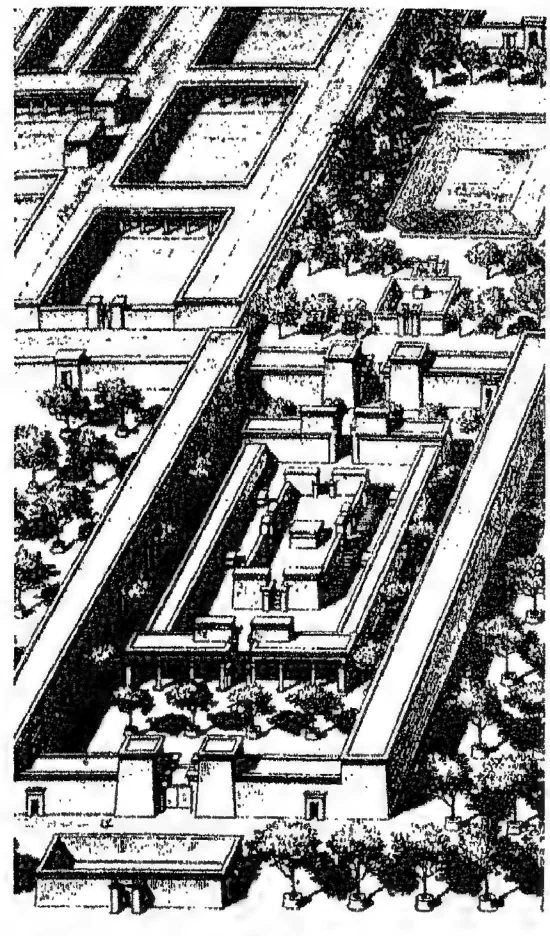
مقر اختاتون كان مدينة فخمة. وكان هناك ثمة مكان فسيح بين النيل والجبل، على شكل نصف دائري. وتخترق المدينة من طرفها الى الآخر جادة موازية للنيل، تقطعها شوارع اخرى تؤدي الى الرصيف، والمقبرة، ومقالع المرمر.

ويتشكل مركز المدينة من القصر الملكي والهيكل والمباني الادارية والمحال. وفي الشوارع تتجاور المنازل المتواضعة مع تلك الأكثر فخامة التي نسبها المنقبون الى افراد العائلة المالكة.

وخصصت مساحات كبيرة لزراعة الأشجار والبساتين، في الممتلكات الخاصة وفي الأراضي العامة على السواء. اما عمال المقابر والمقالع فقد اودعوا قرية على حدة محاطة بسور. وكان إخلاء المدينة مفاجئاً لدرجة انه لم يتسن الوقت لإدخال اي تعديل على ما فعله سكانها الأوائل.

مدينة المائة باب

في المدن ذات الماضي الأطول ــ وهي تشكل الأغلبية الساحقة من مدن مصر ــ كان، على العكس، الغموض هو السائد. مدينة «من نيفر»



من الخارج كانت المنازل الفرعونية تبدو كئيبة. لكن الحياة اليومية كانت تجري داخل الأسوار في الباحات الداخلية.

مثلاً، ويعني اسمها «الجمال ثابت»، وهي المدينة التي حوّلها اليونانيون الى ممفيس، كانت تدعى ايضاً «اونخ ــ تاوي»، اي حياة الأرضين، و«حات ــ كا ــ بتاح»، اي قصر بديل بتاح، و«نيحيت»، اي الجميز.

وكل من هذه الأسماء كان يمكن اطلاقه على المنطقة كلها. لكنه كان في الأصل اسماً للقصر الملكي وملحقاته، او لمعبد بتاح اله المدينة. او لمعبد حتحور المعروفة في ممفيس بسيدة الجميز.

وكان الأمر كذلك في طيبة، المدينة التي سماها هوميرس مدينة المائة باب. ففي البدء سميت يات، على اسم الأقليم المصري الرابع في مصر العليا، وهو اقليم تابع لها. وفي عهد الأمبراطورية الجديدة، درجوا على تسميتها «اوبيت» اي «حريم» على ما يقول البعض، او

«كنيسة»، او «قصر»، على مايقول البعض الآخر.

إن مجموع الآثار التي تحمل اليوم اسم الكرنك، كانت بمثابة «اوبيت» الآله آمون، بالنسبة للفرعون امنحوتب الثاني، وكان ممر محاط من الجانبين بتماثيل ابي الهول، يربطها بمعبد الأقصر، او «اوبيت» الجنوبية. وكل «اوبيت» كانت محاطة بسور من القرميد النيء، فتحت فيه بوابات هائلة من الحجر، صنعت ابوابها من سنديان لبنان المقوى بالبرونز والمطعّم بالذهب.

وفي حالات الخطر كانت هذه البوابات تقفل. اما في ايام السلم فان النصوص المعروفة لا تذكر إقفالها مطلقاً. ويرجح انه كان يمكن ولوج هذه الأبواب بحرية، ليلاً أو نهاراً.

في الداخل كانت البيوت والمحال والمخازن، التي لم تعد قائمة اليوم، تحتل جزءاً كبيراً من المساحة بين المعبد والأسوار. وكانت البساتين والمروج راحة للعين.

وبين السورين، وعلى جانبي ممر تماثيل ابي الهول، وعلى ضفة النهر، كانت تتجاور المباني الرسمية والقصور. وكان كل ملك يرغب في واحد له. اما الملكات والأمراء والوزراء وكبار الموظفين فلا يكادون يقلون عنهم طموحاً.

ولما ظلت هذه المدينة تتسع طيلة حكم اسر ثلاث، فمن المقدر ان البيوت المتواضعة ومنازل الطبقة الأكثر فقراً كانت تتقاسم المكان وسط تلك القصور الفخمة، بدلاً من ان تشكل حياً على حدة، كما في حوتيب ــ سنوسريت.

عمالقة في الحقول

وفي مواجهة الكرنك والأقصر، على الضفة الغربية، كانت تقوم مدينة اخرى، هي تجامه، او هي بالأحرى مجموعة من الصروح الكبيرة المحاطة بالمنازل والمحال، والمسوّرة بأسوار القرميد النيء، التي يبلغ طولها اربعمائة متر وعرضها ثلاثمائة متر او اكثر.

إن سور امنحوتب الثالث لا يقل الجانب منه عن خمسمائة متر. وهذه الأسوار الكبيرة المصنوعة من الطين، يبلغ عرضها عند القاعدة خمسة عشر متراً. اما ارتفاعها فيبلغ او يتعدى العشرين متراً.

ومعظم هذه المدن عاملها البشر والزمن بقسوة مخيفة. وتقوم اسوار ممنون وسط حقول القمح. لكن هذه الأسوار لم تبن لمثل هذه العزلة الرائعة، بل كانت تزين واجهة هيكل عظيم تحيط به من كل جانب منازل من القرميد تؤوي عدداً كبيراً من السكان وكمية هائلة من البضائع. ولقد تحدى العمالقة القرون. اما الباقي فاستحال الى بقايا تعسة.

وصرح رعمسيس الثالث في مدينة ــ حبو، الى الشمال، وابعد من ذلك شمالاً، صرح سيتي الأول، تشكل وحدها، مع معبد الملكة حتشبسوت، اطلالاً ضخمة. وفي مدينة حبو على الأخص، يمكن تكوين فكرة عن الشكل الذي كانت تبديه هذه المدن المقفلة، ايام كانت بعد حديثة.

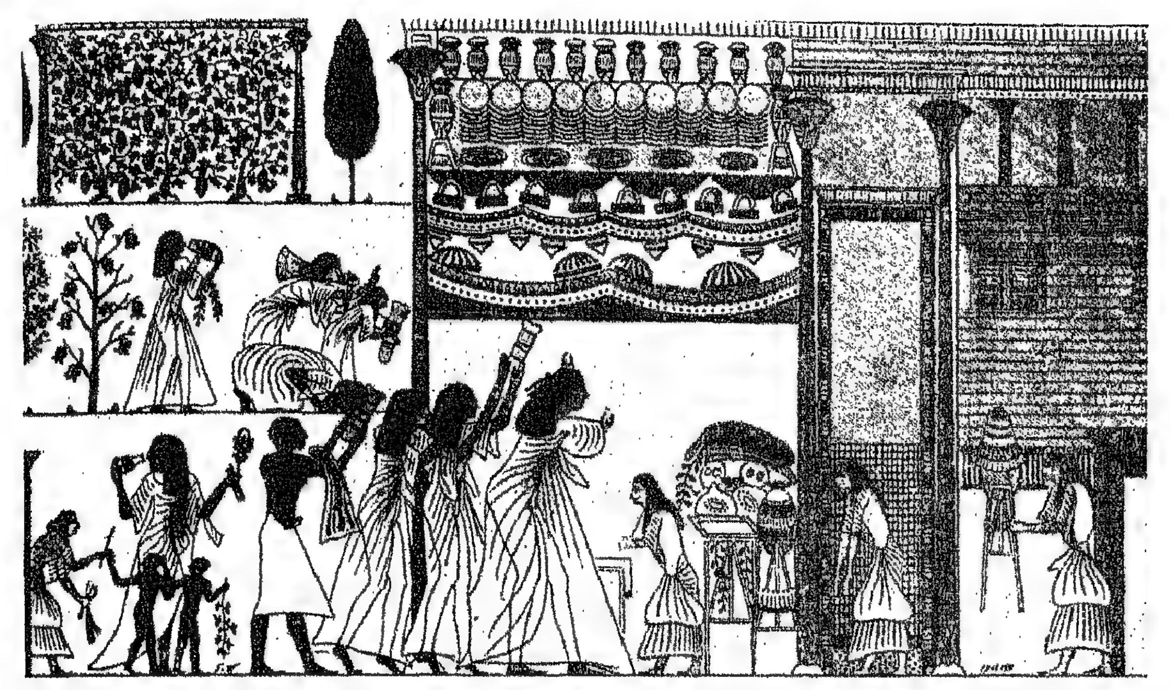
كان قارب يقل الزائر الى اسفل درج مزدوج، ثم يمر الطريق بين منصتي حراس، على جانب سور منخفض تعلوه متاريس الرماة، وتفصله طريق كالسوار، عن السور القرميدي الكبير.

وهذا السور الأخير كانت تخترقه بوابة محروسة، يحيط بها برجان عاليان متقابلان تفصلهما ستة امتار. وكانت الفتحة لا تكاد تتسع إلا لمرور عربة. وكانت النقوش عند اسفل السور تحدث عن قوة الفرعون.

اما في الغرف العليا فكانت النقوش الطف. وقد نقش النحات مشهداً يظهر رعمسيس وهو يداعب ذقن مصرية فاتنة. غير ان هذه الغرف لم تكن سوى ملجأ في ايام الاضطراب. فالقصر والحريم كانا يقعان بالقرب من الهيكل. وكان يقف قرب البوابة عادة الحرس وحدهم.

فإذا اجتزنا البوابة، صادفتنا ساحة فسيحة يحدها في البعيد سور ثالث يضم الهيكل والقصر والحريم وملاعب ومباني. وكانت منازل صغيرة متلاصقة على جانبي ممر اوسط، تحيط بهذا السور الثالث من ثلاثة جوانب.

وكان سكان المدينة الدائمون من الكهنة والعلمانيين. اما الملك فكان يقطن المدينة الصغيرة حين يأتي الى الضفة الغربية، ومعه زوجاته وخدمه الكثيرون.



منزل مصري من الداخل، يتضمن طوابق وقبوا. وهو ينقسم الى جزء للعموم، واخر خاص. اما المطبخ فكان على حدة في البستان (رسم شيبياز).

هكذا كان قصر رعمسيس، ملك اون، في بلاد امون. وهكذا كانت المدن الملكية العشرون او الثلاثون، على الضفة اليسرى. منظرها الخارجي صارم الى آخر مدى. اما الداخل فكان مزيجاً لطيفاً من روائع البناء والقصور المذهبة والأكواخ المتواضعة.

أسوُد من الغرانيت

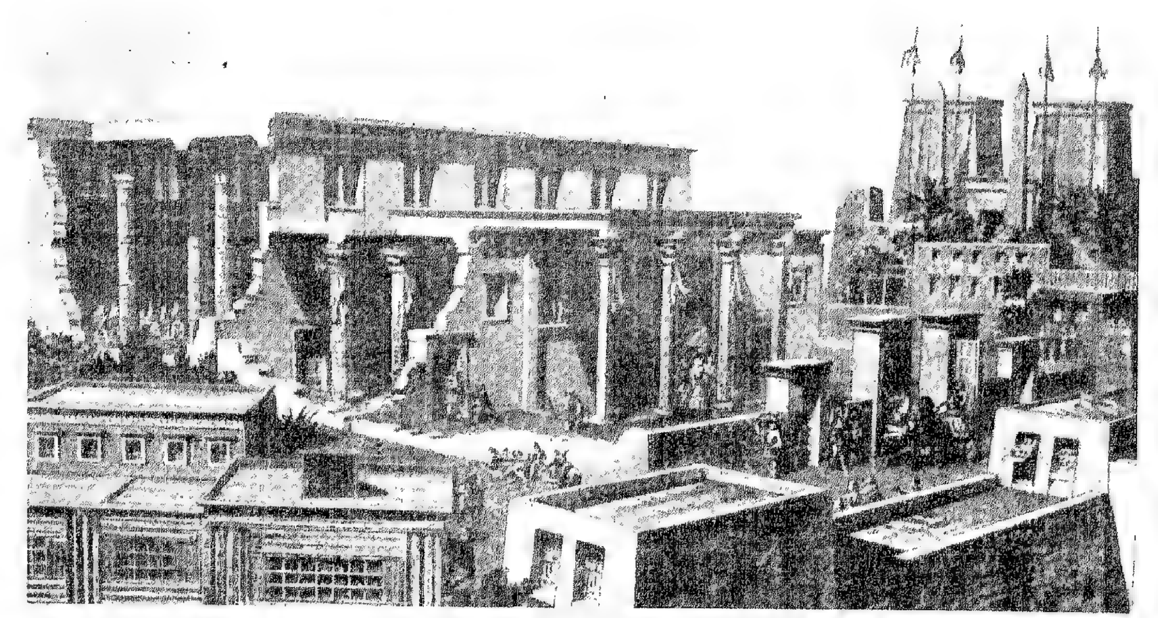
ومدن الدلتا لم تكن تقل عن مدن مصر العليا، لا في قدمها ولا في روعة صروحها. هذه المدن التي اكتسحها الهكسوس، واهملها ملوك الأسرة الثامنة عشرة، اعاد ترميمها وتوسيعها وتجميلها الفراعنة فيما بعد. وكان رعمسيس الثاني يحلو له العيش في شرق الدلتا، إذ كانت هذه المنطقة مهداً لأسرته.

فعلى ضفة فرع تانيس، في مرج ترتاده الرياح، كانت توجد مدينة لاهوتيين قديمة، هي مركز لعبادة الآله ست، ومقر ايضاً لمدرسة فنية فريدة منذ ازمنة غابرة. وكانت تسمى حت ــ اواريت. وقد جعلها الهكسوس عاصمة لهم. لكنها عاشت على الهامش، منذ ان طردهم منها احمس، واقام فيها رعمسيس حالما انتهى من فروضه تجاه والده، وبدأ فيها على الفور الأعمال الكبيرة التي اعادت الحياة والازدهار الى المنطقة وجعلت من المدينة القديمة مقراً ملكياً لا مثيل له.

وكما في طيبة، كان الهيكل ومبان اخرى، داخل سور قرميدي كبير. وكانت تخترق هذا السور اربعة ابواب تنطلق منها طرق وقنوات صوب الجهات الرئيسية الأربع. واحضرت من اسوان، دون اعتبار للمسافة او للصعوبات، كتل ذات احجام لم يسبق استخدامها، لبناء قدس الأقداس ومضاعفة عدد المسلات المنحوتة نحتاً يبلغ درجة الكمال.

وكانت الأسود ذات الوجوه البشرية والقسمات الرهيبة، وقد صنعت من الصوان الأسود، تتواجه على طول الممرات المرصوفة بالبزلت. وعلى البوابات كانت الأسود المستلقية تؤمن الحراسة. وكانت تصطف امام الأعمدة تماثيل عملاقة واقفة او جالسة، كثير منها يناهز تماثيل طيبة، ويفوق تماثيل ممفيس.

وكان القصر يزخر بالذهب وفي كل مكان تلمع الزهور، وتخترق الطرقات المظللة ذلك الريف البديع. وكانت البضائع الآتية من سورية



□ مجموعة منازل مصرية ايام الفراعنة، كما يمكن تخيلها وفقا للآثار المتبقية والوصف المتوافر بين ايدي المؤرخين.

والجزر تتراكم في المخازن. اما وحدات المشاة وفرق الرماة والعربات وطواقم البحرية، فكانت تعسكر قرب القصر.

مصريون كثيرون جاؤوا للسكنى بالقرب من الشمس. والكاتب باباسا يقول: «ما اجمل ان تقيم هنا. لن تتمنى شيئاً فالصغير هنا مثل الكبير... الجميع متساوون» وكان يختلط بالمصريين، كما في كل المدن الكبرى، الليبيون والزنوج.

وسرعان ما اصبحت المدينة الملكية ضمن مدينة اكثر اتساعاً، حيث تتجاور المنازل والمحال. وسرعان ماكانت هذه الأحياء تقيم هيكلها المحاط بسور كبير من القرميد.

لم يترك رعمسيس الثاني لخلفائه إنجازاً في البناء لم ينجزه. وقد وجّه اهتماماً خاصاً الى العناية بالجنائن والبساتين وتوسيعها. وفي قصر جده الشهير اقام جنائن شاسعة مزودة بممرات للنزهة، زرعها بالكرمة والزيتون، واحاط دربها المقدسة بالزهور.

الدواب، والنباتات، وحتى البشر، كانت بحاجة الى كثير من الماء، ومن غير الحكمة ان يظل مصدر الماء خارج الأسوار، حتى لو كان القنال يمر، كما في مدينة ــ حبو، بالقرب من البوابة الكبيرة. وفي معظم المدن المحاطة بسور، كان ثمة حوض حجري. وكان الحوض مزوداً بدرج داخلي يسمح بالوصول الى الماء في كل الفصول. ولوحظ وجود آبار منذ عهد الأمبراطورية الجديدة على الأقل. وقد اكتشفت آبار في الممتلكات الخاصة وفي الأحياء العامة. وكان ثمة اربع آبار داخل سور بي ــ رعمسيس.

القصور الملكية

كان المصريون في حينه معجبين جداً بقصر بي ــ رعمسيس الملكي. ولكن وصفهم له ظل غامضاً للأسف. وحتى موقعه ليس معروفاً بالتحديد. ولم تأت الحفريات في هذا الشأن بأية معلومات إيجابية.

وفي الدلتا قصور ملكية اخرى. فقد وجدت بقايا قصر في قنيطر، وهي قرية يظللها النخيل، وتقع على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً الى الجنوب من بي ــ رعمسيس.

اما رعمسيس الثالث فكان له داخل مدينته، الواقعة الى الغرب من طيبة، قصر كان يسميه

بيت السرور. وقد حفظت بقاياه ودرسها علماء الآثار في المؤسسة الشرقية في شيكاغو. وتطل واجهة هذا القصر على ساحة المعبد الأولى. ولحسن الحظ ان اسفل هذه الواجهة اختير لنقش ما ينبىء بقوة الملك. والنقوش تظهر ان رعمسيس يقضي على اعدائه بضربة هراوة، كما يبدو وهو يزور اسطبلاته، وخلفه حاشية عظيمة ويظهره نقش آخر وهو يركب عربة وقد حمل كل اسلحته الحربية، استعداداً لتسلم قيادة جيشه. واخيراً يمكن رؤيته في نقش رابع وهو يتفرّج مع كل بلاطه، على افضل جنوده وهم يتصارعون ويتمرنون.

وتتوسط هذه الواجهة الشرفة التي كان الملك يطل منها على الناس. وهي شرفة مزخرفة ببذخ تتقدمها اربعة اعمدة وتعلوها حافة مثلثة الشرائح. والدائرة المجنحة تهيمن على الشريحة العليا.

وفي هذه الشرفة كان يظهر الملك عند السماح للشعب بالتجمع في الساحة من اجل عيد امون، ومن هنا كان يوزع الجوائز. والشرفة تتصل بالأجنحة الملكية. وهذه الأجنحة تتألف في وسطها من غرف ذات اعمدة. ومنها غرفة التاج، وغرفة الملك وحمامه. وكان مدخل يفصل هذا الجناح عن اجنحة الملكة، ذات الغرف والحمامات المتعددة. وتبدو الزخرفة الداخلية لغرفة التاج بأنها كانت متقشفة. ويظهر الملك في كل مكان في شكل ابي الهول، كما تظهر اسماؤه الهيروغليفية. ويظهر اعداء مصر مقيدين امامه، وهم يرتدون ثيابهم الفاخرة المطرزة بالزخارف البربرية. ولقد روعي جداً إظهار سحناتهم وتسريحاتهم وحليهم بدقة.

والمساحة التي يشغلها المسكن الملكي ليست كبيرة في الواقع، انها عبارة عن مربع ضلعه اقل من اربعين متراً. ولا ريب في ان الملك لم يكن يمضي فيه اوقاتاً طويلة، لأنه كان يستطيع ان يختار سكناه على الجانب الآخر من النهر. وفي الدلتا كانت كثرة القصور مدعاة لحيرته: في ممفيس واون وبي رعمسيس المستعدة دوماً لاستقباله.

لقد اساء الزمن معاملة قصور سيتي ورعمسيس الى درجة اننا إذا اردنا تكوين فكرة تفصيلية عن قصر الفرعون في عهد الأمبراطورية الجديدة، فلن يسعنا إلا العودة بالفكر الى قصر اخناتون الذي يعود الى عهد اسبق بقليل.

ويمثل بلاط الغرف ذات الأعمدة، مستنقعاً مليئاً بالسمك، تغطي وجهه اوراق النيلوفر، التي تحلّق فوقها طيور مائية، وتحدها نبتات القصب والبردي. وعلى طول الأعمدة تلتف الكرمة والنباتات المتسلقة. اما على الجدران فكانت تنحت مشاهد من الحياة العائلية.

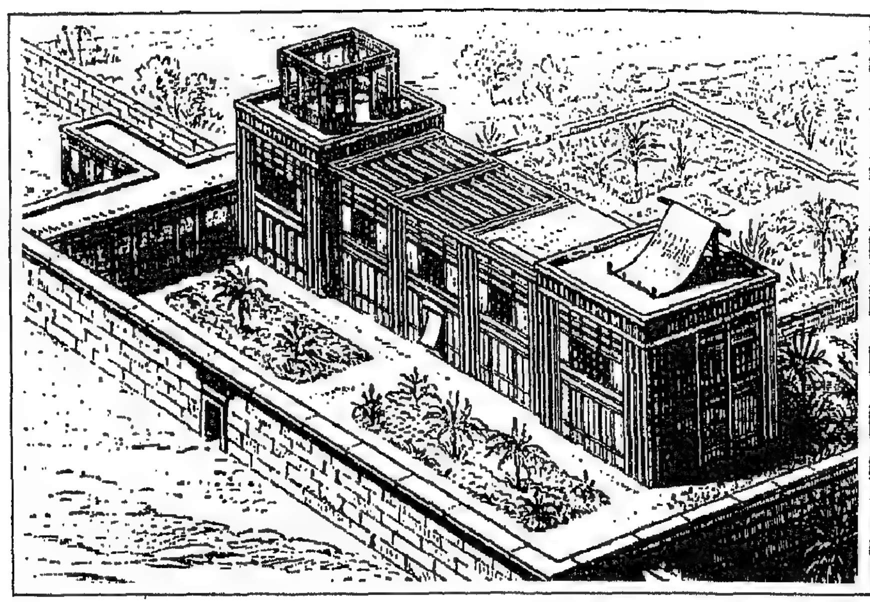
ويشاهد هنا الملك والملكة جالسين احدهما مقابل الآخر: اخناتون على مقعد ونفرتيتي على وسادة، وعلى ركبتيها طفل. وتحيط كبرى الأميرات عنق شقيقتها بيديها. فيما تلعب اميرتان اخريان على الأرض. ويقال، بشيء من المبالغة، إنه لم ينحت مشهد اجمل من هذا، في الفن المصري. وفي الواقع تعتبر المستنقعات والبردي والطيور والحيوانات التي تزحف او تعدو، جزءاً معتاداً من منحوتات القصور المصرية.

المنازل

كانت الشخصيات الكبيرة تبذل جهداً في محاولة التشبه بالفخامة الملكية. وكانت منازلهم في المدينة او الريف، تحتل احياناً، هكتاراً او اكثر من الأرض، وتحاط اسوة بالمعابد او القصور الملكية بسور سميك ومرتفع يجتازونه من خلال بوابة حجرية للذهاب الى بيت السيد. فيما كانت الأبواب الثانوية فتحات بسيطة في السور يستخدمها العامة والعاملون في البساتين.

بيت «ابوي» كان شبيهاً بمعبد صغير، تتقدّم واجهته بوابة لها اعمدة تشبه نبات البردي، وكانت العتبة تحمل عارضة منحوت عليها شجر النخيل وكانت تحيط بالباب احجار منحوتة.

والبيت الذي استقبل فيه الملك «اي» زوجة «نفرحوتب»، وكافأها فيه، له على سطحه اعمدة. وهذه الأعمدة تحمل سطحاً خفيفاً يبرز من جميع الجهات، وترتكز اطرافه على اعمدة عالية ونحيلة تشكل زناراً حول البيت. ويمكننا ان نكوّن فكرة عن هذين المنزلين بفضل الرسمات التي امر «ابوي»، و«نفرحوتب» برسمها على قبريهما. اما عن الترتيب الداخلي للمنزل، فلا بد



الخشب كان يستخدم باقتصاد في مصر الفرعونية، لندرة الغابات فيها. كان الأعيان يملكون بيوتاً نقّالة من الخشب، يمكن نقلها الى الصحراء ايام فيضان النيل، واعادتها الى مكانها الأول في الربيع (رسم شيبيان).

من زيارة حفريات العمارنة لمعرفته.

من بوابة الدخول ينتقل المرء الى بهو، قبل غرف الاستقبال التي تحمل اعمدتها السقف. هذه الغرفة العامة تلتحق بها حجرات ثياب وجدت فيها خزنات من القرميد استخدمت على ما يبدو في حفظ الملابس، وخزانات رتبت فيها المؤن والمرطبات.

اجنحة سادة القصر والحمام وبيوت الخلاء تحتل بقية المبنى. وتكسو الحجارة جدران غرفة الحمام. وفي احدى الزوايا، وجدت بلاطة من الحجر، كان يقف خلفها الخادم، ليدلق الماء على المستحم. بيت الخلاء، خلف الحمام، كان يبيّض بالكلس. وهو مجهز بكرسي مثقوب من الكلس، يوضع على صندوق قرميدي مليء بالرمل.

والبيت، المريح نوعاً ما، محاط بملاعب عديدة. واحد من هذه الملاعب تقوم فيه الأهراء، وهي على شكل جرة. اما الاسطبلات واوجار الكلاب فهي في الجهة الشمالية. والى الشرق عادة ما يكون المطبخ والمخبز وبيوت الخدم القرميدية. كان على هؤلاء اذن ان يجتازوا مسافة كبيرة ليحضروا الطعام لأسيادهم وهذه البيوت الصغيرة تقسم في الغالب الى اربعة اقسام: مدخل، وغرفة مركزية يرتفع سقفها فوق عمود، ثم مطبخ وغرفة. وكانت الأسرة تتجمع في هذا المكان الضيق الذي تتقاسمه احياناً مع الحيوانات. وكان سلم يقود الى السطح.

وكانت المماشي تقسم الجنائن الى مربعات ومستطيلات مزروعة بالأشجار والكرمة، ومحاطة بالزهور. وكان المصريون يهتمون بها اهتماماً شديداً.

لم يكن ممكناً ان نجد بستاناً بلا حوض ماء. وهذا الحوض كان مربع الشكل او مستطيله. وكانت تكسو وجه الماء فيه اوراق النيلوفر، ويسبح البط ويصل المرء الى الحوض بواسطة سلم. وفي الحوض يرابط قارب على الدوام لتلبية رغبات ساكني القصر.

أسطح مستوية

البيوت التي يسكنها المتوسطون من الناس لها طوابق متعدّدة، واهراء على السطح احياناً. ولا شيء يزين الواجهة. والباب الذي يحيط به عمودان وعتبة يكون قرب زاوية. ولا ضوء إلا من خلال هذا الباب.

الشبابيك، اثنان او اربعة او ثمانية حتى في كل طابق، صغيرة ومربعة ويغطيها ستار لحماية السكان من الحرارة والغبار.

غرف الطابق الأرضي تخصص عادة للحرفيين. هذا هو الحال في طيبة في منزل المدعو تحوتي ـ نيفير. النساء يغزلن، والرجال يحيكون. وفي الغرفة المجاورة تطحن الحبوب ويحضرّ الخبز.

السادة يقطنون الطابق الأول في غرفة فسيحة نوعاً، يضيئها شباكان مرتفعان، ويقوم سقفها على عمود في شكل زهرة اللوتس. ويبدو ان الباب كان يغطى برقائق من الصدف، إلا إذا كان الباب منحوتاً. ولا شيء على الجدران. إلا ان المصريين كان من عاداتهم الرسم على كل المساحات المتوافرة.

في تانيس، وفي منزل يعود الى فترة حديثة نسبياً، طليت جدرانه الداخلية بالجبس، جمعت رقائق رسمت عليها راقصات ومراكب.

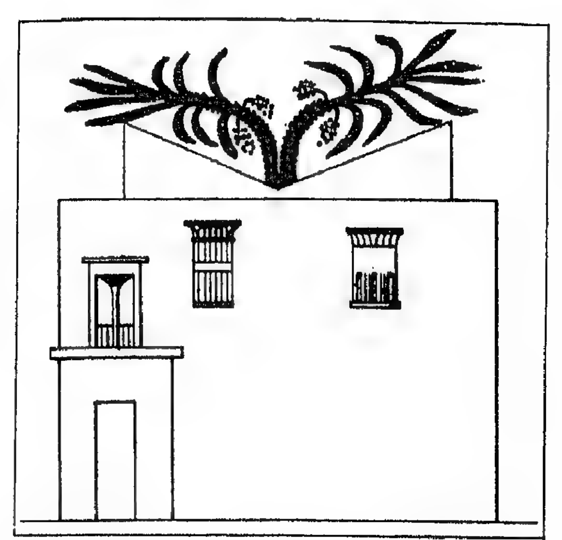
والسقف في الطابق الثاني منخفض الى حد ان ساكنيه لم يكونوا بحاجة للوقوف على رؤوس الأصابع من اجل لمسه وفي غرفة في هذا الطابق يكون حمام سيد البيت. وهو يجلس على مقعد، فيحضر له الخدم إبريقاً ووعاء ومروحة ومنشة ذباب.

وفي هذا الطابق، كان الكتبة يقرفصون لقراءة الرسائل وتسجيل الأوامر.

والقاعدة العامة هي ان تكون السطوح مستوية، وكان الصعود إليها على سلم او درج البعض، مثل تحوتي ــ حوتيب كانوا يضعون عليها مخازن الحبوب. اما الآخرون فكانوا يثبتون على حافتها سياجاً لحماية الأطفال، او لإتقاء نظرات الفضوليين، عندما يمرون ليلاً في الجوار تحت ضوء القمر.

ومع ذلك فان المنازل ذات الأسطح المائلة ليست عديمة الوجود في مصر. ففي مقبرة أبودواش، بالقرب من القاهرة، وهي مقبرة معاصرة للملك دن، الذي عاش قبل سلالة «الرعامسة» (الجمع من رعمسيس) بألفي سنة تقريباً، وجدت لعبتان من العاج تمثلان بيتين ذوي سقف مائل، احدهما مثلث الشكل، والآخر منحرف الشكل.

هذا الشكل المتطوّر يثير الدهشة نظراً لمثل هذه الفترة الموغلة في القدم. ولم يكن من الممكن تخيله إلا في بلاد مطرة، يكثر فيها الخشب، وفي مصر لايكثر المطر إلا قليلاً على الشواطىء الشمالية، حيث المنازل اليوم تعلوها سطوح مستوية. ومن الممكن إذن ان هذه المنازل ذات الأسطح المائلة، ليست إلا شكلاً غريباً عن مصر.



رسم واجهة منزل من منازل مصريي الطبقة المتوسطة ايام الفراعنة. وتبدو شجرتا نخيل مثمرتان، وقد خرجتا من وسط السقف.

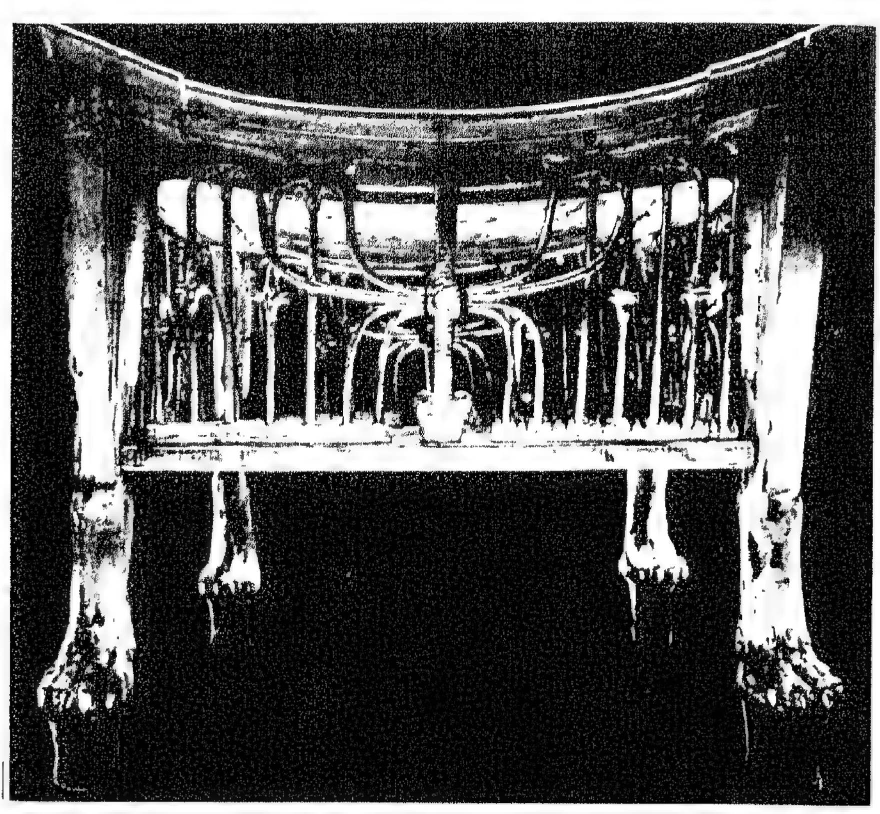
وحتى في طيبة، لم تكن المنازل متراصة جداً الواحد بقرب الثاني، لأن الأرض لم تكن غالية الثمن. ولهذا كان يمكن زراعة بعض الأشجار اما في باحة داخلية، او امام الواجهة.

عند نيبامون، تبدو نخلتان خارجتان من السقف، ولم يحل ذلك دون إثمارهما. وعند نختي، تظلل نخلة وجميزة باب المنزل.

كان المصريون، حتى من الطبقة المتواضعة، يبذلون جهداً لجعل منازلهم لطيفة ومريحة. وكانوا يجتهدون في حمايتها من اعداء الراحة المنزلية التي تكثر هناك، مثل الحشرات والجرذان والسحالي والثعابين والعصافير الضارة.

ولقد حفظت لنا ورقة ايبيرس البردية بعض الوصفات المفيدة. هل يراد إجلاء الحشرات عن المنزل؟ اذن فلينظف بمحلول النطرون، او يدهن بمستحضر يسمى «بيبيت» ويطحن مع الفحم. واذا وضع بعض النطرون، او سمك مجفف من فصيلة «تيلابيا نيلوتيكا»، او حتى بذور بصل، على مدخل وكر الثعبان، فانه لن يخرج ابداً. وشحمة الصفارية ممتازة للذباب، وفرخ السمك للخنافس.

وإذا دهنت الأكياس بدهن الهرر، فان الجرذان لن تقترب منها. ويحال دون القوارض



مقعد فخم قوائمه منحوتة على شكل قوائم الأسد.

والتهام الحبوب، بحرق روث الغزال او بدهن الجدران والأرض بمحلول معين.

الأوعية الذهبية والفضية

في غرف الاستقبال داخل القصر، وعند الأغنياء، كان الأثاث يتكون من مقاعد مختلفة منها البسيطة جداً التي تشبه صندوقة مكعبة مزودة بظهر لايزيد ارتفاعه عن ارتفاع اليد. جوانب المقعد تزين بالصدف.

وكانت قيمة المادة الأولية وجودة العمل، تعوضان البساطة لكن المقاعد الأنيقة والمريحة فعلاً هي تلك التي كانت تقوم على اربعة قوائم تشبه قوائم الأسد، وهي مزوّدة بظهر مرتفع ومسندين للأيدي.

اما الملك والملكة فلم يكن ذلك يكفيهما طبعاً. فالظهر بوجهيه كانت تنحت عليه المشاهد المعهودة في المنحوتات الكبيرة. فتنحت في الخشب وتغلّف بالجلد او المعادن الثمينة، كالذهب او الفضة او النحاس، وتطعم بالحجارة الكريمة.

وكان ثمة نوعان من المناضد. الأبسط كانت قوائمها عمودية، اما الأكثر فخامة فكانت تنتهي قوائمها برؤوس بط. وهي قوائم متقاطعة مثل علامة الضرب (×). وكانت تفرش الحصر على الأرض وتنتشر وسائد في كل مكان.

غرفة الطعام، حين تفصل عن غرفة الاستقبال، كانت تحتوي على مقاعد ومناضد للمدعوين، وعلى طاولات ورفوف لوضع سلال للفاكهة وصحون اللحم والخضار، والجرار والأوعية.

وقطع الأثاث كثيرة لكنها صغيرة. فالمصريون لم تخطر لهم مرة ان يصنعوا طاولات كبيرة يتجمّع عليها مدعوّون كثيرون. كانوا يأكلون فرادى او اثنين اثنين.

في الحقبات القديمة جداً، كانوا يستخدمون مجموعتين من اوعية الطعام: الفخارية للأيام العادية، والحجرية للاحتفالات. والحجارة المستخدمة لهذا الغرض كانت غالباً النضيد الأسود او الأزرق، والمرمر، وفي حالات اندر الرخام الأحمر، والصوان للأوعية الكبيرة، والبلور الصخري للأقداح الصغيرة.

كانوا يصنعون من هذه المواد المختلفة اوعية

إسطوانية او بيضية واقداحاً وطاسات وكؤوساً وصحوناً وبرنيات بعنق واباريق واوعية للحساء واخرى بقوائم. وكان فنانون ذوو خيال موهوب ينحتون على جانب الوعاء المقبض الذي يحمل الوعاء بواسطته، او يشكلون الآنية على شكل قارب او حيوان.

ولم يتوقف المصريون عن صنع اوعية حجرية، وقد وجدت في مقابر الأمبراطورية الجديدة مجموعات مهمة، لكنهم فضلوا استخدام آنية الذهب او الفضة. وكانت تصنع اباريق للطقوس الدينية، وكمية كبيرة من الآنية للاستخدامات الدنيوية. وكانت تعد النقع الساخنة في اوعية تشبه اباريق الشاي اليوم، مزودة بمصفاة مثبّتة في الداخل عند العنق.

والوعاء الشهير المصنوع من جلد صغار الماعز، وهو وعاء وجد ضمن كنز «بوباسته» كان مخصصاً للحليب. اما الركوة عند المصريين فكانت اشكالها متنوعة: الأقداح ذات القعر المستدير والمزودة بعنق، او نصف الكروية المزودة بقبضة وعنق او ما هنالك. وما كان لرعمسيس ان يرضى الذهاب الى الريف لو لم يحضر ضابطه المناوب وعاء من ذهب سعته ثلاثة ليترات، ومعه غرافة.

فن فخاري رفيع

والذين كانوا عاجزين عن اقتناء آنية فاخرة كانوا يرتضون الآنية الفخارية. ومنذ بعض الوقت كان صنّاع الفخار قد اتقنوا صناعة بعض القطع الفخارية الجميلة، التي كانوا يرسمون عليها رسومات هندسية او زهوراً او مشاهد حية كالتي تشاهد على الآنية المعدنية: عصفور يبتلع سمكة، او حيوانات تنطلق في سباق.

ومنذ مطلع عهد الامبراطورية الجديدة، كانت تأتي الى مصر، من الخارج من الجزر وسورية والنوبة، قطع فنية للزينة البحتة، مصنوعة من المعدن والحجارة الكريمة، امفورات ومناضد وغير ذلك من الأشياء التي لا فائدة عملية لها، إلا كونها مبرراً لجمع نقوش لكل النباتات والحيوانات الحقيقية او الخيالية. وكانت تذهب الى المعابد معظم هذه القطع الثمينة. لكن الفرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة. وكان تذوق هذه القطع النادرة منتشراً بين الشعب، حتى اخذ الصاغة المصريون يصنعون مثلها.

في غرف النوم، السرير هو القطعة الأساسية. ومن الأسرة ما هو بسيط للغاية: إطار من الخشب على اربعة قوائم، يحمل شبكة مجدولة. والقوائم غالباً ما تكون منحوتة على شكل قوائم ثور او اسد.

لقد بقيت في مقبرة توت عنخ آمون ثلاثة اسرة فاخرة، جانب كل منها عبارة عن حيوان كامل: بقرة او فهد او فرس نهر. والغرفة كانت لا تزال تضم خزانات من الخشب المنحوت، حيث كانت توضب الملابس.

اما ادوات الزينة والمرايا والأمشاط والدبابيس والشعر المستعار، فكانت توضع في صناديق وخزانات من جميع الأحجام. اما مساحيق الزينة والزيوت والعطور ففي اوعية من السبج او العاج.

وكانت المكاتب تؤثث بخزانات خاصة تحفظ فيها المخطوطات وربطات الورق والبردي وادوات الكتابة. وعندما كانت ورقة البردي تمتلىء كتابة، كانت تلف وتربط وتختم. وكانت الربطات توضع في رزم، والرزم تخبأ في رقاع من الجلد، وتوضع هذه في الخزائن.

الكتبة لم يكونوا بحاجة الى طاولات. كان يكفيهم ان يبسطوا البردي على الركبتين. وعند الحاجة كانوا يكتبون واقفين، وهم يمسكون ورقة البردي غير مطوية، باليد اليسرى.

ادوات المطبخ كانت تحتوي على طاولات بأربعة قوائم، واوعية فخارية سميكة من كل الأشكال والأحجام. الأفران كانت مصنوعة من الطين. اما المواقد المعدنية ذات القائم الطويل، فلم تكن تستخدم، على ما اعتقد، إلا في المعابد. ولم تكن تروي غليل الطباخ الأمين.

وفي المنازل الأكثر فقراً، حيث كانت العائلة كلها تتكوّم في مساحة عشرين متراً مربعاً، وفي اقل من ذلك، كان الأثاث يقتصر على حصر وبعض الفخاريات. وهنا كانت الرفوف وبعض الخزنات الخشبية تنم عن شيء من البحبوحة.

علم المأمون وسعة معارفه *

قال جعفر بن محمد الأنماطي:

لما دخل المأمون[1] بغداد، وقر بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد.

وأختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى يحصل منهم عشرة، كان منهم أحمد بن أبي داود، وبشر المريسي، وكنت أحدهم.

فتغدينا يوماً عنده، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلما وضع لون نظر المأمون إليه، فقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا! فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتجنب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا.

فوالله إن زالت تلك حالة في كل لون يقدم، حتى رُفعت الموائد.

فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين؛ إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته! أو في النجوم كنت هرمس في حسابه! أو الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه! أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته! أو الكرم، كنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه!

فسرَّ بذلك الكلام، وقال: يا أبا محمد؛ إن الإنسان إنما فُضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم! ●

(*) عصر المأمون: ١ ــ ٣٦٠.

(١) . هو عبدالله المأمون بن هارون الرشيد، من أعاظم خلفاء بني العباس وعلمائهم وحكمائهم، كان وافر الخلق، عظيم الحلم، محباً للعلم، مؤثراً للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ.

ضرب من التمثيل *

قال أبو عبدالله: جلست جميلة يوماً ولبست برنساً[1] طويلاً، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك، وكان في القوم ابن سريج، وكان قبيح الصلع، وقد اتخذ وفرة[2] شعر يضعها على رأسه، وأحبت جميلة أن ترى صلعته[3]، فلما بلغ البرنس إلى ابن سريج قال: دبرت على ورب الكعبة! وكشف صلعته ووضع القلنسية على رأسه، وضحك القوم من قبح صلعته.

ثم قامت جميلة ورقصت، وضربت بالعود، وعلى رأسها البرنس الطويل، وعلى عاتقها بردة يمانية، وعلى القوم أمثالها، وقام ابن سريج يرقص ومعبد الغريض وابن عائشة ومالك، وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها، فغنت وغنى القوم على غنائها:

ذهب الشباب وليته لم يذهب
وعلا الفارق وقع شيب مغرب. ●

(*) الأغاني: ٨ ــ ٢٢٦.

(١) البرنس: قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أوجبة أو ممطراً.

(٢) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.

(٣) الصلعة: بفتح اللام وسكونها: موضع الصلع.

الأردين
فرصة هتلر الأخيرة

ترجمة د. سامي زكي

كان وضع الرايخ الثالث العسكري، في خريف ١٩٤٤ صعباً جداً. ففي الجبهة الشرقية تراجعت جيوشه حتى حدود ألمانيا، في الوقت الذي حشد فيه الروس، اضخم قواتهم استعداداً لاقتحام ألمانيا، بعد أن هيمنت على بلاد ابلطيق، واخترقت بولونيا. وتقدمت فرقتها المصفحة حتى سيطرت على المنابع البترولية في رومانيا، وحطمت الجيش الالماني السادس في بسرابيا.

في أواسط شهر تشرين الاول كان مالينوفسكي على بعد مائة كيلومتر من بودابست.

وعلى الجبهة الشمالية كانت الجيوش الروسية تحاول بلوغ ألمانيا قبل حلول الشتاء، ولم تصل إلا على حدود بروسيا الشرقية.

على الجبهة الغربية، كانت الجيوش الاميركية البريطانية تتقدم باتجاه ألمانيا في الخامس عشر من أيلول ضعفت هذه الجيوش، التي وضعت تحت إمرة أيزنهاور، من تقدمها، على جبهة عريضة تمتد من إيسكو إلى مونتبيليه، مروراً بماستريش واللوكسامبورغ ونانسي.

أما ساحة المعارك الفرنسية، فقد ابتلعت معظم الجيش الالماني، وخاصة معارك النورماندي. وتخطت مدرعات «باتون» في الأول من أيلول، الموزل قرب متز، وأصبحت على بعد خمسة كيلومترات من السار. وبعد احتلال البريطانيين مدينة أنفر، الرور التي أصبحت على بعد مائتي كيلومتر. واحتلال الرور يعني أن ألمانيا لن تستطيع الاستمرار في الحرب، لانها تفقد المصانع، ومناجم الفحم الحجري، وكل المصنوعات الضرورية لآلة الحرب.

فكر هتلر بهجوم معاكس، على الجبهة الغربية، يحرر الريناني من تهديد الحلفاء، ويلقي بهم إلى البحر، لذلك كلف هتلر، حوالي منتصف أيلول، الجنرال جودل والمارشال كاتيل، أقرب مساعديه العسكريين إليه، أن يضعا خطة الهجوم المعاكس

استرشد جودل وكاتيل هتلر، فاختارا الأردين منطقة للهجوم.

كان المارشال فون رونستد قائداً أعلى للجبهة الغربية، وكان قد بلغ الثامنة والستين من عمره. ورغم أن فون رونستد اشتهر باختراقه الأردين عام ١٩٤٠، فقد نحّي تدريجياً عن مناصبه، إذ كان رأي هتلر فيه أنه غير «هجومي» وأنه ضد النازية سياسياً. ولكنه عاد فولاه قيادة الجبهة الغربية عام ١٩٤٢. عام ١٩٤٤ نقم عليه هتلر لانه اعترض على الخطة الحربية في فرنسا، ولكنه رضي عنه، بعد محاولة اغتيال هتلر، ٢٠ تموز ١٩٤٤، إذ ساهم في عضوية المحكمة التي حاكمت الضباط المتآمرين، أو من شك في أنهم يحتمل تآمرهم.

كان وجود رونستد على رأس القيادة عامل طمأنة بالقياس إلى الجنود والضباط، لما عرف عنه من قدرة على التخطيط والتنفيذ والحزم. ولكنه لم يكن ذا أثر في وضع خطة الهجوم المعاكس. وضعت الخطط جميعاً في غيابه، ولم يطلع عليها إلا قبل التنفيذ مباشرة، لذلك يعتقد الخبراء العسكريون أن سبب فشل الخطة غياب رونستد عند وضعها.

في هذا الوقت كان أيزنهاور، كما قلنا، قد عين قائداً أعلى لجيوش الحلفاء على الجبهة الغربية من ألمانيا. وكان عدد كبير من الجنرالات والمارشالات يساعده، بينهم المارشال



6e ÉDITION

France-soir

La Rhénanie et la RUHR formeront-elles un État indépendant?

L'offensive allemande des ARDENNES semble contenue

LE PACTE devant l'opinion mondiale

TROIS PACTES

مونتغمري، والجنرال مارشال، والجنرال عمر برادلي.

وكان يساعده كذلك جهاز مكون من خمسة آلاف، بينهم مائتا ضابط مرتبطون مباشرة بأركان قيادته وعددها أربعة وعشرون ضابطاً من خيرة الضباط. وكان يغطي نشاطه الحربي تسعمائة وأربعة وسبعون مراسلاً حربياً.

قوات الحلفاء على الجبهة الغربية:

كانت قوات الحلفاء على الجبهة الغربية تتكون مما يلي: في هولندا أو بلجيكا قوات مونتغمري، تدعمه الفرقة الثانية عشرة بقيادة برادلي، المستقرة في المنطقة المتدة ما بين بلجيكا واللوكسامبورغ. أما الجيش الأول بقيادة هودجز فقد احتلت فالوني واخترقت الأردين، فيما كان باتون في اللورين ينتظر بفارغ صبر. أما في الجنوب فكانت قوات ديفرز الأميركية، وقوات دولاتر الفرنسية، وقوات لوكلرك التي احتلت الألزاس.

سقطت آنفر في الرابع من أيلول، وبروكسل في الخامس عشر منه. وكتب أيزنهاور إلى مونتغمري: «كن مستعداً لاحتلال الرور والسار ومنطقة فرانكفورت».

على أن هذه القوات المتدة على مساحات شاسعة، كانت تعاني من عدة مشاكل. أولها أن الجيوش الألمانية كانت تشغلها دون هوادة، وتدمر خطوط التموين. وثانيها أن توزيع المحروقات لم يكن منتظماً ولا «عادلاً» بين قطاعات الجيوش، مما جعل بعضها تستولي على حصص بعضها الآخر. أضف إلى ذلك الاسراف الكبير في المحروقات، فكل فرقة كانت تحرق في اليوم خمسمائة طن، بينما لا يستخدم الألمان أكثر من مائتي طن. زد على ذلك اكتشاف سرقات ضخمة في المحروقات، إذ فقد أربعة عشر مليون برميل من أصل سبعة عشر.

غير أن تفوق الحلفاء، في السلاح، على ألمانيا كان كبيراً. ففي بعض الجبهات كانت نسبة المصفحات ١ إلى ٢٠. وكان الحلفاء يملكون ٨٨٠٠ طائرة، بينما لم يبق للألمان إلا الفا.

الاعداد للهجوم المضاد:

كانت حاجة الخطة إلى الرجال كبيرة، ولم تكن ألمانيا قادرة على تجنيد أكثر من بضع مئات من الآلاف، معظمهم من المتقاعدين والأحداث والموظفين، الذين طلب إليهم ترك مناصبهم الادارية للالتحاق بالجيش. حتى طواقم المدفعية أنقص عددها من سبعة عشر ألفاً إلى اثني عشر ألفاً وخمسمائة.

أواسط تموز، أمر هتلر بتجنيد ثماني عشرة فرقة، أرسلت خمس عشرة منها إلى الجبهة الشرقية. الثاني من أيلول أمر هتلر بتجنيد خمس وعشرين فرقة لترسل إلى الجبهة الغربية.

في هذا الوقت كان فون رونستد يملك تسعاً وأربعين فرقة مدفعية، وأربع عشرة لسلاح البازوكا، وأربع كتائب مدرعة، لا وزن لها بالقياس إلى ضخامة ما يملك الحلفاء.

أبلغ هتلر وزير التسلح ألبرت سبير أن يحتجز كل النتاج الحربي للجبهة الغربية. في خريف ١٩٤٤ أمر بعدم انتاج طائرات المطاردة، وتوجيه كل الجهود لانتاج المدافع المضادة.

صنعت مليون بازوكا في تشرين الثاني ١٩٤٤. وأطلق أول صاروخ ف ٢ في الثامن من أيلول. ودمرت الصواريخ آنفر وروتردام ولندن.

وسرت هذه الآونة إشاعات عن حرب غازات سامة ستبدأها ألمانيا، وسرت شائعات أخرى عن قرب استخدام ألمانيا الحرب الذرية. وأعلن غوبلز أنه سيدمر نيويورك بالصواريخ والذرة.

أخذ هتلر يشرف على وضع الخطط. كان على الجيش السادس بقيادة الجنرال سب ديتريش اختراق الجبهة الغربية، واجتياز الموز للوصول إلى آنفر، يغطي جناحه من الجنوب الجيش الخامس بقيادة فون مانتوفل. أما الجيش



دبابة النمر الملكية على الجبهة (كانون الأول ١٩٤٤)

السابع فيحمي الجيشين السابقين، ويحول دون هجوم مضاد، خاصة من الجنوب حيث باتون. أما الاحتياط فيتكون من ست فرق بازوكا، ومن ست عشرة فرقة لقاذفي القنابل.

وكان لا بد من الاستفادة من عوامل الطقس، وقد اقترح أن يكون طقساً غائماً، وأن يغمر الأرض الضباب، فالجو البارد يرهق الأميركيين. كذلك كان لا بد من اختيار منطقة الاختراق، وقد اختار هتلر الأردين، لأنها صعبة جداً ولا يخطر لأية قيادة اختيارها، فهي عبارة عن جبال حادة، تخترقها وديان عميقة ضيقة، كان هتلر اختارها عام ١٩٤٠ لاختراق الحدود الفرنسية.

وتقرر كذلك أن يجري إنزال مظليين ألمان في هذه المنطقة الصعبة، وإن كان ذلك سيعرضهم إلى خطر الموت.

لم يعرف من اختير لقيادة المظليين، البارون فون ديرهايد، عرف باختياره للقيادة في الثامن من كانون الأول، أنبأه بذلك الجنرال ستودنت.

وضع تحت إمرته الفا ومئتي مظلي، ثلاثمائة منهم مستحدثون. وكان عليه وجنوده، أن يحتلوا هوت فاني، ليشرفوا على تقاطع طرق بل كروا، وليمهدوا المكان لنزول مظليين آخرين، كونوا فريقاً متطوراً جداً، بقيادة ضابط شهير اسمه جوشن بيير.

ثبطت الاستعدادات عزيمة ديرهايد. فعدد الجنود قليل، وأرض النزول بالمظلات شبه مجهولة لديه، والأسلحة الثقيلة الضرورية غير كافية. كانت المهمة صعبة، ولم يزد إمكان نجاحها عن عشرة بالمائة. ولكن هذه النسبة كافية في نظر القائد للمخاطرة.

كانت ثمة استعدادات من نوع آخر. فقد



جنديان ألمانيان يتقدمان على طريق الأردن.

كلف أوتوسكورزيني الذي أنقذ موسوليني من معتقله في غران ساسو، بعملية سميت عملية «غريف».

طلب هتلر من قطاعات الجيش متطوعين «لمهمات خاصة» على الجبهة الغربية، شرط أن يتقن المتطوع الانكليزية.

كان الهدف من تكوين فصائل هؤلاء المتطوعين، دفعهم سراً إلى داخل خطوط القوات الاميركية، وقد ارتدوا بزات الجيش الأميركي، لارباك الأميركيين، وخلق الفوضى في الأوامر والتحركات.

وأعطى هتلر سكورزيني صلاحيات مطلقة في تدريب المتطوعين، ووضع الخطط، وتحديد زمن التحرك، كجزء من خطة الهجوم المضاد.

تطوع ألفا جندي وضابط، معظمهم يتقن الانكليزية، كأبنائها، وبعضهم يحسن اللهجات الأميركية.

زود فون رونستد سكورزيني ببعض المصفحات الأميركية من تلك التي استحوزت عليها القوات الألمانية خلال الحرب.

إذن كانت مهمة «الكوماندوس» الألماني احتلال جسور الموز لتجتازها قوات بيبر دون خسائر، وإرباك القوات الأميركية. فإذا قبض على أحدهم، كان عليه أن يسحق أنبوب الأسيد البروسي الموجود في فمه فيموت لساعته.

عامل المفاجأة:

استقبل هتلر وجودل، وستفال رئيس أركان رونستد، الرابع والعشرين من تشرين الأول، وأطلعاه على خطة الهجوم المضاد، فأسقط في يده، ولكنه لم يعترض. وحين عاد إلى الجبهة أطلع رونستد ومودل على الموضوع. كان رد فعل رونستد سيئاً، ولم يخف الثاني تشاؤمه، رغم أنه عرف بحبه المخاطرة. في اليومين التاليين، حاول رونستد ومودل وضع خطة بديلة، أو مشروع هجوم مضاد بوسائل وآليات أقل. الثاني من كانون الأول عقد اجتماع ضم مودل فون مانتوفل وسب ديتريش، وهتلر. كلف



جنود أميركيون يتقدمون في الثلج

مانتوفل أن يختصر وقت إعداد المدفعية، على نحو يستفاد معه من عنصر المفاجأة. ولم يبق إلا تحديد ساعة الصفر. وقد أُجّلت عدة مرات. الرابع من كانون الأول بدّلت الشيفرة، واتخذ للعملية اسم «ضباب الخريف». وحدد الموعد في العاشر من كانون الأول ثم أجل إلى الثالث عشر، ثم حدد نهائياً في ١٦ منه.

بدأت القوات تتمركز قرب الخطوط الأميركية. ولكنها كانت تنتقل دائماً في الليل. حتى المدافع كانت تنقل بدفعها بالأيدي. وقد عمد هتلر، رغم سرية العملية، إلى التمويه، وتضليل الأعداء. وقد أطلع بعضاً من رجالاته على شيء من الخطة.

العاشر من كانون الأول انتقل هتلر إلى قصر زيغنبرغ، مركز قيادته في الجبهة الغربية. الثاني عشر، استقبل قادة القطعات، وعددهم ثلاثون جنرالاً، استقدموا بسرية تامة. وأطلعهم على الهجوم المضاد، وألقى فيهم كلمة استمرت مدة ساعتين.

ويبدو أن القيادة الأميركية لم تطلع على شيء من نوايا الألمان. ولكن الجنرال سترونغ (رئيس المخابرات العسكرية) حصل على معلومات عامة أبلغها بيديل سميث، الذي أبلغها لبرادلي، ولكن برادلي لم يبدل شيئاً من مواقع قواته.

السادس عشر من كانون الأول، بين الساعة ٥,٣٠ و٦,١٥، فوجىء الأميركيون بقصف مدفعي مركز. وانتقلت قوات سب ديتريش إلى الهجوم. فاضطرت الفرقة المدفعية التاسعة والتسعون الأميركية إلى التراجع منذ الصباح. بعد الظهر، اخترقت فرقة البازوكا الثانية عشرة الجبهة في منطقة لوزهايم. ذهل قادة القوات الأميركية، فكان ردهم سيئاً، أو لم يقوموا بأي نشاط. وخيل لهودجز أن الأمر لايعدو أن يكون عملية عسكرية عادية، فلم يترك مركز أركانه، الذي كان يسمع منه أصوات قنابل المدافع. واستعد جوشن بيبر مساء لدفع قواته باتجاه مركز الاختراق، ليمهد إلى تنفيذ القسم التالي من الخطة، صباح السابع عشر.



شارع في باستون بعد القصف الألماني.

واستطاع هجوم مانتوفل أن يشل ثلاث فرق مشاة أميركية، هي الفرق ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤. وبلغت فرقة البازوكا السادسة عشرة بعد المائة، سان ــ فيت، غير مكترثة ببعض بؤر المقاومة، فقد تكفلت بها فرق القاء القنابل. وتوقع الأميركيون ظهور الألمان في لوكسامبورغ بين ساعة وأخرى.

مضت عشر ساعات قبل أن يبلغ أيزنهاور بسوء الوضع العسكري وخطورته. الساعة الثانية عشرة كانت إذاعة الحلفاء من فرساي، ماتزال تعلن أن كل شيء هادئ على الجبهة. ولم يكترث أيزنهاور كثيراً للمعلومات التي أرسلها جنرالاته من الجبهة. مساء فقط علم أن القوات تتراجع مقاتلة على الموز، وقبالة ليبيج، ونامور وديتان. أخذت فرقتان مصفحتان من قوات باتون وسامسون لدعم مواقف القوات الأخرى المتراجعة. وأنذرت قوات الاحتياط بالاستعداد للتحرك، من مواقعها في مورملون. والتحق برادلي على وجه السرعة بمركز القيادة في لوكسامبورغ، وكان حتى السادس عشر من كانون الأول في فرساي.

هجوم جوشن بيبر:

السابع عشر من كانون الأول، الساعة الرابعة صباحاً، أعطى بيبر أمره بالهجوم. تخطت المصفحات دون مقاومة موقع ماليدي. طوقت مدفعية أميركية، فاستسلمت. المساء بلغ بيبر ستافلو على الأمبليف.

لم يكن أحد من أركان الجيش الأميركي يعرف شيئاً عن معدات الجيش الألماني. الصباح، انطلق بيبر نحو «الجسور الثلاثة»، من وادي الأمبليف، واتجه نحو «هوي» على نهر الموز، مصطحباً فرقة البازوكا الأولى. في ستافلو دمرت قنبلة بازوكا مصفحة من نوع تيغر رويال. ولكن قوات بيبر، في المقدمة، عانت بعض الصعوبات، فقد اكتشفتها إحدى الطائرات، وانذرت المطاردات، التي راحت ترش قوات بيبر مدة ساعات ثلاث. ودمرت الجسور أمام بيبر



رشاش يحتمي بدبابة في موقع متقدم.

وخلفه. وبات نقل مصفحاته الثقيلة أمراً شبه مستحيل.

تأكد أركان قيادة هودجز أن الألمان يقومون بهجوم مضاد. وأبرق هودجز إلى القيادة بما يلي: «يستحيل تحديد الخط الذي بلغه العدو، فالجبهة شديدة الميوعة، والوضع غامض». وكانت الأوامر من «سْيا» متشابكة مضطربة، إذ لم تستطع أن تستند إلى معلومات جزئية أو خاطئة.

خلت «سيا» من سكانها، ولكن هودجز أصر على أن يبقى فيها مع مراكز الاتصالات. وتكفل سكورزيني بقطع خطوط الاتصال، فعزل هودجز عن العالم. وكانت آخر رسالة بعث بها، تقول ما يلي: «ثمة عناصر استطاعت إحداث ثغرات في الجبهة، ولكن خطوط جبهتنا لم تتزعزع». ولم يكن هودجز يعرف حتى تلك الساعة حقيقة ما حدث.

لم تكن مدينة باستوني الصغيرة في الأردين، تعلم حقيقة الخطر الذي يتهددها. وكان السكان يقومون بنشاطاتهم العادية، مختلطين بالجنود الأميركيين الذين كانوا ينعمون بإجازاتهم. لم يحدث السبت، السادس عشر من كانون الأول، أي حدث غير عادي. الأحد السابع عشر، تدفق على باستوني لاجئون قادمون من كليرفو، البعيدة عشرين كيلومتراً عن باستوني. كان السباق نحو المدينة شديداً ذلك أنها ملتقى عدة طرق هامة جداً، فهي على بعد ٨٠ كيلومتراً من دينان، وأورتفيل، ومارش.

كانت مهمة الجنرال فون لوتويتز قائد الفرقة السابعة والأربعين المدرعة، أن يتقدم بفرقتي بازوكا. وإذا شكلت باستوني عقبة، كان عليه أن يتخلى عنها ويتخطاها، تاركاً لفرقة قاذفي القنابل أن يمشطوا المنطقة ويخلوها من الأميركيين. وبالتالي كان عليه أن يبلغ الموز.

ولكن أيزنهاور قرر أن يصمد الأميركيون في باستوني. فأرسل الفرقة التاسعة عشرة إليها، وأمر الجنرال ماك أوليف قائد الفرقة المظلية



دبابة النمر ويقربها قافلة من الأسرى الأميركيين.

الضابط الألماني المسؤول جوش بيير

الواحدة بعد المائة، أن ينطلق بأسرع ما يمكن إلى الأردين .

الثامن عشر من كانون الأول وصلت قوات ماك أوليف إلى باستوني، ثم وصلت فرقة المظليين. طوق الألمان باستوني. ولكن هتلر وفون رونستد ومودل، خلال اجتماعهم ليل ١٨ ـ ١٩، كانوا متشائمين من الوضع. وارتأى رونستد عدم الاستمرار في التقدم. غير أن هتلر كان يعول على كلمة سب ديتريش الأخيرة، الذي ارتأى الاستمرار، فلم يتوقف الهجوم المضاد.

الهجوم المضاد يتعثر:

استطاع الهجوم المضاد في البدء أن يقلب الأوضاع على الجبهة الغربية. ولكنه تعثر، فاضطر إلى الاعتماد على جيوب مقاومة عنيفة. وخاصة بعد نفاد الوقود، وبحثت القوات الألمانية عن مستودعات بترول أميركية. وكان واضحاً أنها إن لم تعثر عليها، توقفت كل مدرعاتها، وأصبحت عبئاً عليها.

لم يكن ممكناً الاعتماد على الجيش السابع بقيادة براندنبرغ، الذي كان يحمي مؤخرة الهجوم المضاد. وكانت مدفعيته قليلة الفاعلية بالقياس إلى مدفعية باتون الذي كان يواجهه. ولم يكن سلاح الطيران الألماني قادراً على السيطرة على السماء، وإن كانت بعض عمليات مستر شميث ٢٦٢ أربكت قوات الأعداء، وبقيت الحماسة في نفوس الألمان. ولم يستطع الطيران الأميركي التدخل بسبب الطقس الرديء.

وساءت ظروف الألمان، لفشل بعض عمليات الخطة المقررة. فمظليو فون ديرهايدت ضلوا في العاصفة. ولم يعرف الحلفاء حقيقة خطورة العملية إلا بعد أن اعتقلوا فون ديرهايدت.

لقد أنزل مظليو فون ديرهايدت فجر السابع عشر من كانون الأول. كانت الرياح تعصف بقسوة، فحملت أكثر من نصفهم في تيارها. وانتشر الباقون في غير المواقع المقصودة. وقد قضى ديرهايدت ساعات قبل أن يجمع مائة من رجاله. وقد ظل الباقون ضائعين في مرتفعات فاني، بلا ماء ولا طعام ولا نوم، يعانون البرد الشديد.

لم تكن معهم آليات ثقيلة، وأضاعوا أجهزة اللاسلكي، لذلك لم يكن ممكناً أن يكونوا كشافة لقوات بيير، لتضرب ضربتها. لذلك أمر فون ديرهايدت رجاله بالتفرق ومحاولة بلوغ الخطوط الألمانية، إفرادياً. واعتقل هو نفسه صباح ٢٢ كانون الأول.

أما سكورزيني فقد أربك نشاطه القوات الأميركية. فقد قطع خطوط الهواتف، والأسلاك، وراح يصدر الأوامر المتناقضة، فإذا القوات الأميركية تتجه خطأ إلى غير اتجاهاتها التي أمرت بها. واصطدم بعضها ببعض أحياناً، حتى دب الذعر في الجبهة كلها. ونشط رجاله الذين تزيوا بأزياء الشرطة العسكرية الأميركية والمخابرات، فالتبس الأمر على الجنود والقادة، واضطروا إلى القبض على كل شرطي عسكري أو عنصر في المخابرات، واستجوبوه ليتبينوا إن كان أميركياً أو ألمانياً.

بعض الذين قبضوا عليهم زعموا أن مهمة سكورزيني بلوغ فرساي وقتل أيزنهاور. لذلك فرضت حراسة مشددة على تنقلاته وعلى مراكز إقامته. والواقع أن سكورزيني لم يكلف أبداً بمثل هذه المهمة.

إخلاء لأراضي المحررة:

التاسع عشر من كانون الأول عقد ايزنهاور اجتماعاً في فردان، حضره برادلي، دوفير، باتون وبيديل سميث. كانت المناقشات حادة. طلب أيزنهاور من باتون أن يعزف عن الهجوم على السار، وأن يوجه الجيش الثالث لتحرير باستوني. ولم يكن ممكناً الاعتماد على الجيش التاسع الذي كان يحارب في إكس لاشابل، وكان كل ما يقوى عليه أن يصمد للهجوم المضاد. وكان الاعتماد على تدخل الجيش البريطاني بقيادة مونتغمري ضرورياً. واقترح تضييق مساحة الجبهة، في بلجيكا والألزاس والفوج. وكان لا بد عند ذلك من اخلاء بعض القطاعات المحررة. أما مسألة إخلاء ستراسبورغ فكانت شائكة، فقد احتدم الخلاف حولها، مما اضطر دوغول وتشرشل وروزفلت للتدخل. ماذا قال تشرشل لأيزنهاور قبل اجتماع الأخير بدوغول؟ لا أحد يعرف! على كل حال، صدر الأمر إلى القائد الفرنسي دولاتر بالدفاع عن ستراسبورغ.

ولكن معركة الاردين كانت قد انتهت.

كان الألمان قد حطموا الفرقتين ٤٢٢ و٤٢٣، فقتل فيهما من قتل واستسلم الباقون. وكان الوضع في باستوني حرجاً جداً. في الشمال، كان بيبر ما يزال يحاول إختراق الجبهة، واستطاعت قوات البازوكا اجتياز سالم وامبليف، ووجدت نفسها أخيراً في مواجهة الفرقة الثانية والثمانين المظلية، التي كان لها دور كبير في احتلال النورماندي.

غير أن أيزنهاور كانت تزعجه هذه الجبهة. وشعر أن برادلي غير مؤهل، بوسائله غير الكافية، للسيطرة على الموقف. لذلك طلب منه ليل التاسع عشر من كانون الأول، أن يلحق بعض وحداته بقوات مونتغمري، الذي اتجه نحو الاختراق الألماني في الجناح الشمالي. وقد أزعج ذلك الضباط الأميركيين الذين خيل إليهم أن أيزنهاور «يدلل» البريطانيين. وأصبح مونتغمري في نظر باتون الوحش الأسود.

العشرين من كانون الأول دخل مونتغمري على هودجز في مركز قيادته، وأهانه، وطلب منه سحب بعض قواته من المنطقة، ولكن هودجز رفض.

عندئذ لغم مونتغمري الجسور على الموز، ودعم قوات الدفاع عنها.

اليوم ذاته احتل سب ديتريش سان ــ فيث، ولكن بعد خمسة أيام من الوقت المحدد في الخطة. أما بيبر الذي كان متقدماً، فلم يبق لديه إلا ثمانمائة جندي، ونفدت المحروقات من آلياته، فأحرقها. وأمر جنوده أن يلتحقوا إفرادياً بأية قوات ألمانية متواجدة في المنطقة.

استمر القتال بوحشية ليلة الميلاد واليوم التالي، حول مانهي، وغراند منيل. وقام ديتريش بآخر هجوم، ولكن الهجوم كان غير ذي أثر.

الثاني والعشرين من كانون الأول أرسل الجنرال هاينز كوكوت الذي كان يحاصر باستوني يفاوض ماك أوليف على الاستسلام، ولكن ماك أوليف رفض. فاستؤنف القتال بضراوة، وأصبح موقف المحاصرين حرجاً.

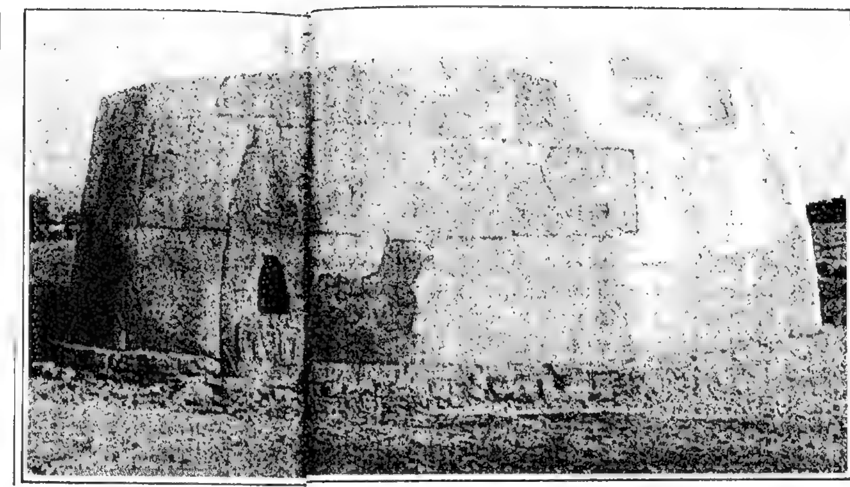
فجر الثالث والعشرين، كانت السماء صافية، مما ساعد ٢٤١ طائرة شحن على إنزال المؤن والذخائر للمحاصرين.

الرابع والعشرين كانت الطائرات القاذفة ترسل حممها على القوات الألمانية، فأوقعت فيها إصابات مباشرة.

السادس والعشرين دخلت الفرقة المصفحة الرابعة باستوني. وتقدمت قوات باتون. ونفدت محروقات المصفحات الألمانية. وبدأ تراجع القوات الألمانية.

في هذا الوقت كان غوردريان قائد الجبهة الشرقية ينبىء هتلر، أن قوات روسية هائلة تهاجم بعنف. وقد رد عليه هتلر بقوله: «إن الهجوم الروسي أكبر وصمة في التاريخ منذ جنكيزخان».

الخامس عشر من كانون الثاني، عاد من بقي من الجيوش الألمانية إلى مواقعه قبل الهجوم المضاد. ■



المدافن الحجرية في هيلي

الإمارات العربية المتحدة

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

المدفن (A) المنقب خلال الموسم ١٩٧٢/ ١٩٧٣

يقع هذا المدفن في القسم الشرقي من قرية هيلي على بعد عشرة كيلومترات شمال مدينة العين. وعلى الجانب الشرقي من هذا المدفن تمتد من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال عمان حيث تمثل فاصلا جغرافيا بين أبوظبي وعمان. وتنتشر عى مرتفعات ومنحدرات هذه الجبال قبور عديدة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ أما سهل هيلي فيتمثل في كثبان رملية ممتدة من هذه السلسلة حتى الغرب وتنتشر فيه الاشواك والنباتات الطبيعية.

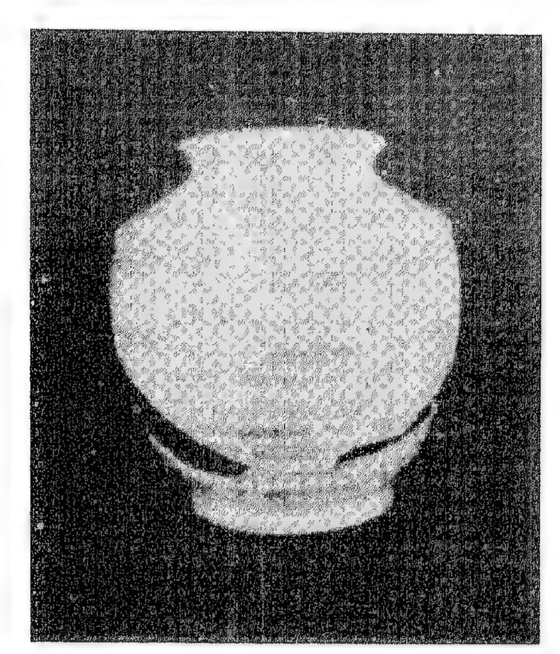
لقد كشفت التنقيبات في قبر هيلي الكبير على آثار مهمة لكنها بنفس الوقت أثارت بعض المشاكل الاثارية ومنها هل أن قبر الهيلي الذي اعتيد على تسميته بهذا الاسم يمثل قبرا أو معبدا؟ ولغرض الاجابة على هذا السؤال كان لا بد من اختبار بعض المدافن الأخرى من ضمنها هذا المدفن لايجاد الحلول لمثل هذه المشاكل.

لقد اختير هذا المدفن بعد أن درست ملتقطاته السطحية المتضمنة فخاريات عادية وملونة ومحززة ورمادية الشكل وكذلك قطعا صغيرة من الاحجار الصابونية الملساء (نستيتايت) تعود جميعا إلى الألف لثالث قبل الميلاد. وقد اتخذ بعين الاعتبار في التنقيبات الجديدة غرضين أساسيين أولهما لتقرير فيما إذا كان البناء الكبير في هيلي يمثل مدفنا أو معبدا وثانيهما الحصول على مواد أثرية أخرى للاستفادة منها في الدراسة

فتح في هذا المدفن خندق بمساحة ١٠ × ١٠ قدم عثر فيه على ثلاث أحجار رملية منقورة بشكل هندسي إحداها بحجم ٦٠ × ٤٠ سم وهكذا وبعد التعمق في الحفريات كشف عن جدار شبه مستدير ذو خمسة مداميك بارتفاع متر واحد. وكشف كذلك عن جدار دائري بقطر ٧,١٠ سم. أما فيما يخص التقسيمات الداخلية فقد كشف عن جدارين متوازيين شمال، جنوب الاول بطول ٥ م. يقسم القبر إلى قسمين غير متساويين وعلى بعد ١,٧٥ م من هذا الجدار يمتد لجدار الثاني وهو بطول ٥,٥ م. ونتيجة لهذه الجدران تتشكل حجرة دفن مستطيلة قسمت إلى قسمين متساويين بواسطة جدار غير سميك شرق ــ غرب، حيث يبلغ معدل قياس الاحجار المستعملة في بنائه ١٨ × ٢٥ × ٣٠ سم وقد استعمل الطين انغير ممزوج بأية مادة أخرى كمادة للربط وهي بسمك ٢ سم. ويبلغ سمك الجدران الداخلية ٥٠ ــ ٦٥ سم وترتفع مسافة متر واحد ولقد أقيمت الجدران على أسس من الأحجار الصغيرة وخصوصا الجدران الداخلية والجدار المستدير الداخلي. أما أرضية حجرة الدفن فقد كشف على عمق متر واحد عن أجزاء صالحة منها. وقد عثر داخل المدفن على عدد من الأحجار المسطحة وهي دليل واضح على استعمالها في التسقيف ولا نعلم فيما إذا كان المدفن مسقوف بأكمله أو أن أجزاء منه تركت مكشوفة.

طريقة البناء:

يثير تشييد هذا المدفن اهتماما كبيرا وهو يختلف كليا عن مدفن هيلي الكبير. وهناك حتمال بأن هذا المدفن كان قد خطط على الارض قبل بنائه، ثم حفرت الارض إلى العمق المطلوب فاصبح بشكل حفرة دائرية حيث أقيم من الداخل جدار دائري بني من الاحجار غير



جرة من الفخار الرمادي ملونة باشكال حيوانية وهندسية (٢٧٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م).

المنحوتة، أقيمت باتجاه داخلي لخلق شكل جميل. وبعد ذلك قسم المدفن داخليا بإقامة جدارين متوازيين شمال ـ جنوب وفي الأقسام العليا من المدفن وضعت الأحجار المنحوتة ذات القياس ٦٠ × ٧٠ سم للدلالة على القبر. وبعد الانتهاء من عملية الدفن كان القبر يغطى بتراب الحفريات وتبقى الأحجار العليا ظاهرة للعيان لغرض تمييزه

وتجدر الاشارة بأن هذا النوع من القبور معروف في عصور ما قبل التاريخ في تمركزا في غرب الباكستان، وبالرغم من وجود اختلاف في الشكل والحجم فإن طريقة البناء واحدة.

لقد كان من الصعوبة الحصول على تسلسل طبقي صحيح نتيجة للتلف الذي أصاب المدفن ولامتلاء تقسيماته الداخلية بالحجارة والرمال، وبالرغم من ذلك فقد لوحظ وجود الطبقات التالية:

الطبقة الأولى: طبقة رملية تحتوي على قطع من الفخار الأحمر.

الطبقة الثانية: طبقة خفيفة من الرماد مخلوطة بالحجارة، وأحجار رملية... وقد عثر فيها على جدران حجرية. كمية الفخار المكتشفة هنا قليلة لكنها ذات أهمية كبيرة لأنها كافية لاطلاعنا على مستوى الثروة والحضارة العالية التي تميز بها سكان هذه المنطقة.

الطبقة الثالثة: طبقة صلبة ومتماسكة من التراب البني مخلوط بقطع صغيرة من الحصى وتحتوي على كمية قليلة من الفخار.

وتجدر الاشارة بأنه لم يعثر على هياكل عظمية كاملة في هذا المدفن حيث لم يعثر سوى على كسر من العظام البشرية لوحظت على السطح وقد عثر على كمية قليلة منها ضمن الطبقة العليا.

لماذا مدفن؟

يشير حجم ونوعية هذا البناء إلى كونه مدفنا استعمل لدفن الموتى، ومن الأدلة الاثارية على صحة قولنا هذا هو الشكل والتقسيمات الداخلية والتي هي عبارة عن غرف مستطيلة صغيرة لا يمكن الاستفادة منها إلا في أغراض الدفن. إضافة إلى العثور على بقايا عظمية على السطح وفي المدفن. والشيء الذي يجعلنا نستبعد القول بكونه معبدا هو عدم العثور على مواد طقوسية.

إن سبب عدم العثور على عظام كافية في غرف الدفن يرجع إلى كون التربة غالبا ما تتلف العظام بسرعة وقد يكون سببها أن البناء ربما يمثل مدفنا رمزيا لأحد الرؤساء حيث زود بمواد الدفن فقط ودفنت الجثة في مكان آخر.

الفخار:

عثر على كمية قليلة من الفخار في هذا المدفن، ورغم قلة الفخار المكتشف إلا أنه ذو أهمية كبيرة حيث زودنا بمعلومات مهمة. ومن الجدير ذكره ليس هناك اختلاف في الفخاريات المكتشفة في الطبقة الأولى وحتى الطبقة الثالثة فالأشكال والزخارف والصناعة واحدة في جميع هذه الطبقات. وهذا يشير إلى وجود حضارة واحدة لم تتخللها فجوة زمنية. صنعت أغلب الفخاريات المكتشفة بطريقة العجلة وبلونين الرمادي والأحمر بعضها يتميز بالأشكال الهندسية المصبوغة أو المحززة. وقد عثر على كمية قليلة من الفخار ذات طلاء أحمر وخطوط متموجة وعمودية وأفقية وأشكال أخرى

صبغت باللون الاسود وهي مشابهة لفخاريات ام النار. إن أهم الفخاريات المكتشفة تلك التي تحمل لونا أحمر فاتح دون أية زخارف.

وقد عثر على جرة كروية واحدة ذات حافة تتسع إلى الخارج وعنق عال وقاعدة مسطحة (من نوعية ام النار) زخرفت باللون الأسود على خلفية حمراء بأشكال هندسية. كما وعثر على جرة أخرى ذات فوهة مفتوحة من نفس الصناعة السابقة لكنها بدون زخارف وهي شبيهة بجرار ام النار أيضا.

الفخار الرمادي:

رغم قلة هذا النوع من الفخار إلا أنه ذو أهمية كبيرة في كونه يلقى ضوء على مدى انتشاره. إن الفخار الرمادي ذو الزخارف المحززة والذي يعكس لنا الصلات الواضحة مع المحزز من موقع بامبور في عيلام وسومر، له أهمية كبيرة في الدراسات المقارنة، وقد عثر على بعض أنواع هذا الفخار في المدفن. من هذه المكتشفات جرة كاملة ذات حافة مشطوفة نحو الخارج وبعض المقابض الخالية من الزخارف. وعثر كذلك على بعض الفخاريات. تحمل نوعا من التزجيج الحاصل بسبب الحرق ومن المحتمل أن يعود مثل هذه الفخاريات المزججة إلى دور متأخر. ومن القطع المهمة قطعة تحمل زخرفة معمارية بشكل مدخل. وهي سائدة في موقع بامبور في جنوب شرق إيران الطبقة ٥ ــ ٦.

المكتشفات الصغيرة:

تشمل مجموعة من خرز العقيق يتراوح عددها نحو ٢٠ خرزة أغلبها ذات أشكال برميلية وقرصية ومن المكتشفات الأخرى بعض الحلقات أو الأقراط البرونزية التالفة.

الأوعية الحجرية

عثر على مجموعة كبيرة من هذه الأوعية وهي إما ذات خطوط محززة أو بعض الدوائر المتداخلة نلاحظ حول الحافة والوسط والقاعدة. إن هذا النوع من الأوعية مشابه لتلك المكتشفة في قبر الهيلي الكبير وفي موقع بامبور. ومن الأنواع المكتشفة نوع يمثل أقداحا مفتوحة، تظهر حول أعناقها صفين من الدوائر المتداخلة وهي تعكس مدى انتشار هذا النوع من الأواني الحجرية في جنوب الجزيرة العربية. ويشير وجود الأواني الحجرية المشابهة لأواني موقع بامبور إلى تأثيرات حضارية واسعة مع الموقع المذكور حيث كان للطرق التجارية الفضل في هذه التأثيرات. ويصعب في الوقت الحاضرعلينا إعطاء تاريخ محدد لهذا المدفن لكون المواد المكتشفة غير كافية. وبصورة عامة نستطيع القول بأن المواد المكتشفة في هذا المدفن رغم قلتها شبيهة بتلك المكتشفة في بامبور وكلي في بلوجستان وام النار. واستنادا إلى ذلك يمكن أن يكون منتصف الألف الثالث قبل الميلاد الفترة الزمنية المعقولة لاثار مدفن هيلي.

المدفن (B) في هيلي:

يقع المدفن (B) على بعد (٢٠٠) يارد شرق المدفن (A) وقد بدأت عمليات التنقيب في هذا المدفن في كانون الثاني عام ١٩٧٢ واستمرت لمدة خمسة أشهر. لقد كشفت لنا التنقيبات عن مخلفات أثرية تعكس التشابه القائم بين هذه الحضارة والحضارات الأخرى الممتدة عبر الخليج.

التنقيب:

المدفن دائري الشكل قطره عشرة أمتار جداره الخارجي مبني من أحجار منحوتة حيث سويت وجوهها الخارجية وصقلت جيدا، ويبلغ قياس الحجرة الواحدة ٦٠ سم × ٨٠ سم، ٦٠ × ١٠٠ سم. والمدفن مشابه للمدفن (A) إذ تتلخص طريقة بناء هذه المدافن بواسطة تخطيط دائرة منتظمة بالقطر المطلوب في المكان المراد تشييده ومن ثم يبدأ بوضع حجارة أول صف من الأسفل وهكذا. ومن ثم يقسم المدفن داخليا حسب المطلوب بواسطة عمل جدران متقاطعة وغالبا ما تستعمل الأحجار الكبيرة غير المصقولة في بناء الأسس أما حجرات الدفن في المدفن (B) فقد شيدت عن طريق تقاطع الجدران المبنية من الأحجار الخشنة وهي أكثر وضوحا من التقسيم ذاته في المدفن (A)



إحدى مراحل العمل في المدفن (B) في هيلي.

فالمدفن (B) قسم إلى أربعة أقسام رئيسية وكل قسم منها قسم إلى قسمين آخرين بواسطة جدران متجهة شمال ــ جنوب عدا جدار واحد متجه شرق ــ غرب.

طرق الدفن:

لم يعثر خلال التنقيبات على هياكل عظمية كاملة كما لم يعثر على بقايا لجثث محروقة. إن أغلب العظام مفقودة وفي أغلب حجرات الدفن عثر على بقايا عظمية تعود لأكثر من هيكل واحد. ولا نعرف فيما إذا كان الميت يوضع في العراء قبل دفنه ثم ينقل إلى المدفن فيما بعد، أو كان يدفن في القبر مباشرة دون أن يوضع في العراء. لقد وجدت العظام مبعثرة ومهشمة ما عدا العظام التي اكتشفت في اللحدين٤ ــ ٥ حيث حدثت إعادة في الدفن وربما كنست بقايا بعض الهياكل العظمية جانبا ليحل محلها هيكل آخر كما هو الحال في اللحود ١ ــ ٧، إن وجود طبقات خفيفة من التراب الناعم بسمك ٢ ــ ٣ بوصة يدل على حدوث تكرار في الدفن في نفس الفترة الزمنية.

الفخاريات المكتشفة داخل حجرات الدفن:

يعتبر الفخار من أهم المكتشفات الأثرية في مدافن هيلي وهو يختلف من مدفن لآخر وبصورة عامة يمكن تقسيمه إلى قسمين رئيسيين:

١ ــ الفخار الأحمر.

٢ ــ الفخار الرمادي.

أما الفخار الأحمر فيقسم إلى قسمين، وذلك استنادا إلى الصناعة وطريقة العمل والطلاء.

(أ) فخار مصنوع من طينة مصفاة خالية من بقايا النباتات وقد استعملت العجلة البطيئة في صناعته. طليت أواني هذا النوع بطلاء أحمر شاحب وزينت جدرانه بزخارف هندسية مختلفة. إن أهم آثار هذا النوع هي جرار كروية ذات فوهات مفتوحة وعريضة وقواعد مسطحة.

(ب) فخار مصنوع من طينة مصفاة جيدا خالية من دقائق الرمل، ذو جدران رقيقة ربما صنعت بواسطة العجلة السريعة. السطوح الخارجية ملساء ذات لون أحمر غامق أو فاتح

وقد زينت بأشكال هندسية باللون الأسود. أهم أشكال هذه المجموعة هي جرار كروية ذات رقاب طويلة وقواعد قرصية مثقوبة أحيانا، وهذه المجموعة تشابه مجموعة ام النار.

أما الفخار الرمادي فذو صناعة واحدة طينته مصفاة محروقة بشدة. قسم قليل من هذا الفخار يرينا بأن النار حرقت جدرانه بشدة وبقي اللب معرضا لدرجة حرارة أخف. أما السطوح الخارجية فزينت بأشكال هندسية وحيوانية. وقد استعمل اللون الأسود في ذلك. وفي بعض الحالات استعملت الحزوز بدلا من الألوان. لقد استعملت الجرار الكبيرة من هذا النوع للخزن أما الجرار الصغيرة فذات حافات مائلة إلى الخارج وهي دقيقة الصنع.

الأوعية الحجرية:

إن أهم المكتشفات الأثرية المميزة للمدفن (B) هي الأوعية المعمولة من الأحجار الصابونية الملساء (الستيتايت) والأحجار الرمادية. لقد زينت جميع هذه الأوعية بدوائر محززة متداخلة. وهي ذات علاقة وشبه كبير بأخواتها المكتشفة من قبل البعثة الدانماركية في القبر الكبير. إن أهم الأوعية المكتشفة من قبل البعثة الدانماركية في قبر الهيلي الكبير هي تلك المقسمة من الداخل (Compartmented)، وهذا النوع من الأواني كان معروفا في بلوجستان ووادي السند في العصر الحجري المعدني، وكذلك في بلاد فارس ووادي الرافدين.

أما الأواني الحجرية المحززة التي كشفت في هذا المدفن فلها أهمية كبيرة كذلك. فهناك ما يوازيها من موقع كلي في بلوجستان وبامبور جنوب شرق إيران وشاهي تمب في وادي السند ومقبرة خراب ورمرود في مقاطعة سيستان. ولم يقتصر الأمر على الأواني الحجرية فقط بل أن الفخار المكتشف في ام النار وفي هيلي ذو شبه كبير بالفخاريات المكتشفة في بامبور.

المكتشفات الصغيرة:

إلى جانب الفخار والأوعية الحجرية المكتشفة في المدفن (B) عثر على مكتشفات صغيرة وهي عبارة عن خواتم ودبابيس ودلايات حجرية وخرز



البوابة الشمالية لقبر هيلي الكبير

من العقيق والعظم والصدف وخرز من الفضة عثر عليها على سطح المدفن. إن خرز العقيق هي من أكثر المواد المكتشفة، وقد وجدت جميعا في غرف الدفن مع البقايا العظمية.

الخلاصة:

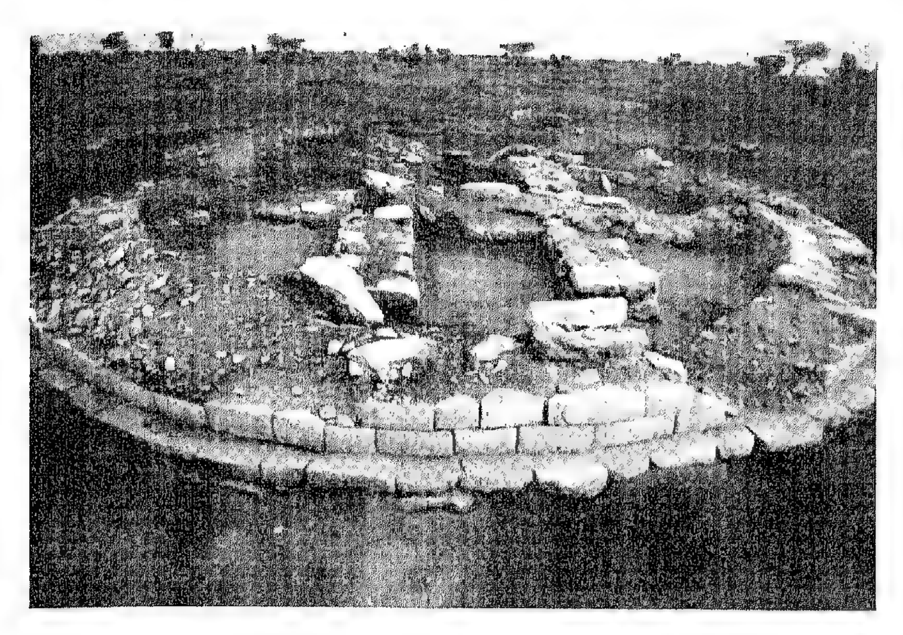
من هم السكان الذين استوطنوا في هذه المنطقة؟

من أين أتوا؟

هل هم سكان محليون أو مهاجرون قدموا من مكان آخر؟

ما هي عاداتهم، تقاليدهم، طرق دفنهم؟

رغم أن هذه الأسئلة بقيت دون أجوبة مقنعة إلا أن التنقيبات في المدفن (B) والمدافن الأخرى، أوضحت أن هؤلاء السكان لهم حضارة عالية ولم يكونوا بمنآى عن حضارتي وادي الرافدين وبلاد السند، وخير دليل على ذلك ما وجد من فخاريات رمادية ملونة وأواني حجرية. إذ أن أواني الحجر المقسمة إلى عدة أقسام (Compartmented) معروفة في بلوجستان ووادي السند، كما ويشير وجود مثل



المدفن (C) في هيلي.

هذه المكتشفات إلى أن هذه المنطقة كانت تمثل على الأغلب محطة تجارية متصلة برا بمراسي القوافل البحرية القادمة من هذين البلدين وغالبا ما كانت التجارة البحرية تتأثر بهبوب الرياح الموسمية مما يضطر التجار إلى نقل بضائعهم عن طريق نهر دشت في بلوجستان إلى وادي الرافدين حيث يتم تبادل الذهب واللازورد بالأدوات الفخارية الحجرية المستحدثة. ومن الجدير ذكره بأن التجارة بين بلوجستان ووادي الرافدين قد نشطت في حدود ٢٨٠٠ قبل الميلاد. وقد اكتشفت في وادي الرافدين بعض القطع الأثرية أصلها من وادي السند وبالعكس. ولا غريب أن تتأثر منطقة الخليج بشكل مباشر أو غير مباشر بهذه التجارة حيث أن اكتشاف الأواني الحجرية بيّن الصلة بين الشرق والغرب من كلي إلى حدود سوريا.

المدفن (C) :

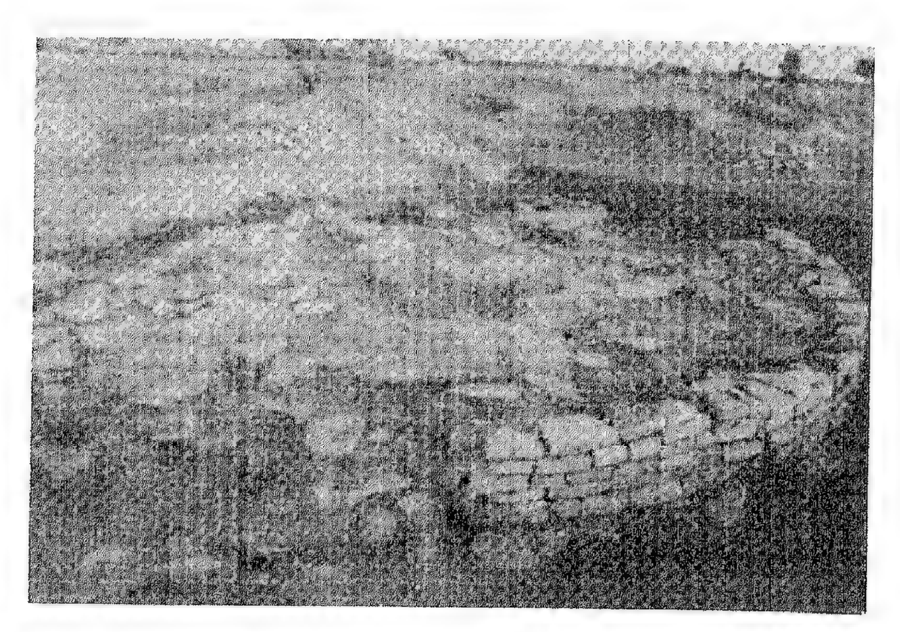
يقع إلى الغرب من المدفن (B) على بعد ١٧,٥ متر عنه، وهو دائري الشكل قطره ٨,٧٠ متر، لم يبق من جداره الدائر البالغ سمكه ٨٠ ــ ٨٥ سم سوى صفين من الأحجار المنحوتة، ترتكز على قاعدة حجرية تبرز مقدار ١٨ سم. أما قياسات الأحجار المنحوتة المستعملة في تركيب الجدار الدائري فتبلغ ٤٤ × ١٩ سم، ٣٢ × ١٧ سم.

قسم هذا المدفن بواسطة جدار قاطع سمكه ٧٠ سم (شرق ــ غرب) إلى قسمين رئيسيين (شمالي وجنوبي) ويقطع هذا الجدار من جهتين متقابلتين جداران متوازيان (جنوب ــ شمال) وبذلك يقسم كل نصف إلى ٣ أقسام. أما الجداران المتوازيان، فلا يتصلان بالجدار المدور من الداخل ليكون هناك ممر محيطي يصل بين هذه الأقسام التي استعملت لدفن الموتى حيث وجدت عظامهم مهشمة دون أن يعثر على هياكل عظمية كاملة وقد زود هؤلاء الموتى بهدايا القبور المعروفة . أما المداخل الخارجية فلم يعثر على بقاياها.

المدافن (D):

مدفن دائري الشكل يقع إلى الشمال الشرقي من المدفن (B) وقد تعرض إلى تخريب كبير حيث أزيل النصف الجنوبي منه تماما ولم يبق سوى بعض الأحجار المسطحة التي تغطي الأرضية. وفي النصف الشمالي منه يوجد بقايا للجدار الدائري بعرض ٧٠ سم ويتكون من صف واحد من الأحجار المنحوتة، وهي بأحجام مختلفة أكبرها ٦٩ × ١٩ سم وأصغرها ٢٨ × ١٨ سم. هذا ولم يعرف شيء من التقسيمات الداخلية لشدة تعرضها إلى التخريب.

أما مكتشفاته فهي خرزات قليلة من العقيق



المدفن (F) في هيلي.

الأحمر بأشكال متنوعة وكذلك كسر لأواني حجرية مزينة بدوائر محززة متداخلة إضافة إلى إبرتين نحاسيتين طول ٣,٢ بوصه.

المدفنان (G —— F):

يقعان شمال المدفن (B) على بعد ٢٠٠ متر تقريبا وهما دائريان ومتجاوران لا يفصل بينهما سوى ٩٠ سم استعملت الأحجار المهندمة في بنائهما ولكن بأحجام أقل بكثير من تلك المستعملة في المدافن الأخرى وهي بقياس ٣٠ ــ ٤٠ سم طولا و ١٠ سم سمكا. وقد تعرض كلاهما لاعمال السرقة والتخريب التي حدثت في أزمان قديمة حيث لم يبق من أسسهما سوى القليل جدا. أما مكتشفاتهما فقليلة جدا إذ لم يعثر بداخلهما سوى على خرزتين من العظم وكمية قليلة من الفخار السميك إضافة إلى بعض الدبابيس البرونزية وقطع صغيرة أخرى من البرونز.

والمدفن (F) مدور قطره ٦,٦٠ متر مبني بأحجار منحوتة بنفس القياسات المذكورة أعلاه. لم يبق من جداره الخارجي البالغ عرضه ١١٥ ــ ١٢٠ سم سوى النصف وبارتفاع خمسة صفوف فقط وذلك لتعرضه للتخريب الذي أصاب التقسيمات الداخلية كذلك. وكل ما يمكن معرفته عن هذه التقسيمات هو كشف بقايا جدار سمكه ٩٠ سم يتجه من الشرق إلى الغرب وربما كان يقسم المدفن إلى قسمين متساويين. أما أرضية المدفن فكانت ممهدة بمساطب حجرية.

أما المدفن (G) فهو دائري كذلك قطره ٦,٤٠ متر وهو مشابه للمدفن السابق ومجاور له في جهة الشمال تعرض جداره الخارجي الذي يبلغ عرضه ١,١٠ متر وتقسيماته الداخلية إلى تخريب كبير حيث لم يبق من أسسه الخارجية سوى أربعة صفوف من الأحجار طول ٣٠ ــ ٤٠ سم وسمك ١٠ ــ ١٢ سم، وكل ما يمكن تمييزه من التقسيمات الداخلية هو الجزء الأسفل من جدار وسطي عرضه ٩٠ سم يتجه من الشرق إلى الغرب ويقسم المدفن إلى قسمين على غرار المدفن (F) أما بقية التقسيمات فلا يعرف عنها شيئا في حين أن الأرضية ممهدة بالمساطب الحجرية. أما الانقاض التي تملأ هذا المدفن فقد أمكن تمييز ثلاث طبقات فيها. العليا وسمكها ٨ بوصات وتتكون من شظايا الأحجار الصغيرة والوسطى وتتكون من تربة بنية ممزوجة بالحطام والسفلى تتألف من أحجار صغيرة صفراء مندمجة بالتربة.



ميشال اسطفان

مُسَابَقَة الطّوَابِع

نادي هواة جمع الطوابع يرحب بكل هاوٍ منتسب إلى النادي، في مطلع هذا العام الجديد للاشتراك في مسابقة الطوابع رقم ١.

شروط المسابقة:

١ ـ على المشترك أن يرسل الأجوبة عن الأسئلة المدرجة أدناه، في أقرب فرصة، وألا تتعدى ٢٨ شباط/فبراير/١٩٨٢.

٢ ـ تكتب الأجوبة على القسيمة المصورة أدناه وترسل إلى المجلة باسم النادي.

ثلاثة جوائز من طوابع ذات قيمة، تُعطى مجانا لأول ثلاثة فائزين في هذه المسابقة:

حضرة السيد ميشال اسطفان
تحية وبعد، إن الأجوبة لمسابقة الطوابع رقم ١ هي:

١ ـ ....

٢ ـ ....

٣ ـ ....

٤ ـ ....

٦ ـ ....

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

الاسم

أما الأسئلة فهي:

١ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت مجموعة اتحاد البريد العربي لسنة ١٩٥٤؟ صورة ١.

٢ ــ ما هو عدد طوابع المجموعة لكل من هذه البلدان.

٣ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت مجموعة مجزرة دير ياسين؟ صورة ٢.

٤ ــ ما هو عدد طوابع المجموعة لكل من هذه البلدان.

٥ ــ ما هي البلدان العربية التي أصدرت طابعاً يحمل صورة مقر الجامعة العربية في مصر؟ صورة ٣.

٦ ــ ما هو الخطأ الذي ظهر في هذا الاصدار؟



صورة ١



صورة ٢

صورة ٣

نُرحب بأية ملاحظات من قبل القراء والهواة عن هذه المسابقة، وتشجيعا للهواة نطلب أن يبعثوا إلينا باقتراحاتهم عن أية نشاطات أخرى لديهم، تساعد على تنشيط حركة النادي وتقدمه.

وبهذه المناسبة، تقدم الهاوي رقم ٤ السيد وليد الرفاعي باقتراح مفيد ألا وهو أن نعبىء دفاتر صغيرة بالطوابع العربية المختلفة، جديدة ومستعملة، ونسعرها افراديا ونرسلها في البريد لمن يريد أن يشترك في انتقاء حاجته منها، على غرار النوادي العالمية بشروط معروفة. وهذه الطريقة تسمى «إرسالية برسم القبول» وشروطها كما يلي:

١ ــ يوضب النادي دفاتر مختلفة بالأصناف التي يجمعها كل هاوٍ.

٢ ــ يودع الهاوي المشترك على سبيل الضمان لدى النادي مبلغا لايتجاوز ٢٥ دولارا عن كل دفتر يطلبه.

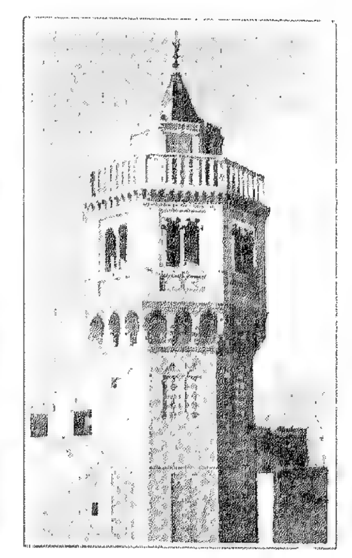
٣ ــ يرسل النادي لمن يطلب، نماذج اشتراك بهذا المعنى، ليعبئها ويرسلها مع قيمة الايداع.

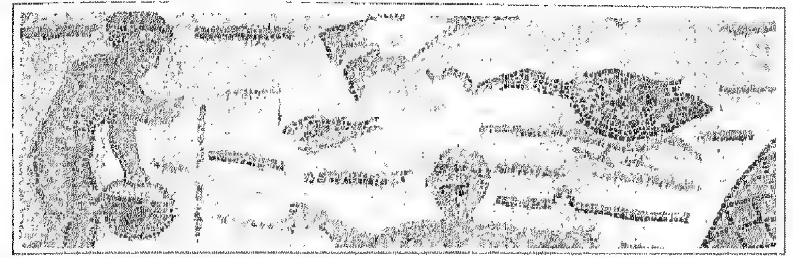
٤ ــ بعد استلام الدفتر الواحد أو أكثر، ينتقي حاجته ويرجعه مع قيمة الطوابع التي يكون قد سحبها من الدفتر، حتى تبقى قيمة الضمان كما هي، إذا رغب مواصلة هذه العملية.

نشكر السيد الرفاعي على اقتراحه هذا، ونضعه أمام الهواة منتظرين رأيهم حتى نباشر بهذا النشاط الجديد حالا. ■



بنزرت في عصور ما قبل التاريخ


جامع بنزرت


لوحة فسيفساء تمثل صيادين على شاطىء بنزرت


إن كل من يتأمل ويتفحص كتب التاريخ، التي تتحدث عن المدن، يلاحظ أن بطولات وصناعات وعباقرة تصمد باقية على مر الزمن.

بنزرت الخالدة: إن مدينة بنزرت كانت محط الأنظار والأطماع للدول التي كانت تريد السيطرة على البحر الأبيض المتوسط: إبتداء من الفينيقيين في الماضي البعيد إلى الفرنسيين في الماضي القريب...

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن مدينة بنزرت التي تشغل موقع المدينة الفينيقية لم يعرف منها إلاّ القليل في عصر ما قبل التاريخ... وكل ما هنالك أنها مدينة تجارية عريقة أسسها الفينيقيون[١]. بين القرن التاسع والسابع قبل الميلاد، بعد ما قدموا إلى تونس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبعدما أسسوا (قرطاجنة) و (أوتيكا).

هيبوزارنيس أو هيبوباريبنوس: قبل أن يطلق عليها اسم بنزرت كان يطلق عليها باللاتينية (هيبوزارنيس) أو (هيبوباريبنوس) أي مدينة السوق الواقعة عبر القنال، ويذكر المؤرخون أن العرب هم الذين أطلقوا عليها اسم (بنزرت) أبان فتحها على يد القائد العربي معاوية بن حديج في عام (٤١ هـ ٦١٩م). هذا وقد اختلف بعض المؤرخين في إطلاق هذا الاسم من قبل العرب الفاتحين فمنهم من يرى أن اسم بنزرت مشتق من إسم أميرة فاتنة الجمال تدعى (بنت زرت) سميت على اسمها نسبة لموقعها الجميل. ومنهم من يقول إن هذا الاسم تحريف من الاسم الفينيقي التي عرفت به فيما مضى. وقسم آخر يذكر أن أصل تسميتها يعود إلى اسم عشيرة كانت تسمى، بني زرته.

... وعلى كل شاءت الأقدار أن تعرف هذه المدينة في كل أنواع الحضارات سواء في العهد القرطجني عام (١٠٠٠ قبل الميلاد ـــ ١٤٦ قبل الميلاد). أو في العهد الروماني (١٤٦ ـــ إلى ٤٣٩ قبل الميلاد) أو في العهد البيزنطي (٥٣٤م إلى ٦٤٢م). حتى العهد العربي الذي ابتدأ من عام (٤١هـــ ٦٤٩م).

بنزرت والحضارات السامية: لم يمض عهد من هذه العهود إلا ونشرت حضارات في بانزرت: الفينيقيون نشروا بها التجارة والصناعة والصناعات التقليدية، والرومان نشروا بها فنون الهندسة والعمارة والزراعة. والبيزنطيون نشروا بها فنون الموسيقى والنقش. والعرب نشرو بها الدين الإسلامي الحنيف ولغة القرآن المجيد.

بنزرت والحروب البونيقية قبل الميلاد:

تعرضت بنزرت لكثير من المحن والغارات أثناء الحروب البونيقية التي امتدت من عام (٢٦٤ إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد) ويقول بعض من المؤرخين أن الرومان استولوا على بنزرت واستفادوا منهاومن شاطئها الهادىء لتزويد،رومة بالمؤن، والخمور، والثمار، والمواد الغذائية، كما بنوا فيها عدة منشآت لا يزال بعضها ظاهراً إلى الان مثل: حنايا جبل الناظورة، وحنايا وادي الداموس، والجدران المساندة لنوافذها.

هذا وقد أمكن لبنزرت أن تعيش حقبة طويلة في استقرار وهدوء. كما كانت محط أنظار التجار والنبلاء من سائر أطراف الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف... وبعد هذه الفترة الطويلة من الرخاء والاستقرار، تستقبل (بنزرت) عهدا أسود من التخريب والدمار في ذلك العهد عهد الوندال الذي دام (٩٥ سنة من عام ٤٣٩ إلى عام ٥٣٥ م). حيث هاجمها واحتلها جنسريق، زعيم الوندال في ١٩ أكتوبر من عام ٤٣٩م. فهدم المحتلون أسوارها، كما جعل منها مركزا وقاعدة حربية كبرى في البحر الأبيض المتوسط، وعاث فيها الفساد، وانتقم من أهلها الوطنيين، الذين دافعوا عن المدينة دفاع الأبطال[٢].

العهد البيزنطي:

احتلها البيزنطيون القادمون من القسطنطينية بقيادة بيليزار ، الذي جاء بجيشه برادس في ٢٢ سبتمبر عام (٥٣٤ م)، وبعدما استولى هذا القائد على (قرطاجنة) اتجه نحو الشمال التونسي فحرر بنزرت وقد أعاد إليها الحياة الطبيعية، وبنى الونداليون فيها أبراجا عظيمة، كما بنوا السور المحيط بها، واستغلوها في نشاطهم التجاري، وخيم الهدوء والاستقرار على المدينة، وعادت الحياة الطبيعية إليها من جديد، وعاود المواطنون أعمالهم التجارية والصناعية والزراعية، ونشر الأمن والاطمئنان والسلام بين ربوعها وسكانها.

بنزرت في الفتح الإسلامي:

لقد فتحها العرب على يد معاوية بن حديج في عام (٤١هـ ــ ٦٤٩م) إلا أنه لم يتم فتحها نهائيا إلا على يد القائد الشهير حسان بن النعمان الغساني في عام (٦٩٨م) حين صارت بنزرت منذ ذلك العهد عربية مسلمة، وقد اهتم بها الأغالبة اهتماما بالغا في عام (٨٠٠ ــ ٩٠٨م) فبنوا شاطئها القديم، وأسواقها ومساجدها، كما بنوا قصبة الكرة البحرية سطوة. وقد ذكرها ابن حوقل في القرن الثالث الهجري. ثم جاء الفاطميون وبنو حولها عدة مدن كبيرة مثل: أنبولة، والنخلات الثلاث... وروى الادريسي أن بنزرت نشطت بها الحركة التجارية بعد ما قاست من الحوادث والحروب والفتن والغارات التي حلت بها، والتي من أجلها خربت تونس، وكان عام (١١٤٨م) الذي عانت فيه تونس أشد قسوة تعرضت لها.

الغزو الهلالي، وغزو بني سليم:

وهنا تعرضت بنزرت للغزو الهلالي، وغزو بني سليم ورياح، وقد حكمها في هذه الفترة بنو الورد اللخميون وذلك عام (٤٠٤ ــ ٥٥٥هـ)[٣].

ثم خضعت لحكم عبد المؤمن بن علي من عام (١١٦٠م) ومن بعده ليحيى بن غانية المرابطي وذلك فيما بين عامي (١٢٠٢ ــ ١٢٠٤م)، ثم حكمها الحفصيين.

بنزرت تحت حكم الحفصيين:

جاء الحفصيون إلى البلاد ووضعوا يدهم بيد شارل ملك الاسبان، ولم يتخلف ملك الاسبان شارل، عن مد يد المساعدة للحسن الحفصي

الذي استنجد به عام (٩٤٣هـ ١٥٣٥م) إذ جهز جيشا قوامه من (٤٠) سفينة حربية، وكانت حمولة هذه السفن ما يقارب ٢٥٠٠ جندي مدججين بالسلاح الكامل الذي استولوا به على تونس في عام (١٥٣٥م) وبعدما نصب الحسن الحفصي نفسه على عرش البلاد بمساعدة شارل، ملك الاسبان[٤]، مقابل منحه امتيازات كبيرة أعطاها للأسبان، كما احتل الأسبان عدة مدن وكان منها بنزرت.

هذا وقد هدم الاسبان كل القلاع الموجودة بالمدينة، وكان القصد منها معاقبتها على مقاومتها العنيفة له. هذا وقد انتهى حكم الاسبان وتم الجلاء عام (١٥٧٢م)

لكن الاسبانيين كانوا قد تركوا في بنزرت حامية إسبانية نظراً لأهميتها الاستراتيجية وقد بنت هذه الحامية قلعة حصينة بحي (القصبة) تعرف بـ (القلعة الاسبانية) وهي ما زالت إلى هذا التاريخ[٥]. وقد ظلت الأحوال راكدة ركود الماء حتى تحررت (بنزرت) من ظلم الاسبان لها، ثم أخذت المدينة تستعيد قواها ونشاطها من جديد فكونت لنفسها أسطولا يجوب البحار، ويفرض سلطانه من جديد، وقد قهر الأسطول البيزنطي أسطولا من جنوه يقدر جنوده بعشرين ألف بحار وكان هذا في عام (١٥٧٥م).

بنزرت في العصر التركي:

في العصر التركي من عام (١٥٧٣ ـ ١٧٠٥) اهتم يوسف داي المرادي اهتماما كبيرا ببنزرت فأجرى إليها المياه، واحيي شواطئها، وجدد مساجدها وأصلح أسوارها. وشهدت بنزرت عدة حملات للقرصنة في العصر التركي في بحرها، وخاصة منها الحملة الفرنسية الايطالية التي قادها كبير أساقفة سالينو.

بنزرت في القرن السابع عشر للميلاد:

في أواخر القرن السابع عشر للميلاد بدأت الأنظار تتجه إلى هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة وعلى الأخص من قبل ملوك فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وكان كل واحد منهم يفكر ببلع هذه المدينة والاستيلاء عليها حتى يخلو له البحر ويجد فيه الجميع مرتعا خاصا وسهلا لهم ولممتلكاتهم. واشتد الضغط العسكري البحري على بنزرت حتى قبل الداي بالتوقيع على المعاهدة المفروضة التي حملها المرشال ـ إسترى ـ وتحول بها لمرسيليا وكان ذلك في شهر سبتمبر من عام (١٦٨٥م).

التمثيل الدبلوماسي في بنزرت:

في بداية عام (١٦٨٥م)وقعت اتفاقية دبلوماسية بين الحكومة الفرنسية وبنزرت على أن يكون لفرنسا قنصلا عاما ببنزرت... وهكذا ازدادت المطامع الاستعمارية متجهة نحو البلاد وتتحين الفرص لتحقيق الأهداف التوسيعية، وفي عام (١٧٠٥م) استلم حسين ابن علي وأطلق على نفسه لقب ـ الباي ـ حيث تربع على عرش تونس وانفرد بالحكم لنفسه وجعل الملك وراثيا وحقا للعائلة الحسينية، ابتداء من حسين بن علي.

... ومرت الأيام والسنون واشتد إهمال (البايات) لأمر الدولة فوقع (علي الباي) في ١٤ مارس (١٧٦٣م) اتفاقية مع شركة فرنسية تدعى (الشركة الملكية لافريقيا) وبمقتضاها صار للشركة الحق في إقامة مصرف لها ببنزرت لصيد المرجان، وإعطاء الحرية لعمالها الأوروبيين من مباشرة طقوسهم الدينية في بيوتهم مع الحفظ والأمن لحياتهم وأرواحهم.

وبعد بضعة شهور من التوقيع على هذه الاتفاقية قذفت القوات البرية الفرنسية مدينة بنزرت بالقنابل والمدفعية البحرية بحجة تهديد (الباي) ومعاقبة بلاده لأنه لا يريد أن يعترف بانضمام جزيرة (كورسيكا) إلى فرنسا. ثم عاودوا قصفها في القرن الثامن عشر وقد تخرب وتهدم من جراء هذا القذف ميناء (بنزرت) وبعض من أحيائها.

الانذار الفرنسي لباي تونس:

أرسل الأميرال الفرنسي عند وصوله إلى تونس إنذارا إلى والي المدينة وهو محمد بن حسن صهر الباي حينذاك، يعلمه فيه بأنه يجب

تسليم المدينة في ظرف ساعتين فقط، وإلا المدينة كلها ستدمر، ولم يجد حاكم المدينة ـ أمام ضعف نظام البايات ـ إلا أن يستجيب لأمر السلطة المغيرة المهددة، ويأمر لهم بالنزول فنزلوا ببنزرت وهم في مأمن من أية مقاومة

وهكذا تم ما اراده الاستعمار الفرنسي حيث نزل كل من الجنرال (بيار) وجنوده في الساعة حوالي السادسة من صباح غرة مايو (١٨٨ م) وكان الأسطول الحربي المؤلف من السفن الحربية الفرنسية التالية: (لاقاليسونيار) ويقودها (كونراد) و (لاسور فايانت) ويقودها (ليوبارد) و(الأمة) ويقودها الكومندان (ميو)، ومن المدرعات المدرعتين الحربيتين (ليوبارد) و (الأميرة البيضاء).

هذا ونزل الأميرال بجنوده متعهدا باحترام السكان وعدم الأضرار بالأرواح والممتلكات.

وفي صباح ٢ مايو من عام (١٨٨١م) نزل فوج آخر من الجنود، أما بقية الأفواج فقد نزلت بعتادها الحربي إلى أرض بنزرت في اليوم الثالث، وانتشر الجنود الفرنسيون كالجراد المنتشر في المدينة وعلى شواطئها ورفعوا أعلام الاحتلال فوق حي القصبة، وفوق ـ القلعة الاسبانية ـ والقصيبة... ومن ذلك التاريخ سلمت بنزرت وحصونها الأربعة التي كانت تحرس المدينة إلى القوات الفرنسية القادمة من البحر.

التحسينات التي قدمها المستعمر الفرنسي:

في عام (١٨٩٨) أظهرت فرنسا اهتمامها ورغبتها في أن تدخل على البحيرة تحسينات تسمح بايواء البوارج الكبيرة، وكلفت لجنة خاصة بضبط مصاريف هذه الأشغال التي قدرت نفقاتها بـ ٨٦٠٠٠٠ فرنك، وبدأت عمل لجنة التوسيع والاصلاح لهذه القاعدة وتحصين مينائها.

هذا ما جاء في الكتاب الفرنسي الذي عنوانه (الجيش الرسمي في البلاد التونسية) والذي نشر باللغة الفرنسية في سنوات الاحتلال الأولى...

وبفضل هذه التحسينات أصبحت بنزرت، قاعدة بحرية حيوية صالحة لصد الهجمات وضد السلاح الذري.

ونظرا لأهمية هذه المدينة، ولما يمتاز بها مينائها العظيم[٦].

احتلت (بنزرت) من طرف قوات المحور عام (١٩٤٢) وقد استرجعها الحلفاء عام (١٩٤٣) بعدما تهدم ودمر منها حوالي سبعون بالمئة من مبانيها.

الخلاصة

لقد لعبت هذه المدينة دورا هاما في تاريخ الحركة الوطنية، وقد اشتهر أبناؤها بالشجاعة والاقدام والبطولات والفداء...

ولعل من أبرز المعارك التي عاشتها بنزرت هي معركة الجلاء الأخيرة التي اندلعت في عام (١٩٦١) حيث تعرضت هذه المدينة إلى أبشع الصور الوحشية من الاستعمار، وقد سجل أبناؤها صفحات طويلة خالدة في هذه المعركة وكل المعارك التي خاضها الشعب البنزرتي البواسل ضد الاستعمار الغاشم على أرضه وبلده، وقد زاد فخرا في تقديم أبنائه الشهداء الواحد تلو الواحد على مذبح الحرية والكرامة في تخليد هذه المدينة الظافرة على ممر العصور والتاريخ.

محمد الفاكياني

دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

المصادر

نزهة المشتاق في اختراق الافاق، محمد الادريسي.
تاريخ الدولتين، للزركشي.
صفوة الاعتبار ج ٣، محمد بيرم الخامس التونسي.
المشروع الملكي، محمد الصغير بن يوسف الباجي.
دائرة المعارف الاسلامية، مادة تونس.
غزوات عروج وخير الدين، تحقيق نور الدين بن عبد القادر طبع الجزائر.
تونس وفرنسا، عبد المجيد المطوي طبع تونس.
تونس عبر التاريخ، لأحمد بن عامر طبع تونس.

الهوامش

(١) الفينيقيون من أصل سامي كنعاني موطنهم الأصلي لبنان وقسم من سورية، أسسوا (قرطاجنة) عام (٨٨٠ قبل الميلاد)، حيث اشترت الأميرة: (جونو) بأموالها ارضا من الملك البربري، (إرباس) وأسمتها باسمها كرت جونو) ثم حرفت هذه التسمية فصارت: (قرطاجنة) ويذكر بعض المؤرخين أن الفنيقيين عرفوا الشمال الافريقي منذ عام (١٥٠٠م).

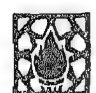
(٢) الوندال من السلالة السلافية، انتشروا في ألمانيا ثم انحدروا إلى إسبانيا وخاصة في المناطق الجنوبية منها: نواحي غرناطة عام (٤٠٩) وسميت الجبهة باسمهم ــ فاندالوسيا ــ ثم حرفوها العرب بعد الفتح وصارت تسمى الأندلس. أما العرب فقد قطعوا جبل طارق واحتلوا المغرب ثم الجزائر ثم تونس.

(٣) أسس أبو الرجاء الورد اللخمي دولته بنزرت في عام (٤٠٤هـ ــ ٥٥٥هـ).

(٤) شارلكان ملك إسبانيا تولى الملك في عام (١٥١٦م) إلى عام (١٥٥٨م) وكانت سلطته تشمل: إسبانيا والنمسا، وإيطاليا، وهولاندا، وألمانيا وأميركا كلها، زحف على تونس ودخلها عام (١٥٥٣م) وأمر بنهب امدينة ومن أبشع ما ارتكبه جيشه وأعوانه أنه بدد كل ما وجد كن مخطوطات وكتب ونحوها، والتي كانت تحويها (المكتبة العبدلية) بعد هجومه على جامع الزيتونة العظيم، وبعدما نصب الحسن الحفصي على كرسي الحفصيين اشترك مع الاسبان في أمور الدولة مع إحدى قوات جيشه، ثم قبل مبارحة شارلكان العاصمة، وقد وقع معاهدة مع شارلمان بتاريخ وعام (٩٤٢هـ) التزم له الحسن فيها بالترخيص للاسبان في السكنى في كامل تراب البلاد، وبالتنازل عن بعض المدن ومنها (بنزرت).

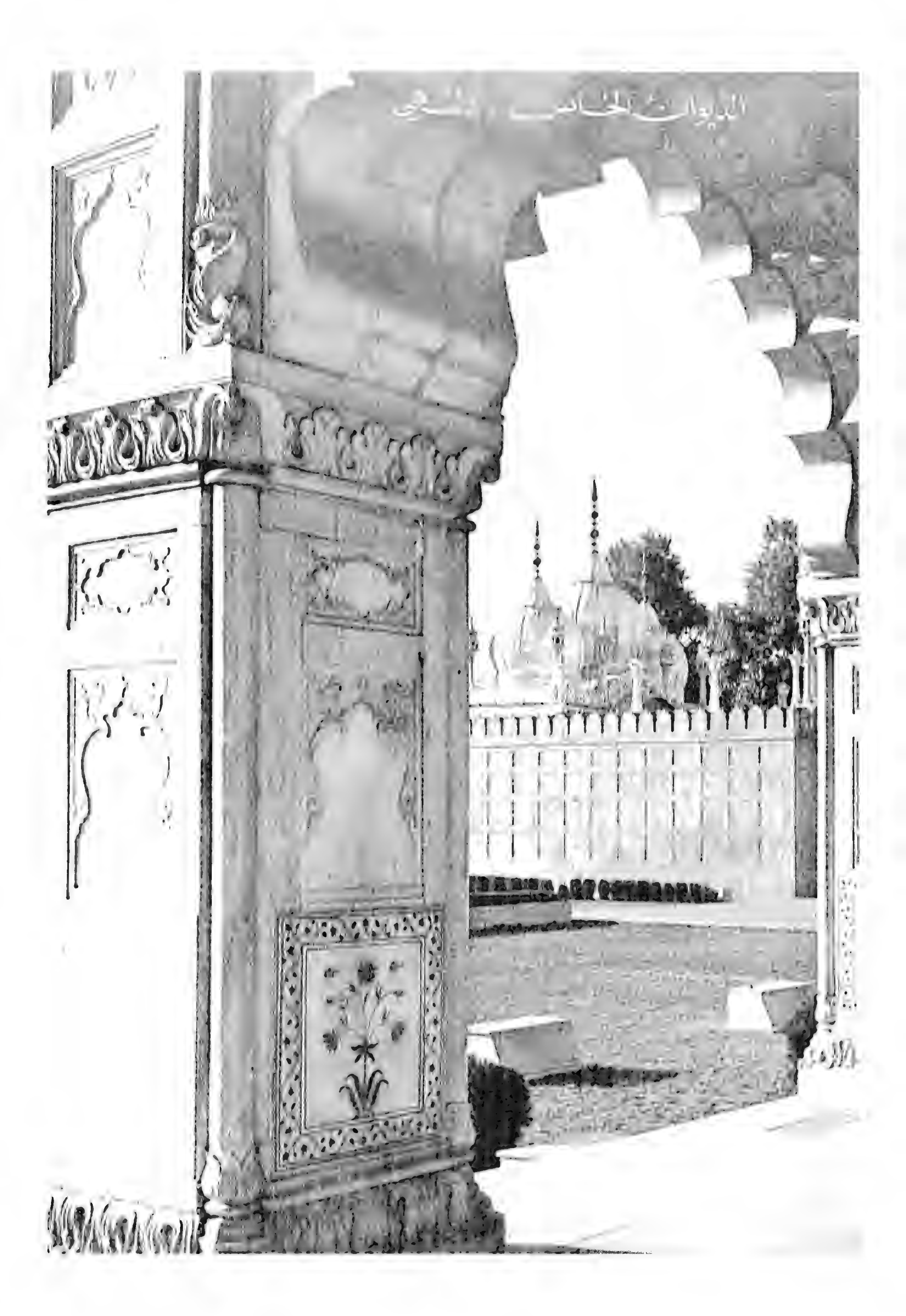
(٥) جول فيري أحد رجال الدولة الفرنسية البارزين، وكان من أنصار التوسع الاستعماري، وهو الذي ثبت دعائم الحكم الفرنسي في كل من تونس، وتونكان، والكونغو.

(٦) ابتدأت فكرة حفر الميناء منذ شهر مارس من عام (١٨٨٣م) وبدأ العمال بالحفر في عام (١٨٨٥م)، وفي عام (١٨٩١) وضع المقيم الفرنسي (ماسكو) الحجر الأساس لبناء المدينة الحديثة، وانتهت الاشغال من بناء (بنزرت) في عام (١٨٩٥).



ــ لا يوجد شخص أكثر إثارة من الشخص الذي يملك قدراً أقل من الذكاء وحساً أكثر مما لدينا.

(دون هيرالد)



الديوان الخاص - دلهي

تاريخ العرب والعالم

السنة الرابعة • العدد الأربعون • شباط (فبراير) ١٩٨٢ م • ١٤٠٢ هـ

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون التاريخ والحضارة

العدد الأربعون • شباط ١٩٨٢ م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.		تونس : ١ دينار	
العراق : ٨٠٠ فلس		الكويت : ٧٠٠ فلس	
السعودية : ٨ ريال		الامارات: ٨ درهم	
الاردن : ٥٠٠ فلس		قطر : ٨ ريال	
البحرين : ٨٠٠ فلس		عدن : ٨ شلنات	
مسقط : ٨٠٠ بيزة		المغرب : ٦ درهم	
فرنسا : ١٠ فرنكات		بريطانيا : جنيه استرليني	
سوريا : ٦ ل.س.		اميركا : ٣ دولارات	

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية ابو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 4. No. 40, FEB. 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



صِيانةُ المُدُنِ العَرَبيَّةِ الإسْلاميَّةِ

د. شوقي شعث



سوق الخياطين في طرابلس القديمة حافظ على طابعه

البحث في صيانة المدن العربية الاسلامية في المرحلة الراهنة ليس بالأمر الهين رغم تشابه عناصر وجودها، نظراً للوحدة الجغرافية والتاريخية والبشرية والعقائدية التي كانت قائمة فيما بينها في فترات طويلة من فترات التاريخ، وعليه فالحديث عن مدينة كمدينة حلب أو دمشق أو فاس أو بغداد أو القاهرة، يبقى في خطوطه العريضة، واحداً وكثير الشبه، وبالرغم من هذا التشابه، فالبحث في موضوع صيانتها يبقى صعباً، لأنها أبحاث حديثة الوجود في العالم العربي

إن مصادر دراسة صيانة المدن العربية الاسلامية لازالت غير متوفرة كما يجب، ومما يزيد الأمر صعوبة أن هناك كثيراً من المدن العربية الاسلامية لازالت مجهولة تماماً بالنسبة لكثير من الباحثين نظراً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمر بها المنطقة العربية ككل، هذا الواقع يجب أن لا يثبطنا عن التصميم، بل يجب أن يكون الدافع الحافز لنا للبدء فوراً ودون تردد في دراسة المدن العربية الاسلامية، والعمل على حمايتها، لأنها الشاهد الحي على الشكل الحضاري لحضارة عربية اسلامية ذات مستوى فني رفيع مزجت بين الفن التقني والجمال المعماري والعمراني، بحيث استجابت في نفس الوقت للحاجات النفسية والمادية والروحية لسكانها. فالعمارة الاسلامية أو ــ ما بقي منها ــ هي الشاهد الأكثر شمولاً ودقة عن الحياة المادية والمعنوية لفترة تاريخية طويلة، واذا أخذنا كمثال لهذه العمارة مدينة صنعاء في الجمهورية العربية اليمنية أو سيؤون أو شبام في جمهورية اليمن الديمقراطية نجدها نموذجاً معمارياً فريداً لم يزل في حالته البكر قلّ أن نجد مثله في أي مكان آخر على مثل هذه الدرجة العالية من الكمال المعماري وان الأهمية التاريخية والدينية والفنية والمعمارية التي تنفرد بها كثير من المدن العربية الاسلامية كصنعاء ودمشق وحلب ومكة والمدينة المنورة والقدس والاحياء القديمة في فارس ومراكش والجزائر وتونس والقاهرة ومسقط ودبي والمنامة وغزة وغيرها الكثير، تستحق أن تعتبر مساوية لمدن مثل البندقية أو فلورنسا في النظر اليها كجزء من التراث الثقافي المعماري العالمي. ولكن ــ أقولها للأسف ــ ان هذه المدن ومثلها في ذلك الكثير تتعرض للتشويه والتدمير، بقصد أو بدون قصد، والسلطات المسؤولة تقف متفرجة في كثير من الأحيان كأن الأمر لا يعنيها وان التمسنا العذر للبعض، فإن خطأ فادحاً يرتكبه البعض الآخر في حق تراثها الوطني وتراثها العربي وبالتالي التراث العالمي ككل. ان كثيراً من الأمم تفتش عن بقايا جدار أو كسرة من الفخار في محاولة لأن تجد لها اسهاماً ولو قليلاً جداً في الحضارة العالمية لتتمكن من تحديد هويتها الوطنية أما الأمة العربية التي تصل جذورها الى أعماق التاريخ وشواهدها الحضارية لا تغيب عنها الشمس، فهي تقلع تلك الجذور وتدمر تلك الشواهد بأيديها، وأملنا أن لا يمر وقت طويل ــ وهذا مصدر تفاؤلنا ــ حتى تعرف هذه الأمة أنها خربت الكثير وستجد نفسها مضطرة لتحافظ على القليل المتبقي، ومن المطمئن حقاً أن الأصوات بدأت ترتفع في البلدان العربية بعد أن بدأت تعي معنى المحافظة على المراكز الحضارية (المدن القديمة أو الأحياء القديمة) سواء كان ذلك مصدر الوعي، الادراك العميق لمغزى صيانة تلك المدن أو الأحياء القديمة أو كان من باب التقليد للبلدان الأوروبية، فان على القلة من أبناء البلاد التي تدرك معنى ذلك أن تستغل ذلك لتحوله كلياً الى صالح الحماية الحقيقية للمدن القديمة سيما بعد أن زار عدد من الخبراء الذين أوفدتهم المنظمة الدولية للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو) إلى عدة بلدان

■ د. شوقي شعث
خبير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/الجامعة العربية/ في قضايا التراث

عربية بناء على دعوة حكوماتها لتقديم الخبرة لتلك البلدان في مضمار صيانة المدن العربية الاسلامية، فقد زار خبراء اليونسكو سوريا، العراق، اليمن الشمالي، تونس، الجزائر، البحرين، المغرب، لبنان، الامارات العربية المتحدة وغيرها وقدموا تقارير فنية عن تلك الزيارات كما أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أدركت أهمية هذا الموضوع وأصدرت عدة توصيات من أهمها التوصية التي صدرت عن المؤتمر العام الذي عقد في الخرطوم في شهر يوليو (تموز) عام ١٩٧٨ التي تتضمن القيام بحملة عربية لانقاذ المدن العربية الاسلامية مثل القيروان وفاس وغيرها من المدن العربية الاسلامية، وقد افتتح المدير العام للمنظمة العربية حملة عقدت في تونس في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٧٩. كما أن اللجنة الدائمة للآثار والمتاحف في البلاد العربية بدورتها الأخيرة التي عقدت في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٧٨ في بنيغازي في الجماهيرية الليبية أوصت فيما يتعلق بمدينة القيروان بما يلي:

(أ) ضرورة أن تقوم المنظمة العربية بتنظيم لقاء عربي علمي مع عدد من المختصين بالاشتراك مع المعهد القومي للآثار والفنون في تونس وذلك في المدة من ٢١ الى ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٧٩ أي قبيل انعقاد المجلس التنفيذي للمنظمة في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٩ وذلك للوقوف على الأعمال الجارية في هذه المدينة من قبل الحكومة التونسية وتدارس ما يستلزمه استكمال هذه الأعمال ومدى مايمكن أن يسهم به المجهود القومي فيها مادياً ومعنوياً وعلمياً على مستوى المنظمة والدول الأعضاء.

(ب) ان تنطلق الحملة بزيارة يقوم بها المدير العام للمنظمة مع أعضاء المجلس التنفيذي الى القيروان لتفقد الأعمال الجارية بها والوقوف على معالمها الأثرية وفي مناسبة هذه الزيارة يوجّه المدير العام للمنظمة نداء قومياً الى الأمة العربية للمساهمة على المستوى الرسمي ومستوى الهيئات المعنية والأفراد المعنيين مادياً ومعنوياً من أجل انقاذ المشروع الكبير الذي بدأته الحكومة التونسية لانقاذ مدينة القيروان. وفيما نعلم أن المنظمة العربية أخذت بتلك التوصيات ودعت الى اجتماع لجنة الخبراء كما أن السيد المدير العام للمنظمة قد افتتح الحملة العربية المشار اليها أعلاه لانقاذ مدينة القيروان.

هذا على المستوى الدولي والعربي، أما ما قامت به الدول العربية على المستوى الاقليمي فإن هناك خطوات مشجعة تمت في هذا المضمار في بعض الدول العربية كقيام المجالس العليا للآثار، اصدار التشريعات اللازمة لحماية المدن التاريخية، القيام ببعض الدراسات التاريخية والأثرية والمعمارية، تأسيس دوائر خاصة لحماية المدن القديمة (دائرة مدينة دمشق القديمة)، لكن تلك المدن تظل مهددة إلّا اذا توفرت أسباب تدعم تلك التشريعات. وفيما يلي سنعرض الأسباب التي تتهدد المدن العربية الاسلامية ووسائل معالجتها في حدود ما توفر بين أيدينا من معلومات ومراجع.

ان أهم الأخطار التي تتعرض لها المباني التاريخية والمدن القديمة في البلاد العربية بوجه الاجمال يمكن أن تكون ما يلي:

١ ــ الأخطار التي تتسبب عن قوى الطبيعة:

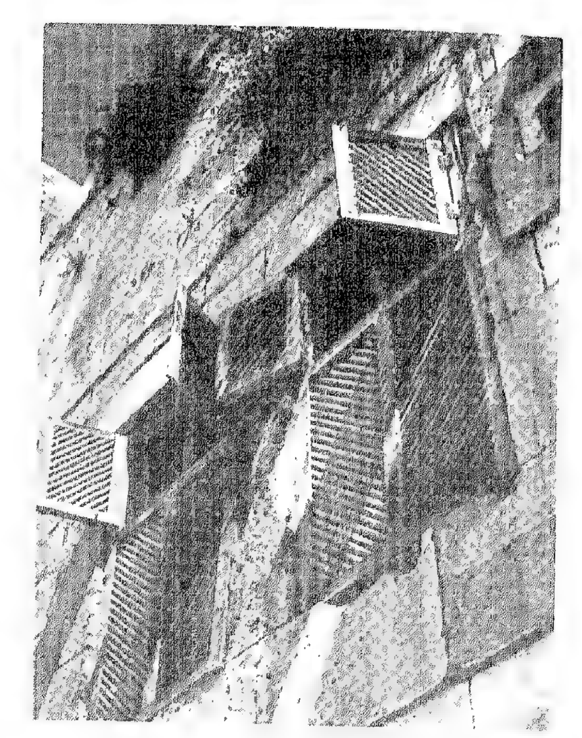
- الزلازل والصواعق.
- الأمطار والسيول.
- التقلبات الجوية كالحرارة والرياح والرطوبة.
- النباتات.

٢ ــ الأخطار الناتجة عن فعل الانسان:

- الحرائق.
- الحروب.
- أعمال الهدم والتخريب والاهمال.

وهناك أخطار استجدت وهي أهم في نظري من الأخطار الأولى لأنها تعرض البيئة العمرانية والمعمارية للمدينة القديمة للتخريب وبالتالي تخلق مشاكل معقدة يصعب حلها دون بذل الكثير من الجهود، ومن أهمها:

١ ــ التطور الاقتصادي المفاجىء في البلدان النامية ومنها البلاد العربية مما خلق مشاكل كثيرة منها نمو المدن الكبيرة على حساب المدن الصغيرة


الجدار القديم والمشربيات

مما سبب هجرة كثير من سكان الريف والمدن والقرى الصغيرة طلباً للعمل وغالباً ما يكون القادمون الجدد من الطبقة الفقيرة لذلك يلجأون الى السكن في المدينة القديمة أو في المباني التاريخية المهجورة ويلجأ هؤلاء الى ادخال بعض المباني الطفيلية لاستعمالهم الخاص كالمطابخ والمراحيض أو تشويه الجدار بالدهان أو بالبياض أو بتقسيم الغرفة الواحدة الى عدة غرف وقد يسبب هذا:

١ ــ هجر المراكز الحضرية الصغيرة وبالتالي خرابها ونمو المدن الكبيرة على حساب المدن والقرى الصغيرة.

٢ ــ زيادة كثافة السكان في المدينة القديمة أو الحي القديم في المدينة التي وفدوا اليها ورافق ذلك تغيير في البيئة الاجتماعية للمدينة القديمة وتغيير في مخططات المساكن وتغيير معالمها.

٣ ــ التحديث أي ادخال مواد البناء الحديثة كالاسمنت والقرميد نظراً لرخصه وسهولة الحصول عليه ونرى الأبنية المجردة من الذوق المعماري والجمال الفني قد قامت في المدينة القديمة مخربة بذلك البيئة العمرانية للمدينة القديمة ومدمرة التناسق والمنطق العمراني العربي الاسلامي.

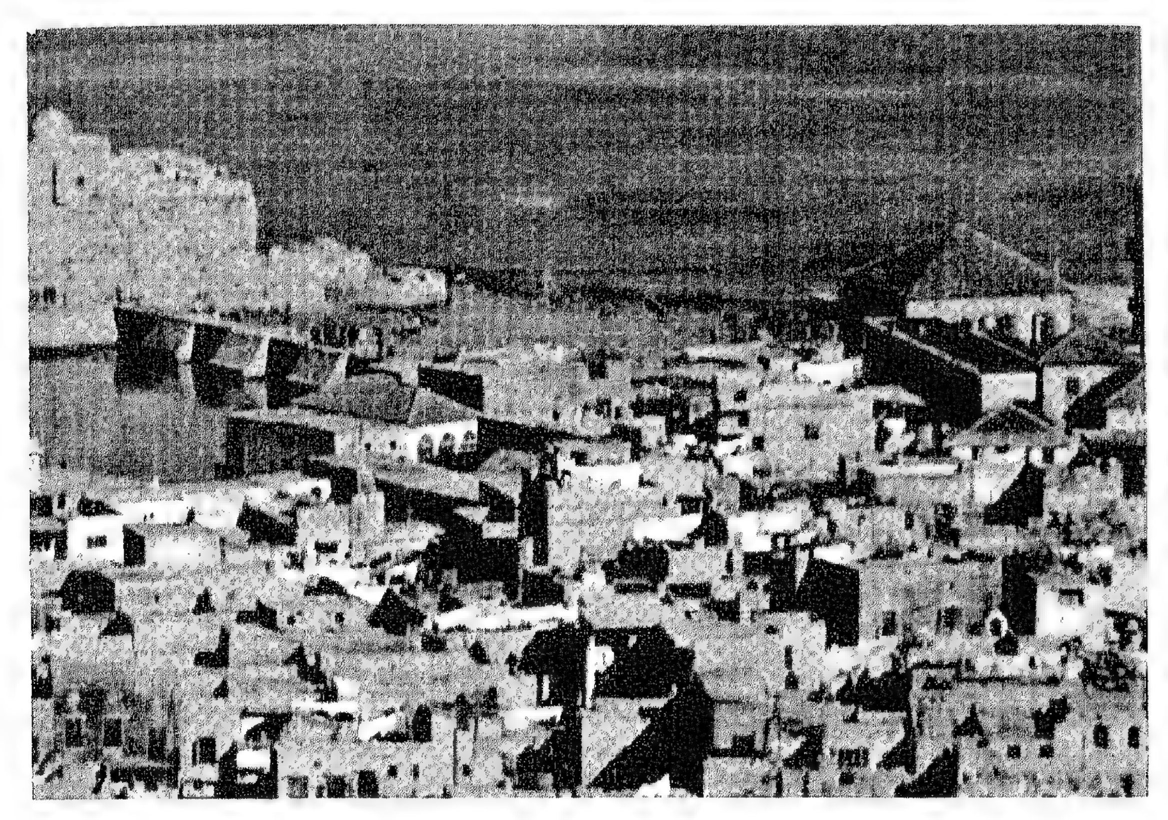
٤ ــ ميل القائمين على حماية المدينة القديمة في أول الأمر الى حماية المباني التاريخية بصورة منفردة دون الاهتمام بمحيطها وقد سبب هذا تخريب كثير من الشوارع والأزقة والحارات الخ..

٥ ــ الفقر وعدم الوعي الثقافي.

ان بلادنا العربية لا زالت بلاداً ذات اقتصاد زراعي في أغلبها، ولا يزال القسم الأعظم من سكانها فقراء ليس لديهم الامكانية المادية لصيانة وترميم بيوتهم، فيلجأون الى أبسط الطرق التي تكفل استمرار عيشهم في المباني التاريخية وبأسهل الطرق، هذا اذا تذكرنا أن كثيراً منهم لا يدفع أجراً أو ضريبة لقاء سكنه في البناء التاريخي. بالاضافة الى أن نقص الوعي الثقافي، كان ولا يزال، مبعث الاهمال والعبث بالقيم الحضارية.

٦ ــ عدم وجود تعاون بين السلطات الأثرية والبلديات المسؤولة عن التخطيط في المدينة، مما سبب تخريب الكثير من الشوارع والحارات والمباني التاريخية. لقد سيطر على المهندسين المسؤولين عن التخطيط في البلديات الوهم المتجسد في سيطرة مفهوم العمارة الحديثة، فنظروا الى القديم على انه عنوان التخلف لذلك لم يتورعوا عن شق الطرق في الأحياء القديمة وهدم المباني التاريخية وتخريب البيئة التاريخية والاجتماعية للمدينة القديمة. في بعض البلدان العربية ومنها سوريا أوجب قانون الاثار هذا التعاون حيث فرض على البلديات عرض مخططاتها التنظيمية على المديرية العامة للآثار والمتاحف لدراستها واعطاء رأيها فيها.

وفيما يتعلق بمعالجة هذه الأخطار التي تهدد المدينة القديمة الاسلامية في البلاد العربية، يجب أن لا يغرب عن البال أن صيانة شخصية المدينة الاسلامية أكثر تعقيداً من صيانة المبنى التاريخي بشكل افرادي، فصيانة المدينة القديمة تبرز كثيراً من المشاكل الفرعية وان كانت تخضع لنفس الشروط المطبقة في حالة حماية المبنى التاريخي المنفرد، ان الجو المتميز



مدينة صيدا القديمة

للمدينة القديمة وعناصرها الفنية والجمالية وطرازها المعماري وتخطيطها العمراني يجب أن يصان مهما بلغت التكاليف وعليه يمكن اقتراح الأمور التالية:

١ ـ دراسة المدينة القديمة دراسة اقتصادية واجتماعية وتاريخية وفنية للوقوف على فعاليتها الاقتصادية وكثافة سكانها وعلائقهم الاجتماعية، هذا الى جانب الأهمية التاريخية والفنية لمنشآتها، ولا بد في سياق تلك الدراسة من التعرف على الملامح الخاصة المميزة لها ليس كتركيب منفرد لمبانيها الأثرية فحسب بل كمحيط عمراني كامل وعليه يجب أن تنصب الدراسة وجمع المعلومات على مكونات المدينة ككل والعلاقة فيما بينها، يمكن بعدها افراغ المعلومات التي جمعت في مخططات توضح:

(أ) الأهمية الأثرية للمدينة القديمة وتشمل المباني التاريخية وتاريخها والعناصر الفنية المهمة وتاريخها التي يتفق على أهميتها الزائر والمواطن على حد سواء كذلك يجب أن يبين على هذا المخطط الساحات العامة ونقاط الاتصال.

(ب) الأهمية البيئية للمدينة القديمة وتشمل العناصر المرئية التي لها علاقة بالتاريخ المحلي والتقاليد والتطور الاجتماعي.

(ج) المناطق الخضراء المستعملة والحدائق: مثل المناطق الخضراء المزروعة بالأشجار، المناطق الخضراء المخصصة لاستعمال الجمهور، الأرصفة المصنوعة من الرقائق الحجرية، الأرصفة المكونة من الحصى، المناطق غير المزروعة، المناطق المعبدة بالأسفلت، أعمدة الكهرباء والهاتف واشارات المرور.

(د) الأشياء غير المرئية مثل المجاري العامة وشبكات الماء والكهرباء والقنوات والأنفاق الخ.

وتصنيف هذه المعلومات تصنيفاً علمياً دقيقاً.

٢ ـ دراسة الوضع العقاري للمدينة القديمة للوقوف على أشكال العقارات القديمة والتطورات التي طرأت عليها وصفة المالكين والشاغلين وعددهم وجنسهم وديانتهم وأوضاعهم الاقتصادية.

٣ ـ على ضوء ماسبق يجري اعداد التشريعات اللازمة واصدارها ووضع نظام ضابط للبناء للتمكن من حماية المدينة القديمة على أن يرافق ذلك حوافز للسكان كالاعفاء من الضرائب، اعطاء معونات مادية أو مشاركتهم في الصيانة مادياً تشجيعاً لهم على البقاء في المدينة القديمة وصيانتها.

٤ ـ على ضوء الدراسة السابقة أيضاً يتقرر مايجب المحافظة عليه من أجزاء المدينة القديمة وما يجب أن يزال وعندها يتقرر وضع خطة للمواصلات (عدم السماح للسيارات الخاصة بدخول المدينة القديمة ويمكن السماح لباصات النقل العام فقط). في حالة تقرير ازالة بعض القطاعات من المدينة القديمة يجب أن تعاد في حالة التفكير في اعادة بنائها متجانسة مع أبنية المدينة القديمة من حيث المواد والواجهات والارتفاعات.

٥ ـ استهلاك مايمكن استهلاكه من العقارات التاريخية وصيانتها وتحويلها الى مراكز ثقافية أو مكتبات عامة أو متحف أو في وظائف مماثلة.

٦ ـ لضمان استمرار الحياة في المدينة القديمة وهذا أمر حيوي جداً حتى لاتتحول الى منطقة مهجورة يجب ربط المدينة القديمة بالحياة الحديثة للمناطق المحيطة بها بحيث يوجد تداخل وتناسق وظيفي بينهما، كما يجب ربطها بطرق المواصلات الضرورية على أن تخصص الطرق القديمة الضيقة للمشاة ولباصات النقل العام.

٧ ـ اشتراك سكان المدينة القديمة في وضع الخطط الصيانية وخطط الحماية لمدينتهم مع السلطات الأثرية والسلطات البلدية كي يشعروا بأنهم يتحملون مع الأجهزة الرسمية مسؤولية حماية المدينة القديمة أو الحي القديم، ومن المفيد هنا تشجيع السياحة الى المدينة القديمة دون المساس بها كي يشعر سكانها بأنهم يستفيدون مادياً من الدخول السياحية، كذلك يجب أن يشعروا أن ممتلكاتهم الثقافية جديرة بالصيانة والحماية لأنها جزء من التراث العالمي، وحفظها ضروري للانسانية والتضحية من قبلهم ضرورية، كذلك يجب أن يعلموا أن العناصر المكلفة بمراقبة وحماية وصيانة المدينة القديمة انما يقومون بعملهم في نطاق الخدمة العامة.

٨ ـ اجراء تنقيبات أثرية في مناطق مختارة من المدينة القديمة للتعرّف على الطبقات السكنية فيها منذ أقدم العصور وبالتالي أدراك الأهمية التاريخية للمباني القائمة.

٩ ـ اعداد جهاز خاص للمدينة القديمة (دائرة) ليقوم على مراقبتها ووقف التعديات عليها ويقوم بالدراسات المنوّه عنها أعلاه، ومن المفيد أن يضم هذا الجهاز أثريين ومؤرخين ومعماريين وعمرانيين وباحثين اجتماعيين واقتصاديين ان أمكن ذلك، ويقوم كذلك باعداد جداول وفهارس لتصنيف المنطقة والمباني المراد حفظها في سجلات حماية الممتلكات الثقافية.

١٠ ـ عقد ندوة علمية خاصة بالمدينة العربية الاسلامية باشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنوياً وبالتناوب بين المدن العربية الاسلامية الهامة، تناقش فيها مشاكل صيانة المدينة الاسلامية توطئة لتوحيد منهج الصيانة في العالم العربي، يمكن أن يدعى لهذه الندوة بالاضافة الى الدول العربية اليونسكو، منظمة المدن العربية، المركز الدولي لصيانة الممتلكات الثقافية بروما، المركز الاقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في البلاد العربية ببغداد.

١١ ـ أحداث دورة تدريبية خاصة في حماية المدن العربية الاسلامية في المركز الاقليمي ببغداد تخصص للمهندسين والأثريين المشرفين على صيانة المدن الاسلامية، يمكن الاستعانة بالخبراء العرب والأجانب في هذا المجال.

١٢ ـ اعطاء اعتبار خاص لمدينة القدس العربية بمباشرة اتصالات دولية وعالمية للعمل على صيانتها ووقف تخريبها.

١٣ ـ اعطاء مزيد من الاهتمام لدراسة مواد البناء في المدينة القديمة مثل الحجر، الطوب، الخشب، الزجاج، المعادن، الرسوم الجدارية وغيرها. على اعتبار أنها مكونات أساسية. في رأينا أن هذه الأمور اذا طبقت تطبيقاً جاداً يمكن بها صيانة المدن العربية صيانة جيدة.

أمثلة من البلدان العربية:

سنعرض فيما يلي لبعض الأمثلة من البلدان العربية التي وصلتنا منها معلومات حول بعض المدن القديمة أو الأحياء التاريخية فيها.

أولاً ــ دمشق:

مدينة دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية اليوم وتعتبر من أقدم المدن العربية الاسلامية التي حافظت على ديمومة الحياة فيها حتى الآن، لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الاسلامي في العهود الأموية يوم كانت عاصمة لأكبر امبراطورية عربية اسلامية، وفي العهود الاسلامية التي تلتها خاصة العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية، هي مدينة غنية جداً بالآثار الاسلامية كالجامع الأموي وقبر صلاح الدين الأيوبي، والأسواق والأبراج والقلعة والمدارس والجوامع والمساجد والتكايا من مختلف العهود الاسلامية، ازاء هذا قامت السلطات الأثرية منذ زمن بحماية المباني الأثرية الاسلامية فيها بالترميم والتسجيل والمراقبة. وفي الآونة الأخيرة بدأت السلطات تعي ضرورة حماية تلك المباني في اطار البيئة العمرانية لها، وبعد دراسة أولوية قامت باتخاذ التدابير التالية:

(أ) أصدرت القرار الوزاري رقم ١٩٢/أ لعام ١٩٧٦ اعتبرت بموجبه مدينة دمشق القديمة الواقعة داخل الأسواق منطقة أثرية لايجوز البناء والترميم فيها الا ضمن شروط تحددها السلطات الأثرية.

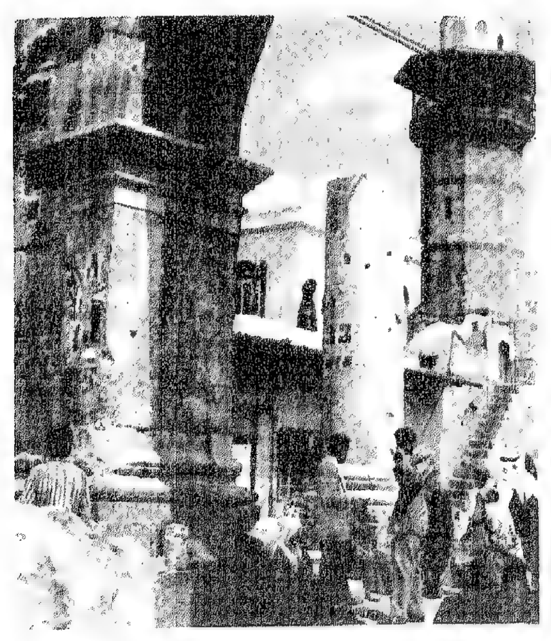
(ب) أحدثت دائرة خاصة بالمدينة أنيط بها:

١ ــ مراقبة المباني الأثرية المسجلة وقمع مخالفات البناء والترميم المحدث الواقع على هذه الأبنية والمناطق الأثرية.

٢ ــ القيام بجمع كافة المعلومات التاريخية عن المدينة القديمة.

٣ ــ القيام باستملاك الأبنية الأثرية المهددة بالخطر والعمل على ترميمها واعادة توظيفها في أغراضها الأصلية أو أغراض تتلاءم مع الأغراض الأصلية.

٤ ــ القيام بدراسة ميدانية لكافة النواحي



دمشق

العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في عدد من أحياء مدينة دمشق القديمة مثل حي اليهود القيمرية، عمارة جوانية، باب توما، وتصنيف دورها حسب الأهمية.

تهدف المديرية العامة للآثار والمتحف في الجمهورية العربية السورية من وراء ذلك الى تحقيق الأغراض التالية:

١ ــ الحفاظ على التركيب العمراني للمدينة القديمة.

٢ ــ الحد من الكثافة السكانية وذلك:

(أ) نقل تجارة الجملة الى خارج حدود المدينة القديمة.

(ب) نقل الحرف والصناعات الخطرة المتمركزة في الأحياء والبيوت القديمة الى خارج حدود المدينة القديمة.

٣ ــ الحد من حركة السير في أزقة وأسواق المدينة القديمة.

٤ ــ تأمين الخدمات الضرورية الهامة للمدينة القديمة.

٥ ــ تشجيع السكن والاستثمار السياحي في المدينة القديمة كترميم خان أسعد باشا وتحويله الى فندق سياحي. وترميم حمام نور الدين في سوق الزورية والوصول الى هذه الأغراض:

(أ) طلبت الجمهورية العربية السورية من اليونسكو تقديم الخبرة اللازمة في هذا المجال فأوفدت أحد الخبراء الذي قام بزيارة سريعة للمدينة ووضع تقريراً حول وضع مدينة دمشق القديمة الراهن.

«التقرير في قائمة «مراجع البحث». كذلك شكلت لجنة دولية في بداية العام جعل من مهامها القيام بدراسة كاملة للمدينة القديمة ووضع الخطط والمقترحات اللازمة للقيام بصيانة وتنظيم المدينة وذلك بالتعاون مع الخبراء العرب والسوريين.

(ب) الاستمرار في خططها السابقة في ترميم المباني الأثرية داخل المدينة القديمة.

مما سبق يتبين لنا أن السلطات الأثرية في الجمهورية السورية قد وعت أهمية حماية المدينة القديمة بدمشق وبدأت فعلاً باتخاذ الاجراءات اللازمة أملاً في الوصول الى وسائل ناجعة لصيانة عاصمتها.

ثانياً ــ مدينة القدس:

القدس عاصمة فلسطين وهي المدينة المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث ترزح الآن تحت الاحتلال الصهيوني وهي كذلك تعاني نوعاً آخر من المشاكل تختلف كلياً عن تلك التي تعانيها المدن العربية الاسلامية الأخرى فالعدو الصهيوني يهدف من مخطط وضعه لتنفيذه تدريجياً أن لا يرى أي أثر اسلامي أو مسيحي وأن لا يرى أي نمط عمراني يمكن أن ينسب الى شعب آخر من الشعوب غير الشعب اليهودي، وعليه فقد عمدت سلطات الاحتلال الصهيوني الى الاجراءات التالية في مدينة القدس:

١ ــ ضم مدينة القدس «القدس القديمة» الى القدس الجديدة، وبذلك أصبحت تحت رحمة المجلس البلدي الصهيوني.

٢ ــ عمدت الى تغيير المعالم التاريخية القديمة والمعالم العمرانية في المدينة المقدسة وذلك بحجة أن كثيراً من مباني الحارات القديمة فيها قد تصدعت بسبب القصف أثناء الحرب الأخيرة، (عام ١٩٧٦)، والواقع أنها أزالتها لاقامة المباني السكنية الجديدة لاستيعاب السكان اليهود من القادمين الجدد. من تلك الحارات التي أزيلت حارة المغارية.

٣ ــ عمدت الى تغيير البيئة الجغرافية والتاريخية للمدينة القديمة وذلك باحاطتها بأبنية نمطية طابقية لأغراض دفاعية وتوطئة لتهديد المدينة.

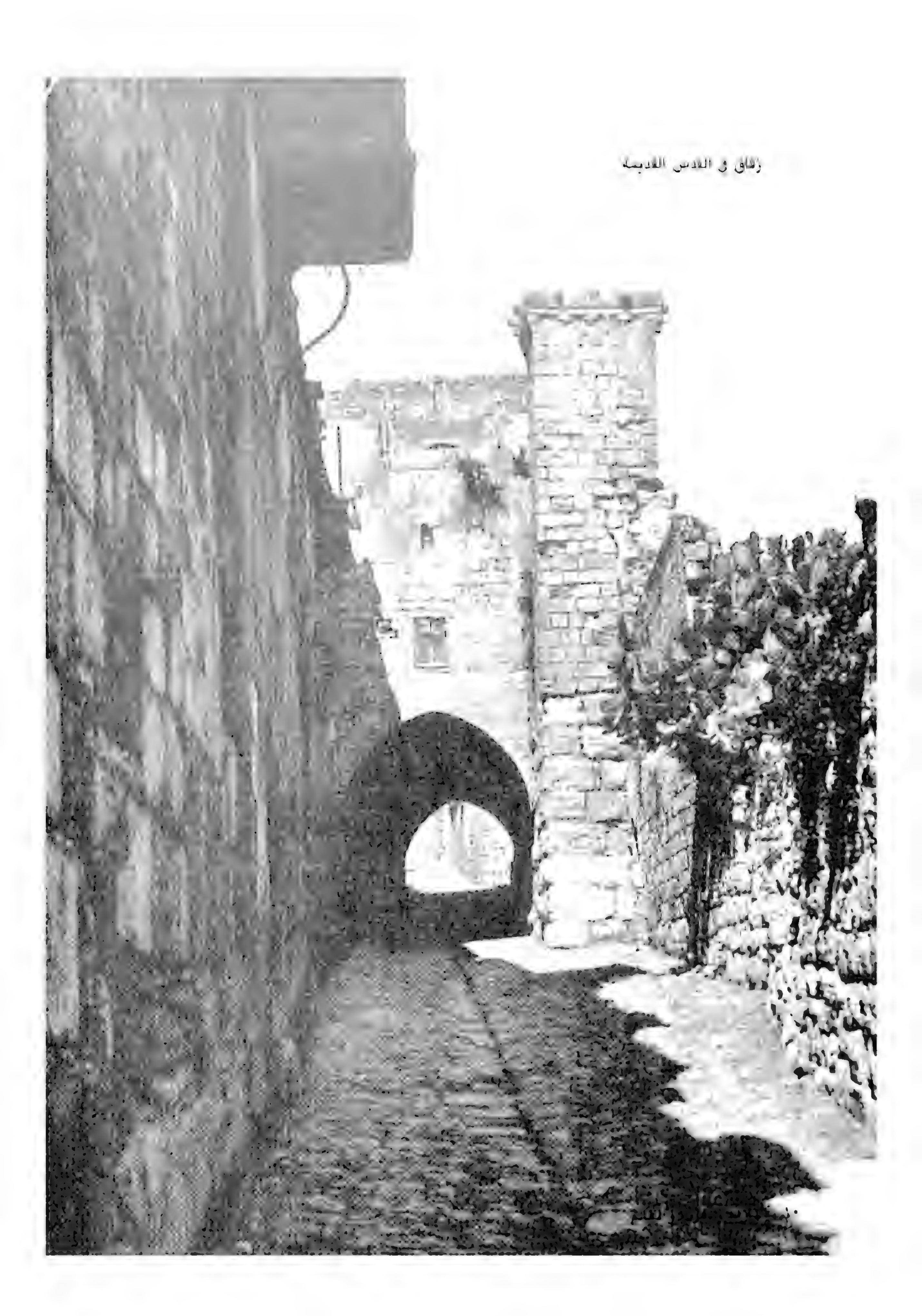
٤ ــ كذلك عمدت الى شق الطرق الواسعة ضمن المدينة القديمة عندما فشلت في السيطرة على المناضلين العرب الفلسطينيين (الفدائيين) بدعوة المحافظة على الأمن داخل المدينة القديمة.

٥ ــ تركت المباني التاريخية بالمدينة كالمدارس والخانات والجوامع دون ترميم أو صيانة حتى تتصدع وتسقط.

٦ ــ شجعت بعض الأشخاص على حرق محراب المسجد الأقصى في القدس هادفة من وراء ذلك حرق المسجد الأقصى وبالتالي تدميره حتى يزال مع الزمن الدعم الاسلامي للشعب العربي الفلسطيني في مطالبته للقدس العربية. لكن يقظة أبناء الشعب الفلسطيني هناك فوتت عليهم الفرصة.

٧ ــ قامت باجراء الحفريات الأثرية مما سبب تصدع جدران المباني التاريخية الملاصقة للحائط الغربي للمسجد الأقصى مثل انهيار ساحة وقوس رباط الكرد وانهيار المدرسة العثمانية.

٨ ــ اجلاء السكان العرب من عقاراتهم المبنية بالقوة توطئة لهدم بيوتهم وبذلك يتحقق الهدف في تخريب المدينة التاريخية في القدس الشريف. ومن الجدير بالذكر هنا أن السلطات الصهيونية خربت وتركت كثيراً من المدن التاريخية والأحياء القديمة بالمدن الفلسطينية لتخرب ولم تسمح بالسكن فيها. خاصة تلك التي احتلت عام ١٩٤٨ مثل مدينة يافا لتجد المبرر في ازالتها مع الزمن، ولكن أبناء الشعب العربي الفلسطيني هناك وعووا هذه الحقيقة خاصة في الضفة والقطاع ويحاولون ترميم مبانيهم التاريخية قدر استطاعتهم عن طريق الجمعيات الخيرية أو عن طريق جمع التبرعات لهذا الغرض من الداخل والخارج.



زقاق في القدس القديمة

ثالثاً ــ مدينة صنعاء:

مدينة صنعاء عاصمة الجمهورية العربية اليمنية فريدة في جمالها المعماري اذ يمكن اعتبارها نموذجاً فريداً في عالم التراث الثقافي العربي الاسلامي، هي وحدة قائمة بذاتها نظراً لتجانس بنائها ونوعيته العالية ونوعية تخطيطها واستمرارها في حالة تقرب من حالتها الأولى، فالمدينة القديمة أثبتت نجاحها كمدينة حية، فهي ليست مدينة أثرية للزيارة والاعجاب فقط بل يسكنها اليوم حوالي أربعون ألف نسمة أي حوالي ٣٠٪ من سكان مدينة صنعاء الاجمالي ومع أن المدينة القديمة في صنعاء أثبتت قدرتها حتى الآن على مقاومة التحديث المرتقب في المستقبل.

لا يعرف بالضبط متى تأسست مدينة صنعاء لأول مرة وان كان التقليد السائد بأن سام بن نوح هو الذي أسسها ولكن يبدو أن الدراسات التاريخية تشير الى وجودها في القرن الثاني قبل الميلاد وقد نمت المدينة لتصبح المدينة الرئيسية في وادي صنعاء الخصب ولتصبح المركز التجاري الهام في جنوب الجزيرة العربية وتطورت لتصبح واحداً من المراكز الغنية في حضارة ما قبل الاسلام، ومع مجيء الاسلام استمرت تحتفظ بأهميتها حيث أصبحت مركزاً دينياً للتعليم ومقراً لوالي اليمن وصنعاء معاً مغلقة في وجه التيارات الحضارية على طابعها المعماري المتميز وقيمه الجمالية حيث لم تفسده التيارات المعمارية الوافدة الى العالم العربي.

صنعاء القديمة أو الحي القديم فيها تقع في الجانب الشرقي من وادي السابلة، مدينة مسورة وذات قلعة تقع في الطرف الشرقي من المدينة على منطقة مرتفعة تحتها تقع الأسواق والجامع الكبير وتمتد المدينة حتى تصل الى قاع الوادي، ثم فيما بعد امتدت نحو الغرب عبر الوادي وامتد السور حولها، وعليه تكون مدينة صنعاء القديمة مؤلفة من منطقتين الأولى تقع في الشرق والثانية في الغرب ولكل قسم مميزاته فبينما نجد القسم الشرقي يضم المباني الهامة من الوجهة التاريخية ذات الطابع الجمالي الخاص والعمراني الفريد نجد القسم الغربي أقل كثافة وأقل تجانساً وأكثر انفتاحاً وهو يضم القصور والفيلات والحدائق التي تضفي على المدينة محيطاً رائعاً.

وحتى تبقى المدينة القديمة في صنعاء على شكلها الحالي جميلة رائعة لابد أن تبقى حية لذلك فإنه من الضروري أن يفعل كل شيء ممكن لجعل المدينة جذابة وذلك بتلبية حاجات مجموعة مقبولة من الناس في المدينة القديمة.

وادراكاً لأهمية صنعاء القديمة التاريخية والفنية والسياسية استقدمت حكومة الجمهورية العربية اليمنية أحد خبراء اليونسكو لدراسة المدينة القديمة والوقوف على مشاكلها لتقديم المقترحات الممكنة التي تعين السلطات اليمنية على تبني سياسة لصيانة مدينة صنعاء والمدن اليمنية الأخرى.

وتنفيذاً لرغبة حكومة الجمهورية العربية اليمنية وضع الخبير المشار اليه تقريره الذي اعتمدناه في هذه الدراسة. شخص الخبير المشاكل التي تواجه المدينة القديمة في صنعاء كالتالي:

١ ــ نظراً لوقوع المدينة القديمة في وسط مدينة صنعاء الحديثة وان المدينة تتطور وتتسع فلا شك أن هذا النمو السريع سيؤدي حتماً الى خلق متاعب للمدينة القديمة وسيكون سببه الحاجات التجارية الجديدة المتنامية وسيمس هذا التطور بطبيعة الحال الشكل والوظيفة والتقاليد المعمارية.

٢ ــ اذا بقيت المدينة القديمة على حالها دون افساح المجال للتسهيلات الحياتية الجديدة كالطرق والماء والكهرباء والترميمات البسيطة والمجاري ومواقف السيارات فإن السكان أمام ضغط مغريات الحياة الجديدة سيضطرون للنزوح من المدينة القديمة للسكن في أحياء أكثر سهولة وتبقى المدينة القديمة سكناً لأصحاب الدخول البسيطة وهؤلاء غير قادرين وغير راغبين في تحمل عبء الصيانة، وهذا سيسمح بالتآكل الفيزيائي البطيء وبالتالي الى تخريب المدينة.

ومن أجل حماية المدينة القديمة وصيانتها لابد أن تبقى حية وفي سبيل ذلك يقترح الخبير



صنعاء اليمن

ما يلي:

١ ــ المحافظة على المدينة القديمة في وضعها الراهن لاجيال قادمة.

٢ ــ زيادة مقوماتها كمدينة حية وذلك بترغيب الناس بالبقاء فيها وتيسير حياتهم اليومية.

٣ ــ المحافظة على مباني المدينة القديمة كما هي عليه تقريباً وحتى تتحقق هذه الأهداف لابد من تحقيق ما يلي:

(أ) ايجاد مخطط تنظيمي للمدينة في الوضع الراهن.

(ب) اجراء دراسات اجتماعية واقتصادية لفهم حاجات وتطلعات السكان.

(ج) تحسين البيئة داخل وخارج المدينة.

(د) وضع خطة صيانية تتلاءم ووضع المدينة.

خلاصة القول أن الأمل الكبير في أن تأخذ السلطات المسؤولة عن حماية مدينة صنعاء المبادرة في وضع سياسة متوازنة تتناسب والامكانيات المادية والفنية في أقرب وقت ممكن حتى لاتفوت الفرصة وتخرب كثير من الروائع الفنية أمام هجمة التحديث الشرسة.

رابعاً ـ مدينة العلا (حي الدبرة):

تقع مدينة العلا في شمال غرب المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية ويدعى الحي القديم فيها بحي (الدبرة) ويقع في الجزء الشمالي من واحة العلا الكبير الى الشمال من المركز التجاري والاداري لمدينة العلا، يبدو أن مدينة العلا تنهض أعلى بقليل من مستوطنة يعود تاريخها الى فترة ماقبل الاسلام لكن أغلب الأثار المعمارية الموجودة بحي الدبرة اليوم آثار اسلامية تتمثل بقلعة موسى بن نصير التي تقوم على منحدرات الجبل الصخري القائم بوسط المدينة وغيرها. لاتزال بقايا اسوار المدينة قائمة على طول الجانب الغربي المتاخم لشارع المناخة ويرتكز على هذا السور الجدران الخارجية لمساكن الناس هناك، بنيت المدينة من الحجارة الرملية وطليت بالطين، لها ثمانية بوابات تؤدي الى شوارع داخلية في حي الدبرة، مداخل هذه البوابات جعلت على شكل حرف (L) لأغراض دفاعية وتقوم على جانبي كل بوابة رقيقتان من الحجر تكونان بمثابة دعامات أورابطات لعتبات الأبواب المتشابهة والمسقوفة بألواح خشبية وأربطة حجرية.

يتميز حي الدبرة بشبكة من الشوارع الضيقة التي يتراوح عرضها ما بين متر ونصف ومترين، بعض هذه الشوارع مسقوف بجذوع النخل وقد كانت فيما مضى ذات فتحات علوية وشبكة لتصريف مياه الأمطار، أما المساكن فتمتد في بعض الأحيان عبر الشوارع الضيقة وتتكون من طابق أو طابقين تعلو مداخلها عقود حجرية مستديرة أو اعتاب مستقيمة ونوافذ صغيرة، يدخل اليها في بعض الأحيان بدرجة أو درجتين أما مواد البناء فهي غالباً من الحجر الرملي المحلي الذي كان يستعمل منذ العهود التي سبقت الاسلام ونلاحظ أن بعض حجارة المنازل القديمة التي سبقت الاسلام استعملت في بناء منازل حي الدبرة، سقوف المنازل هنا مؤلفة من جذوع النخيل وجرائده كما طليت الجدران بالطين الأمر الذي سبب اختفاء بعض الكتابات والنقوش العائدة للفترة التي سبقت الاسلام، أبواب المساكن من الخشب الضخم بعضها يحمل زخارف والآخر بسيط وكانت تزود بأقفال وترابيس خشبية ضخمة تثبت على الجدران بواسطة قوائم خشبية ضخمة.

وحيث أن في مدينة العلا الاسلامية (حي الدبرة) عدد من المباني الأثرية ذات أهمية كالسور الغربي للمدينة وقلعة موسى بن نصير والمسجد والبئر القديمة وبالتأكيد المدينة نفسها كوحدة عمرانية فقد وضعت مديرية الآثار والمتاحف بالمملكة العربية السعودية خطة لترميم بعض المباني الأثرية بالمدينة كوحدات منفردة في المرحلة الأولى. أما المرحلة الثانية فستشمل صيانة المدينة كوحدة عمرانية معمارية.



(أ) المراجع العربية:

(١) كوربول، عبدالحق سليم، ديللون أرماندو.
سوريا: قضايا حفظ المواقع الأثرية والأوابد التاريخية والاستفادة منها. تقرير وضع في اطار لجنة اليونسكو المؤلفة من السادة المذكورة أسماؤهم أعلاه المرسلة إلى سوريا عام ١٩٥٣. ص.٢ ـ ص٢٣.

(٢) بهنسي، عفيف:
مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية، الحوليات الأثرية السورية عدد ٢٣ ص٩ ـ ص٣٣.

(٣) بهنسي، عفيف:
المدينة العربية الاسلامية ونموذجها دمشق القديمة الحوليات الأثرية العربية السورية عدد ٢٦، ج ١+٢ (١٩٧٦) ص ١٠ ـ ص٢٦.

(٤) شعث شوقي:
حلب القديمة ومعالمها السياحية مجلة العمران الأعداد ٢٠ ـ ٢٢ وص٤٩ ـ ص٦١.

(٥) شعث، شوقي وحرتباني، محمود:
قلعة حلب دليل مختصر ١٩٧٧.
(٦) روبير، أوزويل:
فن تخطيط المدن، ترجمة بهيج شعبان ومراجعة هنري زغيب منشورات عويدات، بيروت لبنان.
(٧) صواف، صبحي:
دليل الزائر، حلب ١٩٥١.
(٨) ريحاوي، عبدالقادر:
المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٧٢، ص٥١ ــ ص٥٤.
(٩) الخطيب، روحي:
تقرير عن أوضاع مدينة القدس العربية تحت الاحتلال الصهيوني.
(١٠) الأحمد، نجيب الأحمد:
تهويد القدس، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الأعلام والتوجيه القومي.
(١١) قاسمية، خيرية:
قضية القدس، دار القدس، بيروت الطبعة الأول ١٩٧٩ ص٤٧ ــ ص٦٨.
(١٢) ذو الفقار، سعيد:
التقرير النهائي للمؤتمر الثامن للآثار بالبلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مراكش ١٩٧٧ ص٥١ ــ ص٥٩.

هذا إلى جانب معلومات وصلتني بناء على طلبي من مديرية الآثار بالمملكة العربية السعودية حول مدينة العلا، ومن المديرية العامة للآثار بدمشق حول مدينة دمشق، كذلك وصلني من الجمهورية العربية اليمنية نسخة من تقرير اليونسكو باللغة الانكليزية حول مدينة صنعاء، سأشير إليه في المراجع الأجنبية.

(ب) المراجع الأجنبية:

1. DAVID JEAN«CLAUD, ALEP,
Dégradation et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionnelles, BEO t. XXVIII (1975) pp. 19-50.
2. D'OSSAT GULIEMO DE ANGELIS,
Guide to the methodical study of monuments and Causes of thier deterioration, international center for the study of the preservation of cultural property, 1972.
3. SAUVAGET ALEP, 1941 BAH, texte et album.
4. ANDERSON TANFORD,
The Physical city as a socio-cultural resource social space and physical form as reciprocally related systems of conventoin, A paper for the confernce «L» espace social de la ville Arabe Tunis, 10-12 March 1979.
5. ANDARE, R.H.
The Conservation of Urban sites The Conservation of cultural property Museums and Monuments, XI UNESCO pp. 153-169.
6. WELBANK MICHAEL AND FIUEURAS JULIO,
SANA'A report to UNESCO, June 1978 published by Shakland Co & Parthership.
7. COUNCEIL OF EUROPE,
Policy for the preservation and rehabilitation, preservation and rehabilitation of groups and areas of buildings of historical of artistic interest Symposium E 1968.
8. COUNCIL OF EUROPE,
Principles and practice of active preservation, preservation and rehabilitation of groups and area of building of historical or artistic interest, symposium C 1967.
9. COUNCIL OF EUROPE,
The reviving of monument. Preservation and development of groups and areas of buildings of historical or artistic interest, symposium B.
10. The Precedings of the European conservation conference, the managment of the enviroment in tomorrow Europe, 1970.

تاريخ التخدير
في لبنان

د. فؤاد سليم حدّاد

الدكتور فؤاد سليم حداد اختصاصي بالتخدير والانعاش من جامعات فيلادلفيا وبوسطن في الولايات المتحدة، وهو مجاز من المجمع الأميركي للتخدير (Board)وزميل في كلية المخدرين الأميركية (Fellow)، حالياً هو مساعد في دائرة التخدير ومحرر «مجلة التخدير في الشرق الأوسط» في الجامعة الأميركية في بيروت كما وأنه أمين عام نقابة المخدرين في لبنان.

أبحاث كثيرة نشرت عن تاريخ الطب العربي ولكن القليل كتب عن مآثر العرب في حقل التخدير. ومن المعلوم أن التخدير ابتدأ عند العرب عندما قدموا للعالم «الاسفنجة المنومة»(*) وذلك قرابة ٨٠٠ سنة قبل ما أعلن اكتشافه في الغرب، كما وأن ابن النفيس وصف الدورة الدموية في الرئتين ٣٠٠ سنة قبل مايكل سرفاتس وغيره من الأوروبيين(**). لذلك يعتقد الدكتور حداد بوجوب توجيه جهودنا، كل في بلده، للبحث عن مآثرنا في هذا الحقل وابرازه للعالم. المقالة التالية له هي أول بحث محقق عن تاريخ التخدير في لبنان وتمثل عصارة جهد لخطوة أولية متمنياً أن يزاد عليها وتتمم من قبل زملاء آخرين.

المقدمة:

اصبح تاريخ التخدير في العالم في مجمله معلوم للجميع وهو مبني على مستندات تاريخية موثوقة[١،٢] وليس هدفي في هذه المقالة ان اعيد مراجعته، لكن تاريخ التخدير في الشرق العربي لا زال مبهما في بعض الدول الشرق اوسطية وما زال دفينا في البعض الاخر ينتظر من يكتشفه.

من الثابت ان حضارة العالم ابتدأت منذ اربعة آلاف سنة على ضفاف النيل وبلاد ما بين النهرين، وقد وجد في اللوائح الاشورية المنقوشة بالكتابة الوتدية وصف بعض المركبات الطبية مثل البلادونا (Belladona) والحشيش (Cannabis) واللفاح (Mandragora)، كما وان المصريين القدماء وصفوا استعمال الافيون (Opium)، وقد تأثر بهم الاغريقيون[٣].

ان من دواعي الاعتزاز ان نقول بان بعض الدول في الشرق العربي شهدت بدء استعمال بعض الادوية، واستعملت مشتقات منها على مدى التاريخ وما زالت تستعمل حتى الوقت الحاضر.

ان الاطباء القدماء من مصريين واشوريين ابتدعوا النوم لتخدير مرضاهم بواسطة الضغط السريع على الشريان السباتي (Carotid) في العنق[٣]. ان الطب اليوم مدين كثيرا إلى علم النباتات الذي نقله العرب الى الغرب في وقت كانت اوروبا تخرج من ظلمات العصور الوسطى[٣].

ان التخدير اختصاص جديد برز معظمه بعد الحرب العالمية الثانية. ومعرفة تاريخ نشأته في بلدان الشرق الاوسط مهمة وأساسية لمعرفة ميراثنا في هذا الحقل ولذلك وجب تسجيله بطريقة علمية في كل بلد من بلداننا.

التخدير هو احد مظاهر نهضتنا الطبية. ودراسة تطوره لها علاقة وثيقة بتطور الطب الحديث في لبنان. لذلك قبل ان اقدم تاريخ التخدير في لبنان[٤] وجب ان نعرف كيف ابتدأ الطب الحديث في الشرق الاوسط وكيف وصل الى لبنان.

النهضة الطبية في الشرق الاوسط:

كتب الدكتور امين خير الله[٥،٦] ان الطب في لبنان حتى حوالي منتصف القرن الماضي كان طب المشعوذين والسحرة والمجبرين والمتهنين بالتقاليد[٧]، وقد اعتمد الناس في معالجة امراضهم على القصابين والحلاقين والمغاربة. كان هذا الوضع مستمرا خلال الاحتلال

(*) Sigrid Hunke: Allah Sonne Uber Abendland, Unser Arabische, 2nd ed. Arabic Text, The Trading Office, Beirut, 1969.

(**) Haddad, Fouad Salim: Alaa El-Dean Ibnul Nafiess. Middle East Journal of Anaesthesiology 4: 223-224, 1969.




نابليون بونابرت.


محمد علي باشا.


الدكتور كلوت بك.

العثماني (١٥١٦ ــ ١٩١٨) في كل الدول الشرق اوسطية والذي يعتبر متدنيا عن الطب العربي الذي كان معروفا في سالف الزمان[٩،٨].

يمكن ارجاع النهضة الطبية الحديثة في الشرق الاوسط الى اجتياح نابوليون لمصر عام ١٧٩٨م. حين اصطحب معه اختصاصين في مختلف العلوم ومنهم أطباء[٨]. وبذلك بدأت نهضة علمية في مصر سرعان ما تعممت الى اكثر دول الشرق الاوسط ومنها لبنان. في عام ١٧٩٩م تقدم محمد علي الالباني المولد على رأس جيش الباني تحت امرة عثمانية للدفاع عن مصر ضد نابليون. بعد انتصاره على المماليك زاد طموح محمد علي وحين اصبح حاكم مصر المطلق في عام ١٨٠٥م اضطر العثمانيون ان يعترفوا به كوالي على مصر.

بعد خروج نابليون من مصر عام ١٨٠٥م وتثبيت اقدام محمد علي، تنبه الاخير الى اهمية الثقافة[٨] في يقظة شعبه من الجهل، وكان باهتمامه العميق بالعلوم والاداب قد ولع اول شرارة لنهضة مصر الحديثة[٥].

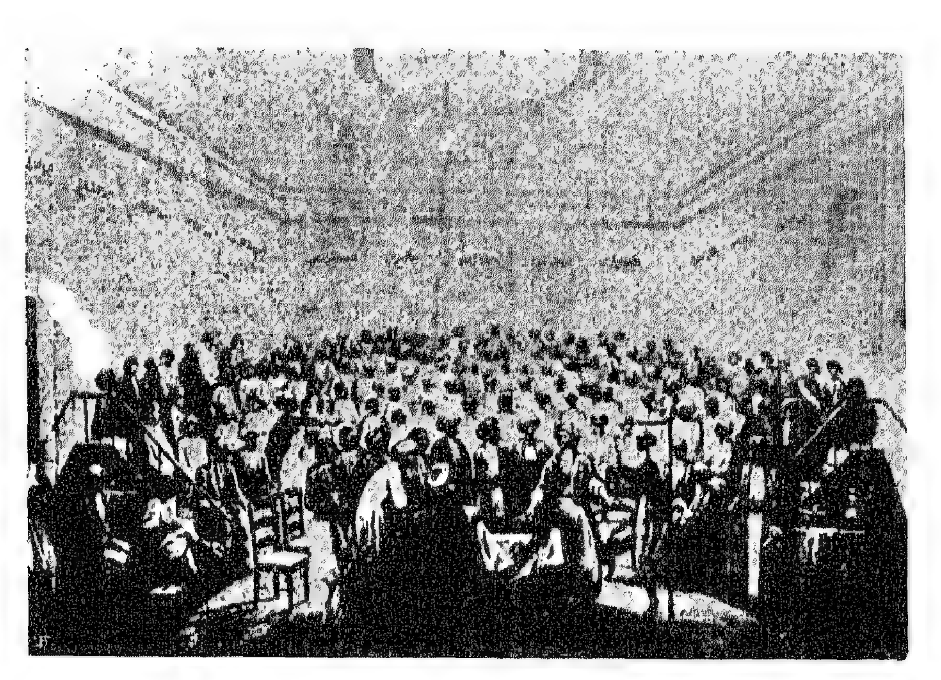
في غمرة حماسة محمد علي لتثقيف شعبه، استدعى من فرنسا واوروبا اطباء للاهتمام بصحة جنوده. ومن اشهر هؤلاء الاطباء الدكتور الفرنسي انطوان برتلمي كلوت[١٠،٨] (Antoine Berthélemy Clot) والذي عرف بعدها «بكلوت بيه». اوجد كلوت بيه الطرق الحديثة في ذلك الوقت للعناية بصحة الجنود المصريين وفتح لذلك مستشفى ابو زعبل عام ١٨٢٥م واسس فيها عام ١٨٢٧م كلية للطب انتقلت في عام ١٨٣٥م الى القاهرة وعرفت بكلية طب القصر العيني. في عام ١٨٣٥م ١٢٥١هـ وضع كلوت بيه كتابه «مبلغ البراح في فن الجراح»[١١]. ولا بد من الاشارة هنا الى ان اوائل التلامذة اللبنانيين قد اموا هذه الكلية لتعلم الطب في ذلك الوقت لسهولة اللغة[١٢،٩].

انتشار الطب في لبنان:

يمكن ارجاع الخطوات الاولى للثقافة الطبية الحديثة في لبنان لثلاثة احداث:

اولاً، اجتياح ابراهيم باشا (ابن محمد علي) لسوريا ولبنان عام ١٨٣٢م حين اصطحب معه الدكتور كلوت بيه[٨] والذي كان له اثر فعال في النهضة الطبية الحديثة في لبنان حين قبل رغبة الامير بشير في ارسال أول خمسة طلاب من دير القمر لدراسة الطب في القاهرة، المدرسة الطبية العربية الوحيدة في الشرق الاوسط في ذلك الحين. ومن الطريف ان نذكر ان كلوت بيه عند زيارته للأمير بشير في بيت الدين، قام المدعو بشارة جلخ باصلاح ساعته ورفض ان يتقاضى عليه اجرا، ولكنه تمنى عليه ان يصطحب ابنه يوسف الى القاهرة ليتعلم الطب في مدرستها. فقبل طلبه وكان يوسف جلخ واحدا من الطلاب الخمسة الذين توجهوا لدراسة الطب في مصر[١٣،٨].

ثانيا: الترخيص للارساليات في دخول سوريا ولبنان بعد خروج ابراهيم باشا في عام



صف التشريح في قاعة التشريح بابي زعبل ١٨٢٧.

١٨٤٠م. أنشئت هذه الارساليات، وكانت فرنسية واميركية وانكليزية، عيادات طبية مجانية على سبيل المساعدة في نشر مذاهبها الدينية.

ثالثا: تدخل الدول الاجنبية في لبنان بعد احداث عام ١٨٦٠م الدامية خاصة فرنسا واميركا اللتان اسستا الثقافة الطبية في لبنان. اسس الاميركيون مدرسة طبية عام ١٨٦٧م عرفت انذاك «بالكلية السورية الانجيلية» (حاليا الجامعة الاميركية في بيروت) وبعد ستة عشر عاما (١٨٨٣) اسس الفرنسيون مدرستهم الطبية «كلية الطب الفرنسية». من المهم ان نشير هنا بانه قبل تأسيس الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٧م كان الطلاب اللبنانيون يتلقون علومهم الطبية اما في القاهرة كما سلف وذكر واما في الاستانة(١٢،٩،٧).

وهكذا بهذه الخطوات الثلاث بدأت نهضة الطب الحديث في لبنان.



الأمير بشير الشهابي.

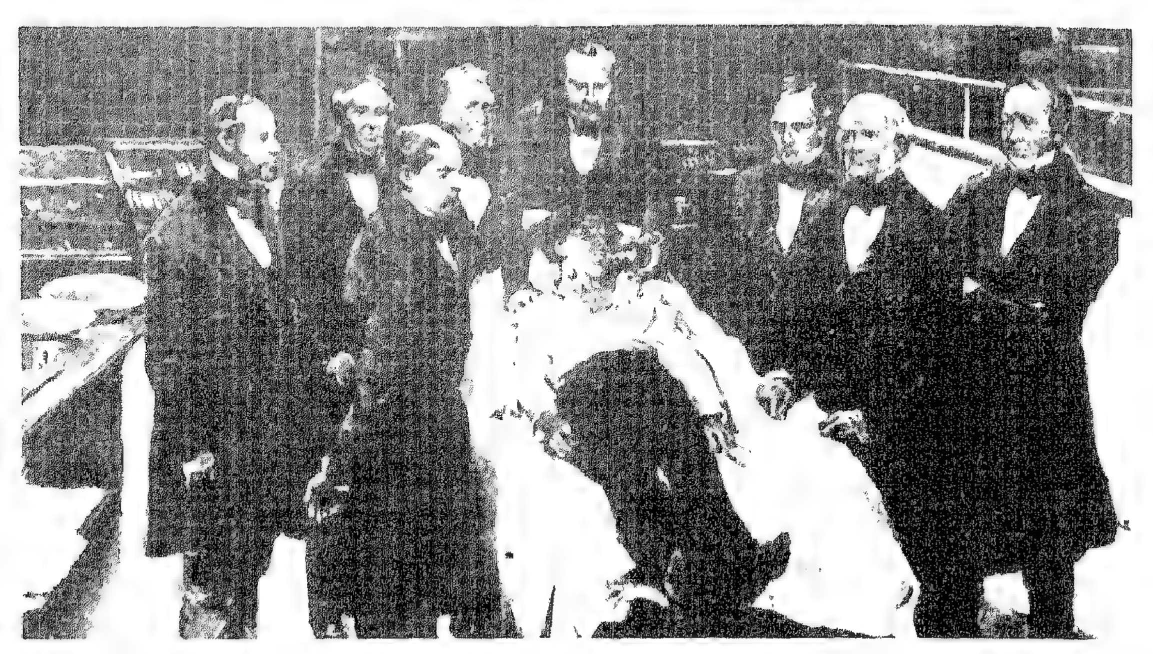
ابتداء التخدير في لبنان:

لا بد لمن يعرض تاريخ التخدير الحديث الاشارة اولا الى تاريخ اول عرض عام جرى في هذا المجال على يدي طبيب الاسنان الدكتور وليم مورتون (William Morton) في مدينة بوسطن وفي مستشفى ماساشوستس



وليم مورتون.

Figure 21 William Thomas Green Morton (1819-1868) the discoverer of anaesthesia

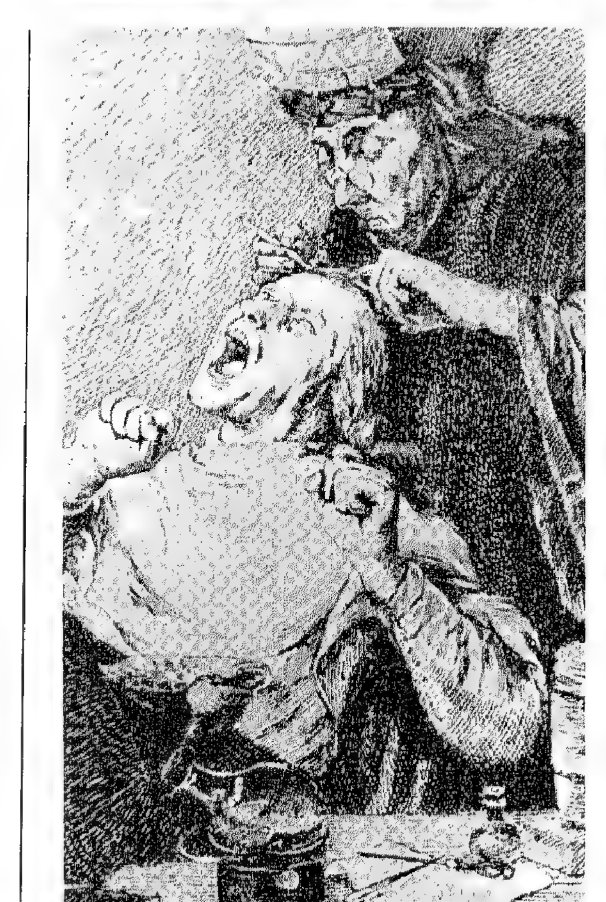


أول عرض عام للتخدير ــ ١٦ تشرين الأول ١٨٤٦.

(Boston Mass). هذا التاريخ هو ١٦ تشرين الاول ١٨٤٦. يعتبر هذا التاريخ حدا فاصلا بين عصرين. عصر الجراحة بدون تخدير حيث الالم والمعاناة والصراخ، وعصر الجراحة مع التخدير الحديث حيث النوم الهادىء بدون آلام. لذلك ارتأينا ان نقسم تاريخ التخدير في لبنان الى حقبتين. الاولى عصر الجراحة بدون تخدير (اي ما قبل ١٨٤٦)، والثانية عصر الجراحة مع التخدير الحديث (اي ما بعد ١٨٤٦).

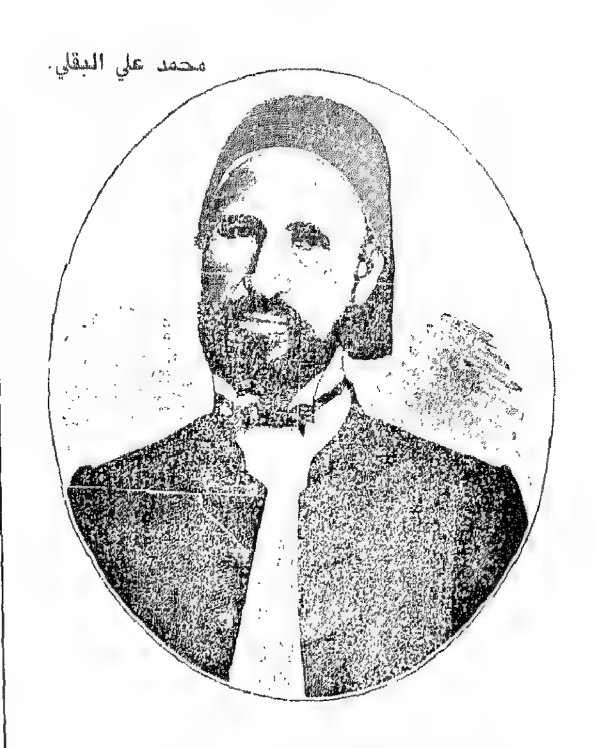
عصر الجراحة بدون تخدير في لبنان:

لا تتوفر اية معلومات مباشرة تصف طرق تخفيف الام الجراحة في لبنان في عصر ما قبل ١٨٤٦. فطب المشعوذين والمجبرين والمغاربة[١٤٠٥] كما سبق وذكر الذي كان سائداً ايام العثمانيين، وعدم اجراء جراحة مهمة وعدم وجود مستشفيات في ذلك الوقت هي الاسباب التي حالت دون التقدم في هذا المجال. يقول الدكتور احمد الشطي[١٥]: «كان التخدير في الشرق العربي معروفاً خلال القرون الوسطى، وسيلته استنشاق مواد مخدرة توضع في اسفنجة سموها «الاسفنجة المنومة»، او في مباخر تنشر روائح المخدرات المعطرة بالعود



آلام الجراحة قبل التخدير.

محمد علي البقلي.



وغيره وكان يستعمل بعضها شرباً وكان يعتمد خاصة على الايحاء...». ومن المواد المخدرة التي استعملت اللفاح او بيض الجن (Mandragora) والخشخاش او ابو النوم (Opium) والحشيش (Cannabis) والبنج، كما سماه العرب، (Hyoscyamus) والشيكران او الشوكران (Conium) (١٥، ١٦، ١٧).

بتخرج اوائل الطلبة اللبنانين في الطب يمكن استخلاص بعض المعلومات بطريقة غير مباشرة عن وسائط تخفيف الام الجراحة في لبنان. بما ان التلامذة اللبنانين كانوا قد قصدوا الى القاهرة والاستانة لتعلم الطب[١٢،٩،٧]، فمن الممكن القول بان ما تعلمه هؤلاء التلامذة في كليات هذين البلدين هو الذي حملوه معهم الى لبنان ومارسوا نفس الطرق التي تعلموها[٤]. لذلك اذا تطرقنا الى طرق تخفيف آلام الجراحة في هذين البلدين، يصبح من المعقول الاستنتاج ان هذه الطرق هي التي حملها معهم التلامذة اللبنانيون ومارسوها في بلدهم. ان هذا البحث يعرض الى الطرق التي كانت تستعمل في القاهرة فقط.

في هذا المضمار يبرز كتابان في جراحة ما قبل ١٨٤٦م استحصلنا عليهما لهذا البحث. الاول كتاب كلوت بيه «مبلغ البراح في فن الجراح»[١١] المطبوع عام ١٨٣٥م ١٢٥١هـ وفيه لا يرد اي ذكر لوسائط تخفيف الام الجراحة. والثاني كتاب محمد علي البقلي «غرر النجاح في اعمال الجراح»[١٨] عام ١٨٤٦م ١٢٦٣هـ اي بنفس العام الذي قدم فيه التخدير الى العالم بواسطة مورتن في بوسطن. ان محمد علي البقلي كان من ابرز تلامذة كلوت بيه وقد ارسل الى باريس وعند رجوعه الى القاهرة اصبح من اشهر الجراحين وقد عين عميد كلية الطب في القصر العيني[١٩]. نجد في كتابه[١٨] صفحة ٢٦ الفقرة التالية تحت عنوان «وسائط تنقيص الاحساس والآلام»:

(فى وسائط تنقيص الاحساس والآلام)

اعلم ان قدماء الاطباء كانوا يستعملون وسائط كثيرة لتسكين حساسية المريض وقت العملية منها ان بعضهم كان يعطى للمريض بعض تراكيب دوائية مخدرة كمركبات البنج واللفاح والافيون يستعملها من الباطن وبعضهم كان يدلك بهذه الادوية الاعضاء المراد فعل عمليات طويلة مؤلمة فيها ومنها ان بعضهم كان يضغط على الاعضاء ضغطا حلقيا لتنقيص حساسيتها * ومنها ان بعضهم كان يوكل بعض المساعدين بالضغط على الاعصاب الاصلية لكن فى عصرنا هذا لم يستعمل من هذه الوسائط شئ اعتمادا على كون الالات حادة ماضية والعمل سريعا مع الدقة الزائدة والاجزاء الممكن الوصول اليها تقطع مرة واحدة

بهذه الآلات بدون خطر يجرها عليها الا بالاتكاء فقط نعم قد يعطى للمريض
في هذا العصر بعض جرع مضادة للتشنج والاختلاج قبل العملية وفي اثنائها

(في العوارض التي قد تحصل اثناء العملية)

اعلم ان الالم الشديد الذي يحدث في بعض العمليات قد يكون سببا لحصول
التشنجات في المرضى الذين تكون فيهم قابلية التهيج شديدة فاذا كانت العملية
من العمليات التي يمكن تأخير اتمامها امسك الجراح عن اتمامها حتى يزول
التشنج ثم يعطى للمريض بعض لعوق او سائل مسكن او مضاد للتشنج ثم يسليه
ويقوي عزمه ويوعده بتمام العملية بسرعة
ومتى سكن وزال التشنج رجع للعملية * فعليه ان يتبع هذه الطريقة لانه
لو دام على العملية والمريض يصرخ ويتحرك حركات اختلاجية ضعفت
قواه الحيوية وربما اصابت الالة الاعضاء اللازم الاحتراز عنها بسبب التحرك
الشديد * ثم ان الوسائط المذكورة تنفع في ازالة التشنج في اغلب الاحوال
فاذا فعلت ولم تجد نفعا وزادت الاختلاجات بسرعة لزم تاخير اتمام العملية
حتى يسكن المريض اذا كانت طبيعة المرض المستدعي لها قابلة لذلك *
وحينئذ يقال ان العملية فعلت في زمانين واما اذا حصل للمريض اغماء
في اثناء العملية فيرش على وجهه ماء بارد او يروح عليه بنحو مروحة
او يوضع حذاء انفه قنينة ممتلئة سائلا منبها كالخل او روح النوشادر او العرق
او نحو ذلك فانه يؤثر في اعصاب الغشاء المخاطي ومنها يصل الى المخ فيفيق
المريض من اغمائه * ومن جملة العوارض التي تعرض بالعملية النزيف
الذي يفزع منه المريض والحاضرون وربما كانت عاقبته هلاك المريض *
راجع باب وسائط منع سيلان الدم وحبسه لتعرف اسبابه وعلاجه

«وقد استعمل ضد التشنجات قبل وخلال العمليات الكافور والعنبر والمسك والجندباستر(٢٠)».

من الواضح في هذه الفقرة انه في عام ١٨٤٦ الشهير لم يكن البقلي عالما بالتخدير الحديث الذي تم اكتشافه في ذلك العام، كما وانه لم يستعمل ايا من المواد التخديرية التي نستعملها اليوم. لذلك نستخلص من هذين الكتابين ان تلامذة الطب اللبنانيين الذين تعلموا في القاهرة لم يحملوا معهم الى الوطن طرق التخدير المستحدثة في ذلك الوقت(٤).

لنلق نظرة اخرى على كيفية معاملة المريض على طاولة العمليات اذ انها تساعد على تكوين فكرة عن نوعية الجراحة في ذلك الوقت، اي ما قبل عام ١٨٤٦م. في كتابه(١٨) صفحة ٢٦ يكتب البقلي كذلك تحت عنوان «في العوارض التي قد تحصل اثناء العملية».

«وعلى كل حال فان العمليات لم تكن لتجري كعملية مؤلمة الا اذا كانت المسألة مسألة حياة او موت. السرعة كانت لها اهمية كبيرة في الجراحة وعند الامكان فان العمليات تؤجل الى الفصل والطقس الملائمين. عمليات الاطفال كانت تؤجل بقدر الامكان بسبب عدم امكان توقيف حركاتهم. كان المريض يحضر تحضيرا نفسيا ويستعمل العلق والفصاد والمندراغور (اللفاح، بيض الجن) قبل العملية. كانت تعطى اهمية خاصة لعدد المساعدين[11] في العملية الجراحية كما وان المريض كان له الحق في اختيار الاشخاص الذين يقفون بجانبه لاعطائه الثقة والتشجيع».

قبل ان انهي الحديث عن التخدير في لبنان في عصر ما قبل ١٨٤٦م اود ان اركز اهتمامي على اول طبيب لبناني في ذلك العصر. من التلامذة اللبنانين الخمسة الاول الذين ارسلهم الامير بشير الى القاهرة كان الدكتور ابراهيم النجار[10] (١٨٢٢ ــ ١٨٦٤). يعتبر الدكتور نجار اول طبيب لبناني في عصرنا الحديث اذ تخرج بتاريخ ٤ حزيران ١٨٤٢[10] بينما تخرج الدكتور يوسف جلخ بعد خمسة اشهر في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٤٢. بعد تخرجه من القاهرة ذهب الدكتور نجار الى الاستانة وعاد الى بيروت. ثم في عام ١٨٤٦م سافر الى فرنسا ليحضر معه مطبعة[10]. امضى الدكتور نجار ثلاث سنوات في فرنسا (١٨٤٦ ــ ١٨٤٩) عاد بعدها الى بيروت حيث عين رئيسا للجراحين[10] في مستشفى الشاهاني العسكري الذي كان قد اسس حديثا في ذلك الوقت (موقع العدلية القديمة). شهدت فترة الثلاث سنوات التي امضاها الدكتور نجار في فرنسا خطوات واكتشافات متلاحقة واولى في حقل التخدير. اذ انه بتاريخ ١٦ تشرين الاول ١٨٤٦ العام الشهير في عالم التخدير اتم مورتون تقديمه الايثر (Ether) للعالم للتخلص من الالام الجراحية. ثم بعد شهر تقريبا في ٢١ كانون الاول ١٨٤٦م استعمل جون سنو (John Snow) الايثر لاول مرة في انكلترا، تبعه بعد ذلك في ١٢ كانون الثاني ١٨٤٧م الفرنسي مالقين (Malgaigne)، ثم في عام ١٨٤٧ قدم سيمبسون (Simpson) مادة الكلوروفورم (Chloroform) كمخدر في انكلترا. الا يثير كل ذلك اهتمام الدكتور نجار اثناء وجوده في فرنسا؟ هل سمع الدكتور نجار بهذه الاكتشافات القيمة التي حررت الانسان من الاوجاع والعذاب الجراحي؟ هل تطرق لها وتعلمها؟ هل حملها معه الى لبنان؟.

في كتابه «مصباح الساري ونزهة القاري»[20] المطبوع عام ١٨٥٥م تكلم الدكتور نجار عن رحلاته الى القاهرة والاستانة. يذكر في اخر هذا الكتاب بوجود مجلد ثان، مع كل اسف لم نستحصل بعد على مجلده الثاني. فالسؤال المطروح اذاً هل وصف الدكتور نجار في مجلده الثاني رحلته الى فرنسا؟ وهل ذكر فيه اية معلومات عن اكتشاف التخدير، الاكتشاف الذي كان اكبر بركة اعطاها الله للانسان والذي غير مجرى الجراحة؟ كل هذه اسئلة مطروحة لم نستطع الرد عليها لعدم توفر المستندات الموثوقة.

عصر الجراحة مع التخدير الحديث في لبنان:

ان المعلومات عن التخدير في لبنان خلال العشرين سنة الاولى من عصر ما بعد ١٨٤٦ (١٨٤٦ ــ ١٨٦٥) ناقصة تماما لعدم تمكننا من ايجاد مستندات لهذه الحقبة من الزمن[4]. لكننا نعرف ان المستشفى الوحيد الذي كان في ذلك الوقت في بيروت هو المستشفى الشاهاني العسكري والذي اتخذ من الدكتور ابراهيم نجار في عام ١٨٤٩م رئيسا لجراحيه. لقد القى الدكتور امين الجميل[22] في مقالته «الطب في البلاد من مئة سنة». بالمجلة الطبية العلمية عام ١٩٢٨، بعض الضوء على كيفية تنفيذ الدكتور نجار عملياته في ذلك الحين:

«... اما ابراهيم النجار فبعد زيارته للامير في منفاه بالاستانة حضر الى بيروت كرئيس اطباء الجيوش وفتح مدرسة طبية في البيت المحاذي لهذا النادي. ومن خريجيه يوسف الزغزغي الشهير باصلاحاته وماثره وماتيه الخالدة في لبنان والمرحوم والدي الذي روى لي ان ابراهيم

اول من عمل هنا عملية الحصاة واذ لم يكن ذاع استعمال البنج كان يربط من يجري له العملية على زوايا طاولة العمل...»

يتضح اذا مما قاله الدكتور امين الجميل انه حتى عام ١٨٤٩ وربما لسنوات عدة بعد ذلك لم يكن التخدير الحديث معروفا في لبنان وان الطرق والنباتات الطبية التي استجلبت من القاهرة لربما هي التي كانت تستعمل في ذلك الوقت[٤].

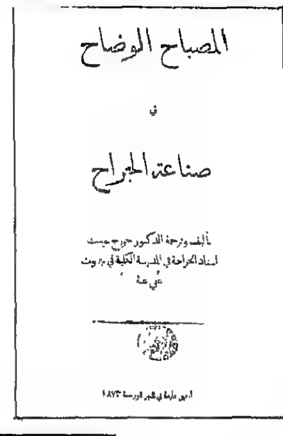
اول بوادر التخدير الحديث في لبنان ظهرت في عام ١٨٦٥م. يرجع الفضل في هذا الى الدكتور جورج بوست (٢٤،٢٣،٥) (George Post) الذي كان قد وصل الى بيروت عام ١٨٦٣ كجراح مع الارسالية الاميركية بعد ان امضى سنتين كجراح خلال الحرب الاهلية الاميركية وحيث كان قد استبدل الأثير بالكلوروفورم كمخدر سريع وفعال في اميركا. ولهذا السبب كان الكلوروفورم اول مخدر حديث استعمل في لبنان. تجدر الاشارة هنا الى ان الدكتور بوست مع الدكتور كورنيليوس فان دايك (Cornelius Van Dyck) والدكتور ورثبات (Wortabet) هم الذين اسسوا مدرسة الطب في الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٧م. كان الدكتور بوست اول استاذ جراحة في الكلية عام ١٨٦٩م وبقي خلال الاربعين عاما التالية الجراح المشهور في الشرق الاوسط حتى وفاته عام ١٩٠٩م.

اذا اول مستند لبوادر التخدير الحديث في لبنان تقدمه لنا مجلة «المقتطف» القاهرية عام ١٩٠٩م[٢٤] حيث تروي لنا قصة حياة جورج بوست، وجاء فيها ان بوست اعطى المخدر الى كلب في بلدة عبيه عام ١٨٦٥م:

> عرفناهُ في مدرسة عبيه الاميركية سنة ١٨٦٥ قبيل انشاء المدرسة الكلية وكان يدرس معنا الصرف والنحو في فرقة واحدة ويبحث ويدقق كابناء اللغة . وخطب وهو هناك خطبة علمية في الهضم شرح فيها هذا العمل الطبيعي اوضح شرح مبينًا اعضاءهُ برسوم رسمها على لوح اسود بالطباشير الملوّن وكان هذا الطباشير شائعًا حينئذٍ ولم يكتفِ بذلك بل قبض على كلب وبنَّجهُ واماتهُ ثم شقهُ وارانا وضع اعضاء الهضم فيهِ وشكلها . ثم لما أُنشئت المدرسة

في الغالب ان المخدر الذي استعمله بوست على الكلب كان الكلوروفورم حيث جاء في كتابه «المصباح الوضاح في صناعة الجراح»[٢٥] ان الكلوروفورم قد نسخ الأثير تقريبا في اوروبا وفي جانب كبير من اميركا لحسن رائحته وسرعة فعله.

اما اول مستند لاستعمال الكلوروفورم على الانسان نجده ايضا في كتاب بوست ١٨٧٣م[٢٥] حين ورد في صفحة ٢٧٧ ما يلي:


المصباح الوضاح

في

صناعة الجراح

> وتختلف جدًّا قابلية المفاصل المخلوعة للرد . اتى رجل مستشفى ماري يوحنا المخلع منكبهُ الى تحت منذ ثلثة اشهر وتثبت راس العضد هناك . فكُلْثِر ومدّ العضو وتحورف بهِ لردّهِ الى التجويف العنابي ولم يجدِ ذلك نفعًا لامتلاء التجويف نسيجًا ليفيا . غير انهُ تمددت الرباطات العرضية وارتخى

ان مستشفى ماريوحنا (Johanniter Hospital) (موقع السفارة الفرنسية حاليا) كان قد اسس عام ١٨٦٧م من قبل تنظيم مار يوحنا الالماني وكانت تديره راهبات المان. ولعدم وجود تسهيلات استشفائية لتلامذة الطب انذاك فقد اوكل هذا المستشفى عام ١٨٧١ الى رعاية اساتذة الكلية السورية الانجيلية ودامت هذه الرعاية الى عام ١٩١٧م [٥، ٢٦:٦].



الدكتور بوست بعد عملية وحوله تلامذة لبنانيون وممرضات المان في مستشفى ماريوحنا. حوالي عام ١٩٠٠م.

تجدر الملاحظة هنا بان كلمة «فكلفر» التي ورد ذكرها في كتاب بوست وقد اعيد استعمالها مرات عديدة في مجلة «الطبيب» التي اصدرها بوست على سنوات عديدة (٤)، هي للتدليل على استعمال الكلوروفورم وقد اشتق منها «كلفر العليل» و«تكلفرت» حتى وقد دعي الشخص الذي يعطي الكلوروفورم «بالمكلفر»[٢٧].

لقد كتب الكثير عن الدكتور جورج بوست الجراح وعالم النباتات[٢٤] والمؤلف ولكن لم يكتب ابدا عن الدكتور بوست اول طبيب مخدر في لبنان. يعتبر الدكتور بوست بحق اول رائد للتخدير الحديث في لبنان[١٥]. هو الذي الف كتابا عن الجراحة نشر باللغة العربية عام ١٨٧٣م[٢٥] ووضع فيه لاول مرة فصلا عن التخدير العام والموضعي ووصف درجات خمس للتخدير وبذلك وضع الاسس العلمية لهذا الاختصاص لاول مرة في لبنان. كما واننا ندين له مبادرته بانشاء اول مجلة طبية لبنانية باللغة العربية في عام ١٨٧٣م عرفت بمجلة «الطبيب» حيث ساهم سنوات عديدة في اصدارها وشارك في مواضيعها الطبية المختلفة ومنها موضوع التخدير كعلم من علوم الطب. وبالرغم من انشغاله بنشاطات علمية كثيرة اخرى يمكن ملاحظة تأثير الدكتور بوست في بقية القرن التاسع عشر من خلال ادخاله معلومات جديدة في الادوية او الطرق المستحدثة للتخدير في ذلك الوقت.

* * *

ان هذا البحث هو خلاصة لدراسة في تاريخ التخدير في لبنان منذ نشأته في القرن التاسع عشر ولحين توضحت معالمه في لبنان في اواخر القرن الماضي وقد تمت الدراسة قبيل الحوادث المؤلمة التي حلت بنا، وهو لا يزال ناقصا بسبب نقص في مستندات بعض الحقب في القرن التاسع عشر. لذلك اتقدم من القراء الكرام وخصوصا من الزملاء الاطباء ان يحيطوني علما اذا كان لديهم اية معلومات محققة عن تاريخ هذا الاختصاص في لبنان لضمها الى هذا البحث في سبيل استكماله.

الهوامش

(١) *Synposis of Anaesthesia,* Chapter on History of Anaesthesia, The Williams & Wilkins Company, Baltimore. Lee, A.J.

(٢) *The History of Surgical Anesthesia,* New York, Dover Publication, 1963. Keys, Thomas E.

(٣) *Drugs* (Life Science Library), Time-Life International (Nederland) N.V. 1969. Model, W., Lansing, A.

(٤) The Development of Anaesthesia in Lebanon (1800-1914), *Middle East Journal of Anaesthesiology* 3:5, 1971. Haddad, Fouad Salim.

(٥) A century of American medicine in Syria, *Annals of Medical History* p.460, Paul B. Hoeber, Inc., New York, 1939. Khairallah, Amin.

(٦) Our Medical School, Its past, present and future *Journal Medical Libanais* 6:259, 1953. Khairallah, Amin.

(٧) أبي اللمع، رئيف ـ نشأة الطب في لبنان. **المجلة الطبية اللبنانية** ٢١: ٦٩، ١٩٦٨.

(٨) الشطي، أحمد شوكت ـ نظرات الى تاريخ الطب في البلاد العربية، خصوصاً لبنان وسوريا في العهد العثماني. **المجلة الطبية اللبنانية**: ٢١: ٧٣، ١٩٦٨.

(٩) ؟، رسائل. **الطبيب** ١: ٩، ١٨٧٤.

(١٠) Dr. Ibrahim Najjar (1822-1964), premier, médecin diplomé du Liban. *Journal Médical Libanais* 21:299, 1968. Haddad, Farid.

(١١) كلوت بيه، **مبلغ البراح في فن الجراح** ١٢٥١هـ، ١٨٣٥م.

(١٢) حداد، فريد سامي، تاريخ الطب في لبنان عام ١٨٧١ ـ ١٩١٤. **المجلة الطبية اللبنانية** ٢١: ٤١، ١٩٦٨.

(١٣) Docteur Youcef Bichara Jalkh et la médicin du Liban à son époque. *Journal Médical Libanais* 21:299, 1968. Haddad Farid

(١٤) نصار، موريس. الطب العربي وعلم الاقرباذين الحديث. **المجلة الطبية اللبنانية** ٤: ١٧، ١٩٥١.

(١٥) الشطي، أحمد شوكت، التخدير في الشرق العربي، مراسلة شخصية ٢٩ تموز ١٩٧٠.

(١٦) الرشيدي، أحمد، **عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج**: (المادة الطبية) الجزء ٣ و٤ دار المطبعة الخديوية بولاق مصر، ١٢٨١هـ ١٨٦٤م.

(١٧) *Pharmacognosy, Medicinal plants and their vegetable drugs.* Paul Barbey's Printing Office, 1932. Fahim, R.J.

(١٨) محمد علي البقلي الحكيم، **غرر النجاح في أعمال الجراح** ١٢٦٣هـ ١٨٤٦م.

(١٩) زيدان جرجي، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر** ١٩٠٣.

(٢٠) الشافعي، محمد ـ **السراج الوهاج في معالجة الأمراض الباطنة**، وغيرها وفي الأدوية البسيطة، أو المركبة، بولاق، ١٢٨١هـ ١٨٦٤م.

(٢١) النجار، ابراهيم. **مصباح الساري ونزهة القارىء** ١٢٧٢هـ ١٨٥٥م.

(٢٢) الجميل، أمين. الطب في البلاد من مئة سنة. **المجلة الطبية العلمية** ٦: ٥٥٣، ١٩٢٨، ١٩٢٩.

(٢٣) *The life and works of George Edward Post* (1839-1909). Saint Catherine Press Ltd. (Belgium), 1938. Saidi, M. Lutfi.

(٢٤) ـ ؟ ـ الدكتور جورج بوست، **المقتطف** ٣٥: ١٠٤١، ١٩٠٩.

(٢٥) بوست، جورج. **المصباح الوضاح في صناعة الجراح** ١٨٧٣.

(٢٦) *The American University of Beirut.* Publisher: Khayat, 1958. Dodge, B.

(٢٧) ـ ؟ ـ اسفكسيا، الأسباب المرضية. الطبيب ١: ٢٤٦، ١٨٧٤.

●

(*) مقتبسة من مقالة باللغة الانكليزية ظهرت في مجلة «Middle East Journel of Anaesthesiglogy» مجلد ٣ صفحة ٥ ـ ٤٠ عام ١٩٧٠ تحت عنوان The Development of . Anesthesia in Lebanon (1800 —— 1914)



عندما يدرس المؤرخ الوثائق، يجب الا ينسى أبداً وجود تلك الحقيقة الصامتة، التي لا تطلعنا عليها النصوص.

«ر. لاتوش»

رحلة إلى ما قبل التاريخ

د. ابراهيم [illegible] أحمد

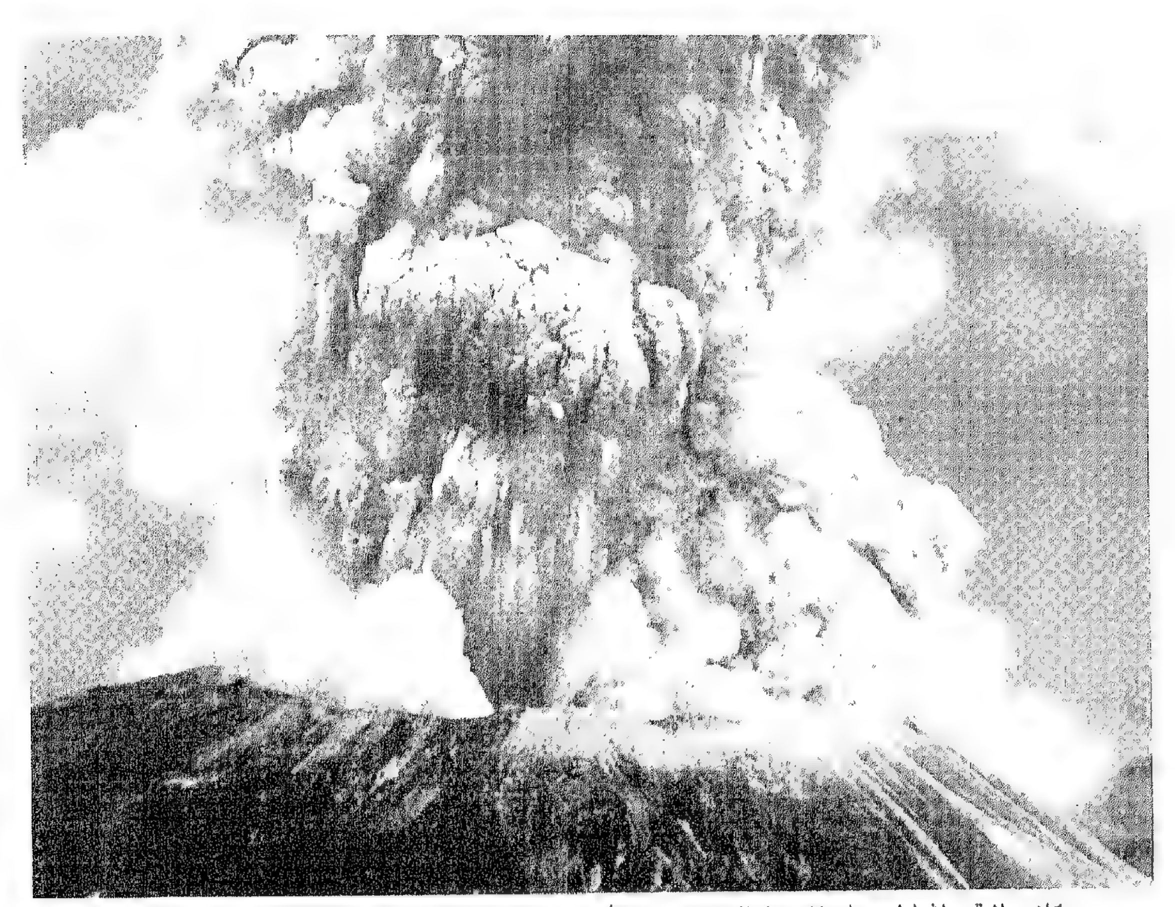
[illegible] عام ١٩٦٠ [illegible] من [illegible] أنها بدءاً حدوث الانفجار الأول [illegible] قبل ٦ ألف مليون سنة.

أما ولادة الأرض فجاءت [illegible] خمسة آلاف مليون سنة [illegible] انفجر نجم كبير [illegible] من لهب [illegible] حول الشمس ثم ابتعدت عنها رويداً رويداً [illegible] وصلبت قشرتها [illegible] الأرض [illegible] صخور [illegible] هذه الأرض [illegible] الشمس [illegible]

[illegible] كبار الأرض [illegible] لألف مليون سنة لا نور ولا حياة بل ظلام مطبق وجو خانق من غير اوكسجين. الامطار تعمل [illegible] الصخرة العارية [illegible] شديداً [illegible] جو [illegible] الأمونيا و[illegible] الهيدروجين وثاني أوكسيد الكربون.

في جو مشحون بطاقة من حرارة وكهرباء وأشعة [illegible] تتفاعل الغازات. وتنتج الحوامض العضوية من أمينية و[illegible] ذابت في البحر [illegible] حساء كثيفاً. الأمواج تحرك المواد فترتبط حبلاً طويلة منها البروتينات ومنها الحوامض النووية التي أخذت تنقسم وتتكاثر [illegible] في فجوات الصخور [illegible] فيه نواة الحوامض النووية وغيرها. [illegible] لتظهر الخلايا الحية. قبل أربعة آلاف مليون سنة

■ د. ابراهيم [illegible] في [illegible] في [illegible] الأميركية في [illegible] حائز على شهادة الدكتوراه بالكيمياء الحياتية والعضوية من W.R.V. – أوهايو – الولايات المتحدة الأميركية. حالياً أستاذ في كلية الطب – الجامعة اميركية في بيروت



بركان ولاية واشنطن على المحيط الهادي الذي أزاح ٤٠٠ متر من جبل علوه ٣٠٠٠ متر عام ١٩٨٠، قوته ٥٠٠ قنبلة ذرية هيرشيمية، وهو دون طنين بعوضة بالنسبة لما حدث قبل التاريخ.

لم يشهد أحد هذا الهول الذي لا يستطيع بشر أن يتخيله والانسان يصف براكين اليوم بالهول! أضخم بركان عرفه الانسان هو (كراكاتاو) الذي أزال جزيرة أندونيسية من الوجود عام ١٨٨٣. هبطت حرارة العالم لسنتين. اهتزت الأمواج فقتلت ٣٦٠٠٠ نسمة، وحركت سفناً راسية في بريطانيا. صوته سمع على بعد ٥٠٠٠ كيلومتر. يقدر الخبراء قوته بثلاثين قنبلة هيدروجينية، وما هي إلا فتيل سراج إذا قيست بمخاض الأرض!.

الصخور تشهد على ما حدث:

إذا لم يشهد بشر تلك الوقائع، فالصخور تشهد عليها، بما تحمله من آثار تلك الأهوال، وبقايا المخلوقات البائدة. الصخور سجلات صامتة رتبها الزمن ليقرأها الانسان ويتبصر. من مئتي سنة لاحظ العلماء فروقاً جوهرية في كيان الصخور، فاستطاعوا تقرير عمرها بوسائل مختلفة أحدثها النظائر المشعة. بالمجهر تستطيع رؤية هياكل كائنات غريبة محفوظة في الصخور. ولربما أسعدك الحظ فرأيت هيكلاً كاملاً في صخرة مفلوقة. ولو كنت من هواة العنبر لوجدت في صمغه القديم فراشة مجنحة لا مثيل لها اليوم، سجنها الزمن في جوف الصمغ. تسمى هذه الآثار أحفورات. هي على أنواع، وحفظت بطرق مختلفة. المهم أن الاحفورات سجلات موثوق بها مرتبة زمنياً، وإن كانت ناقصة أحياناً.

بديهي أن كائناً رخوا بلا عظام أو صدف لن يحفظ، ولا تلك الخلايا الطرية التي نشأت أولاً. لكن في الأحفورات معلومات تدلنا على وقائع تلك الملايين من السنين الغابرة. عوامل الزمن العاملة بهدوء كفلت ترتيب السجلات. أنت لا ترى المطر والجفاف ينحتان الجبال حتى

تمسي القمة الشاهقة وادياً سحيقاً. ولا ترى نهر الأمازون مثلاً يحمل الفا وثلاثمئة طن من التراب يقذفها سنوياً إلى قاع المحيط، فتتكدس طبقة طبقة، ثم تتحجر لترتفع صخوراً بعد أجيال. سطح الأرض نفسه ينخفض قدماً عن سطح البحر كل ٩٠٠٠ سنة. التراب المجروف يحمل قبور الكائنات بحسب أزمانها. وهكذا سنقوم برحلة إلى ما قبل التاريخ المكتوب على ورق. ولا بد من القول بأن علوم الكيمياء والتشريح والأجنة وغيرها يسرت تقرير تسلسل الكائنات وتقلبها أو تحولها خلال العصور.

يسمي العلماء عصور التقلبات اما باسم البلد الذي وجدت فيه الاحفورات. وإما باسم أعظم حدث آنذاك، وإما باسم الكائنات. سنعتمد الزمان مقياساً في رحلتنا إلى الماضي البعيد.

أقدم الأحياء:

في أواخر ١٩٧٧ اكتشف العلماء أحفورات في صخور أفريقية عمرها ٣½ ألف مليون سنة، فوجدوا جراثيم ثبت بعد فحوص دقيقة أنها لا تستطيع الحياة في جو فيه أوكسجين، لكنها تستعمل الهيدروجين وغاز ثاني أوكسيد الكربون لتصنع منهما غاز الميثين وغاز الاوكسجين. هي مضخات تغني الهواء بالأوكسجين، ولربما هي ومثيلاتها مهدت لظهور كائنات لا تعيش إلا على الأوكسجين. ترتيب البروتينات والحوامض النووية يختلف عما يوجد في النبات والحيوان، ولقد وجد العلماء خلفاء هذه الجراثيم في خبايا الحمامات الطبيعية الساخنة، حيث تعيش هذه الكائنات على درجة ٧٠ مئوية.

إذن أول أحفورة ثابتة ترجع إلى أربعة آلاف مليون سنة تقريباً. يليها بعد ذلك ما اكتشفه علماء من أحفورات في البحيرة الكبرى (كندا) لطحالب خضر وزرق (الجينات)، وطفيليات سوطية في طريقها إلى التحول نحو كائنات حيوانية. عمر هذه الأحفورات ألفا مليون سنة. باستثناء هذين الدليلين لا نعرف من الكائنات إلا ما عاش من ٦٠٠ مليون سنة! لكن العصور، التي سبقت هذا التاريخ، شهدت تقدماً سريعاً لتنوع الخلايا والكائنات، بدليل وجود بقايا حيوان مدرع (أقارب السرطان) قبل ٦٥٠ مليون سنة. كان له ١٢ رجلاً، وطوله ٦٥ سنتيمتراً جبال سيبيريا كانت مثواه! في هذه العصور حدثت تحولات بيولوجية عظيمة.

بعض الكائنات بقيت خلية واحدة طفيلية مثل الأميبا. أما غيرها فقد تجمع ليصبح مثل مستعمرة، إنما بلا تخصص لكن خلاياه متصلة بأقنية كثيرة مثل حيوان الاسفنج. وفي كائنات ثالثة تجمعت الخلايا وتميزت طبقات مهدت لظهور الكيان المعقد كبعض الديدان، ومنها ما صار له جوف (بطن) وآخر بقي بلا بطن أو أحشاء كالدود الطفيلي في الامعاء. وهناك كائنات ظهر فيه التحزز، أي مناطق محددة مهدت لتطور الأطراف والأعضاء. من هذه الكائنات ما استعمل كل مناطقه للأرجل كالديدان، ومنها ما ارتفع فتطورت أطراف مفصليه ورأس صغير مثل السرطان.

أما الكائنات التي تمهلت في تخصصها ولم تسرع في النضج فتركت لنفسها فرصة تقدم عظيم سنراه بعدئذ في حيوانات فقست بيضة على الأرض، بينما لجأ غيرها إلى تثبيت حرارة دمه فنشأ الجنين والحليب وتوسع الدماغ. المهم أن رحلتنا تبدأ من ٦٠٠ مليون سنة فقط حين كثرت حيوانات البحر.

١ ـ عصر السرطان الأول (أبو جلمبو) ما بين ٦٠٠ ـ ٥٠٠ مليون سنة من قبل:

لا حياة إلا في البحر حيث الدفء والاستقرار، أما الأرض فصخرة جرداء متقلبة. كل الكائنات رخوة طرية بلا عظم (لا فقريات). تكاثرت وأمكث بعضها بعضاً إلا ما اكتسب غشاء صدفياً أو صفات متقدمة، جدود قنديل البحر والمرجان واللؤلؤ والقوقعة والحلزون والأخطبوط والحبّار (صبيدج) لم تتحزّز إلى مناطق، فخسرت أمام الكركند والسرطان (أبو جلمبو) والعقرب، كلها تحززت وأصبح كيانها ذا فلقات ثلاث (رأس، بطن، مؤخرة) معززة بالدروع، والأطراف المفصلية. حصنت نفسها بالدروع وبالقدرة على الهرب أو

الهجوم واحكام القبض بما لها من أطراف مرنة وقوية.

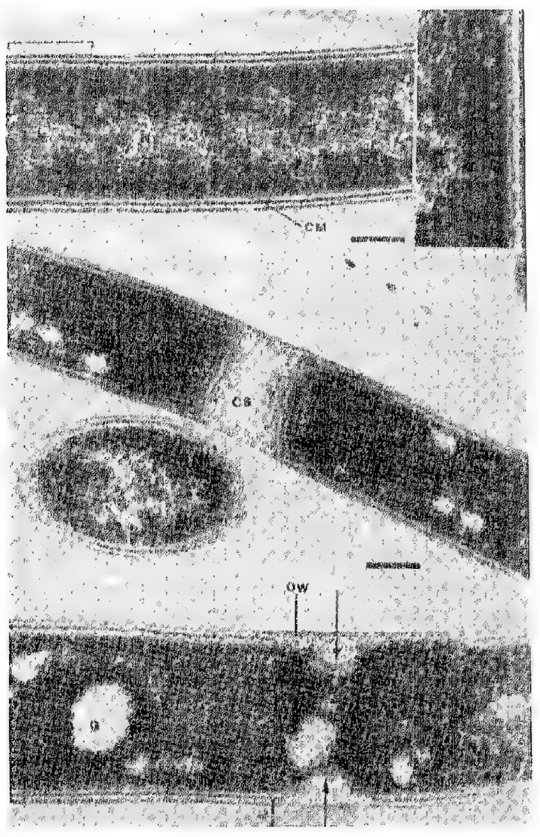
هـذه المدرعـات المثلمة (أو ذوات الفلقـات الثـلاث) عاشت في الطين تكمن وتنقض عـلى فريستها، وسبحت في الماء، فكانت على ألف نوع من رأس الدبوس حجماً إلى ما كان طوله نصف متر. هيمنت مليوني سنة، فكان ثلثا الحيوانات منها في هذا العصر وفي العصر اللاحق.

صحيح أن الدرع القوي وقاها، لكن ثقـل الدرع المتضخم على البدن عبء وقيد يسدان مجالات التقدم. انعزلت هذه الطبقة وتأخـرت فـانقرضت، وتـركت لنا العقـرب وأبا جلمبـو والكركند! المحيط الهادي الذي وجد من أول النشـأة عرف هـذه المخلوقات. كـان المحيـط الهـادي يغـطي نصف آسيـا إلى الشمـال، والهملايا غير موجودة. أما أوروبا فكان يغطيها بحر آخر. لأن في صخـور ويلز وجدت بقـايا المدرعات، فالجيولوجيـون يسمون هـذا العصر (كامبْرا) الاسم اللاتيني لويلز. دام هذا العصر مئة مليون سنة.

٢ ــ عصر الظَّهر: ما بين ٥٠٠ ــ ٤٠٠ مليون سنة من قبل

صحيح أن عقارب البحر المدرعـة مهيمنة، ومنها ما يكون ثلاثة أمتارطولاً، إلا أن النصف الأول من هذا العصر شهد فتحاً جديداً إذ نما كائن غير مدرع، إنما حمل عمودا غضروفياً على ظهـره، فمهد لتـطور العمود الفقـري ومملكة الحيوانات الفقرية التي ستسود بعد حقبة من الزمن. لا نعـرف هذا الكـائن الجـريء الذي رفض الصلب الخارجي فحمل عموده على ظهره فقط!

أما النصف الثاني من هذا العصر فقد شهد أيضاً تطوراً خطيراً إذ ما بين مد وجزرتعلقت بعض الطحالب النباتية بالبر فنمت نباتاً بدائياً بلا ورق وبلا زهر، فمهدت بذلك لغزو حيواني البر. والحيوان يأكل اللحم لكنه مولع بالتغيير فلحق بطنه! بقايا النباتات الرائدة انحفرت في صخور استراليا. لا ندري أي حيـوان غامـر فانتقل إلى البر، وإن كانت العقارب تستكشف الشواطىء.



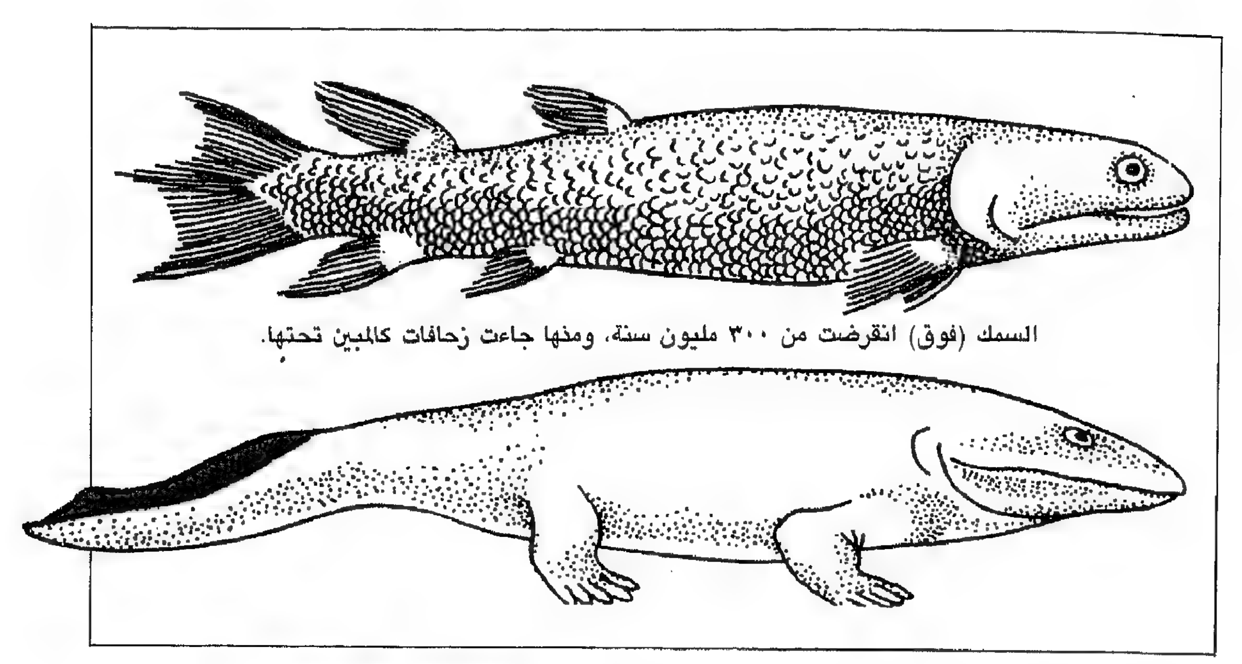
صورة بالمجهر الالكتروني لجراثيم في احفورات عمرها ٣,٥ ألف مليون سنة. لاحظ الخلية الواحدة وخليتين في مرحلة الانقسام.

أواخر هذا العصر تشهد تنوع الفقـريات، وبقاياها موجودة في انجلترا حيث قطنت قبائلها القديمة. وفي نهر كلورادو ظهر أول سمك له عمود غضروفي غير عظمي.

٣ ــ عصر السمك: من ٤٠٠ ــ ٣٥٠ مليون سنة

بعد انقراض ما هو ضخم نتيجة صدمات الطبيعة، سادت الأسماك فتنوعت وتقدمت، فبلغ سمك القرش ستة أمتار طولاً، وظهـر السمك المدرع في المياه العذبة.

من أهم أحداث هذا العصر غزو الحيوان للبـر وبدء المنـافسة بـين حياة البحـر والبر. اللافقريات المتقدمة من زمن بعيد تركت البحر وانتشر العنكبوت وحشرات غير مجنحة والعث والسوس في البر. أما أصحاب الظهر (الفقريات) فبقيت في البحر أو قريباً من الشواطىء.

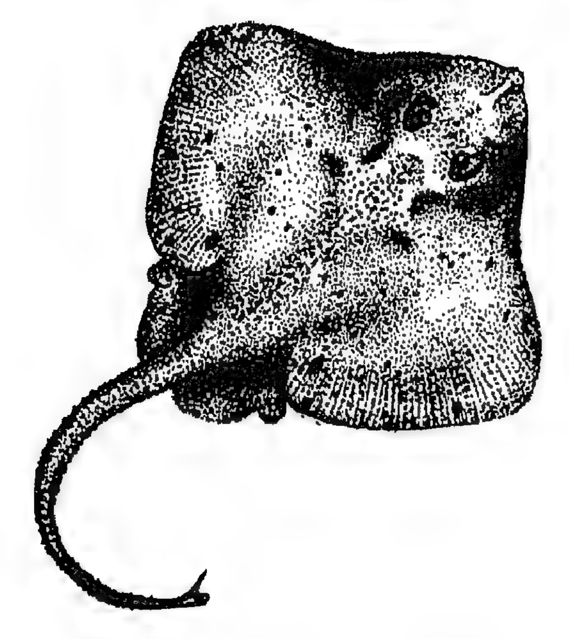


السمك (فوق) انقرضت من ٣٠٠ مليون سنة، ومنها جاءت زحافات كالمبين تحتها.

لربما بدأ الغزو نتيجة جفاف البحار إذ نعرف أن البر اتسع على حساب البحر، فكثرت المستنقعات، وهربت كائنات قادرة على البر، ولا سيما أن الأرض أخضرت وعلت الاشجار فيها إلى ١٥ متر، كما انتشرت في الشواطىء كثبان المرجان. عصر هادىء نسبياً، فخمسون مليون سنة حقبة طويلة لا تخلو من تقلبات بركانية وجليدية.

اشتد الجفاف آخر هذا العصر، فانقرضت أسماك كبيرة، لكن عاش سمك ظهرت فيه خصائص جديدة. بعض الأنواع حظيت برئة بدائية مكنتها من تنشق هواء البر، والخيشوم للبحر. فنيت جدودها وأحفادها وبقي لها اليوم ممثل بدائي يقطن المستنقعات. ومنها ما حظي أيضاً بزعانف تمكنها من الزحف أرضاً، ومنها ما كان له أربع قوائم بالاضافة إلى الرئة، مما مهد لظهور البرمائيات الممثلة اليوم بالضفدع.

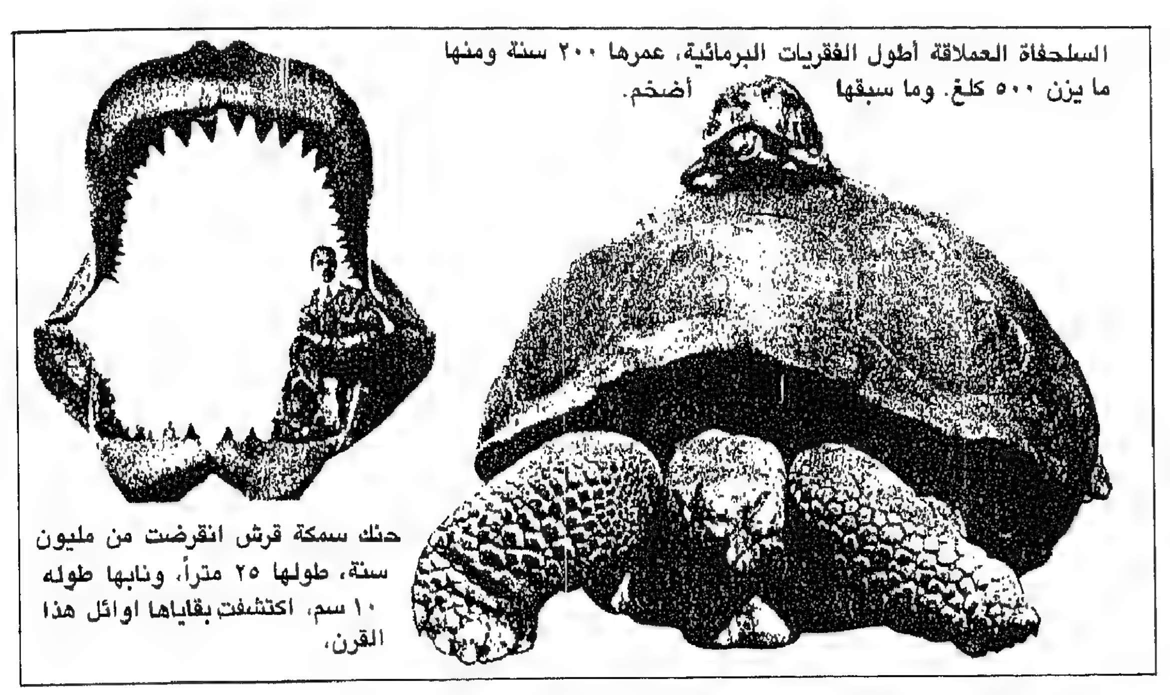
زائر من الماضي: ظن العلماء أن هذه الأسماك الانتقالية انقرضت قبل ٦٠ مليون سنة حتى ظهرت واحدة فقط عام ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٢ اصطاد عربي واحدة قرب مدغشقر، كانت سريعة العطب لكن العلماء استطاعوا تحديد هويتها. بلغ طولها متراً ونصف المتر، ووزنها ٤٠ كيلو، صيدت حين كانت على عمق



سمك من ذوات الرئة يستطيع التنفّس بحراً وبراً. من مثله جاءت البرمائيات قبل ٣٠٠ مليون سنة.

٢٠ متر فقط! هي من سلالة هذا العصر المسمى «ديفون» (منطقة في بريطانيا).

المهم أن نهاية هذا العصر شهد انقساماً إذ انحصرت الأسماك المحضة في البحر، أما الأسماك الانتقالية البرمائية فقد فضلت البر والمستنقعات فكانت السيادة القادمة لها، إذ حملت شعلة التقدم.


السلحفاة العملاقة أطول الفقريات البرمائية، عمرها ٢٠٠ سنة ومنها ما يزن ٥٠٠ كلغ. وما سبقها أضخم.

حنك سمكة قرش انقرضت من مليون سنة، طولها ٢٥ متراً، ونابها طوله ١٠ سم، اكتشفت بقاياها اوائل هذا القرن.

٤ ــ عصر الضفدعة من ٣٥٠ ــ ٢٧٠ مليون سنة:

ساد هذا العصر البرمائيات إذ استطاعت النزول براً بما اكتسبته من عضلات وقلب متطور (له بطينات ثلاث بدلاً من اثنين كما في السمك)، إلا أنها لم تستطع التوغل في البر إذ لا تقدر على حفظ ماء جسمها. حتى اليوم لا تستطيع الضفدعة أن تبقى براً ذلك أنها تخسر ربع وزنها في ١٠ ساعات «برية». الماء ضروري للكبير ولفقس البيض. تذبذبت هذه الكائنات بين ماء ويابسة فانقرضت تاركة لنا الضفدعة، ذلك أن التردد لا يرجح التقدم! ضخمت البرمائيات إلى خمسة أمتار طولاً، وفي الضخامة بذور الفناء.

أهم حدث هو ظهور زحاف صغير يفقس أول بيضة على الأرض، فيؤذن بنهاية قريبة لهيمنة حياة البحر على البر.

خلال هذا العصر تمتعت الكائنات بدفء واستقرار ونمت الأشجار إلى علو ثلاثين متراً وامتدت المناطق الاستوائية من القطب إلى القطب. سماه الجيولوجيون عصر الفحم لأنه ظهرت هذه المناجم آنذاك بعد أن أفنت عصور سابقة كائنات ضخمة وحولتها قبوراً فحمية. البروتين، مادة الحياة، نصفها من عنصر الكربون سواء في الحيوان أو النبات.

قبور الفحم حفظت ٧٠٠ نوع من السمك، غير الحشرات والبرمائيات والمدرعات.

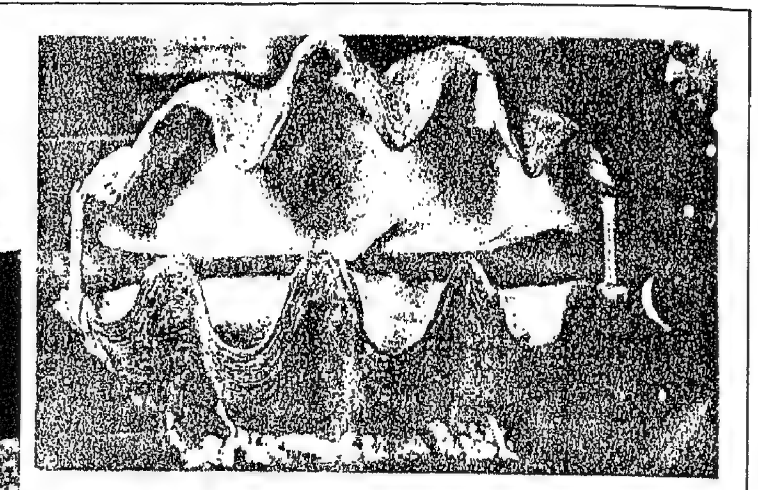
بانتهاء هذا العصر الذي دام ثمانين مليون سنة انتهت الأيام السهلة للمخلوقات، إذ بدأ المناخ يبرد وينشف ويشتد غليان الأرض فيفنى الضخم والضعيف إلا ما كان مرناً ومحظوظاً.

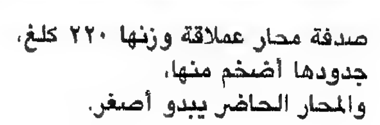
٥ ــ عصر الحرباء أو الزحّاف من ٢٧٠ ــ ٢٢٥ مليون سنة:

الجفاف يزداد وتنحسر البحار وتندثر الأشجار. بريطانيا مستنقعة شديدة الملوحة، والجبال يتشبث بها العليق. يتبع الجفاف هزات مرعبة فتغوص بحيرات وكتل أرضية، وترتفع الجبال الشرقية في الولايات الأميركية المتحدة. ولولا أن عادت الرطوبة قليلاً لفني ما على الأرض، وإن بقي النصف الشمالي من الكرة الأرضية قاحلاً.

تنتهي هيمنة مخلوقات البحر، ويكثر الذباب على الأرض وغيره من حشرات مجنحة. النمل الأحمر والأبيض يسعى.

أما أكثر الحيوانات رقياً فهي الزحاف صاحب البيضة. دينوسورات صغيرة (١٥ سنتمتر) تتنوع وتزدهر. وهكذا بانتهاء هذا





صدفة محار عملاقة وزنها ٢٢٠ كلغ،
جدودها أضخم منها،
والمحار الحاضر يبدو أصغر.

العصر تنتهي أنواع الحياة القديمة. سماه الجيولوجيون عصر بيرم، منطقة روسية غنية بأحفورات المدرعات التي انقرضت نهائياً، والبرمائيات إلا قليلاً منها.

في هذا العصر تطورت الشرنقة لتتقي بعض الحشرات قلة الماء والغذاء، وتنوعت كائنات شبيهة بالتمساح وثعابين الماء والبر.

هو عصر الحرباء لأن الدينوسور (الحرباء المخيفة) سيسود طويلاً، وبأشكال غريبة ومرعبة.

٦ ــ عصر الدينوسور من ٢٢٥ ــ ٧٠ مليون سنة:

عصر بثلاث حقب جيولوجية، انما متحدة بيولوجياً ذلك أن الهيمنة للدينوسور وجماعته (عصر الحياة الوسطى).

الحقبة الأولى تشهد ظهور جبال ألمانيا بشعبها الثلاث. لا هزات مخيفة، والقارات بما فيها استراليا غير منفصلة. الذين يتسلقون اليوم جبال الدولوميت (بين ايطاليا والنمسا) لن يجدوها آنذاك لأنها كانت محيطاً كبيراً.

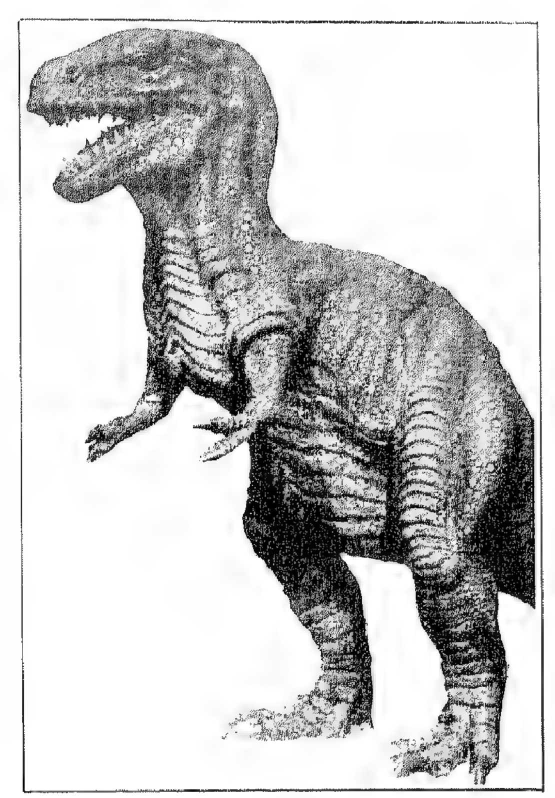
أعظم حدث هو ظهور حيوان ذي دم دافىء (ثابت الحرارة) وله ثدي. هو أول اللبونات. لكنه تافه مغمور، فالأسماك في البحر والدينوسور في البر أقوى المخلوقات.

حواس الكائنات تنتظم ونلاحظ انتشار الذكاء، والقدرة على التعلم بدليل ما نراه في عيون الأخطبوط والحبار وجهازيهما العصبيين، وكانت هذه المخلوقات والكركند قد اخذت آنذاك الشكل المعروف حاضراً.

أحفورات هذا العصر كشفت ١٣٠٠ نوع من حشرات مجنّحة منها ما غطى جناحه متراً من الأرض، والصرصور مزدهر.

اللبون ذو الدم الدافىء هو فرع من حرباء كبيرة اختلف عن بقية الزحافات إذ كان له جلد وحنك وثدي كاللبونات (أيكثيدوسور) كان دمه دافئاً، تخلى عن فقس البيض وحظي بالجنين. تقدم مفيد في عصر اشتد فيه الجليد الذي لا يساعد نضج البيض، ذلك أن الدينوسور الحقيقي كان يدفن بيضه في الرمل لتنضج الحرارة جنين البيضة. وهكذا كما أتقت الحشرات قلة الغذاء بالشرنقة. أتقت هذه الكائنات البرد بجنين داخلي كفل لها البقاء والتقدم ولربما ينشأ التطور في المحن والأخطار، لا في الهدوء والركود.

في الحقبة الثانية من هذا العصر تظهر جبال جورا بين فرنسا وسويسرا. الأمطار تهطل والأنهار تجري ويعتدل المناخ فتظهر أول زهرة.



الدينوصور

مطر بعد جفاف يزيل الجبال فيستعيد البحر مساحات فقدها، فيغمر أكثر آسيا وأوروبا.

الزحافات تزداد نوعاً وعدداً وضخامة. منها ما يسود البر، ومنها ما يقطن المياه ويفترس الأسماك. وهنا يظهر أول زحاف تنقلب قشرته إلى جلد ينمو منه الريش لكنه يحتفظ بصفات الزحافات من أسنان وهياكل عظيمة، وتظهر في غيره ظاهرة جديدة إذ يخترق الجلد أجنحة فيطير الزحاف ولا يزحف بعد ذلك. أجنحته تغطي ٩ أمتار من الأرض. وهكذا نجد زحافات بحجم الأرنب إلى ما يبلغ ٣٣ متراً طولاً و٣٥ طناً وزناً، فلا تقوى على البقاء براً فتلجأ إلى مياه البحريات والمستنقعات لتحملها. تخصص الزحافات في ضخامة البدن وضمور الرأس قاد إلى انقراض بعض منها حتى في عصورها الذهبية. كل الكائنات تضخم وتكبر، ونشاهد السلحفاة العملاقة في البحر، أما اللبونات فلا شأن لها. أكبرها بحجم فأر صغير، تخشى الأماكن المكشوفة فتلوذ بالغابات، لكنها أشد الكائنات ذكاء آنذاك!

الجزء الثالث هو عصر الطبشور نسبة إلى ارتفاع صخور كلسية بيض على شواطىء بريطانيا. الصخور الطبشورية تغطي أميركا وكندا وألاسكا، وتنعزل استراليا عن العالم. أما أميركا فما زالت متصلة بسيبيريا.

الجبال الغربية لأميركا تظهر بالرغم من الجفاف وكثرة المستنقعات المناخ معتدل لكن الجليد يغطي استراليا. بقية المناطق تشهد ازدهار التين والصنوبر والغار والجوز والحور. بالرغم من كل ذلك لم يتطور سطح الأرض في أوائل هذه الحقبة ليسع الكائنات فبقيت أكثر اللبونات الضعيفة على الشجر، ولم تهجر بعض اللبونات شجرها بانتهاء هذا العصر.

أهم حدث هنا هو انقسام اللبونات إلى ذوات الصرة وذوات الجيب (كنغارو)، في استراليا التي اختصت بذوات الجيب.

انتهى هذا العصر فانقرض كل ضخم عمالقه الأخطبوط والحبار وحصان البحر (كان مترين) انقرض، وبقي ما هو صغير منها. ولم تترك الزحافات إلا التمساح والحرباء والثعبان وسلاحف البر والماء.

لا نعرف لماذا انقرضت هذه المخلوقات الضخمة. عوامل كثيرة اجتمعت فحرمتها من بقاء. بدن كبير ودماغ بحجم حبة الجوز، والغباء قتال. الأوبئة والكوارث الطبيعية. نقص في صغارها إذ اهتدى اللبون الصغير إلى غذاء البيض فسرقت بيض هذه الزحافات! بقايا بيض الزحافات وجدت في فرنسا، فكانت أكبرها ٣٠ سنتمتر طولاً وقطرها ٢٥ سنتمتر، من ٨٠ مليون سنة آخر أيام هذه الكتل اللحمية الضخمة (برونتوسوروس وغيرها).

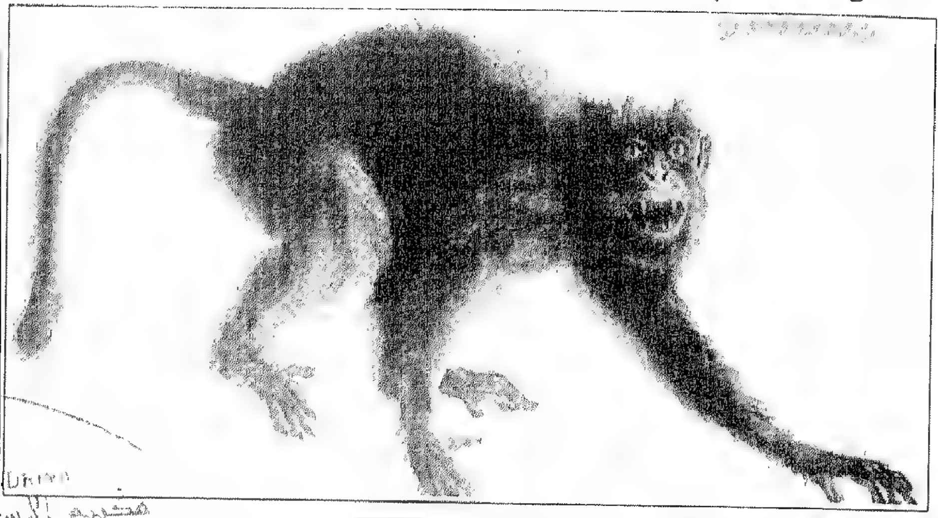
٧ ـ عصر اللبونات من ٧٠ مليون سنة حتى الآن:

هو عصر الحياة الجديدة بحقب ثلاث بهيمنة حيوانات لها ثدي. بدأت هيمنة اللبونات بامتحان عسير ومحنة مرعبة إذ اهتزت الأرض بمراجلها وبراكينها فغاصت أوروبا تحت الماء، وأجزاء من آسيا تغرق، ويولد المحيطان الأطلسي والهندي. أما لندن فهي منطقة استوائية تنعم بظل النخيل. هذا الهول قضى على الزحافات

الضخمة كلها، لكنه عجز عن افناء اللبونات فانتشرت وازدهرت وهيمنت ولو أن الجليد يغطي بقاعاً كبيرة. الأمطار تغمر أميركا الشمالية فتكثر السهول والمراعي، والأشجار تزهر وتثمر، وهذا من حسن طالع آكلات العشب.

خلال هذا الحقبة نشأت جدود الحيوانات الفيوم من جنتها. هو من القرود الانتقالية المهمة.

هدوء الأرض وانتشار المراعي شجع بعض لبونات الشجر بالنزول إلى الأرض. وبقي على الشجر لبونات أكثر ذكاء وتقدماً! كل اللبونات تحمل جنينها في بطنها منتشرة في الأرض إلا استراليا المعزولة بلبونات من ذوات الجيب.



القرد المصري عاش قبل ٣٧ مليون سنة، كان أذكى المخلوقات وأكثرها مهارة آنذاك. بقاياه في الفيوم اكتشفت عام ١٩٦٥

المعروفة اليوم. كان الحصان بحجم الكلب الصغير (طوله ٧٠ سم) ونشأ أولاً في مراعي أميركا الشمالية ثم تنوع وتشتت. لم يكن له قوة وجلال الجواد العصري لكنه كان جميلاً خجولاً.

بقيت الأرض هائجة مائجة ثلاثين مليون سنة. وبانتهاء هذه المدة المجنونة استقرت معالم القارات تقريباً، وكائنات البحر تقرب من كائنات اليوم.

في الحقبة التالية نعمت الأرض بهدوء دام ١٥ مليون سنة، فتتسع الأرض على حساب البحر، وتظهر جبال الألب، وجدود الدبب والقطط. لكن أعظم حدث ظهور قرد بلا ذنب، بينما انتشرت السعادين. كانت صحراء الفيوم (٤٠ كيلومتر جنوب غربي القاهرة) التي لا يطاق حرها اليوم (درجة ٥٧ مئوية) غابات ومراع قبل ثلاثين مليون سنة، ترعرعت فيها قرود متقدمة بحجم القطة (٥ كيلو). عاشت على الشجر وأكلت الفواكه وأبدت ذكاء ملحوظاً. بقاياها محفوظة في حمم البراكين التي جردت

آكلات العشب تتضخم فيكون رايتوسيروس أكبرها. بقاياه في أوروبا وآسيا تدل على طول ٩ أمتار وعلو ٩ أمتار إلى قمة الرأس أو ٦ أمتار إلى الكتف، ووزنه ٣٢ طناً. اكتشفت عظامه في الباكستان عام ١٩٠٧. أفاعي الفيوم من ٥٠ مليون سنة مرعبة جداً. البايثون ثعبان طوله ١٤ متراً كما تدل أحفورات عموده الفقري. الضواري تزدهر أيضاً.

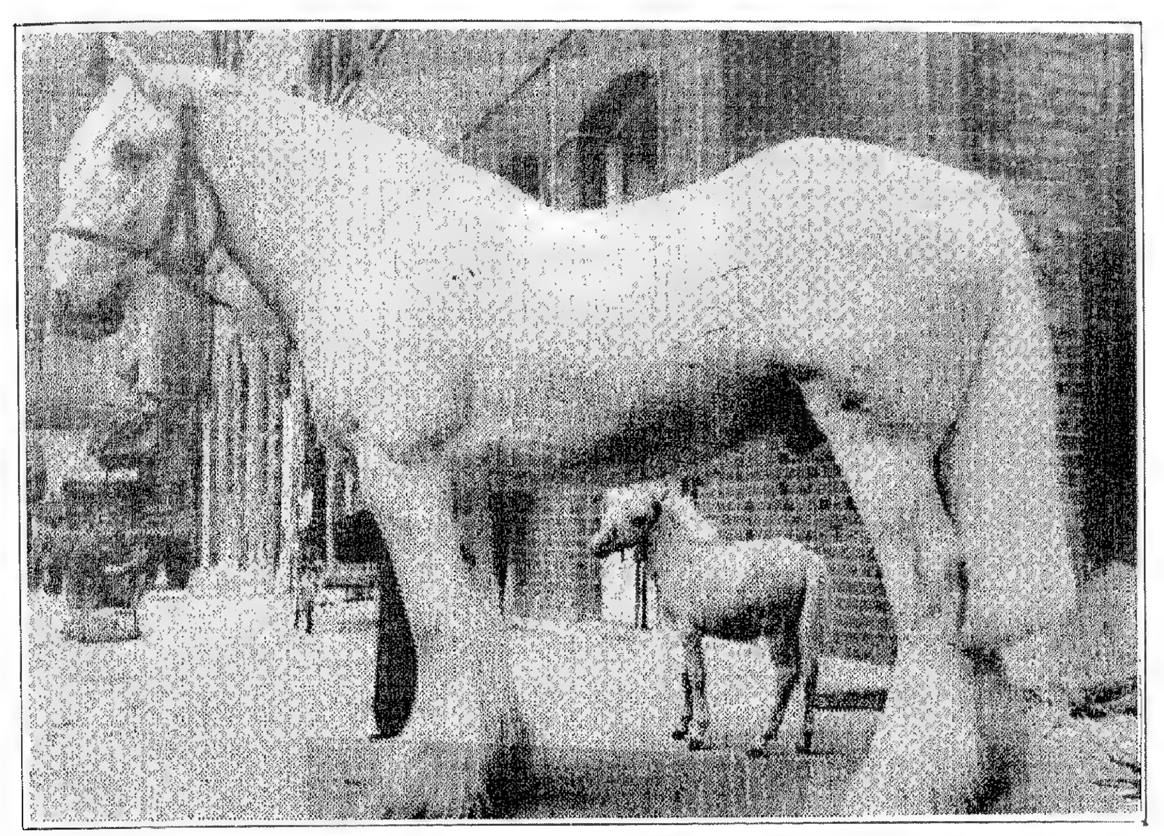
ثم بدأت حقبة ثالثة جنت خلالها الأرض لمدة ١٥ مليون سنة. غلياناً وانزلاقات، فيولد البحر الأبيض المتوسط في هذا الجنون، ولربما فسر ذلك جنون أهله!

آسيا تتفجر براكينها فترفع من قعر المحيط جبال هملايا لتعلو ٩٠٠٠ متر فوق سطح البحر!

تتصل أوروبا بآسيا نهائياً ويتم التقسيم النهائي بين القارات وتكتمل سلاسل الألب.

لا ينجو من الشجر إلا العنيد مثل الأرز والجوز والبلوط. الفيل ينتشر ويصل إلى أميركا الشمالية، الطير يكثر (بط وبطريق بطول الانسان).

أما العجائب فهي لسهول أفريقيا التي ظهر



ظهر الحصان صغيراً (طوله ٧٠ سنتيمتراً) في مراعي أميركا الشمالية قبل ٧٠ مليون سنة. الصورة اعلاه تبين جوادين مختلفين. الصغير علوه ٦٨ سنتيمتراً وهو نشأ جديد من الارجنتين. أما الآخر فهو حصان انجليزي علوه متران ووزنه طن.

فيها أول من انتصب ومشى وتنقل بين القارات. أنواع ظهرت منه متفاوتة في تطورها ومنعزلة عن بعضها بعضاً. أحدهـا ترك ثلاث شعب افترقت نهائياً وأقدمها انقرض. يسمى العلماء الجـد المشتـرك (درايوبيثيكـوس) الذي عـاش قبـل عشرين مليون سنة. إذا كان الفرع الأول قد انقرض فان الفرع الثاني فقد أعقب مجموعة من الكـائنـات المثلة اليـوم بـالرئيسيـات مثـل الشمبانزي والغوريلا وأورانج يوتان. كل هذه الأنواع معزولة جنسياً عن بعضها بعضاً، وقد تم هذا العزل قبل ١٤ مليون سنة.

أما الفرع الثـالث الذي وجدت بقـاياه في القارة الهندية وأفريقيا الشرقية والبلاد العربية، فقد سماه العلماء درامابيثيكوس، وقد ازدهـر قبل ١٤ مليون سنة. من هذا الجد خرجت فئات بشرية. مختلفة في درجة ذكائها. ومنـه خرج استرالوبيثيكوس الذي انقرض لغبائه النسبي، ولو أنـه صنع الأدوات. عـاش غيـره وأعقب أنواعاً متقدمة مثل الانسان المنتصب، ثم ظهر أعلاها المسمى (الانسان الحكيم) ولقد سمي (الحكيم) سخرية. هذا هو انسان اليوم. أما الانســان المنتصب فقد انقـرض، وكان حجم جمجمتـه ٩٠٠ سنتمتر مكعب، بينمـا يتمتـع انسان اليوم بحجم يبلغ ١٤٠٠.

شهدت الحقبة الأخيرة من هذا العصر هدوءاً لتسع ملايين سنة، فالقارات ثابتة! لا انشقاق! وجدت بحار البلطيق والشمـال وقزوين. المعـالم الجغرافية ومملكتا الحيوان والنبـات هي على ما هي عليه اليوم تقريباً، الأوبئة تقضي عـلى بعض اللبونات فتنخفض أنواعها من ١٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠. الفيـل يسرح ويمـرح في لنـدن، والقرود في غابات أفريقيا، والعناصر البشـرية تطور الأدوات البدائية.



الكانجارو

٧ ـ عصر الجليد من مليون سنة:

بعد هدوء دام تسعة ملايين سنة بدأ عصر، حدوده الجليد الذي أطبق على الأرض مليون سنة. انحسر بعد هذه المدة لكنه ترك لنا القطبين الشمالي والجنوبي. بينما عاد الاتصال بين الأميركتين. يسمى هذا العصر (بليستوسين) أي العصر الجديد.

عمق الجليد في أميركا ١٥٠٠ متر وفي ألمانيا ٧٠٠ متر. زحف الجليد من الشمال جنوباً ومن الجنوب شمالاً فغطى استراليا وأوروبا وأكثر آسيا، وعجز عن تغطية أفريقيا وبلادنا. موجات أربع تشتد وترتد حتى اندثرت الأرض والمياه. المنطقة الاستوائية تعاني طوفاناً شديداً. شرقي آسيا وجنوب أميركا خالٍ من الجليد.

حبس المياه في سجن الجليد خفض سطح البحار والمحيطات ثمانين متراً فنقصت كمية المياه العالمية، فجفت الأشجار الضخمة والزهر وهربت الحيوانات جنوباً إلى أفريقيا. العطش يفني الحيوان ومنها ما غرق في وحل كثيف محاولاً الشرب، كما تدلنا أحفورات في لوس انجلوس حيث وجدت قطعان بأسرها. منها ثلاثة آلاف نمر صاحب الناب. السيف انقرض أبداً. من المفترسات ما كان طولها ٤ أمتار وتعلو عن الأرض مترين. الفيل الضخم خمسة أمتار عن الأرض يموت وينقرض. وكذلك الحوت الأزرق بثلاثين متراً من الطول وضخامة تفوق الدينوسور. بقيت الحيوانات الصغيرة نسبياً وهي ما نعرفها اليوم. كلما أرتد الجليد عادت الحيوانات إلى مرابعها لتعلق بالجليد ثانية حتى امتنعت عن مغادرة أفريقيا فاغتنت هذه القارة بأنواع الحيوانات المختلفة.

باختفاء الضواري الهائلة تحسنت فرص البقاء والتقدم لمملكة القرود على أنواعها... وأصبح البقاء لذوات الذكاء والحيل! ونجد من الجدود من أمسى يقتل بالحجر ويستعمله أدوات بدائية وتنعزل الحيوانات أنواعاً، وتقترب من صورتها الحاضرة.

٨ ـ عصر الانسان الحاضر من ١٠,٠٠٠ سنة:

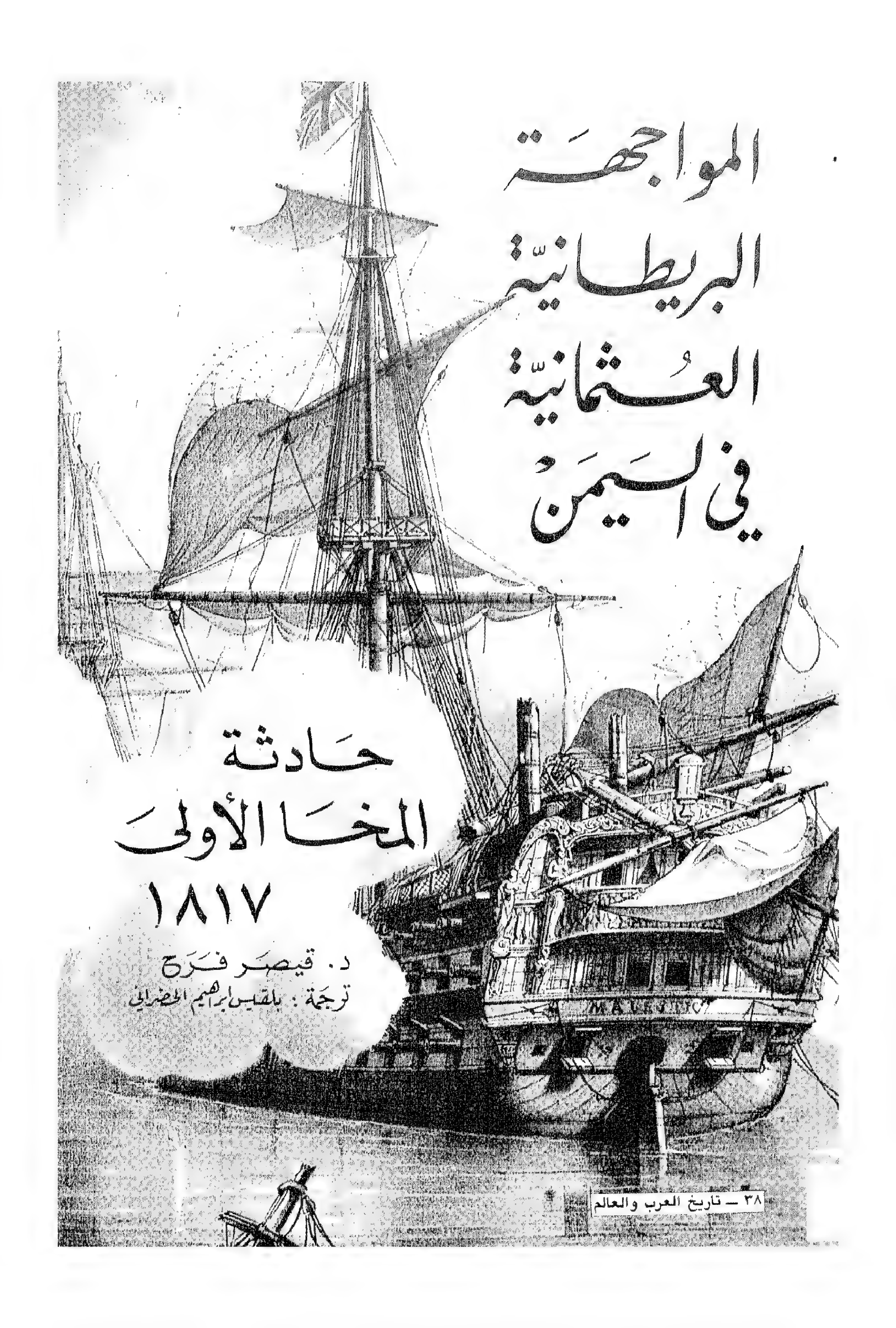
انحسر الجليد فارتفعت البحار. بريطانيا التي اتصلت مع أوروبا في حقبة الجليد عادت فانفصلت عنها نهائياً. وجه الأرض ومناخاته وكائناته هي كما نعرفها اليوم. الجفاف يشتد في شمال أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط فتنشأ الصحارى. بعودة الدفء تعود الغابات وينتشر الصنوبر والصفصاف والحور والبلوط.

الانسان يدجن الحيوانات ويفلح الأرض ويخف نشاطه في الصيد. نمت الحضارات في الشرق الأوسط ما بين النهرين وعلى النيل. الكتابة بالرموز وما تلاها من خطوط ولغات. فعرف العالم أربعة آلاف لغة!

بقايا الصياد الأميركي معروفة من ١١٢٠٠ سنة، كذلك تدجين الخراف في أوروبا، أما الشرق فدجن الخراف والماعز والكلاب من ٨٠٠٠ سنة أو أكثر، وأنشأ الزراعة.

يسمى هذا العصر (هولوسين) أي عصر التمام والكمال. وبه بدأت حضارة الانسان إلى ما نعرفه اليوم!

●



المواجهة
البريطانيّة
العُثمانيّة
في اليمنْ
حادثة
المخا الأولى
١٨١٧
د. قيصر فرح
ترجمة : بلقيس ابراهيم الحضراني
MAURITIUS
٣٨ ـ تاريخ العرب والعالم

بدأت المواجهة العثمانية الانجليزية في اليمن بحادثة جرت في ميناء المخا عام ١٨١٧ نظراً للأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها على مدخل البحر الأحمر إذ كانت تعتبر همزة الوصل الرئيسية للتجارة البريطانية المرتبطة بالهند. وقد استخدمت بالاضافة إلى هذا كمحطة تموين رئيسية لجميع السفن البريطانية العاملة في البحر الأحمر.

ترجع بداية الصلات التجارية مع المخا الى ١٦٢٨ عندما أقيم أول معمل لانتاج البن وظهر اسمها أول مرة في السجلات التجارية لشركة الهند الشرقية عام ١٦٦٠[١]. ونشير الى هذه السجلات لأنها كانت تحظى بالأهمية التجارية في القرن الثامن نسبة الى العائدات الضخمة التي كانت تحققها الشركة. الّا أن أهميتها انحسرت تماماً بعد مرور قرن نتيجة للضرائب الباهظة التي أرهقت التجارة ولقربها أيضاً من عدن حيث انتقلت عملية شحن البن بعد ذلك الى مينا عدن والحديدة[٢].

وقد أثارت المصالح البريطانية في المخا أولاً ثم في عدن اهتمام الحكومة العثمانية وخاصة بعد الحادثة التي جرت في ١٨٢٠ حيث اعتبرت المطالب البريطانية بمثابة مخطط يستهدف جنوب الجزيرة العربية الأمر الذي يهدد سيادتها وحقوقها في تلك الأراضي.

تضافرت مشاعر الشك والريبة تجاه الدوافع البريطانية مع الكراهية التي يكنها المواطنون تجاه التجارة البريطانية ــ الهندية لتؤدي الى ما وصفه البريطانيون فيما بعد ــ الى الهجوم العنيف على معمل البن في المخا في يونيو عام ١٨١٧. اضافة الى هذا فقد اتهم وكيل الأمام في المخا بسوء معاملة المقيم البريطاني لشركة الهند الشرقية وطاقمه. فاتخذت حكومة بومباي من هذا الحدث فرصة لتحقيق المزيد من الامتيازات الاقليمية وقدمت المطالب التالية للامام:

ــ تقديم اعتذار على ما حصل.
ـ ابعاد ممثل الامام عن منصبه.
ــ معاقبة مرتكبي الهجوم على المعمل.
ــ تعويض الخسائر التي لحقت بشركة الهند الشرقية وبموظفيها من جراء نهب وتدمير المعمل.

وقام الحاكم العام بالتصديق عليها بعد اجتماع عام عقد لهذا الغرض وتم ارسالها تحت حراسة اسطول بحري بقيادة الكابتن (لومي) الذي أبحر على ظهر «توباز» في نوفمبر ١٨٢٠. وخول الكابتن بروس المقيم البريطاني في بوشهر لاجراء المفاوضات مع ممثلي الامام نيابة عن حكومة بومباي.

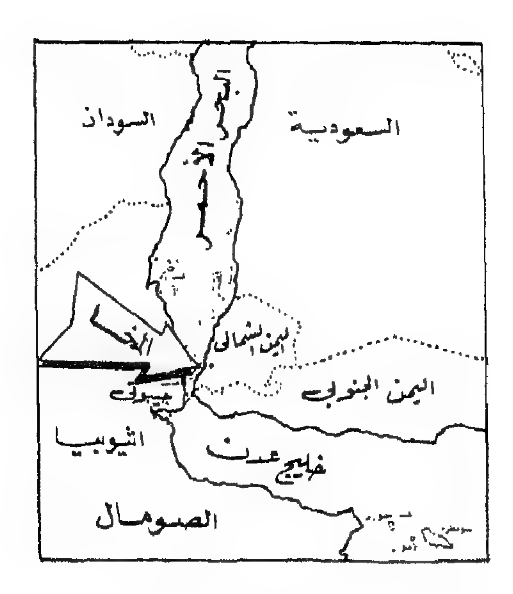
وعندما رفض الامام النزول عند رغبة الشركة في تلبية هذه المطالب قامت البحرية البريطانية بقصف ميناء المخا في ٤ ديسمبر ١٨٣٠ ليجبر الامام بعدها على التوقيع على معاهدة تضمنت الكثير من التنازلات والامتيازات لصالح شركة الهند البريطانية الشرقية.

بنود المعاهدة:

بعد أن تضمنت الافتتاحية تعهداً قدمه نائب المقيم روبسون بالاستجابة لرغبة الامام فيما يتعلق بالخدمات العامة لتتبعه الشروط التالية:

- للمقيم حق الاحتفاظ بثلاثين حارساً اسوة بالمقيم البريطاني في بغداد، والبصرة وبوشهر.
- يحق للمقيم الحصول على قطعة أرض يخصص جزء منها لرفع العلم البريطاني وآخر لدفن الرعايا غير المسلمين.
- يتولى المقيم فصل قضايا ومنازعات الرعايا البريطانيين فيما عدا المسلمين منهم الذين اختاروا المثول أمام الشريعة الاسلامية.
- السماح للمقيم باستخدام حصان وله الحق في المرور من جميع بوابات المخا والمناطق المجاورة.
- يحق له أيضاً السفر الى صنعاء والاتصال بالامام مباشرة في الأمور التي تهم الطرفين.

أما فيما يتعلق بالجانب التجاري فقد جاءت المعاهدة مؤكدة على المصالح البريطانية فمثلاً جاء في المادة (٥) اعفاء السفن البريطانية الراسية من دفع ضرائب تقدر بـ ٤٠٠ ريال



استرالي سواء كانت محملة أو فارغة.

وفي المادة (٦) يمتد هذا الامتياز ليشمل جميع رعايا التاج البريطاني من هنود بريطانيين ــ تجار «سورات» الذين يتاجرون تحت حماية العلم البريطاني حتى الهنود أنفسهم.

أما المادة (٧) فقد نصت على خفض التعرفة الجمركية من ٣,٥٪ الى ٢,٢٥٪(٤).

ردود فعل الدول الرسمية تجاه هذه الأحداث:

قوبلت هذه الأحداث بقلق كبير في أوساط القسطنطينية السياسية حيث وصفتها حكومة السلطنة بكونها مخططاً يستهدف السيطرة على اليمن. وتم نقل هذا الاتهام الى السفير البريطاني سترانجفورد الذي قام بدوره بالاتصال بمكتب الهند يطلب تفسيراً للأحداث التي أثارت قلق وشكوك الباب العالي.. فجاءه رد مبدئي من سكرتير المكتب هنالك مفسراً ما حدث بكونه استجابة للشكاوي الواردة من المخا حول عجز حكومة المخا عن تحقيق الأمن والهدوء الأمر الذي دفع بالأسطول البريطاني للقيام ببعض المناورات. كما أنكر وجود أية نوايا توسعية. لدى حكومة الهند في الخليج العربي(٥):

الا أن مكتب الهند تلقى في غضون أسبوع تفسيراً للأحداث التي جرت في المخا بعد أن تولت القاهرة ولندن واسطنبول متابعة القضية.

وكان حاكم مصر هو أول من تلقى أخباراً تشير الى نوايا المقيم البريطاني المسبقة والاستفزازية التي استخدمت فيما بعد لتبرير الأحداث.

أما التهم والشكاوى فقد دارت حول اتهام المقيم بالاحتفاظ بستين رجلاً مسلحاً واحتفاظه بمائتي خيمة وعدد كبير من المخازن المليئة والذخيرة التي قامت بتفريغها مؤخراً السفن القادمة من بومباي مثيرة الشكوك بأنها تهدف الى اغلاق باب المندب. كما اتهم المقيم بمحاولة رشوة الامام بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال سنوياً مقابل السماح له بمد النفوذ البريطاني على الرعايا من مسلمين وغيرهم وعند رفض الامام هذا العرض قام برحلة الى عدن محاولاً استمالة حاكم عدن الى البريطانيين ضد الامام.

إلّا أن رد حكومة الهند جاء نافياً لهذه الاتهامات ومؤكداً في الوقت نفسه لمحمد علي حاكم مصر ولحكومة السلطان عدم وجود أية نوايا توسعية لديهما في هذه المنطقة. فضلاً عن تأكيدها لهم بعدم القيام بأية محاولة لاثارة القبائل حول عدن ضد الامام والسلطان.

وقد تولى مكتب الهند بواسطة اللجنة السرية لشركة الهند الشرقية القيام بارسال المذكرات لتفسير هذه الشكاوي الى لندن لتقوم بدورها بارسالها الى القاهرة واسطنبول.

وفيما يتعلق ببنود المعاهدة وضع اللوم على حدوث أخطاء عند نقل الترجمة من الأصل الانجليزي الى اللغة العربية.

أما بالنسبة للحرس والأسلحة والذخيرة التي قام المقيم بطلبها فهي لهدف احتواء تمرد البدو الذين هددوا بقطع امدادات المياه عن المعمل خاصة وأن حكومة المخا تبدو أنها عاجزة أمامهم.

واعتبر التواجد الدائم للأسطول البحري في مينا المخا مسألة ضرورية لحماية التجارة البريطانية وخاصة وأن هنالك احتمالاً بأن تقوم قبائل «يام» بمد غزواتها الى المخا.

كذلك فسرت مطالب المقيم بمنحه المزيد من الصلاحيات للتمكن من فصل المنازعات نظراً لطبيعة الوطنيين المحبة للمشاكسة.

الى جانب هذه المنازعات الرسمية على مستوى الدول كانت هنالك أيضاً منازعات شخصية.



فقد قام المقيم باقراض وكيل الامام مبلغ ٥,٠٠٠ ريال بعد أن ضغط عليه الأخير دون استشارة الحكومة في بومباي.. فما كان الا أن تلقى خطاباً من السيد وردن لفت نظره الى عدم تكرار مثل هذا التصرف كما صدرت اليه تعليمات تقضي:

ـــ بعدم اعفاء السماسرة من الرسوم في حالة عدم ارتباطهم بالعمل مباشرة مع شركة الهند.

ـــ ضرورة اخضاع جميع السفن للتفتيش ليتقرر على ضوئه السفن المعفية من الرسوم.

ـــ المنازعات المتعلقة بالوطنيين هي من اختصاص محاكم المخا أما تلك التي تحدث بين طرف من الوطنيين وآخر من البريطانيين فإنه يمكن للمقيم الرجوع الى حرسه الخاص لتنفيذ الحكم الصادر أو الى السلطات اليمنية.

ـــ الامتناع عن تقديم القروض وخاصة

عندما لا تكون هنالك فائدة مرجوة تجنباً لتكرار ما حدث.

وفي سبيل تحسين العلاقات مع السلطات اليمنية سعى المقيم الى فصل المنشىء الهندي سيد حسين من منصبه لسوء معاملته للأهالي ولجهله لطبيعة اليمن والدول المجاورة.

من ناحية أخرى كانت قبائل يام قد تمكنت من السيطرة على زبيد بعد أن تم لها نهب اللحية وذلك عندما قام الامام بارسال أحد نوابه الى المقيم البريطاني للاستفسار عن ما ورد في بعض بنود المعاهدة.. فقد أشار في رسالته(٦) التي بعث بها للمقيم الى عزمه على توطيد سيطرته على جميع اقليم تهامه كما أخبره فيها عن زيارته التي ينوي القيام بها الى المخا في وقت لاحق.

وقام باهدائه حصانيين مع رسالة أخرى طلب فيها قرضاً بمبلغ ٢٠,٠٠٠ ريال لكن طلبه هذا قد قوبل بالرفض تنفيذاً لتعليمات سابقة(٧).

وفي الوقت الذي كانت تتولى فيه لندن نقل ردود فعل القسطنطينية الى حكومة الهند الشرقية قام وكلاء محمد علي في اليمن بنقل أنباء الى السلطات العثمانية تفيد بأن أرضاً تكاد أن تدنسها طموحات الدخلاء الأجانب.

وكان للرسائل الثلاث التي بعث بها رستم أغا أحد وكلاء محمد علي والذي وصف بكونه عامل جمارك فقط دوراً كبيراً في اثارة الباب العالي. فقد صرح ريس أفندي بعد أن اطلع عليها ولخصها بأن حكومة الهند قد اتخذت موقفاً عدوانياً تجاه النفوذ العثماني في اليمن وأن الوكلاء البريطانيين في المخا بمن فيهم المقيم يعملون على تحريض القبائل العربية للثورة كما سبق وأن قاموا بعرض مبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال سنوياً على الامام مقابل أن يصبح تابعاً لحكومة الهند.

وقد قام السفير البريطاني في القسطنطينية بنقل هذه المعلومات الى لندندري الذي كان يترأس حكومة الهند وأبلغه فحوى المرسوم الذي أصدره الديوان واصفاً فيه حكومة الهند بالالحاد والكفر والطموح.. كما ضمن رسالته مجمل ما جاء في رسائل رستم اغا من اتهامات وشكاوى منها: السلوك العدواني الذي يمارسه رجال المقيم ــ وصول كميات من الأسلحة والذخيرة والحديد لاغلاق المندب ــ شكوى رجال الجمارك تجاه السلطات البريطانية في المخا نتيجة لعدم السماح لهم بتفتيش الشحن الذي وصل مؤخراً ــ العرض الذي قدم للامام ــ محاولة استبعاد البانيان والاسماعيلية من المثول أمام القضاء في المحاكم الاسلامية واصرار المقيم على معاملتهم كرعايا بريطانيين وليس كمقيمين يخضعون للشريعة الاسلامية بالرغم من تاكيدات الامام أنه لن يسمح أبداً للمسلمين أن يخضعوا لغير الشريعة الاسلامية.

وعلى ضوء هذه التقارير قام ريس أفندي بنقل مطالب الباب العالي الى السفير سترانجفورد والتي تتلخص في:

ــ ضرورة قيام الحكومة البريطانية بشجب الأحداث التي ارتكبها وكلاؤها في المخا والتنصل من مسؤوليتها.

ــ الاعتراف الرسمي بأن هذه الأراضي تتبع الأمبراطورية العثمانية وخاضعة لأحكامها القضائية(٨).

ــ وقد عبر سترانجفورد عند نقله هذه المعلومات عن قلقه البالغ ازاء قضية المخا وعن انعاكاتها الخطيرة على العلاقة السياسية بين الدولتين(٩).

كما تناولت رسائل سترانجفورد موقف محمد على حاكم مصر والذي اتخذ من الموقف فرصة ليبرهن للسلطان على ولائه.

ونظراً لعدم احاطة سترانجفورد بالأحداث التي جرت في المخا احاطة تامة فقد قام بارسال خطاب الى القنصل العام البريطاني المقيم في الاسكندرية «هنري سالب» يطلب فيها احاطته بجميع تفصيلات وملابسات ما جرى في المخا.

وفي السادس عشر من أغسطس ١٨٢٢ جاء رد سالت شارحاً ومفسراً سترانجفورد جميع الاتهامات السابقة.

ــ فبالنسبة لتواجد الحرس فقد تضمنت المعاهدة التي أعقبت قصف المخا موافقة الامام على حق المقيم في الاحتفاظ بأربعين حارساً أسوة ببقية المعتمدين البريطانين في بغداد وبوشهر.

ـ الخيام ليست الاّ هدايا. وقد أهديت واحدة للامام وأخرى لوزيره.

ـ المخزن الكبير الذي أشار اليه رستم آغا ليس الاّ لخزن النبيذ وبقية المؤن والأثاث. وقد رويت شكوى رجال الامام عندما سمح لهم الكابتن هيتشنسون المقيم حينذاك بتفتيشها.

ـ تواجد الحديد ليس لهدف اغلاق باب المندب فهو اتهام مثير للسخرية وانما لاستخدامه للطراد العائد.

كما أشار الى أن السبب الأساسي للخلاف بين المقيم والسلطات اليمنية يرجع الى الاختصاصات القضائية. فبينما يصر ممثلو الامام على ضرورة فصل منازعات رعايا المصنع والبانيان من غير البريطانيين على حسب ما تمليه الشريعة الاسلامية في الوقت الذي يصر فيه المقيم على أن يتولى شخصياً القيام بفصل المنازعات تبعاً للامتيازات الأجنبية التي أقرتها الحكومة العثمانية.

أما بخصوص زيارة المقيم لعدن فقد كانت لهدف المملكة الصغيرة وبأمر من حكومته وهو لا يرى ثمة ما يتعارض مع هذا طالما وأن أميرها يتمتع بالاستقلال ويرتبط بعلاقات متينة مع الانجليز. وقد تمت زيارة هيتشنسون الأولى لسلطان لحج عام ١٨١٠ الذي طلب منه تأسيس مصنع تجاري في عدن. لذا فقد أصبح بالامكان بعد الصعوبات التي واجهها البريطانيون مع حكومة الامام في المخا نقل المعمل الى عدن. وهذا هو السبب لرحلته التي قام بها الى عدن والتي أثارت مخاوف الباب العالي في الوقت الذي يرى فيه ضرورة الحصول على موافقة السلطات لاقامة أية علاقات ترغب حكومة الهند أن تقيمها مع هاتين الدولتين ويعني بهما اليمن وعدن طالما وأن امام اليمن وأمير عدن يعتبران نفسيهما مستقلين.

وقد اعتبر سالت قصف ميناء المخا بمثابة العقاب الرادع للسلوك العدواني الذي أبداه الأهالي نحوهم وهو لا يتعارض مع مشاعر الود والاحترام الذي تكنه حكومة الهند للباب العالي.

وفيما يتعلق بمحمد علي فقد زعم هاستنجر أحد مسؤولي حكومة الهند بأنه قد قام بابلاغ محمد علي بعزمه على اغلاق ميناء المخا مؤكداً له في نفس الوقت نواياه السلمية.

وقد أبدى أسفه فيما بعد لما سببته الحملة من نتائج. ومع اعترافه بكونها غلطة الاّ أنه يمكن تفسيرها على ضوء الأوامر الغير واضحة التي أرسلت الى الحاكم اليفنستون الذي كان بعيداً عن الهند عند صدور الأوامر الى قائد الحملة.

هذا وقد عبر هيتشنسون عن انزعاجه من قيام محمد علي ببعث رسائل رستم آغا الى اسطنبول بالرغم من العلاقات الطيبة بين بريطانيا وحاكم مصر ومع هذا فقد وضع اللوم على أحد الأفندية من أبناء القسطنطينية والذي عمل تحت خدمة الباشا لمدة سنة ونصف[١٠] دون أن يشير الى اسمه.

باشر «سالت» القنصل العام متابعة القضية مع محمد علي شخصياً وقد أكد له الأخير بأن التقارير لم تصدر من وكيله في المخا وانما من أحد موظفي الجمارك في جدة الذي تسربت اليه الأخبار من أحد المخبرين السريين في المخا. وانتهز محمد علي هذه الفرصة ليبلغ سالت بأن حكومة السلطان تحثه للسيطرة على جميع موانىء البحر الأحمر بما فيها عدن وانه لا يزال يفكر في الأمر.

فرد عليه سالت بأن مكتب الهند يسره أن تقع هذه الموانىء تحت النفوذ العثماني مباشرة على تركها تحت أيدي سكانها البرابرة. ولكنه في خطابه الموجه الى سترانجفورد أشار الى قلقه ازاء هذه الخطوة معرباً عن وجهة نظره في الموضوع. لا أعتقد أن حكومة الهند ترضى أن يبسط العثمانيون نفوذهم على عدن لكونها محطة استراتيجية هامة ولقربها من بومباي لذا فأنا أرى أن تركها للوقوع تحت سيطرة قوة ضاربة كمصر أمر لا يعرف أحد ماذا سيؤول اليه فلسنا على ثقة بأنها ستظل دولة صديقة أم ستنقلب الى عدو لنا[١١].

الاّ أن جميع التفسيرات التي قدمتها حكومة الهند الى اسطنبول عن طريق لندن والاسكندرية لم تخفف من شكوى السلطان تجاه دوافع حكومة الهند وطموحاتها في ذلك الجزء الاستراتيجي الهام من الجزيرة.

كما لمح ريس أفندي للسفير سترانجفورد بأن

المعلومات التي وصلته مضللة وأبدى رغبة حكومته في الاطلاع على تفاصيل جميع الأحداث التي جرت منذ تأسيس المفوضية في ذلك الميناء(١٢).

وقد أبدى وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية عند تلمّسه تقارير سترانجفورد قلقه البالغ ازاء تفسيرات الباب العالي حول قضية المخا وطلب من حكومة الهند موافاته مباشرة بمعلومات وافية عن الأحداث مع تفسيرات مفصلة للصدام الذي دار بين الوكيل البريطاني وممثلي الامام وما توصلوا اليه من تسويات(١٣).

تعهد مكتب الهند القيام بتحقيق دقيق لما جرى. إلّا أن التفسيرات التي جاءت كانت غير مقنعة فقد وضع معظم اللوم على الترجمة العربية للنص الانجليزي..

فعلى سبيل المثال تضمنت المعاهدة اعفاء التجار البريطانيين فقط من الضرائب بينما فهم من الترجمة العربية لها أن هذا الامتياز يمتد ليشمل جميع من يتاجر تحت العلم البريطاني..

وبالرغم من ضعف الحجج التي قدمتها حكومة بومباي والتي قام بنقلها مكتب الشؤون الخارجية في لندن الى القسطنطينية والاسكندرية فقد تمكنت من تهدئة الوضع الّا أنها لم تتمكن من ازالة شكوك السلطان نهائياً ومع ذلك فقد استطاعت التأكيدات التي صدرت من الحكومة البريطانية بعدم وجود أية نوايا توسعية اقليمية في المنطقة ان تنهي الأزمة.

أما بالنسبة لمحمد علي حاكم مصر فقد كان على وشك خوض معركة «التحديث» وقد أدرك عدم جدوى معاداة الغرب خاصة وأنه سوء تفاهم نتج عن معلومات خاطئة تمّ نقلها الى محمد علي ومنه الى القسطنطينية عن طريق أحد المتهورين مثيراً بذلك قلق السلطان وحكومته(١٤)..

وهكذا انتهت الحقبة الأولى من الصراع الانجليزي العثماني في اليمن. ●

الهوامش

(١) جورج. و. يرى اليمن التعيس أو الاتراك في اليمن «لندن، ماكميلان، ١٩١٥. ص ١١٩.

(٢) أنظر ص ٢٤.

(٣) أنظر الرسالة الموجهة من وليام بروس الى هنري سالت، المخاء، ١٦ يناير ١٨٢١/١٠٣٠ ٧٨/ وزارة الخارجية..

(٤) المعاهدة مؤرخة في ١٥ يناير ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٣..

(٥) خطاب موجه من ب. س. جونز من مكتبه الهند الى جوزيف بلاتانا» ٧ سبتمبر ١٨٢٢. تقرير نقله كالوش في ٦ سبتمبر وزارة الخارجية ٧٨/١١٢..

(٦) نسخة من خطاب الامام مؤرخة يوليو ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١١٢.

(٧) أنظر مقتطف الرسالة من وزير الخارجية البريطاني و. وردن الى حكومة الهند في بومباي ومنها الى «المقيم» في المخاء ٢٦٠ سبتمبر ١٨٢١ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩.

(٨) أنظر رسالة «سترانجفورد» من القسطنطينية رقم ١١٧ الموجهة الى ماركيز لندن بتاريخ ٢٥ يوليو ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩..

(٩) أنظر رسالة سترانجفورد رقم ١٢٠ التي بعثها بتاريخ ١٠ أغسطس ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١٠٩.

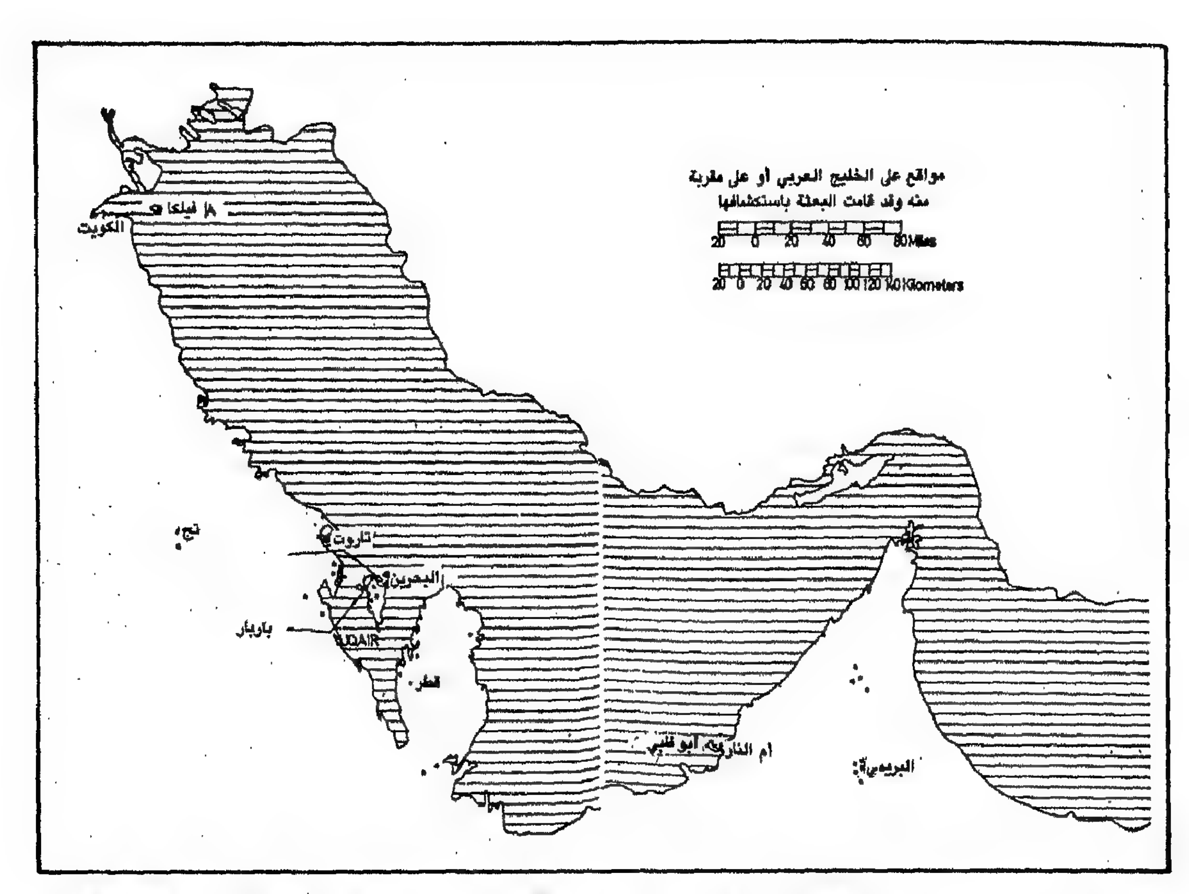
(١٠) أنظر مقتطف الرسالة الموجهة من القنصل العام سالت الى السفير سترانجفورد، الاسكندرية ١٦ أغسطس ١٨٢٢ كذا رسالة هاملتون الموجهة الى كانتج من القسطنطينية بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١١١.

(١١) أنظر مقتطف الرسالة الموجهة من سالت الى سترانجفورد في ١٧ أغسطس أيضاً رسالة هاملتون رقم ٢ الى كانتغ في ٢٥ أكتوبر وزارة الخارجية ٧٨/١١١.

(١٢) المذكرة الصادرة في ١٠ سبتمبر وقد بترجمتها «كابرب» بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٢٢ وهي تحمل رقم (٩) في الرسائل الموجهة من سترانجفورد الى وزارة الخارجية لحكومة الهند والمخاء».

(١٣) أنظر الرسالة السرية الموجهة الى حاكم بومباي بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٨٢٢ والنسخ التي بعثت الى سترانجفورد والمقيم البريطاني في المخاء وزارة الخارجية ٧٨/١١٢.

(١٤) الرسالة الموجهة من هاملتون الى جورج كانتج بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٨٢٢ وزارة الخارجية ٧٨/١١١.



جوانب من الترابط والانقطاع بين أجزاء منطقة شرق الجزيرة العربيّة قبل الإسلام على ضوء أعمال البعثة الأثرية الدنماركيّة

الحلقة الثانية

احمد عبيدلي

بدأت البعثة الأثرية الدنماركية أعمالها سنة ١٩٥٣ في منطقة شرق الجزيرة العربية، وقد اكتشفت قبوراً على هيئة آكام استثارت بيبي وكلوب المشرفين على أعمال البعثة وجعلتهما يعملان من أجل اكتشاف أكبر مقبرة لعصور ما قبل التاريخ في العالم، ومنها انطلقا في محاولة للبحث عن «ديلمون» ذات الأهمية الأسطورية والدينية في الحضارات الرافدية المتعاقبة. وقد اطلعنا في الحلقة الأولى على حضارة العبيد وحضارة ما قبل «ديلمون» وفي الحلقة الثانية والأخيرة نطلع على نتائج البعثة في «ديلمون» و «فيلكا»...

ثالثاً ــ دولة ديلمون:



يصف تقرير البعثة المدينة الثانية ضمن سياق المدن السبع على النحو التالي:

المدينة الثانية: «ديلمون»: ربما تراوح زمنها حول ٢٣٠٠ق. م. وأصلها يعود الى المدينة الأولى. ولربما لم يحدث أي تغيير عن نمط الفخار، بالرغم من احتمال وجود تغيير أكبر. لقد استمرت المدينة الثانية لزمن معين طال بحيث مكنها من مراكمة خمس طبقات في الأكمة التي جرى حفر المجسات بها، وللقيام ببناء معبد باربار وإعادة بنائه، وإعادة بنائه مرة ثالثة، ولكي يتراكم ما يقارب مائة ألف قبر. ثم يتساءل التقرير عن الفترة التي استمرت فيها وهل امتدت لمائة سنة أو ثلاثمائة أو خمسمائة سنة.

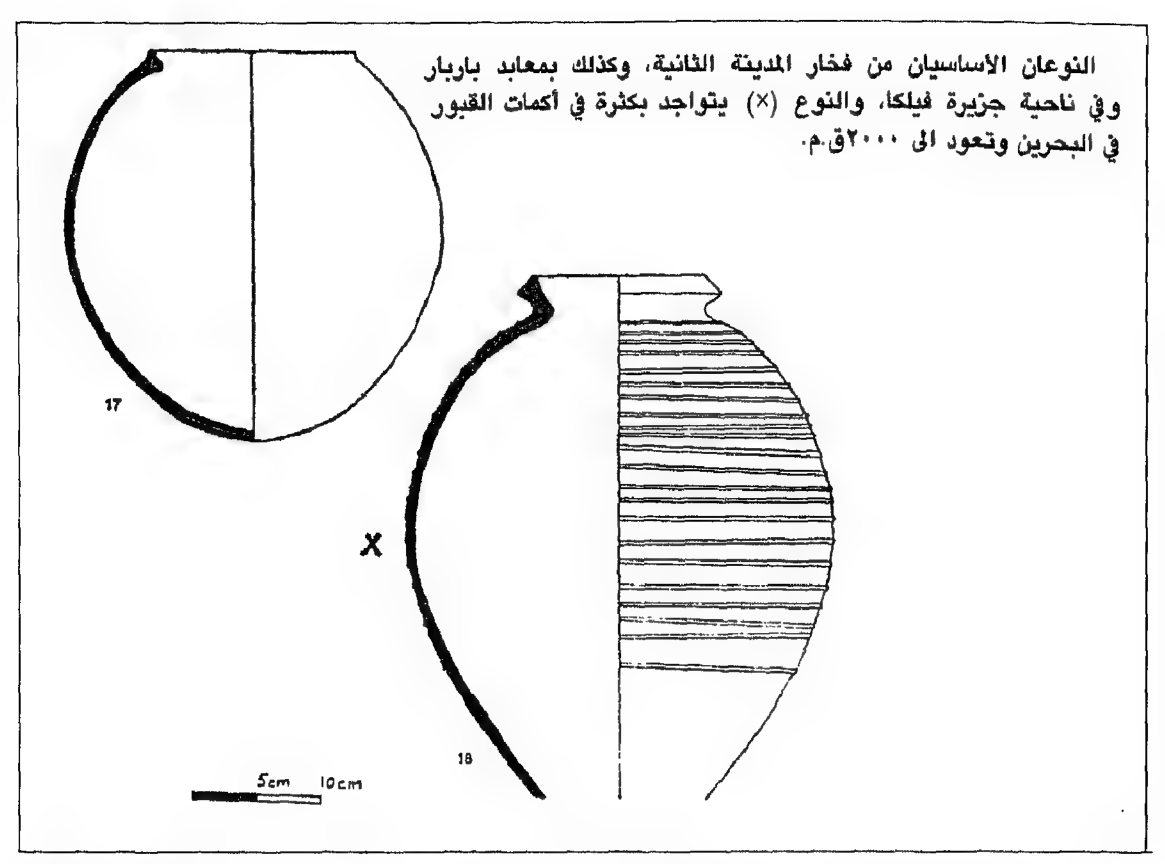
وحسب النتائج العامة لتنقيبات البعثة الأثرية الدنماركية فإن المدينة الأولى والثانية تقابلان فترة ديلمون المبكرة. وتعود المدينة الثالثة والعائدة للكاشيين الى فترة ديلمون الوسيطة، بينما تشمل الفترة التي سميت بالمدينة الرابعة على القصر الذي اكتشف هناك، وبالتوابيت المكتشفة أيضاً. وتتوافق هذه الفترة مع عهود سرجون الأشوري وسنحاريب الأشوري وآشوربانيبال، وكذلك مع الحملات التي شنت من قبل بلاد الرافدين على حدود ديلمون، ويرد آخر ذكر لديلمون جرى توثيقه في السنة الحادية عشرة لنابونيدوس ملك بابل، والتي توافق العام ٥٤٤ق. م.، حين تذكر وثيقة ادارية لقب «حاكم ديلمون». وتشكل المدينة الرابعة فترة ديلمون المتأخرة.

لقد امتدت ديلمون على طول المنطقة الواقعة على الساحل من البحرين الحالية وحتى الكويت الحالية محتوية على نقاط على الساحل مثل ثاروت الواقعة على جزيرة دارين. ولقد تساوت في الحجم مع بابل وآشور مجتمعتين، وشكلت سوقاً مزدهرة، زودت بلاد الرافدين بالنحاس وبسلع الترف من الشرق، وشكلت خامس أمبراطورية عظيمة في العالم القديم، تقف جنباً الى جنب مع أمجاد الخمسة آلاف سنة لمصر وبابل وسومر ووادي السند.

لقد أسس تجار ديلمون وكالاتهم في القرن العشرين ق. م. ولقد تمكنت البعثة من أن تزيل الغطاء عن مدن ومعابد مؤرخة وموثقة عبر مائتين وخمسين ميلاً من الساحل الممتد وعلى الجزر الواقعة بين الكويت وحتى البحرين وعلى عمق ستين ميلاً داخل السعودية وحتى واحة الهفوف. لقد تركز بحث البعثة على البحرين في البداية، بحيث أضحى وجود ديلمون واضحاً وجلياً على أرض البحرين الحالية، ولم تكن البعثة يدور بخلدها أن البحرين أنما تشكل عاصمة لامبراطورية تمتد كل ذلك الامتداد.

في العام ١٩٥٨، كانت البعثة تنقب في جزيرة فيلكا باتفاق مع الحكومة الكويتية. وبينما كان أعضاؤها يقومون بجولاتهم الأولى في مكان يدعى سعد وسعيد وهو عبارة عن أكمتين متجاورتين، عثروا على موقع استيطان ذي أهمية متميزة. يصف بيبي ذلك قائلاً أنهم لم يبق لديهم شك في أن الأكمتين كانتا عبارة عن تلي استطيان حينما اقتربوا منهما. ويواصل سرده على النحو التالي. فما أن صعدنا منحدر أعلى الأكمتين وهي الغربية منهما، تاركين مسافة عشرين ياردة بيننا، وقد تركزت أعيننا حتى رأينا كسر فخار لا تعد، والتي تشير الى موقع استيطان. ورأيت قطعاً كبيرة لآجر مسطح محروق، بمظهر يشابه كثيراً آجر بلاد الرافدين، الى درجة أني أخذت في تقليبها علّي أعثر على دمغات مسمارية اعتاد ملوك بابل وآشور أن يسموا بها الآجر الخاص بمبانيهم العامة. ولم يكن هناك مبان من الآجر، وتوارد الى خاطري أولاً أننا لا بد أن نكون قد دخلنا ضمن النطاق الحضاري لبلاد الرافدين. ولكن لم يكن هناك أي نقوش مسمارية، فعدت الى كسر الفخار. وفي اللحظة، أخذ بيترفيلهلم جلوب يمشي مبدياً لا مبالاة مدروسة، والتي أصبحت أعرف الآن أنها تعني أنه قد عثر على شيء ذي أهمية. وفتح يده، وعرض، ثلاث كسر من آنية «باربار» الرقيقة الحمراء ذات الحواف.

وحينما أخذنا ننظر أكثر وأكثر، استطعنا أن نميز كسر باربار مختلطة بالطبع مع كسر لأزمنة تتأخر عنها، واشتملت حتى على الأسمال البالية



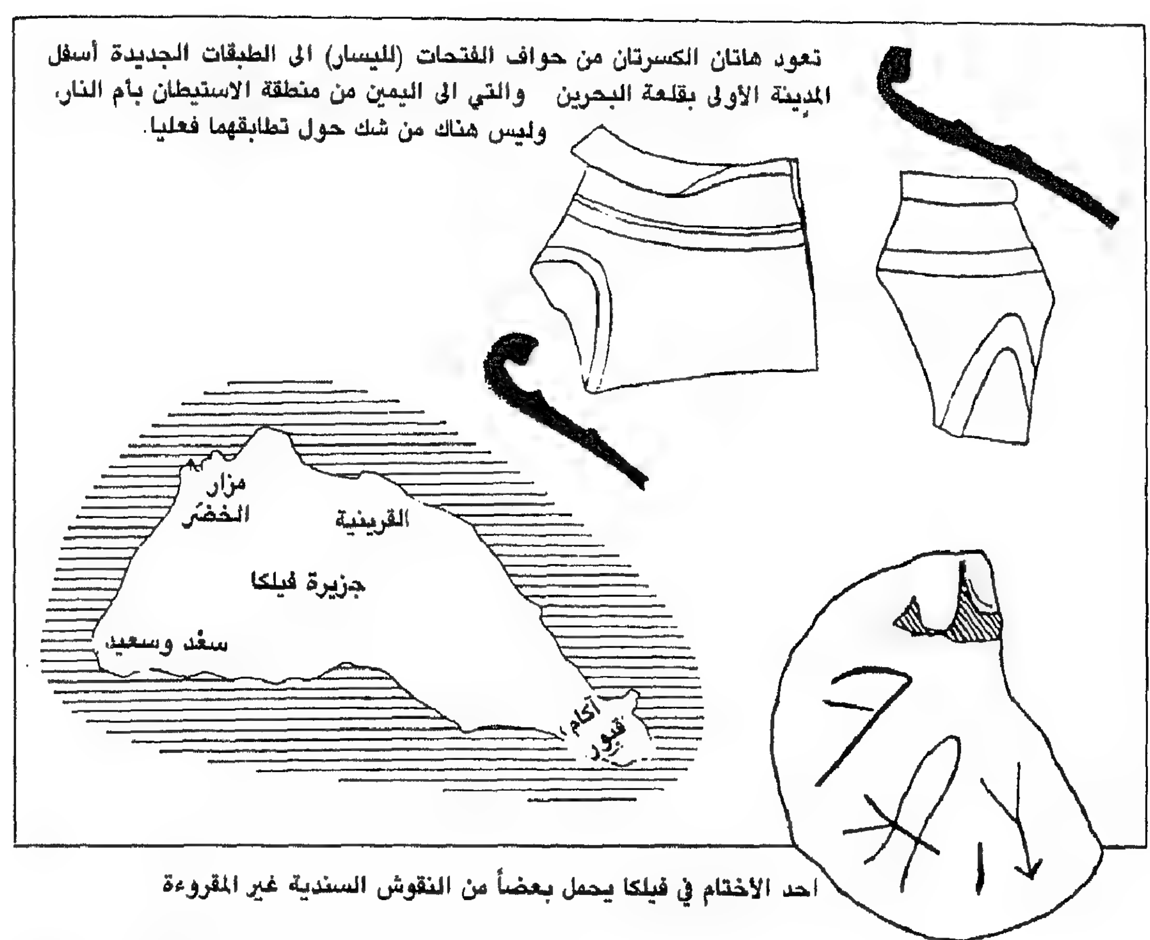
النوعان الأساسيان من فخار المدينة الثانية، وكذلك بمعابد باربار وفي ناحية جزيرة فيلكا، والنوع (X) يتواجد بكثرة في أكمات القبور في البحرين وتعود الى ٢٠٠٠ق.م.

وكسر زجاج الكوكاكولا، وبعضاً من كسر فناجين القهوة، وذلك لأن الزاوية الجنوبية للجزيرة، كانت هي المكان المفضل للرحلات. ولكننا تذكرنا أننا لم نجد أبداً كسرة باربار على السطح، في كل ظهر التل بقلعة البحرين. أما هنا فقد تواجدت بكثرة لاتبقي الّا القليل من الشك في كون كل التل يعود الى زمن باربار، ولم يغطّ بأي استيطان فيما بعد.

ثم أخذت الصدمة في التصاعد ــ فهذا مالم نتوقعه. فقد كنا على مبعدة مائتين وخمسين ميلاً عن البحرين، وفي الحقيقة أننا أقرب الى أور مِنّا الى البحرين بمسافة مائة ميل. لقد توقعنا تأثيراً من بلاد الرافدين، ولربما استيطاناً من بلاد الرافدين، ولم نتوقع تأثيراً بحرينياً أو استيطاناً بحرانياً. وعلى ذلك يبقى اذا ماكانت «حضارة باربار» هي التعبير المادي لديلمون، فإن فيلكا اذاً كانت أيضاً جزءاً من ديلمون. وعلى ذلك فإن ديلمون هي أكبر بكثير مما حلمنا به. فالمسافة بين البحرين وفيلكا تعادل المسافة بين إيريدو، وهي أقصى مدينة جنوبياً في بابل، الى أشنونا، وهي أقصى مدنها شمالاً. ويمكن لديلمون على ذلك أن تكون قد امتدت جغرافياً على مساحة تقرب من مساحة بابل نفسها.

ويعود بيبي ليتذكر ماحدث لهما في سنة أخرى حينما استدعتهما ــ هو وجلوب ــ مجموعة الكويت التي تركاها تنقب بالكويت، وذلك لكي يطلعا على مجموعة من النقود الملتصقة معاً، وكذلك نقشاً أغريقياً وجد في جزيرة فيلكا. وبعد أن اطلعا على الاكتشافين وذلك حينما كانا يجلسان بقاعة الطعام بمقر البعثة بالجزيرة التفتا الى أوسكار وهو المسؤول عن الحفريات وطلباً منه أن يخبرهما عن تنقيباته. ويسرد بيبي الحادثة. أشار أوسكار بيده نحو ورقة علقت على جدار فوق طاولة الطعام.

وللوهلة الأولى، تبدو الورقة على هيئة تقويم صنع منزلياً، وهي عبارة عن قائمة بالتواريخ منذ بداية حملة التنقيبات. ولكن برز قبالة كل يوم رسم رقم، واحد واثنان، أو ثلاثة وفي بعض



تعود هاتان الكسرتان من حواف الفتحات (لليسار) الى الطبقات الجديدة أسفل المدينة الأولى بقلعة البحرين والتي الى اليمين من منطقة الاستيطان بأم النار، وليس هناك من شك حول تطابقهما فعليا.

احد الأختام في فيلكا يحمل بعضاً من النقوش السندية غير المقروءة

الأحيان أربعة، وبرز في أحد الأيام رقم سبعة وقد أحيط بدائرة حمراء. وكانت هناك فراغات في بعض الأيام. وبسطنا استفسارنا. فأجاب أوسكار بتواضع «انها أختام» وحملقنا وسط علامات الشك، وقد أخذنا نحصي مجموع الأرقام بهدوء.

لقد كنا نعلم أنه سيعثر على أختام فوق أف ٣، كما أخذنا نطلق على التل الغربي لسعد وسعيد. فمنذ اللحظة التي وجدنا فيها كسر «باربار» على السطح قبل سنتين مضتا، توقعنا أن تكون هناك منطقة استقرار من الحضارات التي تستخدم الأختام. لقد وجدت الأختام الأولى بنفسي، في المجسّ الأول بالتل، والذي حفرته من العام ١٩٥٨ وكانت عبارة عن ثلاثة من أختام المهر، وكان اثنان منها من نوع جديد مختلف ــ وكان الأول من نوعه الذي يتم العثور عليه ــ كان على شكل العدسة وبوجهين. وادلت السنة التي سبقت التنقيبات الأولى الواسعة الحجم بأولى الدلائل التي توحي بأن الأختام موجودة هنا بوفرة تفوق وفرتها بالبحرين. ولقد وجد خمسة وثلاثون ختماً في ذلك العام، وهو ما يفوق ضعفي ما وجد بالبحرين كلها حتى ذلك الوقت. ولكن المجموع الذي يظهر بالتقويم على الجدار كان أكثر بكثير، وبما لا يقارن. فقد بلغ المجموع الأولي ٨٥ ختماً ولم يكن الموسم حينئذ قد شارف على منتصف فترته بعد. وها قد بدأ أوسكار يحضر صينية بعد أخرى مليئة بعلب الكبريت، وقد رقم كل منها بعناية واحتوى على أحد الأختام. ولم يكن بامكاننا ضمن الوقت المتاح لنا أن نقوم بفحص كل منها بالتفصيل الذي يتطلبه، ولكنه اختار لنا العينات الأكثر اثارة: ختم ذووجهين حمل نقوشاً مسمارية، وختم حمل صورة امرأة تعزف على قيثارة مزخرف برأس ثور يشبه الثور النحاسي الذي وجدناه في معبد باربار،

وختم يحمل على واجهته نقوشاً، حسب الطبيعة التي تقرأ لمدن وادي السند. وعدا عن الأربعة أو الخمسة أختام ذات الوجهين، وعدا عن الختم ذي النقش السندي ــ ولربما ارتدى ذلك أهمية معينة ــ فلقد كان كل ختم يعود الى «النوع الثالث»، وهو آخر مجموعة الأنواع، والذي يحمل أربع دوائر وثلاثة حزوز. ولم يكن النوع ذو النقوش السندية معروفا، فلقد كان رقيقاً ومسطحاً وبه حدبة قليلة العلو.

ثم أحضر أوسكار صينيات أخرى، ملأى بأشياء أخرى أحضرها من تنقيباته. لقد احتوت على خرز أحضرها من تنقيباته. واخرى أحتوت على خرز وتمائم، وأبر نحاسية تعلوها مسكات عظمية، وقطع من سلطانيات حجرية من نفس الحجر الصابوني المستخدم في الأختام، زين العديد منها بصور نافرة لرجال وحيوانات. وكانت بينها كسرة تظهر أجزاء من جسمين بشريين واقفين، وبينهما نقش ذو طبيعة مسمارية.

ولم تكن قدراتي تؤهلني لقراءة النقش من نظرة واحدة بسهولة، ولكن ما أن وجّهت نظرة نحو هذه الكسرة، حتى عرفت أن ذلك لم يكن ضرورياً، لقد كانت متطابقة مع أول سطر للنقش الذي حصل عليه الكابتن دوران في البحرين قبل ثمانين سنة.

«معبد الإله انزاك»:

ولم يكن هذا النقش بأقل أهمية عن نقش التكريس للمعبد الاغريقي. وذلك يعني أن تلك السلطانية كانت جزءاً من ذخيرة معبد أبكر، والذي ربما كان موجوداً تحت تل أل أف ٣، وقد كرس لإنزاك، وهو الإله الخامس لديلمون. بل وتوغل بعيداً تجاه تفسير ظاهرة تعداد الأختام التي وجدت في التل، والذي لم يظهر حتى الآن سوى بقايا بعض البيوت المتواضعة.

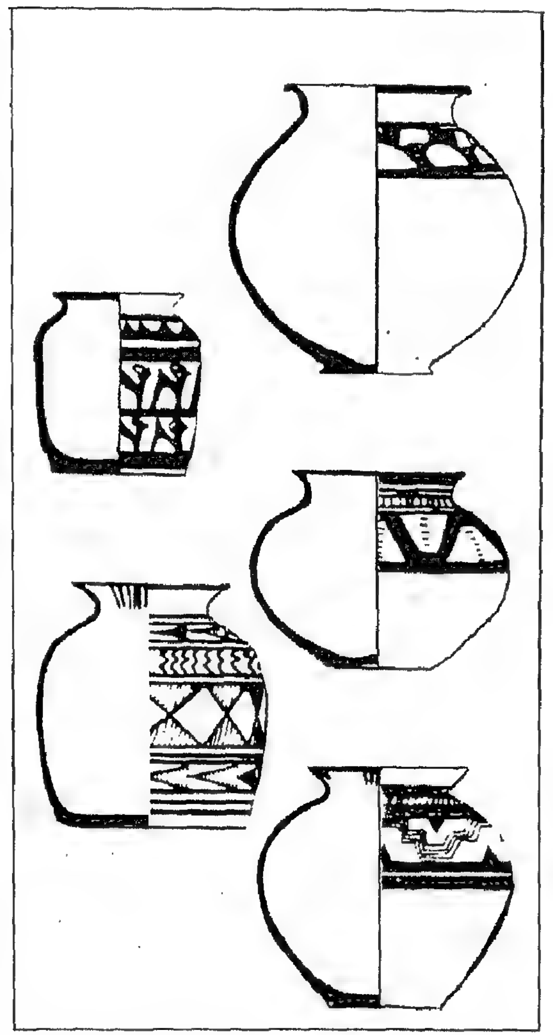
وعلى ذلك فلقد كان هناك معبد لإنزاك في فيلكا، وكان هناك معبد لأرتميس قبل ألفين من السنين وكذلك مصنع لانتاج التماثيل النذرية للآلهة والآلهات الاغريقية. وبدا كما لو أن فيلكا كانت لآلاف من السنين جزيرة مقدسة، ومكاناً يحج اليه. وحينما عادت الفكرة الى مستقرها، تذكرت فجأة أن فيلكا لاتزال جزيرة مقدسة، ولا تزال مكاناً يحج اليه. هل يمكن أن يكون هنا جسر يمتد عبر خليج يتمطى لمدة أربعة آلاف سنة؟

ويتوقف تقرير البعثة الدنماركية هنا ليركز بحثه على محاولة اكتشاف العلاقة القائمة بين هذا التاريخ من التقديس المستمر لجزيرة فيلكا والمستمر الى اليوم غير قيام مزار لولي الله الخضر، وكذلك بين أسطورة البحرين كجزيرة ينبع فيها ماء اللج المقدس، وبين أسطورة جلجاميش وزهرة الخلود المفقودة. وينتهي بيبي الى القول:

ولربما لم يعد الطريق بدون ملامح الآن تماماً. وذلك لأن قصة الخضر في القرآن قد دونت على يد أناس كانوا أقرب زمنياً الى معبد أرتميس مما هم الينا. وبمنتصف الطريق بين معبد أرتميس ومعبد أنزاك تبدو التضحيات بالثعابين في القصر البحريني، وايماؤها الواضح بأن أسطورة جلجاميش وزهرة الخلود المفقودة لم تنس في ذلك الحين.

ويضيف بيبي قائلاً أنه ليس هناك من ريب في أن المرأة التي تقضي مساء الثلاثة ساهرة في الصلوات في مزار الخضر، من أجل الحصول على ولد انما كانت تسعى للخلود بنحو ما. ولا ريب بأن الايمان بأن الدعوة ستستجاب، كان المحرك الذي أدى بجلجاميش إلى عبور البحار لخادم ذي القرون، إلى زيوسودرا، وهو الخالد المقيم بديلمون.

ويلخص بيبي ما وجدوه بفيلكا قائلاً أنه في ضاحية «حضارة باربار» الصغيرة العائدة لأوسكار وبول على مرمى حجر بفيلكا، كانا قد تمكنا بحلول ١٩٦٢ من العثور على ما مجموعه مائتين وتسعين ختماً بين أختام المهر الدلمونية. ولقد أعطت تلك الضاحية أيضاً ما مجموعه دزينة أو ما يقاربها من النقوش المسمارية، على الأختام وعلى الألواح أو على أجزاء من سلطانيات من حجر الصابون وعلى حواف الفتحات للآنية الفخارية. ولقد برز على اثنين من تلك النقوش نفس النقش الذي عثر عليه سابقاً «معبد الاله انزاك» ولقد ذكرت أربعة من



الآنية الفخارية من مدافن أم النار بأبو ظبي، كان لون تلك التي شابهت البرميل رمادياً بينما كان لون الأخريات أحمر.

النقوش الأخرى هذا الاله الراعي لديلمون. بل ان أحد تلك النقوش فوق حجر صابوني كان مكسوراً، وأمكن فكه بالكاد، قد ذكر اسم ديلمون نفسه. وعلى ذلك فإن استنتاجاتنا بأن «حضارة باربار» كانت هي ديلمون، قد بات ثابتاً، دون أي شك.

هذا ما ذكره التقرير بخصوص الآثار التي تظهر العلاقة على ما يطلق عليه حالياً الكويت والبحرين. ويسرد التقرير أيضاً ما وجدته البعثة في زيارة من خمسة أيام تمت للسعودية، وحينما عبروا الى جزيرة تاروت فيقول، لقد رأينا التل هذه المرة ونحن على الأرض: ولقد بدا واعداً جداً، ولكنه مستحيل تماماً. لقد كان شديد الانحدار وكان مطوقاً من ثلاث جهات بالمساكن، وقد بنيت على التل وحفرت فيه، الى حد أن جانب التل يجري في الحقيقة مقارباً أعالي جدرانها الخلفية. وحينما حاولنا الذهاب الى الجانب الرابع، والذي بدا أنه منطقة مفتوحة قليلاً، أرجعنا بحزم على يد رجال المدينة. فلقد كان المكان حراماً، ومحظراً، حسبما قالوا لنا. لقد كان مقتصراً على النساء، حيث يستحممن ويغسلن الثياب ولا يحق لنا النظر الى النساء.

ولقد وجدنا زقاقاً ضيقاً بين البيوت يؤدي عالياً، في جانب التل المسموح، فتسلقنا عالياً وحتى الشريط الضيق من المنحدر، لجانب التل العاري بين أعالي البيوت الى الأسفل، وبين سفح الجدران الكبيرة لخرائب القمة. وعلى الفور التقطت كسرة حافة من آنيتنا الفخارية النموذجية «لباربار»، وانتشرت كسر فخارنا الحمراء ذات الحواف المعروفة لنا في كل مكان. وها نحن مرة أخرى في ديلمون.

وعادت البعثة لتبحث وبترخيص رسمي من الحكومة السعودية، عن الآثار لعصور ما قبل الاسلام وذلك في العام ١٩٦٨. ولقد تمكنوا بعد محاولات من الحصول على رخصة من رجال تاروت بالتجول في القرية، وبعد أن نبهت النسوة للابتعاد. وذلك لمدة ساعتين. يقول بيبي انهم نادراً ما اشتغلوا بهذه السرعة. ولقد تمكنوا من أن يثبتوا بأن الاستيطان بالبلدة يمتد لفترة زمنية تفوق الأربعة آلاف سنة قدماً. لقد التقطوا من قعر الطبقات التي حفروها كسرة صعب تصنيفها من اناء فخاري صغير، وثلاث قطع من الصوان المصنع، تحتوي على شفرة سكين لا يرقى اليها الشك في كونها كذلك. وقد أعادهم ذلك الى العصر الحجري الحديث. ويعلق بيبي على ذلك قائلاً أن ذلك كان دليلاً هزيلاً، يمكن من دفع تاريخ ديلمون الى ذلك المدى. ويواصل القول: لقد كنا نعلم القليل عن تاروت لنعتقد أنها كانت موضعاً خلفياً منعزلاً، ولكنها لا تميل الى أن تكون كذلك. ففي الواقع أن أحد معتقدات ايماننا الأساسية كان أن ديلمون المبكرة لم تكن منطقة خلفية منعزلة،

وانما على العكس حيث امتطت صهوة التقدم الرئيسية وبالتحديد خلال الوقت الذي كانت فيه بلاد الرافدين تمد نفسها بالبرونز. واذا كان هناك أي بلد يتوقع أن تكون قد تركت العصر الحجري للعصر النحاسي بوقت أبكر من بلاد الرافدين فستكون تلك البلاد التي زودت الرافدين بالنحاس.

... وعلى حين غرة بدت لي منطقة تل تاروت أنها ليست مجرد أقدم منطقة بالسعودية، وانما أقدم موقع ــ مدينة في الخليج.

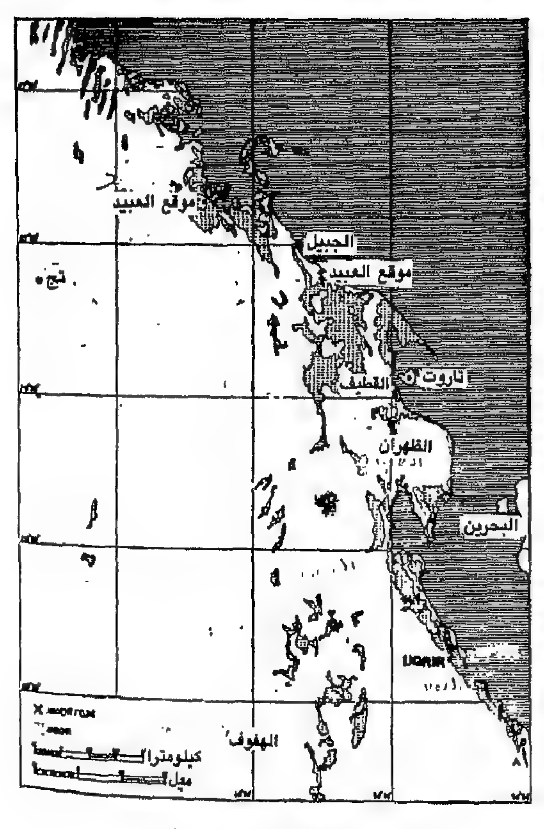
وكانت تلك المعضلة هي التي ستقوده فيما بعد الى البحث والتنقيب في مسألة حضارة العبيد والتي سبق لنا الحديث عنها.

رابعاً ــ حضارة وادي السند، والكاشيون، والاغريق:

وسط سياق التنقيب الذي قامت به البعثة الدنماركية، برزت بعض المؤثرات القادمة من خارج منطقة الخليج (تأثيرات الحضارات الرافدية والعربية الجنوبية لا تدخل بالطبع ضمنها)، وهي المؤثرات القادمة من وادي السند وما جاورها من حضارات، وهناك الكاشيون القادمون من مناطق فارس، والاغريق الذين قدموا بصحبة الاسكندر، ومن خلفه.

لقد كانت تأثيرات حضارة وادي السند هي الأقدم والأشمل، وان تبين أنها لم تأت مصحوبة بالفرض والقسر العسكري. ولكن ربما قدمت بسبب الرقي الحضاري الذي فرض نفسه سلمياً. لقد عثرت البعثة على عينات من بضائع تشير على الأكثر الى مصدر سندي أو مناطق مجاورة، مثل الفيروز والعقيق الأحمر والعاج، كما يرد ذكر الأبنوس. كما أن ديلمون قد استخدمت مقاييساً للأوزان هندية وليس مقاييساً رافدية. وأظهرت مدن البحرين التليدة تخطيطاً وتنظيماً في رسم مخططاتها يظهر قرباً ما الى تخطيط مدن موهنجودار وهراباً بالهند أكثر مما يشير الى التأثيرات الرافدية.

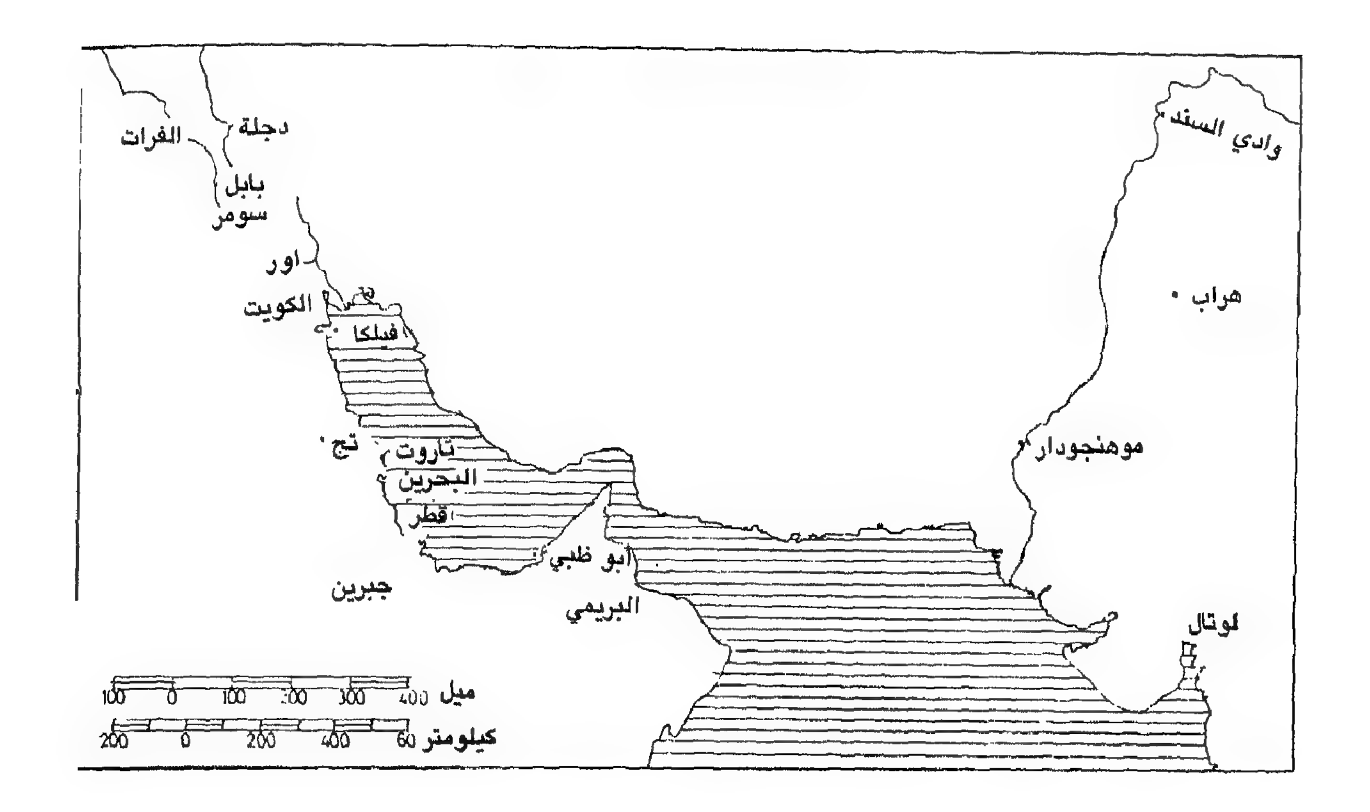
أشار بيبي أثناء بحثه وسط فخار أم النار الى تأثيرات قادمة من الشرق، وحينما كان يصف بعض الفخار المجلوب من أم النار قال: ان الانسان لم يكن ليخطىء حين النظر للميزات



المنطقة الشرقية من السعودية

العامة لتلك الآنية الرقيقة الجميلة بأنماط تلوينها السوداء المتمثلة في المثلثات الناتجة عن الخطوط المتقاطعة، وسلاسل شبه الدوائر، والأطواق المتماوجة، وقد رسمت على خلفية مصقولة، ذات لون بني محمر. فهي تنسب الى مجموعة من الآنية توجد بايران وبلوشستان، وقد صنفت نوعياً تحت اسم العصر الحجري المعدني (Chalcolithitic). ولقد امتدت تلك الآنية زمنياً ــ ضمن حدود غير معروفة، وذلك لمحدودية التنقيبات التي جرت في تلك المناطق ــ وذلك حتى الألف الثاني ق. م.

... وكانت هناك جرتان صغيرتان رماديتان، غطيتا بأطواق من التشكيلات السوداء من الكتف للقاعدة المسطحة، والتي كان حتى بامكاني أنا أن أتعرف عليها كفخار نموذجي من حضارة كولي، بينما حملت كسرة اناء أكبر بلون بني محمر شكل الثور ذي السنام وقد تم طلاؤه، وهو نور البراهما في الهند، والذي كان بدوره شيئاً نموذجياً من حضارة الكولي.



هذا باختصار شديد، ما أورده بيبي عن التأثيرات الهندية والمناطق المجاورة لها. أما فيما يخص الكاشيين فلقد تمثلوا في البداية ضمن سياق السبع مدن، عبر «حفرة نفايات مليئة بآنية الكراميل». ويقول بيبي أن آنية الكراميل كانت معروفة جيداً وعلى نحو كبير، فلقد كانت هي الآنية الكاشية في بلاد الرافدين. لقد كان الكاشيون شعباً قادماً من جبال لورستان الفارسية حوالي ١٧٥٠ ق. م. ، ومدوا حكمهم تدريجياً حتى امتلكوا أمر كل وادي دجلة والفرات من أقصى شمال بغداد الحالية وحتى الخليج العربي. ولقد وضع الغزو الأشوري الواقع في ١٢٠٠ ق. م. تقريباً النهاية التامة لحكم الملوك الكاشانيين. وخلال كل تلك الفترة التي امتدت لمدة خمسمائة عام، فان الفخار المستخدم في جنوب بلاد الرافدين، وحتى المناطق التي لم تكن تحت حكم الكاشانيين، كان الفخار متماثلاً تماماً و«آنية الفخار» العائدة لنا، على حسب قول بيبي.

ولقد اكتشفت البعثة فيما بعد مبنى يقع تحت مبنى اسمته «القصر» الأشوري، والذي نسبته البعثة للمدينة الرابعة، والذي يعود بدوره الى الفترة الكاشية، وكان عبارة عن مخزن للمؤن احتوى على كميات من التمر والذي يؤكد الطبيعة التجارية لديلمون في ذلك الزمان.

أما بخصوص الأغريق فأن وجودهم كان أكثر تحديداً وارتباطاً بغزو الاسكندر الذي وصل حتى الهند. لقد وجدت البعثة الآثار الاغريقية على نحو أو آخر في البحرين وفي سواحل جزيرة العرب الشرقية، وبفيلكا بالكويت. ولكن الحضور الأكبر لتلك الآثار كان بفيلكا، حيث سبق أن عثر على نقش سابق قبل مجيء البعثة. وبعد ذلك عثرت البعثة على معبد يوناني أقيم في زمن السلوقيين وعلى مكان لصنع التماثيل النذرية، وعلى بضعة نقود تعود الى فترة الملك السوري (أنطياخوس الثالث) والذي حكم الأمبراطورية السلوقية من سنة ٢٢٣ ـــ ١٨٧ق. م. ولقد تمكنت البعثة من مماثلة جزيرة فيلكا وجزيرة ايكاروس التي ذكرتها النقوش والمراجع اليونانية المكتوبة عن الكتاب الكلاسيكيين. ونقتطف فيما يلي ما أورده بيبي في وصفه

لعثورهم على المستوطنة الاغريقية، وفي الفصل الذي عنونه باسم ايكاروس:

لقد امتلكنا سبباً يدعونا للاعتقاد حتى في ذلك الوقت أنه ربما أعطى التل الشرقي مستوطنة لاغريق الاسكندر وحينما أنظر الى المعبد استطيع تبين أنه لم يعد هناك أي شك حول الموضوع.

وعندما أشرت ملاحظاً بسرعة أن الشبه مع البارثنيين كان ظاهرياً أكثر مما كان حقيقياً، أخذ كريستيان يحاول جاهداً أن يثبت أن التشابه كان حقيقياً أكثر منه ظاهرياً. لقد كان هناك نقش «السيلا» أو الفناء الداخلي بقاعدته التي تخصص لتمثال اله المعبد. وكان هناك نفس ردهة المدخل: وقد بدت قاعدتان لعمودين في المدخل مما يثبت وجود واجهة أعمدة سابقاً تنتهي بجملون حقيقي. واتجه ليشير مميزاً أحد الأعمدة، والذي تمكنت، حتى أنا نفسي من تبين أصله الأيوني ومجموعة من القواعد أو الدعامات (Acroters)، وهي الزخارف المستقلة والتي تعلو الجملون، والزوايا التي تحدد انحدار السطح. وارتفع المعبد في ناظري، حسبما وصفه كريستيان وهو عبارة عن مزار صغير ــ مساحته خمس وعشرون قدماً في أربعين قدماً ــ وقد بدا بمسحة اغريقية خالصة (بالرغم من أن كريستيان قد تمكن من تحديد تأثيرات فارسية عليه) وكل ذلك على مبعدة خمسة عشر ألف ميل بعيداً عن أثينا.

...ولم يعد هناك من شك أن هذه المدينة، مدينة أغريقية. لقد أوحت بقوة بذلك في السنة الأولى حينما حفرنا البيت القرميدي الكبير بين التلال وظهر أنه كان ورشة لانتاج تماثيل من الطين المحروق. لقد عثرنا على التنور الذي كانت تحرق فيه التماثيل، وعثرنا على قطع كبيرة من القوالب التي كانت التماثيل تشكل بها. ولقد تمكنا من اعادة تركيب بعضها، وتمكنا باستخدام جبس باريس من أن نصنع بأنفسنا نسخاً من منتجات القالب. وحصلنا على صنف اغريقي كامل. كانت هناك تماثيل مزينة لنساء وأخرى غير مزينة، ولم تكن احداها لتختلف عن فينوس ميلو، وكان أحدها نموذجاً صغيراً كاملاً لنصر ساموثريس. وكان هناك تمثال رأس رجل نحت ببروز محدود، استطعنا أن نتعرف اليه جميعاً على أنه الاسكندر الأكبر نفسه، ممثلاً كاله الشمس، وقد برزت الأشعة من رأسه.

ويواصل بيبي سرده في الكتاب عن جوانب ذلك المعبد والمستوطنة، والتي تبرز الوجود الاغريقي فوق تلك الجزيرة.

خامساً ــ العلاقات مع بلاد الرافدين:

شكلت العلاقات بين مناطق شرق الجزيرة، وبالتحديد ديلمون محوراً كاملاً للتقرير، وخاصة بالنظر الى طبيعة العلاقة التي قامت بين بلاد الرافدين بحضارتها المتعاقبة، وديلمون كموقع ذي أهمية تجارية واستراتيجية بسبب وقوعها في وسط الخليج واحتوائها على الماء العذب، وأهمية دينية، حيث أضحت ديلمون هي الأرض التي تنبعث منها مياه اللج العذبة دون أن تختلط بمياه البحر المالحة، وهي الموقع الذي استقر فيه الرجل الفاني الوحيد الذي حصل على الخلود الدائم وهو أوتونبيبشتيم أو زيوسودار، بعد أن نجا من الطوفان وأسبغت عليه الآلهة نعمة الحياة الدائمة. ولقد ذهب إليه جلجامش إلى ديلمون لكي يعرف من سرد الخلود في قاع النهر حيث تنمو قريباً من ينابيع المياه العذبة. وما ذلك الا لآلىء البحرين الشهيرة منذ ذلك الوقت والتي اكتسب جودة وصفاء معيناً بسبب نموها في قاع البحر المالح الذي تنبع منه المياه العذبة.

لقد شكلت البحرين الموقع الذي تتجمع فيه البضائع، وبالذات النحاس القادم من ماجان، ليتم نقله فيما بعد الى بلاد الرافدين. وهكذا فإن علاقتها مع بلاد الرافدين هي علاقة شاملة. بل ان بلاد الرافدين بتطوراتها المختلفة وبآثارها المكتشفة، ورقمها ونقوشها ومحطاتها التاريخية شكلت الخلفية التي سهلت اكتشاف التحديدات الزمنية المختلفة لديلمون. ولذلك فإن تبيان العلاقات القائمة بشيء من التفصيل سيعني بالضرورة العودة الى مقتطفات مطولة من التقرير. فالتقرير ينطلق من ما ذكر في النقوش العراقية عن ديلمون، ومن الرؤي الرافدية للمدينة لكي يبدأ في البحث والتنقيب عنها على جزر البحرين، ويترافق

البحث والتنقيب مع العودة للحضارات الرافدية المتتالية لكي تبدو أبعاد ديلمون بوضوح في تلك الأزمنة.

أما العلاقات مع جنوب الجزيرة العربية فترد حينما يبدأ الحديث عن البحث عن مدينة جرها ودورها التجاري وغناها الأسطوري والذي انعكس في كتابات المؤرخين اليونان والرومان. ويذكر بيبي أنهم حينما ذهبوا الى مدينة ثـج ودخلوا الى أحد البيوت المظلمة أشار دليلهم وهو مقدم القرية الى الزاوية العليا لأحد الجدران، وأنهم بعد أن اعتادت أعينهم الظلمة تمكنوا من رؤية أحد تلك الأحجار تحمل نقشاً محفوراً، وتمكنوا من تبين كون تلك الحروف تعود الى العربية الجنوبية. ويقول بيبي أنه اختلف وجلوب حول تحديد موقع جرها التي أقامت علاقة واسعة مع جنوب الجزيرة العربية متاجرة في البخور والمر، والتي اشتهرت بها تلك المنطقة. فجلوب يعتقد بأن ثـج هي جرها. الاّ أن البعثة توقفت أعمالها دون أن تتوصل الى نتيجة محددة حول الموضوع.

بقيت أحدى الحضارات التي تم تتمكن البعثة من تحديدها بشكل حتى بأشكالها الدنيا وهو موقع ماجان والتي كانت المنطقة التي يرد منها النحاس لبلاد الرافدين. وهناك الكثير من الاحتمالات والتي تشير الى عمان بكونها الموقع المؤهل لذلك للعديد من الأسباب أولها وجود النحاس بكميات وافرة والى يومنا هذا. الاّ أن التقنيات لاتزال محدودة بهذا الاتجاه.

الاّ أن مايلفت الانتباه الى الاستنتاج الذي انتهى اليه التقرير في سطوره الأخيرة وعلى ضوئه، حول علاقات عمان ببلاد الرافدين، حيث يشير الى امكانية أن يكون هناك قادمون من عمان ادخلوا الحضارة الى وادي الرافدين، وهو يشبه في ذلك الاستنتاج بحضارة العبيد والدور الذي قامت به في ترويض حوض دجلة والفرات الأدنى، واكتشاف آثار للعبيد في سواحل الجزيرة العربية الشرقية. يقول التقرير متحدثاً عن آنية وسيف اكتشفا في آكام للقبور موجودة في البريمي، أي في داخل عمان:

وبدأ أن عدة آنية قد طليت بأشكال من الأحمر الخوخي، والأبيض والأسود وبدا على الفور بأنها معروفة بكونها تنتمي الى حضارة جمدة نصر، والتي سادت على بلاد الرافدين في الفترة بين ٣٠٠٠ و ٢٨٠٠ ق. م.

وعلى ذلك فان الآكام بعد كل شيء أقدم كثيراً من السيف، وقد جرى استعمالها مرة أخرى للدفن بعد خمسة عشر قرناً من السنين من بعد بنائها الأصلي. وها نحن نرى أن الرافديين كانوا في أبوظبي حتى من قبل نصف زمان جلجاميش الأسطوري. أو أن الوضع كان بالعكس؟ هل كان شعب عمان هنا الذي أدخل حضارة جمدة نصر لبلاد الرافدين؟

وبهذا السطر، والعبارة ينتهي الكتاب

* * *

عبر هذه المقتطفات المطولة من تقرير البعثة الدنماركية، أمكننا أن نطل على جوانب كبيرة من العلاقات التي كانت تقوم وتنسج عراها بين مناطق شرق جزيرة العرب وبالارتباط مع الحضارات الرافدية الى حد كبير وكذلك مع جنوب الجزيرة. ولقد كانت تلك العلاقات تقرب، بين المناطق، وتصهرها، وتشكل الأرضية الصالحة والمهيئة لبروز شيء يعبر عن هذه العلاقات وينطلق منها ويرتقي بها. وكما نرى أنه في الفترة التي أرخت لها البعثة الدنماركية، وردت تأثيرات هندية واغريقية وفارسية على المنطقة الاّ أن سياق تطور تاريخ المنطقة، كان يمتلك قوة حركته الذاتية الفاعلة بحيث كانت تلك التي يمكن أن نطلق عليها تجاوزاً انقطاعات، انما هي عبارة عن أحداث لم تلجم سياق الحركة العام، وتطورها نحو التبلور والتشكل. وما أن شارف القرن السابع عشر الميلادي حتى كانت الروابط بين المنطقة قد استكملت كثيراً من درجات التفاعل والشمول والتداخل. ●



تمهيد:



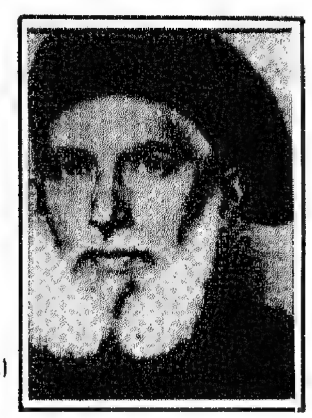
كان الفساد والتدهور قد أصاب معظم مؤسسات الدولة العثمانية، خصوصاً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ورغم قيام حركة الاصلاح والتجديد منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، إلّا أن مظاهر الجمود والركود ظلت هي البارزة، غير أن القضاء العثماني كانت صفحته أكثر بياضاً وأنفع للناس وذلك، احقاقاً للحق وردّاً للباطل، ولعل مرجع الأمر إلى أن أحكام هذا القضاء، في معظمها، كانت تستند إلى نصوص الشريعة الاسلامية، وإلى أن يد الاصلاح تناولت نظام القضاء ورجاله، قبل غيره من مؤسسات الدولة العثمانية.

وكان هذا القضاء، في مطلع القرن التاسع

■ الدكتور طلال المجذوب
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية ــ الفرع الخامس

عشر، بسيطاً في أجهزته وأسلوبه، إذ كان بمستطاع القاضي أن يستمع للدعوى، وأن يصدر حكمه فيها في جلسة واحدة، كما أن القضاء كان يطبق أحكام الشريعة الاسلامية على المذهب الحنفي، أو لا يخالفها على الأقل.

وكان على رأس القضاء قاضيان كبيران يشرفان على كافة القضاة في الدولة العثمانية، أولهما قاضي عسكر الروم ايلي، وكان مسؤولاً عن القضاة في الولايات العثمانية في أوروبا، وثانيهما قاضي عسكر الأناضول، وكان مسؤولاً عن القضاة في الولايات العثمانية في آسيا وأفريقيا. أما الاشراف العام فكان من صلاحية قاضي اسطنبول الذي عرف فيما بعد بشيخ الاسلام. وكان قاضيا الروم ايلي والأناضول يعقدان ديواناً لتعيين القضاة أربع مرات في السنة ومنذ سنة ١٨٥٤ صار يعقد في أول المحرم وأول رجب[١].


ابراهيم باشا

وعند مجيء ابراهيم باشا إلى بلاد الشام أدخل بعض القوانين الأوروبية إلى جانب القضاء الشرعي[٢]، وبعد عودة العثمانيين مجدداً أصدروا عدة قوانين تنظم أحوال القضاء وتحدد صلاحيات محاكمه المختلفة، ولم يكد منتصف القرن التاسع عشر ينصرم حتى كان القضاء العثماني قد أصبح فرعين رئيسيين لكل منهما صلاحياته وتشكيلاته، وهما القضاء الشرعي والقضاء النظامي[٣]، وفي دراستنا للقضاء في صيدا في هذه الفترة، نقدم نموذجاً لحالة القضاء في بلادنا، تكاد تكون هي نفسها في معظم بلاد الشام، في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

(أ) القضاء الشرعي:

تمثل هذا القضاء بالمحاكم الشرعية، وكان أبرز رجاله القاضي والنائب والمفتي، وكان يعقد مجلس امتحان مرتين في السنة لقبول القضاة الجدد. وكانت المحاكمة الشرعية تنظر في كافة الدعاوي الشخصية والحقوقية والجنائية، فلما قام القضاء النظامي، اقتصرت المحاكم الشرعية على النظر بالدعاوي الحقوقية و الأحوال الشخصية، أما القضايا الجنائية والتجارية فقد حوّلت إلى المحاكم المختصة.

وكان لغير المسلمين محاكمهم الخاصة للنظر بأحوالهم الشخصية، ورغم صدور قوانين القضاء النظامي فإن المحاكم الشرعية ظلت تنظر بقضايا البيع والشراء المختصين بالأراضي والأملاك، وحتى بعد صدور قانون الطابو (سنة ١٨٦١) فان كثيراً من المسلمين ظلوا يسجلون حجج أملاكهم في المحاكم الشرعية إضافة إلى سندات الطابو.

وفي سنة ١٨٥٩ صدر نظام تحصيل الرسوم في المحاكم الشرعية، وقضى بتنظيم ثلاثة سجلات في كل محكمة لتدوين الرسوم المستوفاة، على أن لا يجري عليها شطب أو حك أو إتلاف. وكانت السجلات تضم صفحات مرقّمة، يوضع للمعاملات أرقام متسلسلة، وقد تذيّل بالتاريخ الهجري، وفي الفترة الأخيرة من العهد العثماني صار يضاف إليها أحياناً التاريخ الرومي، ويسجل على أول صفحة من السجل اسم القاضي الذي جرت الأحكام في عهده، وتاريخ البدء في التدوين على السجل، وتاريخ انتهاء العمل به. ومثال ذلك في محكمة شرعية صيدا «هذا سجل الوقايع والدعاوي الصادرة بمدة مولانا عمدة العلماء الكرام نايب المدينة حالاً مكرمتلو السيد محمد نشئت أفندي المفخّم نشر الله له من خير ما شاء بمنّه وكرمه آمين. سنة ١٢٩٠ هـ. (١٨٧٣ م)».

وكانت أبرز الجهود في تنظيم القضاء الشرعي وضبط أوضاعه العمل الذي قامت به لجنة من كبار الفقهاء العثمانيين برئاسة جودت باشا[٤]، في عهد السلطان عبدالعزيز، حين قامت بجمع الأحكام الشرعية وترتيبها وتبويبها

واستغرق ذلك سبع سنوات من غرة محرم ١٢٨٦ (١٨٦٩) إلى شعبان ١٢٩٢ (١٨٧٦) ثم أصدرتها في ستة عشر باباً، اشتملت على ١٨٥١ مادة في كافة الأحكام الفقهية، حسب المذهب الحنفي، وإن كان في أحكامها مزيج من القوانين الأوروبية والشريعة الاسلامية[٥]، وقد عرفت باسم «مجلة الأحكام العدلية» واشتهرت فيما بعد باسم «المجلة» فقط. وأصبحت المصدر الرئيسي للأحكام القضائية، واستمر العمل بها حتى سقوط الدولة العثمانية، وظلت سارية المفعول في لبنان حتى سنة ١٩٤٣، وفي سوريا حتى سنة ١٩٤٩[٦]. أما أبرز رجال القضاء فكانوا القاضي والنائب والمفتي.

١ ــ القاضي:

كان من أبرز الشخصيات المهمة في النظام العثماني، وكان يأتي في المرتبة التالية للوالي، وأبرز القضايا التي كانت من اختصاصه ما عرف بالوقوعات الخمس وهي المناكحات (الزواج) والطلاق والتولد (الولادة) والوفاة ونقل مكان (تبديل مكان الاقامة)؛ بالاضافة إلى أمور الأحوال الشخصية الأخرى، كالهبة والوصية والنفقة والميراث وغيرها.

وكان القاضي يبقى في منصبه سنة واحدة غالباً، وكان القضاة على المذهب الحنفي[٧]، ويتم تعيينهم بموجب قرار رسمي يسمى «مراسلة» يصدر عن دار الفتوى المرتبطة بالمشيخة الاسلامية. ومنذ تأسيس معهد القضاة الشرعي في اسطنبول سنة ١٨٥٥ صار القضاة يعينون من خريجيه.

وكان يشرف على القضاة، ويدقق في أحكامهم، ديوان تمييز أقيم في كل ولاية في عهد السلطان عبدالعزيز، لكنه ألغي في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، وأصبح «مجلس التدقيقات الشرعية» في دار الفتوى هو المرجع الوحيد لتمييز الأحكام الشرعية[٨].

٢ ــ النائب:

كان حاكم الشرع الذي يقوم بالقضاء في غير مركز الولاية يدعى «النائب» باعتبار أن القاضي يعينه لينوب عنه في فرض الأحكام الشرعية، لكن صدور نظام تعيين النواب سنة ١٨٥٥ جعل تعيينهم مرتبطاً بامتحان، وصنّفهم خمس فئات: الأولى هي الموالي الدورية والمدرسين، وثانيهما الذين لم يسبق استخدامهم في الخدمة الشرعية سابقاً، وأظهروا مقدرة لدى امتحانهم، وثالثها ورابعها وخامسها هم الأقل استعداداً على التوالي.

وبموجب هذا النظام حصرت النيابة الشرعية في مقر الولاية بالفئة الأولى، وفي القائمقاميات بالثانية، وفي القائمقاميات البعيدة بالثالثة، وما دونها بالأهمية بالرابعة والخامسة، وجعلت مدة النائب في القضاء القريب من مركز الولاية ثمانية عشر شهراً، وفي القضاء البعيد سنتين.

كان النائب على المذهب الحنفي عادة، ولكن تعيين نواب أو أئمة صلاة من المذاهب السنية الأخرى (كالشافعية والحنبلية وغيرهما) ممكن إذا كانت غالبية السكان على ذلك المذهب، ففي سنة ١٣٢٠ هـ. طالب بعض الصيداويين السلطات بتعيين إمام للشافعية لأداء صلاة الجمعة في جامع البحر، فقام رشيد وهبي بهذه المهمة بالاضافة إلى وظيفته واعظاً في ايوان وقف بني حمود.

وكان على النائب (القاضي) تنظيم وتدوين سجلات محكمته. وكان يحق له النظر في كافة قضايا الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، وما يلزمه من عدة ونفقة، والقضية التالية نموذج لذلك «... حضر المجلس الشرعي الأنور بمدينة صيدا المحروسة صاحب العرضحال أحمد بن عمر الشامي، الوكيل الشرعي عن شقيقته الحرمة خديجة بنت عمر المذكور، المثبوتة وكالته شرعاً بشهادة شعبان بن عبدالله وبكري بن الحاج طه البابا، وأدعى الوكيل على الحاضر معه بالمجلس الشرعي أحمد بن محمد الجويدي، كلاهما من أهالي صيدا، قائلاً بدعواه عليه أنه كان متزوجاً بموكلته شقيقته خديجة، ومن برهة خمسة أيام طلقها، ولم يدفع مؤخر صداقها وقدره أربعمائة قرش، وهي ناقلة منه، وفرض على نفسه نفقة لمنزلها وسكناها، في كل يوم خمسة وأربعين فضة عبارة عن كل شهر ثلاثة وثلاثون غرشاً وثلاثون بارة، وابتداء الفرض والتقدير من تاريخ هذه الوثيقة في

الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٠ هـ».

كما نظر في قضايا الارث للمسلمين وغير المسلمين كذلك فعند وفاة سوسان الزهار الأرثوذكسية انحصر أرثها بأولادها قيصر وسليم ومريم، فاعتبر من خمسة أشهر، لكل ولد سهمان وللبنت سهم واحد.

وعندما أبلغ عن وفاة ابراهيم الشماس (اليهودي الصيداوي) توزعت تركته إلى ثماني حصص لابنه حاييم، وحصة لزوجته نظلة تطبيقاً للفريضة الاسلامية.

وعند وفاة درويش حسين أبو صالح (من بعاصير) توزعت تركته التي بلغت ألف قرش على زوجته مريم (مهرها وربع الباقي ٤٠٠ قرش) وعلى أمه مريم أيضاً (السدس ١٣٣ قرشاً و$\frac{1}{3}$١٣ بارة) وعلى شقيقته فاطمة ٩٥ قرشاً و٩ بارات ولكل من أشقائه محمد ومرعي وعلي ١٩٠ قرشاً و٩ بارات.

كما نظر في قضايا الوصية والهبة وغيرها.

كما كان ينظر بكافة القضايا الحقوقية، حتى بعد إنشاء المحاكم النظامية، ومثال ذلك هذه القضية «حضر الشيخ محمد السقا وكيل منويل بربارة، وأدعى على حنا منياس، أنه استخدم موكله منويل عنده كصبي حلاق، على أن يعلّمه الصنعة ويقدم له في كل يوم جمعة بشليكين، وأنه متجمد له الآن أجرة أربعة عشر شهراً أي ٦٣٠ قرشاً، كما أن له فراشاً ولحافاً ووسادة حيث كان ينام بالمحل، وردّ المدعى عليه أنه عمل على تربية هذا الصبي وتعليمه الصنعة منذ أن كان عمره أربع سنوات، حيث هو بلا أب أو أم، وأنه منذ أربعة أشهر عين له كل يوم جمعة بشليكين، وأنه كان يدفعها له كل جمعة بجمعتها، وبعد تكليف المدعي الاثبات وعجزه، طلب القاضي منه حلف اليمين الشرعية للسير بالقضية».

وفي القضايا التجارية ظلت المحاكم الشرعية تنظر بها، حتى بعد انشاء المحاكم التجارية، ويبدو أن ذلك راجع إلى تعوُّد الناس على المحاكم الشرعية أو لثقتهم الشديدة بقضائها، فقد اشتكى خليل محمد جرادي وأحمد عثمان اليمن على ابراهيم حبلي لأنهم اشتركوا في عملية تجارية لشراء ليمون وكبّاد من قرية حامول، وأن خليل وأحمد ساهما بمبلغ خمس ليرات فرنسية، وساهم ابراهيم بليرتين، كما أنهم اقترضوا مبلغ ١٥ ليرة فرنسية ذهباً من محمد الترك لاتمام الصفقة، وتسلم المبالغ كلها ابراهيم حبلي لتنفيذ الصفقة، لكنه أدعى بعد أنه لم يتسلم شيئاً، وطرحت القضية على المحكمة الشرعية وكان الشيخ محمد السقا وكيل المدعيين».

وفي أمور الأراضي والعقارات ظل الصيداويون يسجلون معاملاتهم في المحاكم الشرعية رغم وجود المحاكم النظامية وتأسيس دوائر الطابو (العقارية) والقضية التالية نموذج لذلك: «حضرت فاطمة الكلش، وباعت إلى ولدها لصدرها عبدالغني الحاج أحمد الطرابلسي جميع حصة البستان المعروف ببستان بني الكلش في محلة للقناية المشتملة على أشجار متنوعة الثمار وعلى بيت وايوان تسقى من ماء قناة الخاسكية[٩]. يجري جلبها بالناعورة للبستان المذكور، ويحدها قبلة الطريق السالك، وشمالاً دار مرجان معتوق يوسف آغا الجوهري، وشرقاً حصة حسن ولد البائعة المذكورة وغرباً ملك المشتري المذكور بقيمة ألفين من القروش الأسدية».

٣ ـ المفتي:

كان موجوداً في كل الولايات، وكان يأتي بعد النائب في الأهمية، وكان عمله مستقلاً عن النائب، لأنه مختص بالمسائل الفقهية، وإن كانت تُحال إليه أحياناً قضايا حقوقية وجزائية ليصدر فتواه بشأنها، ويكون استفتاؤه بصيغة محددة قاطعة، ليسهل عليه اصدار فتواه التي تكون غالباً، اجابة مقتضبة سلباً أو ايجاباً.

كان المفتي عضواً دائماً في مجلس الادارة (في الولاية أو اللواء أو القضاء) . ويشارك في الأحداث العامة، وكان المفتي على المذهب الحنفي، ويمكن تعيين مفتين على المذاهب السنية الأخرى، ومن قضايا الافتاء في صيدا: «ادعى حنا أسطة الرومي الصبحي على محمد بن قاسم حمادي بمبلغ ثلاثة آلاف قرش ثمن كبابيت (معاطف) وغيرها وأبرز صكاً



صيدا القديمة

مؤخراً في ١٦ ذي القعدة ١٢٧٠ لكن المدعي عليه أجاب بأن الدعوى لا تقبل، لأنه مضى عليها الزمن بمرور خمس عشرة سنة عليها ولم يطالبه خلالها بدفع المبلغ، وأنه حتى لو قبلت فيجب أن تختص بها محاكم جبل لبنان لأن المدعى عليه ووالديه مقيمون فيها، ولما أعجز الأمر القاضي، رفعه إلى مفتي صيدا، فأفتى بأنه إذا كان السكوت عن رفع الدعوى كل تلك المدة بلا مسوّغ شرعي فلا تسمع منه، وإذا ثبت المدعي وجود مانع شرعي فتسمع منه، ويجوز أن يكون ذلك أمام محاكم جبل لبنان. لأن القضاء يتخصص بالزمان والمكان والأشخاص والحوادث، وعند ورود الفتوى، سئل المدعي عن بيّنة تثبت طلبه المبلغ خلال تلك الفترة، فعجز عن ابرازه، فحكمت المحكمة بردّ الدعوى».

(ب) القضاء النظامي:

كان هذا القضاء وليد الاصلاحات التي جرت في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان حجر الأساس فيه صدور قانون الجزاء الهمايوني «قانون العقوبات العثماني» سنة ١٨٥٨، وتعديلاته سنة ١٨٧٠ ثم القوانين التي تلته(١٠).

وكان قانون تشكيل الولايات الصادر سنة ١٨٦٤ أقرّ إنشاء ديوان تمييز في كل ولاية يتألف من ستة أعضاء، ثلاثة منهم مسلمون، وثلاثة من غير المسلمين، ويدعى كل منهم «مميّزاً» ووظيفة هذا الديوان الفصل في الدعاوى الجزائية والحقوقية، ويصدق الوالي على أحكام الديوان، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى اسطنبول لتبت به.

أما في اللواء فيشكل مجلس حقوقي يرئسه حاكم الشرع (النائب) ويتألف كذلك من ستة أعضاء، وله نفس الصلاحيات المعطاة لديوان تمييز الولاية، ويصدق المتصرف على أحكامه، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى الوالي لينظر فيه.

وفي القضاء انشىء «مجلس دعاوي القضاء» ويرئسه حاكم الشرع في القضاء، ويتألف من ستة أعضاء كذلك، وينظر بكافة الدعاوي عدا الجنائية منها، ويصادق القائمقام على أحكامه، وما يخرج عن صلاحياته يرفعه إلى المتصرف.

وطبقاً لقانون تشكيل المحاكم النظامية لسنة ١٨٧٢ خوّلت مجالس القضاء بالنظر بالدعاوي بداية، ومجالس التمييز في الألوية

تراها بداية واستئنافاً، وفي دواوين التمييز لمراكز الولايات ترى الدعاوي استئنافاً فقط.

كما أوجد في كل قرية وناحية مجلس اختيارية مهمته تسوية القضايا صلحاً، ولا يصدر حكماً بل يأخذ سنداً من الطرفين بأنهما تصالحا فإذا لم يقبل أحد الطرفين الصلح تحوّل الدعوى إلى المحاكم المختصة.



جندي عثماني

وكان قانون الجزاء الهمايوني اعتبر الجرائم ثلاثة أنواع: جناية وجنحة وقباحة. أما الجناية فهي أفعال تستلزم المجازاة الارهابية أي الاعدام والوضع في الكورك[١١] مؤبداً أو مؤقتاً، مع التشهير[١٢] والسجن في القلاع والنفي المؤيد والمحرومية من الرتب والوظائف. وأما الجنحة فأفعال تستلزم المجازاة التأديبية، أي الحبس أكثر من أسبوع والنفي المؤقت والطرد من المأمورية والجزاء النقدي، وأما القباحة فهي أفعال أو حركات تستلزم المعاملة التكديرية، أي الحبس من أربع وعشرين ساعة إلى أسبوع، والجزاء النقدي حتى مائة قرش.

والقضايا الحقوقية التي كان ينظر بها مجلس دعاوي القضاء لا تتجاوز قيمتها خمسة آلاف قرش، ولا يتعدّى ايرادها السنوي خمسمائة قرش، ومن أمثلة هذه القضايا «... حكم على الخواجة جرجس بن ابراهيم نخلة، من أهالي صيدا المتوطن الآن في بيروت بمبلغ ألفين وسبعمائة قرش للخواجة بشارة زهار الصايغ العثماني من أهالي صيدا المرهونة على ذلك المبلغ نصف دار لمحلة الشارع بصيدا محتوية على (أودتين) ومطبخ. بناءً عليه وحيث المحكوم عليه الراهن المحرر تمنع عن دفع المبلغ المذكور، لذلك وجب طرح المرهون بالمزاد، فالذي له رغبة لمشترى نصف الدار فليراجع دائرة الاجراء في محكمة بداية صيدا»[١٣].

وكانت محكمة البداية في القضاء (مجلس الدعاوي) تنظر في الجرائم من نوع القبائح، وتصدر بها حكماً قطعياً، أما في جرائم الجنح فيكون قابلاً للاستئناف، أما في الدعاوي الجنائية فترسل المحكمة في القضاء بنتيجة تحقيقاتها إلى مجلس التمييز في اللواء ليحكم بها.

وكان انتخاب أعضاء المحكمة يجري بمعرفة لجنة فرز خاصة، مؤلفة من أعضاء مجلس الادارة الاصليين (وهم القاضي ومدير المال والمفتي ومدير التحريرات) ورؤساء الطوائف المسيحية ويرئس اللجنة القائمقام، وترسل النتيجة إلى المتصرف الذي يختار أحد الأسماء الثلاثة كي يكون عضواً في المحكمة، أما أعضاء محاكم الألوية فيقوم باختيارهم الوالي، ويتم اختيار أعضاء محاكم الاستئناف في الولاية بواسطة وزير الداخلية في العاصمة، وتدوم فترة عضوية كل منهم سنتين[١٤].

وكانت محكمة بداية صيدا تتألف عادة من عضوين مسلمين وآخرين مسيحيين، وكان أحد العضوين المسلمين سنياً والآخر شيعياً، أما العضوان المسيحيان فكانا بالتناوب بين الطائفتين الأكثر عدداً في صيدا، طائفة الروم الكاثوليك، وطائفة الموارنة[١٥]. ففي سنة ١٨٧٥

مثلاً تألفت محكمة بداية صيدا من النائب رئيساً ومن الأعضاء عثمان الزين وعلي الحر، والياس زكّا، ومخّول أفندي، ومن الكاتب يوسف رفعت. وفي سنة ١٩١٢ كان رئيسها محمد علي التميمي، والأعضاء مارون الوزير والحاج سعيد البزري، والباشكاتب كامل كزبر، والمستنطق نجيب الأسطة، والكاتب صبحي الددا، ووكيل الدعاوي داود الزهار.

ولم تكن انتخابات أعضاء المحاكم تتم بحريّة دائماً، إذ كان القائمقام يتدخل أحياناً ضد بعض المرشحين، أو لمصلحة البعض الآخر، كما حدث سنة ١٨٨٠ عندما رفض القائمقام احسان بك طلب الترشيح لعضوية المحكمة للحاج محمود المجذوب وجبور نمور واثنين من آل لطوف (مسيحي) والحرّ (شيعي)، فحدث شغب في صيدا، وقام محمود المجذوب بإرسال عريضة احتجاج ضد القائمقام التركي وسانده أقرباؤه من آل الجوهري، وفي النهار نفسه صدف أن تجمع المزارعون الذين تضرّرت بساتينهم من مشروع فتح الطريق بين صيدا والنبطية، أمام مقر القائمقام للاحتجاج، كما ظهرت منشورات ثورية على جدران شوارع صيدا مناوئة للأتراك، وتدعو إلى تعيين قائمقام عربي، فاعتقد القائمقام أن محمود المجذوب ورفاقه سبب كل ذلك، فاعتقله مع رفاقه، وأبرق إلى بيروت بالحادثة، ولما حاول آل بيهم، وكانوا أصدقاء لمحمود المجذوب، التوسط للافراج عنه لدى الوالي حمدي باشا رفض وساطتهم[١٦]. وبعد فترة أطلقت السلطات سراح المجذوب ورفاقه المعتقلين من عائلات الجوهري ونمّور ونحّول وقدورة[١٧].

وبعد تسلّم الاتحاديين الحكم، في مطلع القرن العشرين، فرضوا معرفة اللغة التركية على أعضاء المحاكم، وعندما تبين للسلطات أن اثنين من أعضاء محكمة بداية صيدا يجهلان التركية، عزلتهما، وأعلنت عن قبول الترشيح لعضوية المحكمة بدلاً عنهما، مما حدا ببعض الصحف إلى التساؤل عن الهدف من ذلك، سوى الاساءة لمشاعر العرب بفرض التتريك عليهم[١٨].

وكان يوجد للمحاكم الشرعية والنظامية محامون (وكلاء دعاوي) وممن برز منهم في صيدا: سليمان مصوبع، والشيخ محمد السقا، وعثمان فوزي، وبشاره نمور، وحبيب فارس، ومحمد كامل المغربي، ومحمد آغا حمود وغيرهم.

هذا وكانت رواتب أعضاء المحاكم في أواخر العهد العثماني كما يلي: رئيس محكمة البداية ألفا قرش شهرياً، وأعضاء المحكمة ألف قرش، ورئيس الدائرة الحقوقية في محكمة الاستئناف ثلاثة آلاف قرش شهرياً، ورئيس الدائرة الجنائية ألفا قرش، أما أعضاء محكمة الاستئناف فراتب كل منهم ألف وخمسمائة قرش شهرياً[١٩].

محاكم التجارة:

فيما بين سنتي ١٨٥٩ و١٨٦٣ صدرت عدة قوانين تنظم أصول التجارة البرية والبحرية في الدولة العثمانية، ومن ثمّ في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ (١٨٧١) صدر قانون أصول محاكم التجارة، وبموجب هذا القانون اختصت هذه المحاكم بالنظر في كافة القضايا التجارية وتم انشاؤها في كل مكان كانت تدعو الحاجة إليه من مدن الولايات المختلفة، أما محاكم الاستئناف التجارية، فقد اختصت بها عواصم الولايات وحدها.

وتألف نصف أعضائها من غير المسلمين، وكانت معظم قوانينها منقولة عن القوانين التجارية الفرنسية. وفي سنة ١٨٨٢ جرى انشاء المحكمة التجارية في صيدا وانتخب لعضويتها يوسف المجذوب، واسماعيل النقيب وميخائيل بسترس وعبدالله النقاش «... لرؤية المصالح التجارية في محكمة بداية صيدا الخالية من محكمة خاصة، وذلك تطبيقاً للمادة العاشرة من قانون تشكيل المحاكم. وكذلك المادة ١٦ من ملحق ذلك القانون...»[٢٠].

غير أن اعتياد الناس، من شتى الطوائف، على الركون إلى المحكمة الشرعية في حل قضاياهم، وتساهل القانون في هذا المجال، أضعف كثيراً من دور المحكمة التجارية في صيدا، حتى في الشؤون الاقتصادية البحتة،

جدول رجال الافتاء في صيدا:

الشيخ مصطفى المغربي ١٨٦٠
الشيخ محمد البزري ١٨٧٥
الحاج عثمان الزين ١٨٧٧
محمد نائلي أفندي ١٨٧٩
الحاج عثمان الزين ١٨٨٤
الشيخ مصطفى المجذوب الملا ١٩٠٢
محمد بهاء الدين الزين ١٩٠٦
الشيخ كمال المغربي ١٩١٤

وظلت المحكمة الشرعية تستأثر بنصيب الأسد من النظر في هذه القضايا، واصدار الأحكام فيها «... حضر الياس نخلة أبيلا وادعى على حبيب مخول الصهيوني من محلة القناية في سقي صيدا أنه اشترى منه حنطة وفولاً، وبقي له في ذمته من قيمتهم مبلغ ٢٢٧ قرشاً عملة رايج بندر صيدا، وبعد سؤال المدعي عليه واقراره بالمبلغ، حكم القاضي بأن يؤديه إليه مقسّطاً».

وبعد انهيار الحكم العثماني، وقيام سلطة الانتداب، جرت تغييرات قضائية عدة، ولعل أولها كان قيام محكمة شرعية شيعية كان أول قضاتها في صيدا القاضي منير عسيران. ●

الهوامش والمصادر:

(١) نوفل نعمة الله نوفل، الدستور، ج ١، ص ١٤٢.
(٢) سليمان أبو عز الدين: ابراهيم باشا في سوريا، بيروت، ١٩٢٩، ص ١٤١.
(٣) صدر نظام توجيهات مناصب القضاة ونواب القضاة سنة ١٨٥٥، وقانون العقوبات سنة ١٨٥٨، ونظام مجلس الأحكام العدلية سنة ١٨٦١، ونظام دعاوي التجارة سنة ١٨٦٨، وقانون المحاكم النظامية سنة ١٨٧٢، ونظام تعيين نواب حكام الشرع في سنة ١٨٧٣.
(٤) Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, p. 120.
(٥) شفيق جحا: مجلة الأبحاث، المجلد ١٨، الجزء ٢، ص ١١٤.
(٦) يوسف الحكيم: سوريا والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٣.
(٧) عبدالكريم غرابيه: سوريا في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٦٤.
(٨) يوسف الحكيم، ص ٣٠.
(٩) قناة تمر شرقي صيدا وتسقي بعض بساتينها، وينسب بناؤها للسيدة خاسكية زوجة الأمير فخر الدين المعني الثاني.
(١٠) مثل نظام ديوان الأحكام العدلية سنة ١٨٦٧، وقانون المحاكم النظامية سنة ١٨٧٢، وتعرفة رسوم الأحكام العدلية سنة ١٨٧٠، وتعرفة الرسم في المحاكم النظامية سنة ١٨٨٧، وقانون أصول المحاكمات الجزائية سنة ١٨٨٩.
(١١) الكورك وضع القيود الحديدية في أقدام المحكوم، وتكليفه بالقيام بالأعمال الشاقة.
(١٢) التشهير هو كتابة خلاصة الحكم بخط كبير، ووضعها على صدر المحكوم، وايقافه في الساحة العامة ساعتين ليراه الناس.
(١٣) ثمرات الفنون، العدد ٤٠٤ في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٨٨٢.
(١٤) يوسف الحكيم، ص ٢٩.
(١٥) مطرانية الروم الكاثوليك، صيدا.
(١٦) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، تقرير القنصل الفرنسي في بيروت برقم ٤٨ وتاريخ ٢ كانون الثاني ١٨٨١.
(١٧) ثمرات الفنون، الأعداد ٣١٣ و٣١٥ و٣١٨ في ١٠ و ٢٤ كانون الثاني و ١٤ شباط ١٨٨١.
(١٨) لسان الحال، العدد ٧٥٨٠ في ٢٣ حزيران ١٩١٤.
(١٩) Public Record Office ف.و. ٢٣٤٢/١٩٥ تقرير قنصلي ملحق برسالة رقم ٧ من القنصل البريطاني كومبرباتش للسفير سير جيرارد لوثر، بيروت في ١٢ شباط ١٩١٠.
(٢٠) ثمرات الفنون، العدد ٣٧٥ في ٣ نيسان ١٨٨٢.



أسرار فتنة الجزائر ١٩٦١

د. رياض العالي



فشلُ المحاولة العسكرية، خلال ربيع ١٩٦١، ضد سياسة الجنرال دوغول في فرنسا، كرس الطلاق بين فرنسيي فرنسا المؤيدين لرئيس الدولة، وفرنسيي الجزائر. بدأ كل ذلك في ٢١ نيسان، عند منتصف الليل، على مطار بليدا قرب الجزائر، حين حطت طائرة نزل منها ثلاثة هم: قائد الطيران شال، وقائد الجيوش البرية رئيس الأركان السابق زيلر، وكلاهما متقاعد، والكولونيل بروازا، المساعد السابق للجنرال ماسو في جيش فرنسا في الجزائر. لقد تلخص موقف هؤلاء وموقف من ساهم في المحاولة العسكرية بما يلي: «لن يكون للجزائر استقلال أبداً!». وكان قد تفاقم الوضع بين أقطاب المحاولة والسلطة منذ عام ١٩٥٨.

زمن الضيق:

لقد اتخذت خلال ثلاث سنوات تدابير سياسية ادارية، يضاف اليها خطاب الرئيس دوغول، كان من شأنها أن تغير من معطيات المسألة. فبينما كان دوغول يؤكد في حزم، في جولاته المتعددة، أنه سيقضي عسكرياً على التمرد بمساعدة الجماهير المسلمة والأوروبية، كانت مشاريعه السياسية تنأى تدريجيا عن نواياه العسكرية. فبدل «الجزائر الفرنسية» حل عام ١٩٥٨ في خطبه مصطلح «حق تقرير المصير» بل «الاستقلال» كذلك.



Le Monde

DANS LA NUIT DE VENDREDI A SAMEDI AVEC L'APPUI DES PARACHUTISTES

COUP DE FORCE MILITAIRE A ALGER

- Les généraux en retraite Challe, Jouhaud et Zeller s'emparent du pouvoir
- Les généraux commandant à Oran et à Constantine refusent de les suivre
- Le gouvernement prend des mesures « pour que force reste à la loi »

L'AVENTURE

ولم تكف تطمينات ميشال دوبري رئيس الوزراء المتكررة، لتخفيف ضيق الفرنسيين تجاه المعارضة، منذ كانون الثاني ١٩٦٠.

وحين اعلن دوغول في تشرين الثاني ١٩٦٠ امكان قيام «جزائر جزائرية» بدأ بعضهم يحضر للتمرد. ووجدوا في الزيارة التي كان يزمع دوغول القيام بها فرصة لاعلان تمردهم. ودعي الجزائريون الى الاضراب واعلان غضبهم ضد المتمردين، وجرت بين الطرفين صدامات ساخنة، وكان المتظاهرون يهتفون «يحيا دوغول. تحيا الجزائر جزائرية!»: ففاجأوا «الأقدام السوداء» وجد المتمردون في ذلك فرصة لاثارة الجيوش الفرنسية، وتكتيلها حول اهداف قادتهم. في هذا الوقت كان سالان وجان جاك سوزيني في مدريد ينتظران تطور الأحداث. وفوجئا باعلان الاذاعة الفرنسية، السبت ٢٢نيسان، ما يلي: «أتم الجيش مراقبة الأرض الصحراوية الجزائرية حسب الخطة المرسومة».

مجلس العقداء:

كانت هذه الخطة قد وضعها فريقان: الأول مكون من عقداء وزعتهم السلطة على كل مدن الحامية، آرغون وغارد في متز، بروازا في شالون سورمير، غودار في تيغر، دوفور في فوري نوار. وكان هؤلاء يرقبون الأحداث بانتباه، محاولين تبين الانطباعات وردود الفعل على النقباء والملازمين الذين كانوا يزورونهم، الذين كانوا غاضبين وقليلي الصبر. وعلموا عندئذ ان الشركة الفلانية رفضت الاسهام، وان الضابط الفلاني قرر الهجرة الى كاتانغا، وان الجنرال الفلاني يهدد السلطة. التف الفريق الثاني حول الجنرال فور. ومن بينهم العقيد لاشروي الذي حول المدرسة الحربية الى مكتب للجنة فاتسين التي شكلت لمقاومة سياسة دوغول الهادفة الى اعطاء الاستقلال للجزائر. وقد جرت الظروف الفريقين الى الاندماج بتأثير العقيد بلينيير، والملازم ديغلدر اللذين ربطتهما صداقة حميمة منذ كانا في الهند الصينية. وقد قرر الفريقان: «ان اللحظة الحاسمة حانت».

ولكن كان لا بد من قائد، ذي رتبة عالية، ونفوذ في الجيش ولدى الشعب. فكر العقداء بالجنرال ماسو المنتصر في «معركة الجزائر». وفكروا بالماريشال جوان المحترم لدى الجميع، ولكنه كان كبيرا في السن. أما الجنرال سلان فمتهم لدى الشعب لعدة مظاهر غامضة خلال خدمته العسكرية والسياسية. وحده اسم الجنرال شال، فرض نفسه. فهو معروف بمطامحه الشخصية، وبتعلقه بالجزائر، وبأنه استقال من منصبه في حلف شمال الاطلسي، وقد شهد الاجتماعات التي دعا اليها بيدو وسوستيك ولاكوست ولوجون. واقترح مقاومة سلمية وعسكرية ضد شعب الجزائر. مع ذلك فقد لزم عدة اجتماعات لإقناعه بقيادة الحركة. واستطاع جوهو، قائد طيران الأقدام السوداء اقناعه اخيرا.

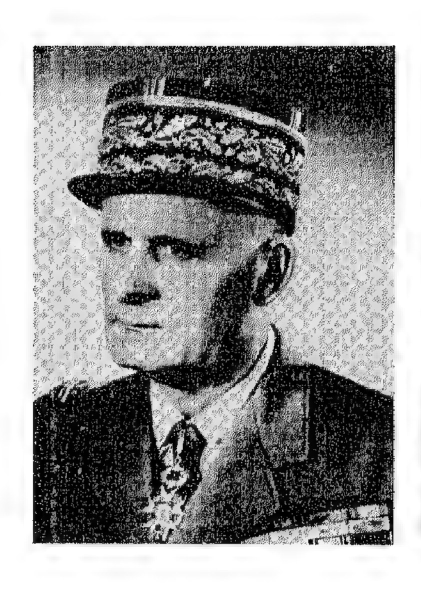
ضمائر مضطربة:

في شباط، كان لا بد من وضع اليد على الجيش لاستبدال الجنرال كريبان بالجنرال غامبييز، الذي كان ديغوليا فكرس وقته لحل قضايا العسكريين الوجدانية، مسهلا بذلك مهمة المندوب الجنرال موران.

وفي مناخ ينقصه الصفاء، تحاشى غامبييز ان يجبه الخواطر المشغولة باشاعات وقف اطلاق النار، واعادة الوحدات الى الوطن أو الى المانيا.

غير أن وضع اليد على الجيش سهل عدم الرقابة الدقيقة، التي استغلها المتآمرون. فسربوا اوامر تفيد مخططهم: في النقليات، والاجازات، وتسريب اخبار من اصدقاء خارج الجزائر. وحدث حدثان مهمان. ففي ٣٠آذار اعلنت تونس وباريس بدء محادثات في ايفيان.





الجنرالات الأربعة:
اندريه زيلر — موريس شال
ادموند جوهو — راوول سالان

بعد ايام صرح جان لارتيغي للصحافة عزم جبهة تحرير الجزائر ان تفيد من وقف اطلاق النار لتأخذ مبادرة الهجوم. وكان ذلك قاسيا على اناس فقدوا ذويهم في المعركة، مما أثار غضبهم.

كان من الصعب تحاشي الصدمة. وكان اثر ذلك شديدا على وحدتين: كوماندوس الطيران والفرقة الأولى. وكانت العلاقات بين الجنود والضباط وبين الضباط والقادة الكبار حميمة بسبب المعارك التي خاضوها معا. لذلك لم يصعب اشتراك الوحدتين في المؤامرة. ووضعتا تحت امرة المقدم ايلي دونوا دوسان مارك. وانضم للعملية الفرقة السابعة والعشرون، بقيادة بوغا، والفرقة الأولى وقائدها العقيد شابل، والرابعة وقائدها العقيد ماسولو، والثامنة عشرة بقيادة العقيد لوكونت، والثانية، وقائدها العقيد كويتغوردون والخامسة. ليست هذه كل الجيش ولكن العقيد بروزيي، وفرقة سيدي بلعباس، سينضمان. أما شال فيبدو أنه كان على قناعة من أن اسمه وحده كان كافيا لضم جميع العناصر.

لقد اراد شال، وهو على رأس المجلس الأعلى في الجزائر، والى جانبه جوهو وزيلر وسالان ان يحقق نصرا اكيدا خلال ثلاثة اشهر، على دوغول لاجباره على الاحتفاظ بالجزائر بعد اخضاعها نهائيا.

وقد علم شال من دوبلينيير ان حركة معارضة مدنية نشأت في فرنسا ضد دوغول. واذا كان تأثير لجنة فانسين على الرأي العام ضعيفا، فان الاتصالات مع الأوساط السياسية المستقلة، والمركزية، والراديكالية، والصناعية والزراعية، كانت مريحة وواعدة. وسرت اشاعات ان اتفاقا تم على القيام بالحركة.

من جهة ثانية اصبحت القضية الجزائرية عالمية، فقد نشأت لجبهة التحرير الجزائرية تحالفات وعلاقات واسعة على الصعيد العالمي. كما ان بعض الأوساط العالمية كانت تتحرك سرا لايجاد مخرج، ذلك انها كانت معنية



المظليون والفرقتان: الرابعة عشرة، الثامنة عشرة... يوم ٢٢ نيسان ١٩٦١

بثروات الجزائر (خاصة البترولية)، وقيام قوة في الجزائر منفصلة عن فرنسا، قد يغير الكثير من المواقف. فاسبانيا وعدت «الانقلابيين» بالمساعدة، وجوها نسبورغ اغدقت الوعود.

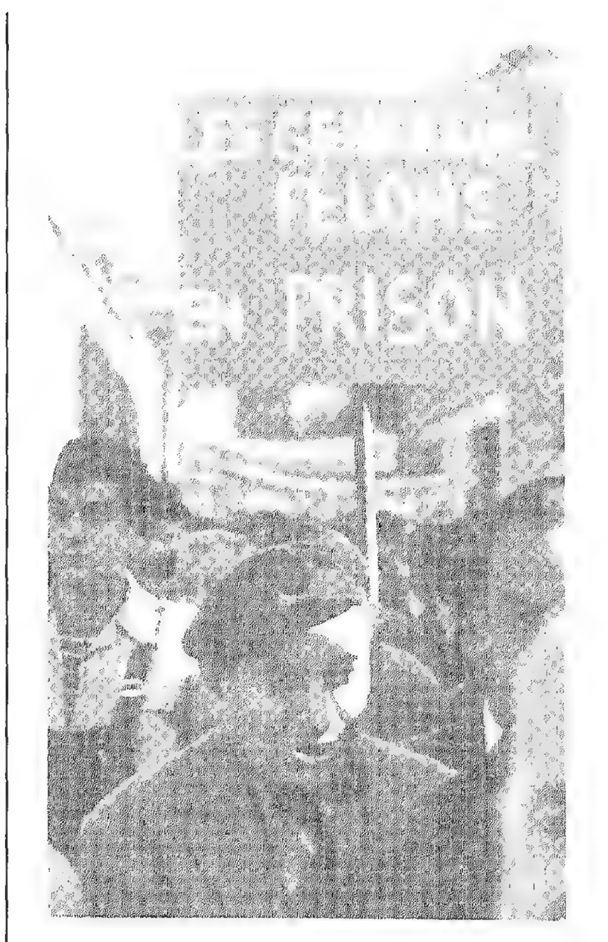
الوفاء بالقسم:

حين دعا رئيس الدولة في ١١ نيسان الى تحالف فرنسا «والجزائر المستقلة» ازال اخر شكوك الجنرال شال.

وكرد على الجنرال دوغول، اكد شال في ٢٢نيسان، من الاذاعة، انه موجود في الجزائر ليفي بقسمه. وفي الليل سقطت كل الاهداف دون ان تستطيع السلطة اعداد اية مقاومة. وكان المخطط قد درسه وراجعه شال نفسه، فيما حرسه لا يعلمون شيئا عما يحدث.

لقد اتخذ عدة احتياطات تحسبا للمفاجآت، ومنها ان طائرته حطت في غير المكان المتوقع. كذلك رسا الجنرال غاردي والعقيد غودار في مرفأ غير الذي انبأ رفاقهما عنه.

وبمبادرة من غودار، رئيس الأمن السابق في الجزائر، والنقيب بايت سقطت المدينة خلال ساعتين وسلمت لقادة روبان الأربعة وشركات سان مارك الثلاث. واوقف في القصر الصيفي موران، اوبير، بورون وزير النقل. وفي حصن الامبراطور، اوقف مدير البوليس، وفي ثكنة بيليسيي أوقف الجنرال ميزينه واركانه. واعتقل من الشارع الجنرال غامبييز والجنرال سان هيليي. وحوصرت الموانىء جميعا وقطعت الاتصالات الهاتفية. ولكن موران استعمل خطا لاسلكيا ليعلم باريس والمفتشين العاملين في الادارة، والمفوضين في وهران وقسنطينة ومحافظي منطقة الجزائر. الساعة الثالثة



مظاهرات مضادة للانقلاب

صباحا كان كل شيء قد نفذ.

رفض وتردد:

مضى شال، يساعده زيلر وغـاردي يتصل بالضباط ليقنعهم بصواب الحركة، وتلقى تأييد قطعات الجيش في وهـران وقسنـطينـة. امـا الجنرال غورو فأيّد على الهاتف ثم تراجع في النـهـار، واعلن ذلك عـلى النـاس مسـاء. ولم يتحالف مع زيلر الا في الغـد. ولكن احد ضباط غورو لم يشـايعه هـو الجنرال بـويي. فكلف غاردي باقناعه، أو باعتقاله، ولكن بويي كـان قد انتقـل الى تلمسان. كمـا ان بعض القـطعات اعتـرضت على العمليـة، مما عقـد الموقف. كما ان الاتصالات بالصف الثاني من القيادات خيبت امل المتآمرين. وقد شعر شال بمـواقف محدثيـه على الهـاتف الذين كـانـوا يكـرهون محـاولات اغداق الوعـود، بمناصب وغيره. كما ان بعض الجنـرالات (ميزونـروج مثلا) تمارضوا او زعموا انهم متغيبون وامروا مسـاعديهم بـالرد عـلى شـال. وكـانت بعض الأجـوبة متحفـظة، او متهمـة: «من وراءكم؟ والاجانب؟ ما هو مخططكم؟».

مساء السبت ٢٢، لم يكن البيان مقنعـا. وتوالت الامال والخيبات. جنرال يؤيد، واخـر يرفض، وقطعـة تستسلم، ثم يقوم منهـا من يسيطر على الوضع ويعتقل اعوان المتآمرين.

لم يتطور الوضع غداة الانقلاب. كثيـرون كانوا يؤيدون الانقلابيين ولكنهم كانوا مترددين. وادرك شال ان الموقف ليس سهلا، خاصة وان بعض الجنـرالات المعروفـين رفضوا الحـركـة رفضا قاطعا ومنهم: فوركيه آيوريه.

وكـان على شـال ان يحاول عبر التلفون، وسيلته الوحيدة، اقناع المترددين «والمنتظرين»، يساعده عدد قليل في غرفة عملياته.

اما زيلر فكلف بمهمة صعبـة وهي تـأمين المؤن لعشرة ملايين من السكان وخمسمائة الف جندي.

قدم سالان وسوزيني من اسبانيا يوم الاحد، فلم يبدآ اسهامهما في العمليات الا بعد تكتم شـديد. وقضى كثيـرون الوقت عـلى الطرقـات للاتصـال بهذه القـطعة او تلك، وكـان نقص الرجال العاملين واضحا ومعرقلا. لذلك احتاج اقناع الاخرين الى كبير وقت. مما حدا ببعض القادة مثل كوستو وبواسيو الى التشاؤم. كما ان بعضهم تخـلى عن المتـآمرين في اللحـظة الاخيرة لانهم كانوا راغبين في انقلاب على ارض فرنسا.

دوغول يرد:

في بـاريس، اطلع ميشيل دوبـري الرئيس دوغـول على احـداث الجزائـر الخطيـرة، ليل ٢٢ نيسان. وبرباطة جاش بـدأ دوغول يتخـذ الاحتياطات الضرورية لتحطيم المؤامرة. وحدد خطابه المتلفز في ٢٣، طبيعة رده على المؤامرة، واعلن حالة الطوارىء وتطبيق البند السادس عشر من الدستـور الذي يعطي كـل السلطات لرئيس الجمهورية. ووصل وزير الجزائر لوي


سماع الأنباء الأخيرة


الفشل الأخير ــ اعتقال زيلر

جوكس الى مسرح الاحداث، يرافقه رئيس الاركان الجنرال اوليي، ليحل مؤقتا محل غامبييز.

كان دوغول على قناعة من ان معظم قوات الطيران وقطعات الجيش لن تؤيد الانقلابيين، وان بعضهم سيمارس الرفض السلمي حتى لا تقوم مذابح بين الفرنسيين انفسهم. كذلك الامر بالقياس الى عدد كبير من الموظفين المخلصين لمؤسسات السلطة. ثم كان خطاب دوغول واضحا وحاسما، مما شجع هؤلاء على الوقوف في وجه المؤامرة، وعدم تنفيذ اي امر يصدر اليهم من المتآمرين الذين اعلن دوغول انهم سيقدمون الى المحكمة العسكرية. واوقف بعض الجنرالات كالجنرال فور. وفي الوقت ذاته حاول المتآمرين نقل تحركاتهم الى قلب فرنسا.

ولكن السلطة اتخذت المبادرة. فقد كانت العاصمة تتوقع غارة جوية. لذلك دعا ميشيل دوبري الى التطوع لمقاومة اية محاولة للانزال المظلي او الغارات. وامضى المتطوعون طوال الليل يراقبون. ولكن خوفهم لم يكن في محله، ذلك ان شال الذي لم يستطع جعل قوات الجزائر تلتف حوله، لم يكن قادرا على القيام برد سريع على تدابير دوغول.

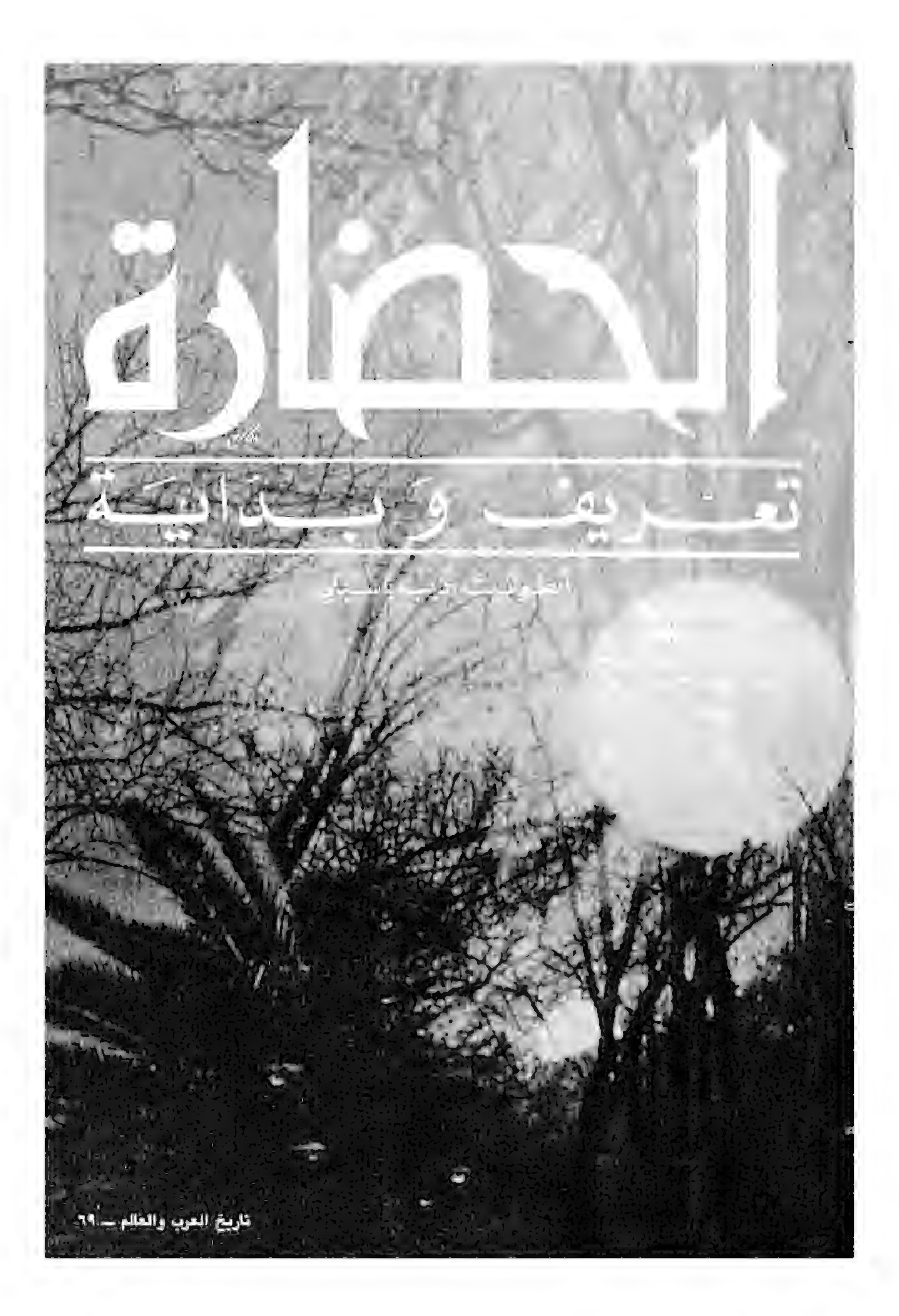
على عتبة اليوم الثالث، لم يبق شك لدى المتآمرين ان حظهم في النجاح قد ولى. فقد بدأ التمرد عليهم في الثكنات. وتخلى المظليون عن المعركة بعد تردد رؤسائهم، وعادوا الى مراكزهم. ورفض مظليو وهران الاستيلاء على قاعدة المرسى الكبير. ويئس الجمهور يأساً كبيراً، وبدا واضحا ان قوات الانقلابيين غير قادرة على تحقيق شيء. ولم يظهر الانقلابيون للجمهور الا الاثنين في الملعب، ولكن الميكروفونات كانت سيئة الى حد لم تسمع معه اصوات القادة.

وفشل الانقلاب. وكلف الجنرال هوبلو «بتنقية» الجيش، فحلت فرق من الجيش بكاملها وسجن قادتها (الاولى، الرابعة عشرة، الثامنة عشرة). وطلب من رجال الاركان جميعا ان يقدموا اعترافا كاملا مكتوبا بكل ما فعلوا خلال الساعات المائة السابقة. وزج شال وزيلر في سجن المجرمين.

ولم ينج افراد الادارة المدنية، مع انهم كانوا اقل تورطا في الانقلاب. فقد فرضت عليهم القيود ذاتها. فقد استدعي اربعة من كبار موظفي المفوضية، ونقل اخران. واعتقل ستة مفوضي شرطة، واوقف مئتا موظف، واربعمائة اتهموا بمساندة المتآمرين. وجمّد سبعة وعشرون مدعيا عاما، واثنا عشر رئيس بلدية. ومنعت الصحف الصادرة في الجزائر من الصدور. وقامت قوات الشرطة العسكرية بتفتيش دقيق في بعض المدن بحثا عن اسلحة بيعت او خبئت، وللقبض على كل اعضاء منظمة الجيش السري (O.A.S) التي شكلت بعد فشل الانقلاب. وضمت قادته، لتحول بالقوة دون توقيع الاتفاق بين جبهة التحرير والسلطات الفرنسية. ومن هؤلاء القادة (سالان، جوهو، غاردي، غودار، بروازا، غارد، فودري، سرجان، وديغلدر).

ولكن معركتهم كانت يائسة. ونفي معظمهم وسجن الاخرون. ونالت الجزائر استقلالها.

●


الحضارة
تعريف وبداية
تاريخ العرب والعالم ـ ٦٩

أولاً: مفهوم الحضارة.

عند دراسة حضارة أمة من الأمم، يتجه فكر الباحث إلى جوانب عديدة من حضارتها، وكتب حضارات الأمم المختلفة كثيرة، ومن كَتَبَ بهذا الخصوص كثيرون أيضاً، ولكنهم لا يتفقون على نهج واحد في تعريف الحضارة، ولا في أسلوب دراستها.

وقد وقف بعض المؤرخين والباحثين الكبار، الذين أصبحوا مصدراً أو مرجعاً بهذا الخصوص عند الدراسة التاريخية لهذا الموضوع لم يتخطوها.

وتتألف الحضارة من عناصر أربعة:

أولاً: الموارد الاقتصادية.

ثانياً: النظم السياسية.

ثالثاً: التقاليد الخلقية.

رابعاً: العلوم والفنون.

يجدر بنا أن نوضح إنه قد تستعمل كلمة ثقافة للتعبير عن الحضارة أحياناً، ولو أن الفرق شاسع بين المعنيين، وهذا المعنى المادي البسيط (الحضارة) أصبح أصلاً لكل ما تعنيه هذه الكلمة.

والمجتمع هو القاعدة التي تستند إليه الحضارة، فليست هناك حضارة في فراغ، وكل عناصر الحضارة مرتبطة بالمجتمع فليس هناك من ابداع في أي مجال إلا وهو موجه إلى المجتمع.

وقد نشأت الحضارات المتواضعة في بادىء الأمر بتواضع المجتمعات وبدائيتها. ولم تكن الحضارة مختصة بجنس واحد من الأجناس ولا نتيجة حتمية للبيئة، فالبيئات المتشابهة ليس من الضروري أن تنتج حضارات متشابهة.

وليست هي ثمرة مباشرة للظروف الاقتصادية، بل هي نتاج عوامل وظروف متعددة تتجمع معاً لتخلق تلك الحضارة.

ومن هذه العوامل، البيئة والدين، الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية، الاحتكاك بالخارج والتأثر به والتأثير فيه، وغيرها كثير، من هذه العوامل مجتمعة تولد الحضارات.



جيوب في اميركا اللاتينية لم تطأها الحضارة بعد

والحضارة بالأساس هي حضارة المدن قبل حضارة الدولة لأننا كما نعلم هناك في فجر التاريخ حكم المدينة، ولم تُعرف حضارة الدول إلا في عصر الامبراطوريات، وحضارة المدن (كأثينا مثلاً) عمت العالم أما حضارة الدول فقد بدأت تعم حضارتها وثقافتها وتنتشر تبعاً لانتشار نفوذها السياسي، فغزوات الاسكندر بدأت مع ما يسمى بالعصر الهلينستي، ومحاولته توحيد العالم في ظل حكومة واحدة هي الثقافة اليونانية، وقد يحصل العكس أيضاً ويسيطر المغلوبون بثقافتهم وحضارتهم على الغالبين (مثل تغلّب الحضارة اليونانية المغلوبة على الغزاة الرومان) أو كما تغلب العرب بثقافتهم على غُزاتهم من المغول.

ولكي يكتب للحضارة الاستمرار والحياة لا بد أن تُعطي وتأخذ: تؤثر وتتأثر.

أما الثقافة فهي تشمل ألواناً من عناصر متعددة، وهذه العناصر هي **ثقافة الفرد، وثقافة الطبقة وثقافة الأمة.**

فالفرد يكون بالعادة حاملاً لجزء من ثقافة أمته ولكن ليس من الضروري أن يكون كل مثقف ممثلاً لثقافة بلاده، فقد يكون مثقفاً بثقافة أمة أخرى، والطبقة تنشأ عادة في



رسوم جدرانية من افريقيا الغربية (٤٥٠٠ق.م.) تمثل السلوك الانساني اليومي في أشكال مختلفة

المجتمعات الطبقية التي يتاح لها امكانية ثقافية لا تتاح لسواها كما في أوروبة في العصر الوسيط. فقد كانت الفنون والآداب تدور في طبقات معينة، وعندما قامت في العصور الحديثة نزلت بالفن والآداب إلى متناول الشعوب.

وجاءت وسائل الأعلام الحديث لتنقل الثقافة وتوفرها لكافة طالبيها من أبناء الشعوب.

أما ثقافة الأمة: فهي الثقافة التي لا تندثر مطلقاً وقد يصل خبرها إلى أقصى الأرض.

ان هذه الثقافة كانت النواة الأولى والصورة المشرقة لحضارة العالم في القرون الوسطى والتي تسمّى بالقرون المظلمة في أوروبا.

لقد أتيح للعرب أن ينشئوا دولة امتدت من حدود الصين إلى حدود الأطلسي، ضمت شعوباً متعددة الأجناس واللغات والحضارات، فأية حضارة وأية ثقافة قبل الثقافة والحضارة العربية نجحت في جمع شعوب مختلفة اللغات والعادات والحضارات في ظل كيان ثقافي واحد مترابط ومثل عليا؟ إنها الحضارة الوحيدة التي حفظت ما وصل إليها من حضارات وثقافات العالم القديم وأضافت إليه المعطيات الجديدة، بخاصة بعد انتشار الدين الاسلامي الذي أسهم في صهرها وإغنائها، فكانت حضارة اسلامية عربية متوثبة شكّلت قاعدة أساسية للحضارة الحديثة.

ثانياً: عوامل الحضارة.

تبدأ الحضارة بانتهاء قلق الانسان، فعند تحرر الانسان من الخوف، تتحرر في نفسه دوافع الابداع والاعمار.

والحضارة مشروطة بطائفة من العوامل التي تحثّ خطاها أو تعوق مسيرها وهي تتألف من:

١ ـ العوامل الجيولوجية.

(أ) الحضارة مرحلة متوسطة بين عصرين من جليد، فتيار الجليد قد يعاود الأرض في أي وقت ويغمرها من جديد، يغمر منشآت الانسان.

(ب) الزلازل ربما تحركت حركة خفيفة

فتبتلع في جوفها كل ما بناه الانسان في غفلة عن هذا المارد الجبار.

٢ ــ العوامل الجغرافية.

تعارف العالم على أن الحضارات تنشأ في أودية الأنهار أو فوق التلال المشرفة على البحار.

واستبعد في الأساس نشوء حضارات في الصحاري المقفرة الفقيرة، وهذا حال الجزيرة العربية ولكن الواقع غير ذلك، فهذه الجزيرة المترامية الأطراف قد خضعت لعوامل مختلفة من التأثيرات التاريخية والحضارية.

فبالنسبة لمكانها الجغرافي كانت مسرحاً للهجرات من الشمال إلى الجنوب ومع تلك الهجرات كانت هجرة الثقافة والحضارة التي حملها معهم المهاجرون، وكانت مسرحاً لأسرات حاكمة مستقرة دام حكمها قروناً طويلة، وكانت لها آثارها التاريخية والحضارية والثقافية. ولو أن الجزيرة العربية كانت فقيرة بالزراعة لفقرها للأمطار الآ أن سواحلها كانت تشهد حضارة كبيرة وهيأت لها فرصة الاتصال بالعالم الخارجي، إذ كانت ترد إليها وتخرج منها أفواج كثيرة من البشر على شكل تجار أو بدو رحل ينقلون معهم في ايابهم وذهابهم الثقافة والحضارة.

ودولة اليمن التي عاشت على أطراف الجزيرة العربية وفي جنوبها والتي ازدهرت بها ثلاث حضارات من الحضارات القديمة وهي الدولة المعينية (١٢٠٠ ــ ٦٥٠ق.م) ودولة سبأ وكانت مجاورة للمعينية وعاصرتها (٩٥٠ ــ ١١٥ ق.م) وسد مأرب في عاصمة سبأ هو دليل كاف لفن العمارة والهندسة في تلك الأجيال السحيقة، وقد اعتبر سدها من احدى العجائب وقد ورد ذكره في القرآن الكريم. أما قصور الدولة السبئية فقد كانت مجال غزل لكثير من المؤرخين.

ثم قامت الدولة الحميرية (١١٥ق.م ــ ٥٢٥ ب.م) وورثت الدولتين السابقتين وكانت دولة حربية إلى جانب أمجادها العمرانية، وأنشأت علاقات تجارية وثقافية بينها وبين روما ثم بيزنطة وايران والحبشة جيرانها ولكل من هؤلاء ثقافته وحضارته.

وقد عرفت في جنوب الجزيرة العربية أبجدية تختلف عن أبجدية شمالها، إلا أن تغلغل الأبجدية الشمالية كان أسرع لظهور الاسلام بها.

وإذا ما انتقلنا من الجنوب إلى الشمال نجد حضارة اللخميين بالحيرة شمال شرقي الجزيرة وعلى حدود فارس صاحبة الحضارة العريقة وقد اتخذ الفرس اللخميين حراساً لحدودهم ضد البدو وغاراتهم وقد قدم اللخميون الحضارة والثقافة الفارسية إلى العرب عبر احتكاكهم التجاري.

أما في الشمال الغربي فهناك دولة الغساسنة وكانت أيضاً حارسة لحدود الدولة البيزنطية ضد غارات البدو وقد نقل الغساسنة للعرب حضارة وثقافة الاغريق بواسطة التجارة واحتكاك العرب المباشر باليونان التي جمعت إلى حضارتها حضارة الرومان.

فهاتان الدولتان اللتان قامتا على الحدود الشرقية والغربية لشمال الجزيرة ساهمتا أيضاً بنقل حضارة وثقافة أكبر دولتين في ذلك الوقت على مسرح التاريخ إلى الجزيرة العربية.

والبتراء في الشمال التي قدت من الصخر دليلاً على حضارتها وما بقي بها من أنقاض هياكل ينم على أنها كانت محجة يحج إليها العرب لحين ظهور الاسلام.

ومن المدن الصحراوية أيضاً والتي كانت ملتقى للقوافل التجارية دولة تدمر في الشمال أيضاً وقد شهدت عصر ازدهارها أبان القرن الأول الميلادي وفي عام ٢٧٠ أصبحت مستعمرة رومانية.

نخلص إلى القول أن هذه العوامل الحضارية ساعدت على قيام حضارة في وسط الجزيرة العربية وأطعمتها بحضارة جيرانها من دول كبيرة ومما حوت تلك الدول من ثقافة لشعوب مختلفة ضمنها.

وقد حدد المؤرخون عوامل جغرافية أخرى لا تهيىء للمدنية أسبابها. مثلاً:

١ ــ الحرارة الاستوائية وما تحتويه من طفيليات مما يمنع المدنية عن شعوب تلك المناطق لما يسودهم من خمول وأمراض وما يصاحب ذلك من نضوج مبكر وانحلال خلقي غريزي.



لوحة تمثل «يوم عمل» لدى عائلة بدائية

٢ ـــ الجفاف وقلت الطعام لايدعون الناس يفكرون بالكماليات، فالعيش أبدى من الفن فلا استمرارية والعوامل الجغرافية مساعدة على خلق الحضارة ولكنها لا تضاهي العوامل الاقتصادية بأهميتها.

٣ ـــ العوامل الاقتصادية.

الزراعة أهم ركن من أركان العوامل الاقتصادية وهي ثورة ثقافية ضد الجهل والتخلف.

قلنا أن الاستقرار يولد الحضارة.

والزراعة هي الحياة المستقرة

وعند توفر الماء والطعام، يستطيع الانسان أن يبني دوره ومعابده ويستأنس الحيوان ويشحذ تفكيره في اختراع الآلات التي تساعده على شق الأرض وتساهم معه في حفظ حياته أمداً طويلاً، وهذه الاكتشافات البدائية تورث للأجيال المقبلة بأمانة.

إن الثقافة ترتبط بالزراعة كإرتباط المَدَنِيَة بالمدينة، فالمَدَنِية هي رقة المعاملة والتهذيب ففي المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار وبتلاقي طرق التجارة تتلاقح العقول ويرهف الذكاء ويصبح مهيئاً للخلق والابداع.

٤ ـــ العوامل الجنسية.

لا تتوقف المَدَنِية على جنس معين، فليس الجنس العظيم يصنع المَدَنِية بل المَدَنِيَة العظيمة هي التي تخلق الشعب العظيم، فالظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق الثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه، فالظروف المادية هي التي تساعد على خلق المَدَنِيَة.

٥ ـــ العوامل النفسية.

لا بد أن يسود الناس نظام سياسي، ينظم حياتهم ويصونها، ولا بد لهم من عقائد دينية وبعض الايمان بما هو كائن وراء الطبيعة، ولكل

بدعة قديمة، عادات وتقاليد وأخلاق تربط الناس بعضهم ببعض، وقوانين تنظم حياة المجتمع.

وهذه مجتمعة هي سبيل لتحويل الانسان من مرحلة الحيوان في تعامله إلى طور أرقى.

ثالثاً: تطور الانسان.

١ ــ ابتدأت حياة الانسان بالصيد وكان الصيد عند الصائد والمصيد معركة تتعلق بالحياة أو الموت، فالصيد كان طلباً للقوت، ومن ثم أصبح حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة، وما يزال الانسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياة حتى سيطر على حيوانات الغابة كلها.

٢ ــ وتطورت انسانية الانسان حتى ترقت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأعني بها حياة الرعي، التي اقتضت استئناس الحيوان، ولا ندري تاريخاً محدداً أو زمناً محدداً لاستئناس الحيوان ولكنه أتى وبصورة عفوية بعد الصيد ويغلب الظن أن استئناس الحيوان جاء وفق لعبة عفوية بأن يصحب الصياد معه إلى داره صغار الحيوانات ليلهو بها أطفاله.

٣ ــ وشاركت المرأة حياة النضال مع زوجها وكانت مهمتها الاعتناء بالأطفال وشؤون البيت وطهو الطعام، وعلى يد المرأة جاء أكبر كشف اقتصادي بين تلك الكشوفات وهو الزراعة، فبينما الرجل بصيده فاذا بها هي تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ حيث مسكنها.

واختلف المؤرخون في تحديد تاريخ صحيح لزمن الزراعة أو لزمن أي منطقة عرفت الزراعة قبل الأخرى، فهناك فئة تقول أن تاريخ الزراعة يعود إلى ٥٠٠٠ قبل الميلاد وأول منطقة عرفته هي وادي الرافدين، والفريق الآخر ينسب الزراعة إلى وادي النيل.

بعد معرفة الزراعة جاءت معرفة الفلاحة تتمة لها، واستعمل بها في بادىء الأمر العصا لقلب التربة ومن ثم الفأس، وباستعمال الفأس عرف الحديد في صناعة الأدوات.

ومع طور الزراعة عرف الانسان السكينة والاطمئنان إلى الغد الذي كان يقلقه.

وبقي الصيد صناعة الرجل والزراعة صناعة المرأة.



درج بدائي يصل الأرض بالكهف

وابتدأت مع الزراعة عملية حفظ الأكل أو اختزانه.

وعملية الطهو مرت بمراحل كثيرة من التجارب، فقد واصل الانسان الأول تجاربه على مزج الحبوب والنباتات مع اللحوم والأسماك أجيالاً كثيرة حتى وصل إلى استقصاء الأفضل والمفيد للانسان في عملية استمراره بالحياة والتطور.

اكتشاف النار

لئن بدأت انسانية الانسان بالكلام، وبدأت المدنية بالزراعة، فقد بدأت الصناعة بالنار، والنار ليست من اختراع الانسان كما يقال فحسب بل أيضاً من اختراع الطبيعة، باحتكاك أوراق الشجر أو غصونها أو بلمعة من البرق أو باندماج شاءته المصادفة لبعض المواد الكيماوية.

واستعملت النار في بادىء الأمر لاخافة الحيوانات ثم للتدفئة ومن ثم لتليين المعادن.

وبلغت النار درجة المعجزات عند الانسان الأول حتى أنه أخذها الهاً له وتعبد لها، وأقام لها الحفلات التعبدية وجعل منها مركزاً لحياته وبيته وموقداً لا تنطفىء ناره مطلقاً.

وتعلم الانسان التقليد من الحيوانات، فقد شاهد القرد يكسر جوز الهند ومحار البحر بالحجارة، ورأى كلاب البحر تبني لنفسها السدود، والطير يبني الأعشاش، والشمبانزي يقيم بيوتاً شبيهة بما يقيم الانسان من أكواخ، فحسدها لصلابة مخالبها ومتانة أجسادها، فأخذ يعد لنفسه الأدوات التي تساعده على تلك الأعمال.

يعني هذا أن مدنية الانسان مستمدة من غريزة الحيوان الطبيعية.

ولم يبق أمام الانسان الأول إلا ثلاث خطوات في طريق التطور ليتم له ضروريات المدنية الاقتصادية كلها.

١ ــ آلات النقل.
٢ ــ عملية التجارة.
٣ ــ التبادل.

١ ــ آلات النقل:

الانسان نفسه، الحيوان، مراكب للأنهر.

(أ) استغل الانسان قوته في حمل أثقاله في بادىء الأمر ومن ثم استغل زوجته في حمل متاعه أينما حل.

(ب) تعرف على قوة الحيوانات في جرّ أشيائه ومن ثم ابتكر شرائح من الأشجار يضع عليها أدواته ويجرها بواسطة حيوان ما.

(ج) ومن ثم قطع جذوع الشجر ووضعها تحت هذه الشرائح وكأنها عجلات فكانت صورة بدائية للعربة التي يجرها الحمار أو الحصان فيما بعد.

ووقف حائراً أمام مجاري المياه والبحيرات الضحلة وشاهد كيف يطفو على وجه مائها نشرات الخشب، فربط الأغصان ببعضها البعض وصنع منها طوافة صغيرة ليجتاز بها المياه، ومن ثم قاده تفكيره إلى حفر جذع الشجر الكبير وتجويفه ليصنع منها ناقلة له في الأنهار فجاءت صورة للزورق في وقتنا الحاضر.

وشق لنفسه الطرق البرية عبر المروج والتلال بواسطة علامات وضعها لنفسه واستدل بالنجوم لمعرفة طريقه المجهولة.

٢ ــ عملية التجارة والتبادل:

حمل الانسان الأول مصنوعاته عبر الطرق والمسالك التي حددها لنفسه واهتدى إلى الطرق التي لم يطرقها قبلاً بالنجوم، وراح يطوف على جيرانه يعطيهم ما فاض عنه ويأخذ منهم ما هو بحاجة إليه، لأن الثروة الطبيعية ليست متساوية التوزيع في الأرض وهذا التبادل هو أصل التجارة.

ونشأ نظام التبادل رويداً رويداً وأقيمت مراكز تجارية بغير نظام في بادىء الأمر.

ومن ثم أصبح لكل صنف من الأشياء سعر يقابله من صنف آخر.

فأربع بنادق تساوي جواداً.
وثمانية أمهر تساوي زوجة...

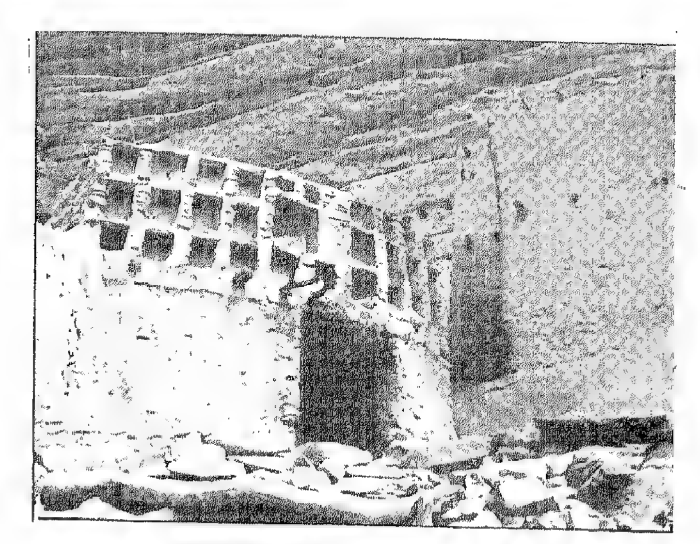
التنظيم الاقتصادي البدائي:

الأرض في كل الشعوب البدائية ملك للمجتمع بأسره فجماعة يحرثونها وجماعة يقتسمون الثمار، وهي كالهواء والماء لا يمكن أن تحصر ملكيتها بإنسان معين.

وشيوعية القوت معروفة فمن يملك طعاماً يتقاسمه مع من لا يملك وكان من المألوف أن تستعين الجماعات التي يحل بها القحط بجيرانها، حتى الجائع ما عليه إلا أن يسأل فيجاب طلبه بالعطاء ولو بقدر يسير، ولم تعرف كلمة (ملكي وملكك) إلا مع دخول المدنية إلى تلك الشعوب وقد صنعوها بأيديهم فيما بعد.

إلا أن هذه الشيوعية ماتت عقب الشعور بالاتكال على الغير، فالنشيط لا يصيبه من ثمرات الأرض إلا نصيب الخامل منها، لذلك خمد الشعور بالنشاط والهمة عند الجماعة، وبموت هذا الشعور اندثرت شيوعية الأرض عند البدائيين.

وبدلاً من أن تكون الأرض ملكاً للمجتمع، أصبحت ملكاً لبعض الأفراد، وبدلاً من أن يتمتع الانسان الأول بحريته في استغلال الأرض لحسابه، أصبح عبداً مقيداً باستغلالها لحساب الغير.


بيت جماعي لدى قبيلة افريقية

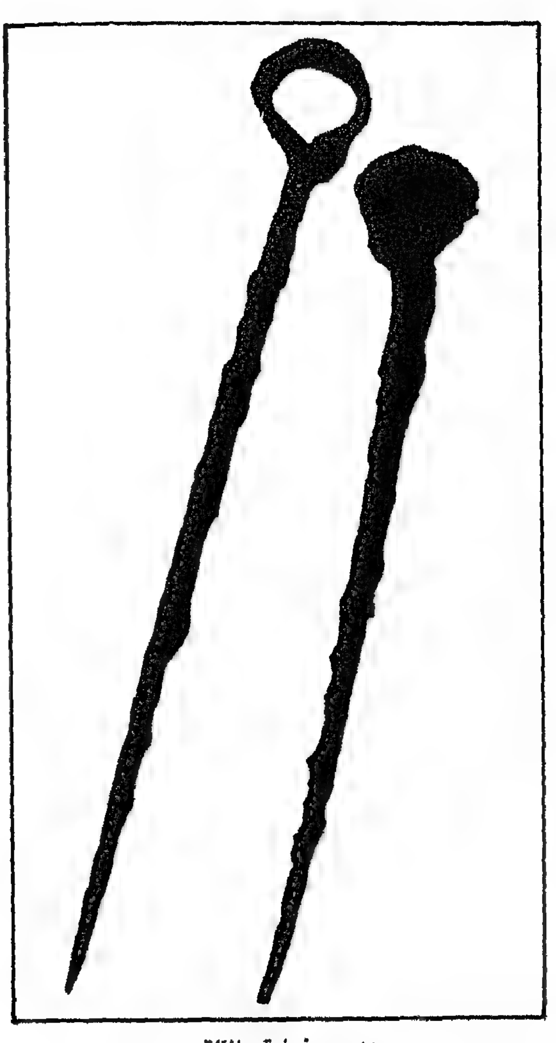
وفكرة ملكية الأرض برزت للوجود مع بروز فكرة العائلة الأبوية، وتتركز هذه السلطة في أكبر الذكور سناً، ومن ثم تركزت في أيدي الأفراد، وكانوا يدافعون عن وجودهم بقوة مما ثبت هذه البدعة، وجعلها مجالاً للاعتراف بها مع مرور الزمن.

أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم هي القبيلة، والقبيلة جماعة من البطون (الأسرات) ترتبط بأواصر القربى والمصاهرة، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوع ولها طوطم مشترك، وقوانين معينة وعادات وتقاليد موحدة، ومن ثم العشيرة وهي الصورة الثانية نحو تكوين المجتمع.

والعشيرة هي اجتماع أكبر عدد من القبائل ولها مجلس يمثل برؤساء القبائل وكان يسمى (مجلس العشيرة) وهو صورة مصغرة للحياة البرلمانية في وقتنا الحاضر، ومن هذا نستخلص بأن الديمقراطية ليست من مزايا عصرنا هذا بل من مزايا العصور البدائية.

والحروب هي التي تخلق الرئيس والملك والدولة، ويعود هؤلاء ليخلقوا الحرب. ومن رئيس العشيرة، إلى رئيس دولة، تطور الحكم ومر في مراحل عديدة حتى وصل إلى الصورة التي نراها اليوم.

ندرك بأن سبب الحروب وجذورها عمل اقتصادي بحت، فالبدائي كان يقاتل من أجل الصيد والراعي يقاتل في سبيل المراعي الجيدة، والمزارع يقاتل للاستيلاء على التربة العذراء الغنية، وقليلاً ما يحارب هؤلاء وأولئك من أجل عقيدة أو دين، حتى القتل كان له عندهم أوقات وفي هذا الوقت من الأيام والأسابيع أو الشهور لا يجوز القتل بها، وحددوا مواقع لا يجوز أن تتعرض للاعتداء فكانت حروب القبائل ميدانها خارج حدود القبيلة وبعيدة عن مساكن المدنين.


بدء حضارة «الآلة»

ومن هذه الحروب عرف الرق، فقد كانت الغارات تنتهي باسترقاق أكبر عدد ممكن من الأعداء ولا يُفــرّق بين الرجل والمرأة والطفل، والكل ينتج والكل يسترق ولكل منهم وظيفته.

مصادر الدين الأولى:

أول البوادر لوجود الآلهة هو الخوف من الموت، من هنا لم يصدق الانسان الأول أن

الموت ظاهرة طبيعية، وعزى هذا الفعل إلى الكائنات الخارقة للطبيعة، ففي القديم عزا الانسان الأول الموت إلى خطأ من أخطاء الآلهة ونسج حول هذا الموضوع الأساطيروالخرافات، حتى أن بعض الأجناس البشرية كانت تترك المكان الذي يكون به الميت لأن ملك الموت جاءه فيه، وأجناس أخرى كانت تخرج الميت من ثقب في كوخها ولا تخرجه من الباب وتدور به حول الكوخ ثلاث مرات لكي تنسى الروح أين المدخل، وفي الشرق الأدنى كان أهل الميت يتركونه في الخلاء حتى تأكل الطيور لحمه ومن ثم يطلون العظام بمادة حمراء اللون ويحملونها إلى مكان معين من المنزل يحفرونه لها ويعمرون فوقها مصطبة.

أما عملية دفن الجثة فقد تعلموها من الحيوانات والطيور، بعد أن وقفوا حيارى أما الجثة ماذا يصنعون بها.

وتطورت العملية حتى بات يدفن مع الميت أشياؤه الخاصة في بادىء الأمر ومن ثم أصبحوا يدفنون معه ألوان الطعام والحبوب والماء والطيوب والثياب وغيرها الشيء الكثير، فقد بدأ عندهم التكهن بعودة الميت للحياة فيما بعد، وفكرة الخلود، ونرى أثر هذه الفكرة في الأديان السماوية.

وقف الانسان الأول حائراً أمام عدة عوامل منها الأشياء التي تأتي صدفة، ثم الأجرام الفضائية والليل والنهار والبرق والرعد والنار، كل العوامل الطبيعية وقف أمامها الانسان الأول مدهوشاً مفكراً باحثاً عن تعليل لها، فجاء تعليله الميتافيزيقي وهذه المرحلة هي المرحلة الوسيطة بين الايمان واللاإيمان.

وسمّى تلك الظواهر آلهة، فجعل الأغريق آله السماء هو أورانوس، وآله القمر سلين، وآله الأرض أجي، وآله البحر بوسيدون.

واستغرب الانسان الأول الأحلام فكان يقوم فزعاً إذا ما شاهد أحد الأموات وهو يدري أنه دفنه بيديه، وعلل هذه الظاهرة دون أن يدري كنهها إلى سلطة عليا تسيطر على الانسان، وعللها أيضاً بالروح التي تفارق الجسد النائم كمفارقتها جسد الميت، وفي الهند القديمة كتب (يوبانشاد) يقول:

«لا توقظن النائم أيقاظاً مفاجئاً عنيفاً، لأنه من أصعب الأمور علاجاً، أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها»(١).

هذه العوامل السابقة أقنعت الانسان بأن كل كائن حي له نفس أو حياة دفينة في أعماقه، يمكن أنفصالها أثناء المرض والنوم والموت، وليست الروح قاصرة على الانسان فقط بل أن لكل شيء روحاً.

من هنا كان تقديس الأشياء المبهمة بالنسبة للانسان الأول كالشمس والقمر والصواعق والبحار والنار ولا ندري أي من هذه القضايا كان مجال تقديسه الأول، وأغلب الظن كما قال الاغريق بأن أقدم الآلهة هي آلهة السماء والأرض وأننا نحن البشر من صنيع هاتين الآلهتين، ففي المساء تنطبق السماء على الأرض بحنان وعطف ليتفاعلا وقد أنجبا أبناء صورهم الأقدمون بصورة بشعة للغاية مبهمة الشكل والتكوين وأضافوا إليهم قوة غريبة ووضعوهم في مصاف آلهتهم وما عشتروت وأفروديت وفينس وأدونيس وأيزيس وايزوريس إلا صوراً متأخرة لآلهات الأرض الأولى.

وما الموت والبعث اللذان تكلمت عنهما الأساطير القديمة إلا استمرارية لحياة بين الخريف والشتاء والربيع والصيف.

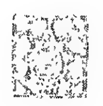
لم يخل من القدسية شيء ما وُجد على الأرض شوهد في الفضاء، فالقدسية شملت الحيوان والنبات والجوامد أيضاً.

ولكي يتبركوا بهذه المقدسات وضعوا آلهاً طوطماً يتعبدون له ونشيداً يترنمون به في صلاتهم...

هكذا تعرّف الانسان الحضارة.. بل هكذا بدأها...

---

(١) قصة الحضارة ــ ول ديورانت ــ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ج ــ ١ ــ ٢ ــ الطبعة الثالثة.



نصف قرن مع مخطوط واحد



بقلم: كراتشكوفسكي ترجمة: محمّد منير مرسي

هناك مخطوطات تشعر بنفسك أمامها وكأنك تلميذ لساحر قام في أسطورة باستدعاء الأرواح ثم لم يستطيع أن يسخرها، وعندما نتذكر هذه المخطوطات ونبدأ في الحديث عنها، تقوم سلسلة من الأشخاص، وتتداعى القرون البعيدة الماضية والأعوام القريبة التي عاصرتها، ومن هنا كان عليك أن تكتب عنها إما رواية وإما كتاباً كاملاً.

ولما كانت حياتنا لا تسمح بإعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد، وتراك بقوة الارادة تحاول جاهداً أن تطرد الأفكار التي تقف أمامك لا سيما ما يتعلق منها بمخطوطات أو موضوعات معينة تتعايش معها وتحتل مكانة عزيزة في نفسك. لكن أحياناً ما تكون المخطوطات عنيدة وتشعر بنفسك عاجزاً أمامها عندما تسألك بقوة واصرار: ومن بعدك سيواصل الحديث؟ هل أعطيناك الحق في أن تحمله معك إلى القبر؟

إن إرادات العلم الخالد على مر العصور تتسم بالجبرية، وأن أرادتك الشخصية تنحني أمامها في نهاية النهاية.

تمر في ذاكرتي المخطوطات القديمة التي كانت مرتبطة مع عالم معاصر مثل ارتباط مخطوط ديوان الأخطل الموجود في ليننجراد مع الصلحاني العالم البيروتي الدمشقي ناشر الديوان، ولقد سمعت عن هذا الناشر أول مرة من البارون «روزن»، عندما اقترح على أن أدرس معه مخطوط ديوان الأخطل الذي كان أساساً لتلك الطبعة.

وكان هذا المخطوط موجوداً آنذاك في القسم التعليمي بوزارة الخارجية بعد ان وصل إليه من مجموعة ايتالينسكي الذي كان طبيباً وسفيراً وعالم آثار قديمة وحفظ لنا مخطوطات تاريخ الدينوري.

وكان مخطوط ديوان الأخطل جوهرة مجموعة القسم التعليمي. وفي سنة ١٨٦٧ قام مهاجر عربي هو رزق الله حسونة مترجم كربللوف، الذي كان يعيش آنذاك في بطرسبرج بنقل

نسخة لنفسه من المخطوط، ووقعت النسخة في بيروت بعد عشرين عاماً وكان لها الفضل في اعطاء الدفعة الأولى للمطبعة وكان المستعرب الانجليزي ف. رايت قد فكر قبل هذا في نشر مخطوطنا لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. ولم يستطع رايت أن يحقق خطته فقد انتهى طريق حياته سنة ١٨٨٩.

وحقيقة أن «روزن» هو الذي كشف عن هذا المخطوط في فهرسه لكن قبل ذلك كان يعرف مؤرخنا الروسي أنه توجد لدى الأخطل أقدم إشارة تاريخية عند العرب عن الصقالبة في بيته الذي يقول فيه:

عوادل عوجا عن أناس كأنما
يزين بهم جمع الصقالبة الصهب

ولقد اتفق أنه في نفس السنة التي مات فيها رايت وقعت نسخة حسونة في بيروت، وهناك غيرت مجرى حياة عالم كبير ولغوي قدير وعارف دقيق بآثار أدبه القومي وأعني به الصلحاني، الذي أصدر طبعة من خمسة أجزاء «لألف ليلة وليلة»، وهي الطبعة الوحيدة التي انتشرت بين القراء.. ولقد تحول اهتمام الصلحاني إلى الأخطل أحد مواطني بلده الأقدمين، على أن الصعوبات لا سيما الفنية منها لم تكن بالقليلة فقد كان من غير الممكن آنذاك أن يرسل مخطوط بطرسبرج إلى بيروت.

ولم تكن قد شاعت بعد الصور الشمسية وأخيراً وبناء على اقتراح روزن، قام الصلحاني باعداد طبعة المخطوط على حسب نسخة حسونة، وأرسل صورة الطبعة إلى بطرسبرج حيث قارنها روزن مع أصل المخطوط وأضاف إليها كل الملاحظات التكميلية وخرجت الطبعة في بيروت بسرعة وكانت قد بدأت الطبعة سنة ١٨٩١، وبعد عام تم طبع أربعة أجزاء.

وبدأ العمل على اعداد الفهارس وجمع الاقتباسات من شتى المصادر وابتدأت تظهر مواد جديدة.

فقد وجد مخطوط في بغداد وآخر في اليمن وكلاهما في الحقيقة ناقص ومعيب ويتشكل من أوراق غير مسلسلة لكنهما يحملان الكثير من التفسيرات والتوضيحات الجديدة. وقد نشرهما الصلحاني في عامي ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ واستعان في ذلك بخدمات تقدم فن التصوير الزنكوغرافي. وقد عمل الصلحاني دون كلل لكن الأخطل وضع أمامه مشكلات جديدة وأخذ يجذبه بعيداً بعيداً بالجديد من المخطوطات.

وفي سنة ١٩١٤ سافر هذا الناشر إلى استانبول من أجل دراسة ديوان نقائض جرير والأخطل الذي كان موجوداً هناك. وكان اشتعال الحرب سبباً في تعطيل خطته لمدة طويلة.

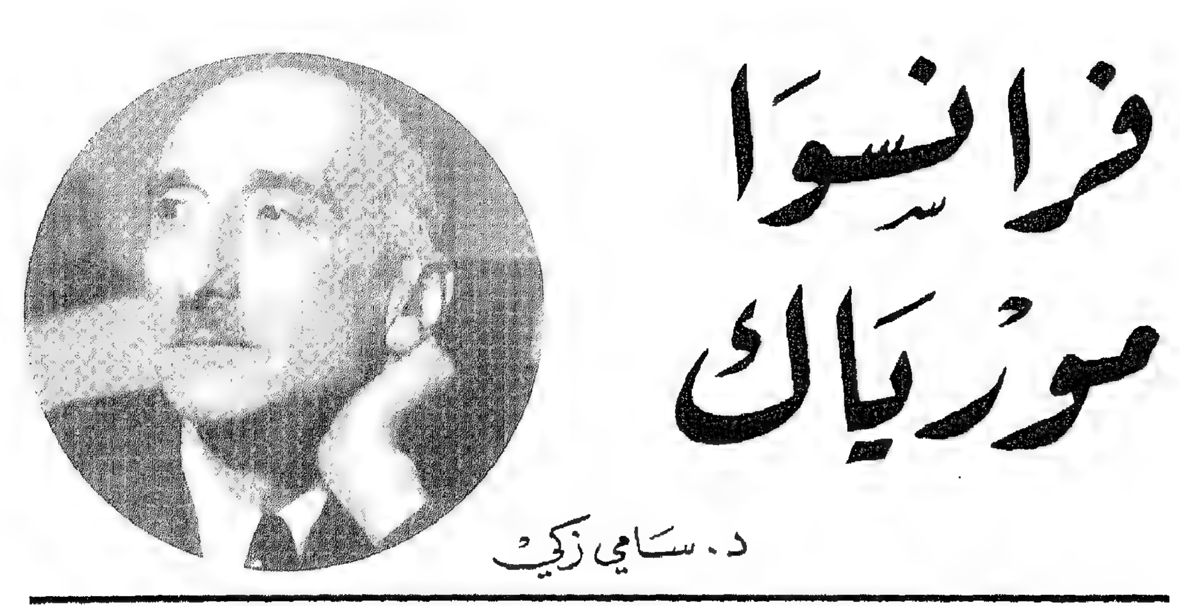
ولم يستطع الصلحاني أن يخرج طبعته عن ديوان استانبول إلا سنة ١٩٢٢ وبعد ثلاثة أعوام ظهر القسم الثاني من الجزء الخامس من ديوان الأخطل، ولكن لم ينته بهذا عمل الصلحاني عن الأخطل.

* * *

فقد حدث في احدى مقالاتي أنني أشرت بطريقة عابرة إلى مخطوط للأخطل اكتشفه في طهران صديقي الأصغر المستشرق في الفارسية راماسيكفتش الذي هلك سنة ١٩٤٢ أبان محاصرة ليننغراد. وبعدها بشهر تسلمت من الصلحاني خطاباً يطلب مني اخباره عن بعض التفصيلات الخاصة بالمخطوط الجديد. وفي نهاية سنة ١٩٣٨ فوجئت بوصول طبعة مخطوط طهران مع اهداء الناشر وكلمات رقيقة مؤثرة، وظهر أنه بعد خطابي بدأت جامعة بيروت محادثات عن بيع المخطوط مع صاحبه الطهراني، وامتدت المفاوضات الخاصة بثمنه مدة أربع سنوات لكن في النهاية في سنة ١٩٣٧ رحل المخطوط من طهران إلى بيروت.

وظهر أن مخطوط طهران أقدم المخطوطات المعروفة حتى الآن عن ديوان الأخطل.

وكان ما أثار تعجبي في هذه الطبعة الجديدة للصلحاني هو أن مخطوط طهران بالذات كان قد درسه التبريزي العالم اللغوي عندما كان له من العمر ٨٠ عاماً. وهكذا ظهر أن العالم ضيق بالناس الذين تلتقي معهم صدفة وعلى غير انتظار بل إنك لو عشت طويلاً مع المخطوطات فانك كثيراً ما تلاقي الصديق القديم في موقف جديد. ●



فرانسوا مورياك

د. سامي زكي

لمحات من حياته وفنه

مات كاتب فرنسا الكبير فرنسوا مورياك (عام ١٩٥٧) وانبرت الأقلام تكتب عنه، وتستعيد مجداً طوته السنون ولم يطوه النسيان. وهذا حال الكثير في عالم الفن والأدب، عالم حي يتجدد دوماً، ينظر إلى الأمام، ولا يلتفت إلا هنيهة إلى الوراء عندما ينطفىء اسم مرموق. وها نحن ذا نخضع لهذه القاعدة العامة، ونقدم لمحات سريعة عن حياة مورياك وفنه، راجين أن نحمل من لم يقرأ له بعد على التعرف على وجه من أبرز الوجوه التي لمعت في سماء الأدب في القرن العشرين.

حياته:

ولد فرنسوا مورياك في بوردو، في ١١ أكتوبر سنة ١٨٨٥، وشب وسط أسرة من تلك الأسر البورجوازية التي تملك الأرض وتشتغل بالتجارة.

نشأ الصبي نشأة مسيحية، وتفتح ذكاؤه وتطور على وقع الأعياد الدينية، وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أباه كان ملحداً. عندما مات الأب، خلف أبناً في عامه الأول، تربى بين أخت وأشقاء ثلاثة، ربته أم كاثوليكية صارمة متزمتة في جو كذلك الذي صوره فيما بعد في «سر فرنتناك». التحق الصبي بمدارس الرهبان ــ ومن بينها العائلة المقدسة ــ في أول الأمر، ثم دخل ليسيه بورو بعد حصوله على البكالوريا. كان مورياك تلميذاً نابغة قرأ مؤلفات راسين، وبسكال، وبودلير، ورمبوه، وكلهم من المؤلفين الذين كانوا يستبعدون من المقررات المدرسية آنذاك لخطورة أفكارهم. التحق فرنسوا بعد ذلك بكلية الآداب. وبعد حصوله على الليسانس عام ١٩٠٦، قدم الى العاصمة، ونجح في مسابقة «ليكول دي شارت» التي تؤهل طلابها للعمل في المكتبات. لكنه استقال بعد بضعة شهور، لأنه كان يود أن يكرس حياته للأدب.

بدأ بالكتابة في بعض المجلات الصغيرة، وعام ١٩٠٩، نشر أول كتاب له، ديوان من الشعر بعنوان «الأيدي المتشابكة»، حياه استاذه موريس باريس بمقال حار، متنبئاً لكاتبه بالنجاح وقائلاً له: «ستكون حياتك الأدبية حافلة مجيدة».

تزوج مورياك في ٣ يونيو ١٩١٣، بعد نشر روايته «الثوب الحجة» بقليل.ونشبت الحرب العالمية الأولى وجند مورياك، وعمل ممرضاً، وأرسل الى سالونيك عام ١٩١٥. وبعد الهدنة عاد إلى ممارسة نشاطه الأدبي فكتب «اللحم والدم» (١٩٢٠) حيث يتصارع كل من الحب، والدين، والآراء الاجتماعية المسبقة. لكنه لم يعرف الشهرة إلّا عندما نشر روايته «قبلة الى أبرص» (١٩٢٢) وهو في السابعة الثلاثين. كشفت هذه الرواية عن موهبته ككاتب روائي يتسم أسلوبه بالأمانة والصدق. كما مهدت لفوزه بجائزة الأكاديمية الفرنسية عن «صحراء الحب» (١٩٢٥). وفي أول يونيو سنة ١٩٣٣، استقبلته الأكاديمية ضمن أعضائها. بعدها، نشر مورياك ديواناً جديداً: «أعاصير» (١٩٢٥)، ومذكرات، وكتباً في النقد الأدبي: «لقاء مع بسكال» (١٩٢٦)، و«حياة جان راسين» (١٩٢٨)، و«الرواية» (١٩٢٨)، و«بداية حياة» (١٩٣٢). و«الكاتب الروائي وشخصياته» (١٩٣٣)، وتأملات دينية: «آلام المسيحي وسعادته» (١٩٣٠)، و«حياة يسوع» (١٩٣٦). خلفت هذه المؤلفات أثراً عميقاً في الجمهور. وجدير بالملاحظة أنها لم تؤثر على الجمهور الكاثوليكي فحسب.

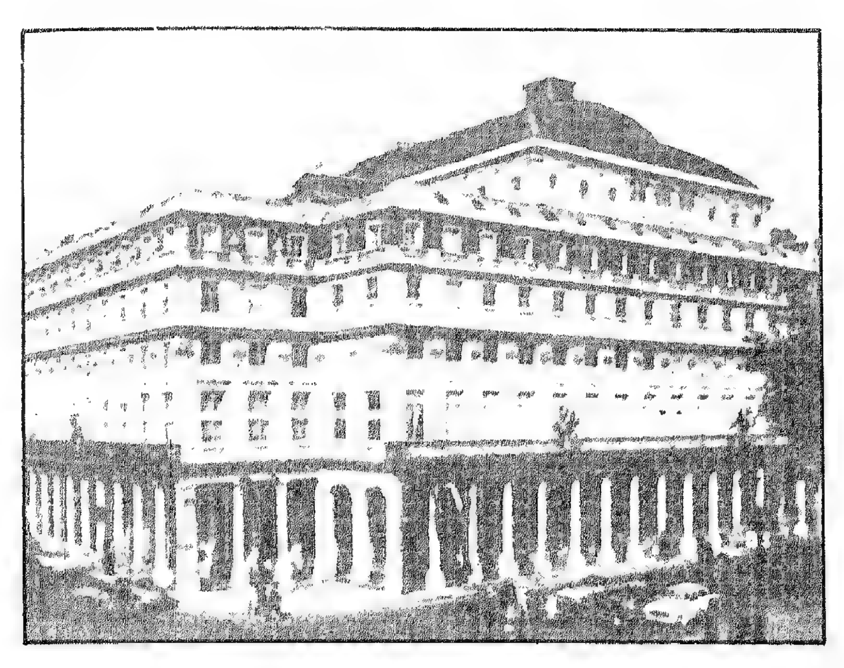
كتب مورياك عدداً كبيراً من الروايات، نذكر من بينها، على سبيل المثال لا الحصر: «نهر النار» (١٩٢٣)، و«جنتركس» (١٩٢٣)، و«تيريز ديكيرو» (١٩٢٧) ــ نجد نهاية هذه الرواية في «نهاية الليل» (١٩٣٥)، «ومصائر» (١٩٢٨)، و«ما كان ضائعاً» (١٩٣٠)، و«عقد الأفاعي» (١٩٣٢)، و«سر فرنتناك» (١٩٣٣)، و«الملائكة السود» (١٩٣٦)، و«طرق البحر»، (١٩٣٩)، الخ..

قبل ١٩٣٦، ظل مورياك بعيداً عن السياسة كل البعد. لكنه رأى، بعد هذا التاريخ، أنه يستحيل على الكاتب الكاثوليكي أن يظل محايداً ازاء الأوضاع السياسية السائدة في أوروبا آنذاك. ندد، على سبيل المثال، بقسوة الحرب الأهلية في اسبانيا، واتخذ منها موقفاً صريحاً. وكتب المقال السياسي، وأثناء الاحتلال، اتخذ مواقف سياسية واضحة. انضم الى الجبهة الشعبية، وكتب في الصحف التي كانت تصدر سراً تحت اسم مستعار. وهكذا اكتشف في نفسه موهبة جديدة: موهبته كصحفي يكتب في السياسة ــ مما قد يجعل البعض يتساءل: أو لم يصبح هذا الميل أعزّ الى نفسه من كتابة الرواية، الّا أن مورياك لم ينضم الى أي حزب، أياً كان. ولم يهتم بالسياسة إلّا ارضاء لمتطلبات روحية بحتة وخدمة لما يرى انه حق وعلى هامش هذا النشاط السياسي الذي استغرق جل وقته، ظل يتابع نشاطه الأدبي: كتب ثلاث روايات أخرى ومقالات عدة في النقد والدين. وكتب للمسرح عندما شجعه مدير الكوميدي فرانسيز آنذاك على ذلك: فكانت «أسموديه»، وتلتها «اللامحبوبون» (١٩٤٥)، و«النار على الأرض» (١٩٢٩). وفي ٦ نوفمبر (١٩٥٢)، فاز بجائزة نوبل للأدب، من أجل تحليله النافذ للنفس البشرية والقوة الفنية التي عبر بها عن حياة الانسان. لقد قال كل شيء في كلمات قليلة مركزة. ولن يسع الأجيال القادمة الّا أن تؤيد هذا الرأي، وتعترف بأن لرواية مورياك خواص ثلاثة تضفي عليها جلالا وعظمة: الاهتمام بمعرفة الحياة، وسبر أغوار النفس البشرية، ونبض قوي يجعلها أقرب الى الشعر منها الى النثر.

* * *

فلسفته:

مورياك كاتب مسيحي بتربيته والتقاليد التي ورثها عن أسرته. الّا أن النقاش بينه وبين ربه لم يتم على مستوى الأفكار، بل تم في تلك المناطق الواسعة الملآنة بالشك، حيث الشعر والجسد. لقد أحس وهو شاب بنداءين متناقضين تردد بينهما طويلاً. أحس بعجزه عن الانتماء الى هذا العالم، وعجزه عن الانفصال عنه نهائياً. طرده الله وطارده. فحاول الهرب، وان استحال عليه. لكنه واصل السير. وكان أول كاتب فرنسي عبر، منذ بسكال، عن مأساة المسيحي الموزع بين نقيضين. لا بد من وهب كل شيء، لله أو للدنيا، أياً كان الحال. وتلك بالذات التجربة التي تمر بها الشخصيات التي صورها. لا مكان لحل وسط، والتوفيق بين



النقيضين أمر محال: التنازل أو التمرد، هذان هما الموقفان اللذان يمكن أن يتخذهما الانسان العظيم لكن غالبية الناس تتحايل على هذا الاختيار، وتطمئن للحل الوسط. هذا، مثلاً، حال سكان بوردو البورجوازيين، ملاك أثرياء يفاخرون بأصلهم. لقد صورهم مورياك تصويراً قاسياً. لكن هذا لا يعني أنه زاد رسم بعض اللوحات الاجتماعية. فهو لم يندد قط بطبقة اجتماعية معينة، أو مجتمع معين، بل نقد حالة ذهنية معينة. ولا تنتمي الضحايا التي تخيلها الى طبقة بوردو البورجوازية بالذات، بل الى تلك الفئة التي تقبل الحل الوسط، وتوفق بين مباهج الدنيا ومطالب الدين، ومن هنا كان ايثاره الشخصيات المتطرفة الحادة الطباع، تلك التي تؤمن بالمطلق، وتقطع صلتها بمصالح الحياة اليومية، وتحاول البحث عن «شيء آخر»، حتى في الشر.

جدد مورياك في الرواية الدينية تماماً ومهد السبيل لمجيء برنانوس. ومكنه الصراع الدائر في نفسه بين النزعة الحسية والنزعة الدينية من التوفيق بين الرومانسية والكلاسيكية في أسلوبه الأدبي. لقد رأى، كما قلنا، أن الانسان ينزع في كل ساعة الى الله والشيطان في آن واحد. تلك مأساة شخصياته. لكنه ككاتب روائي عليه أن يبطل هذا التناقض ويبلغ الانسجام الفني. مكنه هذا الصراع أيضاً ـ نظراً لخضوعه لمباهج الحياة الدنيا وسحرها وان عرف أنها وقتية زائلة ـ من الافلات من فخاخ الموعظة الأخلاقية فلم يوافق موريـاك الفنان قط على اخضاع الواقع لمتطلبات أخلاقية قد تشوهه فاستبعد المؤلفات الهادفة. وأحس موريـاك المسيحي أن «اللهجة التعليمية» دخيلة عليه. لم يرغب في أن يكون قط «كاتباً كاثوليكياً» بل كاثوليكي يكتب الرواية. تشهد على ذلك شخصيات تسكن في أغلب الأحيان أرضاً ملعونة ترويها أنهار من نار، وتعتمل في نفوسها أهواء لا تلتمس العذر، بل توحي بالعظمة. لقد لفظ موريـاك العادلين المعتدلين، وفضل عليهم الأرواح الضالة، تلك التي قال عنها في «الملائكة السود»: «ربما اصطفى الله قبل الآخرين أولئك الذين يبدون وكأنهم وهبوا للشعر».

كيف تتم عملية الابداع الفني في رواية موريـاك؟ لم يرد مؤلفاً قط رواية على طريقة بلزاك. ولم يرغب في رسم لوحة واسعة لعصر معين. بل سعى الى انتاج عمل واحد رائع، يعبر عما هو أساسي، يغنيه عن تطلّب أي شيء آخر لا أهمية اذا كان الموضوع واحداً: «مأساة نفس بشرية موزعة بين مطالب الدنيا وحب الله. لا أهمية اذا كان الديكور اطار جغرافياً واحداً: مقاطعة «اللاند» بكرومها الشاسعة وجوها



بوردو حيث استلهم جو رواياته

الحار. لا أهمية اذا كان الوسط الاجتماعي واحداً لايتغير: البورجوازية الريفية. فهو يستطيع أن يعبر عن هذه المأساة في نفوس أخرى، لأنه عاشها شخصياً. والديكور عرفه معرفة وثيقة: انه عالم الريف الذي اصطفاه لأنه أنسب مكان يساعد على تطور مأساة الانسان: «الريف، أرض الالهام ومصدر كل صراع.. فيه يختبىء كل من البخل، والكبرياء، والحب.. ويقوى من المقاومة التي يلقاها».

تحدث موریاك طويلا عن السبل التي ينبغي اتباعها للانتقال من عالم الذاتية الى التعبير عنه تعبيراً خارجياً في اطار الرواية. وفي مقالاته النظرية، ألقى ضوءاً قوياً على هذا المخلوق الغامض: شخصية الرواية. يرى موریاك، شأنه في ذلك شأن جيد، أن الفنان يمنح الحياة لشخصياته بالتعبير، لا عن شخصيته الواعية، بل عن خبايا ذاته الخلاقة إلّا أن هذا التعبير لايتم في العدم، فهو ينصب عادة على كائنات لاحظها الكاتب، وأعطته فكرة عن وجه، أو طابع، أو موقف. من ثم، يمكن أن نقول أن الفنان لايخلق شخصية الرواية بمعنى الكلمة، مادامت مستوحاة من ملاحظته الحياة. لكن عناصرها الأساسية لاتنشأ عن هذه الملاحظة، لأن الفنان الراوي بثها روحه، وكونها من تجميع مادة الواقع الخارجي والداخلي.

استمد موریاك نماذج شخصياته من البلد الذي ولد ونشأ فيه. ووضع أحداث رواياته في الاطار الذي تكون فيه احساسه. ذلك أنه في حاجة دائماً الى دعم ابداعه الفني بتجربة عاشها. لكن هذا لايعني أنه ينزع الى المحلية والذاتية. ترجع أغلب هذه التجارب الى طفولته وصباه. قال: «يختزن الفنان في طفولته وجوهاً، وكلمات، وأخيلة، تلفت نظره صورة، أو كلمة، أو نكتة.. دون أن يدري ويختمر كل هذا، ويحيا حياة خافية الى أن يظهر فجأة في الوقت المناسب». وقال في مقام آخر: «أنا لا ألاحظ ولا أصف، بل أستعيد وأسترجع.. وما أسترجعه عالم منسي ضيق، عالم طفولتي النقية القلقة المنطوية على نفسها، والريف الذي سجنت فيه. تم كل شيء وكأن الباب أغلق وأنا في العشرين على ما أصبح بعد مادة لمؤلفاتي».

هكذا طرح موریاك قضية الجمع بين الذاتية والموضوعية، طرحها بوعي بصير، وحلها حلاً مرضياً. كان يجب أن يذكر قول فلوبير: «أنا

مدام بوفاري». يستطيع مورياك أن يفاخر بخلق شخصيات حية استمدت مادتها من حياته ذاتها، وان استقلت عنه وانفصلت. وربما أثارت اهتمامنا وانفعالنا لهذا السبب بالذات.

هناك قضية أخرى لايمكن أن يتجنبها كاتب الرواية: العلاقة بين الفن والحياة. عرف مورياك كيف يختار بينهما، ولم يخف عليه أن الاختيار يفرض حدوداً بعينها: «لا أعتقد أن هناك فناناً يستطيع التغلب عن التناقض المرتبط بفن الرواية. فهو يتطلع، من ناحية، الى خلق عالم الانسان.. ولا ينجح إلّا في عزل عاطفة، أو فضيلة، أو رذيلة، يبالغ فيها الى ما لا نهاية: الأب جوريو أو الحب الأبوي، الأب جرانديه أو البخل. ويتطلع، من ناحية أخرى، الى تصوير الحياة الاجتماعية، لكنه لا يصل الا الى الأفراد، بعد أن يكونوا قد حلوا غالبية الروابط التي تربطهم بالجماعة باختصار اذا نظر الروائي الى الفرد، عزل العاطفة وجمدها. واذا نظر الى الجماعة عزل الفرد وجمده. وهكذا يعبر من أراد تصوير الحياة عما يتنافى مع الحياة»:

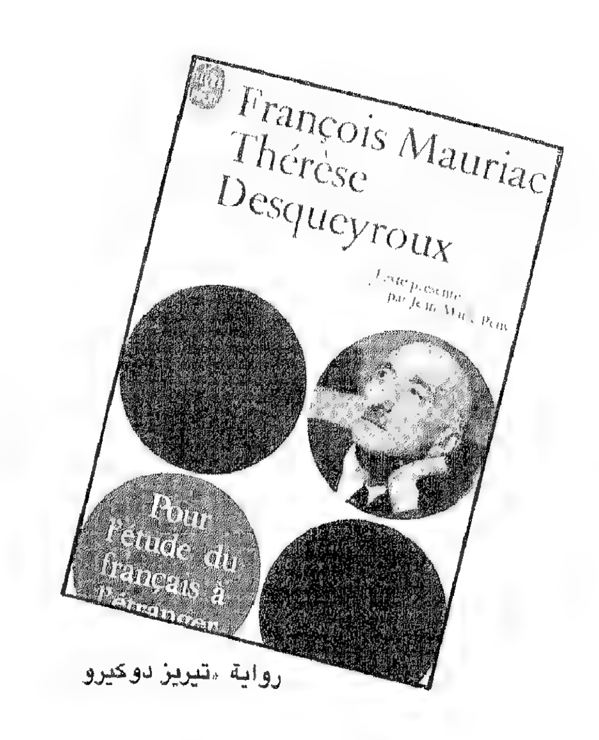
منهجه وأسلوبه:

تتميز روايات مورياك بصفات خاصة: عدد محدد من الشخصيات، وسرد مختصر لا يهتم بالثانويات، وحركة داخلية نابعة من لعب العواطف والأهواء. لا غرو اذن اذا كان التعبير المسرحي قد استهوى مورياك كما سنرى بعد قليل.

تدور أحداث الرواية في ذلك الجو الذي كان مورياك يقضي فيه اجازاته فيما مضى: ريف «اللاند»، حيث يدخل القارىء عالماً خاصاً. والديكور عادة ضيعة قديمة تقع وسط مساحات شاسعة من أشجار الصنوبر، تحت سماء صيف قاسية حارة تثقل على الأرض الجافة وتحرقها. تعيش داخل الضيعة أسرة متمسكة بالتقاليد، تعيش في صمت وجمود، لكن الحريق يشب أحياناً، وينتشر وسط الغابات الكثيفة ــ على غرار الأهواء المضطرمة في نفوس الشخصيات.

والشخصيات «ملائكة سود» تملكهم الشر، يتألمون، ويتعذبون، ويعذبون من حولهم. يميل مورياك ميلاً خاصاً الى تصوير نفوس متسلطة تسيطر على أخرى أضعف منها. تتحاب الشخصيات، ويمزق بعضها البعض الآخر وهنا يبين موضوع رئيسي في روايات مورياك: الحب، حب الذات. انه بمثابة رغبة آمرة في السيطرة، لا تعرف الهدوء أو السكينة. يذكرنا هذا الحب بالصحراء: ذلك أن قلب الانسان متعطش الى حنان لا جدوى من البحث عنه في العواطف البشرية الخاصة، لأن عدم التفاهم بين الناس أمر حتمي لا مناص منه شأنه شأن العزلة النفسية التي يعيشون فيها، ما دام الحب مجرداً من النور الداخلي. يميل مورياك أيضاً الى خلط انطلاقات الايمان بمطالب الجسد. بل يبدو أنه يولي اهتماماً خاصاً لأولئك الذين لا يؤمنون، ويثورون على النقمة الالهية، وأن هذه الشخصيات تستسلم في نهاية الأمر. يستبعدها مصيرها، وسواء لجأت الى الله أو نسيته، لا يتسنى لها الهرب طويلاً من طبيعتها الخاصة. واذا عادت الى حياتها الأولى، لا تعود اليها كما خرجت منها، لأن التنازلات التي وافقت عليها سعياً وراء الخطيئة كشفت عن أعماق نفسها المضطربة.

تقول تيريز ديكيرو، بطلة الرواية الشهيرة التي تحمل اسمها ــ عرفت هذه الرواية سبيلها الى السينما حيث لاقت نجاحاً منقطع النظير ــ: «لا أعرف ماذا أردت. لم أعرف أبداً الّا ما تنزع اليه هذه القوة الجامحة الكامنة في نفسي وخارجها..» لقد حاولت أن تدس السم لزوجها. فحوكمت. واطلق سراحها لأن ضحيتها ــ زوجها الذي أراد أن يتجنب الفضيحة ــ لم تشهد عليها. ها هي الآن تتحدث الى نفسها، محاولة الوصول الى نهاية ليل لا ينتهي، ما دامت السعادة كلمة جوفاء لا وجود لها: «لا وجود الّا للملل، وما يتنافى مع القيم السامية، والواجبات العليا»... لقد رأت نفسها تغوص في العدم يوماً بعد يوم، بين زوج فظ لا يبالي، وأسرة تحيط بها كالسور، وأرض كئيبة مترامية الأطراف. لم يكن هناك بد من أن تفعل شيئاً: قطع صلتها بكل هذا والتحرر منه لم يكن هناك شيء يربطها بالحياة أو يجعل لها قيمة، اللهم الا الموت البطيء الصامت، أحست تيريز أنها تعيش حياة خلت من العواطف والحب. حتى الطفل الذي



رواية «تيريز دوكيرو

رزقت به أحست وكأنه انسان غريب لا تود أن يربطها به شيء. لم تتمكن من الفرار. لكنها لم تحتمل الخضوع أيضاً. وأخذت فكرة القتل تتصاعد من أعماق نفسها. لم تكن فكرة أرادية منطقية، بل شيء أشبه بأمنية أقوى من وعيها، أملت عليها سلسلة من حركات أدتها بطريقة منهجية باردة. وعندما افتضح أمرها، لاذت بالصمت، ورد الى حياة لا مخرج منها. حبستها أسرتها شهوراً طويلة لم تعرف خلالها الا جموداً مخيفاً لا ينتهي، جمود خرجت منه أحياناً على صوت الرياح المتصاعدة من أشجار الصنوبر، حاملة معها أنات البشر فيما عدا هذا، لم تعش الا بالقدر الذي أحست به بألمها، ذلك الألم الذي أصبح شغلها الشاغل وهمها الوحيد. وحلت ساعة حررها فيها زوجها: قادها الى العاصمة وتركها وشأنها.. ربما استطاعت العيش في هذه المدينة الكبيرة، مادامت تضم بين جنباتها «غابة من البشر» تستلفت نظرها، ولا تعوق سيرها نحو مصيرها.

مسرحيات مورياك امتداد لرواياته. لكنها تختلف عنها بالقدر الذي يختلف به تكنيك الرواية عن تكنيك المسرحية. رواية مورياك عمل مركز قصير يعتمد في أغلب الأحيان على شخصية واحدة. وربما كان أميل الى القصة القصيرة منها الى القصة الطويلة. لذا استطاع نقلها الى المسرح بطريقة طبيعية. يختار مورياك الروائي أقرب اللحظات للأزمة، ويحذف الأزمنة الزائدة، ويبحث عن المواقف الرئيسية. وتلك هي العناصر الأساسية التي تقوم عليها المسرحية. كما أبدى حذقاً ومهارة في كتابة المسرحية.هذا ويعتقد ب.هـ. سيمون أنه يفضل مسرحياته على رواياته، وان خالف هذا رأى النقاد والجمهور.

عمل مورياك جاهداً على ضغط الأحداث وتجريدها من كافة الشوائب، فاكتفى بحدث واحد، أو عنصر خارجي واحد يفجر الأزمة الداخلية تفجيراً مختصراً قوياً: مشروع زواج في «النار على الأرض»، ووصول هاري فاننج في «أسموديه» كذلك، حمله المسرح على استخدام لغة خاصة. لقد رأى أن على الكاتب المسرحي أن يتخطى عقبتين رئيسيتين: أولاً، لابد أن يكون الحوار مباشراً، مادامت المسرحية تستهدف الكشف عن نفوس البشر من زمن محدد: «لكل جملة حسابها. وتكمن صعوبة المسرح بالذات في سهولة الحوار الظاهرية». ثانياً، على الكاتب المسرحي أن يستبدل أسلوبه الخاص بلغة الحديث العادية.

أعاد مورياك الى المسرح السيكولوجي مكانته في وقت كان المؤلفون يميلون فيه الى الابتعاد عنه. فكتب مسرحيات تذكرنا بمآسي راسين، تحاكي بساطتها، وقوتها التأثيرية وثراءها النفسي، وتتميز بعض مشاهدها بقوة درامية فائقة. ولنذكر، على سبيل المثال المشهد السادس من الفصل الثاني من «اللامحبوبون» حيث يلجأ مسيو دي فيلاد المالك العجوز الذي أخذ يهدّه الخمر والانحلال الى وسائل شيطانية ينفث بها سم الغيرة في نفس ابنته الحساسة اليزابيت لكي يبطل مشروع زواجها، وبالتالي، يحتفظ بها إلى جواره أبداً، ويخضعها لسيطرته وامرته.

من ناحية أخرى، توجد في مسرح مورياك شخصيات تفرض نفسها على المتفرج منذ البداية. وتحمله على التفكير. هاهو مثلاً بليز كوتور، بطل «أسموديه»، أولى مسرحيات مورياك التي عرضت في الكوميدي فرانسيز عام ١٩٣٧. انه رجل أبعد عن الدير لأفكاره الفاسدة

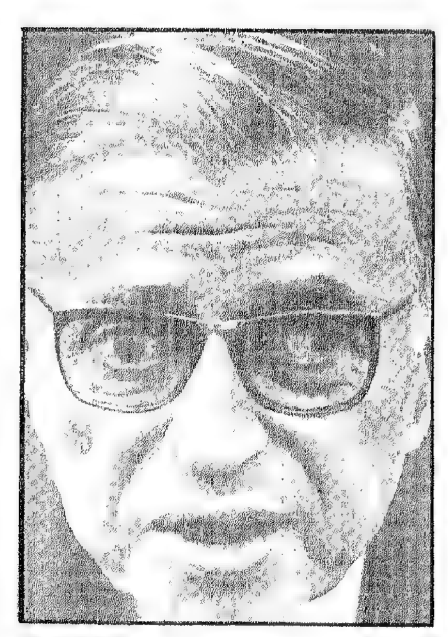


الضارة.. واستولت عليه رغبة جامحة في الانتقام، وحاجة ملحة الى السيطرة، والاثنتان ناتجتان عن حقده على الناس ورغباته المكبوتة. ها هو ذا يدخل بوصفه معلماً منزل مارت دي برتاس، امرأة ناضجة جميلة ترملت من ثماني سنوات، تعيش مع أولادها الأربعة في ضيعة منعزلة تقع وسط غابات «اللاند». يطمع فيها سراً، ويبدي ثقة مكيافيلية حتى ينتهك سر نفسها ويخضعها لسيطرته. مظهره الخارجي يبعث على الاشمئزاز، لكن سلوكه سلوك ساحر يجمع بين القحة والأدب. ها هو ذا يسود البيت كله ويسيطر عليه. أهو طرطوف جديد؟ لا، لأنه غير مدفوع بالمصلحة أو نداء الحواس. ان قوته على نفسه وطمعه في مارت طمعاً غيوراً يتسمان بالروحانية الخالصة. ويأتي شاب انجليزي ساذج ــ أسموديه ــ ليقضي أجازته في الضيعة. وتتفجر المأساة. تلاحظ مارت الشاب، فيتملك كوتور الروع. لاينجح المعلم في ابعاد الشاب عن القصر، فيهجر هو القصر. وسرعان ما ينتقم. لم يعشق الشاب الأم مارت بل أحب ابنتها. وانهارت الأم، واستدعت كوتور لنجدتها. لقد مهد هذا الأخير لنشأة الحب بين الشاب والفتاة. فأصبحت فريسته ملكاً له وحده.

* * *

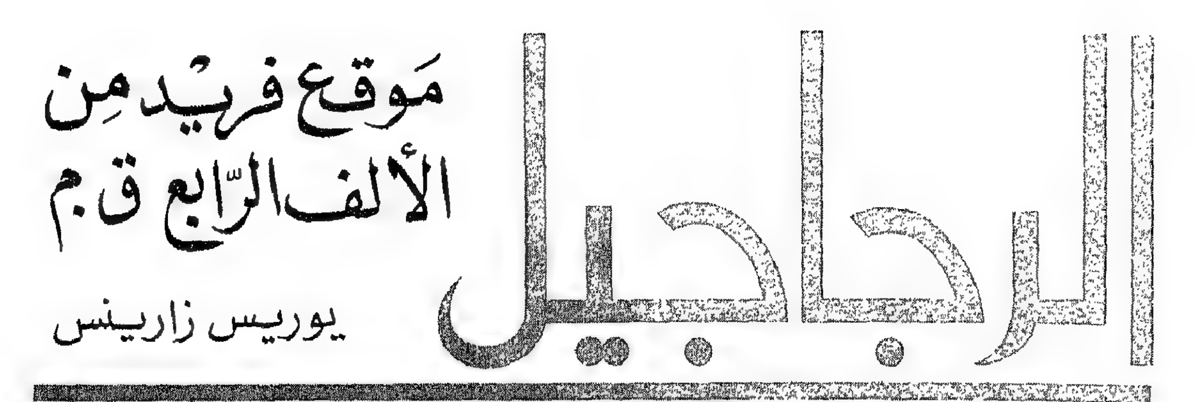
تكشف مؤلفات مورياك عن رسالة انسانية نبيلة. لقد صور مراراً وتكراراً استحالة الوصول الى النفس البشرية من خلال الجسد، وضع في قلب شخصياته عطشاً لايرتوي الى «صحراء الحب». وعندما قال سارتر عبارته الشهيرة: «ما الجحيم الا الآخرون»، لم يأت بشيء لم يسبق أن عبر عنه مؤلف «عقدة الأفاعي»، و«اللامحبوبون».

من الخطأ أن ننظر الى مورياك على أنه كاتب متشائم. كل مايمكن أن نقوله هو أن تشاؤمه أخلاقي لا ميتافيزيقي. يرفض مورياك اعتبار الانسان كائناً بريئاً ألقي بـه في عالم يسوده الشقاء والشر. طبعاً، الانسان بائس، لكنه مذنب أيضاً، ومسؤول لأنه حر. صحيح انه مذنب، لكن الغفران لازال ممكناً. صحيح انه مسؤول لكن هناك قوى تفوق الطبيعة تسنده وتسانده.



سارتر

ومن النادر أن يستسلم مورياك للعدم. لابد من ظهور ضوء عابر في نهاية الليل، لابد من ظهور كائن يحمل معه الهدوء والسكينة على حافة طريق البؤس والألم. ان مورياك كاتب مؤمن، لاينشأ عن ايمانه ذلك التفاؤل الذي لايرحم الذي نلمسه في مؤلفات بول كلوديل.



يمكن اعتبار هذا الموقع الأثري الهام ثروة حضارية فريدة في أراضي المملكة العربية السعودية «لوحة ٧٤» وتم اكتشاف هذا الموقع من خلال الجهود المبذولة في اطار برنامج المسح الأثري الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية والذي تضطلع به ادارة الآثار والمتاحف.

ومن المعروف أن هذا الموقع قد شاهده لأول مرة اثنان من المؤرخين الغربيين هما: فريدوينيت ووليم رييد، وذلك أثناء رحلتهما عبر منخفض وادي السرحان البازلتي عام ١٩٦٢. ومع أننا نعلم أن هناك رحالة آخرين سبق أن زاروا المنطقة بوجه عام، منهم على سبيل المثال هيوبر ١٨٨٣م وميوزل ١٩٠٩ وفيلبي ١٩٢٣م إلّا أنه على حد مبلغ علمنا، لم يخلف أحدهم ما يمكن التعويل عليه في شأن ذلك الموقع غير العادي. ذلك بالطبع باستثناء وصف «بالجريف» لما أسماه «آثار العمالقة» بالجزيرة العربية في منطقة بريدة. كما أن فيلبي لم يستطع أن يسجل مثل هذه الآثار، بل واستبعدها باعتبارها من ضروب خيال بالجريف (فيلبي ١٩٢٢: ١٤٠ ـ ١). كما أن هناك نظريات تقول باحتمال أن يكون الأمر قد اختلط على بالجريف بالنسبة لموقع الرجاجيل أثناء تجواله في منطقة بريدة (بالجريف ١٨٦٥: ٢٥١). أمّا وينيت ورييد، فقد وصف كلاهما موقع الرجاجيل ككل على اعتبار أنه يشكل دائرة حجرية عظيمة وغير عادية، وتركا انطباعاً يوحي بأنها مجرد ملاذ من الرياح، أو أنها مدافن في الأرض، كما أن استكشافاتهم المحدودة للموقع تشير إلى أن عدداً من الأعمدة الحجرية الضخمة كانت متجمعة في مجموعات منفصلة. ولاحظا إلى جانب ذلك، أن الأعمدة كانت قد أقيمت عمداً على شاكلة الأضرحة الحجرية الأثرية بالأردن (وينيت ورييد ١٩٧٠: ١٢) وقد أرسلت إدارة الآثار منذ عام ١٩٦٢ عدداً من الفرق إلى المواقع المعروفة جيداً لدى أهالي منطقة سكاكا اعتباراً من ١٩٦٥. وقد سجل البرنامج الشامل للمسح الأثري في المنطقة الشمالية من المملكة العربية السعودية زيارات للموقع عامي ٧٦، ١٩٧٧.

وقد أمكن الوقوف على صورة مفصلة لتركيبة الموقع، على ضوء جهود إدارة الآثار والمتاحف خلال موسمي ٧٦، ١٩٧٧ (آدامز وبار وآخرون ١٩٧٧). وأتاح لنا المسح الدقيق لكل المنطقة القدرة على تحديد مكان ذلك الموقع في إطار عمل أكبر يفسر مدى أهميته، وكذلك معرفة التركيب الجيومورفولوجي السائد بالمنطقة التي تحددت بعشرة كيلومترات تقريباً إلى الجنوب من سكاكا. وهو عبارة عن مصطبة قليلة الارتفاع من الحجر الرملي تطل على منخفض واسع إلى الجنوب تماماً من «قارة» ومن المحتمل أن يكون هذا المنخفض، امتداداً صغيراً لمنخفض وادي السرحان الممتد في الاتجاه الجنوبي الشرقي من مرتفعات الأردن. وربما كان طريقاً هاماً في الماضي يمتد ليصل إلى منطقة الجوف ويحيط بصحراء النفود العظيم حتى حافته الشمالية، وبدت هذه المصطبة من الحجر



الأعمدة الحجرية في الرجاجيل

الرملي فوق مستوى البصر بعد توقف الاستيطان البشري جنوباً، وفيما حول الحوض كاملاً إلى الجنوب الشرقي وإلى الشرق، تقوم حافة صخرية بها قمم من الحجر الرملي المسطحة المنعزل بعضها عن بعض.

ولقد كشف مسحنا لهذه المنطقة عن عدد من المواقع الموستيرية فضلاً عن سلسلة متتالية من المواد الأخيرة. ويعرف الموقع ككل باسم «الرجاجيل» في الوقت الذي يوجد به عدد من التصميمات المختلفة يمكن وصفها ببساطة باعتبارها مركباً متكاملاً: وأولى هذه المركبات الأعمدة الحجرية التي هي من أبرز ملامح الموقع. وقد أسفر الاستكشاف الدقيق عن أن تلك الأعمدة ترتفع لثلاثة أمتار ونصف، يصل قطر الواحد منها ٧٥ سم، وهي لم تنتشر فوق الهضبة بصورة عشوائية، كما لاحظ وينيت ورييدبل ربما كانت جزءاً من مجموعات المباني المنفصلة التي أقيمت على هذه الهضبة القليلة الارتفاع. وباكتمال رسم الخرائط الأولية للمباني، تبين لنا أن الأعمدة وان تبدو الآن في حالة من عدم الانتظام، إلّا أنها كانت في الأصل مشيدة في خط مستقيم بالنسبة للمحور الممتد فيما بين الأعمدة من الشمال إلى الجنوب. وعليه، فقد كانت الأعمدة تتجه شرقاً أو إلى حيث الاتجاه الغالب لشروق الشمس وهي مشكلة بعناية، كما تختلف في عدد مجموعاتها المنعزلة. وقد أمكن في بعض الأحيان التعرف على اثنتين أو ثلاث من هذه المجموعات. وفي أحوال أخرى حصرنا ما يزيد على ١٩ مجموعة، كما أمكن مشاهدة «وسوماً» محفورة على الصخور الملساء، وكذلك العديد من أحجار الجرافيت الثمودية التي أمكن التعرف عليها، فضلاً عن رسوم الوعال وأشباهها (وينت وربيد ١٩٧٠: ٨١). وعلى أية حال، لم تكن الأعمدة هي الظاهرة الوحيدة التي أمكن مشاهدتها على صورة منشآت منعزلة. فقد شاهدنا في كثير من الأحوال منشآت صغيرة بيضاوية، على شكل حرف «D» أو هي مبان مستطيلة ملحقة بالأعمدة. وبذلك تمثل الأعمدة الرأسية أكثر المعالم بروزاً في كل البنية. وكان قد تقرر في عام ١٩٧٧ استكشاف واحد من هذه المباني لمعرفة المزيد من المعلومات عن وظيفتها والغرض منها. وعلى ضوء الدراسة التي أجريت على طبقات الأرض في قسم من المنطقة والتي كشفت عن وجود أربع أو خمس طبقات مختلفة تم الاستنتاج بأن المبنى الرئيسي متعاصراً، متماسكاً ككل، ولا توجد أية آثار للاستيطان مبكراً كان أو متأخراً بادية في الوقت الحاضر. وكانت الطبقات التي أمكن مشاهدتها ملحقة بالمبنى وتشير إلى أنه ربما شيدت قبل التركيبات المترسبة للغطاء الرملي المتأخر. وأوضحت

الاستكشافات والمسح السطحي أن الأعمدة كانت تصطف بالفعل على طول المحور الشمالي الجنوبي، وأن جميعها تتجه أصلاً إلى الشرق. وهناك أربع ألواح أقيمت على الحافة مشكلة دائرة حجرية مركبة على شكل حرف «D» تشكل الأعمدة القائمة واجهتها. ولاحظنا في داخل وخارج المبنى تركيزاً كبيراً للألواح الصغرى والأحجار، كما أن تراكم الرمال وصل إلى عمق يصل تقريباً إلى نصف متر. وليس في مقدورنا الآن تأكيد ما إذا كانت هذه الألواح المكدسة معاصرة للمبنى الرئيسي أو أنها كانت متأخرة عنه. وتم كذلك استكشاف أجزاء أصغر تتخلل المبنى الأصلي حتى أدت بنا إلى تربة جدباء ولكننا لم نعثر على دليل مادي، سواء كان من مواد المقبرة أو العظام الآدمية أو الحيوانية، أو أي شيء يشير إلى أن المبنى استعمل يوماً ما كمأوى أو مسكن. وشاهدنا في ثلاثة جوانب من خارج المنشأة (الشمال، الغرب، الجنوب الغربي) ثلاث نقر ربما كانت تستخدم كمواقد للتدفئة. ويبدو أنها كانت تقام أو تحفر في سطح المنطقة قبيل البدء في اقامة المنشأة ذاتها.

تبلغ مساحة المبنى برمته ٤ × ٤،٥ متراً تقريباً، ويبدو أنه لم يكن مستخدماً في أمور دنيوية معينة، كما أنه لم يعثر على أية آثار ايجابية تدل على أنها كانت مقابر، كما أنها لم تكن هناك أطلال حضارية تشير إلى كونه في الماضي مبنى سكنياً كما ذكرنا. وعندما يؤخذ هذا الدليل إلى جانب الاتساق التام في وضع تلك الأعمدة، ينتهي بنا الأمر إلى أن هذه المنشآت كانت تخدم بعض الأهداف الدينية أو أغراض العبادة.

وفي الوقت الذي نذكر فيه أنه لم يتم الكشف عن مواد حضارية عند التنقيب في المنشأة ذاتها، إلا أنه عثر على كمية كبيرة من المخلفات الحضارية المنتشرة على الهضبة ومختلطة بالرمال؛ حيث شاهدنا مواد من الحجر والفخار والأصداف والعظام، والأخيرة هشة للغاية بفعل تعرضها لعوامل التعرية والرياح ولكنها ملساء جداً. كما عثرنا على كسر مفصلية تشبه تلك التي شوهدت لمخلوقات من أجناس الفرس والوعل ونحوها. أما المواد الصوانية، فقد أمدتنا بأقوى دليل على تاريخ هذه المجموعات الحضارية التي تضم نسبة كبيرة من الأدوات (مع استبعاد مخلفات الأحجار) كالصوان المصقول، والمكاشط المروحية وغيرها من المواد الشفرية. ونطلق عليها صفة «مصقولة» بسبب احتفاظها بقشرتها السطحية، مع شحذ الحافة وحدها بينما أعد جانبها السفلي عن طريق نزع اللحاء كاملاً وترك السطح أملساً بالنسبة للمخارز والشفرات جيدة الصقل والصنعة والآلات الحادة المدببة، والشفرات المسننة والمخارز الصغيرة والشظف المعاد شحذها والتي وجدت جميعها متوفرة.

والحقيقة أنه نادراً ما شاهدنا مجموعات الفخار، وإن كان النوع السائد في مشاهداتنا هو الفخار من ذلك النوع الطفلي الذي يسود فيه الخط المائل للون الأصفر أو البني الخفيف. وقد اتضحت لنا طبيعة الميكة التي تلالات عندما تعرضت الكسرة للانشطار، في حين كانت هناك شرائح أخرى داكنة إلى اللون البني أو الأحمر بسبب طول مدة التعريض للحرارة بأفران الصهر. ولولا تهشم كسر العظام وتآكلها لأمكن التوصل إلى شيء عن طريق فحصها، ولم تقتصر مشاهداتنا على عدد من الأوعية البسيطة وإنما شملت كذلك كل الأواني ذات الفوهات، وكسرا قاعدية مسطحة، فضلاً عن يدي إناءين، احداهما حلقية رأسية الاتجاه، والأخرى عبارة عن افريز صغير. وإذا ما اتخذنا هذه المواد مدخلاً حضارياً، تبينا وجود تشابه كبير بينها وبين المواد الصوانية والفخارية التي عثر عليها في مواقع بسيناء والنقب والساحل الفلسطيني (تمبسون ١٩٧٥ ورونين ١٩٧٠ وكابلان ١٩٦٩ وروثنبيرج ١٩٧٢ و١٩٧٠). وقد أكدت أعمال الاستكشاف الحديثة بشرق الأردن كذلك نتائج كشوفنا (هيلم ١٩٧٦). ويمكن إقامة الدليل بصفة أساسية على أن موادنا الحضارية إنما تعود للعصر الحجري النحاسي في الشرق الأدنى الذي يشير إلى الألف الرابع ق.م. ومع أن الفخار يختلف بعض الشيء عن الأنواع التقليدية من العصر النحاسي، إلّا أنها لا تخرج كثيراً عن الأنواع المألوفة المتوقعة. وبالاضافة إلى ذلك، فان

الجرافيت الثمودي النادر الذي أمكن التعرف عليه فوق الأعمدة، يبدو أنه لمنشآت أقيمت بعد انهيار الأعمدة جانباً (وينيت ورييد ١٩٧٠: ١٢). وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن التراكمات الحضارية، وربما كذلك المباني الميغاليتية المشيدة (الحجر الضخم غير المنحوت) تعود لتقاليد العصر النحاسي بالشرق الأدنى.

وبالمزيد من أعمال الاستكشاف فيما حول منطقة الرجاجيل، عثرنا على مواد ربما كانت معاصرة لمنشآت الأعمدة فوق الهضبة. كما عثرنا على عدد من المدافن لا يستهان به إلى الجنوب مباشرة، وقد كانت متفاوتة في درجة الوضوح. وتشبه تلك المدافن الحجرات المدفنية الضخمة على شكل حرف «U» بمعظم أراضي شبه الجزيرة العربية. وفي حين أنه جرى تمثيل عدد من العصور الزمنية كما اتضح لنا عن طريق ظهور هذا النوع من المباني بصفة عامة، إلّا أنها بدأت فوق قمم تلال الأحجار الرملية التي ربما كانت معاصرة للمباني السفلية فوق الهضبة قليلة الارتفاع. وقد تبين ــ من الأمثلة الجيدة لهذه المباني ــ أنها كانت مشيدة بطريقة عشوائية بحيث بدت من كتل الحجر الرملي النصف معدّة أو مجهزة التي إمّا أنها وضعت في صفوف غير منتظمة أو أنها كومت بشكل عشوائي.

وقد تم اكتشاف عدد من المستوطنات الصغرى فيها دوائر حجرية أثناء استكشاف تلال الأحجار الرملية شرقي منشآت الأعمدة، تشبه المستوطنات السائدة في المنطقة أي في الجزيرة العربية وسيناء والأردن (والتي تشمل المناطق الصحراوية بجنوب سوريا وغربي العراق) (فيلد ١٩٦٠، ريز ١٩٢٩، ميتلاند ١٩٢٧)، وتم حصر أربع من مثل هذه المستوطنات على مدى ثلاث كيلومترات من موقع الرجاجيل. وتتكون هذه المواقع ــ طبقاً للعادة ــ من كل من الدوائر الحجرية عشوائية البناء أو التكوين، والمدافن على النحو السابق وصفه من قبل. ومن المفترض أن الدوائر الحجرية تمثل أساسات المباني التي أزيلت مبانيها الفوقية التي تختلف كلية في فكرتها وطرازها عن خيام البدو الحديثة المشيدة من جلد الماعز أسود اللون. وتختلف هذه الدوائر بدرجة كبيرة في نوعية التكوين. فبعضها مشيد من الألواح الحجرية المعدة جيداً لهذا الغرض، وقد رصت في صفوف أفقية متلاصقة. والأخرى مشيدة على شكل مبسط من كتل الأحجار المكدسة، وعلاوة على ذلك، فإنه يوجد بعض الأنواع المركبة التي تتكون من العديد من الدوائر البسيطة، كما توجد دوائر أخرى تتكون من الدوائر المركبة، وهي عبارة عن عدد من الدوائر المتلاصقة التي تضم أسواراً تنتشر في غير انتظام حول كل التركيبة الدائرية. ويتراوح قطر بعض الدوائر ما بين ٣ و ٥ أمتار، وقد يصل قطر بعضها الآخر إلى ٢٥ متراً. كما كانت المواقع المجاورة مباشرة للرجاجيل من نوع بسيط، مقامة على المصاطب العليا لتلال الأحجار الرملية، وكشف العديد من المواقع عن الفخار الميكي. وحوت جميعها مواد صوّانية مطابقة لمجموعات الرجاجيل إلى حد كبير. وهناك مواقع تضم المقابر المتقنة البناء، وأمكن التعرف على موقع استيطاني واحد يحيط به سور من الألواح الحجرية الموضوعة رأسياً. وعليه، فإنه إذا ما أتيح لنا أن نتأملها، سوف نتبين أن الأقوام التي تجمعت في موقع الرجاجيل لغرض مجهول إنما كانت تقطن في محلات منفصلة في مستوطنات منفردة وبعيدة عن الرجاجيل.

وقد تم الكشف عن موقع بئر أثرية مهجورة غربي الرجاجيل بحوالي كيلومتر واحد، أمكن التعرف عليه بالعثور على أحواض تحدها الأحجار والأحجار المميزة بعلامات الحبال. ولم تشاهد حالياً آبار أخرى بالرغم من أن أهالي المنطقة المحليين أشاروا بصفة عامة إلى توافر المياه بالمنطقة في الماضي. كما كشفنا في نفس المنطقة عن مجموعة من أدوات الصوّان مشابهة في طرازها لما عثر عليه في منطقة الرجاجيل منها.

وأخيراً، فقد سجلنا أثناء موسم العمل بالمسح عدداً كبيراً من تركيبات الدوائر الحجرية من مختلف الأحجام في أعالي منخفض وادي السرحان وعلى مدى امتداد نظام الصرف بوادي عرعر في الاتجاه الشمالي الشرقي. ويبدو

أن جميع المدافن التقليدية التي يمتد العديد منها إلى ما يزيد على ٣كم تأتي مصحوبة بتلك التركيبات من الدوائر الحجرية. وعثرنا على كسر من النوع السابق وصفه بموقع الرجاجيل في عدد من الأماكن. وتضم جميعها مواد من العصر الحجري يمكن أن توضع في نفس طبقة نظائرها بموقع الرجاجيل. ويمكن القول على سبيل الافتراض إن الموقع قد يمثل مكاناً يجتمع فيه عدد من الجماعات المتباينة اجتماعياً لأداء واجبات اجتماعية أو عرفية ـ دينية تماماً كما ورد ذكره في أماكن أخرى لمواقع مشابهة بالشرق الأدنى، مثال ذلك أن الألواح الكبيرة القائمة من العصر البرونزي الأوسط في «جزير» قد جرى تفسيرها على هذا النحو، ولعل منشآت الدوائر المركبة التي عثرت عليها «ديانا كيركبرايد» «Diana Kirkbride» في منطقة وادي الروم في الأردن (كركبرايد ١٩٦٩) وكذلك معبد «روّافة» جنوبي تبوك يفسران نفس الشيء (جراف Graf ١٩٧٨).

موجز القول أنه من الممكن التدليل على أن كثيراً من السمات الحضارية المميزة لشمال الجزيرة العربية في العصر النحاسي من الألف الرابع ق.م أمكن مشاهدتها في شكل مركبات متماسكة بحوض سكاكا. ومن الواضح أن يكون موقع الرجاجيل هو بؤرة اهتمامنا، فمنشآت القرية شبه القائمة، ومدافن المنطقة، وكذلك منشآت أخرى في حالة جيدة وكذلك المنشآت الخاصة بالاحتفالات المركزية الطقسية... كشفت عن أطلال ذلك العصر، وعليه، يمكننا القيام بفحص ودراسة فترة ما قبل التاريخ في حوض سكاكا بصفة عامة. ●

المراجع

□ **روبيرت آدامز، د.بيتر بار، محمد البراهيم وعلي المغنم (١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧):**
٩٧هـ/ ٧٧م: «التقرير المبدئي للفصل الأول من المسح بشرق وشمال الجزيرة العربية» ـ حولية الآثار العربية السعودية العدد الأول.

□ **هنري فيلد:**
١٩٦٠: «المسح الأثري لصحاري شمال الجزيرة العربية (١٩٢٥ ـ ١٩٥٠)». تقرير متحف البيبودي للآثار والأثنولوجيا، جامعة هارفارد العدد ٤٥ ص ٢، متحف البيبودي، كامبردج وماساشوست.

□ **دافيد أ. جراف:**
١٩٧٨: «الأبراج والحصون الدفاعية لحدود الجزيرة العربية» باصور ـ عدد ٢٢٩ ص ١ ـ ٢٦.

□ **س. و. هولمز:**
١٩٦٩: «استكشاف جاوان ١٩٧٤: التقرير المبدئي» بلاد الشام «ليفانت» عدد ٨ ص ١ ـ ٣٥.

□ **ج. كابلان:**
١٩٦٩: «عين الجربة» «Ein el Jarba»، أطلال العصر النحاسي في سهول ازدرائيليون. باصور ١٩٤: ص ٢ ـ ٣٢.

□ **ديانا كيركبرايد:**
١٩٦٩: «آلهة قدماء الجزيرة العربية» الآثار عدد ٢٢ من ص ١١٦ ـ ١٢١، عدد ٢٣ ص ١٨٨ ـ ١٩٥.

□ **ضابط الطيران، ميتلاند:**
١٩٢٧: «الأعمال التي مارسها انسان الجزيرة العربية القديم» الآثار عدد ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠٣.

□ **وليم ج. بالجريف:**
١٩٦٥: «قصة رحلة العام عبر قلب وشرقي الجزيرة العربية» (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣)م ـ لندن.

□ **بيتر بار، يوريس زارينز وآخرون:**
١٩٧٧: «التقرير المبدئي للمرحلة الثانية لمسح شمال الجزيرة العربية» العدد ٢ من أطلال ـ حولية الآثار العربية السعودية. تصدر عن ادارة الآثار والمتاحف.

□ **ه. ج. ب. فيلبي:**
١٩٢٢: «قلب الجزيرة العربية» العدد ٢ وليم لونجمان ـ لندن.

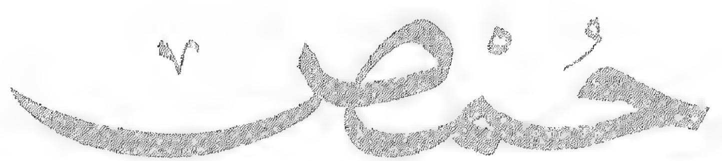
□ **ل. و. ب. ريز:**
١٩٢٩: «صحارى ما وراء الأردن» الآثار عدد ٣ ص ٣٨٩ ـ ٤٠٧.

□ **أ. رونين:**
١٩٧٠: «التقرير المبدئي عن أدوات الصوان بجنوب سيناء» ص ٣٢ ـ ٤١.

□ **بينو روثنبرج:**
١٩٧٠: «المسح الأثري لجنوب سيناء» بيك (PEQ): ص ٤ ـ ٣١.
١٩٧٢: تيمنا مناجم النحاس البابلية. ثيمس وهدسون ـ لندن.

□ **توماس ل. تومبسون:**
١٩٧٥: «مستوطنة سيناء والنقب في العصر البرونزي».
Beihefte Zum Tubinger Atlas des Vorderen Orients, Reihe B, Nr. 8. Wiesbaden: Ludwing Reichert Vertag.

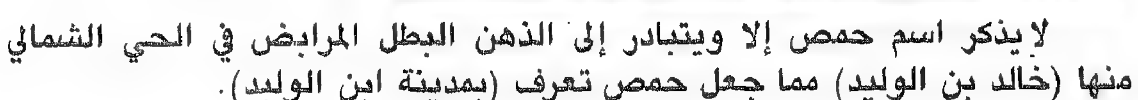
□ **ف. وينيت وو. ل. رييد:**
١٩٧٠: «الآثار المسجلة بشمال الجزيرة العربية»، مطبعة جامعة تورينتو ـ تورينتو ـ كندا.



والحضارات التي تعاقبت عليها



جامع خالد بن الوليد



لا يذكر اسم حمص إلا ويتبادر إلى الذهن البطل المرابض في الحي الشمالي منها (خالد بن الوليد) مما جعل حمص تعرف (بمدينة ابن الوليد).

متى وجدت مدينة حمص؟

تعددت الروايات وتضافرت حول مدينة (قادس أو قادش) الواقعة في بلدة القصير مكان (تل النبي مند). وذكر أن تاريخها يعود الى القرن العشرين قبل الميلاد، بينما الروايات لم تذكر اسم حمص، الا حوالي الميلاد، فيستدل ان وجود (قادس أو قادش) سابق لوجود حمص بنحو عشرين قرنا؟ وهي قاعدة حربية تقع بالقرب من بحرة قطينة على بعد (١٤كلم) من المدينة.

جغرافية حمص:

ان منطقة حمص تقع بحدودها الادارية وعناصرها التضاريسية متشابكة مع عناصر بقية المحافظات المجاورة، ففي الشرق تضم منطقة الحماد المشتركة مع اكثر من محافظة: اذ تمتد حدودها الى محافظة دمشق وحماة ودير الزور والرشيد. بل مع بادية المملكة الاردنية الهاشمية والعراق كما تتشابك سهولها في الشمال مع سهول حماة، وتتداخل بتضاريس اللاذقية ولبنان الشمالي والبقاع اللبناني.

تعتبر مدينة حمص مركزا هاما، لموقعها في البلاد السورية وهي همزة الوصل بين كافة المناطق الشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، اذ لا بد للمسافر اينما كانت وجهته من المرور بحمص، فهي في مكان القلب من الجسم اذ تنتشر شرايينها في كل الجهات.

وقد تحدث عنها الشاعر اليوناني هوميروس في القرنين الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد. وتحدث اراميا العبراني (٦٢٨ ــ ٥٨٦) قبل الميلاد. وتحدث ايضا بيروز الفارسي (٣٣٠ ــ ٢٨٠) قبل الميلاد. وتحدث اسطرابون الجغرافي (٦٠ ــ ١٤) قبل الميلاد. بالاضافة الى

المؤرخين والجغرافيين العرب امثال ابن جبير وابن بطوطة وياقوت الحموي وابي الفداء.

اكتشاف الاثار يحدثنا عن حمص ومناطقها:

دلت الوثائق المصرية والاشورية القديمة انه كان في موقع حمص الحالي مدينة كبيرة وحصينة اعتبرها المصريون مفتاح اسيا الوسطى ونظر اليها الاشوريون نظرتهم الى حصن منيع يرد غارات الاعداء.

حمص في التاريخ:

ان لحمص في التاريخ شهرة واسعة، فقد حدثت قربها معركة (قادش) التي انتصر فيها (رمسيس الثاني) على الحثيين، وعند حمص هزم امبراطور روما (اورليان) الملكة (زنوبيا) ملكة تدمر، سنة (٢٧٣) قبل الميلاد. واحتلها العرب سنة (٦٣٨) ميلادية، وضربت اسوارها سنة (٧٤٥) ميلادية. ابان الثورة على (مروان الثاني) الخليفة الاموي، واستولى الجيش المصري على حمص بقيادة (ابراهيم باشا) سنة (١٨٣٢) ميلادية.

تسمية المدينة:

يقال ان حمص مأخوذة من كلمة (حث) اسم لقبيلة سكنتها، أو من كلمة (أميسيا) اليونانية وقيل الذي بناها رجل يدعى (حمص) بن المهرب بن مكنف، أو (حمص) بن مكنف العمليقي والاصح ان اول من انشاها (حمث) بن كنعان فسميت المدينة باسمه، ثم بدلت (الثاء صادا) فصارت (حمص).

القبائل التي سكنت حمص من ــ ٢٣٠٠ق.م ــ ١٩٠٠ق.م.

الفئة الاولى:

الروثان ــ العمالقة ــ الامويون:

الفئة الثانية: من ــ ١٩٠٠ ــ ١٢٢٥ق.م.

الحثيون: في اوائل القرن العشرين قبل الميلاد انحدرت القبائل الحثية من جبال الامانوس الواقعة في شمالي سورية وعسكرت غربي نهر الفرات، فن عمارة.

الفئة الثالثة: من ــ ١٢٢٥ ــ ٧٤٠ق.م.

الفينيقيون ــ العبرانيون ــ الاراميون:

عندما اتسعت مملكة سليمان شملت سورية الشمالية ومنطقة حمص سنة (٩٩٢) قبل الميلاد ــ كما ذكرت الروايات ــ ثم اراد ان يعزز ملكه فبنى الى الشرق من مدينة حمص مدينة (تدمر) واحاطها باسوار منيعة وقد دعاها اليونان ــ فيما بعد ــ بالميرا (اي التنخيل) وبعد اربعة عشر سنة من استيلاء سليمان على منطقة حمص قام احد قادة جيش مملكة صوبا (حمص) بتشكيل جيش شعبي تقاوم المحتل واستطاعت ان تقلق الملك سليمان، وان تنشر الذعر والرعب في منطقة دمشق، وظلت تلك الفصائل ــ تناضل حتى طردت فلول جيش سليمان وشكلت مملكة واحدة قام على رأسها الحمصيون مدة قرنين ونصف القرن تقريبا.

حمص ايام الاشوريين والكلدان والفرس:

الاشوريون: كانت الدولة الاشورية ــ دولة برية ثم اخذت ابصار ملوكها تتجه نحو البحر دون ان تتحقق غايتهم في البداية حتى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. فراحوا يسعون الى ذلك من جديد ثم كان لهم ما ارادوا حينما ضموا سورية الى منطقتهم ومنها منطقة حمص. وان حكم الاشوريين لسورية لم يطل وقد عرف عن الشعب السوري منذ القدم بالصلابة ومقاومة المحتل، لذلك نشبت الثورات في جميع انحاء سورية مما ارغم الاشوريين على الخضوع والانسحاب. وظل الشعب السوري يقاوم ما تبقى من فلول ومريدين الاشوريين حتى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. وقد استعان الشعب السوري بالجيش الكلداني مما أجبر الاشوريين على الانسحاب امام جيش بنوخذ نصر الكلداني سنة (٧٤٧) قبل الميلاد. فبسط نبوخذ نصر سلطانه على بلاد الرافدين وسورية ومنها منطقة فلسطين.

الفرس: يعود تاريخ الفرس الى اصل آري سكن منهم قسم بلاد الهند، والقسم الاخر نزل في هضبة ايران يرجع عهد دولتهم الى القرن السابع قبل الميلاد حين ظهرت دولة مادي، وبها

بدأت دولة العصر الفارسي.

السلوقيون:

بعد وفاة الاسكندر الكبير تنازع قادته ـ الذين اصبحوا يسمون انفسهم ملوكا ـ على اجزاء المملكة، وسمية الدولة التي تسيطر على سورية (الدولة السلوقية) نسبة الى سلوقس الاول الذي كان قائدا في سورية، ثم اصبح اول ملك اعتلى عرش سورية، بعد وفاة الاسكندر.

المدن التي انشأها السلوقيين في حمص:

عندما تسلم القائد سلوقس الاول العرش عام (٣٣٥) قبل الميلاد بنى ٣٤ مدينة في جميع انحاء مملكته كان منها حظ حمص مدينتان شهيرتان: افاميا والرستن: هنا تضاربت الروايات من الذي بنا افاميا هذه المدينة العريقة في التاريخ: قيل ان الذين بنوها هم المكدنيون وسموها (بيلا) وقد ولد فيها الاسكندر الكبير المقدوني فاتح المشرق، وقد جعلت (افامبا) مستودعا للأفيال والخيول والذخائر، ويقال ان افاميا سميت باسم امرأة سلوقس نيكاتور، الذي ادخل تحسينات جمة عليها.

وقد ازدهرت افاميا حتى بدت احدى المدن الاربع في منطقة سورية الغربية وهي: سلوقية وانطاكية واللاذقية، وافاميا.

الرستن ـ (اريثوسا): بناها سلوقس الاول جد السلوقيين ودعاها (اريثوسا) على اسم ابنته، أو لأنها احدى نباتات الماء لوقوعها على ضفة نهر العاصي، وقد سميت باسم مدينة مكدونيا.

حمص ابان الحكم الوطني: (من عام ـ ٨٠ قبل الميلاد الى ٧٩ م).

حين تجزأت المملكة السلوقية الى دويلات تناوىءالواحدة منها الاخرى ثم قامت الثورات ضد السلوقيين ومن اهم تلك الثورات ثورة الحمصيين الذين طالبوا بالاستقلال والحكم الوطني. وكان لا بد من الرضوخ والنزول عند رغبة الجماهير في المنطقة فمنح بذلك لهم الاستقلال الاداري.

استقلال حمص الاداري:

في عام (١٠٥) قبل الميلاد تجددت الحرب بين الاخين غريبوس وسيزيك السلوقيين ودامت بينهما حوالي تسع سنوات دون ان يستطيع احدهما التغلب على الاخر، فتزعزعت بذلك اركان مملكتهما وانفصلت منها عدة ولايات كانت منها صور، وصيداء، وسلوقية، وكيلكيا. فاستغل ذلك الموقف الحمصيون وطالبوا السلوقيين بتنفيذ وعدهم بالاستقلال الاداري بقيادة امرائها الوطنيين فكان عام (٩٦) م.

حمص تحتضن هيكل الشمس:

ان وجود هيكل الشمس في مدينة حمص قد جعل لها اهمية بالغة، وموضع احترام الاديان في معظم صقاع الأرض والاصقاع الرومانية، وكان السوريون يقدسون هذا الهيكل ويعتبرونه ملاذا مقدسا، وكان كل من لجأ اليه واحتمى به حرم مسه بسوء أو الاعتداء عليه.

آثار القياصرة الحمصيين في عهد الرومان:

ان حب القياصرة الحمصيين لمنطقتهم جعلهم يهتمون بامرها ويولونها عناية خاصة. فقاموا باصلاحاتها منها شق الطرق وربطها بشبكة برية ممتدة من حي ميماس حمص حتى مصياف مارة بخربة الجاموس، وخربة السوداء، وام محناية وشرقي تليل، وغربي كفر لاها وتلذهب. وهذا مما يدل على عناية الدولة الرومانية بربط هذه المناطق ببعضها البعض. وهذا كان بمساعدة الدولة الرومانية. وقد دلت اكتشافات علماء الاثار للمعالم الواضحة للطرق الرومانية كما دلت الاكتشافات الاثرية عن مدن قائمة في منطقة حمص ممتدة على مسافة ـ ١٨٠ كيلومتر على ضفاف نهر العاصي.

ويرجع تاريخ تلك المدن الى العهد السلوقي كما ورد في نشرة الاثار. ثم اتم الحمصيون فاكملوا البنيان كما اعتنوا بالمدن العامرة وادخلوا اليها التحسينات والمرافق والخدمات العامة. مما جعل ان تكون مدينة حمص محط انظار الرومان وكل من دخل اليها وشاهدها.



حمص / الشارع الرئيسي

بنـاء المـدن والقـرى حـول حمص وتسميتها بالحصون الخارجية:

اشهر المدن التي بنيت حول المدينة:

بعد ان استتب الامن لسكان حمص وبدأوا يفكرون باقامة مدن لحمايتها ودرء الاخطار عنها، وكان من اشهرها: (قادس ـ أو قادش) مدينة حصينة بنية فوق تل يعرف بتل النبي مند، تبرز في وسط سهل مكسو بنضارة العشب النابت فيه، تخترقه الجداول والاقنية المتفرعة من نهر العاصي وتكتنفه المياه من كل الجهات بحيث لا يستطيع الوصول الى المدينة الا باجتياز الجسر الذي انشىء لهذه الغاية. وقادس هي اقدم مدينة حربية تقع في مكان تل النبي مند، وكان الغرض منها حماية مدينة حمص الواقعة في الداخل منها.

مريامون:تقع غربي مدينة حمص في سفح جبل الحلو في موضع القرية المسماة ـ مريمين ـ وتكون مثل مدينة جبيل في القدم من التاريخ. وقال المكتشف الاثري (دوسو) يرجع تاريخ بناء المريمين الى الالف الثانية قبل الميلاد. وجاء ذكرها في الوثائق المصرية المتعلقة بقادش أو قادس، وكانت هذه المدينة في ايام الفينيقيين متاخمة املاك ارادوس (ارواد) وهي من احكم المشارف على وادي العاصي بين حمص وحماة.

وقد بنى الحمصيون القدماء هذه المدينة في موقعها مما يدل على براعتهم ومعرفتهم بعلم الطوبوغرافية العسكرية لأنها من افضل المعاقل لرد الغزاة.

قطنة، قرية المشرفة: قطنة مدينة تاريخية تقع شرقي حمص في المكان الذي قامت فيه قرية المشرفة الان والواقعة على مقربة من دمشق، وقد دلت الاثار على انها كانت مدينة عظيمة ذات اسوار وابواب كبرى وفيها قصر ملكي عظيم وهياكل، وقد اصبحت المدينة معروفة لورود اسمها في بعض الاثار المصرية وعلى الاخص في الالواح التي اكتشفت في تل العمارنة وان هذه المدينة كانت مركزا هاما للمراسلات السياسية بين فراعنة مصر وحكام سورية. وقد عثر في هذه المدينة على تمثال كامل لابي الهول المصري اهدته للمدينة احدى اميرات السلالة الثانية عشره (٢٨٥١ ـ ٢٦٠٠ قبل الميلاد) المدعوة ايتان.

القلعة: تقوم قلعة حمص في الطرف الجنوبي الغربي من حمص القديمة على رابية طبيعية، وتحتوي هذه القلعة على مجموعات اثرية رومانية وبيزنطية وعربية.

ويوجد في القلعة برجان من العهد الايوبي احدهما في الزاوية الشمالية الشرقية، والثاني في الزاوية الشمالية الغربية، واما تحصيناتها فترجع الى العهدين المملوكي والعثماني، واكثر من اهتم بقلعة حمص الملك (شيركوه) عم صلاح الدين الايوبي.

بناء السور الداخلي:

ان الذين بنوا السور الداخلي لحماية المدينة من الهجوم ومن شر الغارات عليها هم: الحثيون، والاراميون، وحصنه الرومان. وان هذا السور يحيط بالمدينة مثل احاطة الاسوار بالزند، وكان على شكل مستطيل مدور الزوايا، وتقع مساكن المدينة داخل السور، وتتالف من ابنية متباينة المنظر تفصلها عن بعضها ازقة ضيقة ليست بالمستطيلة ولا المستقيمة منها المسدود، ومنها ما يصل الى ابواب المدينة. ويوجد في المدينة سبعة ابواب: وهي باب المسدود ويقع شمالي القلعة، وباب التركمان وباب السباع يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، وباب الدريب وباب تدمر يقع في الناحية الشمالية الشرقية، وباب السور يقع في الناحية الغربية حيث كانت تعقد عنده صفقات البيع والشراء، واخيرا باب هود يقع في الناحية الغربية. وهذه الابواب فتحت في كل جهة من الجهات الاربع للسور. حيث تقع القلعة في الزاوية الجنوبية الغربيةوهي تشبه في طراز بنائها قلعتي حلب وحماه. وكان قد بلغ ارتفاع السور حوالي عشرة امتار، ويبلغ عرض حائطه حوالي اربعة امتار، وكله مبني بالحجر الاسود، وتوجد على السور ابراج بارزة وله فتحات ضيقة خصصت للجنود ورماة الاسهم والنبال، ويحيط بالسور خندق عميق يملاء بالماء في ايام الحروب لمنع العدو من الاقتراب الى المدينة.

الخلاصة:

تعتبر مدينة حمص المدينة الثالثة في سورية بعد دمشق وحلب في اتساعها واهميتها، وهي تقع في البادية شرقا ونافذة البحر غربا (وتكون فتحة طرابلس وتل كلخ) وهي في متسع عريض من الارض الخصبة الحمراء، وتشكل عقدة مهمة للمواصلات في سورية وما جاورها من الاقطار العربية.

وحمص لا يوجد فيها مباني قديمة متقنة تعود الى ما قبل الميلاد لتستهوي افئدة السياح وهواة الاثار كما في المحافظات المجاورة لها، وقد اكتسح العمران اكثر اوابدها الاثرية وكان اخرها الصموعة التي تسمى قبر قيصر والتي بناها شسيفر الثاني، والتي هدمت قبل الحرب العالمية الاولى. وان بقية ما تبقى من حجارتها الاثرية اقتلعها الشعب الحمصي وشيدوا فيه دورهم ومساكنهم هذا مما قضى على تاريخ واثار المحافظة وطمس معالمها الاثرية والعمرانية والتي تعد من اهم مدن المحافظات السورية التاريخية والاثرية.

محمد الفاكياني

دمشق ـــ الجمهورية العربية السورية

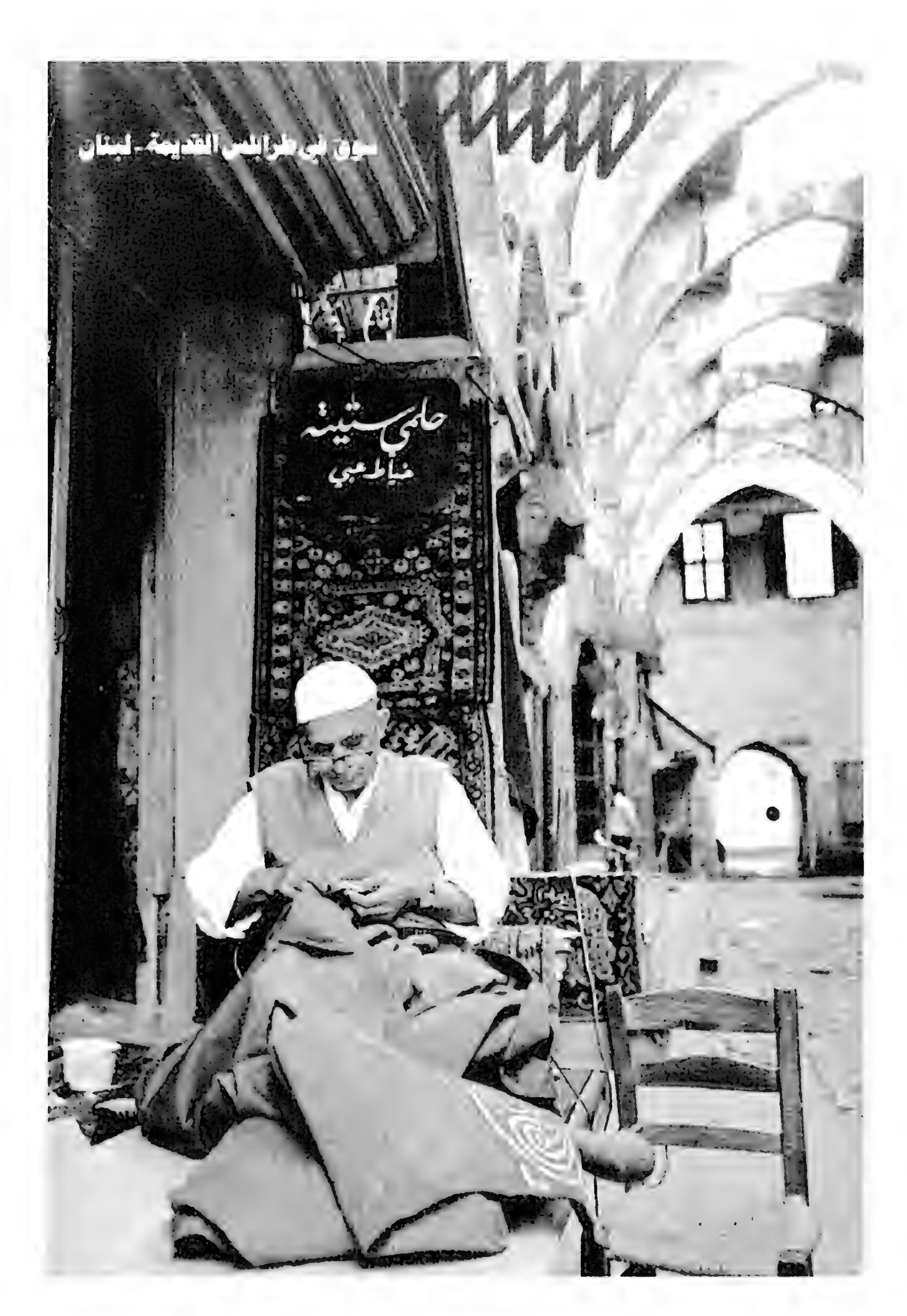
مصادر البحث:

ـــ رحلة ابن جبير، طبعة مصر ١٩٠٨.
ـــ رحلة ابن بطوطة.
ـــ معجم البلدان لياقوت الحموي.
ـــ مقدمة ابن خلدون.
ـــ نشرة الأخبار الأثرية.
ـــ تاريخ الخوري عيسى أسعد.
ـــ الحوليات الاثرية، سليم زهدي، ١٩٥٦.
ـــ مجلة العمران.



الزواج الصالح لا يقوم على أساس من الصراحة التامة، بل على أساس من الصمت الحكيم.

(موريس ارنست)

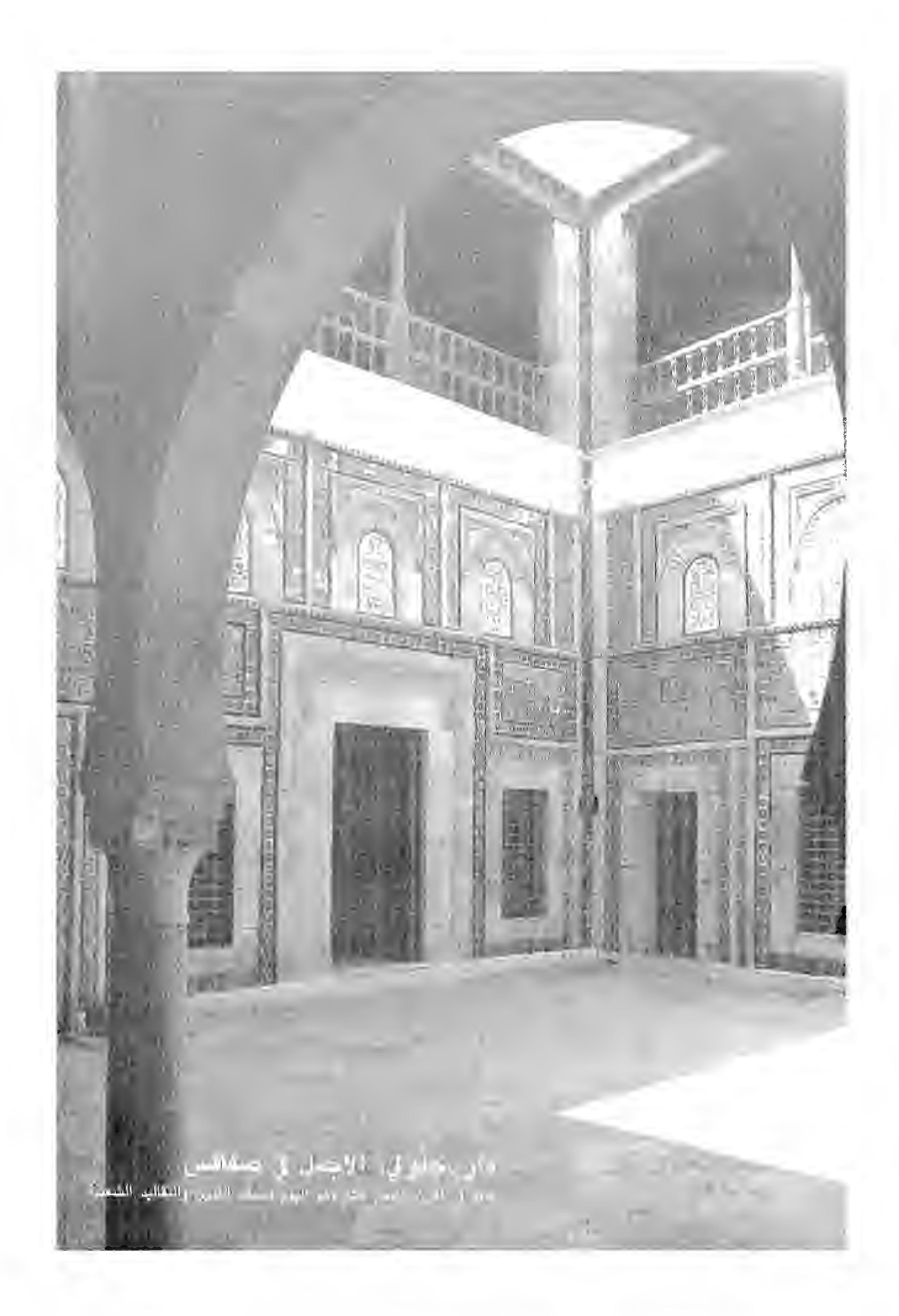


سوق في طرابلس القديمة - لبنان



السنة الرابعة • العدد الواحد والأربعون • آذار (مارس) ١٩٨٢م • الموافق جمادى الأولى ١٤٠٢هـ

مقام سيدي قاسم الجليزي
تونس العاصمة



دار جلولي الأجمل في صفاقس

الافتتاحية

بين يدي هذا العدد

إنه مدعاة للسرور والاعتزاز لمجلة «تاريخ العرب والعالم» وأسرة تحريرها أن يخصص هذا العدد من المجلة للقطر العربي التونسي الشقيق.

وهذا العدد هو ثاني عدد متخصص يفرد لقطر عربي. ومع أن لبنان، في تاريخه الحديث خاصة، كانت له علاقات وثيقة ـ ثقافية وتجارية وسياحية ـ مع أجزاء الوطن العربي، بدءاً بجارتيه سورية وفلسطين، وانتهاء بأقطار الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقية، فإن صلته بتونس فريدة في نوعها.

فقبل نحو ثلاثة آلاف سنة خرجت اليسار الفينيقية من صور، على الساحل اللبناني، الى الغرب، واستقرت في تونس، حيث انشأت ـ هكذا تقول الرواية التاريخية ـ مدينة قرطاجة. وهذه الابنة الفينيقية اللبنانية، بعد أن صارت بونية وتجذرت في أرض تونس، أصبحت أماً لعدد من المدن والقرى والمراكز التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي، وكوّنت لها امبراطورية امتدت من طرابلس (ليبيا) إلى طنجة (المغرب). وهذه الامبراطورية القرطاجية هي التي قارعت رومه، الامبراطورية الناشئة، وتبادلت معها، على أيدي أبطالها الكبار، مثل هنيبال (حنيبعل)، النصر والهزيمة، حتى تغلبت عليها رومه سنة ١٤٦ ق.م. وقضت عليها. لكنها كانت قد نشرت في تلك الرقعة الواسعة الكثير من أمورها الحضارية من الحَرْف إلى الحِـرَف إلى الزراعة إلى التجارة. ومن هنا كانت هذه الرابطة القوية بين لبنان وتونس. أما في العصور الحديثة فلعل خير ما يدل على هذه الرابطة أن جريدة «الرائد التونسي» (التي أنشئت سنة ١٨٦١) كان أحد الذين عملوا على اخراجها لبناني من اسرة كميد.

وأهمية المشاركة الفعّالة والضرورية بين الأشقاء العرب لا تقوم فقط على استمرار مثل هذه الخطوات الرائدة، بل في التعاون الثقافي الفاعل، خاصة في هذه الأيام العصيبة حين يتعرض فيها الوطن العربي لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط، وإنما تستهدف التشكيك بتراثنا، ليكون هذا التشكيك والهدم، مقدمة لإضعاف مقاومتنا أمام هذا الغزو الفكري الجديد.

وما كان لمجلة «تاريخ العرب والعالم» أن توفق في اخراج هذا العدد لولا ان تفضل عدد من الأخوان التونسيين في الاسهام به. وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ محمد مزالي رئيس وزراء تونس. والأستاذ مزالي من اهل القلم وقادة الفكر في تونس قبل ان يكون من رجال السياسة البارزين. فهو منشىء مجلة «الفكر» التونسية، التي نقلت الى العالم العربي آثار المفكرين في ذلك القطر وجيرانه في المغرب العربي قبل أن تقوم بذلك أية مجلة أخرى.

والبشير بن سلامة، وزير الشؤون الثقافية، هو الآخر من اهل القلم الكبار في تلك الديار ورئيس تحرير مجلة «الفكر» والذي يدعو باستمرار الى نهضة عربية اسلامية متلائمة مع عالمنا الحاضر. ولسنا نريد أن نضع بين أيدي القراء تعريفا بالكتاب التونسيين في هذ العدد، فآثارهم واضحة فيه.

فإلى كل من هؤلاء الإخوان الأفاضل الذين أعانونا على إعداد هذه الدراسات، توجه مجلة «تاريخ العرب والعالم» وأسرة تحريرها خالص الشكر، على أمل ان نعود الى العمل الثقافي العربي المشترك معهم في المستقبل.

«اسرة التحرير»

تاريخ العرب والعالم

العدد ٤١ • آذار ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	: ٥ ل.ل.	تونس	: ١ دينار
العراق	: ٨٠٠ فلس	الكويت	: ٧٠٠ فلس
السعودية	: ٨ ريال	الامارات	: ٨ درهم
الأردن	: ٥٠٠ فلس	قطر	: ٨ ريال
البحرين	: ٨٠٠ فلس	عدن	: ٨ شلنات
مسقط	: ٨٠٠ بيزة	المغرب	: ٦ درهم
فرنسا	: ١٠ فرنكات	بريطانيا	: جنيه استرليني
سوريا	: ٦ ل.س.	اميركا	: ٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 4 No. 41, MAR. 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■





السؤال الأول:

هل توجد مدرسة تاريخية تونسية؟ ما هي ملامحها قديماً وحديثاً؟

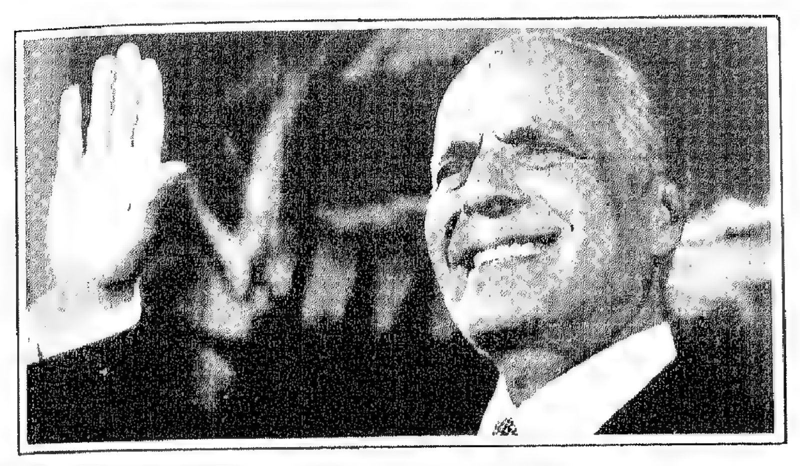
الجواب:

ان الحديث عن المدرسة التاريخية التونسية قديماً وربما المدارس التاريخية التي عرفتها تونس، يقودنا إلى أحقاب تاريخية بعيدة تعدو بنا إلى عهد ابن خلدون. وأنه لمن نافلة القول أن أؤكد هنا في اجابة سريعة عن هذه الأسئلة على منزلة ابن خلدون كمنظر ومؤرخ ومؤسس لعلم الاجتماع وقد تناولت هذه القضية في أكثر من موضع وخاصة في محاضرة ألقيتها في افتتاح ملتقى ابن خلدون الذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع وزارة الشؤون الثقافية بتونس منذ سنتين.

أكتفي هنا بالاشارة إلى المنهج الواقعي العلمي الذي استند إليه ابن خلدون وتأثيره المتواصل في الفكر التاريخي التونسي، وإلى أن هذا المفكر العربي الكبير إنما هو مفكر تونسي، ولست أرى تناقضاً بين طابعه العربي الشامل وبعده الانساني المؤكد من جهة وانتمائه إلى تونس منطلقاً ومنشأ ومهداً لتكوينه وبناء فكره من ناحية ثانية.

أما في العصر الحديث فقد تجلت ملامح واضحة لمدرسة تاريخية تونسية تتميز بخصوصيات معينة ولعل الرئيس الحبيب بورقيبة هو أبرز من يمثلها بما قدمه، في مناسبات مختلفة، وبنى عليه نضاله المستميت من تحاليل تاريخية هامة تميزت بالعمق والطرافة وبالنظرة الواقعية الدقيقة إلى تاريخ تونس وما تحقق فيه من مساهمات ايجابية على المستوى الإنساني، ولم يغفل في الوقت ذاته، عن جوانب الضعف والخذلان وأسباب التقهقر والضعف في عهود طويلة من تاريخنا الوطني.

بذلك ساهم الجهد البورقيبي في بناء المدرسة التاريخية التونسية الحديثة بتخليصها من منزعين شائعين يسيئان إلى الحقيقة التاريخية ويعرضان الوعي التاريخي إلى أخطاء خطرة: منزع تمجيدي يقوم على التغني بالماضي وكأنه ملاذ نطلب العودة إليه وجملة من الأمجاد لا سبيل الى تناولها بالنقد ولا الى اخضاعها للتحليل العلمي. ومنزع استعماري عنصري إلى



الرئيس الحبيب بورقيبة

تاريخ تونس على أنه عهود من الظلام تتخللها ومضات براقة من شعوب وافدة غازية.

السؤال الثاني:
كيف ترون دور المدرسة التاريخية التونسية الحديثة في اعادة الاعتبار إلى تاريخ تونس الحديث والمعاصر وتنقيته من النظرة الاستعلائية والتحقيرية التي سلطتها عليه المدرسة التاريخية الاستعمارية (قوتيي...).

الجواب:
أشرت في الاجابة على السؤال السابق إلى أن المدرسة الاستعمارية العنصرية قد امتهنت تاريخ تونس، ونظرت إلى هذه البلاد على أنها ملتقى لحضارات وافدة: فينيقية ورومانية وبيزنطية... وحتى عربية إسلامية.

وتجاهلت، عن قصد أو عن غير قصد، دور التونسيين في بناء هذه الحضارات الإنسانية وما قدمته تونس إلى البشرية جمعاء من رجالات ومآثر خالدة على مر الدهر. فكأن تونس في نظرهم ليست أكثر من وعاء لهذا التاريخ.

ولقد سبق لي أن حللت، وخاصة في كتابي «مواقف»، الأسس الكبرى للمدرسة التاريخية التونسية الجديدة وما ينبغي أن يكون لها من موقف إزاء النظرة الاستعمارية لتاريخنا. وأبرزت ذلك في جملة من المبادىء أشير منها هنا إلى النقاط التالية:

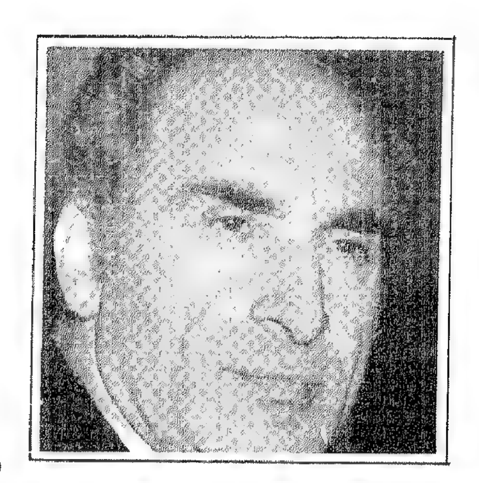
١ ــ دراسة تاريخ تونس دراسة موضوعية ومنصفة تقوم على إرادة كشف الحقيقة ولا تنبع من كراهية وتعصب «دراسة تتصف على الأقل بالحياد النفساني لا التحقير والازدراء».

يجب أن ندرس تونس لا بوصفها كانت في وقت ما مقاطعة رومانية أو فرنسية كما كان الأمر في عهد الحماية، بل ينبغي أن ندرس تونس من حيث هي دولة وشعب وحيز جغرافي لها تاريخ ومميزات... ليس من المعقول أن نقول «تونس الرومانية» بل تونس في عهد الرومان.

وانه لمن دواعي الارتياح أن نشهد تغير النظرة إلى تاريخ تونس لدى عدد من المؤرخين الأوروبيين أنفسهم إذ تجاوزوا مقولات «قوتيي» و «رينان» وأشباههما واكتشفوا ضلال هذه النظرة العنصرية.

يقول المؤرخ «بيكار» في كتاب له عن حنبعل: «هل نحن، يعني المؤرخين الأوروبيين، ضحية جهل مطبق إزاء حنبعل وإزاء تاريخ هؤلاء القوم بصفة عامة؟ وهل هناك عملية تجهيل أو عملية كذب جماعية استمرت قروناً كان ضحيتها حنبعل ومن كان في مثل شجاعة حنبعل من رجالات هذه البلاد»؟.

٢ ــ ان الأساتذة والباحثين التونسيين هم المعنيون قبل سواهم بخدمة تاريخ تونس، ولقد أصبح لدينا عدد هام من المؤرخين التونسيين الأكفاء الذين سلطوا أضواء جديدة متميزة على تاريخ بلادهم في مختلف العهود وساهموا بقسط وافر في تغيير النظرة الاستعمارية المتعصبة إزاء



رئيس الوزراء السيد محمد مزالي

هذا التاريخ.

٣ ــ ان دراسة تاريخنا الوطني بهذه الصورة المتسمة بالموضوعية وتجاوز الاتجاهات المغرضة من شأنه أن يساهم في تعميق وعي صادق بالتاريخ لدى شبابنا ويوطد ثقة الشبان بأنفسهم وببلادهم، ويؤكد قدرة أمتهم على العطاء والاسهام الايجابي في صنع تاريخ الانسان ويجنبهم عوامل الزيغ والاغتراب.

لذلك نرى رئيس الدولة يحرص بصفة متواصلة على العناية بالتاريخ، ولقد جمع في سنة ١٩٦٣ عدداً كبيراً من المؤرخين والأساتذة المختصين بمدينة الكاف وألقى بينهم خطاباً حثهم فيه على العناية بالتاريخ وعلى التاليف في تاريخ تونس من العصور الأولى إلى العصور الحديثة.

ولقد ظهرت بوادر هذه الدعوة الصادقة بظهور تقدم محسوس في هذا المضار أصبح اليوم واضحاً جلياً إذ قطعت خطوات في كتابة تاريخ تونس على هذا النحو المأمول.

٤ ــ ان دراسة تاريخ تونس تلقي أضواء هامة على سياستنا الحالية وما نتخذه من اختيارات وأساليب في بناء تونس المعاصرة.

بل ان الكثير من اختيارات رئيس الدولة مبني على نظرة عميقة متفحصة لتاريخ تونس وما شهده من عوامل القوة والضعف والوحدة والتشتت.

ويعد الرئيس بورقيبة من أبرز القادة القادرين على الاستفادة من تاريخ بلادهم وعلى إدراك أبعاده وخفاياه واستخلاص الدروس الملائمة منه.

السؤال الثالث:

لقد قامت مجلة «الفكر» بدور مهم في بناء الثقافة التونسية الحديثة. هل يمكن لكم سيدي الوزير الأول أن تحددوا لنا ملامح هذا الدور؟

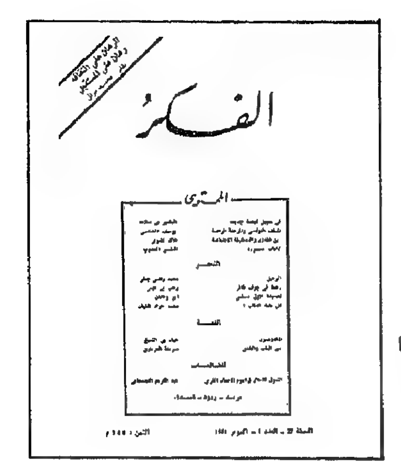
الجواب:

دخلت مجلة «الفكر» في شهر أكتوبر ١٩٨١ في سنتها السابعة والعشرين فهي، بلا منازع، من أرسخ المجلات العربية قدماً وأطولها نفساً وأقدرها على التواصل والاستمرار.

وربما كان غيري أولى مني، وأنا صاحب هذه المجلة ومؤسسها، بالحديث عن دورها في بناء الثقافة التونسية الحديثة، وقد كتب الكثير وقيل الكثير في هذا الموضوع، وأعدت دراسات جامعية عن مجلة «الفكر».

لذلك أكتفي، في الاجابة على هذا السؤال، بالاحالة على ما قاله غيري وتأكيد نقاط أساسية لا بد أن تذكر هنا:

أولاها أن هذه المجلة هي أساساً مغامرة نضالية صدرت في ظروف ومرت بمراحل لم تستطع أن تصمد فيها مجلات كثيرة مماثلة وقبلها وبعدها، وكان تحديها الأساسي في قدرتها على مواصلة الاضطلاع برسالتها مهما كانت الصعاب والعقبات، ولم تزل تواصل هذه المسيرة،



مجلة «الفكر» التي اسسها السيد محمد مزالي منذ سبع وعشرين سنة

وقد آليت على نفسي وقلت هذا في الاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيسها، ان تستمر هذه المجلة وتتواصل ما دمت على قيد الحياة إن شاء الله.

وثانيها أن مجلة «الفكر» قد آمنت منذ نشأتها ولم تزل مؤمنة بمناهضة العجز ورفض التواكل والتسليم بالقصور، فأكدت قدرة تونس على أن تساهم بدور ايجابي على المستوى العربي الإسلامي، وعلى المستوى الإنساني أيضاً وأثبتت ذلك بالفعل بما نشرته من وجوه الانتاج وبما بشرت به من امكانيات الابداع والخلق. وانه لم دواعي فخرها أن كانت وما تزال مجالاً للأقلام المبدعة والكفاءات المتطورة، وسبباً من أسباب بروز طاقات تونسية هامة أصبحت الآن تصنف في مستوى عال وتنزل منزلة متميزة في حياتنا الأدبية والفكرية.

وثالثها أن هذه المجلة قد رفضت دائماً كل وجوه التعصب والانغلاق المذهبي وغير المذهبي، وآمنت بالتطور وحوار الاتجاهات وتمسكت بحرية الفكر مبدأ لا تحيد عنه. ففتحت صدرها لاتجاهات فكرية ومذاهب أدبية متنوعة ولم تنزلق إلى الاختيارات الظرفية الضيقة، ومارست حرية التعبير قولاً وفعلاً.

ورابعها انها استندت دائماً إلى جهود صفوة من الأخلاء في خدمتها من منطلق نضالي لا يعرف الكلل ولا يتسرب إليه اليأس. وأنها لتعتز بهذه الصفوة من أسرتها الضيقة كما تعتز بأسرتها الواسعة من رجالات الأدب والفكر بتونس وبسائر الأقطار العربية الشقيقة.

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت هذه المجلة، وستظل بإذن الله، مرجعاً أساسياً لحركة الفكر وحياة الثقافة في تونس، وملتقى للأقلام المغربية والعربية، ومجالاً مناسباً لتطور المواهب وممارسة الابداع ويقظة الفكر.

السؤال الرابع:

لقد جمعتم صفتي رجل الثقافة ورجل السياسة في نفس الوقت... فكيف التوفيق بينهما؟ وهل شعرتم في وقت ما بغلبة أحداهما على الأخرى؟

الجواب:

ألقي علي هذا السؤال في أكثر من مناسبة ولست أجد في الواقع أي تناقض أو تزاحم بين البعد الفكري والبعد السياسي لنفس الشخص.

ذلك أن الفكر إنما هو رؤى ومفاهيم وأحلام ومنهج في النظر والتحليل والفهم، وهل السياسة غير النضال من أجل تجسيم جملة من القيم والمفاهيم والمطامح على مستوى الجماعة وضمن معادلات وملابسات واقعية معقدة؟

ان أعظم منجزات الإنسان كانت في يوم من الأيام حلماً، وإني لواجد في القدرة على نقل هذه الأحلام إلى الآخرين عبر الكلمة المؤثرة والفكرة المثيرة خير سبيل للبناء السياسي ودفع المجتمع إلى الأفضل.

لذلك لا أجد بصراحة أي تناقض أو تزاحم بين الجانبين.



حول تاريخ الحركة الوطنية في تونس

بقلم : السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية

ان المتصفح لوقائع وأحداث الحركة الوطنية التونسية يصطدم بغزارتها وتعقدها نظرا الى أن من صنعوا هذه الأحداث ومن شاركوا فيها ما زالوا يمسكون بزمام الأمور ويصنعون تاريخ بلادهم. ولهذا فان مجرد سرد الأحداث وتحليلها فقط من الناحية التاريخية، باب لا يمكن غلقه، ولا بد من تقصي جميع الجزئيات. ولهذا فان ما أريد أن أبينه في هذا الفصل هو محاولة طريفة لتنزيل الحركة التحريرية التونسية في نسق نظري يعتمد النظرة التاليفية التي على أساسها نسجت كل الأحداث.

لقد سميت هذه المحاولة النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي(*)، واعتبرت أن كل مراحل الكفاح التحريري والحركات الوطنية التي ظهرت في البلاد التونسية تعتمد فهما مضبوطاً لتاريخ البلاد وتصوراً محدداً للاستقلال والارتباط بمجموعة أوسع. هذه الركائز الثلاث التي تعتمد عليها الحركة التحريرية التونسية هي التي حملت كلّ الزعماء على أن يسلكوا سلوكاً معيناً، وخاصة الذين أثروا في الجماهير وتمكنوا من حشدها ووضعها

(*) راجع لصاحب المقال كتاب «النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي» مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله ــ تونس.

سداً في وجه المستعمر.

وأني لا أريد أن أنكر ما قامت به بعض التنظيمات في غمرة هذه الأحداث وانما غايتي في هذا الفصل هو التركيز على الحركات التي كان لها تأثير على الجمهور وسارت في نسق معين يرتبط بتاريخ البلاد القديم والحديث، وانفعالهم تجاه مفهوم الاستقلال ونظرتهم الى ارتباط تونس بمجموعة أوسع.

عندما ننظر الى تاريخ تونس الحديثة من خير الدين الى الحبيب بورقيبة مروراً بحركة الشباب التونسي، وحركة الحزب الدستوري القديم، فاننا نصطدم بهذه الظاهرة التي ما انفك يرددها أمثال البشير صفرو وعلي باش حامبة، ومحمد باش حامبة، وعبد العزيز الثعالبي، والحبيب بورقيبة، والتي تتصل بهذه الركائز الثلاث التي تحدّثت عنها. فكلهم احتموا بتاريخ تونس العريق، من الفترة الفينيقية الى الفترة الرومانية، الوندالية، والبيزنطية، والتركية، والفرنسية، وكلهم درسوا تاريخ البلاد وعرفوا الأطوار التي مرّ بها سكان هذه الرقعة الجغرافية، وما كان يتوق اليه هؤلاء من استقلال بالدعوة لأنفسهم، كما يقول ابن خلدون، ومن ثورة على الغاصب وتمرّد على الغزاة وتبينوا أن هذا التاريخ ليس هو مجرّد أحداث وثورات وانتفاضات بل ان أهل هذه البلاد كانوا يتوقون دائماً الى حكم أنفسهم بأنفسهم وطرد الدخيل نظراً الى أن الموقع الجغرافي للبلاد التونسية جعلها نهبة لقوى العالم الموجودة في فترات من التاريخ متوالية، وهو الموقع الجغرافي الذي لم يمكن أهل هذه البلاد من أن تكون لهم في عهود متعددة السيطرة على الأحداث وصنع الحضارة التي يريدونها، فكانوا في دأب متواصل يقلقلون كل نير يريد أن يكبلهم الى الأبد فيطرحونه عنهم باتخاذ عدّة مطايا، تارة الدين، وطوراً المذاهب وغيرها من المفاهيم التي يمكن لهم بواسطتها حشد الجماهير والتأثير عليها.

وكان رائدهم في كلّ ذلك هو الخروج من نير الغاصب وحكم أنفسهم بأنفسهم، ولهذا فان من يستقرىء كل الأحداث التي مرت بها هذه البلاد يجد أنها لم تنفك منذ أن وطئت أقدام الفينيقيين قرطاج في ثورات متوالية ومتتالية، مرة يقاومون قرطاج البونيقية ومرّة أخرى الرومان أو البيزنطيين أو غيرهم حتى جاء الفتح الاسلامي ووجد فيه أهل هذه البلاد المبادىء التي تمكنهم من أن يشعروا بانسانيتهم ويمتلكوا كمال وعيهم بمساواتهم لكل البشر، وبكلمة أوضح وجدوا في الأخوة الاسلامية الفكرة الأساسية التي بها يتحكمون في مصيرهم ويصلون الى ما تاقوا اليه منذ سحيق الأزمان من الاستقلال ومن تحكم في المصير.

لهذا فان الناظر الى تاريخ البلاد بهذه الصورة يتبين له في الواقع أن هذا هو الجامع المشترك لكل من أرادوا صنع تاريخ هذه البلاد. فكان خير الدين التونسي رغم أن توليه الوزارة الكبرى سبق الاستعمار الفرنسي الذي كانت ضغوطه وعلائمه موجودة منذ أن احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، فانه فهم أن البلاد التونسية يجب عليها أن تتمسك بشخصيتها وأن ترتبط بالخلافة العثمانية ارتباطاً متيناً.

ولكن تصور خير الدين التونسي لهذه المعطيات الثلاث ثم بعده جماعة حركة الشباب التونسي وعبد العزيز الثعالبي يختلف تمام الاختلاف عن تصور الحزب الجديد، أي حركة الحبيب بورقيبة، فاذا كانت الجماعة الأولى تعتبر أن تاريخ البلاد انما هو مرتبط بفترة معينة تخدم نظرتهم المحدودة للاستقلال، فان حركة الحزب الجديد كان لها تصور خاص لتاريخ البلاد يقرأ حساباً لجماهير الشعب التي كانت دائماً في وجه الغاصبين والغزاة وهو ينبني على حشد قوى كل المواطنين واعتبار أن هناك مدّاً متّصلاً يربط كل هذه المجموعة بتاريخها القديم أي أن هناك مقومات واضحة المعالم لم تزل تدفع الجماهير لخوض المعارك ولتخليص البلاد.

واذا كانت الجماعة الأولى تعتبر استقلال البلاد ليس الاّ مجرد شكليات ولا يمكن للبلاد على هذا الأساس أن يستقيم لها أمر، ولا تقوى الاّ بارتباطها بالخلافة العثمانية وبجامعة أخرى تختلف أسماؤها حسب الظروف، فان الحزب الجديد يعتبر أن استقلال البلاد انما هو ليس شكلاً فقط، بل هو أيضاً مضمون يرتكز على

الشعور الحاد بوطنية مكينة، ولكنها أيضاً تعتبر أن هذا الكيان المستقل انما هو جزء من أمة عريقة في المجد، ألا وهي الأمة العربية الاسلامية. فبقدر ما كان يناضل زعماء الحزب الجديد من أجل استقلال البلاد وتخليص السيادة التونسية من براثن المستعمر، ومن كل ما يشوب الوطنية الحق من الشوائب، فانهم يعتبرون أن تونس هي عربية مسلمة، وأن الكفاح من أجل تحرير تونس ليس هو مجرد تخليصها من حكم دولة أخرى لأن ذلك لا يكون له المعنى الصحيح بل ان الغاية كانت ارجاع كل ما وفرته الشخصية التونسية من أرضية حقيقية تتمثل في الانتماء الى الأمة العربية الاسلامية.

فكان الزعماء، وكذلك الجماهير تناضل من أجل أن تكون اللغة العربية في المحل الأرفع، وأن يكون الاسلام لا مجرد طقوس وتقاليد وعادات انبثقت عن عصور الجمود والانحطاط بل الاسلام الذي يحرّك الجماهير ويثري الشخصية ويجعل نفوس التونسيين تواقة الى الالفة والى الأخوة والى خلق الجديد. وبقدر ما كانت الجماعة الأولى مرتبطة بالخلافة العثمانية وبجماعات ليست لها القوة المعنوية الحقيقية خارج البلاد، بقدر ما كان يعتقد زعماء الحزب الجديد أنه من الواجب الاعتماد على كل القوى التحريرية في العالم والاستناد الى التيارات الحقيقية الفعالة في الدنيا فكانت النظرة بعيدة عن الأحلام والتصورات الخيالية والأماني الضائعة والانبهار ببريق السراب. ولهذا فان اختلاف تصور الحركات التحريرية لهذه المعطيات الثلاث هو الذي كان العامل الأساسي في تفجير الأحداث والسيطرة عليها أو انفلاتها من دون أي قدرة على التقيد بالواقع.

واذا اعتبرنا أن الحركة الوطنية الأولى ظهرت على أيدي خير الدين قبل انتصاب الحماية لأنها في واقع الأمر تكتسي كل سمات الحركات التي جاءت فيما بعد، فان حركة الشباب التونسي المتكونة جماعتها من نخبة سهر على ابرازها خير الدين نفسه هي التي تولت أخذ المشعل من يده والسير في الدرب الذي سلكه في التمسك بأصالة هذه البلاد ودرء ما تردى اليه المجتمع التونسي من رواسب التخلف والانحطاط والجور التي كانت السبب الأصلي في انتصاب المستعمر، ولكن خير الدين لم يكن في مجال الوطنية واضح التفكير لأنه كان ممزقاً بين الارتباط المتين بالخلافة العثمانية والاخلاص لوطنه تونس فكانت تتمزقه ثنائية غريبة.

غير أن جماعة الشباب التونسي بدأوا يشعرون شعوراً حاداً بكيانهم كتونسيين ونفضوا عن أنفسهم هذه الثنائية لتصبح ايماناً بحقيقة واحدة هي الجزء من كل والجزء في الكل. وظهر هذا التصور واضحاً مع الحبيب بورقيبة وزعماء الحزب الجديد، عندما تمسكوا بالشخصية التونسية العربية الاسلامية واعتبروا أن قوة الحركة هي في قوة الشعب التونسي وفي التفاف صفوفه، وفي ايمانه بأنه يكون ذاتية لها مقوماتها ولا يمكن بحال من الأحوال أن تنفصم، وأنها هي الوحيدة الكفيلة بتخليص البلاد من الاستعمار، وبناء تونس الجديدة. وليس معنى هذا أن تونس ليست جزءاً من الأمة العربية الاسلامية وأنها منفصلة عن الواقع التاريخي لكل هذه الأقطار، بل أن ذلك هو ايمان بأن نهر الأمة العربية الاسلامية لا يمكن أن يثرى ويغزر ماؤه ويكثر خيره الا اذا تنوعت الروافد وأخصبت وأزدهر خيرها. وهي نظرة لا تتضارب أساساً مع ما تنشده كل الأقطار العربية الاسلامية من وحدة. وقد دلت الأحداث اليوم على أن هذه النظرة هي النظرة الواقعية والصحيحة.

في ختام هذا الفصل الذي أردته تلميحاً واشارة فقط يمكن أن نسجل ظاهرة ممتدة الخيوط منذ سحيق الأزمان، وهي تميز الشعب التونسي بخصال تلتقي في آخر الأمر بخصال شعوب أخرى وتتكامل معها لتلتحم في البشرية جمعاء، لأنه لا يمكن مهما كانت الظروف الحافة بشعب من الشعوب أن يذوب في شعوب أخرى بل انه بقدر ما يدافع عن نفسه ويصون كيانه ويخصب ما فيه من مقومات بقدر ما يتجانس ويتلاءم مع الشعوب الأخرى ومع الانسانية جمعاء. ●

د. إحسان عبّاس

يعد الامير الحفصيّ محمد بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الملقب بالمستنصر (٦٤٧ـ٦٧٥هـ/ ١٢٤٩ـ١٢٧٧م) من أعظم أمراء الحفصيين ان لم يكن أعظمهم، من حيث المنشآت العمرانية والمؤسسات التي قام بها، ومحاولته بسط سيادة العدالة والأمن في أرجاء دولته، وتشجيعه للعلوم والآداب، وخاصة بعد أن تجمع حوله عدد من العلماء والادباء الأندلسيين على أثر سقوط اشبيلية وبلنسية وقرطبة. وتتفق المصادر المغربية والمشرقية على ابراز هذه النواحي وغيرها، ولكن الأمر اللافت للنظر أن المصادر المشرقية تهتم بايراد بعض التفصيلات التي لاتجدها فيما بقي لدينا من مصادر مغربية خاصة بالحفصيين، وفي كثير من الأحوال تغلب على المصادر المشرقية ظاهرة تقترب من مزج التاريخ بالاساطير.

وأهم المصادر المشرقية التي عنيت بالحديث عن المستنصر تاريخ الاسلام للذهبي (الورقة ٤٣ من نسخة ايا صوفيا رقم ٣٠١٤) وعن الذهبي نقل الصفدي في الوافي بالوفيات (٥: ٢٠٢ـ ٢٠٤)، وترد في سيرة الظاهر بيبرس لابن شداد (المتوفى سنة ٦٨٤) تفصيلات في بعض النواحي لايقف عندها المصدران الأولان، ويبدو أن قطب الدين اليونيني (١٣٢٦/٧٢٦) قد طلع على ماأورده ابن شداد فادرجه بتصرف قليل في كتابه ذيل مرآة الزمان (٣: ٢٠٩ ـ ٢١٨).

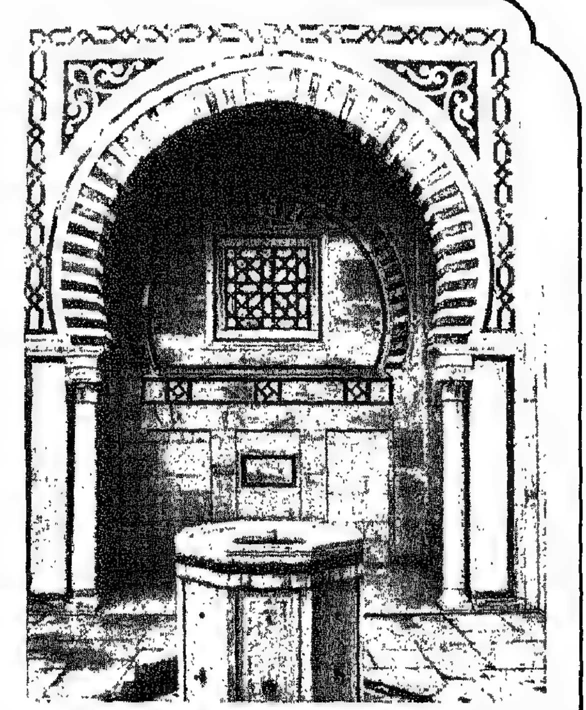
ويبدو أن عنصر الطرافة والاستغراب كان هو الحافز وراء ذلك النوع من الأخبار الذي اهتمت به المصادر المشرقية، وخاصة حين توضع تلك الأخبار على محمل من المألوف في البيئة المشرقية فتبدو وكأنها غير مألوفة أو عجيبة؛ فحين تتحدث تلك المصادر مثلاً عن طبيعة المرتبات التي تصرف للجند في دولة المستنصر فان الذي يثيرها الى إيراد ذلك هو المفارقة التي ترتسم بالمقايسة الى ماكان يجري في المشرق، حيث كان للجند المشارقة اقطاعات معينة (أوما يسمى: الخبز)، أما في دولة المستنصر فالملكية كانت قاصرة على أصحاب الأملاك الموروثة ولا يحق للجند تملك الأرض، وكل سنة تجمع حصلات الأراضي العامة وتقسم في قسمين: ثلاثة أثمان الغلة المجتمعة تقوم الدولة بتوزيعها مرة كل ثلاثة أشهر على المستحقين سواء أكان هؤلاء من طبقات الشعب المحتاجين أو من فئات الجند، فأما الخمسة الأثمان الباقية فهي لبيت المال ومنها ينفق على بناء السفن والمنشآت والمرافق العامة وترميم مايحتاج منها الى ذلك، ومن هذا القسم نفسه يأخذ المستنصر ما يسدّ نفقاته العامة والخاصة.

واذا كان الجند في المشرق يحملون سلاحهم في الظعن والاقامة وفي الحرب والسلم على السواء، فان مما يثير الاهتمام حقاً أن يكون المستنصر قد حكم بنزع سلاح جنده ومنعهم من حمله الا في وقت الحرب، فأما في وقت السلم فإنّ أسلحتهم كانت تؤخذ منهم وتوضع في خزائن معلومة وعلى كل سلاح اسم صاحبه، فاذا لاح في الجو استعداد لحرب حملت العدد والأسلحة على الجمال وأخرجت فوزعت على أصحابها، واستعيدت منهم عند انتهاء الحرب، وهي دائماً محط فحص وتفتيش فاذا قدم شيء منها جدّد، واذا اختل شيء منها أصلح، واذا مات الجندي رتب ابنه في مكانه، فاذا لم يكن له ولد أو وارث صرفت الى جندي جديد.

ولا ريب أن في مثل هذه الأخبار ثغرات تستحق المناقشة: فهي لاتستطيع أن تجيب عن كثير من التساؤلات التي تخامر نفس قارئها. هل كان هذا الاجراء عاماً في ما يتصل بالجيش في كل بلاد الدولة الحفصية أو كان قاصراً على مدينة تونس حاضرة الخلافة؟ وما العمل اذا دهمت حرب ولم يسعف الزمن على دقة التنظيم الذي تتطلبه هذه الخطة؟ وهل من المعقول أن يظل عدد الجيش ثابتاً على مرّ الزمن كما تفترضه هذه الأخبار؟

ولكن المصادر تنسب ايجاد هذه الخطة في شؤون السلاح الى الحذر الذي أصاب المستنصر بعد حادثة اثنين من أعمامه، ارادا الخروج عليه فتخلص منهما، فلجأ الى تلك الخطة تحسباً لخارج جديد، وتطنب المصادر المشرقية في الحديث عن هذين العمين: وخلاصة ما أوردته أن المستنصر لما بويع بالخلافة أحسن معاملة عميّه، ولكن خوفه من قيامهما ضدّه كان دائماً مصدر قلق له، وكان العمان اللحياني وأبو ابراهيم وثلاثة آخرون محط رقابته، وحين ازدادت هذه الرقابة أحسّ بها الخمسة، وعلى وجه الخصوص أبو ابراهيم، فطلبوا ذات يوم الخروج للنزهة فأذن المستنصر لهم بذلك، وخرج في أثرهم متخفياً، حتى إذ دخلوا بستاناً صعد هو إلى شجرة خروب هناك بحيث يسمع ما يقولون. وتقول القصة أنهم تحدثوا بانتزاع الخلافة منه وبايعوا اللحياني، وعندئذ عاد المستنصر فجهز جماعة بقيادة مملوك اسمه ظافر وجماعة اخرى بقيادة مملوك اسمه مظفر ففاجأوا المتآمرين حيث هم وقطعوا رؤوسهم

تلك هي القصة بايجاز شديد واذا نحن عرضناها على ما أورده ابن خلدون وجدنا اختلافات أساسية بين الروايتين: فابن خلدون ينسب التحريض بالخروج الى الوزير محمد بن أبي يهدى الهنتاتي ـ وكان عظيماً في قومه ـ وذلك أنه أراد أن ينتزع تصريف الأمور من يد المستنصر، فلم يفلح، فحقد ذلك عليه وسعى الى التآمر. ويضيف ابن خلدون أن عمي المستنصر أبيا الاذعان لوشوشات ابن أبي يهدى، فلما أخفق في محاولته عمد الى ولد اللحياني، فوجد لديه موافقة تامة فبايعه سراً ووعده بتألف الجند من حوله، وقد استنكر اللحياني الأب هذا الفعل من ابنه (حسب رواية ابن خلدون) وذهب الى السلطان وحذره مما يكاد له في الخفاء، وفي اليوم التالي استمال ابن أبي يهدى مشيخة الموحدين فبايعوا لابن اللحياني، عندئذ جهز المستنصر جيشاً بقيادة ظافر فغلب المتآمرين وقتل ابن أبي يهدى، وذهب ظافر الى دار اللحياني الابن فقتله، ومن غريب تصرفه أنه قتل اللحياني الأب أيضاً كما قتل أبا ابراهيم


ميضاة السلطان بناها السلطان الحفصي أبو عمر عثمان (القرن الخامس عشر).

وابنه، وهم ليسوا ممن شارك في الفتنة.

ان سياق الروايتين يجعلنا نرجح رواية ابن خلدون، ولكن هذا لاينفي ماجاء في الرواية الأولى التي تصور مدى خوف المستنصر من عميه، ولعل هذا الخوف نفسه هو الذي حمل ظافراً على قتلهما، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم بايعاز المستنصر حتى يرتاح باله مما يساوره من قلق.

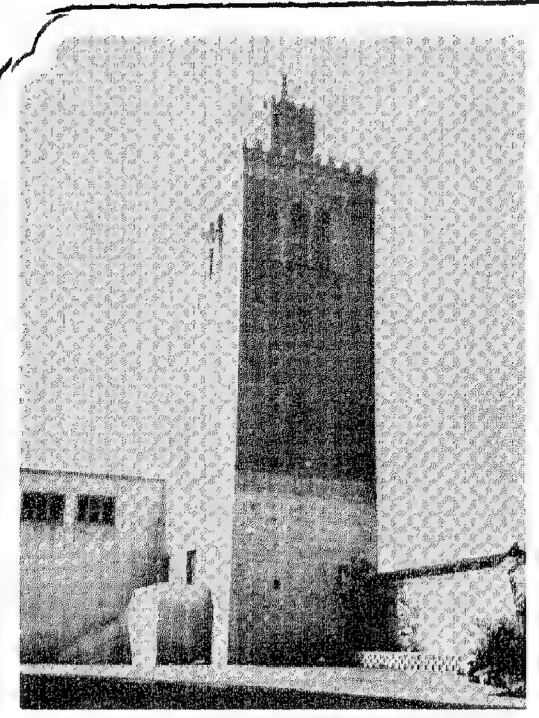
وتضيف الروايات المشرقية الى أن رجل الدولة عبد الله بن أبي الحسين الأندلسي (من بني سعيد) كان مبعداً من عطف الخليفة لأول بيعته (بسبب انتصار ابن أبي يهدى في مناقسته له) وبعد أن هدأت الفتنة كتب ابن أبي الحسين هذا الى المستنصر رقعة يسأله الاجتماع به فلما حضر دلّه على دار كان والده الخليفة يحيى قد أودع فيها من أنواع المال والسلاح مايكون ذخيرة لكل طارىء، وأن تلك الدار لم يكن يعلم بها الاّ ابن أبي الحسين، وأن الخليفة الراحل كان قد أمره بألاّ يكشف أمرها إلاّ بعد استقرار الأمر لأحد من أولاده، كأنما كان يتنبأ بوقوع الفتنة، فسرّ المستنصر بذلك، واستخرج الأموال المودعة ونادى في الرعية بتعويض كل من تلف له شيء أو نهبت له دار في أيام تلك الفتنة، وأعاد ابن أبي الحسين الى سابق منزلته حسبما كان في أيام أبيه.

وتجمع المصادر المشرقية ـ حين توجز ـ على أن المستنصر كان «متحيلاً على بلوغ قصده» ولدى تفسير هذه المقولة تورد نموذجاً غريباً من تحيله في التخلص من بعض العرب (العربان) المشاغبين، وهي لاتقص شيئاً مما تورده المصادر المغربية عن المعارك التي كان يخوضها ضدّ رياح ودباب وسليم وغيرها من القبائل، وبينا يقص علينا ابن خلدون مثلاً كيف استمال المستنصر زعماء الزواودة ثم ضرب أعناقهم تجد الرواية المشرقية تمعن في وصف المراحل المتعددة التي قطعها المستنصر حتى بلغ أربه في بعض تلك القبائل، مفضلاً الحيلة على إنفاق الأموال والتضحيةبالجند في سبيل تلك الغاية. ولما كان هذا البحث لايتحمل ايراد الحكاية بكلّ تفصيلاتها، فاني سأحاول ايجازها متدرجة:

لمس المستنصر أن قبائل من الخلط والدبابيين وغيرهم يميلون الى العصيان وخاصة بعد أن سمعوا عن تنكيله باعراب آخرين،فأقطعهم رغبة في استمالتهم مناطق واسعة منها طرابلس وجربة وزواودة وزواغة وقرقنة ثم دسّ اليهم رجلا يطمئنون اليه اسمه أبويحيى بن صالح وبعث معه بهدايا نفيسة، فرحبوا به واستطاع أن يسيطر عليهم ويأسر قلوبهم لمعرفته ـ فيما قيل ـ بالسيمياء. وبعد بضعة أشهر كتب اليه المستنصر بأن يخطب له ثلاث بنات من الفروع الثلاثة الكبيرة، فزاد اطمئنانهم، وطلبوا الى المستنصر أن يجعل أبا يحيى أميراً عليهم ففعل، ثم بعد مدة استقدم أبا يحيى الى حضرته وقال له: من أراد من العربان أن يحضر معك فليحضر، فصحبه تسعة (من كل فخذ ثلاثة) فأغدق المستنصر عليهم العطايا، وغالى في مهور الفتيات، وتفنن في استغلال سحر الذهب، وردّ الوفد سالمين، مما

زاد في ابتهاج العربان، وبعد فترة دعا من شاء منهم للمثول بحضرته، فخفّ اليه التسعة ومعهم نحو سبعين رجلاً من قومهم، فأنزل كل عشرة منهم في دار وتوسع في النفقة عليهم، وللمرة الثانية عادوا الى مواطنهم سالمين، ثم ان الخليفة أقام احتفالاً لبعض المناسبات دعاهم لشهوده فسارع اليه أمراء القبائل، فزاد في الحفاوة بهم حين جعلهم ينادمونه ويشربون معه، وأخرج اليهم جواري يرقصن بين أيديهم على نغمات الموسيقى، وكان بعضهم قد تردد في الحضور الى مجلسه وآثر تغليب الشك على اليقين، فأجزل للمترددين المنح ووعدهم بأن يبني لهم في القصر قبة خاصة تسمى «قبة العرب» يجتمعون فيها على اختيارهم، ويشربون فيها، ووقع اختياره على معمار قرطبي لبناء قبة ذات ثلاثة أبواب باب للعربان تكتب عليه اسماؤهم، وباب للحاشية، وباب سري للمستنصر نفسه، ثم أسّر الى المعمار أنه قرأ في كتب التاريخ أن أحد الحكام بنى دارا أساسها ملح ثم سلّط عليها الماء فلما ذاب الملح تقوضت الدار على من فيها، فاستجاب المعمار لرغبته، ولما أصبحت القبة جاهزة دخلها واستدعى زعماء العربان للشرب فيها، وبعد مضي الوقت اللازم لبدء الملح في الذوبان اعتذر بما مكنه من الانصراف، وكان ان ذاب الملح وسقطت القبة فوق رؤوس أولئك الزعماء، وكان قد كتب الى ابنائهم بالقدوم واحضار الفتيات الثلاث المخطوبات، فحضروا بعد انهيار القبة، فوجدوه قد لبس ثياب الحداد، وأظهر الحزن وعزى الوفد في أقربائهم، ولم ينس قبل ذلك أن يتخلّص من المعمار لئلا يفضح سرّه.

ان هذا اللون الأسطوري من السرد لا تنفرد به الرواية المشرقية بل نجد شبيهاً له في المصادر المغربية، فهذا الزركشي حين يتحدث في تاريخ الدولتين عن وفاة المستنصر يجعل سبب وفاته أمراً يتجاوز التعب والانهاك في رحلة صيد (كما تقول الرواية التي احتفظ بها المشارقة) اذ يقرن ذلك الانهاك بأنه طرد أحد الحيوانات فدخل مغارة، فلحق به الرجال الى داخل المغارة



منارة جامع الهواء (القرن ١٣م) والمشابهة لمنارة جامع القصبة.

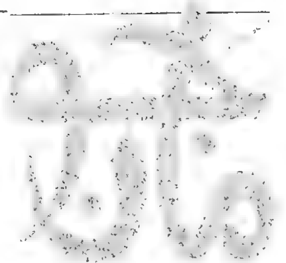
فوجدوا رجلاً يصلي، فلما شاهدهم طلب اليهم أن يتركوا الحيوان وشأنه لأنه «دخيل الفقراء»، فعاد الرجال الى السلطان وأخبروه بما قال الرجل الزاهد المرابط فأصر على صيد ذلك الحيوان، واذا مانع المرابط في ذلك فليوجهوا نحوه الرماح، فلما أبلغوه بما قال السلطان قال لهم: «وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح» ثم طلبوه فلم يجدوا له أثراً وعادوا فوجدوا السلطان قد أفاق من غشية ألمت به بدعوة ذلك المرابط، وما زالت صحته في تدهور واعتلال حتى توفي.

مثل هذه الروايات غير مستغربة في مصادرنا التاريخية، وخاصة حين ترسم المصير لسلطان بعيد الجبروت، ولكن السؤال الذي لم أجد له جواباً — فيما بين يدي من مصادر — هو: من أين استمد المشارقة هذه الروايات التي حفلت بها كتبهم فيما يتصل بالمستنصر؟ هل هي سماعية نقلها السفراء والرحالة والتجار أو هي شيء وجدوه مسطراً في بعض الكتب المغربية؟ أن كان الأمر الثاني فما هي تلك الكتب وأين هي اليوم؟ ●

الصور من كتاب Mosaiques de Tunisie, éditions ceres productions — Tunis

مِنْ عُلَمَاء الزِّرَاعَة في قرطاج

د. محمّد حسين فنطر مؤرخ وباحث بالمعهد القومي للآثار والفنون



إن الحضارة القرطاجية ما زالت تشكو زهد المؤرخين فيها واكتفاء الدارسين والمدرسين بمجموعة من المعطيات النظرية والآراء الجاهزة تجاوزتها الأحداث وتجاوزها البحث العلمي الصحيح وهذا يعود لسببين كبيرين أولهما يتمثل في قلة عدد الاختصاصيين في الدراسات البونيقية ومع قلتهم تراهم ينشرون نتائج دراساتهم وأبحاثهم بلغات أجنبية قل أن يستفيد منها القارىء العربي، والسبب الثاني هو أن الدراسات التاليفية حول قرطاج وحضارتها تكاد لا تتجاوز مستوى التبسيط والعموميات حتى أنك تجد موطآت لا تستند إلى درسات قطاعية دقيقة ومعلوم أن التبسط أو التوطئة لا تكون ذات جدوى إلا إذا كانت منبعثة من دراسات قطاعية دقيقة فالتبسط يعني ضمنياً وجود الدراسات العميقة الدسمة التي لا يدخها إلا المختصون من أهل الذكر، والملاحظ أن الوضع في خصوص الدراسات البونيقية القرطاجية وضع غريب لا يتفق مع المنطق ذلك أن الدراسات المبسطة لا تستند إلى درسات عميقة دسمة ودقيقة. فهناك نظريات ساذجة ومخطئة ظهرت منذ قرون وانتشرت خلال القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين وما زالت حية ترزق في بعض

الكتب التي يتناولها التلميذ والمعلّم والأستاذ والقارىء العادي ممن يريدون اقتناء ثقافة تغذّيهم. ومن بين هذه النظريات نظرية مضمونها أن القرطاجيين كانوا منصرفين إلى التجارة دون اهتمام كبير بالقطاعات الاقتصادية الأخرى وكانوا ممن يحجمون أمام القيم والمبادىء إذا كانت القضية تتعلق بالمال والثروة والكسب. تلك نظرية ساهم المرحوم حسن حسني عبدالوهاب في نشرها في البلاد التونسية عبر كتابه المعروف تحت عنوان (خلاصة تاريخ تونس) الذي نشر لأول مرة في ربيع الأنور ١٣٣٣ هـ وما انفكت دور النشر تعيد طبعه رغم شيخوخته ورغم ما في طياته من ضعف، على أنه من واجبنا التنويه بالمجهود الذي قام به إذ ذاك المرحوم حسن حسني عبدالوهاب لشحذ الحسّ التاريخي لدى الشعب التونسي الذي كان مهدّداً في كيانه وذاتيته من قبل النظامي الاستعماري. فنحن نرسل إليه وهو في مثواه الأخير عبارات التنويه والامتنان ونعتبر كتابه دعوة لمواصلة العمل والبحث في تاريخ بلادنا قديمه وحديثه مسخرين المناهج والوسائل العصرية وسوف لن تتباهى بنا روح هذا الرجل إلا إذا تجاوزنا الحدّ الذي أدركه هو بمناهج عصره ووسائله وظروفه الخاصة ففي خلاصة تاريخ تونس كتب المرحوم عبدالوهاب ما يلي: «في خصوص الاقتصاد القرطاجي وحضارة القرطاجيين الفينيقيين على الاطلاق هم أمّة بحرية لهذا لم يشتهروا بحضارة شامخة ولا مدنية فنية كبيرة بل كانت عنايتهم كلها منصرفة إلى ما ينمي الثروة التجارية والصناعية إلا ما يقال عن اهتمامهم بالفلاحة وغراسة الأشجار وحفر الآبار ولا يبعد أن كانوا هم الذين جلبوا الزيتون من الشام وعنهم انتشرت غراسته بالشمال الأفريقي وفي اسبانيا وقد ترك أحد علمائهم (ماجون) تأليفاً كبير الفائدة في علم الزراعة». فلا شك أن قساوة الحكم الذي أصدره هذا المؤرخ التونسي في خصوص الحضارة القرطاجية موروثة عن أعداء قرطاج وأعداء الحضارات السامية عامة اولئك الذين لا يؤمنون إلا باليونان والرومان وحضاراتهم. فهو حكم اعتباطي مجحف ينطوي على العداء والعنصرية. تلك كانت نظرة الغرب تجاه الحضارة القرطاجية وعمل الغربيون على نشرها في أوساطهم الجامعية والثقافية حتى كان لكل مواطن أوروبي مجموعة من الأحكام الجاهزة في رأسه وتسربت هذه الأحكام إلى إبناء الأقطار المستولى عليها فتقبلوها مبهورين لما لأساتذتهم من علم ووزن واشعاع. هكذا تراهم يتبنون الأحكام والنظريات التي تقدّم لهم جاهزة ويدافعون عنها وكأنّهم ساهموا في صنعها فما دام الأستاذ الأجنبي قدم هذه النظرية أو أصدر ذاك الحكم فلا بدّ أنه على صواب. هكذا كانت الآراء والنظريات تأتينا جاهزة وما زال الوضع على حاله في بعض الأحيان وما زلْتَ ترى بعضهم في تونس أو في غيرها من البلاد العربية يلوكون أقوال أساتذتهم ويذكرون أسماءهم كحجة للأفحام.

ومهما يكن من أمر فلم يغفل المرحوم حسن حسني عبدالوهاب عن التنويه بالزراعة مشيراً إلى اهتمام القرطاجيين بهذا القطاع وذكر اسم أحد علماء الفلاحة عندهم «ماجون».

قضية الاسم:

أنه لمن المفيد أن نتعرّض إلى اسم الرجل وضبطه انطلاقاً من معطيات موضوعية لا تترك المجال للاجتهاد الاعتباطي أو الاجتهاد المجاني فترى بعضهم يكتب ماغون وصِنْفٌ آخر يقول ماجون أو ماجن كما سماه المرحوم عبدالوهاب فما هو الصحيح: ماغون أو ماجن؟ أن الذين يقولون «ماغون» وهي الصيغة الأكثر استعمالاً لكنها الأبعد عن الصواب ينطلقون في تعريفهم الصوتي من المجموعة الصوتية التي يتركب منها هذا العلم في اللغة الفرنسية حيث يقولون (Magon) ويقولون ذلك استناداً إلى المصادر اللاتينية التي أدخلت الاسم في قوالبها الخاصة انطلاقاً مما كانت تلتقطه الأذن اللاتينية حيث كان الفينيقيون ينطقون بقن، مع العلم أن الجيم في أفواه الفينيقيين والبونيقيين كانت تخرج «ڤـ» وهو نطق نجده اليوم في بعض الأقطار العربية كمصر ونجده في اللغة العبرية فاسم الجمل يكتب بالجيم وينطق «ڤمل».

احتفظ الرومان بالصوت «ڤ» واستخدموا لأدائه الحرف الذي عندهم يفي بالحاجة فقالوا



فسيفساء من العهد القرطاجي / مشهد جني الزيتون... (قرطاجة)

«مافو» في حالة الرفع وماڤونيس في حالة الجّر «وماڤونام» في حالة النصب باعتبار أن المادة تتركب من أحرف ثلاثة وهي الميم والفاء والنون.

وفي نقل هذا الإسم من اللغة اللاتينية إلى اللغة الفرنسية لم تكن هناك أي صعوبة لما بين اللغتين من أواصر القرابة ومن تناظر أو تطابق فقالوا (Magon) باحترام قاعدة أساسية تقضي بالانطلاق من المادة الأولية أي من العنصر.

فالذين ينطقون «ماغون» يعتبرون أن صوت «ڤـ» في اللغة الفرنسية مثلاً يمكن تأديته «غ» في لغة العرب فمافون أو مافن يتحول إلى العربية على صيغة «ماغون» هكذا فعلوا ليوڤُرطة فقالوا وقلت يوغرطة بتعويض صوت «ڤـ» بصوت «غـ» وليس هناك ما قد يعلّل تلك المعادلة الصوتية بل هي طريقة اعتباطية أو إجراء يستند إلى اجتهاد يكاد يكون مجانياً على أن قضية يوغرطة لها خصوصيتها حيث بلغنا الاسم عن طريق النصوص اللاتينية ولا ندري كيف كان يكتب بالأحرف اللوبية ولا بالأحرف الفينيقية حتى نتمكن من وضع المعادلة الحرفية عند التعريب أما في قضية اسم العالم الفلاحي الذي نريد التعريف به اليوم فالأمر أيسر وأوضح فعوض أن ننطلق من الصيغة اللاتينية ينبغي أن نعود إلى الأصل البونيقي لا سيما وقد كان ذلك الاسم منتشراً عند الفينيقيين والبونيقيين وورد مسطوراً بالأحرف الفينيقية على عديد من الوثائق فرسم المعادلة الحرفية أمر بسيط يتركب اسم صاحبنا عن ثلاثة أحرف فينيقية وهي الميم والجيم والنون فلماذا لا نستند إلى المعادلة الحرفية في تعريفنا ونقول ماجون أو ماجن أو مجن ونكون أكثر وفاء للواقع اللغوي ولعبقرية اللغات السامية مع العلم أن اسم «مجن» يعني في اللغة الفينيقية الترس وكانوا ينطقونه «مڤن» لأن الجيم كان ينطق دائماً «ڤـ» وفي اللغة العربية نجد نفس المادة المتركبة من نفس الأحرف ولها كذلك نفس المدلول فنقول «مِجَنّ» فلكل هذه الاعتبارات الصوتية واللغوية تراني أميل إلى الصيغة التي تفطن لها المرحوم حسن حسني عبدالوهاب عندما قال ماجن أو ماجون هكذا نكون قد أرسينا الاختيار على قاعدة سليمة وعلى معطيات موضوعية ثابتة ثم باختيار صيغة ماجون أو ماجن أو مجن يمكن الوصول إلى معرفة المعنى المقصود في المادة الحرفية وثابت أن لكل اسم علم معنى ومدلولاً ولا يتيسر إدراكه إلا إذا تم تشخيص المادة الأولية أي «الكتلة الصوتية التي استخدمت لسبك الاسم». فماذا عن هذا العالم في شؤون الفلاحة والمسمى ماجون أو ماجن أو مجن. لقد أثبتت الأبحاث التاريخية والآثارية أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية كبرى نحو الأرض والزراعة ولعل حذقهم للتجارة لا يفوق حذقهم للفلاحة وخاصة للفلاحة التي تستوجب خبرة ومعرفة تقنيات مضبوطة فلنا في كتب القدماء وفي العديد من الشهادات الأثرية ما لا يترك للشك مجالاً في خصوص المستوى الرفيع الذي أدركته الفلاحة في بلادنا خلال العصور البونيقية.

ومما ساعد على بلوغ ذلك المستوى الرفيع دراسات وأبحاث كان يقوم بها ثلّة من الخبراء أشارت إليهم النصوص القديمة لكنها لم تحتفظ إلا باسمين وهما عبدملقرت وماجون. أما عن عبدملقرت فلا نعرف عنه إلا اسمه وقد اندثرت مؤلفاته وانقرضت فلا نستطيع أن نقول عنه شيئاً وأما عن ماجون فالحظ شاء أن يكون أقل قساوة حيث بلغتنا بعض أخباره كما بلغتنا بعض الفقرات من مؤلفاته التي كان القدماء حريصين على نقلها وعلى الاستفادة منها.

المصادر:

كانت الموسوعة التي ألفها ماجون في شؤون الفلاحة توجد في دار الكتب بقرطاج ولعلّ نسخاً منها كانت ملكاً لبعض الخواص لا سيما اذا كانوا من الذين يتعاطون الفلاحة ذلك أن موسوعة ماجون لم تكن من صنف الكتب التي يحتفظ بها على رفوف المكتبات بل كانت وسيلة عمل يعود إليها صاحبها عند الحاجة ولعل بعض فصولها كانت تلصق في غرف المشرفين على الضيعات مهما اختلفت اختصاصاتهم. ولما كانت الحرب البونيقية الثالثة وسقطت قرطاج وأمر شبيون الإمِلْيَاني بنهبها وحرقها أهديت الكتب القرطاجية إلى ملوك النوميديين وأمرائهم

فسيفساء من العهد القرطاجي



باستثناء الموسوعة التي ألفها ماجون في الفلاحة فقد استأثر بها الرومان وكُلّف مجلس الشيوخ عندهم بترجمتها إلى اللغة اللاتينية. أورد هذا الخبر أبلينوس الأكبر في كتابه علوم الطبيعة الجزء الثامن عشر الفقرة الثامنة والعشرين في حين أنهم بعد غزو قرطاج وزعوا دور كتبها على الملوك النوميديين وعلى الأمراء الأفارقة مع ان قاتوكان إذ ذاك قد كتب رسالته في الفلاحة وعينت لجنة من المترجمين يحسنون اللغة البونيقية للقيام بذلك العمل برز من بينهم أحد أفراد عائلة شهيرة اسمه ديقيموس سيلانوس (Decimus Silanus) ترجمت موسوعة ماجون إلى اللاتينية ومنها إلى اللغة اليونانية. فالى جانب الترجمة اللاتينية الرسمية تذكر المصادر القديمة أن النص اللاتيني تناوله أحد الذين كانوا يكتبون باللغة اليونانية وكان يعيش في مدينة أوتيكا في بداية القرن الأول قبل الميلاد وكانت المدينة إذ ذاك عاصمة الولاية الرومانية بأفريقية فكان المترجم يدعى قسيوس ديونيزيوس (Cassius Dionysius) الذي أهدى عمله إلى والي أفريقية سكستليوس (Sextilius) سنة ٨٨ قبل الميلاد إلا أن قسيوس ديونيزيوس لم يترجم كل الموسوعة بل لخصها وأضاف لها بعض الفقرات أخذها من كتب يونانية أخرى فعمله تمثل في الترجمة والتلخيص والتوسيع ويحتوي على ٢٠ جزء.

ثم أن هناك ترجمة ثالثة لموسوعة ماجون انطلاقاً من ترجمة قسيوس ديونيزيوس قام بها ديوفان النيقي (Diophane de Nicée) ولعل كلمة ترجمة لا تصحّ ولا تعبّر عن الواقع لأن ديوفان النيقي لم ينقل النص من لغة إلى أخرى بل اكتفى بتلخيص النص المترجم من قبل قسيوس ديونيزيوس فالعشرين جزء تحولت إلى ٦ أجزاء تحت قلم ديوفان النيقي ويعود هذا التلخيص إلى القرن الأول قبل الميلاد ولعله ظهر بعد ترجمة قيسوس ديونيزيوس بما ينيف عن

لوحة شهيرة تمثل لحظات من لحياة الرغيدة لسيد قصر في ضيعته (قرطاجة)

ربع قرن وقدم ديوفان عمله هدية للملك ديوتارو (Deotaro) ولم ينقطع الاهتمام بموسوعة ماجون بل يبدو أن التلخيص الذي وضعه ديوفان تم تلخيصه بدوره في جزأين وقام بهذا العمل فيلسوف فليون (Pollion) الذي كان يدرس بمدينة روما حوالي ٤٨ قبل الميلاد في حكم بمبيوس.

وبالرغم من هذه العناية ومن هذا الاهتمام المتواصل الحلقات فلم يبق من موسوعة ماجون إلا ٦٦ فقرة وردت في كتب بعض علماء الفلاحة منهم ورون (Varron) وقولومال (Collumelle) وجرجليوس (Gargilius) مرسياليس الأفريقي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد وغيرهم وبالاضافة إلى التراجم وبالاضافة إلى الذين أوردوا بعض الفقرات من الموسوعة البونيقية عن طريق التراجم فلا بدّ من الاشارة إلى بعض الذين نوّهوا بماجون وبمؤلفاته منهم نذكر الكاتب الشهير والمحامي البارع قيقير (Ciceron)

فلقد أثبت أن الفلاّح الروماني كان لا يستغني عن قراءة موسوعة ماجون كلما أراد توجيه تعليمات إلى الذين يشرفون على ضيعته ففيها يجد الحلول المناسبة والنصيحة الناجعة فلا ننكر أن الموسوعة كنت شائعة في الأوساط الرومانية فكان لا بد للذين يريدون التأليف في الفلاحة أن يرجعوا إليها لما فيه من فوائد وكان لا بدّ لفلاح مهما كان اختصاصه أن يستوعبها بل أن تكون دائماً مصاحبة له حتى يستنجد بها عند الحاجة. وقد جاء في بعض الفصول من كتاب ورون أن المشرف عن تربية البقر كان يحمل معه مقتطفات من الموسوعة فتتناول كيفية علاج الثيران. وأورد بعض القدماء أن الشاعر الروماني فرجيلوس لما أراد كتابة أشعاره حول الحياة الريفية (Géorgiques) استعان بالموسوعة الماجونية فكانت الموسوعة الماجونية كتاباً يجده القارىء في دور الكتب وكان من أمهات الكتب العلمية لا تخلو منها الضيعة فليس من المجازفة إذا اعتبرنا ماجون من أشهر الذين كان الرومان يردّدون اسماءهم في المدينة والريف ويعتقد الكثير من المؤرخين المعصرين أن الموسوعة ساهمت مساهمة فعالة في انعاش الاقتصاد الايطالي.

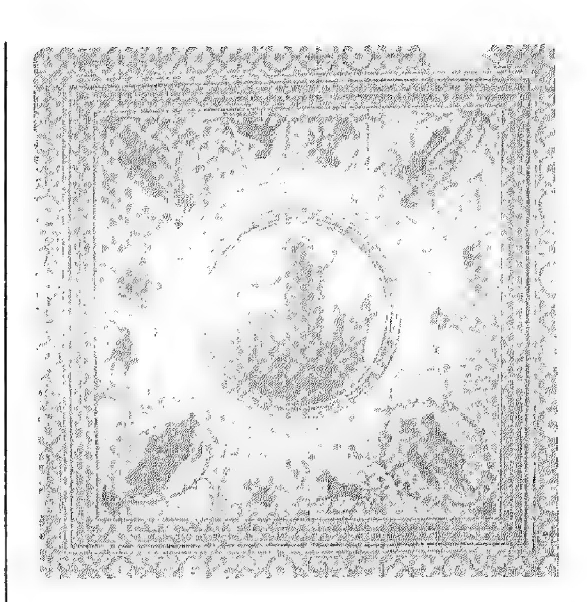
المراجع:

إن اهتمام المؤرخين المعاصرين بالموسوعة الماجونية ليس دون اهتمام القدماء بها وفي اهتمام المعصرين بها تعبير عن قيمة هذا الجزء من الحضارة البونيقية وتنويه لقرطاج فليس هنا المجال لوضع قائمة الدراسات المعاصرة التي تناولت موسوعة ماجون بحثاً عن مؤلفها أو عن تأثيرها على الاقتصاد الروماني وعن نتائجها في الأرياف الرومانية فليس من متحدث عن الأرض والزراعة أيام الرومان لا يذكر ماجون وموسوعته لا سيما ن جرّه لحديث إلى الذين ألفوا في شؤون الزراعة.

ماجون وموسوعته:

لقد حاول العديد من المؤرخين المعاصرين لبحث عن هوية ماجون صاحب الموسوعة دون لحصول على نتائج كافية مرضية فلا نعرف شيئاً عن عائلته ولا عن مسقط رأسه لأن مدينة قرطاج لم تكن مسقط رأس كل البونيقيين وما نعرفه عنه عن طريق النصوص القديمة وعن طريق الفقرات التي وصلتنا من الموسوعة فيتمثل في بعض العناصر والتي تتعلق بالاطار الزمني لذي عاش فيه وبالمحيط الثقافي الذي إليه ينتمي والفئة الاجتماعية التي إليها ينتسب وكذلك بأحدى الوظائف التي أسندت إليه حيث أثبت إيلينوس الاكبر أن ماجون من قادة الجيش إلا أن ذلك لا يعني أنه كان من العسكريين المحترفين فلعله كان من الاطارات المثقفة المقتدرة مما يجعل السلطت القرطجية تُقْبِلُ على تكليفه بخطة القائد.

وفيما يتعلق باطاره الزمني فقد تعدّدت الروايات والاقتراحات فلقد اختفَتْ النظرية التي كنت ترى في ماجون صاحب الموسوعة مؤسّس الامبراطورية القرطاجية خلال القرن لسادس وليس هناك الآن ما قد يجرّ إلى الدفاع عنها ذلك أن الفقرات التي وصلتنا من الموسوعة لا تتناسب مع القرن ٦ ففيها أثر لمؤلفات يونانية تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ومعلوم أن الحضارة البونيقية تفتحت على عناصر الحضارة اليونانية وبلغ هذا التفتح أوجه خلال القرن الرابع قبل الميلاد فكان القرطاجيون يحسنون اللغة اليونانية ومنهم من



لوحة جدارية من الفسيفساء تمثل عدة حالات من الاعتناء بالأرض

كان محيطاً بالفلسفة اليونانية على أن ذلك لا يفيد قطعاً أن ماجون صاحب الموسوعة عاش خلال القرن الرابع قبل الميلاد بل ما يحق اثباته على ضوء ما سبق أن القرن الرابع هو الحدّ الأقصى بالنسبة للحقبة الزمنية التي عاش فيها ماجون أما الحدّ الأدنى فهو في رأي أغلب المؤرخين يتمثل في الحروب البونيقية فالحقبة الزمنة التي يمكن تنزيل حياة ماجون فيها تبدأ في القرن الرابع وتنتهي خلال القرن الثاني قبل الميلاد فيكون قد عاش ما بين القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد بدون ضبط على أن جلبار بيكار ينسبه إلى عصر الحروب البونيقية ولم يتردّد أحد الدارسين الايطاليين في نسب الموسوعة إلى أخي حنبعل الذي كان يدعى ماجون وشارك في الحرب البونيقية الثانية ورافق أخاه إلى ايطاليا ففي رأي الباحث الايطالي اسبيرنسا (Speranza) تتوفر في أخي حنبعل كل الشروط فهو قائد عسكري وعاش خلال الحرب البونيقية الثانية ومعلوم أن الأبارقة معجبون بالحضارة اليونانية وكانوا مغرمين بالفلاحة فلهم ضيعات في الساحل التونسي فهل من الغريب أن تنجب هذه العائلة عالماً في شؤون الفلاحة؟ ثم لا ننسى أن من آثار حنبعل أنه كلف جنوده بغراسة الزيتون بالساحل حتى لا تسيء لهم البطالة. فلا شك أن نظرية الايطالي أسبيرنسا طريقة مغرية لكنها ليست قادرة على فرض كيانها فقد تكون صحيحة لكن ليس لنا من الوثائق ما يثبت صحتها بصفة قطعية بالأرض والزراعة ذلك أن العمل الذي قام به ماجون لم يكن نتيجة مطالعات في دور الكتب بل هو حصيلة عمل نظري وعمل تطبيقي أساسه الملاحظة والتجربة ولقد لاحظ القدماء ذلك عندما أقروا أن العديد من التوجيهات الماجونية لا تصلح إلا لمن يعمل في أرض تشبه في تربتها وفي مناخها الأرض الأفريقية.

مهما يكن من أمر فلا بدّ أن يكون ماجون صاحب الموسوعة من عائلة ثرية لها اتصال متين بأولي الأمر.

محصول الموسوعة:

لم يصلنا من الموسوعة إلا بعض الفقرات المبعثرة في كتب العلماء الفلاحيين طيلة العهد الروماني ولعل بعض أصدائها تجاوز حدود العصر القديم وادرك عن طريق المصنفات البيزنطية العالم الإسلامي فيبدو أن ابن العوام قد تأثر عن غير وعي بمؤلفات ماجون وذلك عن طريق موسوعة فلاحية بيزنطية صنفها قسيانوس باسوس.

أما الفقرات التي بلغتنا من موسوعة ماجون وعددها كما قلنا ٦٦ تتعلق بزراعة القمح وغراسة الأشجار المثمرة كالكروم والزيتون واللوز والرمان والتين وكذلك بعض النباتات البرية التي قد تكون لها فائدة صيدلية ثم أن هناك قسماً يتناول تربية الماشية وتربية النحل لانتاج العسل وأخيراً نجد قسماً يخص التصرف في الضيعة ويحتوي على مجموعة من النصائح يتعلق بادارة الضيعة منها نصيحة مضمونها ما معناه «إذا اشتريت ضيعة فعليك أن تبيع البيت» وذلك يشير إلى ضرورة الاقامة في الضيعة إذا أراد صاحبها حُسن الانتاج.

هكذا نتبين أن القرطاجيين كانوا يوجهون عناية فائقة إلى الفلاحة وكانوا حريصين على ضمان إزدهار فلاحتهم فسخّروا لها العقول ووضعوها على أسس علمية.

تونس والحضارة الأندلسية

الاستاذ سليمان مصطفى زبيس
عضو مراسل للمجمع الملكي للتاريخ بمدريد
وباحث بالمعهد القومي للاثار والفنون

حيثما نرجع الى الوراء في ميدان التاريخ نرى تونس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاندلس، فاذا رجعنا الى ايام قرطاجنة رأينا جالية تونسية من اعظم رجال قرطاجنة مقيمة في شرقي الاندلس هذه الجالية من السراة كان على رأسها القائد اميلكار والد القائد الخالد هنيبعل وقد اقاموا مدة في شرقي الاندلس في تحضير انفسهم لغزو روما بعد النكبة الاولى التي منيت بها بلادهم اثر الحرب البونيقية الاولى.

وعلى الضفاف الشرقية للاندلس ما زالت الى اليوم مناطق اثرية بونيقية كشفت عنها الحفريات مثل «امبورياس» ومدن اخرى قائمة كقرطاجنة في جنوب لقنت وقد خلفت في السكان اثارا اخرى عميقة لا تحصى كاختيار سكان برشلونة اميلكار «كسلطان» لبلدهم.

وفي عهد لاحق للبونيقيين رضخت تونس واسبانيا لسلطان واحد هو الامبراطورية الرومانية التي سيطرت قرونا على الشعوب وسخرت قلوبهم وعقولهم للاندماج ضمن ثقافة موحدة هي الثقافة الرومانية التي امتدت بعيدا شرقا وغربا وجنوبا وشمالا فصاروا جميعا يلهثون بعظمة روما وسلطانها ويهابونها ويخشونها ويعملون على تقليدها في جميع الميادين. فتونس واسبانيا أترعت كل واحدة منهما من فيض هذه الحضارة ولكنهما انجبتا كل على حدة رجالا من ابناء وطنهما زينوا وجه روما الى الابد ولنذكر سانت اقوستان من رجال الكنيسة الخالدين في قرطاج (تونس) وسينيكا الفيلسوف وليد قرطبة (الاندلس).

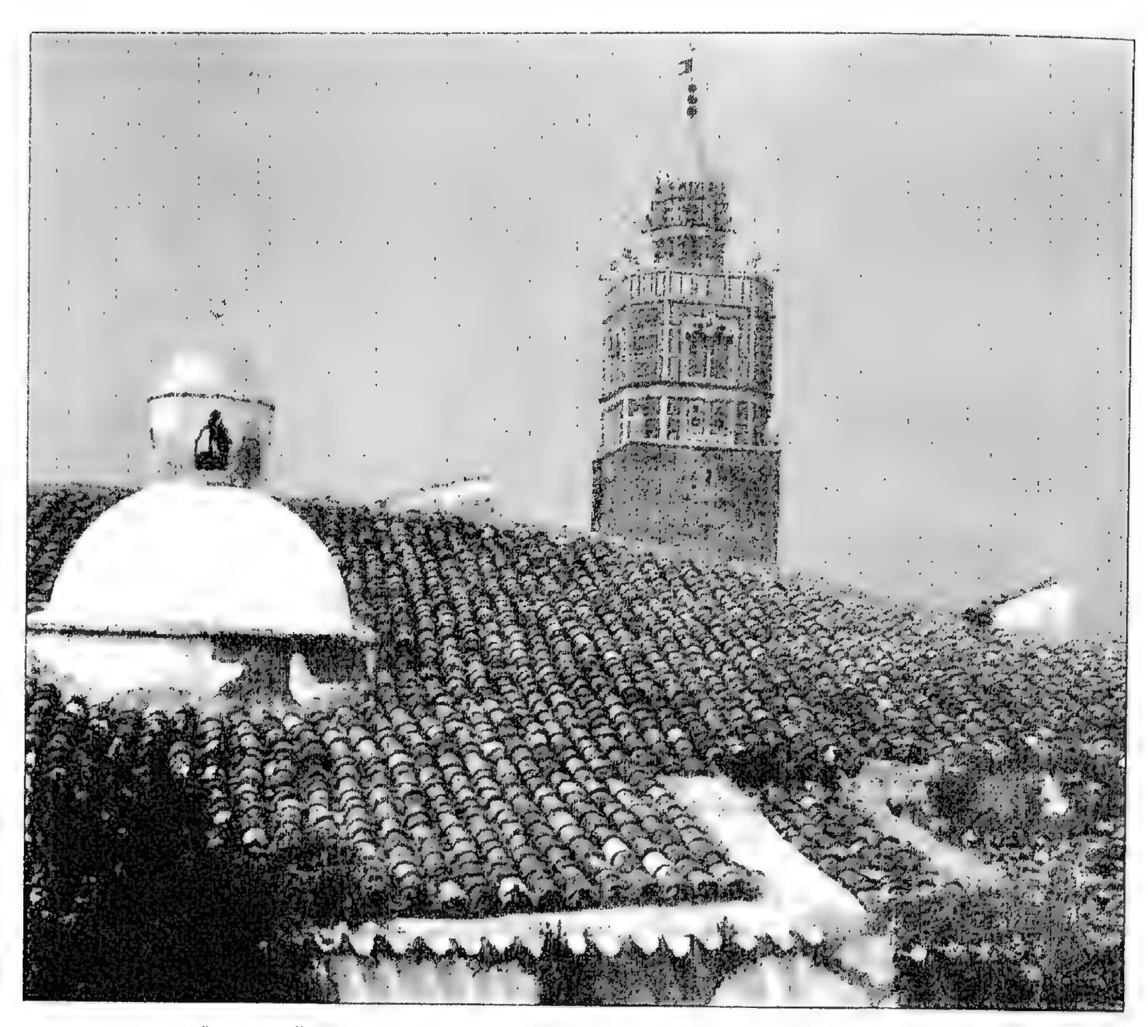
ثم جاء الفندال فأنشأوا الفندلس (الاندلس) وألصقوا اسمهم ابدياً بها ونزحوا عبر المغرب والجزائر وقرطاج فأزاحوا عنها الحكم الروماني وأقاموا بدله حكماً جديداً دام قرناً تقريباً.

دامت سيطرتهم على البلاد إلى ان زحفت اليهم الجيوش البيزنطية فتلاشى امرهم. ومن غير المعقول أن يضمحل قوم هكذا بين عشية وضحاها حسبما يبيّنه المؤرخون الافرنج فلا شك أنهم اندمجوا وسط السكان الأصليين الذين خبأوهم في ديارهم وشدوهم عن العدو المهاجم فاندمجوا في السكان هؤلاء دخلوا فيهم بلا رجفة. وهكذا نرى شعبا اندلسيا كاملا يدمج في سكان تونس بصفة تكاد ان توصف بالمطلق.

بعد هذه الفترة استقر البيزنطيون في قرطاجنة وما والاها من البلاد وصار امر اسبانيا الى الزحفات الجرمانية فتوطد الملك للقوط وعاشت كل من قرطاجنة واسبانيا في انكماش وعزلة عن بعضهما مدة قرن الى ان جاء الاسلام وبدأ التطاحن بينه وبين بيزنطة وامتد هذا التطاحن الى افريقيا الشمالية عبر البر والبحر وغلب العرب البيزنطيين في افريقيا وانتشرت جيوشهم ممتدة الى الغرب وانشئت القيروان لتكون مبعث نشاط هذا الانتشار الى المغرب فخرج منها جيش بربري تحت قيادة طارق بن زياد الذي سرعان ما اخترق جبل طارق الى الاندلس وشرع في الفتوحات متوغلا في هذه البلاد فاتحا فتحا مستمرا. ثم واصل العرب الزحف الى بلاد الغال تحت قيادة عبد الرحمن الغافقي المبعوث من القيروان ثم زالت الخلافة الاموية في المشرق فهرب واحد من امرائها عبد الرحمن (صقر قريش) الى القيروان فمكث فيها مدة ثم واصل سيره نحو الاندلس فدخلها.

فكان المجتمع الجديد في الاندلس مجتمعا يتألف من السكان القدامى ومن العرب ومن البربر. فالعرب منهم دخلوا الاندلس بتقسيمهم القبلي وتعصبهم لها وكان يربطهم بالعرب الباقين في القيروان وكذلك البربر وشائج القربي. فكان كل ما كان يحدث في القيروان او في الاندلس يدوي صداه في الناحية الاخرى. فكانت الاندلس حينئذ قطعة ترابية مرتبطة بالقيروان ارتباطاً كليا سياسيا وثقافيا واجتماعيا الى حلول عبد الرحمن الداخل بالاندلس فاستقل بها عن القيروان الا انه لم يقطع الروابط الاخرى التي بقيت وطيدة داخل مملكة عربية اسلامية واحدة يعيش فيها السكان عيشتهم في وطن واحد من مكة الى قرطبة يتمتعون بجميع حقوقهم الدينية والانسانية.

والى جانب الروابط التي ذكرناها نذكر الروابط الدينية واللغوية. فالدين الاسلامي جعل من هؤلاء امة واحدة تصلي وتعبد ربها باللغة



معالم تونسية ذات طابع اندلسي

العربية وحلت ثقافة جديدة قوامها اللغة العربية، فبعد ان خرج الى النواحي القاصية من الفتح ثلة من كبار التابعين ليفقهوا الناس في الدين كأبي حنش الصنعاني الذي قام بعمله في نشر الكتاب في القيروان ثم في الاندلس ثم توفي في القيروان ــ فبعد هؤلاء جاءت الى الاندلس جماعة كونوا المقرين السبع فنشروا التعاليم الدينية نشرا مطردا قبل ان تظهر طائفة الفقهاء في القيروان والأندلس. ومن جملة هؤلاء السبعة يحي الليثي الذي ادخل المذهب المالكي الى الاندلس وكان بربري الاصل جاء من الشرق عبر القيروان. والى جانب هذه الروابط تكونت بين الاندلس والقيروان روابط انسانية اخرى نتيجة لرحلات الى الحج والتجارة وطلب العلم. فكانت الرحلة الى الحج تمر في الذهاب والاياب حتما بالقيروان الا اذا كانت عن طريق البحر او الصحراء. فكان في القيروان رجال من اصحاب الاوزاعي ومالك كالبهلول بن راشد واسد بن الفرات وعلي بن زياد. ثم في فترة لاحقة سحنون بن سعيد واستقر المذهب المالكي في الاندلس وفي القيروان بدل تعاليم الاوزاعي وتمسك الفقهاء بهذا المذهب تمسكا قويا وبقي المذهب الوحيد في هذين القطرين. وكان من شهرة سحنون ومن علماء القيروان امثاله ما جعل الاندلسيين يترددون الى حلقات دروسهم. ففي القيروان نرى فقيها اندلسيا كبيرا هو يحي بن عمر يقيم فيها وفي الرباطات التابعة لافريقية مع طوائف من الاندلسيين يعيشون فيها الى ان يعودوا الى بلادهم او يموتوا في المهجر. منهم يحي بن عمر هذا صاحب «احكام السوق» الذي توفي في مدينة سوسة وقبره بها مزار

مكرم. ونذكر منهم ايضا ابن خيرون المعافري الاندلسي الذي خلد ذكره مسجد من لقرن الثالث الهجري بالقيروان مازال على صفته الاولى.

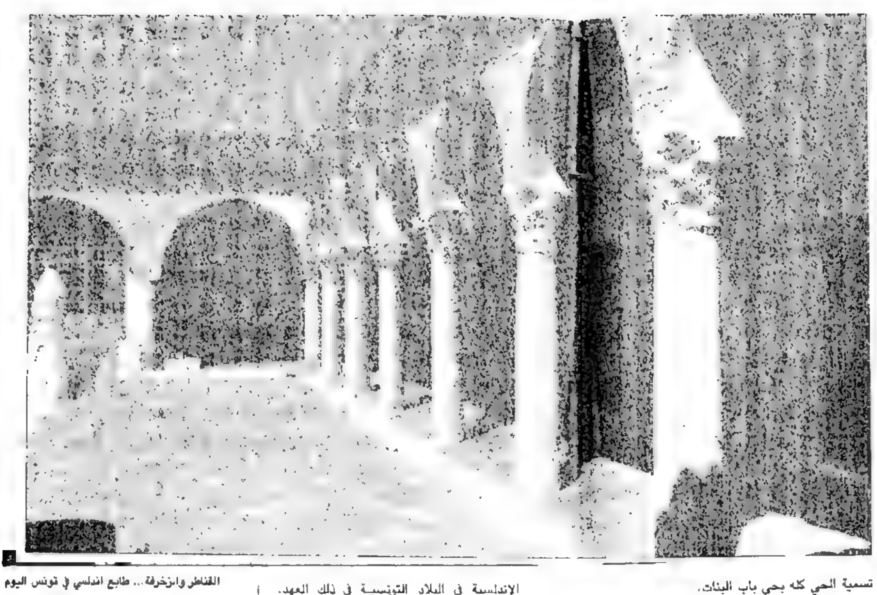
وهكذا نرى مثل هذه الروابط تتكرر وتستمر عبر لعصور في الاتجاه من قرطبة الى القيروان.

واما الاتجاه ما بين القيروان وقرطبة فكان يسيرا ودام ذلك الى ايام الزحفة الهلالية في اواسط القرن الخامس هجري لما ضغط الهلاليون على المدن الافريقية فلجأ الفقهاء وبعض ميسوري السكان الى الاندلس مثل ابن شرف وابن رشيق وغيرهم.

وكانت قبل ذلك تاتي التأثيرات من القيروان نحو قرطبة نذكرها اليوم في الاثار. فجامع قرطبة قد اخذ عن القيروان القباب ذوات الاضلاع التي مازلنا نشاهدها في جوامع القيروان وسوسة والزيتونة بتونس كذلك الزخارف على الواجهات بالآجرّ الناتىء (انظر الواجهة الشرقية من جامع القيروان وواجهة مسجد كريستو دي لالوس في طليطلة). وكذلك الخط الكوفي في النصوص المقبرية التي يعود اكثرها وانماط زخارفها الى الخط والزخارف القيروانية (انظر بوانسو نقائش القيروان وليفي بروفانسال نقائش الاندلس).

ثم جاء عهد الموحدين فاكتسحوا معا الاندلس والشمال الافريقي بدخول تونس. فهكذا صار قسط كبير من الحوض الغربي من الاندلس تحت هذه السيطرة فكانت البلاد التونسية موطنا نائيا عن مراكش (مركز الخلافة الموحدية) فرأى جماعة من الثوار الاندلسيين بنو غانية الميورقيون وكانوا من كبار الحكام المرابطين مواصلة الكفاح خارج بلادهم لاستعادة السلطان المرابطي فنزلوا من البحر في بلاد الجزائر ثم انتقلوا الى البلاد التونسية فدخلوها ودام احتلالهم للجنوب التونسي مدة خمسين سنة بلا طائل حتى اذا فشل امرهم بعث زعيمهم ببناته الى ابي زكرياء الحفصي كوديعة لديه بعد موته فانزلهن ابو زكرياء في الحي المعروف بباب البنات ـ انزلهن في قصر واكرمهن اكراما كبيرا حتى متن فدفن في تربة خارج باب البنات، وقد زالت اليوم ولكن بقيت تسمية الحي كله بحي باب البنات.

اما في الجنوب فبقيت اثار بني غانية الاندلسيين ظاهرة الى اليوم في جامع توزر المسمى بجامع البلد (انظر محرابه الاندلسي وكذلك في ناحية قريبة منه تسمى باولاد ماجد حيث بقي محراب الجامع على صفته الاندلسية) والمظنون ان اشكال واجهات الدور بتوزر الحاملة لزخارف بالاجر الناتىء هي من ذلك العهد وهي على النمط العربي الموجود في سرقسطة بالشمال الشرقي من الاندلس.



القناطر والزخرفة... طابع اندلسي في تونس اليوم

هذا ما وجدناه باقيا من مظاهر الثقافة الاندلسية في البلاد التونسية في ذلك العهد. والمظاهر الاخرى التي اضمحلت بطول الزمن لا شك انها كثيرة خصوصا في لغة السكان وتسمياتهم (تسمية الرجال وتسمية الاماكن) والعادات والتقاليد ولعل بقايا من هاته المظاهر مازلت موجودة تستدعي قسطا وفيرا من البحث.

فرجال الدولة الموحدية كان لبعضهم حكم في الاندلس ورجال في دائرتهم تخلقوا بالاخلاق الاندلسية وعاداتهم والبعض منهم صارت لهم قيدة في البلاد التونسية فجاؤوا بالحاشية التي كانت معهم بالاندلس وحاولوا ان يجعلوا من محل قيادتهم هنا ارضية تجمع ماكانوا يتمتعون به في الاندلس الا انهم انشغلوا عن ذلك بحملة الميورقي حتى بدأ سلطان الموحدين في الافول بعد ان حكم تونس وتولى القيادة العليا فيها شيخ الموحدين ابو محمد عبد الواحد في بداية القرن السابع هجري فوطّأ لوراثة الحفصيين بدل الخلافة المغربية وكان ابو محمد عبد الواحد هذا قائدا للموحدين في الاندلس له

ضلع كبير في الجهاد وأبلى البلاء الحسن في موقعة قبرة في جنوب قرطبة.

فلما توفي في تونس خلفه ولده ابو زكرياء الحفصي وكان من قبل واليا على اشبيلية.

كان ابو زكرياء زعيما حازما صارم الشكيمة بدأ حكمه بالانسلاخ عن الدولة الموحدية ورحل غربا فدوخ المغرب الاوسط حتى وقف عند تلمسان فبعد بذلك صيته وجاءته البيعة بالزعامة العظمى من المشرق والمغرب وكانت دولة المسلمين في الاندلس في حرج من جراء حملات النصارى المظفرة على المسلمين وبعثت مملكة بلنسية تستنجد بابي زكرياء فجاء ابن الابار على رأس وفد اندلسي طالبا النجدة فبعث ابو زكرياء باعانة مادية الى شرقي الاندلس ولكن الملك يعقوب الغازي ملك اراغون استحوذ عليها.

وهكذا سقطت مدن بلنسية ومرسية والمرّية في ايدي النصارى ففر منها من امكنه الفرار الى المغرب والجزائر وتونس فكانت طائفة من كبار التجار والعلماء والفقهاء والادباء يفدون على تونس نتيجة لذلك.

ثم بعد مدة قصيرة سقطت في ايدي النصارى قرطبة واشبيلية فخرج منها نفر هائل من سراة القوم وعلمائهم الى تونس فأسس ابو زكرياء جامع الموحدين بالقصبة فعمل فيه الاندلسيون ونمقوه على نحو الجيرالدا في اشبيلية وجاء مع من جاء من مرسية طائفة كبيرة من سكان الناحية الشرقية من الاندلس تحت قيادة حاكمهم محمد الرميمي المدفون بالمرسى فاسسوا في حي باب الخضراء حيا كاملا بقصوره ومساجده واسواقه وكتاتيبه وحمامه فسمي هذا الحي الكبير بين باب السويقة وباب الخضراء بحي حمام الرميمي وهي تسمية باقية الى هذا اليوم.

اما في داخل المدينة فيظهر ان طائفة من السكان الاندلسيين نزلوا بناحية نهج تربة الباي والدليل على ذلك ــ وهو ليس بالدليل القاطع ــ ان عائلة ابن خلدون استوطنت هذا الحي وقبلت فيه في القرن الثامن الهجري العلماء القادمين من المغرب والاندلس صحبة السلطان ابي الحسن المريني والدليل الاخر ان الطبقة المترفه من الاندلسيين القادمين بعد ترحالهم الاخير من الاندلس نزلوا الى جانب ذلك الحي وهو المسمى بحومة الاندلس.

وفي ايام المستنصر بالله كان البلاط الحفصي زاخرا بالعلماء امثال النحوي الكبير ابن عصفور والشاعر حازم القرطاجني والمؤرخ ابن سعيد المغربي والوزير والقائد الباسل ابن ابي الحسين الذي كان قائدا للحملة الاندلسية القاطنة برادس والتي تصدت للزحفة الصليبية التي قادها الملك الفرنسي سان لويس.

هذا ما كان يدور من اندلسيات في البلاط الحفصي. اما على الصعيد الشعبي فلا نقدر على تقديره ولكنه كثير بلا شك وان لم يتبق منه شيء يذكر. ونذكر مع هذا مسجد الاشبيلي بحي سوق البلاط وهذه النسبة تكفي للدلالة على ان مواطنا اندلسيا عظيما اسند اليه الجامع وكذلك باب سوق القماش في الركن الجوفي الشرقي من جامع الزيتونة وهو سوق القماش الذي حلي بابه على النمط الاندلسي كذلك وأيضاً الميضاة، ميضاة الزيتونة الموجودة في سوق العطارين في الناحية الجوفية من الجامع وهي اندلسية المظهر ايضا ولا شك ان مثيلاتها قد كانت كثيرة تشوهت بالمظاهر الاندلسية الحديثة التي ظهرت في القرن الحادي عشر هجري. ولعل من ذلك الوقت ترجع بعض التسميات كعائلة لاقنتي والخشاب والطرطوشي والقرطاس الشاطبي الذي كان يأتي من شاطبة بالاندلس وصنع هنا في مدة لاحقة.

ومن ذلك العهد ترجع بعض انماط الزليج وقد وجدنا منها قطعتين مقبريتين على غاية من الجودة.

واستمرت هذه الحال في البلاد التونسية عبر عصور الدولة الحفصية كلها.

ثم سقطت غرناطة في ايدي النصارى فخرج منها من خرج وبقي الكثير فاضطهد ونُصّر بالقوة وحرمت عليه اللغة العربية وتعدّدت الاضطهادات الى ان نشبت الثورة الكبيرة في جبال «البوخاراس» تحت قيادة ابن امية فدامت ما دامت حتى فشلت فزيد في التنكيل بالمسلمين القدامى. واخيرا في بداية القرن الموالي (الحادي عشر هجري والسابع عشر ميلادي) امر الملك

الاسباني فيليب الثالث في سنة ١٦٠٩ بترحيل هؤلاء النصارى الجدد حيث تبين ان لا خير فيهم على سلامة البلاد الاسبانية. فلما طردوا توجهت طائفة منهم الى البلاد التونسية حيث آواهم عاهل البلاد عثمان داي ثم خلفه يوسف داي. وكانوا طوائف عديدة انتصبوا في البلاد فعمروها وكانوا لا يعرفون اللغة العربية ولا مبادىء الاسلام الا ما تعلموه خفية بلغة «الخميادو» ولكنهم كانوا يشعرون شعورا مرهفا بانتسابهم للاسلام واللغة العربية فاخذوا يتعلمونها بلهفة خارقة ويتحمسون لها تحمسا كبيرا، فالسواد منهم راموا مواصلة الكفاح ضد الاسبان في وطنهم الجديد فاعطوا طاقاتهم ومعرفتهم بالفنون الحربية الى الملك ليستعين بهم على دحر الاعداء فاسست بهم قواعد حربية في بنزرت وغار الملح وحلق الوادي. فانصرفوا لبناء الحصون والمراكب وتدريب الناس على ركوب البحر والنضال فيه بمختلف اوجهه وتعبئة البلاد والمراكب والحصون بالسلاح الجديد الا وهو المدفعية.

واستعمل ملوك تونس عدداً من هؤلاء في الفلاحة فاسسوا جملة من القرى والمدن في النواحي الخصبة من تونس مثل تبرسق وتستور والسلوقية وقريش الوادي وطبربة والباطان والجديدة وقلعة الاندلس وسليمان وبلي وتركي ونيانو وقرمباليا وزغوان. وتعاطوا الفلاحة بصورة عملية اثروا بها البلاد.

اما في غيرها من المدن فقد نزل بها الاندلسيون وتعاطوا التجارة والصناعة في مختلف النواحي فقد وسعوا في نطاق صناعة الشاشية وادخلوا هذه الصناعة وسموا مختلف اطوار الصنعة والامكنة بتسمياتها الاندلسية فمثلا مصنع الباسطي (من بياسة) يسمى البانكو على رأسه صانع كبير يسمى (كبيسا بانكو) وهو يتعاطى مختلف اطوار الصناعة منها (كردار) و(افنار) الى اخر ذلك من الالفاظ الاسبانية التي لم تعرب الى يومنا هذا.

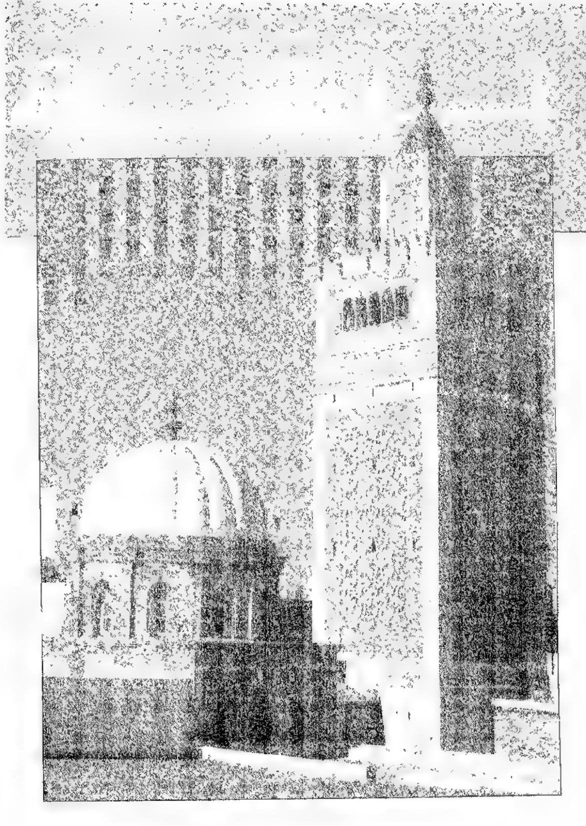
وتعاطوا صناعة الحرير وصناعة القوافي ومختلف صناعات الطرز والتنميق.

وكان الاندلسيون يتأنقون في اللباس تأنقاً عظيما ويستعملون الاطعمة الاندلسية الشهية مثل الكيسالس (في تستور) والكويبارس (في سليمان) والعجة (وهي غير العجة عندنا اليوم) والبناضج.

اما عن اسماء العائلات فان الذين جاؤوا الى تونس قبل سنة ١٦٠٠ كانوا يملكون دينهم (الاسلام) ولغتهم (العربية) فكانت اسماؤهم عربية ونسبتهم الى المدن نسبة عربية كالقرطبي والاشبيلي والمالقي. واما الذين جاؤوا من بعدهم فجاؤوا يتخاطبون بالاسبانية فتعلموا العربية هنا وأبقوا على جانب عظيم من اللغة الاسبانية فهذه جدة تخاطب ابن ولدها الى اربعين سنة فقط ــ بمثل العبارة «سيارى لا بويرتا» و«جيب الكوشيا» وهذه الجدة الاخرى من عائلة الكالان الموجودة الى اليوم كانت الى خمسين سنة تغني لابن ولدها لتنويمه الاغنية التالية «يا مدندني صابادو شوف مهجتي بينادو».

اما الاطار الذي يعيش فيه ثمانون في المائة من التونسيين فهي المنازل والقصور ذات المسحة الاندلسية البحتة المكسوة جدرانها بالزليج والجص المنقوش المزخرف وسقوفها الخشبية المزوقة بالدهان او بمختلف الزخارف وهي اندلسية تخلى عنها سكان هذا العصر الى المباني الحديثة الخالية من كل فن.

اما الزوايا والمدارس والمساجد فكلها على النمط الاندلسي يخيل للناس فيها انهم ما زالوا متمسكين بالمظاهر التي جلبها اجدادهم من الحمراء ومن قرطبة واشبيلية ذلك انهم منذ حلوا بهذه البلاد وهم عازمون على العودة الى بلادهم يوما ما وعليه فان معظمهم استبقى مفتاح دار اجداده فتلاشت منذ عهد قريب وقد يئسوا من الرجوع الى بلادهم وصاروا مواطنين مخلصين لهذا الوطن ولكن استحفظوا تمام الاستحفاظ على نسبتهم فكلهم فلان بن فلان الاندلسي كما استحفظوا على الاسماء الاعجمية التي جاؤوا بها الى هذا الوطن وفيهم من ينتسب الى قرية كشوريا ومن كان اسمه كريستو وماركو وهيريرا ومناشو وكروز ومرتيل وبانطور والروي والكوندي وفرصادو وبلانكو ونيقرو وفنيره وبان وتينسة.



القسم القديم من تونس الحاضرة، وهو المعروف هناك باسم «المدينة» يمكن اجتيازه من الشرق الى الغرب في نصف ساعة، ويحتاج المرء في الانتقال نحو جنوبه الى ساعة واحدة. على أنني لا أعرف في دنيا العرب، باستثناء القدس، مدينة تضم في مثل الرقعة الصغيرة من تاريخ العرب والاسلام عمارة وحضارة وثقافة وصناعة ماتضمه تونس. ان التاريخ العربي الاسلامي يتمثل فيها بشكل عامودي من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) الى القرن الماضي. فجوامعها ومساجدها ومدارسها وقبابها ودورها وسبلها وحوانيتها تضع أمام ناظريك صورة واضحة الخطوط بينة المعالم للنتاج الحضاري العربي الاسلامي.

ورغبة منا في أن يكون حديثنا عن الآثار الاسلامية في مدينة تونس مبنياً على أساس واضح، فاننا نستميح القارىء الكريم العذر ان نحن سمحنا لأنفسنا أن نضع أمامه لمحة مختصرة للعصور التاريخية الاسلامية المختلفة التي عرفتها تونس. وهذه يمكن أجمالها فيما يلي:

ـ عصر الولاة ٢٧ ـ ١٨٤هـ. (٦٤٧ ـ ٨٠٠م). وهو العصر الممتد من بدء الفتح على يد عقبة بن نافع الى أوائل عهد الدولة العباسية. في هذا العصر تم بناء القيروان وتأسيس دار الصناعة في تونس وبناء جامع الزيتونة وتدوين الدواوين وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة.

ـ عصر الأغالبة ١٨٤ ـ ٢٩٨هـ. (٨٠٠ ـ ٩٠٩م). كانت دولة الأغالبة، التي أنشأها ابراهيم بن الاغلب تتمتع باستقلال داخلي تحت راية الخلافة العباسية. وفي أيام زيادة الله تم فتح صقلية سنة ٢١٢هـ. (٨٢٧م)، ومالطة سنة ٢٥٥هـ. (٨٦٨م). وكانت أيام الأغالبة أيام أزدهار وثراء بالنسبة الى تونس.

ـ الدولة الفاطمية في تونس ٢٩٨ ـ ٣٦٢هـ. (٩٠٩ ـ ٩٧٣م). في هذه الفترة من عهد الفاطميين احتلت «كورسيكة» و«سردينية». وقد خلف الفاطميين هناك، بعد انتقالهم الى مصر، الصنهاجيون.

ـ الدولة الصنهاجية ٣٦٢ ـ ٥٤٣هـ. (٩٧٣ ـ ١١٤٨م). ولما انتقل المعز الفطمي الى مصر استخلف «ابن زيري» على تونس، فاستبد هذا بالأمر وأسس هذه الدولة التي كان من كبار رجالها باديس بن المنصور وابنه المعز. وقد كان زمن الصنهاجيين عصراً بلغت فيه تونس شأواً عظيماً في التمدن الاسلامي، ولم يكدر صفو الحياة في تونس في تلك الفترة سوى الزحفة الهلالية ٤٤٠ ـ ٤٤٣هـ. (١٠٤٨ ـ ١٠٥١م)، التي دمرت معالم كثيرة في تونس، وخاصة القيروان.

ـ دولة الموحدين ٥٥٥ ـ ٦٢٦هـ. (١١٥٩ ـ ١٢٢٨م). أدخلها عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب في نطاق ملكه الواسع. ومنذ ذلك الوقت أصبحت تونس حاضرة القطر. وفي سنة ٦٠٣هـ. تولى عبد الواحد أبوحفص أمر تونس نيابة عن الموحدين، فكان هذا بدء العهد الجديد.

ـ الدولة الحفصية ٦٢٦ ـ ٩٨١هـ.

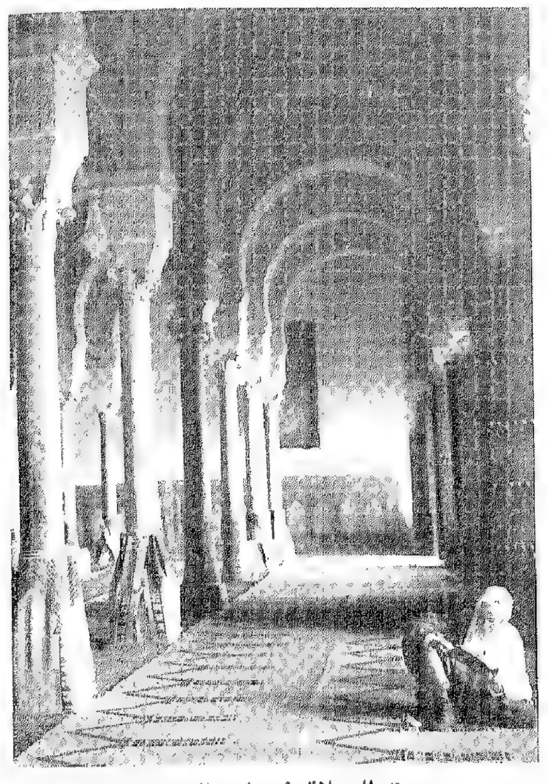
(١٢٢٨ ــ ١٥٧٤م). في تلك السنة قطع أبو زكريا الخطبة للموحدين وأعلنها لنفسه. وظلت تونس على ذلك الى أن دخلها الأتراك العثمانيون. وعصر بني حفص هو العصر الذهبي لتونس في الاقتصاد والأدب والعلم والبناء.

ــ العصر التركي المباشر ٩٨١ ــ ١١١٧هـ. (١٥٧٤ ــ ١٧٠٥م). والفترة الأولى منه تعرف بعصر الدايات ثم، اعتباراً من سنة ١٠٤١هـ. (١٦٣٢م.) عرف العصر بزمن البايات. وهذا استمر الى سنة ١١١٧هـ.(١٧٠٥م). لما قامت الأسرة الحسينية التي استمرت الى سنة ١٩٥٧م.

ولننتقل الآن الى زيارة للمدينة التونسية، ولندخل من باب البحر، الواقع في شرق المدينة. وحرى بالذكر أن أسوار تونس قد هدمت بعد الاستقلال، ولم يبق قائماً منها سوى الأبواب. وباب البحر هذا يعود في أصله الى أيام الأغالبة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)،وقد أدخلت عليه تحسينات كثيرة واصلاحات متعددة جعلته على شكله الحالي. وبعد الباب هذا نجوز ساحة صغيرة ثم ندخل نهج (شارع) جامع الزيتونة. وبهذه المناسبة فشوارع المدينة جمعاء ضيقة، ولا تدخل فيها السيارات قط. وهذا شارع يكتظ بالحوانيت التي تعرض فيها منتوجات الصناعة اليدوية التونسية، شأن جميع شوارع تونس القديمة. وهذه الأسواق أكثرها تتوسط المدينة وتدور بجامع الزيتونة أو تكون قريبة منه. وينتهي بنا السير الى شارع جامع الزيتونة الذي يوازي الجدار الشرقي للجامع الزيتوني الكبير، ثم الى سوق العطارين الواقع شمال الجامع، وهو «حفصي» الانشاء ويعود تاريخه الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

ويكون دخولنا الى جامع الزيتونة من الباب الشرقي، متسلقين لذلك بضع درجات، فاذا اجتزنا الباب والرواق الذي يليه اتجهنا نحو الصحن.

وقفنا في الصحن مواجهين بيت الصلاة أو المسجد، والجدار القبلي يقع في اتجاه جنوبي شرقي. وهذا القسم يتكون من خمسة عشر

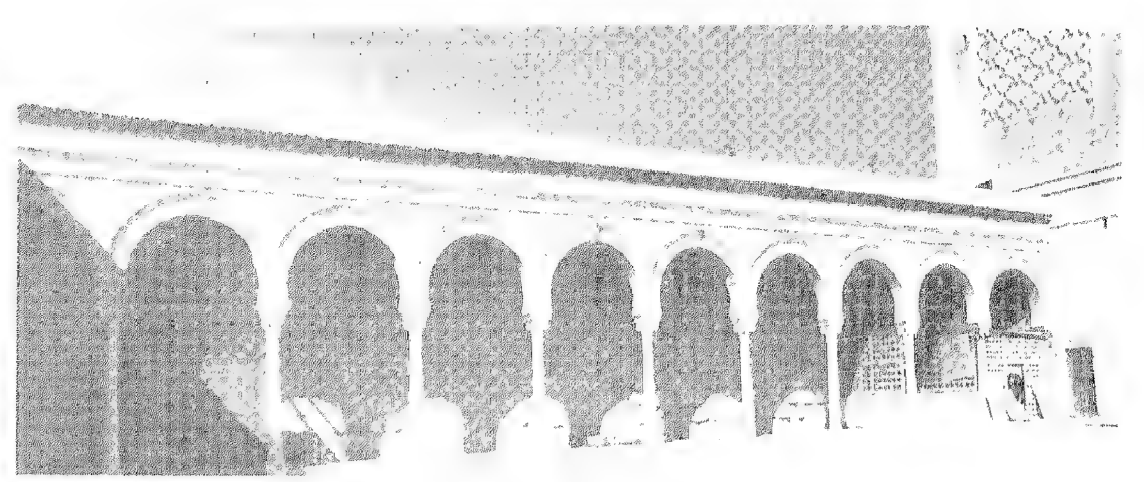


بيت الصلاة في جامع الزيتونة

رواقاً بينها أربعة عشر عقداً. وطول بيت الصلاة أربعة وخمسون متراً وعرضه ستة وعشرون متراً. والعقود فيه متعامدة على جدار القبلة، الّا أنها لاتتصل به، اذ تظل فسحة عرضها أربعة أمتار قائمة بينها وبين الجدار.

واذا توسطت الصحن، وكان موقفك مقابلاً للمحراب والرواق الأوسط في بيت الصلاة، لاحظت ثلاثة أشياء: أولًا أن هذا الرواق أعلى وأوسع من الأروقة الباقية عن يمينه وعن شماله. وثانياً ان المحراب تقوم قبله قبة لطيفة. وثالثاً ان قبة أخرى تكون مقابلة لك، وهي قبة البهو.

والعقود القائم عليها المسجد ترتكز على أعمدة، وهي في غالبيتها أعمدة من رخام أبيض. أما صفا الأعمدة الموجودان في الرواق الأوسط فهما من الرخام الأحمر. وثمة مجموعتان من الأعمدة ترتكز على أحداهما القبة القائمة أمام المحراب، وترتكز العقود الأمامية من الرواق الأوسط على الأخرى، وهذه الأعمدة رخامية لكنها مختلفة الألوان.



الرواق الغربي في جامع الزيتونة وقد ازدانت واجهته بالعقود القنطرية ذات الأعمدة الرخامية

ولعله من الخير أن ننقل هنا بعض ما قاله «أحمد فكري» عن هذه الأعمدة وزخارفها: «لقد أتيحت لي أخيراً فرصة دراسة تيجان السواري وتطورها، اذ ان جميع السواري التي تعلو قبتي مسجد الزيتونة اسلامية نحتاً وشكلاً، ويظهر فيها مدى الابتكار الذي تولدت عنه جميع هذه التيجان المعبرة عن زهرة «الاكانتا». ولكن النحات التونسي وضع وريقات هذه الزهرة على تيجانه بحيث يقف عند النقط الأساسية من جسد التاج في وسطه وأطرافه، ومع هذا فقد تنوعت أشكال هذه الزهرة الواحدة، فتارة يكون التاج من صف واحد من الورقات وتارة من صفين. وبالرغم من تقارب أشكال الورقات واقتصارها على ثلاث، فان التنوع ظاهر في امتدادها أو التفافها وفي انتعاشها وشموخها.. هذا الشكل من التيجان الذي نشأ في القيروان ونما في الزيتونة تطور تطوراً شمل بلاد المغرب والأندلس.»

والقبتان فيهما من الزخرف الكثير. والمحراب قوسه على شكل حذاء الفرس، وهو شكل الأقواس جمعاء في جامع الزيتونة. والزخرف الجبسي ظاهر في كل من القبتين، كما أن الكتابة الكوفية واضحة. والمنبر خشبي يحتفظ به في غرفة خاصة، وينقل على عجلات للاستعمال. والمنبر «أغلبي» الصنع كما يتضح من النظر الى نقش أخشابه بدقة.

وللجامع ثلاثة عشر باباً، اثنان منها في الجدار القبلي، فالواقع منهما الى يمين المحراب يقود الى غرفة المنبر، والآخر هو باب الخطيب. وبقية الأبواب موزعة على الجدران كما يلي: ثلاثة في الغرب، وثلاثة في الشمال، وخمسة في الشرق، أحدها مسدود. وهذه الأبواب تؤدي الى الأسواق المختلفة.

وفي الزاوية الجنوبية من جامع الزيتونة ترتفع مئذنته؛ (صومعته) المربعة الجميلة. وحريّ بالذكر أن هذه المئذنة لم تضف الّا في سنة ١٣١٢هـ. (١٨٩٤م) على طراز مئذنة القصبة. ولتتذكر أن الجوامع الأولى التي بنيت في المغرب كانت دون مآذن ــ باستثناء جامع القيروان ــ وذلك اتباعاً للسنة النبوية، اذ أن المسجد النبوي في المدينة لم يكن له مئذنة.

و «جامع الزيتونة» بصحنه ومصلاه وأروقته وعقوده وأقواسه ومحرابه ومنبره وقبته وأبوابه وأعمدته، يمثل عمل ستة قرون على الأقل. فقد بناه أول من بناه، حسان بن النعمان اثر فتحه تونس سنة ٨٠هـ. (٦٩٩م) وكان البناء بسيطاً، القصد منه أن ييسر للناس اقامة الصلاة فيه. ولكن عبد الله بن الحبحاب، القائد الأموي، أعاد بناءه سنة ١١٦هـ. (٧٣٤م) ولما جاء الأغالبة الى الحكم في ولاية افريقية (تونس) وانصرفوا الى البناء والعمران والفن، كان للزيتونة من جهدهم نصيب. وقد بدىء بهذا البناء زمن أبي ابراهيم أحمد، وتم العمل في عهد أخيه زيادة الله، وكان ذلك سنة ٢٥٠هـ. (٨٦٤م) والخليفة العباسي المستعين. والنقش الكوفي الذي يشير الى ذلك، هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله الامام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ومرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومئتين ﴿أيها الذين آمنواكونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾صنعه فتح البنا».

وكان ان عُمّر الجامع وزخرف على يد أبي زكريا الحفصي. وقد انتهى العمل من ذلك في شعبان سنة ٦٧٦هـ. (يناير ١٢٧٨م).

ولعل من أحسن ما في جامع الزيتونة بالنسبة الى دارسي تاريخه هو كثرة النقوش على الحجارة التي تشير الى بناء أو تجديد أو توسيع أو زخرفة. وقد ذكر منها أحمد فكري خمسة عشر نقشاً كان آخرها ذلك الذي أشرنا اليه بالنسبة الى بناء المئذنة.

وثمة أمر آخر حريّ بالتذكر وهو أن جامع الزيتونة يعاصر القيروان — في القرون الأولى — خطوة خطوة، وخاصة في العهد الأغلبي، الّا أن جامع القيروان أوسع.

وثالث ما يستحق الذكر هو أن جامع الزيتونة بني أصلاً بيت صلاة وصحناً دون أروقة جانبية (أو مجنبات كما تسمى في تونس). والواقع أن الجوامع الثلاثة الكبيرة الأولى في المغرب الاسلامي بنيت على هذا النحو: جامع قرطبة ١٧٠هـ. (٧٨٦ — ٧٨٧م). والقيروان ٢٢١هـ. (٨٣٦م) والزيتونة ٢٥٠هـ. (٨٦٤م).

مدينة تونس غنية بالآثار الاسلامية على ما ذكرنا. ولسنا نطمع في هذه المقالة، ان نتناول جميع هذه الآثار. لذلك فاننا سنكتفي بالاشارة الى بعض منها. وفي مقدمتها جامع «القصبة». القصبة هي القلعة الرئيسية، ودار الحكم، ومسكن الأمير. وجامعها كان موضع عناية الذين بنوه. والقصبة التونسية «حفصية» المنشأ بشكل خاص. وجامعها بناه أبوزكريا سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) وكان من قبل يسمى جامع «الموحدين». والأعمدة التي استعملت حملت اليه من أبنية قديمة. ومئذنة جامع القصبة هي أول المآذن ذات الهندسة الموحدية في تونس، وقد أصبحت فيما بعد مثالاً يتّبع. ومئذنة جامع الزيتونة القائمة الآن بنيت على نمط مئذنة جامع القصبة.

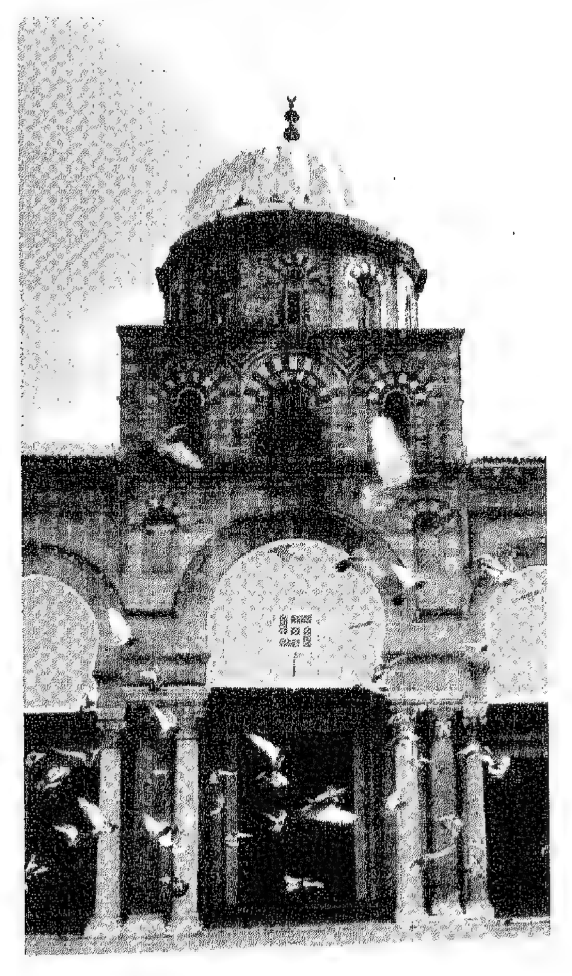
والأعمدة التي ترتكز عليها عقود المسجد هي الأعمدة الرخامية الجميلة التي جيء بها من الأبنية القديمة.

ومن المساجد الجميلة جامع «يوسف داي» الذي بني في مطلع القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ومن أجمل ما فيه مئذنته المزركشة.

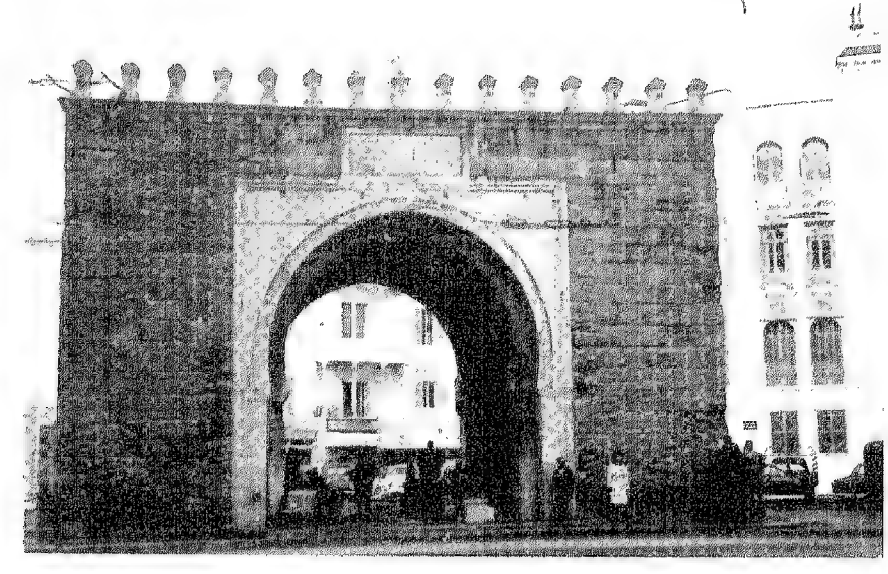
ومنها جامع «حموده باشا المرادي» من القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) أيضاً. ومحرابه والأعمدة المحيطة به والزخرف القائم فوق المحراب من أجمل ما يمكن أن يرى.

وفي المدينة عدد من الدور الكبيرة الأنيقة، وفي مقدمتها دار «الباي» وهي من بناء المراديين في الربع الأول من القرن الحادي عشر

قبة جامع الزيتونة



باب البحر شرقي مدينة تونس وهو يؤدي الى الشارع المفضي الى جامع الزيتونة



الهجري (السابع عشر الميلادي) وقد بنيت على غرار القصور الأندلسية، وهي الآن قصر الحكومة.

لئن كان جامع الزيتونة يضم بين جدرانه تاريخ ستة قرون من فن المعمار والزخرف، فان هذا الصرح يمثل تاريخاً أطول من ذلك بكثير للحياة العلمية في مدينة تونس. فقد أخرج حسن حسني عبد الوهاب أن تداول التعليم بالزيتونة يرجع الى أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وان أول من سمع منه هناك كان زيد بن بشر الأزري. على أننا لا نستطيع أن نتصور تونس، وجامع الزيتونة فيها، دون قراء ومحدثين وعلماء حتى قبل ذلك. صحيح أن القيروان نالها من شرف خدمة العلم الشيء الكثير في القرون الاسلامية الأربعة الأولى، لكن لا بد أنه كان في الزيتونة من يقرىء الناس ويفسر لهم ويحدثهم ويروي لهم الأدب والتاريخ ويشرح لهم شؤون اللغة وأساليب البلاغة.

ويجب أن نذكر أن الأغالبة أنشأوا معهداً للترجمة والبحث سموه «بيت الحكمة» على نحو ما كان للعباسيين في بغداد. ولعل معنى هذا أن الجوامع كانت تقتصر على العلوم الدينية، بينما كانت الحكمة، الطب، والفلك، والجغرافية والرياضيات، من الأمور التي يعنى بها «بيت الحكمة» وما اليه. الّا أن الأمر اختلف مع توالي الزمن، وخاصة في عهد الحفصيين، أي بدءاً من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ففي هذا الوقت رحل عدد كبير من أهل العلم في الأندلس الى تونس، واستقر التعليم العالي في جامع الزيتونة بتونس. ولعل أهم من ذلك كله أن مواد التعليم ضمت الى بعضها البعض، وأصبح جامع الزيتونة مقرها ومستقرها. فكان يدرس فيه الدين، والطب، والهندسة، والحساب، وما الى ذلك. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن ينتج العصر الحفصي عدداً كبيراً من الموسوعات، فالى هذه الفترة يعود تاريخ ابن خلدون ومقدمته، ولسان العرب لابن منظور، وسرور النفس للتيفاشي، وهو موسوعة كاملة في ممالك الطبيعة الثلاث: الجماد، والنبات، والحيوان، ولم يكن حظ الأدب بأقل من ذلك فقد ألف حازم القرطاجني كتاباً سماه المناهج الأدبية يمكن اعتباره جماع ما يمكن أن يتحدث عنه في أساليب الأدب ونقده. يضاف الى ذلك كله نشوء المدرسة الطبية التونسية باشراف أطباء من «آل الصقلي».

وحري بالذكر أن الاهتمام بالموسوعات في هذه الفترة لم يقتصر على تونس، فقد عرف المشرق، أيضاً موسوعات كبيرة مثل: صبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، فضلاً

عن كتب التاريخ الكبرى: كالنجوم الزاهرة، والسلوك، ومؤلفات السيوطي الكثيرة. ونحن لو اتجهنا الى ايران واواسط آسية لوجدنا أيضاً موسوعات كثيرة.. ومثل ذلك يقال عن المغرب. ذلك بأن الفترة الممتدة من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) الى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) تمثل، بالنسبة الى الحضارة العربية الاسلامية، زمن الجمع والتصنيف والتدوين والتحليل لنتاج الفكر العربي الاسلامي.

وفي أواخر العهد الحفصي كان القطر التونسي يعاني مشاكل سياسية واقتصادية كثيرة ويتعرض لهجمات أوروبية. وقد جاء احتلال الأتراك لتونس سنة ٩٨١هـ. (١٥٧٤م). فوضع حداً للمطامع الأوروبية. وفي سنة ١١١٧هـ. (١٧٠٥م) قامت الأسرة الحسينية في تونس ونحن اذا أخذنا زمن الولاة العثمانيين والحكام المراديين وجدنا أن ثلاثة أمور هامة أثرت في الحياة العلمية في تونس بشكل خاص، ولعل جامع الزيتونة كان له في ذلك نصيب كبير. وأول هذه الأمور هو ازدياد الهجرة الأندلسية الى تونس، والثاني رحلة عدد كبير من الطلاب التونسيين الى المشرق، والأمر الثالث انتاج طبي وفقهي كثير. ولعله من المناسب أن نذكر هنا أنه على أثر الاحتلال التركي حاول الأتراك ادخال التركية كلغة تعليم بالزيتونة، وترجيح كفة المذهب الحنفي على المذهب المالكي، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهى الأمر بجامع الزيتونة أن يعود سيرته الأولى فيظل المركز الأول للتعليم. ويلفت نظرنا «عثمان الكعاك» الى الفروق في الدور العلمي الذي قام به جامع الزيتونة بين أيام الحفصيين وبين العصر الحسيني الأول الذي يمتد من سنة ١١١٧ــ ١٢٣٠هـ. (١٧٠٥ ــ ١٨١٥م). ويجمل هذه الفروق فيما يلي:

أولاً ــ كان التعليم الزيتوني الحفصي يشمل التعليم الاسلامي الأدبي والديني والفلسفة والعلوم العقلية عامة، والطب والفلك والحساب خصوصاً أما في العصر الحسيني فقد نقصت هذه العلوم العقلية، ولم يبق منها الا الميقات وشيء من الطب.

ثانياً ــ يبدو أن التعليم الحفصي كان يقوم على الكتب التونسية أصلاً. فكما كان الفقه في عهد الاغالبة يعتمد على مدونة «سحنون»، وفي عهد الفاطميين كان يرتكز على كتاب دعائم الاسلام، فقد اعتمد العهد الحفصي على الرسالة لابن ابي زيد والشروح التي وضعها لها علماء من تونس. أما في العصر الحسيني فقد كان الكثيرون من الأساتذة بالزيتونة قد درسوا في مصر، فكان من الطبيعي أن يزودوا أنفسهم بكتب الفقه المصرية. ومثل هذا يقال في المواد الأدبية.

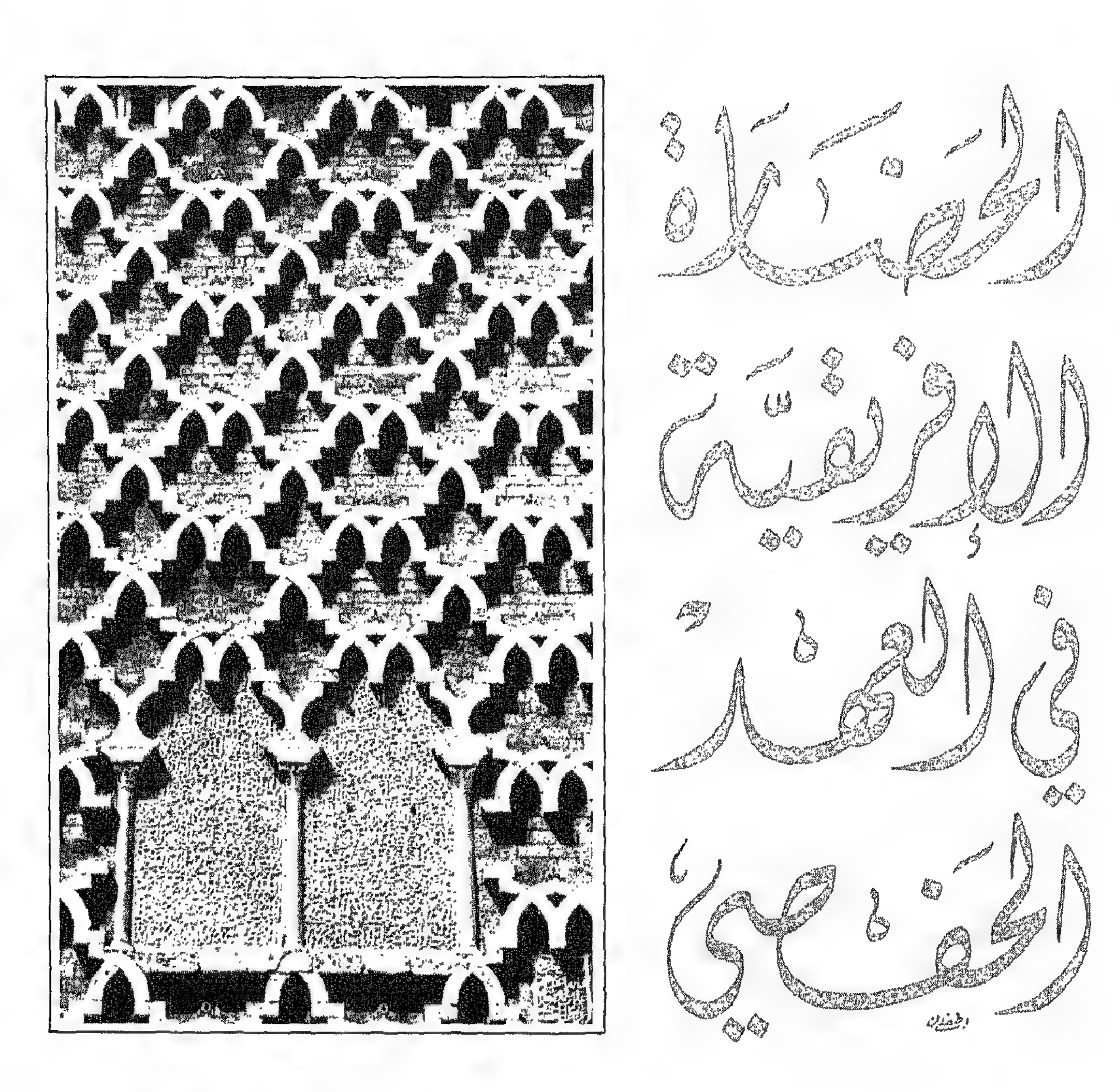
ثالثاً ــ ان التعليم الزيتوني على العهد الحسيني الذي أنقص منه التعليم الرياضي قويت فيه النواحي الأخرى من دينية وأدبية وفرضية وميقاتية وزاد التعمق فيها.

اذا كان جامع الزيتونة هو الذي أخرج للقطر التونسي عدداً من المتعلمين فلا شك أن دور الزيتوني في المجتمع التونسي كان كبيراً. وقد حدد عثمان الكعاك هذا الدور بقوله:

«الزيتوني هو قبل كل شيء «عدل» القرية، والعدل هو مبرم العقود أي العارف بأنواع الالتزامات من بيع وكراء، وقروض وانكحة. فهو أعرف الناس بالمجتمع وألصق الناس به، واطلاعه على الأسرار واضطلاعه بحل المشاكل يجعلان له مقاماً مرموقاً فيه هيبة ورغبة ورهبة.

ثم هو أمام القرية والمدرس بالجامع وكاتب الرسائل الخاصة والمرشد والواعظ والمفتي في القضايا، ثم هو أديب القرية وشاعرها وعالمها. فالطبقة المثقفة السميكة التي تغمر البلاد هي طبقة العدول والحضارة حضارة عدول. وهذه الطبقة السميكة وسط بين طبقة علماء الزيتونة من أعلى، وطبقة الطلبة من أسفل. هذا هو جهاز البلاد الثقافي المتولد من الكتاب والزاوية والمدرسة والجامع، قاعدة هرمه الكتاب وقمة الهرم هي جامع الزيتونة المعمور».

وأخيراً، لنذكر أن جامع الزيتونة نقلت اليه مكتبة «ابن زكريا الحفصي»، وكان بها أربعون ألف مخطوط، ثم زيد في ذلك من مكتبات أخرى خاصة، وعامة في أيام بني حفص، ثم في القرن الماضي على أيدي أحمد باي، والصادق باي، والوزير المصلح خير الدين. ●



الحضارة الإفريقية في العهد الحفصي

د. عبد العزيز الدولاتلي

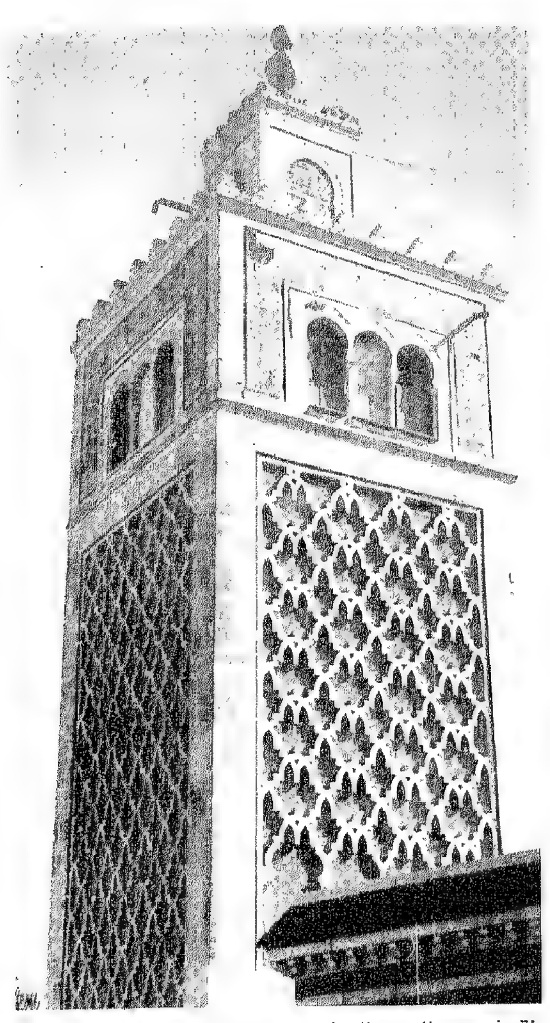
باحث في المعهد القومي للآثار والفنون

كانت أفريقيــة تعاني في أواسـط القرن السـادس الهجري من التشتت السياسي والنزاعات القبلية التي كان السبب الرئيسي فيها ضعف الدولة وانتقال مركز السلطة من المهدية العاصمة الفاطمية إلى مراكز دويلات ملوك الطوائف المستقرة في كبار المدن الأفريقية كتونس وصفاقس وقابس وبنزرت وتوزر وغيرها. مما أدى بالطبع إلى تدهور كبير في الأوضاع الاقتصادية وتراجع خطير في الأحوال العمرانية وبالتالي في انخفاض فاحش في مستوى عيش السكان. كما أن الحضارة الأفريقية نزلت إلى الحضيض فتقلص النشاط الفكري وضعف الانتاج الفني وطغت أو كادت التقاليد الريفية والعادات القبلية البدائية بطغيان البدو على الحضر وتقلص المدن لفائدة الأرياف.

وعلاوة عن الفتنة الداخلية التي هزت البلاد منذ قدوم قبائل بني رياح من الصعيد المصري (أواسط القرن الخامس) التي تلتها قبائل بني سليم، كانت البلاد مهددة بأخطار جسيمة تتمثل خاصة في هجومات النرمان المسترسلة الذين استقروا بصقلية معتمدينها كقاعدة لعملياتهم الهجومية على السواحل الأفريقية إلى أن احتلوا المهدية وطردوا منها أميرها الصنهاجي وكذلك جزر قرقنة وجربة...

وفي حين كانت أفريقية على هذه الحال من الانحطاط والتشتت قامت بالمغرب الأقصى دولتان قويتان كان هدفهما توحيد المغرب العربي بما فيه الأندلس ولم شتاته تحت لواء دولة مغربية موحدة. وكانت الدولة المرابطية ثم تلتها دولة الموحدين التي أسسها ابن طمرت ودعم كيانها الخليفة عبدالمؤمن بن علي. فاختار هذا الأخير مدينة تونس كعاصمة أفريقية (سنة ٥٥٤هـ) عوضاً عن المهدية والقيروان، لازدهار اقتصادها النسبي ولموقعها الجغرافي الملائم. ذلك أن مدينة تونس ما فتئت تعزز مكانتها بأفريقية منذ أن اختارها القائد العربي حسان بن النعمان (سنة ٨٤هـ) بديلة عن قرطاج التي تركها للتلاشي والاندثار. وما تفضيل عبدالمؤمن لها إلا تتويج لحدث كان في تهيؤ منذ زمن بعيد فبعد أن وضع بنوخراسان (النصف الثاني من القرن الخامس) الأسس الاقتصادية لنمو المدينة أتى الموحدون ليضيفوا إليها ما تستحقه من التجهيزات السياسية والعسكرية كي تضطلع بدور القيادة والاشراف على شؤون مجموع البلاد. ومن ذلك تأسيس القصبة تلك القلعة المنيعة لتقوم بوظيفة الدفاع عن المدينة العتيقة المحمية بأسوارها والحافلة بأسواقها وجوامعها، لتضطلع أيضاً بدور المركز السياسي للدولة وبجل النشاطات الإدارية.

أسس الموحدون القصبة في الجناح الغربي بعد أن استولى عبدالمؤمن بن علي على مدينة تونس ليدعموا بها سلطتهم ويبسطوا بفضلها تفوقهم على كل أفريقية. إلا أن احتلال الموحدين الذي مهد الطريق لقيام الدولة الحفصية لم يتعد مرحلة الاستيلاء على بعض القواعد الاستراتيجية. وهو نوع من الاحتلال السطحي



نقوش من العهد الحفصي تزين مئذنة جامع القصبة

الشديد التأثر بكل ما عساه أن يطرأ من التغييرات على ميزان القوى بين الغالب والمغلوب والمالك والمملوك. وفعلاً فقد واجه الموحدون معارضة شديدة رغم قبولهم في أول الأمر كمنقذين ومجاهدين، خاصة من قبل سكان المهدية، فمعارضة الأعراب مثلاً كانت على أشدها إذ بعد أن كانوا سادة المدن والبوادي أصبحوا بين ناب الليث وظفره، ولم تكن تلك المعارضة لتنال من كيان الحكم الموحدي لولا الأخطار الخارجية التي نجمت في نفس الوقت إلى جانب الضغوط الداخلية. فقد نزل إلى ميدان السياسة الأفريقية بنو غانية من جهة وقراقوش الغزي من جهة أخرى معززين جانب معارضي الوحدة.

كما أن المسافة الفاصلة بين تونس كرسي أفريقية ومراكش عاصمة الخلافة كانت تحول دوماً دون تدخل الخليفة بنجاعة وفي الابان كلما جدت أحداث تستوجب ذلك. فانحازت أفريقية شيئاً فشيئاً إلى نوع من الحكم الذاتي إلى أن أعلن أبوزكرياء الحفصي عصيانه لخليفة مراكش المتنكر لمذهب ابن طمرت. فتلقّب بالأمير الأجل وضرب الدرهم والدينار وأضاف اسمه في الخطبة (٦٣٤هـ). ثم تلقب ابنه أبوعبدالله المستنصر بالخليفة (٦٤٧هـ ــ ٦٧٥هـ) مستغلاً الظروف السياسية العالمية الملائمة وبوجه خاص تهيؤ المغول للانقضاض على بغداد مهددين الخلافة العباسية ثم تقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى تقلصاً شديداً.

ومنذ ذلك التاريخ رسخت أقدام الحفصيين بأفريقيا رسوخاً عميقاً فأصبحت الدولة الحفصية تتمتع برصيد وافر من الاحترام والهيبة من قبل ملوك الأندلس المواجهين للغزو المسيحي الهائل وكذلك من قبل بلاد المغرب ومصر. بل ان شريف مكة نفسه بادر سنة ٦٥٧هـ بمباركة هذه الخلافة الصاعدة اثر سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ. ولا شك أن هذا الحدث يمثل قمة المجد الحفصي حيث أصبحت مدينة تونس على رأس خلافة عظمى معترف بها من قبل أعلى سلطة دينية في الإسلام.

وتمادى ازدهار الدولة الحفصية طيلة العقد الثاني من القرن السابع إلى أن ظهرت بوادر الانحلال السياسي إذ برزت على الساحة الأفريقية عدة خلافات مدعمة من الخارج. فرفعت قبائل الأعراب رأسها من جديد وخرجت عدة مناطق عربية عن طاعة أمير تونس كباجاية وقسنطينة. كما كثرت مطامح الدول المسيحية واشتدت شوكتها ثم سطعت شمس ملوك مصر المماليك الذين أصبحت لهم قوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسط تنافس وتهدد قوة الحفصيين. أما في أقصى المغرب فقد طلع نجم دولة بني مرين حتى أن الخليفة المريني احتل تونس مرتين على التوالي في أواسط القرن الثامن.

اشتد اذن الخناق على الحفصيين من كل الجهات. ومما زاد الطين بلة الحوائج والمجاعات والأوبئة التي ازدادت شراسة طيلة القرن الثامن حتى بلغت ذروتها في أواسط ذلك القرن مع ظهور الطاعون الجارف الذي تفشى في البلاد سنة ٧٤٩هـ فاتكاً بالناس فتكاً ذريعاً. «فانتقص عمران الأرض بانتقاض البشر» حسب قول ابن خلدون الذي فقد في تلك الظروف القاسية الكثير من ذويه وأقاربه إذ شاهد هلاك أبيه وأمه وجل أصدقائه وشيوخه. مما حمله على هجر أفريقية والاستقرار بالبلاط المريني بفاس. وكان المصاب جليلاً خاصة وأنه صادف احتلال العاصمة من طرف أبي الحسن المريني.

وقد شبه ابن خلدون أعمار الدول بأعمار الكائنات الحية مصيرها المحتوم الضعف والفناء إذ يبلغ بها التقهقر حداً لا تستطيع معه مقاومة ما يحف بها من الأخطار. لكن أفريقية خلال القرن الثامن صمدت أمام الغزوات الأجنبية والفتن الداخلية والتوترات الاقتصادية والانحلال الثقافي. بل شهدت خلال القرن الموالي (التاسع الهجري) انتعاشة نسبية أحيت بها تراثها وجددت ثروتها وطورت عمرانها فسجلت نهضة ثانية بعد تلك الاستفاقة الرائعة التي عرفتها خلال القرن السابع على أيام أبي زكرياء الحفصي وابنه الخليفة المستنصر بالله. فقد حكمها سلاطين صالحون مثل أبي فارس عبدالعزيز وأبي عمر وعثمان ذوو عزم وصدق أعادوا استتباب النظام في الداخل وفرض الاحترام في الخارج وشيدوا أثناء حكمهم أعمالاً جليلة مراعين مصلحة الرعية ومرضاة الله أكثر من مراعاة راحتهم الشخصية أو متعة حاشيتهم. فمتنوا علاقاتهم مع ملوك مصر والمغرب وشجعوا هجرة الاندلسيين إلى أفريقية مثلما فعل من قبلهم أبوزكرياء والمستنصر خاصة بعد تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس تدهوراً لا رجعة فيه وقصور ملوك المغرب والمشرق على مدّ يد المساعدة لأخوانهم الأندلسيين. فساعدت تلك الهجرة على تطعيم الحضارة الأفريقية بأروع وأرفع ما أفرزته الحضارة الأندلسية من المثقفين والعلماء والشيوخ وأصحاب المهن الرفيعة والعاملين في فنون الفلاحة والري.

ومن ألمع ما أفرزت الحضارة الأفريقية في العهد الحفصي ابن خلدون وابن عرفة اللذين كانا كل في ميدانه عنوان مجد لأفريقية والمغرب: الأول في العلوم التاريخية والثاني في العلوم الدينية. وهنا الا يجدر بنا أن نُخفف الحكم القاسي الذي أصدره المؤرخان المعاصران (ر. برانشفيك وشارل أندري جوليان) حيث أنكرا وجود ثقافة أو فن حفصيين معتبران أن الحفصيين ورثوا حضارة لم يطعموها بأي ابتكار مهم.

فالحفصيون أنفسهم كانوا مولعين بالأدب والشعر وأصناف العلوم. وقد كانت لهم بالقصبة قاعة فسيحة خصصت لإيواء المكتبة الملكية تعرف «بالمدرسة» كانت تلقى فيها المحاضرات الأدبية والعلمية ويلتقي فيها الخليفة بالوزراء وقواد الجيش. وقد تهيأ لبعضهم أحياناً نظم بعد القصائد كأبي زكرياء الأول الذي خلف لنا ديواناً يضم قصائده وابنه المستنصر الذي كان بارعاً في اجازة الشعر. وفضلاً عن تعاطيهم الشعر كان الأمراء الحفصيون يشرفون على منابر تلقى فيها دروس علمية تتعلق إما بالمذهب أو بالتاريخ أو العلوم. وقد دفع حبّ المعرفة أبا زكرياء يحيى بن أبي اسحاق الأول إلى إحداث كُوّة في منزله كي يتسنى له بواسطتها الاستماع إلى الدروس التي تلقى في المدرسة التي أسسها بجوار قصره.

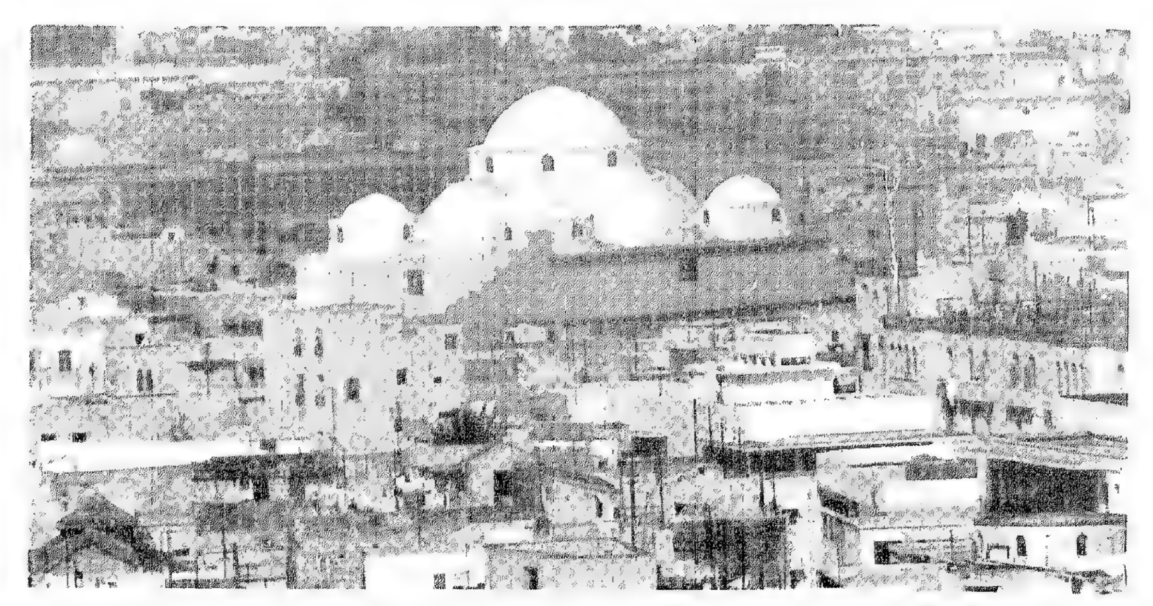
ولم تتخلف المرأة الحفصية عن المساهمة في العمل العلمي والثقافي حيث عمدت بعض الأميرات إلى تأسيس أعمال خيرة كزوجة أبي زكرياء الأول التي أسست مدرسة وجامعاً في حي التوفيق وأخت السلطان أبي يحيى منشئة المدرسة العنقية التي حرصت أن يكون القاضي ابن عبدالسلام أول مدرس فيها.

ووجد أيضاً من بين الأمراء ورجال الحاشية من كان له اهتمام خاص بالأدب والفكر فشجع عليهما مثل الوزير ابن تافراجين المتوفي سنة ٧٦٦ الذي شيد المدرسة المسماة باسمه والتي تضم جثمانه.

كان تشجيع النخبة للمعارف يتم عادة اما بتشييد أماكن الدراسة والطلب أو باسناد المنح والهبات لرجال العلم والفن. ولنا شواهد كثيرة في كتب التاريخ المعاصرة عن الشعراء والمؤرخين والفقهاء وغيرهم ممن كانوا يحظون بقبول السلاطين وبتشريفهم ومكافأتهم على أعمالهم. وكان بلاط أبي زكرياء وابنه المستنصر يعج بجموع المهاجرين من الأندلس كفحُول الشعراء وبلغاء الكتاب ومشاهير الفقهاء لا سيما بعد سقوط أشبيلية في أيدي المسيحيين سنة ٦٤٦. وقد قدم قبل هذا التاريخ الشاعر ابن الأبار من بلنسية. واستقر بالعاصمة الحفصية أيضاً بعده أبو حازم القرطاجني أصيل مدينة قرطاجنة بالأندلس وكتب مقصورته الشهيرة ذات الألف بيت في مدح المستنصر.

ولا ريب أن أعظم رجال الأدب والفكر الذين لم تنجب أفريقية والمغرب مثيلاً له هو ابن خلدون الذي قدمت عائلته من اشبيلية إلى تونس منذ الهجرة الأندلسية الأولى. وقد شغل أفراد عائلته مناصب عالية على غرار جل مواطنيهم في حكومات أبي زكرياء وخلفائه. وفي هذا الوسط الأندلسي الذي تعمقت جذوره في الأرض الأفريقية اكتسب عبد الرحمن بن خلدون علومه العالية ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى حيث تمكن من تعميقها والتبحر فيها. ولكن السلطان المريني وجد بتونس سنة ٧٤٦هـ ابان احتلاله لها جمعاً من رجال الأدب والفكر الأفارقة والأندلسيين القادريين على منافسة رجاله الذين اصطحبهم معه من المغرب. وكان شديد الاعجاب بهم، ذلك أنه رغم الاضطرابات السياسية التي سادت القرن الثامن فإن عقولاً نيّرة بزغت في سماء ذلك العهد المظلم من أبرزها المؤرخ ابن خلدون والامام ابن عرفة اللذان يعتبران ثمرة النهضة الحفصية في القرن السابع التي ظهرت بفضل رعاية الحفصيين للعلم والأدب والفن وبالاحتكاك بأفواج الأندلسيين الذين ما انفكوا يفدون عليها. فنبغ الأول في العلوم الفكرية وتبرز الثاني في العلوم الدينية.

وفي منتصف القرن التاسع زار تونس عبدالباسط بن خليل وهو تاجر عالم مصري فتعرف على الكثير من الأندلسيين المستقرين بها فأعجب بحدة ذكائهم وفطنتهم وخاصة منهم



مشهد لمدينة تونس الحديثة

الشاعر عبدالله محمد بن محمد المعروف بابن الرازن الخزرجي الأنصاري الذي تعلق الرحالة به لرقته ولطفه وتقدمه في شعره على الشعراء الثلاثة الأفريقيين الحاضرين وهم: محمد الجديدي وأحمد الودني وشعيب البجائي.

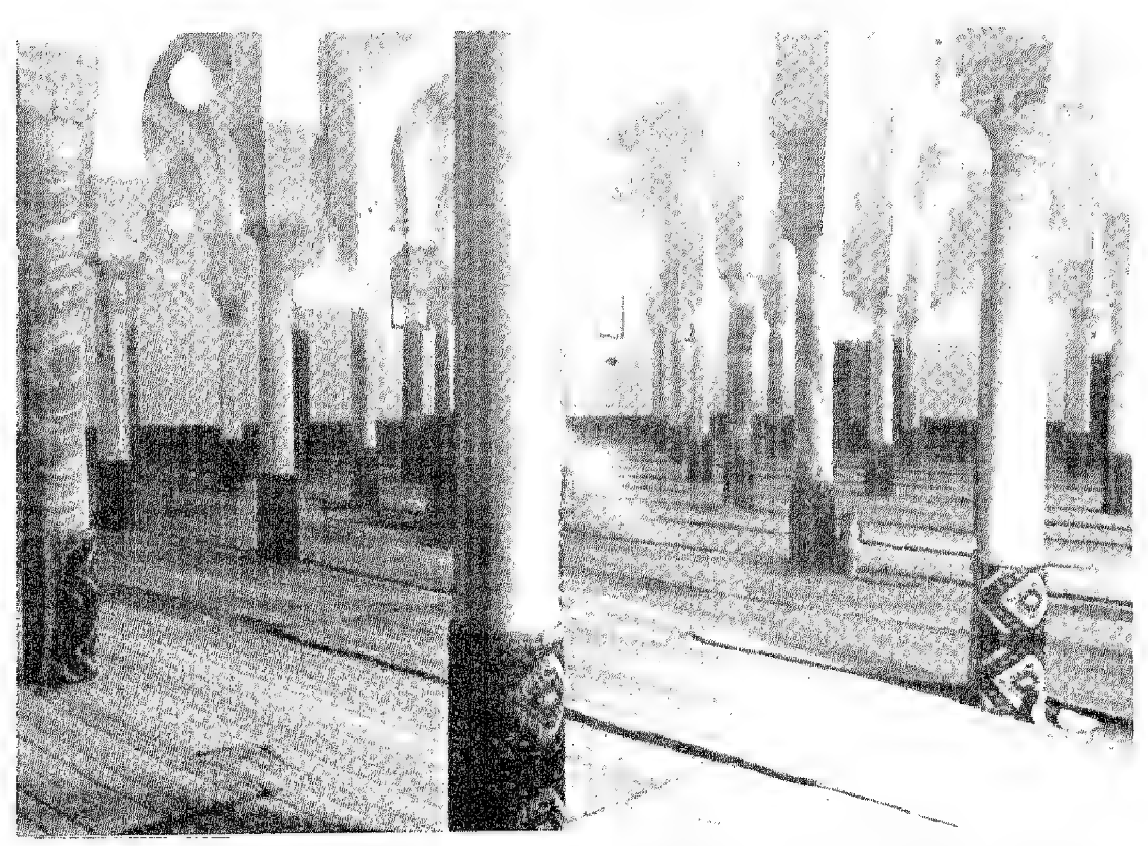
ولا تعود النهضة الأفريقية في العهد الحفصي إلى تمازج الأفكار مع الأندلس فقط بل إلى الاتصالات المستمرة بين أفريقية وأقطار المشرق وخاصة مصر التي تمادت العلاقات معها والاتصالات بها على كل الطرق البرية والبحرية رغم مخاطر الأعراب والقراصنة. وقد ألبست تلك العلاقات عدة مظاهر: اقتصادية باتخاذها شكل المبادلات التجارية وسياسية بفضل تبادل السفارات وأخيراً ثقافية بسبب الاشتراك الحضاري الذي سهل الاتصال البشري وتبادل المعارف.

واستمرت أفريقية في الاستفادة من التجديدات المشرقية الهامة بفضل موقعها الجغرافي كطريق للمرور. وما زال سكانها المتشبعون بالثقافة الأندلسية متعطشين كما في الماضي إلى القيم المشرقية: فقد حافظ المشرق على مكانته المرموقة في نظر المفكرين المغاربة. لذلك نراهم يرغبون في الاقامة الطويلة بربوعه سواء بمناسبة الحج أو بسبب طلب العلم في الجامع الأزهر أو للاتصال بمشاهير علمائه.

إن موقع تونس على طريق الشرق هيأها لأن تكون محطة غالباً ما ينزل فيها المسافرون سواء كانوا قادمين من الأندلس والمغرب أو عائدين من المشرق إلى المغرب. لكن من النادر أن يقوم المشارقة برحلة مضادة أي من المشرق إلى المغرب كما فعل الرحالة المصري الشهير عبدالباسط بن خليل.

وبواسطة هؤلاء الأفارقة والمغاربة العائدين من الشرق انتشرت التأثيرات المصرية الشامية في ربوع أفريقية وظهرت في الفن والثقافة الحفصيين.

وهكذا اجتمع في تونس ممثلو المدارس الثلاث الكبرى، المدرسة الأندلسية ــ المغربية والمدرسة المشرقية والمدرسة الأفريقية المختلطة. ولكن مهما كانت المدرسة التي ينتمي إليها الإنسان فقد بقيت الرحلة إلى المشرق للتبحر في العلوم ضرورة تساوي تقريباً قيمة الحج نفسه. ألم تتغذ نهضة المالكية الأفريقية فعلاً باقامة عدد من علمائها في مصر والشام والحجاز؟ فقد أطال الرواد الأوائل كابن البرصاء وابن الخباز المهداوي وابن عرفة نفسه وابن عبدالسلام إقامتهم بالمشرق كما أن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ناشر الصوفية في أفريقية رحل إلى الشرق ثم رجع ثم عاد إليه ثانية واستقر به نهائياً إلى أن وافته المنية سنة ٦٥٦هـ.



أحد أروقة جامع القصبة الأثري في مدينة تونس، وقد ازدان بالأعمدة الرخامية ذات الطابع الاسلامي الجميل.

وأخيراً ها هو ابن خلدون الذي يجوب أقطار المغرب والأندلس عديد المرات يفضل قضاء بقية حياته في المشرق بعد خصامه مع ابن عرفة ومنافسيه الآخرين في البلاط الحفصي.

والجدير بالذكر في خصوص خصومة ابن خلدون وابن عرفة أنه في حين نجح ابن عرفة في تكوين مدرسة وتلاميذ مقتدرين، بقي مؤلف المقدمة وحيداً بدون اتباع ولم يحرك كتابه العظيم في عصره أي اهتمام أو منافسة. فلماذا إذن كان مصير كل من الممثلين الكبيرين للثقافة الحفصية مخالفاً لمصير الآخر؟ ولماذا انتهت المعركة التي تصادم فيها القطبان بانتصار ذلك الذي يجسد المحافظة الدينية والعلوم التقليدية ولو مؤقتاً؟

يفترض ر. برانفشيك، جواباً على ذلك «أن السبل لم تمهد بعد في الإسلام لتقبل مناهج الفكر الحر ولتطبيق البحث العلمي في دراسة تطور المجتمع الإنساني» ويضيف: «فبإنتصار ابن عرفة (الذي اضطر ابن خلدون إلى الالتجاء إلى المشرق) يتأكد رفض نهضة فكرية حقيقية وفرض عقلية محافظة صارمة آلت بسرعة إلى الجمود».

ويستمر برانشفيك في تحليله للأعمال الفكرية، ولا ريب أن في كلامه بعض المبالغة إذ يقول أنه حتى الشعر الممثل بكثير من الرجال «لم يستطع أن يمهد لنفسه سبلاً مبتكرة» كما «لم ينجح النثر في التجدد بطريقة فاضلة ودائمة». فالأدب لم تَسِرْ في أوصاله دماء حية بل غاص في طريق الابتذال «لعدم اكتراث البعض» و «الاحترام الذليل لأشكال الماضي الجامدة من طرف البعض الآخر». هذا وأن تدهور العلوم الصحيحة يعتبره نفس المؤلف «حدثا مؤكداً لا في أفريقية فحسب بل ومنذ القرن السابع في عموم العالم الاسلامي»، باستثناء الطب الذي «استمرت عقول نيّرة في الاعتناء به وتغذيته» لصلاحيته الاجتماعية وطبيعته التطبيقية.

وتجاه هذا الموقف المتصلب يؤكد عالمان تونسيان حديثان هما حسن حسني عبدالوهاب والفاضل بن عاشور أهمية النهضة الثقافية والحضرية الحفصية مبرزان أننا «ما زلنا نعيش إلى اليوم على مؤسسات وجذور تقليدية موحدية ـ حفصية»، فصدور هذا الحكم من طرف رجلين معروفين بالحذر والحنكة يدعونا إلى التبصر والاعتدال لا سيما إذا اعتبرنا النهضة العمرانية والمعمارية الهائلة التي شهدتها أفريقية تحت لواء الحفصيين فجددت مدنها وطورت فنونها المعمارية والزخرفية. ولا نستطيع أن ننكر مثلاً عظمة المجهود الذي بذله الحفصيون لتطوير عمران مدينة تونس حتى أصبحت من أعظم مدن العالم الإسلامي فامتدت حولها الأرباض الشاسعة المحمية بالأسوار ومن ورائها انتشرت الأجنة والقصور والمنتزهات كجنان أبي فهر قرب ضاحية المنزه وقصور رأس الطابية خارج باب سعدون وقصر بارد. وفي الضاحية الغربية وقصر العبدلية في الضاحية الشمالية. كما تعددت جوامع الخطبة استجابة لحاجة السكان وانتشرت المدارس حول جامع الزيتونة حيث نظم الحفصيون التدريس وأجروا الجرايات على الطلبة والأساتذة فبلغ عدد المدارس في أعقاب الدولة الحفصية سبعة مدارس أقدمها في شمال أفريقية المدرسة الشماعية التي أسسها الأمير أبوزكرياء الأول. أن هذا النمو الهام الذي سجلته المدارس ليعبر عن مدى التقدم الحاصل في ميدان نشر العلم والمعرفة وذلك بتوفير العدد اللازم من المؤسسات التعليمية المستجيبة لعدد الطلاب المتزايد. وهو يعكس أيضاً أهمية مدينة تونس كعاصمة جامعية وكمركز ثقافي. كما كانت رباطاً نيّراً لطبقة الصوفيين الذين كثر عددهم فعجت المدينة بزواياهم وخلواتهم وأشهرهم في ذلك العهد أبو الحسن الشاذلي مؤسس الشاذلية الذي لا تزال زاويته المشرفة على مقبرة الزلاج محل زيارة وتبرك.

وقد واكب هذه النهضة العمرانية تجديد عميق في أساليب البناء والتنميق فتأثر الفن المعماري بالابداعات الفنية الأندلسية وبالفن المملوكي المصري أيضاً. فالتيار المغربي كان بدون شك شديداً في القرن السابع أي في عصر الازدهار الأول حيث اتحد عملياً مع الفن الرسمي كما تشهد بذلك المعالم الموحدية الخالصة كالقصبة وجامعها الكبير وباب الجديد، وكذلك رأس الطابية وأبي فهر. أما بالنسبة للتيار المملوكي المشرقي فتبدو أهميته من خلال آثار القرنين التاسع والعاشر كميضاة السلطان. ولكن العنصر الفني الأفريقي لم يفقد مكانته وسط هذا المزيج مما يمنح الكثير من المعالم الحفصية خاصة جامع الهواء ومدرستي الشماعية والمنتصرية مظهراً مميّزاً ومبتكراً بالنسبة إلى كل ما عمل في المشرق أو المغرب.

إذن يحتل العنصر الحفصي منعطفاً في التطور العام للفن الأفريقي إذ له الفضل الذي لا ينسى حيث أعطى إلى العمارة الأفريقية المظهر الذي حافظت عليه طويلاً بعد سقوط الأسرة.

انتهت الدولة الحفصية أثناء الحروب الاسبانية العثمانية التي بلغ عدد ضحاياها أرقاماً خيالية فمن بين سكان مدينة تونس الذين قدر عددهم بحوالي مائة ألف ساكن، لم يبق قيد الحياة إلا الربع أو أقل ــ فقد أبيحت المدينة مرات منذ سقوطها في أيدي الامبراطور شارل الخامس سنة ٩٤٢ (١٥٣٥م) إلى أن احتلها العثمانيون سنة ٩٨٢ (١٥٧٤م). فنسفت أعمال التخريب والاحتلال جل الأعمال العمرانية والمعمارية التي قام بها الحفصيون. ولا شك أن المدن الأفريقية الأخرى عرفت نفس المصير الذي عرفته العاصمة. وبخراب المدن والأمصار تقهقر العمران وتردت الحضارة وانتهت الدولة الحفصية، بعد أن مرّ على تأسيسها أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن. وتلك سنة الله في خلقه.

●

أهم المراجع المعتمدة:

(١) عبدالعزيز الدولاتي، **مدينة تونس في العهد الحفصي**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨١.

(٢) R. Bruschvig *L'Ifriquiya sous la* dynastie *des Hafsides.*

خير الدين التونسي

أبو النهضة التونسية في القرن التاسع عشر



د. معن زيادة

مجدد مبكر(١):

لعل أول خطوة جدية لتحديث تونس كانت تلك التي خطاها خير الدين باشا الذي عرف فيما بعد باسم «أبو لنهضة». كان خير الدين مملوكاً شركسيا وأحد افراد الطبقة الحاكمة العثمانية في تونس، وقد استطاع ان يصبح رئيسا لوزراء تونس في الفترة الممتدة من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٧ وذلك بفضل وعيه وحكمته وتجاربه. ويشترك خير الدين في اصلاحاته العملية التي ضمنها كتابه ـ او بتعبير ادق مقدمة كتابه «اقوم المسالك» ـ مع رواد التحديث في المرحلة السابقة على دخول الاستعمار الى البلاد العربية والاسلامية، من امثال محمد علي باشا في مصر، والسلطان محمود ومدحت باشا في تركيا العثمانية. فلقد كان يجمع هؤلاء جميعا موقف موحد، قوامه ان المسلمين ضعفاء، وان الطريق الى عودة القوة اليهم انما تكمن في أخذهم بالتكنيك والعلم، اللذين اعطيا الغرب قوته وتفوقه. وكان رواد الاصلاح هؤلاء، يشتركون في قناعة واحدة، وهي القائلة بأن الأخذ بمعالم الحياة الاوروبية لا يتعارض مع دعائم الدين الاسلامي ولا يبتعد بالمسلمين عن تعاليم دينهم. كان يسود موقفهم وقناعتهم طابع التبسيط لذي اراد ان يسد الهوة بين الثقافتين الاسلامية والاوروبية عن طريق القفز فوق المشكلات الاساسية والاكتفاء بموقف تبريري دفاعي.

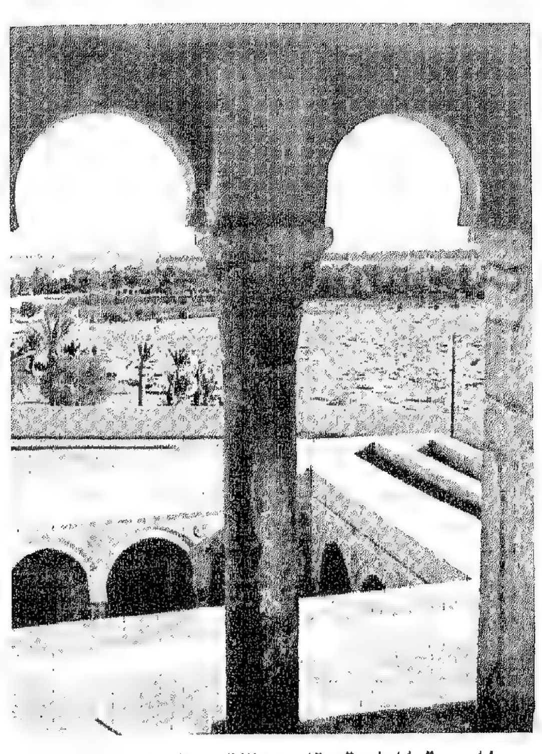
كان خير الدين الحاكم التونسي مثل نظيره الحاكم المصري محمد علي، وكان خير الدين المفكر التونسي مثل نظيره المفكر المصري رفاعة الطهطاوي، مبهورين بانجازات الغرب وقوته، وكانوا يسعون الى ضم تكنيك الغرب الى الثقافة الاسلامية التقليدية دون ان يتعمقوا في دراسة الفرضيات الاساسية في الثقافة الاسلامية وما اذا كانت تصلح لمهمة من هذا النوع. وكان سبيلهم الاول الى ما كانوا يسعون اليه هو التعليم. ولعله مما تجدر الاشارة اليه ان اكثر جهود خير الدين فعالية وبقاء بالاضافة لكتابه، كان المدرسة الصادقية (نسبة الى باي تونس في ذلك الحين محمد الصادق) التي اسسها سنة ١٨٧٥، والتي كانت هيئة التعليم فيها مؤلفة من نخبة من الاساتذة الاوروبيين، تماما كما ان اكثر جهود الطهطاوي وعلي مبارك فعالية وبقاء بالاضافة الى كتبهما كان تلك المدارس التي انشآها وأشرفا عليها. ففي سنة ١٨٧٨ اي بعد ثلاث سنوات على تأسيس المدرسة، كانت الصادقية تضم ما يقرب من المئتي تلميذ، شكلوا فيما بعد الجيل الاول من القادة والرواد الوطنيين الذين ساروا على خطى خير الدين في تحديث البلاد(٢).

واذا كان خير الدين هو باعث النهضة في تونس، فانه ما كان ليستطيع ان يلعب اي دور في تحديث البلاد لولا وجود الاستعداد اللازم في المجتمع التونسي نفسه. ان نجاح المدرسة الصادقية، والقبول الواسع الذي لقيته، والدور الذي لعبته، وانتشار كتاب خير الدين اقوم المسالك، وتلقي آرائه الاصلاحية الواردة في المقدمة خاصة بالترحاب، وعدم معارضة خطواته التحديثية المختلفة على صعيد الجيش والادارة والمشاريع العمرانية، كل ذلك يؤكد وجود الاستعداد اللازم للتحديث في تونس في المرحلة السابقة على دخول القوات الاستعمارية الى لبلاد سنة ١٨٨١. فعندما دخلت الجيوش لفرنسية الى تونس، لم يكن المجتمع التونسي مجرد مادة خام قابلة للتشكل وفق ارادة لمستعمر بل كانت تونس قد سارت خطوات هامة وقطعت شوطا بعيدا على طريق التطور، ذلك ان خميرة التجديد كانت قد انتشرت بين طلائع المجتمع التونسي. فلم يكن دخول لفرنسيين هو بداية وضع البلاد على عتبة التغيير؛ بل يمكن الزعم ان تونس كانت على عتبة ذاك التغيير، وان اوروبا الاستعمارية لعبت دورا سلبيا اخر عملية التطور والتجديد في تونس. ويكفي ان نذكر هنا ان العمل الاول في عرقلة مشاريع خير الدين التحديثية ثم تجميدها كان استيلاء الشركات الاحتكارية الاستعمارية على ثروات تونس بحجة استيفاء الديون، فكان ذلك مقدمة لدخول القوات المستعمرة الى تونس بعد ذلك باربع سنوات، تماما كما حدث في مصر في نفس الفترة التاريخية.

وكتاب خير الدين: **أقوم المسالك في معرفة**

احوال الممالك هو احدى الوثـائق النادرة التي خطتها اقلام رجال السياسة في القرن التاسع عشر في البلاد العربية والدولة العثمانية. وهو يذكرنا بالتغييرات الجذرية التي احدثها محمد علي باشا في مصر وما نتج عنها من حركة فكرية بدأها رفاعة الطهـطاوي وتابعهـا جمال الدين الافغـاني ومحمد عبـده وغيرهمـا، ويعيد الى الاذهـان التنـظيمـات الاصـلاحيـة في الدولة العثمانية ومشاريع الدستور في تونس بدءاً من سنة ١٨٦١. فكل هذا بالاضافة الى مـدرسة الالسن للتعـريب التي اسسهـا الطهـطاوي، والصـادقيـة التي اسسهـا خـير الدين وكتب الرحلات ومنها كتاب الطهطاوي تخليص الابريز في تلخيص باريز، تخدم كنماذج لدراسة تكون الحركة الثقافية العربية في القرن التاسع عشر، وتـأثيرات الفكـر الاوروبي في هذه الحـركـة، وطبيعـة الاصلاح والتجـديد التي اخـذ بها المفكرون ورجال السياسة في ذلك القرن الذي شهد نمو اتجاهات فكرية جديدة اكثـر قبولا لافكار الغرب والتكنيك ونمط الحياة الاوروبية.

فمن مصادر مماثلة لكتاب خير الدين استطاع ابناء الاجيال اللاحقة ان يقفوا عـلى معانـاة المفكرين ورجال السياسة، وطبيعة المشاكل التي كان يواجهها هؤلاء في فترة حاسمـة اختلطت فيهـا الآمال الكبـار بخيبات الأمـل والفشـل الذريع. فلقد ظهر الكتاب في عصر احتل فيه التحدي الاوروبي المتمثل في النهضة الاوروبية التي كان قد مضى على انطلاقها اكثر من قرنين من الزمان، مركز الصدارة بالنسبة للمسلمين والثقافة الاسلامية. وقد تجلّـى هذا التحدي في التغييرات السياسية والفكرية والعسكرية التي عمت اوروبـا وفـرضت نفسهـا عـلى العـرب والمسلمين. ولعل هذه التغييرات الفكرية كانت ابلغ خطرا من التغييرات العسكـرية والمـادية المختلفة. فلقد عرف العرب والمسلمون قبل ذلك هزائم عسكرية مختلفة، واستطاعوا ان ينهضوا مجددا، كما كان الحال بعـد غزوات المغـول والتتار للعالم الاسلامي، وكما كان الحال بعد انتصـارات الصليبيـين واحتـلالهم لأراضينـا لسنـوات طويلة. ولعل خـطورة هذا التحـدي الفكري لا تقل عن ذلك التحدي الذي عرفـه



المدرسة المرادية بقابس (القرن السابع عشر م)

العرب في القرنين الثامن والتاسع عندما واجهوا الثقافة والحضارة الهلنستية وهم في ذروة قوتهم السياسية والعسكرية، مع فارق اساسي وهو ان المواجهة الجديدة لاوروبا قد اخـذت مكانهـا عنـدما كـان زمام امـر العرب في يـد الدولة العثمانية وعندما كانت هذه الدولة قد اصبحت رجل اوروبا المريض.

عندما تكون الامم امام منعطف خطير من هذا النوع، فإنها تنتج خير الرجال كما تنتج اسوأهم، لأن منعطفات التاريخ الهامة هي خير محك للرجال يميـز الغث من الثمين. والقـرن التاسع عشر الذي مثل منعطفا من هذا النوع، عـرف رجالا ذوي نصيب كبـير من البـطولة والعظمة في الدولة العثمانية والدول التي كانت تسير في فلكها: السلطان محمود وولداه، ومحمد علي باشا، والخديوي اسماعيل، ومدحت باشا، وخـير الدين التونسي، والبـاي احمد وغيـرهم. وبـاستثناء خـير الدين فان احـدا من هـؤلاء لم يترك لنا من الوثائق المكتوبة ما يوقفنا على نظرياتهم السياسية وآرائهم ونـظرتهم لدورهم وكيفية تفكيرهم وشعورهم نحو ما كانوا يرغبون

في انجازه وما انجزوه من مشاريع. ولحسن الحظ فان خير الدين قد خرج على المألوف من رجال السياسة فجمع في شخصه بين السياسي والمفكر والكاتب معاً. وان كتابه اقوم المسالك، ولا سيما مقدمة الكتاب، يمكن ان ينظر اليها على انها محاولة واعية لمعالجة بعض مشكلات الفلسفة السياسية. وما يزيد من اهمية هذه المحاولة انها ليست بعيدة عن الاعتبارات السياسية العملية ولا تغوص في النظريات المجردة البعيدة عن مجرى الاحداث السياسية.

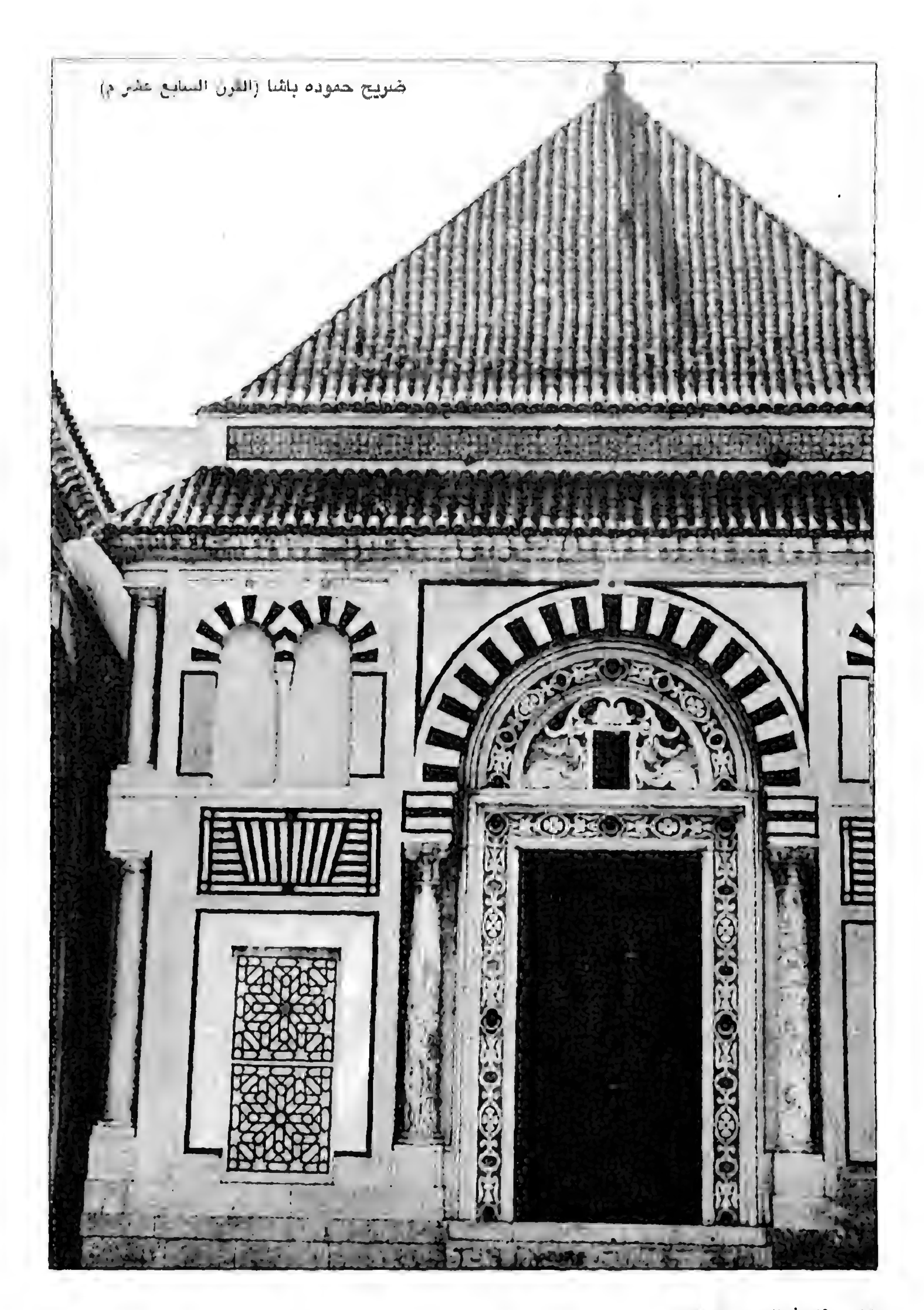
كتب خير الدين مقدمة كتابه محاولا الدفاع عن برنامجه السياسي. والحجج التي يقدمها ليست من ذلك النوع الذي يقدمه الفيلسوف او المنظر، بل هي تكاد ان تكون اجابات على ما واجه الكاتب من مشكلات سياسية عملية مرتبطة بتجربته السياسية. ويزيد من اهمية الكتاب انه ظهر بين فترتين اساسيتين من حياة خير الدين السياسية. عندما وضع خير الدين كتابه كان قد خرج من الوزارة، الا انه كان ينتظر ان يعود اليها في وقت لاحق، وكان ما يزال امامه مستقبل سياسي واسع، الا انه في نفس الوقت كان قد اكتسب خبرة سياسية واسعة، وكان يستطيع ان يكتب بوصفه منخرطا في الحياة العامة ويملك من معطيات الحياة السياسية العملية ما يجعل لكتابه اهمية خاصة. فالكتاب لم يكن مجرد بيان سياسي وضع خصيصا لتبرير برنامج حكومي، لأن خير الدين لم يكن في الحكم، كما انه لم يكن دفاعا عن ماض سياسي لشخصية سياسية، لأن خير الدين لم يكن قد اعتزل السياسة كلياً، وكان ما يزال يعد نفسه للعودة الى الحكم، وينتظر الفرصة المناسبة لذلك. من هنا كان الكتاب مزيجا من الخبرة والتأمل والالتزام، وهو يشكل نموذجا فريدا لدارسي التاريخ السياسي والفلسفة السياسية.

تونس ومصر نموذجان متشابهان:

ويزيد الوقت الذي ظهر فيه الكتاب من اهميته، ذلك ان الكتاب ظهر في سنة ١٨٦٧ وهو الوقت الذي كانت فيه نتائج برنامج محمد علي الاصلاحي قد بدأت تتبين، وظهرت بعض ايجابيات وسلبيات هذا البرنامج، الامر الذي وفرّ لسياسي مثل خير الدين ان يغوص متعمقا في دراسة الليبرالية الغربية والاصلاحات التي كانت تستلهم الانظمة الاوروبية. فاذا اضفنا الى هذا سعة اطلاع خير الدين وتجربته الشخصية اثناء حكم الباي أحمد الذي كان يمثل تجربة شبيهة بتجربة محمد علي في مصر وفي زمن قريب من زمن محمد علي، من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٥٥، ادركنا اهمية كتاب من نوع كتاب خير الدين في تلك الحقبة من الزمان. فالكتاب ليس تقويما لتجربة تونس الاصلاحية فقط، بل هو تقويم لتجربة مصر الاصلاحية ايضاً ولعهد التنظيمات الذي كانت الدولة العثمانية منخرطة فيه.

عندما وضع خير الدين كتابه كانت تونس قد عرفت أيام الباي احمد محاولة لوضع دستور جديد للبلاد يستلهم الانظمة الاوروبية ودساتيرها، الا ان محاولات الباي أحمد كانت قد اضطرت الى التراجع امام سرعة تطور الاحداث المحلية، وامام مطالبات الدائنين الاوروبيين التي انتهت فيما بعد بتعليق الدستور بدخول القوات الاستعمارية الى البلاد سنة ١٨٨١. ظهر الكتاب قبل المرحلة الاستعمارية المباشرة، لذلك فهو يقوّم التجربة الاصلاحية السابقة على دخول الاستعمار، بيد أنه يأخذ بعين الاعتبار كل الخطوات التمهيدية السابقة على دخول الاستعمار المباشر للبلاد.

فأقوم المسالك وتجربة خير الدين الشخصية لهما اهميتهما الخاصة، أولاً لأن الرجل والكتاب يلقيان ضوءاً هاما على حقبة بالغة الخطورة من تاريخ تونس، وثانيا لأن تجربة تونس في تلك الفترة كانت تمثل الى حد بعيد ما كان يدور في مصر وفي غيرها من البلاد المرتبطة بالدولة العثمانية. ويمكن اتخاذ خير الدين وكتابه نموذجا لدراسة التمخضات التي كانت تعانيها الدول المرتبطة كليا او جزئياً بالدولة العثمانية في الفترة السابقة مباشرة لخضوع هذه البلاد للاستعمار المباشر. واذا كنا نستطيع، تبعا لمقدمة خير الدين، ان نميز بين ما يعبر عن حالة تونسية محلية وما يعبر عن حالة اسلامية عامة،



ضريح حموده باشا (القرن السابع عشر م)

فمما لا شك فيه ان خير الدين كان يعرف تماما ان الحيز غالبا ما كان يضيق وان امكانية التمييز تصبح اكثر صعوبة. فقد كانت تونس جزءا من عالم اسلامي واسع يعاني من ازمات متشابهة ويواجه تحديات متماثلة. ولما كانت محاولة خير الدين لا تختلف في جوهرها عن محاولات اخرى مشابهة في اقطار اخرى، فهي تنضم الى تلك المحاولات الاخرى لتساهم في تجارب العالم الاسلامي قبل عصر الاستعمار وقبل نشوء الافكار القومية في ذلك العالم الاسلامي وعندما دخل الاستعمار تقوضت كل البرامج الاصلاحية، وبدأت مرحلة جديدة من التحديث وفق مصالح الاستعمار، وبدأت معها مرحلة المواجهة المباشرة ومرحلة ظهور الفكر القومي.

غالبا ما تتجه أنظار الباحثين المهتمين بالتحديث والاصلاح في الدولة العثمانية والدول التي كانت تدور في فلكها في الفترة السابقة على الاستعمار المباشر الى الآستانة والقاهرة مهملين التجربة التونسية. لقد اصبحت اوجه الشبه بين التجربتين التركية ـ العثمانية والمصرية امرا متفقا عليه بين الباحثين الذين كثيرا ما يدرسون احدى التجربتين على ضوء الاخرى. الا ان اكثر هؤلاء ينسى احتمال وجود تجربة ثالثة مماثلة تلقي الكثير من الضوء على التجربتين الاخريين، الا وهي التجربة التونسية. ذلك ان تلك التجربة كانت في تلك الفترة صورة مصغرة عن مصر، وكانت كل من تونس ومصر المرتبطتين بالدولة العثمانية والمستقلتين عنها في نفس الوقت، تسيران على طريق التحديث بخطى لا تقل عن الدولة العثمانية نفسها. وكلا الفرعين بالاضافة للجذر يشتركان في الاهتمام بالافكار والمؤسسات والدساتير والتجارب الاوروبية ويستلهمانها في برامجهما الاصلاحية المتقاربة.

فتونس هي المثل او النموذج الثاني بعد مصر من الاقطار العربية التي كانت تدور في فلك الدولة العثمانية والتي كانت مع ذلك تحافظ على استقلاليتها في نفس الوقت. اما سائر البلاد العربية فكانت اما قد دخلت تحت نفوذ الاستعمار الغربي المباشر فانتقلت الى مرحلة الخضوع للاستعمار الجديد، كما هو الحال بالنسبة للجزائر، او ما زالت تحت نير العثمانيين فلم تتمكن من ان تكون لها تجربتها الاصلاحية والتحديثية المستقلة كما هو الحال بالنسبة لمنطقة الهلال الخصيب والحجاز، او انها لم تدخل مطلقا في فلك الدولة العثمانية كالمغرب وبعض اجزاء الجزيرة العربية، الا انها لم تخض غمار تجربة تجديدية تستلهم الانظمة الاوروبية. فتونس هي الوحيدة الى جانب مصر التي كان لها تجربة اصلاحية تحديثية مستقلة كان يمكن ان تكون نواة تغيير شامل في المنطقة العربية بأسرها لو لم يعاجلها الاستعمار الاوروبي بالغزو الذي اوقف تلك الحركات التحديثية وبترها، بعد ان عرقلها لسنوات قبل ذلك عند مطالبته بالديون المتراكمة لاوروبا على تونس ومصر على حد سواء.

كانت تونس قد دخلت في فلك الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، واستمرت كذلك خلال القرون التالية: السابع والثامن والتاسع عشر رغم استقلاليتها التي انتزعتها كسياسة الامر الراهن تماما كما انتزعت مصر استقلاليتها ايام المماليك ثم ايام علي بك الكبير ثم محمد علي باشا عن طريق فرض هذه الاستقلالية كأمر قائم. ومع ذلك فقد ظلت تونس كما ظلت مصر تدور في فلك الدولة العثمانية. كانت السلطات العثمانية في الآستانة هي التي تسمي وزراء تونس وكبار موظفي مناصب «المخزن» او الحكومة، وكان هؤلاء في غالبيتهم من «الترك» الذين يشكلون الطبقة الحاكمة. وكان الباي يعتمد على اناضوليا والمناطق المجاورة لها في مده بهم، فكانوا يحضرون الى تونس كمماليك وكانوا يعدون لاحتلال جميع مناصب «المخزن» دون استثناء تقريباً. وكان هؤلاء يرتبطون بروابط تشدهم الى اترابهم في مصر والدولة العثمانية، الى جانب روابطهم التي كانت تربطهم بالبلاد التي كانوا يعيشون فيها. كان خير الدين تونسيا وعثمانيا في نفس الوقت كما كان محمد علي مصريا وعثمانيا في نفس الوقت ايضا.

وهكذا عرف القرن التاسع عشر ثلاث دول اسلامية مستقلة ومتشابهة في نفس الوقت، الجذر العثماني والفرعان العربيان. وقد واجهت

هذه الدول الثلاث نفس المشكلات السياسية ونفس التحديات الفكرية (الايديولوجية) القادمة من الغرب، وكانت استجاباتها لهذه التحديات متشابهة الى حد بعيد، كما ان العقبات التي واجهتها كانت متشابهة ايضا. في الدول الثلاث كان يسود الاعتقاد بأن تفوق الغرب الاوروبي هو تفوق عسكري بالدرجة الاولى وان النهوض انما يكون ببناء جيوش على النمط الغربي، وهكذا كانت بدايات التحديث في الدول الثلاث عسكرية بالدرجة الاولى. وفي الدول الثلاث كانت هناك رغبة حثيثة في تصنيع البلاد، وكان لكل بلد منها برامج تصنيعية على درجات مختلفة من النجاح. وفي الدول الثلاث كان الاعتماد على الخبراء والفنيين الاجانب على اشده، ولا سيما في الجيوش والتعليم. وفي الدول الثلاث كانت هناك محاولات لوضع دساتير تستلهم الليبرالية الاوروبية في القرن التاسع عشر. وفي الدول الثلاث عرف الحكام كما عرفت الشعوب لسعات سياط المرابين والرأسماليين والمحتكرين الاوروبيين. وفي الدول الثلاث انجذب الحكام الى مصيدة الاستعمار الاوروبي فاستدانوا من اوروبا بفوائد باهظة وعجزوا عن ايفاء ديونهم حتى اعلنت كل من مصر وتونس الافلاس فكان مقدمة وحجة لدخول الاستعمار الى البلاد.

لهذا كله فان المشكلات التي يعالجها خير الدين في مقدمة كتابه اقوم المسالك والحلول التي يقدمها هي مشكلات وحلول مشتركة بين تونس ومصر والدولة العثمانية. بل ان خير الدين نفسه عندما وضع كتابه كان يعرف ان مايصدق على تونس يصدق الى حد بعيد على غيرها ولا سيما الدولة العثمانية وقد اشار هو نفسه الى ذلك في المقدمة. من هنا فان كتاب خير الدين وتجربته في تونس هما مدخل مشروع لفهم ما كان يجري في مصر وما كان يجري في تركيا العثمانية، فبرنامجه وحججه وحلوله أعم من ان تقتصر على تونس وحدها. وباختصار فان أقوم المسالك ليس فقط مصدرا لدراسة حقبة هامة من تاريخ تونس في القرن التاسع عشر، بل هو مصدر هام لفهم الاوضاع المماثلة في مصر وفي الدولة العثمانية على حد سواء.

مقدمة أقوم المسالك اهم اعمال خير الدين:

ظهرت الطبعة الاولى لكتاب خير الدين اقوم المسالك سنة ١٨٦٧، والكتاب يتألف من مقدمة طويلة، ثم من دراسة مقارنة مطولة لعشرين دولة اوروبية، كل دولة في فصل خاص بها، بعد ذلك يأتي باب موجز عن اقسام العالم الجغرافية وقاراته ولائحة مقارنة بالتقويمين الهجري والميلادي، واخيرا من ملحق يتضمن تقريظات معاصري خير الدين ومعارفه للكتاب. وبتعبير آخر فان الكتاب يشتمل على المقدمة ثم جسم الكتاب ثم الملاحق.

واهم ما في الكتاب المقدمة، التي تقدم حجج خير الدين العقلية والنقلية التي تدافع عن الاستفادة من المؤسسات السياسية الغربية بطريقة تذكرنا بكتابات رفاعة الطهطاوي تخليص الابريز ومناهج الالباب المصرية خاصة. الا ان كتاب خير الدين يتميز عن كتب الطهطاوي في ان صاحبه كان رجل سياسة في موضع المسؤولية الاولى في البلاد، فلقد اصبح خير الدين رئيسا للوزراء في تونس ثم صدرا اعظم[٤] في الدولة العثمانية، والكتاب اشبه ما يكون بمحاولة رجل سياسة لايجاد المبررات العقلية والنقلية لبرنامجه السياسي، وجعل هذا البرنامج الذي يستعير التجربة الاوروبية مقبولا لدى المسلمين. والمقدمة هي اهم ما في الكتاب، ويبدو ان خير الدين كان يعرف ذلك، فقد وافق على ان تنقل الى الفرنسية دون سائر الكتاب بعد سنة واحدة من ظهور الطبعة العربية الاولى. وقد ظهرت بالفرنسية تحت عنوان: اصلاحات ضرورية للدول الاسلامية:

دراسة القسم الاول من المصنف السياسي والاحصائي المعنون: اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك. وقد اعيد نشر المقدمة العربية في القسطنطينية سنة ١٨٧٦ ثم تبعتها الترجمة التركية في سنة ١٨٧٨.

منذ ظهور الكتاب تجاوز الاهتمام بالمقدمة الاهتمام بالكتاب حتى غطى هذا الاهتمام بالمقدمة على سائر اجزاء الكتاب واصبحت

الاشارة الى اقوم المسالك تعني الاشارة الى المقدمة وحدها. واذا كان هذا الاهتمام بالمقدمة يؤكد اهميتها البالغة، الا ان اهمال اجزاء الكتاب الاخرى كلية امر غير جائز بالنسبة للباحث المتخصص. صحيح ان ما في الكتاب من معلومات تاريخية وجغرافية وسياسية اصبح الان من الامور المعروفة والشائعة بل والتي تخطاها الزمن، الا انه من المهم بمكان معرفة كيفية معالجة خير الدين لموضوعه، وما هي الحكومات والدول الاوروبية التي اثارت اعجابه ودفعته الى دراستها، وفوق هذا وذاك ما هي المصطلحات السياسية العربية التي استخدمها للتعبير عن المفاهيم والمؤسسات السياسية الاوروبية.

ومع هذا تظل مقدمة الكتاب اهم ما فيه، وهي ما زالت تحتاج الى ان تدرس بعناية بالغة، لانها محاولة رجل سياسة مسؤول لاقناع معاصريه من المثقفين المسلمين في القرن التاسع عشر بضرورة الاصلاح والتغيير واهمية الاستعارة من اوروبا، خاصة وان هؤلاء المعاصرين من المثقفين كانوا ينتمون الى الاغلبية المحافظة التي ترى في التغيير والاصلاح خطرا على مصالحها وعلى المؤسسات الدينية السائدة، الامر الذي ما زال له الكثير من الصدى حتى بعد مضي اكثر من قرن على كتاب خير الدين وعلى تجربته في الحكم. وقد كان يتعين على خير الدين حتى يستطيع الوصول الى عقول قرائه والنجاح في مهمته التي تصدى لها ان ينتقي من المفردات والصياغات ما يقبله القارىء ممن عرف الثقافة العربية الاسلامية دون سواها، وهي المهمة التي اقدم عليها الطهطاوي قبله والتي لقيت الكثير من النجاح رغم صيحات الاستنكار ورغم الاتهام بالزندقة والهرطقة وما شابهها. وكالطهطاوي قبله فان خير الدين يلجأ الى وسيلة ناجعة استخدمها اكثر رجال الاصلاح في القرن التاسع عشر، وهي انكار ان تكون الاصلاحات التي يريد استعارتها من الغرب بعيدة عن الثقافة والتراث الاسلاميين، فهو باستمرار يحاول ان يبين ان اوروبا استطاعت ان تطور بعض المفاهيم والافكار الضرورية للتقدم والتي لا يعدم الفكر الاسلامي ان يجد لها مقابلا فيه.

والتونسي يقدم اهم افكاره، اذا لم نقل جميعها، في المقدمة التي لا تزيد على المئة صفحة، ولا يترك لجسم الكتاب اكثر من مهمة الوصف والتصنيف مما يمكن ان نطلق عليه الان اسم «دراسات في الحكومات المقارنة»[٥]. واذا كان وصف خير الدين للدساتير والحكومات والانظمة السياسية للدول التي يعرض لها ـ ومنها الدولة العثمانية ـ وصفا دقيقا، فان اهمية الكتاب لا تزيد عن ذلك، بل ان خير الدين لم يتوخ من الكتاب اكثر من ذلك. ومنذ ظهور الكتاب كان يمكن اعتبار المقدمة عملا منفصلا او مستقلا، وقد ادرك خير الدين كما ادرك معاصروه ذلك بدليل ان خير الدين اجاز ترجمة المقدمة الى الفرنسية دون سائر الكتاب كما اشرنا، كما ان الطبعة العربية الثانية والطبعة التركية اقتصرتا على المقدمة وحدها. وقد كان لهذه المقدمة الصدى الكبير عند مثقفي القرن التاسع عشر فامتدحها الطهطاوي واشار اليها في كتابيه المرشد الامين ومناهج الالباب، كما كتب عنها عبد الرحمن الكواكبي واعتبر صاحبها من العرب القلائل الذين كتبوا في السياسة في القرن التاسع عشر مما يستحق ان يذكر.

في سنة ١٩٣٤ ظهرت مذكرات خير الدين تحت عنوان «الى اولادي: مذكرات حياتي الخاصة والسياسية»[٦] وفي السنة التالية ظهر برنامجه السياسي الذي قدمه للسلطان عبد الحميد تحت عنوان «برنامجي»[٧] مترجما الى الفرنسية. وعلى الرغم من الاهمية التاريخية البالغة لهذه الوثائق، الا ان ذلك لا يضيف الكثير الى افكار خير الدين السياسية والاجتماعية التي ظهرت في مقدمة اقوم المسالك. كتب خير الدين مذكراته او بالاحرى املاها بين سنتي ١٨٨٥ و١٨٨٦، اما برنامجه السياسي فهو الذي قدمه للسلطان في سنة ١٨٨٢. والمذكرات والبرنامج ليست الا شهادات تفوق اهميتها التاريخية اهميتها السياسية والفكرية، وتؤكد ان اهم ما اعطاه خير الدين بالاضافة لمحاولاته الاصلاحية اثناء فترة رئاسته للحكومة في تونس انما هو مقدمة كتابه اقوم المسالك.

فالمقدمة بالاضافة لكونها اهم ما كتبه خير الدين، تلخص كل ماكتبه وتغني عنه، وهي في نفس الوقت تلخص كل تجربة خير الدين التي تتلخص في مقاومة اوروبا عن طريق الاستعارة منها، والتمسك بالجامعة الاسلامية لدعم هذه المقاومة، ومحاولة اصلاح الولايات الاسلامية المختلفة كوسيلة وحيدة للبعث والنهوض. وخير الدين في موقفه هذا الذي يعرضه في مقدمته يعبر عن مواقف وآراء وافكار جميع رجال الاصلاح في عصره، مثل جمال الدين الافغاني الذي تلخص موقفه في الدفاع الخارجي والاصلاح الداخلي ايضاً. من هنا فان اهمية المقدمة تتجاوز حدود الكتاب وتتجاوز حدود تونس، وهي مدخل مشروع لفهم حركة الاصلاح والتجديد والتحديث في البلاد العربية خاصة والبلاد الاسلامية عامة.

خير الدين ومحاولات الباي أحمد الاصلاحية

يمكن الحديث عن محاولتين اساسيتين للاصلاح الداخلي في تونس في القرن التاسع عشر في الفترة السابقة على دخول تونس تحت النفوذ الفرنسي: المحاولة الاولى كانت على يد الباي احمد الذي امتد حكمه من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٥٥، والثانية على يد خير الدين الذي حاول القيام ببعض الاصلاحات الداخلية في فترة توليه الوزارة في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الا ان اصلاحاته الحقيقية جاءت بعد ذلك عند توليه رئاسة الوزارة بين سنتي ١٨٧٣ و١٨٧٧ وعندما اتيحت له ولبعض زملائه من المجددين الفرصة لتنفيذ بعض مشاريعهم الاصلاحية. واذا كان هناك بعض محاولات الاصلاح والتحديث قبل هاتين المحاولتين وخاصة على يد الباي حموده باشا الذي ظهر في اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وعلى يد الباي محمود الذي خلف حموده على الحكم سنة ١٨١٤ وامتد حكمه حتى سنة ١٨٢٤، فكلاهما ساهم في القضاء على جيش المرتزقة واستبداله بجيش حديث على النمط الاوروبي، وكلاهما حاول الاستفادة من العناصر العربية التونسية



خير الدين باشا

في الحكم، الا ان الاصلاح الذي يستلهم التجربة الاوروبية بالمعنى الحديث للكلمة لم يبدأ الا مع تجربة الباي احمد ومع تجربة خير الدين بعد ذلك(٨).

عندما بدأ الباي احمد فترة حكمه التي امتدت على مدى ثمانية عشر عاما، كان الحكم في تونس ينحصر ببضعة افراد، وكان هؤلاء يعالجون امور الحكم بطريقة فردية شبه مطلقة اشبه ماتكون بالطريقة العشائرية. يضاف الى ذلك ان معظم هؤلاء كان ينتسب الى تلك الاصول الشركسية ــ التركية، ومع ان الكثير من هؤلاء كان قد ولد على ارض تونس كما ان بعضهم دعم علاقته بتونس عن طريق المصاهرة، الا ان الطبقة الحاكمة في غالبيتها ظلت طبقة غريبة ذات اصول غير تونسية وغير عربية. اما التمثيل التونسي العربي في الحكم فكان ينحصر في «القادة» الذين كانوا يرسلون الى المناطق وفي «الخلفاء» وهم زعماء القبائل وفي «العلماء» الذين كانوا في غالبيتهم الساحقة من التوانسة وكانوا ينتسبون الى المذهب المالكي، على عكس طبقة الحكام الترك الذين كانوا

ينتسبون الى المذهب الحنفي. وكانت الخدمات الاجتماعية تكاد تنحصر في التعليم الذي كان يشرف عليه العلماء وخاصة علماء جامعة الزيتونة .

كل هذا الوضع الذي يعتبر استمرارا للعصور الوسطى بدأ بالتغير عندما صعد الباي احمد الى سدة الحكم بعد وفاة أبيه سنة ١٨٣٧. وكان احمد معجبا ومتأثرا بتجربة محمد علي في مصر وقد بدأ عهده باصلاح الجيش وبنائه على نمط جيش نابليون الذي كان الباي احمد يكن له الاحترام الشديد، وقد امر بترجمة التاريخ الفرنسي ولا سيما تاريخ نابليون الى العربية.

ولعل خطوته الاولى في اصلاح الجيش كانت تأسيس كلية الهندسة او مدرسة البوليتكنيك سنة ١٨٣٨ التي سعى من ورائها الى تدريب ضباط جيشه تدريبا حديثا. وكان اكثر المدرسين في هذه المدرسة من الاساتذة الفرنسيين الذين استعان بهم الباي خصيصا لهذه الغاية. بعد ذلك استمر الباي احمد بالسير على خطوات محمد علي، فبعد مدرسة البوليتكنيك ومحاولة اصلاح الجيش، حاول الباي تصنيع البلاد لامداد الجيش بالاسلحة والمعدات اللازمة له، وكان يدرك ان البلاد التي لا تستطيع الاعتماد على نفسها في امداد الجيش بما يلزمه من المعدات والذخيرة ستضطر الى استجداء الدول الكبرى التي لا تعطي الا اقل مما تأخذ. وقد نجحت سياسة الباي التصنيعية الى حد بعيد كما نجحت سياسة محمد علي في هذا الميدان، وعرفت تونس في ايامه مصانع متنوعة للاسلحة والذخيرة والجلود والنسيج وغيرها، وتطور الجيش وتأسست البحرية التونسية وانشىء المرفأ البحري اللازم لها. وقد رافق كل هذا المزيد من الاستقلالية التي ظهرت في علاقات الباي مع الدولة العثمانية وقناصل الدول الاوروبية على حد سواء. بالاضافة لذلك كله بنى الباي قصرا باهظ التكاليف هو قصر المحمدية الذي اراده عنوانا لاستقلالية تونس ورمزا يتشبه به بالدول المستقلة.

كانت هذه الخطوات الاصلاحية المتعددة وغيرها تتطلب اصلاح الادارة الحكومية كما تتطلب المصاريف الباهظة. وعندما كان الباي يحدث الجيش والتعليم ويصنع البلاد اهمل الادارة ولم يعن بتحديث الاقتصاد كما فعل محمد علي في مصر، فكانت نتيجة ذلك ان استطاع احد وزرائه وهو مصطفي الخازندار الذي اشتهر بطمعه وجشعه ان يجتني ثروة طائلة اثقلت كاهل الدولة الصغيرة ذات المداخيل المحدودة، خاصة وان مصطفي الخازندار هذا استطاع ان يشكل حوله عصبة من المستفيدين واستطاع ان يستمر في الوزارة حتى بعد عهد الباي أحمد الى ان اقصي عن الحكم وصودرت امواله سنة ١٨٧٣. وقد تعلم خير الدين من تجربة مصطفى الخازندار درسا هاما، وهو ان الاصلاح في ظل ادارة سياسة فاسدة لا يؤدي الا الى خيبات الامل. ومن غريب الصدف ان يكون هذا الوزير الذي اشتهر بفساده، هو والد زوجة خير الدين نفسه وزميله في الوزارة قبل ان يصبح خير الدين رئيسا للوزراء بعد ان اقصي مصطفى الخازندار نهائيا وجرد من ثروته التي بنى بها خير الدين المدرسة الصادقية التي اشرنا اليها قبلا.

الا ان مصطفى الخازندار لم يقص عن الحكم الا بعد ان ورط البلاد بديون كبيرة وفوائد فاحشة كانت تدفعها تونس للمرابين الاوروبيين، وكانت تستنزف اقتصاد البلاد. وقد اتخذت هذه الديون ذريعة لتدخل المرابين الاوروبيين في اقتصاد تونس عن طريق تشكيل لجنة الديون الاجنبية سنة ١٨٦٩، قبل اتخاذ تلك الذريعة مرة اخرى حجة لدخول الجيوش الفرنسية الى تونس واستعمارها.

كانت محاولات الباي احمد الاصلاحية بمثابة دروس هامة تلقاها خير الدين واستفاد منها قبل ان تتاح له الفرصة للقيام بمحاولاته الاصلاحية الخاصة. ذلك ان خير الدين كان قد وصل الى تونس للعمل في بلاط الباي في سنة ١٨٤٠ اي بعد مايقرب من السنوات الثلاث على تسلم الباي احمد مقاليد الامور وبعد سنتين من تأسيس كلية الهندسة او مدرسة البوليتكنيك. كان خير الدين في ذلك الحين مايزال في ريعان الشباب[٩]، الا انه استطاع ان يتقدم بسرعة بالغة، وقد قربه الباي منه ولم

يمض على وجوده في تونس اكثر من عشر سنوات حتى اصبح يده اليمنى، وقد ساعده ذلك في الاطلاع على المشاريع الاصلاحية التي كان الباي يحاول تنفيذها وعلى الافكار والمبادىء الجديدة التي كان يدين بها. وقد تيسر له في تلك الفترة الوقوف على النظام العسكري الجديد الذي وضعه الباي كما تيسر له الاتصال ببعض الخبراء العسكريين الفرنسيين الذين استقدمهم الباي لبناء جيشه، وببعض الاساتذة الذين كانوا يدرسون في البوليتكنيك. وفي هذه الفترة تعلم الفرنسية وكان ذلك سبب ارساله الى باريس سنة ١٨٥٣ في مهمة تتعلق بأحد زملاء مصطفى الخازندار الذي كان قد اختلس مبالغ ضخمة من خزينة الدولة وفر الى فرنسا وحصل على الجنسية الفرنسية. وهناك اتيحت له فرصة اوسع للاحتكاك المباشر بحضارة الغرب وثقافته، وهو ما اتيح للطهطاوي قبله بربع قرن تقريبا.

خير الدين على محك العمل

عندما عاد خير الدين من مهمته في باريس سنة ١٨٥٧ اسندت اليه وزارة الملاحة كما اسندت اليه رئاسة المجلس الذي كان قد اسسه الباي عملا بالدستور الجديد. وكان قبل ذلك قد تزوج ابنة مصطفى الخازندار الذي لمس في الشاب الجديد بوادر تبشر بمستقبل باهر. ورغم الصلة العائلية التي كانت تربط خير الدين بالخازندار، فان خير الدين رفض مماشاة هذا الاخير في فساده، وآثر الاستقالة من منصبيه الحكوميين سنة ١٨٦٢ بعد خمس سنوات تقريبا من توليهما. وكان سبب استقالته اختلافه مع والد زوجته حول امر الاستدانة من المرابين الاوروبيين. وعلى اثر ذلك غادر خير الدين تونس وعاش لمدة سبع سنوات في الخارج حيث تيسرت له فرصة وضع كتابه اقوم المسالك في تلك الفترة التي فرض فيها على نفسه الابتعاد عن السياسة والانصراف للدراسة والتأمل. وكأن خير الدين كان يدرك ان سياسة والد زوجته ستؤدي الى كارثة كبرى، فآثر ان لا يكون طرفا فيها على الاقل طالما انه لم يكن يستطيع تعطيلها وتجنيب البلاد نتائجها.

في سنة ١٨٦٩ وعلى اثر الوصاية المالية الاجنبية على تونس، عاد خير الدين ليرأس لجنة الديون الايطالية ــ الفرنسية ــ الانكليزية المشتركة حيث اختير لهذه المهمة، بعد ان اقصى الخازندار نهائيا عن الحكم. وفي اثناء السنوات الاربع التي ترأس فيها خير الدين الحكومة وتولى مقاليد الامور اتيحت له الفرصة لتطبيق برنامجه السياسي الذي عرضه في مقدمة كتابه.

في مذكراته التي املاها بعد حوالي العشر سنوات من اعتزاله السياسة وانتهاء تجربته في الحكم، يعدد لنا خير الدين الانجازات التي استطاع تحقيقها اثناء توليه منصب رئاسة الوزراء في تونس واكثرها يتناول اصلاح الادارة والتعليم وتحسين «معاملات» الحكومة للمواطنين وهي على الوجه التالي:

١ ــ الغاء الضرائب السابقة والتي تراكمت كديون على المواطنين.

٢ ــ الغاء الضرائب ولمدة عشرين سنة على الاراضي الزراعية التي تباشر زراعة الزيتون والنخيل تشجيعا لزراعة هاتين المادتين الاساسيتين للاقتصاد التونسي.

٣ ــ تحديد الضريبة المفروضة على رؤوس المواطنين منعا لطمع وجشع «القواد» الذين كان يترك لهم امر تحديد هذه الضريبة بطريقة تعسفية جائرة ومتحيزة في اكثر الحالات.

٤ ــ الالغاء الجزئي للنظام الضرائبي الذي كان يعطي نسبة مئوية لجامعي الضرائب الذين كانوا يبالغون في الضرائب ويجمعونها بالقوة الجائرة.

٥ ــ اعادة تنظيم الضرائب على الاستيراد والتصدير وتحديد ضريبة الاستيراد بـ ٥ ٪ خمسة بالمئة فقط وتخفيف ضريبة التصدير.

٦ ــ تأسيس نظام جديد لادارة الحبوس الوقفية وتحديثها.

٧ ــ اعادة تنظيم الدراسة في جامعة الزيتونة وتطويرها.

٨ ــ تأسيس مكتبة جديدة وتطويرها.

٩ ــ تعبيد الطرق.

١٠ ــ انشاء المدرسة الصادقية على نمط مدارس «الليسيه» الاوروبية.

١١ ــ الغاء الحملات العسكرية الباهظة التكاليف لجمع الضرائب من القبائل الرحل

التي اعتادت ان لا تدفع الضرائب المفروضة عليها الّا عنوة(١٠).

فاذا اردنا ان نحلل هذه الانجازات التي ذكرها خير الدين في مذكراته التي حفظت لنا بالفرنسية وهي اللغة التي املاها بها صاحبها، فاننا نجد فيها نغمة الدفاع عن تاريخه السياسي وخاصة في فترة ذروة هذا التاريخ. فالمذكرات تختلف عن مقدمة اقوم المسالك في انها قد وضعت بعد انتهاء دور خير الدين السياسي، وليس عندما كان خير الدين يتأهب للعودة للنشاط السياسي كما كان الحال مع المقدمة. ولما كانت فترة تسلم خير الدين لرئاسة الوزراء لم تات مطابقة تماما لما كان يأمله وينشده، فان هذا يفسر نغمة الدفاع والتبرير التي نلمسها في المذكرات وفي تعداد الانجازات.

يضاف الى ذلك ان المذكرات والانجازات تؤكد على اهمية الاصلاح الاداري بشكل واضح، بل ان خير الدين يقرر في هذه المذكرات ان احد اهم اسباب عدم التقدم فساد الادارة وعدم اخلاص المسؤولين وتقديمهم لمصالحهم الخاصة على المصالح العامة، بل ان هؤلاء في نظر خير الدين هم علة عدم ثقة المواطنين بالسلطات السياسية وعدم تعاونهم معها، الامر الذي يؤدي الى تعطيل كل الخطوات الاصلاحية ويقود البلاد الى الهلاك. فكان خير الدين هنا يحاكم تجربة مصطفى الخازندار ويحملها مسؤولية كل ما آلت اليه الامور في البلاد بعد تجربة الباي احمد الاصلاحية. وخير الدين لا يبالغ ولا يتعسف في حكمه هذا، فهو خير من يدرك النتائج السلبية التي ترتبت على طمع وجشع وفساد الخازندار وهو الذي ابتعد عن الحكم لسنوات عندما ادرك النتائج الوخيمة المترتبة على سياسة هذا الاخير خاصة ان خير الدين لم يعد الى تونس الا بعد ان استنزفتها الديون والفوائد، فكانت مهمته محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه، ومحاولة تجنيب السفينة الغرق ولكن بعد فوات الاوان. فلقد عاد خير الدين الى الحكم بعد ان وضع الاستعمار قدمه في داخل البلاد تمهيدا لغزوها والسيطرة عليها سيطرة كلية.

واذا كان خير الدين قد اهتم بالاصلاح الاداري فلانه كان يؤمن ان خلق الادارة الجديدة التي تعمل بوحي «العدالة والمساواة» على حد تعبيره، والتي تستطيع ان تقضي على التعسف وسوء الاستعمال والاستغلال وتعيد للحكومة «دورها المقدس في حماية الشعب»، هي وحدها التي تستطيع ان تدير البلاد ادارة ناجحة وتقودها على طريق الازدهار(١١). ولما كان خير الدين يدرك ان الضرائب المتراكمة تثقل كاهل المواطنين وتدفعهم الى عدم الثقة بالحكومة، خاصة وانه لم يكن هناك اي نظام دقيق لتحديد المداخيل وتحديد الضريبة كما يعترف في مذكراته، فانه يعطي الاولوية لاصلاح النظام الضرائبي كما هو واضح من تعداد الانجازات.

ومن قراءتنا للانجازات كما يعددها خير الدين وكما اشرنا اليها نقف على اهتمام خير الدين بالتعليم واعطائه العناية البالغة. وكنا قد اشرنا اعلاه الى المدرسة الصادقية ودورها البالغ في دفع عجلة التطور والتحديث في تونس. ولا شك ان الفضل في ذلك يعود الى خير الدين الذي عني باعادة تنظيم التعليم في جامعة الزيتونة وتطويره ومحاولة تحديثه. وفوق هذا كله فقد عني خير الدين بالمكتبات واسس مكتبة حديثة على نمط المكتبات الحديثة التي تعرف اليها خلال اقامته في الخارج.

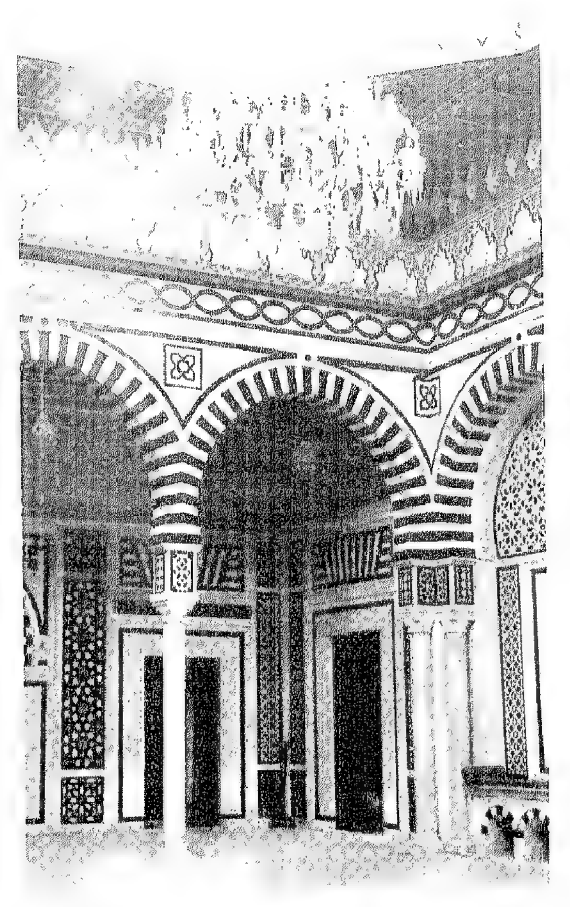
اما المشكلة التي كانت تعاني منها تونس باستمرار وهي مشكلة البدو والقبائل الرحل، واضطرار الحكومات الى تجريد الحملات العسكرية السنوية لجمع الضرائب منها ولاشعارها بوجود الدولة، فلا تتشجع هذه القبائل على غزو المناطق السكنية واقلاق امنها، فقد حاول خير الدين حلّها ونجح في ذلك الى حد بعيد. كان خير الدين يعتقد ان القبائل المتنقلة مثل غالبية المواطنين على كامل الاستعداد لدفع ما يترتب عليها اذا شعر هؤلاء بان الضرائب المفروضة عليهم تتناسب مع حجم الخدمات التي يتلقونها. وقد ناقش خير الدين هذا الموضوع في المذكرات واشار الى وجهة نظره التي تتلخص في ان القبائل على استعداد لارسال الضرائب بنفسها اذا

ما شعرت بأن الدولة توفر لها الحماية اللازمة لأمنها، واذا ماكانت هذه الضرائب تتصف بالاعتدال وتمثل بحق ماتشعر القبائل بانه يتوجب عليها. ويضيف خير الدين الى ذلك اعتقاده بان نظاما ضرائبيا من هذا النوع سيوقف غزوات القبائل من جهة، وسيحرم الخارجين عن القانون من مكان امين يجدونه عادة بين القبائل.

وموقف خير الدين المتعلق بالبدو والقبائل يتصل بموقف اعم واشمل قوامه ان الحكومة القوية التي تستطيع ان تفرض ارادتها وتستطيع ان تكتسب احترام المواطنين وثقتهم هي الحكومة التي تستطيع ان توفر الامن للبلاد وتنظيم المجتمع وتجنبه الفوضى والتعسف الذي انتهت اليه العهود السابقة. والتونسي يفخر في مذكراته بان سنوات حكمه قد تميزت بأن شهدت النساء «يتجولن منفردات ويتنقلن من قرية الى اخرى في مناطق كان الرجال لا يجرؤون فيها على السفر حتى وسط جماعات كبيرة مسلحة»(١٢). فقد كان خير الدين يسعى ان ينقل الى تونس الأمن الذي وجده في اوروبا اثناء اقامته فيها، والذي اثار ولا شك اعجابه البالغ خاصة وان المجتمعات الشرقية في القرن التاسع عشر كانت تحن الى عصور الامان التي عرفتها في سنوات مجدها وازدهارها.

كان خير الدين ينشد ان يحقق في بلاده ما شاهده في اوروبا وما عبر عنه خير تعبير في مقدمة كتابه. وهو في المذكرات يفخر بما استطاع انجازه في فترة حكمه التي لم تطل كثيرا والتي استمرت لمدة اربع سنوات فقط، فيذكر شق الطرق وتعبيدها وتوسع رقعة المواصلات ووصل المناطق بعضها ببعض. كما يفخر بمحاولاته لإقامة علاقات مباشرة مع المواطنين ويذكر انه قد وضع صندوقا خاصا للشكاوى في مكان عام واحتفظ بمفتاحه لنفسه حتى يتعرف على شكاوى المواطنين وآرائهم ويقف على ما يريدون دون ان يكون بينه وبينهم اية حواجز.

ولكن الى جانب هذه الانجازات التي يفخر بها خير الدين، فان المذكرات توقفنا على حقيقة وجهة نظر خير الدين ورأيه في الحكومة



دار الباي بالقصبة وهي اليوم مقر مجلس الوزراء

وطبيعتها. وتتلخص وجهة النظر هذه في ان صاحبها لا يبتعد كثيرا عن وجهة النظر الاسلامية التقليدية في الحكم والتي تفصل فصلا شبه قاطع بين الحاكم والمحكوم، وتعتبر الحاكم الفاضل هو ذلك الذي يعنى بأمور الرعية كرعية تحتاج الى من يعنى بها. وموقف خير الدين هذا يذكرنا بموقف الطهطاوي وحديثه عن المستبد المستنير وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما يقول خير الدين، والملك انما هو «الوازع» الذي يهيمن على الرعية فلا يعتدي بعضهم على بعض كما سنرى فيما بعد. لم يكن مايلهم خير الدين الى الحاكم العادل الفاضل الديموقراطية والعدالة الاجتماعية التي شهدتها اوروبا التي عرفها خير الدين، بل ظل يقيم ذلك الفصل بين الحاكم والمحكوم بطريقة اقرب ماتكون الى الطريقة التقليدية. بل ان خير الدين عندما تيسر له

اختيار وزرائه آثر ان يختار غالبية هؤلاء من ابناء الطبقة الحاكمة كما عرفتها العهود السابقة، وهي طبقة المماليك «الترك» ذات الاصول الشركسية واليونانية وما يشبهها. واما حديث خير الدين عن انجازاته، فقد تناول الإصلاحات الادارية والخدمات واهمل الحديث عن الدستور والتمثيل والفصل بين السلطات مما يعتبر اقرب الى روح التجربة الاوروبية التي تحدث عنها في مقدمته مناصرا ومدافعا.

واذا كان خير الدين قد وجد في الرابطة العثمانية مصدر قوة للدفاع الخارجي، فقد ظل مخلصا امينا لهذه الرابطة ولتقاليدها السياسية سواء على الصعيد المحلي او على صعيد السلطة، ولم تتجاوز حدود اصلاحه الداخلي روح تلك التقاليد. بل ان خير الدين في خطواته الاصلاحية نفسها كان يسير في ركاب غيره من العثمانيين كمحمد علي باشا والسلطان محمود وغيرهما ممن سبقه على الدرب. وخير الدين لم يذكر لا في مقدمته ولا في مذكراته انه سعى يوما الى ما يتجاوز حدود التقاليد والاعراف الاسلامية.

ومع هذا فان مقدمة كتابه اقوم المسالك تعتبر حجر الزاوية في تجربة النهوض في المرحلة السابقة للهيمنة الاستعمارية، فقد وضعت هذه المقدمة الاسس النظرية للتحديث والتجديد استحق عليها صاحبها اسم «ابو النهضة» لانها كانت بمثابة الباب الواسع للدخول الى العصر الحديث بحدود تجاوزت ما كان يطمح اليه صاحبها. واذا كان خير الدين قد حصر نفسه في تعداده لمنجزاته بما استطاع تحقيقه في فترة توليه الحكم، فان الانجاز الاكبر الذي يسجل لخير الدين هو مقدمة كتابه كما ذكرنا قبلا. فابو النهضة التونسية لم يكن ابا لهذه النهضة بما انجزه كسياسي اصلاحي بل بما انجزه ككاتب ومفكر نظر لنقل تجارب الامم الاخرى، لا نقل التقليد بل نقل الاستيعاب والتمثيل الواعيين... لقد كان من تأثير افكار خير الدين في المقدمة على معاصريه وتلامذته من المثقفين ان نسب نشوء الحركة الوطنية التونسية الى البذور التي بذرتها هذه المقدمة والتي اثمرت واينعت على يد بعض تلامذة خير الدين من امثال بشير صفار الاب الثاني للنهضة كما يعرف في تونس. ●

الهوامش

(١) قارن بـ«مقدمة اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك» لخير الدين التونسي، تحقيق ودراسة الدكتور معن زيادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٧ وما بعدها.

(٢) ظهرت الطبعة الاولى لكتاب: **اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك** ١٨٦٧.

(٣) Micaud, Charles A. with Leon Carl Brown and Clement Henry Moore: Tunisia, the Politics of Modernization, New York. London 1964. القسم الاول بقلم ليون كارل براون، ص ٣ وما يليها.

(٤) في السنة التالية لعزل خير الدين من منصب رئاسة الوزراء في تونس استدعاه السلطان عبد الحميد واستعان به في بعض اللجان الاقتصادية، وفي نفس السنة اصبح خير الدين صدرا اعظم ولمدة تقل عن السنة اختلف فيها مع عبد الحميد واعتزل السياسة حتى وفاته سنة ١٨٨٩.

(٥) Al-Husry, Khaldun S., Three Reformers. A study in Modern Arab political Thought, (Khayat Beirut 1966) p. 36.

(٦) «A Mes Enfants: Mémoire de ma vie privée et politique» in M. S. M. Jali and J. Pignon, «Documents sur Khéreddine» Revue Tunisienne, no. 18 (1934).

(٧) «Mon programme» Revue Tunisienne (1936) pp. 51-80.

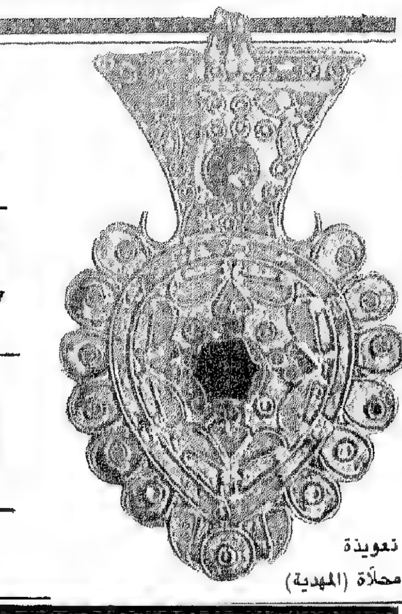
(٨) قارن مقدمة ليون كارل براون للترجمة الانكليزية لمقدمة اقوم المسالك:
Brown, Leon Carl: the *Surest path*, Horvard Middle Eastern Monograph Series 1967.

(٩) هناك اختلاف في تاريخ ميلاد خير الدين، البعض يجعله سنة ١٨١٠ والبعض الاخر يجعله سنة ١٨١٩. والارجح ان التاريخ الثاني اقرب الى الواقع من التاريخ الاول. قارن المرجع السابق ص ٢٩.

(١٠) قارن مذكرات خير الدين A mes enfants ص ١٩٣، قارن مقدمة الترجمة الانكليزية ص ٣٢.

(١١) نفس المرجع ص ٣٢.

(١٢) «A mes enfants» p. 196.



تعويذة
محلاة (المهدية)

محاولة في إعادة تحديد تاريخ الغزوة الهلالية الافريقية

الاستاذ. محمّد الشابي
مؤرخ وباحث بالمعهد القومي للآثار والفنون ــ تونس.



نشر الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤ مجموعة من «المجلات المستنصرية» وهي سجلات وتوقيعات، وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، الى دعاة اليمن وغيرهم، قدس الله أرواح جميع المؤمنين(١)، وقد أثبت المحقق صحة هذه السجلات بأدلة كثيرة، لا تدع مجالاً للطعن في صحة نسبتها الى المستنصر، في مقدمة الكتاب، فليراجع من أراد ذلك.

تحتوي هذه السجلات، التي كتبت في فترة طويلة نسبياً عن حكم المستنصر الفاطمي، على معلومات هامة جداً تتعلق سواء بالأحداث السياسية في العالم الاسلامي أو بأسرار الدعوة الفاطمية، وقد كتبت الى ملوك الصليحيين دعاة الفاطميين في اليمن، والهند، فيما بين سنتي ٤٤٥هـ (١٠٥٣م) و٤٨٩هـ (١٠٩٦م).

وقد ألفت نظري خاصة، السجل رقم (٥)(٢)، المؤرخ في رمضان سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) اذ يتضمن معلومات هامة جداً حول تاريخ أفريقية وعلاقتها بالخلافة الفاطمية خلال العقد الخامس من القرن الخامس هجري، وأنه يلقي أضواء ساطعة، خاصة، على هجرة الأعراب، المسماة بالغزوة الهلالية ولم أر أحداً من المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين، استغل هذه الوثيقة لاعادة النظر في تحديد تاريخ هذا الحدث الهام، سوى اشارة عابرة لها أوردها الدكتور ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام السياسي، كما أشار اليها باختصار شديد الدكتور عبد الهادي شعيرة في فصل نشره في الكتاب الضخم الذي يتضمن مجموعة مقالات وفصول حول تاريخ ليبيا(٣)، أما ما عداهما، فلا أعلم أن أحداً استعمل هذه الوثيقة، فيما بين يدي من المصادر على الأقل.

لذا حاولت، على ضوء هذا السجل، تحقيق ومراجعة تاريخ ثلاثة أحداث هامة، مترابطة تاريخياً وسياسياً، وقعت في أفريقية، في هذه الفترة من حكم المعز بن باديس، وحكم المستنصر الفاطمي في مصر وهي:

١ ــ استقلال المعز عن الدولة الفاطمية.
٢ ــ الغزو الهلالي.
٣ ــ وفاة المعز.

وقد عمدت في هذا التحقيق، الى المقارنة بين ما أورده المؤرخون وما أورده السجل، لذلك استندت الى هذين المصدرين:

الاول: استعراض تاريخ هذه الأحداث الثلاثة، كما أوردها المؤرخون، الذين لم يستغلوا قط، على ما أعتقد، وثائق الشيعة في أخبارهم، وتواريخهم.

الثاني: استعراض نفس الأحداث كما جاءت في سجل المستنصر، لنخرج في النهاية بفكرة

واضحة نسبياً، عن هذا الموضوع الشائك الذي تخبط فيه المؤرخون كثيراً.

المصدر الأول: استعراض الأحداث الثلاثة كما وردت في كتب المؤرخين.

١ ـــ الاستقلال:

لن أتكلم عن الأسباب المختلفة التي دفعت المعز بن باديس إلى إعلان انفصاله عن الدولة الفاطمية، والرجوع بالدعوة إلى العباسيين، لأن ذلك ليس من غرض هذا التحقيق، لكني سأناقش بعض ما أورده المؤرخون حول السنة التي وقع فيها التصريح بالاستقلال:

فابن عذاري، وابن خلدون، وابن الأثير يحددون له عام ٤٤٠ هـ، وابن تغري بردي، والمقريزي يجعلانه في ٤٤٣ هـ، ويؤيدهما في ترجيح هذا التاريخ الأستاذان مختار العبادي وابراهيم حسن، من أن وزارة اليازوري ـــ الذي كان خلافه مع المعز من أسباب هذا الانفصال ـــ تبدأ سنة ٤٤٢ هـ[٤]، أما عالم النميات الانكليزي ستانلي لين بول، فيحدد وقوع هذا الحدث الهام بسنة ٤٣٨ هـ، معتمداً على آخر عملة ضربت في المنصورية باسم المستنصر[٥]، واستناداً على العملة ذاتها لا يمكن قبول سنتي ٤٣٨، أو ٤٤٣ كتاريخ للاستقلال، لأني قرأت شخصياً دنانير باسم المستنصر ضربت بصبرة أيضاً سنة ٤٤٠[٦]، كما قرأت دينار المعز بن باديس الذي يعلن فيه الاستقلال ضرب بمدينة عز الإسلام والقيروان سنة ٤٤١ هـ[٧].

إذاً فإن التاريخ الصحيح للاستقلال يكون أواخر سنة ٤٤٠ هـ، أو أوائل سنة ٤٤١، وقد أيدت النقود ما ذكره ابن عذارى، نقلاً عن ابن شرف أن الأمر بلعن بني عبيد على منابر أفريقية وقع في صلاة عيد الأضحى من سنة ٤٤٠ هـ، ونقد المعز الجديد ضرب في شعبان من سنة ٤٤١ هـ[٨] وليس بينه وبين ابن ناجي الذي يقول: أن لعن بني عبيد وقع في عيدالفطر من سنة ٤٤٠ هـ، خلاف كبير[٩].

وأحدث خروج أفريقية عن سلطة الفاطميين، صدى عميقاً في طرابلس، وبرقة، فاقتدى الناس بالمعز بن باديس، فقد قام الفقيه أبوالحسن بن المنتصر بتحريض العامة على الشيعة، واشترك معهم في قتلهم، ثم قطع من الأذان عبارة «حي على خير العمل»، وأذّن أذان أهل السنة بنفسه[١٠]، أما برقة فقد كتب أميرها، مختار بن جبارة العربي، سنة ٤٤٣ هـ، إلى المعز بن باديس بيايعه بالطاعة، ويخبره بأنه وأهل برقة، أحرقوا المنابع التي كان يدعى عليها للعبيدية، وأحرقوا راياتهم، وتبرأوا منهم، ولعنوهم على منابرهم، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي[١١]، وكان هؤلاء الأعراب متمركزين منذ القديم ببرقة لا يهابون سلطان الفاطميين، ولا الصنهاجيين[١٢]. مما يسهل عليهم الخروج مع أي ثائر.

هذا تقريباً أهم حدث وقع في أفريقية في تلك الفترة، أما في مصر فقد كانت الخلافة للمستنصر الفاطمي، والوزارة للناصر للدين أبي محمد اليازوري الذي تقلدها سنة ٤٤١ هـ، عوض أبي البركات الجرجرائي[١٣]، واليازوري هذا هو الذي أشار على المستنصر بالسماح للأعراب المستقرين شرقي النيل بالهجوم على أفريقية كعقاب للمعز على حركته الانفصالية، هذا ما يتفق عليه جل المؤرخين، عدى ابن خلدون، الذي يضيف: ان أحقاداً شخصية بين المعز، واليازوري، حملت هذا على الفتك به وبملكه إذ يشير إلى أن رتبة اليازوري كانت دون رتبة الجرجرائي، لذلك نجد المعز يستعمل في كتابته إليه ألقاباً دون ما كان يستعملها للجرجرائي قبله[١٤]، فأرسل الأعراب انتقاماً منه، أظن أن تعليل ابن خلدون غزوة الأعراب بهذه العلة، ليس جديراً بأن نعطي له نفس الأهمية التي أعطاها له صاحبه، فحتى لو كان هذا من الأسباب، وأنا أشك في ذلك فإنه لا يمكن أن يكون سبباً رئيسياً، فإن تقلد اليازوري، على ما أعتقد، للوزارة في هذه الفترة بالذات أي سنة ٤٤١ هـ، كان لمواجهة الأحداث المستجدة في الدولة، وهي أحداث جد مهمة، خاصة، مواجهة الوضع الاقتصادي الذي بدأ ينذر بالخطر بعد أن استمر هبوط مستواه أعواماً كثيرة، وقد بدأت نذر الشدة العظمى، التي ستنجم بعد ذلك، تذر بقرنها، كذلك محاولات الانفصال، التي بدأها المعز بن باديس



دينار ذهبي من عهد المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤٠هـ)
الخلف:
ـ الوسط: الامام عبدالله أمير ا لمؤمنين.
ـ المحيط: بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بمرسيه سنة أربع وخمسمائة
(الصورة من كتاب) Islamic coins,

في أفريقية، وتبعته طرابلس، وبرقة، وربما تتجرّأ مناطق أخرى على الاقتداء به، فلا يمكن للجرجرائي الشيخ أن يجابه كل هذه المصائب وهو الذي وزر للحاكم، ثم للمستنصر وحده أربعة عشر عاماً، فلا بد، والظروف تلك، من تعيين وزير أقدر منه على المواجهة، والتدبير، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مخاطبة المعز لليازوري، إن كانت، أصبحت بعد الاستقلال مخاطبة الند للند، لا مخاطبة العامل لرئيسه، كما كان مع الجرجرائي، من هنا يجب أن نفهم أن المعز، بعد أمره بلعن بني عبيد، لم يعد يعطي المنزلة التي كان يعطيها للجرجرائي، لكل الفاطميين، لا لليازوري وحده.

٢ ـ قدوم العرب:

وتتيجة لحركة الانفصال الخطيرة، سمح اليازوري للأعراب المستقرين، شرقي النيل بالعبور إلى أفريقية حسب ما يذكره المؤرخون، لكن هؤلاء كالعادة، لا يتفقون على ضبط تاريخ موحد لقدومهم، فإبراهيم حسن يذكر أن خروجهم من مصر كان في سنة ٤٤٠[١٥]، أما ابن ناجي فيضطرب اضطراباً كبيراً إذ يجعل ثلاثة تواريخ مختلفة لهزيمة المعز، وخراب القيروان، فهو يذكر أن هزيمة المعز وقعت في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة سنة ٤٤١هـ، بينما يذكر في مكان آخر أن هزيمة المعز وخراب القيروان حدثا في اليوم الأول من رمضان سنة ٤٤٩هـ وهو يشير أيضاً في فقرة ثالثة أن ابن شرف هرب من القيروان عند اشتداد فتنة الحرب عليها سنة ٤٤٧هـ[١٦]، ويذكر ابن الأثير أن الأعراب نزلوا أفريقية سنة ٤٤٢هـ ويؤرخ دخولهم إلى القيروان بسنة ٤٤٦هـ[١٧] بينما يحدد ابن عذارى قدومهم سنة ٤٤٣هـ[١٨]، أما لامنس، في الموسوعة الإسلامية فيؤكد أنهم دخلوا أفريقية سنة ٤٤٤هـ[١٩]، ويذكر ابن خلدون أنهم احتلوا طرابلس والقيروان سنة ٤٤٦هـ[٢٠]، وهي السنة التي يحددها ابن الأثير أيضاً لاحتلال طرابلس والقيروان.

ولا يسع الباحث، أمام هذا الاضطراب الكبير الذي تخبط فيه المؤرخون، لتاريخ هذا الحدث الهام، إلا أن يعتمد كل التواريخ المذكورة، أو يرجّح تاريخاً واحداً، ويمضي في حال سبيله.

٣ ـ وفاة المعز بن باديس:

وتتالف الأحداث سريعة حادة، تخبرنا بسقوط القيروان وخلوها من سكانها، وأن المعز هرب إلى المهدية سنة ٤٤٩، وأنه توارى بها إلى أن توفي سنة ٤٥٣هـ، حسب ابن الأثير[٢١] وسنة ٤٥٤هـ، حسب جل المؤرخين[٢٢]، عدا ابن عذارى الذي يراجع نفسه في فقرة أخرى من كتابه، فيذكر نقلاً عن ابن شرف، أن وفاة المعز كانت في سنة ٤٥٥هـ[٢٣]، وبينما لا يحدد جل الذين أرخوا وفاة المعزّ بن باديس، اليوم والشهر، يذكر ابن خلدون يوم ٤ شعبان من السنة ٤٥٤هـ[٢٤]، ويذكر ابن عذارى والباجي المسعودي، أن الوفاة حدثت يوم ٢٥ شعبان من نفس السنة[٢٥].

المصدر الثاني:

هذا ما أورده المؤرخون لتاريخ تلك الأحداث الثلاثة، وهي كما نرى كثيرة الخلاف والاضطراب لا يستطيع الباحث، نظراً لذلك، أن

يعتمد عليها في اثبات تاريخ مدقق مضبوط.

لذلك فإنه يحسن بنا أن نستعرض ما ورد في المصدر الثاني، وهو سجل المستنصر إلى علي بن محمد الصليحي. المشار إليه، لمحاولة ضبط تاريخ، على ضوئه، لتلك الأحداث الثلاثة.

١ ــ الاستقلال:

لم يحدد السجل تاريخاً معيناً لاستقلال المعز بل يذكر فقط أن المستنصر أخبر الصليحي، في سجل سابق، بوقوع هذا الحادث... «وقد كان انتهى إليك من حضرة أمير المؤمنين خبر ابن باديس اللعين في التياث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتاثاً، وانتكثت مرائر سعادته لما ثبت عهدها، فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[٢٦]...» ولما كنا لا نعلم تاريخ هذه الرسالة التي أعلمه فيها بخروج ابن باديس عن الطاعة، فإننا إلى حد الآن نرجح سنة ٤٤٠ هـ سنة الاستقلال استناداً إلى العملة أولاً، وإلى المصادر التاريخية ثانياً، إلى أن نكشف ما يخالف ذلك.

٢ ــ قدوم الأعراب:

(أ) **تاريخ قدومهم**: تذكر المصادر التاريخية، كما أسلفنا، أن قدوم الأعراب إلى أفريقية، بقصد الحرب حدث بين سنتي ٤٤٢ ــ ٤٤٩ هـ لكن الوثيقة التي بين أيدينا تخالف ما أوردته المصادر التاريخية، فهي تشير إلى أن المستنصر أطلق نحو المعز قبائل زغبة ورياح في تاريخ لا يبعد عن تاريخ هذا السجل ــ (رمضان ٤٥٥ هـ) ــ ربما يكون سنة ٤٥٣، أو ٤٥٤ هـ، إذ تقول... «وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله، وضربه بنصال بتت مفاصله، وأطلق نحوه من أعدة قبائل الرياحية والزغبية، من منعه أن يبل ريقاً، وسد لأنفاسه طريقاً، ورمى به في أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقاً، وملك جميع دياره التي كان بها يدل، ونال منه النيل الذي هو على وشك بواره بإذن الله تعالى يدل[٢٧]...» ودليلي على ذلك:

أولاً ــ أنه سير الأمير أمين الدولة ومكينها ــ حسن بن علي[٢٨]، بوصلهم إلى أعمال أفريقية ليؤلف بين قلوب العرب المقدم ذكرهم[٢٩]....

ثانياً ــ أن الحسن بن علي ما زال مع الأعراب يوحد كلمتهم، ويجمع شملهم ولم يعد بعد إلى مصر حتى تاريخ كتابة هذا السجل، فهو يشير صراحة أنه أرسل إلى أمير المؤمنين كتاباً يخبره فيه أنه نجح في مهمته التي أرسله من أجلها... «ولما كان في هذا الوقت ورد كتاب إلى حضرة أمير المؤمنين يذكر تصبحه في وجهته بوجه الاقبال، وفوزه في نهضته ببلوغ الآمال، وأنه لم يذر غلاً في الصدر ولا نزعه، ولا شملاً في إصلاح الجمهور إلا جمعه وأن أصناف العرب دانت له دين الأمم لربها، ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها»[٣٠].

ثالثاً ــ لما جمع شتات الأعراب ووحد كلمتهم «سار فيهم بجيش يغص بهم البر، وجحافل كأنهم في صفحات البر والبحر».

رابعاً ــ يشير السجل إلى أن ذلك الجيش «أحدق بحصن الخائن» ابن باديس، «الذي لا يكاد من بأس الله يحصنه ولا من أخذه الأليم يؤمنه»[٣١]، ثم يذكر في فقرة لاحقة أنه فتح حصن قابس، فأي حصون الخائن يقصد؟ فإن كان يقصد العاصمة فكيف لا يذكرها صراحة وهي أعلى أمانيه، وهدف كل عملياته؟ إذ من الغريب أن يهمل ذكر سقوط القيروان، أو صبرة أو حتى حصارهما **ويشيد بفتح قابس**.

خامساً ــ ينوه باستسلام بعض أصهار المعز، وأقربائه، بقوله...«وخرج إليه (إلى الحسن بن علي) ابن بلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو متقدم قومه وابن حمّاد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلا عن صنهاجة وافدين»[٣٢].

سادساً ــ يذكر أنه فتح حصن قابس، وأقام عليه الدعوة النبوية، وصرف العين والورق على السكة المستنصرية، وولى عليه ابن يلمو المذكور[٣٣].

يخبرنا السجل بكل هذه الأخبار التي استفادها بدوره من الكتاب الذي أرسله الحسن ابن علي إلى حضرة أمير المؤمنين، وأراد أمير

المؤمنين أن يرسل بها للمصليحي كي يذيعها على أنها أخبار جديدة، كما يفيدنا السجل أيضاً أن الحسن بن علي قادم من أفريقية، لم يصل بعد إلى مصر، «وهو وارد قريب المسافة، وصحبته خلق من الحجيج، يذكر أنهم لا يطئون للبدو، ولا للحضر، إلا مواطىء الطاعة موطئاً[٣٤]» كما يذكر في فقرة اخرى» واستصحب من مشائخ تلك الأعمال قوماً رغبوا في الشرف بالهجرة إلى الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله من تلك الغمرة[٣٥]»

تؤيد كل هذه النصوص ما ذهبت إليه من أن المعارك بين المعز بن باديس، والأعراب، بدأت قبل سنة ٤٥٥ هـ، تاريخ كتابة هذا السجل، بمدة وجيزة، يمكن تقديرها بالعام أو العامين، ولم تحدث أبداً قبل سنة ٤٥٠ هـ، ودليلي على ذلك:

١ ــ أن عزل الحسن بن علي اليازوري، من الوزارة، الذي يجمع المؤرخون على وقوعه في شهر المحرم من سنة ٤٥٠ هـ، يجب أن يعاد فيه النظر، كما لا أجاري المؤرخين الذين أخبرونا أن هذا العزل وقع لأسباب فوضوية[٣٦]، فقط، بل أعتقد أن عزله، ان وقع في هذه السنة كان القصد منه التفرغ التام لاعداد الحملة ضد أفريقية، وقد استغرقت عمليات التهيئة، ولم شتات الأعراب المتفرقين، وتوجيههم نحو بدء العمليات العسكرية بحر هذه الخمس سنوات.

٢ ــ لو اعتمدنا التواريخ التي حددها المؤرخون لهزيمة المعز وخراب القيروان، لكانت سنة ٤٥٠هـ النهاية لكل العمليات الحربية، بينما يفيدنا السجل أن اليازوري قاد أولى الحملات بنفسه، وفتح حصن قابس، وولى عليه ابن يلمو ثم قفل راجعاً إلى مصر وهو لم يصل إليها بعد حتى رمضان سنة ٤٥٥ هـ، فلو صدقنا روايات المؤرخين، لكان اخبار المستنصر للمصليحي عن سقوط قابس تمّ بعد اثني عشر عاماً من وقوعه، وبما أن اليازوري ما زال في الطريق، فإن فتح قابس حدث في تاريخ قريب جداً من سنة ٤٥٥ هـ لذا فإن ما يرويه المؤرخون من أن قابس سقطت بين أيدي الأعراب سنة ٤٤٣ هـ، لا يعتد به.

٣ ــ اعتماداً على ذلك فإن الحوادث الكبرى كهزيمة المعز، وخراب القيروان، لم يقعا بعد حتى تاريخ كتابة السجل، فيكون حدوثهما إذاً، بعد سنة ٤٥٥ هـ، لا يمكن أن تهمل الاشادة بحدثين هامين، بينما تنوّه بمحاصرة حصون الخائن ابن باديس، بصفة عامة وفتح قابس بصفة خاصة.

وإن قال قائل ربما أخبره عن ذلك في رسائل أخرى لم تصل إلينا، فيكون جوابي، وما الفائدة في ذكر أشياء مر على حدوثها زمن طويل. فلو صدقنا روايات المؤرخين، لكانت سنة ٤٥٠ هـ، هي النهاية لكل العمليات العسكرية، كما قلت سابقاً، فيكون من المعقول أن المستنصر أخبر المصليحي به في ذلك الوقت وانتهى الأمر، لذا يكون من العبث إعادة ذكر أحداث مر على وقوعها اثني عشر عاماً، كفتح قابس، وست أو سبع سنوات كهزيمة المعز وخراب القيروان وقد احتوى كتاب الدكتور ماجد المشار إليه ثلاث سجلات كتبت في السنوات التالية، ٤٥٥ هـ و٤٤٨ هـ، و٤٥٠، أيكون من الصدف السيئة أن لا تشير ولو بحرف واحد إلى الأحداث الدائرة في أفريقية؟ كما أنه يكون من العبث أيضاً الاخبار عن إرسال الحسن بن علي للاتصال بالأعراب، ليقوموا بعمليات قد تمت، بالاضافة إلى أننا لا يمكن أن نتصور أن الحسن بن علي بقي بأفريقية اثني عشر عاماً، كذلك كيف يتكلم المستنصر على المعز باعتباره حياً، مع العلم، أنه قد توفي منذ سنة حسب روايات المؤرخين.

٤ ــ أرجح هذا الرأي اعتماداً على العملة أيضاً فهي لا تظهر باسم المستنصر، في أفريقية، إلا في سنة ٤٥٩، فقد قرأت ديناراً ضرب في المهدية باسم المستنصر في هذه السنة[٣٧]، لذلك أعتقد أن هزيمة المعز، وخراب القيروان، وقعا في سنة ٤٥٩، أو قبلها بقليل إلا إذا أظهرت الوثائق الأثرية أو التاريخية ما يخالف ذلك.

٥ ــ ان قتل مختار بن جباره أمير برقة من طرف المعز[٣٨]، الذي لا نعلم في أي تاريخ تم لكن النصوص تسمح لنا أن نفرض أنه حدث بعد سنة ٤٤٣ هـ، وهي السنة التي استقل فيها مختار عن حكم الفاطميين، كما أنها هي



مسجد المهدية

السنة التي يحددها المؤرخون لبداية الحرب في أفريقية ـ يقوم دليلاً آخر على خطأ التواريخ التي يحددها الاخباريون لهذه الحرب، فهل يسع المعز بن باديس الوقت والامكانيات، لتجريد حملة ضد برقة، بينما تعيش بلاده في أتون حرب ضارية؟ الحقيقة أنه لم يقتل جباره إلا لما اطمأن إلى أن حركته الانفصالية بعد بها الزمن، فلن يكون لها رد فعل من الفاطميين.

(ب) **مكان الاتصال**: لم يصرح السجل باسم المكان الذي وقع فيه لقاء الحسن بن علي بالأعراب، ولا نعلم من هم الزعماء الذين تحادث معهم، سوى أن يشير إلى أن المستنصر «سير أمين الدولة ومكينها، الحسن بن علي بوصلهم إلى أعمال أفريقية(٣٩)»، فهل حدث هذا الاتصال أو الوصل شرقي النيل بمصر، كما يذكر المؤرخون، أم في برقة أم في أفريقية؟ يبدو أن الجواب على هذا السؤال عسير التحقيق لأنه يرتكز على كثافة تواجد الأعراب في منطقة من هذه المناطق الثلاثة من ناحية، وعلى تأمين العمل السياسي، لجمعهم، ولم شتاتهم، وهذا، كما لا يخفى يتطلب جهداً، واتصالات، واجتماعات كثيرة متوالية من ناحية أخرى، كما أن لفظ «بوصلهم»، في الجملة المشار إليها، يعني معنيين الاتصال بهم، أو ايصالهم، فإذا كان المعنى الأول، هو الاتصال بهم في أفريقية، فيعترضنا مشكلان يصعب الجواب عنهما بدقة.

أولهما: هل كان الأعراب متواجدين في أفريقية قبل عملية الغزو التي دفعوا إليها من طرف المستنصر؟

ثانيهما: لو فرضنا أنهم كانوا بأفريقية فعلاً، فكيف جاءوا إليها من جهة، وكيف يمكن للحسن بن علي الاتصال بهم وهي أرض عدوة بالنسبة له؟ من جهة أخرى.

أما إذا فهمنا المعنى الثاني، «وهو أيضاً لهم إلى أعمال أفريقية»، فإن الأعراب، إذن يكونون مستقرين في موضع غير أفريقية، ربما يكون مصر، وربما يكون برقة، وفعلاً فإن بعض بطون هؤلاء الأعراب كانوا موزعين منذ القدم بين هذين البلدين، فمختار بن جبارة أمير برقة الآنف الذكر، لم يكن إلا زعيم قبيلة أو قبائل من هؤلاء الأعراب، المبعثرين على هذه الأرض الأفريقية، كذلك إشارات صريحة عند المؤرخين تفيد أن بعض الأعراب كانوا مستقرين ببرقة قبل بداية الأحداث، ربما هاجروا إليها منذ بدء الأزمات الاقتصادية في مصر إذ تشير بعض الوثائق التاريخية إلى أن الحالة الاقتصادية في هذا البلد بدأت تتدهور منذ سنة ٤٣٨ أو ٤٣٩ ولربما هي التي أدت إلى نزوح فروع من قبيلة سليم إلى برقة ونواحيها، ثم أرسلوا إلى بني عمهم شرقي النيل يستدعونهم، وأن قدوم هؤلاء كان مع بدء نقصان النيل سنة ٤٤٣ هـ(٤٠)، وأعتقد أن هجرتهم اشتدت في سنة ٤٤٦ هـ، عند بدء الشدة العظمى، والمظنون أنهم لم يستقروا ببرقة فقط، بل ربما تقدمت فلول منهم إلى أفريقية، إذ نجد في كتب المؤرخين أن المعز بن باديس قد قرب مؤنساً الرياحي إلى بلاطه، وزوجه ابنته، ومؤنس هذا زعيم بطن من بطون رياح.

ذكرت آنفاً أن هجرة الأعراب إلى برقة، وأفريقية ربما اشتدت عند بدء الشدة العظمى، ويحسن بي أن أختصر الكلام عن هذه الأزمة

الاقتصادية الكبرى التي وقعت في الجناح الشرقي للأمة الإسلامية، والتي وصفها المؤرخون بكثير من الرعب والهلع، لأن لها صلة عميقة بموضوعنا. فقد ذكر المقريزي أنه في سنة ٤٤٤ هـ، قصر مد النيل، فتحرك السعر بمصر[٤١]، تم قصر أيضاً مد النيل في سنة ٤٤٦ هـ، فقوى الغلاء، وكثر الموت في الناس[٤٢]، ونتيجة لهذه النكبة «أهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وانقطع ماء النيل، وعم الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ ــ ٤٥٤ هـ)، ونكبت به جميع البلاد الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة حتى قيل أنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس، وعدمت الأقوات حتى أكل الناس» الكلاب، والقطط، ثم أكل بعضهم بعضاً[٤٣]»

هذه الشدة العظمى التي كانت تجتاح الجناح الشرقي للأمة الإسلامية، لم تشمل الجناح الغربي، على ما يبدو، فإن المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه النكبة لم يصنفوا أقطار المغرب ضمن بلدان الأمة الإسلامية، التي عمها القحط والجوع، بل ان هذه الكوارث امتدت من مصر إلى سمرقند، بالاضافة إلى أن البكري، الذي كتب كتابه في هذه الفترة تقريباً، يشيد بالرخاء والازدهار الاقتصادي، الذي كان يعم أفريقية ومنطقة المغرب عامة، نلمس ذلك من وصفه لمختلف مدن هذا الاقليم، وتنويهه بوفرة محاصيلها الزراعية وثراء مداخيلها التجارية.

ألا يمكن، والحالة في مصر كما ذكرنا آنفاً، أن نعزو قدوم الأعراب إلى الوضع الاقتصادي السيء في ذلك البلد، وأن ندعي أنهم جاءوا فعلاً على كرات في تلك السنوات التي ذكرها المؤرخون لطلب العيش، لا لشن الحرب، وقد استقر أغلبهم في برقة، لكثرة تواجد بني عمهم فيها بينما اندفع بعضهم الآخر إلى أفريقية؟ فإذا رجحنا هذه الفرضية، يسهل علينا، عندئذ، أن نرجح أيضاً أن المستنصر، أرسل الحسن بن علي ليتصل بهم في برقة، لا في مصر، ولا في أفريقية، وأن يقوم فقط بوصلهم إلى أعمال أفريقية، وأن يفتح بهم حصن قابس في سنة ٤٥٤ هـ، أو أوائل سنة ٤٥٥ هـ، وأن يرجع إلى مصر.

أرجح أن تكون برقة نقطة الاتصال لسببين:

أولهما: كثافة الأعراب بها، نظراً لوضعها الاقتصادي الحسن، فلو سلمنا بوجود أعراب مستقرين في صعيد مصر، كما يذكر المؤرخون، فلا بد وأن يكونوا منهكين من مخلفات الشدة العظمى، لا طاقة لهم بالتحرك فكيف بالحرب، كما أنه لا يمكنه الاتصال بعرب أفريقية لقلتهم، من ناحية، ولأنها أرض عدوة بالنسبة له، لا يطمئن إلى سلامة العمل السياسي بها من ناحية أخرى، بالاضافة إلى أن الفئة القليلة التي هاجرت إلى هذا البلد، سرعان ما انصهرت في مجموع السكان على ما أعتقد، إذ وجدت الأمن والأكل، وليس أدل على ذلك من الصداقة الحميمة بين المعز بن باديس، ومؤنس الرياحي.

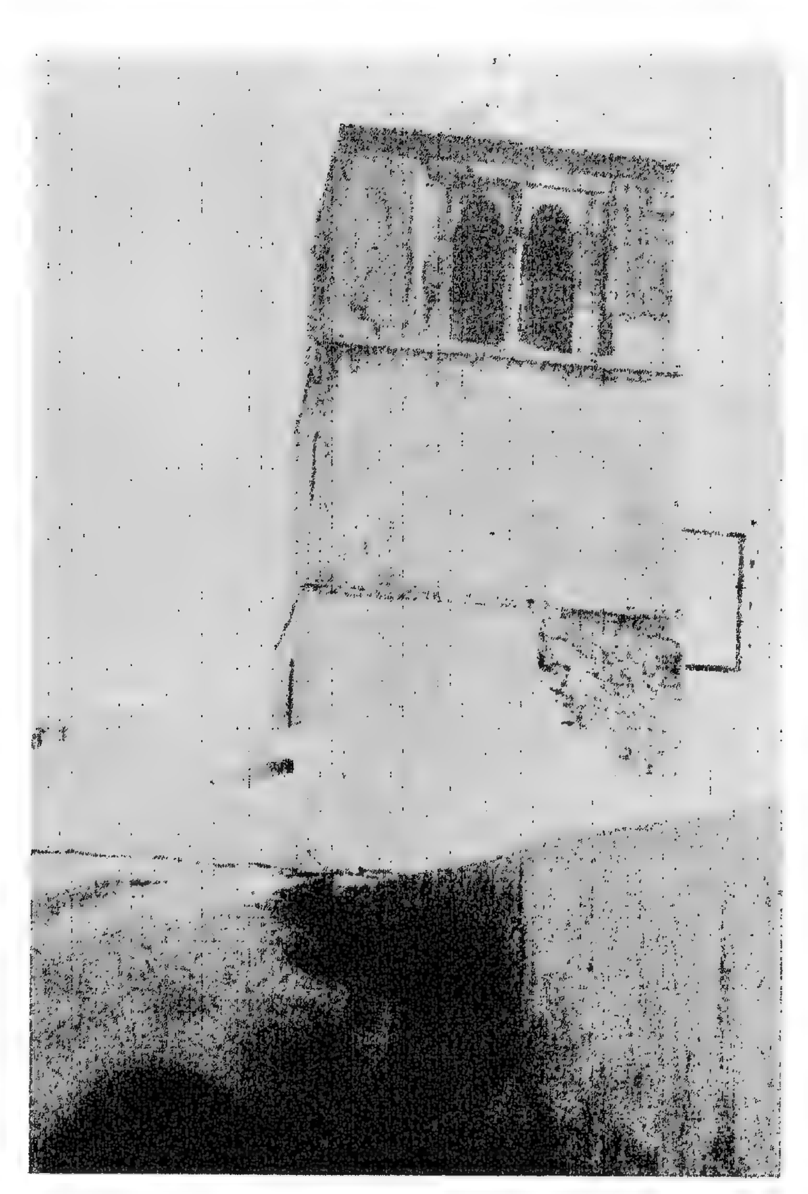
ثانيهما: إمكانية العمل السياسي ببرقة، خاصة بعد قتل مختار بن جبارة، من طرف المعز بن باديس بالذات، إذا لا يستبعد أن يستغل الحسن بن علي الأحقاد القبلية ويوجهها ضد من قتل زعيمهم، وفعلاً فقد ارتكب المعز بقتله مختاراً أفدح غلطة سياسية، إذ فتح على نفسه باباً يعسر سده فلو كان مختار حياً، لما تجرأ قائد فاطمي على الدخول إلى بلده والتحكم في الأعراب المستقرين فيه من ناحية، ولما أيد الأعراب الفاطميين نظراً لعداء زعيمهم الشديد لهم من ناحية أخرى.

٣ ــ موت المعز بن باديس:

ألهب الحسن بن علي صدور تلك الجموع المتبدية، ووضع في يدهم آلة الحرب والخراب: ووجههم إلى أفريقية، ثم قفل راجعاً إلى مصر، وقد «خلف ابن باديس اللعين محصوراً في مثفأة من الأرض، محصوراً على شفا جرف الأخذ والقبض، قد فغر الردى له فمه، ولكن يبعد بعون الله أن يلتقمه[٤٤]».

هذا ما يذكره سجل المستنصر عن المعز بن باديس، الذي لو تتبعنا المؤرخين، يكون قد انتقل إلى جوار ربه منذ سنة على الأقل بالنسبة إلى تاريخ كتابة السجل، فيتحتم إذن، أن نعيد النظر في هذا الموضوع أيضاً.

فإذا تتبعنا الأحداث، حسب الترتيب

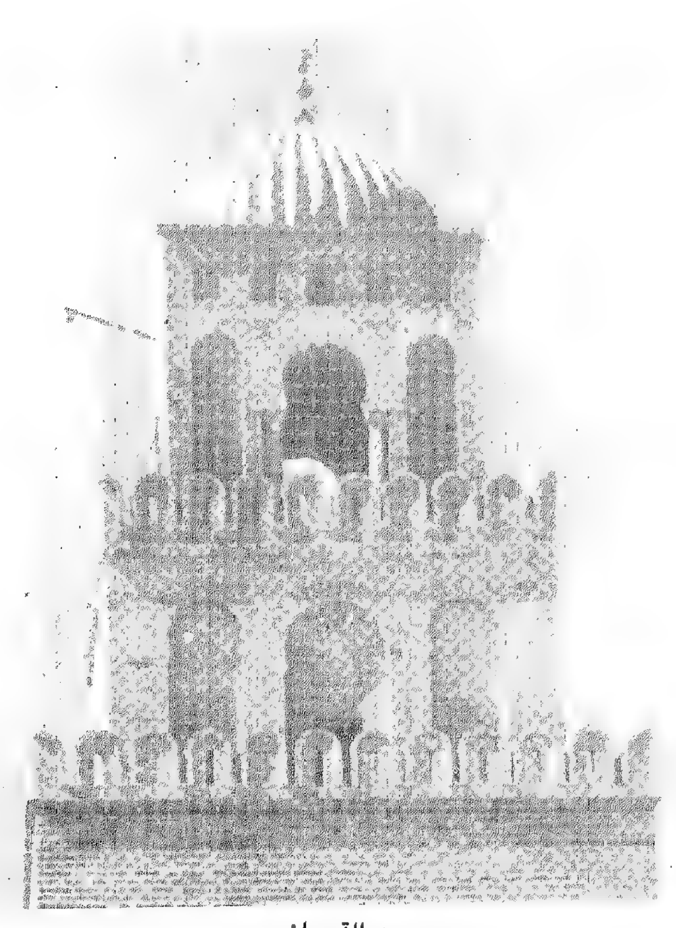


قابس
منارة مسجد
سيدي بولبابا

التاريخي، فإن موت المعز وقع بعد هزيمته أمام الأعراب، وسقوط القيروان، بمدة لا تقل عن خمس سنوات، حيث يحدد المؤرخون سنة ٤٤٩ هـ للهزيمة وسقوط القيروان وسنة ٤٥٤ هـ، للموت حسب رواية أغلبهم، لكن السجل، كما رأينا، يذكر أنه ما زال حياً، حتى رمضان من سنة ٤٥٥ هـ، وهو يوافق ما أورده ابن عذارى فقط من بين جميع المؤرخين.

فإذا قررنا، اعتماداً على نص السجل أن هزيمة المعز، وخراب القيروان، لم يقعا بعد، حتى هذا التاريخ، فإن موت المعز أيضاً يجب أن يتأخر كذلك، وإذا علمنا أن سك النقود رجع باسم المستنصر في المهدية في سنة ٤٥٩ هـ[٤٥]، فإن تاريخ هزيمة المعز، وسقوط القيروان لا يبعدان كثيراً عن هذا التاريخ، لأنه بسقوط العاصمة ينتهي كل شيء ولا يمكن أن ينتظر المحتل أربع أو خمس سنوات، ليضرب العملة، وهي أول شيء رسمي يسرع المنتصر بابرازه للعامة، ليدعم به انتصاره العسكري والسياسي فهل يخالفني المنطق التاريخي، اعتماداً على ما سبق، أن اقترح أن تلك الحوادث وقعت في سنة ٤٥٧ هـ، أو ٤٥٨؟ أرجو ذلك...

فهو لم يقم بأي فعل عسكري، لأنه لا طاقة له، وحالة مصر الاقتصادية على غاية من الانهيار،



مسجد القيروان
من كتاب Les Moquées de Tunisie — Maison Tunisienne de l'édition

فلما انفرجت الأمور نسبياً سنة ٤٥٤ هـ، هيأ للأمر تلك الحملة المخربة، لأن الوثائق المنشورة التي كتبت بين سنتي ٤٤٠ ــ ٤٥٥ لم تشر إطلاقاً إلى هذا الحدث، فلو كانت الحرب دائرة ــ حسب ما يدعيه المؤرخون ــ لتتبعنا، ولأشار إليها في رسائله ولو إشارات عابرة.

وقد يعترض معترض بأنه ربما قد يكون أشار إليها في سجلات ضاعت، فأجيب أنه ليس من الصدف أن تضيع كل الرسائل، خاصة، ونحن نملك حوالي ثماني رسائل كتبت ما بين سنتي ٤٤٠ هـ ــ ٤٦٠ هـ[٤٦]، فإنه ليس من المعقول أن تهمل الرسالة المؤرخة سنة ٤٤٥ هـ، سقوط قابس، الذي يزعم المؤرخون أنه وقع في سنة ٤٤٣ هـ، ولو شاءت الصدف السيئة أن تضيع، فكيف يعود إلى ذكر هذا الحدث بعد اثني عشر عاماً من وقوعه، ثم أنه ليس من المعقول لنفس السبب أن تهمل الرسالتان اللتان كتبتا سنتي ٤٤٨ هـ، و٤٥٠ هـ، ذكر هزيمة المعز، وخراب القيروان، الذي يحدده المؤرخون سنة ٤٤٧ هـ، أو ٤٤٩ هـ، بينما يُفهم من السجل الذي نتكلم عنه أن هذين الحدثين لم يقعا بعد، إذ أنه يشير إلى أن الحسن بن على أحدق فقط بحصون المعز، وأنه لن يلبث أن تسقط في يديه.

وصفوة القول فإنه لم يبق عندي مجال للشك في أن التاريخ الصحيح للحرب التي دارت بين الأعراب والمعز ابتدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ، حينما انفرجت الشدة العظمى في هذه السنة، ولكننا أيضاً لا نجد إشارات لأحداثها في الرسائل التي كتبت بين سنتي ٤٥٥ ــ ٤٦٠ هـ، لعل ذلك يعود إلى أن القحط والجوع والأوبئة، عاودت مصر من جديد منذ سنة ٤٥٦ إلى سنة ٤٦٠ هـ أو ٤٦١، فانصرف المستنصر عن تتبع أحداث أفريقية، منشغلاً بمشاكله الداخلية.

والخلاصة، هل يمكننا، اعتماداً على ماسبق، أن نرفض ما أورده المؤرخون من تواريخ لتلك الأحداث الثلاثة، وأن نؤخر ذلك عشر سنوات على الأقل، فندعي:

١ ــ أن الاستقلال حدث سنة ٤٤٠ ــ ٤٤١ اعتماداً على العملة.

٢ ــ هجوم الأعراب العسكري وقع سنة ٤٥٣ ــ ٤٥٤ هـ، بعد الانفراج النسبي للشدة العظمى بينما قدمت مجموعات منهم قبل ذلك لطلب الأكل لا للحرب.

٣ ــ أن هزيمة المعز، وخراب القيروان وقعا في سنة ٤٥٧ هـ، أو ٤٥٨ هـ، لأن العملة رجعت باسم المستنصر سنة ٤٥٩ هـ، بمعنى أن النفوذ الفاطمي رجع إلى أفريقية بعد تسعة عشر عاماً من القطيعة، كما أن موت المعز يمكن أن يكون في هذه السنة، إذا راعينا الترتيب التاريخي، لأني لا أعتقد أن تضرب العملة باسم المستنصر في المهدية، والمعز على قيد الحياة.

(السجل رقم ٥)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

من عبدالله ووليه: معدّ أبي تميم، الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، إلى سيف الإمام، المظفّر في الدين، نظام المؤمنين، علّي بن محمد الصليحي.

سلام عليك، فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمّد، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، ويسلم تسليماً[1].

أمّا بعد: فالحمد لله الذي أرسل سماء جوده على ساحات أمير المؤمنين مدراراً، وجعل فلكها يتضاعف عزّة وإقباله دوّاراً، وملائكتها أعواناً لنصره وأنصاراً، المنتقم من كل عدوّ وَلَدَ فاجراً كفاراً، الهاتك ستره وقد هتك لحرمة الصنيعة عنده أستاراً، المدير دائرة السوء عليه أن اتخذ دار البغي على مصطنعه داراً، وسالبه النعمة إن لم يحسن (...) للمنعم عليه جِواراً، ذلكم الله لا إله غيره الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً.

يحمده أمير المؤمنين إلهاً واحداً قهاراً، ويشكر له جزيل نعمه إعلاناً وإسراراً، ويسأله أن يصلي على جدّه الذي بعثه من بين الأنام مختاراً، محمد الداعي إلى الحقّ إعذاراً وإنذاراً، الواضع بهدايته عن الخلق أغلالاً وآصاراً، وعلى وصيّه في أمته السامي مناراً، وسيف نبوته الماضي غراراً ــ علّي بن أبي طالب ــ العالي شرفاً ومقداراً، وعلى الأئمة من ذريته الحامين جاراً، الزّاكين نجاراً، الذين جعلهم الله لمساجده عُماراً، وبلطائف هممهم في ملكوت السماء سُفّاراً، وقد كان إنتهى إليك من حضرة أمير المؤمنين خبر ابن باديس اللعين في التياث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتاثاً، وإنتكاث مرائر سعادته لما ثبت عهدها؛ فكان كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله، وضربه بنصال بتّت مفاصله، وأطلق نحوه من أعنة قبائل الرياحية والزغبية من منعه أن يبل ريقاً، وسدّ لأنفاسه طريقاً، ورمي به في أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقاً، وملك جميع دياره التي كان بها يُدِل، ونال منه النّيلَ الذي هو على وشك بواره بإذن الله تعالى يَدُلّ،وسيّر الأمير، أمين الدولة ومكينها ــ حسن بن علّي ــ بوصلهم[2] إلى أعمال أفريقية ليؤلّف بين قلوب العرب المقّدم ذكرهم على الطاعة تأليفاً يذعن له جموحهم، ويمنعهم من أن يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم، ولتكون كلمتهم على استئصال الكفر للنعمة متّفقة، وآراؤهم فيما يؤدي إلى كشف الغمّة بمكانه موفقة، ولما كان في هذا الوقت ورد كتاب إلى حضرة أمير المؤمنين يذكر تصبحهُ في وجهه بوجه الإقبال، وفوزه في نهضته ببلوغ الآمال، وأنه لم يذَر غِلّاً في الصدور الا نزعه، ولا شملاً من صلاح الجمهور إلا جمعه، وأن أصناف العرب دانت له دَيْن الأمم لربها، ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها، وأنّه سار فيهم بجيش يغص بهم البر، وجحافل كأنهم في صفحات

البر، البحر، وبنود أمير المؤمنين ظللت على رأسه من النصر غماماً، وطلعة أعلامه أرته من طوالع السعد أعلاماً، حتى أحدقوا بحصن الخائن الذي لا يكاد من بأس الله يحصنه، ولا من أخذه الأليم يؤمنّه، فأطل عليهم إطلال من يجد قلبه من وقع سيف المنايا رجيفا، ومن وقوع سهامها حفيفاً، وخرج إليه ابن بُلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حمّاد الذي هو أخو صاحب قلعة كِتّامة[3] مستأمنين، ويعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلاً في مثله عن صهاجه وافدين، ثم فتح حصن قابس[4] وأقام على منابره الدعوة النبوية، وصرف العين والورق على السكّة المنتصرية، وولى عليه ابن يلمو المذكور، وسار بالباقين إلى الباب، وأنّه لم يبق في حصون البحر، وضواحي البر، إلا ما ألقى الله إلى أمير المـؤمنـين مقـاليـده؛ ومكّن منه أنصاره وعبيده، وأطلع فيه من سعادة النداء بشعاره نجـوماً، جعلهـا للشياطين رُجـوماً، واستصحب من مشايخ تلك الأعمال قوماً رغبوا في الشرف بالهجرة إلى الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله تعالى منه من الغمرة، وكشف عن وجوههم بإضلال ذلك الخائن من الحيْرة، والتماس تدبير أمورهم ممّا يؤذن بتمام صلاحها بعد أن كساهم الله برحمته رونقاً، ونفى عن مشاربهم بحمد الله رنقاً، فديارهم بالمسارّ مشمولة، وعراصهم بالتهاني مأهولة، وهو وارد قريب المسافة وصحبته خلق من الحجيج، يذكر أنّهم لا يطئون للبدو والحضر إلاّ موطىء الطاعة موطئاً، ولا يصادقون [إلا] مذعناً لها ولصفقته[5] معطياً، وأنة خلّف ابن باديس اللعين محصوراً في مثفأة[6] من الأرض، محصولاً على شفا جُرُف الأخذ والقبض، قد فغر الرّدى له فمه، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه، وأمير المؤمنين يسأل الله جلّت عظمته معونته، على شكر نعمه التي هو عن القيام بواجب أقلّها محصور، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور، ويقول: لله الذي أذْهَبَ عنّا الحَزَنَ إنّ ربنا لغفورٌ شَكُورٌ.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه العارفة الطارفة لتنشره على المنابر، وتُذيعه في البوادي والحواضر، إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة.

والحمد لله وحده، وصلىّ الله على المصطفى محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين المهديين، وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى، ونعم النصير.

---

(١) في الأصل: وليعمل إن شاء الله، وأمامها علامات خطأ؛ كأنه يريد حذفها من النص.

(٢) يخطىء الهمداني في قراءة الاسم، فيقرأه: حسن بن عليّ بن ملهم، وأكبر الظن أن الاسم هو حسن بن عليّ، وأن الكلمة التالية ليست ابن ملهم وإنما بوصلهم.
أنظر: The Letters (B.S.O.S).VII, 1933-1935

(٣) في الأصل. كيانه.

(٤) في الأصل، فاس، في الواقع، لم يصل الفاطميون إلى فاس في مراكش، ولكن نشاطهم بقي في أفريقية، أي تونس الحالية.

(٥) في القاموس: «صفق يده بالبيعة»، أي وضع يده في يد الخليفة، ويريد أن يقول: إن هؤلاء الأشخاص دانوا بالطاعة للخليفة.

(٦) المثفاة هي المنفى.

الهوامش

(١) ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي

(٢) نسخة منه مصاحبة لهذا البحث.

(٣) ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي، ج ٤، ص ٣٤٩ وأنظر أيضاً: ليبيا في التاريخ ص ٢٣٩.

(٤) تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٦١ ابراهيم حسن ــ تاريخ الإسلام ج ٣، ص ١٥٥.

(٦) أنظر كتابي: النقود العربية في تونس: أرقام: ٢٤٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ص ١٢٧، ١٢٨ ط البنك المركزي تونس.
(٧) نفس المصدر ص رقم ٣٠٣، ص ١٣٣.
(٨) ابن عذارى: البيان ١ ص ١٧٧ ــ ٢٧٨.
(٩) المعالم: ج ٣ ص ٢٤٣ ــ (ترجمة أبي عبدالله محمد الكوفي).
(١٠) المغرب الكبير: ج ٢، ص ٦٦٤.
(١١) ابن عذارى: البيان: ص ٤١٦.
(١٢) ابن عذارى: البيان: ص ٣٧٥ ــ تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٥٧.
(١٣) المقريزي: أتعاظ: ص ٢٧٩.
(١٤) ابن خلدون: التاريخ، ج ٤، ص ١٣١ ط بيروت.
(١٥) ابراهيم حسن: المصدر السابق، ج ٤ ــ ص ٢٢٩.
(١٦) المعالم: ج ٣ ــ ص ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٣٩.
(١٧) الكامل: ج ٨ ــ ص ٥٥، ٥٦.
(١٨) البيان: ج، ص ٢٨٨، أنظر أيضاً كتاب المغرب الكبير ج ٢، ص ٦٨٨.
(١٩) encyclopedie de l'Islam t. IV p. 1300
(٢٠) ابن خلدون: التاريخ، ج ٤، ص ١٣٢.
(٢١) الكامل: ج ٨، ص ٢١ ــ حوادث ٤٥٣ هـ.
(٢٢) ابن خلكان: الوفيات ج ٤ ص ٣٢٢، الخلاصة النقية للباجي المسعودي ص ٤٧، أعمال الاعلام ٣ ص ٧٤ البيان المغرب، ٢٩٨ ــ الاعلام للزركلي ج ٨، ص ١٨٦ ــ الموسوعة الاسلامية، فصل (بنوزيري) ج ص ١٢٩٩.
(٢٣) البيان، ص ٢٩٥ ــ ٢٣ ابن خلكان: الوفيات ج ٤، ص ٣٢٢.
(٢٤) ابن خلكان: نفس المصدر.
(٢٥) البيان، ص ٢ ــ الخلاصة النقية، ص ٤٧.
(٢٦) السجلات المستنصرية، السجل رقم ٥ ــ ص ٤٣.
(٢٧) السجل رقم ٥، ص ٤٣.
(٢٨) إذا كان المقصود بالحسن بن علي هو أبو الحسن بن علي بن عبدالرحمن اليازوري، الذي وزر للمستنصر بدل الجرجرائي، المحرم من سنة ٤٤٢ هـ، إلى المحرم ٤٥٠، حيث عزل أو قتل على خلاف بين المؤرخين فإن السجل يجعلنا نتجه إلى احتمالين الأول: إعادة النظر في أسباب عزل اليازوري، ولا يمكن قبول رأي من أدعى أنه قتل (ابراهيم حسن بتاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١) الثاني: أنه عزل قصداً سنة ٤٥٠، من أجل تكليفه بمهمة السفر للاتصال بالأعراب والتوفيق بينهم وإرسالهم إلى أفريقية. وإذا كان المقصود رجل آخر فإني لا أعلم عنه شيئاً لكني أرجح أن اليازوري نفسه هو الذي اضطلع بالمهمة، لأننا لا نعلم غيره تسمى بهذا الاسم، ونال تلك الألقاب في هذه الفترة.
(٢٩) السجل رقم ٥، ص ٤٣ ــ ٤٤.
(٣٠) السجل رقم ٥، ص ٤٣ ــ ٤٤.
(٣١) السجل، ص ٤٤.
(٣٢) السجل، ص ٤٤.
(٣٣) السجل، ص ٤٤ أنظر أيضاً الكبرى ص ١٨ حيث يذكر قصة مفادها، أن ابن وانمو صاحب قابس.
(٣٤) السجل ص ٤٤ ــ ٤٥.
(٣٥) السجل ص ٤٥.
(٣٦) ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١.
(٣٧) سجل النقود العربية في تونس ــ رقم ٢٨١ ــ ص ١٢٦.
(٣٨) المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٣٩) السجل: ص ٤٣ ــ ٤٤.
(٤٠) المغرب العربي، ج ٢ ــ ص ٦٦٨.
(٤١) المقريزي: أتعاظ ص ٢٧٩.
(٤٢) المقريزي: أتعاظ ص ٢٨٠.
(٤٣) ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧١.
(٤٤) السجل ص ٤٥.
(٤٥) النقود العربية في تونس رقم ٢٨١ ــ ص ١٢٦.
(٤٦) وهي تحمل الأرقام الآتية: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٧، ٢١، ٣١.



نظام ملكية الأرض
في تونس والمغرب

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي[1] فإن كثيراً من القضايا الكبرى ما تزال مطروحة، ولا نعرف عنها إلا القليل مثل البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي المغربي خلال العصر الوسيط، فإذا كانت معلوماتنا عن المدن متوفرة، وتكاد تختزل لدينا الصورة عن حياة الناس في المدينة على ما تعانيه من الحياة الزراعية في الريف ما يزال قليلاً [illegible] لا يسمح بالتعمق في تحليل المسائل انطلاقاً من نصوص دقيقة وواضحة ولاسيما خلال القرون الخمسة الأولى أي قبل بروز ظاهرة كتب الفتاوى والرحلات.



أن المشكلة الأولى التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف إلى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي المغربي هي نظام ملكية الأرض، فإذا كانت كتب الجغرافيين العرب[٢] تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ، وعن الموارد المائية، وعن زراعة البستنة في الواحات وفي ضواحي بعض المدن[٣]، وعن أنواع الزراعات، وعن تربية الماشية، فإنها لا تفيدنا شيئاً ذا شأن عن نوع ملكية الأرض، وأوجه انتقالها، وأساليب استغلالها.

وأود في هذا الصدد الاشارة إلى الملاحظات الأساسية التالية:

أولاً: تهدف هذه المحاولة إلى معرفة الواقع التاريخي لهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي الوسيطي، وهو واقع قد تجاوز نظرية الإسلام في ملكية الأراضي، فإنه من المعروف أن الدول الإسلامية التي قامت في المشرق والمغرب معاً لم تحترم ــ في أغلب الأحايين ــ المبادىء التي طبقت على الأراضي المفتوحة في العصر الراشدي، وهي التي حاول العودة إليها الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز فيما أدخله من تغيير على الملكية الزراعية وعلى النظام الجبائي الأموي[٤]، وقد مسّ التجاوز المذكور نظام ملكية الأرض، وخاصة أرض الصوافي من جهة، والضرائب الموظفة على انتاج الأرض من جهة أخرى.

ونبادر إلى القول هنا بأن المعلومات النظرية معروفة ومصادرها متوفّرة[٥]، ولكنّها لا تعكس الواقع التاريخي وتطوره واختلافه من منطقة إلى أخرى.

ثانياً: وتتبدّل الصورة في بلاد المغرب ابتداء من القرن السادس الهجري حيث تمدنا كتب الفتاوى بمعلومات دقيقة عن أساليب ملكية الأرض في كثير من المناطق المغربية، وإذا كان المتتبّع يقف على إشارات في هذا المجال هنا وهناك في كتب التاريخ والطبقات تتصل بفترة بروز دول مغربية مستقلة عن مركز الخلافة ابتداء من نهاية القرن الثاني للهجرة فإنها أندر من الكبريت الأحمر خلال عصر الولاة (أعني خلال القرنين الأول والثاني).

ونلمس في هذا الصدد فرقاً واضحاً في هذا المجال بين المشرق والمغرب؛ فهنالك معلومات دقيقة عن ملكية الأرض في العراق، ولا سيما في أراضي السواد وفي بلاد الشام[٦]، وفي مصر أيضاً فابن عبد الحكيم يسهب في الحديث عن خراج مصر، وعن أساليب جبايته في صدر الإسلام، ويحدثنا عن القطائع، وعن أصحابها[٧].

ثالثاً: إنني أميل إلى الاعتقاد بأن للخصائص الجغرافية لبلاد المغرب[٨] ولميزاتها الديمغرافية تأثيراً عميقاً في اكتساب نظام ملكية الأرض في المغرب سمات تميّزه عن كثير من المناطق الأخرى للمجتمع العربي الإسلامي.

رابعاً: إن معرفة أساليب ملكية الأرض وخصائص البنية الاقتصادية الاجتماعية للريف والعلاقة بينه وبين المدينة أمر أساسي وضروري لمعرفة أساليب العيش، وأنماط الانتاج، والنمط السائد بينها.

إن الجهد التنظيري في تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والحديث عن النمط (الآسيوي للانتاج)[٩]، وعن نوعية (الاقطاع) المغربي وعن (نمط الانتاج الرعوي) وغيرها من المفاهيم التي ما تزال في حاجة ملحة إلى التوضيح والتدقيق بالنسبة للتاريخ الإسلامي عامة، يبقى محدوداً طاغياً عليه الطابع النظري التخميني ما لم تدعمه أبحاث تاريخية وجغرافية اجتماعية تنطلق أساساً من النصوص، ومن قراءة جديدة لها ومن نتائج الحفريات، ومن دراسة علمية للعملة، ومن كشف دقيق عن الموارد المائية.

وقد أكدت كثيراً على دور التجارة الكبرى فيما عرفه المغرب الإسلامي الوسيطي من تطور عمراني كبير[١٠] ولكنني بالرغم من ذلك لا أتفق مع الأستاذ سمير أمين في كتابه (الأمة العربية)[١١] فيما ذهب إليه من تقليص دور الفلاحة وحصر أسباب الازدهار العمراني في التجارة الكبرى. إن المجتمع المغربي الوسيطي يبقى مجتمعاً زراعياً أولاً بالذات رغم ما عرفه من شبكة مسالك نشطة، ومن مدن مزدهرة تجارياً كان لها أثر فعال في الدورة التجارية العالمية عصرئذ، وذلك بفضل ربطها بين



واجهتين تجارتين ـ حسّاستين: الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية، ومدّ حركة التبادل التجاري الدولي ببضاعتين ثمينتين من بضائع العصر: الذهب والرّقيق.

ونعتقد أن تطور التجارة البعيدة المدى قد ساهم في تطور الفلاحة حيث أصبحت كثير من المنتوجات الزراعية تحتل مكاناً بارزاً في قائمة البضائع المتبادلة، وقد أدّى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتوجات إلى العناية بها، وتطوير الأساليب الزراعية لانتاجها مثل زراعة القمح في واحة سجلماسة فهو بضاعة ثمينة في تبادلها التجاري مع بلاد السودان فاعتنى السجلماسيون بالزراعة السقوية في البساتين المقامة على الوادي. ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتي النيل قائلاً: (ويزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب حلي المكسر، لذيذ المطعم، وخلقه ما بين القمح والشعير)[١٢]. ويسمي البكري هذا القمح بالصيني، ويسع مدّ النبي (ص) منه خمسة وسبعين ألف حبة.

إن هذه الاشارات تدل على عناية خاصة بتطوير هذه الزراعة وهي عناية تتجاوز في رأينا تلبية الحاجات الاستهلاكية لسكان الواحة بل تكمن وراءها أهمية هذا الانتاج الفلاحي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان ونجد مثالاً آخر يوضّح مدى ارتباط الازدهار التجاري، وبروز فئات إجتماعية ثرية متخصصة في التجارة الكبرى وبمحاولة تطوير الزراعة وتسديد حاجات استهلاكية جديدة رغم صعوبة المناخ الجغرافي في مدينة تجارية صحراوية مثل مدينة أودغست[١٣] فقد استفاد مزارعوها من تجربة واحة تافيلالت واعتنوا بزراعة القمح السقوي لما يدره من أرباح نظراً لندرة البضاعة في مدينة تسكنها فئات التجار الأثرياء، يقول البكري «وهي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئاً... وحولها بساتين النخل، ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة»[١٤].

ويتحدّث أبو العباس الناصري السلاوي عن النمط المعيشي لقبائل الملثمين وقد كان موطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان فيقول: «وفيهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلّا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق»[١٥].

وقد عرفت الزراعات المتخصصة تطوراً كبيراً نتيجة ازدهار الحركة التجارية مثل زراعة قصب السكر في منطقة قرية تارودانت ببلاد السوس الأقصى، «وهي اكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة... ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية»[١٦].

إنه بالرغم من تأثير التجارة الكبرى في ميادين فلاحية معينة فقد بقي هذا التأثير محدوداً ولم يساهم رأس المال التجاري مساهمة ذات أثر في تقدم الزراعة وتطور المجتمع الريفي المغربي، ولا تقدم لنا النصوص المعروفة معلومات عن استثمار أرباح التجارة الكبرى في شراء الأراضي واستصلاحها في المغرب كما كان الشأن بالنسبة للعراق مثلاً[١٧].

خامساً: ولا بد من الاشارة هنا إلى أن مشكلة المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والاقطاع والحماية، ونظم الجباية الموظفة على إنتاج الأرض ما تزال مطروحة رغم ما كتب عنها قديماً وحديثاً[١٨]، فهي مفاهيم قد تطورت حسب واقع اقتصادي ــ واجتماعي معين، واختلفت من منطقة جغرافية إلى أخرى لأسباب متنوعة، فما نعرفه من تنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الإسلام في مناطق مثل العراق ومصر يبقى غامضاً في بلاد المغرب، وأنواع الإقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري[١٩] لا نجد له أثراً واضحاً في المغرب، ومن هنا جاء تلميحنا إلى دور الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب وميزاتها الديمغرافية في تفرّد نظام ملكية الأرض في المغرب العربي الإسلامي بسمات خاصة.

وبعد هذه الملاحظات العامة التمهيدية أعود إلى مشكلة ملكية الأرض في المغرب وما عرفته من تحول خلال الفترة التي ندرسها هنا أي من القرن الأول إلى سقوط الدولة المرابطية (٥٤٠ هـ/ ٤٧ ــ ١١٤٦م) لطرح السؤال التالي:

كيف كانت سياسة الدولة الإسلامية في المغرب بعد الفتح وبعد اتخاذ قرارالاستقرار، وتأسيس القيروان لتكون مصراً جديداً للعرب الفاتحين على غرار أمصار المشرق مثل الكوفة، والبصرة والفسطاط.

إن العرب المسلمين قد انتهجوا ــ دون ريب في الفترة الأولى ــ نفس السياسة التي انتهجوها في العراق، وفي بلاد الشام، وخاصة في مصر حيث كان المغرب تابعاً لولاية مصر[٢٠]، وقد شارك في فتحه كثير من العرب المسلمين المقيمين في الفسطاط «وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون إلى الفسطاط»[٢١].

والقضية الأولى التي تعترض سبيلنا في المستوى النظري هي: هل فتحت افريقية عنوة أو صلحاً، وهي القضية الكلاسيكية التي واجهت الفقهاء والمؤرخين في فتح العراق وبلاد الشام، ومصر[٢٢] نقل عبدالله بن أبي زيد في كتابه (النوادر والزيادات على المدونة) عن سحنون، قال: كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف هنا على حقيقة، هل هي عنوة أو صلح، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال: (لم يصح عندي فيها شيء). وأما بلاد المصامدة وأرض مراكش قال ابن عبدالحليم اتفق أشياخ بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة وقال عن أبي الأصبغ القرشي: أدركنا أهل الفقه والورع في بلاد الأندلس يشترون الأرض فيها ويبيعون ونحن متبعون لهم وأنتم متبعون أسلافكم في مغربكم[٢٣]، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون، بل منها ما افتتح عنوة، ومنها ما افتتح صلحاً. ونقف في تتبعنا للنصوص القديمة حول هذه النقطة على مفهوم جديد (أسلم عليها أهلها) وهي ما تعنيه عبارة «المعيار» للونشريسي «وأما بلاد أفريقية ــ وهي معظم المغرب ــ ففيها بلاد ليست بصلحية ولا عنوية»[٢٤]، ويخبرنا صاحب الاستقصاء أن



أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم: «أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة؟ فقالوا له لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه يعنون أبا جيدة، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال: ليست بصلح ولا عنوة إنما أسلم عليها أهلها فقال: خلصكم الرجل»[٢٥].

وقبل الحديث عن وضع الملكية في بلاد المغرب خلال القرن الأول أود التذكير بالسياسة التي اتبعها المسلمون في مصر في هذا الميدان ايماناً منا بأن جوانب كثيرة من هذه السياسة قد طبقت في المغرب نظراً لارتباطه بمصر في هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً. فقد سعى العرب الفاتحون أن يتم فتح مصر صلحاً لتكون لهم فيئاً وغنيمة؛ فلما عرض المقوقس على عمرو بن العاص التفاوض في صيغة الصلح «فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا لا نجيبهم إلى شيء من الصلح والجزية حتى يفتح الله علينا، وتصير الأرض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه»[٢٦]. وبالرغم من فتحها صلحاً على أرجح الروايات فقد ألح كبار الصحابة على عمرو بن العاص بقسمة الأرض فقد روى عن ابن أبي بردة يقول: «سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول إنا لما فتحنا مصر عهد قام الزبير بن العوام فقال أقسمها يا عمرو بن العاص فقال عمرو والله لا أقسمها قال الزبير والله لتقسمنّها كما قسم رسول الله (ص)خيبر. قال عمرو والله لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين فكتب إليه عمر أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة»[٢٧]. ولكن الخليفة عمر بن الخطاب إتبع نفس السياسة التي اتبعها في أرض السواد، وفي بلاد الشام حتى في المناطق المصرية التي فتحت عنوة مثل الاسكندرية والقرى الثلاثة التي ظاهر أهلها الروم على المسلمين «فلما ظهر عليهم المسلمون واستحلوهم، وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر بن الخطاب أن تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة المسلمين، ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم، وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا ذلك»[٢٨].

وبعد تأسيس الفسطاط وزعت الخطط على القبائل المشاركة في الفتح لبناء الدور، «واختط حول عمرو والمسجد قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة، ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو»[٢٩]، وتواصلت بعد ذلك حركة الخطط، واستحبت همدان ومن والاها الجيزة دون الفسطاط فبنى لهم عمرو الحصن الذي بالجيزة.

ولم تقتصر القطائع على أراضي الفسطاط وضواحيها لبناء المنازل والدور بل تجاوزتها لتشمل أراضي فلاحية قد تكون هذه الأراضي من الموات، أو من أراضي النبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين وراءهم أراضي شاسعة ومن المعروف أن أغلب الأراضي المصرية قد بقيت بأيدي السكان الأصليين: القبط وقد وظف عليها الخراج، ولكن نص خطبة عمرو بن العاص يخاطب المسلمين الفاتحين من سكان الفسطاط يحثهم على الخروج إلى الريف المصري قائلًا «فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأثقالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً..»[٣٠]. يثير التساؤل التالي: أرض من هذه التي يحث على الخروج إليها للتمتع بخيرات ربيعها؟ هل هي الأرض التي تركت بأيدي القبط لاستغلالها ووظف عليها الخراج باعتبارها نظرياً ملكاً لعامة المسلمين أم هي أراضي البيزنطيين الذين غادروا البلاد وتركت بأيدي الفلاحين لزراعتها ولكنها ملك لبيت المال، وهي التي يقطع منها؟ إننا نميل إلى الاحتمال الثاني بالرغم من صمت النصوص.

ونلمس تحولاً في سياسة مركز الخلافة تجاه الجزية ونظام القطائع في مصر ابتداء من عهد معاوية بن أبي سفيان فقد أقطع عمرو بن العاص وردان أرضاً، وأقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابن سندر منية الأصبغ فحاز لنفسه منها ألف فدان، وذلك في حالة معينة وحفظاً لوصية الرسول (ص)[٣١].



أما معاويــة فقد أراد تجـاوز شروط أداء القبط للجزية وقد كانت دينارين على كل رجل لا يزيد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين فكتب إلى وردان عامـل الخراج عـلى مصر: «أن زد على كل رجل منهم قيراطاً فكتب وردان إلى معاوية: كيف تزيد عليهم، وفي عهدهم أن لا يـزاد عليهـم شيء، فعـزل مـعـاويــة وردان»(٣٢)، وأقطع قرية كاملة إلى ابنه يزيد، يخبرنا ابن عبدالحكم عن ردود فعل المسلمين تجاه هذه السياسة الجديدة قـائلاً: «وأقـطـع معاوية أيضاً يزيد قرية من قرى الفيوم فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه فلما بلغ ذلك معاوية كرة ما قال الناس فردّ تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين»(٣٣).

أما الوضع في المغرب فقد كـان شبيهاً في مرحلة الفتح بمـا طبق في مصر ولكننا نـرى ضرورة التأكيد على أمرين:

أولاً: إن المسلمين قد اكتفـوا في الغزوات الأولى التي سبقت تـأسيس القيروان بفـرض مبلغ معين من المال يؤديه سكان المغرب جزية، فقد صالح عمرو بن العاص سكان برقـة على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعـوا من أحبـوا من أبنـائهم في جـزيتهم «ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها»(٣٤) وقد طلب رؤساء أهل أفريقية بعد انتصار المسلمين وهزيمة جرجير في غزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ إلى عبدالله بن سعد أن يأخذ منهم مالاً «على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر ولم يـول عليهـا أحـداً ولم يتخـذ بهـا قيرواناً»(٣٥)، وبالرغم من أن معاوية بن حديج الكندي قد اتخذ قيرواناً عند القرن فإن ظاهرة القطائع لم تبرز لأنه سرعان ما رجع إلى مصر مكتفياً بالغنائم ووزعت الأراضي لبناء الدور بعد غزوة عقبة الأولى وتـأسيسه القيـروان «وأمر الناس بالتنقية والخطط ونقل الناس من الموضع الذي كان معاويـة بن حديـج نزله إلى مكـان القيروان اليوم»(٣٦).

ويلوح لنا أن الأحداث السياسية والعسكرية بصفة خاصة قد حالت دون ــ الاهتمام بقضية الأرض في هذه المرحلة المبكرة وهذا ما يفسر لنا نـدرة المعلومـات عن ملكيـة الأراضي وتنـظيم

شؤون الخراج وذلك بالقياس إلى مصر مثلاً.

ثانياً: إن أراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء البيزنطيين قد أصبحت ملكاً عاماً يتصرف فيه الأمير باسم الخليفة ويقطع منه، ووظف الخراج على فئة اجتماعية معينة تسميها المصادر (الأفارق) «ولعلهم عجم أفريقية كما ورد في مصادر أخرى» وعلى من بقي من الروم بالبلاد ومن أقام معهم على النصرانية وأغلب هذه الأراضي في أفريقية وفي السهول الخصبة من شمال بلاد المغرب، أما الأراضي الكبرى التي تسيطر عليها القبائل وخاصة في جنوب أفريقية وفي المغربين الأوسط والأقصى فهي التي أطلق عليها ذلك المفهوم الجديد (أسلم عليها أهلها).

وبعد انتصار حسان بن النعمان الغساني على قوة المعارضة العسكرية لقبائل المغرب الأوسط، ولا سيما قبائل الأوراس بزعامة الكاهنة سنة ٨٢هـ بدأ التفكير من جديد في تنظيم شؤون أفريقية وفي مقدمتها شؤون الخراج وملكية الأرض «ودانت له أفريقية فدون الدواوين وصالح من ألقى بيده على الخراج وكتب الخراج على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر والروم»[٣٧] أما إذا أسلم سكان المناطق المفتوحة فإن أرضهم تبقى بأيديهم ولا يدفعون عنها إلا العشر.

يحدثنا صاحب «الأخبار المجموعة» عن فتح موسى بن نصير لطنجة سنة ٨٩هـ فيقول: «أسلم أهلها واختطها قيرواناً للمسلمين وأوطنها إياهم»[٣٨] وحتى أراضي مناطق القبائل البربرية حاربها موسى بن نصير في زغوان، وفي بلاد هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من المناطق فإنها بقيت بأيدي أصحابها، وسرعان ما اعتنقت هذه القبائل الإسلام فأصبحت أراضيها ممن (أسلم عليها أهلها)؛ فلم يبق — إذن — ملكاً عاماً للمسلمين يقطع منه والي أفريقية على رؤساء الجند وزعماء القبائل إلا الأرض الموات أو الأراضي المهجورة التي تركها البيزنطيون، ولم تقطع هذه الأراضي لرؤساء الجند ولرؤساء العشائر العربية النازحة إلى المغرب بل استغلها الأمراء أنفسهم فاختط موسى بن نصير بالقرب من القيروان، فقد روى بعض أهل أفريقية «أن موسى ركب يوماً حتى خرج من القيروان فوقف قريباً من افريقية على رأس أميال فأخذ بيده تراباً فشمه من ثَمَّ، ثم أمر بحفر بئر وأبتني داراً ومنية، واتخذ فيها خيلاً فسميت منية الخيل فليس يعلم بالمغرب بئر أعذب منها»[٣٩].

وكان الولاة يعطون أراضيهم الخاصة للوكلاء لزرعها، يقول ابن عذاري في حديثه عن ولاية يزيد بن حاتم (١٥٥ — ١٧١هـ): «أن بعض وكلائه زرع فولاً كثيراً في بعض رياضاته، فقال له يا ابن اللخناء أتريد أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني، ثم أمر بأن يباح للناس»[٤٠].

ولكن يبدو أن الاقطاع قد تطور بسرعة وسمحت الرتب الادارية والعسكرية بامتلاك قرى كاملة حيث نقرأ في ترجمة أبي عبدالله محمد بن مسروق من أهل القيروان أن أباه مسروقاً كان خليفة موسى بن نصير بالمغرب فلما مات أبوه بات ينظر في كتبه، وفي أمواله ومنازله، وقد ترك له أبوه قرى كاملة ملكاً له «فكان بعد ذلك (بعد تزهّده) يمرّ بالقرية من قرى أبيه فيخرج اليه أهلها، ومن فيها فيقولون: نحن عبيدك، وكل مالنا في هذه القرية فهو لك فيقول: إن كنتم صادقين فأنتم أحرار وما أملك لكم»[٤١].

إن هذه الملكية الشاسعة لا يمكن أن يكون مصدرها غير الاقطاع، ونحن في مطلع القرن الثاني الهجري والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: من كان يملك هذه القرى قبل الفتح؟

إننا نميل إلى أنها كانت بيد أفراد الأسرة الحاكمة أو فئة النبلاء البيزنطيين وهكذا فإننا نستطيع أن نتحدث عن استقرار ملكية الأرض بعد انتهاء مرحلة الفتح واستقرار الوضع السياسي والعسكري في بلاد المغرب ويمكن أن نتحدث عن أنواع ثلاثة للملكية بالاضافة إلى أراضي الوقف: ملكية الفئة الحاكمة، وملكية فردية بأيدي الفلاحين في القرى أو بأيدي فئات مقيمة في المدن وتستغل الأرض عن طريق العبيد أو الأجراء، والملكية الجماعية وهي أهم أنواع ملكية الأراضي في المغرب الإسلامي، ولا سيما ملكية القبائل الرحّل التي تسيطر على مناطق سباسبيّة أو صحراوية شاسعة، يتحدث ابن



أبي زرع الفاسي عن قبائل المرابطين فيقول: «وهذه القبائل كلها صحراوية، حوز بلادهم القبلة مسيرة سبعة أشهر طولاً ومسيرة أربعة أشهر عرضاً، من نول لمطه إلى قبلة القيروان من بلاد أفريقية وهي ما بين بلاد البربر وبلاد السودان»[٤٢]. وقد عرفت الملكية الفردية مساحات شاسعة اتجرّت غالباً عن طريق الاقطاع، فقد كان عبدالرحيم الزاهد (توفي سنة ٢٤٧ هـ) من أصحاب سحنون يملك ضيعة كبرى تحتوي على سبعة عشر ألف شجرة زيتون[٤٣]، وكان الأمراء من كبار الملاكين، ويشترون في بعض الحالات الأراضي التي يرغبون فيها، ولا يستطيع السكان الرفض خوفاً من المصادرة والاضطهاد فقد أباح إبراهيم بن أحمد الأغلبي عبيد السودان على نساء أهل (أبيانة) حين امتنعوا من بيعها منه[٤٤].

وقد كانت سياسة التغريم التي انتهجها الفاطميون بصفة خاصة عاملاً أساسياً من عوامل انتقال الأراضي من أصحابها إلى الدولة[٤٥]، وقد أقطع الخلفاء الفاطميون ضياعاً إلى أنصارهم ومواليهم، فقد أقطع المهدي ضيعة بكورة الجزيرة للأستاذ جوذ[٤٦]. وكان له وكيل يدير شؤونها، ولم يعرف نظام الملكية في العهد الزيري قبل الهجرة الهلالية تحولاً يذكر بالنسبة لما كان عليه في العصر الفاطمي، فقد أقطع بنو زير، وبنو حماد ضياعاً لأنصارهم وعمالهم، كما تحدثنا بعض الفتاوى عن نظام المغارسة والمناصفة في إفريقية خلال الفترة الزيرية.

أما بعد سقوط القيروان، واستيلاء قبائل بني هلال وبني سليم على إفريقية والمغرب الأوسط فقد تدهور نظام ملكية الأرض واضطرب.

ويحصل هذا التحول في نظام ملكية الأرض في المغربين الأدنى والأوسط في نفس الوقت الذي تظهر فيه في المغرب الأقصى دولة جديدة غلب عليها الطابع العسكري، وقامت على أساس التحام العصبية بالدعوة الدينية، واعتبر مؤسسها عبدالله بن ياسين الجزولي المناطق التي فتحها غنيمة فقسّم الخمس على اللمتونيين.

إن المصادر التي بين أيدينا لا تحدثنا عما سنّه المرابطون من جديد في نظام ملكية الأرض في بلاد المغرب، ولا سيما في الأراضي الخصبة

التي فتحوها بالسيف مثل أراضي قبيلة برغواطة في منطقة تلمسنا على سواحل المحيط، ولكن نصاً ثميناً يقدمه لنا أبوبكر الطرطوشي يدل على أنهم أدخلوا تغييراً جذرياً بسنّهم لنظام (الإقطاع) العسكري وذلك بالنسبة للأراضي التي هي ملك الدولة، وقد طبق هذا النظام في الأندلس ولا يستبعد أن يكون قد طبق في بلاد المغرب أيضاً(٤٧). فهل تأثرت الدولة المرابطية بنظام (الاقطاع) العسكري الذي عرفه البويهيون والسلجوقيون في المشرق؟ ●

الهوامش:

(١) أنظر كتابنا: (المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، تونس، ١٩٧٨؛ (دراسات مغربية) دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) راجع مثلاً: اليعقوبي، البلدان، ليدن، ١٨٩١، ابن حوقل صورة الأرض، بيروت، دت: الاصطخري، المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦٧؛ أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر ١٨٥٧؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ١٨٦٤، ابن محشرة(؟)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ١٩٥٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧، الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٥٧.

(٣) راجع عن زراعة البستنة بضواحي مدينة تاهرت: المغرب الإسلامي، سبق ذكره ص ١٠٠، ١٣٢، وفي واحة تافيلالك نفس المصدر ص ١٧٢ وما يليها.

(٤) راجع في هذا الصدد: فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٧٦ وما بعدها عبدالعزيز بن محمد الرحبي، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، بغداد ١٩٧٣، ج ١، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(٥) راجع في هذاالصدد: الماوردي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٠٩؛ أبويعلى الحنبلي، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦؛ أبوعبيد، كتاب الأموال، القاهرة، ١٣٥٣؛ أبويوسف، كتاب الخراج، القاهرة، ١٣٥٢؛ الرحبي، فقه الملوك ومفتاح الرتاج، سبق ذكره؛ يحي بن آدم كتاب الخراج، ليدن ١٨٩٦؛ الطرطوشي، سراج الملوك، القاهرة، ١٣١٩ هـ.
ومن المراجع الحديثة أنظر في هذا الصدد: محمد عبدالجواد محمد، ملكية الأراضي في الإسلام، القاهرة ١٩٧١؛ ابراهيم فؤاد أحمد علي، الموارد المالية في الإسلام القاهرة، ١٩٦٨؛ محمد ضياء الدين الريس الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية القاهرة، ١٩٦٩؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية بيروت، ١٩٦٨.

(٦) كان موضوع رسالة الماجستير التي قدمها محمد علي نصرالله إلى قسم التاريخ بجامعة بغداد عن (تطور ملكية الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي) لم تنشر بعد؛ أنظر عن بلاد الشام: فالح حسين الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان، ١٩٧٨. ص ٤٣ وما بعدها.

(٧) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ليدن ١٩٢٠، راجع المعلومات الدقيقة عن طريقة جمع الخراج، وعن إحصاء السكان لتوظيفه ص ١٥٢، وما يليها، ص ١٥٦، وراجع عن القطائع ص ١٢٢ وما بعدها.

(٨) أنظر: سمير أمين، اقتصاد المغرب (بالفرنسية)، باريس ١٩٦٦، ص ٩٩ وما بعدها.

(٩) أنظر في هذا الصدد: أحمد صادق سعد، ست دراسات في النمط الآسيوي للانتاج بيروت، ١٩٧٩.

(١٠) أنظر التجارة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ضمن كتابنا: المغرب الإسلامي...، سبق ذكره ص ١٣ ــ ٤٥.

(١١) بالفرنسية، باريس، ١٩٧٦، ص ٢٧.

(١٢) صورة الأرض، سبق ذكره، ص ٩٠.

(١٣) راجع: (أودغست: التطور العمراني ــ الحياة الاقتصادية والاجتماعية) ضمن كتابنا: المغرب الإسلامي...، سبق ذكره، ص ١٩١ ــ ٢١٧.

(١٤) المغرب، سبق ذكره، ص ١٦٨.

(١٥) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤، ج ٢ ص ٣.

(١٦) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، سبق ذكره، ص ٢١١ وما يليها.

(١٧) أنظر في هذا العدد: عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤٦.

(١٨) بالاضافة إلى المصادر المذكورة في تعليق رقم ٥ راجع عن (الاقطاع) عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، ١٩٦١، ص ٨٦ وما يليها، الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون، ١٩٧٠، إبراهيم علي طرخان، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى القاهرة، ١٩٦٨، دائرة المعارف الإسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مفصلة)، الطبعة الفرنسية الجديدة، ليدن ١٩٧١، ج ٣، ص ١١١٥ ــ ١١١٨.

راجع عن الخراج: دائرة المعارف الإسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مهمة)، سبق ذكرها ج ٤، ص ١٠٦٢ ــ ١٠٨٧.

راجع عن الجزية نفس المصدر، ج ٢، ص ٥٧٣ ــ ٥٨١.

راجع عن الضيعة نفس المصدر، ج ٢، ص ١٩٣ ــ ١٩٤.

راجع عن الحماية نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠٦ وما يليها.

(١٩) أنظر الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، سبق ذكره، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢٠) أنظر: ابن عبدالحكم، فتوح مصر، سبق ذكره، ص ١٩٧، أخبار مجموعة لمؤلف مجهول مجريط ١٨٦٧، ص ٢٥.

(٢١) ابن عبدالحكم، سبق ذكره، ص ١٩٧.

(٢٢) أنظر مثلاً عن مصر نفس المصدر، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢٣) راجع الفصل المنشور من كتاب الأموال للداودي ضمن التأليف (دراسات في الاستشراق) (بالفرنسية) المهدى لذكرى ليفي برونفسال، باريس ١٩٦٢، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٢٤) ن.م.

(٢٥) شكري فيصل المجتمعات الإسلامية في القرن الأول بيروت، ١٩٦٦، ص ١٦٦ وما يليها.

(٢٦) ابن عبدالحكم، نفس المصدر، ص ٧٠.

(٢٧) ن.م.، ص ٨٨.

(٢٨) ن.م.، ص ٨٣.

(٢٩) ن.م.، ص ٩٨.

(٣٠) ن.م.، ص ١٤٠. ونلاحظ في هذا العدد أن الجند قد نهي عن الزرع، يقول ابن عبدالحكم (ص ١٦٢):

أن عمر بن الخطاب (أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية أن عطاهم قائم، وأن عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون).

(٣١) ن.م.، ص ١٣ وما يليها.

(٣٢) ن.م.، ص ٨٦.

(٣٣) ن.م.، ص ١٠١.

(٣٤) ن.م.، ص ١٧٠ وما يليها.

(٣٥) ن.م.، ص ١٠٣.

(٣٦) ن.م.، ص ١٩٦.

(٣٧) تاريخ أفريقية والمغرب المنسوب للرقيق القيرواني، تونس ١٩٦٨، ص ٦٤؛ أنظر أيضاً ابن عبدالحكم، سبق ذكره، ص ١٠٢، ونشير هنا إلى أن حسان بن النعمان قد قسّم الأرض على البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا يقاتلون مع الجيش العربي (وأخرجهم مع العرب يفتحون أفريقية ويقتلون الروم، ومن كفر من البربر، فمن ذلك صارت الخطط للبربرية بأفريقية فكان يقسم الفيء بينهم والأرض، وحسنت طاعتهم فدانت له أفريقية، ودون الدواوين)، المالكي، رياض النفوس، القاهرة، ١٩٥١ ج ١، ص ٣٦.

(٣٨) أخبار مجموعة، سبق ذكره، ص ٤.

(٣٩) ابن قتيبة الدينوري، الامامة والسياسة، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢ ص ٨٦.

(٤٠) البيان المغرب، ليدن ١٩٤٨، ج ١، ص ٨١ وما يليها.

(٤١) المالكي، رياض النفوس، القاهرة، ١٩٥١، ج ١، ص ١٢٦.

(٤٢) الأنيس المطرب، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٢٠.

(٤٣) رياض النفوس، سبق ذكره، ص ٣٢٨.

(٤٤) ن.م.، ص ٣٨٤.

(٤٥) راجع في هذا الصدد: السياسة المالية للدولة الفاطمية ضمن كتابنا (دراسات مغربية)، سبق ذكره، ص ٤٥ ــ ٧٠.

(٤٦) سيرة الأستاذ جوذر، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٩٩.

(٤٧) يقول الطرطوشي: (وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف وانتقاص لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين فيربونهم كما يربي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين والكيراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر ابن أبي عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النطع، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها المتلثّمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم ولا أدري ما يكون وراء ذلك) سراج الملوك، القاهرة، ١٣١٩ ــ ص ١٠٧.

البلاد التونسية والدولة العثمانية

د. خليفة شاطر
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية
بالجامعة التونسية

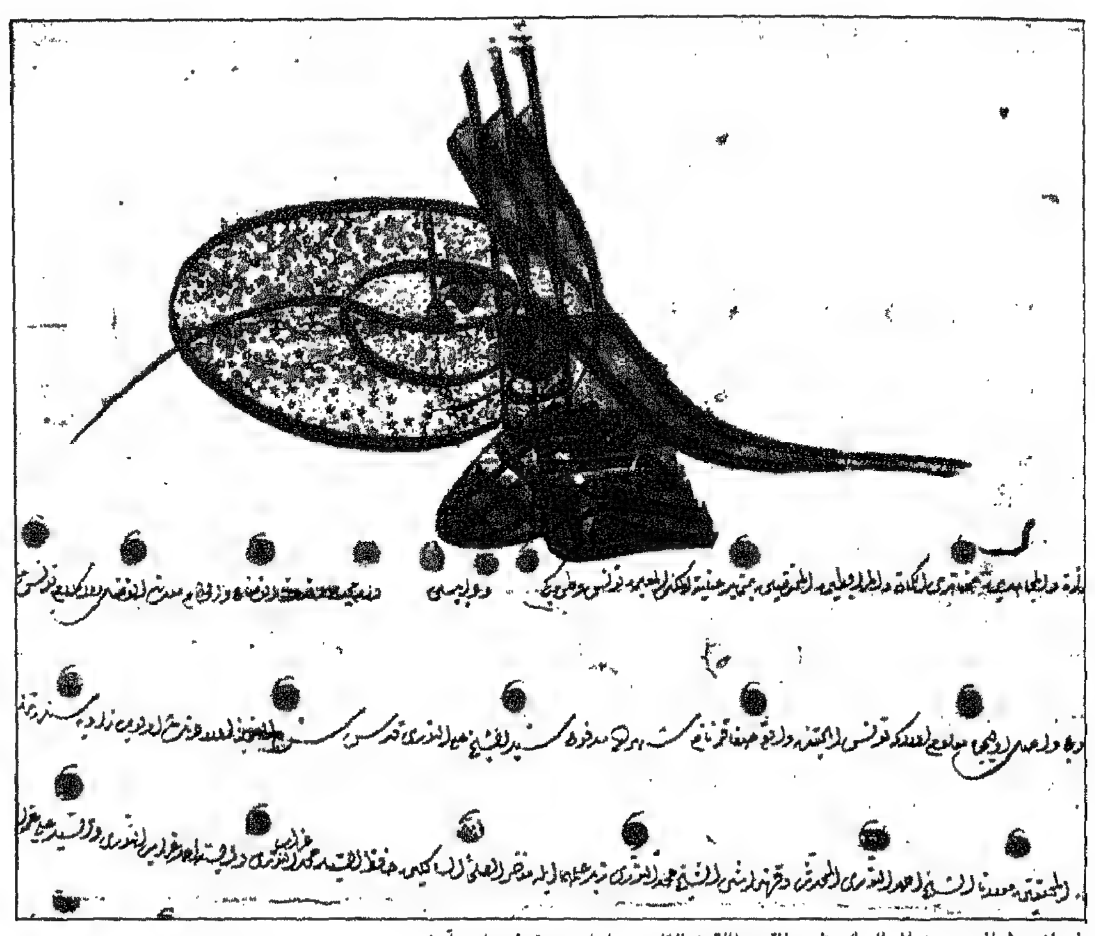
لا يزال هذا الموضوع محل نقاش المؤرخين[١] ولعل ذلك يرجع للطابع الخاص الذي اتسمت به العلاقات التونسية العثمانية اذ لم يفرض الباب العالي على ولايته التونسية حكمه المباشر بل اعترف بالأمر واقتصر على اصدار فرمانات مصادقة لمن يتولى الأمر من العائلتين الحاكمتين المرادية ثم الحسنية ابتداء من سنة ١٧٠٥. ولكن الدولة العثمانية سعت الى استراجاع شيء من نفوذها بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ وزوال حكم القرمنليين في طرابلس الغرب سنة ١٨٨٥[٢] فتأزمت العلاقات التونسية العثمانية وكادت أن تقع القطيعة[٣]... ولكن سرعان ما رجعت الأمور الى نصابها اذ لم يتجرأ حكام اسطنبول وتونس على الدخول في صراع بينما كانت الأطماع الاستعمارية تهدد العالم الاسلامي.. فرضت الظروف الدولية على الباب العالي وعلى تونس بان يحافظا على علاقات التضامن والالتحام بين المسلمين[٤] فزال سوء التفاهم وتقشعت الغيوم..

بقي الشعب التونسي متمسكاً بالدولة العثمانية بعد احتلال البلاد من طرف الفرنسيين. سنة ١٨٨١ أصبحت تونس مستعمرة خاضعة لمشيئة أوامر حكومة باريس مرتبطة في سائر ميادين السياسة والثقافة والاقتصاد بالساحة الفرنسية كانت اسطمبول طويلاً المركز البديل للتونسيين كانت محل آمال أجيال ما قبل الحرب العالمية الأولى ولكن مجرى الأحداث قد أبرز تقهقر الدولة العثمانية فأصبح الأمل سراباً اذ تفطنت الاطارات الوطنية بأن تركيا ليس لها حول ولا قوة وانها لا تمثل شيئاً بالنسبة لمراكز القوى الدولية فاعتمدت على نفسها وجندت القوى الشعبية وسعت الى اقناع الرأي العام الدولي وبسط القضية التونسية أيام مناطق النفوذ العالمية.

ولكن تونس لم تناصب العداء لتركيا.. انها لم تعش أي فترة من الهيمنة والحكم المباشر التركي ولم تكن ضحية أي «سياسة استعمارية تركية».. بل كان التونسيون يتحسرون على زوال عهود ما قبل الاحتلال، الفرنسي لينسوا محنة هذا الاستعمار الاستيطاني رغم ظروف الحكم في العهد العثماني وامتيازات جالية الأتراك ومن انتمى اليهم من كراغلة ومماليك واحتكار المناصب والسيطرة على أجهزة الدولة اعتماداً على هذه العناصر الدخيلة.

(أ) قضايا منهجية:

نحن نعرف أن على المؤرخ أن يحاول استقصاء الواقع لاجلاء الحقيقة وعليه أن يجعل الوثيقة التاريخية محل الدراسة والنقاش كي



«فرمان» عثماني موجه إلى الحاكم في صفاقس (القرن التاسع عشر) ـــ متحف دار جلّولي.

لا تغالطه المظاهر السطحية فيبلغ اللب ويترك القشور وهنا بالذات يجب أن نلاحظ أن المؤرخين التونسيين في العهد الحسيني كانوا في خدمة البلاط ينقلون نظرياته السياسية ويبرزون مواقفه في جل الأحيان.. كانت دراستهم للعلاقات التونسية العثمانية محل شك اذ لا ننسى ان حكم البايات المراديين ثم الحسينيين وامتيازات الجالية التركية والمماليك تستمد شرعيتها من طبيعة هذا الحكم العثماني ومن النظرية الرسمية التي تعتبر الأتراك منقذي البلاد من الغزو الاسباني..

لا نستغرب اذن هذا الاهتمام بفترة دخول الأتراك لتونس وهذا الوصف الملحمي «الاسطوري» للغزو العثماني.

قال ابن أبي الدينار القيرواني مؤرخ القرن السابع عشر:

سمعت من أهل الحضرة من يقول سبب مجيء العمارة الى هذه الديار ان السلطان سليم رأى في منامه الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف (ولي تونس الشهير) يستنجده على بلاده وقال له أنا محرز بن خلف فلما أصبح سأل عن الشيخ وعن بلده وقيل تونس.. وقيل أن العمارة كانت معينة في الأندلس.. ففتر عزم السلطان عن الأندلس وبعث بها الى تونس..

... وكان هذا الفتح القريب والنصر الغريب الذي شربه البعيد والقريب[٥].. وتمزج الأسطورة بالواقع في وصف الوزير السراج للفتح العثماني:

... فبينما الكرب مولوع بتسديد النصال

ومغرى بتعطيل الوصال اذ طلع من أفق الفرج ساطع اقبال وحوله أنجم لطاف لم تجر يوماً ببال وعود الله أن الحال ذات انتقال ودوام حال من قضايا المحال. الاّ وأنها سفن نصر مشحونة بالأبطال، وقساورة وغى يسابق بطشها الأقوال، واطراد هيئة وبحور هبات، وحماة اولو وثَبَات، وكنوز صبر وثبات، فافترّ بسرور قدومهم ثغرُ البلاد وسوغوا مرّ الوغى بزلال الفتح في حلق الواد

وكان فتحاً أماط عن صبيح وجه الدهر الخمار وبدل فيه العسر باليسار وظهر به نشر راية الاسلام بعد الطي والاضمار وخفق بنسمات تأييده جناح الغزو والافتخار(٦)..

ان هذه الأوصاف الملحمية تبين موقف المؤرخ من الحدث وتبرز البعد العاطفي لهذا التاريخ الذي يتناول فترة حاسمة من الجهاد الاسلامي أثناء أوج الصراع المسيحي الاسلامي. في البحر المتوسط..

واذا ما اعتبرنا أن تاريخ العلاقات التونسية العثمانية يندرج في اطار قيام جبهة اسلامية لصد الغزاة الأوروبيين وانه يثبت شرعية الحكم القائم ويبرر امتيازات الجالية التركية تبين لنا أن على المؤرخ أن يتجاوز الديباجة السطحية ليقيم الحدث..

على المؤرخ أن يبحث عن مراجع تكميلية لمراجعة هذه النظرة السطحية ولكن جل المصادر تنتمي الى هذا التيار الرسمي المسيطر. لقد حاول المؤرخ الصغير بن يوسف أن يصف كشاهد عيان العلاقات بين الجالية التركية وسائر سكان البلاد وأبرز بوادر الصراع بين الفئة الحاكمة والرعية ولكنه درس القضية بوصفه كرغلي من زاوية الفئة المدللة التي تنتقد أولى الأمر لبداية اعتمادهم على العناصر التونسية(٧).

ولكن بعض الوثائق تبرز حقيقة الوضع خاصة إذا ما تناولنا دراسة بعض الأحداث (ثورة جند الترك سنة ١٨١٦) وبعض الاصلاحات (المساواة بين علماء المالكية المنفية في عهد أحمد باي)(٨) وحاولنا استقصاءها وابراز خلفيتها الاجتماعية.



جندي انكشاري

(ب) الطابع المميز للعلاقات التونسية العثمانية:

أصبحت تونس منذ سنة ١٥٧٤ ولاية عثمانية وكانت هذه الدولة قرصنية الأسس وتركية الأصل. كان هذا الوجه التونسي يعتمد على طائفة البحرية القراصنة أو غزاة البحار وعلى جند الترك أو جيش الانكشارية الذي انتصب في البلاد منذ الفتح العثماني. ان طرابلس الغرب أو الجزائر وتونس كانت تعتمد منذ تأسيسها على النشاط القرصني الذي كان يعتبر قاعدة تنظيم هذا الوجاق، ان هذا النشاط

القرصني كان يساهم بقسط وافر في تمويل الدولة واثراء رجالها ودعم النظام التركي في البلاد.

لم تكن الدولة العثمانية تحكم البلاد مباشرة اذ كان الخليفة ـ السلطان يصادق على ولاية كل داي يمسك زمام الحكم ثم أصبح وراثياً بين أفراد العائلة المرادية ثم الحسينية التي خلفتها. ينتصب ولي العهد على العرش اثر وفاة الباي الحاكم وتتم بيعته من طرف أهل الحل والعقد ثم تحرر وثيقة البيعة وتوجه للسلطان قصد المصادقة عليها وتحرير فرمان البيعة(٨) (مكرر).

ان الباي يعترف بسلطة السلطان العثماني بصفة نظرية اذ تلقى خطبة الجمعة باسم السلطان وتضرب السكة باسمه ولكن الباي يتمتع بحرية التصرف. لا يتدخل السلطان الخليفة البتة في شؤونه: قال ابن أبي الضياف:

«ان هذه المملكة تقر للسلطان العثماني بالطاعة لأن الدولة العثمانية هي التي أنقذتها وأبقت بها كلمة الاسلام.

فلا جرم أنها من جملة مماليك الدولة العثمانية المرسومة في الطبع الجغرافي والسنة منابرها ودراهمها ودنانيرها وعامة أهلها تنادي بذلك فلا فرق في ذلك بين بدوي متوحش وبلدي متأنس..

ولأميرها الاذن في التصرف بالمصلحة من ولاية القضاة ورؤساء العساكر وجباية الأموال وصرفها في المصالح شأنها ولاية التفويض الشرعية»(٩).

نلاحظ أن المؤرخين يبررون حرية التصرف التي يتمتع بها بايات تونس بالتفويض الخاص الذي يمنحه السلطان للباي بوصفه واليها أو باشا(١٠) وهكذا يكون الباي مستقلاً بالفعل تقتصر علاقاته بالسلطان على اعتراف أدبي وطاعة شكلية.

ولم تكن تونس تدفع أي ضريبة سنوية للباب العالي بل تقتصر على توجيه الهدايا الفاخرة كلما تولى سلطان جديد في اسطنبول أو باي جديد في تونس.

نستطيع أن نقول أن تونس كانت مجرد ولاية شكلية تعيش على هامش الامبراطورية العثمانية أنها مثل سائر بلاد المغرب لا تنتمي للساحة الاقتصادية العثمانية رغم وجود تبادل تجاري كثيف أحياناً فتجار القوافل كانوا يصلون الايالة بالمغرب والمشرق وأفريقيا السوداء كما أن لتونس صلات تجارية لا يستهان بها حتى أثناء عهود ازدهار القرصنة مع أوروبا عن طريق مرسيليا وليفورن ومالطة.

وأما بالنسبة الى طبيعة الحكم وجهاز الدولة فان التطور التاريخي الخاص بتونس أكسبها بعض الميزات بالنسبة للولايات العثمانية المجاورة كالجزائر وطرابلس الغرب وقد تفطن المؤرخ الكرغلي الصغير بن يوسف لظهور بوادر التمييز فبين أن طرابلس كانت في القرن الثامن عشر ولاية صحراوية تعتمد على البحر وغنائمه(١١).. كما أن الدولة الجزائرية حافظت على ميزاتها التركية:

«... الجزائر سلطنة قوية براً وبحراً وغنيمة.. وحاكمهم تركي عجمي لا يقدمون كورغوليا ولو كان ملياً ولا يخدمون ويقدمون المراتب المعتبرة الّا من جنسهم وابن عمهم تركي أعجمي... ولا يدخل محلة (الجباية) لا بدوي ولا عربي ولا رعية(١٢)..»

وأما حكام تونس فقد تجاوزوا هذه الاعتبارات شيئاً ما بالنسبة للجيش على الأقل اذ أصبحت محلتهم تضم خيالة القبائل اضافة لجند الترك كما بدأت تونسة أجهزة الدولة بصفة بطيئة لكنها أثارت سخط مؤرخنا الكورغلي:

«أولاد حسين (العائلة الحسينية) خدمتهم أولاد عرب ككتاب ترجمان وكتاب سر وحوانب وغيرهم وصاروا يطلعون على عورات الترك الذي (أصبحوا) في زاوية الترك.. وتركوا العديد يأكل مكاحلهم..»(١٣).

حافظ جند الأتراك رغم بوادر تونسة الجيش على امتيازاتهم ولكن وضعية تونس أصبحت تختلف شيئاً على الولايات العثمانية الأخرى وسيتواصل هذا التطور المميز لتونس عبر القرن التاسع عشر اذ تلاشت طائفة جند الترك وضعف نفوذها أثر تمرد جند الترك سنتي ١٨١١ و١٨١٦ والغاء القرصنة في تونس سنة ١٨١٦ وتغيرت طبيعة الدولة اذ فقدت ميزتها القرصنية وأصبحت تبحث عن قوى عسكرية



سفن تركية حربية

بديلة اذ أصبح الجيش التركي ثانوياً بعد أن كان العمود الفقري للدولة الحسينية وهكذا تغيرت نظرة الدولة للمحليين.

(ج) الأزمات التونسية العثمانية:

كانت تونس حريصة على ابراز ولائها للدولة العثمانية فقطعت صلاتها مع فرنسا استجابة لطلب الباب العالي لما احتلت جيوش بونابرت مصر سنة ١٧٩٨[١٤] وكذلك جهز حسن باي سنة ١٨٢٦ اسطولاً لاعانة الدولة العثمانية لما اندلعت الثورة اليونانية[١٥]، ولكن احتلال فرنسا للجزائر غير وضعية تونس الدولية وجعلها تحت ضغط فرنسا بينما كانت الدولة العثمانية لا تحرك ساكناً لحمايتها. وهكذا اضطر بايات تونس الى توخي سياسة خارجية تعتمد على اليقظة والحذر وتجنب المشاكل مع الدول الكبرى كي لا تفسح لها المجال ولا تمنحها أي تعلة لغزو تونس. كأن الدولة العثمانية لم تتفطن لخطورة موقف تونس ولم تعر أي اهتمام لظروفها الحرجة وكانت تنتقدها لتخاذلها في اعانة الجزائر وتشهر بعلاقاتها الحسنة مع فرنسا.

١ ـ اندلاع الأزمات التونسية العثمانية:

حالما اندلعت الأزمة الفرنسية الجزائرية حاصرت فرنسا الشواطىء الشمال أفريقية وأعلمت الباي التونسي حسين بذلك و «حذّرته وخوفته وقالت له: ان أردت الأمان على بلادك فكن في هذه النازلة حبيباً للفريقين وان أعنت الجزائر من البر تكن حرباً لنا مثلها»[١٦] وهكذا اضطر حسين باي الى توخي سياسة حياد وتجنب التدخل في هذه القضية الشائكة[١٧] وقد أرادت الدولة العثمانية أن توفد الى الجزائر مبعوثاً خاصاً يمر عبر الاراضي التونسية فأحسن الباي استقباله ولكنه منعه من النزول في حلق الوادي لمواصلة سفره للجزائر خشية أن تعتبر فرنسا هذه الاعانة مساندة للجزائر فغضبت

الدولة العثمانية وادعت أن تونس قد عرقلت مساعي الطاهر باشا «قد عطلت مصلحة جمهور من المسلمين»(١٨).

وقد توخت فرنسا سياسة الترغيب والترهيب تجاه تونس فعرض حكام الجزائر تعيين أميرين تونسيين على رأس ولايتي قسنطينة ووهران وقبل الباي أن يمضي الاتفاقين مع الحاكم العام للجزائر كلوزال فأثارت سياسة التوسع التونسية سخط السلطان وأصبح لا يثق في هذا الباي التونسي الذي قبل أن يتعاون مع فرنسا المستعمرة دون أن يستشيره.

ولكن سرعان ما فشلت سياسة التعاون الفرنسية التونسية وتراجع الطرفان والغيا اتفاقي قسنطينة ووهران(١٩) وأسرعت تونس الى تسوية خلافها مع الباب العالي في أواخر سنة ١٨٣١.

٢ ـ الباب العالي يسعى الى تغيير وضعية تونس:

انتهزت الدولة العثمانية فرصة طلب الفرمان للباي الجديد مصطفى للمطالبة بتغيير وضعته تونس. تمت بيعة مصطفى باي يوم ٢١ ماي ١٨٣٥ فتسلم زمام الأمور وأرسل الوزير شاكير صاحب الطابع الى اسطنبول لطلب الفرمان على العادة فتمنّعت الدولة العثمانية وطلبت توظيف شيء من المال على الايالة التونسية تدفعه كل سنة مبينة ان الولاية موقوفة على قبول هذا الشرط ولقد رفض شاكير صاحب الطابع الدخول في أي مناقشة مقتصراً على الوعد بابلاغ المطالب العثمانية لمصطفى باي وقال:

«.. ان مصطفى باي تركته بتونس قاعداً مقعد أخيه وفي أعناق المسلمين بيعته وقلوب المملكة ملتفة حوله فان أردتم وصل حبل المسلمين فاجرونا على عادتنا والا افعلوا ما بدا لكم..»(٢٠).

وافقت الدولة العثمانية على اصدار فرمان تولية مصطفى باي ثم اعادت الكرة حينما طلب أحمد باي لقب مشير سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) اذ طلبت من مبعوث الباي مصطفى البلهوان:

(أ) بأن يكون صنجق تونس مثل صنجق الدولة العثمانية لونا وشكلاً.

(ب) أن تدفع تونس ضريبة مالية سنوية.

(ج) أن تكون تولية المناصب العليا بأمر سلطاني.

(د) أن يمتنع الباي من ممارسة الشؤون الخارجية(٢١).

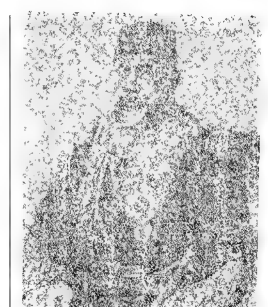
وكأن الدولة العثمانية أرادت أن تلحق تونس بالولايات التي تحكمها مباشرة بفضل سياسة الاقناع اذ أن فرنسا كانت تحمي السواحل التونسية من أي غزو عثماني متوقع خاصة بعد أن الحقت تركيا طرابلس الغرب بالباب العالي وقضت على حكم القرمنليين سنة ١٨٣٥.

ولم تتفطن الدولة العثمانية بأنها كانت تشجع بايات تونس على طلب حماية فرنسا والتعاون معها بقدر ما تسعى الى فرض هيمنتها وكان من نتيجة هذا التباعد(٢٢) أن أصبح أحمد باي يتجاهل أحياناً الدولة العثمانية ويتعامل مع الدول الأوروبية دون أن يراعي وضعيته الخاصة كباشا عثماني وقد جسم أحمد باي هذه السياسة الاستقلالية بالفعل حينما زار فرنسا سنة ١٨٤٦ أو رفض أن يلبي دعوة السلطان للذهاب لاسطنبول(٢٣).

ولكن أحمد باي أعرب على ولائه للدولة العثمانية اذ أرسل نحو الأربعة عشر الف مقاتل لاسطنبول للمشاركة في حرب القرم ومساندة السلطان وقد حرص محمد باي ١٨٥٧ ـ

مشهد صدامي في حرب القرم





فؤاد باشا

١٨٥٩ على المحافظة على علاقات جيدة مع الدولة العثمانية وصرح قائلاً:

«أرضى أن ترجيني دولة اسلامية خير لي من الخروج عن جماعة المسلمين وعن غضب السلطان الذي هو سيدي»(٢٤)..

وكن الظروف الدولية الحرجة تجعل بايات تونس يجاملون فرنسا مع السعي على الحفاظ على علاقاتهم الحسنة مع اسطنبول.

وأدركت الدولة العثمانية ظروف تونس الحرجة وفهمت موقفها فراجعت سياستها واقتنعت بالادلة التي قدمها الوزير خير الدين باشا حينما زار تركيا اثر ثورة ١٨٦٤. فصرح الصدر الأعظم فؤاد باشا قائلاً:

«... ان السلطنة العلية لاحاجة لها بمال تونس ولا بتغيير حالتها الأصلية وانما الأمر الواجب على الجميع هو تقوية الربط الديني وجمع كلمة الأمة المحمدية حتى لاتتوجه نحوها الأطماع..»(٢٥).

٣ ــ أسباب الأزمة وأبعادها:

يشرح ابن أبي الضياف محاولة الدولة العثمانية ادماج تونس في الولايات التي تحكمها مباشرة بتطور المواصلات وظهور مركب البخار(٢٦) وهو تفسير ذكي جريء اذ لم يألف المؤرخون تجاوز التاريخ السردي وتفسير الأحداث بالتغيرات الجذرية الاقتصادية والاجتماعية والتقدم التقني وكأن مؤرخنا لمس أبعاد الثورة الصناعية ودخول عهد الآلة البخارية..

لايجب أن تتجاهل نتائج هذه الاختراعات العلمية التي غيرت ظروف الجيش رأساً على عقب ولكن لايجب أن ننسى أن الدولة العثمانية قد تفطنت الى تلاشي ولاياتها أثر اندلاع الثورات الوطنية في اليونان وبلاد الصرب وغيرها من الممالك التي تسكنها الشعوب المسيحية.. ثم أنها تفطنت الى خطر سياسة التوسع الاستعماري. وقد أضاعت الجزائر نتيجة الأزمة التي اندلعت بين فرنسا والسلطة المحلية فلهذا أرادت أن تمسك زمان الامور لكي لاتمكن الدولة الأوروبية من استغلال بعض التعلات لبسط نفوذها على تونس أو طرابلس.

ولعل الدولة العثمانية أدركت خطر سياسة التسرب الاقتصادي الأوروبي على تونس وفهمت أن فرنسا كانت تحاول الهيمنة على تونس وبسط نفوذها بواسطة سياسة الترغيب والترهيب فأرادت عرقلة المساعي الفرنسية وصيانة تونس ولكنها أثارت خوف البايات الحسينيين الذين توخوا سياسة توازن بين فرنسا والدولة العثمانية كي يحفظوا على «حرية تصرفهم» أي استقلالهم الفعلي مع ولائهم للسلطان الخيفة..



معركة بين التونسيين والفرنسيين

المصور من:

L'art de la guerre — Emile Wanty

Epic Sea Battles, William Koenig. edited by, S. L. Mayer

عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية. ج ١ المطبعة الهاشمية ــ دمشق

هذا وان تصنيع أوروبا وزوال القرصنة قد ساعدا على تكثيف صلات تونس التجارية مع أوروبا وخروجها شيئاً فشيئاً عن الساحة الاقتصادية الشرقية(٢٧).

خاتمة:

انفصلت تونس عن الخلافة العثمانية اثر احتلالها سنة ١٨٨١ واصبحت تنتمي الى منطقة النفوذ الفرنسي وتوخت السلطة الفرنسية سياسة استيطانية وشجعت نشر اللغة الفرنسية على حساب الثقافة العربية الاسلامية ولكن تونس بقيت متمسكة بالخلافة العثمانية حتى بعد الغائها. كما أن سكان الايالة بقوا متعلقين بالبلدان العربية الاسلامية متطلعين الى أخبار حكامها ومصلحيها. وحسبنا أن نذكر اهتمام التونسيين بملاحم مصطفى كمال وانجازاته واعتزازهم بها.

●

الهوامش

(١) درس هذا الموضوع المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف (١٨٠٤ ــ ١٨٧٤) في كتابه **اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان**. تونس ــ ٨ أجزاء ــ من ١٩٦٣ الى ١٩٦٥. أنظر الجزء ٦. ص ١٢ ــ ٣٥

ــ أنظر بيرم الخامس. صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار. ٥ أجزاء. القهرة من ١٨٨٤ الى ١٨٩٤. أنظر الجزء الأول. ص ١٣٦ ــ ١٤٦. وقد تناول هذه القضية مؤرخ تونسي المعاصر البشير التليلي. **أنظر العلاقات الثقافية والايديولوجية بين الشرق والغرب في تونس في القرن التاسع عشر.** تونس ١٩٧٤ وقد درست هذا الموضوع في رسالة دكتوراه الدولة التي قدمتها في جامعة السوربون في ماي ١٩٨١. **الايالة التونسية من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٥٧**

(٢) قضى العثمانيون على حكم القرمنليين سنة ١٨٣٥ وعينوا عوضهم باشا يحكم البلاد مباشرة ويبدو أنهم فكروا في فرض حل مماثل في تونس

(٣) وصف ابن أبي الضياف هذا الأزمة بأنها «تباعد» من طرف أحمد باي(الاتحاف.. ج ٦، ص ٢٩). وتهم أحمد باي بأنه يريد أن يستقل فكذب ذلك ابن ابي الضياف (أنظر ص ١٤ و ٢٠).

(٤) يقول ابن أبي الضياف أن الدولة العثمانية كانت تستعمل مع أحمد باي سياسة الترغيب في جمع شمل الاسلام والترهيب من عواقب «الفرقة» (ص ١٦) كما أن ابن أبي الضياف شرح موقف أحمد باي قائلاً: وهو مع هذا الحذر (من الدولة العثمانية) لم يحدث نفسه باستقلال ولا سام ربط الاسلام باخلال ولا حام حول الخروج من تلك الظلال وان امتلأت اسماعه بأقوال الظلال المنتجة للاضمحلال (ج ٤ ص ١٢٧). لم يفكر البايات في استقلال عن الدولة العثمانية لأن الاستقلال بالنسبة اليهم خروج عن الجماعة الاسلامية ولكنهم تمسكوا بامتيازاتهم وباستقلالهم الفعلي اذ كانوا دائماً يتمتعون بحرية التصرف.

(٥) ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ـ تحقيق محمد شمام. تونس ١٢٨٧هـ ـ ص ١٧٨ و ١٩٢.

(٦) الوزير السراج. الحلل السندسية في الأخبار التونسية. تحقيق الحبيب الهيلة. ج ٢، قسم ١، تونس ١٩٧٣. ص ١٠.

(٧) الصغير بن يوسف. المشروع الملكي في سلطنة أولاد تركي. مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية عدد ١٨٦٨٨.

(٨) أنجز أحمد باي هذا الاصلاح في ديسمبر ١٨٤٢.

٨ مكرر. وهكذا أصبحت هذه الطريقة قاعدة تنصيب الباي كما تجلى ذلك في كتب التاريخ التونسية. أنظر مثلاً ابن أبي الضياف.. الجزء ٦. ص ١٤.

(٩) نفس المصدر. ص. ١٣ ـ ١٤.

(١٠) يبين بيرم الخامس أن الدولة العلية كانت عادتها في الولايات اطلاق التصرف للوالي بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صعوبة المواصلة الا بعد مدة مديدة لاسيما في مثل الأماكن التي طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وطرابلس والجزائر ومصر وغيرها وتسمى عندهم بالأوجاق.. (صفوة الاعتبار.. الجزء الأول ص ١٣٣).

(١١) المشرع الملكي. نفس المصدر. ص ٤٩.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) نفس المصدر. ص ٤٧.

(١٤) أنظر ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ٣٢.

(١٥) نفس المصدر ص ١٥٨.

وقد قدم المؤرخ التونسي بيرم الخامس معلومات ضافية على اسطول النجدة التونسي فبين أن محمود باي أرسل سبع سفن حربية ثم أردفها باثنين لاعانة الدولة العثمانية على حرب اليونان.. وأرسل حسين باي اسطولاً.. واحترق مع جملة سفن الدولة ومصر والجزائر وبعض أساطيل الدول الأوروبيــة (صفوة الاعتبار. ج ١، ص ١٣٦).

(١٦) حسب رواية ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(١٧) ولكن هل نستطيع أن نلومه على ذلك ونحن نعلم اختلال توازن القوى لصالح فرنسا ولا ننسى أن الدولة التركية قد اقتصرت على تقديم الاحتجاجات دون أن تعلن الحرب أو ترسل أي نجدة عسكرية (أنظر أرجمنت كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر تعريب عبد الجليل التميمي تونس ١٩٧٠).

(١٨) ابن أبي الضياف ج ٣ ص ١٦١ ١٦٧.

(١٩) درسنا هذا الموضوع في نطاق رسالتنا للـدكتــوراه (الايالة التونسية.. ص ٤٢٥ ـ ٤٧٧.

أنظر كذلك عبد الجليل التميمي مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة ١٨٣١ للمجلة التاريخية المغربية ١٩٧٦ ص ٥ ـ ١٩.

أنظر كذلك ع التميمي بيليك قسنطينة والحاج أحمد باي (١٨٣٠ ـ ١٨٣٧) تونس ١٩٧٨.

(٢٠) ابن أبي الضياف الاتحاف ج ٣ ص ١٩٩.

(٢١) نفس المصدر ج ٦. ص ١٦.

(٢٢) واصل بايات تونس ارسال المبعوثين لشرح موقفهم وازالة كل سوء تفاهم (نفس المصدر. ج ٣ و ج ٤) وكانوا يخشون أن تتدخل الدولة العثمانية عسكرياً لالحاق تونس بولاياتها التي تحكمها مباشرة.

(٢٣) أنظر مراسلة أحمد باي ووالي مصر عباس باشا حول هذا الموضوع سنة ١٩٤٩ (نفس المصدر. ج ٤. ص ١١٩ ـ ١٢٣).

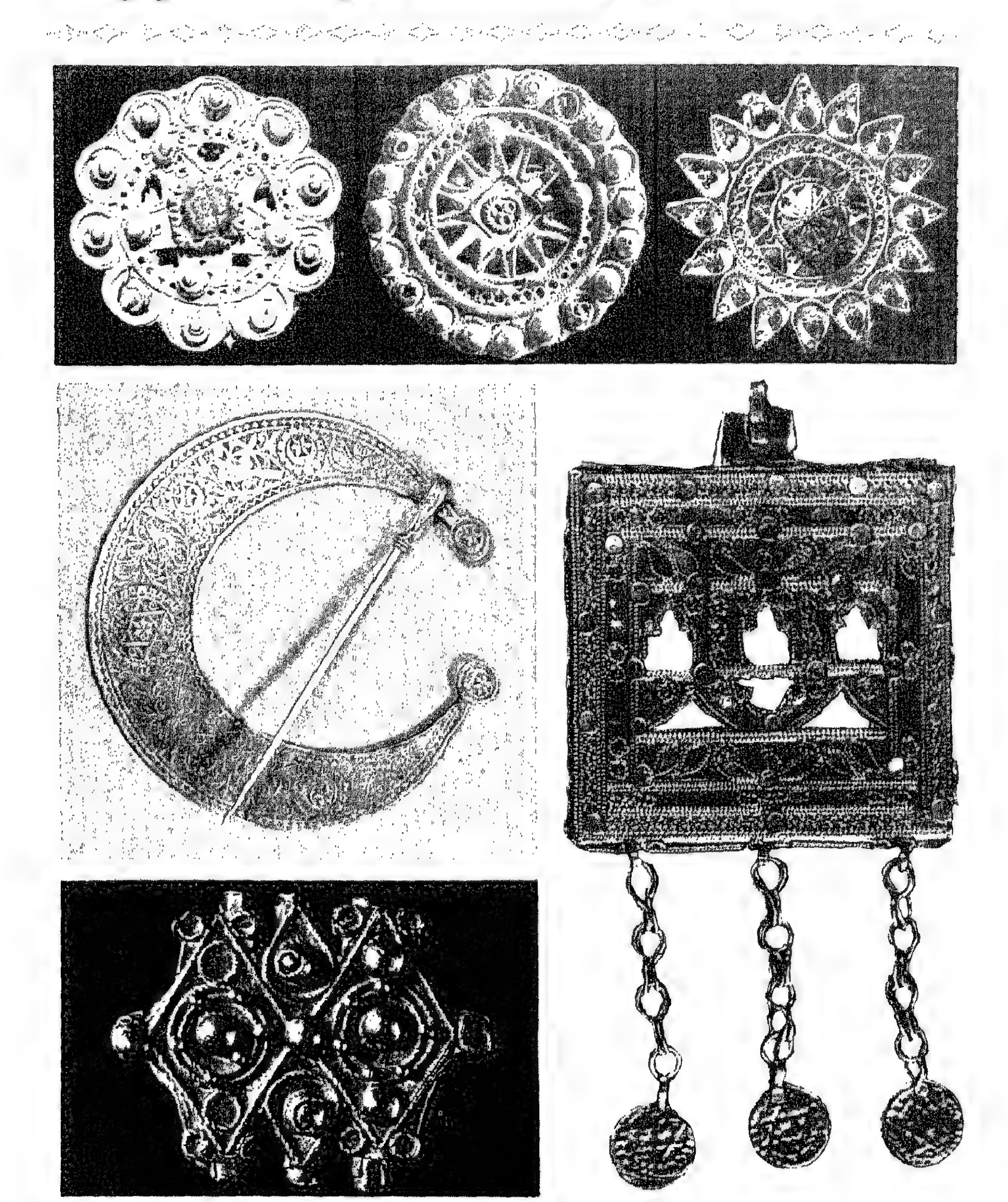
(٢٤) نفس المصدر. ج ٦. ص ٢١.

(٢٥) نفس المصدر. ص ٢٧ و ٢٨.

(٢٦) نفس المصدر. ص ١٥.

(٢٧) أنظر دراستنا «الايالة التونسية من ١٨١٥ الى ١٨٥٧». رسالة دكتوراه الدولة. باريس ١٩٨١.

مصوغات تونسية فولكلورية



٢٥ - ٢٦

مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

الفكر العربي

كانون الثاني - شباط - آذار ١٩٨٢ العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون السنة الثالثة

نَظَرِيّة الأدَب وَالنّقْد الأدبي

تصدر عن : معهد الإنماء العربي - بيروت



يصدر عن معهد الانماء العربي في بيروت

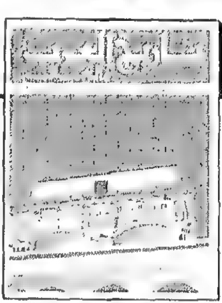
ـ مجلة علمية وتكنولوجية ـ

تهدف إلى:

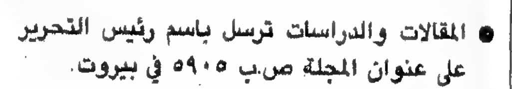
١ ـ تغطية آخر التطورات العلمية وإبراز فوائدها ومجالات الاستفادة منها بشكل دقيق ومبسط وشيق.
٢ ـ تغطية المؤتمرات والندوات والنشاطات والأبحاث العلمية العربية والعالمية.
٣ ـ مواكبة الاكتشافات والاختراعات العلمية الجديدة.
٤ ـ التركيز على مجالات الأبحاث والتطبيقات العلمية ذات العلاقة الخاصة بالتنمية العربية.
٥ ـ إبراز دور العلماء العرب في مجالات العلوم.
٦ ـ رصد وإبراز المشاريع التنموية في العالم العربي.

أبرز مواضيع العدد الأول:

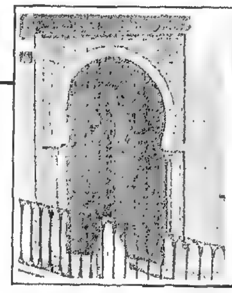
ـ كيفية نشوء الكون: نظرية الانفجار الكبير أم التكون البطيء.
ـ النظرية الجزيئية للكود الوراثي: كيف تنتقل المعلومات التي تحدد ما نرثه عن آبائنا.
ـ الصحراء تزحف، هل يمكن ايقاف تدهور التربة الزراعية؟
ـ هل كان دارون داروينياً؟
ـ أيمكننا تفادي أمراض القلب؟
ـ مجموعة أخبار علمية حديثة.



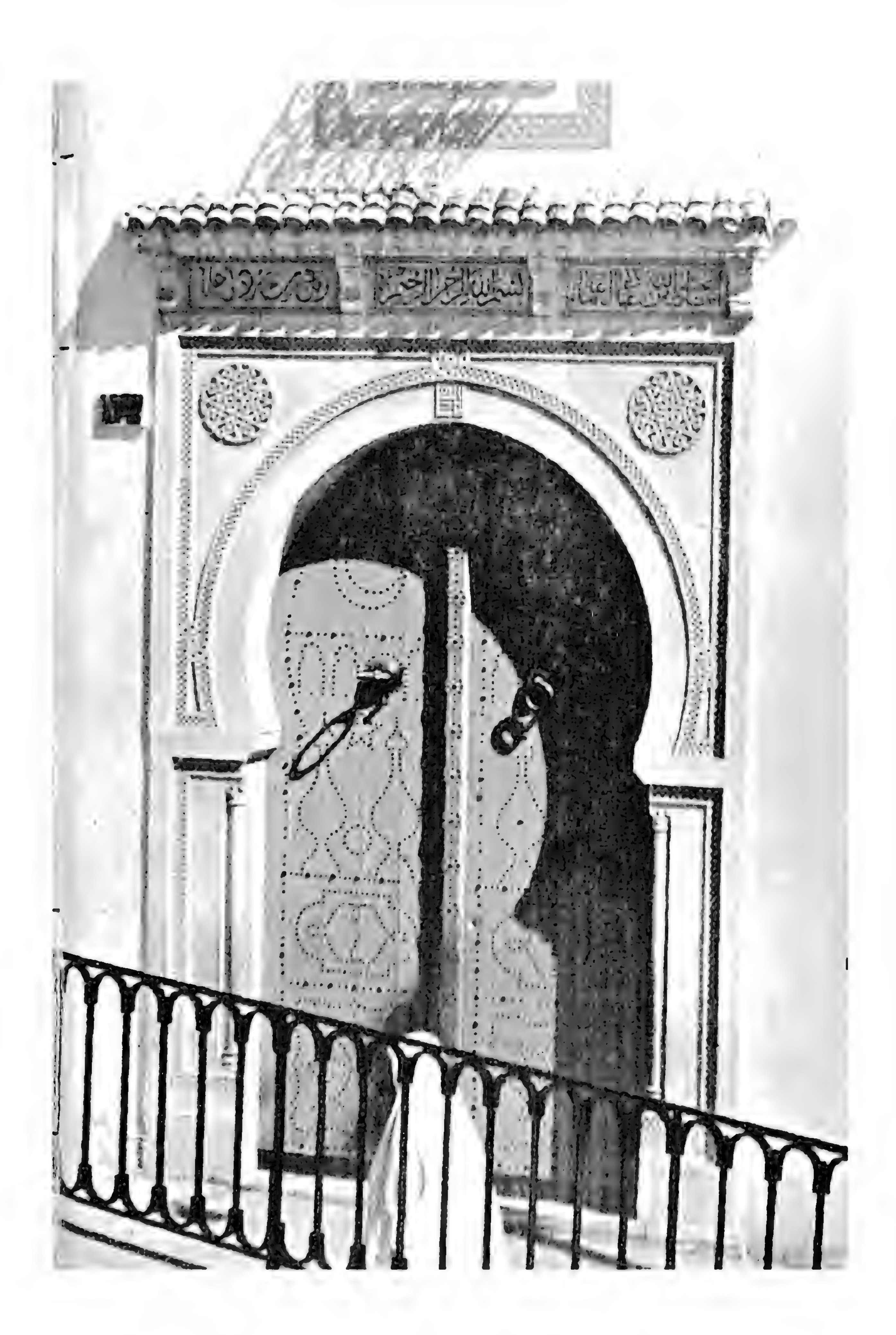
الغلاف الأول
مقام سيدي قاسم
الجليزي (تونس العاصمة)



- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الأخير
نقوش اسلامية على
باب بيت تونسي


بسم الله الرحمن الرحيم



تاريخ العرب والعالم

العدد الثاني والأربعون • نيسان ١٩٨٢م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الإشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

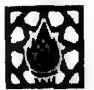
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 4. No. 42. APRIL 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



صيانة المدن العربية الإسلامية

مدينة حلب

د. شوقي شعث

لم يكن اختيارنا لمدينة حلب كمثال للمدن الاسلامية صدفة في هذه الدراسة، فحلب تستحق أن تكون انموذجاً يحتذى لأنه قل أن توجد مدينة في العالم العربي والعالم الاسلامي تضارعها غنى بالآثار الاسلامية الاّ مدينة القاهرة، ولكنها تتميز عن مدينة القاهرة بأنها لا زالت تحتفظ بشخصيتها المتميزة وطابعها العمراني الفريد فهي لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى الاسلامية بأزقتها وخاناتها وأسواقها وجوامعها ومساجدها وقلعتها الخ..

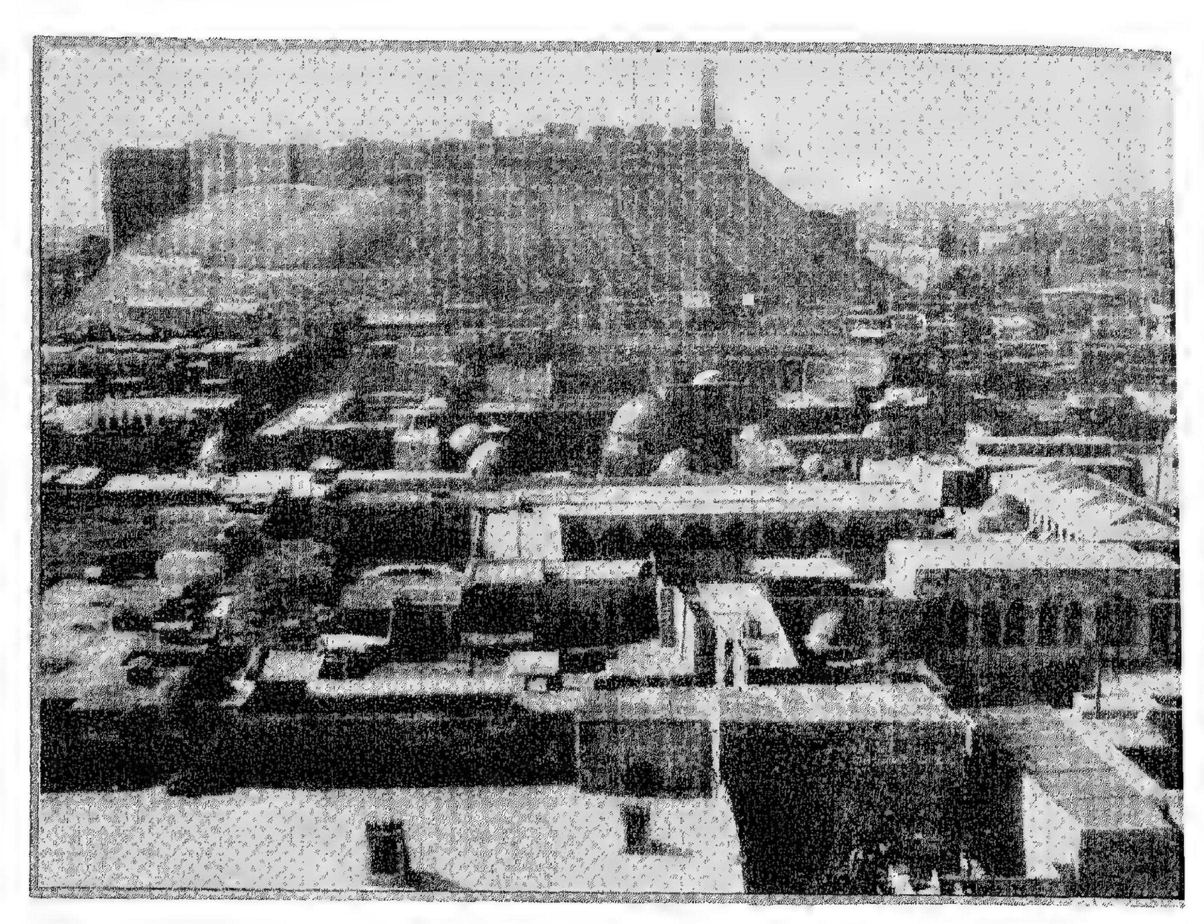
في حين أن القاهرة فقدت الكثير من المميزات بسبب هجمة التحديث وهجرة سكان الريف الى القاهرة على نطاق واسع وغلاء الأراضي عموماً بسبب التطور السريع الذي لم يعدّ له مسبقاً أو على الأقل لم يرافقه التخطيط الناجح، ومما يضفي على مدينة حلب رونقاً وبهاء هو استعمال الحجارة في بنائها وهذا تقليد استمر منذ زمن قديم حتى يومنا هذا.

تاريخ مدينة حلب موغل في القدم ولكننا لا نعرف بالضبط متى بدأ الاستيطان فيها لعدم تمكن الأثريين من اجراء التنقيبات الأثرية المنهجية بسبب امتداد الأبنية الحديثة فوق بقعة كبيرة من الأرض يزيد بكثير عن مساحة المستوطنة التي يعتقد أن مدينة حلب كانت قائمة فوقها.

ولكن قربها من نهر الفرات ووقوعها في منطقة استراتيجية تجارياً وعسكرياً وفي وسط السهول الخصبة جعل كثيراً من علماء الدراسات التاريخية يفترض أهميتها التاريخية الكبيرة، وقد تأكد هذا الافتراض بسبب الاكتشافات الأثرية الحديثة في حوض الفرات وتل رفعت وحوض نهر قويق والسفيرة وماري و(تل الحريري) وأبيلا (تل مرديخ) وكركميش وبوغاز كوى وغيرها.

في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد كانت حلب عاصمة لمملكة يمحاض الكبيرة التي كانت تسيطر على جزء هام من سوريا الشمالية ربما فاقت بقوتها قوة مملكة ماري على نهر الفرات والامبراطورية البابلية في العراق المعاصرتين لها، وكانت أبيلا (تل مرديخ) والالاخ (تل عطشانة) وابمار (مسكنة القديمة) ممالك تابعة لها. في حوالي منتصف الألف الثانية سقطت يمحاض في يد الحثيين وبذلك فقدت أهميتها السياسية ولكنها بقيت تحتفظ بأهميتها الدينية كمركز لعبادة الرب السامي (حدد) وفي مطلع الألف الأول قبل الميلاد أصبحت تابعة لمملكة أرباد الأرامية (تل رفعت) مع انها استمرت أيضاً كمركز ديني هام. بعد ذلك تناوب السيطرة عليها الأشوريون والكلدان والفرس والسلوقيون

■ د. شوقي شعث
خبير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ الجامعة العربية/ في قضايا التراث.



والرومان والبيزنطيون ثم حررها العرب المسلمون وبقيت في أيديهم حتى يومنا هذا.

معظم الآثار الاسلامية الهامة التي ما زالت قائمة في مدينة حلب هي من نتائج العصور الاسلامية المتأخرة، ففيها مجموعة من المدارس والتكايا والمساجد والبيمارستانات من العهدين النوري والأيوبي، هذه الأبنية يغلب عليها طابع المتانة ومرد ذلك روح العصر الذي قامت فيه فقد كان الأيوبيون وقبلهم النوريون مشغولين بالجهاد المقدس لتحرير البلاد الاسلامية من موجات الغزو الافرنجي القادم من الغرب، فأنفقوا معظم أموالهم في الجهاد وبناء المدارس والمساجد والبيمارستانات، أما مباني العصر المملوكي الكثيرة والمتنوعة ففيها جمال واضح غنية بالزخارف وذلك للاستقرار السياسي والتجاري الذي ساد العصر ومن أمثلتها جامع الأطروش وكذلك المباني العثمانية ومن أمثلتها المدرسة الخسروية وجامعها وجامع العادلية وغيرها الكثير من المباني.

وفيما يتعلق بتخطيط المدينة القديمة في حلب فلا يزال يحمل طابع مدينة (بيرية) الكلاسيكية، هذا الاسم حملته مدينة حلب في العهود الكلاسيكية، كان المخطط على النمط الشبكي (الشطرنجي) واذا أمعنا النظر في مخطط مدينة حلب القديمة نرى أنه لا يزال يحمل تلك الصفة رغم أن المدينة اتسعت عبر العصور عدة مرات وسورت وهدمت ورممت وبالتالي أدخل عليها كثير من التعديلات.

صيانة مدينة حلب:

الاحساس بأهمية التراث الاسلامي كان موجوداً ومرغوباً فيه وزاد من الرغبة فيه الاتصال بالغرب، ونحن نعلم أن مدينة حلب في طليعة المدن العربية الاسلامية التي اتصلت بالغرب عن طريق التجارة حيث قامت فيها عدة وكالات تجارية للبنادقة (ايطالية) والافرنسيس والهولنديين والانكليز وغيرهم، وبعد ذلك تأسست عدة قنصليات. أقبل تجار الافرنج كما

كان يسمونهم في مدينة حلب على شراء التحف والعاديات ونقلها الى بلادهم الأصلية كما أن البعثات الأثرية العربية التي كانت تعمل في سوريا وتتخذ مدينة حلب كمركز هام لها (مثل البعثة الألمانية التي نقبت في تل حلف بالقرب من رأس العين في أواخر العهد العثماني)، كل ذلك نمى الاحساس بضرورة الاهتمام بالتراث ناهيك عن أهمية الجوامع والمباني الاسلامية الأخرى بما لها من أهمية روحية في النفوس. وعندما جاء الانتداب الفرنسي لسوريا تأسست دائرة للآثار في حلب كانت تابعة للمفوضية العليا الافرنسية في بيروت ولا ننكر أن رجالها قاموا بدور في صيانة مدينة حلب القديمة. كما تأسست جمعية العاديات الحلبية من نفر من أبناء مدينة حلب — مسلمين ومسيحيين — وعلى رأسهم المرحوم الشيخ كامل الغزى، وقد ساعدت هذه الجمعية على نشر الوعي التراثي بين المواطنين.

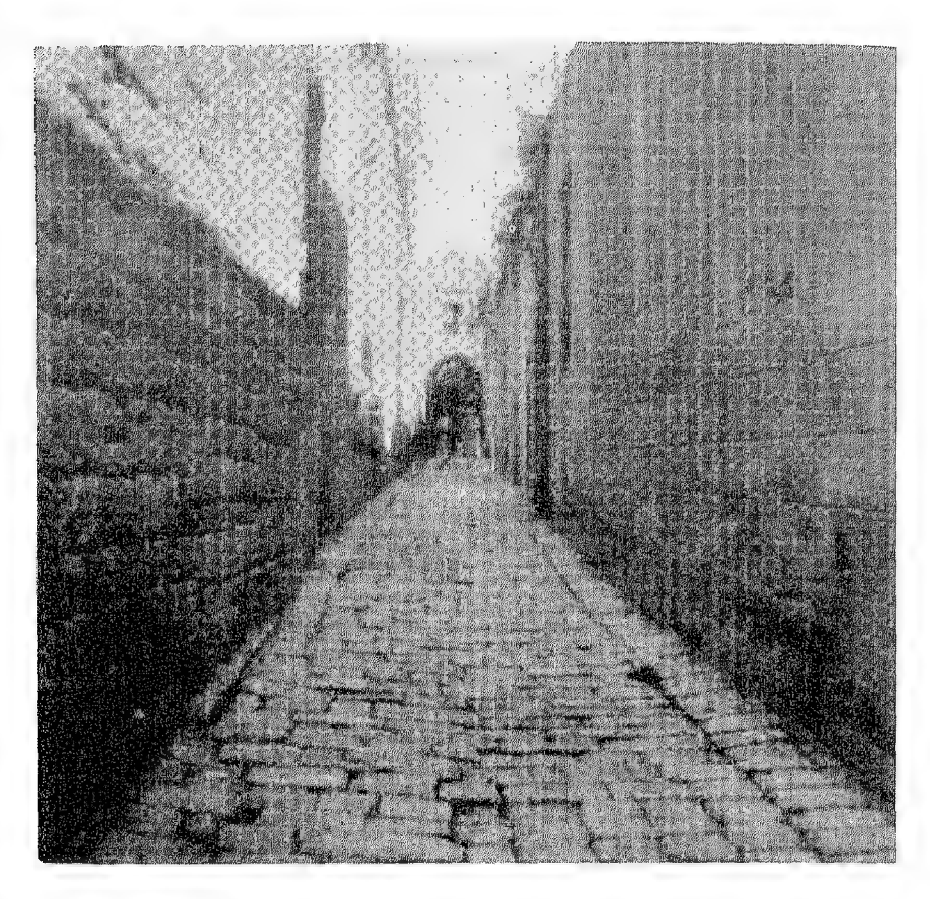
بالواقع كان أول عمل جاد في موضوع صيانة الأبنية التاريخية في مدينة حلب هو ما قام به السيد سوفاجيه الافرنسي، فقد قام بعمل احصاء لأهم المباني التاريخية ونشره، وقد تحمل الكثير من العناء في سبيل ذلك الّا أن عمله كان ناقصاً بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تمر بها مدينة حلب فسوفاجيه فرنسي وهو من أبناء السلطة الحاكمة في البلاد آنذاك ولم يكن يسمح له بدخول البيوت الحلبية كما هو نفسه لم يكن مغامراً لدرجة الدخول في الحارات والأزقة الضيقة سيما وان الوقت الذي قام به السيد سوفاجيه باحصائه كان الحجاب سائداً. هذه الصعوبات لازالت قائمة في بعض الأحيان يواجهها موظفو المديرية العامة للآثار والمتاحف، الّا أنه يمكن القول أنها اختفت بالمقارنة مع زمن سوفاجيه. أتبع سوفاجيه عمله هذا بدراسة أكثر شمولاً للمباني الأثرية في حلب وصنفها حسب عهودها ودرس عناصرها الزخرفية ونمط عمارتها وتحصيناتها، صدرت تلك الدراسة في كتاب حصل بموجبه على الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس.

هذا الى جانب ما قام به بعض المؤرخين من أبناء حلب باحصاء للمباني الأثرية في مدينتهم مع دراسات اجتماعية واقتصادية كالغزى وطباخ وطلس، ولكن لم تتوفر في تلك الدراسات وسائل البحث الحديث في صيانة المدن.

استمر هذا النهج في صيانة المباني التاريخية وقامت مديرية الآثار والمتاحف باصدار القرارات اللازمة لحماية المباني التاريخية بشكل افرادي وبمعزل عن البيئة العمرانية لها، وقد أثار هذا التسجيل مشاكل جمة لمديرية الآثار ولكنه ظلّ مناسباً وساعد على حماية كثير من المباني الأثرية الهامة. وعندما بدأت المدينة بالتوسع استقدمت بلدية حلب ١٩٥١ أحد أساتذة الهندسة العمرانية في معهد الهندسة العمرانية في باريس الذي وضع مخططاً للمدينة عرف بمخطط (كوتون) نسبة له وأرفق ذلك المخطط بمذكرة عرض فيها الأسباب التي دعته لتصور عناصره، وعلى الرغم من رغبته في العمل على تأمين توسيع المدينة البشري والاجتماعي الّا أنه رأى من اللازم أن تقدر «القيمة التاريخية لكل حي من الأحياء ولكل بناء من الأبنية» وقد أدرك أهمية أسواق حلب التجارية القديمة فأوصى باحترام موقعها الذي هدده الزمن والذي ما زال في عصرنا الحاضر كما كان قديماً وقال ما نصه «يجب أن تتخذ الطرق المؤدية الى الخانات التي تغذي الأسواق والتي هي عناصر طبيعية للتبادل بين تجار الجملة وتجار المفرق على شكل يجعلها تستفيد من الطرقات الحالية المؤلفة من أزمان بعيدة والتي تنفذ بسهولة الى داخل الجزيرات العمرانية».

ومن الأمور الهامة التي عالجها كوتون في مخططه أنه أوصى بتنسيق الأبنية الجديدة في جو الأبنية الأثرية الموجودة. فقد قال «من الواجب أن يساهم المخطط كله بانقاذ آثار الماضي واحترامها».

أساء بعض القائمين على تنفيذ هذا المخطط تطبيقه فقاموا بشق الشوارع بوسط المدينة القديمة مشوهين بذلك خان الوزير الذي يعتبر من أجمل خانات حلب وبناء المطبخ العجمي الذي يعتبر فريداً في العصر الاسلامي، وبعض البيوت الأخرى التي ضربها شارع آخر



زقاق داخلي

هو شارع السجن، كذلك وافقوا على هدم كثير من المباني القديمة والسماح بالبناء بارتفاعات عالية. وقد وقفت مديرية الآثار ومؤيدوها في وجه تلك الهجمة وقد ساعدها في وقفتها تلك بعض رؤساء البلديات والموظفين الواعين لخطورة تلك القضايا وبذلك تمكنت من انقاذ ما يمكن انقاذه من المدينة القديمة.

في ١٩٥٣ استقدمت الحكومة السورية بعثة من الخبراء بمؤازرة اليونسكو لدراسة المدن التاريخية القديمة في سوريا وسبل المحافظة عليها واحيائها وقد قدّمت تلك البعثة تقريراً جيداً نقتطف منه الفقرات التالية المتعلقة بمدينة حلب:

«يتصف نمو مدينة حلب بمنطق خاص ووحدة قوية وانسجام شديد على الرغم من التغيرات التي أحدثتها الشروط السياسية في المدينة ولم تنفك خلال العهود السلوقية والرومانية والبيزنطية من توسيع علاقاتها ونشر شهرتها فأصبحت آنئذ الحاضرة الحقيقية لسورية الشمالية وعلى حين عدت انطاكية مدينة الثقافة فان حلب عدت مدينة التجارة والصناعة والعمل».

فيما يتعلق بفن البناء في مدينة حلب فقد ورد بالتقرير «أن حلب تأتي في طليعة المدن السورية تحافظ على هذه الميزة دون اسفاف وانحطاط لأنها عرفت كيف تمزج المنطق العقلي الهندسي للمنشآت اليونانية بمفاهيم روما الضخمة».

في عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ طرحت مشكلة صيانة المدينة القديمة بشكل جدي الى جانب صيانة المناطق الأخرى خارج المدينة القديمة التي تحتاج الى صيانة. ولكن التركيز كان على المدينة القديمة، تألفت لجنة من البلدية ومن مديرية الآثار والمتاحف مكلفة بوضع دراسة للمدينة لعرضها على اللجنة الاقليمية لتخطيط المدن والقرى والتي تمثل فيها مديرية الآثار بموجب الأنظمة النافذة، وقد مثل الكاتب مديرية الآثار بوصفه آنذاك مديراً للآثار والمتاحف في المنطقة الشمالية. قامت هذه اللجنة باحصاء شامل لكثير من المباني التي لم تكن مصنفة ولم تكن

معروفة كما درست موضوع المدينة القديمة بشكل كامل واقترحت حمايتها كمركب عمراني من ادخال بعض التعديلات الطفيفة على الشوارع والساحات التي فرضتها ظروف ربط المدينة بسائر الأحياء الأخرى وظروف الدفاع المدني، عرضت هذه الدراسة على اللجنة الاقليمية للتخطيط واقرتها ثم رفعت الى اللجنة العليا للتخطيط في وزارة الاسكان والمرافق والتي تمثل فيها المديرية العامة للآثار والمتاحف وأقرت مشروع تخطيط المدينة القديمة حيث أصدره السيد وزير الاسكان والمرافق بموجب القرار الوزاري ذي الرقم ٦٥٠ والتاريخ ٢٣/٤/٧٤ ثم أصدرته وزارة الثقافة والارشاد القومي على اعتبار أنها الجهة التي تقوم بتسجيل المدن التاريخية والمباني الأثرية بالقرار رقم ١٩٣/أ تاريخ ١٦/٨/١٩٧٦ حيث سجلت بموجبه الأحياء القديمة لمدينة حلب ومنع الهدم والبناء والترميم في كافة العقارات الواقعة في تلك الأحياء الا بموافقة السلطات الأثرية ولم يعتبر القرار آنف الذكر المباني الحديثة ضمن الأحياء المسجلة عقارات أثرية الا انه منع اجراء أي تعديل في أوصافها ومنع بناءها مجدداً في حال هدمها الا بعد موافقة السلطات الأثرية، وفيما بعد عدل هذا القرار رسمياً المادة الأولى منه بالقرار رقم ٤٩/أ تاريخ ١٣/٣/١٩٧٨، من قبل وزارة الثقافة والارشاد القومي لتصبح على الشكل التالي «تسجل الأحياء القديمة في مدينة حلب الموضحة باللونين الأحمر والأصفر على المخطط التنظيمي بمدينة حلب المصدق بقرار وزارة الاسكان والمرافق ذي الرقم ٦٥٠ تاريخ ٢٣/٤/١٩٧٤ في عداد المواقع والمباني الأثرية» وبذلك أصبحت مدينة حلب القديمة داخل الأسوار مسجلة تسجيلاً أثرياً.

هذه الاجراءات تمت بشكل سريع حفاظاً على المدينة القديمة للوقوف أمام عملية التحديث الزاحف، ولم تكن هذه الاجراءات مدروسة بشكل دقيق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والفنية والتاريخية وكل ما جرى دراسة سريعة تحتاج الى اعادة نظر في أقرب وقت ممكن ليكون العمل قائماً على أسس علمية منهجية. في عام ١٩٧٦ استقدمت الحكومة السورية أحد خبراء اليونسكو لدراسة حالة مدينة دمشق القديمة واقتراح الحلول المناسبة لها من أجل صيانتها وبعد أن فرغ من دراسة المدينة زار مدينة حلب ليوم واحد وأذهله ما رأى فيها من تكامل معماري عمراني وظيفي وقد ورد في التقرير الذي وضعه حول مهمته «نظراً لجمال مدينة حلب المعماري الذي حافظت عليه عبر العصور وأنها تستحق الاعتبار الذي استحقته مدينة البندقية وفلورنسا بجعلها جزءاً من التراث الثقافي العالمي الذي يجب أن يصان» كما أثنى على الجهود التي بذلتها محافظة حلب وبلديتها ومديرية الآثار في المنطقة الشمالية والمديرية العامة للآثار والمتاحف ووزارة الثقافة والقطاعات الشعبية في سبيل المحافظة على مدينة حلب القديمة.

يمكن اجمال الاجراءات التي تمت من أجل صيانة المدينة القديمة في حلب بما يلي:

١ ــ التشريعات والاجراءات الادارية:

صدر المرسوم التشريعي رقم ٢٢٢/لسنة ١٩٦٣ المتضمن قانون الآثار وقد تضمن المواد التالية لصيانة المدن والأحياء القديمة في سوريا.

«**مادة ٨** ــ يتعين عند وضع مشروعات تخطيط المدن والقرى أو توسيعها أو تجميلها أو ما شابه ذلك المحافظة على المناطق الأثرية والأبنية التاريخية الموجودة فيها ولا يجوز اقرار هذه المشروعات الا بعد موافقة السلطات الأثرية عليها، كما لا يجوز تعديلها بعد اقرارها الا بعد موافقة هذه السلطات».

«**مادة ١٠** ــ لا يجوز للبلديات أن تمنح رخص البناء والترميم في الأماكن القريبة من المواقع الأثرية والأبنية التاريخية الا بعد الحصول على موافقة السلطات الأثرية لتضمن اقامة المباني الحديثة على النسق الذي تراه ملائماً للطابع الأثري».

وبناء عليه صدرت عدة قرارات وزارية تسجل معظم المباني الأثرية في المدينة كما صدر القرار الذي ألمحنا اليه سابقاً لتسجيل المدينة



مدخل خان كورت بيه.

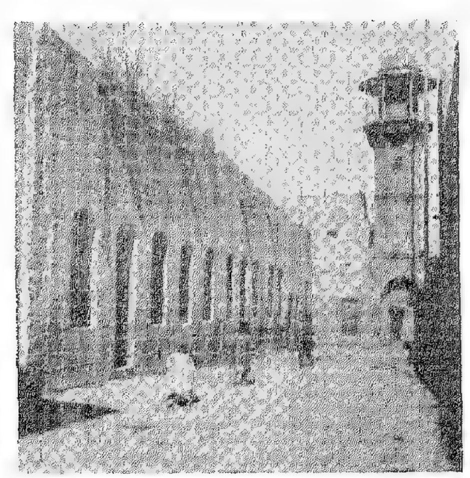
القديمة كمركب عمراني، كما وضع مشروع لنظام ضابطة البناء يحدد طبيعة البناء ومواده وارتفاعه والفتحات السماوية والواجهات فتألفت لجنة باسم لجنة المدينة القديمة للنظر في الرخص التي يقدمها أصحابها من أجل الترميم واعادة بناء الأبنية الآيلة للسقوط وكل مشاكل المدينة بشكل اجمالي.

٢ ــ المراقبة:

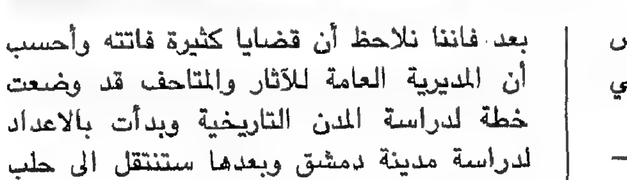
في مديرية الآثار والمتاحف بحلب جهاز لمراقبة المدينة القديمة مؤلف من عدة عناصر يقومون بالتفتيش على المدينة القديمة يسجلون كل مخالفة ويحيلونها على القضاء. في النية احداث دائرة خاصة لمراقبة مدينة حلب القديمة.

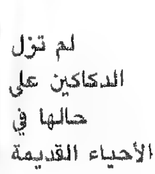
٣ ــ الترميمات:

تقوم مديرية الآثار والمتاحف بوضع برامج سنوية للترميم الى جانب الترميمات الطارئة ويشرف على الترميم مجموعة من المهندسين المعماريين، أجريت ترميمات في قلعة حلب المدرسة الظاهرية ــ المدرسة الكاملية ــ جامع الدباغة ــ خانقاه الفرافرة ومدرسة وجامع



شارع داخلي يفضي الى المسجد





لم تزل الدكاكين على حالها في الأحياء القديمة

الفردوس ــ المطبخ العجمي ــ مدرسة اشقباش البيمارستان النوري البيمارستان الأرغوني مشهد الحسين وغيرها.

٤ ــ الاستملاكات:

وضعت المديرية العامة للآثار والمتاحف خطة لاستملاك بعض المباني الهامة التي يخشى عليها من التخريب صيانة لها واعادة استخدامها في وظائف تناسبها أو في وظائفها الأصلية، فقد صدر مرسوم باستملاك بيت (أشقباش) وبيت غزالة والعقارات المحيطة بمدرسة وجامع الفردوس كما أن هناك مشروعاً لاستملاك بعض العقارات المحيطة بباب انطاكية بهدف الكشف عنه.

٥ ــ الدراسات:

كما المحنا سابقاً في هذا البحث فإن دراسة سريعة جرت من أجل دراسة المدينة القديمة وأصدار التشريعات التي تكفل حمايتها، هذه الدراسات كانت عبارة عن زيارات ميدانية ومراجعات سريعة لبعض المصادر عن المباني التاريخية ومدينة حلب القديمة بالاضافة الى المناقشات التي تمت أثناء دراسة المخطط التنظيمي لمدينة حلب القديمة، تجري الآن دراسات من قبل مديرية الآثار والمتاحف بحلب بالتعاون مع الخبير الافرنسي كلود ديفيد دراسة تتسم بالواقعية والمنطق وتتوفر فيها الشروط العلمية الحديثة. ولكن هذه الدراسات تبقى لصالح ذلك الخبير ومع أنه لم يكمل دراسته بعد فاننا نلاحظ أن قضايا كثيرة فاتته وأحسب أن المديرية العامة للآثار والمتاحف قد وضعت خطة لدراسة المدن التاريخية وبدأت بالاعداد لدراسة مدينة دمشق وبعدها ستنتقل الى حلب وغيرها من المدن السورية.

يمكننا بعد هذا العرض لحالة مدينة حلب القديمة بوجه عام والاجراءات التي تمت حتى الآن لصيانتها أن نتصور المقترحات التالية لايجاد الحلول المناسبة لصيانتها.

١ ــ البدء فوراً بوضع مخطط تنظيمي لمدينة حلب يحقق ما يلي:

(أ) المحافظة على التركيب العمراني والمعماري للمدينة القديمة داخل الأسوار والأحياء الأخرى القديمة مثل حي التل وحي الجديدة الخ..

(ب) ربط المدينة القديمة بالحياة المعاصرة لمدينة حلب وذلك بوضع خطة لادخال الكهرباء والمجاري والماء ووسائل العصر الحديث الممكنة دون احداث أي تشويه. وذلك لتشجيع الناس للبقاء فيها حتى لاتصبح مع الزمن مدينة مهجورة.

(ج) التخفيف من ضغط المواصلات بعدم اللجوء الى فتح شوارع جديدة وبالتالي منع دخول السيارات الخاصة والاكتفاء بالسماح لباصات النقل بالدخول فقط.

(د) مراقبة الكثافة السكانية في المدينة القديمة وفق تخطيط قابل للتطبيق مدا وجزراً.

(هـ) المحافظة على أهم الأوابد المعمارية والتخطيط العمراني وترك غير المهم منها

والسماح بهدمه عند الاقتضاء على أن يعاد بناؤه وفق أسلوب خاص يتلاءم مع طراز المدينة القديمة وبارتفاعات يجب ألآ تزيد عن البيئة المحيطة بها.

٢ ــ احداث دائرة خاصة بالمدينة القديمة تتولى مسح المدينة القديمة من الوجهة المعمارية والعمرانية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتوثيق تلك المسوح بوضع جداول وجذاذات علمية لها.

٣ ــ وضع سياسة لتشجيع السكان على المحافظة على العناصر المعمارية الفنية وصيانتها كلًا فيما يخصه بأن تشاركهم الدولة في نفقات الترميم أو اعطائهم القروض اللازمة دون فائدة أو بفائدة بسيطة تسدد على عدة سنوات واعفائهم من ربع العقارات.

٤ ــ ضرورة مشاركة الدوائر الأخرى التي لها علاقة بالموضوع في مسؤولية صيانة المدينة القديمة كالبلدية ومديرية الأوقاف ومديرية الأشغال العامة ومديرية الاسكان والمرافق والجامعة.

٥ ــ التوسع في استملاك المباني الأثرية المملوكة الى الأشخاص بدءاً من الأهم الى المهم كما حدث في بيت غزالة وبيت اشقباش.

٦ ــ وضع سياسة ترميم مركزية وتوحيد طرق الترميم وفق أحدث الطرق حتى يكون الترميم منسجماً وحتى لايكون لكل مرمم طريقته الخاصة، كما أنه من الضروري اختيار أنسب الطرق والمواد اللازمة للترميم، ولا بد هنا من تدريب العناصر المشرفة على الترميم وربطهم بمهنتهم.

٧ ــ وضع نظام ضابطة بشكل صارم يكفل المحافظة على المدينة القديمة بالتعاون بين مديرية الآثار وبلدية حلب.

٨ ــ وضع خطة مرحلية لاخفاء التمديدات الكهربائية والهاتفية وتمديدات المياه والتمديدات التي يمكن أن تحدث مستقبلاً في انفاق تحت الأرض لتزول تدريجياً أشرطة الهاتف المبعثرة هنا وهنالك وأعمدة الكهرباء والهاتف الخ..

٩ ــ نشر الوعي الاثاري لدى المواطنين عن طريق المنظمات الشعبية ووسائل الاعلام والمدارس والجامعات.

ان المقترحات المشار اليها أعلاه لايمكن أن تنفذ الآ اذا توفرت القناعة الكافية لدى المسؤولين في البلدية ومديرية الآثار وغيرها من الدوائر ذات العلاقة بأن مدينة حلب القديمة تراث وطني وقومي وانساني يجب المحافظة عليه بكافة الوسائل، اذا ترسخت هذه المفاهيم لدى المسؤولين الذين يتصدون لمعالجة قضايا صيانة التراث فإن الصعب سيكون سهلاً وستصبح هناك سياسة ثابتة للصيانة لاتتبدل مع تبدل مواقع المسؤولية. ■

قُدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر التاسع للآثار (صنعاء) الذي جرى بين ١٦ ــ ٢٢ فبراير ــ شباط ١٩٨٠



(أ) المراجع العربية:

(١) كوربول، عبدالحق سليم، ديللون أرماندو.
سوريا: قضايا حفظ المواقع الأثرية والأوابد التاريخية والاستفادة منها. تقرير وضع في اطار لجنة اليونسكو المؤلفة من السادة المذكورة أسماؤهم أعلاه المرسلة إلى سوريا عام ١٩٥٣. ص.٢ ــ ص٢٣.

(٢) بهنسي، عفيف.
مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية، الحوليات الأثرية السورية عدد ٢٣ ص٩ ــ ص٣٣.

(٣) بهنسي، عفيف
المدينة العربية الاسلامية ونموذجها دمشق القديمة الحوليات الأثرية العربية السورية عدد ٢٦، ج ١+٢ (١٩٧٦) ص ١٠ ــ ص٢٦.

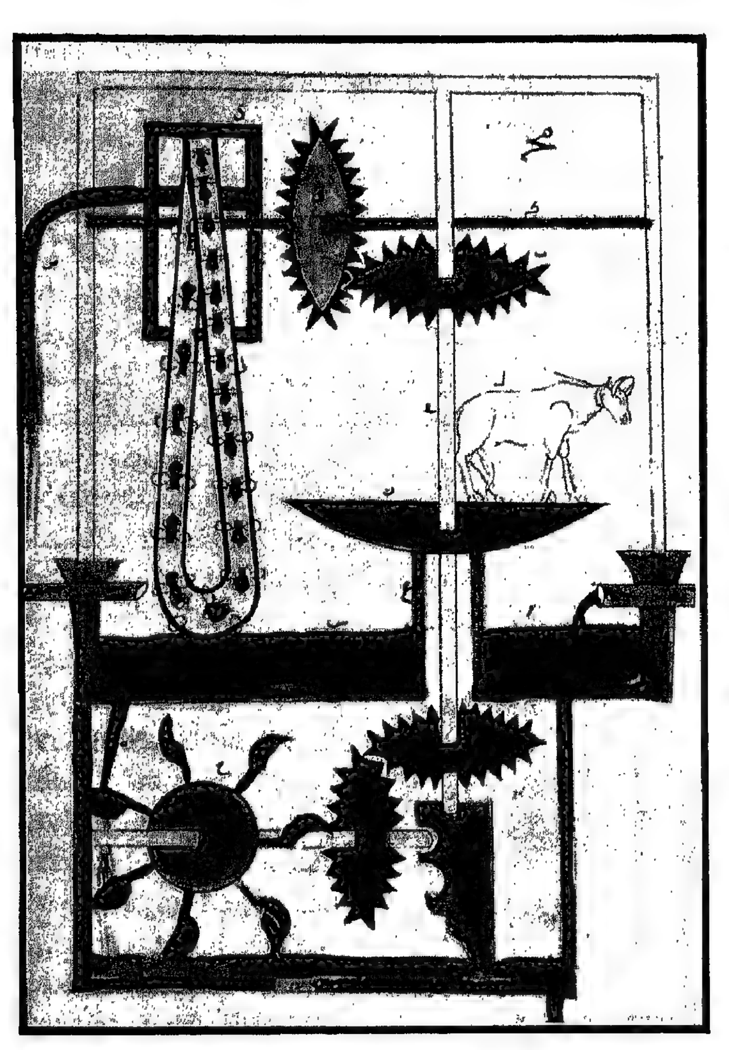
(٤) شعت شوقي.
حلب القديمة ومعالمها السياحية مجلة العمران الأعداد ٢٠ ــ ٢٢ وص٤٩ ــ ص٦١.

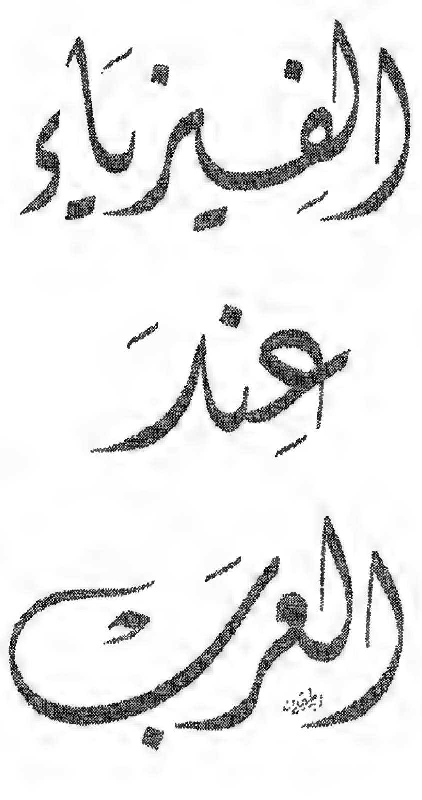
(٥) شعت، شوقي وحرتباني، محمود:
قلعة حلب دليل مختصر ١٩٧٧.
(٦) روبير، أوزويل:
فن تخطيط المدن، ترجمة بهيج شعبان ومراجعة هنري زغيب منشورات عويدات، بيروت لبنان.
(٧) صواف، صبحي:
دليل الزائر، حلب ١٩٥١.
(٨) ريحاوي، عبدالقادر:
المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية دمشق ١٩٧٢. ص ٥١ ــ ص ٥٤.
(٩) الخطيب، روحي:
تقرير عن أوضاع مدينة القدس العربية تحت الاحتلال الصهيوني.
(١٠) الأحمد، نجيب الأحمد:
تهويد القدس، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الأعلام والتوجيه القومي.
(١١) قاسمية، خيرية:
قضية القدس، دار القدس، بيروت الطبعة الأول ١٩٧٩ ص٤٧ ــ ص٦٨.
(١٢) ذو الفقار، سعيد:
التقرير النهائي للمؤتمر الثامن للآثار بالبلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مراكش ١٩٧٧ ص ٥١ ــ ص ٥٩.

هذا إلى جانب معلومات وصلتني بناء على طلبي من مديرية الآثار بالمملكة العربية السعودية حول مدينة العلا، ومن المديرية العامة للآثار بدمشق حول مدينة دمشق، كذلك وصلني من الجمهورية العربية اليمنية نسخة من تقرير اليونسكو باللغة الانكليزية حول مدينة صنعاء، سأشير إليه في المراجع الأجنبية.

(ب) المراجع الأجنبية:

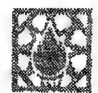
1. DAVID JEAN«CLAUD, ALEP,
Dégradation et tentative actuelles de readaptation des structures urbaines traditionnelles, BEO t. XXVIII (1975) pp. 19-50.
2. D'OSSAT GULIEMO DE ANGELIS,
Guide to the methodical study of monuments and Causes of thier deterioration, international center for the study of the preservation of cultural property, 1972.
3. SAUVAGET ALEP, 1941 BAH, texte et album.
4. ANDERSON TANFORD,
The Physical city as a socio-cultural resource social space and physical form as reciprocally related systems of conventoin, A paper for the confernce «L» espace social de la ville Arabe Tunis, 10-12 March 1979.
5. ANDARE, R.H.
The Conservation of Urban sites The Conservation of cultural property Museums and Monuments, XI UNESCO pp. 153-169.
6. WELBANK MICHAEL AND FIUEURAS JULIO,
SANA'A report to UNESCO, June 1978 published by Shakland Co & Parthership.
7. COUNCEIL OF EUROPE,
Policy for the preservation and rehabilitation, preservation and rehabilitation of groups and areas of buildings of historical of artistic interest Symposium E 1968.
8. COUNCIL OF EUROPE,
Principles and practice of active preservation, preservation and rehabilitation of groups and area of building of historical or artistic interest, symposium C 1967.
9. COUNCIL OF EUROPE,
The reviving of monument. Preservation and development of groups and areas of buildings of historical or artistic interest, symposium B.
10. The Precedings of the European conservation conference, the managment of the enviroment in tomorrow Europe, 1970.





الفيزياء عند العرب

د. منى سنجقدار شعراني



لقد اشتهر العرب بالأدب والشعر والفلسفة فكثرت الكتب والمجلات التي تغنت بالشعر والشعراء، بالأدب والأدباء، بالفلسفة والفلاسفة حتى باتت الفكرة السائدة وكأن العرب هم هواة شعر يعيشون في الخيال والتأمل ولا يأبهون للعلم والنظريات العلمية. وأخذت اللغة العربية تبرز وكأنها لغة النثر الأدبي والنظم الشعري غير قابلة لشرح نظرية علمية أو تفسير مبدأ من مبادىء الحياة لكشف أسرار الكون. فأسدل بذلك ستار أسود قاتم على ناحية مهمة أخرى في تراثنا العربي الا وهي **التراث العلمي العربي** الذي له الأثر البالغ في الحضارات العلمية للقرون الوسطى وعصر النهضة.

وهكذا بقيت الأمة العربية بعيدة أشد البعد عن تراثها العلمي وفي غفلة منه حتى قيض لها من أرشدها إليه وكشف النقاب عن خفاياه. أما هذا العمل العظيم فهو من انتاج مراكز الأبحاث المختصة بتاريخ العلوم.

ومما لا شك فيه بأن كل دولة متقدمة ومتحضرة تهتم بمثل هذه الأبحاث خصصت مركزاً أو أكثر لمتابعة دراستها في هذا المجال،

■ د. منى سنجقدار شعراني

ليسانس فيزياء من كلية العلوم ـ الجامعة اللبنانية استاذة في كلية التربية. دكتوراه من معهد الدراسات العليا في باريس. أسهمت باصدار كتاب «العلوم الفيزيائية ـ سنة أولى» الصادر عن الجامعة الأميركية ـ إدارة العلوم. اشتركت بعدة دورات تدريبية ومؤتمرات علمية في مختلف أنحاء العالم العربي.

وأعطت أولية العمل في هذه المراكز لعلماء اخصائيين في كل حقل من الحقول مع علماء مستشرقين.

في هذا الجو المفعم بالعلم والعلماء وفي هذه المراكز المنتشرة في جميع أنحاء العالم ظهرت المخطوطات العربية الأصلية والمترجمة، المنقحة والمعربة، وعلى هذا السبيل برز التراث العلمي العربي أو على الأصح قسم منه في خلال تلك المخطوطات العربية العلمية المبعثرة في مكتبات العالم أجمع، فهناك مخطوطات الفاتيكان، وبرلين، وتوب كابي، وحيدر أباد، وباريس...الخ.

أما القسم الآخر فلايزال مدفوناً بين صفحات المخطوطات الضائعة وفي ثنايا المخطوطات التي لم تحقق ولم تدرس بعد.

ان تلك المخطوطات تنتظر من يخرجها من مكمنها وينفض عنها غبار العصور والدهور بدراستها وتحقيقها. هذا مع العلم بأن مراكز الأبحاث الغربية التي كشفت لنا مزايا تراثنا العلمي واهتمت بنشره وتحقيقه وتيسيره بالفهارس وتعريف أوروبا والعالم به لاتزال تتابع مهمتها في هذا المضمار خدمة للعلم.

ومما لاريب فيه أن علماء الغرب استناروا بهذا التراث العلمي العربي الذي اكتشفوه واستعانوا به في تحليل نظرياتهم وإبراز اختراعاتهم. لذلك فقد كثرت المراجع الأجنبية التي صنفت العلماء العرب تصنيفاً علمياً بحتاً وأعطت كل عالم حقه في ميدان معين. ولكن جميع هذه الدراسات لم تف بالغرض المطلوب كما أنها لا تخلو من فجوات وأخطاء تسربت من مؤرخ إلى آخر فنسبت بذلك نظريات واختراعات إلى غير أصحابها.

وإلى جانب تلك الدراسات هناك دراسات أخرى تنكر جملة وتفصيلاً حق الأمة العربية في الاكتشافات العلمية، ولكننا لانرجع ذلك إلى سوء نية بل كله يعود إلى عدم اكتراثنا نحن العرب بهذا التراث وإلى عدم إبرازه إلى حيّز الوجود على أيدي خبراء باللغة العربية الأصلية التي كتبت بها مخطوطاتنا، حيث أنه لكل كلمة معنى ولكل نظرية أبعاد لايستطيع المستشرق كشفها لأنه لم يتلق اللغة العربية من جذورها ولم يتسنّ له الاختلاط بالشعب العربي ولامعرفة خفايا اللغة العربية خاصة الشعبية منها. وأنه غالباً مايتخلل المخطوطة كلمات فارسية وكلمات عربية شعبية تعني لكاتبها معنى بعيداً عن المعنى الذي يفهمه المستشرق المتقن للغة الصرف والنحو.

فكم من مخطوطة عربية ترجمت إلى لغة أجنبية فإذا ماقرأتها باللغة المترجمة فهمت المضمون المجمل دون التفصيل فتغيب عنك بذلك زبدة الفكر العربي، لأن المخطوطات العربية العلمية تتضمن بحد ذاتها دقة في النص وصعوبة في التعبير، وحيث أن كل كلمة تفسر ماقبلها وتضيف مفهوماً معيناً أو ترمز إلى نظرية معينة لذلك لم تف ترجمة الجملة بالغرض المطلوب بل يجب ترجمة الكلمة وهذا العمل ليس باليسير أبداً.

رغم كل ذلك فإن الفضل الأكبر في كشف النقاب عن تراثنا العلمي الضخم يعود إلى مراكز الأبحاث الغربية وإلى المستشرقين المهتمين بهذا الميدان. والجدير بالذكر بأنه ظهرت في عصرنا هذا مراكز أبحاث عربية تهتم بنشر تاريخ العلوم عند العرب فلايسعنا إلا أن ننوه بجهودها المكثفة في سبيل إحياء التراث العلمي العربي.

ان ظهور مثل هذه المراكز في الوطن العربي يبعث الأمل في النفوس ويعطي الثقة والحماس والشجاعة لمتابعة البحث والتنقيب في هذا المجال.

ففي دراسة هذا التراث واحيائه مايرشدنا إلى حقيقة تاريخية ثابتة وهي أن العرب علماء قبل أن يكونوا شعراء وأدباء، وأن انتاجهم العلمي يفوق كثيراً انتاجهم الأدبي. أما حماسنا لإحياء التراث العلمي العربي والكشف عن ذخائره وخفاياه فلا يقتصر على الاعتزاز به فحسب بل يهدف إلى اعطاء كل ذي حق حقه في سبيل خدمة العلم والبحث عن الحقيقة، لأن هذا التراث لم ينقل مباشرة من أساتذة ومؤرخين معاصرين بل تناقل على مر العصور فضاع منه ماضاع وبقي مابقي حتى أن هناك اكتشافات علمية عند العرب بقيت مدفونة واكتشفت من جديد على أيدي علماء غربيين في العصور الحديثة.

هذا وقد أثبتت جميع الأبحاث والدراسات بأن العالم العربي هو موسوعة علمية دخلت كل الميادين. فهو الفيلسوف والفلكي والرياضي، وهو الكيميائي والطبيب والمؤرخ، وهو الجغرافي والحاكم والشاعر وهو أيضاً الموسيقي والفيزيائي والهندسي.

إن كل عالم من علماء العرب لم يقتصر تفكيره على ميدان واحد بل كان يوجه اهتمامه إلى عدة ميادين، ويزرع أفكاره في جميع الحقول. ها هو الكندي الفيلسوف والفيزيائي والموسيقي، الخوارزمي الفلكي والرياضي، ثابت بن قرة مترجم وفلكي ورياضي أيضاً. الرازي صيدلي وكيميائي وفيزيائي، الفارابي الفيلسوف والموسيقى، سنان بن ثابت رياضي، فيزيائي فلكي وطبيب، البيروني الجغرافي والرياضي والفيزيائي... الخ. فإذا ما أردنا عرض جميع أسماء الأعلام العرب مع ذكر مخطوطاتهم ودراساتهم ضاقت بنا صفحات هذه المجلة.

أما مكتباتنا العربية، فإنها تفتقر إلى الدراسات العلمية البحتة وتقتصر مراجعها على تعداد مزايا العرب العلمية وذكر الحقول والميادين العلمية التي عمل بها العلماء العرب دون التعريف بالنظريات العلمية التي أوجدوها أو اقتبسوها وعللوها.

وبعد أن أقّر في المنهج الرسمي في لبنان مادة تعنى بتاريخ العلوم عند العرب ظهرت عدة دراسات في هذا المجال تشرح بوضوح أهمية الفكر العربي وتذكر تأثير العرب في جميع الميادين العلمية على الاختراعات الغربية وتعدد الحقول التي اهتموا بها ومن أي باب دخلوها. ولكن جميع هذه الدراسات تتصف بالجمود وعدم الحيوية وتبقى دراسات ضيقة وتاريخية بحتة وذلك لعدم شرح أو تفسير نظرية علمية معينة أو حتى عرضها بطريقة صحيحة لكي يتسنى للطالب فهم تطور الفكر العربي وأبعاده العلمية. وحيث أن الطالب في عصرنا الحاضر، عصر التكنولوجيا والاختراعات العلمية التي تتطور بسرعة البرق، لم يعد يكترث للتاريخ والخيال بل يهدف إلى ايجاد الحقائق التاريخية وخاصة العلمية منها. فهو مما لا شك فيه يتوق إلى معرفة تطور الفكر العربي والنهضة العلمية التي رافقت هذا التطور ومدى تأثيرها على العالم أجمع ليجد ذاته الضائعة في هذا الخضم الكبير من التقدم التقني وليعترف لنفسه أنه جدير أن يكون مبدعاً ومبتكراً كأسلافه وأجداده.

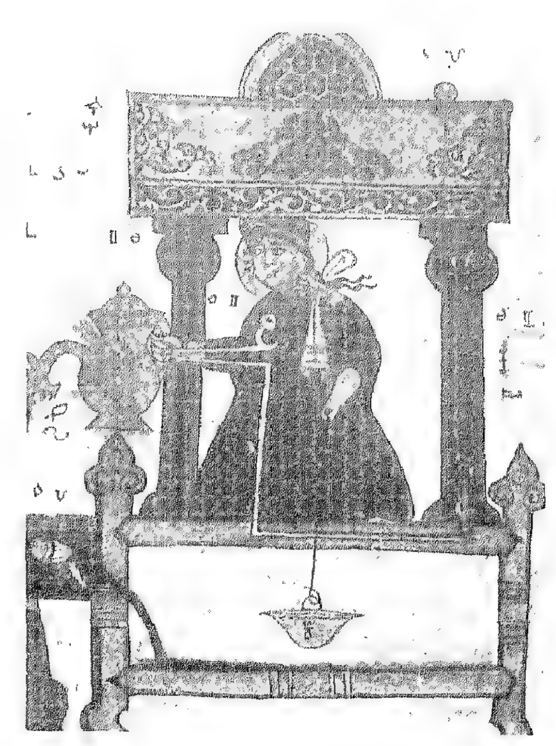
وفي هذا المجال، رأينا من الواجب علينا إرشاد الطالب العربي إلى كنزه العلمي، وذلك بدراسة بعض المخطوطات العلمية التي توفرت لنا وتحليلها تحليلاً تقنياً لكي يتسنى لنا إظهار النظريات والحقائق العلمية التي كانت نواة لقسم وفير من الاختراعات التي ظهرت في القرون الوسطى وعصر النهضة.

وعلى هذا الأساس نحاول القيام بتحقيق تلك المخطوطات وفقاً للميادين التي تنتمي إليها آملين من كل عربي أن يرشدنا إلى مخطوطات أخرى في حقول متنوعة حيث زرع العلماء العرب أفكارهم وبثوا فيها روحهم العلمية.

أما المخطط الذي سنتبعه في هذا المضمار فهو متابعة تطور كل حقل من الحقول العلمية عند العرب وفقاً للتسلسل التاريخي ضمن حقبة من الزمن تقع ما بين القرن التاسع والخامس عشر ميلادي.

ولسنا نهدف من خلال هذه الدراسات والتحقيقات بأن نظهر العالم العربي كمبدع ومفكر وخلاق أوجد كل شيء من العدم كما تبالغ بعض الدراسات بإعلان أن العرب اكتشفوا كل شيء من الصحراء المقفرة الخالية من الثمار. ان مثل هذه التصريحات مرفوض جملة وتفصيلاً، لأنه ما من وجود لأمة دون الاقتباس عن أمة أخرى، اللهم إلا أن تكون متخلفة في سلم التطور. فالأمة العربية كغيرها من الأمم تلقت الحضارات السابقة ونقلتها باخلاص ثم زادت عليها الكثير من ثمرات عبقرية أفرادها، ولم تكن تلك الأمة مجرّد جسر عبرت فوقه الحضارات القديمة لتصل إلى عصر النهضة العلمية في أوروبا بل كانت بحراً واسعاً تقاذفت أمواجه تلك الحضارات لتصقلها وتضيف إليها زبدة أفكارها وعصارة أذهانها.

والجدير بالذكر أنه ما من أمة تلقت الحضارات السابقة بقلوب مفعمة بالايمان



آلة ميكانيكية للاغتسال

وبالعلم، ونفوس متعطشة لمعرفة أسرار الكون، مثل الأمة العربية. ومامن أمة أنفقت في سبيل العلم ما أنفقه العرب في عصورهم الزاهرة.

وليعلم كل منا أن قيمة العلماء السابقين لا تقاس بمدى تأثير نظرياتهم واختراعاتهم على الانتاج الحديث، لأن حضارات عصرنا فاقت كل الحضارات وتخطت كل اكتشاف واختراع حتى بات كل ماسبق وكأنه نقطة في بحر العلوم الحديثة. ولكننا نستطيع تقييم هؤلاء العلماء بما بذلوا من جهود في سبيل البحث عن الحقيقة وما اعترض طريقهم من عقبات للوصول إليها وبمدى اخلاصهم وتفانيهم لخدمة العلم.

خلاصة القول أن الهدف الأساسي الذي نريد تحقيقه من تلك الدراسات هو ايقاظ الانسان العربي من ثباته العميق لكي يتطلع إلى المستقبل من خلال ماضيه المتحضر المنتج ولكي يجعل من هذا التراث العلمي الضخم شعلة يستنير بها في سبيل التقدم والرقي فيحذو حذو أجداده في حب الاستطلاع وكشف أسرار الكون، لأنه رغم كل ماتوصل إليه الانتاج العلمي والتقني في عصرنا، هناك ظواهر أخرى كثيرة تنتظر من يكتشف أسرارها.

فلا عيب اذن في متابعة المسيرة ولكن العيب كل العيب هو الوقوف على الاطلال والارتكاز على الأحجار دون الطموح إلى التقدم.

فمن هذا المنطلق نبدأ دراساتنا وعلى هذا الأساس نبني تحقيقاتنا.

في حقل الفيزياء

١ ـ مفهوم الفيزياء

لم يكن مفهوم الفيزياء عند القدماء كمفهومه في عصرنا الحاضر فقد كانت كلمة فيزياء (Physique) ترمز إلى علم الطبيعة أو العلم الطبيعي. كان هذا العلم يهتم بدراسة الظواهر الطبيعية لتفسيرها وتعليلها ووضع قوانينها.

وإلى جانب علم الطبيعة كان هناك علم الحيل (Mécanique) الذي يتعلق بالآلات وكيفية تسييرها. وحيث أن مفهوم الفيزياء اليوم يجمع بين هذين الحقلين لذلك فإننا سنعرض كل حقل منهما من خلال المخطوطات التي حصلنا عليها.

٢ ـ علم الحيل

(أ) علم الحيل عند القدماء (الميكانيكا)

إن كلمة ميكانيكا كلمة قديمة اغريقية الأصل (Mechane) وكانت تعني في عصر الحضارة اليونانية والرومانية القديمة كل الفنون المتعلقة بالمهارة والبراعة والحذق.

أما علم الحيل فإنه علم قديم العهد ظهر مع ظهور الإنسان على الأرض، حيث حاول الاحتيال على الطبيعة للتغلب على الصعوبات التي تعرقل حياته المعيشية. ان الفخاخ التي كان ينصبها الإنسان لصيد الحيوانات هي مثل من تلك الحيل التي استعملها الإنسان للتغلب على الحيوان. وهكذا تطور هذا العلم مع تطور الحضارات. واهتم العلماء بدراسة الأدوات البسيطة والتوسع في وجوه استعمالها وتطورها، فأوجدوا بذلك السطح المائل الذي يعد من أهم الوسائل التي تساعد على رفع الأجسام الثقيلة.

إن الأهرام وأكبرها هرم خوفو (يرجع تاريخه إلى ٤٥٠٠ سنة تقريباً) هو دليل واضح على استعمال السطوح المائلة لهذا البناء الضخم.

فبذلك نستطيع أن نرجع علم الحيل إلى الحضارة المصرية القديمة. وإذا ألقينا نظرة عامة على حضارة ما بين النهرين اتضح لنا أنه كان لديها بعض المبادىء العامة في علم الميكانيك.

أما المبادىء النظرية الأساسية في هذا المضمار فكانت من انتاج اليونان. لقد اهتم هذا الشعب الموهوب بهذا العلم وطوره رغم سيطرة الأفكار الأفلاطونية التي كان شعارها الترفع عن المستوى العملي التطبيقي لأنه يهتم بالمادة وأغراض الحياة العملية. ويجوز أن يكون أفلاطون قد سخط على أوديكسوس وأرخيتاس لأنهما قاما بتجارب في علم الميكانيك.

إن أول من اهتم بالحيل الميكانيكية هو أرخيتاس الصقلي الذي أثار غضب أفلاطون ويقال بأنه اخترع لعبة تطير، وهي حمامة من خشب، ولكنها لم تستأنف الطيران بعد أن حطت على الأرض.

أما كتسبيوس (Ctésibius) فله اختراعات عديدة في هذا المضمار فهو مخترع آلة موسيقية والتي تطورت فيما بعد إلى الأرغن المائي. كما اخترع ساعة مائية ومضخة مائية.

وهناك أيضاً معاصر لكتسبيوس فيلون البيزنطي (Philon de Byzance) الذي ترك لنا ارثاً ثميناً في الحيل في كتابه الشهير (Les Pneumatiques de Philon) الذي ترجم إلى عدة لغات والجدير بالذكر أن استخدام الميكانيكا في هذا العصر كان مقصوراً على الأغراض العسكرية أو منحصراً في ألعاب التسلية واللهو وأعمال الخفة. ولم يفكر القدماء قط في أن يتعدوا ذلك إلى ميدان الصناعة.

ومن أعلام الميكانيكا اليونان أيضاً عالم نشأ في الاسكندرية اسمه هيرون (Héron) لقد وجد قسم كبير من مؤلفاته باللغة العربية. واهتم هذا العالم كثيراً بالمسارح المتحركة وصنع أيضاً مضخة رافعة وارغناً مائياً وآلة بخارية وغير ذلك من أدوات التسلية.

(ب) علم الحيل عند العرب

لقد برع العرب في هذا العلم وطوروه وتركوا لنا ارثاً ثميناً ضخماً في هذا الميدان.

وقد بدأت دراسة العرب لهذا العلم، ــ كشأنهم دائماً ــ بالترجمة والنقل فترجموا كتب اليونان في الميكانيك وعكفوا على دراستها ووقفوا على محتوياتها وأدخلوا عليها اختراعات جديدة.

كان لهذا العلم عند العرب أبعاد كثيرة فكانوا يهدفون في تطويره إلى البحث عن جر الأثقال وتسيير الأجسام والآلات بالقوة اليسيرة، فكان لهم في هذا المجال بحوث نفيسة في الروافع وآلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية. كما كانوا يهدفون إلى صناعة الآلات النافعة والمسلية في آن واحد. لذلك فقد انتشرت عند العرب صناعة الدمى والتماثيل المتحركة والأواني العجيبة. ومن أهم العلماء الذين برعوا في هذا المضمار هو بديع الزمان أبو العز الرزاز الجزري وقد ترك لنا كتاباً أسماه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» زوده بعدد كبير من الرسوم والايضاحات المبيّنة لتركيب الدمى والآلات وأشكالها وطبيعة هياكلها. ولنا عودة مفصلة لهذا الكتاب. كذلك فقد وضع أبو عامر أحمد الأندلسي كتاباً باسم (الباهر في عجائب الحيل) يصف فيه أنواعاً من الدمى التي تتحرك بما يشبه أعمال الحواة، والتي كانت تصنع من الشمع وغيره من الخامات.

ومن أشهر الذين كتبوا في ذلك هم أبناء موسى بن شاكر وأن مخطوطتهم (كتاب الحيل) لهي خير دليل. وقد قيل بأن أحمد من بينهم كان أعجوبة زمانه في علم الحيل. فقد كان صاحب مخيلة مبدعة خلاقة.

وحيث أن بني موسى الذين عاشوا في أواخر التاسع ميلادي هم أول من طور هذا العلم لذلك فإننا نبدأ بدراسة مخطوطتهم (كتاب الحيل).

التعريف بالمخطوط

لقد وجد الباحثون ثلاث نسخ لمخطوط (كتاب الحيل) لبني موسى:

الأولى في الفاتيكان تحت رقم ٣١٧.

الثانية في توب كابي تحمل الرقم ٣٤٧٤.

والثالثة في برلين وغوطه حيث وجد قسم في برلين تحت رقم ٥٥٦٢ وآخر في غوطة تحت رقم ١٣٤٩.

وقد اطلع على تلك المخطوطات علماء غربيون فدرسوها وحللوها، أما الدراسة الوافية لتلك المخطوطة فقد كانت أخيراً للمؤرخ الانكليزي دونالد هيل (Donald Hill) والذي ظهر كتابه تحت عنوان (The Book of ingenious devices (kitab al-Hiyal) by the Banu Musa bin Shakir) وقد اعتمد في دراسته هذه على المخطوطات الثلاث. ان هذه المخطوطة تعتبر من أهم مخطوطات أبناء موسى بن شاكر لأنها تعبر بوضوح عن مدى استيعاب هؤلاء الاخوة للنظريات العلمية ومدى المهارة في تطبيقها وفقاً لأغراضهم وأهوائهم.

هذا وقد استطعنا الحصول على مخطوطة الفاتيكان. انها تحتوي على ١٧٨ صفحة كتبت بلغة عربية صحيحة تتخللها بعض العبارات أو الكلمات الفارسية الأصل كما هو معروف عن مخطوطات بني موسى، أما أسلوب النص فهو مميز عند هؤلاء الاخوة حيث تتردد عبارات طالما وجدت في مخطوطاتهم كعبارة (نريد أن نبين) وأخرى (وذلك ما أردنا أن نبين). لقد عرض أبناء موسى بن شاكر في تلك المخطوطة وصفاً كاملاً ومتكاملاً لحوالي مئة تركيب ميكانيكي مع صور تتبع الوصف بعضها واضح جلي والبعض الآخر غامض لا يفهم منه شيء. أما صعوبة فهم المخطوط فإنها تكمن في الجمل المتلاصقة وعدم وجود نقاط الأبجدية في مراكزها. ولكن أسلوب بني موسى المتبع بالوصف سهل لنا مهمة فهم المخطوطة بكاملها. إذ أنهم كانوا يعتمدون في جميع تلك التركيبات على مبدأ موحد في الوصف لذلك فإن العبارة تتكرر عدة مرات في وصف آلات مختلفة فيسهل فهمها.

أما هذه المخطوطة فإنها تضم وصفاً لأباريق تفرغ من ذاتها كميات من الشراب، تعقب كل كمية منها فترة استراحة محددة، وآلات تمتلىء بالسوائل وتفرغها تلقائياً، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائياً ويصب فيها الزيت دائماً. وهناك وصف لأجران تشرب منها الحيوانات. وآلات مصوتة تنطلق منها أصوات معينة كلما ارتفع مستوى الماء إلى حد معين. وغيرها من الآلات العجيبة التي لا تخطر ببال، لقبها المؤرخون العرب لقباً واحداً هو: «الآلات الروحية.

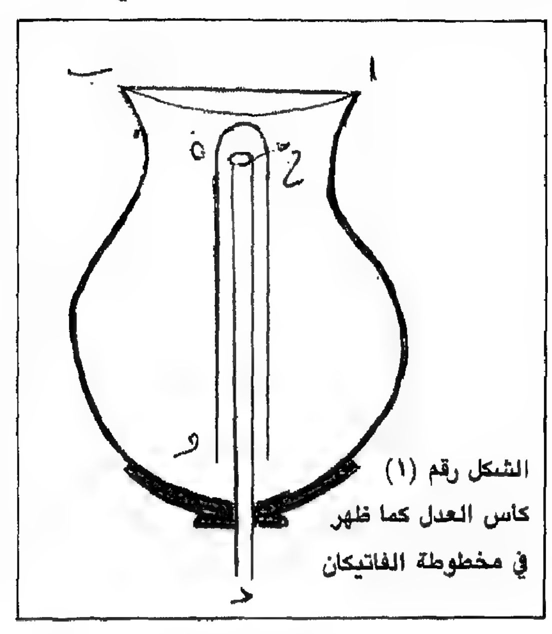
وحيث أنه يتعذر علينا دراسة جميع تلك التركيبات الميكانيكية فإننا قد عمدنا إلى اختيار بعض النماذج التي تفسر بوضوح عمق تفكير هؤلاء الاخوة.

النموذج الأول

يستهل بنو موسى مخطوطتهم بوصف المضخة المائية التي دعيت عند العرب باسم كأس العدل. والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من تركيباتهم لا يخلو من وجود كأس عدل فيه.

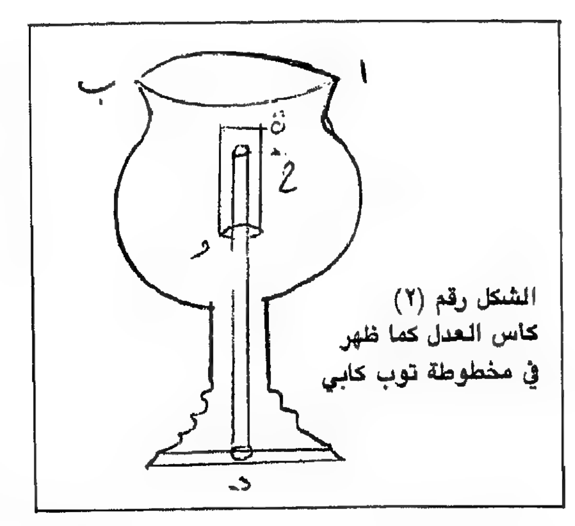
لقد وصف بنو موسى كأس العدل وكيفية عمله كما يلي:

نريد أن نبين كيف نعمل كأساً يصب فيه مقدار من الشراب أو الماء فإذا زيد عليه بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه.



الشكل رقم (١)
كأس العدل كما ظهر في مخطوطة الفاتيكان

مثال ذلك كأس(آب) ونعمل فيه أنبوب (دح) وطرفه الذي عليه (د) ملصق بأسفل الكأس والطرف الآخر الذي عليه (ح) يكون في أعلى الكأس ونعمل أنبوباً آخر عليه (هو) ويكون خلافاً لأنبوب (حد) ويكون طرف (ه) مسدوداً وطرف (و) مفتوحاً قريباً من أسفل الكأس فقد يبين مما وصفنا أنه إذا صب الشراب في كأس (آب) لا يزال يرتفع فيه ولا ينصّب منه شيء حتى يبلغ إلى علامة (ح) التي هي في طرف أنبوب (دح) فإذا زيد عليه من الرطوبات بقدر

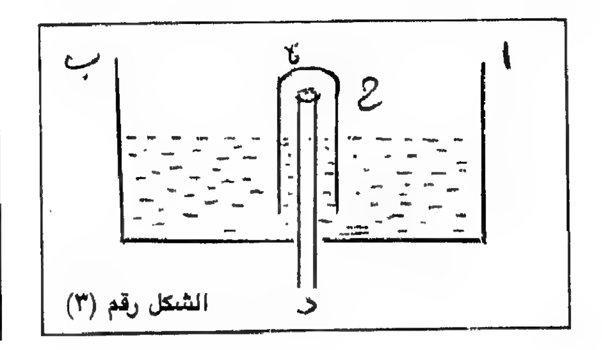


الشكل رقم (٢)
كاس العدل كما ظهر
في مخطوطة توب كابي

مثقال يسيل الشراب من أنبوب (حد) وخلف بعضه بعضاً حتى يتفرغ كل شيء من الكأس لأن طرف أنبوب (حد) الذي عند (د) أسفل من طرف أنبوب (ة) الذي عليه (و) ولأن المواد السائلة طبعها أن تنحدر فلذلك نبين أنه إذا صب في كأس (آب) المقدار الذي هو إلى نقطة (ح) ثم يزاد منه مثقال فإنه يصب كل شيء فيه إلى خارج من أنبوب (آد) وذلك ما أردنا أن نبين. (راجع الشكل رقم ١ و٢

التفسير العلمي للنموذج الأول

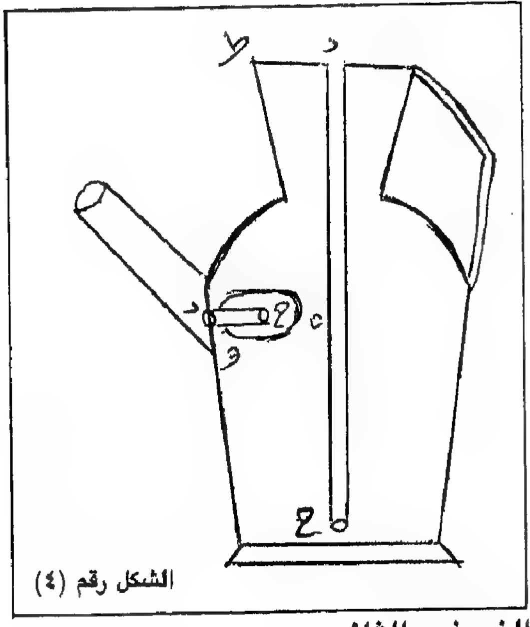
عندما نصب الماء (آب) يرتفع الماء داخل الوعاء الصغير المقلوب (هو) ويبقى سطح الماء مستوياً وعلى نفس الارتفاع في الوعاءين طالما أن هذا المستوى لا يعلو طرف (ح) من أنبوب (دح) وذلك يتبع نظام الأوعية المتصلة. أما بالنسبة للهواء المحجوز داخل وعاء (و) فإنه ينحصر في أعلى الوعاء فيزيد بذلك ضغط الهواء في الداخل. وعندما يعلو مستوى الماء فوق طرف (ح) يكون



الشكل رقم (٣)

طرف (د) المفتوح معرضاً للضغط الجوي فقط فتنساب أول نقطة ماء من هذا الطرف وبانسيابها يصبح الضغط داخل وعاء (هو) أخف قليلا من الضغط الجوي. وبفعل هذا الضغط تنزل كمية الماء الموجودة في وعاء (آب) لتدخل في وعاء (هو) وتخرج من أنبوب (حد).

وحيث أن بني موسى لم يتعرضوا لأي تفسير علمي نستنتج من ذلك بأنهم اعتمدوا على التجربة معتمدين بذلك على المعلومات النظرية التي اقتبسوها عن اليونان.



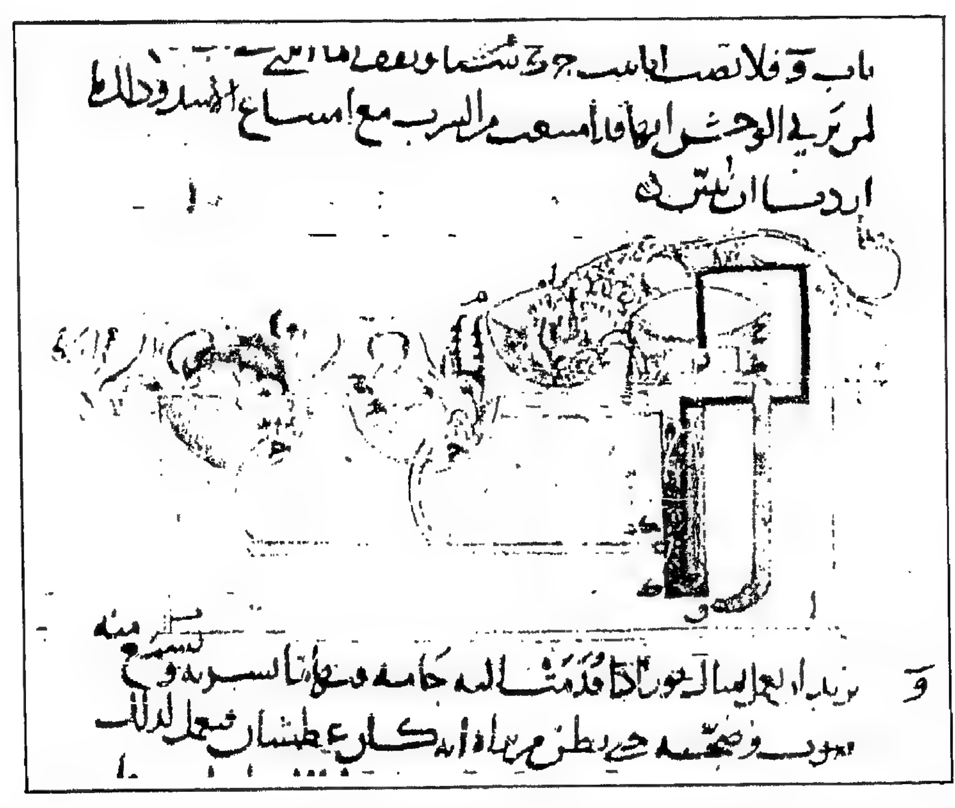
الشكل رقم (٤)

النموذج الثاني

نريد أن نبين كيف نعمل ابريقاً إذا ملىء لا يمكن أن يتوضأ به أكثر من واحد. ويصف بنو موسى الابريق المبينّ بالشكل (٤).

مثال ذلك ابريق (آب) ويلصق على رأسه صفيحة (طد) وتثقب في وسطها ثقب (ذ) ونعلق بهذا الثقب وفي داخل الأبريق أنبوب (ةذ) ينتهي في أسفل الابريق. ثم نعمل داخل الابريق كأس العدل كما وصف في النموذج الأول. ويكون على الأنبوب الذي في الداخل (حد) وعلى الخارج (ةو) ونلصق طرف (د) من أنبوب (حد) على المثقب الذي يخرج منه الماء فيتبين مما وصفنا أنه إذا صب الماء في ابريق (آب) ومن ثقب (د) يجري في أنبوب (د) إلى داخل الابريق ويخرج الهواء من أنبوب (حد) فإذا بلغ الماء

الشكل رقم (٥)



إلى أنبوب (ح د) وغطى طرفه الذي عليه (ح) فعند ذلك يمنع ابريق (آ ب) أن يقبل شيئاً من الماء فإذا توضأ من الابريق صب أنبوباً (ح د ه و) الماء كما فعلا في الكأس فإذا ما رده المتوضىء يفرغ ما في أنبوب (ه و) من الماء فإذا أراد أن يتوضأ آخر وقلب الابريق ليصب منه كالعادة فإنه لاينصب منه شيء لأن الماء الذي فيه لايبلغ طرف أنبوب (ح د) الذي عليه وذلك ما أردنا أن نبين.

وهكذا يحتال بنو موسى في وضع كأس العدل في جرار ويصفون عدة نماذج منها:

النموذج الخامس في المخطوطة

أما في النموذج الخامس فينتقل بنو موسى إلى حيلة أخرى أكثر تعقيداً من الأباريق فنستمع إليهم:

نريد أن نعمل تماثيل من الوحش يصب لها الماء في جامات فلا تشرب منه ومعها تمثال أسد فإذا صب للأسد الماء في الجامة تشرب ويشرب الوحش كلها من الماء الذي في جاماتها حتى انقطع شرب الأسد لاتشرب الوحش فإذا شرب الأسد ثانية شرب الوحش معه وهكذا لايزال مثال ذلك: (راجع الشكل رقم ٥)

فنعمل لذلك قاعدة شبيهة بالصندوق عليها (آ ب) ويركب عليها جامات عليها رسوم (ج) ويجعل حروف الجامات ملصقة بسطح قاعدة (آ ب) وتعمل أنبوب (د ه) ويكون غلظه قدر اصبع ونلصق طرفه الذي عليه (ه) بسطح قاعدة (آ ب) ونعمل على طرف (د) باب مطحون عليه (و) شبيه بالذي عملنا قبل هذا عليه (و) ويكون انفتاحه إلى فوق ويخرج من طبقه عمود ينفذ سطح قاعدة (ب) ويلصق بدبة (ذ) ودبة (ذ) في حوض صغير عليه (ح ط) ويكون أسفل الحوض مع سطح قاعدة (آ ب) ملصق به ويثقب في أسفل الحوض ثقب ضيق عليه (ط) يصب إلى قاعدة (آ ب) وليكن إذا صب الماء في حوض (ح ط) يفيض من حرف (ح) إلى قاعدة (آ ب) ونعمل أنبوب (ي ك) يكون طرفه الذي عليه (ك) في ثقب في أسفل حوض (ح ط) وطرف (ي) ملصق في فم الأسد وليكن حوض (ح ط) مستوياً في جوف الأسد كما يكون مستوراً لايرى وخرج من أنبوب (د ه) من موضع (س) أنابيب عليها

(سَحَ) تنفذ في داخل الوحش ويجعل أطرافها التي عليها رسوم (حَ) مع أسفل جامات (حَ) ملصقة في أفواه الوحش. فقد يبين مما وصفنا أن الماء إذا صب للوحش في جاماتها وملئت لا تشرب الماء لأن الباب المطحون الذي عليه (قَ) مطبق ولا سبيل للماء أن يخرج إلى قاعدة (آبَ) فعند ذلك يخيل لمن يرى الوحش أنها امتنعت من الشرب فإذا صب للأسد ماء في جام (تَم) حتى يعلو أنبوب (ىَكَ) المنعطف الذي في حلق الأسد ويصبه إلى حوض (حَطَ) ويخيل لمن يرى الأسد أنه شرب وبنزول الماء إلى حوض (حَطَ) يرفع دبة (ذَ) ويفتح طبق الباب الذي عليه (قَ) ويصب أنابيب (حَسَ) في قاعدة (آبَ) ويخيل لمن يرى الوحش أنها قد شربت مع شرب الأسد فإذا انقطع شرب الأسد يفرغ حوض (حَطَ) من ثقب (طَ) وبنـزول دبة (نَ) ينطبق باب (قَ) فلا تصب أنابيب (حَسَ) ويقف الماء الذي في الجامات فيخيل لمن يرى الوحش أنهما قد امتنعت عن الشرب مع امتناع الأسد.

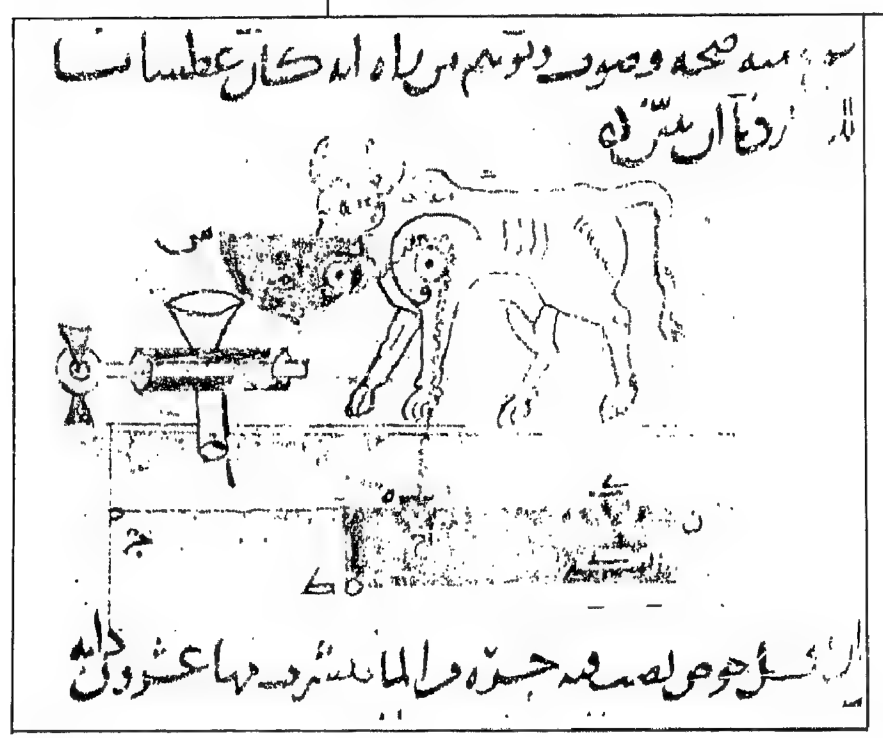
وذلك ما أردنا أن نبين.

التحليل العلمي للنموذج الخامس

حيث أن الشكل الوارد في المخطوط غير واضح تماماً لذلك عمدنا إلى بلورته في الشكل التالي: (الشكل رقم ٦)

الشكل رقم (٦)

يتضح مما تقدم أنه عندما نصب الماء في وعاءين (جَ وَحَ) يتجمع الماء في هذين الوعاءين وليس له مخرج لأن الفتحة (دَ) مغلقة، أما إذا صب الماء في وعاء الأسد فإنه ينساب إلى الوعاء (حَ) الآخر الذي في بطنه لأنه يتصل به بأنبوب



الشكل رقم (٧)

مفتوح الطرفين وحيث أن الوعاء (ح) يحتوي على دبة أي (عوامة) فهذه تعلو مع كمية الماء وبارتفاعها تفتح الباب (ق) فعند ذلك يفرغ الوعاء (ج) وكذلك (خ). أما الوعاء (ح) فإنه يفرغ من الأنبوب المخصص له والمتصل بالصندوق.

في هذه الحيلة يعتمد بنو موسى على احدى قوانين (الهيدروستاتيك). الذي يفسر قوة ضغط الماء المتجهة من أسفل إلى أعلى. ومن هنا نستنتج بأن بني موسى يعتمدون في حيلهم على المبادىء العلمية الصحيحة وأن انتاجهم ليس وليد الصدفة أو التجربة فقط بل مبني على أسس علمية متينة.

النموذج السادس

في هذا النموذج يتعدى بنو موسى حركة السوائل إلى حركة الهواء فيصدر عن ذلك أصواتاً. أما ما قاله بنو موسى في هذا المجال فهو التالي: (الشكل رقم ٧)

نريد أن نعمل تمثال ثور إذا قدمت إليه إجانة فيها ماء شربه وسمع له صوت وضجة حتى يظن من يراه أنه كان عطشاناً. فنعمل لذلك قاعدة شبيهة بالصندوق محكمة كما لا يدخلها الهواء. عليها (ﺣ ﺏ ﺣ ﺩ) ونقطع ارتفاعها نصفين بسطح (ﺣ ﺏ) ويخرج من سطح (ﺣ ﺏ) أنبوب (ﻫ ﺣ) يصب في حوض في قاعدة (ﺣ ﺏ) عليها (ﺫ ﻃ) وليكن في أسفله ثقب صغير عند نقطة (ﻃ) ونعمل في حوض (ﺫ ﻃ) دبة عليها (ﻯ) ويخرج منها عمود يلتصق بطبق باب مطحون ينفتح إلى فوق عليه (ﺁﻙ) ونلصقه على سطح (ﺣ ﺏ) ونلصق أيضاً على طرف (ﻫ) من أنبوب (ﻫ ﺣ) في سطح (ﺣ ﺏ) باباً ينفتح أيضاً إلى فوق عليه (ﻫ) ويخرج من طبقة سلسلة تمر في يد الثور القائم على قاعدة (ﺁﺩ) ويجري على بكرة في جوفه عليها (ﻕ) ويمد أيضاً السلسلة إلى بكرة أخرى ليجري عليها في داخل خطم الثور عليها (ﺩ) ونعلق السلسلة بدبة في خطم الثور عليها (ﻡ) ويصب الماء في قاعدة (ﺁﺏ) الأعلى في بتيون محكم عليه(ﺁ)ويعلق حتى لا يدخل منه الهواء إلى قاعدة (ﺁﺏ) ولا يخرج، فقد يبين مما وصفنا أنه إذا قدمت أجانة (ﻥ ﺱ) وهي مملوءة ماء إلى الثور ليشرب ونغمس خطمه فيها حتى يغيب شداقه في الماء ترتفع دبة (ﻡ) وجذبت السلسلة التي على بكرتي (ﺁﻭ) وينفتح طبق (ﻫ) ويسيل الماء إلى القاعدة (ﺣ ﺏ) في حوض (ﺫ ﻃ) وترتفع دبة (ﻯ) وينفتح أيضاً باب (ﺁﻙ) حتى ينزل الماء بقوة وكثرة من قاعدة (ﺁﺏ) إلى قاعدة (ﺣ ﺩ) ويخرج الهواء من ثقب (ﺣ) ومن أجل أن قاعدة (ﺁﺏ) إذا نزل منها الماء احتاج إلى شيء يخلفه فيها إلا خطر أن ينحدر الماء الذي في الأجانة (ﻥ ﺱ) ويجري في داخل الثور وينزل في يده إلى قاعدة (ﺁﺏ) وينبغي أن نعمل في هذا المجرى الذي في داخل الثور شبه الدرج ليكون الماء إذا جرى عليها يتعثر بها ويسمع منه ضجة وصوت ويوهم من يراه أنه كان عطشاناً وذلك ما أردنا أن نبين.

تحليل النموذج السادس

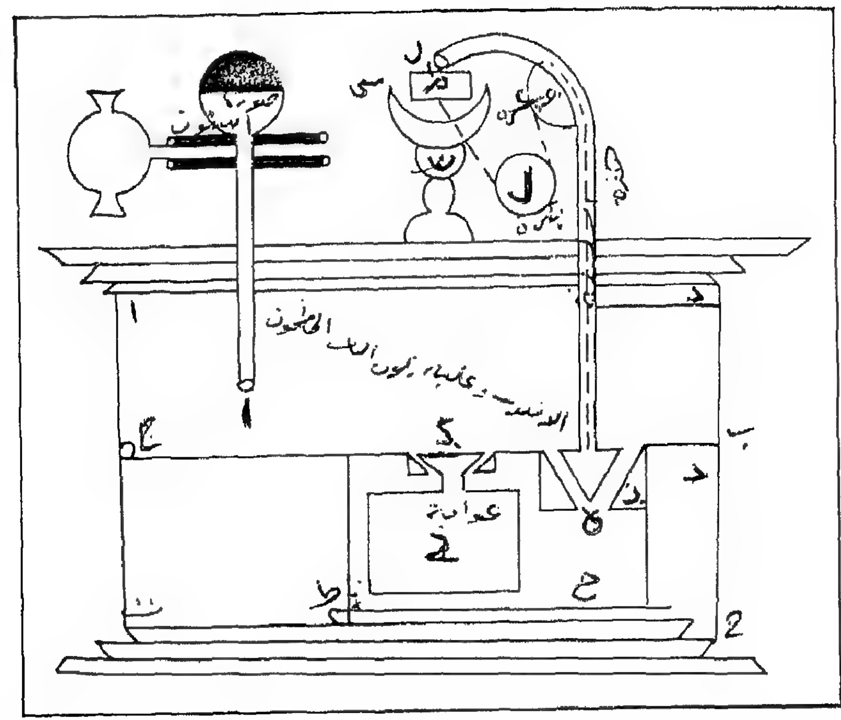
حيث أن الوصف معقد نسبياً نشرح فيما يلي كيف يشرب الثور وكيف نسمع له صوتاً وضجة.

ان القاعدة التي يرتكز عليها الثور هي محكمة الاغلاق وقد قسمت حسب ارتفاعها إلى قسمين متساويين فأصبح لدينا القسم الأسفل (ﺕ ﺣ ﺕ ﺝ) والقسم الأعلى (ﺁﺩ ﺏ ﺝ).

لقد ركز في سطح القسم الأعلى بيتون (حنفية) لتفريغ الماء إلى داخل هذا القسم. ويجب أن تكون تلك الحنفية محكمة الاغلاق كي لا يتسرب منها الهواء.

أما القسم الأسفل فقد ركز في داخله وعلق بسطح (ﺏ ﺝ) حوض (ﺫ ﻃ) وهذا الحوض يحوي دبة أي (عوامة) أو (فواشة) تنتهي إلى طبق (ﺏ ﺝ) بباب مطحون (Soupape)ينفتح إلى أعلى عندما تعلو الدبة حسب ضغط الماء.

ومن جهة أخرى ثبت في طبق (ﺏ ﺝ) أيضاً وداخل الحوض (ﺫ ﻃ) أنبوب طويل يخترق القسم الأعلى (ﺁﺩ) لينتهي إلى داخل جسم الثور. أنظر الشكل رقم (٨) وهنا لم يفسر بنو موسى مجرى الماء إلى داخله ولكن من المفروض أن يكون هذا الأنبوب ينتهي إلى خطم الثور. ويوجد داخل هذا الأنبوب سلسلة يثبت طرفها الأسفل في طبق الباب المطحون (Soupape)




الشكل رقم ٨

المعلق في سطح حوض (دَ طَ). وتكون هذه السلسلة مشدودة ببكرتين ويكون الطرف متصل بدبة (مَ).

كيف تعمل هذه الحيلة

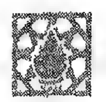
عندما نصب الماء إلى القسم الأعلى من الصندوق وذلك منبيثون (آ) فإن الماء يتجمع في هذا القسم وليس له مخرج. ولكن عندما نقدم إلى الثور وعاء (نَ سَ) فيه ماء ونغمس خطم الثور به ترتفع الدبة المثبتة في خطمه فتجري بذلك السلسلة على البكرتين وتفتح طبق الباب المطحون (ةَ) فينحدر حينئذ الماء من القسم الأعلى للصندوق إلى حوض (دَ طَ) وحيث أن هذا الحوض يحتوي على دبة فإن الماء يرفع الدبة فتفتح الباب المطحون الثاني بهذا تقوى قوة اندفاع الماء إلى حوض (دَ طَ) وحيث أن هذا الحوض ينتهي في أسفله في ثقب (طَ) فإن الماء يجري بقوة إلى القسم الأسفل من القاعدة الأساسية.

أما هذا القسم الذي كان ممتلئاً هواء قبل وجود الماء وحيث أن الماء يطرد الهواء الذي في داخله فإن الهواء يخرج بقوة من الثقب (جَ) في أعلى القسم فيسمع بذلك صوت.

وأما الضجة فإنها تأتي من الماء الذي ينحدر داخل الأنبوب حيث يتعثر بالسلسلة الموجودة داخله وذلك عندما نغمس خطم الثور في الماء يطرد الهواء ليحل الماء مكانه فتسمع بذلك ضجة أيضاً.

يتضح مما تقدم بأن هؤلاء الاخوة كان لهم عمق في التفكير ودراية كافية في المعلومات وفن تقني يفوق كل خيال، وأن حيلهم هذه ان مادلت على شيء فإنها تدل على مدى ارتفاع مستوى ثقافتهم العلمية حتى أنهم أصبحوا يحتالون على العلم وفقاً لرغباتهم فأصبح العلم ليناً في عقولهم يضحبهم في جميع مجالاتهم الحياتية. وأن حيلهم هذه تنم عن ذكاء وقاد وخبرة عميقة في القوانين العلمية.

هذا واننا نكتفي بهذا القدر من النماذج علنا نستطيع في دراسات مقبلة من عرض نماذج أخرى. ■



الإيلاف القرشي

بحث في التكوين الاقتصادي المكي قبل الإسلام

٢٢ ت تاريخ العرب والعالم



كان الانتاج الاقتصادي رهين البيئة الحجازية بكل تفاصيلها، حيث عاش السكان الأوائل، مفروضا عليهم تكيف غير محدود مع الجفاف ونمط خاص من الحياة الاجتماعية. فهنا يتداخل التحضرّ مع البداوة وتتشابك المصالح عند نهاية خطّ موحد، ليؤلفا معا ظاهرة حضارية متميزة. ولذلك فانه من العسير جداً تتبع هذه الحقبة المتقدمة من تاريخ الحجاز غير الاسلامي، بمعزل عن حركة التجارة العالمية، المتزامنة مع نهوضه، تلك التي عرفت بتجارة الشرق ومواصلاتها بطريق الهند[١]، الذي طالما توجهت اليه انظار الدول الكبرى المتعاقبة في التاريخ، وطمحت الى ادخاله في دائرة نفوذها السياسي والاقتصادي.

واذا اردنا ملاحقة منابع السلع الرائجة التي تحكّمت بالسياسية الاقتصادية العالمية انذاك ــ تحكم سلع أخرى في عصور أخرى، تحظى بالأهمية «الاستراتيجية» نفسها ــ سنجد عدة مصادر ذات طابع شبه تخصصي، كالحرير في الصين والتوابل في الهند، حيث كان التجار الشرقيون يستوردون هاتين السلعتين. فضلا عن خشب الصندل (الصين ايضا) من سوقها الرئيسي في سيلان (سرنديب)[٢]. اما المادة الاخرى المهمة، فهي البخور التي كان مصدرها حضرموت في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية، عبر «ساحل البخور» المحاذي لها. ولقد حملت هذه البضائع منذ العصر الروماني، ثلاثة معابر متفاوتة الأهمية: الاول، كان يمثّل الطريق الاحتياطي للرومان ثم البيزنطيين، في الوقت الذي تضطرب فيه العلاقة مع العدو التقليدي (الفرس)، الذي يسيطر على معظم امتداده ويتحكّم بمساره، حيث ينتشر في الشمال عبر اسيا الوسطى الى بحر الخزر فالبحر الاسود على تخوم امبراطورية الرومان. ولكن هذا الطريق كان على جانب كبير من التعقيد والخطورة، ومن ثم كان غير اقتصادي بالنسبة للتجار الذين لجأوا عند استخدامه الى رفع الاسعار، تغطية «للتكاليف المرتفعة، على نحو ما يحدث عادة ابان فترات الاضطراب السياسي والعسكري التي تهدد الطريق التقليدي للتجارة»[٣].

والطريق الثاني امتد الى الجنوب منه، عبر بلاد الصغد حتى اسيا الصغرى أو الخليج الفارسي، حيث كان اقدم الطرق وأكثرها سهولة واجتذابا للتجار. ولكنه غالبا ما تأثر بظروف الصراع التقليدي بين الدولتين الفارسية والرومانية ثم البيزنطية، خاصة وان الجزء الرئيسي منه يمر في الاراضي الخاضعة للدولة الأولى[٤].

أما الثالث، فكان بحريا يعود الى ايام البطالمة، الذين اهتموا بالتجارة الشرقية وعملوا على استغلال الموقع الجغرافي لدولتهم بين البحرين الأبيض والاحمر[٥]، لتكون مصر المركز الرئيسي للتبادل التجاري في المنطقة، وهو يمتد من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر. ولقد ظلّ هذا الطريق ابان العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية، خاصة في عصر النفوذ الروماني، حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب، وذلك حتى بدايات القرن السادس الميلادي[٦].

على أنه تجدر الاشارة الى ان المواصلات البحرية، لم تكن الوسيلة المفضلة لدى التجار في ذلك الوقت[٧]، اذ اعاقها من عوامل الطبيعة السلبية والتطور التقني المحدود، ما جعل المواصلات البرية تمتلك زمام التفوق، لسهولة اجتيازها وسلامة محطاتها خلافا للاولى. ويمكن القول ان الطابع العام للتجارة كان بريا في الغالب، حيث التاجر يجذبه الربح الوفير، انّى كان مصدره ويتوسل الامان لامواله، كقاعدة تاريخية لا تخضع للتغيير.

وكانت اهمية البحر الاحمر في الحقيقة، مرتبطة بالقوى المسيطرة على مصر، بدءا بالبطالمة الذين طمحوا الى اتخاذه منطقة نفوذ خاصة بهم. ولقد اسهم هؤلاء في تنشيط حركة

■ د. ابراهيم بيضون
استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية ــ استاذ مشرف في قسم الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية ــ استاذ التاريخ الأندلسي في الجامعة العربية وعضو الهيئة الادارة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

الملاحة فيه، بواسطة ملاّحين وتجار من اليونان، كان لهم قصب السبق في هذا المضمار. وثمة نصّ قديم[8] يعود الى النصف الاول من القرن الثالث ق.م، وذلك في معرض الاشارة الى دور العرب الجنوبيين في تجارة البحر الاحمر، التي كانت على ما يبدو مزدهرة حينذاك وفي منجى من غزوات القراصنة المنتشرين على سواحله الشرقية بصورة خاصة، وهي خالية في الغالب من المرافئ الآمنة. على أن الدور البارز الذي شغله هذا البحر في التجارة العالمية، انما يعود الى أيام الرومان، حيث مثّل حلقة اساسية في المواصلات بين الشرق والغرب[9]. ويبدو أن هؤلاء الذين شكلوا القوة الامبراطورية الاعظم في ذلك الحين، تطلعوا بدورهم الى السيطرة على المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة والوصول منها الى سواحل الخليج والمحيط الهندي، بحيث تصبح شرايين التجارة الشرقية في قبضتهم، بما يرافق ذلك من تهديد واضح للنفوذ التقليدي الذي كان يمارسه الفرس في هذه المنطقة. ولقد تبلور هذا الاتجاه خاصة، بعد سيطرة الرومان على دولة الانباط، وانشاء الطريق الذي يصل ميناء أيلة بدمشق عبر البتراء وبصرى في الشام[10].

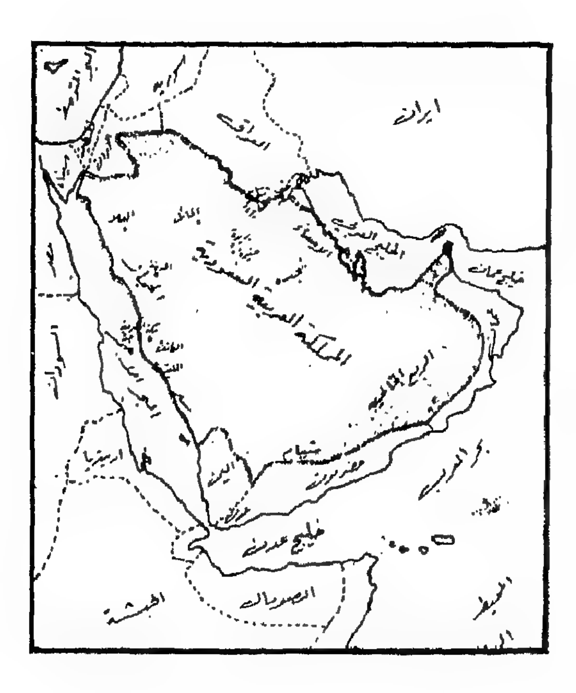
ولكن مياه البحر الاحمر، لم تكن بكاملها صالحة للملاحة، أو على الاقل مشجعة للتجار على ارتيادها بصورة دائمة حتى في زمن التفوق الروماني، وذلك بسبب مجموعة من المعوقات، لم يكن من السهولة تذليلها أو الحدّ من اخطارها الكبيرة. ويبدو ان ثمة منطقتين في هذا البحر كانتا على تفاوت واضح، من حيث الاهمية الملاحية. فالشمالية منهما، كانت خالية أو تكاد من السفن، لا سيما الكبيرة الحجم، التي تتعرض لتهديد المناخ الصحراوي الجاف وراء الساحل، الأمر الذي حال دون قيام مراكز استقرار على امتداده في الجانب الشرقي، فضلا عن تهديد الشعاب المرجانية المتكاثرة فيها، على نحو كان يفرض مهارة ملاحية فائقة، لم تتوفر في ذلك الحين. وكان من الطبيعي ان تؤدي هذه الظروف الى عرقلة التجارة وتعثر مسار السفن في هذا الجزء من البحر الاحمر، بحيث وضعها ذلك أمام خطر ثالث هو القرصنة، كمورد رئيسي لقبائل البدو التي كانت تعتبرها «امتدادا لغاراتها في الصحراء» كما يقول جورج حوراني[11]. أما الجنوبية منها، فكانت اكثر ملاءمة للملاحة، انطلاقا من الشروط المناخية والجغرافية المختلفة عنها في الشمال، الامر الذي اتاح للسفن موانيء ترفأ اليها وتتزود منها بما تحتاج اليه أو تتبادل فيها السلع، خاصة عدن التي وصفها (اليعقوبي) بانها «ساحل صنعاء وبها مرفأ مراكب الصين»[12]. ولعل ذلك كان وراء تفوق العرب الجنوبيين في التجارة البحرية، بالمقارنة مع الشماليين، الاكثر توجها نحو الشام التي اصبحت من اهم الاسواق في شرقي البحر المتوسط التابعة للنفوذ البيزنطي. ولقد جاء ذلك على حساب مصر وتجارة البحر الاحمر المرتبطة بها، حيث بلغت ذروة رواجها في العصر الروماني[13]. وكان لسقوط روما واضمحلال الامبراطورية في الغرب، في الوقت الذي احتفظ فيه البيزنطيون بالسيادة على الساحل الافريقي بما فيه مصر،*تأثير كبير على تطور حركة التجارة في ذلك الحين، دون ان ننسى دور الاحباش في هذه المتغيرات، والصراع على النفوذ الذي اخذ يميل نحو مصلحتهم في المنطقة الجنوبية.

ولعل ركود التجارة في البحر الاحمر تأثر بهذه المعطيات وتزامن خاصة مع قيام دولة البيزنطيين على تخوم الشام، فضلا عن اضطراب الاوضاع السياسية في القسم الغربي من البحر المتوسط. ولان الملاحة كانت غير آمنة، لا سيما في منطقة لم يعد من الممكن تجنبها كما في الماضي، فقد اصبحت التجارة منذ القرن الخامس الميلادي مرتبطة بالمنطقة الشامية، حيث تسير قوافلها بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الاحمر. على ان القسم الجنوبي منه قد استثني من الركود التام وبقي للملاحة فيه بعض نشاطها الاعتيادي، سواء من جانب الاحباش ام اليمنيين، الا ان ذلك الدور كان مجرد رادف للتجارة الشرقية التي اصبحت برية الملامح منذ ذلك الحين.

وما لبثت حركة التجارة ان شهدت تحولا في مواصلاتها، يتلاءم مع تطور خارطة العالم السياسية، خاصة بعد انتقال امبراطورية

الرومان الى المشرق، تحت اسم الدولة البيزنطية، وذلك في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي. وكان من نتائج هذا التحول، تركيز محاور المواصلات التجارية آنذاك حول خطين رئيسيين: الاول، طريق الفرات، حيث كانت السفن تفرغ احمالها عند رأس الخليج قبل ان تنقل برّا الى العراق والشام فضلا عن مصر، أو تتوغل في النهر نحو الغرب، مسهمة في انتعاش الجزر القريبة من الساحل الشامي(١٤)، وفي قيام دولة الحيرة (حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي) عند نقطة انعطاف واضحة لدجلة والفرات، حيث انتقل الثقل السياسي والاقتصادي لامبراطورية الفرس، تبعا لضرورة التطور التاريخي «حسب تعبير (كريستنسن)(١٥). وكانت ثمة علاقة بين ازدهار هذا الطريق وبعض المدن الشهيرة، التي نشأت في بدايات عهودها كمحطات تزود القوافل بالماء والمؤن، كالحيرة (العراق) والبتراء وتدمر (الشام)(١٦). ولقد ظل هذا الطريق يمثل ابرز معابر التجارة الشرقية حتى القرن السادس الميلادي، عندما تحوّل الى منطقة عسكرية قلقة، في اعقاب انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والبيزنطية، بحيث كانت الاخيرة من اشدّ المتضرّرين من ركود الحركة التجارية عبر هذا الطريق، الامر الذي يعني افتقاد الحرير من القسطنطينية، وهي السلعة الاكثر رواجا في اسواقها. ولذلك كان البحث عن طريق آخر، يعوض التجارة البيزنطية خسارتها، من اهم شواغل الامبراطور البيزنطي (جستنيان)، الذي كان في الوقت نفسه شديد الحاجة الى عائداتها، الموظفة حينذاك في تدعيم سياسته الاوروبية التوسعية. ولقد دفعه ذلك الى التوجه نحو الحبشة، لإقامة نفوذ مشترك تحت رعايته في «منطقة البحار العربية»(١٧)، التي لفتت الانظار مرة اخرى، كونها البديل المناسب والوحيد لمرور التجارة البيزنطية، بعيداً عن الهيمنة المباشرة للفرس.

أما الخطّ الثاني، فهو الطريق الجنوبي الذي أخذ في التألق على حساب تراجع الاول، واصبح الشريان الحيوي للتجارة الشرقية في ذلك الوقت، ولكن دون ان يقضي تماما على اهمية



المعبر الآخر، الذي كان يستعيد دوره بصورة متذبذبة تبعا للوضع السياسي للعام، الذي كان يميل غالبا الى الاضطراب. ولقد رضخ الفرس الساسانيون لهذا التحول، خاصة وان الخليج الذي كان تحت نفوذهم، لم يفقد محوريته التجارية، وظل متصلا بأسواق الشام، ولكن عبر منافذ لا تخضع مباشرة لهم، بينما ظلت مصر مرتبطة بتجارة البحر الاحمر(١٨).

وكان هذا الطريق يشهد نموا مضطردا، تحت تأثير المعطيات السياسية والجغرافية المستجدة، وذلك مع ازدياد اهمية التجارة وارتباطها عضويا بالمصالح الحيوية حينذاك لكل من الفرس والبيزنطيين، فضلا عن الاحباش. واذا كانت امبراطورية الرومان في زمن وثنيتها، قد شعرت بالحاجة لوضع قبضتها على أحد المفاصل الاساسية لهذا الطريق، وذلك عبر المحاولة الفاشلة التي نفّذها حاكم مصر الروماني (اليوس غايوس ــ Aelius Gallus)، معتمدا على حلفاء أو ادلّاء من المنطقة، فان وريثتها الدولة البيزنطية لم تتردد في القيام بمحاولة اكثر ذكاء واطول نفسا، وذلك تحت ستار التبشير ومحاولات الاحتواء، تلك السياسية التي تبلورت فيما بعد، في علاقات هذه الدولة مع القبائل العربية المتاخمة لها.

بيد ان فكرة التغلغل عبر التبشير الديني، رغم اهميتها كطريقة فذّة من طرق توظيف العقائد في خدمة الاهداف السياسية، فان مسألة التنصير في اليمن، ينبغي التعاطي معها بشيء من الحذر، حيث ان مراكز النصرنة في جنوبي شبه الجزيرة ليست بالضرورة من نتاج التدخل الخارجي[١٩]. ولا يستبعد في هذا السبيل، ان يكون لتجار الحيرة النساطرة، تأثيرهم المتفوق على المبشّرين الاحباش (اليعاقبة)، خاصة وان نجران، مركز النصرنة في اليمن، كانت تمثل آنذاك حلقة بالغة الاهمية[٢٠] في شبكة المواصلات البرية، لا سيما الخط المفضي إلى العراق[٢١].

ولقد بلغ هذا التدخل ذروته في حملة الحبشة، التي انتهت الى السيطرة على اليمن (٥٢٥ م). ولكن هذه المحاولة رغم النجاح العسكري الذي حققته، في القضاء على حكم الملك اليمني المتهود (ذي نؤاس)[٢٢]، فقد اخفقت في ترسيخ اقدام التحالف البيزنطي ـ الحبشي في جنوبي شبه الجزيرة ووجدت صعوبة في منافسة النفوذ الفارسي القوي، الامر الذي قد يفسر استئناف عمليات الاحباش العسكرية نحو الشمال (الحجاز)، بغية الاتصال بحلفائهم البيزنطيين في الشام[٢٣]، وذلك بعد تعثّر مهمتهم في الجنوب.

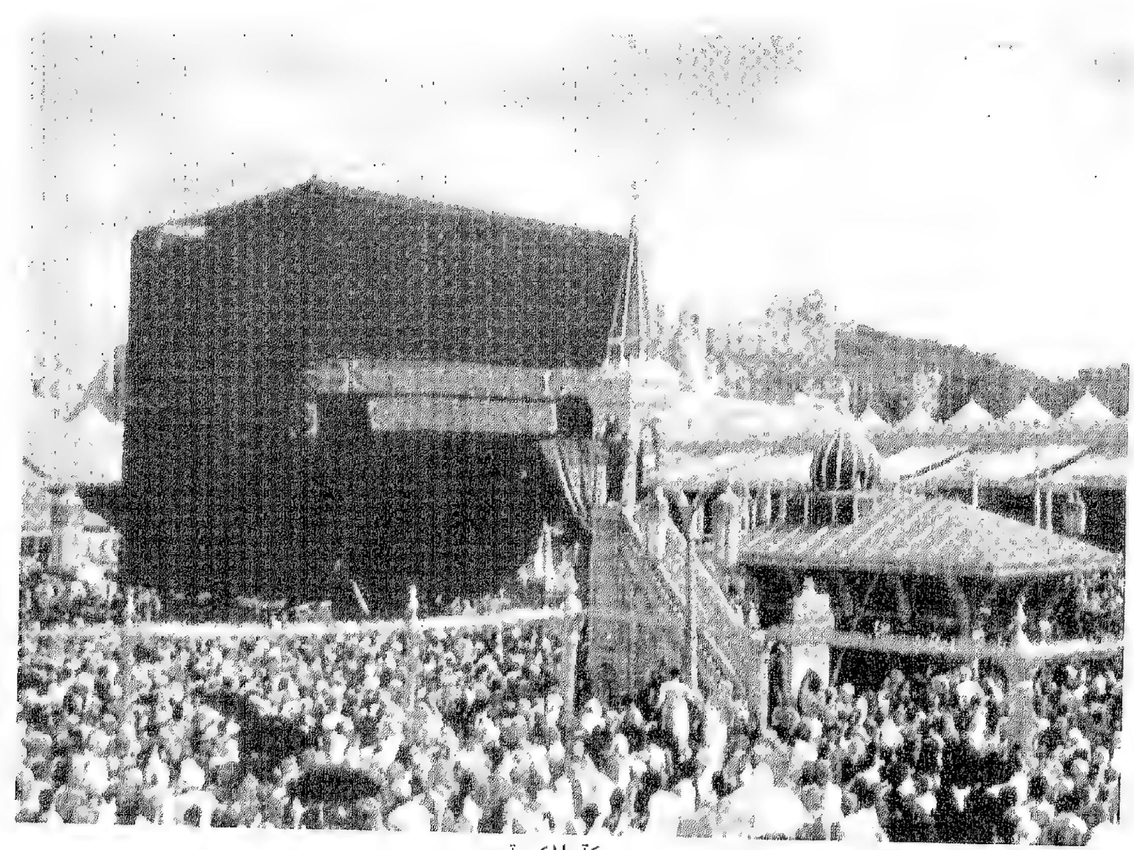
وكان الفرس من جانبهم، يتوخون الوصول الى هذه المنطقة، لتعويض ضرائب المرور المرتفعة[٢٤]، التي افتقدوها مع تحول طريق التجارة. ولأن امبراطورية الفرس كانت مطلة على شبه الجزيرة، وتقع على تخومها الشرقية، فقد تجاوزت محاولتي الرومان والبيزنطيين الى عملية أكثر احتواء، أدّت الى السيطرة المباشرة على اليمن بعد اسهام كبير في اخراج الاحباش منها.

كان هدف الفرس من هذا الموقف، هو استعادة المبادرة في تجارة الشرق، عبر التحكم مرة أخرى في زمام مواصلاتها والسيطرة على محطاتها الحيوية، حيث الخليج، وهو مصب السلع الشرقية الأكثر أهمية، كان لا يزال يقع في دائرة النفوذ الساساني. ولكن هذه الخطّة لم تحقق سوى اليسير من النجاح، حيث اخفق هؤلاء، فيما ذهبوا اليه، واقتصر الأمر على اقامة نفوذ مباشر على طرق شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية، دون تغيير جذري في موازين حركة التجارة، بينما ظلت السيطرة للبيزنطيين على طرق الشمال[٢٥] بما فيها اسواق الشام ومصر.

ومن المثير في تحول شبكة المواصلات التجارية من العراق الى شبه الجزيرة، ان البحر الاحمر كممر مائي، لم يعوض فراغ الفرات الذي افتقد اهميته منذ القرن السادس. فقد حالت القرصنة والعوائق الطبيعية المختلفة، دون القيام بدوره، كشريان حيوي في التجارة العالمية. على ان دور البحر الاحمر لم يكن هامشيا أو معزولا، بقدر ما كان مكملا للطريق البرّي الذي يسير بمحاذاته. ومن ناحية اخرى كان السبيل الوحيد للاتصال بالدول الواقعة على الساحل الغربي منه ومدّها بالمنتجات الشرقية منذ ايام البطالمة. ولهذا كانت التجارة فيه حبشية أو مصرية في الغالب، وكذلك السفن التي حملت في معظمها التبعية للاولى[٢٦]، خلافا لتجارة الساحل الشرقي البرّية الملامح، دون ورود ما يشير الى سفن لها تجول في هذا البحر، حيث كانت تستخدم على الارجح السفن التي مرّ ذكرها، والتي كانت تتردد على موانىء هذا الساحل، كالجار والشعيبة[٢٧]، فضلا عن الموانىء العديدة التي اعتادت التردد عليها في الجنوب.

وهكذا جاء نمو الطريق البري في شبه الجزيرة على حساب البحر الاحمر الذي اقتصر على تجارتي الحبشة ومصر، ولكن دون أن يكون احدهما بديلا للآخر، وان كان الاول يستفيد حكما من جمود الثاني ويعوض توقفه عند الضرورة. وكان من البديهي ان يرافق انتعاش هذا الطريق، ظهور محطات متفاوتة الاهمية، تبعا لما تؤمنه من خدمات للقوافل، في منطقة يغلب عليها الطابع الصحراوي الجاف، حيث كان الماء في هذه الحال يحدد مسار الطريق بين محطة وأخرى.

وكان لإحدى هذه المحطات قصب السبق في تبوّؤ الدور التجاري الاول، مستفيدة من المتغيرات المهمة، التي وضعتها في وسط حركة



مكة المكرمة

التجارة العالمية. واذا ما أضفنا اليها المعطيات الذاتية التي اسهمت في تطور هذه المحطة الجديدة (مكة)، كحلقة كبرى في المواصلات بين الهند وافريقيا والبحر المتوسط[٢٨] واخرى اقل اهمية في التجارة الداخلية، لأدركنا اهمية هذا الدور البارز الذي كان مقدّرا لها ان تشغله في ذلك الوقت.

وقد نتساءل عن الأسباب التي كانت وراء بروز مدينة وضعتها الطبيعة في أرض جرداء خالية من الزرع والانهار[٢٩] أو خالية «من الماء والانيس» كما قال الازرقي[٣٠]؟ كيف تتحول بقعة كهذه في ظل بيئتها الصحراوية[٣١] الى محطة تجارية كبرى، وتكون دون غيرها في الحجاز أو شبه الجزيرة، الاكثر افادة من التحول الذي طرأ على اتجاه المواصلات البعيدة المدى كما سبقت الاشارة؟ لماذا لم تكن يثرب مثلا، وهي ارض يتوفر فيها الماء والنبات[٣٢]؟ أو الطائف التي تقع على مسيرة يوم من مكة وتنفرد بمناخها وارتفاعها، اللذين جعلا منها واحة هذا الاقليم الخصبة[٣٣]؟.

والجواب على هذه الاسئلة له علاقة بعدة اعتبارات كانت قد اسهمت معا في سطوع مكة وتفوقها الحجازي. فالتجارة البرّية المرتبطة عضويا بشبكة من الطرق وفي مقدمتها طريق اليمن ــ الشام، هيأت لها بدون شك الظروف الموضوعية في هذا السبيل. وكان لقربها من اليمن، محور التجارة القديم تأثير كبير في اكتساب ذلك الدور الوسطي، المؤهلة له جغرافيا دون يثرب التي نأت الى الشمال الشرقي باتجاه نجد[٣٤]، ودون الطائف التي حالت طبيعتها الجبلية دون احتلال الموقع المتوسط المثالي الذي تمتعت به مكة. وهو ما وصفه لامنس، بانه على «مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية»[٣٥]. ولقد أسهم هذا الموقع بدون شك في التكوين الاقتصادي لهذه المدينة، على نحو جعل التجارة خيارها الوحيدة في المجابهة مع الطبيعة القاسية.

ومن الواضح أن مكة لم تأخذ دورها فجأة في حركة التجارة العالمية الذي اشتهرت به في

أواخر القرن السادس، وانما كان ذلك موصولا بجهود حثيثة على مدى اكثر من قرنين من الزمن. وهي فترة تكاد تكون شبه مجهولة لدى المؤرخين، الذين اقتصرت معلوماتهم على الروايات الاخبارية، المهتمة بتكوينها التاريخي المتزامن مع قدوم ابراهيم وبناء الكعبة، الاثر الديني الذي استمدت منه المدينة قداستها وموقعها المميّز بين قبائل وحواضر الحجاز، فضلا عن تكوينها السكاني والصراع على النفوذ فيها، بدءا بالعمالقة الى جرهم حتى خزاعة وقريش(٣٦). ولا ريب ان تاريخ هذه الحقبة المكيّة يكتنفه الغموض وتغلب عليه الاساطير(٣٧)، مما يجعل اية محاولة موضوعية لدراستها، امرا في غاية الصعوبة والتعقيد. واذا كان تسويغ هذا الغموض، بان الجزء الشمالي من شبه الجزيرة لم يأخذ نصيبه من الاهتمام، في الوقت الذي تمّ فيه اكتشاف جانب غير يسير من تاريخ الجزء الجنوبي، رغم التفاوت الزمني بين الاثنين، الذي يفترض ان يكون لمصلحة الاول، فمن الجائز ان مكة لم تصل الى مرحلة من النضج في تكوينها السكاني والاقتصادي، الا منذ القرن الخامس الميلادي، اي في اعقاب تدهور النفوذ الحميري في الجنوب. وهذا ما يفسر انكفاء الاخبار المكيّة على الهامش من تاريخ اليمن، المركز الحضاري الاول في شبه الجزيرة بما فيها الحجاز. ولعل اقدم ما يرد في هذا السبيل، ما روي عن زيارة «تبع الحميري»، احد ملوك اليمن الى مكة، الذي حجّ الى «البيت» وطاف حول الكعبة، وكان اول من حمل اليها «الكسوة» استنادا الى الرواية الاخبارية(٣٨).

واذا كانت الشخصية التاريخية لمكة ملتصقة بالكعبة، التي تطورت الى حلقة مركزية لعبادات العرب قبل الاسلام، فثمة صورة اخرى لا تنفصل عن هذه المدينة، وهي صورة التاجر المتفوق الذي سخّر كافة الامكانات والمرافق، بما فيها الكعبة، في سبيل مصالحه الاقتصادية. فقد اندرجت هذه المدينة من تجمع صغير في بقعة مجدبة، الى اشهر مراكز الاستقطاب لقبائل البدو، قبل ان تطل على تجارة الشرق وتصبح الوسيط المحوري فيها. ولا مندوحة من الاعتراف بان وجود الماء في مكة على ضحالته في ذلك الوقت، كان جزءا هاما من عملية التطور تلك، التي انتهت معها الى محطة كبرى، لتبدو وكأنها «الواحة» الجديدة التي تدخّل الانسان في صنعها الى جانب الطبيعة. ولم يكن «زمزم» اول آبار مكة(٣٩) ومصدر الماء الوحيد فيها، ولكنه انفرد بشهرته الخاصة، كونه بئر بني هاشم، اسرة النبي وزعماء مكة في العصر التجاري الاول، ومن ثم انعكاس ذلك على اهميته التاريخية قبل الاسلام وبعده. وقد يبدو هذا البئر في المصادر التقليدية وكأنه عصب الحياة في المدينة، رغم المبالغة الواضحة في هذا التصور، المتناقض مع حجمها السكاني، سواء كان على صعيد المقيمين من قريش و«الجاليات» التجارية ام الوافدين اليها في المواسم ومع القوافل. ومن هنا كان توفير الماء مرتبطا بنمو المدينة واشتداد الضغط البشري عليها. ولم يكن ما يحول دون اتخاذ البطون القرشية على اختلافها، آبارا خاصة بها(٤٠)، كضرورة تحتّمها الحاجة الملحة، كما النزعة الاستقلالية، في مجتمع يغلب عليه النظام القبلي. وما يقال عن مجاجة في مياه هذه الآبار، لا سيما «زمزم» ومدى صلاحيتها للشرب، فلا يحتاج ذلك الى نقاش في «بلد قحط» على حدّ تعبير (المقدسي)(٤١). فالمسألة كانت كمية اكثر منها نوعية، تفرضها قبل كل شيء الحاجة الماسة الى الماء في بيئة صحراوية الملامح. وهذا ما جعل «السقاية» في مكة، تأخذ دورها البارز في الصراع على النفوذ السياسي، قبل نحو قرن من ظهور الاسلام(٤٢).

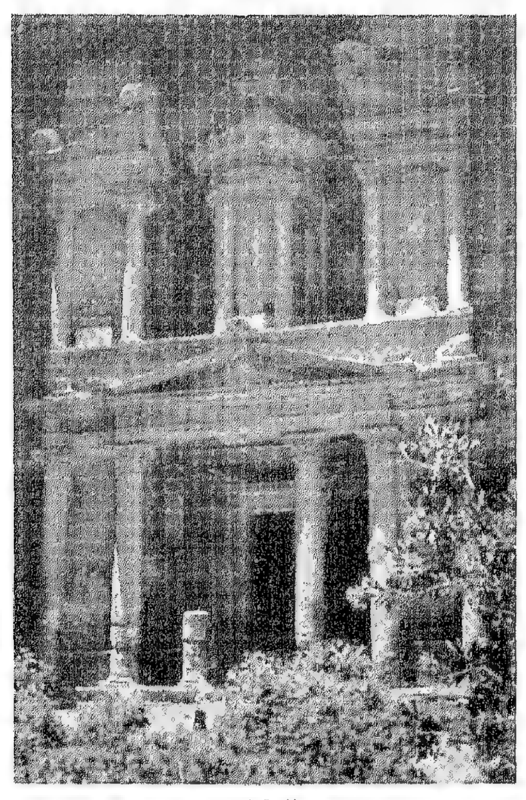
ولقد شهدت التجارة المكيّة تطورا غير عادي، وذلك عبر انطلاقتها الكبرى، من النطاق المحلي، الى ما وراء حدود شبه الجزيرة العربية. ولعل بواكير هذه الصلة مع الخارج، تعود الى ايام الانباط الذين سيرث عنهم المكيون، الكثير من الملامح المشتركة بين الطرفين، وفي طليعتها الطريقة التي مارس بها كلاهما التجارة. وقد وصل الدكتور جواد علي في اعتقاده الى ان «الانباط هم اقرب الى قريش والى القبائل الحجازية»(٤٣) من القبائل العربية الاخرى في الجنوب. ولا يستبعد في هذه الحالة ان يكون نفوذ هؤلاء، الذين اعتمدوا اساسا على ضرائب

المرور[٤٤]، قد امتد جنوبا الى الحجاز، حيث تحكموا لفترة ما بهذا الجزء الحيوي من طريق القوافل.

وقد يعزز هذا الاتجاه، احتكار البطالمة لتجارة البحر الاحمر في ذلك الوقت وتصدّى الانباط بشتى الوسائل له، بما في ذلك التحالف ضدهم مع السلوقيين، فضلا عن تسهيل مهمة الرومان فيما بعد، في حملتهم على شبه الجزيرة التي نزلت في الميناء النبطي الشهير (لوكي كومي ــ Leuce Kome)[٤٥]، قبل متابعة سيرها نحو مأرب، مدعمة بالف من جنودهم[٤٦]. كما يعزز ذلك تنشيط الطريق البري وتزويده بمحطات كبيرة، ظلت لحين عصب التجارة البرية في المنطقة، خاصة بعد التوسع شمالا على حساب السلوقيين. وكان دور الانباط يزداد اهمية مع اشتداد القرصنة في البحر الاحمر وتوقف التجارة المصرية، التي لجأت حينذاك الى اعتماد الطريق الخاضع لنفوذهم الى غزّة.

ويبدو ان الانباط كانوا يمدون السوق المكية بالمواد الغذائية من الشام لا سيما القمح، الذي كان من منتجات هذا الاقليم البارزة[٤٧]. ولكن تاريخ العلاقات التجارية بين الطرفين غير واضح تماما، حيث يعتقد ان التجار الانباط مارسوا نشاطهم حتى بعد سقوط دولتهم على يد الرومان (١٠٦م) وانتقال مركزهم من (البتراء) الى (بصرى)[٤٨]، التي اصبحت فيما بعد نهاية خطّ القوافل المكية في الشام. وثمة ما يشير الى قدم هذه العلاقة، لا سيما في الجانب المتعلق بالعقيدة الدينية المشتركة والمتشابهة في بعض رموزها وحتى اصنامها[٤٩]. وقيل ان عمرو بن لحيّ الخزاعي (مؤسس الوثنية في مكة)، قد تأثر بعبادة الانباط، عندما قصد البلقاء بسبب مرض ألمّ به، «فوجد اهلها يعبدون الاصنام»، بها يستسقون المطر ويستنصرون على العدو. فحمل عند عودته اصناما الى مكة، التي درجت على العبادة الوثنية منذ ذلك الوقت حسب رواية ابي المنذر الكلبي[٥٠].

وكان انشغال الانباط بالصراع على الشام الى جانب الاطراف الاخرى من السلوقيين والبطالمة الى الرومان، قد اتاح لمكة ظروفا



البتراء

مؤاتية للتحرك بشيء من الحرّية، والخروج من دائرة النفوذ التجاري النبطي، المنتشر حتى تخوم الحجاز.

بيد ان سقوط البتراء، المحطة الرئيسية بين اليمن والشام، رافقه ظهور محطة كبرى جديدة (تدمر) على تخوم العراق، مرتبطة بخط المواصلات الفراتية، الذي كان لفترة ما عصب التجارة الشرقية وحلقة الاتصال بين الخليج والبحر المتوسط. ولكن هذا الطريق كان خاضعا لتقلبات الوضع السياسي المضطرب، الذي غالبا ما ادّى الى جمود الحركة فيه وهجرة القوافل نحو طريق آخر آمن كما سبقت الاشارة.

ولقد رافق انهيار المحاولة الاستقلالية في تدمر وتقلّص دورها التجاري، تعديل بارز في السياسة الاقتصادية لكل من الدولتين البيزنطية والساسانية، حيث ورثت الاولى النفوذ الروماني في الشرق. فظهر آنذاك ما عرف بالدول «الحاجزة»، كنتيجة للموجة القبلية المهاجرة من الجنوب الى الشمال، استقر على اثرها الغساسنة الازديون على تخوم الدولة البيزنطية

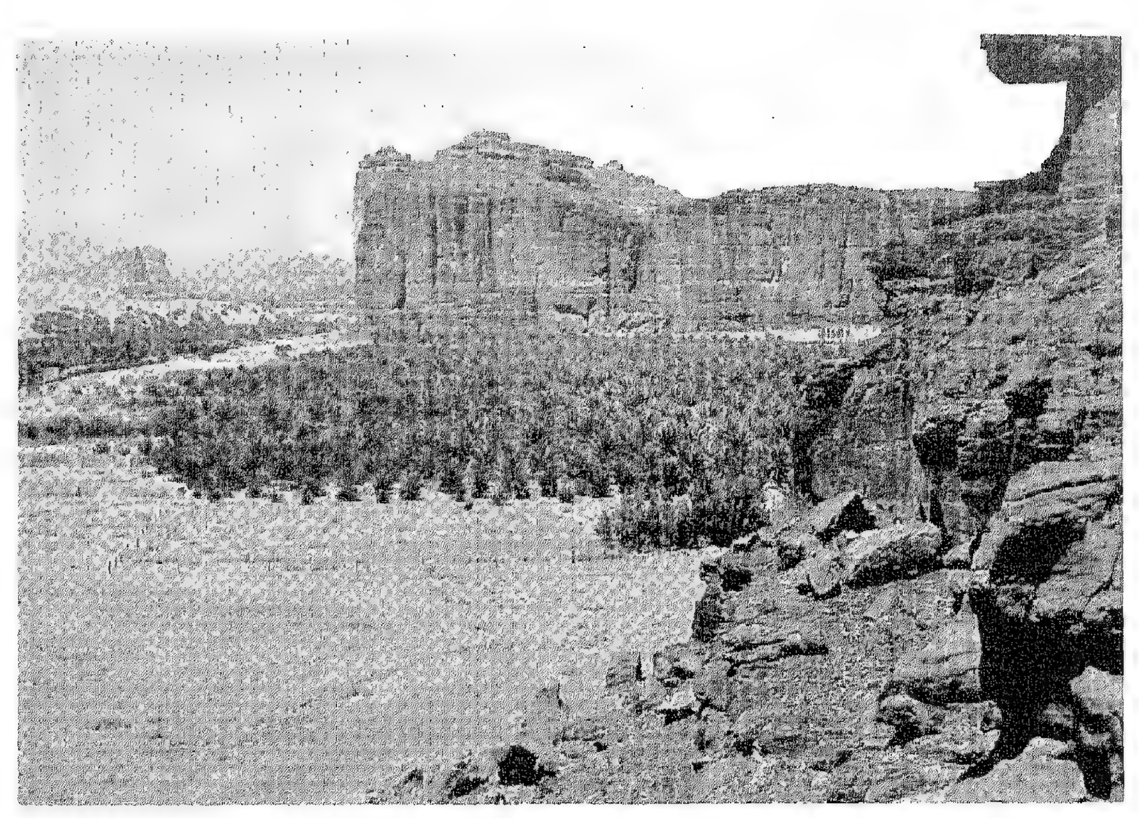
والمناذرة اللخميون على تخوم الدولة الساسانية. ولا يخفى ماكان لوجودهما، الذي شجعته الدولتان الكبيرتان، من تأثير على اقتسام مناطق النفوذ بين كل منها، وما ترتب على ذلك من حماية المصالح التجارية المتشابكة بعضها مع الآخر. وعلى الرغم من اختلال هذه المعادلة احيانا تحت ضغط المتغيرات الاقتصادية في الغالب، فان الاطار العام لهذه السياسة ظلّ قائما نحو قرنين من الزمن، الى ان طرأ تعديل آخر، ادّى الى انتقال محور التجاذب والصراع من العراق والشام الى شبه الجزيرة العربية نفسها.

وفي تلك الاثناء كان «الحاجز»، الذي اقامه الساسانيون والبيزنطيون في وجه «الزحف» القبلي، قد زال أو كاد، ولم يعد هنالك مايحول دون الاتصال مباشرة، عبر قبيلة او اكثر، بمراكز التجارة ومحطاتها الجديدة. ولم يكن مصادفة تحجيم دولتي الغساسنة والمناذرة، في الوقت نفسه الذي سطعت فيه مكة وتطورت الى محطة كبيرة. فقد كان لموقعها الجغرافي في قلب الحجاز(٥١)، تأثيره على انتزاع دور الوسيط المثالي، وذلك عبر دوائر متفاوتة الاتساع والاهمية، سواء بين قبائل نجد وتهامة او بين الشام واليمن والعراق.

وعلى الرغم من صعوبة تتبع شبكة المواصلات التي ربطت مكة بالمحطات والاسواق في المراكز التي مرّ ذكرها، حيث زال بعضها واندثرت معالمه(٥٢)، فان مصادر التاريخ حفظت لنا القليل من التفاصيل المتعلقة بخطوط القوافل ومحطاتها المختلفة. وقد يحدث ان تتجاذب الطريق بضع محطات، فيمرّ في احداها دون الاخرى، في ضوء ماتقدمه من خدمات اكثر اهمية للقافلة، لا سيما الماء الذي يأتي في مقدمة امتيازات المحطة التجارية.

واذا اردنا تحديد الاتجاه العام للخطوط التجارية المتشعبة من مكة، سنجد ان طريق اليمن ــ الشام، هو الشريان الرئيسي فيها، كونه يصل بين السوقين الاكثر استهلاكا في المنطقة. وبفضل هذا الطريق اكتسبت مكة شهرتها التاريخية، حيث وقعت في نقطة متوسطة منه وأمكنها بالتالي استثماره على نطاق واسع والقبض من خلاله على زمام المواصلات التي تمرّ فيه. فالجزء الجنوبي منه المفضي الى اليمن، يكاد يمثّل امتدادا شبه طبيعي للمدينة على نحو يجعله شديد التداخل مع مايسميه الجغرافيون العرب، حينا «تهامة الحجاز»(٥٣) وحينا آخر «تهامة اليمن»(٥٤). وكانت الآبار وعيون الماء تفرض اتجاه هذا الطريق، فتجعله مستقيما او ملتويا بين المحطة والثانية. وقد اورد الجغرافيون تفصيلا باسماء هذه المحطات وكمية الماء ونوعيتها المتوفرة فيها، فضلا عن اشجار النخيل والكروم وبعض النباتات الاخرى(٥٥). وفي (صورة الارض) لابن حوقل يرد فرعان لهذا الطريق، احدهما يمرّ عبر تهامة والثاني عبر ابوادي، قبل ان يلتقيا في مكة(٥٦). ولكن الطريق الاول كان الممر التقليدي للقوافل، الا في حالات الاضطراب السياسي التي كانت تتعرض لها المنطقة المحاذية للبحر الاحمر. وكان هذا الطريق مزودا بكل مايؤمن حماية القوافل وخدماتها، عبر اكثر من عشرين محطة، من ابرزها: تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) واخيرا صنعاء(٥٧).

اما الجزء الشمالي الذي يمتد من مكة الى الشام، فيجتاز مرحلتين اساسيتين: الاولى، حجازية(٥٨) تنتهي عند يثرب، وهي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية. وكان موقعها على تخوم نجد من جهة وعلى خط الشام الرئيسي من جهة ثانية، قد وضعها في مركز المنافسة التقليدية لمكة. ولكنها افتقدت مركزية هذه الاخيرة وتوسطها، فضلا عن العوامل الذاتية الاخرى التي اسهمت في تراجعها الى الوراء، منطوية على مشكلاتها الخاصة، طوال مايستحق ان نسميه عن جدارة بـ«العصر المكي». اما المحطات البارزة للقوافل بين المدينتين (مكة والمدينة)، فهي استنادا الى لوائح الجغرافيين (اليعقوبي، ابن رسته، ابن حوقل، المقدسي، ابن خرداذبة): ذو الحليفة (على اربعة اميال من يثرب)(٥٩)، الشجيرة (٦ اميال عن سابقتها)(٦٠)، السيالة (٣١ ميلا)(٦١)، الرويثة (٣٤ ميلا)(٦٢)، السقيا (٣٦ ميلا)(٦٣)، الابواء (١٩ ميلا)(٦٤)، الجحفة (٢٧ ميلا)(٦٥)، قديد (٢٩ ميلا)(٦٦)، عسفان (٢٤ ميلا)(٦٧)، واخيرا



النخيل في الحجاز

بطن مرّ (١٦ ميلا عن مكة)[٦٨]. وكما يلاحظ فان المسافة بين هذه المحطات غير متوازنة، حيث تتحكم بها العوامل الجغرافية وكميات الماء المتوفرة فيها. ويسميها الجغرافيون العرب بـ «المرحلة» التي تزيد احداها او تنقص بضعة اميال عن الاخرى.

اما المرحلة التالية من الطريق (يثرب ــ بصرى)، فثمة اختلاف في تحديد المحطات الرئيسية التي عبرتها القوافل في ذلك الوقت، حيث تفاوتت بين وقت وآخر. فبينما يذكر (المقدسي) انطلاق هذه الطريق من السقيا[٦٩] ــ بما لذلك من دلالة على ابتعاد يثرب عن خط القوافل المتصل بالشام ــ يغفل (ابن رسته) من لائحته هذه المحطة، بحيث يبدأ عنده من ذي خشب ثم السويداء[٧٠] ــ المرّ ــ ذي المروة ــ الرحبة ــ وادي القرى ــ الحجر ــ الجنينة ــ الاقرع ــ المحدثة ــ تبوك ــ سرغ[٧١]. ثم تنعطف الطريق لدى المقدسي بعد السقيا نحو الساحل الى العيص والسويدية وبطن نخل، ومنها الى ذي المروة ثم الرحيبة ووادي القرى والحجر وتيماء وتبوك، وصولا الى دومة الجندل وبصرى[٧٢].

واذا كان خط التجارة الرئيسي الذي توسطته مكة بين اليمن والشام، حيث اقدم محاور التجارة واكثرها شهرة في العالم القديم، فثمة محور ثالث لا يقل اهمية الى الشرق، كانت هذه المدينة على اتصال مباشر به، وهو خليج فارس الذي لم يعدم حركة نشطة في بعض الاحيان حيث كان لا يزال جزء من تجارة الحرير يسلك طريقه التقليدية القديمة، دون تأثر كبير بالتعديل الذي طرأ على خطوط المواصلات التجارية، او بارتفاع تكاليف هذه السلعة نتيجة ازدياد ضرائب المرور، خاصة وان المتعاملين بها كانوا من الفئات العليا في المجتمع البيزنطي[٧٣]. ولقد أدى اقفال طريق الفرات نتيجة هذه الظروف، الى ازدهار مكة، التي اضافت الى دورها المركزي في حركة التجارة، نقطة ايجابية اخرى، وذلك عبر توسطها المحاور الثلاثة الكبرى، ما بين موانىء الخليج والبحر المتوسط والمحيط الهندي[٧٤].



اما الطريق الشرقي بين مكة والخليج، فكانت حجر (اليمامة) تمثّل حلقته المهمة التي تفرعت منها شبكات اخرى ثانوية. وقد وصفها (ابن حوقل) بانها «اكثر نخيلا وثمرا من سائر الحجاز والثالثة بعد مكة ويثرب»[٧٥]. وهو كما نرى، يعتبر اليمامة جزءا من الحجاز، خلافا لمعظم الجغرافيين العرب، الذين تمثّل عندهم اقليما له ملامحه الخاصة بين اقاليم شبه الجزيرة[٧٦]. وكانت (القريتين) اول محطة بعد مكة، حيث تقع الى الشمال الشرقي، وتتفرع منها طريق الى البصرة او الكوفة في العراق. ثم تنحرف شرقا الى (شريقة) و(صداة) و(السدّ) و(سقيراء) و(الثنية) و(السيح) و(الحديقة) واخيرا (العرض)[٧٧]. وتأتي اهمية اليمامة في اتصالها بموانىء البحرين وتجارة الهند، لا سيما (جرها)، التي كان يعاد تصدير البضائع منها عبر الحجاز او العراق الى البحر المتوسط[٧٨]. ومنذ القرن السادس الميلادي، كانت مكة همزة الوصل بين (جرها) وبين (دومة الجندل)، احد اهم الاسواق الشامية في ذلك الوقت. على ان هذا الميناء الذي كان من انشط مراكز التجارة البريّة والبحرية في منطقة الخليج، لم يبق من آثاره شيء الى اليوم، ولم يتفق الباحثون وعلماء الآثار على تحديد ثابت لموقعه الجغرافي، سوى ماذكره الكتّاب الاغريق، بانه يقع على الساحل الغربي من الخليج مقابل جزيرة (تيلوس) (Tylos) التي اشتهرت باللؤلؤ[٧٩].

ثمة خطوط رئيسية ثلاثة اذن، تشعبت من مكة نحو مصادر التجارة واسواقها في الخليج واليمن والشام. هذا بالاضافة الى تشعّبات اخرى اقل اهمية تفرعت منها الى نجران في الجنوب الشرقي، التي وصفت بأنها «من المواقع الحساسة في شبكة المواصلات قبل الاسلام»[٨٠]، او الى العراق في الشمال الشرقي، حيث كانت للتجار المكيين علاقات وثيقة مع الحيرة عاصمة المناذرة[٨١]. ولقد ظل الخليج المحور الدائم في حركة التجارة العالمية في ذلك الوقت، وكانت السفن ترفأ الى سواحله الغربية ببضائعها الرائجة من اقصى الشرق، لتصب في «قنوات» داخلية تحملها الى مكة، او الى الحيرة اذا كانت طريق الفرات سالكة، أو يتابع بعضها طريقه البحري الى عدن عبر ساحل البخور، مضيفة الى احمالها منتجات هذه المنطقة لا سيما حضر موت[٨٢]. وكان الوصل بين هذين المحورين عبر هذه التفرعات البرية، قد شكل مفتاح السيطرة على تجارة الشرق، وهو الدور الذي تنبّه له المكيون واحسنوا استثماره، بعد ان وجدوا لديهم الكفاءة لإتقانه،

انطلاقا من المعطيات الجغرافية والسياسية والاقتصادية. ففي الجنوب، انهارت الدولة الحميرية وتحوّل اليمن الى منطقة ساخنة يتجاذبها الفرس والبيزنطيون والاحباش. كذلك شهدت مواصلات الفرات في وقت سابق ظروفا غير مشجعة لاستمرار حركة التجارة بصورة طبيعية، بدءا بالحرب الساسانية ـ البيزنطية وانتهاء بسقوط الاسرة اللخمية في الحيرة، بعد سلسلة من الازمات التي ادت الى انهيار التحالف التقليدي مع الفرس. وهكذا ينتقل محور التجارة الى الحجاز بعد تدهور المحاور الكبرى في اليمن والعراق، وبعد احباط المحاولات الاقليمية المتصدّية لمكة، التي حسمت زعامتها الحجازية دون منافسة جدّية تذكر.

وبقي ان نتعرف على انواع السلع التي تاجر بها المكيون واهميتها الاقتصادية في ذلك العصر. واذا كان من غير اليسير القيام بعمل احصائي دقيق في هذا المجال، فان الاخبار تركت لنا الكثير من اسماء هذه المواد الرائجة ومصادر انتاجها. ويبدو ان الحرير كان اقل السلع شأنا في تجارة مكة، حيث اقتصر سوقه على القسطنطينية، التي استوردته لمصلحة «الارستقراطية» البيزنطية.

على ان بضائع الصين الاخرى التي ضربت بتجارتها الامثال، كما وصفها (المقدسي)[٨٣]، كان لها شان غير قليل في التجارة المكيّة، لا سيما خشب الصندل، بينما كانت التوابل اهم السلع المستوردة من الهند والمتصدرة لتجارة البحر المتوسط، حيث كانت تكاليفها الباهظة، من نقل ومرور، تؤدي الى ارتفاع اسعارها بصورة دائمة، ولكن دون ان يفقد ذلك اهمية هذه السلعة الاستهلاكية، الاكثر رواجا حتى أوائل القرن السابع الميلادي. وكانت الى جانب الافاوية على اختلافها[٨٤] والذهب والاحجار الكريمة والعاج وغيرها، من السلع الرئيسية التي تفد على موانىء اليمن، قبل ان تحملها القوافل الى مكة، حيث يستوعب سوقها القليل منها، بينما الغالبية تأخذ طريقها الى الشام[٨٥]. اما السلع المحلية، المنتجة في شبه الجزيرة، فتأتي في طليعتها الجلود المذهبة (الأدم)، التي كانت تصنّع في الطائف واليمن[٨٦]، وبعدها العطور التي اشتهرت بها الاخيرة، وكانت تباع لكبار الاغنياء في مكة، ومن ثم تحملها القوافل الى الشام مع السلع المحلية الاخرى كالزبيب (الطائف) والمعادن (الحجاز) واللبان والمرّ واللادن والعقيق (اليمن)[٨٧]. ولا ننسى البضائع المستوردة من افريقية الشرقية، عبر موانىء الحجاز، كالعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق، فضلا عن القمح (مصر) في بعض الاحيان[٨٨].

وكانت هذه السلع تفد على مكة، سواء من مصادرها المباشرة او عبر موانىء الخليج واليمن والحجاز. اما الطريقة المستخدمة في النقل، فلا ندري اذا كانت قد اقتصرت على التجار المكيين وحدهم، واذا ماكان هؤلاء يملكون جهازا كافيا لتأمين هذه الكميات الضخمة وتخزينها، قبل اعادة تصديرها، او ان قوافل اخرى كانت تسهم في عملية النقل الى جانب القوافل المكية. ومن المرجّح ان مكة التي بدأت محطة للمرور على تقاطع طرق رئيسية، قد تنبهت الى أهمية امتلاك «اسطول برّي» يؤمن هذه الخدمات التجارية الكبيرة، بحيث لم يكد ينتهي القرن السادس، الا وهي تمسك بزمام شركة التجارة، نقلا وتسويقا، الى حد جعلها تأخذ طابع «المؤسسة» الاقتصادية على نحو لم تعرفه المجتمعات الشرقية من قبل.

اما السلع التي كانت تعود بها القوافل المكية من الشام، فكان ابرزها زيت الزيتون (ساحل فلسطين)[٨٩] والقمح (حوران والبلقاء)، فضلا عن الخمر والجواري والمواد المصنّعة في هذه المنطقة كالاسلحة والمنسوجات[٩٠]. وكانت في الشام عدة اسواق او مراكز تبادلية تستقطب تجارة مكة ومصر والحيرة. على ان الاولى كانت القاسم المشترك لهذه الاسواق وصلة الوصل بينها... فكانت (بصرى) مركز التبادل مع الحيرة و(غزة) مع مصر، فضلا عن دومة الجندل «سوق القبائل الكبير»[٩١]. وهناك من ينسب الى الحيرة علاقات تجارية تتعدى اسواق الشام الى مكة نفسها، التي تردد عليها الحيريون او اسهموا بدور الشريك في «المؤسسة» المكية، التي ربما كان لها فروع خارج الحجاز في ذلك الحين[٩٢]. **يتبع**

هـوامش

(١) LAMMENS, La Mécque à la Wille de L'he'gire, p. 103

(٢) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) نورمان بينز ص ٢٧٦. ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ١٨ ترجمة احمد محمد عيسى. مكتبة النهضة العربية القاهرة ١٩٦٠.

(٥) أ. لويس ص ١٦.

(٦) ارنولدت ويلسون، الخليج العربي ص ٨٤. ترجمة ــ عبد القادر اليوسف مكتبة الآمال ــ الكويت.

(٧) LAMMENS, La Mécque, p. 109.

(٨) ثمة حادثة عن تاجر يمني (زيد ايل بن زيد) كان قد التحق بخدمة المعابد المصرية... فيستورد المر والقليمة لهذه المعابد لقاء سلع من الاقمشة المصرية الفاخرة المصنوعة من الكتان، ويقوم بهذا النشاط في سفينته الخاصة. راجع هذا النص المفصل للدكتور جواد علي ج ٢ ص ٣٥ ــ ٣٧ والعرب في العصور القديمة للدكتور لطفي عبد الوهاب ص ٢٩٩.

(٩) أ. ويلسون، الخليج العربي ص ٨٤.

(١٠) جورج فضلو الحوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٨٦ رينية ديسو، العرب في سوريا قبل الاسلام، ص ٩٠٨. ترجمة عبد الحميد الدواخلي. لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٩.

(١١) العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٢٥.

(١٢) كتاب البلدان ص ٣٠٩ طبعة ليدن ١٨٩١.

(١٣) ادرك الامبراطور اغسطس بعد استيلائه على مصر اهمية البحر الاحمر في تجارة الرومان الشرقية. فعمد الى تنشيط حركة الملاحة فيه ومن ثم تطلع الى السيطرة على اليمن، للوصول الى «منابع» البخور في حضر موت. نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص ٢٠١ ــ ٢٠٣ الاهلية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٨٠.

(١٤) LAMMENS, La Mécque, p. 110.
جواد عليّ، المفصّل ج ١، ص ١٥٧.

(١٥) ارثر كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين ص ٨٢. ترجمة يحي الخشاب القاهرة ١٩٥٧.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٣٨. بغداد ١٩٦٠.
LAMMENS, La Mécque, p. 110.

(١٨) أ. لويس، القوى البحرية والتجارية ص ١٧.

(١٩) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ١٩٩. أ. لويس، القوى البحرية ص ١٩.

(٢٠) المغربي، كتاب الجغرافيا ص ١١٧. تحقيق اسماعيل العربي. بيروت ١٩٧٠.

(٢١) كان هذا الخط يمتد عبر الدواسر واليمامة الى ساحل الخليج ومنه الى العراق. جواد علي، المفصّل ج ١، ص ٢٢٠.

(٢٢) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ١٩٩.

(٢٣) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٨٢.

(٢٤) Ch, DIEHL, Byzance, Grandeur et décadence, p 95. Paris 1914
وات، محمد في مكة ص ٣٤.

(٢٥) العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٩٥ ــ ٩٦. المرجع نفسه.

(٢٦) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٩٨.

(٢٧) اليعقوبي، تاريخ ج ٢، ص ١٥٤. الهمذاني، الصفة ص ١٤٧. الاصفهاني، بلاد العرب ص ١٨٤، ٢٠١، ٢٠٩. تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي دار اليمامة ــ الرياض.

(٢٨) F. M. DONNER, Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott, in Journal of the Economi and Social History of the Orient, vo. XX, part III, p. 251.

(٢٩) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٤. تحقيق رشدي ملحس، دار الاندلس، بيروت. الكتاني، التراتيب الادارية ج ٢، ص ٤٤، معجم البلدان ج ٥، ص ١٨٨.

(٣٠) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٧.

(٣١) وات، محمد في مكة ص ١٨.

(٣٢) معجم البلدان ج ٥، ص ٨٣.

(٣٣) المصدر نفسه ج ٤، ص ٩٨.

(٣٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ص ١٢٨.

(٣٥) LAMMENS, La république Marchande de la Mécque p. 51.

(٣٦) الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ٥٨ ــ ٦٠، ٨٠، ١٠٣. الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ١، ص ٤٧. مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة.

(٣٧) الازرقي، اخبار مكة، ج ١، ص ٣٢ وما بعدها. جواد علي، المفصل ج ٤، ص ١٦، ١٨.

(٣٨) رواية يونس بن بكير عن ابن اسحاق، كتاب السير والمغازي ص ٥٢ ــ ٥٣. تحقيق سهيل زكار. دار الفكر ١٩٧٨. الازرقي، اخبار مكة ج ١، ص ١٣٢ ــ ١٣٣. السهيلي الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ج ١، ص ٤٠ تقديم طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الكليات الازهرية. القاهرة..

(٣٩) السهيلي، الروض الانف ج ١، ص ١٧٢.
(٤٠) المصدر نفسه ج ١، ص ١٧٢ ــ ١٧٤.
(٤١) احسن التقاسيم ص ١٠٣.
(٤٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٣، ص ٢٣٥. تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى. ابن ظهيرة القرشي المخزومي، الجامع اللطيف في فضل مكة واهلها وبناء البيت الشريف ص ١١٦، القاهرة ١٩٢١.
(٤٣) جواد علي، المفصل ج ٣، ص ١٤.
(٤٤) المرجع نفسه ج ٣، ص ٢٠.
(٤٥) على مقربة من ينبع. نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات ص ٢٠٢ ــ ٢٠٤.
(٤٦) جواد علي، المفصل ج ٢، ص ٢٧، ٣٤، ٤٥، ٤٩. سعد زغلول، تاريخ العرب ص ١٤٣ ــ ١٤٥. نقلا عن سترابون الذي قيل انه شارك في هذه الحملة.
(٤٧) لامنس، النصارى في مكة قبيل الهجرة مجلة المشرق. المجلد ٣٥ ص ٩٢ (١٩٣٧).
(٤٨) جواد علي، المفصل ج ٣، ص ٤٩.
(٤٩) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ٢٥٤، ٢٥٥.
(٥٠) الكلبي، كتاب الاصنام ص ٨. تحقيق احمد زكي، الدار القومية ــ القاهرة ١٩٦٥.
(٥١) جبرائيل جبور، مواسم الحجاز، مجلة المشرق، المجلد ٣٣، ص ٥٦ (١٩٣٥).
(٥٢) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٣١.
(٥٣) ابن حوقل، كتاب صورة الارض ص ٤٣.
(٥٤) ابن المجاور، تاريخ المستبصر ص ٤٠.
(٥٥) ابن خرداذبة، المسالك ص ١٣٤ ــ ١٣٦.
(٥٦) ابن حوقل، صورة الارض ٤٦ ــ ٤٧.
(٥٧) اليعقوبي، بلدان ص ٣١٧. ابن خرداذبة، المسالك ١٣٤ ــ ١٣٦.
(٥٨) تمتد على عشر مراحل «كلها عامرة آهلة». اليعقوبي، بلدان ص ٣١٣.
(٥٩) المكان نفسه.
(٦٠) وردت قبلها الحفيرة، مركز بني فهر من قريش الظواهر. المكان نفسه.
(٦١) المكان نفسه. ابن رسته، الاعلاق النفيسة ص ١٧٨. مطبعة بريل ليدن ١٨٩١.
(٦٢) وردت قبلها (الروحاء) في البلدان التي وصفت بانها من املاك مزينة (ص ٣١٤). الاعلاق النفيسة ص ١٧٨. احسن التقاسيم ص ١٠٦. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٥٠ ــ ٣٥١.
(٦٣) وردت قبلها العرج. البلدان ص ٣١٤، وهي مركز كنانة.
(٦٤) وصفت بانها قرية عظيمة قريبة من البحر وكانت مركز اسلم. البلدان ص ٣١٤، الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٥) كانت مركز سليم، وكان بها سوق وماؤها من الابار. البلدان ص ٣١٤. الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٦) مركز خزاعة، ووقد وصفت بانها «كثيرة الاهل خصبة». الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٧) البلدان ص ٣١٤. الاعلاق ص ١٧٨.
(٦٨) وردت في البلدان «مرّ الظهران» ص ٣١٤. وهي محطة كثيرة النخل وفيها بركة تنحدر اليها الماء من جبل مجاور. الاعلاق ص ١٧٨. ابن خرداذبة، المسالك ص ١٢٨.
(٦٩) كانت مركز غفار وهي تقع بين يثرب ووادي الصفراء، وقيل ان نهرا جاريا كان يمر فيها. احسن التقاسيم ص ١٠٧. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٣٥٠
(٧٠) السويدية في احسن التقاسيم ص ١٠٧.
(٧١) الاعلاق ص ١٨٣.
(٧٢) احسن التقاسيم ص ١٠٧. ابن خرداذبة، المسالك ص ١٣٨.
V. VAGLIERI, Dûmat AL-Djandal, EncyClopédie de L'Islam, tome II, p. 640.
(٧٣) نورمان بينز، الامبراطورية البيزنطية ص ٢٧٧.
(٧٤) LAMMENS, L'Arabie Occidentale p. 1928.
(٧٥) ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٨.
(٧٦) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ١٥٣.
(٧٧) ابن خرداذبة، المسالك ص ١٤٧. جواد علي، المفصّل ج ٧، ص ٣٤٤. راجع خارطة «الجزيرة العربية» للادريسي. سعد زغلول تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٦٧.
(٧٨) العلي، محاضرات ص ٣٦.
(٧٩) جواد علي، المفصل ج ٢، ص ١٧ ــ ١٨.
(٨٠) جواد علي، المفصل ج ١، ص ٢٢٠.
(٨١) العلي، محاضرات ص ٩٦ ــ ٩٧.
(٨٢) وصفت (ظفار) بانها المكان الذي كانت تتجمع فيه محاصيل البخور وتنقل عبر وادي حضرموت الى اليمن قبل تسويقه. زيادة، الجغرافية والرحلات ص ٢٠١.
(٨٣) احسن التقاسيم ص ٩٧.
(٨٤) المكان نفسه.
(٨٥) المكان نفسه. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٠. DIEHL, Byzance, p. 89 احسن التقاسيم.
(٨٦) المكان نفسه.
(٨٧) المكان نفسه. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٢. الشريف. مكة والمدينة ص ٢٠٦.
(٨٨) الشريف، مكة والمدينة ص ٢٠٦.
(٨٩) المقدسي، احسن التقاسيم ص ١٨١. جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٤.
(٩٠) اليعقوبي، تاريخ ج ١، ص ٢٧٠

LAMMENS, la république marchande p. 47.
(٩١) جواد علي، المفصل ج ٧، ص ٢٩٣، ٣٠٨.
(٩٢) المرجع نفسه ج ٧، ص ٢٩٧.

تاريخ زرع الأعضاء في الإنسان

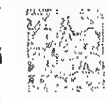
د. إبراهيم فريد الدُّر

لا يولد الانسان وينتهي كفقاعة الهواء، بل يذوي تدرجا، فلا يتمتع بشيخوخة جميلة. وما بين امراض واحداث يفقد الشاب عضوا لابد من تبديله انقاذا لحياته. وسعيد من يجتاز هذه الاشواك سليما. تركيب الاعضاء حلم داعب مخيلة الانسان من فجر التاريخ. تروي الاساطير اليونانية قصة ديداليوس وابنه ايكاروس اللذين صنعا اجنحة ليطيرا فرارا من سجن. فذاب شمع النحل المستعمل للصق الاجنحة... لكن اليوم تقدمت التقنية، وما زال الطرف المصنوع افضل من المزروع، لضعف تكوين الاعصاب في رجل مزروعة مثلاً.

ثم حلم الانسان بزرع الاعضاء فنجد الاساطير تنتج حيوانا ينفث النار لهبا من جسم ماعزة تحصنت بالاسد رأسا، وبالثعبان ذنبا. الخُمَيْرُ خرافة، لكن الانسان انتصر، فزرع اول كلية ناجحة خلال منتصف القرن العشرين.

هذه قصة صراع الانسان مع جسمه الرافض للتبديل قديما والقابل به جديدا، فمن وجهٍ يُحَسَّن ومن عضو يُبدَّل... اما الشباب فغير مسترجع!

علم الأقدمين



لا تدل المخطوطات الهيروغليفية على قيام علماء الفراعنة بزرع الجلد أو الأعضاء؛ وما تزال هذه الأمور مدار بحث وجدل بين الخبراء. يبدو أن الهنود اهتموا بزراعة الجلد أو نقل قطع منه من مكان إلى آخر في الجسم نفسه، نتيجة عاداتهم القاضية بتشويه وجه السارق والزاني والمغضوب عليهم من أهل الرياسة والسياسة، فكان الجاني يسعى بعدئذ إلى التخلص من الوصمة بعمليات من التجميل الجراحي.

■ د. ابراهيم فريد الدر: ولد في فلسطين ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت. حاز على شهادة الدكتوراه بالكيمياء الحياتية والعضوية من W.R.V. ـ أوهايو ـ الولايات المتحدة الاميركية. حالياً أستاذ في كلية الطب ـ الجامعة الاميركية في بيروت.

سوشّروتا سامهيتا مخطوطة طبية هندية ــ سنسكريتية ترجع إلى عصور ما قبل الميلاد، لكن أقدم نسخة مؤرخة تحمل تاريخ القرن الخامس للميلاد. المرجح أن جراحاً قديراً اسمه سوشروتا قام بعمليات التجميل في القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد، ولقد أسهب في مصنفاته في وصف عمليات لنقل قطع الجلد من الجبين والرقبة والوجنات، لتصليح الأنف والأذن والشفة. يقول سوشروتا (... على المرء أن يكون خبيرا في تقنية الجراحة...). من الطريف أن أكثر الذين مارسوا هذه الجراحة كانوا من صناع البلاط والفخار المنتمين إلى طبقة كوماس.

لم يكن لأطباء اليونان شأن يذكر في هذا الحقل، أما جراحو مدرسة الاسكندرية (القرن الثالث قبل الميلاد) فقد صححوا نقصاً أو تلفاً في الأنف والأذن والشفة، واستعملوا شرحات معزولة من الجلد. نستدل على هذه المآثر من مصنفات المؤرخ الموسوعي (سلُسُس) الذي عاش خلال القرن الأول للميلاد، وجمع تقنيات مدرسة الاسكندرية. بالرغم من قلة إلمامه بالشؤون الطبية، الا انه ذكر عمليات التجميل لإزالة الندب المشوهة للجلد، واصلاح اعضاء كالقضيب وغيره. ولقد أحيا جراحو القسطنطينية عمليات التجميل حتى للجفون كما تدل على ذلك موسوعة اوريباسيوس (القرن الثالث للميلاد) الطبيب الذي كان مشهودا له بصحة السند وثقة التأريخ.

اما جالن (القرن الثاني للميلاد) المشهور فقد ازدرى هذه العمليات، مما اعاق تقدم الجراحة لما كان له من مكانة رفيعة آنذاك. ثم جاء الجراح المشهور بولس الايجي في القرن السابع للميلاد، فقام بعمليات تزيل التشوه من أجساد منكل بها، وكانت اقامته في جزيرة ايجينا اليونانية. ولقد ترجم له حنين بن اسحق (المتوفى ٨٧٧م).

الجراح أبو القاسم:

سجل الرازي (المتوفى ٩٢٤م) في كتابه الحاوي تفاصيل عمليات التجميل ذكراً للهندي سوشروتا. لكن الغرب لم يستغل هذه المعلومات، إما لأنه فاته الاطلاع على أجزاء مفقودة من كتاب الحاوي، وإمّا لجهل غمر اوروبا طويلاً. أما في الأندلس فقد قام اعظم جراح عربي، أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (٩٣٦ــ١٠١٣) بمآثر كثيرة في جراحات دقيقة منعا للتشويه، وكان أول من استعمل ربط الشرايين الدقيقة، ثم أسهب في شرح هذه الأمور في موسوعته (التصريف لمن عجز عن التأليف). ترجمت الموسوعة الى اللاتيينية لكن اوروبا تجنبتها في عصور تحريم التشريح فقطع على الجراحة تقدمها، فلم تبعث الجراحة العامة إلا في القرن الرابع عشر في مدينتي سالرنو وبولونيا في ايطاليا، ثم لحقت بالجراحة العامة عمليات التجميل في عصر النهضة (القرن ١٥ و١٦).

مدرسة سالرنو:

تألقت مدرسة سالرنو في القرنين الحادي والثالث عشر، وبقيت ذات شأن حتى ١٨١٢ فانتهت بحروب نابليون. لم تكن المدرسة ركنا للخلق، بقدر ما كانت مركزا لاحياء التراث وتوزيع الآراء بين الجراحين. وإليها يدين أكثر الجراحين، آنذاك، بما مهدت له من جو ملائم مشجع لممارسة التشريح والجراحة. وكانت سالرنو ممرا مزدهرا بالقادمين من الحجاج والتجار.

من سالرنو الى مدينة بوبونيا (ايطاليا) اشتد الاقبال على جراحات التجميل، فقام جراحون من بولونيا بمرافقة الحملات الصليبية، وأجروا عمليات كثيرة على الجنود. وفي بولونيا المدينة كانت اول عملية لاعادة أنف انفصم من محله. من هاتين المدينتين انتقلت الجراحة جنوبا الى صقلية في بلدة كاتانيا مقابل كالابريا عند مضيق مسينا. هنا اشتهر جراح القرن الخامس عشر برانكا الذي تفنن في تجميل الوجوه المشوهة، واقتفى أثره ابنه انطونيو. ولقد اعتنق الجراحون تقنيات الوالد وابنه، فانتشرت، ونستدل من الوثائق ان الحماس كان عظيما بقدر ما كان الجدل ساخنا حول جراحات نقل الجلد وزرعه، وتصحيح الآذان والأنوف وإعادتها الى مكانها.

الجراح تاجلياكوزي:

لا ندري مدى نجاح الجراحات المذكورة في عصور خلت من المفاهيم العلمية ومبادىء التعقيم والعلوم الأساسية. لا ريب في أن أكثرها انتهى إلى الفشل. ولربما كان انتشار العمليات مقدمة لاندثارها، بما جلبت الشهرة من شهود الفضائح!

حاول جراح عظيم في مدينة بولونيا، جاسبارو تاجلياكوزي (١٥٤٧ــ١٥٩٩) ان يعالج امور الزرع بطرق عقلانية، فقدم وسائل جديدة وحسّن النهج والأدوات الجراحية، وشرح بدقة تفاصيل العملية منعا للبس، وأرفق الشروح برسوم، وهو الذي قابل بين عملية زرع الأعضاء في الانسان وزرع نبات على نبات (التطعيم) وهو الذي لخص المصادر القديمة، ونادى بأن لا نجاح لزرع جلد منقول من حيوان الى آخر مختلفين نوعا. ثم شدد على وجوب الالتزام بعوامل كثيرة لنجاح الزرع، أهمها أن يكفل الجراح دورية دموية غزيرة في مكان الزرع لتتغذى النسج الملصقة بعضها ببعض. وهكذا جاء كتابه (المعالجة بالزرع في جراحة المشوهين) علما من اعلام التاريخ الطبي. بالرغم من جهد جاسبارو صارت الجراحة الى النسيان، ودخلت سباتا دام قرنين.

اندثار ثان للجراحة:

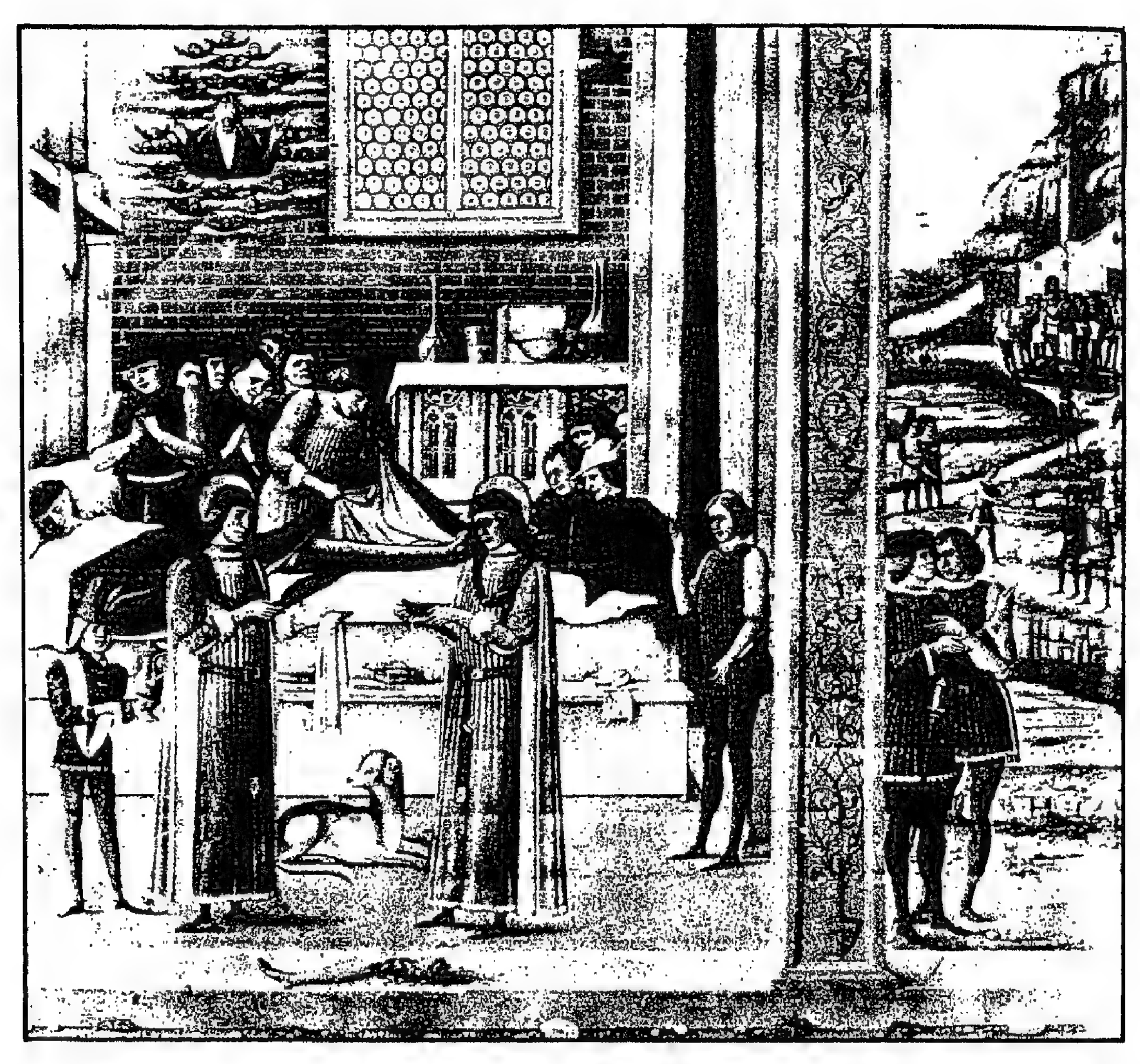
من الأسباب التي قادت الى انتكاس عمليات الزرع كثرة الأخطاء ونقص في الكتب الموثوق بها، فكان مصنف جلياكوزي نادرا جدا. خاف الناس هذه العمليات وخيبت امالهم فابتعدوا عنها. مما زاد في النفور ازدياد السخرية والساخرين امثال موليير (١٦٢٢ــ١٦٧٣) الذي صب سخريته اللاذعة على الأطباء، وأمسى الجراح مدار الهزل والاثارة في عالم الكتابة والمسارح.. ثم جاءت حروب القرن السابع عشر بأسلحة جديدة وفتاكة غيرت نوع الاصابات، وأمسى الجراح يواجه اطرافا مقطعة، بدلا من أجزاء مشوهة، مما فرض عليه تبديل تقنياته وأساليبه. بعد ذلك لحق الناس بعلاجات جديدة اقنعهم بها دجالون، لجأوا الى خرافات المغنطيس والأرواح، كوسائل لاستعادة الأطراف وتصحيح الأخطاء. أما الضربة القاضية فجاءت من منافسة الأطباء للجراحين. كان الجراح هو الطبيب والخبير، ولم يكن لما يسمى اليوم (الطب الداخلي) شأن يذكر، حتى جاء عمالقة أطباء فلاسفة مثل جون لوك (١٦٢٤ــ١٦٨٩) الذي هاجم التشريح بشدة، ودعمه في الهجوم عميد كلية الطب في باريس الذي اتهم الجراحين بأنهم (... جنس الشر والحمق والغرور، يطلقون شواربهم ويشهرون الموسى). إلى كل هؤلاء انضمت جماعة ثارت على الجراحين الذين يتدخلون في اعمال الخالق الباري.

الجراحة تبعث:

في تشرين الأول ١٧٩٤ نشرت (مجلة الجنتلمن) البريطانية رسالة بلا توقيع، تذكر ان جراحة تجميل الأنف ما زالت شائعة في الهند، نتيجة التقاليد الاجتماعية.. اثارت هذه الرسالة اهتمام الخبراء والناس، وكان كل شيء عن الهند يثير اهتمام الانجليز الذي استعمروا الهند آنذاك، فسيطرت شؤون الهند السياسية والاجتاعية على تفكير المستعمر. ومما زاد من اهتمام الناس بالهند حادثة ما يسمى (حجر كلكتا الأسود). ففي حزيران ١٧٥٦ هجم نائب البنغال سراج الدولة على كلكتا، عاصمة الهند آنذاك، فهرب الانجليز تاركين الجالية الاجنبية وراءهم، فأسر سراج الدولة ١٤٦ من افرادها، وحشروا ليلة العشرين من حزيران في غرفة صغيرة فاختنقوا جميعا الا ٢٣ نفرا، انقذوا بعد ليلة واحدة من السجن. ولقد كتب واحد منهم أحداث تلك الليلة المرعبة في قصة (الحجر الأسود).

جون هنتر:

سميت عملية نقل الجلد من الجبين الى المكان المشوه (النهج الهندي). ثم رافق الحماس الشعبي لعمليات التجميل، تجارب مخبرية قام بها لأول مرة الجراح العالم جون هنتر (١٧٢٨ــ١٧٩٣). اتبع هذا العالم النهج التجريبي العلمي في جراحة الحيوانات، ومراقبة احوال الحيوان بعد العملية، وتحسين الزرع



كوزماس ودامیان (القرن الثالث للمیلاد) ینقلان ساقاً من رجل میت إلى آخر فقد رجله، ولقد أعدمهما الفرس حین غزوا سوریا. لاحظ الساق المطروحة أرضاً

حتى أتقن أحكامه، ثم طبق ما تعلمه على البشر. بذلك رفع هنتر الجراحة الى مقام العلم، كما ارتقى الجراح ثانية في سلم المجتمع. ثم جاء جراح في الجيش البريطاني، جوزيف كاربيبو (١٧٦٤ــ١٨٤٦)، اكتسب صداقة الملك جورج الرابع، وأجرى عمليات على ضباط الجيش، وأظهر أهمية العمليات بما فيها المسماة بالنهج الهندي، وصنف كتابا (١٨١٦) سماه (قصة عمليتين ناجحتين لاعادة انف مفقود!)، لاقى الكتاب رواجاً ساعد في الاقبال على هذه العمليات ثانية.

حين أرسى هنتر أركان النهج التجريبي شاعت تقنيته وظهرت اطروحات جامعية مثل (الزرع التجريبي وتوالد النسج)، ثم كثرت في القرن ١٩ محاولات استعمال قطع من الجلد المعزول بدلا من لصق عضو بعضو لينمو الجلد بينهما، ثم يقطع بعد اكتمال الزرع، لكن نسبة النجاح كانت ضئيلة. وفي اواخر القرن التاسع عشر حاول الفرنسيون تجارب في زرع العظم!

جون ولف:

تم النصر النهائي على يد جون ولف (١٨٢٤ــ١٩٠٤) حين زرع قطعة معزولة من الجلد ونجح، ذلك أنه أزال من الجلد كل النسج

اللاصقة به من دونه، ولقد أصاب حين نادى ان هـذه النسـج تسبب رفض الجسم للجلد المزروع. بعد هذا الانتصار كتب ولف (... نحن الآن أحرار في انتقاء قطعة جلدية من أي مكان في الجسم نجده ملائما للعملية...).

نقل الجلد من مكان لزرعه في مكان آخر مهد لدراسات اساسية بيولوجية، ولا سيما بعد ان ثبت فشل نقل النسج بين مخلوقات تختلف نوعا، وما ادعاه بعض العلمـاء من نجاح في تبـديـل جلد الانسـان بجلد من القط والكلب والحردون. بديهي أن يبحث الخبير في اسباب الاختلاف بين جلد مأخوذ من ابن النوع الواحد وجلد مـأخوذ من غـريب. وفي اوائـل القـرن العشرين هيمن علماء مثل اولبير وثيرش اللذين أرسيا المبدأ القائل (...الفروق بين شخص آخر، أو نوع وآخر تفسر رفض جسم الموهوب لزريعة منقولة من واهب غير قريب...).

القرن العشرين:

شهد مطلع القرن العشرين فتوحات كثيرة افادت العلوم كلها. في ١٩٠٠ اكتشف العلماء قوانين مندل في الوراثة التي كان قد نبه اليها هـذا الراهب من عـام ١٨٦٥ لكن احـدا لم يفهمها. اعادة الاكتشاف لقوانين الوراثة جاءت سندا قويا لنظرية داروين الذي اثـاره العالم حوله. المهم أن هذه الفتوحات قدمت تفسيرا معقولا للفروق والشبه إما بين انواع الكائنات، وإمـا بين افـراد النوع الواحـد. وفي ١٩٠٠ اكتشف النمساوي لاندستاينر فئات الدم المعروفة اليوم بين البشر، ونال جائزة نوبـل (١٩٣٠)! هذه التطورات افادت تقنيات نقل الدم وغرس الجلد والأعضاء أو زرعها، لا بل ان معالجة الانسـان للدم رافقت معـالجتـه لزرع الجلد والأعضاء، فلا عجب اذا تم اقترانهما خـلال العصور الطويلة.

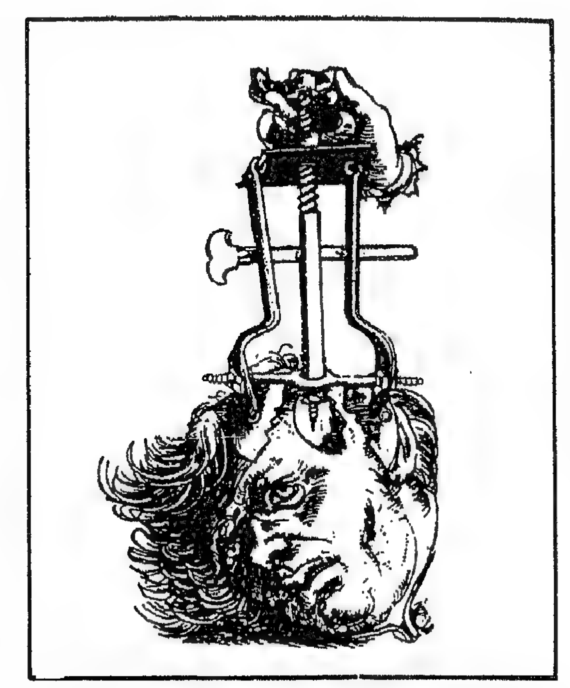
نقل الدم (الاصفاق):

اكتسب الدم من بـين كل أجـزاء الجسم صفات غامضة وسحرية من فجر التاريخ. حين ظن الانسان ان قلبه مقر الوعي والعاطفة، عزا الى الدم نقل الصفات العقلية والبدنية المعروفة في أجناس البشر وقبائلهم وعائلاتهم. من أجل ذلك اكتسب الدم حرمة هابها العلماء الاقدمون، وكان الاعدام نصيب من حاول البحث في هذا السائل المقدس.

لا توجد أدلة على محاولة الانسـان القديم نقل الدم بين المخلوقات، وإن كثرت الظنـون. المخطوطة الهيروغليفية الطبية المعروفة بـاسم (بـردي سميث) تذكـر انحـلال الدم وتخثـره كأسباب وراء علل كثيرة منها الخرف. وزعمت المخطوطة ان تبديل الدم يبعث الشباب، ولقد خلد الكاتب اوفيد هذا الزعم في قصته المشهورة (التحول) عن الشيخ الذي استعاد شبابه بعد تبديل دمه الضعيف بسائل سحري جديد.

ليس من الغـريب اذن ان لا نجـد ذكـرا لمعالجة الدم خلال العصور، ولا نسمع الا زعما اخـر حول اعـطاء البـابـا اينـوسنت الثـامن (١٤٩٢) دما من ثلاثة شبان، لكن سعيه وراء الشباب قد أخفق! استمرت حرمة الدم حتى القرن السادس أو السـابع عشر حـين نادى بعض الخبراء بتبديل دم المجرمين بدم صالح علهم يهتدون! ويقال ان اول محاولة لنقل الدم لأسباب صحية جرت في جامعة بادوا الجليلة. هذا الخوف من الدم يفسر جـزئياً انصـراف الغرب عن دراسات العرب حول هذا السائل وما قدموه من فتوحات في تحديد دورانه. لكن بعـد أبحاث هـارفي تجرأ طبيب من فلورنس، فرنسيسكو فوللي، فنشر كتابا (١٦٨٠) قال فيه (... أنا اول من ابتدع فكرة نقل الدم بعد ان تذكرت توءمين متصلين، كان احدهما قادرا على الأكل، اما الثاني فكان يصله الغذاء من دم شقه(*)) ثم وصف هذا الطبيب الجهـاز الذي اخترعه لنقل الدم، لكنه لم ينفذ فكرته! لا ندري صحة اقوال هذا الطبيب، لكن من الثابت أن مراكز كثيرة حاولت نقل الدم خفية بين مخلوق وآخر، ونعرف أن كلية جريشام البريطانية قامت بهذه العمليات في اواسط القرن السابع عشر. وفي (١٦٦٦) حاولت الجمعية الملكية البريطانية

(*) توءمان شقان، أي كلاهما من بيضة واحدة



تمثال خشبي في القرن السادس عشر للميلاد يبين عملية قدح الجمجمة لتفلت منها الأرواح الشريرة

نقل دم بين كلب وانسان. بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان يفرضها القانون البريطاني على من يحاول العبث بالدم!

الدم يفقد حرمته:

في ١٥ حزيران ١٦٦٧ قام استاذ الفلسفة في جامعة مونبيلييه، الدكتور جين دنيس، طبيب لويس الرابع عشر، بأول تجربة رسمية لنقل الدم الى انسان. سنحت له الفرصة ذلك النهار حين جاءه شاب ابن ١٥ سنة يشكو من حرارة عنيدة وقوية ولم يسعفه الفصد من قبل. عندئذ سحب دنيس من الشاب نصف كوب من الدم المفصود من الأكحل (عرق كبير في الذراع)، وأعطاه كوبا من دم نقي مسحوب من شريان في عنق الحمل (الوريد أو الودج). لا ريب في أن المريض لم يوافقه دم الحمل بحجة تذمر الشاب (... اشعر بحرارة عظيمة تسري في ذراعي..). لكن مصادر العصر تزعم أن الشاب تحسن وأن الطبيب ابتهج (ولا ندري ما حل بالشاب بعد ذلك!). ثم أعاد الطبيب التجربة على رجل ابن ٤٥ سنة فأعطاه بنجاح نصف لتر من دم الحمل! استعمل الطبيب رجلا سليما ليدل على سلامة العملية!

اما عملية دنيس الثالثة فكانت لشفاء رجل من جنونه، فغير دمه، لكن المجنون بقي على جنونه بعد نجاته بأعجوبة من أعراض التنافر بين دمه ودم الحمل، اذ أصيب بغثيان، وتخثر الدم، وسرعة النبض للقلب وأوجاع شديدة!

وفي ٢٣ ت٢ ١٦٦٧ قام أحد رواد نقل الدم وهو الدكتور ريشترد لوار بنقل مباشر للدم من عنق الحمل الى ذراع شاب عمره ٣٢ سنة. يبدو أن الشاب كان مختل العقل، ولما سئل (لماذا اعطيت دم حمل..) أجاب (... الحمل رمز التضحية) وفي جوابه بيان للصبغة الدينية حول موضوع الدم.

ثم عاد دنيس الى محاولة رابعة على ابن وزير الدولة السويدي، البارون بوند، فمات. لكن ثبت ان وفاته كانت من التهاب (غنغرينة) في امعائه، الا ان ردة الفعل العنيفة مع وجود معارضة خلقية ودينية لهذه العمليات جعلت رجال القانون في العالم كله يتفقون على معاقبة من يقوم بهذه العمليات.

نقل الدم ممنوع:

يبدو أن الدكتور دنيس شاء امتحان القانون فنقل دم عجل الى مريض بحضور ممثل لحاكم كندا الذي اهتم بالعملية. لكن المريض مات، فسيق الطبيب الى المحكمة، وبرىء بعد جهد. لكن هذا الحدث قاد الى منع قاطع جازم لكل هذه العمليات، ولم يعرف العلم محاولة لمدة مئة وخمسين سنة.

لا بد من تنبيه القارىء إلى ان ما قيل عن نجاح الخلط بين دم انسان وحيوان في العمليات المذكورة هو زعم ثابت بطلانه. أوهام الابتهاج وقلة متابعة ما حدث للمريض بعد العملية يقللان من صحة التأريخ. ثم ان تجلط الدم معروف، لا يقبل الجدل، ولا سيما بين افراد من البشر فكيف بالحيوان. استعمل القدماء قصبة جوفاء لنقل الدم بين المريض والحيوان. القصبة وحدها تفسر نجاة بعض المرضى، ذلك لن الدم تخثر داخلها، فمنعت الجلطة انتقال مزيد من الدم، بينما ظن الطبيب ان الدم يسيل



نقل الدم من عنق الحمل إلى ذراع المريض الأيسر بينما يقوم جرّاح آخر بفصد المريض من ذراعه الأيمن

بلا انقطاع. ولربما ما شعر به المريض من ضيق هو نتيجة دخول كمية قليلة، ثم نجا بعد انسداد القصبة! منع الدم من التلجط هو اكبر معضلة واجهت علماء العصور الحديثة، لذلك انصرف العلماء الى معالجة هذه المشكلة اولًا.

لم تظهر كتابات ولا اختبارات حول الدم حتى مطلع القرن التاسع عشر حين نشر بول شيل (١٧٣٣ ــ ١٨١١) اول مراجعة جديدة عام ١٨٠٢ حث فيها العلماء على فتح موضوع الدم!

انقاذ الحوامل بنقل الدم:

استجاب للنداء الطبيب النسائي جيمس بلندل (١٧٩٠ ــ ١٨٧٧) بعد ان ازعجته كثرة الوفيات الناشئة من نزف الولادة. يبدو انه كان حريصاً ودقيقاً، فأجرى التجارب على الحيوان، وأثبت مبدأ (عدم التوافق بين دماء أنواع مختلفة من الكائنات) بعد ان شاهد كلاباً تموت اذا اعطيت دم خروف.

ثم قام بلندل بفتح مذهل حين اعطى مريضا متعبا دم انسان عام ١٨١٨، وكان الطبيب حريصا اكثر مما تستدعي ظروف العملية من حرص. كرر عملياته الناجحة ست مرات على اشخاص مشرفين على الهلاك فأنقذهم. كتابه في (علم التوليد) حدث تاريخي عظيم. هو الذي شدد على اهمية استعمال الابرة (او الحقنة)، وأهمية اعطاء الدم تدرجا وبكميات قليلة. هيمنت اساليبه ومعداته خمسين سنة وأكثر. لكن المعضلة الأساسية، تخثر الدم، بقيت عقدة اعيا على لخبراء حلها.

اقترح الخبراء ازالة المواد المسببة لتخثر الدم، وظن الخبير سكوارد ان غاز ثاني اوكسيد الكربون هو السبب، ونادى (١٨٥٧) بازالة اكثره من الدم، وادعى ألّا خوف من خلط دم حيوان وانسان بعد ازالة الغاز من دم الحيوان. صدقه طبيب اميركي فأعطى دم حمل الى مريض بالسل فقضى عليه، وقضي على محاولة نقل الدم ثانية، الا بين النساء في حال الولادة!

فتح جليل:

عقبة التجلط التي دوخت العلماء زادت من احباطهم حين هبت رياح الحرب العالمية الأولى، واشتد الطلب على الدم! بعد محاولات يائسة

جـرب العلماء كل الأمـلاح، فـأفلح العـالم الارجنتيني، لويـزون، حـين اثبت في تشـرين الثاني ١٩١٤ ان اضافة ملح حامض الليمون يمنع تخثر الدم، وتم نقل دم مزود بهذا الملح عام ١٩١٥، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم. بعد الانتهاء من معضلة التخثر جرب العلماء خلط الدم بين افراد من البشر او بـين انواع من الكائنات، فثبت أن هناك معضلة مختلفة، وهي (التوافق او عدمه) بين أنواع من الدم، وكان لا بد من مواجهة هذ الأمر.

ولادة علم الحصانة:

بعد ان اكتشف لاندستاينر (١٩٠٠) فئات الدم اخـذ العلماء يبحثـون في الأسباب التي تجعـل دم شخص يـرسب اذا خلط مـع دم شخص اخـر، ولماذا لا يـرسب اذا خلط مـع شخص ثالث. ادرك العلماء عندئذ وجود مواد بروتينية في الدم والخلايا تسبب التـوافق او عـدمه بـين فئات الدم والنسـج. لكن توسـع مبادىء علم الحصانة لم تشجع العلمـاء على الاكثار من عمليات نقل الدم فبقيت محصورة في حالات طارئة حتى ١٩٣٠. بعد ذلك نشأت بنوك الدم التي أخذت تصنّف الدماء وتبوبها بحسب توافقها حتى أصبحت اليوم جزءاً حيـوياً من المراكز الطبيّة المدنية والعسكرية.

اما التطور الثـاني فكان ظن العلمـاء ان التوافق في الدم بين شخصين يعني التوافق في النسيج، لكن قلة من العلماء (١٩٢٤) حاربت هذه الفكرة قائلة أن توافق النسج هو غير توافق الدم، وإن كان لا بد من دم متـوافق لنجاح عمليات الزرع. فكرة الأقلية لم تهيمن مما يفسر فشـل عمليـات الزرع حتى منتصف القـرن العشرين.

في النصف الثاني من هذا القرن ثبت ان للنسج بروتينات لاصقة بسطح خلاياها، وهي التي تميز الأفراد والأنواع من بعضها بعضاً. ثم ثبت ان هذه البروتينـات موروثـة. يرجـع الفضل الى بيتر جورر الذي اكتشف (١٩٣٠) اول (بروتين التوافق) واثباته انه موروث، وبهذا تعززت مبادىء الحصانة بما لها من شأن في زرع الأعضاء وغيره من امور.

ثم جاء بيتر مدور اللبناني الأصل (مولود ١٩١٥) فاكتشف التفاعل الأساسي المسؤول عن الرفض والقبول للنسج المزروعة، ولفت الأنظار إلى قدرة جهاز الحصانة على التمييز بين ما هو منـه (الذات) ومـا هـو ليس منـه (الدخيـل، الغريب)، والجسم يقبل ويرفض بحسب التوافق بين نسج ذاته ونسج الشخص الذي ستنقل منه الأعضاء... اعترف العالم بفضل الدكتور مدور فنال هذا الانسان جائزة نوبل وغيرها من جوائز التقدير.

ولادة الهرمون:

لا ريب في ان هنتر المذكور سابقا هو والد الجراحة التجـريبية بمـا أرساه من مبـادىء استنتجها من دراسته على الحيوان، وله مآثر جليلة كزرع الأسنان وغيرها. وهو اول من نجح في زراعـة الناب البشـري على عـرف الديك. فتوحات هنتر قادت ايضا الى علم جديد نعرفه اليوم بالهرمونات. بينما نجح هنتر في زرع عرف ديك على ديك آخر، فشل في زرع العرف على دجاجة، فأثار هنتر فكرة وجود فروق كيماوية بـين الذكور والانـاث تفسر نجاحـه وفشله في العملية المذكورة. السعي وراء هذه المواد قاد الى اكتشاف الهرمونات، فصدقت كلمات هنتر (... الغدد تصنع من السوائل ما سيكون له شأن عظيم قريباً...).

زرع خصية:

خلف هنتر الطبيب شارلز سكوارد الفرنسي (١٨١٧ ــ ١٨٩٤) الذي نال أرفع الجوائز من الأكاديمية الفرنسية لأعماله في الجهاز العصبي ولنجاحه في إحياء النسج بعد تزويدها بشبكات دموية غزيرة. ثم قام بتجربة طريفة حين أخذ رأس شخص من عـلى المقصلة، ورواه بالدم واستطاع ان يثبت بأن عضلات الـرأس بقيت ١٣ ساعة بعد الاعدام قادرة على الاستجابة من تقلص وارتخاء.. وحين نجح سكوارد في زرع خصية، ولو مؤقتا، اشتعلت الدنيـا وأضاءت بحلم الشباب المستعاد! لا يخفى على القارىء مـا جلبته هـذه التجربـة من امـال مُحطّمةٌ شعوذات سيطرت على الناس جميعا. وبقي

سكوارد حتى اخر ايامه يحقن نفسه بخلاصة الخصية، ويقيس قوة نبضه ليقرر مدى نجاح الحقنة! مات سعيا وراء شباب ما زال (اكسيره) يدغدغ الانسان!

أهمية الشبكة الدموية:

في اواسط القرن التاسع عشر ظهر جراح عظيم، بول بيروت (١٨٣٠ــ١٨٨٦) نجح في زرع ذيل لفأر من آخر. لكن من اهم اكتشافاته اثباته ان نجاح الزرع بين أفراد النوع الواحد من المخلوقات يتطلب اولا نمو شبكة شعرية دموية تكفل الغذاء للقطعة المزروعة، وأثبت عيانا نمو هذه الشبكة في منطقة الزرع. وهو ايضا الذي ادخل عملية الوصل بين اثنين بواسطة الوصل بين جلديهما أو عضلتيهما. لكن هذه الفتوحات السابقة لعصره اهملت، ولا سيما حين اشتد النزاع بين مؤيدي داروين ومعارضيه، فتلهى العملاقان سيكوارد المؤيد وبيرت المعارض بجدل عقيم دام طويلا.. من امور الجدل أثير ما اذا كانت صفات الانسان مكتسبة ام وراثية، وعما اذا كان الزرع وسيلة الى تغيير صفات في الانسان!

جراحة الأوعية الدموية:

ذكرنا سابقا ان عام ١٩١٥ شهد اكتشاف املاح الليمون لمنع تخثر الدم، تلاه بعد ذلك اكتشاف الهيبارين (١٩١٦) لمنع الجلطة. ومن قبل كان الجراح ليستر قد أدرك اهمية ابحاث باستير في الجراثيم وأمراضها، فقدم محلوله المطهر والمعقم للجروح. هذه الأمور مهدت لأبحاث في تطوير وصل الأوعية الدموية بين العضو المزروع والجسم لتقوم شبكة غزيرة من الغذاء، كما أثبت بيرت من قبل. اذن خلق الشبكة الدموية ارتبط بعملية الزرع.

إلى الجراح الفرنسي الِكْسس كاريل (١٨٧٣ــ١٩٤٤) وشارلز جوثري (١٨٨٠ــ١٩٦٣) في شيكاغو يعود الفضل في تطوير تقنية الشبكة الدموية، اذ اخترعا الإبر الدقيقة والخيوط الملائمة وما تتطلبه عمليات دقيقة تكفل الوصل بين الأوردة والشرايين لتتم الدورة الدموية بلا انقطاع. بعد ذلك قاما معا ومنفصلين بعمليات زرع مذهلة، فنقلا القلب، والكلية، والغدة النخامية، والمبيض من حيوان الى آخر. ثم زرع جوثري رأس كلب كامل على عنق كلب آخر فأنتج نوعا من الخمير الذي تحدثت عن الأساطير، وارتفعت هذه التقنية الى قمتها بمآثر الجراح الروسي دوميكوف (١٩٥٤).

أتقن الجراحون عملية انشاء الشبكة الدموية في الأطراف المصابة مماجعلهم ينقذون المصابين من تقطيع اوصالهم. وتدل احصائيات حرب كوريا (١٩٥٧) ان بتر الأطراف هبط من ٦٢٪ الى ٧٪ من الضحايا. ولا يخفى على القارىء ما يقوم بها الأطباء من الاف العمليات التي لا تنجح الا بعد تصليح ممرات الدورة الدموية.

زرع اول كلية:

في منتصف القرن العشرين استطاع الدكتور جوزيف موري في بوسطن ان يزرع بنجاح ولأول مرة كلية بشرية، لتوأم يشرف على الموت، لعطب في كليتيه أخذها من شقّه. بما ان الفردين متطابقين كان النجاح مضمونا، على الأقل لأجل معلوم! لكن حتى ١٩٦٥ بقيت نسبة النجاح في زرع الكلى ضئيلة جداً وان كانت (أعلى بكثير مما كان يحلم به العلماء) كما قال الدكتور مدور، الذي أضاف (سيحتل علم الحصانة المكانة الأولى بين العلوم..) وصدقت نبوءته اليوم، وبعد ان شاهد العالم عمليات زرع القلب.

زرع القلب:

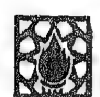
في ٣ كانون الأول ١٩٦٧ قاد الدكتور كريستيان برنارد (مولود ١٩٢٢) فريقا من ٣٠ طبيبا، فنقل قلب فتاة (دنيز دارفال، عمرها ٢٥ سنة) الى لويس واشكانسكي (عمره ٥٥ سنة)، بعد عملية دامت خمس ساعات. عاش المريض ١٨ يوما! وفي ١٩٧٢ جرت عملية ابقت المريض حيا خمس سنوات.

بعد نجاح هذه العمليات اهتز العالم الذي ما زال مغروما بالقلب، فأصبح موضوع زرع الأعضاء مدار الحديث في الشوارع والصالونات..! ومن الطريف أن أول قلب مزروع كان في «رأس الرجاء الصالح»!

■

مُلاحَظاتٌ حَولَ الهَندَسَة التَقليديّة في جَنوبْ شِبْه الجَزيرة العَرَبيّة

فالتر دوستال

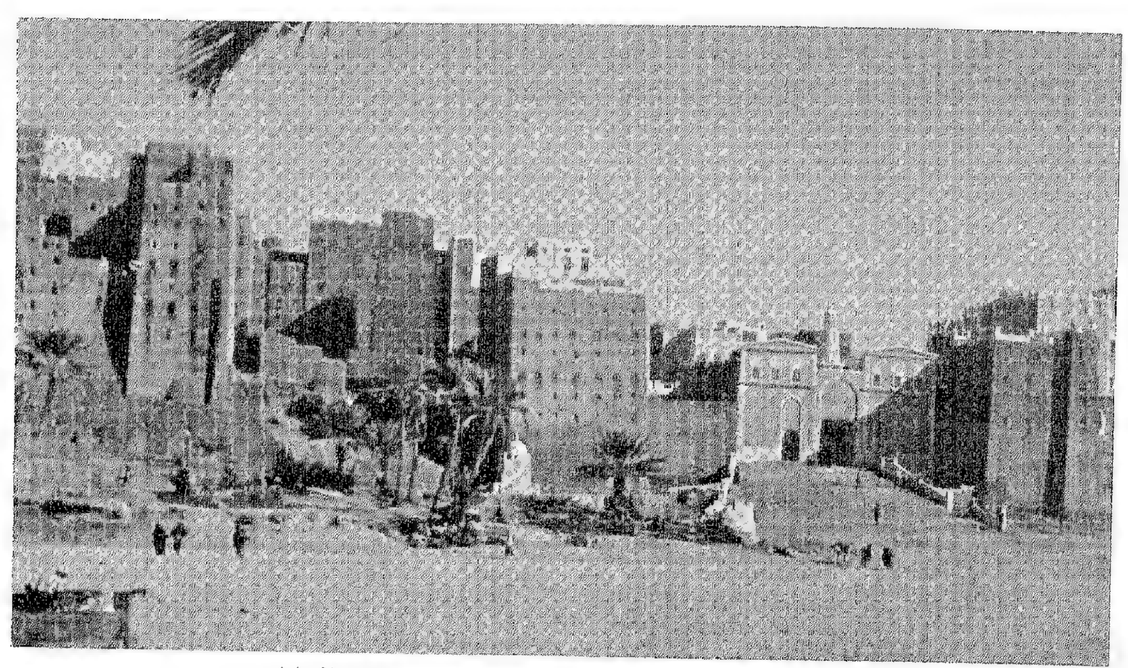


تقوم المعلومات الوصفية المدرجة باقتضاب في هذا البحث على أبحاثي التي بدأتها في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ عشرين عاماً، وذلك أثناء فترات إقامتي في حضرموت ومرتفعات رأس الخيمة واليمن الشمالي، بالاضافة الى رحلة دراسية قمت بها الى ظفار. أما المعلومات الخاصة بجنوب الحجاز وعسير فمقتبسة من عرض عام موجز لمشروع عمل مشترك بين معهد علم الشعوب في جامعة فيينا وقسم الآثار في جامعة الرياض. ويهدف هذا المشروع، الذي يشرف عليه المؤلف والأستاذ الدكتور عبد الرحمن أنصاري (جامعة الرياض) ويشترك فيه أنتروبولوجي سعودي شاب هو السيد عبد العزيز الأشبان، الى وضع اطلس إتنوغرافي لعسير لتوثيق الانتشار المساحي لشواهد الحضارة النفيسة الغابرة قبل زوالها والحفاظ على هذه الشواهد إتماماً للتاريخ الحضاري.

ومن الأهمية بمكان أن أوضح بايجاز سبب اختياري لفن الهندسة المعمارية التقليدية موضوعاً لهذا البحث. من أجل ذلك أبرز قضيتين هامتين قد يؤدي الالمام بهما الى تفهم الغاية التي أنشدها. وقبل ذلك، على سبيل التمهيد، أود أن أبدي ملاحظة شخصية: حين يكون المرء قد قضى أكثر من ٢٠عاماً في دراسة طرق معيشة البشر وعاداتهم وتقاليدهم في بلدان عربية مختلفة، فإنه لا ينظر الى هؤلاء البشر كموضوعات اختبارية للدراسة والتمحيص، وإنما يراهم بالدرجة الأولى كشركاء اتصال ويشاركهم أفراحهم وهمومهم على السواء. وتؤدي الأبحاث الأنثروبولوجية بطبيعتها الى قيام علاقات بين الباحث والشركاء تنشأ عنها وشائج طابعها الاحترام المتبادل. إن التقدير الخاص للانجازات الحضارية لهذه المجتمعات التي أتيحت لي فرصة التعرف عليها في الجزيرة العربية هو الذي دفعني بالذات الى اختيار هذا المجال الحضاري الجذاب موضوعاً لهذا المقال.

وأنتقل الآن الى معالجة وجهة النظر الأولى التي تمس المشكلة العامة للتحول الحضاري. يقدم التاريخ لنا أمثلة جلية توضح أن الحضارات تخضع لتأثيرات وتغيرات مستمرة. إلا أن هذه العمليات والتأثيرات لم تحدث بالسرعة التي تمت بها تلك التي نشأت عن الاتصال بين المجتمعات غير الصناعية والمجتمع الصناعي الغربي. وينطبق هذا القول بالذات على تلك البلدان العربية التي ترتبط، بسبب استغلال ثرواتها النفطية، بروابط اقتصادية وثيقة ومتشعبة بالمجتمع الصناعي. ويرافق هذا التشابك الاقتصادي تحولات تترتب عليها تغيرات في الحضارة التقليدية، تغيرات تخترق اليوم أعماق حياة سكان هذه البلدان. وتتلخص المشكلة الأساسية لهذا التحول الحضاري العنيف في تلاشي الذاتية الخلاقة للحضارات التقليدية، وذلك لصالح تقبل بعيد عن النقد لنتاج الحضارة الغربية. وإنه لمن السذاجة بطبيعة الحال أن نعتقد بأن مثل هذا الأخذ والنقل أمر غير مقبول، ولكن يبدو لي بأن هناك ما يبرر القول بأن عمليات الأخذ والنقل عن الحضارة الغربية يجب أن تتم بوعي ونقد. بمعنى تكييف المنقول مع الشخصية الحضارية الذاتية. وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالتأكيد عند إنشاء معمل للطاقة النووية، ولكنه قابل للتحقيق في حقل الهندسة المعمارية على سبيل المثال. فما هو التعليل المنطقي للأخذ بالرتابة الجامدة الكئيبة للهندسة المعمارية الغربية عند بناء البيوت الحديثة وإهمال الثروة التعبيرية في الأشكال والزخارف التي تزخر بها الهندسة التقليدية؟ والجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن الانجازات الحضارية للمجتمع الأصلي تسقط نهائياً في طيات النسيان إما نتيجة للجهل أو ربما بسبب الانسياق الأعمى وراء كل ما هو غربي. إن التصدي لهذا الاتجاه هو الغرض الحقيقي الذي أسعى اليه في هذا البحث.

بعد أن الحت الى أهمية العناية بالحضارة العربية التقليدية من أجل تشكيل حضارة المستقبل، فإن عليّ أن أذكر وجهة نظر أخرى تتعلق الى حد ما بالجزء الثاني من الغاية التي أنشدها في هذه الدراسة. وأعني بذلك الفائدة التي يجنيها علم الأنثروبولوجيا من معرفة الحضارة السابقة للمجتمع الصناعي، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شبه الجزيرة



الهندسة المعمارية للبيوت المرتفعة في حضرموت (شبام)

العربية من أكثر المناطق المجهولة إثنوغرافياً في العالم. ولذا فإن هذه الحقيقة تُلزم الأنثروبولوجي بالسعي الى تسجيل مواقع الحضارة التقليدية للجزيرة العربية وتوثيقها، قبل أن يصيبها الضياع والتلاشي بسبب التغيرات الحضارية الشاملة، وحتى يحافظ عليها كوثائق للتاريخ الحضاري. ونمثل على ذلك بفن الهندسة المعمارية، ومن خلاله نبين مدى ضرورة مثل هذا التوثيق وأهميته.

ومن وجهة نظر الأنثروبولوجيا، العلم الذي يسعى الى فهم الانسان، يمكن وصف فن العمارة بأنه محصلة أو نتاج الصراع المرير لسكان هذه المناطق للوصول الى أفضل تكيف مع البيئة. حين أحاول فيما يلي أن أوضح هذا البعد لفن العمارة، فإنه من البديهي أن أسأل عن طبيعة التخطيط في فن العمارة التقليدية. فالتخطيط هو تصرف عقلاني منظم لاشباع حاجات ومصالح معينة.

ومن وجهة نظر موضوع بحثنا نسأل الى أي مدى يمكن إدخال المعلومات المتوفرة حول الظروف البيئية الطبيعية في التخطيط المعماري عند بناء البيوت. وللإجابة على ذلك بصورة عملية بقدر الامكان، أدرج فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح المظاهر المختلفة لهذه القضية.

١ ـ من البقاع المختلفة لجنوب شبه الجزيرة العربية، التي تشتمل على تنوع في الطبيعة يتراوح ما بين المرتفعات الجبلية والمنخفضات الساحلية الصحراوية، أختار مثلين من المناطق الجبلية، فطبيعة التربة في هذه المناطق تسبب صعوبات شديدة عند بناء البيوت. ويوضح الرسم الايضاحي المرفق حلاً ايجابياً لهذه الصعوبات، ويبين مقطعاً عرضياً لأحد البيوت في جنوب الحجاز.

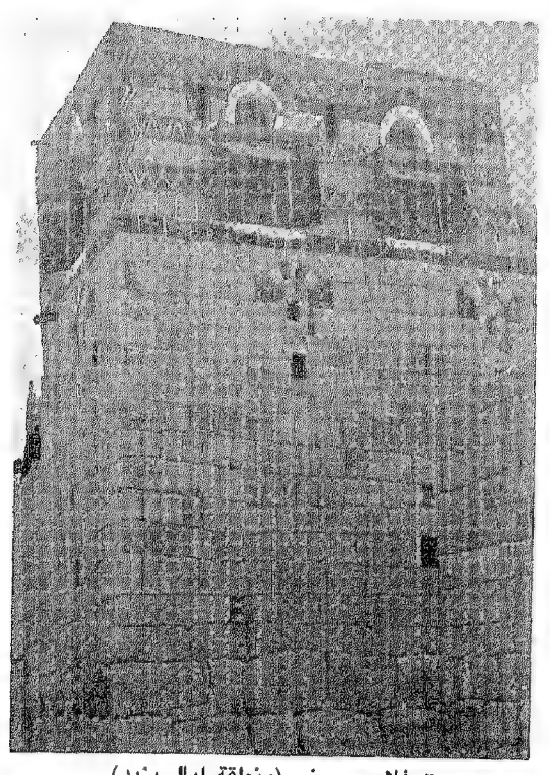
ويوضح المقطع العرضي بصورة جلية الطريقة التي استفيد بها من الانحدار الأرضي لموقع البناء، وذلك بانشاء البناء فوق المنحدر مع استخدام الصخور الكبيرة كعناصر لتثبيت البناء بادماجها في تكوين البيت. واذا تأملنا مليا مستوطنة شحوح في رأس مسندم يتوضّح بالدليل كيف يمكن استغلال أية مساحة أرضية لبناء البيوت وانشاء الشرفات الحقلية الزراعية بطريقة مدروسة منتظمة، حتى وان كان اختيار المكان سيسبب عزلة اجتماعية مؤقتة، لأن سكان هذه البقعة مجبرون على الهجرة الموسمية بسبب اعتمادهم على الأمطار في إمداد أنفسهم

بالمياه. وتفرض هذه الهجرة الموسمية بالذات على سكان الجبال عند نزوحهم الى السهول الساحلية مطالب عالية قاسية فيما يتعلق ببناء البيوت، إذ يقتضي ذلك أن يبتكروا مباني سكنية تتلاءم مع كل من المنطقتين الجغرافيتين.

ومن الضرورات الاقتصادية في تخطيط بناء البيوت أيضاً تأمين مواد البناء. ففي مرتفعات اليمن الشمالي يوجد لكل قرية مقلع للحجارة يعتبر ملكاً مشتركاً للمجتمع السكني. ويستطيع عمال المحاجر، الذين يمارسون مهنتهم الى جانب عملهم الزراعي، أن يمدوا كل شخص في القرية بمادة البناء هذه استناداً الى مبدأ الملكية المشتركة المذكور. وفي عسير يكفل الامداد بأخشاب البناء وفقاً للعرف المسمى بـ «الحيمة». ويعني ذلك أن جزءاً من الملكية المشتركة مستبعد من الاستخدام اليومي بحكم العرف. ويشمل بعض المراعي المحددة والأشجار الثمينة. ولا يستطيع الفرد الحصول على خشب البناء من (منطقة الحيمة) إلا بموافقة الجماعة. وهكذا فعرف الحيمة أجراء فعال لحماية البيئة وللحيلولة دون السطو الأناني على الثروات الطبيعية وتبديدها.

٢ ـ يؤثر المناخ كذلك بدرجة عالية على هندسة المباني. وعلى العموم فإن شبه الجزيرة العربية تتسم مناخياً بجو جاف ودرجات حرارة عالية في الصيف، ودرجات حرارة دافئة نسبياً في الشتاء مع أمطار شتائية من وقت الى آخر، إلا أن هذا المناخ يتعرض تحت تأثير البر والبحر، والجبال والصحراء، لتغيرات أساسية تؤدي الى تكوين مناطق مناخية مختلفة وفقاً لتباين البقاع الجغرافية. وهكذا يتكون في الجبال مناخ خاص، تكثر فيه الأمطار وتنخفض فيه درجة الحرارة، في حين يصبح المناخ الرطب الحار في المناطق الساحلية محتملاً بفضل تغير الريح المنتظم وفقاً للفصول. وفيما يلي سأتخذ من العاملين المناخيين، الريح والمطر، مثالاً لأوضح الانشاءات البنائية التي ابتكرها سكان شبه الجزيرة العربية لاستغلال الرياح الملطفة للجو وللوقاية من الأمطار.

أختار في بادىء الأمر المنشآت المعمارية التي تستغل الرياح كعامل للتبريد. ومن حيث النمط



بيت فلاحي يمني (منطقة ايال يزيد)

البنائي فانها تنقسم الى فئتين: أبنية ذات ملاقف (جمع ملقف أو منور) لسحب الريح وتحويله الى حجرة في البيت، وأبنية ذات فتحات خاصة في الجدران وفقاً لتصميمات محددة تسمح بدخول الريح.

وتنتمي «أبراج الرياح» الى الفئة الأولى. وهناك نوعان في جنوب شبه الجزيرة العربية وهما: البرج، وهو برج الريح المفتوح من الجهات الأربع، ثم الحصن. وكل منهما بناء مكعب الشكل يقام على سطح البيت.

ويبنى البرج، بارتفاع يقارب المترين الى الثلاثة، من جدار مركزي داعم وأربعة أعمدة خارجية. تؤمن مجرى دائماً للهواء اذ توجدُ بذلك أربع فتحات مستطيلة. ويمكن فتح هذه الفتحات أو اغلاقها بواسطة ألواح خشبية وفقاً لاتجاه الريح، وذلك لالتقاط الريح. وتتصل هذه الفتحات بواسطة ملقف خشبي بالحجرة الواقعة تحت برج الريح. ومن خلال هذا الملقف يحوّل هواء الريح الى هذه الحجرة بحيث يلطف جوها. ويُركب مشبك حديدي بين الفتحات وملقف

الريح للحيلولة دون دخول الطيور الى الحجرة.

على خلاف البرج، الذي يبنى لسحب الريح من جهات متعددة، فإن الحصن، بارتفاع متر الى متر ونصف فقط، لا يسمح بسحب الريح إلا من جهة واحدة. ولذا فغالباً ما تكون فتحة الحصن باتجاه البحر، للاستفادة من رياح البحر الباردة.

إن بناء هذه الأبراج الرياحية شكل من أشكال تكييف الهواء يعود الى ما قبل عصر التصنيع.

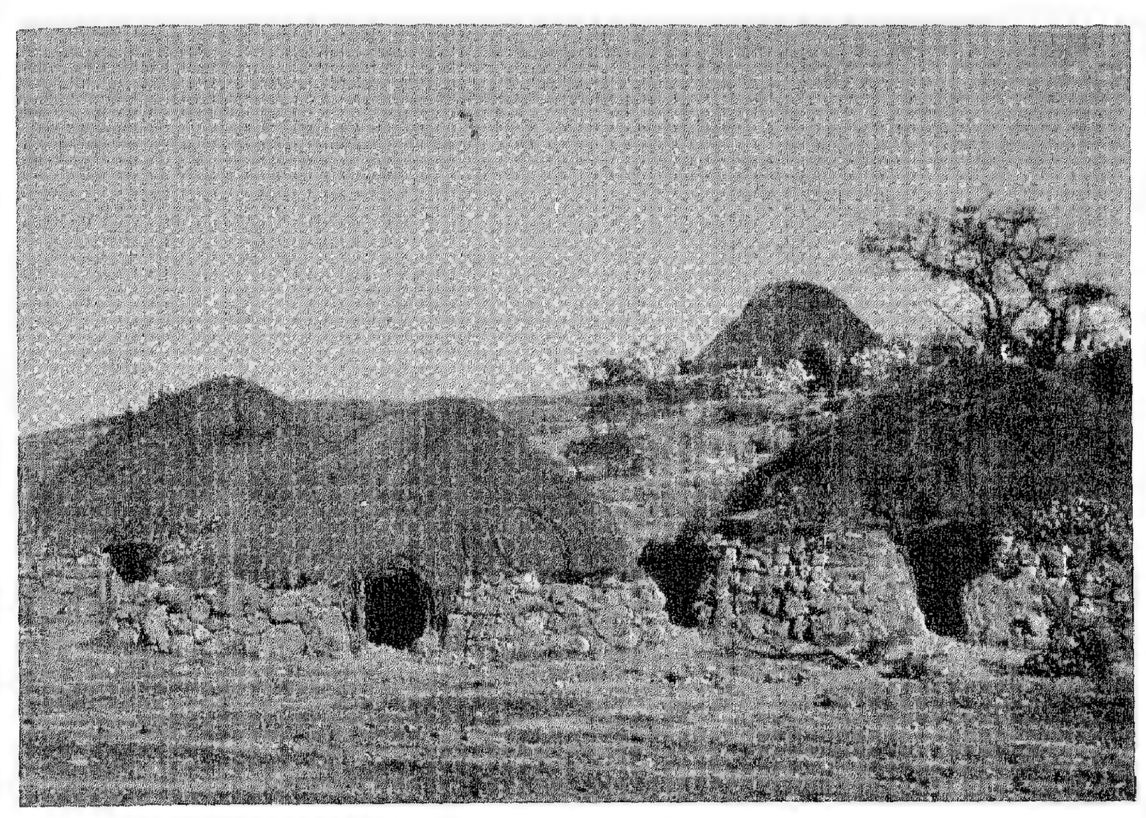
نتناول الآن بالبحث الفئة الثانية التي تتميز بترك فتحات في الجدران. هناك نوع خاص من الفئة وهو الكوخ المربع المسمى بالعريش، وهو واسع الانتشار في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية. ويبنى بأكمله من سعف النخيل. ولبناء الجدران الجانبية تحفر في الأرض حفر على أبعاد منتظمة تبلغ العشرين سنتيمتراً تقريباً. ثم تنصب فيها رزم طويلة من سعف النخيل توصّل بقضبان أفقية. وبذلك تنشأ جدران تسمح بدخول الهواء من جميع الجهات بالاضافة الى الضوء أيضاً. ويعتمد السقف المسطح وهو شيء كالمظلة، على هيكل من جذوع الليف، وتوصل به الجدران الجانبية بواسطة القضبان الأفقية المذكورة.

وفي منطقة الواحات في الجنوب الشرقي ينتشر النوع الذي يطلق عليه اسم الدحريس. وتكمن العلامات البنائية لهذا البيت المستطيل ذي السقف المستوي الذي يبنى من الآجر (طوب اللبن أو الطين) في وجود فتحات كبيرة شبيهة بالنوافذ في الجدارين الأمامي والخلفي، وفي الجدارين الجانبيين أيضاً. ويمنع النظر خلال هذه الفتحات بشبكة من قضبان الليف المحبوكة. وبالاضافة الى هذه الفجوات فقد جعلت في الجدران فتحات كبيرة أخرى، مستطيلة أو مربعة.

وتبني القبائل التي تعيش في مرتفعات رأس مسندم نوعاً خاصاً من البيوت يدعى باسم الصوفة. وهو بيت مستطيل يُسكن في بداية فترات القيظ. ويتميز هذا النوع بطريقة بناء الجدران والسقف. فالجدران تبنى من الحجارة التي توضع مخلخلة فوق بعضها والى جانب بعضها بعضاً. وفي بعض مباني الصوفه تترك في الجدران عدة فتحات كبيرة. أما السقف فلا يتألف إلا من أعمدة خشبية أفقية تغطّى بالأغصان والشجيرات. والى جانب هذه الوحدات البنائية المستقلة فهناك نوع آخر من الصوفه يبنى ملحقاً بالبيت الشتائي. ولا تتألف هذه المباني الملحقة إلا من جدار جانبي وآخر أمامي. أما الجدار الجانبي الثاني فلا وجود له، مما ينشأ عنه فتحة كبيرة وظيفتها الامداد بالريح.

أنتقل الآن الى ذكر الحلول البنائية التي تستخدم لاتقاء الأمطار. ونبدأ أولا بذلك الحل التقني الذي نجده منتشراً في عسير، في منطقة أبها. ففي هذه البقاع تبنى من اللبن بيوت من طوابق عدة. ولأن هذه البيوت تتعرض، بسبب الموقع الجبلي المرتفع، الى أمطار غزيرة، فقد أوجدت وقاية فعالة للجدران لمنع تآكلها بالامطار، وذلك بتدعيمها وتثبيتها بألواح أو نطوف حجرية. أما الحلول البنائية الأخرى فتتعلق بطبيعة الحال بطرق بناء السقوف المختلفة. وفي الجنوب الشرقي يشتهر البيت ذو السقف الجملوني الذي يدعى بالخيمة. ولهذا النوع من البيوت أساس مستطيل، ويبنى من سعف النخيل. أما عنصر الثبات فيه فيتألف من هيكل مشبّك من القضبان تثبت اليه الجدران المؤلفة من أعواد ليفية مشدودة الى بعضها باحكام. ويغطى هيكل السقف المشبك بواسطة حُصرُ من سعف النخيل، وتستخدم هذه الحصر أيضاً لتغطية الجدران الداخلية.

وامّا في المناطق السفلى للمرتفعات الجبلية فيوجد نوع شبيه من البيوت السابقة وهو ما يدعى بالكرين، والفارق الوحيد أن جدران هذا البيت تتألف من آجر اللبن أو الحجارة المنحوتة ويتمثل نوع آخر في الكوخ ذي السّقف الجملوني الذي يطلق عليه كذلك اسم «الخيمة» ويُشاهد في مرتفعات الجنوب الشرقي. والمسقط الأفقي لهذا البيت بيضاوي الشكل . وتطلى الجدران الحجرية ــ وهي عادة بدون ملاط ــ من الداخل فحسب بطبقة طينية، وفي داخل البيت توجد الأعمدة الحاملة لهيكل السقف الجملوني. ويمتد غطاء



بيت بسقف مقبب (في ظفار).

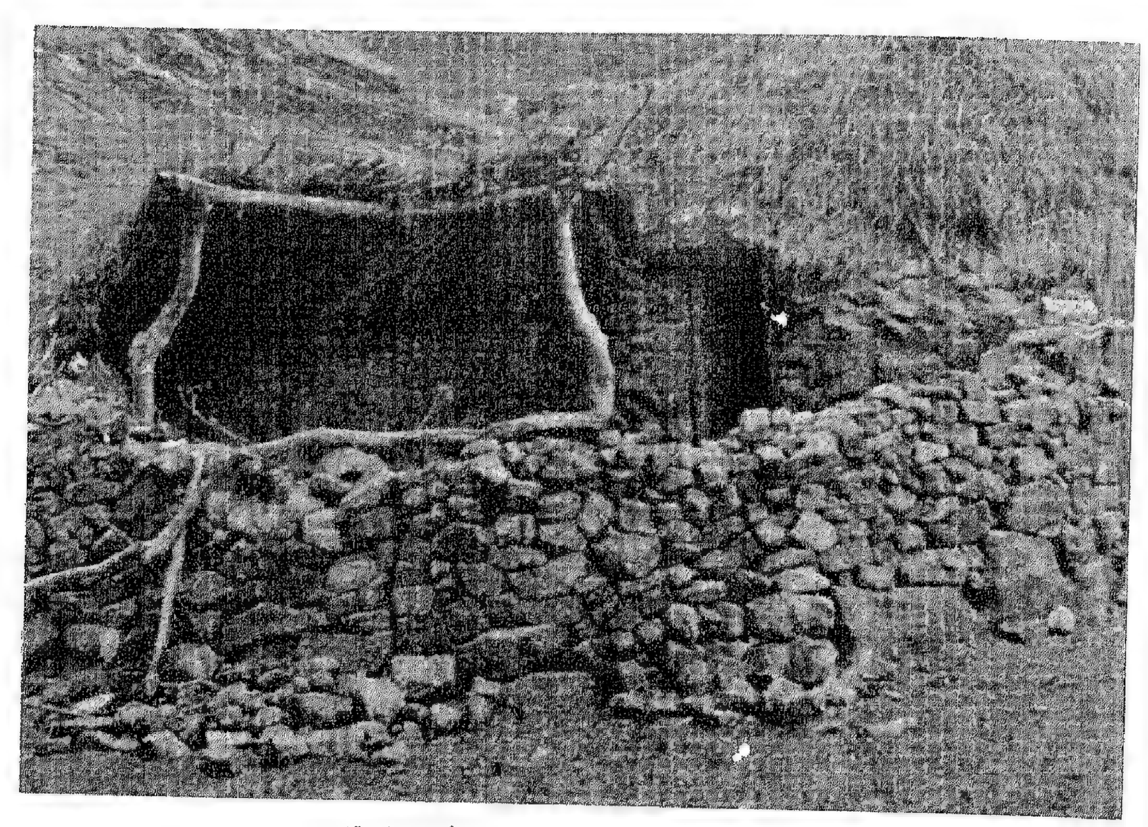
السقف، المؤلف من أعواد ليفية محبوكة باحكام ببعضها، حتى يصل الى الارض.

وفي البقاع التي تكثر فيها الأمطار صممت السقوف على هيئة قباب وهذه تحتم بطبيعتها اختيار مقاطع بيضاوية أو دائرية للبيوت. وتنتشر هذه المباني في مرتفعات الجنوب الشرقي وظفار، وتعتبر من معالم تهامة المعمارية.

ان الأمثلة التي اخترناها حتى الآن تشير الى «العقلانية» في تخطيط البيوت من حيث علاقتها بظروف البيئة الطبيعية. واستطراداً للبحث، فإنه من الجدير أن نوضح كيف يدخل فن العمارة التقليدي عن وعي شروط الحياة الاجتماعية في اعتباره.

ان المبدأ التنظيمي الاجتماعي الأساسي لجميع القبائل التي تعيش في شبه الجزيرة العربية ينبع من مفهوم السلالة الأبوية، أي يرتكز على ايديولوجية الاستمرار السلالي من الأب الى الأبناء، بكل ما يرتبط بذلك من حقوق اقتصادية شرعية وسياسية. لإظهار تأثير العوامل الاجتماعية على بناء المنشآت السكنية، نناقش، من وجهة النظر هذه، أنواع الزيجات، وأشكال المساكن بعد القران والدخلة، والوضع الاجتماعي للمرأة وعلاقة الموضوعات جميعاً بنظام السلالة الأبوية.

بصدد الصلة بين أشكال الزواج ونظام النسب السلالي الأبوي، فإن دراسة المجتمعات ذات نظام الأنساب الأبوية تظهر اتجاهاً جديراً بالملاحظة، وهو تفضيلها لنظام تعدد الزوجات. ولكن ليس لهذه المقولة أكثر من قيمة نظرية، إذ أن نظام الزوجة الواحدة هو السائد في الواقع الاجتماعي للمجتمعات العربية. فقد أوضحت احصاءاتي التي قمت بها في الشمال الشرقي من اليمن الى أن نسبة تعدد الزوجات تبلغ اثنين من مئة واحدى وعشرين حالة زواج، وهي نسبة ضئيلة جداً. لهامشية ظاهرة تعدد الزوجات أهمية بالنسبة لبحثنا، وإذ توضح أن نظام تعدد الزوجات، من حيث كونه عاملاً مؤثراً على بناء المساكن، ليس له إلا طابع الاستثناء.



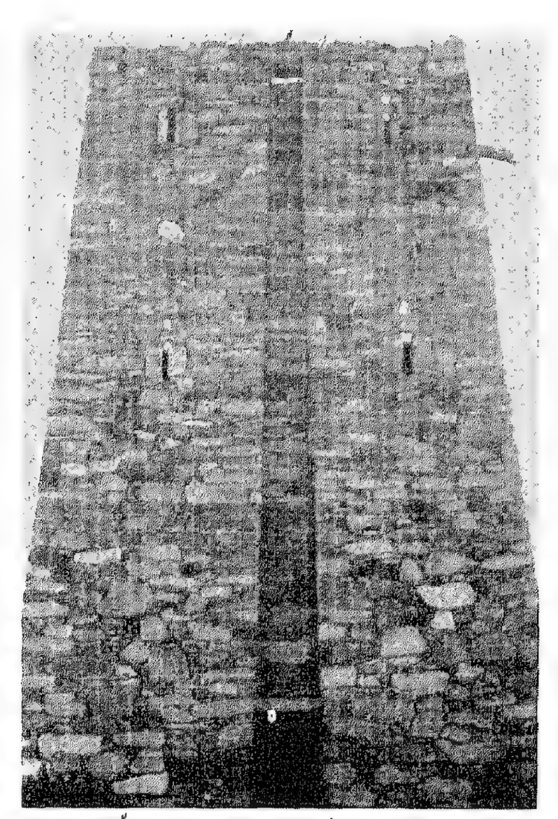
بيت بسقف مقبب (وادي وعاله، رأس الخيمة).

ففي حالات تعدد الزوجات فقط، يحق لكل امرأة، حسب الشريعة الاسلامية، أن تطالب بحجرات خاصة بها للسكن والمعيشة.

على خلاف نظام الزوجة الواحدة، فإن الأشكال السكنية بعد إتمام الزواج تؤثر على تكوين البيوت وتركيب المنشآت السكنية. ويقصد بسكن ما بعد الزواج المسكن الذي يستقر فيه الزوجان الشابان، والعامل الحاسم هنا هو: لأي المجتمعين العائليين ينضم الزوجان، الى المجتمع البيتي لأب الزوج، أم لأب الزوجة. ومن الدراسات الأنثروبولوجية نعلم أنه عادة ما توجد عدة بدائل للسكن يختار من بينها الزوجان الشابان. وقد دلت دراساتي واحصاءاتي بين القبائل العربية على أن الدار السكنية الأبوية هو الشكل الأكثر انتشاراً في الواقع.

يترتب على اختيار الدار السكنية الأبوية في المقام الأول، أي حين ينضم الأبناء بعد زواجهم الى مجتمع الأسرة الأبوية الكبيرة، التوسع المساحي في منشآت الدار. وقد يقام بيت الابن المتزوج أيضاً على مقربة من دار الأب، عندما لا تسمح الظروف المكانية بناء ملحقات سكنية. على أنه من الهام عند تقييم مثل هذا الانفصال المكاني لأسرة الابن عن العائلة الأبوية معرفة ما إذا كانت أسرة الابن هذه، مندمجة في المجتمع العائلي الأبوي، رغم انفصالها سكنياً عنه، أم أنها استقلت عنه كلياً وشكلت ذاتها مجتمعاً جديداً بميزانية مستقلة تماماً. وبذلك نكون قد أوضحنا عاملاً اجتماعياً واحداً فحسب من العوامل المؤثرة على تكوين البيوت والمنشآت السكنية، وتوضح اللوحة المرفقة بصورة بيانية كيفية التوسع في الوحدة البنائية الأصلية لمسكن رب الأسرة الناجم عن هذا العامل.

أما العامل الاجتماعي الثاني المؤثر فمصدره الروابط الحقوقية والشرعية لايديولوجية الأنساب الأبوية. ويعبر عن هذه الايديولوجية في العربية بعبارة «نسب أصيل». وتتلخص هذه



برج دفاعي اقيم منذ نحو ٥٠ عاماً.

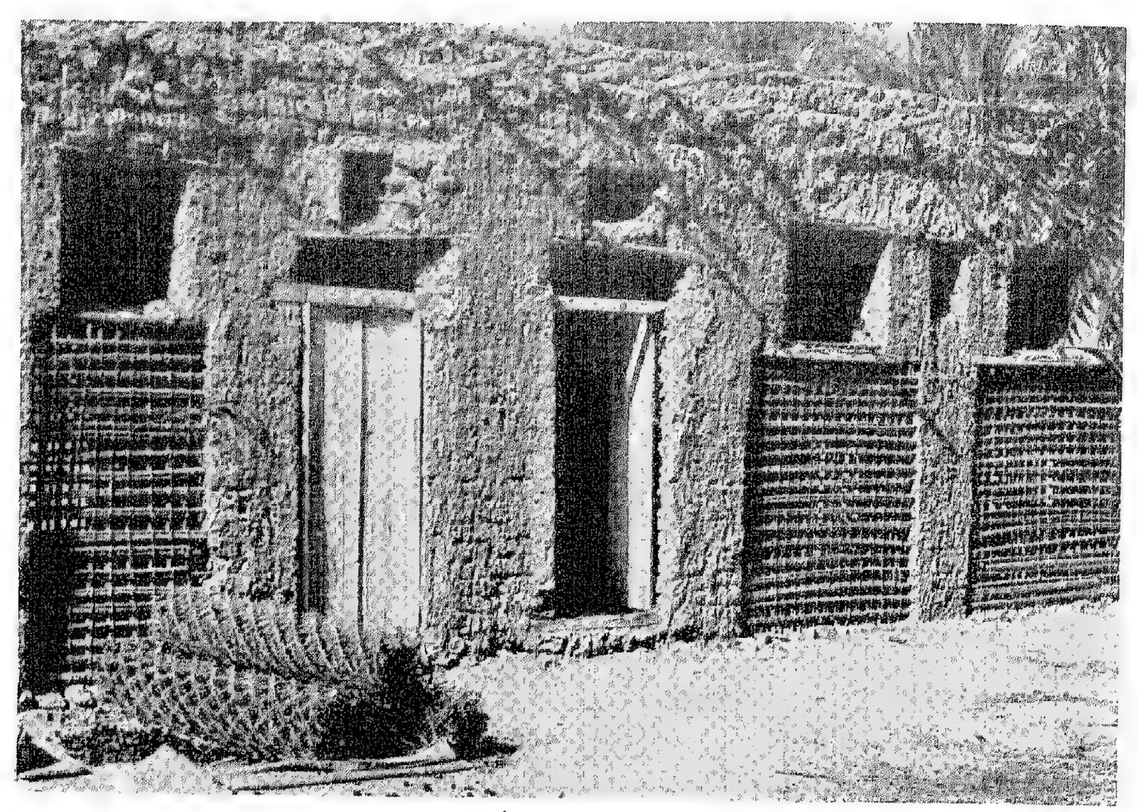
العبارة تصور الاستمرارية السلالية لسلسلة الأنساب الأبوية كحقيقة اجتماعية. فهي المنطلق الذي أدى الى تطوير قواعد معينة لفحص هذه الحقيقة والتأكد من صحة محتواها. ووظيفة إحدى هذه القواعد هو ضمان نقاوة الخط السلالي. وقد ترتب على هذه القواعد بالذات آثار في تكوين المنشآت البيتيّة، على ما قد يبدو في ذلك من غرابة لأول وهلة. وأعني بذلك تلك القواعد التي تتعلق بوضع المرأة في هذه المجتمعات الأبوية الأنساب. ولا سبيل الى إنكار أن وضع المرأة الاجتماعي في هذه المجتمعات يختلف اختلافاً أساسياً عن وضع الرجل من حيث أن لا سيطرة لها على وسائل الانتاج. ولكن المرأة، من الجهة الأخرى، تحظى بمكانة هامة بفضل وظيفتها كمنتجة للأنساب الأبوية (للنسب الأبوي). ومن ثم كل تلك الاجراءات الهادفة بالدرجة الاولى الى حماية المرأة من استحواذ الغرباء عليها. فالمسألة هنا تتعلق بالمحافظة على نقاء السلالة وأصالتها. وينجم عن ذلك عزل المرأة اجتماعياً. ونجد صدى ذلك في بناء البيوت وهندستها، إذ تفصل الأماكن التي تتواجد فيها المرأة عن تلك التي يمكن أن يدخلها الغرباء. وتقضي الحلول المعمارية لذلك بانشاء وحدة معمارية خاصة، هي المجلس، يستقبل الرجل فيها ضيوفه، وتكون معزولة عن وحدات السكن والاقامة والنوم للمجتمع العائلي. وحيثما لا تتوفر إمكانية تحقيق هذا الحل يقام في المستوطنة السكنية بناء خاص يطلق عليه اسم (المجلس)، يمكن استقبال الغرباء فيه. ولكن هناك حالات لا يتوفر فيها حتى مثل هذا الحل الأخير. وفي هذه الحالات تتجنب النساء غالباً دخول غرفة المعيشة (الجلوس)، ما دام يجلس فيها رجل غريب. وتتضح الحلول المعمارية بصورة تخطيطية في الرسم المرفق.

من ذلك التفاعل بين العوامل الاجتماعية وعمارة المساكن يمكننا أن نستخلص ثلاث ميزات لفن العمارة العربي التقليدي تميزه عن الهندسة المعمارية الغربية التي تتسم بالجمود:

١ ـ يجب أن يكون نظام البناء شديد التنوع، أي يجب أن يكون طابعه المرونة الكبيرة للاستجابة للضرورات الاجتماعية بحيث يمكن توسيع البناء الأصلي الأول. ويبدو أنه من الضروري الاشارة هنا الى أن الجهد العملي اللازم لذلك كثيراً ما يقدمه أعضاء المجتمع العائلي وأقرباؤهم وفقاً لمبادىء التعاضد والتكافل التي تنبع من نظام «النسب الأبوي».

٢ ـ طابع وحدات النظام المعماري هو الاستقلال عن بعضها بحيث يتم التوسع الضروري في وحدات السكن والنوم دون أن يترتب على ذلك أي تغيير في العناصر الأخرى من المبنى. وهذا يعني عملياً، أنه في حالة تزوج أحد الأبناء، يتيسر لهذا الابن أن يظل، بفضل دار السكن الأبوية، عضواً في المجتمع العائلي الأبوي، مما لا يحتاج الى أكثر من توسيع وحدات السكن والنوم الجديدة، دون حاجة الى تغيير مباني الادارة المنزلية الأبوية.

٣ ـ يقوم النظام المعماري، إذا سمحت الظروف بذلك، على أساس عزل الوحدات السكنية الخاصة للمجتمع العائلي عزلاً تاماً عن الجزء العام من البناء الذي يدخله الغرباء



واجهة بيت صيفي (رأس الخيمة)

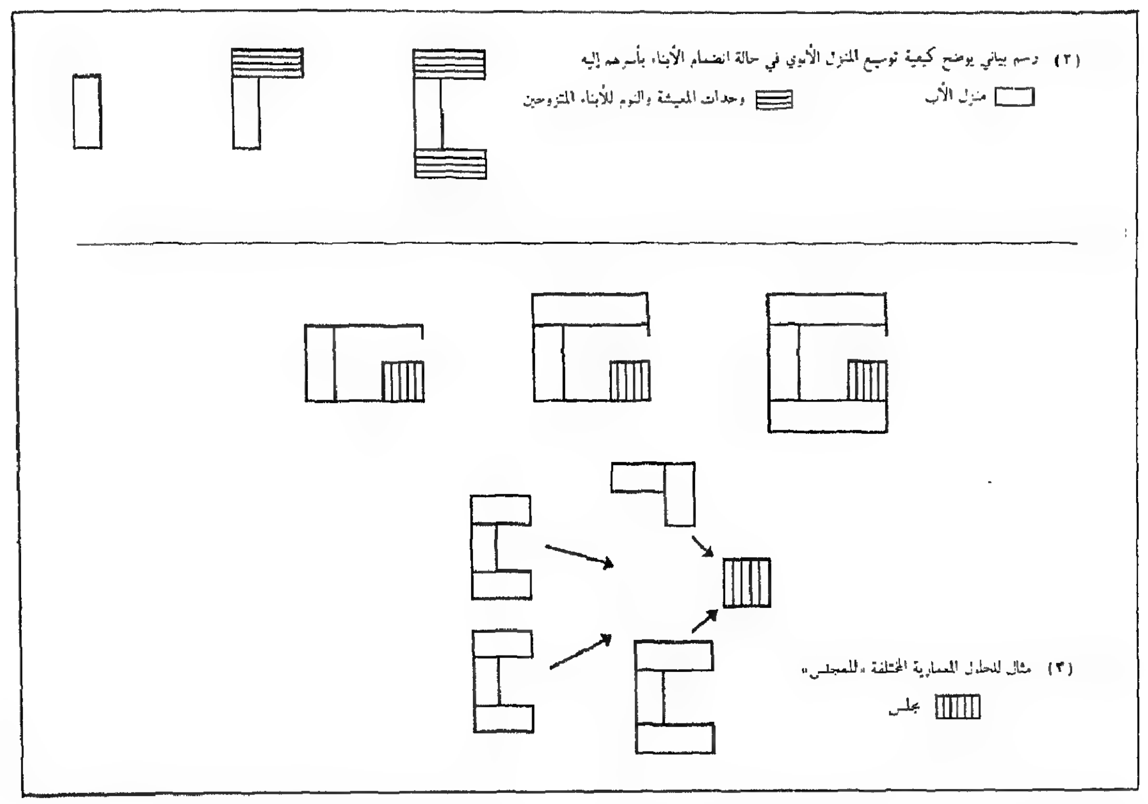
والذي يسمى بالمجلس. ومصدر هـذا الفصل هو تلك المعايير النابعة من أيديولوجية السلالة الأبوية.

بهذه المعارف السابقة لم نعالج بعد تـأثير العوامل الاجتماعية على فن العمارة التقليدي من جميـع النواحي. وقـد يكون من المجـدي متابعة تأثيرات تقسيم العمل بين الجنسين، أي تلك القواعد التي تحـدد توزيـع الصلاحيـات الاقتصـادية بـين الرجل والمـرأة في المجتمـع المنزلي، على تشكيل المنشآت السكنية. ولكن من الأفضـل ــكما يبدو لي ــ التخلي عن ذلك، فهدف هذا الموضوع العام هو ابراز تأثير بعض العوامل فحسب. غير أن هناك عاملاً يستحق الاهتمام ولا يجوز التغاضي عنه عند معالجـة هذه المسائل التي أوردناها من قبل. وأعنى به قضية الدفاع عن النفس، وهي قضية اجتماعية هامة. ولا يحتاج الأمر الى ايضاح كبير فـإن مساحة الأراضي الصالحة للزراعـة في سلسلة الجبال الجنوبية الغربية من الجزيرة العربيـة ــ نظراً لعوامل التعرية ــ محدودة للغاية. وهذه حقيقة قد تصبح خطراً ملوحاً، عند ازدياد عدد أفراد قبيلة من القبائل، وحين ينزع البعض الى اتخاذ الحرب وسيلة لانتزاع الأراضي الضرورية الصالحة للزراعة. عندئذ يصبح الدفاع في هذا المجال قضية وجود أم فناء. وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم الحلول المختلفة للمنشآت البنائية الدفاعية في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية. وتشمل ثلاثة أنواع:

١ ـ البيوت العالية التي تضم فيها حجرات المؤونة والطبخ مع وحدات غرف الاقامة والنوم في مُجمّع بنائي واحد.

٢ ـ الحصون، التي يلجأ اليها أفراد الأسرة مع أهم ما لديهم من أمتعة ومؤن في أوقات الخطر.

٣ ـ القـرى الدفاعيـة. بنيت هذه القـرى، المنتشـرة بوجـه خـاص في الشمـال الغـربي والجنوب الغربي من منطقة أبهـا في عسير، بحيث تشكل الجدران الخارجية للبيوت أسوار



(٢) رسم بياني يوضح كيفية توسيع المنزل الأبوي في حالة انضمام الأبناء بأسرهم إليه

(٣) مثال للحلول المعمارية المختلفة «للمجلس»

الحصن، وبحيث يمكن اغلاق المداخل بالبوابات. وقد أصبحت هذه القرى الدفاعية اليوم، نتيجة لسياسة الاستقرار الناجحة لحكومة المملكة العربية السعودية، مجرد شواهد أثرية مدهشة لماضي مضطرب.

لقد حاولت حتى الآن أن أبين بعض المعالم الأساسية لفن العمارة التقليدي لجنوب شبه الجزيرة العربية. إلا أن هذا العرض سيكون ناقصاً إذا لم أذكر ذلك الحقل من حقول فن الهندسة المعمارية الذي يعبر من خلاله المجتمع عن مفهومه الجمالي وعن قدراته الابداعية: وأعني به ميدان الزخارف المعمارية. ويشمل الأسلوب الزخرفي المترف الشبيه بنمط الروكوكو على بعض بيوت زبيد ــ وهذا تطوير محلي لأسلوب الزخارف الفارسي الهندي ــ وزخارف السقوف والنوافذ ــ من مواد مختلفة ــ على البيوت وعلى واجهة مسجد قرية زيدية، ثم رسوم الجدران داخل بيوت عسير، تلك الرسوم التي تبدعها أنامل النساء. وحتى لا أطيل على القارىء وأبعث في نفسه الملل بالوصف المفصل، أكتفي بالاشارة الى الصور الفوتوغرافية التي تنقل انطباعاً أكثر مباشرة وصدقاً مما يستطيعه الوصف الكلامي.

والآن فقد بلغت نهاية عرضي الذي أرجو أن يكون قد أوضح لنا أن فن العمارة التقليدي يضم الخبرات العملية المباشرة التي اكتسبت أثناء الصراعات الدائرة مع البيئة الطبيعية كما يعبر عن الأوضاع الاجتماعية. وقد تكون هذه المقولة السابقة بديهية أو تافهة، إلا أنها ــ كما يبدو لي ــ ضرورية للتأكيد على «معقولية» فن العمارة التقليدي الذي يميل المرء كثيراً الى اغفاله في غمرة عمليات التحول الحضاري الحالية. إن فن العمارة هذا هو تعبير رائع عن القدرات الابداعية للإنسان في الماضي. واليوم نرى كيف تحدث القطيعة بيننا وبين عصر ما قبل التصنيع بشدة وعنف. من لم يستوعب في هذه المرحلة الجديدة من التاريخ الحضاري لشبه الجزيرة العربية ماضيه، من لم يفهم هذا الماضي ويقدره حق قدره، فقد يكون أيضاً عاجزاً عن تشكيل حضارته من جديد وعن تحقيق رؤيته الحضارية. وبهذا المعنى أهدي هذه المقالة وأكرسها الى جميع أصدقائي العرب. ■

عمر بن الخطاب وزعيم العجم *

لما أتي بالهرمزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل له: يا أمير المؤمنين؛ هذا زعيم العجم، وصاحب رستم(1)؛ فقال له عمر رضي الله عنه:

أعرض عليك الاسلام نُصحا لك في عاجلك واجلك. فقال: إنما أعتقد ما أنا عليه، ولا أرغبُ في الاسلام رهبة. فدعا عمر بالسيف، فلما همّ بقتله، قال: يا أمير المؤمنين، شربة من ماء هي أفضل من قتلي على الظمأ، فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها الهرمزان قال: يا أمير المؤمنين، أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم؛ فرمى بها، وقال: الوفاء — يا أمير المؤمنين — نور أبلج! قال: صدقت! لك التوقف عنك، والنظر فيك، ارفعوا عنه السيف!

فقال: يا أمير المؤمنين، الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. فقال عمر: أسلمت خير الاسلام، فما أخرك؟ قال: كرهت أن يظن بي أني إنما أسلمت خوفا من السيف، فقال عمر: ألا إن لأهل فارس عقولا استحقوا بها ما كانوا فيه من المُلْك، ثم أمر ببره واكرامه! ■

هوامش

* نهاية الأرب: ٦ — ٧٧.

(1) رستم: كان من أعظم رجال فارس، وقائد جيوش وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، وقتله رستم في هذه الوقعة.

أفضل العجائب *

كان محمد بن حُمَيد(1) الطوسي على غذائه يوما مع جلسائه، واذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسه، وقال لبعض غلمانه: ما هذه الضجة؟ من كان على الباب فليدخل!

فخرج الغلام، ثم عاد اليه، وقال: ان فلانا اخذ وقد اوثق بالحديد، والغلمان ينتظرون امرك فيه، فرفع يده عن الطعام؛ فقال رجل من جلسائه: الحمد لله الذي امكنك من عدوك، فسبيله ان تسقي الارض من دمه؛ واشار كل من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها، وهو ساكت!

ثم قال: يا غلام؛ فك عنه وثاقه، ويدخل الينا مكرما.

فادخل عليه رجل لا دم فيه؛ فلما رآه هش اليه، ورفع مجلسه وامر بتجديد الطعام. وبسطه بالكلام، ولقمه(2) حتى انتهى الطعام، ثم امر له بكسوة حسنة وصلة، وامر برده الى اهله مكرما، ولم يعاتبه على جرم ولا جناية.

ثم التفت الى جلسائه، وقال لهم: ان افضل الاصحاب من حض الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم، وحسن لصاحبه ان يجازى الاحسان بضعفه، والاساءة بصفحه؛ انا اذا جازينا من اساء الينا بمثل ما أساء فاين موقع الشكر على النعمة فيما أتيح من الظفر! انه ينبغي لمن حضر مجالس الملوك ان يمسك الا عن قول سديد وامر رشيد؛ فان ذلك ادوم للنعمة، واجمع للالفة. ان الله تعالى يقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً. يصلح لكم اعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما(3)﴾. ■

هوامش

(*) نهاية الأرب: ٦ — ٦٣، غرر الخصائص: ٢٣٩.

(1) محمد بن حميد الطوسي: وال من قواد جيش المأمون العباسي، استعمله على الموصل، وكان شجاعا ممدوحا جوادا وقتل سنة ٢١٢ هـ.

(2) لقمه، يريد اطعمه.

(3) سورة الاحزاب — آية: ٧٠، ٧١.

العلّامة الشّيخ

جميل عبد القادر عدرة

فضل المقدّم

حفلت طرابلس في المائة السنة الماضية بعدد كبير من العلماء الاعلام الذين تركوا آثارا خالدة في الحياة العلمية والادبية والتربوية في هذا البلد العريق. فكانت الدروس التي تلقى في المساجد و (المدارس) وفي بيوت العلماء تجتذب اليها الطلاب من سائر الاصقاع، القريبة منها والبعيدة. ولا أراني مبالغا اذا قلت ان طرابلس (أزهر) الديار الشامية، حتى استغنى كثير من طلبة العلم عن (المجاورة) في أزهر الديار المصرية! مكتفين بماكانوا يتلقّونه من العلم، ومايلقونه من العلماء! ولو ذهبت الى ايراد اسمائهم لطال بي التعداد!



ولم تكن طرابلس مقصد الطلاب المسلمين فحسب، بل كان يؤمها الراغبون في التخصص بالفقه، والتبحّر فيه من مختلف الطوائف. وهذا الشيخ بشارة الخوري، جد رئيس جمهورية لبنان الأسبق، الملقب بفقيه لبنان ينتقل ورفيقا له يدعى الشماس حبيبا الخوري البتديني الى طرابلس (لإكمال التعلّم) على الشيخ محمد اعرابي الزيلع[١]، ونالا منه شهادة بإتقان هذا العلم.

من هؤلاء الاعلام من أقام، وأصدر الصحف والمجلات، وصنّف الكتب، وأسس المدارس، ومنهم من ظعن، كالشيخ عبد القادر المغربي الذي اصبح رئيس (المجمع العلمي العربي) في

دمشق، والشيخ رشيد رضا منشىء مجلة (المنار) في القاهرة، وفرح انطون صاحب مجلة (الجامعة) التي اصدرها في الاسكندرية أولاً ثم في نيويورك[٢].

ولقد قيّض الله لي ان اتعرّف عن كثب على احد هؤلاء العلماء وهو الاستاذ الجليل الشيخ جميل عبد القادر عدرة، استاذي في المدرسة، وشيخي في المسجد، حيث كان يلقي دروسه القيّمة في العقيدة والتفسير والحديث والفقه...

وأرى من حق الوفاء عليّ ان أبدأ (سلسلة علماء طرابلس في المائة السنة الماضية) بترجمته:

ـ ولد الشيخ جميل عدرة سنة ١٨٧٢، أبوه الشيخ عبد القادر ممن زهدوا في الدنيا ومباهجها، فانقطع الى العبادة والتأمل حقبة طويلة من الزمن، وأمه بهيجة عكاري عرفت بالتقوى والصلاح.

تلقّى علومه الابتدائية في الكتّاب، على عادة الطلاب في ذلك العهد، ثم في المساجد، على كبار العلماء. والتحق بمدرسة (مشحة ـ عكار) العالية[٣] التي انشأها المحسن الكبير محمد باشا المحمد، وأهداها السلطان عبد الحميد الثاني مكتبة قيّمة. وكان من مشايخه فيها الشيخ محمد ابراهيم الحسيني والشيخ سعيد اليمني وغيرهما من جلة العلماء. ثم عاد الى طرابلس والتزم بدروس الشيخ امين عز الدين، وهو من كبار العلماء والادباء.

ولقد حدّثني من أثق بروايته ان شيخنا عرف منذ حداثته بالصدق والجرأة وحدّة الذكاء والصلابة بما يعتقد انه حق. وكان أشدّ ما يؤلمه ان يرى مجتمعه سادرا في جهالته، غافلا عمّا تتمخّض عنه دنيا العرب والاسلام من حركات اصلاحية وثورات تحريرية، وبالاخص كبرى هذه الحركات وأبعدها أثرا في تاريخ الاسلام الحديث (الوهابية). او ما كانت تبثّه الدولة العثمانية، الخاضعة كليا لقناصل الدول الاجنبية، وما قام به حاكم مصر الالباني الاصل، محمد علي باشا، بأمر من دولة «الخلافة» في الظاهر، ومن الدول الغربية في الواقع، اذ كان من خبث الغرب الاستعماري الحاقد، ومن جهالة هذا الشرق الجامد، ان يجعل الاول بأس المشرقيين فيما بينهم شديدا، يمدّهم بالسلاح ليحارب بهم كل اصلاح.

لقد اولع الشيخ بتتبّع سيرة الامام محمد بن عبد الوهاب، ودراسة مذهبه. ولما لم يجد في طرابلس ما يروي ظمأه، أمّ الحجاز عام ١٩٣٢ للمرة الثالثة، حاجّا ودارسا. وقد وفّق الى الاجتماع ببعض كبار العلماء، فكان له معهم، كما حدّثني، مناظرات ومساجلات، وعاد الى بلده متأثرا الى ابعد حدود التأثر بما رأى وسمع: رأى الأمن قد استتبّ بعد طول اختلال وانحلال. وسمع عن المذهب الجديد انه العودة الحق الى الدين الحنيف، والسلفية الصحيحة، وان الامام ابن عبد الوهاب مجتهد في مذهب الامام احمد بن حنبل، كما يقرره هو بنفسه[٤]. وما احوجنا نحن المسلمين، بل وما أحوج اتباع كل دين، الى العودة الى الينابيع الصافية لأديانهم، اذاً لما اصطرعت الاطماع، واصطخبت النُهُجُ! وهل جاء الاسلام الّا لتحطيم الاوثان، واخلاص العبادة للواحد القهار؟

ولست ازعم ان شيخنا الجليل قد اعتنق الوهابية، كما قال البعض، بل كان له رأي في بعض الممارسات الصارمة، والاجراءات المتطرفة، التي ربما اقتضتها التصرفات المغرقة في التطرف التي كانت تقوم بها الدهماء بما يشبه العبادة لبعض الاحياء والاموات، بل وللشجر النابت على الاضرحة، والحجر!

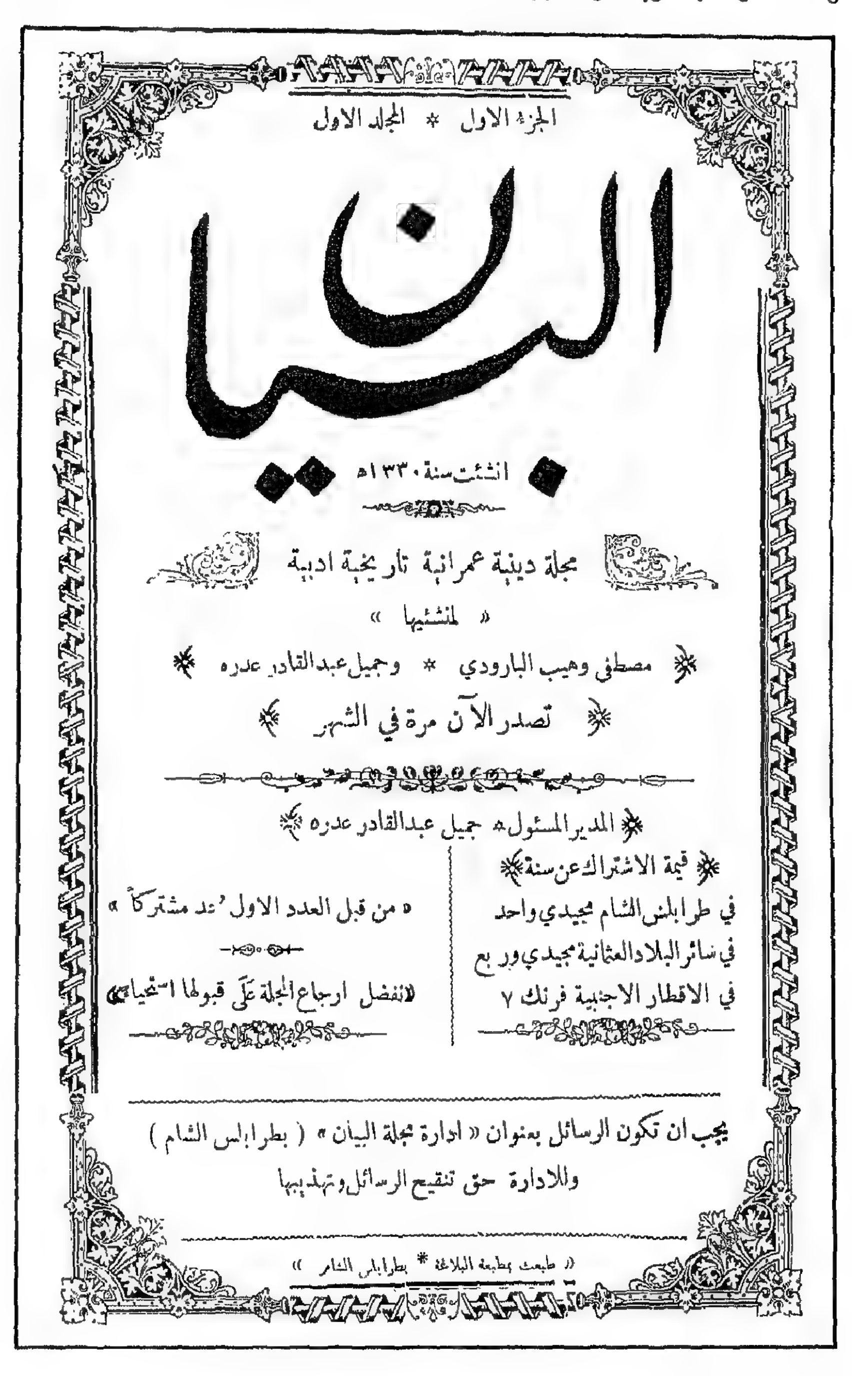
اخذ شيخنا يبثّ في تلاميذه الكثر روح التحرر وحب البحث والتنقيب، ليطهروا افكارهم من جميع البدع والاساطير الموروثة، حتى يلتقطوا الحقيقة حيثما وجدوها، وحتى لا يرفضوا رأيا او اجتهادا له من الادلة العقلية او النقلية ما يؤيده.

هذا كان شأنه عندما عينته (نظارة المعارف) عام ١٩٢٠ معلما في المدرسة (السلطانية) (الجديدة الآن) وظل فيها حتى عام ١٩٣١ حين أقدمت وزارة اميل اده على الغاء التعليم الرسمي، ثم اعيد! ولكن شيخنا لم يعد، اذ آثر البقاء استاذا في (دار التربية والتعليم الاسلامية) وهو رئيسها! والتي ستصبح ثانوية عام ١٩٣٢، ويصبح استاذ الادب العربي فيها، وسينشأ فيها بعدُ (القسم الشرعي) وهو مجال

اختصاصه، فيتولى فيه تدريس العلوم الشرعية واللغوية، وظل فيها حتى توفاه الله عن تسعين عاما سنة ١٩٦٢ وقد رأى الكثير من طلابه وقد اصبحوا من نجوم المجتمع الطرابلسي واللبناني في السياسة والعلم والاقتصاد والمهن الحرة فرقد قرير العين في مثواه الأخير.

ولم يكتف شيخنا بالتدريس في المعاهد والمساجد، بل اتخذ من الصحافة منبرا جديدا للثقافة والوعظ والارشاد، فأصدر والعلامة الشيخ مصطفى وهيب البارودي مجلة (البيان) في ١٩١١/١٢/٢٣، ثم استقلّ بها بعد العدد السابع.

وقد صدر منها اربعة وعشرون جزءا، جمعت في مجلدين. وقد كتب في غلافها:


الجزء الاول * المجلد الاول

البيان

انشئت سنة ١٣٣٠ هـ

مجلة دينية عمرانية تاريخية ادبية

« لمنشئيها »

مصطفى وهيب البارودي * وجميل عبد القادر عدره

تصدر الآن مرة في الشهر

المدير المسئول جميل عبد القادر عدره

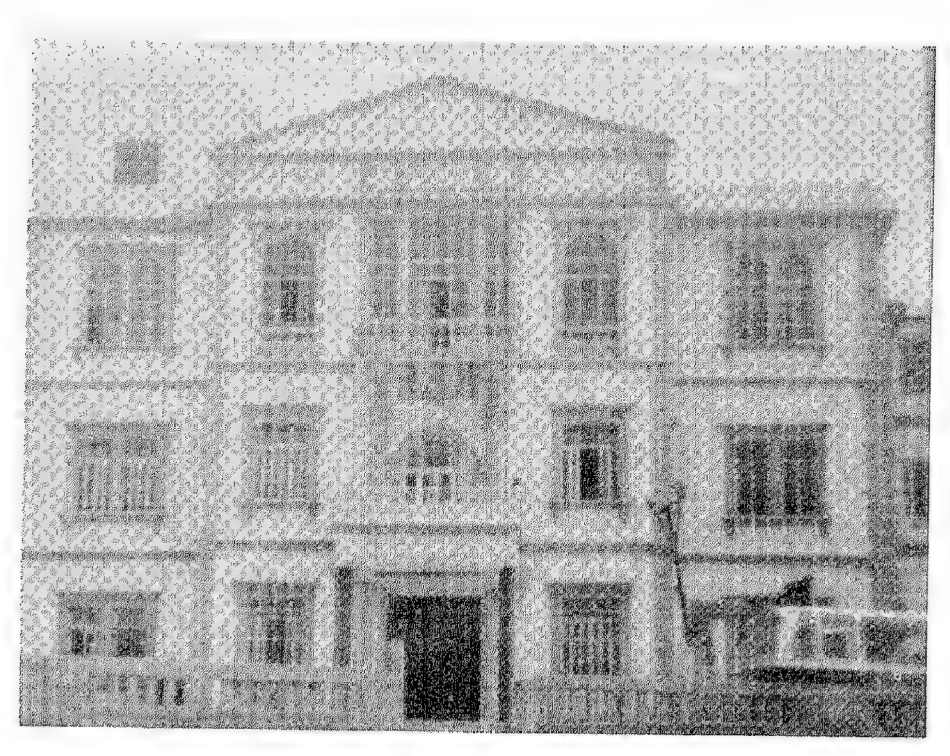
قيمة الاشتراك عن سنة
في طرابلس الشام مجيدي واحد
في سائر البلاد العثمانية مجيدي وربع
في الاقطار الاجنبية فرنك ٧

« من قبل العدد الاول عدّ مشتركاً »

لانفضل ارجاع المجلة على قبولها استحياء

يجب ان تكون الرسائل بعنوان « ادارة مجلة البيان » (بطرابلس الشام)
وللادارة حق تنقيح الرسائل وتهذيبها

« طبعت بمطبعة البلاغة * بطرابلس الشام »



المبنى الرئيسي للجمعية الخيرية الاسلامية واسعاف المحتاجين التي تأسست عام ١٩٢٤

وفي (خطبة البيان وخطته) التي استغرقت ست صفحات من المجلة ذات الاثنتين والثلاثين صفحة، يقول «... اننا بعد التفويض الى الله فيما أراده، عزمنا على نشر هذه المجلة ندعو بها انفسنا وعباده بالحكمة والموعظة ونودعها من دينه آيات بينة ولسنا والحمد لله على غرة من حالنا فنفضل على اخواننا بأعمالنا ولكن رأينا اهل الارشاد يلقون ثقل هذه الدعوة على بعضهم ويوزعونها على مجموع أفرادهم في انحاء الارض ورأينا في قلوبنا شيئا من العلم وبضاعة مزجاة من الفهم والله تعالى توعد من كتم فضله بعذابه فقال سبحانه ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «من كان عنده علم فلينشره» فشاركنا في نشرها من دعا للحق وسلك سبيل الصدق ومهما أفرغنا الجهد من انفسنا في انتقاء مايصل اليه علمنا لمباحثها فلا غنى لنا في هذا المشروع الذي بنفسه يدعو للتعاون عن اسعاف الفضلاء وانظار المصلحين الذين لا نعدم ارشادهم فيما هو الاولى والتفضل على اخوانهم بابحاثهم الفضلى...».

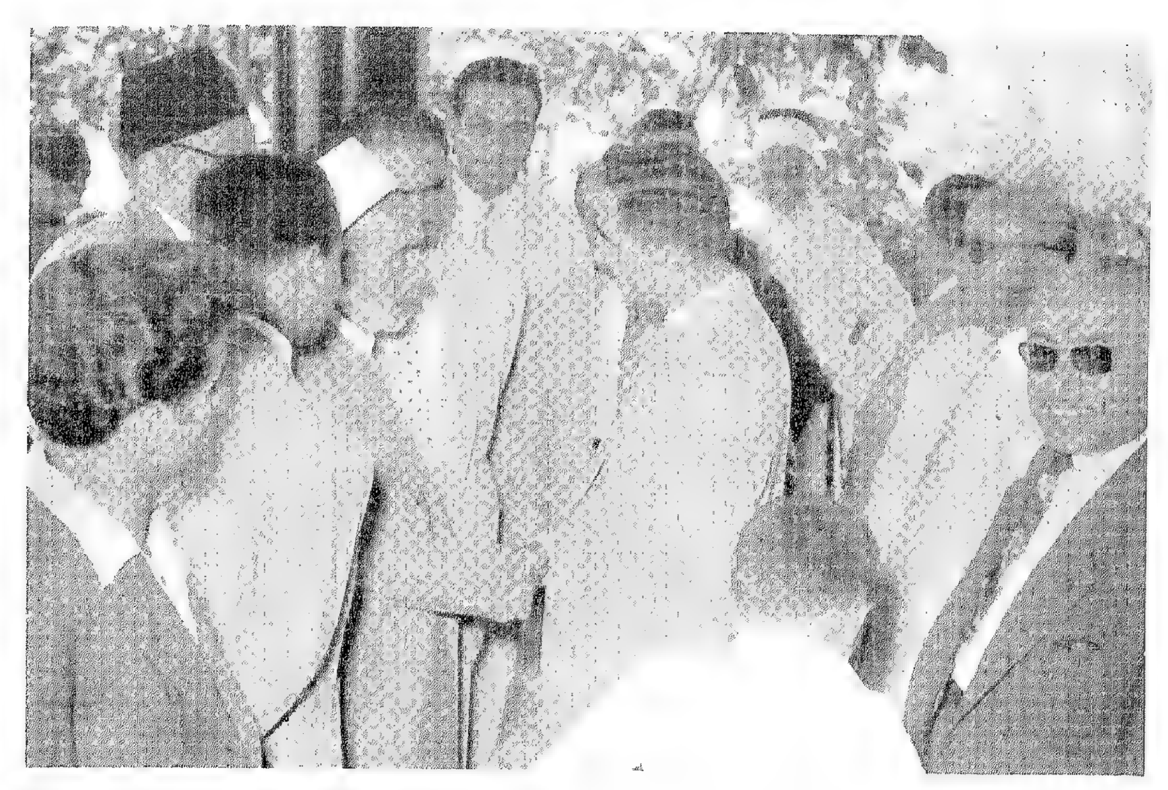
ثم يستطرد شيخنا الجليل فيوضح الأسس التي قامت عليهاالمجلة فيقول: «وقد وضعناها على اربع قواعد هي في الاجتماع من أهم المقاصد:

الاولى: في العلوم الدينية، وهي تشمل التفسير والحديث والعقائد والفقه والاخلاق والوعظ وعلم النفس، فنبحث فيها عن أصولها وفروعها وحكمها واسرارها التي من اجلها شرعت.

وثانيها: في العمران وأصوله التي من ضروريات الانسان.

وثالثها: التاريخ، ونأتي فيه على تراجم العظماء ومن لهم آثار في العالم، ففسد أو صح بهم أمر الأمم، ولا نفرق بين ذي دين او منّ بحكمته من السائرين، ونتكلم فيه على اخبار ما اشتهر من الاصقاع، وما لأهلها من غرائب الطباع. ونخص قسما منه بذكر الآثار وما يؤخذ منها في الاعتبار ندرجها تحت عنوان (عظة الآثار لذوي الافتكار).

ورابعها: في الادبيات، ونأتي منها بالشعر والنثر، وعزيز النوادر، بما ترتاح اليه النفس، ويصفو به الخاطر، ونورد فيها شيئا من نثر وشعر الماضي والحاضر، ليتمكن القارىء من تقابل الضمائر، ونخص هذا البحث بشيء من



في احدى المآدب التكريمية للرئيس رشيد كرامي في بلدة حصرون

اللغة لفضلها اذهان المستعجمين من اهلها على احيائها وترقي ابنائها، فانه لا غيرة لقوم الا بفضل لغتهم ونشرها. ولولم تكن الا لغة القرآن لكفاها ذلك في وجوب الاهتمام.

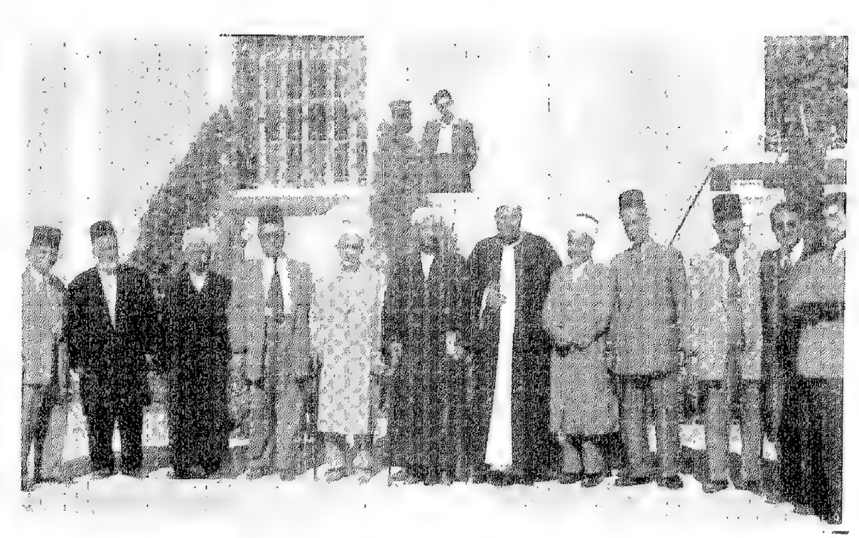
وله سلسلة مقالات بعنوان (درس عام) يفتتح بها كل عدد. وقد اتبع طريقة الحوار بين (الشيخ) وتلاميذه، يبث فيه باسلوب حي ممتع ما وسعه المقام، من تفسير وحديث وحكم وأمثال ونوادر.

ويظهر الشيخ في هذا الحوار واسع المعرفة، متحرر الفكر، لا يجد غضاضة في نشر ما يخالف رأيه، كما فعل بايراد (خطبة الامام الشيخ محمد عبده في الربا) والذي يدعو فيه (أولي الامر من المسلمين وهم كبار العلماء المدرسين، والقضاة، ورجال الشورى، والمهندسون، وكبار المزارعين، والتجار ليتشاوروا فيما بينهم في المسألة (مسألة فوائد الاموال المودعة في المصارف)، ثم يكون العمل بما يقدرون انه مست اليه الضرورة والجأت اليه الحاجة) (انتهى عن المنار)(٥). وكذلك نشر ابياتا لعمر الخيام من ترجمة وديع البستاني، يقول فيها:

عدم آخر الوجود فصاح
هات راحا اغدو بها غير صاح
وأدرها ريحانة الارواح(٦)

وهو، على الرغم من اشتغاله بالعربية وآدابها، لم يجد حرجا من نشر مقالات(٧) وطرف باللهجة العامية!

أراني اكثرت من الشواهد على انفتاحه على مختلف المذاهب والآراء والناس، وذلك لأن هناك من لا يفرّق ما بين التدين العميق والتعصب الذميم. وأحب ان اضيف ما كتب في الجزء السادس من المجلد الاول ص ١٨٠: «والديانات نظامات روحية عالية تتضاءل عندها عقول البشر فتخنع لها عواطفهم ومشاعرهم. فمن فقه اسرارها وعرف اصولها وادرك الغاية منها علم ان الدين واحد. قال الله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾.



ذكرى تشريف حضرة صاحب السعادة السيد محمد صادق باشا المجددي الوزير المفوض لدولة افغان الجليلة بزيارته الكريمة لكلية التربية والتعليم وملجأ الايتام الاسلامي بطرابلس (لبنان). بتاريخ ١٨ من محرم الحرام ١٣٧١ الموافق لـ ١٨ تشرين الاول ١٩٥١

وفي مخطوطة لدينا بقلم الشيخ: «الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الإلفة ولا حرب المحبة، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة، وان اختلف عنهم في الدين». الى ان يقول: «وقد ارشدتنا التجربة الى ان كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان اوسع نظرا في الامور، واطهر قلبا من التعصب الجاهلي، واقرب الى الالفة مع ابناء الملل المختلفة، وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر. وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه. وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله، اللهم لمن يفهمها كما جاءت، ويعرف معناها كما وردت. القرآن، وهو منبع الدين، يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه انهم منهم، لايختلفون عنهم الا في بعض احكام قليلة. ولكن عرض على الدين زوائد ادخلها عليه اعداؤه اللابسون ثياب احبائه، فأفسدوا قلوب أهاليه».

ولم يقتصر نشاط الشيخ على التربية والتعليم وانشاء المجلات، بل تعداها الى الجمعيات الخيرية والعلمية والاجتماعية، فانتسب منذ مطلع شبابه الى الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان يرأسها العلامة الشيخ علي رشيد الميقاتي بأمر من مدحت باشا، والي سوريا(٨). وفي العام ١٩٢١ تنادى ونفرا من كرام العاملين معه، ممن عرفوا بالغيرة والحمية، وفي طليعتهم المرحوم الحاج رفيق الفتال، لتأسيس (جمعية اسعاف المحتاجين وملجأ الايتام الاسلامي) فكان هو رئيسها. ولن أطيل الحديث عنها، فلهذا مبحث خاص، او اكثر، واكتفي بذكر اهم تحول حصل في تاريخها: «فقد قررت الجمعية الخيرية الاسلامية في ٢٧ مايس/ ايار ١٩٣٠ التنازل عن ادارة شؤونها وتسليم ادارتها واموالها المنقولة وغير المنقولة لجمعية اسعاف المحتاجين والملجأ الاسلامي»(٩)، فولدت (الجمعية الخيرية الاسلامية واسعاف المحتاجين) التي ستكون أبرز حدث في تاريخ طرابلس العلمي والاجتماعي في هذا القرن العشرين.

هذا غيض من فيض ما طفحت به تلك النفس البشرية، نفس العلامة الشيخ جميل عدرة التي أبت عليه الاستكانة عن تأدية الواجب في سبيل الخير العام حتى آخر رمق من عمره الطويل. ■

الهوامش

(١) الشيخ بشارة الخوري ــ للحد خاطر ــ ص ٨٤.
(٢) كتاب (فرح انطون) ــ اصدار مكتبة صادر ص ٨.
(٣) من مخطوطة لدينا بقلم الشيخ محمد كامل البابا.
(٤) سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين السعيد ــ ص ٦٧.
(٥) مجلة البيان الجزء السادس من المجلد الاول ــ ص ١٨٤ وما يليها.
(٦) مجلة البيان الجزء الثاني عشر من المجلد الاول ــ ص ٣٨١.
(٧) مجلة البيان الجزء السادس من المجلد الثاني ــ ص ١٧٧.
(٨) كتاب (طرابلس) لنور الدين الميقاتي ــ ص ٨٧.
(٩) من محفوظات (دار التربية والتعليم الاسلامية).

الجزّار والفرنسيّون عام ١٧٨٩

د. محمّد نور الدّين



فرنسا هي احدى الدول الأولى التي مُنحت امتيازات في الامبراطورية العثمانية. وبموجب اتفاقية ١٥٣٥ بين السلطان سليمان القانوني والملك فرنسوا الأول، أنشئت، عام ١٥٤٤ أول قنصلية فرنسية في سوريا. في البداية لم يكن مركز القنصل الفرنسي ثابتاً في مكان واحد، بل كان يتنقّل باستمرار بين حلب وطرابلس. مع تنامي واتساع المصالح التجارية الفرنسية في سوريا، صارت حلب في مطلع القرن السابع عشر قنصلية مستقلة واعتبرت طرابلس فرعا قنصليا تطال مسؤولياته منطقتي الاسكندرونة وصيدا التي تحوّلت بدورها، عام ١٦١٥، الى قنصلية مستقلة. استدعى تطور العلاقات التجارية بين سوريا وفرنسا في أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر الى افتتاح فروع قنصلية جديدة في كل من الاسكندرونة (١٦٧٤)، الرامة (١٧٠١)، عكا (١٧٢٣)، يافا (١٧٧٦) واللاذقية (١٧٧٩). بعد القضاء على المتاولة في جبل عامل عام ١٧٨٢ وما تلاه من ازدهار تجاري فرنسي، ومع استقرار احمد باشا الجزار والي صيدا في عاصمته الجديدة عكا، تحوّل الفرع القنصلي في الاخيرة الى قنصلية مستقلة وعيّن ريفو، أول قنصل فرنسي فيها.

خلال القرن الثمن عشر، كان القسم الأكبر من التجارة السورية في أيدٍ فرنسية، مع وجود محدود لبعض التجار البنادقة والانكليز والنمساوية والروس. وكانت عمليات التبادل التجاري تتم بشكل رئيسي مع المراكز الفرنسية وبالذات مرسيليا، يليها مراكز البندقية وليفرونو وجنوى

كنت سوريا تشكل مصدرا هاما لاغتناء الفرنسيين الذين كانوا انفسهم يقولون عنها: انها تنتج كثيرا من الثروات. فمن سوريا كن يصدّر (أساسا الى مرسيليا): الاقمشة، الفواكه، الحرير البيروتي، الرماد (من بيروت). الحرير

■ د. محمد نور الدين دكتوراه في التاريخ من بلغاريا

وخيوط القطن ((من صيدا). التبغ، الرماد والحنطة (من صور). القطن، الصوف، الحرير، القمح، الشوفان، الزيوت الرماد والنيلة (من عكا). خيوط القطن الأورشليمية، الرماد والزيوت والقمح (من يافا). وفي المقابل كانت سوريا تستورد الاجواخ والحرير والبهارات والتوابل والاسلحة وغيرها من السلع الكمالية المستهلكة بشكل أساسي من الطبقة الاقطاعية المحلية.

كان لتطور بعض الاحداث السياسية خلال سبعينات القرن الثامن عشر مثل القضاء على ضاهر العمر وإخضاع الدروز والاستقرار النسبي لحكم احمد باشا الجزار، ان توطدت وازدهرت الحركة التجارية في المناطق الواقعة تحت حكم الجزار ولا سيما الشريط الساحلي من طرابلس حتى فلسطين الجنوبية. ووجد هذا اثره على صعيد واردات وصادرات فرنسا الى سوريا. ففي حين كانت صادرات فرنسا تتجاوز وارداتها فإن تبدلا ملحوظا حصل في المعادلة لصالح الواردات عام ١٧٨٠، نتيجة للعلاقة الجيدة مع الجزار، كما يؤكد القناصلة الفرنسيون انفسهم في تقاريرهم.

صادرات صيدا ووارداتها في أواخر العقد السابع
ومطلع العقد الثامن من القرن الثامن عشر

السنة	الصادرات (بالليرات الفرنسية)	الواردات (بالليرات . الفرنسية)
١٧٧٦	١٤١١١٤٣	١٦٨٤٧٦٣
١٧٧٧	١٢٨٥٣٤٧	١٥٦٤٩٦٦
١٧٧٨	٧٩٤٣٥٠	٨٧٩٤٤٤
١٧٧٩	٣٩٣٩١٨	٢٤٣٩٧٩
١٧٨٠	١٤٣٥٢٥٥	١٠٧٣٥٣٥
١٧٨١	١٧٥٠٣٠٩	١٦٨٧٦٦٠
١٧٨٢	٨٢٦٦٩٧	١٠٢٥٧٩٥
١٧٨٤	١٤٢٧٧٥٤	١٢١٥٥٨٠

ونفس الملاحظات تنسحب على تجارة الفرنسيين مع طرابلس التي كانت تقع تحت نفوذ الجزار والتي كانت لها الطبيعة التالية:

احمد باشا الجزّار



السنة	الصادرات	الواردات
١٧٨٥	٣٦٦٨٥٨	٢١٩٤٧٧
١٧٨٦	٥٢٨٧٦٢	١٨١١٨٢
١٧٨٧	٥٧١٩٢١	١٤٣١٢٣
١٧٨٨	٢٧٠١٥٠	٤١٤٩٧٢
١٧٨٩	٣٠٧٣٣٢	٣٨٧٧١٨
١٧٩٠	٥٢٣٣٠٢	٣٦٣٦٨٤
١٧٩١	٣٤٠٩٤٠	٢٤٠٣٧٧

نلاحظ، من الجدول، أن الصادرات خلال ١٧٨٨ كانت اقل بكثير من الواردات، والسبب في ذلك عائد الى الغلاء الكبير الذي انتشر هذه السنة والذي دفع بمشتري القطن الى التحول نحو صيدا وعكا.

لم تكن سوريا حجرا اساسيا في تجارة فرنسا بالنسبة لمناطق الشرق الاوسط بفقط بل كانت كذلك بالمقارنة مع سائر المراكز العثمانية في انحاء الامبراطورية وهذا يتضح من خلال الجدول التالي العائد للعام ١٧٨٧.

تجارة الليڤانت مع مرسيليا (خلال ١٩٨٧)

المدينة	الصادرات (بالليرات الفرنسية)	الواردات (بالليرات الفرنسية)
استنابول	٢٨٥٤٨٢٠	٤٣٥٩١٠٧
سميرنة	١٥٢٤٠١٥٩	٦١٢٤٣٦٠
الاسكندرونة	٣٧٩٨٩٩٢	١٤٨٥٩٩٤
الاسكندرية	٢٨١٨٤٧٢	١٣٥٨٩١
سالونيك	٢٤٣٢٢٨٥	١٤٤٥١٨٢
صيدا، عكار وطرابلس	٥٧٤٢٨٦(من صيدا وعكا)	٨٨٢٦٦٢
--	٧٧٧٠٦٢ (من طرابلس)	—
قبرص	٩٥٣٤٠٩	١٠٤٢٧٥
المورة	١٤٠٠٢٨	٢١٣٢٨٨
كانية	٥٣١٩٤٧	٤٠١٣٠
الجزائر	٥٠١٨٧١	٣٤٥٩٨١
تونس	٥١١٤٠١٢	٧٤٢٥٢٣
طرابلس الغرب	٤٦٥٥١	١٠٤٢٠
كاراڤان	—	٣١٤٠٠
المجموع	**٣٧٠٤٨٩٩٤**	**١٦٦٥٨١٣**

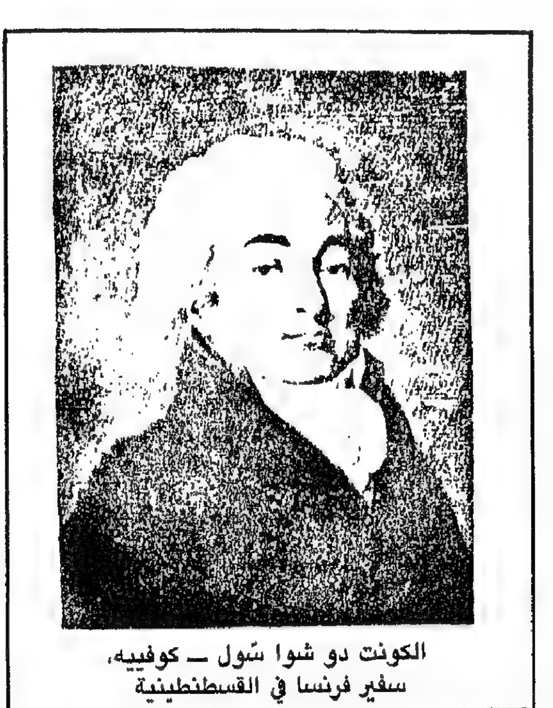
قبل العام ١٧٨٩ كانت تجارة سوريا تشكل ١/٥ صادرات و ١/٥ واردات فرنسا (من بلاد الليڤانت. وهذا ما نستطيع تبينه من الجدول التالي:

البلد	الصادرات (بملايين القروش الزكية)	الواردات
سميرنة	٩	٧
استانبول	١	٣
سالونيك	٣ ١/٣	٣
المورة	١	١/٢
كريت	١	١/٢
قبرص	١	١/٢
حلب	٣	٢
المناطق الاخرى من سوريا	٢ ١/٢	٢
مصر	٣ ١/٢	٢ ١/٢
المجموع	**٢٥ ١/٢**	**٢١**

هكذا كانت طبيعة العلاقات التجارية الفرنسية ــ السورية حتى العام ١٧٨٩، وهو العام الذي شهد أكبر ضربة تتلقاها هذه العلاقات منذ تغلغل التجارة الفرنسية في الشرق. وهي علاقات كانت تجعل الفرنسيين بمنأى عن القيام بأية خطوات طائشة أو مغامرات تعرّضها لخسارة ما أو حتى القضاء عليها.

منذ أن صار واليا على صيدا عام ١٧٧٥ واحمد باشا الجزار ينهج سياسة ثابتة في تعزيز سلطته على حساب كل القوى المحيطة به، بما فيها الباب العالي احيانا. فشارك في القضاء على ضاهر العمر واولاده، ونجح في جعل امير الجبل اللبناني الدرزي اداة طيعة بين يديه. وأباد المتاولة في بلاد بشارة. وعلى كل هذه الاعمال كوفئ عام ١٧٨٥ بولاية دمشق، باسطا نفوذه على معظم اجزاء سوريا (بلاد الشام)، باستثناء ولاية حلب التي لم تغب عن باله. ولتطبيق هذه السياسة «التوسعية» فرض الجزار الضرائب الخيالية وجباها بأساليب غاية في الوحشية، مشبعا ببعضها شهوات بلاط استانبول، ووزع بطشه على الجميع دون استثناء من مختلف الطبقات الاجتماعية والدينية بمن فيهم الجاليات الاجنبية في سوريا والفرنسيون بشكل خاص.

لاحظ الجزار الارباح الضخمة التي يراكمها الفرنسيون، لا سيما من تجارة القطن، فرغب بدءاً من اواسط الثمانينات من القرن الثاني عشر في فرض احتكاره على هذه التجارة بأن يكون هو الوحيد الذي له الحق ببيع المنتجات للفرنسيين. ولما كان القطن والحنطة اساس التجارة مع عكا ادى احتكار تجارة هذين النتاجين الى خلق صعوبات كبيرة للتجار الفرنسيين. فواجهوا الجزار بالامتيازات التي منحوها من السلطان. إلا ان الجزار اجابهم بأنه هو السلطان الوحيد في مقاطعاته. هذه الطبيعة النادرة لهذا الباشا يعبر عنها بشكل بليغ احدهم ويدعى سانت برست الذي يكتب عام ١٧٨٣ الى القنصل الفرنسي في عكا رينودو: «اتمنى لك كل الشجاعة الضرورية للعيش مع الجزار. اعتمد في حساباتك على فطنتك فقط ولا تنتظر مني أي



الكونت دو شوا سّول ــ كوفييه،
سفير فرنسا في القسطنطينية

عون ضده». ورغم ذلك فقد حافظت العلاقة بين الجزار والفرنسيين على استقرار وجودة نسبيين حتى عام ١٧٨٩.

في هذا العام سحق الجزّار، على غير ما توقع، انتفاضة مماليكه التي شارك فيها كل اعداء الجزار من قوى محلية وخارجية. بعد إخفاق الانتفاضة شن الجزار حملة انتقام واسعة ضد كل من شارك في الانتفاضة ومن بينهم... فرنسيون، والسبب في ذلك اكتشاف الجزار ان ثمة دورا لهم في الانتفاضة. فقد وقعت في يد الجزار رسالة لقائد الانتفاضة سليم الصغير موجهة للقنصل الفرنسي في صيدا دي بوسيه وفيها يطالب سليم بالوديعة التي كان اودعها عند القنصل اثناء توجهه من صيدا الى عكا في بداية الانتفاضة والتي كانت تعادل ١٩ كيسا. هذه الحادثة كانت كافية لزرع الشك عند الجزار في علاقة الفرنسيين باعدائه، يضاف اليها ما اشيع عن تقديم الجالية الفرنسية في صيدا مبلغ ١٥٠٠ قرش لقائد الانتفاضة.

حسب تقارير القناصل الفرنسيين! فإن نهاية الجزار كانت حتمية بعد تأييد كل البلاد للمنتفضين. ورأى الفرنسيون في الانتفاضة فرصة للتخلّص من منافسة الجزار ومساعديه

الاخوين سكروج لتجارتهم. فدعموا الانتفاضة وامدوا سليما والامير يوسف بـالمال وخـلافه. إلا ان حسابات الفرنسيين انقلبت رأسـا على عقب اثر الانتصار المفـاجيء وغير المتوقع على الاطلاق للجزار. وليس صدفة ان يعلّق رينـودو بتاريخ ٢ آب ١٧٨٩: «لقد تشتت المنتفضون عن عكا كالاعجوبة».

احتكر الجزار تجارة المناطق التي يحكمها وبدأ يبيع المنتجات للتجار المحليين. الا انه، على حد قول دي بوسيه بتـاريخ ٣١ كـانون اول ١٧٨٩، «عنـدما يكـون المحصول وافـرا تبقى شراءاتنا هي نفسها» بل ان متسلم صيدا وافق على طلب الفرنسيين بمنع النسّاجين من شراء القـطن ذي النـوع الجيـد، وذلك حتى يبقى للفرنسيين. الا ان كل ذلك كان يسبق العاصفة.

قام الجزار بجمع كل المستدينين من التجار الفرنسيين وادانهم بتهمة الاشتراك بالانتفاضة وصـادر كل ممتلكـاتهم. هـذه الخـطوة كـان المقصـود بهـا التجـار الفرنسيـون الذين لن يستـطيعوا بعـد الآن استعـادة امـوالهم من المصادرين. واحسّ الفرنسيـون بخيط الشـؤم الذي يطول. وفضل البعض منهم اتقاء الاسوأ بان غـادر صيدا وعكا. ويكتب رينودو بانفعال وقلق انه لكي يعود السلام والامن والازدهار للتجارة الفرنسية ولسوريا ولكي تزداد الفوائد والاربـاح فيجب ألا يوجـد الجـزار. ويـردف رينودو بانه من غير الممكن وصف الفائدة التي ستعود على سوريا وكل السكان فيما لو حدث ذلك فعلا، اي ازالة الجزار. وهكذا فيما كان بعض الفرنسيين يفضل المغادرة كانت تقاريـر الآخـرين تدعـو الى مواجهـة الوالي البشناقي وخلعه بشتى الطرق. غير ان الاوضـاع الداخلية في سوريا وفي فرنسا نفسها كانت غـير قادرة لتحـويل الرغبـات الى افعال. فـالبـاب العـالي مشغـول بمعارك وحـروب على جبهـة روسيـا والنمسـا ولا يريـد مزيـدا من القلاقـل عـلى الجبهات الاخرى. وفرنسا كانت تغلي بعد قيام الثورة والاهتمام منصب على تسوية الاوضاع الداخلية فيها.

امام هذه الظروف. يواصل الجـزار حملته على الفرنسيين فيرسل، يوم ٢٥ ايلول، احـد كتبته الى القنصل الفرنسي في عكا ويبلغه بان الجزار سيذبحه اذا لم يرحل حالا. وفي نفس الوقت يمنع الجزار بيـع العفص للفرنسيـين تحت طائلة الموت، ويبلغ القنصل بان الجالية الفرنسية في عكا لن تتلقى من اليوم اية اونصة قطن ولن يكون لها الحق باستئجار اي مركب.

وبعد عدة ايام يعود كاتب الجزار من جديد ويحذّر القنصل من البقـاء في عكا لاكثـر من اسبوع. يدرك القنصل انه لا مفر من اتخاذ قرار حاسم، فيجمع من تبقّى من مواطنيه في الخـان ويستعـرض لهم الحـالة الصعبـة التي يمرون فيها والحاجة لمغـادرة عكا. وفعـلا في الصباح الباكر من السادس من تشـرين اول ١٧٩٠ يترك رينودو عكا ويتوجه الى يافا. ويبادر الجزار الى الاستيلاء على ممتلكاته وبتاريخ ١٧



لويس السادس عشر مع ماري انطوانيت..
الصورة من تصوير «اوغست بروم»

تشرين اول يُبلغ يوسف القرداحي سكرتير الجزار الفرنسيين في صيدا وعكا بوجوب مغادرة البلد في اسرع وقت ويهدّدهم بالموت. وبسبب ضيق الوقت فقد اضطر فرنسيو عكا لتحميل بعض اغراضهم وبضائعهم على متن احد المراكب ويوم ٢٧ تشرين اول سافروا بالبحر الى يافا وكان عددهم ١٨ شخصا. في مساء نفس اليوم كان فرنسيو صيدا يتوجهون الى طرابلس وكان عددهم ٢٧ شخصا من بينهم دي بوسية ولم يتبق في المناطق التي يسيطر عليها الجزار اي فرنسي.

طرد الفرنسيين من عكا وصيدا كان صدمة كبيرة للدوائر الفرنسية نظرا لما تمثله سوريا وبالذات، صيدا وعكا، من اهمية لتجارة فرنسا الخارجية، خاصة وان الفرنسيين علقوا امالا كبيرة على المحصول الطيب لسوريا خلال العام ١٧٨٩ وذلك لتعويض المواسم السيئة للسنوات الاربعة السابقة.

كانت الظروف الداخلية لفرنسا بعد الثورة تحول دون التحرّك خارج القنوات الدبلوماسية لمعالجة «قضية الجزار» وانقاذ ما يمكن انقاذه من مصالح فرنسا في سوريا. فيلتقي السفير الفرنسي في استانبول شوازيل بوفيية وزير خارجية تركيا ريّس افندي ويكتبان خلال كانون الاول ١٧٩٠ رسالة قاسية الى الجزار يدعوانه فيها للتعامل على نحو جيد مع الفرنسيين. وشوازيل نفسه يكتب رسالة شخصية للجزار ولكن دون نتيجة.

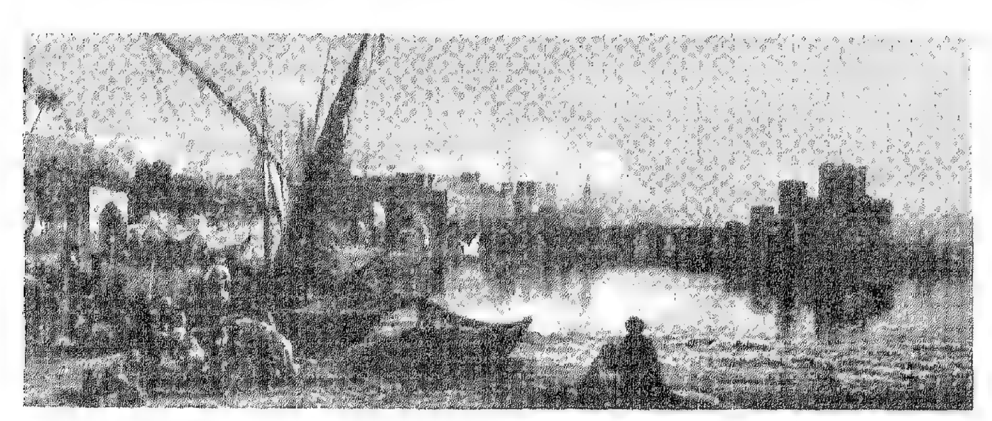
عدم نجاح الاتصالات الديبلوماسية الاولية، استدعى انعقاد المجلس الوزاري الفرنسي برئاسة لويس السادس عشر حيث تُلي بتاريخ ١٦ كانون الثاني ١٧٩١ تقرير مفصّل عن حالة المراكز الفرنسية في سوريا، وتقرر رفع احتجاج للباب العالي على الخرق الذي تعرضت له الامتيازات الفرنسية. وطالبوا بمعاقبة الجزار... رغم انهم كانوا لا ينتظرون نتائج سريعة او ايجابية. فعدا عن انشغال السلطنة بحروبها مع روسيا والنمسا، فان قوة الجزار، في الظروف المحيطة بالامبراطورية آنذاك، كانت تمكنه من مقاومة اية قوة بما فيها اوامر الباب العالي نفسه. يضاف الى ذلك ان الخطوات الاولى للثورة الفرنسية بشعاراتها ذات المضامين التقدمية، كانت تولّد في استانبول المخاوف من ان ما يحدث في باريس بقدر ما هو غير واضح للاتراك بمقدار ما هو معادٍ للاسلام. لذا كانت مسألة اعادة الفرنسيين او ازالة الجزار ضربا من المستحيل. الا ان ذلك لم يمنع من معاودة فتح المسألة بعد فترة.

فخلال كانون الثاني ١٧٩٢، ونتيجة للصداقة الشخصية بين شوازيل بوفييه وريّس افندي يصدر خط شريف ارسل الى الجزار مع موفد للباب العالي يدعى امين افندي وفيه يُدعى الجزار الى اعادة الفرنسيين المطرودين. الا ان الجزار بقي عند رفضه مبلغا الباب العالي عبر رسوله اسبابا مغايرة كلية للأسباب الحقيقة وهي انه «طُعن في شرفه ودينه نتيجة لمضاجعة التجار الفرنسيين لحريمه» وبتاريخ ١٢ شباط ١٧٩٢ يمزّق الجزار العلم الفرنسي الموجود على قنصلية عكا ويعطيه بعد ذلك للجمهور الذي يحرقه.

كان لتدخل مفتي الامبراطورية شخصيا في المسألة دليلا على أهميتها وخطورتها. الا ان الجزار لم يتراجع في موقفه عن مسألة المطرودين ووافق اخيرا على قبول غيرهم. الا ان تطور الاحداث في داخل فرنسا اوقف البحث في المسألة كلية.

لا شك بان طرد الفرنسيين يعتبر ضربة ناجحة للجزار، ليس فقط في انعكاساتها على خصومه الفرنسيين، بل وفي علاقته، كحاكم له طموحاته، بالسلطة المركزية في استانبول. فقد استغل الجزار انشغالات السلطنة الحربية في اوروبا. ليضغط على ولاية دمشق، وبموجب «قانون» قطع الطريق على عصيانات الولادة الاقوياء بإعطائهم ولايات جديدة تضم الى ولاياتهم السابقة، عين السلطان في ٥ حزيران ١٧٩١ الجزار واليا من جديد على دمشق. هذا التعيين يمكن ان نعتبره مكافأة على طرد الفرنسيين. ذلك ان الباب العالي، رغم المساعي الرسمية والشخصية لبعض رجالاته، كان يتوجس من انعكاسات الثورة الفرنسية ليس على اوروبا فقط بل وعلى وضع السلطنة وبالنتيجة على... الاسلام.

ميناء صيدا



من جهة اخرى، فان طرد الفرنسيين يمثل نقطة بالغة الاهمية من «الجانب الحقوقي» التنفيذي للامتيازات المعطاة لفرنسا ولغيرها من الدول ضمن الاراضي العثمانية. ضربة الجزار هذه تتناقض مع اتفاقية ١٧٤٠ بين فرنسا والباب العالي والتي لا يحق بموجبها للباشوات والقضاة والقادة العسكريين التعرض لنشاط القناصل الفرنسيين، وقد اظهر الجزار بذلك ان استمرار الامتيازات رهن بموافقة الطرف الذي اعطى هذه الامتيازات وهو... الدولة العثمانية. وان اي إلغاء لها لا يفترض اية عواقب من جانب الدولة الممنوحة، بل إن ذلك «حق» تلقائي للذي منحها. وهذا ما «تنبّهت» له الدول الغربية فيما بعد، حيث وجدت ان افضل طريقة لضمان استمرار هذه الامتيازات وديمومتها هو حمايتها عن طريق الغزو العسكري المباشر، والذي مثّلت الحملة النابليونية، بعد اقل من عشر سنين على طرد الفرنسيين من سوريا، طلائعه الاولى، وما ترتّب على هذا الطور الجديد من العلاقة بين الشرق والغرب من آثار هامة على المسألة الشرقية والشعوب ذات العلاقة المباشرة بها.

خسارة فرنسا لاثنين من اهم مراكزها التجارية في سوريا وبلاد الليفانت كان في صالح التجار من الجنسيات الاخرى ولا سيما البنادقة الذين منحهم الجزار امتيازات وتسهيلات ساهمت في ازدياد عددهم في عكا وبعض المدن الاخرى. وقد جنوا من ذلك ارباحا كثيرة وكانوا يقرضون الحكام بمن فيهم الجزار نفسه. الا ان هذا الازدهار بقي محدودا ولم يصل في اية حال من الاحوال الى ما كانت عليه من قبل التجارة الفرنسية في كل من صيدا وعكا.

تجدر الاشارة، اخيرا، الى ما اثاره البعض من ان حركة الجزار ضد الفرنسيين كان باعثها مصلحة التجار المحلية، اي انها كانت بدافع «وطني». لا شك بان غياب الفرنسيين انعش قسما من التجار المحليين ذوي العلاقة المباشرة ببعض الزراعات الرئيسية في منطقتي صيدا وفلسطين. الا ان خطوة الجزار تبقى في منحاها الاساسي، باعثا ومسرى ونتيجة، اسيرة الخصوصية الاقطاعية العثمانية وصراع القوى الاقطاعية المحلية في سوريا والاتجاهات «الاستقلال ذاتية» (ان لم نقل الانفصالية) للعديد من الباشوات الاقوياء. ورغم انه لا يمكن تأكيد او نفي وجود نوايا انفصالية او استقلالية عند حاكم عكا القوي الا ان معظم تصرفات الجزار منذ ظهوره لاول مرة على المسرح السياسي بشكل بارز اثناء حصار بيروت الشهير عام ١٧٧٢ وحتى عشية الصدام مع الفرنسيين، كانت تنزع الى الحد الاقصى من «استقلالية القرار». هذه الاستقلالية لم تكن تعني التناقض مع النظام المركزي العثماني، بقدر ما كانت تعبيراً عن ان الجزار هو احد الاعمدة الرئيسية في هذا النظام. وضربته للفرنسيين كانت اشبه بماركة محمية على طريقة «شرقية» نموذجية. ■

بعض مصادر ومراجع الدراسة

(١) Documents Diplomatiques et Relatifs à L'histoire Du Liban et Des Pays du Proche-Orient au XVII èmes à nos Jours, 21 Volumes. Adel Ismail. Beyrouth 1975-1981.

(٢) Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIII èmes. François Charles-Doux. Paris, 1954.

أدبَاءِ مِنْ لبْنَان



د. أُسَامة عَانوتي

الكامدي[1] نسبة الى «كامد اللوز» في البقاع بلبنان. اما اسمه فعبد السلام بن محمد بن علي بن محمد، وقد تصحّفت نسبته، أحياناً، فنبّه المرادي[2] على أنها «الكمدي» بالدال لا «الكاملي» باللام. ولكن ولادته كانت في دمشق بعد سنة ١٠٨٠هـ/١٦٩٩م، وكذلك وفاته، سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م؛ ودفن بتربة اباب الصغير.

كان لكامدي ذا مشاركات جمة، اذ كان فقيهاً، نحوياً، أديباً، أصولياً[3]، محدثاً، الخ... وكان الى هذا كله شاعراً رقيقاً. من ذلك قوله يصف ثمر «النارنج»[4] يتساقط على المرج الاخضر كأنه عقود الياقوت تنفرط فتتلقفها يد من زبرجد:

انظر الى النارنج في اغصانه
الخضر اللواتي للنواظر ممتعة
كعقود ياقوت الحسن تبددت
متلقطته يد الزبرجد مسرعة

وله شعر غير قليل، في وصف الازهار والطبيعة قال في «الجُلّنار»:

وكأنّ سقط الجُلّنارِ على
طرس الى البلور ذي نَسَبِ
وجهٌ تعشقه الجمالُ
فنقّط خده من خالص الذهبِ

وتلمس تأثره وانفعاله بالطبيعة حتى وهو ينظم مؤرخا. مثل قوله في عذار[5]:

لما بدا خطُّ العذا
ر بطلعة القمر الفريد
كمل الجمال فخلته
كالشمس في شرف السعود
فكأنّ خضرة نقشه
في صفحة الخط السعيد
قطعُ الزبرجد نظمت
فجُعِلْنَ تيجان الخدود
او نبت ريحان بدا
في لوح ياقوت نضيد

■ د. اسامة عانوتي أستاذ الادب العربي في كلية الآداب الجامعة اللبنانية

او طلع نمام اتى
كيما ينمّ على الورود
او نفحة المسك انبرت
فوفت «كاورد»[6] وعود
او نظم يد خِلته
ورقَ البنفسج في عقود
او خط محراب الهدى
يصبي الحسان الى السجود
او مرسل في خده
يدعو الى در الخلود
او سطر حسن رقّ لي
حسن التغزل والنشيد
قد قلت لما صاغه
قلم المحاسن في الخدود
كتب الجمال مؤرخا
خط الزبرجد بالورود

ولعله ليس في هذه الابيات غير صورة واحدة، متكررة على نحو ما، بشاعرية عادية. ولكنها صورة رائعة بسيطة، لم يذهب بنضرتها تقعر في اللفظ، او تعنٍّ في المعنى

وكذلك انفعل الشاعر وتأثر بتيارات الشعر في عصره او «ازيائه»؛ ان صح التعبير فقد عُهد اذ ذاك التُعمية[7] والتلغيز[8] ـــ في ما عُهد من «مهارات شعرية» ـــ فقال في مَن اسمه «علي»:

لاح شمسا فوق غصن يانع
زانه خال على خد نقي
خلت تحت الشمس لما إن بدا
طلع الورد بخديك يقي

وقال في مَن يدعى «عمر»

بروحي شادنٌ ألْمَى[9]
ظريفُ القد معتشقه
دنا واللحظُ رائده
ورام الصبّ فاسترقَهْ

وقال في مَن يسمى «حُسَيناً»:

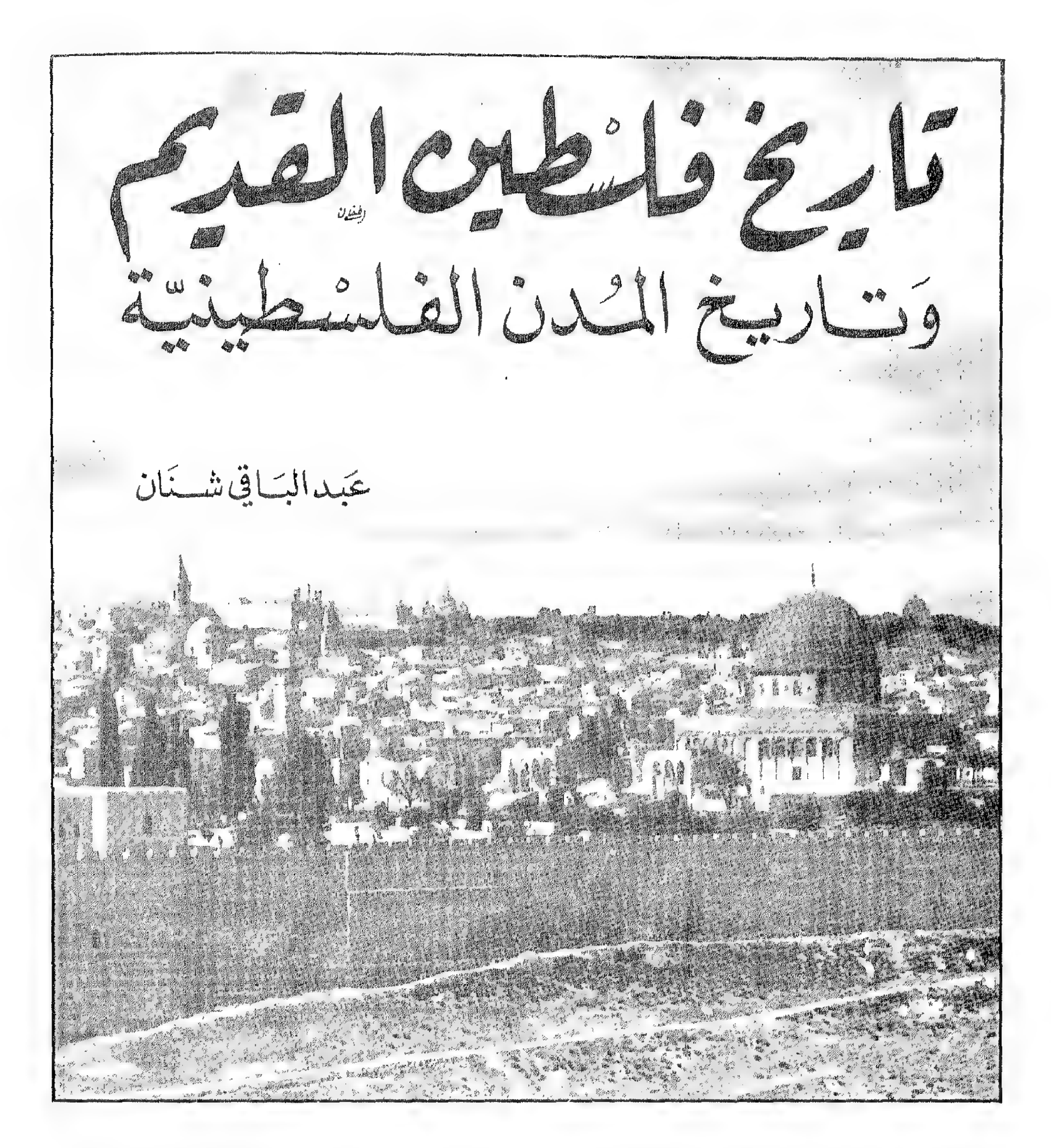
أفديه ظبيا بالدلال مولعا
رُوْدٌ[10] الشباب مورّدَ الوجناتِ
عذب الثنايا والمقبل مترف
لولا التصوّد ذاب باللحظات

* * *

ومما يدعونا الى الاسف ان ديوانه ـــ المذكور في ترجمته ـــ لم يطبع بعد، ولعله لا يزال بعيدا عن متناول ايدي الباحثين والدارسين. ■

الهوامش

(١) ترجمته في «سلك الدرر» للمرادي ج ٣، ص ٢٥ ـــ ٢٩.
(٢) المصدر السبق، ٣/٢٥.
(٣) نسبة الى علم اصول الفقه.
(٤) نوع مما نطلق عليه في عاميتنا «الصفير» و «البو صفير».
(٥) العذار: جانب اللحية، وكذلك الشعر النابت في موضع العذار. وكان تأريخ بدوّ العذار عند الفتيان عادة لدى الشعراء ـــ في حقبة من الحقب ـــ تعبيرا عن ابتهاج بمبلغهم مبلغ الرجولة الخ...
(٦) ماء الورد.
(٧) التعمية «...تقدي: تضمين اسم الحبيب او غيره في الشعر اما بتصحيف واما بقلب او حساب، الخ» («المرجع» للعلايلي: ١/٥٩٣).
(٨) التلغيز او الإلغاز. «..التعمية باحجية او بما يستعصي على الحل» («المرجع» للعلايلي. ١/٢٥٥).
(٩) ألمى (مؤنثه لمياء) «الاسمر الشفتين» («المرجع» للعلايلي: ١/٢٦٠)
(١٠) يقال امرأة رُوْد: «السريعة الشباب»، «التي ترود وتطوف» وتكثر «الاختلاف الى بيوت جاراتها» («لسان العرب» مادة «رود») وهي صفة مختصة بالمرأة، انزلها الشاعر هنا منزلة التذكير.



١ ــ تاريخ فلسطين القديم

حظى هذا الموضوع باهتمام غير عادي من الكتاب والباحثين وعلماء التاريخ والاجتماع، وباعتقادي فإن السبب الرئيسي وراء هذا الاهتمام غير العادي بتاريخ فلسطين القديم وتاريخ الاقوام والطوائف التي سكنت فلسطين يكمن في مكانة فلسطين العالمية. والاحداث التاريخية التي حدثت في فلسطين منذ العصور القديمة، بحيث ان بعض تلك الاحداث كانت ولا تزال تهم معظم سكان العالم بجميع قاراته، وهذا الكلام غير مبالغ به لان فلسطين تهم المسلمين والمسيحيين واليهود، وهي الاديان الرئيسية في العالم والمنتشره في معظم قارات

■ عبد الباقي شنان
باحث اجتماعي ــ اقتصادي ــ مجلة جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني

العالم، ومما زاد أهمية هذه البقعة من العالم هو سلبها من قبل الصهيونية العالمية بمساعدة ودعم الامبريالية العالمية، الامر الذي نتج عنه تشريد شعب فلسطين من أرضه ودياره

يشير الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي في كتابه «اسرائيل عبر التاريخ» معتمداً أبحاث ودراسات مجموعة من العلماء والباحثين عن فلسطين وسكانها الاصليين بقوله: لفظ «فلسطين» هو الصيغة اليونانية للفظ «فلاشت» الواردة في العهد القديم. ومعنى هذا اللفظ «أرض فلسطين» وهي الجزء المطل على البحر، واليونان أيضاً منذ عهد هيرودوت ا اطلقوا هذا اللفظ على الجزء الداخلي من بلاد فلسطين[١].

إلا أن لفظ «فلسطين» هو ليس اقدم لفظ، فقد حفظت لنا الكتابات المسمارية لفظاً آخر، وهو: (امورو) وفي العبرية نجد له لفظ (أموري) وهذا اللفظ يطلق على فلسطين وكنعان والبقاع.

كما أن رسائل تل العمارنه اطلقت على فلسطين ووسط سوريا حالياً لفظ (لينخي) أو (لينخني)، واطلق قدماء المصريين على جنوب فلسطين لفظ (خرو) وشمالها (روتنو)[٢].

لقد أكدت حملة من الدراسات والبحوث أن فلسطين قد سكنها الإنسان منذ نحو ٢٠٠,٠٠٠ سنة، فقد عثر الباحثون على بقايا الهياكل البشرية للعصر الحجري في قرية شمال طبرية (ليست الأقدم ففي اندونيسيا والصين اكتشفت جماجم عمرها ٤٠٠٠ سنة) ووجدت جماجم في مناطق فلسطينية أخرى من العصر نفسه.

وقد توصل الباحثون الى اتفاق على أن الإنسان الفلسطيني القديم «الذي عاش على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل كان حلقة بين الإنسان البدائي والإنسان الحالي. خصوصاً وانه يمكنه مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسميه الآن الإنسان العاقل»[٣].

«ولعل هذه هي مرحلة التطور الإنساني من النوع العتيق البائد الى النوع الحديث. وقد أطلق على هذا النوع اسم انسان فلسطين»[٤].

وهناك من الباحثين من يعتقد أن الزراعة ظهرت في العصر الوسيط في فلسطين قبل غيرها وخاصة في مدينة أريحا، إلا ان مثل هذا الرأي يحتاج الى تأكيدات علمية أكثر. لانه كما هو معروف أن الزراعة قد وجدت في شمال العراق قبل أن توجد في أي مكان آخر.

وعن الإنسان الفلسطيني الذي عاش في العصر الحجري الحديث والحجري النحاسي قال الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ»..«إن العرق البشري الذي تنتمي إليه الشعوب التي قطنت شمالي سورية وفلسطين ولبنان في العصر الحجري الحديث هو العرق الذي يعرف بعرق حوض البحر الابيض المتوسط. فقد وجدت آثار الإنسان الذي ينتمي الى هذا العرق في حفريات «شقبة» في وادي الطوف وفي «مغارة الوادي» قبل ٥٠٠٠ ق.م وفي «تل الجديدة» قبل ٤٠٠٠ ق.م وفي «جبيل» ٣٥٠٠ ـــ ٣٢٥٠ ق.م، مما يدل على أنه الشعب الاصيل في البلاد، ومما يدل أيضاً على أنه اقدم الشعوب التي توطنت شرقي البحر الابيض المتوسط. وهذا العرق البشري هو في الواقع العرق الذي تنتمي إليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تتوطن شمالي أفريقية (الشعب المصري الحامي القديم) وجنوب اوروبا، (أي الشعوب التي كانت تقطن شبه جزيرة ايبريه (اسبانيا والبرتغال) وفرنسه وايطاليا وبلاد اليونان والجزر القريبة منها والتي تغلبت عليها فيما بعد الشعوب الهندية الاوربية). وهو عرق بشري يختلف اختلافاً كلياً عن العرق الذي ينتمي اليه انسان مغارة الكرمل وانسان انطلياس (شمالي بيروت) الذي كان يحتفظ بكثير من المزايا الجسمانية البدائية. أما الإنسان الذي ينتمي الى هذا العرق الذي نحن بصدده فهو انسان كما نعرف الإنسان اليوم. هذا الإنسان الذي توطن حوض المتوسط ينتمي الى العرق الابيض القوقاسي. فقد كان قصير القامة أو معتدلها، ذا بنية نحيفة ـــ واحياناً قوية ـــ ذا ساقين طويلين إذا قيسا بجذع جسمه. وقد كان رأسه طويلاً، ذو شعر يميل لونه الى السواد، وقل ان تجده أصلع. والى هذا العرق تنتمي الشعوب السامية، ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد في المنطقة التي نتكلم عنها»[٥].

كما يشير كل من مصطفى الدباغ والدكتور فيليب حتي الى الاقوام التي سكنت فلسطين حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م استشهاداً على الآثار التي وجدت في كل الجزر وفي غربي جبل الكرمل بأن هذه الاقوام كانت قد سكنت المغاور وأفرادها غلاظ العظام قصار القامة زرق العيون مع أحمرار شعورهم.

إن هذه الاقوام تنتسب الى الفصيلة الهندية الايرانية (الاوربية)، انقرض قسم كبير منها، بينما اندمج واختلط القسم الباقي مع الاقوام التي اغارت عليهم واستوطنت ديارهم. وهذه الاقوام المغيرة هي الاقوام السامية(٦).

ومعروف لنا ان الموطن الاصلي للاقوام السامية هو شبه الجزيرة العربية، وبعد ان حل الجدب في هذه الأرض نزحت عنها هذه الاقوام بحثاً عن المياه والمراعي.

ومعظم علماء التاريخ والباحثين في الشؤون التاريخية وحياة الشعوب يتفقون على ان شبه الجزيرة العربية كانت مصدر الهجرات السامية التي أتخذت اسم «الموجات السامية».

لقد اضطرت هذه الاقوام الى ترك اراضيها نظراً لتزايد اعدادها في أرض صحراوية كاملة، الى السهول المجاورة التماساً للرزق وطلباً للعيش. وقد شهد التاريخ خمسة موجات سامية الى مشارف «العراق وسوريا ومصر»، وقد اتخذت الموجة الثانية من هذه الموجات الخمسة طريقها الى فلسطين وهي الموجة« الامورية الكنعانية» وقد تعاظم أمر هذه الموجة سنة ٢٥٠٠ ق.م.

وحول هجرة الكنعانين الى فلسطين يشير الدكتور أحمد سوسه معتمداً على اراء مجموعة من العلماء والباحثين(*)، على ان الكنعانيين قد توجهوا الى أرض فلسطين في النصف الاول من الالف الثالثة قبل الميلاد وحسب أوثق التقديرات، يرى الدكتور سوسه ان الكنعانين قد سكنوا أرض فلسطين الى ما قبل ذلك زمن بعيد إذ توصل الاثاريون الذين اجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل اسماء كنعانية مثل «اريحا»، و «بيت شان»، و «مجدو»، و «جازو»، الى تاريخ هذه المدن الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد. وقد عثر في حفائر «تليلات غسول» الواقعة شمالي شرقي البحر الميت في سنة ١٩٢٩ وما بعدها على آثار اقدم مدينة كنعانية في فلسطين، وكان لها حضارة راقية، وقد خرجت في اوائل العهد الحجري المعدني أو البرونزي. (٥٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م) نتيجة حريق حولها الى رماد(٧). ويقول الاستاذ اولبرايت معلقاً على هذا الموضوع «انه لدينا البراهين والأدلة على ان الكنعانيين اصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد حيث عثر على اسماء مدن كما وردت كلمات كنعانية في المدونات المصرية من عصر الاهرام (القرن الثامن عشر والعشرون قبل الميلاد)(٨)»، وعن ذلك ذكر الطبري بقوله «فعمليق أبو العماليق كلهم امم تفرقت في البلاد وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون»(٩).

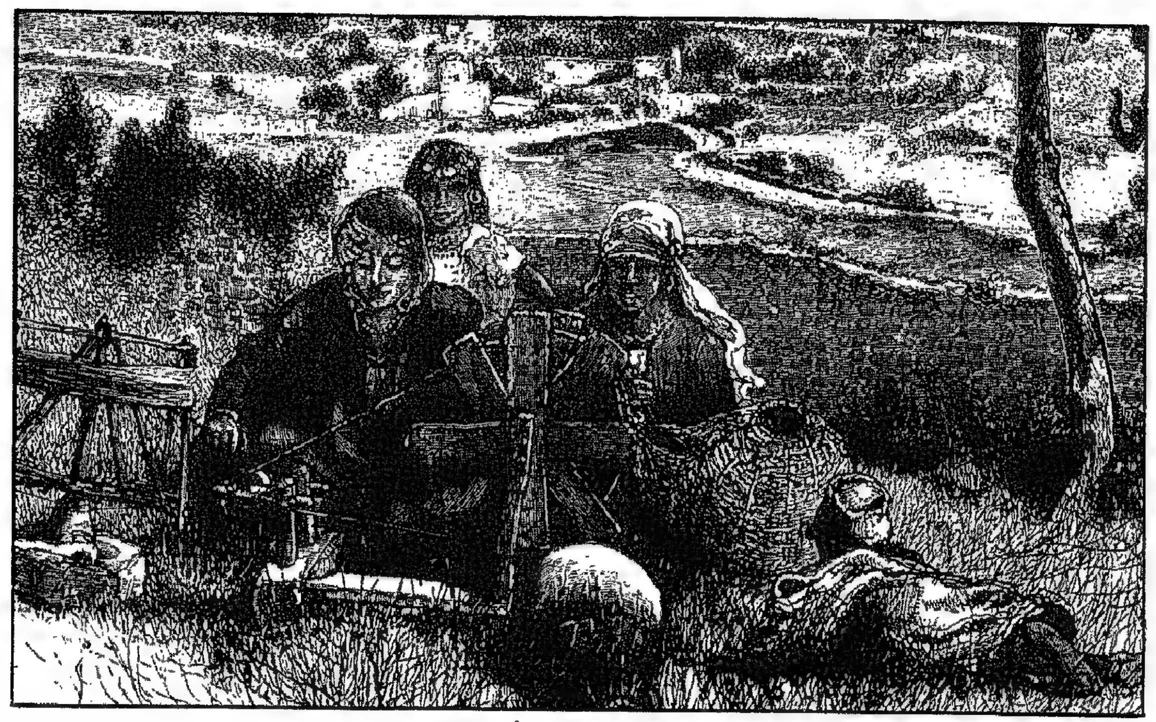
وقد سميت فلسطين منذ ان دخلها الكنعانيين باسم «بلاد كنعان»، ويرجع الاصل في هذه التسمية الى الكنعانيين انفسهم حيث سميت فلسطين باسمهم.

توجد مدينة بابلية(**) كانت تسمى كنعان، وسمي ساكنها (كنعاني) وهو نفس اسم كنعان الفلسطيني. وربما جاء ذلك عن طريق هجرة

(*) إعتمد الدكتور أحمد سوسة بهذا الصدد على جملة من المصادر منها:

— «Keller, «The Bibleas History». 1957, p. 158».
— «Biccioti, «History d'Israel» & vol. 1. p.70-104».
— «Hitti, «History of Syria» London, 1951, p.120».
— «Albright, «Archaeology & The Religion of Israel», 1942. p. 68 .
— «Rogers, «Cuneeiform Parallels Is to the old Testament», 1947, p. 260».
— «G.A. Smith «The Historical Geography of the Holg — hand» 1931, p. 796».

(**) توجد حالياً بلدة في محافظة ديالى في العراق تسمى (كنعان).



«نساء فلسطينيات يغزلْن» (١٨٧٥)

بعض الكنعانيين إلى (بابل) فسميت مدينتهم على اسم بلدهم الذي جاؤوا منه. و (كنعان) هي نفس التسمية التي وردت في التوراة نسبة الى (كنعان بن حام بن نوح). فمن الكنعانيين اخذت فلسطين أسمها فصارت تعرف باسم (أرض كنعان)(*) ، وكان اسم بلاد كنعان في بادىء الامر يطلق على الساحل والقسم الغربي من فلسطين، إلا ان هذه التسمية توسعت فيما بعد فشملت أكثر أجزاء سورية مع جميع أرض فلسطين. وكانت عاصمة بلاد كنعان هي (نابلس)[١٠].

وحول اصل تسمية كنعان يشير الدكتور أحمد سوسه بقوله لقد ورد ذكر كنعان في رسائل تل العمارنه باسم (knakhni)، وكانت هذه التسمية تطلق على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتمله على أرض فلسطين، وقد ورد في الكتابات القديمة ذكر مدينة بابلية باسم «كنعان» (Kan —— nan) وسمي ساكنها (كنعاني) (Kanunai) وهو نفس اسم كنعان الفلسطيني، ويعتقد ان هذه التسمية جاءت عن طريق انتقال مهاجرين من كنعان الى بابل فسميت مدينتهم على اسم بلدهم الذي جاؤوا منه طبقاً للعادة التي أتبعها المهاجرون في مختلف البقاع عبر التاريخ. ذلك يدل على ان لفظ «كنعان» قديم جداً سبق عهد التوراة بعدة قرون[١١].

ومن الجدير بالذكر، ان كلمة كنعان قد تكررت كثيراً في الكتاب المقدس، حتى انها وردت به خمسة وثمانين مرة، ثلاثة وثمانون في العهد القديم ومرتان في العهد الجديد، مثلاً: «وكنعان وَلَدَ صيدون بكره وحثا واليابوسي والاموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والاروادي والصماري والحماتي. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعموره وادمه وصبو ييم الى لاشع. هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم واممهم[١٢]». واذا ما ذهبنا مع التوراة تكون رقعة بلاد كنعان

(*) جاء في الكتاب المقدس الاصحاح التاسع ص ١٠ «وكان بنو نوح الدين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافت. وحام هو أبو كنعان» وجاء في الاصحاح العاشر، ص ١١ «وبنو حام كوش ومصرايم وقوط وكنعان».

الجغرافية تقع بين الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط من اوغاريب الى غزه وبين الصحراء السورية ومن سهول ادنه في جنوب آسيا الصغرى الى صحراء النقب جنوبي فلسطين.

ويتفق الدكتور كلود شافر مع ما ذهبت إليه التوراة في تحديد حدود كنعان استناداً الى لوحات تل العمارنه والى وثائق رأس شمرا، والمكتشفات الاثارية التي نشرت عن حفريات طرطوس في فيليقيا واريحا وذلك بقوله «ثبت لنا ان بلاد الكنعانيين بين شواطيء المتوسط، الشرقية وصحراء سورية، اتسعت في الجنوب، من فلسطين الجنوبية الى اوغاريت (قرب اللاذقية)، وفي الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا (ادنه) الخصبة واستثمروها منذ النصف الاول للالف الثانية قبل الميلاد[١٣]».

اذن اسم «كنعان» هو اول اسم لفلسطين، وجميع الاسماء الاخرى كما يرى الدكتور حتي، هي اقل اهمية[١٤]، وفي وثائق العهد القديم الاولى أطلق اسم «كنعان» بدون أي مدلول عرقي، وتعبير «لغة كنعان»[١٥] كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية[١٦].

أما الحضارة الفلسطينية القديمة، فهي ترجع الى الكنعانيين، حيث أنهم اول من أسس حضارة فلسطين القديمة.

وعلى ما يبدو ان تاريخ الحضارة الكنعانية يشير ان هذه الحضارة من الحضارات الانسانية الواغلة في القدم، حيث تعود الى العصر الحجري الحديث أو العصر النيوليتي (٧٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م) وقد عبر عن نمو الحضارة الكنعانية وازدهارها نمو وازدهار المدن الكنعانية، وظهر ان الكنعانيين قد اكتشفوا النحاس الطري، واستطاعوا الجمع بين النحاس والقصدير في انتاج البرونز، ولاستخدامهم صناعة التعدين تمكنوا من الحيازة على ادوات واسلحة كانت تعتبر في عصر ذلك العصر من الاسلحة الفتاكة، وقد شاع استعمال البرونز عندهم في فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق.م وقد أظهر التحليل الكيمياوي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشفت في قرية قريبة من اللاذقية، ليس معرفة إذابة الحديد فحسب وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ، وأولى الكنعانيون اهتماماً للبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً، واهتموا أيضاً بالبحث عن الذهب والفضة، لذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم، كما اجادوا فن الصياغة في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد اكتشف ميزان أحد الصاغة واوزانه في رأس الشمرة قرب اللاذقية[١٨].

ومن الجدير ذكره، ان بعض الباحثين وعلماء التاريخ يعتقدون ان الكنعانيين قد أخذوا الحديد من الاقوام المجاورة لهم كالحيثيين.

وحين قام المصريون، بغزو المدن الكنعانية، وصفوا الغنائم التي حازوا عليها من اعدائهم الكنعانيين، فقد وصفوا بأن من بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجلها «تحوطمس الثالث» ، عربات مطعمة بالذهب واوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة، وسرائر من العاج واسرة نوم مطلية بالذهب وكؤوس وآنية أخرى وسيوف وتماثيل معظمها من الذهب وخشب الابنوس، كما تشير سجلات تحوطمس الثالث الى وجود معاصر الزيت والعنب وهي مصنوعة بدقة واتقان وأيضاً تشير السجلات الى ان أرض كنعان أرض خصبة، وقد جلب تحوطمس الثالث من أرض كنعان الى مصر (٢٠٧,٠٠٠) كيس من الحنطة[١٩].

لقد وجدت السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والمخازن والملاقط في اريحا من العصر الذي سبق قدوم بني اسرائيل، واكتشفت في فلسطين اساور وكلاكل واقراط وخزائم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف المواقع. واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل «أبو هوام» قرب حيفا. يستدل على وجود الات موسيقية كالقيثارة والناي والمزمار والعود والدف، وقد تلفت مثل هذه الالات لعدم مقاومتها للظروف الطبيعية[٢٠].

واشتهرت المزارع الكنعانية بزراعة الكروم والتين، وقد تفننوا في الزراعة، فهندسوا المشاريع المائية، فأوصلوا الماء الى داخل قلاعهم التي تفننوا أيضاً في بنائها، وقد شيدوها قلاعاً قوية حتى تستطيع حماية مدنهم من غارات اعدائهم[٢١].

واستفادوا من قوة المصريين في حماية الطرق التجارية، فازدهرت تجارتهم، الامر الذي سهل وصولها الى بلدان بعيدة عن بلادهم، فقد وصلت بضائعهم الى المدن المصرية.

والكنعانيون الذين عرفوا المعادن والتعدين، لهم ثقافتهم المميزة، وقد أخذ اليهود فيما بعد الى شريعتهم من الشريعة الكنعانية الكثير من الاحكام الاجتماعية والسياسية وفي الشريعة الكنعانية كما في شريعة حمورابي تنظيم للاحوال الحقوقية والجزائية(٢٢).

ووجدت في أرض كنعان اثار مغازل من الحجر والعظم، واثقال من الحجر والطين تستخدم لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث ق.م.

ان وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق.م جاء فيها ذكر الصوف الكنعاني، ويذكر الاستاذ جيمس هنري برستد «James H. Breasted» عن القطن الذي كانوا يسمونه صوفاً، والذي «كان في الاصل من نبات الهند قد ادخله سنحاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى «الاشجار التي تحمل صوفاً» والتي كان رجاله يقطعونها ويسرحونها لعمل الملابس(٢٣)». كما اكتشف في فلسطين «الابر والدبابيس» اكتشفت «في صناديق برونزية وبدون صناديق» كما وجدت في أرض كنعان أيضاً (فلسطين)، «أزرار مستديرة بثقبين، وكانت أزرار الاغنياء تختلف عن أزرار الفقراء، حيث كانت أزرار الاغنياء تصنع من العظم أو العاج» بينما تصنع أزرار الفقراء من«الخزف المكسور»(٢٤).

من هذه الامور التي عرضناها نستدل ان الكنعانيين العرب هم اول شعب متحضر سكن فلسطين حتى ان فلسطين سميت باسمهم «أرض كنعان» وكما رأينا ان هذه التسميه قد وردت في كتاب بني اسرائيل نفسه.

لقد انقسم الكنعانيون الى قبائل عديدة، منها قبائل اليابسيون وقد نزلوا القدس وجوارها، والاموريون وكانت منازلهم في جهات نابلس وجوارها. وعرف فيما بعد بخلافهم الشديد مع اليهود الذين تسللوا في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واشتهر الاموريون بطول القامة والقوة والشجاعة، والجرجاشيون سكن بعضهم الجليل والكرمل، والحيون نزلوا شمالي القدس، وقد امتازوا بأن كانت إدارتهم جمهورية ديمقراطية يديرها الاهلون(٢٥).

ان فلسطين هي بلاد كنعان، وبلاد كنعان هي بلاد عربية، سكنها الكنعانيون العرب وحكموها منذ ٣٠٠٠ ق.م وحتى الالف الاول قبل الميلاد، وهذا يعني ان ادعاء بني اسرائيل لا صحة علمية له اطلاقاً، بأنهم اقدم الاقوام التي سكنت فلسطين.

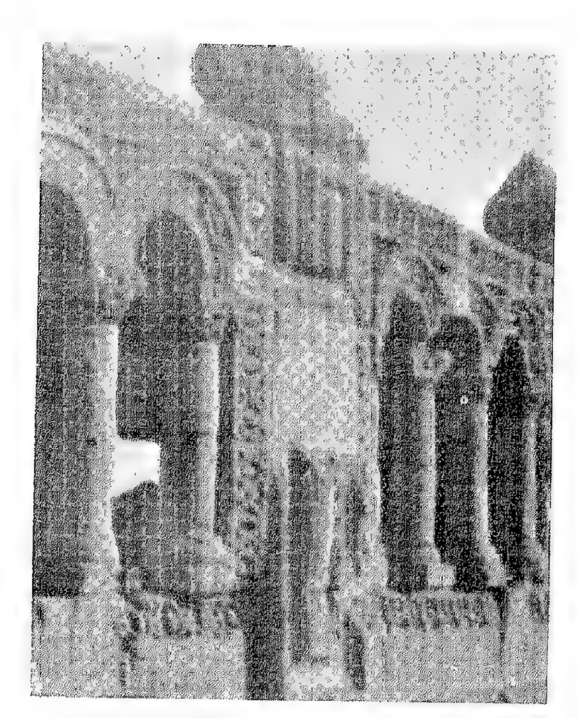
الفلسطينيون

هاجمت الكنعانيين اقوام عديدة للاستيلاء على ارضهم الخصبة والهيمنة على طرق التجارة، فقد كانت للكنعانيين حروب معروفة ضد المصريين الذين شددوا من الضغط على أرض كنعان ، وقد تمكن المصريون من اقتحام القلاع المنيعة التي بناها الكنعانيون وسيطروا على فلسطين وسوريا من ١٥٨٠ الى ١٣٥٠ ق.م.

وفي هذا العصر أي في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ابتدأت هجرة من جزيرة كريت وما جاورها من الجزر الى مصر. ويرى ذلك كل من برستد والاب فيكورو (مجلد (١ من الكتاب والاكتشافات)، وسيجي أن في هذا التاريخ قد حدثت الهجرة المذكورة. تقول سيجي: ان هؤلاء الاقوام قد «قدموا الى مصر من جزيرة كريت وغيرها من جزر الارخبيل وما جاورها من البلاد نحو القرن الخامس قبل الميلاد»(٢٦).

وقد استقر هؤلاء في منطقة «الكسلوحيم» التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، واطلق عليهم المصريون «الكسلوحيم» أو سكان البحر، أما اسمهم الحقيقي فهو «بلستPeleset» ولكن التوراة ذكرتهم باسم «الفلسطينين»(٢٧)، ويعتقد المطران يوسف الدبس وهو معتمد على الاب فيكورو وسيجي، انهم اصلاً «من قبيلة البلاسج» ويرى هؤلاء الباحثون ان بين الاسمين الفلسطينيون والبلاسج «مقاربة ظاهرة»(٢٨).

ان البلاسج أو الفلسطينيون أو بلست أو سكان الشطوط المصرية الذين جاؤوا من كريت وما جاورها من الجزر واليابسه، هم « من



من آثار قصر هشام بن عبد الملك بمدينة اريحا

ذرية يافت ومن اعقاب ابنه ياوان أبي اليونان» وكتب الاب كارا في مجلة «التمدن الكاثوليكي» ان «البلاسج الاولين من قبيلة الحثيين ولد حث بن كنعان»(٢٩).

سكن الفلسطينيون السواحل البحرية في مصر في عهد الفراعنة، وحينما تكاثروا ضايقوا القوافل التجارية المصرية وأغاروا على بعض البقاع المصرية واشتبكوا مع جيوش الفراعنة المصريين في عدة مواقع، ولما عظم أمرهم وكبر خطرهم على الفراعنة ، جهز الفرعون رعمسيس الثالث جيشاً جراراً لضربهم، فقتل معظمهم وأسر الباقين، ويذكر ان الفرعون رعمسيس الثالث قد عطف على الباقين فاسكنهم في الساحل الجنوبي من فلسطين وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ويحدد العميد عبد الرزاق في «الموسوعة الفلسطينية» أن هجرتهم الى الساحل الجنوبي من فلسطين حدثت في الفترة (١٢٠٠ ـ ١٢٠) ويشير الى موضوع الفلسطينيين مجموعة من الاساتذة واللاهوتيون الذين اشتركوا في تأليف «قاموس الكتاب المقدس» حيث قالوا: «في سنة ١١٩٤ق.م هزم رعمسيس الثالث «شعوب البحر» في حملة حربية قاموا بها عليه في الدلتا. وفي سنة ١١٩٠ رد حملة أخرى في سوريا قام بها هؤلاء الغزاة براً وبحراً. وكان بينهم الفليساتي (الفلسطينيون) وغيرهم من كاريين وليكيين وأخائيين وجماعات أخرى ذات صلة قرابة باليونانيين، والفلسطينيون على الارجح من حوض البحر المتوسط من اصل ليكي ـ كاري (في جنوب غربي آسيا الصغرى) وقد غزوا جزيرة كريت واستقروا في القسم الشرقي منها برهة من الزمان. ثم اشتركوا في الحملة الكبرى التي هزمهم فيها رعمسيس الثالث كما سبق ذكره. إلا ان بعض الغزاة بقوا في سوريا وبالتالي وصلوا فلسطين»(٣٠).

لقد استقر الفلسطينيون كما رأينا في جنوب فلسطين، وكان لهم شأن عظيم في تاريخ فلسطين، فقد أشادوا المدن الكبيرة وعمروها وحصنوها وبنوا فيها القلاع وأحاطوها بالاسوار المنيعة، وأشهر مدنهم غزة واسترود وعقرون وعسقلان وجت، وكانت مدينة اشرود عاصمتهم.

واشتهر الفلسطينيون بحروبهم الطويلة والعديدة مع العبرانيين الذين انسلوا الى فلسطين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد طردهم الفراعنة الى سيناء ومكثوا فيها زمناً ثم انسلوا الى فلسطين.

وحين تجمع العبرانيون وكونوا لهم جيوشاً في فلسطين، زحف عليهم الفلسطينيون في حوالي ١٠٥٠ق.م فكسروهم وأخذوا منهم تابوت العهد، وفي نحو عام ١٠٢٠ق.م حينما طلب شيوخ بني اسرائيل من زعيمهم الديني صموئيل ان يجعل لهم «ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب(٣١)». وكان رجل اسمه شاول أول ملك عليهم، وقد عرف عن العبرانيون أنهم يرون في ملوكهم أنبياء.

لقد كان ملك العبرانيين الأول فاشلاً، فقد كانت أخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية، ولم تمتد حدود مملكته الصغيرة أبعد من منطقة قبيلته بنيامين(٣٢).

لقد استاء الفلسطينيون من وجود ملك في فلسطين واعتبروا ذلك بمثابة ثورة ضدهم فقادوا حملة عسكرية على الملك شاول وقتلوه

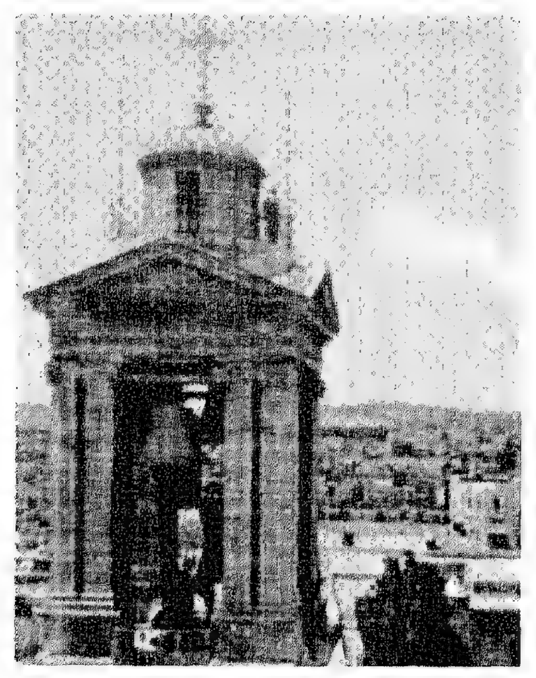
وشتتوا قومه في معركة جلبوع[٣٣].

إن الذي جعل الفلسطينيين متفوقين على اعدائهم بصورة خاصة هو امتلاكهم سلاحاً متفوقاً، ذلك السلاح الذي كان معرفة الصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والهجوم وقد احتكروا صناعة الالات والاسلحة الحديدية، بالمقابل كان الاسرائيليون يتأففون من القيام بمثل هذه الاعمال، وإذا قدر لهم واحتاجوا الات زراعية وأدوات قاطعة فأنهم يذهبون الى حدادين فلسطينيين لكي يعملوا لهم ذلك، بينما نجد الكنعانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية قد تفوقوا تفوقاً حازماً على الغزاة الاسرائيليين[٣٤].

ومن ذلك يمكن الاستدلال ان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة أهم وهي عصر الحديد وذلك بتوصلهم الى معرفة صهر الحديد المعقدة واستعماله على نطاق واسع، وكان ذلك إضافة الى ردعهم العبرانيين يعتبر فضلاً هاماً لهم.

ولكن الفلسطينيين اندحروا في آخر المطاف، أمام اليهود فقد «غزاهم غزياً وغلبهم وكذلك حزقيا. ورافق كثيرون من الفلسطينيين جورجياس القائد السوري لجيش الطيوطوس ابيفانيس في حملته على يهوذا. وبعد ذلك أخذ يهوذا المكابي ازوتوس ومدناً فلسطينية أخرى. ثم أحرق يوناتان المكابي ازوتوس مع هيكل داجون ومدينة اشقلون كما حرق ضواحي غزة[٣٥] » وقد دخل غزة بعد ان استسلمت إليه.

لقد انسل العبرانيون الى فلسطين كبدو رحل لا علاقة لهم إطلاقاً بالحضارة وعند استقرارهم في فلسطين أخذوا من كنعان بعض جوانب حضارتها. حيث تركوا لهجتهم القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاش في أرضه، فهم لم يعرفوا الكتاب قبل دخولهم الى فلسطين لان لغتهم لغة كلام فقط، ولكنهم تعلموا فن الكتابة من الكنعانيين، كما أخذ نفر قليل منهم من كنعان الزراعة، أما الغالبية العظمى للاسرائيليين فاهتموا بالرعي والتجارة، كما اقتبس الاسرائيليون من الكنعانيين آلهتهم ومعابدهم، وبقوا لسنوات طويلة يستعملون الفن



بيت لحم

الكنعاني سواء كان في البناء أم في الدين كالتراتيل الدينية والموسيقى التي تصاحبها. كما أخذوا من الكنعانيين عادات الدفن. وكانت ثيابهم وحليهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاساليب والازياء الكنعانية.

إلا ان العبرانيين تميزوا عن غيرهم بالسرقة والسلب وقتل اعدائهم دون تمييز بين طفل وشيخ وامرأة وسنرى ذلك لاحقاً، كما تميزوا بحبهم للمال والذهب.

لقد بدأ حكم بني اسرائيل في بعض أقسام فلسطين بشكل حقيقي في ١٠٠٤ ق.م أي في زمن الملك داوود، واشتهر من ملوك اسرائيل اضافة الى الملك داوود ابنه سليمان، والملك عمري وهو الذي اسس مدينة السامرة وحصنها وجعلها عاصمة[٣٦] وبنى فيها القصور ومنها القصر الذي وسعه و زخرفه ابنه ووريثه آخاب هذا القصر هو قصر «بيت العاج»[٣٧]، وآخاب الذي جاء كملك بعد والده سيطرت عليه زوجته «ايزابل» ابنة اتبعل ملك صور وصيدا، وكانت السبب في الشقاق والخلاف الذي حدث في صفوف قومه، الى أن قاد احد ضباط الجيش ثورة ضده والقى بايزابيل من نافذة. وهو

الضابط «ياهو» فأكلت جثتها الكلاب[٣٨] وأصبح «ياهو» ملكاً بعد ان استولى على العرش، وكان ياهو يقدم الجزية بشكل أوان من الفضة والذهب والرصاص الى الملك الاشوري، ثم من ملوك بني اسرائيل المشهورين يربعام الثاني.

وعندما رفض هوشع ملك اسرائيل بدفع الجزية لسنوات متكررة هاجمه شلمناصر الخامس وحاصر المدينة ذات الحصون القوية لثلاث سنوات ثم سقطت على يد خلفه سرجون الثاني بين ٧٢٢ و٧٢١ ق.م، وتلاشت مملكة اسرائيل الى الابد على يد الاشوريين.

أما مملكة يهوذا فقد سقطت على يد الكلدانيين في عهد نبوخذ نصر الذي دخل جيشه اورشليم في ٥٩٧ وقيد ملكها وارسله الى بابل[٣٩].

وبذلك فقد خضع قسم من فلسطين الى الحكم الاشوري عندما سقطت مملكة اسرائيل على يد سرجون، ثم خضعت الى الكلدانيين في عهد الملك الكلداني نبوخذ نصر.

الجدول التاريخي يشير الى سير الاحداث التاريخية التي سبقت الميلاد في فلسطين.

جدول الاحداث التاريخية التي تعرضت لها فلسطين قبل الميلاد

سنوات الأحداث		الأحداث التاريخية
٣٠٠٠	٢٥٠٠	هجرة الكنعانيين الى فلسطين، ومنهم اليبوسيون سكان اورشليم الاوائل.
١٩٩٦		هجرة إبراهيم الخليل من (اور) العراق. الى فلسطين، وقيل ان الهجرة كانت سنة ١٨٠٠.
١٧٢٠		هجرة يعقوب (اسرائيل) واهل بيته الى مصر.
١٥٣٠	١٣٥٠	سيطرة المصريين على سوريا وفلسطين.
١٤٩٠		خروج موسى من مصر امام جيوش فرعون. وقيل أن الخروج كان في عام ١٦٤٥ ق.م.
١٢٠٠	١١٢٠	هجرة الفلسطينيين الى الساحل الجنوبي من فلسطين ومنهم جاءت التسمية.
١١٨٩		دخول اليهود فلسطين من شبه جزيرة سيناء بقيادة (يوشع بن نون).
١١٨٠		أول محاولة ناجحة لاقامة دولة يهودية.
١١٢٥	١٠٢٥	عهد القضاة الموسويين في فلسطين.
١٠٢٥	١٠١٠	مطالبة اليهود بتعيين ملك عليهم. وتعيين شاؤول (طالوت). وتعتبر هذه الفترة هي مدة حكم (شاؤول).
١٠١٠	٩٧١	مدة حكم اليهود. وبداية انقسام المملكة الى شمالية وجنوبية.
٩٦٠	٩٣١	مدة حكم (سليمان الحكيم) وبناء الهيكل المسمى باسمه.
٨٧٩	٨٤٣	استيلاء الملك السوري (بنحدد الأول) على أورشليم ونهب كنوزها ومعبدها وقصرها الملكي.
٧٣٩		استيلاء (تجلات بلاشو) الثالث ملك آشور على أرض فلسطين وسبي أهلها الى اشور.

٧٢٢	٧٢١	حملة الآشوريين على مملكة اسرائيل زمن (شلما نصر الرابع الذي توفي قبل فتح اورشليم) واكمل الفتح في عهد (سرجون الثاني) وازالة المملكة الشمالية من الوجود.
٧٠١		حملة (نبوخذ نصر) الاولى على مملكة يهوذا وحرق (اورشليم) وأسر ملكها وسبيه مع اليهود الى بابل مقيدين بالسلاسل. وهذا هو السبي الاول.
٥٨٧		حملة (نبوخذ نصر) الثانية على مملكة يهوذا (وهو السبي الثاني).
٥٨٦	٥٣٩	فترة اسر اليهود في بابل وكتابة التوراة من قبل اخبار اليهود.
٥٣٨		فتح (كورش) الفارسي مدينة بابل والسماح لمن يرغب من اليهود بالعودة الى فلسطين واعادة تشييد الهيكل.
٥١٥		اعادة بناء الهيكل.
٣٣٢		فتح الاسكندر المقدوني لفلسطين وانشاء المستعمرات الاغريقية.
٣٠٠		حملة بطليموس الاول على اورشليم ونقل عدد من اليهود الى افريقيا.
١٩٨		استيلاء (انطونيو غوس) الثالث على فلسطين.
١٧٥		ثورة اليهود ضد (انطونيو غوس) الرابع في اورشليم بزعامة (جاسون).
١٦٨		استيلاء السلوقيين على اورشليم.
١٦٦		استيلاء المكائيين على اورشليم.
٧٠		ثورة اليهود الثانية ضد الرومان بقيادة (حنانيا).
٦٠		دخول (بومبي) اورشليم وقيل سنة (٦٣).
٥٤		(كراسيوس) ينهب خزائن الهيكل في اورشليم.
٣٧		احتلال (هيروودتس) لاورشليم.

نظرة سريعة على تاريخ فلسطين العربي بعد الميلاد.

بعد دخول الرومان الى فلسطين بنحو ستين سنة ولد المسيح، وقد ولد في عهد اغسطوس قيصر، في بلدة بيت لحم، وبلدة بيت لحم تعتبر مسقط رأس اجداده، إلا ان بيت لحم لم تشهد نشأته بل انه تربي ونشأ في الناصرة، وعندما بلغ سن الثلاثين أخذ يتجول في مدن فلسطين ناشراً دينه الجديد. لا نريد ان نتناول هنا سيرة حياة المسيح فذلك يعرفه أكثر الناس وخاصة المسيحيين، ان الذي يهمنا هنا هو تاريخ فلسطين وعروبتها.

إذن كانت فلسطين في هذا التاريخ خاضعة الى الحكم الروماني، وكانت تشهد مولد المسيحية، وقد وقف امام المسيحية كل من الرومان واليهود، وشهدت هذه المرحلة آلاماً شديدة تعرض لها المسيحيون ومعظمهم من الفلسطينيين غير اليهود، وكان اليهود في هذا العهد قد وصلت بهم القسوة والهمجية مع

اعدائهم ما لا يصدقه أحد وينقل لنا ذلك المطران الدبس عن العالم اليوناني «ديون كسيوس» «انهم كانوا يأكلون من لحوم من قتلوهم ويشربون من دمهم ويحتزمون بامعائهم ويلتفون بجلودهم وقد شطروا كثيرين من رأسهم الى أسفل وارغموا كثيرين ان يصارع بعضهم بعضاً، ويجالدون بالسيوف الى ان يهلك بعضهم بعضاً[٤٠]».

ونظراً لتلك الهمجية والوحشية، شدد هدريان الروماني على اليهود في جميع انحاء فلسطين، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقد أخذوا من الاسرى خلقاً عظيماً وباعهم في البلدان بأبخس الاثمان[٤١]، ومنذ ذلك التاريخ أي منذ عام ١٣٥م لم يعد لليهود أي صلة بفلسطين ولم يعد لهم أي وجود حتى وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني أو قبل ذلك بسنوات معدودة.

وفي عام ٣٩٥ انقسم الرومان على أنفسهم، وبذلك فقد انقسمت دولتهم الى قسمين: الدولة الرومانية الشرقية، والدولة الرومانية الغربية، وقد بقيت فلسطين مستعمرة رومانية شرقية حتى القرن السابع حين حررها العرب المسلمون.

ففي عام ٦٣٨م دخلت القدس حكم العرب المسلمين تلتها بقية مدن فلسطين، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب وذلك سنة ١٥ هجرية.

فلسطين في الادب الإسلامي

جاء ذكر فلسطين في القرآن، مرات عديدة، والذكر المتكرر لها في القرآن يعني ان لفلسطين مكانة تاريخية عظيمة عند العرب والمسلمين، ولعل أشهر الآيات القرانية التي تذكر فيها فلسطين هي الآية الاولى من سورة الاسراء وهي الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير[٤٢].

وحين هاجر نبي المسلمين محمد بن عبد الله من مكه الى المدينة للتخلص من الارهاب والمضايقة الشديدة له ولاصحابه من قبل اسياد وتجار واغنياء قريش، بسبب نشره للدعوة الاسلامية فقد صلى مع اصحابه نحو القدس عندما استقر في المدينة، بينما كان يصلي واصحابه بمكة الى جهة الكعبة وبذلك فإن صخرة القدس بقيت قبلة المسلمين مدة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً[٤٣].

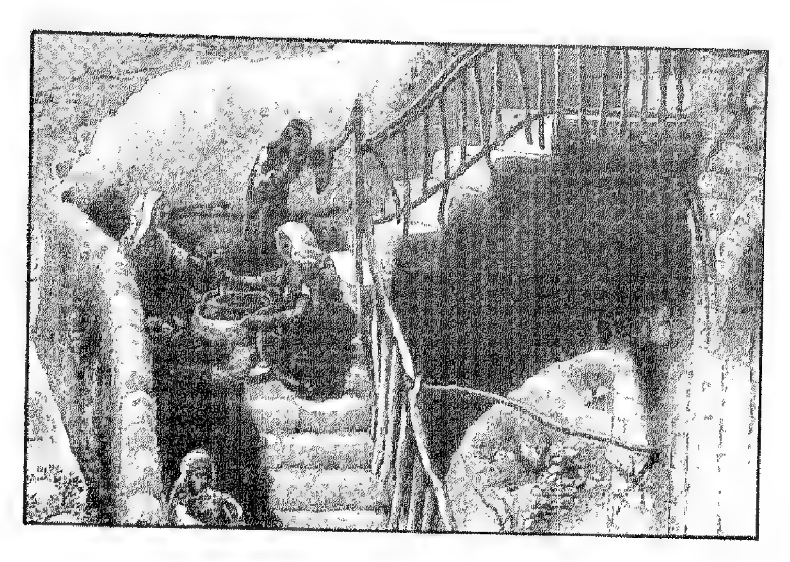
وحول ذلك نزلت احدى ايات سورة البقرة «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنو لينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره»[٤٤].

وجاء ذكرها أيضاً في القرآن كأرض مباركة، حينما أراد قوم إبراهيم في بلاد ما بين النهرين، قتله، فقد هرب مع ابن اخيه الى فلسطين، وقد نجى من القتل، فقد جاء ذكر هذه القصة في سورة الانبياء «ونجيناه ولوطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين»[٤٥].

وتحكي لنا سورة المائدة عن قصة النبي موسى وحواره المطول مع قومه حول دخول الأرض المقدسة (فلسطين) حيث كان يحاورهم لاقناعهم دخول فلسطين، وهم الذين الفوا الذل والخنوع في أرض القارعة، فكانوا يخشون الدخول الى أرض فلسطين خوفاً مما يلحقهم من أهلها من ضرر، وقد دار ذلك الحوار عندما دخلوا والنبي موسى صحراء التيه. تقول في ذلك الآية القرانية «يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على اديارکم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فأن يخرجوا منها فانا داخلون».[٤٦].

وحين أخذ هيرودوس بقتل الاطفال حين ولادتهم في بيت لحم، فقد اختفت مريم وابنها النبي عيسى في بيت المقدس، وقد ورد ذلك في سورة المؤمنين «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين»[٤٧]. قال ابن عباس هي بيت المقدس وهو كذلك قول قتاده وكعب[٤٨]. وعن الحسن وأبي هريرة إنها فلسطين[٤٩].

كما جاء ذكر فلسطين وانصارها على لسان النبي محمد واصحابه، فعن ابن عباس قوله: قال رجل، يا رسول الله! اني اريد الغزو في سبيل الله. فقال الرسول محمد عليك بالشام، فان الله قد تكفل لي بالشام وأهله ثم الزم من الشام عسقلان. فانه إذا دارت الرحى في امتي



«جرش الحبوب
على درج البيت» (١٨٨٠)

كان أهل عسقلان في راحة وعافية[٥٠].

وعن أبي أمامه ان النبي محمد قال: أنزلت على النبوة في ثلاثة امكنة بمكة والمدينة وبالشام، والمقصود بالشام تحديداً هنا هو بيت المقدس، حينما اسرى به الى بيت المقدس[٥١].

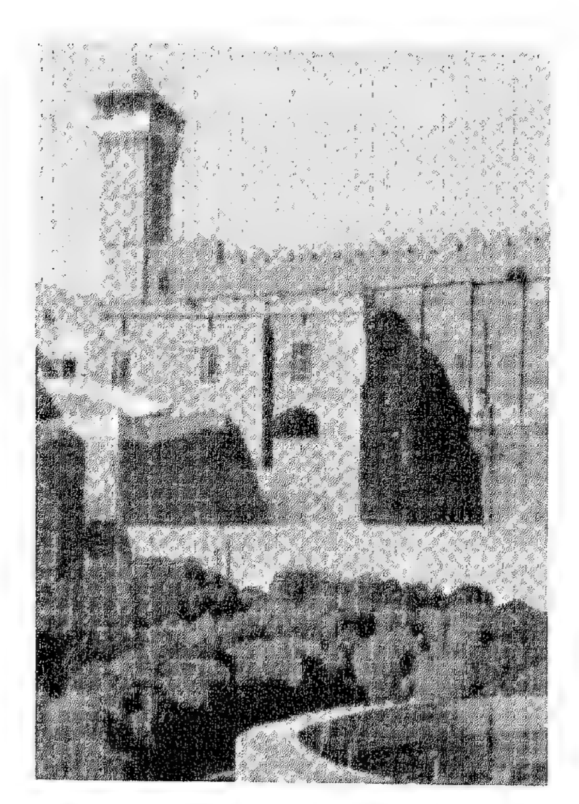
وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي أمامه الباهلي، ان رسول الله محمد قال لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، لا يغرهم من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بيت المقدس.[٥٢]

وعن أبي هريرة عن النبي محمد قال: «لا تشد إلا الى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومسجد الاقصى»[٥٣].

وعن يحي بن بكير عن عقيل عن ابن شهاب عن أبو سلمه بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله، انه سمع النبي محمد يقول: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس، فطفت اخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»، وروي ابن منذر بسنده عن انس بن مالك قال: «ان الجنة لتحن شوقاً الى بيت المقدس. وبيت المقدس من جنة الفردوس وهي سرة الارض»[٥٤]

كما جاءت فلسطين على لسان بعض علماء العرب. حيث ذكرها كجزء من بلاد الشام الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدس المعروف بالبشاري في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم الذي الفه سنة ٣٦٥هـ، بما يأتي: «اقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين ومركز الصالحين، ومعدن البدلا ومطلب الفضلاء. به القبلة الاولى وموضع الحشر والسرى والارض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر إبراهيم وقبره وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق وامه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب أرسيا وحبسه ومسجد اوريا وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحي ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى، وجبل زيتاء، وعين سلوان، وموضع لقمان، ووادي كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، ومساجد عمر، ووقف عثمان والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران والمكان القريب ومشهد بيان وباب وحطه ذو القدر والشأن وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم ورواميل ومجمع البحرين ومفرق الدارين وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى وفضائل لا تخفى وفواكه ورخاء واشجار ومياه، وآخرة ودنيا به يرق القلب وتنبسط للعبارة الاعضاء[٥٥]».

كما ذكرها كل من الشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي في معجمه



الحرم الابراهيمي بمدينة الخليل

«معجم البلدان» المتوفي سنة ٦٢٦هـ. والشيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيمي القرشي المعروف بالنويري المتوفى سنة ٧٣٢هـ، في كتابه نهاية الأرب في فنون الادب، وآخرين وآخرين من العلماء والكتاب العرب ذكروها بأحسن الالفاظ.

الصليبيون وصلاح الدين الايوبي

بعد ان أكمل الفرنج امتلاك سوريا ولبنان اتجهوا الى الجنوب فنزلوا الرملة واستولوا عليها دون مقاومة بعد ان أخلاها أهلها. وفي عام ١٠٩٩ سار الفرنج الى بيت المقدس وكانت حامية المدينة من الجيش المصري (المماليك) وكانوا قبل ذلك قد دخلوا اريحا، ولكن مدينة القدس صمدت صمود الابطال فعمل الافرنج السيف برجالها واطفالها ونسائها، وبعد شهر ظفر جيش الفرنج بمدينة عسقلان.

لم يستمر زمن الاندحار العربي طويلاً فقد لمع في المنطقة العربية اسم الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف الذي ولد في العراق، وأصبح اسمه يشكل رعباً وذعراً شديدين للافرنج، وهو الذي حرر بلاد الشام من الافرنج، فقد استولى على طبرية في اول تموز سنة ١١٨٧ بعد حصار دام اسبوعاً واحداً، ثم تلت بعد ذلك معركة حطين المشهورة، وشهدت هذه المعركة هزيمة كبرى بالنسبة للفرنج، وقد أسر العرب المسلمون في هذه المعركة جيشاً غفيراً من الافرنج بينهم ملك اورشليم[٥٦].

وبعد سقوط بيت المقدس اثر معركة حطين الشهيرة، ارتاعت أوروبا لذلك النبأ فنسي ملوكها خصوماتهم القديمة واتحدوا لأخذ الثأر وسلب الاراضي العربية مرة أخرى. وقد «انبري فردريك بربروسا (Fredrick Barbarossa) أمبراطور المانيا. ورتشرد قلب الأسد(Richard I Coeur de Lion) ملك إنكلترا، وفيليب اغسطس(Philip Augustus) ملك فرنسا الى حمل الصليب. ويعد هؤلاء الثلاثة أعظم ملوك أوروبا الغربية وبهم بدأت التجريدة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٨٩ ــ ٩٢) وهي من أكبر التجريدات من حيث عدد المحاربين. وكانت هذه الحملة وما ظهر فيها من شخصيات بارزة في كلا الجانبين وبنوع خاص صلاح الدين وقلب الأسد، قد مدت الاساطير والروايات الشرقية والغربية بأحسن المواضيع وغذتها بأغنى المواد وأمتع الأخبار»[٥٧]

لقد كان اعتقاد الصليبيين بأن عكا هي المفتاح الذي به يمكن ان يستعيدوا ما خسروه، وبذلك حاصروا مدينة عكا ودام حصارها نحو سنتين، وقد دافع العكاويون رجالاً ونساء ببسالة عن مدينتهم. ثم حدث صلح بين صلاح الدين والافرنج والصليبيين.

كما تعرضت فلسطين في العهد العثماني الى حدثين هامين أولهما تعرضها للغزو الفرنسي الذي قاده نابليون بونابرت، وثانيهما حملة محمد علي باشا التي قادها ابنه ابراهيم باشا ودام حكم إبراهيم باشا عشر سنوات أي من ١٨٣١ الى ١٨٤١.

لقد دام الحكم العثماني لفلسطين من سنة ١٥١٦ الى سنة ١٩١٨ حين وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

الهوامش

(١) د. فؤاد حسنين علي، اسرائيل عبر التاريخ، ص ٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(٣) د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٣٥. القاهرة ١٩٥٨.
(٤) د. نجيب إبراهيم ميخائيل، مصر والشرق الادنى القديم ٣/٣٣ القاهرة ١٩٥٩.
(٥) د. فيليب حتي، لبنان في التاريخ، الترجمة العربية ص ٧٣ ــ ٧٤؛ بيروت ١٩٥٩.
(٦) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، ص ٢٨.
(٧) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الجزء الاول، ص ٤٦.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) تاريخ الطبري، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، المجلد الاول، الجزء الاول، ص ١٠٣.
(١٠) العميد المتقاعد عبد الرزاق محمد أسود، الموسوعة الفلسطينية، م ٢، ص ٣٣٥.
(١١) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الجزء الاول، ص٤٧.
(١٢) الكتاب المقدس، تكوين، الاصحاح العاشر، ص ١١.
(١٣) نسيب الخازن، من الساميين الى العرب، ص ٤١.
(١٤) د. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول ترجمة د. جورج حداد ــ عبد المنعم رافق، ص ٨٦.
(١٥) الكتاب المقدس، سفر اشعيا، ١٨:١٩.
(١٦) د. فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٨٧.
(١٧) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٠ Lods, «Israel», p. 59.
(١٨) د. فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٥.
(١٩) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٠.
(٢٠) د. فيليب حتي، سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٦.
(٢١) العميد عبد الرزاق محمد اسود، الموسوعة الفلسطينية، ص ٣٣٥.
(٢٢) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، ص ٣٠.
(٢٣) د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الاول، ص ٩٩.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٤٨.
(٢٦) المطران يوسف الدبسي، من تاريخ سوريا الدنيوي والديني، المجلد الاول، ص ١١٠.
(٢٧) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٥٠.
(٢٨) المطران يوسف الدبس، تاريخ سوريا الدنيوي والديني، المجلد الاول، ص ١١٠.
(٢٩) المصدر نفسه.
(٣٠) مجموعة من الاساتذة واللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٩٣.
(٣١) راجعوا الكتاب المقدس، سفر صموئيل الاول ٥:٨.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) المصدر نفسه، يشوع ٢:١٧؛ القضاة ١٩:١.
(٣٥) راجعوا: قاموس الكتاب المقدس، ص ١٩٤.
(٣٦) الكتاب المقدس، سفر الملوك الاول ٢٤:١٦.
(٣٧) المصدر نفسه، ٣٩:٢٢.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) المصدر نفسه، ٤. اخبار الايام الثاني ٦:٣٦.
(٤٠) المطران يوسف الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، المجلد الثالث،ص ٥٦٩
(٤١) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٦٦٠.
(٤٢) سورة الاسراء الآية الاولى.
(٤٣) تاريخ الانس الجليل: ج ١ : ص ١٧٢.
(٤٤) سورة البقرة. ١٤٤.
(٤٥) سورة الانبياء. ٧١.
(٤٦) سورة المائدة ٢٣و٢٤.
(٤٧) سورة المؤمنون ٢٥.
(٤٨) الانس الجليل ج ١ ص ٢٠٢.
(٤٩) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين. الجزء الاول القسم الاول، ص ١٠.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٥١) المصدر نفسه.
(٥٢) نهاية الأرب في فنون الادب ج ١ : ص ٢٢٣.
(٥٣) و(٥٤) مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، ص ١٤.
(٥٥) المصدر نفسه.
(٥٦) د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٧٢٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٧٢٨.

اعتذار

تأسف مجلة «تاريخ العرب والعالم» لسقوط ذكر مصدر الدراسة القيّمة التي نشرت في عددها الأربعين الصادر في شهر شباط (فبراير) الماضي ١٩٨٢ م. والتي يعود مصدرها إلى العدد الثالث (١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩ م) من حولية الآثار العربية السعودية (الاطلال) والتي تصدر عن ادارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية.

ديان بيان فو

ترجمة: د. رياض العالي

ربيع ١٩٥٤، إحدى ذكريات فرنسا، ذكرى انكسار عدّه بعضهم على مستوى انكسار معركة واترلو أو أشد. وإذا كانت معركة واترلو تنطوي على دفاع عن مصالح فرنسا، وعن مصيرها، فما معنى معركة ديان بيان فو بالقياس الى تلك المصالح وذلك المصير؟ لقد شعر الشعب الفرنسي انه يضحي بأبنائه على مذبح مطامع لا علاقة له بها، ولأول يأس لأبنائه من الجنود، وينفعل لمصيرهم، ويتعذب من اجل «أبطاله» الذين لم يفكر فيهم من قبل ولم يحاول انقاذهم.

لقد أقنع موت دولاتر كل الطبقة السياسية الفرنسية أن معركة الهند الصينية خاسرة سلفاً ولا سبيل إلى كسبها. وكان الشعور السائد وقت جنازته يؤكد على نهاية الوجود الفرنسي في الهند الصينية. لقد كانت آخر خدمة أسداها الماريشال دولاتر إلى الشعب الفرنسي هي إيقاظ حالة سياسية ـ حربية سمحت بالتفكير بمخرج مشرف من الصراع. ذلك أن الحكومات المتعاقبة، بوتيرة متسارعة، لم تستطع أن تحدد بوضوح خط سلوك بيّن تجاه المعركة في الهند الصينية

ولم يكن مصير المعركة متعلقاً إلى حد كبير بالحكومة الفرنسية، منذ أن طلب دولاتر مساعدة الحكومة الاميركية. وقد فشلت محاولتان لوقف إطلاق النار مع الفييت ـ مين، وذلك بواسطة جورج ـ ليغ، نهاية ١٩٥٢، وبدايات حكم لانييل في تشرين الأول ١٩٥٣. كانت «الحرب الباردة» على أشدها آنذاك. فالأميركان يحاولون التوكيد على عدم إمكان فصل حرب كوريا عن حرب الهند الصينية، فالعدو واحد في نظرهم، والهيمنة ماركسية. وقد انحنى الحكم الفرنسي أمام الإرادة الاميركية

لحاجته إلى الدولار الاميركي.

لم يكن توتّر الرأي العام الفرنسي بأقل حدة من حالة السلطة السياسية. فقد بلغ الأمر بالاثنين إلى حد الانهيار، وزوال الحمسة، بل بلوغ حد عدم المبالاة، ذلك أن الصحافة نفسها وقفت إلى جانب الهند الصينية في معركتها التحررية

ففي تموز عام ١٩٥٣ ظهر مقال روجي ستيفان في (فرانس أوبسرفاتور ٣٠/٧) وقد نشر معه تقريراً عن اجتماع سري للجنة الحرب العليا، عقد في ٢٤ تموز، ورئيسها فانسن أوريول. يؤكد التقرير أن معركة لاوس خاسرة، وأن أي هجوم مضاد ضد الفييتمن مستحيل. عدا الدعاية ضد الاستعمار التي شملت معظم الصحف ووسائل الاعلان، قام «سابوتـج» ضخم في مجال السلاح، بلغ نسبة أربعين بالمائة من مجموعه.

تدهور الوضع في الهند الصينية

لم يتطور الوضع لصالح الفرنسيين منذ موت دولاتر. ولئن سـاعد الدعم المادي الأميركي، وسياسة الفتنمة في مضاعفة القوة

ضد الفييتمن ــ بلغت عام ١٩٥٤ خمسمائة ألف ــ فإنها كانت متباينة العناصر على جميع المستويات. فنصف الوحدات المسلحة من الدول المتحدة، كانت مقاتلة بالفعل، أما القوات الأخرى فلم تكن على مستواها قتالياً. من جهة ثانية لم يكن بين تلك القوات إلا خمسون ألف جندي فرنسي.

مقابل ذلك كان للفييتمن قوات تقدر بـ ١٢٥٠٠٠ جندي، تتزايد باستمرار، عدا أربعمائة ألف في المناطق، يتضاعفون يومياً، كذلك. وقد ازداد تسلحها وغدا أفضل، نتيجة المساعدات الخارجية (الروسية والصينية خاصة)، كما أن المضادات الأرضية ضد الطيران تحسنت تدريجياً حتى غدت فعالة.

وكانت للفييتمن أرض صينية للمناورة، للاختباء، والتزود بالسلاح والتدريب، مما لم يكن متاحاً للفرنسيين. هذا عدا المساعدات الفنية والتقنية.

لم يكن ظهر القوات الفرنسية محمياً، ولا خطوط اتصالاتها مضمونة، إذ كانت تتعرض دائماً للمناضلين المسلحين، الذين يختفون في الغابات والمناطق الجبلية التي كانوا يعرفونها جيداً.

وكان الفييتمن يعملون نهاراً ليلاً، في النهار يقاتلون، وفي الليل يتصلون بالجماهير ويلقون عليها دروس التوجيه، أو يدربونها على السلاح، أو يعملون على تصفية البؤر المضادة للفييتمن.

العمليات الفرنسية أو خطة نافار

مع ذلك كانت للفرنسيين أفضليات: الطيران، المصفحات، مدفعية البحرية، التي كانت تجعل الفرنسيين متفوقين، وتحول دون أن يحرز الخصم انتصاراً حاسماً. ولكن التفوق على مستوى الأسلحة الميدانية لم يكن قائماً، بل لعل قوات الخصم كانت أكثر تفوقاً بسبب قدرتها على التحرك عبر مساحات شاسعة، حتى التي تواجدت عليها القوات الفرنسية.

كان من الممكن لقوات المظليين أن تكون ضاربة ومؤثرة، لو أنها كانت مدربة تدريباً كبيراً على حرب الأدغال.

عام ١٩٥٣ درس قائد القوات الجديد



Pour que LA PAIX l'emporte à Genève

l'Humanité

Sept succès pour les salaires

DIEN-BIEN-PHU EST TOMBÉ

UN CESSEZ-LE-FEU EN INDOCHINE!

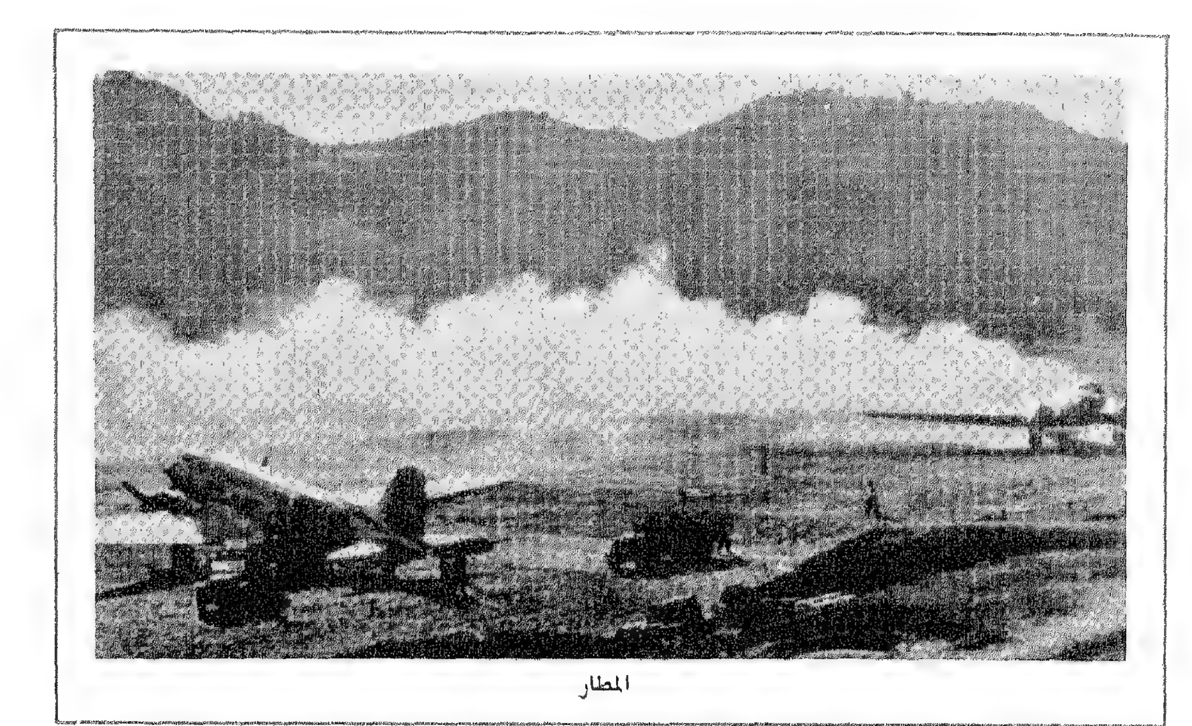
IL Y A NEUF ANS L'HITLERISME ETAIT VAINCU

الجنرال نافار، الوضع وقومه مع مساعديه، ثم وضع مخططاً واضحاً، حدد فيه الأهداف، والامكانات. وتركز المخطط حول نقطتين:

١ ــ التزام موقف الدفاع في فييتنام الشمالية حيث المواجهة غير ملائمة، مع شهر هجمات محدودة ذات أهداف مركزه، على أمل القضاء على مخابىء القوات الفييتنامية في الوسط والجنوب.

٢ ــ إقامة مراكز لآليات ضرورية يمكن الاستعانة بها لتكون المبادرة بيد الفرنسيين عند الحاجة. فقد كان في تقدير نافار أن المبادرة لا يمكن أن تصبح في أيدي الفييتمن إلا بعد عام ١٩٥٥، حين تزداد قواتهم ومسلحيهم زيادة واضحة. وفي هذا الوقت يمكن إعداد قوة عسكرية فرنسية كبيرة ضاربة، والاستعانة بقوات محلية عدوة للفييتمن.

منذ الصيف، بُدىء بتنفيذ المخطط. ولم تكن النتائج متساوية: كانت جيدة في الشمال حيث تمكنت الغارات على لانغ سون من تدمير مخازن أسلحة هامة للعدو. بينما الهجوم في أنام الشمالية سمح للفييتمن بإعادة تنظيم وحداتهم، وإخلاء المراكز في منطقة تاي، مما حرم الجيش الفرنسي القدرة على مفاجأتهم. أما الهجوم الستراتيجي في وسط فييتنام فقد فشل تماماً: فمحاولة «تنظيف» شمال هوي انتهت إلى الخيبة، إذ كان الفييتمن قد انسحبوا (نهاية تموز ١٩٥٣). لقد بدأت في نهاية كانون الثاني ١٩٥٤ عملية «آتلانت» (محاولة ضرب ليان كهوه، أي أكبر مخبأ للفييتمن، ويمتد من جنوب توران إلى رأس فاريلا). نجح الهجوم نجاحاً



المطار

جـزئياً رغم المعـارك الضاريـة والمكلفة، ولكن هجوم جياب على ديان بيان فو أجبر القيادة الفرنسية عـلى تغيير كـل مخططهـا، وبالتـالي رجحان كفة الفييتمن.

الستراتيجية الفييتمنية

كان الفييتمن على علم بمخطط نافار، ولكن لم يبد أنهم عازمون على اتخاذ أي تدبير ضدها. وكان تنفيذه كامناً في حـل وحيد هـو توزيـع القوات الفرنسيـة على أوسـع منطقـة ممكنة. ولم يعدوا الرد الحقيقي إلا في كانون الأول: قام الرد على هجومين محدودين، أولهما المسير نحو الجنـوب وغـزلاوس الشمـاليـة. وكـان عـلى الفـرنسيـين أن يـتخـلوا عن أفـضليـاتـهم الستراتيجية ذات الأهميـة الأولى، مما يهدد بالقضاء على تحقيق مخططهم الحربي، أو أن يضطروا إلى خوض المعركة على أرض مفتوحة كثيرة الأخاديد، حيث تنتظرهم صعوبات تموينية كبرى. في الحالين كانت المبادرة في يد الفييتمن، فقد فرضوا المعركة على الأرض التي اختاروا.

بدأ المسير نحو الجنوب في ٢٠ كانون الأول، بنجاحات عاجلة. فقد انطلق ١٥٠٠٠ جندي من فين (الفرقة ٣٢٥ ولواء مدرع) وبلغوا تاكي على الميكونغ، وشطروا لاوس إلى شطرين. وكان على نافار أن يركز قواته بحيث يمنعهم من التقدم نحو منطقة مصب النهر (مما يشكل خطراً كبيراً عـلى كوشنشـين وكامبـوديا)، ودعم المعسكـر الفرنسي، وأقلع الفييتمن منذ شباط ١٩٥٤ عن التقـدم. ولكنهم تمركـزوا، عـوضـاً عن ذلك، على الهضبة الأمامية، وأطلقوا في الوقت نفسه هجوماً جديداً على هضاب موي، فغدا شـديد الخطورة على الاتصال بوحـدات لين ــ كهوه. وهكذا إنهار حلم توحيد القوات الفرنسية.

وهكذا وجدت فرنسا نفسها مضطرة لمعركة على أرض لم تخترها، فأتاحت لجياب القدرة على إرهاق القوات الفرنسية.

إقامة مخيم ديان بيان فو المعزول

لاوس الشمالية منطقة هضاب وجبال وعرة جداً ومغطاة بالأحراج يتخللها الميكونغ وروافده. والدفـاع عنها بقـوات كـلاسيكيـة مستحيـل. ولم تكن القيادة العليا الفرنسية قادرة بوسائلها وقواتها وسبل تموينها أن تقوم بالدفاع. بقي حل واحد، وهو تعويق قـوات الخصم، بخلق قاعدة برية جوية. ولم تكن المناطق المؤهلة لإقامة مثل هذه القاعدة متوفرة. كانت المنطقة الوحيدة

المكنة هي ثغرة ديان بيان فو التي تعتبر باب لاوس.

منذ ١٩٥٢ كان الفرنسيون قد أخلوا المنطقة. وكان لا بد من إعادة احتلالها.

ووضعت خطة «كاستور» موضع التنفيذ. ففي ٢٠ تشرين الثاني أنزل فوق ديان بيان فو ثلاثة آلاف مظلي، نظفوا الثغرة خلال يومين، وطردوا اللواء الذي كان مقيماً فيها. ثم قدمت فرقة من ١٠٨٠٠ جندي فتمركزت هناك، وجهزت مطاراً ومدرجاً له بالسرعة الممكنة، وأقامت نقاط ارتكاز أساسية!

بدا المعسكر المعزول قوة هائلة لا تقهر، فقد قام في ثغرة طولها ١٧ كم وعرضها ٩كم، حيث يجري نهر نام يوم. أما المرتفعات المحيطة فيبلغ علوها ألف متر وترى بوضوح من القاعدة. لذا اعتقدت القيادة ألا قيمة لها، إذا شاءت مدفعية الخصم استخدامها، وأنها قادرة على تدميرها.

مواطن ضعف المعسكر

لم يكن الوضع سيئاً في حد ذاته. الخطأ الرئيسي الذي ارتكبته القيادة هو الاستهانة بالوسائل التي يمكن أن يعمد إليها الخصم ضد المعسكر. كان تقدير القيادة أن جياب لم يكن قادراً على زج أكثر من عشرين ألف مقاتل. بينما كان يمكن أن يزج أربع فرق مدفعية، والفرقة الثقيلة، و٧٥ ألفاً من المجندين يمكن استخدامهم لحفر الخنادق، وعدداً لا حصر له من المقاتلين الاحتياطيين. ومن جهة ثانية كان من المستحيل تدعيم المعسكر بالمؤن والذخائر أكثر من معدل مائتي طن يومياً، وهو معدل غير كاف.

ثمة خطأ تكتيكي آخر، وهو أن قائد المعسكر لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن محاصرة المخيم قد بدأت سراً منذ كانون الأول. وبدأ العدو ينصب كمائن خطرة منذ ١٥ كانون الأول، حول المعسكر. ولما شرع جياب يضغط بدأ القلق الفعلي في القيادة الفرنسية.

امتنع الجيش الفرنسي عن استخدام منافذ المعسكر، واعتقدت القيادة أن جياب لن يجرؤ على مهاجمة المعسكر ذاته خوفاً من القوة المتمركزة. حتى العسكريون الأميركيون اعتقدوا أن أي هجوم على المعسكر من شأنه أن يحطم



جياب

قوات الفييتمن. واستمر الجنود يحفرون الخنادق، ويمدون الأسلاك الشائكة، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين بما يفعلون.

غير أن المخابرات من أعداء الفييتمن، والطيران، ومعلومات الأميركيين أقلقت القيادة. إذ أكدت جميعها أن قوات العدو تجمعت وتركزت حول المعسكر. فثمة عشرات الآلاف من الجنود، ٢٤٠٠ مدفع هاون، سبعمائة كميون، وآلاف الحمالين (أي المشاة الذين ينقلون العتاد، أو الدراجين، أو النساء تحمل كل اثنتين حملاً معلقاً إلى عمود ممتد على كتفيهما).

«هجوم مفاجىء»

ظل جياب خلال شهرين يعد العدة لهجوم مفاجىء. واحتل القمم القريبة سراً، وفي الليل، وأنشأ فيها قاعدة ضخمة للمدفعية، ولكنه وزع المدافع على مساحة واسعة بحيث لا يؤثر أي قصف فيها، خاصة وأنها ركزت في خنادق تتصل في ما بينها بأنفاق، يمكن الاحتماء فيها، أو الانسحاب دون أن تتأثر بالنيران الفرنسية. لقد أنشأ جياب أربعمائة كيلومتر من الأنفاق حول المعسكر الفرنسي.



جيش «الحمالين» ينقل المؤن والذخائر

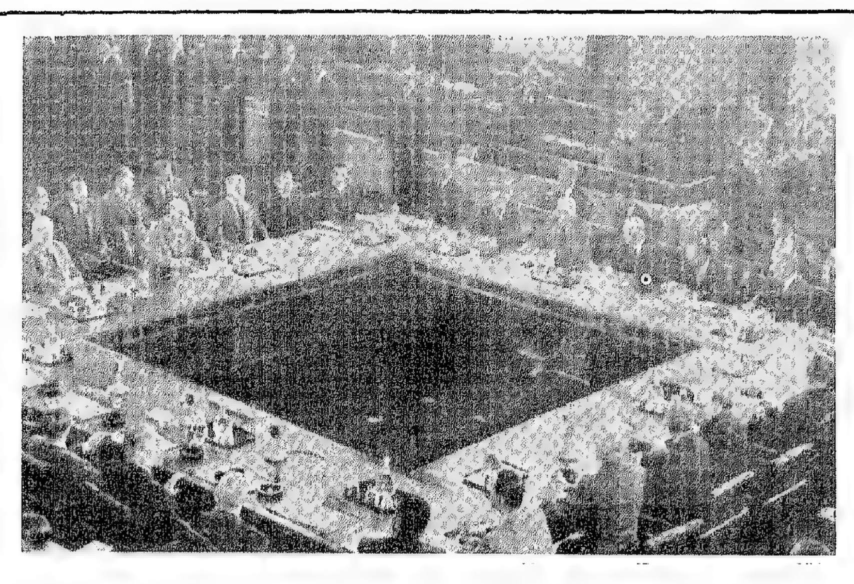
بدأ الهجوم في الثالث عشر من آذار، مساءً، وبكثافة وعنف نادرين. كانت النيران جحيماً يشبه جحيم فردان. فالمدافع المركزة تركيزاً فنياً، ومخفية بعناية، أمطرت المعسكر بسيل من القذائف. وكانت المفاجأة لدى الفرنسيين شاملة. وكان دوي المدافع قوياً، وكانت الإصابات في نقاط حيوية، فشلت القدرة على الدفاع. وما سكتت المدافع حتى ظهر فدائيون على بعد مائتي متر فقط، فألقوا قنابل لتدمير آخر الأسلاك الشائكة المتبقية. ثم تلت ذلك حمم المدافع مرة ثانية.

ورغم المقاومة الشرسة في الليل، والقتال فرداً لفرد، وبالسلاح الأبيض سقطت عدة نقاط رئيسية بينها نقطة ارتكاز «بياتريس». جرت محاولة مع طلوع النهار للرد بمساندة الطيران، ولكن المحاولة ألغيت لكثافة الضباب. وخلال ثلاثة أيام من ذلك سقطت مراكز الدفاع الشمالية واحداً بعد آخر. ولم تفد عمليات الإنزال المظلي.

وصلت قوات فييتمن أبواب المعسكر. وضربت مدافعها مدارج المطار رئة ديان بيان فو الحيوية، وحالت دون الاقلاع أو الهبوط منذ

الجنود الفرنسيون في الخنادق... ينتظرون





مؤتمر جنيف الذي تم فيه توقيع الهدنة في فييتنام

٢٦ آذار. وتحول المعسكر إلى مخبأ، وغدا الموقف حرجاً، والتموين مستحيلاً إلا بواسطة المظلات، وهي وسيلة غير مضمونة.

المقاتلون متروكون لمصيرهم

كانت المقاومة شديدة في ديان بيان فو. فأيقظت الروح الوطنية في فرنسا. وبات الشعب ينتظر كل ساعة آخر النشرات الاخبارية. ووقف الناس صفوفاً طويلة للتطوع. ولكن!

حاولت القيادة المستحيل لفك الحصار. اندفع عدد كبير من المظليين إلى الأحراج في عملية (كوندور)، بينما المقاتلون من أخصام الفييتمن يقومون بنشاط كبير على مؤخرة أخصامهم. ولكن النقص كان في وسائل التموين. فكيف يمكن بعدد قليل من الطائرات (طياروها استنفدت قواهم لكثرة المهمات اليومية التي قاموا بها) تأمين إرسال الجنود والمؤن، رغم النوايا الحسنة؟

حاولت القيادة الاستعانة بمساندة طيران الأسطول الأميركي في البحر الهادىء. وقد استخدم الأميرال ردفورد، بدءاً، من ٢٥ آذار، في عملية (فوتور) ستين طائرة ب ــ ٢٩ تحميها ١٥٠ مطاردة، فقصفت خطوط الفييتمن. وكان يمكن أن ينقلب الوضع رأساً على عقب، ولكن تردد الجنرال (إلي) ومعارضة الكونغرس الأميركي والفيتو البريطاني (نيسان) أجبرت الرئيس أيزنهاور على التخلي عن مشروع التدخل. وهكذا ترك الجنود في ديان بيان فو إلى مصيرهم حتى السابع من أيار.

احتضار ديان بيان فو

سقطت تقريباً كل نقاط الارتكاز حول المطار والمدرج. وظلت قوتان تحاولان الدفاع عن المدرج تبعد إحداهما عن الأخرى خمسة كيلومترات. واستمرت الهجمات والهجمات المضادة التي كانت تنتهي بالقتال بالسلاح الأبيض. وكانت الخسائر كبيرة. وسقطت المراكز الفرنسية واحداً بعد الآخر. وصار الفرنسيون يدافعون عن حياتهم، لا طمعاً في نصر. في السابع من أيار انتهت المقاومة، فلم تبق مؤن ولا ذخائر. وحوالي الساعة ١٧,٣٠ استسلم من ظلوا على قيد الحياة. وكان العدد ١١٧٢١ بينهم ٤٥٠٠ جريح، جعلوا في مخيمات بانتظار اتفاقيات جنيف، في ما بعد.

وقد فقد الفرنسيون خمسة أسداس معداتهم، مما لم يسمح لهم بمتابعة أي معركة بعد ديان بيان فو. لذلك كان عليهم أن يفكروا بمعارك خارج نطاق فييتنام.

■

المرجع: A la une
العدد ١٠٣ (١٩٨١)

العلاقة بين الفتوة والصوفية

لقد جرت العادة عند الباحثين الذين تناولوا موضوع الفتوة، الحديث عن نوع من أنواعها إسمه «الفتوة الصوفية» نشأ نتيجة استئثار الصوفية بخصال الفتوة وقيمها في حدودٍ زمانية ومكانية معينة ـ كما هو حال نشوء الأنواع الأخرى ـ وكأن الفتوة بعد أن دخلت ـ جزئياً أو كلياً ـ في الصوفية، أو اصطبغت بصبغة صوفية أمحت وتلاشت في الحركة الصوفية.

ولكن الفتوة ـ في فترة ظهور الحركة الصّوفية في المجتمع الإسلامي ـ لم تزل ـ من الناحية التنظيمية ـ كما كانت في عهد صدر الاسلام وقبله، ذات طابع شعبي تمثله خصال حميدة يتحلى بها الأفراد بصفة فردية، لذا فهي وإن تلاحقت مع الصوفية وتزامنت معها في القرن الثاني الهجري وما بعده، لم تتغير معالمها لتكون بملامح صوفية خالصة، لانها تمتلك قاعدة شعبية واسعة لم تخضع جميعها لدائرة سيادة الأفكار الصّوفية، بقدر ما أثرت الفتوة في الصوفية من خلال الدخول في صلب أفكارها ومن خلال احتلالها مقاماً متقدماً من مقاماتها.

لقد استعار التصوف مبادىء الفتوة وقيمها، وخصوصاً تلك التي تعكس الجانب الأخلاقي المحض لنظام الفتوة، فقد «أخذَ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهمَّ مميزاتها وهو الأيثار، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها، مثل كف الأذى وبذل الندى وترك الشكوى وإسقاط الجاه ومحاربة النفس والعفو عن زلّات الناس[1]»، كما أخذت الكرم والسخاء، حيث «ورد في الأصل الحادي والأربعين من رسالة الملامتية في قول أبي الحفص الحداد لعبد الله الحجّام: إن كنتَ فتى فيكون بيتَك يومَ موتِك موعظة للفتيان[2]» كما انتقى المفهوم الصوفي للفتوة ـ وخصوصاً عند الملامتية ـ معالمه من أبرز خصال الأنبياء والصالحين الذين يمثلون اعلاماً شامخةً في الفكر الديني والصوفي، فعرف بعض الملاتية الفتى بأنه «من كان فيه اعتذار آدم، وصلابة نوح، ووفاء إبراهيم وصدق إسماعيل، وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داؤد، وسخاء محمّد صلىّ الله عليه وسلم، ورأفة أبي بكر، وحمية عمر، وحياء عثمان، وعلم علي، ثم هو مع كل هذا، يزدري نفسه، ويحتقر ما هو فيه، ولا يقع بقلبه خاطر ما هو فيه أنه شيء، ولا أنه حال مرضي، يرى عيوب نفسه ونقصان أفعاله، وفضل إخوانه عليه في جميع الأحوال[3]».

ولم يكن دخول الفتوة في الأفكار الصوفية، وخصوصاً فيها وخصالها التي غذّاها الإسلام، أمراً جعلها تتلاشى في الدائرة الصوفية، لأن تأثير الفتوة الفكري هذا ناجم عن الأثر الأخلاقي والاجتماعي النابع من عمق واتساع الفتوة في المجتمع، ويمكن القول أن ما بلغته الفتوة من تأثير في الصوفية لم تبلغه في حركة

أخرى ـ فكرية أو اجتماعية ـ حتى كانت الفتوة النواة الأولى والحقيقية للتصوف، فالصوفي يجب أن يتحلى بخصال الفتوة قبل أن يكون صوفياً ومصداق ذلك قول أبي الفتح البستي[٤]:

تنازَعَ الناسُ في الصوفي واختلفوا
قدماً، وظنّوه مشتقاً من الصوفِ
ولستُ أنحلُ هذا الاسمَ غير فتى
صفا، فصوفي، حتى لقب الصوفي

وهكذا استطاعت الفتوة: هذه القاعدة الأخلاقية والاجتماعية التي غذاها الإسلام أن تؤثر في التصوف الإسلامي، وذلك بالتظافر مع حركة الزهد التي تنامت في أواخر القرن الهجري الأول بشكل ملحوظ نتيجة جملة إخفاقات عمّت الحياة بأوجهها السياسية والدينية خصوصاً في العراق، حيث كان التصوف الاسلامي قد نشأ في حركة الزهد[٥]».

ويبدو هذا التضافر بين نظام الفتوة ونزعة الزهد في التأثير في التصوف في «دائرة الحسن البصري الذي أطلق عليه أيوب بن أبي تميمة (سيّد الفتيان) وكان الحسن من أوائل الذين مهدوا للتصوف الإسلامي، وقد تتلمذ عليه مالك بن دينار وأبوحمزة الصوفي وغيرهم[٦]» من أعلام التصوف الأوائل، واضحاً وضوحاً جيداً.

وبالرغم من أثر الفتوة في التصوف ككل ـ بكل فرقه ومدارسه ـ إلّا أن هذا الأثر كان أكثر وضوحاً وأعمق دخولاً في فكر أهل الملامة الصوفي، حيث نجد في رسالة الملامتية (منشورة في كتاب الصوفية والملامتية وأهل الفتوة) ترابطاً وثيقاً بين الفتوة والتصوف من خلال إبراز العديد من معالم الفتوة وخصالها من أيثار وعفو وكرم وتضحية، داخل إطار صوفي خالص يتجلى ذلك في قول أبي الحفص الحداد فهو بعد أن يبرز معالم الفتوة يذكّر بالموت: الفناء الجسدي للإنسان، وبخلود الذكر بما خلف من موعظة معنويةٍ لرفاقه الفتيان.

وحيث ينصبّ التصّوف على جملة إسقاطات تعكس الاستجابة السلبية لتحديات الحياة في طريق مواجهتها بالهروب منها وعدم دخول معتَرَكها عن طريق التقشف والاعتزال والزهد في الدنيا ومكافحتها ومكابدة الجسد بالرياضة الروحية الشاقة وصولاً إلى غاية الفناء، وهذا واضح في أغلب مدارس التصوف، إستطاعت الفتوة إعطاء التصوف طابع الاستجابة الايجابية في مواجهة تحديات الحياة من خلال اعتماده أهم خصالها كالايثار والكرم والشجاعة وغيرها، ومن خلال تبني بعض فرق التصوف ومدارسه مفهوماً خاصاً للفتوة. ذكر أبوعبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية: «أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين الصوفي يقول: بلغني أن مشايخ بغداد اجتمعوا عند أبي حفص، فسألوه عن الفتوة ـ فقال: تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان، فقال الجنيد: الفتوة عندي إسقاط الرؤية، وترك النسبة، فقال أبو الحفص: ما أحسن ما قلت، ولكن الفتوة عندي أداء الانصاف وترك مطالبة الانصاف» يوضح عمر الدسوقي الاختلاف بين تعريفيهما وماذهب إليه كل منهما بقوله «فالجنيد يرى الفتوة إسقاط الرؤية، أي عدم النظر إلى الأعمال نظرة اعتبار وتقدير، وترك النسبة، أي إسقاط الروابط التي تربط الانسان بأي شيء أو موجود غير الله، وعلى ذلك فالفتوة عنده الزهد الكامل. أما أبو الحفص فيرى الفتوة في أداء ما يراه الصوفي إنصافاً وعدلاً، أي القيام بجميع الواجبات الشرعية والاجتماعية بدون أن يطالب القائم بها بإنصافٍ من جانب الشرع أو من جانب المجتمع، أي أن الفتوة عنده هي التضحية الكاملة». ومن هنا تتوضّح أيضاً روحياً عملية يمكن أن نُنْسِبَ إلى الفتوة منحَها للتصوف في بعض مدارسه، وبذلك حافظت الفتوة على معالمها كنظام أخلاقي ـ إجتماعي حتى عند دخوله في التصوف وبالرغم من إضفاء بعض مدارس التصوف الأخرى طابع التصوف النظري على الفتوة.

وقد خلق هذا الوضع تداخلاً في فهم الصلة بين الفتوة والتصوف، فإذْ يرى البعض ذوبان الفتوة في التصوف ومسخ معالمها الأساسية وطغيان النزعة الصوفية من رياضة النفس والمجاهدة والاعتزال وصولاً إلى الفنَاء، وبذلك ظهور نوع من أنواع الفتوة هو «الفتوة

الصوفية» بمعالم تعبوية وفكرية خاصة، ويرى البعض الآخر بالرغم من ظهور هذا النوع «بأن إقبال الفتيان على التصوف لايتفق وأخلاق الفتوة كما عرفها العرب والمسلمون من قبل، وذلك لأن الفتى العربي يغضب إذا كان ثمة مايدعو للغضب، يغضب لشرفه ويغضب لعقيدته، ويغضب إذا امتهن أو أهين، وهو لايحب الجبن ولايعرفه فكيف يتفق مع التصوف الذي يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والغضبية في الانسان؟...[٧]» كما هو رأى المستشرق (ثورنج) وأيده الدسوقي بتبريره الذي استند إلى التصوف بمعناه الفلسفي، ويرى البعض الآخر بوجود الصلة بينهما بالرغم من اختلاف طبيعتيهما، كما هو رأى الدكتور أبو العلا العفيفي في كتابه الصوفية والملاتية وأهل الفتوة وبذلك خالف سابقيه.

والحقيقة، على الرغم من أن لكل منهما طبيعة خاصة بادية عليها، كان بين فكر الصوفية والفتوة صلة تأثير وتلاقح متبادلة، فالفتوة دخلت في صلب فكر الصوفية وأثرت فيها منذ أوائل نشأة النزعة الصوفية حتى احتلت مكاناً متقدمة في القاموس الصوفي في كافة مدارس التصوف، فنراها عند متصوفة العراق كالحلاّج والجنيد، ونراها عند متصوفة نيسابور كأبي الحفص عمرو بن سالم، ونراها عند الملامتية .كحمدون القصّار، ونقرأها في كتابات اعلام الفكر الصوفي كأبي عربي والجرجاني وأبي عبد الرحمن السّلمي والقشيري وغيرهم.

وبالرغم من بعض الخصوصية التي أخذتها الفتوة عند كل من هؤلاء المتصوفة جميعاً من حيث المعنى بالذات، فقد كان للصوفية أثرٌ كبير ــ أيضاً ــ في الفتوة، يمكن تبيّنُه في ما أعطاه بعض المتصوفة لها من أبعاد جديدة ذات منحى صوفي خالص، فقد صارت الفتوة دعوة خاصة يلتزم بها كل فتى صوفي أي أن «الفتى الصوفي في نظر بعض المتصوفة من كانت له دعوى يرافع عنها، ويضحي بنفسه في سبيلها كالحلاّج[٨]»، الذي لم يتخذ منها دعوى فحسب، بل منزلة يتفرد لذاته، بانت بوضوح في شطحاتها المعروفة، كما صارت الفتوة عند الملامتية عامية أسمى وأوسع من التصوف حيث «فسّروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة»[٩] كما اعتبر غيرهم وبالذات «رجال التصوف من مدرسة نيسابور الفتوة مثلاً أعلى يهدفون إليه[١٠]».

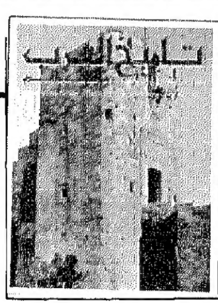
إننا يمكن أن نقصر هذا الأثر الذي نتلمسه في هذه الأبعاد التي أعطاها بعض المتصوفة للفتوة، يمكن أن نقصره في مجال زيادة ترسيخ الفتوة في المجتمع وبالذات في ظرف بدأ التصوف فيه يجد مكانة لدى أغلب شرائح المجتمع مما أدى إلى الاقتراب نحو الصيغة التنظيمية لنظام الفتوة العربية تأثراً بما لدى الصوفية من نظام الهيئات والمدارس المنظمة من مراتب الرؤساء والشيوخ والأقطاب والمبردين وغيرها، جرياً على سُنّة التطور، ويتجلى هذا التطور الذي أصاب نظام الفتوة العربية في شجرة سند الفتوة التي صيغت في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ضمن هذا انبثاق هذا النظام إنبثاقاً رسمياً، حيث ظلت معالم الفتوة في طورها الشعبي قبل ذلك شاخصة فيه، حيث أن أغلب الذين يعتبرون سند الفتوة كانوا زهاداً ومتصوفة، مما يؤكد الامتداد الطبيعي لنظام الفتوة في مساره التأريخي وطورَيهِ الشعبي والرسمي. أي أن الصّوفية دخلت في سند الفتوة خلال مسارها التأريخي نتيجة التفاعل بينهما واشتراكهما في السّند الأول (الأصل) الذي يعتبر أنه ممثل في الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجههُ، ضمن وحدة الفتوة ووحدة تأريخها.

إدهام محمد حنش
نينوى ـــ العراق

«الهوامش»

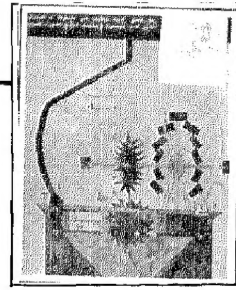
(١) الفتوة عند العرب: عمر الدسوقي، ص ٢٢٠.
(٢) الصوفية والملامتية وأهل الفتوة. أبو العلاء عفيفي.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الشعر الصوفي، حتى مدرسة بغداد وظهور الغزالي: عدنان حسين العوادي، ص ٣٤.
(٥) المصدر السابق نفسه: ص ٥٣.
(٦) الفتوة عند العرب: ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.
(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.
(٨) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٣.
(٩) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٤.
(١٠) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٥.

شلالات النيل الأزرق

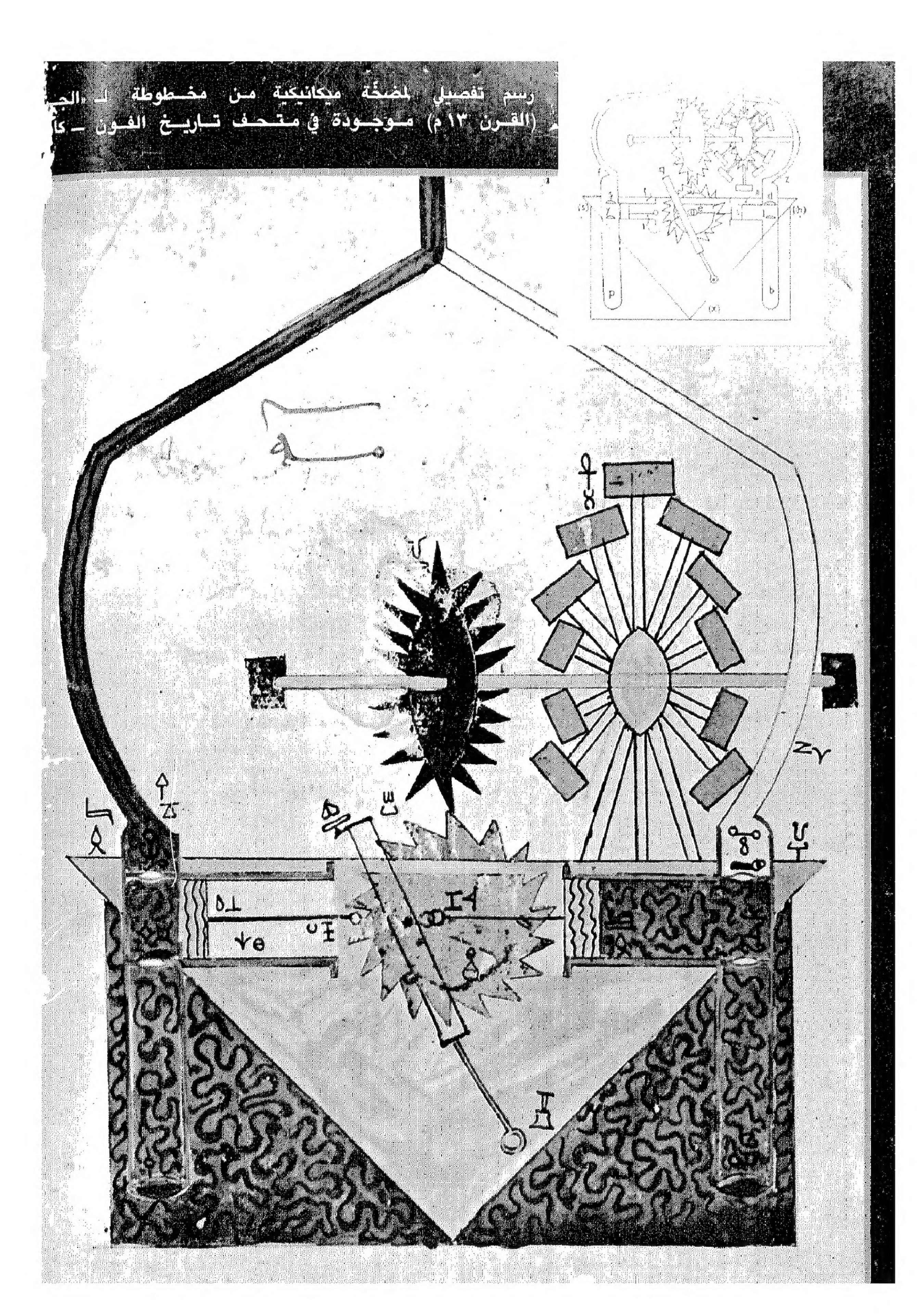


الغلاف الأول
مدينة حلب
(راجع المقالة ص٢)

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الأخير
الفيزياء عند العرب
(راجع المقالة ص١١)



رسم تفصيلي لمضخة ميكانيكية من مخطوطة لـ «الجـ
ـم (القرن ١٣م) موجودة في متحف تاريخ الفـون ـ كا